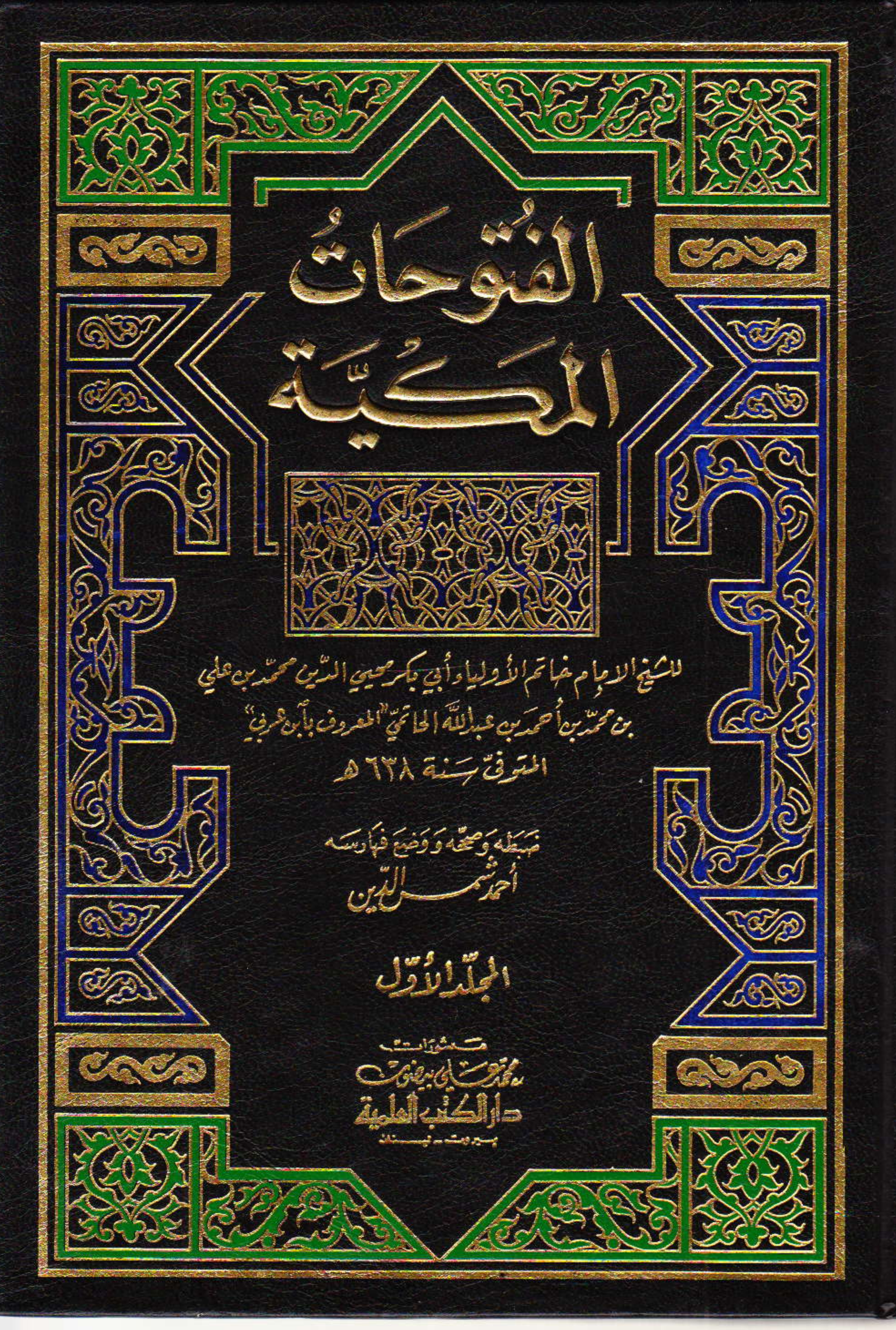

الفتوحات المكية
للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي "المعروف بابن عربي"
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ
ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين
المجلد الأول
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين
محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي
المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة ابن عربي(*)

نسبه

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من ولد عبد الله بن حاتم أخي عديّ بن حاتم من قبيلة طيّ مهد النبوغ والتفوق العقلي في جاهليّتها وإسلامها. يكنى أبا بكر ويلقب بمحيي الدين، ويعرف بالحاتمي وبابن عربي لدى أهل المشرق تفريقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي.

مولده ونشأته:

ولد في يوم الاثنين السابع عشر من رمضان عام خمسمائة وستين هجرية الموافق ٢٨ يولية سنة ألف ومائة وخمس وستين ميلادية في مدينة «مرسية» بالأندلس، وهي مدينة أنشأها المسلمون في عهد بني أمية. وكان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف. وكان جده أحد قضاة الأندلس وعلمائها، فنشأ نشأة تقيّة ورعة نقيّة من جميع الشوائب الشائبة. وهكذا درج محيي الدين في جو عامر بنور التقوى، فيه سباق حر مشرق نحو الشرفات العليا للإيمان، وفيه عزمات لرجال أقوياء ينشدون نصراً وفوزاً في محاريب الهدى والطاعة.

وانتقل والده إلى إشبيلية، وحاكمها إذ ذاك السلطان محمد بن سعد، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس، وفيها شب محيي الدين ودرج. وما كاد لسانه يبين حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد الفقهاء، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب «الكافي»، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزاً في القراءات ملهماً في المعاني والإشارات. ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفقه، يذكرهم لنا الإمام شمس الدين بن مسدي في روايته عن محيي الدين فيقول واصفاً متحدثاً عن أساتذته الأول: «كان جميل الجملة والتفصيل، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق، والتقدم الذي لا يسبق، سمع في بلاده في شبابه الباكر من ابن زرقون، والحافظ ابن الجد، وأبي الوليد الحضرمي، والشيخ أبي الحسن بن نصر». ثم لا يذكر لنا التاريخ بعد ذلك شيئاً ذا بال عن شباب محيي الدين، ولا عن شيوخه، ومقدار ما حصل من العلوم والفنون؛

(*) مقتبسة من بحث للدكتور محمد غلاب بعنوان «المعرفة عند محيي الدين بن عربي» ضمن «الكتاب التذكاري لمحيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده» الصادر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩م.

وإنما هو يحدثنا أنه مرض في شبابه مرضاً شديداً. وفي أثناء شدة الحمى رأى في المنام أنه محوط بعدد ضخم من قوى الشر، مسلحين يريدون الفتك به. وبغتة رأى شخصاً جميلاً قوياً مشرق الوجه، حمل على هذه الأرواح الشريرة ففرّقها شذر مذر، ولم يبق منها أي أثر، فيسأله محيي الدين من أنت؟ فقال له أنا سورة يس.

وعلى أثر هذا استيقظ فرأى والده جالساً إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس. ثم لم يلبث أن برىء من مرضه، وألقي في روعه أنه معدّ للحياة الروحية، وآمن بوجوب سيره فيها إلى نهايتها ففعل.

وفي طليعة هذا الشباب المزهر بفضل ثروة أسرته تزوج بفتاة تعتبر مثالاً في الكمال الروحي والجمال الظاهري وحسن الخلق، فساهمت معه في تصفية حياته الروحية، بل كانت أحد دوافعه إلى الإمعان فيها.

وفي هذه الأثناء كان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تعلم سراً مذهب الأمبيذوقلية المحدثة المفعمة بالرموز والتأويلات الموروثة عن الفيثاغورية والأورفيوسية والفطرية الهندية. وكانت هذه المدرسة هي الوحيدة التي تدرس لتلاميذها المبادىء الخفية والتعاليم الرمزية منذ عهد ابن مسرة المتوفى بقرطبة في سنة ٣١٩هـ ـ ٩٣١م والذي لم يعرف المستشرقون مؤلفاته إلاّ عن طريق محيي الدين. وكان أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن العريف المتوفى في سنة ١١٤١ م فلم يره محيي الدين، ولكنه تتلمذ على منتجاته وعلى رواية تلميذه المباشر وصديق محيي الدين الوفي أبي عبد الله الغزال.

ومما لا ريب فيه أن استعداده الفطري ونشأته في هذه البيئة التقية، واختلافه إلى تلك المدرسة الرمزية، كل ذلك قد تضافر على إبراز هذه الناحية الروحية عنده في سن مبكرة وعلى صورة ناصعة لا تتيسر للكثيرين ممن تشوب حياتهم الأولى شوائب الغرائز والنزوات. فلم يكد يختم الحلقة الثانية من عمره حتى كان قد انغمس في أنوار الكشف والإلهام، ولم يشارف العشرين حتى أعلن أنه جعل يسير في الطريق الروحاني بخطوات واسعة ثابتة، وأنه بدأ يطلع على أسرار الحياة الصوفية، وأن عدداً من الخفايا الكونية قد تكشف أمامه، وأن حياته منذ ذلك العهد المبكر لم تعد سوى سلسلة من البحث المتواصل عما يحقق الكمال لتلك الاستعدادات الفطرية التي تنير أضواؤها جوانب عقله وقلبه. ولم يزل عاكفاً على ذلك النشاط الروحاني حتى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار. ولم تكن آماله في التغلغل إلى تلك الأسرار وبحوثه عن وسائلها الضرورية تقف عند حد، لأنه أيقن منذ نعومة أظفاره بأنه مؤمن بمبادىء عقيدة حقيقية أزلية مرت بجميع الأزمان الكونية، وطافت بكل الأجناس البشرية متممة ما فيها من نقص وقصور، وأنها جمعت كل الروحانيات في الوحدة الفطرية التي تتمثل من حين إلى آخر في صور تنسكية رفيعة تبدو على مسرح الإنسانية ردحاً من الزمن ثم تختفي، ولا يدرك حقيقتها إلا القليلون.

وأكثر من ذلك أنه حين كان لا يزال في قرطبة قد تكشف له من أقطاب العصور البائدة

عدد من حكماء الهند وفارس والإغريق كفيثاغورس، وأمبيذوقليس، وأفلاطون ومن إليهم ممن ألقيت على كواهلهم مسؤولية القطبية الروحية في عصورهم المتعاقبة قبل ظهور الإسلام. وهذا هو السبب في أنه قد شغف بأن يطلع على جميع الدرجات التنسكية في كل الأديان والمذاهب عن طريق أرواح رجالها الحقيقيين بهيئة مباشرة، وبصورة مؤسسة على الشرف العلمي الذي يحمل الباحث النزيه على الاعتماد عليه دون أدنى تردد أو ارتياب.

غير أن هذه السكينة الروحانية التي بدأت لدى هذا الشاب مبكرة والتي كانت ثمارها فيما بعد تتمثل في تلك المعرفة التي أشرنا إليها آنفاً، لم تدم طويلاً على حالة واحدة، إذ أنه لم يلبث أن تبين أول الأمر بالإلهام، ثم عن طريق الكشف الجلي أنه لم يعد له بدّ ـ في تلك البيئة المغربية إذ ذاك ـ من أحد أمرين: إما أن يجاري التيار العام الذي كان يحدق به إحداق السوار بالمعصم، وهو أن يتقيد في جميع أفكاره وتعقلاته وأحاسيسه ومشاعره وحركاته وسكناته بحرفية الدين التي لا روح فيها ولا حياة ولا سرّ ولا رمز ولا تأويل، وبهذا تختفي شخصيته الحقيقية وتفشل رسالته الطبيعية، وهذا شيء لا يستطيعه بأي حال، وإما أن يسير على فطرته وحسب تكوين عقله وقلبه فيصطدم في كل خطوة من خطواته مع أهل الحل والعقد في البلاد. وقد حدث ذلك فعلاً حيث احتدمت بينه وبين بعض الأمراء الموحدين مجادلات عنيفة، وحيكت حوله دسائس قوية اتهمته بإحداث اضطراب في سياسة الدولة.

وإذ ذاك رأى في حالة اليقظة أنه أمام العرش الإلهي المحمول على أعمدة من لهب متفجر، ورأى طائراً جميلاً بديع الصنع يحلق حول العرش ويصدر إليه الأمر بأن يرتحل إلى الشرق وينبئه بأنه سيكون هو مرشده السماوي، وبأن رفيقاً من البشر يدعى فلاناً ينتظره في مدينة فاس، وأن هذا الأخير قد أمر هو أيضاً بهذه الرحلة إلى الشرق، ولكنه يجب ألا يرتحل قبل أن يجيء إليه رفيق من الأندلس، فيفعل ما أمر به ويرتحل بصحبة هذا الرفيق.

وفيما بين سنتي ٥٩٧، ٦٢٠ هـ ١٢٠٠، ١٢٢٣ م يبدأ رحلاته الطويلة المتعددة إلى بلاد الشرق فيتجه في سنة ١٢٠١م إلى مكة فيستقبله فيها شيخ إيراني وقور جليل عريق المحتد ممتاز في العقل والعلم والخلق والصلاح. وفي هذه الأسرة التقية يلتقي بفتاة تدعى «نظاما» وهي ابنة ذلك الشيخ، وقد حبتها السماء بنصيب موفور من المحاسن الجسميّة، والميزات الروحانية الفائقة، فاتخذ منها محيي الدين رمزاً ظاهرياً للحكمة الخالدة، وأنشأ في تصوير هذه الرموز قصائد سجلها في ديوان ألفه في ذلك الحين.

وفي هذه البيئة النقية المختارة له من قبل سطعت مواهبه العقلية والروحية، وتركزت حياته الصوفية، وجعلت تصعد في معارج القدس شيئاً فشيئاً حتى بلغت شأواً عظيماً. ومن ذلك أنه في إحدى طوفاته التأملية والبدنيّة بالكعبة يلتقي من جديد بمرشده السماوي الذي أمره سالفاً بالهجرة من الأندلس والمغرب إلى الأصقاع الشرقية، فيتلقى منه الأمر أيضاً بتأليف كتابه الجامع الخالد «الفتوحات المكية» الذي ضمنه أكثر وأهم آرائه الصوفية والعقلية ومبادئه

الروحية، والذي لا يتطاول إلى قمته في عصره أي كتاب آخر فيما نعلم من إنتاج هذا الصنف من المتنسكين.

وفي سنة ١٢٠٤ م يرتحل إلى الموصل حيث تجتذبه تعاليم الصوفي الكبير علي بن عبد الله بن جامع الذي تلقى لبس الخرقة عن الخضر مباشرة، ثم ألبس محيي الدين إياها بدوره.

وفي سنة ١٢٠٦ م نلتقي به في القاهرة مع فريق من الصوفية الذين يطبقون حياة تنسكية قوية محافظة. وهنا يظهر له رائد سماوي يأمره بإدخال شيء من الكمال على مذهبه، ولكنه لا يكاد يفعل حتى يتنمر له عدد من الفقهاء يحيكون حوله وحول أصحابه شباكاً من الدسائس تهدّد اطمئنانهم بل حياتهم، ولولا نفوذ أحد أصدقائه لوقع في ذلك الخطر، ولكنه لحسن حظه يستطيع أن ينجو بنفسه ويفر إلى مكة في سنة ١٢٠٧ م فيلتقي فيها بأصدقائه القدماء الأوفياء، ويقيم بينهم في هدوء وسكينة نحو ثلاثة أعوام، ثم يرتحل إلى قونية بتركيا حيث يتلقاه أميرها السلجوقي باحتفال بهيج.

وهناك يتزوج بوالدة صدر الدين القونيوي، وهو أحد تلاميذه المفضلين ثم لا يلبث أن يرتحل إلى أرمينيا، ومنها إلى شاطىء الفرات.

وفي سنة ١٢١١ م نلتقي به في بغداد حيث يتصل بالصوفي المعروف شهاب الدين عمر السهروردي.

وفي سنة ١٢١٤ م يعود إلى مكة ولا يكاد يستقر فيها حتى يجد أن عدداً من فقهائها المنافقين الدساسين قد جعلوا يشوهون سمعته ويرمونه بأن قصائده التي نشرها في ديوانه الرمزي منذ ثلاثة عشر عاماً كانت تصور غرامه المادي الواقعي بالفتاة «نظام» ابنة صديقه الشيخ الإيراني التي أشرنا آنفاً إلى أنه اتخذ منها رمزاً نقياً للحكمة الخالدة. وعندما تبيّن هذه التهمة الرخيصة وعرف مصادرها الحقيقية حمل عليها وعلى واضعيها حملة قوية كشفت زيفها للجميع بصورة جعلت القائمين بها يعترفون بأخطائهم ويعتذرون إليه عنها.

وبعد ذلك يرتحل إلى حلب فيقيم بها ردحاً من الزمن معززاً مكرماً من أميرها. وأخيراً يلقي عصا التسيار في دمشق في سنة ١٢٢٣ م حيث كان أميرها أحد تلاميذه المؤمنين بعلمه ونقائه ويظل بها يؤلف ويعلم، ويخرج التلاميذ والمريدين يحوطه الهدوء وتحف به السكينة حتى يتوفى بها في ٢٨ ربيع الثاني من سنة ٦٣٨ هـ الموافق ١٦ نوفمبر من سنة ١٢٤٠ م.

مؤلفاته وشيوخه(*)

قال الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه «جامع كرامات الأولياء» ضمن ترجمته للشيخ ابن عربي:

وقد اطلعت له على إجازة أجاز بها الملك المظفر ابن الملك العادل الأيوبي، ذكر فيها كثيراً من مشايخه ومؤلفاته، ولتمام الفائدة أذكرها هنا بحروفها فأقول: قال رضي الله عنه: بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين: أقول وأنا محمد بن عليّ بن العربي الطائي الأندلسي الحاتمي، وهذا لفظي: استخرت الله تعالى، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي، ابن الملك العادل المرحوم إن شاء الله تعالى أبي بكر بن أيوب وأولاده، ولمن أدرك حياتي الرواية عني في جميع ما رويته عن أشياخي، من قراءة وسماع ومناولة وكتاب وإجازة، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم، وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر بين أهل هذا الشأن، وتلفظت بالإجازة عند تعبيري هذا الخط، وذلك في غرة محرم سنة ٦٣٢ بمحروسة دمشق وكان قد سألني في استدعائه أن أذكر من أسماء شيوخي ما تيسر لي ذكره منهم، وبعض مسموعاتي، وما تيسر من أسماء مصنفاتي، فأجبت استدعاءه نفعه الله تعالى بالعلم، وجعلنا وإياه من أهله، إنه وليّ كريم.

فمن شيوخنا أبو بكر بن أخلف اللخمي، قرأت عليه القرآن الكريم بالقراءات السبع بكتاب الكافي لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني في مذاهب القراء السبعة المشهورين، وحدثني عن ابن المؤلف.

ومن شيوخنا في القراءة أبو الحسن شريح بن محمد بن محمد بن شريح الرعيني، عن أبيه المؤلف.

ومن شيوخنا في القرآن أيضاً أبو القاسم عبد الرحمن بن غالب الشراط، من أهل قرطبة، قرأت عليه أيضاً القرآن الكريم بالكتاب المذكور وحدثني أيضاً عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح عن أبيه المؤلف محمد بن شريح المقري.

ومن شيوخنا القاضي أبو محمد عبد الله البازلي قاضي مدينة فاس، حدثني بكتاب «التبصرة في مذاهب القراء السبعة» لأبي محمد مكي المقري عن أبي بحر سفيان ابن القاضي، عن المؤلف بجمع تآليف مكي أيضاً، وأجازني إجازة عامة.

(*) انظر جامع كرامات الأولياء (ج١ ص١٦٣ ـ ١٦٩).

ومن شيوخنا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي حمزة، سمعت عليه كتاب التيسير في مذاهب القراء السبعة لأبي عمرو عثمان بن أبي سعيد الداني المقري، حدثني به عن أبيه عن المؤلف وبجميع تآليف الداني وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن دربون، سمعت عليه كتاب البقعي لأبي عمر يوسف بن عبد البر النميري الشاطبي، وحدثني به عن أبي عمران موسى بن أبي بكر ابن المؤلف وبجميع تآليفه مثل الاستذكار، والتمهيد، والاستيعاب، والانتقاء، وأجاز لي إجازة عامة في الروايتين، أجاز لي أن أرويه عنه وجميع تآليفه.

ومن شيوخنا المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها تلقين المبتدي، والأحكام الصغرى والوسطى والكبرى، وكتاب العاقة ونظمه ونثره، وحدثني بكتاب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح، عنه.

ومن شيوخنا عبد الصمد بن محمد بن محمد بن أبي الفضل الحرستاني، سمعت عليه صحيح مسلم حدثني به عن الفراوي عن عبد الغفار الجلودي، عن إبراهيم المروزي عن مسلم، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا يونس بن يحيى أبي الحسن العباسي الهاشمي نزل مكة سمعت عليه كتباً كثيرة في الحديث والرقائق، منها كتاب صحيح البخاري.

ومن شيوخنا المكيين أبو شجاع زاهد بن رستم الأصفهاني إمام المقام بالحرم، سمعت عليه كتاب الترمذي لأبي عيسى، حدثني به عن الكرخي عن الخزاعي المحبوبي عن الترمذي، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا البرهان نصر بن أبي الفتوح بن عمر الحصري إمام مقام الحنابلة بالحرم الشريف، سمعت عليه كتباً كثيرة منها السنن لأبي داود السجستاني، حدثني بها، عن أبي جعفر بن عليّ بن السمناني، عن أبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب، عن أبي عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي البصري، عن أبي علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، عن أبي داود، وأجاز لي إجازة عامة. وحدثني بكتب ابن ثابت الخطيب عن أبي جعفر السمناني.

ومن شيوخنا سالم بن رزق الله الإفريقي، سمعت عليه كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري، حدثني به عنه وبجميع مصنفاته وتآليفه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا محمد أبو الوليد بن أحمد بن محمد بن سبيل، قرأت عليه كثيراً من تآليفه، وناولني كتاب «نهاية المجتهد وكفاية المقتصد» والأحكام الشريفة من تأليفه.

ومن شيوخنا أبو عبد الله بن العزي الفاخري، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو سعيد عبد الله بن عمر بن أحمد بن منصور الصفا، حدثني بكتب الواحدي كتابة عبد الجبار بن محمد بن أحمد الحواري عنه.

ومن شيوخنا أبو الوابل بن العربي، سمعت عليه سراج المهتدين للقاضي ابن العربي ابن عمه، حدثني به عنه، وأجازني إجازة عامة.

ومن شيوخنا أبو الثناء محمود بن المظفر اللبان، حدثني بكتب ابن خميس عنه.

ومنهم: محمد بن محمد بن محمد البكري، سمعت عليه رسالة القشيري، وحدثني بها عن أبي الأسعد عبد الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، عن جده عبد الكريم، المؤلف، وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بن علي بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد، أجازني إجازة عامة، وأخذ عني وأخذت عنه، وسمعت عليه بمدينة باب السلام بحضور ابنه عبد الرزاق.

ومنهم: أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني، حدثني بتآليف البيهقي وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم وأجازني إجازة عامة.

ومنهم: أبو طاهر السلفي الأصبهاني، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن عمرو بن شريح الرعيني المقري، أجازني وكتب إليّ أن أروي عنه كتب عبد الرحمن السلمي، وحدثني عن محمد نصار البيهقي عنه.

ومنهم: جابر بن أيوب الحضرمي، أجازني إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقري.

وممن أجازني إجازة عامة محمد بن إسماعيل بن محمد القزويني، والحافظ الكبير ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق.

ومنهم: أبو القاسم خلف بن بشكوال.

ومنهم: القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي.

ومنهم: يوسف بن الحسن بن أبي النقاب بن الحسين وأخوه أبو العباس أيضاً، وأجازنا أبو القاسم ذاكر بن كامل بن غالب.

ومنهم: محمد بن يوسف بن علي الغزنوي الخفّاف.

ومنهم: أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر بن حسن بن عمر بن أحمد القرشي المياستي.

ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحافظ، كتب إليّ بالرواية عنه بجميع تآليفه ونظمه ونثره وسمى لنا من كتبه «صفوة الصفوة» و«مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» وغير ذلك.

ومنهم: أبو بكر بن أبي الفتح الشيخاني.

ومنهم: المبارك بن علي بن الحسين الطباخ.

ومنهم: عبد الرحمن ابن الأستاذ، المعروف بابن علوان.

ومنهم: عبد الجليل الزنجاني.

ومنهم: أبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود بن شداد الموصلي.

ومنهم: أحمد بن أبي منصور.

ومنهم: محمد بن أبي المعالي عبد الله بن موهب بن جامع بن عبدون البغدادي الصوفي يعرف بابن الثناء.

ومنهم: محمد بن أبي بكر الطوسي.

ومنهم: المهذب بن علي بن هبة الله الطيب الضرير.

ومنهم: ركن الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب، وأخوه شمس الدين أبو عبد الله.

ومنهم: القرماني ببغداد.

ومنهم: ثابت بن قرة الحاوي، قرأت عليه من كتبه وتآليفه، ووقفها برواياتها بمسجد العمادين الجلادين بالموصل.

ومنهم: عبد العزيز بن الأخضر.

ومنهم: أبو عمر عثمان بن أبي يعلى بن أبي عمر الأبهري الشافعي من أولاد البراء بن عازب.

ومنهم: سعيد بن محمد بن أبي المعالي.

ومنهم: عبد الحميد بن محمد بن علي بن أبي المرشد القزويني.

ومنهم: أبو النجيب القزويني.

ومنهم: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم الفاسي، قرأت عليه جميع مصنفاته.

ومنهم: أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسين الرازي.

ومنهم: أحمد بن منصور الجوزي.

ومنهم: أبو محمد بن إسحاق بن يوسف بن علي.

ومنهم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحجري.

ومنهم: أبو الصبر أيوب بن أحمد المقري.

ومنهم: أبو بكر محمد بن عبيد السكسكي.

ومنهم: ابن مالك، حدثني بمقامات الحريري عن مصنفها.

ومنهم: عبد الودود بن سمحون قاضي النبك.

ومنهم: عبد المنعم بن القرشي الخزرجي.

ومنهم: علي بن عبد الواحد بن جامع.

ومنهم: أبو جعفر بن يحيى الورعي.

ومنهم: ابن هذيل.

ومنهم: أبو زيد السهيلي، حدثني بالروض الأنف في شرح السيرة والمعارف والأعلام وجميع تآليفه.

ومنهم: أبو عبيد الله بن الفخار المالقي المحدث.

ومنهم: أبو الحسن بن الصائغ الأنصاري.

ومنهم: عبد الجليل مؤلف المشكل في الحديث وشعب الإيمان.

ومنهم: أبو عبد الله بن المجاهد.

ومنهم: أبو عمران موسى بن عمران المزيلي.

ومنهم: الحاج محمد بن علي ابن أخت أبي الربيع المقومي.

ومنهم: عليّ بن النضر. ولولا خوف الملال وضيق الوقت لذكرنا جميع من سمعنا عليه ولقيناه.

وها أنا أذكر من تآليفي ما تيسّر فإنها كثيرة، وأصغرها جرماً كراسة واحدة، وأكبرها ما يزيد على مائة مجلد وما بينهما.

فمن ذلك كتاب المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث. اختصار مسلم. اختصار البخاري. اختصار الترمذي. اختصار المحلى. الاحتفال فيما كان عليه رسول الله ﷺ من سني الأحوال.

وأما الحقائق في طريق الله تعالى التي هي نتائج الأعمال، فمن ذلك وهو السابع كتاب من تصانيفنا «الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل» أفرغ في أربعة وستين مجلداً إلى قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وإذْ قال موسى لفتاه لا أبرح﴾ [الكهف: ٧٠]. الجذوة المقتبسة

والخطرة المختلسة. مفتاح السعادة في معرفة الدخول إلى طريق الإرادة. المثلثات الواردة في القرآن العظيم. الأجوبة عن المسائل المنصورة. متابعة القطب. مناهج الارتقا إلى افتضاض أبكار النقا بجنان اللقا، يحوي ثلاثة آلاف مقام في طريق الله تعالى على ثلاثمائة باب، كل باب عشرة مقامات. كنه ما لا بد للمريد منه. المحكم في المحكم وأذان رسول الله ﷺ. الخلاف في آداب الملإ الأعلى. كشف الغين: سرّ أسماء الله الحسنى. شفاء العليل في إيضاح السبيل. عقلة المستوفز جلاء القلوب. التحقيق في الكشف عن سرّ الصديق. الإعلام بإشارات أهل الأوهام والإفهام في شرحه. السراج الوهاج في شرح كلام الحلاج. المنتخب في مآثر العرب. نتائج الأفكار وحدائق الأزهار. الميزان في حقيقة الإنسان. المحجة البيضاء. كنز الأبرار فيما روي عن النبي ﷺ من الأدعية والأذكار. مكافأة الأنوار فيما روي عن النبي ﷺ عن الله تعالى من الأخبار. الأربعين المتقابلة الأحاديث الأربعين في الطول. العين. التدبيرات الإلهية في إصلاح المحاكمة الإنسانية تعشق النفس بالجسم. إنزال الغيوب على سائر القلوب. أسرار قلوب العارفين. مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية. الخلاء. المنهج السديد في شرح أنس المنقطعين. الموعظة الحسنة. البغية. الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به طريق الآخرة من إنسان وحيوان ونبات ومعدن. المبادي والغايات فيما في حروف المعجم من الآيات. مواقع النجوم. الإنزالات. الموجود. حلية الأبدال. أنوار الفجر. الفتوحات المكية عشرون مجلداً. تاج التراجم. الفحوص. الرصوص. الشواهد. القطب والإمامين. روح القدس. التنزلات الموصلية. إشارات القرآن في العالم والإنسان. القسم الإلهي. الأقسام الإلهية. الجمال والجلال. المقنع في إيضاح السهل المتتنع. شروط أهل الطريق. الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار. عنقاء مغرب. عقائد أهل علم الكلام. الإيجاد والكون. الرسائل. الإشارات في الأسرار. الإلهيات والكتابات. الحجة. إنشاء الجداول والدوائر. الأعلاق في مكارم الأخلاق. روضة العاشقين. الميم والواو والنون. المعارف الإلهية وهو الديوان. المبشرات. الرحلة. العوالي في أسانيد الأحاديث. الأحدية. الهوية الرحمية. الجامع وهو كتاب الجلالة العظيمة. المجد. الديمومية. الجود. القيومية. الإحسان. الفلك والسعادة. الحكمة. العزة. الأزل. النون. الإبداع. الخلق والأمر. القدم. الصادر والوارد. الملك. الوارد والواردات. القدس. الحياة. العلم. المشتبه. الفهوانية. الرقم. العين. المياه. ركن المدائن. المبادي. الزلفة. الرقيم. الدعاء. الإجابة. الرمز. الرتبة. البقاء. القدرة. الحكم والشرائع. الغيب. مفاتيح الغيب الخزائن العلمية. الرياح اللواقح. الريح العقيم. الكنز. التدبير والتفصيل. اللذة والألم. الحق. الحمد. المؤمن والمسلم والمحسن. القدر. الشأن. الوجود. التحويل. الوحي. الإنسان. التركيب. المعراج. الروايح والأنفاس. الملل. الأرواح. النحل. البرزج. الحسن. القسطاس. القلم. اللوح. التحفة والعرافة. المعرفة. الأعراف. زيادة كبد النون. الإسفار في نتائج الأسفار. الأحجار المتفجرة والمتشققة والهابطة. الجبال. الطبق. النمل. العرش.

مراتب الكشف. الأبيض. الكرسي. الفلك المشحون. الهباء. الجسم. الزمان. المكان. الحركة. العالم. الآباء العلويات والأمهات السفليات. النجم والشجر. سجود القلب. الرسالة والنبوة والمعرفة والولاية. الغايات التسعة عشر. الجنة. النار. الحضرة. المناظرة بين الإنسان الكامل. التفضيل بين الملك والبشر. المبشرات الكبرى. محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار. الأولين. العبادة. ما يعول عليه وهو كتاب النصائح. إيجاز اللسان في الترجمة عن القرآن. المعرفة. شرح الأسماء. الذخائر والأعلاق. الوسائل. النكاح المطلق. فصوص الحكم. نائج الأذكار. اختصار السيرة النبوية المحمدية. اللوامح. اللوائح. الاسم والرسم. الفصل والوصل. مراتب العلوم. الوهب. انتقاش النور. النحل. الوجد. الطالب والمجذوب. الأدب. الحال. الشريعة والحقيقة. التحكم والشطح. الحق. المخلوق. الإفراد وذوو الأعداد. الملامية. الخوف والرجاء. الفيض والبسط. الهبة والأنس. اللسانين. التواصي الليلية. الفناء والبقاء. الغيبة والحضور. الصحو والسكر. التجليات. القرب والبعد. المحو والإثبات. الخواطر. الشاهد والمشاهد. الكشف. الولد. التجريد والتفريد. العزة والاجتهاد. اللطائف والعوارف. الرياضة والتجلي. المحق والسحق. التودد والهجوم. التلوين والتمكين. اللمة والهمة. العزة والغيرة. الفتوح والمطالعات. الوقائع. الحرف المعني. التدني والتدلي. الرجعة. الستر والخلوة. النون. الختم والطبع. انتهت، ولعزتها ذكرتها هنا فإنها من أعظم كراماته رضي الله عنه، فلم أخرج بذكرها عن الصدد الذي ألف الكتاب لأجله، وقد رأيت كتاباً مستقلاً في ذكر مؤلفاته وفيه كثير منها لم يذكر هنا في هذه الإجازة، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ٦٣٨.

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية

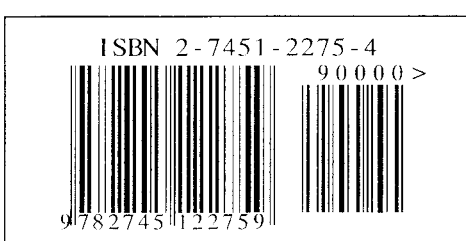
بيروت — لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon




ISBN 2-7451-2275-4
90000>
9782745122759

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(صلّى الله على سيدنا محمد)

الحمد لله الذي أوجد الأشياء عن عدم وعدمه، وأوقف وجودها على توجّه كلمه، لنحقق بذلك سرّ حدوثها وقدمها من قدمه، ونقف عند هذا التحقيق على ما أعلمنا به من صدق قدمه. فظهر سبحانه وظهر وأظهر وما بطن، ولكنه بطن وأبطن، وأثبت له الاسم الأول وجود عين العبد وقد كان ثبت، وأثبت له الاسم الآخر تقدير الفناء والفقد وقد كان قبل ذلك ثبت، فلولا العصر والمعاصر، والجاهل والخابر، ما عرف أحد معنى اسمه الأول والآخر، ولا الباطن والظاهر، وإن كانت أسماؤه الحسنى، على هذا الطريق الأسنى، ولكن بينها تباين في المنازل، يتبين ذلك عندما تتخذ وسائل لحلول النوازل، فليس عبد الحليم هو عبد الكريم، وليس عبد الغفور هو عبد الشكور، فكل عبد له اسم هو ربّه، وهو جسم ذلك الاسم قلبه، فهو العليم سبحانه الذي علم وعلم، والحاكم الذي حكم وحكم، والقاهر الذي قهر وأقهر، والقادر الذي قدر وكسب ولم يقدر، الباقي الذي لم تقم به صفة البقاء، والمقدس عند المشاهدة عن المواجهة والتلقاء، بل العبد في ذلك الموطن الأنزه لاحق بالتنزيه، لا أنه سبحانه وتعالىٰ في ذلك المقام الأنوه يلحقه التشبيه، فتزول من العبد في تلك الحضرة الجهات، وينعدم عند قيام النظرة به منه الالتفات، أحمده حمد من علم أنه سبحانه علا في صفاته وعلّى، وجلّ في ذاته وجلّى، وأن حجاب العزّة دون سبحاته مسدل، وباب الوقوف على معرفة ذاته مقفل، إن خاطب عبده فهو المسمع السميع، وإن فعل ما أمر بفعله فهو المطاع المطيع، ولما حيرتني هذه الحقيقة، أنشدت على حكم الطريقة للخليقة: [مخلع: البسيط]

الرَّبُّ حَقٌّ والعَبْدُ حَقٌّ ... يا لَيْتَ شِعْري مَنِ المُكَلَّفْ
إنْ قُلْتَ عَبْدٌ فذاكَ مَيْتٌ ... أَو قُلْتَ رَبٌّ أَنَّى يُكَلَّفْ

فهو سبحانه يطيع نفسه إذا شاء بخلقه، وينصف نفسه مما تعين عليه من واجب حقّه، فليس إلاّ أشباح خاليه، على عروشها خاويه، وفي ترجيع الصدى، سر ما أشرنا إليه لمن اهتدى، وأشكره شكر من تحقق أن بالتكليف ظهر الاسم المعبود، وبوجود حقيقة لا حول ولا قوة إلاّ بالله ظهرت حقيقة الجود، وإلاّ فإذا جعلت الجنة جزاء لما عملت، فأين الجود الإلهيّ الذي عقلت؟ فأنت عن العلم بأنك لذاتك موهوب، وعن العلم بأصل نفسك محجوب، فإذا كان ما تطلب به الجزاء ليس لك، فكيف ترى عملك؟ فاترك الأشياء وخالقها، والمرزوقات ورازقها، فهو سبحانه الواهب الذي لا يملّ، والملك الذي عزّ سلطانه

وجلّ، اللطيف بعباده الخبير، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] والصلاة على سرّ العالم ونكتته، ومطلب العالم وبغيته، السيد الصادق، المدلج إلى ربه الطارق، المخترق به السبع الطرائق، ليريه من أسرى به ما أودع من الآيات والحقائق، فيما أبدع من الخلائق، الذي شاهدته عند إنشائي هذه الخطبة في عالم حقائق المثال، في حضرة الجلال، مكاشفة قلبية، في حضرة غيبية، ولما شهدته ﷺ في ذلك العالم سيداً، معصوم المقاصد محفوظ المشاهد، منصوراً مؤيداً، وجميع الرسل بين يديه مصطفون، وأمته التي هي خير أمة عليه ملتفون، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافون، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافون، والصدّيق على يمينه الأنفس، والفاروق على يساره الأقدس، والختم بين يديه قد حثى، يخبره بحديث الأنثى، وعلي عليه السلام يترجم عن الختم بلسانه، وذو النورين مشتمل برداء حيائه مقبل على شانه، فالتفت السيد الأعلى، والمورد العذب الأحلى، والنور الأكشف الأجلى، فرآني وراء الختم، لاشتراك بيني وبينه في الحكم، فقال له السيد هذا عديلك، وابنك وخليلك، انصب له منبر الطرفاء بين يديّ، ثم أشار إليّ أن قم يا محمد عليه فأثن على من أرسلني وعليّ، فإن فيك شعرة مني، لا صبر لها عني، هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إليّ إلاّ بكليتك، ولا بدّ لها من الرجوع إلى اللقاء، فإنها ليست من عالم الشقاء، فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلاّ سعد، وكان ممّن شكر في الملأ الأعلى وحمد، فنصب الختم المنبر، في ذلك المشهد الأخطر، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر: هذا هو المقام المحمدي الأطهر، من رقى فيه فقد ورثه، وأرسله الحق حافظاً لحرمة الشريعة وبعثه، ووهبت في ذلك الوقت مواهب الحكم، حتى كأني أوتيت جوامع الكلم، فشكرت الله عزّ وجلّ وصعدت أعلاه، وحصلت في موضع وقوفه ﷺ ومستواه، وبسط لي على الدرجة التي أنا فيها كم قميص أبيض فوقفت عليه، حتى لا أباشر الموضع الذي باشره ﷺ بقدميه، تنزيهاً له وتشريفاً، وتنبيهاً لنا وتعريفاً، أن المقام الذي شاهده من ربه، لا يشاهده الورثة إلاّ من وراء ثوبه، ولولا ذلك لكشفنا ما كشف، وعرفنا ما عرف، ألا ترى من تقفو أثره، لتعلم خبره؟ لا تشاهد من طريق سلوكه ما شهد منه، ولا تعرف كيف تخبر بسلب الأوصاف عنه، فإنه شاهد مثلاً تراباً مستوياً لا صفة له فمشى عليه، وأنت على أثره لا تشاهد إلاّ أثر قدميه، وهنا سرّ خفيّ إن بحثت عليه، وصلت إليه، وهو من أجل أنه إمام، وقد حصل له الأمام، لا يشاهد أثراً ولا يعرفه، فقد كشفت ما لا يكشفه، وهذا المقام قد ظهر، في إنكار موسىٰ صلّى الله على سيدنا وعليه وعلى الخضر، فلما وقفت ذلك الموقف الأسنى، بين يدي من كان من ربه في ليلة إسرائه قاب قوسين أو أدنى، قمت مقنعاً خجلاً، ثم أيّدت بروح القدس فافتتحت مرتجلاً: [الكامل]

يـا مُـنْـزِلَ الآيـاتِ والأنْـبَـاءِ ... أنْـزِلْ عَـلـيَّ مَـعَـالِـمَ الأَسْـمَـاءِ
حتّـى أكـونَ لـحَـمْـدِ ذاتـك جـامـعـاً ... بـمَـحَـامِـد الـسَّـرّاء والـضَّـرَّاءِ

ثم أشرت إليه ﷺ: [الكامل]

ويكون هذا السَّيِّدُ العَلَمُ الذي جَرَّدْتَهُ من دَوْرَةِ الخُلَفَاءِ
وَجَعَلْتَهُ الأَصْلَ الكريمَ وآدم ما بين طِينَةِ خَلْقِهِ والمَاءِ
وَنَقَلْتَهُ حتَّى اسْتَدار زمانُهُ وَعَطَفْتَ آخِرَهُ على الإبْداءِ
وأَقَمْتَهُ عَبْداً ذليلاً خاضعاً دَهْراً يناجيكم بغَار حِرَاءِ
حتَّى أتاه مُبَشِّراً مِنْ عندكم جبْريلُ المَخْصُوصُ بالإنْبَاءِ
قال السلامُ عليك أنت مُحَمَّدٌ سِرُّ العِبَاد وخَاتَمُ النُّبَآءِ
يا سيدي حَقّاً أقول فقال لي صِدْقاً نطقتَ فأنتَ ظلُّ ردائي
فاحْمد وزِدْ في حَمْد ربِّك جاهداً فلقد وُهِبْتَ حقائق الأشياء
وانْثُرْ لنا من شأن ربِّك ما انْجَلَى لفؤادك المَحْفُوظِ في الظَّلْمَاءِ
من كلِّ حَقٍّ قائم بحَقِيقَةٍ يأتيكَ مملوكاً بغير شِرَاءِ

ثم شرعت في الكلام، بلسان العلام، فقلت وأشرت إليه، ﷺ، حمدت من أنزل عليك الكتاب المكنون، الذي لا يمسّه إلاّ المطهرون، المنزّل بحسن شيمك، وتنزيهك عن الآفات وتقديسك، فقال في سورة ﴿نٓ﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة القلم: الآيات ١ ـ ٥] ثم غمس قلم الإرادة في مداد العلم وخط بيمين القدرة في اللوح المحفوظ المصون، كل ما كان وما هو كائن وسيكون وما لا يكون، مما لو شاء وهو لا يشاء أن يكون، لكان كيف يكون من قدره المعلوم الموزون، وعلمه الكريم المخزون ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] ذلك الله الواحد الأحد، فتعالىٰ عما أشرك به المشركون، فكان أول اسم كتبه ذلك القلم الأسمى، دون غيره من الأسما، إني أريد أن أخلق من أجلك يا محمد العالم الذي هو ملكك فاخلق جوهرة الما، فخلقتها دون حجاب العزّة الأحمى، وأنا على ما كنت عليه ولا شيء معي في عما، فخلق الماء سبحانه بردة جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسمه الرحمن، ونصب الكرسي وتدلّت إليه القدمان، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياء، وتحلّلت أجزاؤها فسالت ماء، وكان عرشه على ذلك الماء، قبل وجود الأرض والسماء، وليس في الوجود إذ ذاك إلاّ حقائق المستوى عليه والمستوي والاستواء، فأرسل النفس فتموّج الماء من زعزعه وأزبد، وصوت بحمد الحمد المحمود الحق عندما ضرب بساحل العرش فاهتز الساق وقال له: أنا أحمد، فخجل الماء ورجع القهقرى يريد ثبجه، وترك زبده بالساحل الذي أنتجه، فهو مخضة ذلك الماء، الحاوي على أكثر الأشياء، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرض، مستديرة النشء مدحية الطول والعرض، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها ففتق فيه السموات العلى، وجعله محل الأنوار ومنازل الملأ الأعلى، وقابل بنجومها المزيّنة لها النيرات، ما زيّن به الأرض من أزهار النبات، وتفرّد تعالىٰ لآدم وولديه، بذاته جلت عن التشبيه ويديه، فأقام نشأة جسدية،

وسواها تسويتين تسوية انقضاء أمده، وقبول أبده، وجعل مسكن هذه النشأة نقطة كرة الوجود وأخفى عينها، ثم نبّه عباده عليها بقوله تعالىٰ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [سورة الرعد: الآية ٢]، فإذا انتقل الإنسان إلى برزخ الدار الحيوان، مارت قبة السماء وانشقت فكانت شعلة نار سيال كالدهان، فمن فهم حقائق الإضافات، عرف ما ذكرنا له من الإشارات، فيعلم قطعاً أنّ قبّة لا تقوم من غير عمد، كما لا يكون والد من غير أن يكون له ولد، فالعمد هو المعنى الماسك، فإن لم ترد أن يكون الإنسان فاجعله قدرة المالك، فتبين أنه لا بدّ من ماسك يمسكها، وهي مملكة فلا بدّ لها من مالك يملكها، ومن مسكت من أجله فهو ماسكها، ومن وجدت له بسببه فهو مالكها، ولما أبصرت حقائق السعداء والأشقياء عند قبض القدرة عليها بين العدم والوجود وهي حالة الإنشاء حسن النهايه، بعين الموافقة والهدايه، وسوء الغاية بعين المخالفة والغوايه، سارعت السعيدة إلى الوجود وظهر من الشقية التثبط والإبايه، ولهذا أخبر الحق عن حالة السعداء فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] يشير إلى تلك السرعه، وقال في الأشقياء: ﴿فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٦] يشير إلى تلك الرجعه، فلولا هبوب تلك النفحات على الأجساد ما ظهر في هذا العالم سالك غيّ ولا رشاد، ولتلك السرعة والتثبط أخبرتنا صلّى الله عليك، أن رحمة الله سبقت غضبه هكذا نسب الراوي إليك، ثم أنشأ سبحانه الحقائق على عدد أسماء حقّه، وأظهر ملائكة التسخير على عدد خلقه، فجعل لكل حقيقة اسماً من أسمائه تعبده وتعلمه، وجعل لكل سرّ حقيقة ملكاً يخدمه ويلزمه، فمن الحقائق من حجبته رؤية نفسه عن اسمه، فخرج عن تكليفه وحكمه، فكان له من الجاحدين، ومنهم من ثبت الله أقدامه واتخذ اسمه إمامه، وحقّق بينه وبينه العلامه، وجعله أمامه، فكان له من الساجدين. ثم استخرج من الأب الأوّل أنوار الأقطاب شموساً تسبح في أفلاك المقامات، واستخرج أنوار النجباء نجوماً تسبح في أفلاك الكرامات، وثبت الأوتاد الأربعة للأربعة الأركان، فانحفظ بهم الثقلان، فأزالوا ميد الأرض وحركتها، فسكنت فازينت بحلي أزهارها وحلل نباتها وأخرجت بركتها، فتنعمت أبصار الخلق بمنظرها البهي، ومشامّهم بريحها العطري وأحناكهم بمطعومها الشهي، ثم أرسل الأبدال السبعة إرسال حكيم عليم، ملوكاً على السبعة الأقاليم، لكل بدل إقليم، ووزر للقطب الإمامين، وجعلهما إمامين على الزمامين، فلما أنشأ العالم على غاية الإتقان، ولم يبق أبدع منه كما قال الإمام أبو حامد في الإمكان، وأبرز جسدك صلّى الله عليك للعيان، أخبر عنك الراوي أنك قلت يوماً في مجلسك: «**إِنَّ اللهَ كَانَ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ بَلْ هُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ**». وهكذا هي صلّى الله عليك حقائق الأكوان، فما زادت هذه الحقيقة على جميع الحقائق، إلاّ بكونها سابقة وهنّ لواحق، إذ من ليس مع شيء فليس معه شيء ولو خرجت الحقائق على غير ما كانت عليه في العلم، لانمازت عن الحقيقة المنزّهة بهذا الحكم، فالحقائق الآن في الحكم على ما كانت عليه في العلم، فلنقل كانت ولا شيء معها في وجودها، وهي الآن على ما كانت عليه في علم معبودها، فقد شمل هذا الخبر الذي أطلق على الحق، جميع الخلق،

ولا تعترض بتعدّد الأسباب والمسبّبات، فإنها ترد عليك بوجود الأسماء والصفات، وأن المعاني التي تدل عليها مختلفات، فلولا ما بين البداية والنهاية سبب رابط وكسب صحيح ضابط، ما عرف كل واحد منهما بالآخر، ولا قيل على حكم الأوّل يثبت الآخر، وليس إلاّ الرب والعبد وكفى، وفي هذا غنية لمن أراد معرفة نفسه في الوجود وشفا، ألا ترى أن الخاتمة عين السابقه، وهي كلمة واجبة صادقه. فما للإنسان يتجاهل ويعمى، ويمشي في دجنة ظلماء حيث لا ظل ولا ما، وأنّ أحق ما سمع من النبا، وأتى به هدهد الفهم من سبا، وجود الفلك المحيط، الموجود في العالم المركب والبسيط، المسمّى بالهباء، وأشبه شيء به الماء والهواء، وإن كانا من جملة صوره المفتوحة فيه. ولما كان هذا الفلك أصل الوجود وتجلّى له اسمه النور من حضرة الجود كان الظهور، وقبلت صورتك صلّى الله عليك من ذلك الفلك أول فيض ذلك النور، فظهرت صورة مثلية، مشاهدها عينية، ومشاربها غيبية، وجنتها عدنية، ومعارفها قلمية، وعلومها يمينية، وأسرارها مدادية، وأرواحها لوحية، وطينتها آدمية، فأنت أب لنا في الروحانية، كما كان وأشرت إلى آدم صلّى الله عليه في ذلك الجمع أباً لنا في الجسمية، والعناصر له أم ووالد، كما كانت حقيقة الهباء في الأصل مع الواحد، فلا يكون أمر إلاّ عن أمرين، ولا نتيجة إلاّ عن مقدّمتين، أليس وجودك عن الحق سبحانه وكونه قادراً موقوفاً، وأحكامك عليه من كونه عالماً موصوفاً، واختصاصك بأمر دون غيره مع جوازه عليك عليه من كونه مريداً معروفاً، فلا يصحّ وجود المعدوم عن وحيد العين، فإنه من أين يعقل الأين؟ فلا بدّ أن تكون ذات الشيء أيناً لأمر مّا، لا يعرفه من أصبح عن الكشف على الحقائق أعمى، وفي معرفة الصفة والموصوف، تتبين حقيقة الأين المعروف، وإلاّ فكيف تسأل صلّى الله عليك بأين وتقبل من المسؤول فاء الظرف، ثم تشهد له بالإيمان الصرف؟ وشهادتك حقيقة لا مجاز، ووجوب لا جواز، فلولا معرفتك صلّى الله عليك بحقيقة مّا، ما قبلت قولها مع كونها خرساء في السما، ثم بعد أن أوجد العوالم اللطيفة والكثيفه، ومهد المملكة وهيّأ المرتبة الشريفه، أنزل في أول دورة العذراء الخليفه، ولذلك جعل سبحانه مدتنا في الدنيا سبع آلاف سنه، وتحلّ بنا في آخرها حال فناء بين نوم وسنه، فننتقل إلى البرزخ الجامع للطرائق، وتغلب فيه الحقائق الطيارة على جميع الحقائق، فترجع الدولة للأرواح، وخليفتها في ذلك الوقت طائر له ستمائة جناح، وترى الأشباح، في حكم التبع للأرواح، فيتحول الإنسان في أي صورة شاء، لحقيقة صحّت له عند البعث من القبور في الإنشاء، وذلك موقوف على سوق الجنه، سوق اللطائف والمنه، فانظروا رحمكم الله وأشرت إلى آدم في الزمردة البيضاء، قد أودعها الرحمن في أوّل الآباء، وانظروا إلى النور المبين، وأشرت إلى الأب الثاني الذي سمّانا مسلمين، وانظروا إلى اللجين الأخلص، وأشرت إلى من أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله كما جاء به النص، وانظروا إلى جمال حمرة ياقوتة النفس، وأشرت إلى من بيع بثمن بخس، وانظروا إلى حمرة الإبريز، وأشرت إلى الخليفة العزيز، وانظروا إلى نور الياقوتة الصفراء في الظلام، وأشرت إلى من فضل بالكلام، فمن سعى إلى هذه الأنوار،

حتى وصل إلى ما يكشفه لك طريقها من الأسرار، فقد عرف المرتبة التي لها وجد، وصحّ له المقام الآليّ وله سجد، فهو الرب والمربوب، والمحب والمحبوب: [الكامل]

انْظُرْ إلى بَدْءِ الوجود وكُنْ به ... فَطِناً تَرَ الجُودَ القديمَ المُحْدِثَا
والشيء مثل الشيء إلاّ أنه ... أبْدَاهُ في عين العوالم مُحْدَثَا
إنْ أقْسَمَ الرائي بأنّ وجودَهُ ... أَزَلاً فبرٌّ صادقٌ لن يَحْنِثَا
أو أقْسَمَ الرائي بأنّ وجودَهُ ... عن فَقْدِهِ أخرى وكان مُثَلِّثَا

ثم أظهرت أسراراً، وقصصت أخباراً، لا يسع الوقت إيرادها، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها، فتركتها موقوفة على رأس مهيعها، خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها، ثم رددت من ذلك المشهد النوميّ العليّ إلى العالم السفلي، فجعلت ذلك الحمد المقدّس خطبة الكتاب، وأخذت في تتميم صدره، ثم أشرع بعد ذلك في الكلام على ترتيب الأبواب، والحمد لله الغنيّ الوهاب. هذه رسالة كتبت بها: أما بعد فإنه: [الكامل]

لما انْتَهَى للكَعْبَة الحَسْنَاءِ ... جسمي وحَصَّلَ رتبةَ الأُمَناءِ
وسَعَى وطافَ وثَمَّ عند مقامها ... صلَّى وأثْبَتَهُ من العُتَقَاءِ
من قال هذا الفعلُ فرضٌ واجبٌ ... ذاك المؤمَّلُ خاتمُ النُّبَآءِ
ورأى بها الملأَ الكَرِيمَ وآدماً ... قلبي فكان لهم من القُرَنَاءِ
ولآدَمَ وَلْداً تَقِيًّا طَائعاً ... ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ أكْرَمَ الكُرَمَاءِ
والكلُّ بالبيت المكرم طائفٌ ... وقَدِ اخْتَفَى في الحُلَّة السَّوْداءِ
يُزخي ذلاذلَ بُرْدِهِ ليريكَ في ... ذاك التَّبَخْتُرِ نَخْوَةَ الخُيَلاءِ
وأبي على الملأ الكريم مقدّمٌ ... يمشي بأضْعَفِ مشيةِ الزُّمَنَاءِ
والعبد بين يدي أبيه مطرقٌ ... فِعْلَ الأَرِيبِ وجِبْرَئِيلُ إزائي
يُبْدي المعالمَ والمناسكَ خِدْمَةً ... لأبي لِيُورِثَها إلى الأبناء
فعجبتُ منهم كيف قال جميعُهم ... بفساد والدنا وسَفْكِ دِمَاءِ
إذْ كان يَحْجُبُهُمْ بظُلْمة طِينِهِ ... عمّا حَوَتْهُ مِنْ سَنَا الأسماء
وبدا بنُورٍ ليس فيه غيرُه ... لكنهم فيه مِنَ الشُّهداء
إن كان والدُنا مَحَلاً جامعاً ... للأولياء معاً وللأعداء
ورأى المُوَيْهَةَ والنُّوَيْرَةَ جاءتا ... كَرْهاً بغير هَوًى وغير صفاء
فبنَفْسِ ما قامت به أضدادُهُ ... حكموا عليه بغِلْظَة وبَذَاءِ
وأتى يقول أنا المُسَبِّحُ والذي ... ما زال يحمدُكم صَبَاحَ مَسَاءِ
وأنا المقدّسُ ذاتُ نور جلالكم ... وأتَوْا في حَقِّ أبي بكلّ جَفَاء
لما رَأَوْا جهة الشمال ولم يَرَوْا ... مِنْهُ يَمِينَ القَبْضَةِ البَيْضَاء
ورأوا نفوسهمو عبيداً خُشَّعاً ... ورَأَوْهُ ربّاً طالبَ اسْتِيلاء

لحقيقة جُمِعَتْ له أسماءُ مَنْ ... خَصَّ الحَبيبَ بليلة الإسراء
وَرَأَوا مُنازِعَهُ اللَّعِينَ بجُنْدِهِ ... يَرْنُو إليه بمُقلة البَغْضاء
وبذات والدنا منافق ذاته ... حظّ العصاة وشهوتا حوّاء
علموا بأن الحَرْبَ حَتْماً واقعٌ ... منه بغير تَرَدُّدٍ وإباء
فلذاك ما نَطَقُوا بما نطقوا به ... فاعْذُرْهُمُ فَهُمْ مِنَ الصُّلحاء
فُطِرُوا على الخير الأَعَمِّ جِبِلَّةً ... لا يعرفون مواقع الشَّحْناء
ومتى رأيت أبي وهم في مجلس ... كان الإمامَ وهُمْ من الخُدَمَاء
وأعاد قولهم عليهم ربّنا ... عدلاً فأنزلَهُمْ إلى الأعداء
فحرابة الملأ الكريم عقوبة ... لمقالهم في أوّل الآباء
أَوَ ما ترى في يوم بَدْرٍ حَزْبَهُمْ ... ونبيّنا في نعمةٍ ورخاء
بعَرِيشِهِ مُتَمَلِّقاً مُتَضَرِّعاً ... لإلٰهِهِ في نُصْرَةِ الضُّعَفاءِ
لمَّا رأى هذي الحَقَائِقَ كُلَّها ... معصومة قلبي من الأهواء
نَادَى فأَسْمَعَ كُلَّ طالبِ حِكْمَةٍ ... يَطْوي لها بِشَمَلَّةٍ وَجْنَاءِ
طَيَّ الذي يَرْجُو لقاء مُرَاده ... فيَجُوبُ كُلَّ مَفَازة بَيْدَاءِ
يا راحلاً يَقِصُ المَهَامِهَ قاصداً ... نحوي ليَلْحَقَ رُتْبَةَ السَّمْرَاءِ
قُلْ للذي تلقاه من شُجَرائي ... عَنّي مقالةَ أنصَحِ النُّصَحَاء
واعْلَمْ بأنك خاسِرٌ في حيرةٍ ... لما جَهِلْتَ رسالتي ونِدَائي
إنّ الذي ما زلتُ أطلبُ شَخْصَهُ ... أَلْفَيْتُهُ بالرَّبْوَةِ الخضراء
البَلْدَةِ الزَّهْراءِ بَلْدَةِ تُونُس ... الخضرة المزدانة الغرّاء
بمَحَلِّه الأسْنَى المقدّس تُرْبُهُ ... بحلوله ذي القبلة الزَّوْرَاءِ
في عُصْبَةٍ مُخْتَصَّةٍ مختارة ... مِنْ صَفْوَةِ النُّجَبَاء والنُّقَبَاء
يمشي بهم في نُورِ عِلْمِ هِدَايَةٍ ... من هَدْيِهِ بالسُّنَّةِ البَيْضاء
والذِّكْرُ يُتْلَى والمعارفُ تَنْجَلي ... فيه من الإمْسَاء للإمساء
بَدْراً لأرْبَعَةٍ وعَشْرٍ لا يُرَى ... أبداً منوّر ليلة قَمْراء
وابن المرابط فيه واحد شَأنِهِ ... جَلَّتْ حقائقُه عَنِ الإفْشاء
وبَنُوهُ قد حَفُّوا بعَرْش مكانه ... فهو الإمام وهم من البُدَلاء
فكأنه وكأنهم في مجلس ... بَدْرٌ تَحُفُّ به نُجُومُ سماء
وإذا أتاك بحكمة عُلْوِيَّةٍ ... فكأنه يُنْبي عن العَنْقَاءِ
فلزمته حتى إذا حلّت به ... أنثى لها نجلٌ من الغُرَبَاءِ
حَبْرٌ من الأحبار عاشقُ نفسه ... سرُّ المَجَانَةِ سَيِّدُ الظُّرَفَاءِ
من عُصْبَةِ النُّظَّارِ والفقهاء ... لكنه فيهم من الفُضَلاء
وافى وعندي للتَّنَفُّلِ نِيَّةٌ ... في كلّ وقت من دُجَى وضَحَاءِ

فتركْتُه ورحلتُ عنه وعنده … مني تغيُّرُ غيرة الأدباء
وبدا يخاطبني بأنك خُنْتَني … في عِتْرَتي وصحابتي القُدَماءِ
وأخَذْتَ تائبَنا الذي قامت به … داري ولم تُخبِرْ به سُجَرائي
والله يعلمُ نِيَّتي وطَوِيَّتي … في أمر تائبه وصِدْقِ وفائي
فأنا على العهد القديم ملازمٌ … فودَادُهُ صافٍ من الأقذاء
ومتى وقعتَ على مفتِّش حكمةٍ … مستورةٍ في الغَضَّةِ الخَوْرَاء
متحيِّرٍ متشوّفٍ قلنا له … يا طالبَ الأسرار في الإسْراء
أسْرِعْ فقد ظَفِرَتْ يداكَ بجامعٍ … لحقائق الأموات والأحياء
نَظَرَ الوُجُودَ فكان تحت نعالهِ … من مُسْتَوَاهُ إلى قَرَار السَمَاء
ما فوقه من غايةٍ يَغْنُو لها … إلاّ هو فهو مُصَرِّفُ الأشياء
لَبِسَ الرِّداءَ تَنَزُّهاً وإزارَهُ … لما أراد تَكَوُّنَ الإنشاء
فإذا أراد تَمَتُّعاً بوجوده … من غير ما نَظَرٍ إلى الرُّقَبَاءِ
شال الرِّداءَ فلم يكن متكبِّراً … وإزارَ تعظيم على القُرَنَاء
فبدا وجودٌ لا تقيِّدُهُ لنا … صِفَةٌ ولا اسْمٌ من الأسماء
إن قيل مَنْ هذا ومَنْ تَعْني به … قلنا المُحَقِّقَ آمِرَ الأُمَرَاء
شَمْسَ الحقيقة قُطْبَها وإمامَهَا … سِرَّ العباد وعَالِمَ العُلَمَاء
عبدٌ تسوّد وجهه من همّه … نورُ البصائر خاتم الخلفاء
سَهْلُ الخلائق طيِّبٌ عَذْبُ الجَنَى … غَوْثُ الخلائق أرْحَمُ الرُّحَمَاء
جَلَّتْ صفاتُ جلالِهِ وجمالِهِ … وبهاءُ عزّته عن النُّظَرَاء
يُمْضي المشيئةَ في البنين مُقَسِّماً … بين العبيد الصُّمّ والأُجَرَاء
ما زال سَائِسَ أمّةٍ كانت به … محفوظةَ الأنْحاء والأرجاء
شَزْرِيٌّ إذا نازعته في ملكه … أزْرِيٌّ إذا ما جئته لحباء
صَلْبٌ ولكن لَيِّنٌ لعُفَاتِهِ … كالماء يجري من صفا صَمَّاءِ
يُغْني ويُفْقِرُ من يشاء فأمْرُهُ … مُحْيي الوُلاة ومُهْلِكُ الأعداء
لا أنْسَ إذْ قال الإمام مقالةً … عنها يُقَصِّرُ أخطبُ الخُطَبَاء
كنا بنا ورداءُ وَصْلي جامعٌ … لذواتنا فأنا بحيث ردائي
فانْظُرْ إلى السّرّ المكتم دُرَّةً … مَجْلُوَّةً في اللُّجَّة العَمْياء
حتى يَحَارَ الخلقُ في تكييفها … عيناً كحيرة عودة الإبداء
عجباً لها لم تُخْفِهَا أصدافُها … الشمسُ تَنْفي حِنْدِسَ الظَّلْمَاءِ
فإذا أتى بالسّرِّ عَبْدٌ هكذا … قيل اكتبوا عبدي من الأُمَنَاء
إن كان يُبْدي السرّ مستوراً فما … تدري به أرضي فكيف سمائي
لما أتيتُ ببعض وصف جلاله … إذ كان عيني واقفاً بحذائي

قالوا لقد ألحقته بإلهنا ... في الذات والأوصاف والأسماء
فبأيِّ مَعْنًى تعرفُ الحقَّ الذي ... سَوَّاكَ خلقاً في دُجى الأحْشاء
قلنا صدقتَ وهل عرفتَ محققاً ... من مُوجِدِ الكونِ الأعمِّ سوائي
فإذا مَدَحْتُ فإنما أُثني على ... نَفْسي فنفسي عَيْنُ ذات ثنائي
وإذا أردتُ تَعَرُّفاً بوجوده ... قَسَّمْتُ ما عندي على الغرماء
وعُدِمْتُ من عيني فكان وجودُه ... فظهوره وَقْفٌ على إخفائي
جَلَّ الإلهُ الحقُّ أن يبدو لنا ... فَرْداً وعيني ظاهرٌ وبقائي
لو كان ذاك لكان فَرْداً طالباً ... مُتَجَسِّساً متحسِّساً لثَنائي
هذا محالٌ فليصحَّ وجودُه ... في غيبتي عن عينه وفنائي
فمتى ظهرتُ إليكُمُ أخفيتُه ... إخْفاءَ عَيْنِ الشمسِ في الأنواء
فالناظرون يَرَوْنَ نَصْبَ عيونهم ... سُحُباً تصرِّفُها يَدُ الأهواء
والشمسُ خلف الغَيْمِ تُبْدي نُورَها ... للسُّحْبِ والأبصار في الظلماء
فيقول قد بَخُلَتْ عليَّ وإنها ... مشغولةٌ بتحلُّلِ الأجزاء
لتَجُودَ بالمطر الغزير على الثَّرَى ... من غير ما نَصَبٍ ولا إعْيَاءِ
وكذاك عند شُرُوقها في نورها ... تَمْحُو طوالع نَجْمِ كلِّ سماء
فإذا مضتْ بعد الغروب بساعة ... ظهرتْ لعينك أنْجُمُ الجوزاء
هذا لمَيِّتِهَا وذاك لحيِّهَا ... في ذاتها وتقول حُسْنَ رآء
فخفاؤه من أجلنا وظهورُه ... من أجله والرمزُ في الأفياء
كخفائنا من أجله وظهورنا ... من أجلنا فسَنَاهُ عينُ ضيائي
ثم الْتَقَتْ بالعكس رمزاً ثانياً ... جلَّتْ عوارفُه عن الإحصاء
فكأننا سيَّانِ في أعياننا ... كصَفَا الزجاجة في صَفَا الصَّهْباء
فالعلم يشهد مخلصين تألُّفاً ... والعين تعطي واحداً للرائي
فالروحُ ملتذٌّ بمبدع ذاتِه ... وبذاتِه من جانب الأكْفَاءِ
والحسُّ ملتذٌّ برؤية ربّهِ ... فَانٍ عن الإحساس بالنعماء
فالله أكبرُ والكبيرُ ردائي ... والنور بَذْري والضياءُ ذكائي
والشرق غربي والمغاربُ مشرقي ... والبُعْدُ قُرْبي والدُّنُوُّ تنائي
والنارُ غيبي والجنانُ شهادتي ... وحقائقُ الخلق الجديد إمائي
فإذا أردتُ تنزّهاً في روضتي ... أبصرتُ كلَّ الخلق فيّ مَرَائي
وإذا انصرفتُ أنا الإمام وليس لي ... أحدٌ أخَلِّفُهُ يكون ورائي
فالحمد لله الذي أنا جامعٌ ... لحقائق المنشيّ والإنشاء
هذا قريضي منبىءٌ بعجائبٍ ... ضاقت مسالكُها على الفُصَحَاء
فاشكر معي عبد العزيز إلهنا ... ولتشكرا أيضاً إلى العذراء

شَـرْعـاً فـإن الله قـال اشـكـر لـنـا ولـوالـديـك وأنْـتَ عَـيْـنُ قـضـائـي

وبعد حمد الله بحمد الحمد لا بسواه، والصلاة التامة على من أسرى به إلى مستواه، فاعلم أيها العاقل الأديب، الوليّ الحبيب، أن الحكيم إذا نأت به الدار عن قسيمه، وحالت صروف الدهر بينه وبين حميمه، لا بدّ أن يعرفه بكل ما اكتسبه في غيبته، وما حصله من الأمتعة الحكمية في غيبته، ليسر وليّه بما أسداه إليه البرّ الرحيم من لطائفه، ومنحه من عوارفه، وأودعه من حكمه، وأسمعه من كلمه، فكأنّ وليّه ما غاب عنه، بما عرف منه، وإن كان الوليّ أبقاه الله قد أصاب صفاء ودّه بعض كدر لعرض، وظهر منه انقباض عند الوداع لإتمام غرض، فقد غمض وليّه عن ذلك جفن الانتقاد، وجعله من الوليّ أبقاه الله من كريم الاعتقاد، إذ لا يهتم منك، إلاّ من يسأل عنك، فليهنأ الوليّ أبقاه الله فإن القلب سليم، والودّ كما يعلم بين الجوانح مقيم، وقد علم الوليّ أبقاه الله، أنّ الودّ فيه كان أليّاً، لا غرضياً ولا نفسياً، وثبت هذا عنده قديماً عني من غير علّة، ولا فاقة إليه ولاي، ونفور عن الجري على مقاصدي ومذاهبي، لما لاحظ فيها رضي الله عنه من النقص وعذرته في ذلك فإنه أعطاه ذلك مني ظاهر الحال وشاهد النص، فإني سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه في نفسي، بما أظهرته إليهم من سوء حالي وشره حسّي، وربما كنت ألوح لهم أحياناً على طريق التنبيه، فيأبى الله أن يلحظني واحد منهم بعين التنزيه، ولقد قرعت أسماعهم يوماً في بعض المجالس، والوليّ أبقاه الله في صدر ذلك المجلس جالس، بأبيات أنشدتها، وفي كتاب الإسراء لنا أودعتها، وهي: [الوافر]

أنـا الـقـرآنُ والـسَّـبْـعُ الـمـثـانـي ورُوحُ الـرُّوحِ لا رُوحُ الأَوانِـي
فـؤادي عـنـد مـعـلُـومـي مـقـيـمٌ يُـشَـاهِـدُهُ وعِـنْـدَكُـمُ لِـسَـانـي
فـلا تَـنْـظُـرْ بـطَـرْفِـكَ نـحـو جـسـمـي وعَـدِّ عـن الـتَّـنَـعُّـمِ بـالـمَـغَـانـي
وَغُـصْ فـي بـحـر ذاتِ الـذاتِ تُـبْـصِـرْ عـجـائـبَ مـا تـبـدَّت لـلـعَـيَـانِ
وأسـراراً تـراءتْ مُـبْـهَـمَـاتٍ مُـسَـتَّـرَةً بـأرواحِ الـمـعـانـي

فوالله ما أنشدت من هذه القطعة بيتاً، إلاّ وكأني أسمعه ميتاً، وسبب ذلك حكمة أبغي رضاها، وحاجة في نفس يعقوب قضاها، وما أحسّ بي من ذلك الجمع المكرم، إلاّ أبو عبد الله بن المرابط كليمهم المبرّز المقدّم، ولكن بعض إحساس، والغالب عليه في أمري الالتباس. وأما الشيخ المسنّ المرحوم جراح فكنت قد تكاشفت معه على نيه، في حضرة عليه، ولم أزل بعد مفارقتي حضرة الوليّ أبقاه الله له ذاكراً، ولأحواله شاكراً، وبمناقبه ناطقاً، ولآدابه عاشقاً، وربما سطرت من ذلك في الكتب ما سارت به الركبان، وشهر في بعض البلدان، وقد وقف الوليّ عليه، ورأى بعض ما لديه، فقد ثبت له الودّ مني قبل سبب يقتضيه، وغرض عاجل أو آجل يثبته في النفس ويمضيه، ثم كان الاجتماع بالوليّ تولاه الله بعد ذلك بأعوام في محلّه الأسنى، وكانت الإقامة معه تسعة أشهر دون أيام في العيش الأرغد الأهنى، عيش روح وشبح، وقد جاد كل واحد منا بذاته على صفيّه وسمح، ولي رفيق وله رفيق،

وكلاهما صديق وصديق، فرفيقه شيخ عاقل محصل ضابط، يعرف بأبي عبد الله بن المرابط، ذو نفس أبية، وأخلاق رضية، وأعمال زكية، وخلال مرضية، يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، ويذكر الله على أكثر أحيانه سرّاً وإعلاناً، بطل في ميدان المعاملات، فهم لما يرد به صاحب المنازل والمنازلات، منصف في حاله، مفرّق بين حقّه ومحاله. وأما رفيقي فضياء خالص ونور صرف، حبشي اسمه عبد الله بدر لا يلحقه خسف، يعرف الحق لأهله فيؤدّيه، ويوقفه عليهم ولا يعديه، قد نال درجة التمييز، وتخلص عند السبك كالذهب الإبريز، كلامه حق، ووعده صدق، فكنا الأربعة الأركان، التي قام عليها شخص العالم والإنسان، فافترقنا ونحن على هذه الحال، لانحراف قام ببعض هذه المحال، فإني كنت نويت الحج والعمرة، ثم أسرع إلى مجلسه الكريم الكره، فلما وصلت أم القرى، بعد زيارتي الخليل الذي سنّ القرى، وبعد صلاتي بالصخرة والأقصى، وزيارة سيدي سيد ولد آدم ديوان الإحاطة والإحصا، أقام الله في خاطري أن أعرف الوليّ أبَن جواهر العلم التي اقتنيتها في غربتي، فقيدت له هذه الرسالة اليتيمه، التي أوجدها الحق لأعراض الجهل تميمه، ولكل صاحب صفي، ومحقق صوفي، ولحبيبنا الوليّ وأخينا الذكي، وولدنا الرضي، عبد الله بدر الحبشي اليمني، معتق أبي الغنائم ابن أبي الفتوح الحراني، وسمّيتها رسالة الفتوحات المكيّه، في معرفة الأسرار المالكية والملكيه، إذ كان الأغلب فيما أودعت هذه الرسالة ما فتح الله به عليّ عند طوافي ببيته المكرم، أو قعودي مراقباً له بحرمه الشريف المعظم، وجعلتها أبواباً شريفه، وأودعتها المعاني اللطيفه، فإن الإنسان لا تسهل عليه شدائد البدايه، إلاّ إذا عرف شرف الغايه، ولا سيّما إن ذاق من ذلك عذوبة الجنى، ووقع منه بموقع المنى، فإذا حصر الباب البصر، تردّد عليه عين بصيرة الحكيم فنظر فاستخرج اللآليء والدرر، ويعطيه الباب عند ذلك ما فيه من حكم روحانيه، ونكت ربانيه، على قدر نفوذه وفهمه، وقوّة عزمه ووهمه، واتساع نفسه من أجل غطسه في أعماق بحار علمه: [الكامل]

لَمّا لزمتُ قَرْعَ بابِ اللّهِ ... كُنتُ المُراقِبَ لم أكُنْ باللاَّهي
حتى بدتْ للعين سُبْحَةُ وَجْهِهِ ... وإلى هَلُمَّ لم تكنْ إلاَّ هِي
فأحطتُ علْماً بالوجود فما لنا ... في قلبنا علْمٌ بغير الله
لو يَسْلُكِ الخلقُ الغريبُ مَحَجَّتي ... لم يسألوكَ عن الحقائق ما هي

فلنقدم قبل الشروع في الكلام على أبواب هذا الكتاب باباً في فهرست أبوابه، ثم أتلوه بمقدمة في تمهيد ما يتضمنه هذا الكتاب من العلوم الإلهية الأسرارية، وعلى أثرها يكون الكلام على الأبواب على حسب ترتيبها في باب الفهرست إن شاء الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الأول والحمد لله. يتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالىٰ، وصلّى الله على محمد وعلى آله الطاهرين.

(الجزء الثاني)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باب في فهرست أبواب الكتاب وليس معدوداً في الأبواب
وهو على فصول ستة

الفصل الأول في المعارف

(الباب الخامس والثلاثون): في معرفة هذا الشخص المحقق في منزل الأنفاس وأسراره بعد موته.

(الباب السادس والثلاثون): في معرفة العيسويين وأقطابهم وأصولهم.

(الباب السابع والثلاثون): في معرفة الأقطاب العيسويين وأسرارهم.

(الباب الثامن والثلاثون): في معرفة من اطلع على المقام المحمديّ ولم ينله من الأقطاب.

(الباب التاسع والثلاثون): في معرفة المنزل الذي ينحط إليه الوليّ إذا طرده الحق عافانا الله وإياك وما يتعلق بهذا المنزل من العجائب والعلوم الإلهية ومعرفة أسرار أقطاب هذا المنزل.

(الباب الأربعون): في معرفة منزل مجاور لعلم جزئي من علوم الكون وترتيبه وغرائبه وأقطابه.

(الباب الحادي والأربعون): في معرفة أهل الليل واختلاف طبقاتهم وتباينهم في مراتبهم وأسرار أقطابهم.

(الباب الثاني والأربعون): في معرفة الفتوة والفتيان ومنازلهم وطبقاتهم وأسرار أقطابهم.

(الباب الثالث والأربعون): في معرفة جماعة من أقطاب الورعين وعامة ذلك المقام.

(الباب الرابع والأربعون): في معرفة البهاليل وأئمتهم في البهللة.

(الباب الخامس والأربعون): في معرفة من عاد بعدما وصل ومن جعله يعود.

(الباب السادس والأربعون): في معرفة العلم القليل ومن حصله من الصالحين.

(الباب السابع والأربعون): في معرفة أسرار ووصف المنازل السفلية ومقاماتها وكيف يرتاح العارف عند ذكره بدايته فيحن إليها مع علو مقامه وما السر الذي يتجلّى له حتى يدعوه إلى ذلك.

(الباب الثامن والأربعون): في معرفة إنما كان كذا لكذا.

(الباب التاسع والأربعون): في معرفة إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن ومعرفة هذا المنزل ورجاله.

(الباب الخمسون): في معرفة رجال الحيرة والعجز.

(الباب الحادي والخمسون): في معرفة رجال من أهل الورع قد تحققوا بمنزل نفس الرحمن.

(الباب الثاني والخمسون): في معرفة السبب الذي يهرب منه المكاشف من حضرة الغيب إلى عالم الشهادة.

(الباب الثالث والخمسون): في معرفة ما يلقي المريد على نفسه من وظائف الأعمال قبل وجود الشيخ.

(**الباب الرابع والخمسون**): في معرفة الإشارات.
(**الباب الخامس والخمسون**): في معرفة الخواطر الشيطانية.
(**الباب السادس والخمسون**): في معرفة الاستقراء وصحته وسقمه.
(**الباب السابع والخمسون**): في معرفة تحصيل علم الإلهام بنوع ما من أنواع الاستدلال ومعرفة النفس.
(**الباب الثامن والخمسون**): في معرفة أسرار أهل الإلهام المستدلين ومعرفة علم إلهي فاض على القلب ففرّق خواطره وشتتها.
(**الباب التاسع والخمسون**): في معرفة الزمان الموجود والمقدّر.
(**الباب الستون**): في معرفة العناصر وسلطان العالم العلوي على العالم السفلي وفي أي دورة كان وجود هذا العالم الإنساني من دورات الفلك الأقصى وأي روحانية تنظرنا.
(**الباب الحادي والستون**): في معرفة جهنم وأعظم المخلوقات عذاباً فيها ومعرفة بعض العالم العلوي.
(**الباب الثاني والستون**): في معرفة مراتب النار.
(**الباب الثالث والستون**): في معرفة بقاء الناس في البرزخ بين الدنيا والبعث.
(**الباب الرابع والستون**): في معرفة القيامة ومنازلها وكيفية البعث.
(**الباب الخامس والستون**): في معرفة الجنة ومنازلها ودرجاتها وما يتعلق بهذا الباب.
(**الباب السادس والستون**): في معرفة سرّ الشريعة ظاهراً وباطناً وأي اسم أوجدها.
(**الباب السابع والستون**): في معرفة لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله.
(**الباب الثامن والستون**): في معرفة أسرار الطهارة.
(**الباب التاسع والستون**): في معرفة أسرار الصلاة.
(**الباب السبعون**): في معرفة أسرار الزكاة.
(**الباب الحادي والسبعون**): في معرفة أسرار الصيام.
(**الباب الثاني والسبعون**): في معرفة أسرار الحج ومعرفة مناسكه وآيات بيته المكرم وما أشهدني الحق عند طوافي بالبيت من أسرار الطواف.
(**الباب الثالث والسبعون**): في معرفة عدد ما يحصل من الأسرار للمشاهد عند المقابلة والانحراف وعلى كم ينحرف من المقابلة.

الفصل الثاني في المعاملات

(**الباب الرابع والسبعون**): في التوبة.
(**الباب الخامس والسبعون**): في ترك التوبة.
(**الباب السادس والسبعون**): في المجاهدة.
(**الباب السابع والسبعون**): في ترك المجاهدة.

الفصل الثالث في الأحوال

الفصل الرابع في المنازل

الفصل الخامس في المنازلات

(الباب الرابع والخمسون وأربعمائة): في معرفة منازلة لا يقوى معنا في حضرتنا غريب وإنما المعروف لأولي القربى.

(الباب الخامس والخمسون وأربعمائة): في معرفة منازلة من أقبلت عليه بظاهري لا يسعد أبداً ومن أقبلت عليه بباطني لا يشقى أبداً وبالعكس.

(الباب السادس والخمسون وأربعمائة): في معرفة منازلة من تحرّك عند سماع كلامي فقد سمع.

(الباب السابع والخمسون وأربعمائة): في معرفة منازلة التكليف المطلق.

(الباب الثامن والخمسون وأربعمائة): في معرفة منازلة إدراك السبحات.

(الباب التاسع والخمسون وأربعمائة): في معرفة منازلة وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار.

(الباب الستون وأربعمائة): في معرفة منازلة الإسلام والإيمان والإحسان وإحسان الإحسان.

(الباب الحادي والستون وأربعمائة): في معرفة منازلة من أسدلت عليه حجاب كنفي هو من ضنائني لا يعرفه أحد ولا يعرف أحداً.

الفصل السادس في المقامات

(الباب الثاني والستون وأربعمائة): في معرفة الأقطاب المحمديين ومنازلهم.

(الباب الثالث والستون وأربعمائة): في معرفة الاثني عشر قطباً وهم الذين يدور بهم فلك العالم.

(الباب الرابع والستون وأربعمائة): في معرفة حال قطب الأقطاب المحمدية الذي كان منزله لا إله إلاً الله.

(الباب الخامس والستون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله الله أكبر.

(الباب السادس والستون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله سبحان الله.

(الباب السابع والستون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله الحمد لله.

(الباب الثامن والستون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله الحمد لله على كل حال.

(الباب التاسع والستون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله أفوّض أمري إلى الله.

(الباب السبعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله وما خلقت الجن والإنس إلاً ليعبدون.

(الباب الحادي والسبعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.

إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خير وأبقى.

(الباب التاسع والثمانون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله إنما أموالكم وأولادكم فتنة.

(الباب التسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.

(الباب الحادي والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين.

(الباب الثاني والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول.

(الباب الثالث والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً.

(الباب الرابع والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله إنما يخشى الله من عباده العلماء.

(الباب الخامس والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر.

(الباب السادس والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله وما قدروا الله حق قدره وجاهدوا في الله حق جهاده.

(الباب السابع والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون.

(الباب الثامن والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله ومن يتق الله يجعل له مخرجاً.

(الباب التاسع والتسعون وأربعمائة): في معرفة حال قطب كان منزله ليس كمثله شيء.

(الباب الموفي خمسمائة): في معرفة حال قطب كان منزله ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم.

(الباب الحادي وخمسمائة): في معرفة حال قطب كان منزله أغير الله تدعون إن كنتم صادقين.

(الباب الثاني وخمسمائة): في معرفة حال قطب كان منزله لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون.

(الباب الثالث وخمسمائة): في معرفة حال قطب كان منزله وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء.

(الباب الرابع وخمسمائة): في معرفة حال قطب كان منزله قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون.

(الجزء الثالث)

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة الكتاب]

قلنا: وربما وقع عندي أن أجعل في هذا الكتاب أولاً فصلاً في العقائد المؤيّدة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ثم رأيت أن ذلك تشغيب على المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود، فإن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر، وفرغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً لا شيء له عند باب ربّه، حينئذ يمنحه الله تعالىٰ ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢].

وقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٨] قيل للجنيد: بم نلت ما نلت؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة. وقال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله، وبه جلت هبته وعظمت منته، من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان ليست له هذه الحالة فإنها وراء النظر العقلي إذ كانت العلوم على ثلاث مراتب.

علم العقل: وهو كل علم يحصل لك ضرورة أو عقيب نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وشبهه من جنسه في عالم الفكر الذي يجمع ويختص بهذا الفن من العلوم ولهذا يقولون في النظر منه صحيح ومنه فاسد.

والعلم الثاني: علم الأحوال ولا سبيل إليها إلاّ بالذوق، فلا يقدر عاقل على أن يحدها ولا يقيم على معرفتها دليلاً، كالعلم بحلاوة العسل ومرارة الصبر ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق وما شاكل هذا النوع من العلوم، فهذه علوم من المحال أن يعلمها أحد إلاّ بأن يتصف بها ويذوقها وشبهها من جنسها في أهل الذوق، كمن يغلب على محل طعمه المرة الصفراء فيجد العسل مراً وليس كذلك، فإن الذي باشر محل الطعم إنما هو المرة الصفراء.

والعلم الثالث: علوم الأسرار وهو العلم الذي فوق طور العقل وهو علم نفث روح القدس في الروع يختص به النبيّ والوليّ وهو نوعان: نوع منه يدرك بالعقل كالعلم الأول من هذه الأقسام لكن هذا العالم به لم يحصل له عن نظر ولكن مرتبة هذا العلم أعطت هذا. والنوع الآخر على ضربين: ضرب منه يلتحق بالعلم الثاني لكن حاله أشرف، والضرب الآخر

من علوم الأخبار وهي التي يدخلها الصدق والكذب إلاّ أن يكون المخبر به قد ثبت صدقه عند المخبر وعصمته فيما يخبر به ويقوله، كإخبار الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله كإخبارهم بالجنة وما فيها، فقوله «إن ثم جنة» من علم الخبر، وقوله في القيامة: «إن فيها حوضاً أحلى من العسل» من علم الأحوال وهو علم الذوق، وقوله: «كان الله ولا شيء معه»، ومثله من علوم العقل المدركة بالنظر، فهذا الصنف الثالث الذي هو علم الأسرار العالم به يعلم العلوم كلها ويستغرقها وليس صاحب تلك العلوم كذلك، فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط الحاوي على جميع المعلومات، وما بقي إلاّ أن يكون المخبر به صادقاً عند السامعين له معصوماً هذا شرطه عند العامة. وأما العاقل اللبيب الناصح نفسه فلا يرمي به ولكن يقول هذا جائز عندي أن يكون صدقاً أو كذباً، وكذلك ينبغي لكل عاقل إذا أتاه بهذه العلوم غير المعصوم وإن كان صادقاً في نفس الأمر فيما أخبر به، ولكن كما لا يلزم هذا السامع له صدقه لا يلزمه تكذيبه ولكن يتوقف، وإن صدقه لم يضره لأنه أتى في خبره بما لا تحيله العقول بل بما تجوزه أو تقف عنده، ولا يهد ركناً من أركان الشريعة، ولا يبطل أصلاً من أصولها، فإذا أتى بأمر جوزه العقل وسكت عنه الشارع، فلا ينبغي لنا أن نرده أصلاً ونحن مخيرون في قبوله، فإن كانت حالة المخبر به تقتضي العدالة لم يضرنا قبوله كما نقبل شهادته ونحكم بها في الأموال والأرواح، وإن كان غير عدل في علمنا فننظر فإن كان الذي أخبر به حقاً بوجه ما عندنا من الوجوه المصححة قبلناه، وإلاّ تركناه في باب الجائزات ولم نتكلم في قائله بشيء فإنها شهادة مكتوبة نسأل عنها قال تعالىٰ: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ١٩] وأنا أولى من نصح نفسه في ذلك، ولو لم يأت هذا المخبر إلاّ بما جاء به المعصوم فهو حاك لنا ما عندنا من رواية عنه فلا فائدة زادها عندنا بخبره، وإنما يأتون رضي الله عنهم بأسرار وحكم من أسرار الشريعة مما هي خارجة عن قوة الفكر والكسب، ولا تنال أبداً إلاّ بالمشاهدة والإلهام وما شاكل هذه الطرق، ومن هنا تكون الفائدة بقوله عليه السلام: «**إنْ يَكُنْ في أُمَّتي مُحدَّثُون فَمِنْهُمْ عُمَرُ**» وقوله في أبي بكر في فضله بالسر غيره.

ولو لم يقع الإنكار لهذه العلوم في الوجود لم يفد قول أبي هريرة: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم. حدثني به الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبيد الله الحجري بسبتة في رمضان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بداره، وحدثني به أيضاً أبو الوليد أحمد بن محمد بن العربي بداره بإشبيلية سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في آخرين كلهم قالوا حدثنا إلاّ أبا الوليد بن العربي فإنه قال: سمعت أبا الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني قال: حدثني أبي أبو عبد الله وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن منظور القيسي سماعاً مني عليهما عن أبي ذر سماعاً منهما عليه عن أبي محمد هو عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي الحموي وأبي إسحاق المستملي وأبي الهيثم هو محمد بن مكي بن محمد الكشميهني قالوا: أنبأنا أبو عبد الله هو محمد بن يوسف بن مطر الفربري قال: أنبأنا أبو عبد الله البخاري، وحدثني به أيضاً أبو محمد

يونس بن يحيىٰ بن أبي الحسين بن أبي البركات الهاشمي العباسي بالحرم الشريف المكي تجاه الركن اليماني من الكعبة المعظمة في شهر جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة، عن أبي الوقت عبد الأوّل بن عيسىٰ السجزي الهروي، عن أبي الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي، عن أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، عن أبي عبد الله الفربري عن البخاري. وقال البخاري في صحيحه: حدثني إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة وذكر الحديث، وشرح البلعوم لأبي عبد الله البخاري من رواية أبي ذر خرّجه في كتاب العلم، وذكروا أن البلعوم مجرى الطعام، ولم يفد قول ابن عباس حين قال في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية لقلتم إني كافر، حدثني بهذا الحديث أبو عبد الله محمد بن عيشون عن أبي بكر القاضي محمد بن عبد الله بن العربي المعافري عن أبي حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، ولم يكن لقول الرضي من حفدة علي بن أبي طالب ﷺ معنى إذ قال: [البسيط]

يا رُبَّ جَوْهَر علم لو أبوحُ به ... لقيلَ لي أنت ممن يعبُدُ الوثَنَا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلِمُونَ دمي ... يرَوْنَ أقبحَ ما يأتُونه حَسَنَا

فهؤلاء كلهم سادات أبرار فيما أحسب واشتهر عنهم قد عرفوا هذا العلم ورتبته ومنزلة أكثر العالم منه وأن الأكثر منكرون له، وينبغي للعاقل العارف أن لا يأخذ عليهم في إنكارهم فإنه في قصة موسىٰ مع خضر مندوحة لهم وحجة للطائفتين، وإن كان إنكار موسىٰ عن نسيان لشرطه ولتعديل الله إياه، وبهذه القصة عينها نحتجّ على المنكرين لكنه لا سبيل إلى خصامهم ولكن نقول كما قال العبد الصالح ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٨].

وصل: ولا يحجبنك أيها الناظر في هذا الصنف من العلم الذي هو العلم النبوي الموروث منهم صلوات الله عليهم إذا وقفت على مسألة من مسائلهم قد ذكرها فيلسوف أو متكلم أو صاحب نظر في أي علم كان، فتقول في هذا القائل الذي هو الصوفي المحقق إنه فيلسوف لكون الفيلسوف قد ذكر تلك المسألة وقال بها واعتقدها وأنه نقلها منهم أو أنه لا دين له، فإنّ الفيلسوف قد قال بها ولا دين له، فلا تفعل يا أخي. فهذا القول قول من لا تحصيل له، إذ الفيلسوف ليس كل علمه باطلاً، فعسى تكون تلك المسألة فيما عنده من الحق ولا سيما إن وجدنا الرسول عليه السلام قد قال بها، ولا سيما فيما وضعوه من الحكم والتبري من الشهوات ومكايد النفوس وما تنطوي عليه من سوء الضمائر، فإن كنا لا نعرف الحقائق ينبغي لنا أن نثبت قول الفيلسوف في هذه المسألة المعينة وأنها حق، فإن الرسول ﷺ قد قال بها أو الصاحب أو مالكاً أو الشافعي أو سفيان الثوري، وأما قولك إن قلت سمعها من فيلسوف أو طالعها في كتبهم فإنك ربما تقع في الكذب والجهل، أما الكذب فقولك سمعها أو طالعها وأنت لم تشاهد ذلك منه، وأما الجهل فكونك لا تفرق بين الحق في تلك المسألة والباطل.

وأما قولك إنّ الفيلسوف لا دين له فلا يدل كونه لا دين له على أن كل ما عنده باطل

وهذا مدرك بأول العقل عند كل عاقل، فقد خرجت باعتراضك على الصوفيّ في مثل هذه المسألة عن العلم والصدق والدين، وانخرطت في سلك أهل الجهل والكذب والبهتان ونقص العقل والدين وفساد النظر والانحراف، أرأيت لو أتاك بها رؤيا رآها هل كنت إلاّ عابرها وتطلب على معانيها، فكذلك خذ ما أتاك به هذا الصوفي واهتد على نفسك قليلاً وفرغ لما أتاك به محلك حتى يبرز لك معناها أحسن من أن تقول يوم القيامة ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٧] فكل علم إذا بسطته العبارة حسن وفهم معناه أو قارب وعذب عند السامع الفهم فهو علم العقل النظري لأنه تحت إدراكه، وممّا يستقل به لو نظر إلاّ علم الأسرار فإنه إذا أخذته العبارة سمج واعتاص على الأفهام دركه وخشن، وربما مجّته العقول الضعيفة المتعصبة التي لم تتوفر لتصريف حقيقتها التي جعل الله فيها من النظر والبحث، ولهذا صاحب العلم كثيراً ما يوصله إلى الأفهام بضرب الأمثلة والمخاطبات الشعرية. وأما علوم الأحوال فمتوسطة بين علم الأسرار وعلم العقول. وأكثر ما يؤمن بعلم الأحوال أهل التجارب وهو إلى علم الأسرار أقرب منه إلى العلم النظري العقلي، لكن يقرّب من صنف العلم العقلي الضروري بل هو هو، لكن لما كانت العقول لا تتوصل إليه إلاّ بإخبار من علمه أو شاهده من نبي أو ولي لذلك تميز عن الضروري لكن هو ضروري عند من شاهده، ثم لتعلم أنه إذا حسن عندك وقبلته وآمنت به فأبشر إنك على كشف منه ضرورة وأنت لا تدري لا سبيل إلاّ هذا، إذ لا يثلج الصدر إلاّ بما يقطع بصحته وليس للعقل هنا مدخل لأنه ليس من دركه إلاّ إن أتى بذلك معصوم حينئذ يثلج صدر العاقل، وأما غير المعصوم فلا يلتذ بكلامه إلاّ صاحب ذوق.

فإن قلت: فلخص لي هذه الطريقة التي تدعي أنها الطريقة الشريفة الموصلة السالك عليها إلى الله تعالىٰ وما تنطوي عليه من الحقائق والمقامات بأقرب عبارة وأوجز لفظ وأبلغه حتى أعمل عليه وأصل إلى ما ادعيت أنك توصلت إليه، وبالله أقسم أني لا آخذه منك على وجه التجربة والاختبار وإنما آخذه منك على الصدق، فإني قد حسنت الظن بك إحسان قطع، إذ قد نبهتني على حظ ما أتيت به من العقل، وإن ذلك ممّا يقطع العقل بجوازه وإمكانه أو يقف عنده من غير حكم معين، فشكر الله لك ذلك، وبلغك آمالك، ونفعك ونفع بك فاعلم أن الطريق إلى الله تعالىٰ الذي سلكت عليه الخاصة من المؤمنين الطالبين نجاتهم دون العامة الذين شغلوا أنفسهم بغير ما خلقت له أنه على أربع شعب: بواعث ودواع وأخلاق وحقائق، والذي دعاهم إلى هذه الدواعي والبواعث والأخلاق والحقائق ثلاثة حقوق تفرضت عليهم: حق لله، وحق لأنفسهم، وحق للخلق، فالحق الذي لله تعالىٰ عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. والحق الذي للخلق عليهم كف الأذى كله عنهم ما لم يأمر به شرع من إقامة حد وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والإيثار ما لم ينه عنه شرع فإنه لا سبيل إلى موافقة الغرض إلاّ بلسان الشرع. والحق الذي لأنفسهم عليهم أن لا يسلكوا بها من الطرق إلاّ الطريق التي فيها سعادتها ونجاتها، وإن أبت فلجهل قام بها أو سوء طبع، فإن النفس الأبية إنما

يحملها على إتيان الأخلاق الفاضلة دين أو مروءة، فالجهل يضاد الدين فإن الدين علم من العلوم وسوء الطبع يضادّ المروءة.

ثم نرجع إلى الشعب الأربع فنقول الدواعي خمسة: الهاجس السببيّ ويسمى نفر الخاطر، ثم الإرادة، ثم العزم، ثم الهمة، ثم النية. والبواعث لهذه الدواعي ثلاثة أشياء: رغبة أو رهبة أو تعظيم. والرغبة رغبتان: رغبة في المجاورة ورغبة في المعاينة، وإن شئت قلت: رغبة فيما عنده ورغبة فيه. والرهبة رهبتان: رهبة من العذاب ورهبة من الحجاب، والتعظيم إفراده عنك وجمعك به.

والأخلاق على ثلاثة أنواع: خلق متعد، وخلق غير متعد، وخلق مشترك. فالمتعدي على قسمين: متعد بمنفعة كالجود والفتوّة، ومتعد بدفع مضرّة كالعفو والصفح واحتمال الأذى مع القدرة على الجزاء والتمكّن منه، وغير المتعدي كالورع والزهد والتوكل. وأما المشترك فكالصبر على الأذى من الخلق وبسط الوجه. وأما الحقائق فعلى أربعة: حقائق ترجع إلى الذات المقدسة، وحقائق ترجع إلى الصفات المنزهة وهي النسب، وحقائق ترجع إلى الأفعال وهي كن وأخواتها، وحقائق ترجع إلى المفعولات وهي الأكوان والمكونات، وهذه الحقائق الكونية على ثلاث مراتب: علوية وهي المعقولات، وسفلية وهي المحسوسات، وبرزخية وهي المخيلات. فأما الحقائق الذاتية فكل مشهد يقيّمك الحق فيه من غير تشبيه ولا تكييف لا تسعه العبارة ولا تومي إليه الإشارة. وأما الحقائق الصفاتية فكل مشهد يقيمك الحق فيه تطلع منه على معرفة كونه سبحانه عالماً قادراً مريداً حياً إلى غير ذلك من الأسماء والصفات المختلفة والمتقابلة والمتماثلة. وأما الحقائق الكونية فكل مشهد يقيمك الحق فيه تطلع منه على معرفة الأرواح والبسائط والمركبات والأجسام والاتصال والانفصال. وأما الحقائق الفعلية فكل مشهد يقيمك فيه تطلع منه على معرفة كن وتعلق القدرة بالمقدور بضرب خاص لكون العبد لا فعل له ولا أثر لقدرته الحادثة الموصوف بها.

وجميع ما ذكرناه يسمى الأحوال والمقامات، فالمقام منها كل صفة يجب الرسوخ فيها ولا يصح التنقل عنها كالتوبة، والحال منها كل صفة تكون فيها في وقت دون وقت كالسكر والمحو والغيبة والرضى، أو يكون وجودها مشروطاً بشرط فتنعدم لعدم شرطها كالصبر مع البلاء والشكر مع النعماء وهذه الأمور على قسمين: قسم كماله في ظاهر الإنسان وباطنه كالورع والتوبة، وقسم كماله في باطن الإنسان، ثم إن تبعه الظاهر فلا بأس كالزهد والتوكل، وليس ثم في طريق الله تعالىٰ مقام يكون في الظاهر دون الباطن.

ثم إن هذه المقامات منها ما يتصف به الإنسان في الدنيا والآخرة كالمشاهدة والجلال والجمال والأنس والهيبة والبسط. ومنها ما يتصف به العبد إلى حين موته إلى القيامة إلى أوّل قدم يضعه في الجنة ويزول عنه كالخوف والقبض والحزن والرجاء. ومنها ما يتصف به العبد إلى حين موته كالزهد والتوبة والورع والمجاهدة والرياضة والتخلي والتحلي على طريق القربة. ومنها ما يزول لزوال شرطه ويرجع لرجوع شرطه كالصبر والشكر والورع. فهذا وفقنا

الله وإياك قد بينت لك الطريق مرتب المنازل ظاهر المعاني والحقائق على غاية الإيجاز والبنيان والاستيفاء العام، فإن سلكت وصلت والله سبحانه يرشدنا وإياك.

فصل: ومدار العلم الذي يختص به أهل الله تعالىٰ على سبع مسائل من عرفها لم يعتص عليه شيء من علم الحقائق، وهي معرفة أسماء الله تعالىٰ، ومعرفة التجليات، ومعرفة خطاب الحق عباده بلسان الشرع، ومعرفة كمال الوجود ونقصه، ومعرفة الإنسان من جهة حقائقه، ومعرفة الكشف الخياليّ، ومعرفة العلل والأدوية، وذكرنا هذه المسائل في باب المعرفة من هذا الكتاب فلتنظر هنالك إن شاء الله.

تتمة: ثم نرجع إلى السبب الذي لأجله منعنا المتأهب لتجلي الحق إلى قلبه من النظر في صحة العقائد من جهة علم الكلام، فمن ذلك أن العوام بلا خلاف من كل متشرع صحيح العقل عقائدهم سليمة وأنهم مسلمون، مع أنهم لم يطالعوا شيئاً من علم الكلام ولا عرفوا مذاهب الخصوم، بل أبقاهم الله تعالىٰ على صحة الفطرة وهو العلم بوجود الله تعالىٰ بتلقين الوالد المتشرع أو المربي، وأنهم من معرفة الحق سبحانه وتنزيهه على حكم المعرفة، والتنزيه الوارد في ظاهر القرآن المبين، وهم فيه بحمد الله على صحة وصواب ما لم يتطرّق أحد منهم إلى التأويل، فإن تطرّق أحد منهم إلى التأويل خرج عن حكم العامة والتحق بصنف ما من أصناف أهل النظر والتأويل. وهو على حسب تأويله وعليه يلقى الله تعالىٰ، فإما مصيب وإما مخطىء بالنظر إلى ما يناقض ظاهر ما جاء به الشرع، فالعامة بحمد الله سليمة عقائدهم لأنهم تلقوها كما ذكرناه من ظاهر الكتاب العزيز التلقي الذي يجب القطع به، وذلك أن التواتر من الطرق الموصلة إلى العلم، وليس الغرض من العلم إلاَّ القطع على المعلوم أنه على حد ما علمناه من غير ريب ولا شك، والقرآن العزيز قد ثبت عندنا بالتواتر أنه جاء به شخص ادَّعى أنه رسول من عند الله تعالىٰ، وأنه جاء بما يدل على صدقه وهو هذا القرآن، وأنه ما استطاع أحد على معارضته أصلاً، فقد صحّ عندنا بالتواتر أنه رسول الله إلينا، وأنه جاء بهذا القرآن الذي بين أيدينا اليوم وأخبر أنه كلام الله، وثبت هذا كله عندنا تواتراً، فقد ثبت العلم به أنه النبأ الحق والقول الفصل. والأدلة سمعية وعقلية، وإذا حكمنا على أمر بحكم ما فلا شك فيه أنه على ذلك الحكم.

وإذا كان الأمر على ما قلناه فيأخذ المتأهب عقيدته من القرآن العزيز وهو بمنزلة الدليل العقلي في الدلالة، إذ هو الصدق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢]. فلا يحتاج المتأهب مع ثبوت هذا الأصل إلى أدلة العقول إذ قد حصل الدليل القاطع الذي عليه السيف معلق. والإصفاق عليه محقق عنده، قالت اليهود لمحمد ﷺ: انسب لنا ربك فأنزل الله تعالىٰ عليه سورة الإخلاص ولم يقم لهم من أدلة النظر دليلاً واحداً فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ فأثبت الوجود ﴿أَحَدٌ﴾ فنفى العدد وأثبت الأحدية لله سبحانه ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فنفى الجسم ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فنفى الوالد والولد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فنفى الصاحبة، كما نفى الشريك بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٢٢] فيطلب صاحب الدليل العقلي البرهان على صحية هذه المعاني بالعقل وقد دلّ على صحة هذا اللفظ، فيا ليت شعري هذا الذي يطلب يعرف الله من جهة الدليل، ويكفر من لا ينظر كيف كانت حالته قبل النظر، وفي حال النظر هل هو مسلم أم لا؟ وهل يصلي ويصوم؟ أو ثبت عنده أن محمداً رسول الله إليه أم أن الله موجود؟ فإن كان معتقداً لهذا كله فهذه حالة العوام فليتركهم على ما هم عليه ولا يكفر أحداً، وإن لم يكن معتقداً لهذا إلاً حتى ينظر ويقرأ علم الكلام فنعوذ بالله من هذا المذهب حيث أدّاه سوء النظر إلى الخروج عن الإيمان.

وعلماء هذا العلم رضي الله عنهم ما وضعوه وصنفوا فيه ما صنفوه ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله، وإنما وضعوه إرداعاً للخصوم الذين جحدوا الإله أو الصفات أو بعض الصفات أو الرسالة أو رسالة محمد ﷺ خاصة أو حدوث العالم، أو الإعادة إلى هذه الأجسام بعد الموت أو الحشر والنشر وما يتعلق بهذا الصنف، وكانوا كافرين بالقرآن مكذبين به جاحدين له، فطلب علماء الكلام إقامة الأدلة عليهم على الطريقة التي زعموا أنها أدّتهم إلى إبطال ما ادّعينا صحته خاصة حتى لا يشوشوا على العوام عقائدهم. فمهما برز في ميدان المجادلة بدعيّ برز له أشعريّ أو من كان من أصحاب علم النظر ولم يقتصروا على السيف رغبة منهم وحرصاً على أن يردّوا واحداً إلى الإيمان والانتظام في سلك أمة محمد ﷺ بالبرهان، إذ الذي كان يأتي بالأمر المعجز على صدق دعواه قد فقد وهو الرسول عليه السلام، فالبرهان عندهم قائم مقام تلك المعجزة في حق من عرف، فإن الراجع بالبرهان أصح إسلاماً من الراجع بالسيف، فإن الخوف يمكن أن يحمله على النفاق وصاحب البرهان ليس كذلك. فلهذا رضي الله عنهم وضعوا علم الجوهر والعرض لا غير، ويكفي في المصر منه واحد.

فإذا كان الشخص مؤمناً بالقرآن أنه كلام الله قاطعاً به فليأخذ عقيدته منه من غير تأويل ولا ميل، فنزّه سبحانه نفسه أن يشبهه شيء من المخلوقات أو يشبه شيئاً بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠]. وأثبت رؤيته في الدار الآخرة بظاهر قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة. الآية ٢٢و٢٣] و﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٥] وانتفت الإحاطة بدركه بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] وثبت كونه قادراً بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٢٠] وثبت كونه عالماً بقوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وثبت كونه مريداً بقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج: الآية ١٦] وثبت كونه سميعاً بقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١] وثبت كونه بصيراً بقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] وثبت كونه متكلماً بقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] وثبت كونه حياً بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وثبت إرسال الرسل بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] وثبتت رسالة محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] وثبت أنه آخر الأنبياء

بقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] وثبت أن كل ما سواه خلق له بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٢] وثبت خلق الجنّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] وثبت حشر الأجساد بقوله: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] إلى أمثال هذا ممّا تحتاج إليه العقائد من الحشر والنشروالقضاء والقدر والجنة والنار والقبر والميزان والحوض والصراط والحساب والصحف، وكل ما لا بدّ للمعتقد أن يعتقده.

قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨] وأن هذا القرآن معجزته عليه السلام بطلب معارضته والعجز عن ذلك في قوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [سورة يونس: الآية ٣٨] ثم قطع أن المعارضة لا تكون أبداً بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٨] وأخبر بعجز من أراد معارضته وإقراره بأن الأمر عظيم فيه فقال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [سورة المدثر: الآية ١٨] إلى قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ [سورة المدثر: الآية ٢٤] ففي القرآن العزيز للعاقل غنية كبيرة، ولصاحب الداء العضال دواء وشفاء كما قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٢] ومقنع شاف لمن عزم على طريق النجاة ورغب في سموّ الدرجات، وترك العلوم التي تورد عليها الشبه والشكوك فيضيع الوقت ويخاف المقت، إذ المنتحل لتلك الطريقة قلما ينجو من التشغيب أو يشتغل برياضة نفسه وتهذيبها، فإنه مستغرق الأوقات في إرداع الخصوم الذين لم يوجد لهم عين، ودفع شبه يمكن إن وقعت للخصم ويمكن إن لم تقع، فقد تقع وقد لا تقع، وإذا وقعت فسيف الشريعة أردع وأقطع.

«أُمِرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاس حَتَّى يَقولوا لا إِله إلاَّ الله وَحَتَّى يُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ» هذا قوله ﷺ. ولم يدفعنا لمجادلتهم إذا حضروا إنما هو الجهاد والسيف إن عاند فيما قيل له، فكيف بخصم متوهم نقطع الزمان بمجادلته وما رأينا له عيناً ولا قال لنا شيئاً، وإنما نحن مع ما وقع لنا في نفوسنا ونتخيل أنا مع غيرنا، ومع هذا فإنهم رضي الله عنهم اجتهدوا وخيراً قصدوا، وإن كان الذي تركوا أوجب عليهم من الذي شغلوا نفوسهم به والله ينفع الكل بقصده.

ولولا التطويل لتكلمت على مقامات العلوم ومراتبها، وأن علم الكلام مع شرفه لا يحتاج إليه أكثر الناس، بل شخص واحد يكفي منه في البلد مثل الطبيب. والفقهاء العلماء بفروع الدين ليسوا كذلك، بل الناس محتاجون إلى الكثرة من علماء الشريعة، وفي الشريعة بحمد الله الغنية والكفاية، ولو مات الإنسان وهو لا يعرف اصطلاح القائلين بعلم النظر مثل الجوهر والعرض والجسم والجسماني والروح والروحاني لم يسأله الله تعالىٰ عن ذلك، وإنما يسأل الله الناس عمّا أوجب عليهم من التكليف خاصة والله يرزقنا الحياء منه.

وصل: يتضمن ما ينبغي أن يعتقد في العموم وهي عقيدة أهل الإسلام مسلمة من غير نظر إلى دليل ولا إلى برهان.

فيا إخوتي المؤمنين، ختم الله لنا ولكم بالحسنى لما سمعت قوله تعالىٰ عن نبيه هود

عليه السلام حين قال لقومه المكذبين به وبرسالته: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة هود: الآية ٥٤] فأشهد عليه السلام قومه مع كونهم مكذبين به على نفسه بالبراءة من الشرك بالله والإقرار بأحديته، لما علم عليه السلام أن الله سبحانه سيوقف عباده بين يديه ويسألهم عمّا هو عالم به لإقامة الحجة لهم أو عليهم حتى يؤدّي كل شاهد شهادته، وقد ورد أن المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس وكل من سمعه ولهذا يدبر الشيطان عند الأذان وله حصاص، وفي رواية وله ضراط، وذلك حتى لا يسمع نداء المؤذن بالشهادة فيلزمه أن يشهد له فيكون بتلك الشهادة له من جملة من يسعى في سعادة المشهود له وهو عدوّ محض ليس له إلينا خير البتة لعنه الله، وإذا كان العدوّ لا بدّ أن يشهد لك بما أشهدته به على نفسك فأحرى أن يشهد لك وليك وحبيبك، ومن هو على دينك وملتك، وأحرى أن تشهده أنت في الدار الدنيا على نفسك بالوحدانية والإيمان.

فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهد كم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالىٰ في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه، أشهدكم على نفسه بعدأن أشهد الله تعالىٰ وملائكته، ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولاً وعقداً، أن الله تعالىٰ إله واحد، لا ثاني له في ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له ملك لا وزير له، صانع لا مدبّر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالىٰ في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو وحده متّصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيّز فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدّس عن الجهات والأقطار، مرئيّ بالقلوب والأبصار، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله، وعلى المعنى الذي أراده، كما أنّ العرش وما سواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول ولا دلّت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان، وهو على ما عليه كان، خلق المتمكن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال أنا الواحد الحي لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات، تعالىٰ أن تحله الحوادث أو يحلها، أو تكون بعده أو يكون قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيوم الذي لا ينام، والقهار الذي لا يرام، ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسيّ وأوسعه الأرض والسموات العلى، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتباً بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلق، وأخلق الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخرّ لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فلا تتحرّك ذرّة إلاّ إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء

عدداً، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، علم الأشياء منها قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالماً بالأشياء، لم يتجدّد له علم عند تجدّد الإنشاء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكم عليها من شاء وحكمها، علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالىٰ الله عمّا يشركون، فعّال لما يريد، فهو المريد الكائنات، في عالم الأرض والسموات، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما أنه لم يرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا يعلم، أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حيّ، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حر، ولا برد ولا حر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا برّ ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادّات منها والمختلفات والمتماثلات إلاّ وهو مراد للحق تعالىٰ.

وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده، فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئاً لم يرد الله تعالىٰ أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئاً لم يرد الله تعالىٰ إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك، ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته، ولم يزل سبحانه موصوفاً بهذه الإرادة أزلاً، والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتاً في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكّر ولا تدبّر عن جهل أو عدم علم، فيعطيه التفكّر والتدبّر علم ما جهل جلّ وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم السابق، وتعيين الإرادة المنزّهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه، من زمان ومكان، وأكوان وألوان، فلا مريد في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣٠] وأنه سبحانه كما علم فأحكم، وأراد فخصص، وقدّر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن، أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، ويرى السواد في الظلماء، والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير.

تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم، ولا سكوت متوهم، بكلام قديم أزليّ، كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كلّم به موسىٰ عليه السلام، سمّاه التنزيل، والزبور والتوراة والإنجيل، من غير حروف ولا أصوات ولا نغم ولا لغات، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات، فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، كما أنّ بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه، من بعيد دان عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه، فهو عن جوده فائض، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه، حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبّر معه في ملكه، إن أنعم فنعم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرّف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجّه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف، كل ما سواه تحت سلطان قهره، ومتصرّف عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيئات من شاء، والآخذ بها من شاء، هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله ولا فضله في عدله، أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين، فقال هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك، إذ لا موجود كان ثم سواه، فالكل تحت تصريف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه، وقبضة تحت أسماء آلائه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شان، لكنه سبحانه لم يرد فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي يوم المعاد، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالىٰ في الصلاة هي خمس وهي خمسون ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] لتصرّفي في ملكي، وإنفاذ مشيئتي في ملكي، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلاّ بوهب، ألا هي وجود رحمانيّ لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك بحضرة أشهاده، فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم، وأنه من رقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه، ولا موجود لنفسه إلاّ إياه ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٣] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩].

الشهادة الثانية: وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده، ذلك سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلغ ﷺ ما أنزل من ربّه إليه وأدّى أمانته، ونصح أمته، ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه، فخطب وذكر، وخوّف وحذر، وبشّر وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خصّ بذلك التذكير أحداً من أحد عن إذن الواحد

الصمد، ثم قال: «أَلاَ هَلْ بَلَّغتُ؟» فقالوا: بلغت يا رسول الله، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ».
وإني مؤمن بكل ما جاء به ﷺ ممّا علمت وما لم أعلم، فممّا جاء به فقرّر أن الموت عن أجل مسمّى عند الله إذا جاء لا يؤخّر، فأنا مؤمن بهذا إيماناً لا ريب فيه ولا شك، كما آمنت وأقررت أن سؤال فتاني القبر حق، وعذاب القبر حق، وبعث الأجساد من القبور حق، والعرض على الله تعالىٰ حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، وفريقاً في الجنة وفريقاً في النار حق، وكرب ذلك اليوم حق على طائفة وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين، وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق، والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق، والتأبيد لأهل النار في النار حق، وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله علم أو جهل حق.

فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤدّيها إذا سئلها حيثما كان، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها من القطران، وجعلنا من العصابة التي أخذت الكتب بالإيمان، وممّن انقلب من الحوض وهو ريان، وثقل له الميزان، وثبتت له على الصراط القدمان، إنّه المنعم المحسان، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام أهل التقليد وأهل النظر ملخصة مختصرة ثم أتلوها إن شاء الله بعقيدة الناشية الشادية ضمنتها اختصار الاقتصاد بأوجز عبارة، نبهت فيها على مآخذ الأدلة لهذه الملة، مسجعة الألفاظ، وسميتها برسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم، ليسهل على الطالب حفظها، ثم أتلوها بعقيدة خواص أهل الله، من أهل طريق الله من المحققين أهل الكشف والوجود، وجرّدتها أيضاً في جزء آخر سمّيته المعرفة، وبه انتهت مقدّمة الكتاب. وأما التصريح بعقيدة الخلاصة فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبدّدة في أبواب هذا الكتاب مستوفاة مبينة لكنها كما ذكرنا متفرقة، فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها من غيرها فإنه العلم الحق، والقول الصدق، وليس وراءها مرمى، ويستوي فيها البصير والأعمى، تلحق الأباعد بالأداني، وتلحم الأسافل بالأعالي، والله الموفق لا رب غيره.

وصل الناشي ـ والشادي في العقائد:

قال الشادي: اجتمع أربعة نفر من العلماء في قبة أرين تحت خط الاستواء: الواحد مغربيّ، والثاني مشرقيّ، والثالث شاميّ، والرابع يمنيّ، فتجاروا في العلوم، والفرق بين الأسماء والرسوم، فقال كل واحد منهم لصاحبه: لا خير في علم لا يعطي صاحبه سعادة

الأبد، ولا يقدس حامله عن تأثير الأمد، فلنبحث في هذه العلوم التي بين أيدينا عن العلم الذي هو أعزّ ما يطلب وأفضل ما يكتسب، وأسنى ما يدّخر وأعظم ما به يفتخر. فقال المغربيّ: عندي من هذا العلم العلم بالحامل القائم. وقال المشرقيّ: عندي منه العلم بالحامل المحمول اللازم. وقال الشاميّ: عندي من هذا العلم علم الإبداع والتركيب. وقال اليمنيّ: عندي من هذا العلم علم التلخيص والترتيب. ثم قالوا: ليظهر كل واحد منا ما وعاه، وليكشف عن حقيقة ما ادّعاه.

الفصل الأوّل في معرفة الحامل القائم باللسان الغربيّ

قام الإمام المغربيّ وقال: لي التقدّم من أجل مرتبة علمي، فالحكم في الأوليات حكمي. فقال له الحاضرون: تكلم وأوجز وكن البليغ المعجز. فقال: اعلموا أنه ما لم يكن ثم كان، واستوت في حقه الأزمان، أن المكوّن يلزمه في الآن. ثم قال: كل ما لا يستغني عن أمر مّا فحكمه حكم ذلك الأمر، ولكن إذا كان من عالم الخلق والأمر فليصرف الطالب النظر إليه وليعوّل الباحث عليه. ثم قال: من كان الوجود يلزمه فإنه يستحيل عدمه، والكائن ولم يكن يستحيل قدمه، ولو لم يستحل عليه العدم، لصحبه المقابل في القدم، فإن كان المقابل لم يكن، فالعجز في المقابل مستكن، وإن كان يستحيل على هذا الآخر كان، ومحال أن يزول بذاته لصحة الشرط وإحكام الربط. ثم قال: وكلّ ما ظهر عينه ولم يوجب حكماً، فكونه ظاهراً محال فإنه لا يفيد علماً. ثم قال: ومن المحال عليه تعمير المواطن، لأن رحلته في الزمن الثاني من زمان وجوده لنفسه وليس بقاطن، ولو جاز أن ينتقل لقام بنفسه واستغنى عن المحل ولا يعدمه ضدّ لاتصافه بالفقد ولا الفاعل، فإن قولك فعل لا شيء لا يقول به عاقل. ثم قال: من توقّف وجوده على فناء شيء فلا وجود له حتى يفنى، فإن وجد فقد فني ذلك الشيء المتوقّف عليه وحصل المعنى، من تقدّمه شيء فقد انحصر دونه وتقيّد ولزمه هذا الوصف ولو تأبّد فقد ثبت العين بلا مين. ثم قال: ولو كان حكم المسند إليه حكم المسند لما تناهى العدد، ولا صحّ وجود من وجد. ثم قال: ولو كان ما أثبتناه يخلى ويملى، لكان يبلى ولا يبلى. ثم قال: ولو كان يقبل التركيب لتحلّل أو التأليف اضمحل، وإذا وقع التماثل سقط التفاضل. ثم قال: ولو كان يستدعي وجوده سواه ليقوم به لم يكن ذلك السوى مستنداً إليه وقد صحّ إليه استناده، فباطل أن يتوقف عليه وجوده وقد قيّده إيجاده، ثم إن وصف الوصف محال، فلا سبيل إلى هذا العقد بحال. ثم قال: الكرة وإن كانت فانية، فليست ذات ناحية، إذا كانت الجهات إليّ، فحكمها عليّ، وأنا منها خارج عنها وقد كان ولا أنا، ففيم التشغيب والعنا. ثم قال: كل من استوطن موطناً جازت عنه رحلته وثبتت نقلته، من حاذى بذاته شيئاً فإن التثليث يحده ويقدره، وهذا يناقض ما كان العقل من قبل يقرّره. ثم قال: لو كان لا يوجد شيء إلاّ عن مستقلين اتفاقاً واختلافاً، لما رأينا في الوجود افتراقاً وائتلافاً، والمقدّر حكمه حكم الواقع، فإذن التقدير هنا للمنازع ليس بنافع. ثم قال: إذا وجد الشيء

في عينه جاز أن يراه ذو العين بعينه المقيّدة بوجهه الظاهر وجفنه، وما ثم علة توجب الرؤية في مذهب أكثر الأشعرية، إلاَّ الوجود بالبنية وغير البنية، ولا بدّ من البنية، ولو كانت الرؤية تؤثّر في المرئي لأحلناها، فقد بانت المطالب بأدلتها كما ذكرناها، ثم صلّى وسلم بعدما حمد وقعد، فشكره الحاضرون على إيجازه في العبارة، واستيفائه المعاني في دقيق الإشارة.

الفصل الثاني في معرفة الحامل المحمول اللازم باللسان المشرقيّ

ثم قام المشرقيّ وقال: تكوين الشيء من الشيء ميل وتكوينه لا من شيء اقتدار الأزل، ومن لم يمتنع عنك فقدرتك نافذة فيه ولم تزل. ثم قال: إيجاد أحكام في محكم يثبت بحكمه وجود علم المحكم. ثم قال: والحياة في العالم شرط لازم ووصف قائم. ثم قال: الشيء إذا قبل التقدّم والمناص فلا بدّ من مخصص لوقوع الاختصاص، وهو عين الإرادة في حكم العقل والعادة. ثم قال: ولو أراد المريد بما لم يكن لكان ما لم يكن مراداً بما لم يكن. ثم قال: من المحال أن توجب المعاني أحكامها في غير من قامت به فانتبه. ثم قال: من تحدث في نفسه بما مضى، فذلك الحديث ليس بإرادة به حكم الدليل على الكلام وقضى. ثم قال: القديم لا يقبل الطاري فلا تمارِ ولو أحدث في نفسه ما ليس منها لكان بعدم تلك الصفة ناقصاً عنها، ومن ثبت كماله بالعقل والنص فلا ينسب إليه النقص. ثم قال: لو لم يبصرك ولم يسمعك لجهل كثيراً منك، ونسبة الجهل إليه محال، فلا سبيل إلى نفي هاتين الصفتين عنه بحال، ومن ارتكب القول بنفيهما ارتكب مخوفاً لما يؤدّي إلى كونه مؤوفاً. ثم قال: من ضرورة الحكم أن يوجبه معنى، كما من ضرورة المعنى الذي لا يقوم بنفسه استدعاء مغنى، فيا أيها المجادل كم ذا تتعنى ما ذاك إلاَّ لخوفك من العدد، وهذا لا يبطل حقيقة الواحد والأحد، ولو علمت أن العدد هو الأحد، ما شرعت في منازعة أحد، فهذا قد أبنت عن الحامل المحمول العارض واللازم في تقاسيم هذه المعالم ثم قعد.

الفصل الثالث في معرفة الإبداع والتركيب باللسان الشاميّ

ثم قام الشاميّ وقال: إذا تماثلت المحدثات، وكان تعلّق القدرة بها لمجرد الذات، فبأيّ دليل يخرج منها بعض الممكنات. ثم قال: لما كانت الإرادة تتعلق بمرادها حقيقة، ولم تكن القدرة الحادثة مثلها لاختلال في الطريقة، فذلك هو الكسب فكسب العبد وقدر الرب، وتبيين ذلك بالحركة الاختيارية والرعدة الاضطرارية. ثم قال: القدرة من شرطها الإيجاد إذا ساعدها العلم والإرادة فإياك والعادة، كل ما أدّى إلى نقض الألوهة فهو مردود، ومن جعل في الوجود الحادث ما ليس بمراد الله فهو من المعرفة مطرود، وباب التوحيد في وجهه مسدود، وقد يراد الأمر ولا يراد المأمور به وهو الصحيح وهذا غاية التصريح. ثم قال: من وجب على الله أمراً فقد أوجب عليه حد الواجب، وذلك على الله محال في صحيح المذاهب، ومن قال بالوجوب لسبق العلم فقد خرج عن الحكم المعروف عند العلماء في الوجب وهو صحيح الحكم. ثم قال: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، وقد عاينا ذلك مشاهدة

ونقلاً. ثم قال: من لم يخرج شيء على الحقيقة عن ملكه فلا يتصف بالجور والظلم فيما يجريه من حكمه في ملكه. ثم قال: من هو مختار فلا يجب عليه رعاية الأصلح، وقد ثبت ذلك وصح، التقبيح والتحسين بالشرع والغرض، ومن قال إن الحسن والقبح لذات الحسن والقبيح فهو صاحب جهل عرض. ثم قال: إذا كان وجوب معرفة الله وغير ذلك من شرطه ارتباط الضرر بتركه في المستقبل فلا يصحّ الوجوب بالعقل لأنه لا يعقل. ثم قال: إذا كان العقل يستقل بنفسه في أمر وفي أمر لا يستقل، فلا بدّ من موصل إليه مستقل، فلم تستحل بعثة الرسل، وأنهم أعلم الخلق بالغايات والسبل. ثم قال: لو جاز أن يجيء الكاذب بما جاء به الصادق لانقلبت الحقائق ولتبدلت القدرة بالعجز ولاستند الكذب إلى حضرة العزّ، وهذا كله محال وغاية الضلال، بما ثبت الواحد الأوّل يثبت الثاني في جميع الوجوه والمعاني.

الفصل الرابع في معرفة التخليص والترتيب باللسان اليمني

ثم قام اليمنيّ وقال: من أفسد شيئاً بعدما أنشأه جاز أن يعيده كما بدأه. ثم قال: إذا قامت اللطيفة الروحانية بجزء ما من الإنسان فقد صحَّ عليه اسم الحيوان النائم يرى ما لا يراه اليقظان وهو إلى جانبه لاختلاف مذاهبه، من قامت به الحياة جازت عليه اللذة والألم فما لك لا تلتزم. ثم قال: البدل من الشيء يقوم مقامه، ويوجب له أحكامه. ثم قال: من قدر على إمساك الطير في الهواء وهي أجسام قدر على إمساك جميع الأجرام. ثم قال: قد كملت النشاة واجتمعت أطراف الدائرة قبل حلول الدائرة. ثم قال: إقامة الدين هو المطلوب ولا يصحّ إلاّ بالأمان، فاتخاذ الإمام واجب في كل زمان. ثم قال: إذا تكاملت الشرائط صحّ العقد، ولزم العالم الوفاء بالعهد، وهي الذكورية والبلوغ والعقل والعلم والحرية والورع والنجدة والكفاية ونسب قريش وسلامة حاسة السمع والبصر، وبهذا قال بعض أهل العلم والنظر. ثم قال: إذا تعارض إمامان فالعقد للأكثر أتباعه، وإذا تعذّر خلع إمام ناقص لتحقق وقوع فساد شامل فإبقاء العقد له واجب ولا يجوز إرداعه. قال الشادي: فوفى كل واحد من الأربعة ما اشترط، وانتظم الوجود وارتبط.

وصل ـ في اعتقاد أهل الاختصاص من أهل الله بين نظر وكشف:

الحمد لله محير العقول في نتائج الهمم، وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم.

مسألة: أما بعد، فإن للعقول حدّاً تقف عنده من حيث ما هي مفكرة لا من حيث ما هي قابلة، فنقول في الأمر الذي يستحيل عقلاً قد لا يستحيل نسبة إلهية، كما نقول فيما يجوز عقلاً قد يستحيل نسبة إلهية.

مسألة: أية مناسبة بين الحق الواجب الوجود بذاته وبين الممكن وإن كان واجباً به عند من يقول بذلك لاقتضاء الذات أو لاقتضاء العلم، ومآخذها الفكرية إنما تقوم صحيحة من البراهين الوجودية، ولا بدّ بين الدليل والمدلول والبرهان والمبرهن عليه من وجه به يكون التعلّق له نسبة إلى الدليل ونسبة إلى المدلول عليه بذلك الدليل، ولولا ذلك الوجه ما وصل

دالٌ إلى مدلول دليله أبداً، فلا يصح أن يجتمع الخلق والحق في وجه أبداً من حيث الذات، لكن من حيث إنّ هذه الذات منعوتة الألوهة فهذا حكم آخر تستقل العقول بإدراكه، وكل ما يستقل العقل بإدراكه عندنا يمكن أن يتقدم العلم به على شهوده، وذات الحق تعالىٰ بائنة عن هذا الحكم فإن شهودها يتقدم على العلم بها بل تشهد ولا تعلم، كما أن الألوهة تعلم ولا تشهد والذات تقابلها، وكم من عاقل ممن يدعي العقل الرصين من العلماء النظار يقول إنه حصل على معرفة الذات من حيث النظر الفكريّ وهو غالط في ذلك، وذلك لأنه متردّد بفكره بين السلب والإثبات، فالإثبات راجع إليه، فإنه ما أثبت للحق الناظر إلاّ ما هو الناظر عليه من كونه عالماً قادراً مريداً إلى جميع الأسماء، والسلب راجع إلى العدم والنفي، والنفي لا يكون صفة ذاتية لأن الصفات الذاتية للموجودات إنما هي ثبوتية، فما حصل لهذا المفكر المتردّد بين الإثبات والسلب من العلم بالله شيء.

مسألة: أنى للمقيد بمعرفة المطلق وذاته لا تقتضيه، وكيف يمكن أن يصل الممكن إلى معرفة الواجب بالذات؟ وما من وجه للممكن إلاّ ويجوز عليه العدم والدثور والافتقار فلو جمع بين الواجب بذاته وبين الممكن وجه لجاز على الواجب ما جاز على الممكن من ذلك الوجه من الدثور والافتقار وهذا في حق الواجب محال، فإثبات وجه جامع بين الواجب والممكن محال، فإن وجوه الممكن تابعة له وهو في نفسه يجوز عليه العدم فتوابعه أحرى وأحق بهذا الحكم، وثبت للممكن ما ثبت للواجب بالذات من ذلك الوجه الجامع، وما ثمَّ شيء ثبت للممكن من حيث ما هو ثابت للواجب بالذات، فوجود وجه جامع بين الممكن والواجب بالذات محال.

مسألة: لكني أقول: إن للألوهة أحكاماً وإن كانت حكماً، وفي صور هذه الأحكام يقع التجلي في الدار الآخرة حيث كان، فإنه قد اختلف في رؤية النبيّ عليه السلام ربّه كما ذكر، وقد جاء حديث النور الأعظم في رفرف الدر والياقوت وغير ذلك.

مسألة: أقول بالحكم الإرادي لكني لا أقول بالاختيار، فإن الخطاب بالاختيار الوارد إنما ورد من حيث النظر إلى الممكن معرّى عن علته وسببيته.

مسألة: فأقول بما أعطاه الكشف الاعتصاميّ «إن الله كان ولا شيء معه»، إلى هنا انتهى لفظه عليه السلام، وما أتى بعد هذا فهو مدرج فيه وهو قولهم: وهو الآن على ما عليه كان؛ يريدون في الحكم. فالآن وكان أمران عائدان علينا إذ بنا ظهرا وأمثالهما وقد انتفت المناسبة والمقول عليه «كان الله ولا شيء معه»، إنما هو الألوهة لا الذات، وكل حكم يثبت في باب العلم الإلهيّ للذات إنما هو للألوهية وهي أحكام نسب وإضافات وسلوب، فالكثرة في النسب لا في العين، وهنا زلّت أقدام من شرّك بين من يقبل التشبيه وبين من لا يقبله عند كلامهم في الصفات، واعتمدوا في ذلك على الأمور الجامعة التي هي الدليل والحقيقة والعلة والشرط وحكموا بها غائباً وشاهداً، فأما شاهداً فقد يسلم وأما غائباً فغير مسلم.

مسألة: بحر العماء برزخ بين الحق والخلق في هذا البحر اتصف الممكن بعالم وقادر

وجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا، واتصف الحق بالتعجب والتبشش والضحك والفرح والمعية وأكثر النعوت الكونية فردّ ما له وخذ ما لك فله النزول ولنا المعراج.

مسألة: من أردت الوصول إليه لم تصل إليه إلاّ به وبك بك من حيث طلبك، وبه لأنه موضع قصدك فالألوهة تطلب ذلك والذات لا تطلبه.

مسألة: المتوجّه على إيجاد على ما سوى الله تعالىٰ هو الألوهة بأحكامها، ونسبها وإضافاتها وهي التي استدعت الآثار، فإنّ قاهراً بلا مقهور، وقادراً بلا مقدور، صلاحية ووجوداً وقوّة وفعلاً محال.

مسألة: النعت الخاص الأخص التي انفردت به الألوهة كونها قادرة إذ لا قدرة لممكن أصلاً وإنما له التمكّن من قبول تعلّق الأثر الإلهيّ به.

مسألة: الكسب تعلق إرادة الممكن بفعل مّا دون غيره، فيوجده الاقتدار الإلهيّ عند هذا التعلّق فسمّي ذلك كسباً للممكن.

مسألة: الجبر لا يصح عند المحقق لكونه ينافي صحة الفعل للعبد، فإن الجبر حمل الممكن على الفعل مع وجود الإباية من الممكن، فالجماد ليس بمجبور لأنه لا يتصوّر منه فعل ولا له عقل عادي، فالممكن ليس بمجبور لأنه لا يتصوّر منه فعل ولا له عقل محقق مع ظهور الآثار منه.

مسألة: الألوهة تقضي أن يكون في العالم بلاء وعافية، فليس إزالة المنتقم من الوجود بأولى من إزالة الغافر وذي العفو والمنعم، ولو بقي من الأسماء ما لا حكم له لكان معطلاً والتعطيل في الألوهة محال فعدم أثر الأسماء محال.

مسألة: المدرك والمدرك كل واحد منهما على ضربين: مدرك يعلم وله قوّة التخيّل، ومدرك يعلم وماله قوّة التخيّل، والمدرك بفتح الراء على ضربين: مدرك له صورة يعلمه بصورته من ليس له قوّة التخيّل ولا يتصوّره ويعلمه ويتصوّره من له قوّة التخيّل، ومدرك ما له صورة يعلم فقط.

مسألة: العلم ليس تصوّر المعلوم ولا هو المعنى الذي يتصوّر المعلوم، فإنه ما كل معلوم يتصوّر ولا كل عالم يتصوّر، فإن التصوّر للعالم إنما هو من كونه متخيلاً، والصورة للمعلوم أن تكون على حالة يمسكها الخيال، وثم معلومات لا يمسكها خيال أصلاً فثبت أنها لا صورة لها.

مسألة: لو صحّ الفعل من الممكن لصحّ أن يكون قادراً ولا فعل له فلا قدرة له، فإثبات القدرة للممكن دعوى بلا برهان، وكلامنا في هذا الفصل مع الأشاعرة المثبتين لها مع نفي الفعل عنها.

مسألة: لا يصدر عن الواحد من كل وجه إلاّ واحد، وهل ثم من هو على هذا الوصف أم لا؟ في ذلك نظر للمنصف، ألا ترى الأشاعرة ما جعلوا الإيجاد للحق إلاّ من كونه قادراً والاختصاص من كونه مريداً والأحكام من كونه عالماً، وكون الشيء مريداً ما هو عين كونه

قادراً، فليس قولهم بعد هذا أنه واحد من كل وجه صحيحاً في التعلّق العام، وكيف وهم مثبتو الصفات زائدة على الذات قائمة به تعالى، وهكذا القائلون بالنسب والإضافات، وكل فرقة من الفرق ما تخلصت لهم الوحدة من جميع الوجوه إلاَّ أنهم بين ملزم من مذهبه القول بعدمها وبين قائل بها، فإثبات الوحدانية إنما ذلك في الألوهية أي لا إله إلاَّ هو وذلك صحيح مدلول عليه.

مسألة: كون الباري عالماً حياً قادراً إلى سائر الصفات نسب وإضافات له لا أعيان زائدة لما يؤدّي إلى نعتها بالنقص، إذ الكامل بالزائد ناقص بالذات عن كماله بالزائد وهو كامل لذاته، فالزائد بالذات على الذات محال، وبالنسب والإضافة ليس بمحال، وأمّا قول القائل: لا هي هو ولا هي أغيار له فكلام في غاية البعد، فإنه قد دلّ صاحب هذا المذهب على إثبات الزائد وهو الغير بلا شك، إلاَّ أنه أنكر هذا الإطلاق لا غير، ثم تحكم في الحد بأن قال الغيران هما اللذان يجوز مفارقة أحدهما الآخر مكاناً وزماناً ووجوداً وعدماً، وليس هذا بحد للغيرين عند جميع العلماء به.

مسألة: لا يؤثر تعدّد التعلقات من المتعلق في كونه واحداً في نفسه، كما لا يؤثر تقسيم المتكلم به في أحدية الكلام.

مسألة: الصفات الذاتية للموصوف بها وإن تعددت فلا تدل على تعدّد الموصوف في نفسه لكونها مجموع ذاته وإن كانت معقولة في التمييز بعضها من بعض.

مسألة: كل صورة في العالم عرض في الجوهر وهي التي يقع عليها الخلع والسلخ والجوهر واحد. والقسمة في الصورة لا في الجوهر.

مسألة: قول القائل إنما وجد عن المعلول الأول الكثرة وإن كان واحد الاعتبارات ثلاثة وجدت فيه وهي علته ونفسه وإمكانه فنقول لهم: ذلكم يلزمكم في العلة الأولى أعني وجود اعتبارات فيه وهو واحد فلم منعتم أن لا يصدر عنه إلاَّ واحد؟ فإمّا أن تلتزموا صدور الكثرة عن العلة الأولى، أو صدور واحد عن المعلول الأول وأنتم غير قائلين بالأمرين.

مسألة: من وجب له الكمال الذاتي والغنى الذاتي لا يكون علة لشيء لأنه يؤدّي كونه علة توقفه على المعلول، والذات منزهة عن التوقف على شيء فكونها علة محال لكن الألوهة قد تقبل الإضافات، فإن قيل: إنما يطلق الإله على من هو كامل الذات غنيّ الذات لا يريد الإضافة ولا النسب. قلنا: لا مشاحة في اللفظ بخلاف العلة فإنها في أصل وضعها ومن معناها تستدعي معلولاً، فإن أريد بالعلة ما أراد هذا بالإله فمسلم، ولا يبقى نزاع في هذا اللفظ إلاَّ من جهة الشرع هل يمنع أو يبيح أو يسكت؟

مسألة: الألوهة مرتبة للذات لا يستحقها إلاَّ الله فطلبت مستحقها ما هو طلبها، والمألوه يطلبها وهي تطلبه، والذات غنية عن كل شيء، فلو ظهر هذا السر الرابط لما ذكرنا لبطلت الألوهة ولم يبطل كمال الذات، وظهر هنا بمعنى زال كما يقال ظهروا عن البلد أي ارتفعوا عنه وهو قول الإمام: للألوهية سرّ لو ظهر لبطلت الألوهية.

مسألة: العلم لا يتغير بتغيّر المعلوم لكن التعلق يتغير، والتعلق نسبة إلى معلوم مّا مثاله تعلق العلم بأنّ زيداً سيكون فكان، فتعلق العلم بكونه كائناً في الحال وزال تعلق العلم باستئناف كونه ولا يلزم من يغير التعلق تغير العلم، وكذلك لا يلزم من تغير المسموع باستئناف كونه ولا يلزم من تغير التعلق تغير العلم، وكذلك لا يلزم من تغير المسموع والمرئيّ تغير الرؤية والسمع.

مسألة: ثبت أن العلم لا يتغير فالمعلوم أيضاً لا يتغير، فإن معلوم العلم إنما هو نسبة لأمرين معلومين محققين، فالجسم معلوم لا يتغير أبداً والقيام معلوم لا يتغير، ونسبة القيام للجسم هي المعلومة التي ألحق بها التغيير. والنسبة أيضاً لا تتغير، وهذه النسبة الشخصية أيضاً لا تكون لغير هذا الشخص فلا تتغير، وما ثم معلوم أصلاً سوى هذه الأربعة وهي الثلاثة الأمور المحققة: النسبة والمنسوب والمنسوب إليه والنسبة الشخصية، فإن قيل إنما ألحقنا التغير بالمنسوب إليه لكونه رأيناه على حالة ما ثم رأيناه على حالة أخرى، قلنا لما نظرت المنسوب إليه أمراً مّا لم تنظر إليه من حيث حقيقته، فحقيقته غير متغيرة ولا من حيث ما هو منسوب إليه فتلك حقيقة لا تتغير أيضاً، وإنما نظرت إليه من حيث ما هو منسوب إليه حال مّا، فإذن ليس المعلوم الآخر هو المنسوب إليه تلك الحالة التي قلت إنها زالت فإنها لا تفارق منسوبها وإنما هذا منسوب آخر إليه نسبة أخرى، فإذن فلا يتغير علم ولا معلوم، وإنما العلم له تعلقات بالمعلومات أو تعلق بالمعلومات كيف شئت.

مسألة: ليس شيء من العلم التصوّريّ مكتسباً بالنظر الفكريّ، فالعلوم المكتسبة ليست إلاّ نسبة معلوم تصوّريّ إلى معلوم تصوّريّ، والنسبة المطلقة أيضاً من العلم التصوّريّ، فإذا نسبت الاكتساب إلى العلم التصوّريّ فليس ذلك إلاّ من كونك تسمع لفظاً قد اصطلحت عليه طائفة مّا لمعنى مّا يعرفه كل أحد، لكن لا يعرف كل أحد أن ذلك اللفظ يدل عليه، فلذلك يسأل عن المعنى الذي أطلق عليه هذا اللفظ أي معنى هو فيعينه له المسؤول بما يعرفه، فلو لم يكن عند السائل العلم بذلك المعنى من حيث معنويته والدلالة التي توصل بها إلى معرفة مراد ذلك الشخص بذلك الاصطلاح لذلك المعنى ما قبله وما عرف ما يقول، فلا بدّ أن تكون المعاني كلها مركوزة في النفس ثم تنكشف له مع الأناة حالاً بعد حال.

مسألة: وصف العلم بالإحاطة للمعلومات يقضي بتناهيها والتناهي فيها محال فالإحاطة محال، لكن يقال العلم محيط بحقيقة كل معلوم وإلاّ فليس معلوماً بطريق الإحاطة، فإنه مَن علم أمراً ما من وجهٍ ما لا من جميع الوجوه فما أحاط به.

مسألة: رؤية البصيرة علم ورؤية البصر طريق حصول علم، فكون الإله سميعاً بصيراً تعلق تفصيليّ فهما حكمان للعلم، ووقعت التثنية من أجل المتعلق الذي هو المسموع والمبصر.

مسألة: الأزل نعت سلبيّ وهو نفي الأولية، فإذا قلنا أول في حق الألوهة فليس إلاّ المرتبة.

مسألة: دلّت الأشاعرة على حدوث كل ما سوى الله بحدوث المتحيزات وحدوث

أعراضها، وهذا لا يصح حتى يقيموا الدليل على حصر كل ما سوى الله تعالىٰ فيما ذكروه، ونحن نسلم حدوث ما ذكروا حدوثه.

مسألة: كل موجود قائم بنفسه غير متحيز وهو ممكن لا تجري مع وجوده الأزمنة ولا تطلبه الأمكنة.

مسألة: دلالة الأشعريّ في الممكن الأول أنه يجوز تقدمه على زمان وجوده وتأخّره عنه، والزمان عنده في هذه المسألة مقدر لا موجود فالاختصاص دليل على المخصص، فهذه دلالة فاسدة لعدم الزمان فبطل أن يكون هذا دليلاً، فلو قال نسبة الممكنات إلى الوجود أو نسبة الوجود إلى الممكنات نسبة واحدة من حيث ما هي نسبة لا من حيث ما هو ممكن، فاختصاص بعض الممكنات بالوجود دون غيره من الممكنات دليل على أن لها مخصصاً، فهذا هو عين حدوث كل ما سوى الله.

مسألة: قول القائل إنّ الزمان مدة متوهمة تقطعها حركة الفلك خُلْفٌ من الكلام لأنّ المتوهم ليس بوجود محقق وهم ينكرون على الأشاعرة تقدير الزمان في الممكن الأول فحركات الفلك تقطع في لا شيء، فإن قال الآخر إن الزمان حركة الفلك والفلك متحيز فلا تقطع الحركة إلاّ في متحيز.

مسألة: عجبت من طائفتين كبيرتين الأشاعرة والمجسمة في غلطهم في اللفظ المشترك كيف جعلوه للتشبيه ولا يكون التشبيه إلاّ بلفظة المثل أو كاف الصفة بين الأمرين في اللسان، وهذا عزيز الوجود في كل ما جعلاه تشبيهاً من آية أو خبر، ثم إن الأشاعرة تخيلت أنها لما تأوّلت قد خرجت من التشبيه وهي ما فارقته إلاّ أنها انتقلت من التشبيه بالأجسام إلى التشبيه بالمعاني المحدثة المفارقة للنعوت القديمة في الحقيقة والحد فما انتقلوا من التشبيه بالمحدثات أصلاً، ولو قلنا بقولهم لم نعدل مثلاً من الاستواء الذي هو الاستقرار إلى الاستواء الذي هو الاستيلاء كما عدلوا، ولا سيما والعرش مذكور في نسبة هذا الاستواء، ويبطل معنى الاستيلاء مع ذكر السرير، ويستحيل صرفه إلى معنى آخر ينافي الاستقرار، فكنت أقول: إن التشبيه مثلاً إنما وقع بالاستواء، والاستواء معنى لا بالمستوى الذي هو الجسم، والاستواء حقيقة معقولة معنوية تنسب إلى كل ذات بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات، ولا حاجة لنا إلى التكلف في صرف الاستواء عن ظاهره فهذا غلط بين لا خفاء به، وأما المجسمة فلم يكن ينبغي لهم أن يتجاوزوا باللفظ الوارد إلى أحد محتملاته مع إيمانهم ووقوفهم مع قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

مسألة: كما أنه تعالىٰ لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها، لكن قضاها وقدرها بيان كونه لا يريدها، لأن كونها فاحشة ليس عينها بل هو حكم الله فيها، وحكم الله في الأشياء غير مخلوق، وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مراداً، فإن ألزمناه في الطاعة التزمناه وقلنا الإرادة للطاعة ثبتت سمعاً لا عقلاً فأثبتوها في الفحشاء ونحن قبلناها إيماناً، كما قبلنا وزن الأعمال وصورها مع كونها أعراضاً فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل.

مسألة: العدم للممكن المتقدم بالحكم على وجوده ليس بمراد، لكن العدم الذي يقارنه حكماً حال وجوده إذ لو لم يكن الوجود لكان ذلك العدم منسحباً عليه هو مراد حال وجود الممكن لجواز استصحاب العدم له، وعدم الممكن الذي ليس بمراد هو الذي في مقابلة وجود الواجب لذاته، لأن مرتبة الوجود المطلق تقابل العدم المطلق الذي للممكن، إذ ليس له جواز وجود في هذه المرتبة وهذا في وجود الألوهة لا غير.

مسألة: لا يستحيل في العقل وجود قديم ليس بإله فإن لم يكن فمن طريق السمع لا غير.

مسألة: كون المخصص مريد الوجود ممكن مّا ليس تخصيصه لوجوده من حيث هو وجود، لكن من حيث نسبته لممكن ما تجوز نسبته لممكن آخر، فالوجود من حيث الممكن مطلقاً لا من حيث ممكن ما ليس بمراد ولا بواقع أصلاً إلاّ بممكن ما، وإذا كان بممكن ما فليس هو بمراد من حيث هو لكن من حيث نسبته لممكن ما لا غير.

مسألة: دلّ الدليل على ثبوت السبب المخصّص، ودلّ الدليل مثلاً على التوقيف فيما ينسب إلى هذا المخصص من نفي أو إثبات كما قال لنا بعض النظار في كلام جرى بيني وبينه فكنا نقف كما زعم، لكن دلّ الدليل على ثبوت الرسول من جانب المرسل، فأخذنا النسب الإلهية من الرسول فحكمنا بأنه كذا وليس كذا، فكيف والدليل الواضح على وجوده، وأن وجوده عين ذاته وليس بعلة لذاته لثبوت الافتقار إلى الغير وهو الكامل بكل وجه فهو موجود ووجوده عين ذاته لا غيرها.

مسألة: افتقار الممكن للواجب بالذات والاستغناء الذاتي للواجب دون الممكن يسمّى إلهاً، وتعلقها بنفسها وبحقائق كل محقق وجوداً كان أو عدماً يسمّى علماً، وتعلقها بالممكنات من حيث ما هي الممكنات عليه يسمّى اختياراً، وتعلقها بالممكن من حيث تقدّم العلم قبل كون الممكن يسمّى مشيئة، وتعلقها بتخصيص أحد الجائزين للممكن على التعيّن يسمّى إرادة، وتعلقها بإيجاد الكون يسمّى قدرة، وتعلقها بإسماع المكوّن لكونه يسمّى أمراً وهو على نوعين: بواسطة وبلا واسطة، فبارتفاع الوسائط لا بدّ من نفوذ الأمر، وبالواسطة لا يلزم النفوذ، وليس بأمر في عين الحقيقة إذ لا يقف لأمر وتعلقها بإسماع المكوّن لصرفه عن كونه أو كون ما يمكن أن يصدر منه يسمّى نهياً وصورته في التقسيم صورة الأمر، وتعلقها بتحصيل ما هي عليه هي أو غيرها من الكائنات أو ما في النفس يسمّى أخباراً، فإن تعلقت بالكون على طريق أي شيء يسمّى استفهاماً، فإن تعلقت به على جهة النزول إليه بصيغة الأمر يسمّى دعاء، ومن باب تعلق الأمر إلى هذا يسمّى كلاماً، تعلقها بالكلام من غير اشتراط العلم به يسمّى سمعاً، فإن تعلقت وتبع التعلق الفهم بالمسموع يسمّى فهماً، وتعلقها بكيفية النور وما يحمله من المرئيات يسمّى بصراً ورؤية، وتعلقها بإدراك كل مدرك الذي لا يصح تعلق من هذه التعلقات كلها إلاّ به يسمّى حياة، والعين في ذلك كله واحدة تعدّدت التعلقات لحقائق المتعلقات والأسماء للمسميات.

مسألة: للعقل نور يدرك به أمور مخصوصة، وللإيمان نور به يدرك كل شيء ما لم يقم مانع، فبنور العقل تصل إلى معرفة الألوهة وما يجب لها ويستحيل وما يجوز منها فلا يستحيل ولا يجب، وبنور الإيمان يدرك العقل معرفة الذات وما نسب الحق إلى نفسه من النعوت.

مسألة: لا يمكن عندنا معرفة كيفية ما ينسب إلى الذوات من الأحكام إلاَّ بعد معرفة الذوات المنسوبة والمنسوب إليها، وحينئذ تعرف كيفية النسبة المخصوصة لتلك الذات المخصوصة كالاستواء والمعية واليد والعين وغير ذلك.

مسألة: الأعيان لا تنقلب والحقائق لا تتبدل، فالنار تحرق بحقيقتها لا بصورتها، فقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٩] خطاب للصورة وهي الجمرات وأجرام الجمرات محرقة بالنار فلما قام النار بها سميت ناراً فتقبل البرد كما قبلت الحرارة.

مسألة: البقاء استمرار الوجود مثلاً على الباقي لا غير ليس بصفة زائدة فيحتاج إلى بقاء ويتسلسل إلا على مذهب الأشاعرة في المحدث فإن البقاء عرض فلا يحتاج إلى بقاء وإنما ذلك في بقاء الحق تعالىٰ.

مسألة: الكلام من حيث ما هو كلام واحد، والقسمة في المتكلم به لا في الكلام، فالأمر والنهي والخبر والاستخبار والطلب واحد في الكلام.

مسألة: الاختلاف في الاسم والمسمّى والتسمية اختلاف في اللفظ، فأما قول من قال: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٨] و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] فكالنهي بالسفر بالمصحف إلى أرض العدوّ، وأما القول في الحجة بأسماء سميتموها على أنّ الاسم هو المسمّى فالمعبود الأشخاص، فنسبة الألوهة عبدوا فلا حجة في أن الاسم هو المسمّى، ولو كان لكان بحكم اللغة والوضع لا بحكم المعنى.

مسألة: وجود الممكنات لكمال مراتب الوجود الذاتي والعرفاني لا غير.

مسألة: كل ممكن منحصر في أحد قسمين في ستر أو تجل فقد وجد الممكن على أقصى غاياته وأكملها فلا أكمل منه، ولو كان الأكمل لا يتناهى لما تصوّر خلق الكمال وقد وجد مطابقاً للحضرة الكمالية فقد كمل.

مسألة: المعلومات منحصرة من حيث ما تدرك به في حس ظاهر وباطن وهو الإدراك النفسيّ والبديهة، وما تركب من ذلك عقلاً إن كان معنى وخيالاً إن كان صورة، فالخيال لا يركب إلاَّ في الصور خاصة، فالعقل يعقل ما يركب الخيال، وليس في قوّة الخيال أن يصوّر بعض ما يركبه العقل، وللاقتدار الإلهيّ سرّ خارج عن هذا كله يقف عنده.

مسألة: الحسن والقبح ذاتيّ للحسن والقبيح، لكن منه ما يدرك حسنه وقبحه بالنظر إلى كمال أو نقص أو غرض أو ملايمة طبع أو منافرته أو وضع، ومنه ما لا يدرك قبحه ولا حسنه إلاَّ من جانب الحق الذي هو الشرع فنقول: هذا قبيح وهذا حسن وهذا من الشرع خبر لا حكم، ولهذا نقول بشرط الزمان والحال والشخص، وإنما شرطنا هذا من أجل من يقول في القتل ابتداء أو قوداً أو حداً، وفي إيلاج الذكر في الفرج سفاحاً ونكاحاً، فمن حيث هو إيلاج

واحد لسنا نقول كذلك فإن الزمان مختلف ولوازم النكاح غير موجودة في السفاح، وزمان تحليل الشيء ليس زمان تحريمه إن لو كان عين المحرم واحداً فالحركة من زيد في زمان ما ليست هي الحركة منه في الزمان الآخر، ولا الحركة التي من عمرو هي الحركة التي من زيد، فالقبيح لا يكون حسناً أبداً، لأن تلك الحركة الموصوفة بالحسن أو القبح لا تعود أبداً، فقد علم الحق ما كان حسناً وما كان قبيحاً ونحن لا نعلم، ثم إنه لا يلزم من الشيء إذا كان قبيحاً أن يكون أثره قبيحاً فقد يكون أثره حسناً، والحسن أيضاً كذلك قد يكون أثره قبيحاً كحسن الصدق وفي مواضع يكون أثره قبيحاً، وكقبح الكذب وفي مواضع يكون أثره حسناً، فتحقق ما نبهناك عليه تجد الحق.

مسألة: لا يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول، فعلى هذا لا يصحّ قول الحلوليّ: لو كان الله في شيء كما كان في عيسىٰ لأحيا الموتى.

مسألة: لا يلزم الراضي بالقضاء الرضى بالمقضيّ فالقضاء حكم الله وهو الذي أمرنا بالرضى به، والمقضيّ المحكوم به فلا يلزمنا الرضى به.

مسألة: إن أريد بالاختراع حدوث المعنى المخترع في نفس المخترع وهو حقيقة الاختراع فذلك على الله محال، وإن أريد بالاختراع حدوث المخترع على غير مثال سبقه في الوجود الذي ظهر فيه فقد يوصف الحق على هذا بالاختراع.

مسألة: ارتباط العالم بالله ارتباط ممكن بواجب ومصنوع بصانع، فليس للعالم في الأزل مرتبة فإنها مرتبة الواجب بالذات فهو الله ولا شيء معه، سواء كان العالم موجوداً أو معدوماً، فمن توهم بين الله والعالم بوناً يقدر تقدّم وجود الممكن فيه وتأخره فهو توهم باطل لا حقيقة له، فلهذا نزعنا في الدلالة على حدوث العالم خلاف ما نزعت إليه الأشاعرة وقد ذكرناه في هذا التعليق.

مسألة: لا يلزم من تعلق العلم بالمعلوم حصول المعلوم في نفس العالم ولا مثاله، وإنما العلم يتعلق بالمعلومات على ما هي المعلومات عليه في حيثيتها وجوداً وعدماً، فقول القائل إن بعض المعلومات له في الوجود أربع مراتب ذهنيّ وعينيّ ولفظيّ وخطيّ، فإن أراد بالذهن العلم فغير مسلم، وإن أراد بالذهن الخيال فمسلم، لكن في كل معلوم يتخيل خاصة وفي كل عالم يتخيل، ولكن لا يصحّ هذا إلاّ في الذهنيّ خاصة لأنه يطابق العين في الصورة، واللفظيّ والخطيّ ليسا كذلك، فإن اللفظ والخط موضوعان للدلالة والتفهيم فلا يتنزل من حيث الصورة على الصورة، فإن زيداً اللفظيّ والخطيّ إنما هو زاي وياء ودال رقماً أو لفظاً ماله يمين ولا شمال ولا جهات ولا عين ولا سمع فلهذا قلنا لا يتنزل عليه من حيث الصورة لكن من حيث الدلالة، ولذلك إذا وقعت فيه المشاركة التي تبطل الدلالة افتقرنا إلى النعت والبدل وعطف البيان ولا يدخل في الذهنيّ مشاركة أصلاً فافهم.

مسألة: كنّا حصرنا في كتاب المعرفة الأول ما للعقل من وجوه المعارف في العالم ولم ننبه من أين حصل لنا ذلك الحصر، فاعلم أن للعقل ثلاثمائة وستين وجهاً يقابل كل وجه من

جناب الحق العزيز ثلاثمائة وستين وجهاً يمده كل وجه منها بعلم لا يعطيه الوجه الآخر، فإذا ضربت وجوه العقل في وجوه الأخذ فالخارج من ذلك هي العلوم التي للعقل المسطرة في اللوح المحفوظ الذي هو النفس، وهذا الذي ذكرناه كشفاً إلهياً لا يحيله دليل عقل فيتلقى تسليماً من قائله أعني هذا، كما تلقى من القائل الحكيم الثلاثة الاعتبارات التي للعقل الأول من غير دليل لكن مصادرة فهذا أولى من ذلك، فإن الحكيم يدعي في ذلك النظر فيدخل عليه بما قد ذكرناه في عيون المسائل في مسألة الدرة البيضاء الذي هو العقل الأول، وهذا الذي ذكرناه لا يلزم عليه دخل فإنا ما ادّعيناه نظراً وإنما ادّعيناه تعريفاً، فغاية المنكر أن يقول للقائل: تكذب، ليس له غير ذلك كما يقول له المؤمن به: صدقت؛ فهذا فرقان بيننا وبين القائلين بالاعتبارات الثلاثة وبالله التوفيق.

مسألة: ما من ممكن من عالم الخلق إلاَّ وله وجهان: وجه إلى سببه ووجه إلى الله تعالىٰ، فكل حجاب وظلمة تطرأ عليه فمن سببه، وكل نور وكشف فمن جانب حقه، وكل ممكن من عالم الأمر فلا يتصوّر في حقه حجاب لأنه ليس له إلاَّ وجه واحد فهو النور المحض، ألا لله الدين الخالص.

مسألة: دلّ الدليل العقلي على أن الإيجاد متعلق القدرة وقال الحق عن نفسه إنّ الوجود يقع عن الأمر الإلهي فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فلا بدّ أن ننظر في متعلق الأمر ما هو وما هو متعلق القدرة حتى أجمع بين السمع والعقل فنقول: الامتثال قد وقع بقوله فيكون والمأمور به إنما هو الوجود، فتعلقت الإرادة بتخصيص أحد الممكنين وهو الوجود، وتعلقت القدرة بالممكن فأثرت فيه الإيجاد وهي حالة معقولة بين العدم والوجود، فتعلق الخطاب بالأمر لهذه العين المخصصة بأن تكون فامتثلت فكانت، فلولا ما كان للممكن عين ولا وصف لها بالوجود يتوجه على تلك العين الأمر بالوجود لما وقع الوجود؛ والقائل بتَهَيُّؤ المراد في شرح كن غير مصيب.

مسألة: معقولية الأولية للواجب الوجود بالغير نسبة سلبية عن وجود كون الوجوب المطلق فهو أول لكل مقيد، إذ يستحيل أن يكون له هناك قدم لأنه لا يخلو أن يكون بحيث الوجوب المطلق فيكون إما هو نفسه وهو محال وإما قائماً به وهو محال لوجوه منها أنه قائم بنفسه، ومنها ما يلزم للواجب المطلق لو قام به هذا من الافتقار فيكون إما مقوّماً لذاته وهو محال أو مقوّماً لمرتبته وهو محال.

مسألة: معقولية الأولية للواجب المطلق نسبة وضعية لا يعقل لها العقل سوى استناد الممكن إليه فيكون أولاً بهذا الاعتبار، ولو قدر أن لا وجود لممكن قوّة وفعلاً لانتفت النسبة الأولية إذ لا تجد متعلقاً.

مسألة: أعلم الممكنات لا يعلم موجده إلاَّ من حيث هو، فنفسه علم ومن هو موجود عنه غير ذلك لا يصحّ لأن العلم بالشيء يؤذن بالإحاطة به والفراغ منه وهذا في ذلك الجناب محال فالعلم به محال، ولا يصحّ أن يعلم منه لأنه لا يتبعض فلم يبق العلم إلاَّ بما يكون منه،

وما يكون منه هو أنت فأنت المعلوم، فإن قيل: علمنا بليس هو كذا علم به. قلنا: نعوتك جردته عنها لما يقتضيه الدليل من نفي المشاركة فتميزت أنت عندك عن ذات مجهولة لك من حيث ما هي معلومة لنفسها ما هي تميزت لك لعدم الصفات الثبوتية التي لها في نفسها فافهم ما علمت وقل رب زدني علماً لو علمته لم يكن هو ولو جهلك لم تكن أنت، فبعلمه أوجدك وبعجزك عبدته، فهو هو لهو لا لك، وأنت أنت لأنت وله، فأنت مرتبط به ما هو مرتبط بك، الدائرة مطلقة مرتبطة بالنقطة، النقطة مطلقة ليست مرتبطة بالدائرة، نقطة الدائرة مرتبطة بالدائرة، كذلك الذات مطلقة ليست مرتبطة بك، ألوهية الذات مرتبطة بالمألوه كنقطة الدائرة.

مسألة: متعلق رؤيتنا الحق ذاته سبحانه، ومتعلق علمنا به إثباته إلهاً بالإضافات والسلوب فاختلف المتعلق، فلا يقال في الرؤية إنها مزيد وضوح في العلم لاختلاف المتعلق، وإن كان وجوده عين ماهيته فلا ننكر أن معقولية الذات غير معقولية كونها موجودة.

مسألة أن العدم هو الشرّ المحض: لم يعقل بعض الناس حقيقة هذا الكلام لغموضه وهو قول المحققين من العلماء المتقدمين والمتأخرين، لكن أطلقوا هذه اللفظة ولم يوضحوا معناها، وقد قال لنا بعض سفراء الحق في منازلة في الظلمة والنور: إن الخير في الوجود والشرّ في العدم في كلام طويل علمنا أن الحق تعالىٰ له إطلاق الوجود من غير تقييد وهو الخير المحض الذي لا شرّ فيه، فيقابله إطلاق العدم الذي هو الشر المحض الذي لا خير فيه، فهذا هو معنى قولهم إن العدم هو الشرّ المحض.

مسألة: لا يقال من جهة الحقيقة إن الله جائز أن يوجد أمراً ما وجائز أن لا يوجده، فإن فعله للأشياء ليس بممكن بالنظر إليه ولا بإيجاب موجب، ولكن يقال ذلك الأمر جائز أن يوجد وجائز أن لا يوجد فيفتقر إلى مرجح وهو الله تعالىٰ، وقد تقصينا الشريعة فما رأينا فيها ما يناقض ما قلناه، فالذي نقول في الحق أنه تعالىٰ يجب له كذا ويستحيل عليه كذا، ولا نقول يجوز عليه كذا فهذه عقيدة أهل الاختصاص من أهل الله، وأما عقيدة خلاصة الخاصة في الله تعالىٰ فأمر فوق هذا جعلناه مبدأً في هذا الكتاب لكون أكثر العقول المحجوبة بأفكارها تقصر عن إدراكه لعدم تجريدها.

وقد انتهت مقدمة الكتاب وهي عليه كالعلاوة، فمن شاء كتبها فيه ومن شاء تركها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثالث والحمد لله.

(الجزء الرابع)

بسم الله الرحمن الرحيم

(الفصل الأول: في المعارف)

الباب الأول

في معرفة الروح الذي أخذت من تفصيل نشأته ما سطرته في هذا الكتاب وما كان بيني وبينه من الأسرار

فمن ذلك نظم: [الخفيف]

قلتُ عندَ الطوافِ كيفَ أطُوفُ ... وهو عن دَرْكِ سرِّنا مَكْفُوفُ

جَلْمَدٌ غيرُ عَاقِلٍ حركاتي ... قيل أنت المُحيَّرُ المَثْلوفُ

انظر البيتَ نورُهُ يتلالا ... لقلوبٍ تطهَّرَتْ مكشوفُ

نظَرَتْهُ بالله دونَ حجابٍ ... فبدا سرُّه العليُّ المنيفُ

وتجلَّى لها من أُفُقِ جلالي ... قمرُ الصدقِ ما اعتراه خُسوفُ

لو رأيتَ الوليَّ حين يراه ... قلتَ فِيه مُذلَةٌ ملْهُوفُ

يَلْثُمُ السرَّ في سوادِ يميني ... أي سِرّ لَوْ أنه معروفُ

جُهِلَتْ ذاتُه فقيلَ كثيفٌ ... عندَ قوم وعندَ قوم لطيفُ

قال لي حين قلت لِمْ جَهِلوهُ ... إنما يَعرِفُ الشريفَ الشريفُ

عرفوه فلازموه زماناً ... فتولاَّهُمُ الرحيمُ الرؤوفُ

واستقاموا فما يرى قَطُّ فيهم ... عن طوافِ بذاتهِ تَخريفُ

قُمْ فبشِّرْ عني مُجاورَ بيتي ... بأمانٍ ما عندَه تَخويفُ

إن أمِتْهُمْ فرَّحْتُهم بلقائي ... أو يعيشوا فالثَّوْبُ منهم نَظيفُ

اعلم أيها الوليّ الحميم، والصفي الكريم، أني لما وصلت إلى مكة البركات، ومعدن السكنات الروحانية والحركات، وكان من شأني فيه ما كان، طفت ببيته العتيق في بعض الأحيان، فبينا أنا أطوف مسبحاً وممجداً ومكبراً ومهللاً، تارة ألثم وأستلم وتارة للملتزم ألتزم، إذ لقيت وأنا عند الحجر الأسود باهت الفتى الفائت، المتكلم الصامت، الذي ليس بحي ولا مائت، المركب البسيط، المحاط المحيط، فعندما أبصرته يطوف بالبيت، طواف الحي بالميت، عرفت حقيقته ومجازه، وعلمت أن الطواف بالبيت كالصلاة على الجنازة، وأنشدت الفتى المذكور ما تسمعه من الأبيات عندما رأيت الحي طائفاً بالأموات شعر: [الطويل]

ولما رأيتُ البيتَ طافَتْ بذاتِهِ ... شُخُوصٌ لهم سِرُّ الشريعةِ غَيْبِيْ

وطافَ به قومٌ هُمُ الشَّرْعُ والحِجَا   وهم كُحْلُ عينِ الكشفِ ما هُمْ بِهِ عُمِيّ
تعجَّبْتُ من مَيْتٍ يطوفُ به حيٌّ   عزيزٌ وحيدُ الدهرِ ما مِثْلُه شَيّ
تَجَلَّى لنا من نور ذاتِ مَجَلِّهِ   وليس من الأملاكِ بلْ هوَ إنسِيّ
تيقَّنتُ أن الأمرَ غَيْبٌ وأنه   لدى الكشفِ والتحقيقِ حيٌّ ومَرْئيّ

قلت فعندما وقعت مني هذه الأبيات، وألحقت بيته المكرم من جهة ما بجانب الأموات، خطفني مني خطفة قاهر، وقال لي قولة رادع زاجر: انظر إلى سر البيت قبل الفوت تجده زاهياً بالمطيفين والطائفين بأحجاره، ناظراً إليهم من خلف حجبه وأستاره، فرأيته يزهو كما قال، فأفصحت له في المقال، وأنشدته في عالم المثال على الارتجال: [الطويل]

أرى البيتَ يزهو بالمطيفينَ حَولَهُ   وما الزَّهْوُ إلاَّ من حكيم لهُ صُنْعُ
وهذا جمادٌ لا يحسُّ ولا يرى   وليسَ له عقلٌ وليس له سَمْعُ
فقال شُخَيْصٌ هذه طاعةٌ لنا   قَدَ أثبتها طولَ الحياةِ لنا الشَّرْعُ
فقلت لُه هذا بلاغُكَ فاستَمِعْ   مقالةَ من أبدى له الحكمةَ الوضْعُ
رأيتَ جماداً لا حياةَ بذاتِهِ   وليس له ضَرٌّ وليس له نَفْعُ
ولكِنْ لعينِ القلبِ فيه مَناظِرٌ   إذا لم يكن بالعينِ ضَعْفٌ ولا صَدْعُ
يراه عزيزاً إن تجلَّى بذاتِهِ   فليسَ لمخلوقٍ على حَمْلِهِ وُسْعُ
فكنتَ أبا حفصٍ وكنتَ عَلِيَّنا   فمني العطاءُ الجَزْلُ والقَبْضُ والمَنْعُ

وصل: ثم إنه أطلعني على منزلة ذلك الفتى، ونزاهته عن أين ومتى، فلما عرفت منزلته وإنزاله، وعاينتُ مكانته من الوجود وأحواله، قبلت يمينه ومسحت من عرق الوحي جبينه، وقلت له: انظر من طالب مجالستك وراغب في مؤانستك، فأشار إلي إيماء ولغزاً أنه فطر على أن لا يكلم أحداً إلاَّ رمزاً، وأن رمزي إذا علمته، وتحققته وفهمته، علمت أنه لا تدركه فصاحة الفصحاء، ونطقه لا تبلغه بلاغة البلغاء، فقلت له يا أيها البشير، وهذا خير كثير، فعرفني باصطلاحك، وأوقفني على كيفية حركات مفتاحك، فإني أريد مسامرتك وأحب مصاهرتك، فإن عندك الكفؤ والنظير، وهو النازل بذاتك والأمير، ولولا ما كانت لك حقيقة ظاهره، ما تطلعت إليه وجوه ناضرة ناظره، فأشار فعلمت، وجلى لي حقيقة جماله فهيمت، فسقط في يديّ، وغلبني في الحين عليّ، فعندما أفقت من الغشيه، وأرعدت فرائصي من الخشيه، علم أن العلم به قد حصل، وألقى عصا سيره ونزل، فتلا حاله عليّ ما جاءت به الأنباء، وتنزلت به الملائكة الأمناء، إنما يخشى الله من عباده العلماء، فجعلها دليلاً، واتخذها إلى معرفة العلم الحاصل به سبيلاً، فقلت له أطلعني على بعض أسرارك، حتى أكون من جملة أحبارك، فقال: انظر في تفاصيل نشأتي، وفي ترتيب هيأتي، تجد ما سألتني عنه فيّ مرقوماً، فإني لا أكون مكلماً ولا كليماً، فليس علمي بسواي، وليست ذاتي مغايرة لأسمائي، فأنا العلم والمعلوم والعليم، وأنا الحكمة والمحكم والحكيم، ثم قال لي طف على أثري، وانظر إليّ بنور قمري، حتى تأخذ من نشأتي ما تسطره في كتابك، وتمليه على كتابك،

وعرّفني ما أشهدك الحق في طوافك من اللطائف، مما لا يشهده كل طائف، حتى أعرف همتك ومعناك، فأذكرك على ما علمت منك هناك، فقلت أنا أعرفك أيها الشاهد المشهود، ببعض ما أشهدني من أسرار الوجود، المترفلات في غلائل النور، والمتحدات العين من وراء الستور، التي أنشأها الحق حجاباً مرفوعاً وسماء موضوعاً، والفعل بالنظر إلى الذات لطيف، ولعدم دركه على شريف. [السريع]

فوصفه ألطف من ذاته ... وفعله ألطف من وصفه

وأودع الكل بذاتي كما ... أودع معنى الشيء في حرفه

فالخلق مطلوب لمعنى كما ... يطلب ذات المسك من عرفه

ولولا ما أودع في ما اقتصته حقيقتي، ووصلت إليه طريقتي، لم أجد لمشربه نيلاً، ولا إلى معرفته ميلاً، ولذلك أعود على عند النهاية ولهذا يرجع فخذ البركار في فتح الدائرة عند الوصول إلى غاية وجودها إلى نقطة البداية، فارتبط آخر الأمر بأوله، وانعطف أبده على أزله، فليس إلاّ وجود مستمر، وشهود ثابت مستقر، وإنما طال الطريق، من أجل رؤية المخلوق، فلو صرف العبد وجهه إلى الذي يليه من غير أن يحل فيه لنظر إلى السالكين إذا وصلوا، بعين بئس والله ما فعلوا، ولو عرفوا من مكانهم ما انتقلوا، لكن حجبوا بشفعية الحقائق، عن وترية الحق الخالق، الذي خلق الله به الأرض والطرائق، فنظروا مدارج الأسماء، وطلبوا معارج الإسراء، وتخيلوها أعظم منزلة تطلب، وأسنى حالة يقصد الحق تعالىٰ فيها ويرغب، فسير بهم على براق الصدق ورفارفه، وحققهم بما عاينوه من آياته ولطائفه، وذلك لما كانت النظرة شمالية، وكانت الفطرة على النشأة الكماليه، تقابل بوجهها في أصل الوضع نقطة الدائرة، فشطر مهجتها من الجانب الأيمن منقبة ومن الجانب الغربي سافره، فلو سفرت عن اليمين، لنالت من أول طرفتها مقام التمكين في مشاهدة التعيين، ويا عجباً لمن هو في أعلى عليين، ويتخيل أنه في أسفل سافلين، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، فشمالها يمين مديرها، ووقوفها في موضعها الذي وجدت فيه غاية مسيرها، فإذا ثبت عند العاقل ما أشرت إليه وصحّ، وعلم أن إليه المرجع فمن موقفه لم يبرح لكن يتخيل المسكين القرع والفتح، ويقول وهل في مقابلة الضيق والحرج إلاّ السعة والشرح، ثم يتلو ذلك قرآناً على الخصماء، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٥]، فكما أن الشرح لا يكون إلاّ بعد الضيق، كذلك المطلوب لا يحصل إلاّ بعد سلوك الطريق، وغفل المسكين عن تحصيل ما حصل له بالإلهام، مما لا يحصل إلاّ بالفكر والدليل عند أهل النهى والأفهام، ولقد صدق فيما قال، فإنه ناظر بعين الشمال، فسلموا له حاله، وثبتوا له محاله، وضعفوا منه محاله، وقولوا له عليك بالاستعانة إن أردت الوصول إلى ما منه خرجت لا محالة، واستروا عنه مقام المجاورة، وعظموا له أجر التزاور والمزاورة والموازره، فسيحزن عند الوصول إلى ما منه سار، وسيفرح بما حصل في طريقه من

الأسرار وصار، ولولا ما طلب الرسول ﷺ بالمعراج ما رحل، ولا صعد إلى السماء ولا نزل، وكان يأتيه شأن الملأ الأعلى وآيات ربّه في موضعه، كما زويت له الأرض وهو في مضجعه، ولكنه سرّ إلهيّ لينكره من شاء، لأنه لا يعطيه الإنشاء ويؤمن به من شاء، لأنه جامع للأشياء، فعندما أتيت على هذا العلم الذي لا يبلغه العقل وحده ولا يحصله على الاستيفاء الفهم، قال: لقد أسمعتني سرّاً غريباً، وكشفت لي معنى عجيباً، ما سمعته من وليّ قبلك، ولا رأيت أحداً تممت له هذه الحقائق مثلك، على أنها عندي معلومة، وهي بذاتي مرقومة، ستبدو لك عند رفع ستاراتي، واطلاعك على إشاراتي، ولكن أخبرني ما أشهدك عندما أنزلك بحرمه، وأطلعك على حرمه.

مشاهدة مشهد البيعة الإلهية:

قلت اعلم يا فصيحاً لا يتكلم، وسائلاً عما يعلم، لما وصلت إليه من الإيمان، ونزلت عليه في حضرة الإحسان، أنزلني في حرمه، وأطلعني على حرمه، وقال: إنما أكثرت المناسك، رغبة في التماسك، فإن لم تجدني هنا وجدتني هنا، وإن احتجبت عنك في جمع تجليت لك في منى، مع أني قد أعلمتك في غير ما موقف من مواقفك، وأشرت به إليك غير مرة في بعض لطائفك، أني وإن احتجبت فهو تجلّ لا يعرفه كل عارف، إلاّ من أحاط علماً بما أحطت به من المعارف، ألا تراني أتجلى لهم في القيامة، في غير الصورة التي يعرفونها والعلامة، فينكرون ربوبيتي ومنها يتعوّذون، وبها يتعوّذون ولكن لا يشعرون، ولكنهم يقولون لذلك المنجلي: نعوذ بالله منك وها نحن لربنا منتظرون، فحينئذ أخرج عليهم في الصورة التي لديهم فيقرّون لي بالربوبية، وعلى أنفسهم بالعبودية، فهم لعلامتهم عابدون، وللصورة التي تقرّرت عندهم مشاهدون، فمن قال منهم أنه عبدني فقوله زور وقد باهتني، وكيف يصحّ منه ذلك وعندما تجليت له أنكرني، فمن قيدني بصورة دون صورة، فتخيله عبد وهو الحقيقة الممكنة في قلبه المستورة، فهو يتخيل أنه يعبدني وهو يجحدني، والعارفون ليس في الإمكان خفائي عن أبصارهم، لأنهم غابوا عن الخلق وعن أسرارهم، فلا يظهر لهم عندهم سوائي، ولا يعقلون من الموجودات سوى أسمائي، فكل شيء ظهر لهم وتجلى، قالوا أنت المسبح الأعلى، فليسوا سواء فالناس بين غائب وشاهد، وكلاهما عندهم شيء واحد.

فلما سمعت كلامه، وفهمت إشاراته وأعلامه، جذبني جذبة غيور إليه، وأوقفني بين يديه.

مخاطبات التعليم والألطاف بسر الكعبة من الوجود والطواف:

ومد اليمين فقبلتها، ووصلتني الصورة التي تعشقتها، فتحول لي في صورة الحياة، فتحولتُ له في صورة الممات، فطلبت الصورة تبايع الصورة، فقالت لها: لم تحسني السيرة! وقبضت يمينها عنها وقالت لها: ما عرفت لها في عالم الشهادة كنهاً، ثم تحول لي في صورة البصر، فتحولت له في صورة من عمي عن النظر، وذلك بعد انقضاء شوط، وتخيل نقض شرط، فطلبت الصورة تبايع الصورة، فقالت لها مثل المقالة المذكورة، ثم تحول لي في

صورة العلم الأعم، فتحوّلت له في صورة الجهل الأتم، فطلبت الصورة تابع الصورة، فقالت لها المقالة المشهورة، ثم تحوّل لي في صورة سماع النداء، فتحوّلت له في صورة الصمم عن الدعاء، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأسدل الحق بينهما ستوره، ثم تحوّل لي في صورة الخطاب، فتحوّلت له في صورة الخرس عن الجواب، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأرسل الحق بينهما رقوم اللوح وسطوره، ثم تحوّل لي في صورة الإرادة، فتحوّلت له في صورة قصور الحقيقة والعادة، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأفاض الحق بينهما ضياءه ونوره، ثم تحوّل لي في صورة القدرة والطاقة، فتحوّلت له في صورة العجز والفاقة، فطلبت الصورة تابع الصورة، فأبدى الحق للعبد تقصيره، فقلت لما رأيت ذلك الإعراض، وما حصل لي تمام الآمال والأغراض، لم أبيت علي ولم تف بعهدي، فقال لي أنت أبيت على نفسك يا عبدي، لو قبلت الحجر في كل شوط أيها الطائف، لقبلت يميني هنا في هذه الصور اللطائف، فإنّ بيتي هناك بمنزلة الذات، وأشواط الطواف بمنزلة السبع الصفات، صفات الكمال لا صفات الجلال، لأنها صفات الاتصال بك والانفصال، فسبعة أشواط لسبع صفات، وبيت قائم يدل على ذات، غير أني أنزلته في فرشي، وقلت للعامّة: هذا عندكم بمنزلة عرشي، وخليفتي في الأرض هو المستوى عليه والمحتوى، فانظر إلى الملك معك طائفاً وإلى جانبك واقفاً، فنظرت إليه فعاد إلى عرشه، وناه علي بسموّ نعشه، فتبسمت جذلاً وقلت مرتجلاً: [السريع]

يا كعبةً طافَ بها المرسَلُونْ ... من بعدِ ما طافَ بها المُكْرَمونْ
ثم أتى من بعدِهِمْ عالَمٌ ... طافوا بها من بين عالٍ وَدُونْ
أنزلها مثلاً إلى عَرْشِهِ ... ونحنُ حافُونَ لها مكرمون
فإن يَقُلْ أعظمُ حافٍ به ... إني أنا خيرٌ فهل تسْمَعونْ
والله ما جاء بنصّ ولا ... أتى لنا إلاَّ بما لا يَبِينْ
هل ذاكَ إلاَّ النُّورُ حفَّتْ به ... أنوارُهمْ ونحن ماءٌ مَهِينْ
فانجذب الشيءُ إلى مِثْلِهِ ... وكلُّنا عبدٌ لديه مَكِينْ
هلا رأَوْا ما لم يَرَوْا أنهم ... طافوا بما طفْنَا وليسوا بِطِينْ
لو جُرِّدَ الألطفُ منا اسْتَوَى ... على الذي حَفُّوا به طائفينْ
قُدْسُهُمُو أن يجهلوا حقَّ مَنْ ... قد سخَّر الله له العالَمِينْ
كيف لهم وعِلْمُهم أنني ... ابْنُ الذي خرُّوا له ساجِدينْ
واعترفوا بعدَ اعتراضٍ على ... والِدِنا بكونِهم جاهِلِينْ
وأبْلَسَ الشخصُ الذي قد أَبَى ... وكان للفَضْلِ من الجاحِدينْ
قُدْسُهُمُو قُدْسُهُمُو أنهم ... قد عُصِموا من خطأ المُخْطِئينْ

قلت: ثم صرفت عنه وجه قلبي، وأقبلت به على ربي، فقال لي: انتصرت لأبيك، حلت بركتي فيك، اسمع منزلة من أثنيت عليها، وما قدمته من الخير بين يديها، وأين منزلتك

من منازل الملائكة المقرّبين، صلوات الله عليكم وعليهم أجمعين، كعبتي هذه قلب الوجود، وعرشي لهذا القلب جسم محدود، وما وسعني واحد منهما، ولا أخبر عني بالذي أخبرت عنهما، وبيتي الذي وسعني قلبك المقصود، المودع في جسدك المشهود، فالطائفون بقلبك الأسرار، فهم بمنزلة أجسادكم عند طوافها بهذه الأحجار، فالطائفون الحافون بعرشنا المحيط، كالطائفين منك بعالم التخطيط، فكما أنّ الجسم منك في الرتبة دون قلبك البسيط، كذلك هي الكعبة مع العرش المحيط، فالطائفون بالكعبة بمنزلة الطائفين بقلبك لاشتراكهما في القلبية، والطائفون بجسمك كالطائفين بالعرش لاشتراكهما في الصفة الإحاطية، فكما أن عالم الأسرار الطائفين بالقلب الذي وسعني أسنى منزلة من غيرهم وأعلى، كذلك أنتم بنعت الشرف والسيادة على الطائفين بالعرش المحيط أولى، فإنكم الطائفون بقلب وجود العالم، فأنتم بمنزلة أسرار العلماء وهم الطائفون بجسم العالم، فهم بمنزلة الماء والهواء، فكيف تكونون سواء؟ وما وسعني سواكم، وما تجليت في صورة كمال إلاّ في معناكم، فاعرفوا قدر ما وهبتكموه من الشرف العالي، وبعد هذا فأنا الكبير المتعالي، لا يحدني الحد، ولا يعرفني السيد ولا العبد، تقدست الألوهة فتنزهت أن تدرك، وفي منزلتها أن تشرك، أنت الأنا، وأنا أنا فلا تطلبني فيك فتعنى، ولا من خارج فما تتهنى، ولا تترك طلبي فتشقى، فاطلبني حتى تلقاني فترقى، ولكن تأدّب في طلبك، واحضر عند شروعك في مذهبك، وميّز بيني وبينك فإنك لا تشهدني وإنما تشهد عينك، فقف في صفة الاشتراك، وإلاّ فكن عبداً وقل العجز عن درك الإدراك إدراك، تلحق في ذلك عتيقاً، وتكن المكرم الصديقا، ثم قال لي: اخرج عن حضرتي، فمثلك لا يصلح لخدمتي، فخرجت طريداً، فضج الحاضر فقال ذرني ومن خلقت وحيداً، ثم قال: ردّوه فرددت، وبين يديه من ساعتي وجدت، وكأني ما زلت عن بساط شهوده، وما برحت من حضرة وجوده، فقال: كيف يدخل علي في حضرتي من لا يصلح لخدمتي، لو لم تكن عندك الحرمة التي توجب الخدمة، ما قبلتك الحضرة، ولزمت بك في أول نظرة، وها أنت فيها، وقد رأيت من برهانك وتخفيها، ما يزيدك احتراماً، وعند تجليها احتشاماً.

ثم قال: لِمَ لَمْ تسألني حين أمرت بإخراجك، وردّك على معراجك، وأعرفك صاحب حجة ولسان، ما أسرع ما نسيت أيها الإنسان؟ فقلت: بهرني عظيم مشاهدة ذاتك، وسقط في يدي لقبضك يمين البيعة في تجلياتك، وبقيت أردّد النظر، ما الذي طرأ في الغيب من الخبر، فلو التفت في ذلك الوقت إليّ لعلمت أن مني أتى عليّ، ولكن الحضرة تعطى أن لا يشهد سواها، وأن لا ينظر إلى محيا غير محياها، فقال: صدقت يا محمد، فاثبت في المقام الأوحد، وإياك والعدد، فإن فيه هلاك الأبد. ثم اتفقت مخاطبات وأخبار، أذكرها في باب الحج ومكة مع جملة أسرار.

وصل: فقال النجيّ الوفيّ: يا أكرم وليّ وصفيّ، ما ذكرت لي أمراً إلاّ أنا به عالم، وهو بذاتي مسطر قائم. قلت: لقد شوقتني إلى التطلع إليك منك حتى أخبر عنك، فقال نعم

أيها الغريب الوارد، والطالب القاصد، ادخل معي كعبة الحجر، فهو البيت المتعالي عن الحجاب والستر، وهو مدخل العارفين، وفيه راحة الطائفين، فدخلت معه بيت الحجر في الحال، وألقى يده على صدري وقال: أنا السابع في مرتبة الإحاطة بالكون، وبأسرار وجود العين والأين، أوجدني الحق قطعة نور حوّائي ساذجة، وجعلني للكليات ممازجة، فبينا أنا متطلع لما يلقى لديّ أو ينزل عليّ، وإذا بالعلم القلميّ الأعلى، قد نزل بذاتي من منازله العلى، راكباً على جواد قائم على ثلاث قوائم فنكس رأسه إلى ذاتي، فانتشرت الأنوار والظلمات، ونفث في روعي جميع الكائنات، ففتق أرضي وسمائي، وأطلعني على جميع أسمائي، فعرفت نفسي وغيري، وميّزت بين شرّي وخيري، وفصلت ما بين خالقي وحقائقي، ثم انصرف عني ذلك الملك، وقال تعلم أنك حضرت الملك، فتهيأت للنزول وورود الرسول، فتجارت الأملاك إليّ، ودارت الأفلاك عليّ، والكل ليميني مقبلون، وعلى حضرتي مقبلون، وما رأيت ملكاً نزل، ولا ملكاً عن الوقوف بين يدي انتقل، ولحظت في بعض جوانبي فرأيت صورة الأزل، فعلمت أنّ النزول محال، فثبت على ذلك الحال، وأعلمت بعض الخاصة ما شهدت، وأطلعتهم مني على ما وجدت، فأنا الروضة اليانعة، والثمرة الجامعة، فارفع ستوري، واقرأ ما تضمنته سطوري، فما وقفت عليه مني فاجعله في كتابك، وخاطب به جميع أحبابك، فرفعت ستوره، ولحظت مسطوره، فأبدى لعينيّ نوره المودع فيه، ما يتضمنه من العلم المكنون ويحويه، فأول سطر قرأته، وأوّل سرّ من ذلك السطر علمته، ما أذكره الآن في هذا الباب الثاني والله سبحانه يهدي إلى العلم وإلى طريق مستقيم.

الباب الثاني
في معرفة مراتب الحروف والحركات من العالم وما لها من الأسماء الحسنى، ومعرفة الكلمات ومعرفة العلم والعالم والمعلوم

اعلم أن هذا الباب على ثلاثة فصول: الفصل الأول: في معرفة الحروف. الفصل الثاني: في معرفة الحركات التي تتميز بها الكلمات. الفصل الثالث: في معرفة العلم والعالم والمعلوم.

الفصل الأول: في معرفة الحروف ومراتبها والحركات وهي الحروف الصغار وما لها من الأسماء الإلهية:

[نظم: الكامل]

إن الـحـروفَ أئـمـةُ الألـفـاظِ ... شَـهِـدَتْ بـذلـك ألْـسُـنُ الـحُـفَّـاظِ
دارتْ بـهـا الأفـلاكُ فـي مَـلَـكُـوتِـهِ ... بـيـن الـنِّـيـام الـخُـرْس والأيْـقَـاظِ
ألْـحَـظْـتُـهـا الأسـمـاءَ من مـكـنـونـهـا ... فـبـدتْ تَـعِـزُّ لـذلـك الإلْـحَـاظِ
وتـقـول لـولا فَـيْـضُ جُـودي مـا بَـدَتْ ... عـنـدَ الـكـلام حـقـائـقُ الألْـفَـاظِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أنه لما كان الوجود مطلقاً من غير تقييد يتضمن المكلف وهو الحق تعالىٰ، والمكلفين وهم العالم، والحروف جامعة لما ذكرنا، أردنا أن نبيّن مقام المكلف من هذه الحروف من المكلفين من وجه دقيق محقق، لا يتبدل عند أهل الكشف إذا وقفوا عليه، وهو مستخرج من البسائط التي عنها تركبت هذه الحروف التي تسمى حروف المعجم بالاصطلاح العربي في أسمائها، وإنما سميت حروف المعجم لأنها عجمت على الناظر فيها معناها، ولما كوشفنا على بسائط الحروف وجدناها على أربع مراتب:

(حروف) مرتبتها سبعة أفلاك وهي: الألف والزاي واللام. **(وحروف)** مرتبتها ثمانية أفلاك وهي: النون والصاد والضاد. **(وحروف)** مرتبتها تسعة أفلاك وهي: العين والغين والسين والشين. **(وحروف)** مرتبتها عشرة أفلاك وهي باقي حروف المعجم، وذلك ثمانية عشر حرفاً كل حرف منها مركّب عن عشرة، كما أنّ كل حرف من تلك الحروف منها ما هو عن تسعة أفلاك وعن ثمانية وعن سبعة لا غير كما ذكرناه، فعدد الأفلاك التي عنها وجدت هذه الحروف وهي البسائط التي ذكرناها مائتان وأحد وستون فلكاً.

أما المرتبة السبعية فالزاي واللام منها دون الألف فطبعها الحرارة واليبوسة، **وأمّا** الألف فطبعها الحرارة والرطوبة واليبوسة والبرودة، ترجع مع الحار حارة ومع الرطب رطبة ومع البارد باردة ومع اليابس يابسة على حسب ما تجاوره من العوالم.

وأما المرتبة الثمانية فحروفها حارة يابسة.

وأما المرتبة التسعية فالعين والغين طبعهما البرودة واليبوسة. **وأما** السين والشين فطبعهما الحرارة واليبوسة.

وأما المرتبة العشرية فحروفها حارة يابسة إلاّ الحاء المهملة والخاء المعجمة فإنهما باردتان يابستان، وإلاّ الهاء والهمزة فإنهما باردتان رطبتان.

فعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد الحرارة مائتا فلك وثلاثة أفلاك، وعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد اليبوسة مائتا فلك وأحد وأربعون فلكاً، وعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد البرودة خمسة وستون فلكاً، وعدد الأفلاك التي عن حركتها توجد الرطوبة سبعة وعشرون فلكاً مع التوالج والتداخل الذي فيها على حسب ما ذكرناه آنفاً، فسبعة أفلاك توجد عن حركتها العناصر الأول الأربعة، وعنها يوجد حرف الألف خاصة، ومائة وستة وتسعون فلكاً توجد عن حركتها الحرارة واليبوسة خاصة لا يوجد عنها غيرهما البتة، وعن هذه الأفلاك يوجد حرف الباء والجيم والدال والواو والزاي والطاء والياء والكاف واللام والميم والنون والصاد والفاء والضاد والقاف والراء والسين والتاء والثاء والذال والظاء والشين، وثمانية وثمانون فلكاً يوجد عن حركتها البرودة واليبوسة خاصة، وعن هذه الأفلاك يوجد حرف العين والحاء والغين والخاء، وعشرون فلكاً توجد عن حركتها البرودة والرطوبة خاصة، وعن هذه الأفلاك يوجد حرف الهاء والهمزة، وأما لام ألف فممتزج من السبعة والمائة والستة والتسعين إذا كان مثل قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦١] فإن كان مثل قوله

تعالىٰ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ [سورة الحشر: الآية ١٣] فامتزاجه من المائة والستة والتسعين ومن العشرين وليس في العالم فلك يوجد عنه الحرارة والرطوبة خاصة دون غيرهما.

فإذا نظرت في طبع الهواء عثرت على الحكمة التي منعت أن يكون له فلك مخصوص، كما أنه ما ثَمَّ فلك يوجد عنه واحد من هذه العناصر الأول على انفراد، فالهاء والهمزة يدور بهما الفلك الرابع ويقطع الفلك الأقصى في تسعة آلاف سنة، وأما الحاء والخاء والعين والغين فيدور بها الفلك الثاني ويقطع الفلك الأقصى في إحدى عشرة ألف سنة، وباقي الحروف يدور بها الفلك الأول ويقطع الفلك الأقصى في اثنتي عشرة ألف سنة وهو على منازل في أفلاكها، فمنها ما هو على سطح الفلك، ومنها ما هو في مقعر الفلك، ومنها ما هو بينهما، ولولا التطويل لبيّنا منازلها وحقائقها، ولكن سنلقي من ذلك ما يشفي في الباب الستين من أبواب هذا الكتاب إن ألهمنا الحق ذلك عند كلامنا في معرفة العناصر وسلطان العالم العلويّ على العالم السفليّ، وفي أيّ دورة كان وجود هذا العالم الذي نحن فيه الآن من دورات الفلك الأقصى، وأيّ روحانية تنظرنا فلنقبض العنان حتى نصل إلى موضعه أو يصل موضعه إن شاء الله.

فلنرجع ونقول: إنّ المرتبة السبعية التي لها الزاي والألف واللام جعلناها للحضرة الإلهية المكلفة أي نصيبها من الحروف، وإن المرتبة الثمانية التي هي النون والصاد والضاد جعلناها حظ الإنسان من عالم الحروف، وإن المرتبة التسعية التي هي العين والغين والسين والشين جعلناها حظ الجنّ من عالم الحروف، وأن المرتبة العشرية وهي المرتبة الثانية من المراتب الأربعة التي هي باقي الحروف جعلناها حظ الملائكة من عالم الحروف، وإنما جعلنا هذه الموجودات الأربعة لهذه الأربع مراتب من الحروف على هذا التقسيم لحقائق عسرة المدرك يحتاج ذكرها وبيانها إلى ديوان بنفسه، ولكن قد ذكرناه حتى نتمّه في كتاب المبادي والغايات فيما تحوي عليه حروف المعجم من العجائب والآيات وهو بين أيدينا ما كمل، ولا قيد منه إلاَّ أوراق متفرقة يسيرة، ولكن سأذكر منه في هذا الباب لمحة بارق إن شاء الله:

فحصلت الأربعة للجن الناري لحقائق هم عليها وهي التي أدّتهم لقولهم فيما أخبر الحق تعالىٰ عنهم: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] وفرغت حقائقهم ولم تبق لهم حقيقة خامسة يطلبون بها مرتبة زائدة، وإياك أن تعتقد أن ذلك جائز لهم وهو أن يكون لهم العلو، وما يقابله اللذان تتم بهما الجهات الستة فإن الحقيقة تأبى ذلك على ما قرّرناه في كتاب المبادي والغايات وبيّنا فيه لِمَ اختصوا بالعين والغين والسين والشين دون غيرها من الحروف والمناسبة التي بين هذه الحروف وبينهم، وأنهم موجودون عن الأفلاك التي عنها وجدت هذه الحروف.

وحصل للحضرة الإلهية من هذه الحروف ثلاثة لحقائق هي عليها أيضاً وهي: الذات والصفة والرابط بين الذات والصفة وهي القبول أي بها كان القبول لأن الصفة لها تعلُّق بالموصوف بها وبمتعلقها الحقيقيّ لها، كالعلم يربط نفسه بالعالم به وبالمعلوم، والإرادة تربط

نفسها بالمريد بها وبالمراد لها، والقدرة تربط نفسها بالقادر بها وبالمقدور لها، وكذلك جميع الأوصاف والأسماء وإن كانت نسباً وكانت الحروف التي اختصت بها الألف والزاي واللام تدل على معنى نفي الأولية وهو الأزل، وبسائط هذه الحروف واحدة في العدد، فما أعجب الحقائق لمن وقف عليها فإنه يتنزّه فيما يجهله الغير وتضيق صدور الجهلاء به، وقد تكلمنا أيضاً في المناسبة الجامعة بين هذه الحروف وبين الحضرة الإلهية في الكتاب المذكور.

وكذلك حصل للحضرة الإنسانية من هذه الحروف ثلاثة أيضاً كما حصل للحضرة الإلهية فاتفقا في العدد غير أنها حرف النون والصاد والضاد ففارقت الحضرة الإلهية من جهة موادّها، فإن العبودية لا تشرك الربوبية في الحقائق التي بها يكون إلهاً، كما أن بحقائقه يكون العبد مألوهاً، وبما هو على الصورة اختصّ بثلاثة كهو، فلو وقع الاشتراك في الحقائق لكان إلهاً واحداً أو عبداً واحداً أعني عيناً واحدة وهذا لا يصحّ، فلا بدّ أن تكون الحقائق متباينة ولو نسبت إلى عين واحدة، ولهذا باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، ولم يقل باينهم بعلمه كما باينوه بعلمهم فإن فلك العلم واحد قديماً في القديم محدثاً في المحدث، واجتمعت الحضرتان في أن كل واحدة منهما معقولة من ثلاث حقائق ذات صفة ورابطة بين الصفة والموصوف بها.

غير أن العبد له ثلاثة أحوال: حالة مع نفسه لا غير وهو الوقت الذي يكون فيه نائم القلب عن كل شيء وحالة مع الله وحالة مع العالم. والباري سبحانه مباين لنا فيما ذكرناه فإن له حالين حال من أجله وحال من أجل خلقه وليس فوقه موجود، فيكون له تعالىٰ وصف تعلّق به، فهذا بحر آخر لو خضنا فيه لجاءت أمور لا يطاق سماعها، وقد ذكرنا المناسبة التي بين النون والصاد والضاد التي للإنسان، وبين الألف والزاي واللام التي هي للحضرة الإلهية في كتاب المبادي والغايات. وإن كانت حروف الحضرة الإلهية عن سبعة أفلاكٍ والإنسانية عن ثمانية أفلاك فإن هذا لا يقدح في المناسبة لتبيّن الإله والمألوه، ثم إنه في نفس النون الرقمية التي هي شطر الفلك من العجائب ما لا يقدر على سماعها إلاّ من شدّ عليه مئزر التسليم، وتحقق بروح الموت الذي لا يتصور ممّن قام به اعتراض ولا تطلع، وكذلك في نفس نقطة النون أوّل دلالة النون الروحانية المعقولة فوق شكل النون السفلية التي هي النصف من الدائرة، والنقطة الموصولة بالنون المرقومة الموضوعة أوّل الشكل التي هي مركز الألف المعقولة التي بها يتميز قطر الدائرة، والنقطة الأخيرة التي ينقطع بها شكل النون وينتهي بها هي رأس هذا الألف المعقولة المتوهمة فنقدر قيامها من رقدتها فترتكز لك على النون، فيظهر من ذلك حرف اللام والنون نصفها زاي مع وجود الألف المذكورة فتكون النون بهذا الاعتبار تعطيك الأزل الإنسانيّ، كما أعطاك الألف والزاي واللام في الحق، غير أنه في الحق ظاهر لأنه بذاته أزليّ لا أول له، ولا مفتتح لوجوده في ذاته بلا ريب ولا شك.

ولبعض المحققين كلام في الإنسان الأزليّ، فنسب الإنسان إلى الأزل فالإنسان خفي فيه الأزل فجهل لأن الأزل ليس ظاهراً في ذاته، وإنما صحّ فيه الأزل لوجه ما من وجوه

وجوده منها أن الموجود يطلق عليه الوجود في أربع مراتب: وجود في الذهن ووجود في العين ووجود في اللفظ ووجود في الرقم، وسيأتي ذكر هذا في هذا الكتاب إن شاء الله.

فمن جهة وجوده على صورته التي وجد عليها في عينه في العلم القديم الأزليّ المتعلق به في حال ثبوته فهو موجود أزلاً أيضاً كأنه بعناية العلم المتعلق به، كالتحيّز للعرض بسبب قيامه بالجوهر فصار متحيزاً بالتبعية فلهذا خفي فيه الأزل، ولحقائقه أيضاً الأزلية المجردة عن الصورة المعينة المعقولة التي تقبل القدم والحدوث على حسب ما شرحنا ذلك في كتاب إنشاء الدوائر والجداول فانظره هناك تجده مستوفى، وسنذكر منه طرفاً في هذا الكتاب في بعض الأبواب إذا مست الحاجة إليه.

وظهور ما ذكرناه من سرّ الأزل في النون هو في الصاد والضاد أتم وأمكن لوجود كمال الدائرة، وكذلك ترجع حقائق الألف والزاي واللام التي للحق إلى حقائق النون والصاد والضاد التي للعبد، ويرجع الحق يتصف هنا بالأسرار التي منعنا عن كشفها في الكتب، ولكن يظهرها العارف بين أهلها في علمه ومشربه، أو مسلم في أكمل درجات التسليم وهي حرام على غير هذين الصنفين، فتحقق ما ذكرناه وتبينه يبدو لك من العجائب التي تبهر العقول حسن جمالها.

وبقي للملائكة باقي حروف المعجم وهي ثمانية عشر حرفاً وهي: الباء والجيم والدال والهاء والواو والحاء والطاء والياء والكاف والميم والفاء والقاف والراء والتاء والثاء والخاء والذال والظاء.

فقلنا: الحضرة الإنسانية كالحضرة الإلهية لا بل هي عينها على ثلاث مراتب: ملك وملكوت وجبروت، وكل واحدة من هذه المراتب تنقسم إلى ثلاث فهي تسعة في العدد، فتأخذ ثلاثة الشهادة فتضربها في الستة المجموعة من الحضرة الإلهية والإنسانية أو في الستة الأيام المقدرة التي فيها وجدت الثلاثة الحقية الثلاثة الخلقية يخرج لك ثمانية عشر وهو وجود الملك، وكذلك تعمل في الحق بهذه المثابة فالحق له تسعة أفلاك للإلقاء، والإنسان له تسعة أفلاك للتلقي فتمتدّ من كل حقيقة من التسعة الحقيّة رقائق إلى التسعة الخلقية، وتنعطف من التسعة الخلقية رقائق على التسعة الحقية فحيثما اجتمعت كان الملك ذلك الاجتماع وحدث هناك، فذلك الأمر الزائد الذي حدث هو الملك، فإن أراد أن يميل بكله نحو التسعة الواحدة جذبته الأخرى فهو يتردّد ما بينهما جبريل ينزل من حضرة الحق على النبيّ عليه السلام، وأن حقيقة الملك لا يصحّ فيها الميل فإنه منشأ الاعتدال بين التسعتين، والميل انحراف ولا انحراف عنده، ولكنه يتردّد بين الحركة المنكوسة والمستقيمة وهو عين الرقيقة، فإن جاءه وهو فاقد فالحركة منكوسة ذاتية وعرضية، وإن جاءه وهو واجد فالحركة مستقيمة عرضية لا ذاتية، وإن رجع عنه وهو فاقد فالحركة ذاتية وعرضية، وإن رجع عنه وهو واجد فالحركة منكوسة عرضية لا ذاتية، وقد تكون الحركة من العارف مستقيمة أبداً، ومن العابد منكوسة

أبداً، وسيأتي الكلام عليها في داخل الكتاب وانحصارها في ثلاث: منكوسة وأفقية ومستقيمة إن شاء الله، فهذه نكت غيبية عجيبة.

ثم أرجع وأقول: إن التسعة هي سبعة وذلك أن عالم الشهادة هو في نفسه برزخ فذلك واحد وله ظاهر فذلك اثنان وله باطن فذلك ثلاثة، ثم عالم الجبروت برزخ في نفسه فذلك واحد وهو الرابع، ثم له ظاهر وهو باطن عالم الشهادة ثم له باطن وهو الخامس، ثم بعد ذلك عالم الملكوت هو في نفسه برزخ وهو السادس، ثم له ظاهر وهو باطن عالم الجبروت وله باطن وهو السابع وما ثَمَّ غير هذا، وهذه صورة السبعية والتسعية فتأخذ الثلاثة وتضربها في السبعة فيكون الخارج أحداً وعشرين فتخرج الثلاثة الإنسانية فتبقى ثمانية عشر وهو مقام الملك وهي الأفلاك التي منها يتلقي الإنسان الموارد، وكذلك تفعل بالثلاثة الحقيّة تضربها أيضاً في السبعة فتكون عند ذلك الأفلاك التي منها يلقي الحق على عبده ما يشاء من الواردات، فإن أخذناها من جانب الحق قلنا أفلاك الإلقاء، وإن أخذناها من جانب الإنسان قلنا أفلاك التلقي، وإن أخذناها منهما معاً جعلنا تسعة الحق للإلقاء والأخرى للتلقي، وباجتماعهما حدث الملك، ولهذا أوجد الحق تسعة أفلاك: السموات السبع والكرسيّ والعرش، وإن شئت قلت فلك الكواكب والفلك الأطلس وهو الصحيح.

تتميم: منعنا في أول هذا الفصل أن يكون للحرارة والرطوبة فلك ولم نذكر السبب فلنذكر منه طرفاً في هذا الباب حتى نستوفيه في داخل الكتاب إن شاء الله تعالىٰ، وسأذكر في هذا الباب بعد هذا التتميم ما يكون من الحروف حاراً رطباً وذلك لأنه دار به فلك غير الفلك الذي ذكرناه في أول الباب.

فاعلم أن الحرارة والرطوبة هي الحياة الطبيعية، فلو كان لها فلك كما لأخواتها في المزجة لانقضت دورة ذلك الفلك وزال سلطانه كما يظهر في الحياة العرضية وكانت تنعدم أو تنتقل وحقيقتها تقضي بأن لا تنعدم فليس لها فلك، ولهذا أنبأنا الباري تعالىٰ أن الدار الآخرة هي الحيوان وأن كل شيء يسبح بحمده، فصار فلك الحياة الأبدية الحياة الأزلية تمدها وليس لها فلك فتنقضي دورته، فالحياة الأزلية ذاتية للحيِّ لا يصحّ لها انقضاء. فالحياة الأبدية المعلولة بالحياة الأزلية لا يصحّ لها انقضاء، ألا ترى الأرواح لما كانت حياتها ذاتية لها لم يصحّ فيها موت البتة، ولما كانت الحياة في الأجسام بالعرض قام بها الموت والفناء، فإن حياة الجسم الظاهرة من آثار حياة الروح كنور الشمس الذي في الأرض من الشمس فإذا مضت الشمس تبعها نورها وبقيت الأرض مظلمة، كذلك الروح إذا رحل عن الجسم إلى عالمه الذي جاء منه تبعته الحياة المنتشرة منه في الجسم الحيّ وبقي الجسم في صورة الجماد في رأي العين، فيقال مات فلان وتقول الحقيقة رجع إلى أصله ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] كما رجع أيضاً الروح إلى أصله حتى البعث والنشور يكون من الروح تجل للجسم بطريق العشق، فتلتئم أجزاؤه وتتركب أعضاؤه بحياة لطيفة جداً تحرّك الأعضاء للتأليف اكتسبته من التفات الروح، فإذا استوت البنية وقامت النشأة

الترابية تجلّى له الروح بالرقيقة الإسرافيلية في الصور المحيط فتسري الحياة في أعضائه فيقوم شخصاً سوياً كما كان أول مرة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٩] ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة يس: الآية ٧٩] فإما شقيّ وإما سعيد.

واعلم أن في امتزاج هذه الأصول عجائب فإن الحرارة والبرودة ضدّان فلا يمتزجان، وإذا لم يمتزجا لم يكن عنهما شيء، وكذلك الرطوبة واليبوسة، وإنما يمتزج ضدّ الضدّ بضدّ الضدّ الآخر فلا يتولّد عنها أبداً إلاّ أربعة لأنها أربعة ولهذا كانت اثنان ضدين لاثنين، فلو لم تكن على هذا لكان التركيب منها أكثر مما تعطيه حقائقها، ولا يصحّ أن يكون التركيب أكثر من أربعة أصول فإن الأربعة هي أصول العدد، فالثلاثة التي في الأربعة مع الأربعة سبعة، والاثنان التي فيها مع هذه السبعة تسعة، والواحد الذي في الأربعة مع هذه التسعة عشرة، وركب ما شئت بعد هذا، وما تجد عدداً يعطيك هذا إلاّ الأربعة، كما لا تجد عدداً تاماً إلاّ الستة لأن فيها النصف والسدس والثلث فامتزجت الحرارة واليبوسة، فكان النار والحرارة والرطوبة، فكان الهواء والبرودة والرطوبة، فكان الماء والبرودة واليبوسة فكان التراب، فانظر في تكوّن الهواء عن الحرارة والرطوبة وهو النفس الذي هو الحياة الحسيّة وهو المحرّك لكل شيء بنفسه للماء والأرض والنار، وبحركته تتحرّك الأشياء لأنه الحياة إذ كانت الحركة أثر الحياة، فهذه الأربعة الأركان المولدة عن الأمهات الأول.

ثم لتعلم أنّ تلك الأمهات الأول تعطي في المركبات حقائقها لا غير من غير امتزاج، فالتسخين عن الحرارة لا يكون عن غيرها، وكذلك التجفيف والتقبض عن اليبوسة، فإذا رأيت النار قد أيبست المحل من الماء فلا تتخيل أن الحرارة جففته فإن النار مركبة من حرارة ويبوسة كما تقدم، فبالحرارة التي فيها تسخن الماء وباليبوسة وقع التجفيف، وكذلك التليين لا يكون إلاّ عن الرطوبة والتبريد عن البرودة، فالحرارة تسخن والبرودة تبرّد والرطوبة تلين واليبوسة تجفف، فهذه الأمهات متنافرة لا تجتمع أبداً إلاّ في الصورة ولكن على حسب ما تعطيه حقائقها، ولا يوجد منها في صورة أبداً واحد لكن يوجد اثنان أما حرارة ويبوسة كما تقدم من تركيبها وأما أن توجد الحرارة وحدها فلا لأنها لا يكون عنها على انفرادها إلاهي.

وصل: فإن الحقائق على قسمين: حقائق توجد مفردات في العقل كالحياة والعلم والنطق والحس، وحقائق توجد بوجود التركيب كالسماء والعالم والإنسان والحجر، فإن قلت: فما السبب الذي جمع هذه الأمهات المتنافرة حتى ظهر من امتزاجها ما ظهر؟ فهنا سرّ عجيب ومركب صعب يحرم كشفه لأنه لا يطاق حمله لأن العقل لا يعقله ولكن الكشف يشهده فلنسكت عنه وربما نشير إليه من بعيد في مواضع من كتابي هذا يتفطن إليه الباحث اللبيب ولكن أقول: أراد المختار سبحانه أن يؤلفها لما سبق في علمه خلق العالم وأنها أصل أكثره أو أصله إن شئت فألفها، ولم تكن موجودة في أعيانها ولكن أوجدها مؤلفة لم يوجدها مفردة ثم جمعها، فإن حِقائقها تأبى ذلك، فأوجد الصورة التي هي عبارة

عن تأليف حقيقتين من هذه الحقائق، فصارت كأنها كانت موجودة متفرقة، ثم ألفت فظهرت للتأليف حقيقة لم تكن في وقت الافتراق.

فالحقائق تعطي أن هذه الأمهات لم يكن لها وجود في عينها البتة قبل وجود الصور المركبة عنها، فلما أوجد هذه الصور التي هي الماء والنار والهواء والأرض وجعلها سبحانه يستحيل بعضها إلى بعض فيعود النار هواء والهواء ناراً كما تقلب التاء طاء والسين صاداً لأن الفلك الذي وجدت عنه الأمهات الأول عنها وجدت هذه الحروف، فالفلك الذي وجد عنه الأرض وجد عنه حرف الثاء والتاء وما عدا رأس الجيم ونصف تعريقة اللام ورأس الخاء وثلثا الهاء والدال اليابسة والنون والميم. والفلك الذي وجد عنه الماء وجد عنه حرف الشين والغين والطاء والحاء والضاد ورأس الباء بالنقطة الواحدة ومدة جسد الفاء دون رأسها ورأس القاف وشيء من تعريقه ونصف دائرة الظاء المعجمة الأسفل. والفلك الذي وجد عنه الهواء وجد عنه طرف الهاء الأخير الذي يعقد دائرتها ورأس الفاء وتعريق الخاء على حكم نصف الدائرة ونصف دائرة الظاء المعجمة الأعلى مع قائمته وحرف الذال والعين والزاي والصاد والواو. والفلك الذي وجد عنه النار وجد عنه حرف الهمزة والكاف والباء والسين والراء ورأس الجيم وجسد الياء باثنتين من أسفل دون رأسها ووسط اللام وجسد القاف دون رأسه، وعن حقيقة الألف صدرت هذه الحروف كلها وهو فلكها روحاً وحساً وكذلك ثم موجود خامس هو أصل لهذه الأركان.

وفي هذا خلاف بين أصحاب علم الطبائع عن النظر ذكره الحكيم في الاسطقسات ولم يأت فيه بشيء يقف الناظر عنده، ولم نعرف هذا من حيث قراءتي علم الطبائع على أهله، وإنما دخل به عليّ صاحب لي وهو في يده وكان يشتغل بتحصيل علم الطب فسألني أن أمشيه له من جهة علمنا بهذه الأشياء من جهة الكشف لا من جهة القراءة والنظر، فقرأه علينا فوقفت منه على هذا الخلاف الذي أشرت إليه فمن هناك علمته، ولولا ذلك ما عرفت هل خالف فيه أحد أم لا، فإنه ما عندنا فيه إلاّ الشيء الحق الذي هو عليه وما عندنا خلاف، فإن الحق تعالىٰ الذي نأخذ العلوم عنه بخلوّ القلب عن الفكر والاستعداد لقبول الواردات هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة، فنعرف الحقائق على ما هي عليه سواء كانت المفردات أو الحادثة بحدوث التأليف، أو الحقائق الإلهية لا نمتري في شيء منها فمن هناك هو علمنا، والحق سبحانه معلمنا ورثاً نبوياً محفوظاً معصوماً من الخلل والإجمال والظاهر.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [سورة يس: الآية ٦٩] فإن الشعر محل الإجمال والرموز والألغاز والتورية، أي مارمزنا له شيئاً ولا لغزناه ولا خاطبناه بشيء ونحن نريد شيئاً آخر، ولا أجملنا له الخطاب إن هو إلاّ ذكر لما شاهده حين جذبناه وغيبناه عنه وأحضرناه بنا عندنا فكنا سمعه وبصره، ثم رددناه إليكم لتهتدوا به في ظلمات الجهل والكون، فكنّا لسانه الذي يخاطبكم به، ثم أنزلنا عليه مذكراً يذكره بما شاهده فهو ذكر له لذلك وقرآن أي جمع أشياء كان شاهدها عندنا مبين، ظاهر له لعلمه بأصل ما شاهده وعاينه في ذلك التقريب الأنزه الأقدس الذي ناله منه ﷺ، ولنا منه من الحظ على قدر صفاء المحل والتهييء والتقوى.

فمن علم أن الطبائع والعالم المركب منها في غاية الافتقار والاحتياج إلى الله تعالىٰ في وجود أعيانها وتأليفها علم أن السبب هو حقائق الحضرة الإلهية الأسماء الحسنى والأوصاف العلى كيف تشاء على حسب ما تعطيه حقائقها، وقد بيّنا هذا الفصل على الاستيفاء في كتاب إنشاء الجداول والدوائر، وسنذكر من ذلك طرفاً في هذا الكتاب، فهذا هو سبب الأسباب القديم الذي لم يزل مؤلف الأمهات ومولد البنات فسبحانه سبحانه خالق الأرض والسموات.

وصل: انتهى الكلام المطلوب في هذا الكتاب على الحروف من جهة المكلف والمكلفين وحظها منهم وحركتها في الأفلاك السداسية المضاعفة، وعيَّنا سني دورتها في تلك الأفلاك وحظها من الطبيعة من حركة تلك الأفلاك ومراتبها الأربعة في المكلف والمكلفين على حسب فهم العامة، ولهذا كانت أفلاك بسائطها على نوعين، فالبسائط التي يقتصر بها على حقائق عامة العقلاء على أربعة: حروف الحق التي عن الأفلاك السبعية، وحروف الإنس عن الثمانية، وحروف الملك عن التسعة، وحروف الجن الناري عن العشرة، وليس ثم قسم زائد عندهم لقصورهم عن إدراك ما ثم لأنهم تحت قهر عقولهم، والمحققون تحت قهر سيدهم الملك الحق سبحانه وتعالىٰ، فلهذا عندهم من الكشف ما ليس عند الغير، فبسائط المحققين على ست مراتب:

مرتبة للمكلف الحق تعالىٰ وهي النون وهي ثنائية فإن الحق لا نعلمه إلاَّ منا وهو معبودنا، ولا يعلم على الكمال إلاَّ بنا فلهذا كان له النون التي هي ثنائية فإن بسائطها اثنان الواو والألف فالألف له والواو لمعناك، وما في الوجود غير الله وأنت إذ أنت الخليفة ولهذا الألف عام والواو ممتزجة كما سيأتي ذكرها في هذا الباب، ودورة هذا الفلك المخصوصة التي بها تقطع الفلك المحيط الكليّ دورة جامعة، تقطع الفلك الكليّ في اثنين وثمانين ألف سنة، وتقطع فلك الواو الفلك الكليّ في عشرة آلاف سنة على ما نذكرها بعد في هذا الباب عند كلامنا على الحروف مفردة وحقائقها وما بقي من المراتب فعلى عدد المكلفين.

وأما المرتبة الثانية فهي للإنسان وهو أكمل المكلفين وجوداً وأعمه وأتمه خلقاً وأقومه، ولها حرف واحد وهي الميم وهي ثلاثية وذلك أن بسائطها ثلاثة: الياء والألف والهمزة وسيأتي ذكرها في داخل الباب إن شاء الله.

وأما المرتبة الثالثة فهي للجن مطلقاً النوري والناري وهي رباعية ولها من الحروف الجيم والواو والكاف والقاف وسيأتي ذكرها.

وأما المرتبة الرابعة فهي للبهائم وهي خماسية لها من الحروف الدال اليابسة والزاي والصاد اليابسة والعين اليابسة والضاد المعجمة والسين اليابسة والذال المعجمة والغين والشين المعجمتان، وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

وأما المرتبة الخامسة فهي للنبات وهي سداسية لها من الحروف: الألف والهاء واللام وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

وأما المرتبة السادسة فهي للجماد وهي سباعية لها من الحروف الباء والحاء والطاء والياء والفاء والراء والتاء والثاء والخاء والظاء وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

والغرض في هذا الكتاب إظهار لمع ولوائح إشارات من أسرار الوجود، ولو فتحنا الكلام على سرائر هذه الحروف وما تقتضيه حقائقها لكلّت اليمين وحفي القلم وجفّ المداد وضاقت القراطيس والألواح ولو كان الرق المنشور فإنها من الكلمات التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧] وهنا سرّ وإشارة عجيبة لمن تفطن لها وعثر على هذه الكلمات، فلو كانت هذه العلوم نتيجة عن فكر ونظر لانحصر الإنسان في أقرب مدة، ولكنها موارد الحق تعالىٰ تتوالى على قلب العبد وأرواحه البررة تنزل عليهم من عالم غيبه برحمته التي من عنده وعلمه الّذي من لدنه، والحق تعالىٰ وهّاب على الدوام فياض على الاستمرار، والمحل قابل على الدوام فإما يقبل الجهل وإما يقبل العلم، فإن استعد وتهيأ وصفى مرآة قلبه وجلاها حصل له الوهب على الدوام، ويحصل له في اللحظة ما لا يقدر على تقييده في أزمنة لاتساع ذلك الفلك المعقول وضيق هذا الفلك المحسوس، فكيف ينقضي ما لا يتصوّر له نهاية ولا غاية يقف عندها، وقد صرَّح بذلك في أمره لرسوله عليه السلام: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] والمراد بهذه الزيادة من العلم المتعلق بالإله ليزيد معرفة بتوحيد الكثرة فتزيد رغبته في تحميده، فيزاد فضلاً على تحميده دون انتهاء ولا انقطاع فطلب منه الزيادة، وقد حصل من العلوم والأسرار ما لم يبلغه أحد.

وممّا يؤيد ما ذكرناه من أنه أمر بالزيادة من علم التوحيد لا من غيره أنه كان ﷺ إذا أكل طعاماً قال: «**اللّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خيراً مِنْهُ**»، وإذا شرب لبناً قال: «**اللّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ**» لأنه أمر بطلب الزيادة، فكان يتذكر عند ما يرى اللبن اللبن الذي شربه ليلة الإسراء فقال له جبريل: أصبت الفطرة أصاب الله بك أمتك، والفطرة علم التوحيد التي فطر الله الخلق عليها حين أشهدهم حين قبضهم من ظهورهم: ألست بربكم؟ قالوا بلى، فشاهدوا الربوبية قبل كل شيء، ولهذا تأوّل ﷺ اللبن لما شربه في النوم وناول فضله عمر قيل: ما أوّلته يا رسول الله؟ قال: العلم. فلولا حقيقة مناسبة بين العلم واللبن جامعة ما ظهر بصورته في عالم الخيال، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، فمن كان يأخذ عن الله لا عن نفسه كيف ينتهي كلامه أبداً، فشتان بين مؤلف يقول: حدثني فلان رحمه الله عن فلان رحمه الله، وبين من يقول: حدثني قلبي عن ربي، وإن كان هذا رفيع القدر فشتان بينه وبين من يقول حدثني ربي عن ربي أي حدثني ربي عن نفسه، وفيه إشارة الأوّل الرب المعتقد والثاني الرب الذي لا يتقيد فهو بواسطة لا بواسطة، وهذا هو العلم الذي يحصل للقلب من المشاهدة الذاتية التي منها يفيض على السر والروح والنفس، فمن كان هذا مشربه كيف يعرف مذهبه فلا تعرفه حتى تعرف الله، وهو لا يعرف تعالىٰ من جميع وجوه المعرفة كذلك هذا لا يعرف، فإن العقل لا يدري أين هو فإن مطلبه الأكوان ولا كون لهذا كما قيل: [الكامل]

ظَهَرتْ لِمَا أبقيت بَعد فنائه　　فكان بالكون لأنك كنتهُ

فالحمد لله الذي جعلني من أهل الإلقاء والتلقي، فنسأله سبحانه أن يجعلنا وإياكم من أهل التداني والترقي، ثم أرجع وأقول: إن فصول حروف المعجم تزيد على أكثر من خمسمائة فصل وفي كل فصل مراتب كثيرة، فتركنا الكلام عليها حتى نستوفيه في كتاب المبادي والغايات إن شاء الله، ولنقتصر منها على ما لا بدّ من ذكره بعدما نسمي من مراتبها ما يليق بكتابنا هذا وربما نتكلم على بعضها، وبعد ذلك نأخذها حرفاً حرفاً حتى تكمل الحروف كلها إن شاء الله، ثم نتبعها بإشارات من أسرار تعانق اللام بالألف ولزومه إياه وما السبب لهذا التعشق الروحاني بينهما خاصة حتى ظهر ذلك في عالم الكتابة والرقم، فإن في ارتباط اللام بالألف سرّاً لا ينكشف إلاّ لمن أقام الألف من رقدتها وحل اللام من عقدتها، والله يرشدنا وإياكم لعمل صالح يرضاه منا. انتهى الجزء الرابع والحمد لله.

(الجزء الخامس)

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر بعض مراتب الحروف

اعلم وفقنا الله وإياكم أن الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلاّ أهل الكشف من طريقنا، وعالم الحروف أفصح العالم لساناً وأوضحه بياناً، وهم على أقسام كأقسام العالم المعروف في العرف، فمنهم عالم الجبروت عند أبي طالب المكيّ ونسميه نحن عالم العظمة وهو: الهاء والهمزة. ومنهم العالم الأعلى وهو عالم الملكوت وهو: الحاء والخاء والعين والغين. ومنهم العالم الوسط وهو عالم الجبروت عندنا وعند أكثر أصحابنا وهو: التاء والثاء والجيم والدال والذال والراء والزاي والظاء والكاف واللام والنون والصاد والضاد والقاف والسين والشين والياء الصحيحة. ومنهم العالم الأسفل وهو عالم الملك والشهادة وهو: الباء والميم والواو الصحيحة. ومنهم العالم الممتزج بين عالم الشهادة والعالم الوسط وهو: الفاء. ومنهم عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الوسط وبين عالم الملكوت وهو: الكاف والقاف وهو امتزاج المرتبة، ويمازجهم في الصفة الروحانية الطاء والظاء والصاد والضاد. ومنهم عالم الامتزاج بين عالم الجبروت الأعظم وبين الملكوت وهو: الحاء المهملة. ومنهم العالم الذي يشبه العالم منا الذين لا يتصفون بالدخول فينا ولا بالخروج عنا وهو: الألف والياء والواو المعتلتان.

فهؤلاء عوالم ولكل عالم رسول من جنسهم، ولهم شريعة تعبدوا بها، ولهم لطائف وكثائف، وعليهم من الخطاب الأمر ليس عندهم نهي، وفيهم عامة وخاصة وخاصة الخاصة وصفاء خلاصة خاصة الخاصة، فالعامة منهم: الجيم والضاد والخاء والدال والغين والشين. ومنهم خاصة الخاصة وهو: الألف والياء والباء والسين والكاف والطاء والقاف والتاء والواو

والصاد والحاء والنون واللام والغين. ومنهم خلاصة خاصة الخاصة وهو: الباء. ومنهم الخاصة التي فوق العامة بدرجة وهو حروف أوائل السور مثل: الم والمص وهي أربعة عشر حرفاً: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون. ومنهم حروف صفاء خلاصة خاصة الخاصة وهو: النون والميم والراء والباء والدال والزاي والألف والطاء والياء والواو والهاء والظاء والثاء واللام والفاء والسين. ومنهم العالم المرسل وهو الجيم والحاء والخاء والكاف. ومنهم العالم الذي تعلق بالله وتعلق به الخلق وهو: الألف والدال والذال والراء والزاي والواو وهو عالم التقديس من الحروف الكروبيين. ومنهم العالم الذي غلب عليه التخلق بأوصاف الحق وهو: التاء والثاء والحاء والذال والزاي والظاء المعجمة والنون والضاد المجمة والغين المعجمة والقاف والشين المعجمة والفاء عند أهل الأنوار. ومنهم العالم الذي قد غلب عليهم التحقق وهو الباء والفاء عند أهل الأسرار والجيم. ومنهم العالم الذي قد تحقق بمقام الاتحاد وهو: الألف والحاء والدال والراء والطاء اليابسة والكاف واللام والميم والصاد اليابسة والعين والسين اليابستان والهاء والواو.

إلاَّ أني أقول إنهم على مقامين في الاتحاد: عال وأعلى، فالعالي الألف والكاف والميم والعين والسين، والأعلى ما بقي. ومنهم العالم الممتزج الطبائع وهو: الجيم والهاء والياء واللام والفاء والقاف والخاء والظاء خاصة.

وأجناس عوالم الحروف أربعة: جنس مفرد وهو الألف والكاف واللام والميم والهاء والنون والواو. وجنس ثنائي مثل الدال والذال. وجنس ثلاثيّ مثل الجيم والحاء والخاء. وجنس رباعيّ وهو الباء والتاء والثاء والياء في وسط الكلمة والنون كذلك فهو خماسيّ بهذا الاعتبار، وإن لم تعتبرهما فتكون الباء والتاء والثاء من الجنس الثلاثيّ ويسقط الجنس الرباعيّ

فبهذا قد قصصنا عليك من عالم الحروف ما إن استعملت نفسك في الأمور الموصلة إلى كشف العالم والاطلاع على حقائقه وتحقق قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فلو كان تسبيح حال كما يزعم بعض علماء النظر لم تكن فائدة في قوله «ولكن لا تفقهون» وصلت إليها ووقفت عليها وكنت قد ذكرت أنه ربما أتكلم على بعضها فنظرت في هؤلاء العالم ما يمكن فيه بسط الكلام أكثر من غيره فوجدناه العالم المختص وهو عالم أوائل السور المجهولة مثل: الم البقرة، والمص، والر يونس، وأخواتها.

فلنتكلم على ﴿الٓمٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١] البقرة التي هي أول سورة مبهمة في القرآن كلاماً مختصراً من طريق الأسرار، وربما ألحق بذلك الآيات التي تليها وإن كان ذلك ليس من الباب، ولكن فعلته عن أمر ربي الذي عهدته فلا أتكلم إلاَّ على طريق الإذن، كما أني سأقف عندما يحد لي، فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التواليف، ولا نجري نحن فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره وإن كان مجبوراً في اختياره، أو تحت العلم

الذي يبثه خاصة فيلقي ما يشاء ويمسك ما يشاء، أو يلقي ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بصددها حتى تبرز حقيقتها، ونحن في تواليفنا لسنا كذلك إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية مراقبة لما ينفتح له الباب فقيرة خالية من كل علم، لو سألت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدها إحساسها، فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمر ما بادرت لامتثاله وألفته على حسب ما يحد لها في الأمر، فقد يلقى الشيء إلى ما ليس من جنسه في العادة والنظر الفكري، وما يعطيه العلم الظاهر والمناسبة الظاهرة للعلماء لمناسبة خفية لا يشعر بها إلاَّ أهل الكشف، بل ثم ما هو أغرب عندنا أنه يلقي إلى هذا القلب أشياء يؤمر بإيصالها وهو لا يعلمها في ذلك الوقت لحكمة إلهية غابت عن الخلق، فلهذا لا يتقيد كل شخص يؤلف عن الإلقاء بعلم ذلك الباب الذي يتكلم عليه، ولكن يدرج فيه غيره في علم السامع العاديّ على حسب ما يلقى إليه، ولكنه عندنا قطعاً من نفس ذلك الباب بعينه لكن بوجه لا يعرفه غيرنا مثل الحمامة والغراب اللذين اجتمعا لعرج قام بأرجلهما وقد أذن لي في تقييد ما ألقيه بعد هذا فلا بدّ منه.

وصل: الكلام على هذه الحروف المجهولة المختصة على عدد حروفها بالتكرار، وعلى عدد حروفها بغير تكرار، وعلى جملتها في السور، وعلى إفرادها في ص وق ون، وتثنيتها في طس وطه وأخواتها وجمعها من ثلاثة فصاعداً حتى بلغت خمسة حروف متصلة ومنفصلة ولم تبلغ أكثر، ولم وصل بعضها وقطع بعضها؟ ولمَ كانت السور بالسين ولم تكن بالصاد؟ ولمَ جهل معنى هذه الحروف عند علماء الظاهر وعند كشف أهل الأحوال، إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب الجمع والتفصيل في معرفة معاني التنزيل، فلنقل على بركة الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

اعلم أن مبادي السور المجهولة لا يعرف حقيقتها إلاَّ أهل الصور المعقولة، ثم جعل سور القرآن بالسين وهو التعبّد الشرعيّ وهو ظاهر السور الذي فيه العذاب وفيه يقع الجهل بها وباطنه بالصاد وهو مقام الرحمة وليس إلاَّ العلم بحقائقها وهو التوحيد، فجعلها تبارك وتعالىٰ تسعاً وعشرين سورة وهو كمال الصورة ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] والتاسع والعشرون القطب الذي به قوام الفلك وهو علة وجوده وهو سورة آل عمران: الم الله، ولولا ذلك ما ثبتت الثمانية والعشرون، وجملتها على تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفاً فالثمانية حقيقة البضع قال عليه السلام: «**الإيمانُ بِضعٌ وَسَبْعُونَ**» وهذه الحروف ثمانية وسبعون حرفاً فلا يكمل عبد أسرار الإيمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها. فإن قلت: إن البضع مجهول في اللسان فإنه من واحد إلى تسعة فمن أين قطعت بالثمانية عليه؟ فإن شئت قلت لك من طريق الكشف وصلت إليه فهو الطريق الذي عليه أسلك، والركن الذي إليه أستند في علومي كلها، وإن شئت أبديت لك منه طرفاً من باب العدد، وإن كان أبو الحكم عبد السلام بن برجان لم يذكره في كتابه من هذا الباب الذي نذكره، وإنما ذكره رحمه الله من جهة علم الفلك وجعله ستراً على كشفه حين قطع بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فكذلك إن شئنا نحن

كشفنا وإن شئنا جعلنا العدد على ذلك حجاباً فنقول: إن البضع الذي في سورة الروم ثمانية وخذ عدد حروف ﴿الٓمٓ﴾ [سورة الروم: الآية ١] بالجزم الصغير فتكون ثمانية فتجمعها إلى ثمانية البضع فتكون ستة عشر فتزيل الواحد الذي للألف للأس فيبقى خمسة عشر فتمسكها عندك ثم ترجع إلى العمل في ذلك بالجمل الكبير وهو الجزم فتضرب ثمانية البضع في أحد وسبعين واجعل ذلك كله سنين يخرج لك في الضرب خمسمائة وثمانية وستون فتضيف إليها الخمسة عشر التي أمرتك أن ترفعها فتصير ثلاثة وثمانين وخمسمائة سنة وهو زمان فتح بيت المقدس على قراءة من قرأ «غَلَبت الرُّومُ» [سورة الروم: الآية ٢] بفتح الغين واللام «سيُغْلَبون» [سورة الروم: الآية ٣] بضم الياء وفتح اللام. وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كان ظهور المسلمين في أخذ حج الكفار وهو فتح بيت المقدس، ولنا في علم العدد من طريق الكشف أسرار عجيبة من طريق ما يقتضيه طبعه، ومن طريق ماله من الحقائق الإلهية وإن طال بنا العمر، فسأفرد لمعرفة العدد كتاباً إن شاء الله.

فلنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول: فلا يكمل عبد الأسرار التي تتضمنها شعب الإيمان إلاّ إذا علم حقائق هذه الحروف على حسب تكرارها في السور، كما أنه إذا علمها من غير تكرار علم تنبيه الله فيها على حقيقة الإيجاد، وتفرّد القديم سبحانه بصفاته الأزلية فأرسلها في قرآنه أربعة عشر حرفاً مفردة مبهمة، فجعل الثمانية لمعرفة الذات والسبع الصفات منا، وجعل الأربعة للطبائع المؤلفة التي هي الدم والسوداء والصفراء والبلغم فجاءت اثنتي عشرة موجودة وهذا هو الإنسان من هذا الفلك، ومن فلك آخر يتركب من أحد عشر ومن عشرة ومن تسعة ومن ثمانية حتى إلى فلك الاثنين ولا يتحلل إلى الأحدية أبداً فإنها مما انفرد بها الحق فلا تكون لموجود الإله.

ثم إنه سبحانه جعل أولها الألف في الخط والهمزة في اللفظ وآخرها النون، فالألف لوجود الذات على كمالها لأنها غير مفتقرة إلى حركة والنون لوجود الشطر من العالم وهو عالم التركيب وذلك نصف الدائرة الظاهرة لنا من الفلك، والنصف الآخر النون المعقولة عليها التي لو ظهرت للحس وانتقلت من عالم الروح لكانت دائرة محيطة، ولكن أخفى هذه النون الروحانية الذي بها كمال الوجود وجعلت نقطة النون المحسوسة دالة عليها، فالألف كاملة من جميع وجوهها والنون ناقصة، فالشمس كاملة والقمر ناقص لأنه محو فصفة ضوئه معارة وهي الأمانة التي حملها، وعلى قدر محوه وسراره إثباته وظهوره ثلاثة لثلاثة، فثلاثة غروب القمر القلبي الإلهيّ في الحضرة الأحدية، وثلاثة طلوع قمر القلب الإلهيّ في الحضرة الربانية وما بينهما في الخروج والرجوع قدماً بقدم لا يختل أبداً.

ثم جعل سبحانه هذه الحروف على مراتب: منها موصول، ومنها مقطوع، ومنها مفرد ومثنى ومجموع. ثم نبّه أن في كل وصل قطعاً وليس في كل قطع وصل، فكل وصل يدل على فصل وليس كل فصل يدل على وصل، فالوصل والفصل في الجمع وغير الجمع والفصل وحده في عين الفرق، فما أفرده من هذه فإشارة إلى فناء رسم العبد أزلاً، وما ثناه فإشارة إلى وجود رسم العبودية حالاً، وما جمعه فإشارة إلى الأبد بالموارد التي لا تتناهى فالإفراد للبحر الأزليّ، والجمع للبحر الأبديّ، والمثنى للبرزخ المحمديّ الإنسانيّ ﴿مَرَجَ

ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن: الآيات ١٩ ـ ٢١] هل بالبحر الذي أوصله به فأفناه عن الأعيان، أو بالبحر الذي فصله عنه وسماه بالأكوان، أو بالبرزخ الذي استوى عليه الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يخرج من بحر الأزل اللؤلؤ ومن بحر الأبد المرجان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وله الجواري الروحانية المنشآت من الحقائق الأسمائية في البحر الذاتي الأقدسي كالأعلام ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يسأله العالم العلويّ على علوّه وقدسه، والعالم السفليّ على نزوله وتحسه، كل خطرة في شأن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كل من عليها فان، وإن لم تنعدم الأعيان، ولكنها رحلة من دنا إلى دان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سنفرغ منكم إليكم أيها الثقلان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

فهكذا لو اعتبر القرآن ما اختلف اثنان ولا ظهر خصمان، ولا تناطح عنزان، فدبروا آياتكم، ولا تخرجوا عن ذاتكم، فإن كان ولا بدّ فإلى صفاتكم، فإنه إذا سلم العالم من نظركم وتدبيركم، كان على الحقيقة تحت تسخيركم، ولهذا خلق قال تعالىٰ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] والله يرشدنا وإياكم إلى ما فيه صلاحنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة إنه وليّ كريم.

وصل: الألف من ﴿الٓمٓ﴾ [سورة الروم: الآية ١] إشارة إلى التوحيد، والميم للملك الذي لا يهلك، واللام بينهما واسطة لتكون رابطة بينهما، فانظر إلى السطر الذي يقع عليه الخط من اللام فتجد الألف إليه ينتهي أصلها وتجد الميم منه يبتدىء نشوها، ثم ننزل من أحسن تقويم وهو السطر إلى أسفل سافلين، منتهى تعريق الميم، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: ٤ ـ ٥] ونزول الألف إلى السطر مثل قوله: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا وهو أول عالم التركيب لأنه سماء آدم عليه السلام، ويليه فلك النار فلذلك نزل إلى أول السطر، فإنه نزل من مقام الأحدية إلى مقام إيجاد الخليقة نزول تقديس وتنزيه لا نزول تمثيل وتشبيه، وكانت اللام واسطة وهي نائبة مناب المكوّن والكون، فهي القدرة التي عنها وجد العالم فأشبهت الألف في النزول إلى أول السطر، ولما كانت ممتزجة من المكوّن والكون فإنه لا يتصف بالقدرة على نفسه وإنما هو قادر على خلقه، فكان وجه القدرة مصروفاً إلى الخلق، ولهذا لا يثبت للخالق إلاّ بالخلق، فلا بدّ من تعلقها بهم علواً وسفلاً، ولما كانت حقيقتها لا تتم بالوصول إلى السطر فتكون والألف على مرتبة واحدة طلبت بحقيقتها النزول تحت السطر أو على السطر كما نزل الميم فنزلت إلى إيجاد الميم، ولم يتمكن أن تنزل على صورة الميم فكان لا يوجد عنها أبداً إلاّ الميم، فنزلت نصف دائرة حتى بلغت إلى السطر من غير الجهة التي نزلت منها فصارت نصف فلك محسوس يطلب نصف فلك معقول فكان منهما فلك دائر، فتكوّن العالم كله من أوله إلى آخره في ستة أيام أجناساً من أول يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة، وبقي يوم السبت للانتقالات من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، والاستحالات من كون إلى كون ثابت على ذلك لا يزول ولا يتغير، ولذلك كان الوالي على هذا اليوم البرد واليبس وهو من الكواكب زحل فصار ﴿الٓمٓ﴾ وحده فلكاً محيطاً من دار به علم الذات والصفات والأفعال والمفعولات.

فمن قرأ ﴿الٓمٓ﴾ بهذه الحقيقة والكشف حضر بالكل للكل مع الكل، فلا يبقى شيء في ذلك الوقت إلاَّ يشهده، لكن منه ما يعلم ومنه ما لا يعلم، فتنزّه الألف عن قيام الحركات بها يدل أن الصفات لا تعقل إلاَّ بالأفعال كما قال عليه السلام: **«كَانَ اللهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ»** فلهذا صرفنا الأمر إلى ما يعقل لا إلى ذاته المنزّهة، فإن الإضافة لا تعقل أبداً إلاَّ بالمتضايفين، فإن الأبوّة لا تعقل إلاَّ بالأب والابن وجوداً وتقديراً، وكذلك المالك والخالق والبارىء والمصوّر وجميع الأسماء التي تطلب العالم بحقائقها.

وموضع التنبيه من حروف ﴿الٓمٓ﴾ عليها في اتصال اللام الذي هو الصفة بالميم الذي هو أثرها وفعلها، فالألف ذات واحدة لا يصحّ فيها اتصال شيء من الحروف إذا وقعت أولاً في الخط فهي الصراط المستقيم الذي سألته النفس في قولها: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] صراط التنزيه والتوحيد، فلما أمّن على دعائها ربها الذي هو الكلمة الذي أمرت بالرجوع إليه في سورة الفجر قبل تعالىٰ تأمينه على دعائها فأظهر الألف من ﴿الٓمٓ﴾ عقيب ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧] وأخفى آمين لأنه غيب من عالم الملكوت من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الغيب المتحقق الذي يسمونه العامة من الفقهاء الإخلاص، وتسميه الصوفية الحضور، ويسميه المحققون الهمة، ونسميه أنا وأمثالنا العناية.

ولما كانت الألف متحدة في عالم الملكوت والشهادة ظهرت فوقع الفرق بين القديم والمحدث فانظر فيما سطرناه ترى عجباً، وممّا يؤيد ما ذكرناه من وجود الصفة المد الموجود في اللام والميم دون الألف، فإن قال صوفيّ وجدنا الألف مخطوطة والنطق بالهمزة دون الألف فلم لا ينطق بالألف؟ فنقول: وهذا أيضاً مما يعضد ما قلناه فإن الألف لا تقبل الحركة فإن الحرف مجهول ما لم يحرّك فإذا حرّك ميّز بالحركة التي تتعلق به من رفع ونصب وخفض، والذات لا تعلم أبداً على ما هي عليه، فالألف الدال عليها الذي هو في عالم الحروف خليفة كالإنسان في العالم مجهول أيضاً كالذات لا تقبل الحركة فلما لم تقبلها لم يبق إلاَّ أن تعرف من جهة سلب الأوصاف عنها، ولما لم يمكن النطق بساكن نطقنا باسم الألف لا بالألف فنطقنا بالهمزة بحركة الفتحة فقامت الهمزة مقام المبدع الأول وحركتها صفته العلمية ومحل إيجاده في اتصال الكاف بالنون.

فإن قيل: وجدنا الألف التي في اللام منطوقاً بها ولم نجدها في الألف، قلنا: صدقت لا يقع النطق بها إلاَّ بمتحرك مشبع التحرّك قبلها موصولة به، وإنما كلامنا في الألف المقطوعة التي لا يشبع الحرف الذي قبلها حركته فلا يظهر في النطق، وإن رقمت مثل ألف ﴿إنما المؤمنون﴾ فهذان ألفان بين ميم إنما وبين لام المؤمنين موجودتان خطاً غير ملفوظ بهما نطقاً، وإنما الألف الموصولة التي تقع بعد الحرف مثل لام هاء حاء وشبهها فإنه لولا وجودها ما كان المد لواحد من هذه الحروف، فمدّها هو سرّ الاستمداد الذي وقع به إيجاد الصفات في محل الحروف ولهذا لا يكون المد إلاَّ بالوصل، فإذا وصل الحرف بالألف من اسمه الآخر امتدّ الألف بوجود الحرف الموصول به، ولما وجد الحرف الموصول به افتقر إلى

الصفة الرحمانية فأعطي حركة الفتح التي هي الفتحة، فلما أعطيها طلب منه الشكر عليها فقال: وكيف يكون الشكر عليها؟ فقيل له: أن تعلم السامعين بأن وجودك ووجود صفتك لم يكن بنفسك وإنما كان من ذات القديم تعالىٰ فاذكره عند ذكرك نفسك فقد جعلك بصفة الرحمة خاصة دليلاً عليه ولهذا قال: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن فنطقت بالثناء على موجدها فقالت: لام ياء هاء حاء طاء فأظهرت نطقاً ما خفي خطاً لأن الألف التي في طه وحم وطس موجودة نطقاً خفيت خطاً لدلالة الصفة عليها وهي الفتحة صفة افتتاح الوجود.

فإن قال: وكذلك نجد المد في الواو المضموم ما قبلها والياء المكسور ما قبلها فهي أيضاً ثلاث ذوات فكيف يكون هذا وما ثم إلاَّ ذات واحدة؟ فنقول نعم أما المد الموجود في الواو المضموم ما قبلها في مثل ﴿ن والقلم﴾ والياء المكسور ما قبلها مثل الياء من ﴿طس﴾ وياء الميم من ﴿حم﴾ فمن حيث أنّ الله تعالىٰ جعلهما حرفي علة وكل علة تستدعي معلولها بحقيقتها، وإذا استدعت ذلك فلا بدّ من سرّ بينهما يقع به الاستمداد والإمداد فلهذا أعطيت المد، وذلك لما أودع الرسول الملكيّ الوحي لو لم يكن بينه وبين الملقى إليه نسبة مّا ما قبل شيئاً لكنه خفي عنه ذلك، فلما حصل له الوحي ومقامه الواو لأنه روحانيّ علويّ والرفع يعطي العلو وهو باب الواو المعتلة فعبرنا عنه بالرسول الملكيّ الروحاني جبريل كان أو غيره من الملائكة، ولما أودع الرسول البشري ما أودع من أسرار التوحيد والشرائع أعطي من الاستمداد والإمداد الذي يمدّ به عالم التركيب وخفي عنه سر الاستمداد ولذلك قال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم وقال: إنما أنا بشر مثلكم. ولما كان موجوداً في العالم السفليّ عالم الجسم والتركيب أعطيناه الياء المكسور ما قبلها المعتلة وهي من حروف الخفض، فلما كانا علتين لوجود الأسرار الإلهية من توحيد وشرع وهبا سر الاستمداد فلذلك مدتا.

وأما الفرق الذي بينهما وبين الألف فإن الواو والياء قد يسلبان عن هذا المقام فيحركان بجميع الحركات كقوله: ﴿وَوَجَدَكَ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٧] و﴿وَتُئْوِيٓ﴾ [الأحزاب: ٥١] و﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٢] ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ [الأنعام: ٢٦] ﴿يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآية ٣٧] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣٠] وقد يسكنان بالسكون الحي كقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ١٧] ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٦] وشبههما، والألف لا تحرّك أبداً ولا يوجد ما قبلها أبداً إلاّ مفتوحاً، فإذن فلا نسبة بين الألف وبين الواو والياء، فمهما حرّكت الواو والياء فإن ذلك مقامها ومن صفاتها، ومهما ألحقتا بالألف في العلية فذلك ليس من ذاتها، وإنما ذلك من جانب القديم سبحانه لا يحتمل الحركة ولا يقبلها، ولكن ذلك من صفة المقام وحقيقته الذي نزلت به الواو والياء، فمدلول الألف قديم والواو والياء محركتان كانتا أو لا محركتان فهما حادثان، فإذا ثبت هذا فكل ألف أو واو أو ياء ارتقمت أو حصل النطق بها فإنما هي دليل، وكل دليل محدث يستدعي محدثاً، والمحدث لا يحصره الرقم ولا النطق إنما هو غيب ظاهر، وكذلك يس ون فنجده نطقاً وهو ظهوره ولا نجده رقماً وهو غيبه، وهذا سبب حصول العلم بوجود الخالق لا بذاته، وبوجود ليس كمثله شيء لا بذاته. واعلم أيها المتلقي أن كل

ما دخل تحت الحصر فهو مبدع أو مخلوق وهو محلك، فلا تطلب الحق لا من داخل ولا من خارج، إذ الدخول والخروج من صفات الحدوث، فانظر الكل في الكل تجد الكل، فالعرش مجموع والكرسيّ مفروق: [البسيط]

يا طالباً لوجودِ الحقّ يدركه ارجعْ لذاتك فيك الحقُّ فالْتزِمِ

﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد: ١٣] فلو لم يرجعوا لوجدوا النور، فلما رجعوا باعتقاد القطع ضرب بينهم بالسور، وإلاَّ لو عرفوا من ناداهم بقوله ارجعوا وراءكم لقالوا أنت مطلوبنا ولم يرجعوا، فكان رجوعهم سبب ضرب السور بينهم فبدت جهنم فكبكبوا فيها هم والغاوون، وبقي الموحدون، يمدون أهل الجنان بالولدان والحور الحسان من حضرة العيان، فالوزير محل صفات الأمير، والصفة التي انفرد بها الأمير وحده هي سرّ التدبير الذي خرجت عنه الصفات، فعلم ما يصدر له من صفته وفعله جملة ولم يعلم ذلك الوزير إلاَّ تفصيلاً وهذا هو الفرق فتأمل ما قلناه تجد الحق إن شاء الله، فإذا تبين هذا وتقرر أن الألف هي ذات الكلمة واللام ذات عين الصفة والميم عين الفعل وسرهم الخفي هو الموجد إياهم.

وصل: فنقول: فقوله «ذلك الكتاب» بعد قوله: «الٓمٓ» إشارة إلى موجود بيد أن فيه بعداً، وسبب البعد لما أشار إلى الكتاب وهو المفروق محل التفصيل، وأدخل حرف اللام في ذلك وهي تؤذن بالبعد في هذا المقام، والإشارة نداء على رأس البعد عند أهل الله، ولأنها أعني اللام من العالم الوسط فهي محل الصفة إذ بالصفة يتميز المحدث من القديم، وخصّ خطاب المفرد بالكاف مفردة لئلا يقع الاشتراك بين المبدعات، وقد أشبعنا القول في هذا الفصل عندما تكلمنا على قوله تعالىٰ ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [سورة طه: الآية ١٢] من كتاب الجمع والتفصيل أي اخلع اللام والميم تبق الألف المنزّهة عن الصفات، ثم حال بين الذال الذي هو الكتاب محل الفرق الثاني، وبين اللام التي هي الصفة محل الفرق الأول التي بها يقرأ الكتاب بالألف التي هي محل الجمع لئلا يتوهم الفرق الخطاب من فرق آخر فلا يبلغ إلى حقيقة أبداً، ففصل بالألف بينهما فصار حجاباً بين الذال واللام، فأرادت الذال الوصول إلى اللام فقام لها الألف فقال بي تصل، وأرادت اللام ملاقاة الذال لتؤدّي إليها أمانتها فتعرّض لها أيضاً الألف فقال لها بي تلقاه، فمهما نظرت الوجود جمعاً وتفصيلاً وجدت التوحيد يصحبه لا يفارقه البتة صحبة الواحد الأعداد، فإن الاثنين لا توجد أبداً ما لم تضف إلى الواحد مثله وهو الاثنين، ولا تصحّ الثلاثة ما لم تزد واحداً على الاثنين وهكذا إلى ما لا يتناهى، فالواحد ليس العدد وهو عين العدد أي به ظهر العدد، فالعدد كله واحد لو نقص من الألف واحد انعدم اسم الألف وحقيقته، وبقيت حقيقة أخرى وهي تسعمائة وتسعة وتسعون لو نقص منها واحد لذهب عينها، فمتى انعدم الواحد من شيء عدم، ومتى ثبت وجد ذلك الشيء هكذا التوحيد إن حققته وهو معكم أينما كنتم فقال ذا وهو حرف مبهم فبين ذلك المبهم بقوله الكتاب وهو حقيقة ذا، وساق الكتاب بحرفي التعريف والعهد وهما الألف واللام من آلمّ غير أنهما هنا من غير الوجه الذي كانتا عليه في آلمّ فإنهما هناك في محل الجمع وهما هنا في أول باب من

أبواب التفصيل، ولكن من تفصيل سرائر هذه السورة خاصة لا في غيرها من السور، هكذا ترتيب الحقائق في الوجود، فذلك الكتاب هو الكتاب المرقوم لأنّ أمّهات الكتب ثلاثة: الكتاب المسطور، والكتاب المرقوم، والكتاب المجهول، وقد شرحنا معنى الكتاب والكاتب في كتاب التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية في الباب التاسع منه فانظره هناك.

فنقول: إن الذوات وإن اتحد معناها فلا بدّ من معنى به يفرق بين الذاتين يسمى الوصف، فالكتاب المرقوم موصوف بالرقم، والكتاب المسطور موصوف بالتسطير، وهذا الكتاب المجهول الذي سلب عنه الصفة لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون صفة ولذلك لا يوصف، وإما أن يكون ذاتاً غير موصوفة والكشف يعطي أنه صفة تسمى العلم وقلوب كلمات الحق محله، ألا تراه يقول: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [سورة السجدة: الآية ١و٢] قل أنزله بعلمه. فخاطب الكاف من ذلك بصفة العلم الذي هو اللام المخفوضة بالنزول لأنه يتنزّه عن أن تدرك ذاته، فقال للكاف التي هي الكلمة الإلهية ذلك الكتاب المنزل عليك هو علمي لا علمك لا ريب فيه عند أهل الحقائق، أنزله في معرض الهداية لمن اتقاني وأنت المنزّل فأنت محله، ولا بدّ لكل كتاب من أم وأمه ذلك الكتاب المجهول لا تعرفه أبداً لأنه ليس بصفة لك ولا لأحد ولا ذات، وإن شئت أن تحقق هذا فانظر إلى كيفية حصول العلم في العالم، أو حصول صورة المرئيّ في الرائي فليست وليس غيرها، فانظر إلى درجات حروف لا ريب فيه هدى للمتقين، ومنازلها على حسب ما تذكره بعد الكلام الذي نحن بصدده، وتدبر ما بثثته لك وحلّ عقدة لام الألف من لا ريب تصير ألفان لأن تعريقة اللام ظهرت صورتها في نون المتقين، وذلك لتأخّر الألف عن اللام من اسمه الآخر وهي المعرفة التي تحصل للعبد من نفسه في قوله عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فقدم معرفة اللام على معرفة الألف فصارت دليلاً عليه ولم يمتزجا حتى يصيرا ذاتاً واحدة، بل بأن كل واحد منهما بذاته ولهذا لا يجتمع الدليل والمدلول، ولكن وجه الدليل هو الرابط وهو موضع اتصال اللام بالألف فاضرب الألفين اا أحدهما في الآخر تصحّ لك في الخارج ألف واحدة أو هذا حقيقة الاتصال، كذلك اضرب المحدث في القديم حسّاً يصحّ في الخارج المحدث ويخفى القديم بخروجه وهذا حقيقة الاتصال والاتحاد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] وهذا نقيض إشارة الجنيد في قوله للعاطس: إن المحدث إذا قورن بالقديم لم يبق له أثر لاختلاف المقام، ألا ترى كيف اتصل لام الألف من لا ريب فيه من الكرسي فبدت ذاتان لآ جهل سر العقد بينهما ثم فصلهما العرش عند الرجوع إليه والوصول فصارت على هذا الشكل آل فظهرت اللام بحقيقتها لأنه لم يقم بها مقام الاتصال والاتحاد من يردّها على صورته، فأخرجنا نصف الدائرة من اللام التي خفيت في لام الألف إلى عالم التركيب والحس فبقيت ألفان اا في الفرق فضربنا الواحد في الواحد وهو ضرب الشيء في نفسه فصار واحداً آ فلبس الواحد الآخر فكان الواحد رداء وهو الذي ظهر وهو الخليفة المبدع بفتح الدال، وكان الآخر مرتدياً وهو الذي خفي وهو القديم المبدع فلا يعرف المرتدي إلاّ باطن

الرداء وهو الجمع ويصير الرداء على شكل المرتدي، فإن قلت واحد صدقت، وإن قلت ذاتان صدقت عيناً وكشفاً ولله درّ من قال: [الكامل]

رقَّ الزجاجُ ورقَّتِ الخمرُ فتشاكلا فتشابَهَ الأمرُ
فكأنما خَمَرٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قدحٌ ولا خَمْرُ

وأما ظاهر الرداء فلا يعرف المرتدي أبداً وإنما يعرف باطن ذاته وهو حجابه، فكذلك لا يعلم الحق إلاّ العلم، كما لا يحمده على الحقيقة إلاّ الحمد، وأما أنت فتعلمه بوساطة العلم وهو حجابك فإنك ما تشاهد إلاّ العلم القائم بك وإن كان مطابقاً للمعلوم، وعلمك قائم بك وهو مشهودك ومعبودك، فإياك أن تقول إن جريت على أسلوب الحقائق أنك علمت المعلوم، وإنما علمت العلم والعلم هو العالم بالمعلوم، وبين العلم والمعلوم بحور لا يدرك قعرها، فإن سر التعلّق بينهما مع تباين الحقائق بحر عسير مركبه بل لا تركبه العبارة أصلاً ولا الإشارة، ولكن يدركه الكشف من خلف حجب كثيرة دقيقة لا يحسّ بها أنها على عين بصيرته لرقتها وهي عسيرة المدرك فأحرى من خلقها، فانظر أين هو من يقول إني علمت الشيء من ذلك الشيء محدثاً كان أو قديماً بل ذلك في المحدث، وأما القديم فأبعد وأبعد إذ لا مثل له، فمن أين يتوصل إلى العلم به؟ أو كيف يحصل؟ وسيأتي الكلام على هذه المسألة السنية في الفصل الثالث من هذا الباب، فلا يعرف ظاهر الرداء المرتدي إلاّ من حيث الوجود بشرط أن يكون في مقام الاستسقاء، ثم يزول ويرجع لأنها معرفة علة لا معرفة جذب، وهذه رؤية أصحاب الجنة في الآخرة وهو تجل في وقت دون وقت، وسيأتي الكلام عليه في باب الجنة من هذا الكتاب وهذا هو مقام التفرقة.

وأمّا أهل الحقائق باطن الرداء فلا يزالون مشاهدين أبداً، ومع كونهم مشاهدين فظاهرهم في كرسي الصفات ينعم بموادّ بشرة الباطن نعيم اتصال، وانظر إلى حكمته في كون «ذلك» مبتدأ ولم يكن فاعلاً ولا مفعولاً لما لم يسم فاعله لأنه لا يصحّ أن يكون فاعلاً لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢] فلو كان فاعلاً لوقع الريب لأن الفاعل إنما هو منزله لا هو، فكيف ينسب إليه ما ليس بصفته؟ لأن مقام الذال أيضاً يمنع ذلك فإنه من الحقائق التي كانت ولا شيء معها، ولهذا لا يتصل بالحروف إذا تقدّم عليها كالألف وأخواته الدال والراء والزاي والواو، ولا يقول فيه أيضاً مفعول لم يسم فاعله لأنه من ضرورته أن يتقدّمه كلمة على بنية مخصوصة محلها النحو والكتاب هنا نفس الفعل والفعل لا يقال فيه فاعل ولا مفعول وهو مرفوع، فلم يبق إلاّ أن يكون مبتدأ، ومعنى مبتدأ لم يعرف غيره من أول وهلة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فإن قيل: من ضرورة كل مبتدأ أن يعمل فيه ابتداء، قلنا نعم عمل فيه أمّ الكتاب فهي الابتداء العاملة في الكتاب والعامل في الكل حقاً وخلقاً الله الرب، ولهذا نبّه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] فشرّك ثم قال إليّ المصير فوحّد، فالشكر من مقام التفرقة، فكذلك ينبغي لك أن تشكر الرداء لما كان سبباً موصلاً إلى المرتدي والمصير من الرداء ومنك إلى المرتدي كل على شاكلته يصل فتفهم ما قلناه وفرّق بين مقام الذال والألف، وإن اشتركا في مقام الوحدانية المقدسة قبلية حالاً ومقاماً وبعدية مقاماً لا حالاً.

تنبيه: قال «ذلك» ولم يقل «تلك آيات الكتاب»، فالكتاب للجمع والآيات للتفرقة، وذلك مذكر مفرد وتلك مفرد مؤنث، فأشار تعالىٰ بذلك الكتاب أوّلاً لوجود الجمع أصلاً قبل الفرق، ثم أوجد الفرق في الآيات كما جمع العدد كله في الواحد كما قدّمناه، فإذا أسقطناه انعدمت حقيقة ذلك العدد وما بقي للألف أثر في الوجود، وإذا أبرزناه برزت الألف في الوجود، فانظر إلى هذه القوّة العجيبة التي أعطتها حقيقة الواحد الذي منه ظهرت هذه الكثرة إلى ما لا يتناهى وهو فرد في نفسه ذاتاً واسماً، ثم أوجد الفرق في الآيات قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣] ثم قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] فبدأ بالجمع الذي هو كل شيء قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] في الألواح مقام الفرق، من كل شيء إشارة إلى الجمع ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] ردّ إلى الفرق لكل شيء ردّ إلى الجمع، فكل موجود أيّ موجود كان عموماً لا يخلو أن يكون إما في عين الجمع أو في عين الفرق لا غير، ولا سبيل أن يعرى عن هاتين الحقيقتين موجود ولا يجمعها أبداً، فالحق والإنسان في عين الجمع والعالم في عين التفرقة لا يجتمع، كما لا يفترق الحق أبداً كما لا يفترق الإنسان، فالله سبحانه لم يزل في أزله بذاته وصفاته وأسمائه لم يتجدّد عليه حال ولا ثبت له وصف من خلق العالم لم يكن قبل ذلك عليه، بل هو الآن على ما كان عليه قبل وجود الكون كما وصفه ﷺ حين قال: «**كَانَ الله وَلاَ شَيْءَ مَعهُ**» وزيد في قوله: وهو الآن على ما عليه كان، فاندرج في الحديث ما لم يقله ﷺ، ومقصودهم أي الصفة التي وجبت له قبل وجود العالم هو عليها والعالم موجود، وهكذا هي الحقائق عند من أراد أن يقف عليها، فالتذكير في الأصل وهو آدم قوله ذلك، والتأنيث في الفرع وهو حوّاء قوله تلك، وقد أشبعنا القول في هذا الفصل في كتاب الجمع والتفصيل الذي صنفناه في معرفة أسرار التنزيل، فآدم لجميع الصفات وحوّاء لتفريق الذوات، إذ هي محل الفعل والبذر، وكذلك الآيات محل الأحكام والقضايا، وقد جمع الله تعالىٰ معنى ذلك وتلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٠] فحروف ﴿الٓمٓ﴾ رقماً ثلاثة وهو جماع عالمها، فإن فيها الهمزة وهي من العالم الأعلى، واللام وهي من العالم الوسط، والميم وهي من العالم الأسفل، فقد جمع الم البرزخ والدارين والرابط والحقيقتين وهي على النصف من حروف لفظه من غير تكرار وعلى الثلاث بغير تكرار، وكل واحد منهما ثلث كل ثلاث، وهذه كلها أسرار تتبعناها في كتاب المبادي والغايات، وفي كتاب الجمع والتفصيل، فليكف هذا القدر من الكلام على الم البقرة في هذا الباب بعدما رغبنا في ترك تقييد ما تجلى لنا في الكتاب والكاتب، فلقد تجلّت لنا فيه أمور جسام مهولة رمينا الكراسة من أيدينا عند تجلّيها وفررنا إلى العالم حتى خفّ عنا ذلك، وحينئذ رجعنا إلى التقييد في اليوم الثاني من ذلك التجلّي وقبلت الرغبة فيه وأمسك علينا ورجعنا إلى الكلام على الحروف حرفاً حرفاً كما شرطناه أولاً في هذا الباب رغبة في الإيجاز والاختصار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس والحمد لله رب العالمين.

(الجزء السادس)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فمن ذلك حرف الألف: [الرمل]

أَلِفَ الذاتِ تنزَّهتَ فهل ... لكَ في الأكوان عينٌ ومحلّ
قَال لا غير التفاتي فأنا ... حرفُ تأبيدٍ تضمَّنتُ الأزَلْ
فأنا العبدُ الضعيفُ المجتبى ... وأنا من عِزِّ سلطاني وجِلْ

الألف ليس من الحروف عند من شمّ رائحة من الحقائق ولكن قد سمته العامة حرفاً، فإذا قال المحقق إنه حرف فإنما يقول ذلك على سبيل التجوّز في العبارة، ومقام الألف مقام الجمع له من الأسماء اسم الله، وله من الصفات القيومية، وله من أسماء الأفعال: المبدىء والباعث والواسع والحافظ والخالق والبارىء والمصوّر والوهاب والرزاق والفتاح والباسط والمعزّ والمعيد والرافع والمحيي والوالي والجامع والمغني والنافع. وله من أسماء الذات: الله والرب والظاهر والواحد والأول والآخر والصمد والغنيّ والرقيب والمتين والحق. وله من الحروف اللفظية: الهمزة واللام والفاء. وله من البسائط: الزاي والميم والهاء والفاء واللام والهمزة. وله من المراتب كلها. وظهوره في المرتبة السادسة وظاهر سلطانه في النبات. وأخوته في هذه المرتبة: الهاء واللام. وله مجموع عالم الحروف ومراتبها ليس فيها ولا خارجاً عنها نقطة الدائرة ومحيطها ومركب العوالم وبسيطها.

ومن ذلك حرف الهمزة: [الرمل]

همزةٌ تقطع وقتاً وتصِلْ ... كُلَّ ما جاورها من منفَصِلْ
فهي الدهرُ عظيمٌ قدْرُها ... جلَّ أن يحصره ضَرْبُ المَثَلْ

الهمزة من الحروف التي من عالم الشهادة والملكوت لها من المخارج أقصى الحلق ليس لها مرتبة في العدد، لها من البسائط: الفاء والميم والزاي والألف والياء. لها من العالم الملكوت. ولها الفلك الرابع ودورة فلكها تسع آلاف سنة. ولها من المراتب الرابعة والسادسة والسابعة، وظهور سلطانها في الجنّ والنبات والجماد، ولها من الحروف الهاء والميم والزاي والهاء في الوقف والتاء بالنطقين من فوق في الوصل والتنوين في القطع. لها من الأسماء ما للألف والواو والياء فأغنى عن التكرار، وتختص من أسماء الصفات بالقهار والقاهر والمقتدر والقويّ والقادر، وطبعها الحرارة واليبوسة وعنصرها النار، واختلفوا هل هي حرف أو نصف حرف في الحروف الرقمية، وأمّا في التلفّظ بها فلا خلاف أنها حرف عند الجميع.

ومن ذلك حرف الهاء: [الكامل]

هاءُ الهويةِ كم تشيرُ لكل ذي ... إنِّيَّةٍ خَفِيتْ له في الظاهرِ
هلاّ محقْتَ وجودَ رسمِك عندما ... تبدو لأوله عيونُ الآخرِ

اعلم أن الهاء من حروف الغيب لها من المخارج أقصى الحلق، ولها من العدد الخمسة، ولها من البسائط الألف والهمزة واللام والهاء والميم والزاي، ولها من العالم الملكوت، ولها الفلك الرابع، وزمان حركة فلكها تسع آلاف سنة، ولها من الطبقات الخاصة وخاصة الخاصة، ولها من المراتب السادسة، وظهور سلطانها في النبات، ويوجد منه بآخرها ما كان حاراً رطباً وتحيله بعد ذلك إلى البرودة واليبوسة، ولها من الحركات المستقيمة والمعوجة وهي من حروف الأعراق ولها الامتزاج وهي من الكوامل وهي من عالم الانفراد، وطبعها البرودة واليبس والحرارة والرطوبة مثل عطارد، وعنصرها الأعظم التراب، وعنصرها الأقل الهواء، ولها من الحروف: الألف والهمزة، ولها من الأسماء الذاتية: الله والأول والآخر والماجد والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمتين والأحد والملك، ولها من أسماء الصفات: المقتدر والمحصي، ولها من أسماء الأفعال: اللطيف والفتاح والمبدىء والمجيب والمقيت والمصوّر والمذل والمعزّ والمعيد والمحيي والمميت والمنتقم والمقسط والمغني والمانع، ولها غاية الطريق.

ومن ذلك حرف العين المهملة: [الكامل]

عينُ العيونِ حقيقةُ الإيجادِ ... فانظرْ إليه بمنزلِ الإشْهادِ
تُبصِرُهُ ينظر نحوَ موجِدِ ذاته ... نظرَ السقيمِ محاسنَ العُوَّادِ
لا يلتفِتْ أبداً لغيرِ إلهِهِ ... يرجو ويحذر شيمةَ العُبَّادِ

اعلم أن العين من عالم الشهادة والملكوت، وله من المخارج وسط الحلق، وله من عدد الجمل عقد السبعين، وله من البسائط: الياء والنون والألف والهمزة والواو، وله الفلك الثاني وزمان حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، وله من طبقات العالم الخاصة وخاصة الخاصة، وله من المراتب الخامسة، وظهور سلطانه في البهائم، ويوجد عنه كل حارّ رطب، وله من الحركات الأفقية وهي المعوجة وهو من حروف الأعراف، وهو من الحروف الخالصة وهو كامل، وهو من عالم الإنس الثنائيّ، وطبعه الحرارة والرطوبة، وله من الحروف: الياء والنون، وله من الأسماء الذاتية: الغنيّ والأول والآخر، وله من أسماء الصفات: القويّ والمحصي والحي، ومن أسماء الأفعال: النصير والنافع والواسع والوهاب والوالي.

ومن ذلك حرف الحاء المهملة: [البسيط]

حاءُ الحواميم سرُّ الله في السُّوَرِ ... أخفى حقيقَتَه عن رؤيةِ البشَرِ
فإن ترحَّلْتَ عَن كونٍ وعن شبَحِ ... فارحلْ إلى عالَم الأرواحِ والصُّوَرِ
وانظرْ إلى حاملاتِ العرشِ قد نظَرَتْ ... إلى حقائقها جاءَتْ على قَدَرِ
تَجِدْ لحائك سلطاناً وعِزَّتُه ... أن لا يُدانَى ولا يخشى من الغِيَرِ

اعلم أيها الولي أن الحاء من عالم الغيب، وله من المخارج وسط الحلق، وله من العدد الثمانية، وله من البسائط: الألف والهمزة واللام والهاء والفاء والميم والزاي، وله من العالم

الملكوت، وله الفلك الثاني، وسنيّ حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة وهو من الخاصة وخاصة الخاصة، وله من المراتب السابعة وظهور سلطانه في الجماد، ويوجد عنه ما كان بارداً رطباً وعنصره الماء، وله من الحركات المعوجة وهو من حروف الأعراق، وهو خالص غير ممتزج، وهو كامل يرفع من اتصل به، هو من عالم الإنس الثلاثيّ، وطبعه البرودة والرطوبة، وله من الحروف: الألف والهمزة، وله من أسماء الذات: الله والأوّل والآخر والملك والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمجيد والمتين والمتعالي والعزيز، وله من أسماء الصفات: المقتدر والمحصي، وله من أسماء الأفعال: اللطيف والفتاح والمبدىء والمجيب والمقيت والمصوّر والمذل والمعزّ والمعيد والمحيي والمميت والمنتقم والمقسط والمغني والمانع، وله بداية الطريق.

ومن ذلك حرف الغين المنقوطة: [الرجز]

الـغَـيْـنُ مـثـلُ الـعـيـن فـي أحـوالـهِ ... إلا تَـجَـلِّـيـه الأَطَـمَّ الأخْـطَـرِ

فـي الـغـيـنِ أسـرارُ الـتـجـلّـي الأقـهـرِ ... فـاعـرفْ حـقـيـقـةَ فَـيْـضِـه وتَـسَـتُّـرِ

وانـظـرْ إلـيـه مـن سـتـارةِ كَـوْنِـه ... حَذَراً على الرَّسْم الضعيفِ الأحْقَرِ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الغين المنقوطة من عالم الشهادة والملكوت، ومخرجه الحلق أدنى ما يكون منه إلى الفم، عدده عندنا تسعمائة وعند أهل الأسرار، وأما عند أهل الأنوار فعدده ألف، كل ذلك في حساب الجمل الكبير، وبسائطه: الياء والنون والألف والهمزة والواو، وفلكه الثاني وسني فلكه في حركته إحدى عشرة ألف سنة يتميز في طبقة العامّة، مرتبته الخامسة، ظهور سلطانه في البهائم، طبعه البرودة والرطوبة، عنصره الماء، يوجد عنه كل ما كان بارداً رطباً، حركته معوجة له الخلق والأحوال والكرامات: خالص كامل مثنى مؤنس، له الإفراد الذاتيّ، له من الحروف: الياء والنون، له من الأسماء الذاتية: الغنيّ والعليّ والله والأول والآخر والواحد، وله من أسماء الصفات: الحيّ والمحصي والقويّ، وله من أسماء الأفعال: النصير والواقي والواسع والوالي والوكيل، وهو ملكوتيّ.

ومن ذلك حرف الخاء المنقوطة: [الرجز]

الـخـاءُ مـهـمـا أقـبـلَـتْ أو أدبـرتْ ... أعـطـتْـكَ مـن أسـرارهـا وتـأخَّـرَتْ

فـعُـلُـوُّهـا يـهـوى الـكـيـانَ وسـفْـلُـهـا ... يـهـوى الـمـكـوّنَ حـكـمـةً قـد أظْـهَـرَتْ

أبـدى حـقـيـقـتَـهـا مـخـطَّـطُ ذاتـهـا ... فـتـدنَّـسـتْ وقـتـاً وثَـمَّ تـطـهَّـرَتْ

فـاعـجـبْ لـهـا مـن جـنـةٍ قـد أُزْلِـفـتْ ... فـي سـفْـلِـهـا ولـهـيـبَ نـار سـعَّـرَتْ

اعلم أيّدك الله أن الخاء من عالم الغيب والملكوت مخرجه الحلق مما يلي الفم، عدده ستمائة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الثاني سني فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في العامّة، مرتبته السابعة، ظهور سلطانه في الجماد، طبع رأسه البرودة واليبوسة والحرارة والرطوبة بقية جسده، عنصره الأعظم الهواء والأقلّ التراب،

يوجد عنه كل ما اجتمعت فيه الطبائع الأربع، حركته معوجة، له الأحوال والخلق والكرامات ممتزج كامل يرفع من اتصل به على نفسه، مثلث مؤنس له علامة، له من الحروف: الهمزة والألف، له من الأسماء الذاتية والصفاتية والفعلية كل ما كان في أوله: زاي أو ميم كالملك والمقتدر والمعز، أو هاء كالهادي أو فاء كالفتاح أو لام كاللطيف أو همزة كالأول.

ومن ذلك حرف القاف: [الكامل]

القافُ سرُّ كمالـه فـي رأسـهِ ... وعلومُ أهل العربِ مبدأُ قُطْرِهِ
والشوقُ يثنيهِ ويجعلُ غَيْبَهُ ... في شطره وشُهودَهُ في شطْرِهِ
وانظرْ إلى تعريقِهِ كهلاله ... وانظرْ إلى شَكْلِ الرُّؤيس كَبَدْرِهِ
عجباً لآخرِ نشأةٍ هو مبدأٌ ... لوجود مبدئه ومَبْدأ عَصْرِهِ

اعلم أيّدنا الله أن القاف من عالم الشهادة والجبروت، مخرجه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك، عدده مائة، بسائطه: الألف والفاء والهمزة واللام، فلكه الثاني سني حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميّز في الخاصة وخاصة الخاصة، مرتبته الرابعة، ظهور سلطانه في الجن، طبعه الأمّهات الأول، آخره حار يابس وسائره بارد رطب، عنصره الماء والنار، يوجد عنه الإنسان والعنقاء، له الأحوال، حركته ممتزجة، ممتزج مؤنس مثنى، علامته مشتركة، له من الحروف: الألف والفاء، وله من الأسماء على مراتبها كل اسم في أوله حرف من حروف بسائطه، له الذات عند أهل الأسرار، وعند أهل الأنوار الذات والصفات.

ومن ذلك حرف الكاف: [الكامل]

كافُ الرجاءِ يشاهدُ الإجلالا ... من كافِ خوفٍ شاهَدَ الإفْضالا
فانظرْ إلى قَبْضٍ وبَسْطٍ فيهما ... يعطيك ذا صدّاً وذاك وِصَالا
الله قد جلّى لذا إجْلالَهُ ... ولذاك جلَّى من سَنَاه جَمَالا

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الكاف من عالم الغيب والجبروت له من المخارج مخرج القاف وقد ذكر إلاَّ أنه أسفل منه، عدده عشرون، بسائطه الألف والفاء والهمزة واللام، له الفلك الثاني، حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، مرتبته الرابعة، ظهور سلطانه في الجن، يوجد عنه كل ما كان حاراً يابساً، عنصره النار، طبعه الحرارة واليبوسة، مقامه البداية، حركته ممتزجة، هو من الأعراق خالص كامل، يرفع من اتصل به عند أهل الأنوار ولا يرفع عند أهل الأسرار، مفرد موحش، له من الحروف ما للقاف، وله من الأسماء كل اسم في أوّله حرف من حروف بسائطه وحروفه.

ومن ذلك حرف الضاد المعجمة: [الكامل]

في الضادِ سرٌّ لو أبوحُ بذكرهِ ... لرأيتَ سرَّ الله في جَبَروتِهِ
فانظرْ إليه واحداً وكمالُه ... من غَيْرِهِ في حضرَتَيْ رَحَمُوتِهِ
وأمامَهُ اللفظُ الذي بوجوده ... أسرى به الرحمنُ من مَلَكُوتِهِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الضاد المعجمة من حروف الشهادة والجبروت، ومخرجه من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، عدده تسعون عندنا وعند أهل الأنوار ثمانمائة، بسائطه الألف والدال اليابسة والهمزة واللام والفاء، فلكه الثاني، حركة فلكه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في العامّة، له وسط الطريق، مرتبته الخامسة، ظهور سلطانه في البهائم، طبعه البرودة والرطوبة، عنصره الماء، يوجد عنه ما كان بارداً رطباً، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص كامل مثنى مؤنس، علامته الفردانية، له من الحروف: الألف والدال، وله من الأسماء كما أعلمناك في الحرف الذي قبله رغبة في الاختصار والله المعين الهادي.

ومن ذلك حرف الجيم: [الكامل]

الجيمُ يرفعُ من يريد وصَالَهُ ... لِمَشَاهِدِ الأبرارِ والأخْيَارِ
فهو العبيدُ القِنُّ إلاّ أنه ... متحقّقٌ بحقيقةِ الإيثارِ
يرنو بغايته إلى معْبُودِهِ ... وببدْئهِ يمشي على الآثارِ
هو من ثلاثِ حقائقٍ معلومةٍ ... ومزاجُه بردٌ ولفحُ النّارِ

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الجيم من عالم الشهادة والجبروت، ومخرجه من وسط اللسان بينه وبين الحنك، عدده ثلاثة، بسائطه: الياء والميم والألف والهمزة، فلكه الثاني، سنيه إحدى عشرة ألف سنة، يتميز في العامّة، له وسط الطريق، مرتبته الرابعة، ظهور سلطانه في الجن، جسده بارد يابس، رأسه حار يابس، طبعه البرودة والحرارة واليبوسة، عنصره الأعظم التراب والأقل النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته معوجة، له الحقائق والمقامات والمنازلات، ممتزج كامل، يرفع من اتصل به عند أهل الأنوار والأسرار إلاّ الكوفيون، مثلث مؤنس، علامته الفردانية، له من الحروف: الياء والميم، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الشين المعجمة بالثلاث: [البسيط]

في الشينِ سبعةُ أسرارٍ لِمَنْ عَقَلا ... وكلُّ من نالها يوماً فقد وَصَلاَ
تعطيكَ ذاتَك والأجسامُ ساكنةٌ ... إذا الأمينُ على قلبٍ بها نَزَلاَ
لو عاينَ الناسُ ما تحويه من عَجَبٍ ... رأَوْا هلالَ امِّحاقِ الشهر قد كملا

اعلم أيّدنا الله نطقاً وفهماً أن الشين من عالم الغيب والجبروت الأوسط منه، مخرجه مخرج الجيم، عدده عندنا ألف وعند أهل الأنوار ثلاثمائة، بسائطه: الياء والنون والألف والهمزة والواو، فلكه الثاني، سني هذا الفلك قد تقدم ذكرها يتميز في العامّة، له وسط الطريق مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه بارد رطب، عنصره الماء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، كامل خالص مثنى مؤنس، له الذات والصفات والأفعال، له من الحروف الياء والنون، ومن الأسماء على نحو ما تقدّم، له الخلق والأحوال والكرامات.

ومن ذلك حرف الياء: [البسيط]

ياءُ الرسالة حرفٌ في الثرى ظهرا ... كالواو في العالم العُلْويّ مُعْتَمَرَا
فهو المُمِدُّ جسوماً ما لها ظُلَلٌ ... وهو المُمِدُّ قلوباً عانقَتْ صُوَرَا
إذا أراد يناجيكم بحكمتهِ ... يتلو فيسمع سرُّ الأحرفِ السُّوَرَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الياء من عالم الشهادة والجبروت، مخرجه مخرج الشين، عدده العشرة للأفلاك الاثني عشر وواحد للأفلاك السبعة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الثاني، سنيه قد ذكرت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له الغاية والمرتبة السابعة، ظهور سلطانه في الجماد، طبعه الأمّهات الأول، عنصره الأعظم النار والأقل الماء، يوجد عنه الحيوان حركته ممتزجة له الحقائق والمقامات والمنازلات، ممتزج كامل رباعيّ مؤنس، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف اللام: [الكامل]

اللامُ للأزَلِ السنيّ الأقْدَسِ ... ومقَامِهِ الأعلى البهيّ الأنْفَسِ
مهما يَقُمْ تبدي المكوِّن ذاتُه ... والعالَمَ الكونيَّ مهما يَجْلسِ
يعطيكَ روحاً من ثلاثِ حقائقٍ ... يمشي ويَرْفلُ في ثيابِ السُّنْدُسِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن اللام من عالم الشهادة والجبروت، مخرجه من حافة اللسان أدناها إلى منتهى طرفه، عدده في الاثني عشر فلكاً ثلاثون وفي الأفلاك السبعة ثلاثة، بسائطه: الألف والميم والهمزة والفاء والياء، فلكه الثاني، سنيه تقدمت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له الغاية، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والبرودة واليبوسة، عنصره الأعظم النار والأقل التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته مستقيمة وممتزجة، له الأعراف ممتزج كامل مفرد موحش، له من الحروف الألف والميم، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الراء: [الكامل]

راءُ المحبةِ في مقَامِ وِصَالِهِ ... أبداً بدارِ نعيمهِ لن يُخْذَلاَ
وقتاً يقول أنا الوحيدَ فلا أرى ... غيري ووقتاً يا أنا لن يجهلا
لو كان قلبُك عندَ ربكَ هكذا ... كنتَ المقرَّبَ والحبيبَ الأكْمَلاَ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الراء من عالم الشهادة والجبروت، ومخرجها من ظهر اللسان وفوق الثنايا، عدده في الاثني عشر فلكاً مائتان وفي الأفلاك السبعة اثنان، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الثاني، سني فلكه معلومة، له الغاية، مرتبته السابعة، ظهور سلطانه في الجماد، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، طبعه الحرارة واليبوسة، عنصره النار يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الأعراف، خالص ناقص مقدّس مثنى مؤنس، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف النون: [الكامل]

نُونُ الوجودِ تدلُّ نقطةُ ذاتها ... في عينها عيناً على معبودِهَا
فوجودُها من جُوْدِهِ ويمينِهِ ... وجميع أكوانِ العُلَى من جُودِهَا
فانظرْ بعينك نصفَ عَيْنِ وجودِها ... من جُودِها تعثُرْ على مَفْقودِهَا

اعلم أيّد الله القلوب بالأرواح أن النون من عالم الملك والجبروت، مخرجه من حافة اللسان وفوق الثنايا، عدده خمسون وخمسة، بسائطه: الواو والألف، فلكه الثاني، سني حركته قد ذكرت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له غاية الطريق، مرتبته المرتبة المنزّهة الثانية، ظهور سلطانه في الحضرة الإلهية، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص ناقص مفرد موحش، له الذات، له من الحروف الواو، والأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الطاء المهملة: [البسيط]

في الطاءِ خمسةُ أسرار مخبأةٌ ... منها حقيقةُ عينِ المُلْكِ في المَلِكِ
والحقُّ في الخلقِ والأسرارُ نائبةٌ ... والنورُ في النار والإنسانُ في المَلَكِ
فهذه خمسةٌ مهما كَلِفْتَ بها ... علمتَ أن وجودَ الفُلْكِ في الفَلَكِ

اعلم أيّدنا الله به أن الطاء من عالم الملك والجبروت، مخرجه من طرف اللسان وأصول الثنايا، عدده تسعة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والميم والزاي والهاء، فلكه الثاني، سنيه مذكورة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، وله غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه البرودة والرطوبة، عنصره الماء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته مستقيمة عند أهل الأنوار ومعوجة عند أهل الأسرار وعند أهل التحقيق وعندنا معاً وممتزجة، له الأعراف، خالص كامل مثنى مؤنس، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الدال المهملة: [البسيط]

الدالُ من عالَم الكون الذي انتقلا ... عن الكيان فلا عينٌ ولا أَثَرُ
عزّتْ حقائقُه عن كلّ ذي بَصَرٍ ... سُبْحانَهُ جلَّ أن يحظى به بَشَرُ
فيه الدوامُ فجودُ الحقِّ منزِلُهُ ... فيه المثاني ففيه الآيُ والسُّوَرُ

اعلم أيّدنا الله بأسمائه أن الدال من عالم الملك والجبروت، مخرجه مخرج الطاء، عدده أربعة، بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والميم، فلكه الأول، سني حركته اثنتا عشرة ألف سنة، له غاية الطريق، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة بين أهل الأنوار والأسرار، له الأعراق، خالص ناقص مقدس مثنى مؤنس، له من الحروف الألف واللام، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف التاء باثنتين من فوق:[البسيط]

التاءُ يظهر أحياناً ويستترُ فحظُّه من وجود القوم تلوينُ
يحوي على الذاتِ والأوصافِ حضرَتَهُ وما له في جَنابِ الفعل تَمْكينُ
يبدو فيظهر من أسراره عَجَباً ومُلْكُهُ اللوحُ والأقلامُ والنُّونُ
الليلُ والشمسُ والأعلى وطارِقُهُ في ذاته والضحى والشَّرْحُ والتِّينُ

اعلم أيها الوليّ الحميم أن التاء من عالم الغيب والجبروت، مخرجه مخرج الدال والطاء، عدده أربعة وأربعمائة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الأول، سنيه قد ذكرت، يتميز في خاصة الخاصة، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة له الخلق والأحوال والكرامات خالص كامل رباعيّ مؤنس، له الذات والصفات، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الصاد اليابسة [البسيط]

في الصادِ نورٌ لقلبِ بات يَرْقُبُهُ عند المنام وسِتْرُ السُّهْدِ يَحْجُبُهُ
فنَمْ فإنك تلقى نورَ سَجْدتِهِ يُنيرُ صدرَكَ والأسرارُ تَرْقُبُهُ
فذلك النورُ نورُ الشكرِ فارتقبِ الْـ ـمشكورَ فهو على العادات يَعْقُبُهُ

اعلم أيها الصفي الكريم أن الصاد من عالم الغيب والجبروت، مخرجه مما بين طرفي اللسان وفويق الثنايا السفلى، عدده ستون عندنا وتسعون عند أهل الأنوار، بسائطه: الألف والدال والهمزة واللام والفاء، فلكه الأول، سنيه قد ذكرت، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة، له أول الطريق، مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والرطوبة، عنصره الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة مجهولة، له الأعراف، خالص كامل مثنى مؤنس، له من الحروف: الألف والدال، ومن الأسماء كما تقدم. ثم اعلم أني جعلت سرّ هذا الصاد اليابسة لا ينال إلاّ في النوم لكوني ما نلته، ولا أعطانيه الحق تعالىٰ إلاّ في المنام فلهذا حكمت عليه بذلك، وليست حقيقته ذلك والله يعطيه في النوم واليقظة، ولما وقفت عنده بالتقييد جعلت بعض الأصحاب يقرأ عليّ أسرار الحروف لأصلح ما اختلّ منها عند التقييد لسرعة القلم، فلما وصل بالقراءة إلى هذا الحرف قلت لهم ما اتفق لي فيه وإن النوم ليس لازماً في نيله، ولكن هكذا أخذته فوصفت حالي وانفض الجمع، فلما كان من الغد من يوم السبت قعدنا على سبيل العادة في المجلس بالمسجد الحرام تجاه الركن اليمانيّ من الكعبة المعظمة، وكان يحضر عندنا الشيخ الفقيه المجاور أبو يحيىٰ بكر بن أبي عبد الله الهاشميّ التويتمي الطرابلسيّ رحمه الله فجاء على عادته فلما فرغنا من القراءة قال لي: رأيت البارحة في النوم كأني قاعد وأنت أمامي مستلق على ظهرك تذكر الصاد فأنشدتك مرتجلاً: [المجتث]

الصَّادُ حرفٌ شريفٌ والصَّادُ في الصَّادِ أَصْدَقْ

فقلت لي في النوم ما دليلك؟ فقلت: [المجتث]

لأنـــهـــا شـــكـــلُ دورِ ... ومـــا مـــن الـــدَّوْر أَسْـبَـــقْ

ثم استيقظت. وحكى لي في هذه الرؤيا أني فرحت بجوابه، فلما أكمل ذكره فرحت بهذه المبشرة التي رآها في حقي وبهيئة الاضطجاع وذلك رقاد الأنبياء عليهم السلام وهي حالة المستريح الفارغ من شغله والمتأهب لما يرد عليه من أخبار السماء بالمقابلة، فاعلم أن الصاد حرف من حروف الصدق والصون والصورة، وهو كريّ الشكل قابل لجميع الأشكال، فيه أسرار عجيبة، فتعجبت من كشفه في نومه قرّت عينه على حالتي التي ذكرتها للأصحاب بالأمس في المجلس، فغفرنا له ذلك وأن له عندنا لزلفى وحسن مآب، حرف شريف عظيم أقسم عند ذكره بمقام جوامع الكلم وهو المشهد المحمديّ في أوج الشرف بلسان التمجيد، وتضمنت هذه السورة من أوصاف الأنبياء عليهم السلام، ومن أسرار العالم كله الخفية عجائب وآيات، وهذه الرؤيا فيها من الأسرار على حسب ما في هذه السورة من الأسرار، فهي تدل على خير كثير جسيم يناله الرائي ومن ريئت له وكل من شوهد فيها من الله تعالىٰ، ويحصل لهما من بركات الأنبياء عليهم السلام المذكورين في هذه السورة، ويلحق الأعداء من الكفار ما في هذه السورة من البؤس لا من المؤمنين، نسأل الله لنا ولهم العافية في الدنيا والآخرة، فهذه بشرى حصلت وأسرار أرسلها الحق إلينا على يد هذا الرائي، وذكر لي الرائي صاحبنا أبو يحيىٰ أنه لما استيقظ تمّم على البيتين اللذين أنشدهما لي في النوم قريضاً فسألته أن يرسل إليّ به حتى أقيده في كتابي هذا عقيب هذه الرؤيا وفي هذا الحرف، فإن ذلك القريض من إمداد هذه الحقيقة الروحانية التي رآها في النوم، فأردت أن لا أفصل بينهما، فبعثت معه صاحبنا أبا عبد الله محمد بن خالد الصوفيّ التلمسانيّ فجاءني بها وهي هذه: [المجتث]

الـــصـــادُ حـــرفٌ شـــريـــفٌ ... والـــصـــادُ فـــي الـــصـــادِ أَصْـــدَقْ

قُـــلْ مـــا الـــدلـــيـــلُ أجِـــدْهُ ... فـــي داخـــل الـــقـــلـــب مُـــلْـــصَـــقْ

لأنـــهـــا شـــكْـــلُ دورِ ... ومـــا مـــن الـــدَّوْرِ أَسْـــبَـــقْ

ودلَّ هـــــذا بـــــأنـــــي ... عـــلـــى الـــطـــريـــقِ مـــوفَّـــقْ

حـــقَّـــقْـــتُ فـــي الله قـــصـــدي ... والـــحـــقُّ يُـــقْـــصَـــدُ بـــالـــحَـــق

إن كـــان فـــي الـــبـــحـــر عُـــمْـــقٌ ... فـــســـاحِـــلُ الـــقـــلـــب أعْـــمَـــقْ

إن ضـــاق قـــلـــبُـــك عـــنِّـــي ... فـــقـــلْـــبُ غـــيـــرِك أضْـــيَـــقْ

دع الـــقَـــرُونَـــةَ واقْـــبَـــلْ ... مـــن صـــادقٍ يـــتـــصـــدَّقْ

ولا تـــخـــالِـــفْ فـــتـــشـــقَـــى ... فـــالـــقـــلـــب عـــنـــدي مـــعـــلَّـــقْ

افـــتَـــحْـــه اشـــرَحْـــه وافـــعَـــلْ ... فِـــعْـــلَ الـــذي قـــد تـــحـــقَّـــقْ

إلـــى مـــتـــى قـــاسِـــيَ الـــقَـــلْـــ ... ـــبِ بـــابُ قـــلـــبِـــكَ مُـــغْـــلَـــقْ

وفـــعْـــلُ غـــيـــرك صـــافٍ ... ووجـــهُ فِـــعْـــلـــكَ أزرَقْ

إنـا رَفِـقْـنـا فـرِفْـقـاً فـالـرِّفْـقُ فـي الـرِّفْـق أرفَـقْ
فـإن أتـيـتَ كـسَـوْنَـا كَ ثَـوْبَ لـطـفٍ مـعـتَّـقْ
ولا تـكـنْ كـجـريـرٍ إذ ظـلّ يـهـجـو الـفـرزْدَقْ
والْـهـجْ بـمـدحـي فـمـدحِـي مـن مـشـرقِ الـشـمـسِ أَشْـرَقْ
أنـا الـوجـودُ بـذاتـي ولـي الـوجـودُ الـمـحـقَّـقْ
مـن غـيـر قَـيْـدٍ كـعـلـمـي عـلـى الـحـقـيـقـة مـطْـلَـقْ
فـهـل تـرى الـشـاةَ يـومـاً يـكـيـدُهـا فَـرْدُ مَـيْـذَقْ
مـن قـال فـيَّ بـرأي فـقـائـل الـرأي أحـمَـقْ
إن ظـلَّ يـهـذي لـوهـم رأيـتَـه يـتـشـدَّقْ
وكـلُّ مـن قـال قـولاً فـالـذكـرُ مـن ذاك أصْـدَقْ
أنـا الـمـهـيـمـنُ ذو الـعـر ش لا أبـيـدُ وأخـلَـقْ
بـعـثـتُ لـلـخـلـق رُسْـلـي وجـاء أحـمـدُ بـالـحـقّ
فـقـام فـيَّ بـصـدْقٍ وحـيـنَ أرْعَـدَ أبْـرَقْ
مـجـاهـداً فـيَّ الأعـادي ونـاصـحـاً مـا تـفـتَّـقْ
لـو لـم أغـشْـهُـم بـعـبـدي أغـرقـت مـن لـيـس يـغـرَقْ
إن الـسـمـواتِ والأر ضَ مـن عـذابـيَ تَـفْـرَقْ
وإن أطـعـتـمْ فـإنـي ألـمُّ مـا يـتـفـرَّقْ
وأجـمـع الـكـلَّ فـي الـخـلـ ـدِ فـي حـدائـقَ تَـغْـبَـقْ
كـل الـقـلـوب عـلـى ذا وإنـنـي الله أصـفَـقْ
فـقـمـت مـن حـال نـومـي وراحـتـايَ تـصـفُّـقْ

ومن ذلك حرف الزاي: [البسيط]

فـي الـزاي سـرٌّ إذا حـقـقـتَ مـعـنـاهُ كـانـت حـقـائـقُ روح الأمـر مـغْـنـاهُ
إذا تـجـلَّـى إلـى قـلـبٍ بـحـكـمـتـهِ عـنـد الـفـنـاء عـن الـتـنـزيـه أغْـنَـاهُ
فـلـيـس فـي أحـرفِ الـذات الـنـزيـهـة مَـن يـحـقِّـقُ الـعـلـمَ أو يـدريـه إلاَّ هُـو

اعلم أيّدك الله بروح الأزل أن الزاي من عالم الشهادة والجبروت والقهر، مخرجه مخرج الصاد والسين، عدده سبعة، بسائطه: الألف والياء والهمزة واللام والفاء، فلكه الفلك الأول، سني حركته تقدم ذكرها، يتميز في خلاصة خاصة الخاصة، له الغاية مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم طبعه الحرارة واليبوسة، عنصره النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص ناقص مقدس مثنى مؤنس، له من الحروف الألف والياء، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف السين المهملة: [الرجز]

فـي الـسـيـن أسـرارُ الـوجـود الأربـعُ ولـه الـتَّـحـقُّـقُ والـمـقـامُ الأرْفَـعُ

مِن عالم الغيبِ الذي ظهرتْ بهِ آثارُ كونٍ شمسُها تتبرْقَعُ

اعلم أن السين من عالم الغيب والجبروت واللطف، مخرجه مخرج الصاد والزاي، عدده عند أهل الأنوار ستون وستة وعندنا ثلاثمائة وثلاثة، بسائطه: الياء والنون والألف والهمزة والواو، فلكه الأول، سنيه مذكورة، يتميز في الخاصة وخاصة الخاصة وخلاصة خاصة الخاصة وصفاء خلاصة خاصة الخاصة، له الغاية، مرتبته الخامسة، ظهور سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة واليبوسة عنصره النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة له الأعراف، خالص كامل مثنى مؤنس، له من الحروف الياء والنون، ومن الأسماء الإلهية كما تقدم.

ومن ذلك حرف الظاء المعجمة: [البسيط]

في الظاء ستَّة أسرار مُكتَّمَةٌ خَفِيَّةٌ ما لها في الخلق تَغْيينُ
إلاَّ مجازاً إذا جادتْ بفاضلها يرى لها في ظهور العين تَحْسينُ
يرجو الإلهَ ويخشى عذلَه وإذا ما غاب عن كونه لم يَبْدُ تكوينُ

اعلم أيها العاقل أن الظاء من عالم الشهادة والجبروت والقهر، مخرجه ممّا بين طرفي اللسان وأطراف الثنايا، عدده ثمانية وثمانمائة عندنا وعند أهل الأنوار تسعمائة، بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الأول، سنيه مذكورة، يتميز في خلاصة خاصة الخاصة، له غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبع دائرته بارد رطب وقائمته حارة رطبة فله الحرارة والبرودة والرطوبة، عنصره الأعظم الماء والأقل الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، ممتزج كامل مثنى مؤنس، له الذات، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الذال المعجمة: [البسيط]

الذالُ ينزل أحياناً على جسدي كَرْهاً وينزل أحياناً على خَلَدي
طوعاً ويعدم من هذا وذاك فما يُرَى له أثرُ الزُّلْفى على أحَدِ
هو الإمامُ الذي ما مثلُه أحدٌ تدعوه أسماؤه بالواحدِ الصَّمَدِ

اعلم أيها الإمام أن الذال من عالم الشهادة والجبروت والقهر، مخرجه مخرج الظاء، عدده سبعمائة وسبعة، بسائطه: الألف واللام والهمزة والفاء والميم، فلكه الأول، سني حركته مذكورة يتميز في العامّة، له وسط الطريق مرتبته الخامسة، سلطانه في البهائم، طبعه الحرارة والرطوبة، عنصره الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته معوجة ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص كامل مقدس مثنى مؤنس، له الذات، وله من الحروف الألف واللام، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الثاء بالثلاثة: [البسيط]

الثاءُ ذاتيَّةُ الأوصاف عاليةٌ في الوصف والفِعْل والأقلامُ توجِدُهَا
فإن تجلَّتْ بسرِّ الذات واحدةً يومَ البداية صار الخلقُ يعْبُدُهَا

وإن تـجـلَّـتْ بـسـرِّ الـوصـفِ ثـانـيـةً يـومَ الـتوسُّطِ صار النَّعْتُ يـحْـمَـدُهَـا
وإن تـجـلَّـتْ بـسـرِّ الـفـعـل ثـالـثـةً يـوم الـثـلاثـاء صـار الـكـونُ يُـسْـعِـدُهَـا

اعلم أيها السيد أن الثاء من عالم الغيب والجبروت واللطف، مخرجه مخرج الظاء والذال، عدده خمسة وخمسمائة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، له الفلك الأول، سنيه مذكورة يتميز في خلاصة خاصة الخاصة، له غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الخلق والأحوال والكرامات، خالص كامل مربع مؤنس، له الذات والصفات والأفعال، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الفاء: [البسيط]

الـفـاءُ مـن عـالَـم الـتـحـقـيـقِ فـادَّكِـرِ وانـظـرْ إلـى سـرِّهـا يـأتـي عـلـى قَـدَرِ
لـهـا مع الـيـاء مَـزْجٌ فـي الـوجـود فـمـا تـنـفـكُّ بـالـمـزج عـن حـقٍّ وعـن بَـشَـرِ
فـإن قـطـعْـتَ وِصَـالَ الـيـاء دانَ لـهـا مـن أَوْجُـهِ عـالـمُ الأرواح والـصُّـوَرِ

اعلم أيّد الله القلب الإلهيّ أن الفاء من عالم الشهادة والجبروت والغيب واللطف، مخرجه من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، عدده ثمانون وثمانية، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، له الفلك الأول، سنيه قد ذكرت، يتميز في الخلاصة، له غاية الطريق، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبع رأسه الحرارة والرطوبة وسائر جسده بارد رطب فطبعه الحرارة والبرودة والرطوبة، عنصره الأعظم الماء والأقل الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الحقائق والمقامات والمنازلات عند أهل الأسرار، وله الخلق والأحوال والكرامات عند أهل الأنوار، ممتزج كامل مفرد مثنى مؤنس موحش، له الذات، له من الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الباء بواحدة: [البسيط]

الـبـاءُ لـلـعـارِف الـشِّـبْـلـيِّ مـعـتـبـرٌ وفـي نُـقَـيْـطـتـهـا لـلـقـلـب مُـدَّكَـرُ
سـرُّ الـعـبـوديـة الـعـلـيـاءِ مـازَجَـهـا لـذاك نـابَ مَـنَـابَ الـحـقِّ فـاعـتـبـروا
ألـيـس يـحـذفُ مـن بـسـم حـقـيـقـتـه لأنـــه بـــدلٌ مـــنـــه فـــذا وَزَرُ

اعلم أيها الوالي المتعالي، أن الباء من عالم الملك والشهادة والقهر، مخرجه من الشفتين، عدده اثنان، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء والهاء والميم والزاي، فلكه الأول، له الحركة المذكورة، يتميز في عين صفاء الخلاصة وفي خاصة الخاصة، له بداية الطريق وغايته، مرتبته السابعة، سلطانه في الجماد، طبعه الحرارة واليبوسة، عنصره النار، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الحقائق والمقامات والمنازلات، خالص كامل مربع مؤنس، له الذات، ومن الحروف الألف والهمزة، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الميم: [البسيط]

الميمُ كالنون إن حقَّقْتَ سرَّهما | في غاية الكون عيناً والبداياتِ
والنونُ للحق والميمُ الكريمةُ لي | بدْءٌ لبدءٍ وغاياتٌ لغاياتِ
فبَرْزَخُ النون روحٌ في معارفِه | وبرزخُ الميم ربٌّ في البريَّاتِ

اعلم أيّد الله المؤمن أن الميم من عالم الملك والشهادة والقهر، مخرجه مخرج الباء، عدده أربعة وأربعون، بسائطه: الياء والألف والهمزة، فلكه الأول، سنيه ذكرت، يتميز في الخاصة والخلاصة وصفاء الخلاصة، له الغاية، مرتبته الثالثة، ظهور سلطانه في الإنسان، طبعه البرودة واليبوسة، عنصره التراب، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، له الأعراف، خالص كامل مقدس مفرد مؤنس، له من الحروف الياء، ومن الأسماء كما تقدم.

ومن ذلك حرف الواو: [مجزوء الخفيف]

واوُ إيــاك أقْــدَسُ | مــن وجــودي وأنْــفَــسُ
فــهــو روحٌ مــكــمَّــلٌ | وهــو ســرٌ مــســدَّسُ
حــيــث مــا لاح عــيــنُــهُ | قــيــل بــيــتٌ مــقــدَّسُ
بــيــتُــه الــسدرةُ الــعــلــ | ــيَّــةُ فــيــنــا الــمــؤسَّــسُ

الواو من عالم الملك والشهادة والقهر، مخرجه من الشفتين، عدده ستة، بسائطه: الألف والهمزة واللام والفاء، فلكه الأول، سنيه مذكورة يتميز في خاصة الخاصة وفي الخلاصة، له غاية الطريق، مرتبته الرابعة، سلطانه في الجن، طبعه الحرارة والرطوبة، عنصره الهواء، يوجد عنه ما يشاكل طبعه، حركته ممتزجة، له الأعراق، خالص ناقص مقدّس مفرد موحش، له من الحروف الألف، ومن الأسماء كما تقدم.

فهذه حروف المعجم قد كملت بذكر ما حدّ لنا من الإشارات والتنبيهات لأهل الكشف والخلوات والاطلاع على أسرار الموجودات، فإذا أردت أن يسهل عليك مأخذها في باب العبارة عنها فاعلم اشتراكها في أفلاك البسائط تعلم حقائق الأسماء الممدة لها، فالألف قد تقدم الكلام فيها، وكذلك الهمزة تدخل مع الألف والواو والياء المعتلتين فخرجتا أيضاً عن حكم الحروف بهذا الوجه، فالجيم والزاي واللام والميم والنون بسائطها مختلفة، والدال والذال متماثلة، والصاد والضاد متماثلة، والعين والغين والسين والشين متماثلة، والواو والكاف والقاف متماثلة، والباء والهاء والحاء والطاء والياء والفاء والراء والتاء والثاء والخاء والظاء متماثلة البسائط أيضاً، وكل متماثل البسائط متماثل الأسماء فاعلم، وكنا ذكرنا أن نذكر لام ألف عقيب الحروف الذي هو نظير الجوهر فنذكره في الرقم مفرداً عن الحروف فإنه حرف زائد مركب من ألف ولام ومن همزة ولام.

ذكر لام ألف وألف اللام: [نظم : الرمل]

ألــفُ الــلام ولامُ الألــفِ | نــهــرُ طــالــوت فــلا تَــغْــتَــرِفِ

واشــربِ الــنــهــرَ إلــى آخــرهِ وعــن الــنَّــهْــمــة لا تَــنْــحَــرِفِ
ولــتــقُــمْ مــا دمــتَ ريــانــاً فــإنْ ظَــمِــئَــتْ نــفــسُــك قُــمْ فــانــصَــرِفِ
واعْــلَــمْ أنَ الله قــد أرســلَــهُ نــهْــرَ بــلْــوَى لــفــؤادِ الــمــشْــرِفِ
فــاصــطــبِــرْ بــالله واحْــذَرْهُ فَــقَــدْ يُــخْــذَلُ الــعــبــدُ إذا لــم يَــقِــفِ

معرفة لام ألف لا: [نظم: البسيط]

تُــعــانــقُ الألــفُ الــعــلاَّمَ والــلامُ مــثــل الــحــبــيــبــيــن فــالأعــوامُ أحــلامُ
والتفَّتِ السَّاقُ بالساقِ التي عظمَتْ فــجــاءنــي مــنــهــمــا فــي الــلَّــفِّ إعــلامُ
إن الــفــؤادَ إذا مــعــنــاه عــانَــقَــهُ بــدا لــه فــيــه إيــجــادٌ وإعْــدامُ

اعلم أنه لما اصطحب الألف واللام صحب كل واحد منهما ميل وهو الهوى والغرض، والميل لا يكون إلاً عن حركة عشقية، فحركة اللام حركة ذاتية، وحركة الألف حركة عرضية، فظهر سلطان اللام على الألف لإحداث الحركة فيه، فكانت اللام في هذا الباب أقوى من الألف لأنها أعشق، فهمتها أكمل وجوداً وأتم فعلاً، والألف أقل عشقاً فهمتها أقل تعلقاً باللام فلم تستطع أن تقيم أودها، فصاحب الهمة له الفعل بالضرورة عند المحققين، هذا حظ الصوفيّ ومقامه ولا يقدر يجاوزه إلى غيره، فإن انتقل إلى مقام المحققين فمعرفة المحقق فوق ذلك، وذلك أنّ الألف ليس ميله من جهة فعل اللام فيه بهمته، وإنما ميله نزوله إلى اللام بالإلطاف لتمكن عشق اللام فيه، ألا تراه قد لوى ساقه بقائمة الألف وانعطف عليه حذراً من الفوت، فميل الألف إليه نزول كنزول الحق إلى السماء الدنيا وهم أهل الليل في الثلث الباقي، وميل اللام معلوم عندهما معلول مضطر لا اختلاف عندنا فيه إلاً من جهة الباعث خاصة، فالصوفيّ يجعل ميل اللام ميل الواجدين والمتواجدين لتحققه عندهم بمقام العشق والتعشق وحاله، وميل الألف ميل التواصل والاتحاد ولهذا اشتبها في الشكل هكذا لآ، فأيهما جعلت الألف أو اللام قبل ذلك الجعل، ولذلك اختلف فيه أهل اللسان أي يجعلون حركة اللام أو الهمزة التي تكون على الألف، فطائفة راعت اللفظ فقالت في الأسبق والألف بعد، وطائفة راعت الخط فبأيّ فخذ ابتدأ المخطط فهو اللام، والثاني هو الألف، وهذا كله تعطيه حالة العشق، والصدق في العشق يورث التوجّه في طلب المعشوق، وصدق التوجّه يورث الوصال من المعشوق إلى العاشق، والمحقق يقول باعث الميل المعرفة عندهما وكل واحد على حسب حقيقته، وأما نحن ومن رقى معنا في معالي درج التحقيق الذي ما فوقه درج فلسنا نقول بقولهما، ولكن لنا في المسألة تفصيل وذلك أن تلحظ في أيّ حضرة اجتمعا فإنّ العشق حضرة جزئية من جملة الحضرات، فقول الصوفيّ حق والمعرفة حضرة أيضاً كذلك فقول المحقق حق، ولكن كل واحد منهما قاصر عن التحقيق في هذه المسألة ناظر بعين واحدة، ونحن نقول أول حضرة اجتمعا فيها حضرة الإيجاد وهي لا إلاه ال لا ال لاه، فهذه حضرة الخلق والخالق، وظهرت كلمة لا في النفي مرتين وفي الإثبات مرتين، فلا لا و الاه للاه،

فميل الوجود المطلق الذي هو الألف في هذه الحضرة إلى الإيجاد، وميل الموجود المقيد الذي هو اللام إلى الإيجاد عند الإيجاد، ولذلك خرج على الصورة، فكل حقيقة منهما مطلقة في منزلتها فافهم إن كنت تفهم، وإلاَّ فالزم الخلوة وعلق الهمة بالله الرحمن حتى تعلم، فإذا تقيّد بعد ما تعين وجوده وظهر لعينه عينه فإنه: [البسيط]

للحقِّ حقٌّ وللإنسان إنسانُ عند الوجود وللقرآن قرآنُ

وللعيان عيانٌ في الشهود كما عند المناجاة للآذان آذانُ

فانظرْ إلينا بعين الجَمْع تَحْظَ بنا في الفرق فالْزَمْهُ فالقرآن فُرْقَانُ

فلا بدّ من صفة تقوم به ويكون بها يقابل مثلها أو ضدها من الحضرة الإلهية، وإنما قلت الضد ولم نقتصر على المثل الذي هو الحق الصدق رغبة في إصلاح قلب الصوفيّ، والحاصل في أول درجات التحقيق فمشربهما هذا ولا يعرفان ما فوقه ولا ما نومي إليه حتى يأخذ الله بأيديهما ويشهدهما ما أشهدناه، وسأذكر طرفاً من ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب فاطلب عليه هناك إن شاء الله تعالىٰ، فاغطس في بحر القرآن العزيز إن كنت واسع النفس وإلاَّ فاقتصر على مطالعة كتب المفسرين لظاهره، ولا تغطس فتهلك فإنّ بحر القرآن عميق، ولولا الغاطس ما يقصد منه المواضع القريبة من الساحل ما خرج لكم أبداً، فالأنبياء والورثة الحفظة هم الذين يقصدون هذه المواضع رحمة بالعالم، وأما الواقفون الذين وصلوا ومسكوا ولم يردوا ولا انتفع بهم أحد ولا انتفعوا بأحد فقصدوا بل قصد بهم ثبج البحر فغطسوا إلى الأبد لا يخرجون. يرحم الله العباداني شيخ سهل بن عبد الله التستري حيث قال لسهل إلى الأبد حين قال له سهل: أيسجد القلب؟ فقال الشيخ: إلى الأبد، بل صلّى الله على رسول الله حين قيل له ﷺ في دخول العمرة في الحج: **«أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلأَبَدِ؟»** فقال ﷺ: **«بَلْ لأَبَدِ الأَبَدِ»** فهي روحانية باقية في دار الخلد يجدها أهل الجنان في كل سنة مقدرة فيقولون ما هذا فيجابون العمرة في الحج روح ونعيم، ووارد نزيه شريف تشرق به أسارير الوجوه وتزيد به حسناً وجمالاً.

فإذا غطست وفقك الله في بحر القرآن فاطلب وابحث على صدفتي هاتين الياقوتتين الألف واللام، وصدفتهما هي الكلمة أو الآية التي تحملهما، فإن كانت كلمة فعلية على طبقاتها نسبتهما من ذلك المقام، وإن كانت كلمة أسمائية على طبقاتها نسبتهما من ذلك المقام، وإن كانت كلمة ذاتية نسبتها من ذلك كما أشار عليه السلام، وإن لم تكن في الحرف أعوذ برضاك من سخطك برضاك، ميل الألف من سخطك، ميل اللام كلمة أسمائية وبمعافاتك ميل الألف من عقوبتك ميل اللام كلمة فعلية، وبك ميل الألف منك ميل اللام كلمة ذاتية، فانظر ما أعجب سر النبوّة وما أعلاه، وما أدنى مرماه وما أقصاه، فمن تكلم على حرفي لام ألف من غير أن ينظر في الحضرة التي هو فيها فليس بكامل، هيهات لا يستوي أبداً، لام ألف لا خوف عليهم ولام ألف ولا هم يحزنون، كما لا يستوي لام ألف لا التي للنفي ولام ألف التي للإيجاب، كما لا يستوي لام ألف النفي ولام ألف النفي والتبرئة، ولام ألف النهي فترفع بالنفي وتنصب بالتبرئة وتجزم بالنهي، ولام ألف لام التعريف والألف التي

من أصل الكلمة مثل قوله: الأعراف والأدبار والأبصار والأقلام، كما لا يستوي لام ألف لام التوكيد والألف الأصلية مثل قوله تعالىٰ ﴿وَلَأَوْضَعُواْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٧] و ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥٠] فتحقق ما ذكرناه لك، وأقم ألفك من رقدتها، وحلّ لامك من عقدتها، وفي عقد اللام بالألف سرّ لا يظهر، ولا أقدر على بسط العبارة في مقامات لام ألف كما وردت في القرآن إلاَّ لو كان السامع يسمعه مني كما يسمعه من الذي أنزل عليه لو عبر عنه، ومع هذا فالغرض في هذا الكتاب الإيجاز، وقد طال الباب واتسع الكلام فيه على طريق الإجمال لكثرة المراتب وكثرة الحروف، ولم نذكر في هذا الباب معرفة المناسبة التي بين الحروف حتى يصحّ اتصال بعضها مع بعض، ولا ذكرنا اجتماع حرفين معاً إلاَّ لام ألف خاصة من جهة ما، وهذا الباب يتضمن ثلاثة آلاف مسألة وخمسمائة مسألة وأربعين مسألة على عدد الاتصالات بوجه مّا لكل اتصال علم يخصّه، وتحت كل مسألة من هذه المسائل مسائل تتشعب كثيرة، فإن كل حرف يصطحب مع جميع الحروف كلها من جهة رفعه ونصبه وخفضه وسكونه وذاته وحروف العلة الثلاثة، فمن أراد أن يتشفى منها فليطالع تفسير القرآن الذي سميناه الجمع والتفصيل، وسنوفي الغرض في هذه الحروف إن شاء الله في كتاب المبادي والغايات لنا وهو بين أيدينا، فلتكف هذه الإشارة في لام ألف، والحمد لله المفضل.

معرفة ألف اللام آل: [نظم: الرمل]

أَلِفُ اللام لعرفان الذواتْ ... ولإحياء العظام النَّخِراتْ

تنظم الشَّمْل إذا ما ظهرتْ ... بمحيَّاها وما تُبْقي شَتَاتْ

وتَفي بالعهد صدقاً ولها ... حالُ تعظيمٍ وجودِ الحَضَرَاتْ

اعلم أن لام ألف بعد حلّها ونقض شكلها وإبراز أسرارها وفنائها عن اسمها ورسمها تظهر في حضرة الجنس والعهد والتعريف والتعظيم، وذلك لما كان الألف حظ الحق، واللام حظ الإنسان، صار الألف واللام للجنس، فإذا ذكرت الألف واللام ذكرت جميع الكون ومكوّنه، فإن فنيت عن الحق بالخليقة وذكرت الألف واللام كان الألف واللام الحق والخلق، وهذا هو الجنس عندنا، فقائمة اللام للحق تعالىٰ، ونصف دائرة اللام المحسوس الذي يبقى بعدما يأخذ الألف قائمته هو شكل النون للخلق، ونصف الدائرة الروحاني الغائب للملكوت، والألف التي تبرز قطر الدائرة للأمر وهو كن، وهذه كلها أنواع وفصول للجنس الأعم الذي ما فوقه جنس، وهو حقيقة الحقائق التائهة القديمة في القديم لا في ذاتها، والمحدثة في المحدث لا في ذاتها، وهي بالنظر إليها لا موجودة ولا معدومة، وإذا لم تكن موجودة لا تتصف بالقدم ولا بالحدوث، كما سيأتي ذكرها في الباب السادس من هذا الكتاب، ولها ما شاكلها من جهة قبولها للصور لا من جهة قبولها للحدوث والقدم، فإن الذي يشبهها موجود، وكل موجود إما محدث وهو الخلق، وإما محدث اسم فاعل وهو الخالق، ولما كانت تقبل القدم والحدوث كان الحق يتجلى لعباده على ما شاءه من صفاته، ولهذا السبب ينكره قوم في

الدار الآخرة لأنه تعالىٰ تجلى لهم في غير الصورة والصفة التي عرفوها منه، وقد تقدم طرف منه في الباب الأول من هذا الكتاب، فيتجلى للعارفين على قلوبهم وعلى ذواتهم في الآخرة عموماً، فهذا وجه من وجوه الشبه.

وعلى التحقيق الذي لا خفاء به عندنا أن حقائقها هي المتجلية للصنفين في الدارين لمن عقل أو فهم من الله تعالىٰ المرئيّ في الدنيا بالقلوب والأبصار، مع أنه سبحانه منبىء عن عجز العباد عن درك كنهه فقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] لطيف بعباده بتجليه لهم على قدر طاقتهم، خبير بضعفهم عن حمل تجليه الأقدس على ما تعطيه الألوهة، إذ لا طاقة للمحدث على حمل جمال القديم، كما لا طاقة للأنهار بحمل البحار، فإن البحار تفني أعيانها سواء وردت عليه أو ورد عليها أعني البحر لا يبقي لها أثراً يشهد ولا يميز، فاعرف ما ذكرناه وتحقق.

وأعلى ما يشبهها من المحدثات الهباء الذي خلق فيه صور العالم ثم النور أنزل منه في الشبه بها، فإن النور صوره في الهباء كما أن الهباء صوره فيها، وأنزل شبهاً من النور بها الهواء، وأنزل منه الماء، وأنزل منه المعادن، وأنزل منه الخشب وأمثاله إلى أن تنتهي إلى شيء لا يقبل إلاّ صورة واحدة إن وجدته فتفهم هذا حتى يأتي بابه من هذا الكتاب إن شاء الله.

فهذه الحقيقة التائهة التي تتضمن الحقائق التائهات هي الجنس الأعم التي تستحق الألف واللام الحمل عليه بذاتها، وكذلك عهدهما بجريان حقيقتيهما على علم ما وقع فيه العهد بين الموجودين، فعلى أيّ موجودين دخلتا لأمر كان بينهما من جهة كل واحد منهما بالنظر إلى أمر ثالث كانتا لعهد ذلك الأمر الثالث الذي يعرفانه وعلى حقيقتهما الألف لأخذ العهد واللام لمن أخذ عليه، وكذلك تعريفهما وتخصيصهما إنما يخصصان شيئاً من جنسه على التعيين ليحصلا العلم به عند من يريد المخبر أن يعلمه إياه، فعلى أيّ حالة كان المخصص والمخصص، والشيء الذي بسببه ظهرت هاتان الحقيقتان انقلبتا في صورة حقائقهما وهذا هو الاشتراك الذاتي، فإن كان الاشتراك في الصفة ونريد أن نميز الأعظم منهما للمخاطب فتكونا عند ذلك للتعظيم في الوصف الذي تدخل، فالألف واللام يقبلان كل صورة وحقيقة لأنهما موجودان جامعان لجميع الحقائق، فأيّ شيء برز أبرزا له الحقيقة التي عندهما منه فقابلاه بها، فدلالتهما على الشيء لذاتهما لا أنهما اكتسبا من الشيء الذي دخلتا عليه، ومثل ذلك أهلك الناس الدينار والدرهم، رأيت الرجل أمس، أحببت الرجال دون النساء، هويت السمان، ويكفي هذا القدر فقد طال الباب. انتهى الجزء السادس والحمد لله.

(الجزء السابع)

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان بعض الأسباب أعني تفسير الألفاظ التي ذكرت في الحروف من بسائط ومراتب وتقديس وإفراد وتركيب وأنس ووحشة وغير ذلك.

فاعلم أوّلاً أن هذه الحروف لما كانت مثل العالم المكلف الإنسانيّ المشاركة له في الخطاب لا في التكليف دون غيره من العالم لقبولها جميع الحقائق كالإنسان وسائر العالم ليس كذلك، فمنهم القطب كما منا وهو الألف، ومقام القطب منا الحياة القيومية، هذا هو المقام الخاص به فإنه سار بهمته في جميع العالم، كذلك الألف من كل وجه من وجه روحانيته التي ندركها نحن ولا يدركها غيرنا، ومن حيث سريانه نفساً من أقصى المخارج الذي هو منبعث النفس إلى آخر المنافس ويمتدّ في الهواء الخارج وأنت ساكت وهو الذي يسمّى الصدى، فتلك قيومية الألف لا أنه واقف، ومن حيث رقمه فإن جميع الحروف تنحل إليه وتتركب منه، ولا ينحل هو إليها كما ينحل هو أيضاً إلى روحانيته وهي النقطة تقديراً، وإن كان الواحد لا ينحل فقد عرفناك ما لأجله كان الألف قطباً، وهكذا تعمل فيما نذكره لك بعد هذا إن أردت أن تعرف حقيقته.

(والإمامان) الواو والياء المعتلتان اللذان هما حرفا المد واللين لا الصحيحتان. (والأوتاد) أربعة: الألف والواو والياء والنون الذين هم علامات الإعراب. (والأبدال) سبعة: الألف والواو والياء والنون وتاء الضمير وكافه وهاؤه، فالألف ألف رجلان، والواو واو العمرون، والياء ياء العمرين، والنون نون يفعلون، وسر النسبة بيننا وبينهم في مرتبة الأبدال كما بيّنا في القطب أن التاء إذا غابت من قمت تركت بدلها فقال المتكلم: قام زيد فنابت بنفسها مناب الحروف التي هي اسم هذا الشخص المخبر عنه، ولو كان الاسم مركباً من ألف حرف ناب الضمير مناب تلك الحروف لقوّة حروف الضمائر وتمكنها واتساع فلكها، فلو سميت رجلاً: يا دار مية بالعلياء فالسند. فقد نابت التاء أو الكاف أو الهاء مناب جملة هذه الحروف في الدلالة وتركته بدلها أو جاءت بدلاً منها كيفما شئت، وإنما صحّ لها هذا لكونها تعلم ذلك ولا يعلمه من هي بدل منه أو هو بدل عنها، فلهذا استحقت هي وأخواتها مقام الأبدال، ومدرك من أين علم هذا موقوف على الكشف فابحث عليه بالخلوة والذكر والهمة، وإياك أن تتوهم تكرار هذه الحروف في المقامات إنها شيء واحد له وجوه إنما هي مثل الأشخاص الإنسانية، فليس زيد بن علي هو عين أخيه زيد بن علي الثاني وإن كانا قد اشتركا في البنوّة والإنسانية ووالدهما واحد، ولكن بالضرورة نعلم أن الأخ الواحد ليس عين الأخ الثاني، فكما يفرّق البصر بينهما والعلم كذلك يفرّق العلم بينهما في الحروف عند أهل الكشف من جهة الكشف، وعند النازلين عن هذه الدرجة من جهة المقام التي هي بدل عن حروفه.

ويزيد صاحب الكشف على العالم من جهة المقام بأمر آخر لا يعرفه صاحب علم المقام المذكور، وهو مثلاً قلت إذا كرّرته بدلاً من اسم بعينه فتقول لشخص بعينه قلت كذا وقلت كذا فالتاء عند صاحب الكشف التي في قلت الأوّل غير التاء التي في قلت الثاني لأن عين المخاطب تتجدّد في كل نفس ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥] فهذا شأن الحق في العالم مع أحدية الجوهر، وكذلك الحركة الروحانية التي عنها أوجد الحق تعالىٰ

التاء الأولى غير الحركة التي أوجد عنها التاء الأخرى بالغاً ما بلغت فيختلف معناها بالضرورة، فصاحب علم المقام يتفطن لاختلاف علم المعنى ولا يتفطن لاختلاف التاء أو أيّ حرف ضميراً كان أو غير ضمير، فإنه صاحب رقم ولفظ لا غير، كما تقول الأشاعرة في الأعراض سواء، فالناس مجمعون معهم على ذلك في الحركة خاصة، ولا يصلون إلى علم ذلك في غير الحركة، فلهذا أنكروه ولم يقولوا به ونسبوا القائل بذلك إلى الهوس وإنكار الحس، وحجبوا عن إدراك ضعف عقولهم وفساد محلّ نظرهم وقصورهم عن التصرّف في المعاني، فلو حصل لهم الأول عن كشف حقيقيّ من معدنه لانسحبت تلك الحقيقة على جميع الأعراض حكماً عامّاً لا يختص بعرض دون عرض، وإن اختلفت أجناس الأعراض فلا بدّ من حقيقة جامعة وحقيقة فاصلة، وهكذا هذه المسألة التي ذكرناها في حق من قال بما قلناه فيها ومن أنكره، فليس المطلوب عند المحققين الصور المحسوسة لفظاً ورقماً، وإنما المطلوب المعاني التي تضمنها هذا الرقم أو هذا اللفظ، وحقيقة اللفظة والمرقوم عينها، فإن الناظر في الصور إنما هو روحانيّ، فلا يقدر أن يخرج عن جنسه، فلا تحجب بأن ترى الميت لا يطلب الخبز لعدم السرّ الروحانيّ منه ويطلبه الحيّ لوجود الروح فيه فتقول نراه يطلب غير جنسه.

فاعلم أن في الخبز والماء وجميع المطاعم والمشارب والملابس والمجالس أرواحاً لطيفة غريبة هي سرّ حياته وعلمه وتسبيحه ربّه وعلوّ منزلته في حضرة مشاهدة خالقه، وتلك الأرواح أمانة عند هذه الصور المحسوسة يؤدّونها إلى هذا الروح المودع في الشبح، ألا ترى إلى بعضهم كيف يوصل أمانته إليه الذي هو سرّ الحياة، فإذا أدّى إليه أمانته خرج إما من الطريق الذي دخل منه فيسمّى قيئاً وقلساً، وإما من طريق آخر فيسمّى عذرة وبولاً، فما أعطاه الاسم الأوّل إلاّ السرّ الذي أدّاه إلى الروح، وبقي باسم آخر يطلبه من أجله صاحب الخضروات والمدبرين أسباب الاستحالات، هكذا يتقلب في أطوار الوجود، فيعرى ويكتسي ويدور بدور الأكرة كالدولاب إلى أن يشاء الله العليم الحكيم، فالروح معذور في تعشّقه بهذه المحسوسات فإنه عاين مطلوبه فيها فهي في منزل محبوبه: [الوافر]

أمرُّ على الديار ديارِ سلمى   أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبُّ الديار مَضَى بقلبي   ولكنْ حبُّ من سَكَنَ الديارا

وقال أبو إسحاق الزوالي رحمه الله: [البسيط]

يا دارُ إنَّ غزالاً فيك تيّمني   لله درُّك ما تحويه يا دارُ
لو كنت أُشكو إليها حبَّ ساكنها   إذن رأيتُ بناءَ الدار يَنْهارُ

فافهموا فهمنا الله وإياكم سرائر كلمه، وأطلعنا وإياكم على خفيّات غيوب حكمه. أما قولنا الذي ذكرناه بعد كل حرف فأريد أن أبيّنه لكم حتى تعرفوا منه ما لا ينفركم عما لا تعلمون، فأقل درجات الطريق التسليم فيما لا تعلمه، وأعلاه القطع بصدقه، وما عدا هذين المقامين فحرمان، كما أن المتصف بهذين المقامين سعيد. قال أبو يزيد البسطاميّ لأبي

موسىٰ: يا أبا موسىٰ إذا لقيت مؤمناً بكلام أهل هذه الطريقة قل له يدعو لك فإنه مجاب الدعوة. وقال رويم: من قعد مع الصوفية وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه.

شرح: فمن ذلك قولنا حرف كذا باسمه كما سقته هو من عالم الغيب، فاعلم أن العالم على بعض تقاسيمه على قسمين بالنظر إلى حقيقة ما معلومة عندنا. **قسم يسمّى عالم الغيب**: وهو كل ما غاب عن الحسّ، ولم تجر العادة بأن يدرك الحس له وهو من الحروف: السين والصاد والكاف والخاء المعجمة والتاء باثنتين من فوق والفاء والشين والهاء والثاء بالثلاث والحاء، وهذه حروف الرحمة والألطاف والرأفة والحنان والسكينة والوقار والنزول والتواضع، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] وفيهم نزل أيضاً على الرقيقة المحمدية التي تمتد إليهم منه من كونه أوتي جوامع الكلم أتى إليهم بها رسولهم فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٤] وفيهم: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦٠] وفيهم: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٢] وفيهم: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٠٨] وهذا القبيل من الحروف هو أيضاً الذي نقول فيه إنه من اللطف لما ذكرناه، فهذا من جملة المعاني التي نطلق عليه منه عالم الغيب واللطف. **والقسم الآخر يسمّى عالم الشهادة والقهر**: وهو كل عالم من عالمي الحروف جرت العادة عندهم أن يدركوه بحواسهم وهو ما بقي من الحروف، وفيهم قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣] وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٦٤] فهذا عالم الملك والسلطان والقهر والشدّة والجهاد والمصادمة والمقارعة. ومن روحانية هذه الحروف يكون لصاحب الوحي الغت والغط وصلصلة الجرس ورشح الجبين، ولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [سورة المزمل: الآية ١] و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر: الآية ١] كما أنه في حروف عالم الغيب نزل به الروح الأمين على قلبك ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [سورة القيامة: الآية ١٦] و ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤].

وأما قولنا والملك والجبروت أو الملكوت فقد تقدّم ذكره في أول هذا الباب عند قولنا ذكر مراتب الحروف. وأما قولنا مخرجه كذا فمعلوم عند القرّاء، وفائدته عندنا أن تعرف أفلاكه، فإن الفلك الذي جعله الله سبباً لوجود حرف مّا ليس هو الفلك الذي وجد عنه حرف غيره، وإن توحّد الفلك فليست الدورة واحدة بالنظر إلى تقدير مّا تفرضه أنت في شيء تقتضي حقيقته ذلك الفرض، ويكون في الفلك أمر يتميز عندك عن نفس الفلك تجعله علامة في موضع الفرض وترصده، فإذا عادت العلامة إلى حدّ الفرض الأوّل فقد انتهت الدورة وابتدأت أخرى، قال عليه السلام: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَهُ اللّٰهُ**» وسيأتي بيان هذا الحديث في الباب الحادي عشر من هذا الكتاب. وأما قولنا عدده كذا وكذا أو كذا دون كذا

فهو الذي يسميه بعض الناس الجزم الكبير والجزم الصغير، وقد يسمونه الجمل عوضاً من الجزم، وله سرّ عجيب في أفلاك الدراري وفي أفلاك البروج وأسماؤها معلومة عند الناس، فيجعلون الجزم الكبير لفلك البروج، ويطرحون ما اجتمع من العدد ثمانية وعشرين ثمانية وعشرين، والجزم الصغير لأفلاك الدراري وطرح عدده تسعة تسعة بطريقة ليس هذا الكتاب موضعها وعلم ليس هو مطلوبنا، وفائدة الأعداد عندنا في طريقنا الذي تكمل به سعادتنا أن المحقق والمريد إذا أخذ حرفاً من هذه أضاف الجزم الصغير إلى الجزم الكبير، مثل أن يضيف إلى القاف الذي هو مائة بالكبير وواحد بالصغير، فيجعل أبداً عدد الجزم الصغير وهو من واحد إلى تسعة فيردّه إلى ذاته، فإن كان واحداً الذي هو حرف الألف بالجزمين والقاف والشين والياء عندنا وعند غيرنا بدل الشين الغين المعجمة بالجزم الصغير فيجعل ذلك الواحد لطيفته المطلوبة منه بأيّ جزم كان.

فإن كان الألف حتى إلى الطاء التي هي بسائط الأعداد فهي مشتركة بين الكبير والصغير في الجزمين، فمن حيث كونها للجزم الصغير ردّها إليك، ومن حيث كونها للجزم الكبير ردّها إلى الواردات المطلوبة لك، فتطلب في الألف التي هي الواحد ياء العشرة وقاف المائة وشين الألف أو غينه على الخلاف، وتمّت مراتب العدد، وانتهى المحيط، ورجع الدور على بدئه، فليس إلاّ أربع نقط: شرق وغرب واستواء وحضيض، أربعة أرباع والأربعة عدد محيط لأنها مجموع البسائط، كما أن هذه العقد مجموع المركبات العددية.

وإن كان اثنان الذي هو الباء بالجزمين والكاف والراء بالجزم الصغير جعلت الباء منك حالك وقابلت بها عالم الغيب والشهادة فوقفت على أسرارها من كونها غيباً وشهادة لا غير، وهي الذات والصفات في الإلهيات، والعلة والمعلول في الطبيعيات لا في العقليات، والشرط والمشروط في العقليات والشرعيات لا في الطبيعيات لكن في الإلهيات.

وإن كان ثلاثة الذي هو الجيم بالجزمين واللام والسين المهملة عند قوم والشين المعجمة عند قوم بالجزم الصغير جعلت الجيم منك عالمك، وقابلت به عالم الملك من كونه ملكاً، وعالم الجبروت من كونه جبروتاً، وعالم الملكوت من كونه ملكوتاً، وبما في الجيم من العدد الصغير يبرز منك وبما فيه، وفي اللام والسين أو الشين من العدد الكبير تبرز وجوه من المطلوب ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٠] والله يضاعف لمن يشاء على حسب الاستعداد، وأقل درجاته الذي يشمل العامة العشر المذكور، والتضعيف موقوف على الاستعداد، وفيه تفاضل رجال الأعمال وكل عالم في طريقه على ذلك، وليس غرضنا في هذا الكتاب ما يعطي الله الحروف من الحقائق إذا تحققت بحقائقها، وإنما غرضنا أن نسوق ما يعطي الله لمنشئها لفظاً أو خطاً إذا تحقق بحقائق هذه الحروف وكوشف على أسرارها فاعلموا ذلك.

وإن كان أربعة الذي هو الدال بالجزمين والميم والتاء بالصغير جعلت الدال منك قواعدك وقابلت بها الذات والصفات والأفعال والروابط، وبما في الدال من العدد بالصغير

يبرز عن أسرار قبولك وبما فيه، وفي الميم والتاء بالكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل والكمال فيها والأكمل بحسب الاستعداد.

وإن كان خمسة الذي هو الهاء بالجزمين والنون والثاء بالصغير جعلت الهاء منك مملكتك في مواطن الحروف ومقارعة الأبطال وقابلت بها الأرواح الخمسة: الحيوانيّ، والخياليّ، والفكريّ، والعقليّ، والقدسيّ. وبما في الهاء من الصغير تبرز من أسرار قبولك وبما فيه، وفي النون والثاء من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل والكامل والأكمل أثر حاصل عن الاستعداد.

وإن كان ستة الذي هو الواو بالجزمين والصاد أو السين على الخلاف والخاء بالصغير جعلت الواو منك جهاتك المعلومة وقابلت بها نفيها عن الحق بوجه وإثباتها بوجه وهو علم الصورة، وبما في الواو من أسرار القبول بارز بالصغير وبما فيه، وفي الصاد أو السين والخاء بالكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار الاستواء ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٨٤] وكل آية أو خبر تثبت له جل وعلا الجهة والتحديد والمقدار والكمال والأكمل فيه على قدر الاستعداد والتأهّب.

وإن كان سبعة وهو الزاي بالجزمين والعين والذال بالصغير جعلت الذي منك صفاتك وقابلت بها صفاته، وبما في الزاي من الصغير يبرز من أسرار قبولك وبما فيه وفي العين والذال من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار المسبعات كلها حيث وقعت، والكمال والأكمل فيه على قدر الاستعداد والتأهّب.

وإن كان ثمانية الذي هو الحاء بالجزمين والفاء في قول والصاد في قول والضاد في قول والظاء في قول جعلت الحاء منك ذاتك بما فيها وقابلت بها الحضرة الإلهية مقابلة الصورة صورة المرآة، وبما في الحاء من الصغير يبرز من أسرار قبولك، وبما فيه وفي الفاء والظاء أو الضاد من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار أبواب الجنة الثمانية وفتحها لمن شاء الله هنا، وكل حضرة مثمنة في الوجود والكمال والأكمل بحسب الاستعداد.

وإن كان تسعة وهو الطاء بالجزمين والضاد أو الصاد في قول وفي المئين الظاء أو الغين في قول بالجزم الصغير جعلت الطاء منك مراتبك في الوجود التي أنت عليها في وقت نظرك في هذا التجلي وقابلت بها مراتب الحضرة وهو الأبد لها ولك وبما في الطاء من الصغير يبرز من أسرار القبول وبما فيه وفي الضاد أو الصاد والغين أو الظاء من الكبير تبرز وجوه من المطلوب المقابل، وفي هذا التجلي يعلم المكاشف أسرار المنازل والمقامات الروحانية وأسرار الأحدية والكامل والأكمل على حسب الاستعداد، فهذا وجه من الوجوه التي سقنا عدد الحرف من أجله فاعمل عليه، وإن كان ثم وجوه أخر فليتك لو عملت على هذا وهو المفتاح الأوّل، ومن هنا تنفتح لك أسرار الأعداد وأرواحها ومنازلها، فإنّ العدد سرّ من أسرار

الله في الوجود ظهر في الحضرة الإلهية بالقوّة فقال ﷺ: **«إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»**. وقال: **«إِنَّ للَّهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ»** إلى غير ذلك، وظهر في العالم بالفعل وانسحبت معه القوّة فهو في العالم بالقوّة والفعل، وغرضنا إن مدّ الله في العمر وتراخى الأجل أن نضع في خواص العدد موضوعاً لم نسبق إليه في علمي نبدي فيه من أسرار الأعداد ما تعطيه حقائقه في الحضرة الإلهية، وفي العالم والروابط ما تغتبط به الأسرار وتنال به السعادة في دار القرار.

وأمّا قولنا بسائطه فلسنا نريد بسائط شكل الحرف مثلاً الذي هو ص، وإنما نريد بسائط اللفظ الذي هو الكلمة الدالة عليه وهو الاسم أو التسمية وهو قولك صاد فبسائط هذه اللفظة نريد، وأمّا بسائط الشكل فليس له بسائط من الحروف ولكن له النقص والتمام والزيادة مثل الراء والزاي نصف النون والواو نصف القاف والكاف أربعة أخماس الطاء وأربعة أسداس الظاء والدال خمسي الطاء والياء ذالان واللام يزيد على الألف بالنون وعلى النون بالألف وشبه هذا. وأما بسائط أشكال الحروف، إنما ذلك من النقط خاصة، فعلى قدر نقطه بسائطه، وعلى قدر مرتبة الحرف في العالم من جهة ذاته أو من نعت هو عليه في الحال علوّ منازل نقطه وأفلاكها ونزولها، فالأفلاك التي عنها وجدت بسائط ذلك الحرف المذكور باجتماعها وحركاتها كلها وجد اللفظ به عندنا، وتلك الأفلاك تقطع في فلك أقصى على حسب اتساعها. وأما قولنا فلكه وسني حركة فلكه فنريد به الفلك الذي عنه وجد العضو الذي فيه مخرجه، فإن الرأس من الإنسان أوجده الله تعالىٰ عند حركة مخصوصة من فلك مخصوص من أفلاك مخصوصة، والعنق عن الفلك الذي يلي هذا الفلك المذكور، والصدر عن الفلك الرابع من هذا الفلك الأول المذكور، فكل ما يوجد في الرأس من المعاني والأرواح والأسرار والحروف والعروق، وكل ما في الرأس من هيئة ومعنى عن ذلك الفلك ودورته اثنتا عشرة ألف سنة ودورة فلك العنق وما فيه من هيئة ومعنى، والحروف الحلقية من جملتها إحدى عشرة ألف سنة، ودورة فلك الصدر على حكم ما ذكرناه تسع آلاف سنة وطبعه وعنصره وما يوجد عنه راجع إلى حقيقة ذلك الفلك.

وأما قولنا يتميز في طبقة كذا فاعلموا أن عالم الحروف على طبقات بالنسبة إلى الحضرة الإلهية والقرب منها مثلنا وتعرف ذلك فيهم بما أذكره لك، وذلك أن الحضرة الإلهية التي للحروف عندنا في الشاهد إنما هي في عالم الرقم خط المصحف وفي الكلام التلاوة وإن كانت سارية في الكلام كله تلاوة أو غيرها فهذا ليس هو عشك أن تعرف أن كل لافظ بلفظة إلى الآباد أنه قرآن ولكنه في الوجود بمنزلة حكم الإباحة في شرعنا، وفتح هذا الباب يؤدّي إلى تطويل عظيم فإن مجاله رحب، فعدلنا إلى أمر جزئيّ من وجه صغر فلكه المرقوم وهو المكتوب والملفوظ به خاصة.

واعلم أن الأمور عندنا من باب الكشف إذا ظهر منها في الوجود ما ظهر أن الأول أشرف من الثاني وهكذا على التتابع حتى إلى النصف، ومن النصف يقع التفاضل مثل الأول

حتى إلى الآخر، والآخر والأول أشرف ما ظهر، ثم يتفاضلان على حسب ما وضعا له وعلى حسب المقام، فالأشرف منها أبداً يقدم في الموضع الأشرف، وتبيين هذا أنّ ليلة خمسة عشر في الشرف بمنزلة ليلة ثلاثة عشر وهكذا حتى إلى ليلة طلوع الهلال من أول الشهر وطلوعه من آخر الشهر، وليلة المحاق المطلق لليلة الإبدار المطلق فافهم، فنظرنا كيف ترتب مقام رقم القرآن عندنا؟ وبماذا بدئت به السور من الحروف وبماذا ختمت؟ وبماذا اختصت السور المجهولة في العلم النظريّ المعلومة بالعلم اللدنيّ من الحروف؟ ونظرنا إلى تكرار بسم الله الرحمن الرحيم، ونظرنا في الحروف التي لم تختص بالبداية ولا بالختام، ولا ببسم الله الرحمن الرحيم، وطلبنا من الله تعالىٰ أن يعلمنا بهذا الاختصاص الإلهيّ الذي حصل لهذه الحروف هل هو اختصاص اعتنائيّ من غير شيء كاختصاص الأنبياء بالنبوّة والأشياء الأول كلها، أو هو اختصاص نالته من طريق الاكتساب؟ فكشف لنا عن ذلك كشف إلهام فرأيناه على الوجهين معاً في حق قوم عناية وفي حق قوم جزاء لما كان منهم في أول الوضع والكل لنا ولهم وللعالم عناية من الله تعالىٰ، فلما وقفنا على ذلك جعلنا الحروف التي لم تثبت أولاً ولا آخراً على مراتب الأولية كما نذكره عامة الحروف ليس لها من هذا الاختصاص القرآنيّ حظ وهم: الجيم والضاد والخاء والذال والغين والشين، وجعلنا الطبقة الأولى من الخواص حروف السور المجهولة وهم: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، وأعني بهذا صورة اشتراكهم في اللفظ والرقم، فاشتراكها في الرقم اشتراكها في الصورة والاشتراك اللفظيّ إطلاق اسم واحد عليها مثل زيد وزيد آخر فقد اشتركا في الصورة والاسم. وأمّا المقرّر عندنا والمعلوم أن الصاد من المص ومن كهيعص ومن ص ليس كل واحد منهن عين الآخر منهن، ويختلف باختلاف أحكام السورة وأحوالها ومنازلها، وهكذا جميع هذه الحروف على هذه المرتبة وهذه تعمها لفظاً وخطاً.

وأما الطبقة الثانية من الخاصة وهم خاصة الخاصة فكل حرف وقع في أوّل سورة من القرآن مجهولة وغير مجهولة وهو حرف الألف والياء والباء والسين والكاف والطاء والقاف والتاء والواو والصاد والحاء والنون واللام والهاء والعين.

وأما الطبقة الثالثة من الخواص وهم الخلاصة فهم الحروف الواقعة في أواخر السور مثل النون والميم والراء والباء والدال والزاي والألف والطاء والياء والواو والهاء والظاء والثاء واللام والفاء والسين. وإن كان الألف فيما يرى خطاً ولفظاً في ركزاً ولزاماً ومن اهتدى فما أعطانا الكشف إلاّ الذي قبل ذلك الألف فوقفنا عنده وسميناه آخراً كما شهدنا هناك وأثبتنا الألف كما رأينا هنا ولكن في فصل آخر لا في هذا الفصل، فإنا لا نزيد في التقييد في هذه الفصول على ما نشاهده بل ربما نرغب في نقص شيء منها مخافة التطويل، فنسعف في ذلك من جهة الرقم واللفظ ونعطي لفظاً يعمّ تلك المعاني التي كثرت ألفاظها فنلقيه فلا يخلّ بشيء من الإلقاء ولا ننقص، ولا يظهر لذلك الطول الأول عين فينقضي المرغوب لله الحمد.

وأمّا الطبقة الرابعة من الخواص وهم صفاء الخلاصة وهم حروف بسم الله الرحمن الرحيم وما ذكرت إلاّ حيث ذكرها رسول الله ﷺ على حد ما ذكرها الله به بالوجهين من الوحي وهو وحي القرآن وهو الوحي الأول، فإنّ عندنا من طريق الكشف أن الفرقان حصل عند رسول الله ﷺ قرآناً مجملاً غير مفصل الآيات والسور ولهذا كان عليه السلام يعجل به حين كان ينزل عليه به جبريل عليه السلام بالفرقان فقيل له: ولا تعجل بالقرآن الذي عندك فتلقيه مجملاً فلا يفهم عنك من قبل أن يقضى إليك وحيه فرقاناً مفصلاً، وقل ربِّ زدني علماً بتفصيل ما أجملته فيّ من المعاني، وقد أشار من باب الأسرار فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٣] ولم يقل بعضه، ثم قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] وهذا هو وحي الفرقان وهو الوجه الآخر من الوجهين، وسيأتي الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم في بابه الذي أفردت له في هذا الكتاب. واعلموا أن بسملة سورة براءة هي التي في النمل فإن الحق تعالىٰ إذا وهب شيئاً لم يرجع فيه ولا يردّه إلى العدم، فلما خرجت رحمة براءة وهي البسملة حكم التبريّ من أهلها برفع الرحمة عنهم فوقف الملك بها لا يدري أين يضعها لأن كل أمة من الأمم الإنسانية قد أخذت رحمتها بإيمانها بنبيها فقال: أعطوا هذه البسملة للبهائم التي آمنت بسليمان عليه السلام وهي لا يلزمها إيمان إلاّ برسولها، فلما عرفت قدر سليمان وآمنت به أعطيت من الرحمة الإنسانية حظاً وهو بسم الله الرحمن الرحيم الذي سلب عن المشركين وفي هذه السورة الجساسة.

وأما الطبقة الخامسة وهي عين صفاء الخلاصة فذلك حرف الباء فإنه الحرف المقدم لأنه أول البسملة في كل سورة والسورة التي لم يكن فيها بسملة ابتدئت بالباء فقال تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١] قال لنا بعض الإسرائيليين من أحبارهم: ما لكم في التوحيد حظ لأن سور كتابكم بالباء، فأجبته: ولا أنتم فإن أول التوراة باء فأفحم، ولا يتمكن إلاّ هذا فإن الألف لا يبتدأ بها أصلاً، فما وقع من هذه الحروف في مبادي السور قلنا فيه له بداية الطريق، وما وقع آخراً قلنا له غاية الطريق، وإن كان من العامة قلنا له وسط الطريق لأن القرآن هو الصراط المستقيم.

وأمّا قولنا مرتبته الثانية حتى إلى السابعة فنريد بذلك بسائط هذه الحروف المشتركة في الأعداد، فالنون بسائطه اثنان في الألوهية، والميم بسائطه ثلاثة في الإنسان، والجيم والواو والكاف والقاف بسائطه أربعة في الجن، والذال والزاي والصاد والعين والضاد والسين والذال والغين والشين بسائطه خمسة في البهائم، والألف والهاء واللام بسائطه ستة في النبات، والباء والحاء والطاء والياء والفاء والراء والتاء والثاء والخاء والظاء بسائطه سبعة في الجماد. وأمّا قولنا حركته معوجة أو مستقيمة أو منكوسة أو ممتزجة أو أفقية فأريد بالمستقيمة كل حرف حرّك همتك إلى جانب الحق خاصة من جهة السلب إن كنت عالماً، ومن جهة ما يشهد إن كنت مشاهداً، والمنكوسة كل حرف حرّك الهمة إلى الكون وأسراره، والمعوجة وهي الأفقية كل حرف حرّك الهمة إلى تعلق المكوّن بالمكوّن، والممتزجة كل

حرف حرّك الهمة إلى معرفة أمرين مما ذكرت لك فصاعداً وتظهر في الرقم في الألف والميم المعرق والحاء والنون وما أشبه هؤلاء. وأما قولنا له الأعراف والخلق والأحوال والكرامات أو الحقائق والمقامات والمنازلات فاعلموا أن الشيء لا يعرف إلاً بوجهه أي بحقيقته، فكل ما لا يعرف الشيء إلاً به فذلك وجهه، فنقط الحرف وجهه الذي يعرف به، والنقط على قسمين: نقط فوق الحرف ونقط تحته، فإذا لم يكن للشيء ما يعرف به عرف بنفسه مشاهدة وبضده نقلاً وهي الحروف اليابسة، فإذا دار الفلك أي فلك المعارف حدثت عنه الحروف المنقوطة من فوق، وإذا دار فلك الأعمال حدثت عنه الحروف المنقوطة من أسفل، وإذا دار فلك المشاهدة حدثت عنه الحروف اليابسة غير المنقوطة، ففلك المعارف يعطي الخلق والأحوال والكرامات، وفلك الأعمال يعطي الحقائق والمقامات والمنازلات، وفلك المشاهدة يعطي البراءة من هذا كله، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، وهذا مقام الأعراف. وأما قولنا خالص أو ممتزج فالخالص الحرف الموجود عن عنصر واحد، والممتزج الموجود عن عنصرين فصاعداً.

وأمّا قولنا كامل أو ناقص فالكامل هو الحرف الذي وجد عن تمام دورة فلكه، والناقص الذي وجد عن بعض دورة فلكه، وطرأت على الفلك علة أوقفته فنقص عمّا كان يعطيه كمال دورته كالدودة في عالم الحيوان التي ما عندها سوى حاسة اللمس فغذاؤها من لمسها كالواو مع القاف، والزاي مع النون.

وأمّا قولنا يرفع من اتصل به نريد كل حرف إذا وقعت على سرّه ورزقت التحقق به والاتحاد تميزت في العالم العلويّ.

وأمّا قولنا مقدس أي عن التعلق بغيره فلا يتصل في الخط بحرف آخر وتتصل الحروف به فهو منزّه الذات تمدّها ستة أفلاك عالية الأوج عنها وجدت الجهات هذه الستة الأحرف بحر عظيم لا يدرك قعره فلا يعرف حقيقتها إلاً الله وهي مفاتح الغيب، وندرك من باب الكشف أثرها المنوط بها وهي: الألف والواو والدال والذال والراء والزاي. وأما قولنا مفرد ومثنى ومثلث ومربع ومؤنس وموحش فنريد بالمفرد إلى المربع ما نذكره وذلك أن من الأفلاك التي عنها توجد هذه الحروف ما له دورة واحدة فذلك قولنا مفرد ودورتان فذلك المثنى هكذا إلى المربع.

وأما المؤنس والموحش فالدورة تأنس بأختها الشيء يألف شكله قال تعالىٰ: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] فالعارف يألف الحال ويأنس به، نودي عليه السلام في ليلة إسرائه في استيحاشه بلغة أبي بكر فأنس بصوت أبي بكر. خلق رسول الله ﷺ وأبو بكر من طينة واحدة فسبق محمد ﷺ وصلّى أبو بكر ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] فكان كلامهما كلامه سبحانه، فلم يعد المرتبة وعدي الخطاب إلى المرتبة الأخرى

فقال كأنه مبتدىء وهو عاطف على هذا الكلام ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فأرسلها فمن الناس من قطعها ومنهم من وصلها، في هذا مقام الإثبات وبقاء الرسم وظهور العين وسلطان الحقائق وتمشية العدل من باب الفضل والطول والموحش محو لا محق صاحب علة ترتقي فتحقق ما ذكرناه.

وأمّا قولنا له الذات والصفات والأفعال على حسب الوجوه فأيّ حرف له وجه واحد كان له من هذه الحضرات حضرة واحدة أي شيء واحد على حسب علوّه ونزوله وكذلك إذا تعدّدت الوجوه.

وأما قولنا له من الحروف فإنما أعني الحقائق المتممة لذاته من جهة مّا.

وأمّا قولنا له من الأسماء فنريد به الأسماء الإلهية التي هي الحقائق القديمة التي عنها ظهرت حقائق بسائط ذلك الحرف لا غير، ولها منافع كثيرة عالية الشأن عند العارفين إذا أرادوا التحقق بها حرّكوا الوجود من أوله إلى آخره، فهي لهم هنا خصوص وفي الآخرة عموم، بها يقول المؤمن في الجنة للشيء يريده كن فيكون. فهذه نبذ من معاني عالم الحروف قليلة على أوجز ما يمكن وأخصره، وفيها تنبيه لأصحاب الروائح والذوق. انتهى الجزء السابع والحمد لله.

(الجزء الثامن)

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني
في معرفة الحركات التي تتميز بها الكلمات
وهي الحروف الصغار:

[نظم: الخفيف]

حركاتُ الحروف ستٌّ ومنها ... أظهر الله مثلَها الكلماتِ

هي رفعٌ وثُمَّ نصبٌ وخفضٌ ... حركاتٌ للأحرف المُعْرَبَاتِ

وهي فتحٌ وثم ضمٌّ وكسرٌ ... حركاتٌ للأحرف الثابتاتِ

وأصولُ الكلام حذفٌ فموتٌ ... أو سكونٌ يكون عن حَرَكَاتِ

هذه حالةُ العوالم فانظرْ ... لحياةٍ غريبةٍ في مَوَاتِ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أنا كنا شرطنا أن نتكلم في الحركات في فصل الحروف لم أطلق عليها الحروف الصغار، ثم إنه رأينا أنه لا فائدة في امتزاج عالم الحركات بعالم الحروف إلاّ بعد نظام الحروف وضم بعضها إلى بعض، فتكون كلمة عند ذلك من الكلم وانتظامها ينظر إلى قوله تعالىٰ في خلقنا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو ورود الحركات على هذه الحروف بعد تسويتها، فتقوم نشأة أخرى تسمى كلمة كما يسمى الشخص الواحد منا إنساناً، فكهذا انتشأ عالم الكلمات والألفاظ من عالم الحروف، فالحروف للكلمات موادّ كالماء والتراب والنار والهواء لإقامة نشأة أجسامنا، ثم نفخ الروح فيه

الأمريّ فكان إنساناً، كما قبلت الرياح عند استعدادها نفخ الروح الأمريّ فكان جاناً، كما قبلت الأنوار عند استعدادها نفخ الروح فكانت الملائكة، ومن الكلم ما يشبه الإنسان وهو أكثرها، ومنها ما يشبه الملائكة والجن وكلاهما جن وهو أقلها كالباء الخافضة واللام الخافضة والمؤكدة، وواو القسم وبائه وتائه، وواو العطف وفائه، والقاف من ق، والشين من ش، والعين من ع، إذا أمرت بها من الوقاية والوشي والوعي، وما عدا هذا الصنف المفرد فهو أشبه شيء بالإنسان، وإن كان المفرد يشبه باطن الإنسان فإنّ باطن الإنسان جانّ في الحقيقة، فلما كان عالم الحركات لا يوجد إلاّ بعد وجود الذوات المتحرّكة بها وهي الكلمات المنشآت من الحروف أخرنا الكلام عليها عن فصل الحروف إلى فصل الألفاظ.

ولما كانت الكلمات التي أردنا أن نذكرها في هذا الباب عن جملة الألفاظ أردنا أن نتكلم في الألفاظ على الإطلاق وحصر عالمها ونسبة هذه الحركات منها بعدما نتكلم أولاً على الحركات على الإطلاق، ثم بعد ذلك نتكلم على الحركات المختصة بالكلمات التي هي حركات اللسان وعلاماتها التي هي حركات الخط، ثم بعد ذلك نتكلم على الكلمات التي توهم التشبيه كما ذكرناه، ولعلك تقول هذا العالم المفرد من الحروف الذي قبل الحركة دون تركيب كباء الخفض وشبهه من المفردات كنت تلحقه بالحروف لانفراده فإن هذا هو باب التركيب وهو الكلمات، قلنا ما نفخ في باء الخفض الروح وأمثاله من مفردات من الحروف أرواح الحركات ليقوموا بأنفسهم كما قام عالم الحروف وحده دون الحركات وإنما نفخ فيه الروح من أجل غيره فهو مركب، ولذلك لا يعطي ذلك حتى يضاف إلى غيره فيقال بالله وتالله ووالله لأعبدنّ، وسأعبد ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٣] وما أشبه ذلك، ولا معنى له إذا أفردته غير معنى نفسه.

وهذه الحقائق التي تكون عن التركيب توجد بوجوده وتعدم بعدمه، فإن الحيوان حقيقته لا توجد أبداً إلاّ عند تألف حقائق مفردة معقولة في ذواتها وهي الجسمية والتغذية والحسّ، فإذا تألف الجسم والغذاء والحسّ ظهرت حقيقة الحيوان ليس هي الجسم وحده ولا الغذاء وحده ولا الحسّ وحده، فإذا أسقطت حقيقة الحسّ وألفت الجسم والغذاء قلت نبات حقيقة ليست الأولى. ولما كانت الحروف المفردة التي ذكرناها مؤثرة في هذا التركيب الآخر اللفظيّ الذي ركبناه لإبراز حقائق لا تعقل عند السامع إلاّ بها لهذا شبهناها لكم للتوصل بالعالم الروحانيّ كالجنّ، ألا ترى الإنسان يتصرف بين أربع حقائق: حقيقة ذاتية، وحقيقة ربانية، وحقيقة شيطانية، وحقائق ملكية، وسيأتي ذكر هذه الحقائق مستوفى في باب المعرفة للخواطر من هذا الكتاب، وهذا في عالم الكلمات دخول حرف من هذه الحروف على عالم الكلمات فتحدث فيه ما تعطيه حقيقتها، فافهم هذا فهمنا الله وإياكم سرائر كلمه.

نكتة وإشارة: قال رسول الله ﷺ: «**أوتيتُ جَوَامِعَ الكَلِم**» وقال تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [سورة التحريم: الآية ١٢] ويقال: قطع الأمير يد السارق، وضرب الأمير اللص، فمن ألقي عن أمره شيء فهو

ألقاه، فكان الملقي محمد عليه السلام ألقي عن الله كلمات العالم بأسره من غير استثناء شيء منه البتة، فمنه ما ألقاه بنفسه كأرواح الملائكة وأكثر العالم العلويّ، ومنه أيضاً ما ألقاه عن أمره فيحدث الشيء عن وسائط كبرّة الزراعة ما تصل إلى أن تجري في أعضائك روحاً مسبحاً وممجداً إلاّ بعد أدوار كثيرة وانتقالات في عالم، وتنقلب في كل عالم من جنسه على شكل أشخاصه، فرجع الكل في ذلك إلى من أوتي جوامع الكلم، فنفخ الحقيقة الإسرافيلية من المحمدية المضافة إلى الحق نفخها كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [سورة النمل: الآية ٨٧] بالنون وقرىء بالياء وضمها وفتح الفاء، والنافخ إنما هو إسرافيل عليه السلام، والله قد أضاف النفخ إلى نفسه، فالنفخ من إسرافيل والقبول من الصور، وسرّ الحق بينهما هو المعنى بين النافخ والقابل كالرابط من الحروف بين الكلمتين، وذلك هو سرّ الفعل الأقدس الأنزه الذي لا يطلع عليه النافخ ولا القابل، فعلى النافخ أن ينفخ وعلى النار أن تتقد والسراج أن ينطفىء، والاتقاد والانطفاء بالسرّ الإلهي فنفخ فيها فتكون طائراً بإذن الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٨] والنفخ واحد والنافخ واحد، والخلاف في المنفوخ فيه بحكم الاستعداد وقد خفي السرّ الإلهيّ بينهما في كل حالة، فتفطنوا يا إخواننا لهذا الأمر الإلهيّ واعلموا أن الله عزيز حكيم لا يتوصل أحد إلى معرفة كنه الألوهة أبداً، ولا ينبغي لها أن تدرك عزت وتعالت علوّاً كبيراً، فالعالم كله من أوله إلى آخره مقيد بعضه ببعضه، عابد بعضه بعضاً، معرفتهم منهم إليهم، وحقائقهم منبعثة عنهم بالسرّ الإلهيّ الذي لا يدركونه وعائدة عليهم، فسبحان من لا يجارى في سلطانه، ولا يدانى في إحسانه، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

فبعد فهم جوامع الكلم الذي هو العلم الإحاطيّ، والنور الإلهيّ، الذي اختصّ به سرّ الوجود وعمد القبة وساق العرش وسبب ثبوت كل ثابت محمد ﷺ فاعلموا وفقكم الله أن جوامع الكلم من عالم الحروف ثلاثة: ذات غنية قائمة بنفسها، وذات فقيرة إلى هذه الغنية غير قائمة بنفسها ولكن يرجع منها إلى الذات الغنية وصف تتصف به يطلبها بذاته فإنه ليس من ذاتها إلاّ بمصاحبة هذه الذات لها، فقد صحّ أيضاً من وجه الفقر للذات الغنية القائمة بنفسها كما صحّ للأخرى، وذات ثالثة رابطة بين ذاتين غنيتين أو ذاتين فقيرتين أو ذات فقيرة وذات غنية وهذه الذات الرابطة فقيرة لوجود هاتين الذاتين ولا بدّ فقد قام الفقر والحاجة بجميع الذوات من حيث افتقار بعضها إلى بعض وإن اختلفت الوجوه حتى لا يصحّ الغنى على الإطلاق إلاّ لله تعالىٰ الغنيّ الحميد من حيث ذاته، فلنسمّ الغنية ذاتاً والذات الفقيرة حدثاً والذات الثالثة رابطة فنقول: الكلم محصور في ثلاث حقائق: ذات وحدث ورابطة، وهذه الثلاثة جوامع الكلم فيدخل تحت جنس الذات أنواع كثيرة من الذوات، وكذلك تحت جنس كلمة الحدث والرابط، ولا نحتاج إلى تفصيل هذه الأنواع ومساقها في هذا الكتاب، وقد اتسع القول في هذه الأنواع في تفسير القرآن لنا، وإن شئت أن تقيس على ما ذكرناه فانظر في

كلام النحويين وتقسيمهم الكلم، وفي الاسم والفعل والحرف، وكذلك المنطقيين فالاسم عندهم هو الذات عندنا، والفعل عندهم هو الحدث عندنا، والحرف عندهم هو الرابطة عندنا، وبعض الأحداث عندهم بل كلها أسماء كالقيام والقعود والضرب، وجعلوا الفعل كل كلمة مقيدة بزمان معين، ونحن إنما قصدنا بالكلمات الجري على الحقائق بما هي عليه، فجعلنا القيام وقام ويقوم وقم حدثاً، وفصلنا بينهم بالزمان المبهم والمعين، وقد تفطن لذلك الزجاجيّ فقال: والحدث الذي هو القيام مثلاً هو المصدر يريد هو الذي صدر من المحدث وهو اسم الفعل يريد أن القيام هذه الكلمة اسم لهذه الحركة المخصوصة من هذا المتحرّك الذي بها سمي قائماً، فتلك الهيئة التي سميت قياماً بالنظر إلى حال وجودها، وقام بالنظر إلى حال انقضائها وعدمها، ويقوم وقم بالنظر إلى توهّم وقوعها، ولا توجد أبداً إلاّ في متحرّك فهي غير قائمة بنفسها. ثم قال: والفعل يريد لفظة قام ويقوم لا نفس الفعل الصادر من المتحرك قائماً مثلاً مشتق منه الهاء تعود على لفظة اسم الفعل الذي هو القيام مأخوذ يعني قام ويقوم من القيام، لأن النكرة عنده قبل المعرفة، والمبهم نكرة والمختص معرفة، والقيام مجهول الزمان، وقام مختص الزمان ولو دخلت عليه أن، ويقوم مختص الزمان ولو دخلت عليه لم، وهذا مذهب من يقول بالتحليل أنه فرع عن التركيب، وأن المركب وجد مركباً، وعلى مذهب من يقول بالتفريق وأن التركيب طارىء وهو الذي يعضد في باب النقل أكثر، فإن الأظهر أن المعرفة قبل النكرة، وأن لفظة زيد إنما وضعت لشخص معين، ثم طرأ التنكير بكونه شورك في تلك اللفظة فاحتيج إلى التعريف بالنعت والبدل وشبه ذلك، فالمعرفة أسبق من النكرة عند المحققين وإن كان لهٰؤلئك وجه ولكن هذا أليق.

وأمّا نحن ومن جرى مجرانا ورقي مرقانا الأشمخ فغرضنا أمر آخر ليس هو قول أحدهما مطلقاً إلاّ بنسب وإضافات ونظر إلى وجوه ما يطول ذكرها، ولا تمسّ الحاجة إليها في هذا الكتاب إذ قد ذكرناها في غيره من تواليفنا، فلنبين أن الحركات على قسمين: حركة جسمانية وحركة روحانية، والحركة الجسمانية لها أنواع كثيرة سيأتي ذكرها في داخل الكتاب، وكذلك الروحانية ولا نحتاج منها في هذا الكتاب إلاّ إلى حركات الكلام لفظاً وخطاً، فالحركات الرقمية كالأجسام، والحركات اللفظية لها كالأرواح، والمتحركات على قسمين: متمكن ومتلوّن، فالمتلوّن كل متحرّك تحرّك بجميع الحركات أو ببعضها فالمتحرّك بجميعها كالدال من زيد والمتحرك ببعضها كالأسماء التي لا تنصرف في حال كونها لا تنصرف فإنها قد تنصرف في التنكير والإضافة كالدال من أحمد، والمتمكن كل متحرّك ثبت على حركة واحدة ولم ينتقل عنها كالأسماء المبنية مثل هؤلاء وحذام، وكحروف الأسماء المعربة التي قبل حرف الإعراب منها كالزاي والياء من زيد وشبهه.

واعلم أن أفلاك الحركات هي أفلاك الحروف التي تلك الحركات عليها لفظاً وخطاً فانظره هناك، ولها بسائط وأحوال ومقامات كما كان للحروف نذكرها في كتاب المبادي المخصوص بعلم الحروف إن شاء الله، وكما ثبت التلوين والتمكين للذات كذلك ثبت

للحدث والرابط ولكن في الرفع والنصب وحذف الوصف وحذف الرسم، ويكون تلوين تركيب الرابط لأمرين بالموافقة والاستعارة والاضطرار، فبالموافقة وهو الاتباع هذا أبنم، ورأيت أبنماً، وعجبت من أبنم، وبالاستعارة حركة النقل كحركة الدال من قد أفلح في قراءة من نقل، وبالاضطرار التحريك لالتقاء الساكنين، وقد تكون حركة الاتباع الموافق في التركيب الذاتيّ وإن كان أصل الحروف كلها التمكين وهو البناء مثل الفطرة فينا، وهنا أسرار لمن تفطن ولكن الوالدان ينقلان عن الفطرة المقيدة لا الفطرة المطلقة، كذلك الحروف متمكنة في مقامها لا تختل ثابتة مبنية كلها ساكنة في حالها، فأراد اللافظ أن يوصل إلى السامع ما في نفسه فافتقر إلى التلوين فحرك الفلك الذي عنه توجد الحركات عند أبي طالب وعند غيره هو المتقدم واللفظ أو الرقم عن ذلك الفلك وهذا موضع طلب لمريدي معاينة الحقائق.

وأما نحن فلا نقول بقول أبي طالب ونقتصر ولا بقول الآخر ونقتصر، فإن كل واحد منهما قال حقاً من جهة ما ولم يتمم فأقول: إن الحقائق الأول الإلهية تتوجه على الأفلاك العلوية بالوجه الذي تتوجه به على محال آثارها عند غير أبي طالب المكيّ وتقبل كل حقيقة على مرتبتها، ولما كانت تلك الأفلاك في اللطافة أقرب عند غير أبي طالب إلى الحقائق كان قبولها أسبق لعدم الشغل وصفاء المحل من كدورات العلائق فإنه نزيه فلهذا جعلها السبب المؤثر، ولو عرف هذا القائل أن تلك الحقائق الأول إنما توجهت على ما يناسبها في اللطافة وهو أنفاس الإنسان فتحرك الفلك العلويّ الذي يناسبه عالم الأنفاس وهذا مذهب أبي طالب، ثم يحرّك ذلك الفلك العلويّ العضو المطلوب بالغرض المطلوب بتلك المناسبة التي بينهما، فإن الفلك العلويّ وإن لطف فهو في أول درج الكثافة وآخر درج اللطافة بخلاف عالم أنفاسنا واجتمعت المذاهب فإن الخلاف لا يصحّ عندنا ولا في طريقنا لكنه كاشف، واكشف فتفهم ما أشرنا إليه وتحققه فإنه سرّ عجيب من أكبر الأسرار الإلهية، وقد أشار إليه أبو طالب في كتاب القوت له.

ثم نرجع ونقول: فافتقر المتكلم إلى التلوين ليبلغ إلى مقصده فوجد عالم الحروف والحركات قابلاً لما يريده منها لعلمها أنها لا تزول عن حالها ولا تبطل حقيقتها فيتخيل المتكلم أنه قد غيّر الحرف وما غيره، برهان ذلك أن تفني نظرك في دال زيد من حيث هو دال وانظر فيه من حيث تقدّمه قام مثلاً وتفرغ إليه أو أي فعل لفظي كان ليحدث به عنه فلا يصحّ لك إلاّ الرفع فيه خاصة فما زال عن بنائه الذي وجد عليه، ومن تخيل أن دال الفاعل هو دال المفعول أو دال المجرور فقد خلط واعتقد أن الكلمة الأولى هي عين الثانية لا مثلها، ومن اعتقد هذا في الوجود فقد بعد عن الصواب، وربما يأتي من هذا الفصل في الألفاظ شيء إن قدر وألهمناه، فقد تبين لك أن الأصل الثبوت لكل شيء، ألا ترى العبد حقيقة ثبوته وتمكنه إنما هو في العبودة، فإن اتصف يوماً ما بوصف ربانيّ فلا تقل هو معار عنده، ولكن انظر إلى الحقيقة التي قبلت ذلك الوصف منه تجدها ثابتة في ذلك الوصف كلما ظهر عينها تحلت بتلك الحلية، فإياك أن تقول قد خرج هذا عن طوره بوصف ربه فإن الله تعالىٰ ما نزع وصفه

وأعطاه إياه وإنما وقع الشبه في اللفظ والمعنى معاً عند غير المحقق، فيقول هذا هو هذا وقد علمنا أن هذا ليس هذا، وهذا ينبغي لهذا ولا ينبغي لهذا، فليكن عند من لا ينبغي له عارية وأمانة، وهذا قصور وكلام من عمي عن إدراك الحقائق، فإن هذا ولا بدّ ينبغي له هذا فليس الرب هو العبد وإن قيل في الله سبحانه إنه عالم وقيل في العبد إنه عالم، وكذلك الحيّ والمريد والسميع والبصير وسائر الصفات والإدراكات، فإياك أن تجعل حياة الحق هي حياة العبد في الحد فتلزمك المحالات، فإذا جعلت حياة الرب على ما تستحقه الربوبية وحياة العبد على ما يستحقه الكون فقد انبغى للعبد أن يكون حياً، ولو لم ينبغ له ذلك لم يصحّ أن يكون الحق آمراً ولا قاهراً إلاّ لنفسه، ويتنزّه تعالىٰ أن يكون مأموراً أو مَقهوراً، فإذا ثبت أن يكون المأمور والمقهور أمراً آخر وعيناً أخرى فلا بدّ أن يكون حياً عالماً مريداً متمكناً ممّا يراد به هكذا تعطي الحقائق، فثمّ على هذا حرف لا يقبل سوى حركته كالهاء من هذا، وثم حرف يقبل الحركتين والثلاث من جهة صورته الجسمية والروحية كالهاء في الضمير له ولها وبه كما تقبل أنت بنفسك الخجل وبصورتك حمرته، وتقبل بنفسك الوجل وبصورتك صفرته، والثوب يقبل الألوان المختلفة وما بقي الكشف إلاّ عن الحقيقة التي تقبل الأعراض هل هي واحدة أو شأنها شأن الأعراض في العدم والوجود؟ وهذا مبحث للنظّار.

وأما نحن فلا نحتاج إليه ولا نلتفت فإنه بحر عميق يحال المريد على معرفته من باب الكشف عليه، فإنه بالنظر إلى الكشف يسير، وبالنظر إلى العقل عسير. ثم أرجع وأقول إن الحرف إذا قامت به حقيقة الفاعلية بتفريغ الفعل على البنية المخصوصة في اللسان تقول قال الله، وإذا قامت به حقيقة تطلبه يسمّى عندها منصوباً بالفعل أو مفعولاً كيف شئت، وذلك بأن تطلب منه العون أو تقصده كما طلب مني القيام بما كلفني، فمن أجل أنه لم يعطني إلاّ بعد سؤالي فكان سؤالي أو حالي القائم مقام سؤالي بوعده جعله يعطيني، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] فسؤالي إياه من أمره إياي به، وإعطاؤه إياي من طلبي منه فتقول: دعوت الله فنصبت حرف الهاء وقد كانت مرفوعة فعلمنا بالحركات أن الحقائق قد اختلفت، بهذا ثبت الاصطلاح في لحن بعض الناس، وهذا إذا كان المتكلم به غيرنا، وأما المتكلم فالحقائق يعلم أولاً ويجريها في أفلاكها على ما تقتضيه بالنظر إلى أفلاك مخصوصة، وكل متكلم بهذه المثابة وإن لم يعلم بهذا التفصيل وهو عالم به من حيث لا يعلم أنه عالم به، وذلك أن الأشياء المتلفظ بها إما لفظ يدل على معنى وهو مقام الباحث في اللفظ ما مدلوله ليرى ما قصد به المتكلم من المعاني، وإما معنى يدل عليه بلفظ ما وهو المخبر عمّا تحقق وأضر بنا عن اللحن فإن أفلاكه غير هذه الأفلاك، وإسقاط الحركات من الخط في حق قوم دون قوم مّا سببه ومن أين هو هذا كله في كتاب المبادي إذ كان القصد بهذا الكتاب الإيجاز والاختصار جهد الطاقة. ولو اطلعتم على الحقائق كما اطلعنا عليها وعلى عالم الأرواح والمعاني لرأيتم كل حقيقة وروح ومعنى على مرتبته فافهم والزم.

قد ذكرنا من بعض ما تعطيه حقائق الحركات ما يليق بهذا الكتاب فلنقبض العنان

ولنرجع إلى معرفة الكلمات التي ذكرناها مثل كلمة الاستواء والأين وفي وكان والضحك والفرح والتبشبش والتعجب والملل والمعية والعين واليد والقدم والوجه والصورة والتحوّل والغضب والحياء والصلاة والفراغ، وما ورد في الكتاب العزيز والحديث من هذه الألفاظ التي توهم التشبيه والتجسيم، وغير ذلك مما لا يليق بالله تعالىٰ في النظر الفكريّ عند العقل خاصة فنقول: لما كان القرآن منزلاً على لسان العرب ففيه ما في اللسان العربي، ولما كانت الأعراب لا تعقل ما لا يعقل إلاً حتى ينزل لها في التوصيل بما تعقله لذلك جاءت هذه الكلمات على هذا الحد كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٩] ولما كانت الملوك عند العرب تجلس عبدها المقرّب المكرّم منها بهذا القدر في المساحة فعقلت من هذا الخطاب قرب محمد ﷺ من ربه ولا تبالي بما فهمت من ذلك سوى القرب، فالبرهان العقلي ينفي الحد والمسافة حتى يأتي الكلام في تنزيه الباري عما تعطيه هذه الألفاظ من التشبيه في الباب الثالث الذي يلي هذا الباب، ولما كانت الألفاظ عند العرب على أربعة أقسام: ألفاظ متباينة وهي الأسماء التي لم تتعد مسماها كالبحر والمفتاح والمقصان. وألفاظ متواطئة وهي كل لفظة قد تووطىء عليها أن تطلق على آحاد نوع مّا من الأنواع كالرجل والمرأة. وألفاظ مشتركة وهي كل لفظ على صيغة واحدة يطلق على معان مختلفة كالعين والمشتري والإنسان. وألفاظ مترادفة وهي ألفاظ مختلفة الصيغ تطلق على معنى واحد كالأسد والهزبر والغضنفر وكالسيف والحسام والصارم وكالخمر والرحيق والصهباء والخندريس. هذه هي الأمهات مثل البرودة والحرارة واليبوسة والرطوبة في الطبائع. وثَم ألفاظ متشابهة ومستعارة ومنقولة وغير ذلك وكلها ترجع إلى هذه الأمهات بالاصطلاح، فإن المشتبه وإن قلت فيه إنه قبيل خامس من قبائل الألفاظ مثل النور يطلق على المعلوم وعلى العلم لشبه العلم به من كشف عين البصيرة به المعلوم كالنور مع البصر في كشف المرئيّ المحسوس، فلما كان هذا الشبه صحيحاً سمي العلم نوراً ويلحق بالألفاظ المشتركة، فإذن لا ينفك لفظ من هذه الأمهات وهذا هو حد كل ناظر في هذا الباب، وأما نحن فنقول بهذا معهم وعندنا زوائد من باب الاطلاع على الحقائق من جهة لم يطلعوا عليها علمنا منها أن الألفاظ كلها متباينة وإن اشتركت في النطق، ومن جهة أخرى أيضاً كلها مشتركة وإن تباينت في النطق، وقد أشرنا إلى شيء من هذا فيما تقدم من هذا الباب في آخر فصل الحروف.

فإذا تبين هذا فاعلم أيها الوليّ الحميم أن المحقق الواقف العارف بما تقتضيه الحضرة الإلهية من التقديس والتنزيه ونفي المماثلة والتشبيه لا يحجبه ما نطقت به الآيات والأخبار في حق الحق تعالىٰ من أدوات التقييد بالزمان والجهة والمكان كقوله عليه السلام: أين الله؟ فأشارت إلى السماء فأثبت لها الإيمان، فسأل ﷺ بالظرفية عما لا يجوز عليه المكان في النظر العقليّ والرسول أعلم بالله، والله أعلم بنفسه، وقال في الظاهر: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الملك: الآية ١٦] بالفاء. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] ﴿مَا يَكُونُ

مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] ويفرح بتوبة عبده ويعجب من الشاب ليست له صبوة، وما أشبه ذلك من الأدوات اللفظية.

وقد تقرّر بالبرهان العقليّ خلقه الأزمان والأمكنة والجهات والألفاظ والحروف والأدوات والمتكلم بها والمخاطبين من المحدثات كل ذلك خلق لله تعالىٰ، فيعرف المحقق قطعاً أنها مصروفة إلى غير الوجه الذي يعطيك التشبيه والتمثيل، وأن الحقيقة لا تقبل ذلك أصلاً، ولكن تتفاضل العلماء السالمة عقائدهم من التجسيم، فإن المشبهة والمجسمة قد يطلق عليهم علماء من حيث علمهم بأمور غير هذا، فتفاضل العلماء في هذا الصرف عن هذا الوجه الذي لا يليق بالحق تعالىٰ فطائفة لم تشبه ولم تجسم، وصرفت علم ذلك الذي ورد في كلام الله ورسله إلى الله تعالىٰ، ولم تدخل لها قدم في باب التأويل، وقنعت بمجرّد الإيمان بما يعلمه الله في هذه الألفاظ والحروف من غير تأويل ولا صرف إلى وجه من وجوه التنزيه بل قالت لا أدري جملة واحدة، ولكني أحيل إبقاءه على وجه التشبيه لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لا لما يعطيه النظر العقلي. وعلى هذا فضلاء المحدثين من أهل الظاهر السالمة عقائدهم من التشبيه والتعطيل، وطائفة أخرى من المنزهة عدلت بهذه الكلمات عن الوجه الذي لا يليق بالله تعالىٰ في النظر العقلي عدلت إلى وجه مّا من وجوه التنزيه على التعيين مما يجوز في النظر العقلي أن يتصف به الحق تعالىٰ بل هو متصف به ولا بد، وما بقي النظر إلاً في أن هذه الكلمة هل المراد بها ذلك الوجه أم لا؟ ولا يقدح ذلك التأويل في ألوهته وربما عدلوا بها إلى وجهين وثلاثة وأكثر على حسب ما تعطيه الكلمة في وضع اللسان، ولكن من الوجوه المنزهة لا غير، فإذا لم يعرفوا من ذلك الخبر أو الآية عند التأويل في اللسان إلاً وجهاً واحداً قصروا الخبر على ذلك الوجه النزيه وقالوا هذا هو ليس إلاً في علمنا وفهمنا، وإذا وجدوا له مصرفين فصاعداً صرفوا الخبر أو الآية إلى تلك المصارف، وقالت طائفة من هؤلاء يحتمل أن يريد كذا ويحتمل أن يريد كذا وتعدد وجوه التنزيه ثم تقول والله أعلم أيّ ذلك أراد، وطائفة أخرى تقوّي عندها وجه ما من تلك الوجوه النزيهة بقرينة ما قطعت لتلك القرينة بذلك الوجه على الخبر وقصرته عليه ولم تعرّج على باقي الوجوه في ذلك الخبر وإن كانت كلها تقتضي التنزيه، وطائفة من المنزهة أيضاً وهي العالية وهم من أصحابنا فرّغوا قلوبهم من الفكر والنظر وأخلوها إذ كان المتقدمون من الطوائف المتقدمة المتأوّلة أهل فكر ونظر وبحث، فقامت هذه الطائفة المباركة الموفقة والكل موفقون بحمد الله وقالت حصل في نفوسنا تعظيم الحق جلّ جلاله بحيث لا نقدر أن نصل إلى معرفة ما جاءنا من عنده بدقيق فكر ونظر، فأشبهت في هذا العقد المحدثين السالمة عقائدهم حيث لم ينظروا ولا تأوّلوا ولا صرفوا بل قالوا ما فهمنا فقال أصحابنا بقولهم، ثم انتقلوا عن مرتبة هؤلاء بأن قالوا لنا أن نسلك طريقة أخرى في فهم هذه الكلمات وذلك بأن نفرّغ قلوبنا من النظر الفكريّ ونجلس مع الحق تعالىٰ بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيؤ لقبول ما يرد علينا منه تعالىٰ حتى يكون الحق تعالىٰ يتولى تعليمنا على الكشف والتحقيق لما سمعته يقول:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] ويقول: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] فعندما توجهت قلوبهم وهممهم إلى الله تعالىٰ ولجأت إليه وألقت عنها ما استمسك به الغير من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول كانت عقولهم سليمة وقلوبهم مطهرة فارغة، فعندما كان منهم هذا الاستعداد تجلى الحق لهم معلماً فأطلعتهم تلك المشاهدة على معاني هذه الأخبار والكلمات دفعة واحدة، وهذا ضرب من ضروب المكاشفة، فإنهم إذا عاينوا بعيون القلوب من نزهته العلماء المتقدم ذكرهم بالإدراك الفكريّ لم يصحّ لهم عند هذا الكشف والمعاينة أن يجهلوا خبراً من هذه الأخبار التي توهم، ولا أن يبقوا ذلك الخبر منسحباً على ما فيه من الاحتمالات النزيهة من غير تعيين، بل يعرفون الكلمة والمعنى النزيه الذي سيقت له فيقصروها على ما أريدت له، وإن جاء في خبر آخر ذلك اللفظ عينه فله وجه آخر من تلك الوجوه المقدسة معين عند هذا المشاهد، هذا حال طائفة منا.

وطائفة أخرى منا أيضاً ليس لهم هذا التحلي ولكن لهم الإلقاء والإلهام واللقاء والكتابة، وهم معصومون فيما يلقى إليهم بعلامة عندهم لا يعرفها سواهم فيخبرون بما خوطبوا به وما ألهموا به وما ألقي إليهم أو كتب، فقد تقرّر عند جميع المحققين الذين سلموا الخبر لقائله ولم ينظروا ولا شبهوا ولا عطلوا، والمحققين الذين بحثوا واجتهدوا ونظروا على طبقاتهم أيضاً، والمحققين الذين كوشفوا وعاينوا، والمحققين الذين خوطبوا وألهموا أن الحق تعالىٰ لا تدخل عليه تلك الأدوات المقيدة بالتحديد والتشبيه على حد ما نعقله في المحدثات ولكن تدخل عليه بما فيها من معنى التنزيه والتقديس على طبقات العلماء والمحققين في ذلك لما فيه وتقتضيه ذاته من التنزيه، وإذا تقرّر هذا فقد تبين أنها أدوات التوصيل إلى إفهام المخاطبين وكل عالم على حسب فهمه فيها وقوّة نفوذه وبصيرته، فعقيدة التكليف هينة الخطب فطر العالم عليها، ولو بقيت المشبهة مع ما فطرت عليه ما كفرت ولا جسمت وإن كان ما أرادوا التجسيم وإنما قصدوا إثبات الوجود، لكن لقصور أفهامهم ما ثبت لهم إلاّ بهذا التخيّل فلهم النجاة.

وإذ قد ثبت هذا عند المحققين مع تفاضل رتبهم في درج التحقيق فلنقل إن الحقائق أعطت لمن وقف عليها أن لا يتقيد وجود الحق مع وجود العالم بقبلية ولا معية ولا بعدية زمانية، فإن التقدم الزمانيّ والمكانيّ في حق الله ترمي به الحقائق في وجه القائل به على التحديد، اللهم إلاّ إن قال به من باب التوصيل كما قاله الرسول ﷺ ونطق به الكتاب، إذ ليس كل أحد يقوى على كشف هذه الحقائق، فلم يبق لنا أن نقول إلاّ أن الحق تعالىٰ موجود بذاته لذاته مطلق الوجود غير مقيد بغيره ولا معلول عن شيء ولا علة لشيء، بل هو خالق المعلولات والعلل، والملك القدوس الذي لم يزل، وأن العالم موجود بالله تعالىٰ لا بنفسه ولا لنفسه مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته، فلا يصحّ وجود العالم البتة إلاّ بوجود الحق، وإذا انتفى الزمان عن وجود الحق وعن وجود مبدأ العالم فقد وجد العالم في غير زمان، فلا

نقول من جهة ما هو الأمر عليه إن الله موجود قبل العالم، إذ قد ثبت أن القبل من صيغ الزمان ولا زمان، ولا أن العالم موجود بعد وجود الحق إذ لا بعدية، ولا مع وجود الحق فإن الحق هو الذي أوجده وهو فاعله ومخترعه ولم يكن شيئاً، ولكن كما قلنا الحق موجود بذاته والعالم موجود به، فإن سأل سائل ذو وهم متى كان وجود العالم من وجود الحق؟ قلنا: متى سؤال زمانيّ والزمان من عالم النسب وهو مخلوق لله تعالىٰ لأن عالم النسب له خلق التقدير لا خلق الإيجاد فهذا سؤال باطل فانظر كيف تسأل، فإياك أن تحجبك أدوات التوصيل عن تحقيق هذه المعاني في نفسك وتحصيلها فلم يبق إلاّ وجود صرف خالص لا عن عدم وهو وجود الحق تعالىٰ ووجود عن عدم عين الموجود نفسه وهو وجود العالم ولا بينية بين الوجودين ولا امتداد إلاّ التوهّم المقدر الذي يحيله العلم ولا يبقى منه شيئاً ولكن وجود مطلق ومقيد وجود فاعل ووجود منفعل، هكذا أعطت الحقائق والسلام.

مسألة: سألني وارد الوقت عن إطلاق الاختراع على الحق تعالىٰ فقلت له: علم الحق بنفسه عين علمه بالعالم إذ لم يزل العالم مشهوداً له تعالىٰ وإن اتصف بالعدم ولم يكن العالم مشهوداً لنفسه إذ لم يكن موجوداً، وهذا بحر هلك فيه الناظرون الذين عدموا الكشف وبنسبة لم تزل موجودة، فعلمه لم يزل موجوداً، وعلمه بنفسه علمه بالعالم، فعلمه بالعالم لم يزل موجوداً، فعلم العالم في حال عدمه وأوجده على صورته في علمه، وسيأتي بيان هذا في آخر الكتاب، وهو سرّ القدر الذي خفي عن أكثر المحققين، وعلى هذا لا يصحّ في العالم الاختراع ولكن يطلق عليه الاختراع بوجه ما لا من جهة ما تعطيه حقيقة الاختراع فإن ذلك يؤدّي إلى نقص في الجناب الإلهي، فالاختراع لا يصحّ إلاّ في حق العبد وذلك أن المخترع على الحقيقة لا يكون مخترعاً إلاّ حتى يخترع مثال ما يريد إبرازه في الوجود في نفسه أولاً، ثم بعد ذلك تبرزه القوّة العملية إلى الوجود الحسيّ على شكل ما يعلم له مثل ومتى لم يخترع الشيء في نفسه أولاً، وإلاّ فليس بمخترع حقيقة، فإنك إذا قدرت أن شخصاً علمك ترتيب شكل ما ظهر في الوجود له مثل فعلمته ثم أبرزته أنت للوجود كما علمته فلست أنت في نفس الأمر وعند نفسك بمخترع له، وإنما المخترع له من اخترع مثاله في نفسه ثم علمكه، وإن نسب الناس الاختراع لك فيه من حيث إنهم لم يشاهدوا ذلك الشيء من غيرك، فارجع أنت إلى ما تعرفه من نفسك ولا تلتفت إلى من لا يعلم ذلك منك، فإن الحق سبحانه ما دبر العالم تدبير من يحصل ما ليس عنده ولا فكر فيه ولا يجوز عليه ذلك ولا اخترع في نفسه شيئاً لم يكن عليه ولا قال في نفسه هل نعمله كذا وكذا، هذا كله ما لا يجوز عليه، فإن المخترع للشيء يأخذ أجزاء موجودة متفرقة في الموجودات فيؤلفها في ذهنه وهمه تأليفاً لم يسبق إليه في علمه وإن سبق فلا يبالي، فإنه في ذلك بمنزلة الأوّل الذي لم يسبقه أحد إليه كما تفعله الشعراء والكتاب الفصحاء في اختراع المعاني المبتكرة، فثم اختراع قد سبق إليه فيتخيل السامع أنه سرقه، فلا ينبغي للمخترع أن ينظر إلى أحد إلاّ إلى ما حدث عنده خاصة إن أراد أن يلتذ ويستمتع بلذة الاختراع، ومهما نظر المخترع لأمر ما إلى من سبقه فيه بعدما اخترعه

ربما هلك وتفطرت كبده، وأكثر العلماء بالاختراع البلغاء والمهندسون، ومن أصحاب الصنائع النجارون والبناؤون فهؤلاء أكثر الناس اختراعاً وأذكاهم فطرة وأشدّهم تصرفاً لعقولهم، فقد صحّت حقيقة الاختراع لمن استخرج بالفكر ما لم يكن يعلم قبل ذلك ولا علمه غيره بالقوّة أو بالقوّة والفعل إن كان من العلوم التي غايتها العمل، والباري سبحانه لم يزل عالماً بالعالم أزلاً ولم يكن على حالة لم يكن فيها بالعالم غير عالم، فما اخترع في نفسه شيئاً لم يكن يعلمه، فإذ قد ثبت عند العلماء بالله قدم علمه، فقد ثبت كونه مخترعاً لنا بالفعل لا أنه اخترع مثالنا في نفسه الذي هو صورة علمه بنا إذ كان وجودنا على حدّ ما كنا في علمه، ولو لم يكن كذلك لخرجنا إلى الوجود على حدّ ما لم يعلمه وما لا يعلمه لا يريده وما لا يريده ولا يعلمه لا يوجده، فنكون إذن موجودين بأنفسنا أو بالاتفاق، وإذا كان هذا فلا يصحّ وجودنا عن عدم، وقد دلّ البرهان على وجودنا عن عدم وعلى أنه علمنا وأراد وجودنا وأوجدنا على الصورة الثابتة في علمه بنا ونحن معدومون في أعياننا، فلا اختراع في المثال فلم يبق إلاّ الاختراع في الفعل وهو صحيح لعدم المثال الموجود في العين، فتحقق ما ذكرناه وقل بعد ذلك ما شئت، فإن شئت وصفته بالاختراع وعدم المثال، وإن شئت نفيت هذا عنه نفيته ولكن بعد وقوفك على ما أعلمتك به.

الفصل الثالث في العلم والعالم والمعلوم من الباب الثاني

[نظم: السريع]:

العلمُ والمَعْلُومُ والعالمُ ... ثلاثةٌ حُكْمُهُمُو واحدُ
وإنْ تَشَا أحكامُهُم مثلُهم ... ثلاثةٌ أثْبَتَهَا الشَّاهدُ
وصاحبُ الغَيْبِ يُرَى واحداً ... ليس عليه في العُلَى زائدُ

اعلم أيّدك الله أن العلم تحصيل القلب أمراً مّا على حدّ ما هو عليه ذلك في نفسه، معدوماً كان ذلك الأمر أو موجوداً. فالعلم هو الصفة التي توجب التحصيل من القلب، والعالم هو القلب، والمعلوم هو ذلك الأمر المحصل، وتصوّر حقيقة العلم عسير جدّاً، ولكن أمهد لتحصيل العلم ما يتبين به إن شاء الله تعالىٰ، فاعلموا أن القلب مرآة مصقولة كلها وجه لا تصدأ أبداً، فإن أطلق يوماً عليها أنها صدئت كما قال عليه السلام: «**إِنَّ القُلوبَ لَتَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ**» الحديث وفيه أن جلاءها ذكر الله وتلاوة القرآن، ولكن من كونه الذكر الحكيم فليس المراد بهذا الصدأ أنه طخاء طلع على وجه القلب، ولكنه لما تعلق واشتغل بعلم الأسباب عن العلم بالله كان تعلقه بغير الله صدأ على وجه القلب لأنه المانع من تجلي الحق إلى هذا القلب، لأن الحضرة الإلهية متجلاة على الدوام لا يتصوّر في حقّها حجاب عنا، فلما لم يقبلها هذا القلب من جهة الخطاب الشرعيّ المحمود لأنه قبل غيرها عبر عن قبول ذلك الغير بالصدأ والكن والقفل والعمى والران وغير ذلك، وإلاّ فالحق يعطيك أن العلم عنده ولكن بغير الله في علمه وهو بالله في نفس الأمر عند العلماء بالله، ومما يؤيد ما قلناه

قول الله تعالىٰ : ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥] فكانت في أكنة مما يدعوها الرسول إليه خاصة لا أنها في كن، ولكن تعلقت بغير ما تدعى إليه فعميت عن إدراك ما دعيت إليه فلا تبصر شيئاً، والقلوب أبداً لم تزل مفطورة على الجلاء مصقولة صافية، فكل قلب تجلت فيه الحضرة الإلهية من حيث هي ياقوت أحمر الذي هو التجلي الذاتيّ فذلك قلب المشاهد المكمل العالم الذي لا أحد فوقه في تجلّ من التجلّيات، ودونه تجلّي الصفات، ودونهما تجلّي الأفعال، ولكن من كونها من الحضرة الإلهية ومن لم تتجلّ له من كونها من الحضرة الإلهية فذلك هو القلب الغافل عن الله تعالىٰ المطرود من قرب الله تعالىٰ، فانظر وفقك الله في القلب على حدّ ما ذكرناه وانظر هل تجعله العلم فلا يصحّ، وإن قلت الصقالة الذاتية له فلا سبيل ولكن هي سبب، كما أن ظهور المعلوم للقلب سبب، وإن قلت السبب الذي يحصل المعلوم في القلب فلا سبيل، وإن قلت المثال المنطبع في النفس من المعلوم وهو تصوّر المعلوم فلا سبيل، فإن قيل لك فما هو العلم؟ فقل: درك المدرك على ما هو عليه في نفسه إذا كان دركه غير ممتنع، وأما ما يمتنع دركه فالعلم به هو لا دركه كما قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك، فجعل العلم بالله هو لا دركه، فاعلم ذلك ولكن لا دركه من جهة كسب العقل كما يعلمه غيره، ولكن دركه من جوده وكرمه ووهبه كما يعرفه العارفون أهل الشهود لا من قوة العقل من حيث نظره.

تتميم: ولما ثبت أن العلم بأمر مّا لا يكون إلاّ بمعرفة قد تقدّمت قبل هذه المعرفة بأمر آخر يكون بين المعروفين مناسبة لا بدّ من ذلك، وقد ثبت أنه لا مناسبة بين الله تعالىٰ وبين خلقه من جهة المناسبة التي بين الأشياء وهي مناسبة الجنس أو النوع أو الشخص، فليس لنا علم متقدّم بشيء فندرك به ذات الحق لما بينهما من المناسبة، مثال ذلك علمنا بطبيعة الأفلاك التي هي طبيعة خامسة لم نعلمها أصلاً لولا ما سبق علمنا بالأمّهات الأربع، فلما رأينا الأفلاك خارجة عن هذه الطبائع بحكم ليس هو في هذه الأمهات علمنا أن ثَم طبيعة خامسة من جهة الحركة العلوية التي في الأثير والهواء والسفلية التي في الماء والتراب والمناسبة بين الأفلاك والأمهات الجوهرية التي هي جنس جامع للكل والنوعية فإنها نوع كما أن هذه نوع لجنس واحد، وكذلك الشخصية، ولو لم يكن هذا التناسب لما علمنا من الطبائع علم طبيعة الفلك، وليس بين الباري والعالم مناسبة من هذه الوجوه، فلا يعلم بعلم سابق بغيره أبداً كما يزعم بعضهم من استدلال الشاهد على الغائب بالعلم والإرادة والكلام وغير ذلك، ثم يقدسه بعدما قد حمله على نفسه وقاسه بها.

ثم إنه ممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه من علمنا بالله تعالىٰ أن العلم يترتب بحسب المعلوم، وينفصل في ذاته بحسب انفصال المعلوم عن غيره، والشيء الذي به ينفصل المعلوم إما أن يكون ذاتاً كالعقل من جهة جوهريته وكالنفس، وإما أن يكون ذاتاً من جهة طبعه كالحرارة والإحراق للنار، فكما انفصل العقل عن النفس من جهة جوهريته كذلك انفصل النار عن غيره بما ذكرناه، وأما أن ينفصل عنه بذاته لكن بما هو محمول فيه إما بالحال كجلوس الجالس

وكتابة الكاتب، وإما بالهيئة كسواد الأسود وبياض الأبيض، وهذا حصر مدارك العقل عند العقلاء، فلا يوجد معلوم قطعاً للعقل من حيث ما هو خارج عما وصفنا إلاً بأن نعلم ما انفصل به عن غيره إما من جهة جوهره أو طبعه أو حاله أو هيئته، ولا يدرك العقل شيئاً لا توجد فيه هذه الأشياء البتة، وهذه الأشياء لا توجد في الله تعالىٰ، فلا يعلمه العقل أصلاً من حيث هو ناظر وباحث، وكيف يعلمه العقل من حيث نظره وبرهانه الذي يستند إليه الحسّ أو الضرورة أو التجربة، والباري تعالىٰ غير مدرك بهذه الأصول التي يرجع إليها العقل في برهانه، وحينئذ يصحّ له البرهان الوجوديّ، فكيف يدّعي العاقل أنه قد علم ربّه من جهة الدليل وأن الباري معلوم له، ولو نظر إلى المفعولات الصناعية والطبيعية والتكوينية والانبعاثية والإبداعية ورأى جهل كل واحد منها بفاعله لعلم أن الله تعالىٰ لا يعلم بالدليل أبداً لكن يعلم أنه موجود وأن العالم مفتقر إليه افتقاراً ذاتياً لا محيص له عنه البتة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فمن أراد أن يعرف لُباب التوحيد فلينظر في الآيات الواردة في التوحيد من الكتاب العزيز الذي وحّد بها نفسه، فلا أحد أعرف من الشيء بنفسه، فلتنظر بما وصف نفسه وتسأل الله تعالىٰ أن يفهمك ذلك فستقف على علم إلهي لا يبلغ إليه عقل بفكره أبّد الآباد، وسأورد من هذه الآيات في الباب الذي يلي هذا الباب شيئاً يسيراً والله يرزقنا الفهم عنه آمين، ويجعلنا من العالمين الذين يعقلون آياته.

الباب الثالث

في تنزيه الحق تعالىٰ عمّا في طيّ الكلمات التي أطلقها عليه سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من التشبيه والتجسيم تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً

نظم: [السريع]

فــي نــظــرِ الــعــبــد إلــى ربِّــهِ	فــي قُــدُسِ الأَيْــد وتَــنْــزيــهــهِ
وعــلُــوهِ عــن أدواتٍ أتــت	تــلــحــق بــالــكــيــفِ وتــشــبــيــهــهِ
دلالــةٌ تــحــكــم قــطــعــاً عــلــى	مــنــزلــةِ الــعــبــد وتَــنْــزيــهــهِ
وصــحــةِ الــعــلــم وإثــبــاتِــه	وطــرحِ بِــدْعِــيّ وتَــمْــويــهــهِ

اعلم أيّدك الله أن جميع المعلومات علوها وسفلها حاملها العقل الذي يأخذ عن الله تعالىٰ بغير واسطة، فلم يخف عنه شيء من علم الكون الأعلى والأسفل، ومن وهبه وجوده تكون معرفة النفس الأشياء ومن تجليه إليها ونوره وفيضه الأقدس، فالعقل مستفيد من الحق تعالىٰ مفيد للنفس، والنفس مستفيدة من العقل، وعنها يكون الفعل، وهذا سار في جميع ما تعلق به علم العقل بالأشياء التي هي دونه، وإنما قيّدنا بالتي هي دونه من أجل ما ذكرناه من الإفادة وتحفظ في نظرك من قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [سورة محمد: الآية ٣١] وهو العالم فاعرف السبب واعلم أن العالم المهيم لا يستفيد من العقل الأول شيئاً وليس له على المهيمين سلطان بل هم وإياه في مرتبة واحدة، كالأفراد منا الخارجين عن حكم القطب وإن كان القطب واحداً

من الأفراد، لكن خصّص العقل بالإفادة كما خصّص القطب من بين الأفراد بالتولية، وهو سار في جميع ما تعلّق به علم العقل إلاّ علم تجريد التوحيد خاصة فإنه يخالف سائر المعلومات من جميع الوجوه، إذ لا مناسبة بين الله تعالىٰ وبين خلقه البتة، وإن أطلقت المناسبة يوماً ما عليه كما أطلقها الإمام أبو حامد الغزاليّ في كتبه وغيره فبضرب من التكلف ومرمى بعيد عن الحقائق، وإلاّ فأيّ نسبة بين المحدث والقديم؟ أم كيف يشبه من لا يقبل المثل من يقبل المثل؟ هذا محال كما قال أبو العباس بن العريف الصنهاجيّ في محاسن المجالس التي تعزى إليه: ليس بينه وبين العباد نسب إلاّ العناية، ولا سبب إلاّ الحكم، ولا وقت غير الأزل، وما بقي فعمى وتلبيس. وفي رواية فعلم بدل من قوله فعمى، فانظر ما أحسن هذا الكلام وما أتم هذه المعرفة بالله وما أقدس هذه المشاهدة نفعه الله بما قال.

فالعلم بالله عزيز عن إدراك العقل والنفس إلاّ من حيث إنه موجود تعالىٰ وتقدّس، وكل ما يتلفظ به في حق المخلوقات أو يتوهم في المركبات وغيرها فالله سبحانه في نظر العقل السليم من حيث فكره وعصمته، بخلاف ذلك لا يجوز عليه ذلك التوهم ولا يجري عليه ذلك اللفظ عقلاً من الوجه الذي تقبله المخلوقات، فإن أطلق عليه فعلى وجه التقريب على الإفهام لثبوت الوجود عند السامع لا لثبوت الحقيقة التي هو الحق عليها فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] ولكن يجب علينا شرعاً من أجل قوله تعالىٰ لنبيه ﷺ فاعلم أنه لا إله إلاّ الله يقول: اعلم من أخباري الموافق لنظرك ليصحّ لك الإيمان علماً كما صحّ لك العلم من غير إيمان الذي هو قبل التعريف فأمره، فمن أجل هذا الأمر على نظر بعض الناس ورأيه فيه نظرنا من أين نتوصل إلى معرفته فنظرنا على حكم الإنصاف وما أعطاه العقل الكامل بعد جدّه واجتهاده الممكن منه، فلم نصل إلى المعرفة به سبحانه إلاّ بالعجز عن معرفته لأنا طلبنا أن نعرفه كما نطلب معرفة الأشياء كلها من جهة الحقيقة التي هي المعلومات عليها، فلما عرفنا أن ثم موجوداً ليس له مثل ولا يتصوّر في الذهن ولا يدرك فكيف يضبطه العقل؟ هذا ما لا يجوز مع ثبوت العلم بوجوده، فنحن نعلم أنه موجود واحد في ألوهته، وهذا هو العلم الذي طلب منا غير عالمين بحقيقة ذاته التي يعرف سبحانه نفسه عليها وهو العلم بعدم العلم الذي طلب منا لما كان تعالىٰ لا يشبه شيئاً من المخلوقات في نظر العقل ولا يشبهه شيء منها، كان الواجب علينا أولاً لما قيل لنا فاعلموا أنه لا إله إلاّ الله أن نعلم ما العلم وقد علمناه فقد علمنا ما يجب علينا من علم العلم أوّلاً. انتهى الجزء الثامن والحمد لله.

(الجزء التاسع)

بسم الله الرحمن الرحيم

فلنقل إنه لما كانت أمهات المطالب أربعة وهي: هل، وما، وكيف، ولم، فهل ولم مطلبان روحانيان بسيطان يصحبهما ما هو، فهل ولم هما الأصلان الصحيحان للبسائط لأن في ما هو ضرب من التركيب خاصة، وليس في هذه المطالب الأربعة مطلب ينبغي أن يسأل به

عن الله تعالىٰ من جهة ما تعطيه الحقيقة، إذ لا يصحّ أن يعرف من علم التوحيد إلاّ نفي ما يوجد فيما سواه سبحانه ولهذا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] و ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية: ١٨٠] فالعلم بالسلب هو العلم بالله سبحانه، كما لم يجز أن نقول في الأرواح كيف وتقدست عن ذلك لأن حقائقها تخالف هذه العبارة، كذلك ما ينطلق على الأرواح من الأدوات التي بها يسأل عنها لا يجوز أن يطلق على الله تعالىٰ، ولا ينبغي للمحقق الموحد الذي يحترم حضرة مبدعه ومخترعه أن يطلق عليه هذه الألفاظ فإذن لا يعلم بهذه المطالب أبداً.

وصل: ثم إنا نظرنا أيضاً في جميع ما سوى الحق تعالىٰ فوجدناه على قسمين: قسم يدرك بذاته وهو المحسوس والكثيف، وقسم يدرك بفعله وهو المعقول واللطيف، فارتفع المعقول عن المحسوس بهذه المنزلة وهي التنزّه أن يدرك بذاته وإنما يدرك بفعله، ولما كانت هذه أوصاف المخلوقين تقدس الحق تعالىٰ عن أن يدرك بذاته كالمحسوس أو بفعله كاللطيف أو المعقول لأنه سبحانه ليس بينه وبين خلقه مناسبة أصلاً، لأن ذاته غير مدركة لنا فتشبه المحسوس، ولا فعلها كفعل اللطيف فيشبه اللطيف، لأن فعل الحق تعالىٰ إبداع الشيء لا من شيء، واللطيف الروحاني فعل الشيء من الأشياء، فأيّ مناسبة بينهما؟ فإذا امتنعت المشابهة في الفعل فأحرى أن تمتنع المشابهة في الذات، وإن شئت أن تحقق شيئاً من هذا الفصل فانظر إلى مفعول هذا الفعل على حسب أصناف المفعولات، مثل المفعول الصناعيّ كالقميص والكرسيّ فوجدناه لا يعرف صانعه إلاّ أنه يدل بنفسه على وجود صانعه وعلى علمه بصنعته، وكذلك المفعول التكوينيّ الذي هو الفلك والكواكب لا يعرفون مكوّنهم ولا المركب لهم وهو النفس الكلية المحيطة بهم، وكذلك المفعول الطبيعيّ كالموالد من المعادن والنبات والحيوان الذين يفعلون طبيعة من المفعول التكوينيّ ليس لهم وقوف على الفاعل لهم الذي هو الفلك والكواكب، فليس العلم بالأفلاك ما تراه من جرمها وما يدركه الحسّ منها، وأين جرم الشمس في نفسها منها في عين الرائي لها منا، وإنما العلم بالأفلاك من جهة روحها ومعناها الذي أوجده الله تعالىٰ لها عن النفس الكلية المحيطة التي هي سبب الأفلاك وما فيها، وكذلك المفعول الانبعاثيّ الذي هو النفس الكلية المنبعثة من العقل انبعاث الصورة الدحية من الحقيقة الجبرئيلية فإنها لا تعرف الذي انبعثت عنه أصلاً لأنها تحت حيطته وهو المحيط بها لأنها خاطر من خواطره، فكيف تعلم ما هو فوقها وما ليس فيها منه إلاّ ما فيها، فلا تعلم منه إلاّ ما هي عليه فنفسها علمت لا سببهما، وكذلك المفعول الإبداعيّ الذي هو الحقيقة المحمدية عندنا، والعقل الأول عند غيرنا، وهو القلم الأعلى الذي أبدعه الله تعالىٰ من غير شيء هو أعجز وأمنع عن إدراك فاعله من كل مفعول تقدم ذكره، إذ بين كل مفعول وفاعله مما تقدم ذكره ضرب من ضروب المناسبة والمشاكلة، فلا بدّ أن يعلم منه قدر ما بينهما من المناسبة، إما من جهة الجوهرية أو غير ذلك، ولا مناسبة بين المبدع الأول والحق تعالىٰ، فهو أعجز عن معرفته بفاعله من غيره من مفعولي الأسباب، إذ وقد عجز المفعول الذي يشبه

سببه الفاعل له من وجوه عن إدراكه والعلم به، فافهم هذا وتحققه فإنه نافع جداً في باب التوحيد والعجز عن تعلق العلم المحدث بالله تعالىٰ.

وصل: يؤيّد ما ذكرناه أن الإنسان إنما يدرك المعلومات كلها بإحدى القوىٰ الخمس:

القوّة الحسيّة وهي على خمس: الشم والطعم واللمس والسمع والبصر، فالبصر يدرك الألوان والمتلونات والأشخاص على حد معلوم من القرب والبعد، فالذي يدرك منه على ميل غير الذي يدرك منه على ميلين، والذي يدرك منه على عشرين باعاً غير الذي يدرك منه على ميل، والذي يدرك منه ويده في يده يقابله غير الذي يدرك منه على عشرين باعاً، فالذي يدرك منه على ميلين شخص لا يدري هل هو إنسان أو شجرة، وعلى ميل يعرف أنه إنسان، وعلى عشرين باعاً أنه أبيض أو أسود، وعلى المقابلة أنه أزرق أو أكحل، وهكذا سائر الحواس في مدركاتها من القرب والبعد، والباري سبحانه ليس بمحسوس أي ليس بمدرك بالحسّ عندنا في وقت طلبنا المعرفة به فلم نعلمه من طريق الحسّ.

وأما القوّة الخيالية فإنها لا تضبط إلاَّ ما أعطاها الحسّ، إما على صورة ما أعطاها، وإما على صورة ما أعطاه الفكر من حمله بعض المحسوسات على بعض، وإلى هنا انتهت طريقة أهل الفكر في معرفة الحق فهو لسانهم ليس لساننا وإن كان حقاً ولكن ننسبه إليهم فإنه نقل عنهم فلم تبرح هذه القوّة كيفما كان إدراكها عن الحسّ البتة، وقد بطل تعلق الحسّ بالله عندنا فقد بطل تعلق الخيال به.

وأما القوّة المفكرة فلا يفكر الإنسان أبداً إلاَّ في أشياء موجودة عنده تلقاها من جهة الحواس وأوائل العقل، ومن الفكر فيها في خزانة الخيال يحصل له علم بأمر آخر بينه وبين هذه الأشياء التي فكّر فيها مناسبة، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فإذن لا يصحّ العلم به من جهة الفكر، ولهذا منعت العلماء من الفكر في ذات الله تعالىٰ.

وأما القوّة العقلية فلا يصحّ أن يدركه العقل، فإن العقل لا يقبل إلاَّ ما علمه بديهة أو ما أعطاه الفكر، وقد بطل إدراك الفكر له فقد بطل إدراك العقل له من طريق الفكر ولكن مما هو عقل، إنما حدّه أن يعقل ويضبط ما حصل عنده، فقد يهبه الحق المعرفة به فيعقلها لأنه عقل لا من طريق الفكر هذا ما لا نمنعه، فإن هذه المعرفة التي يهبها الحق تعالىٰ لمن شاء من عباده لا يستقل العقل بإدراكها ولكن يقبلها، فلا يقوم عليها دليل ولا برهان لأنها وراء طور مدارك العقل، ثم هذه الأوصاف الذاتية لا تمكن العبارة عنها لأنها خارجة عن التمثيل والقياس فإنه ليس كمثله شيء، فكل عقل لم يكشف له من هذه المعرفة شيء يسأل عقلاً آخر قد كشف له منها ليس في قوّة ذلك العقل المسؤول العبارة عنها ولا تمكن، ولذلك قال الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك، ولهذا الكلام مرتبتان فافهم، فمن طلب الله بعقله من طريق فكره ونظره فهو تائه وإنما حسبه التهيؤ لقبول ما يهبه الله من ذلك فافهم.

وأما القوة الذاكرة فلا سبيل أن تدرك العلم بالله فإنها إنما تذكر ما كان العقل قبل علمه ثم غفل أو نسي وهو لم يعلمه فلا سبيل للقوّة الذاكرة إليه، وانحصرت مدارك الإنسان بما هو

إنسان وما تعطيه ذاته وله فيه كسب وما بقي إلاّ تهيؤ العقل لقبول ما يهبه الحق من معرفته جلّ وتعالىٰ، فلا يعرف أبداً من جهة الدليل إلاّ معرفة الوجود وأنه الواحد المعبود لا غير، فإن الإنسان المدرك لا يتمكن له أن يدرك شيئاً أبداً إلاّ ومثله موجود فيه، ولولا ذلك ما أدركه البتة ولا عرفه، فإذا لم يعرف شيئاً إلاّ وفيه مثل ذلك الشيء المعروف فما عرف إلاّ ما يشبهه ويشاكله، والباري تعالىٰ لا يشبه شيئاً، ولا في شيء مثله فلا يعرف أبداً، ومما يؤيد ما ذكرناه أن الأشياء الطبيعية لا تقبل الغذاء إلاّ من مُشاكلها، فأما ما لا يشاكلها فلا تقبل الغذاء منه قطعاً، مثال ذلك أن الموالد من المعادن والنبات والحيوان مركبة من الطبائع الأربع، والموالد لا تقبل الغذاء إلاّ منها وذلك لأن فيها نصيباً منها، ولو رام أحد من الخلق على أن يجعل غذاء جسمه المركب من هذه الطبائع من شيء كائن عن غير هذه الطبائع أو ما تركب عنها لم يستطع، فكما لا يمكن لشيء من الأجسام الطبيعية أن تقبل غذاء إلاّ من شيء هو من الطبائع التي هي منها، كذلك لا يمكن لأحد أن يعلم شيئاً ليس فيه مثله البتة، ألا ترى النفس لا تقبل من العقل إلاّ ما تشاركه فيه وتشاكله، وما لم تشاركه فيه لا تعلمه منه أبداً، وليس من الله في أحد شيء، ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه فلا يعرفه أحد من نفسه وفكره.

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ احْتَجَبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الأَبْصَارِ، وإِنَّ المَلأَ الأَعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُم**» فأخبر عليه السلام بأن العقل لم يدركه بفكره ولا بعين بصيرته كما لم يدركه البصر، وهذا هو الذي أشرنا إليه فيما تقدم من بابنا، فلله الحمد على ما ألهم، وأن علمنا ما لم نكن نعلم ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣] هكذا فليكن التنزيه ونفي المماثلة والتشبيه، وما ضلَّ من ضل من المشبهة إلاّ بالتأويل، وحمل ما وردت به الآيات والأخبار على ما يسبق منها إلى الأفهام من غير نظر فيما يجب لله تعالىٰ من التنزيه، فقادهم ذلك إلى الجهل المحض والكفر الصراح، ولو طلبوا السلامة وتركوا الأخبار والآيات على ما جاءت من غير عدول منهم فيها إلى شيء البتة ويكلون علم ذلك إلى الله تعالىٰ ولرسوله ويقولون لا ندري وكان يكفيهم قول الله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فمتى جاءهم حديث فيه تشبيه فقد أشبه الله شيئاً وهو قد نفى الشبه عن نفسه سبحانه، فما بقي إلاّ أن ذلك الخبر له وجه من وجوه التنزيه يعرفه الله تعالىٰ، وجيء به لفهم العربيّ الذي نزل القرآن بلسانه وما تجد لفظة في خبر ولا آية جملة واحدة تكون نصاً في التشبيه أبداً، وإنما تجدها عند العرب تحتمل وجوهاً: منها ما يؤدّي إلى التشبيه، ومنها ما يؤدّي إلى التنزيه، فحمل المتأوّل ذلك اللفظ على الوجه الذي يؤدّي إلى التشبيه جور منه على ذلك اللفظ، إذ لم يوف حقّه بما يعطيه وضعه في اللسان وتعدّ على الله تعالىٰ حيث حمل عليه سبحانه ما لا يليق بالله تعالىٰ، ونحن نورد إن شاء الله تعالىٰ بعض أحاديث وردت في التشبيه وإنها ليست بنص فيه، فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين، فمن ذلك قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله نظر العقل بما يقتضيه الوضع من الحقيقة والمجاز الجارحة تستحيل على الله تعالىٰ، الأصبع لفظ مشترك يطلق على الجارحة ويطلق على النعمة، قال الراعي: [الطويل]

ضعيفُ العصا بادي العُروقِ ترى لهُ عليها إذا ما أَمْحَلَ الناسُ أُصْبُعَا

يقول: ترى له عليها أثراً حسناً من النعمة بحسن النظر عليها، تقول العرب: ما أحسن أصبع فلان على ماله أي أثره فيه تريد به نموّ ماله لحسن تصرّفه فيه أسرع التقليب ما قلبته الأصابع لصغر حجمها وكمال القدرة فيها، فحركتها أسرع من حركة اليد وغيره، ولما كان تقليب الله قلوب العباد أسرع شيء أفصح ﷺ للعرب في دعائه بما تعقل، ولأن التقليب لا يكون إلاَّ باليد عندنا فلذلك جعل التقليب بالأصابع لأن الأصابع من اليد في اليد، والسرعة في الأصابع أمكن، فكان عليه السلام يقول في دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**» وتقليب الله تعالىٰ القلوب هو ما يخلق فيها من الهمّ بالحسن والهم بالسوء، فلما كان الإنسان يحس بترادف الخواطر المتعارضة عليه في قلبه الذي هو عبارة عن تقليب الحق القلب وهذا لا يقدر الإنسان يدفع علمه عن نفسه لذلك كان عليه السلام يقول: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**».

وفي هذا الحديث أن إحدى أزواجه قالت له: أو تخاف يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**قَلْبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ**» يشير ﷺ إلى سرعة التقليب من الإيمان إلى الكفر وما تحتهما، قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] وهذا الإلهام هو التقليب والأصابع للسرعة والأثنينية لها خاطر الحسن وخاطر القبيح، فإذا فهم من الأصابع ما ذكرته وفهمت منه الجارحة وفهمت منه النعمة والأثر الحسن فبأيّ وجه تلحقه بالجارحة، وهذه الوجوه المنزّهة تطلبه، فإما نسكت ونكل علم ذلك إلى الله تعالىٰ وإلى من عرفه الحق ذلك من رسول مرسل أو وليّ ملهم بشرط نفي الجارحة ولا بدّ، وإما إن أدركنا فضول وغلب علينا إلاَّ أن نردّ بذلك على بدعيّ مجسم مشبه، فليس بفضول، بل يجب على العالم عند ذلك تبيين ما في ذلك اللفظ من وجوه التنزيه حتى تدحض به حجة المجسم المخذول، تاب الله علينا وعليه ورزقه الإسلام، فإن تكلمنا على تلك الكلمة التي توهم التشبيه ولا بدّ فالعدول بشرحها إلى الوجه الذي يليق بالله سبحانه أولى، هذا حظ العقل في الوضع.

نفث روح في روع: الأصبعان سرّ الكمال الذاتي الذي إذا انكشف إلى الأبصار يوم القيامة يأخذ الإنسان أباه إذا كان كافراً ويرمي به في النار ولا يجد لذلك ألماً ولا عليه شفقة بسرّ هذين الأصبعين المتحد معناهما المثنى لفظهما، خلقت الجنة والنار، وظهر اسم المنوّر، والمظلم، والمنعم، والمنتقم، فلا تتخيلهما اثنين من عشرة، ولا بدّ من الإشارة إلى هذا السرّ في هذا الباب في كلتا يديه يمين وهذه معرفة الكشف، فإن لأهل الجنة نعيمين: نعيماً بالجنة ونعيماً بعذاب أهل النار في النار. وكذلك أهل النار لهم عذابان وكلا الفريقين يرون الله رؤية الأسماء كما كانوا في الدنيا سواء، وفي القبضتين اللتين جاءتا عن الرسول ﷺ في حق الحق سرّ ما أشرنا إليه ومعناه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] القبضة واليمين. قال تعالىٰ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] نظر العقل بما يقتضيه الوضع أنه منع أولاً سبحانه أن يقدر قدره لما يسبق

إلى العقول الضعيفة من التشبيه والتجسيم عند ورود الآيات والأخبار التي تعطى من وجه ما من وجوهها ذلك. ثم قال بعد هذا التنزيه الذي لا يعقله إلاّ العالمون والأرض جميعاً قبضته عرفنا من وضع اللسان العربي أن يقال فلان في قبضتي يريد أنه تحت حكمي وإن كان ليس في يدي منه شيء البتة، ولكن أمري فيه ماض وحكمي عليه قاض، مثل حكمي على ما ملكته يدي حسّاً وقبضت عليه، وكذلك أقول مالي في قبضتي أي في ملكي وإني متمكن في التصرّف فيه أي لا يمنع نفسه مني، فإذا صرّفته ففي وقت تصرفي فيه كان أمكن لي أن أقول هو في قبضتي لتصرّفي فيه، وإن كان عبيدي هم المتصرّفون فيه عن إذني فلما استحالت الجارحة على الله تعالىٰ عدل العقل إلى روح القبضة ومعناها وفائدتها وهو ملك ما قبضت عليه في الحال، وإن لم يكن لها أعني للقابض فيما قبض عليه شيء ولكن هو في ملك القبضة قطعاً فهكذا العالم في قبضة الحق تعالىٰ، والأرض في الدار الآخرة تعيين بعض الأملاك كما تقول: خادمي في قبضتي، وإن كان خادمي من جملة من في قبضتي فإنما ذكرته اختصاصاً لوقوع نازلة ما، واليمين عندنا محل التصريف المطلق القويّ، فإن اليسار لا يقوى قوّة اليمين، فكنى باليمين عن التمكّن من الطيّ، فهي إشارة إلى تمكّن القدرة من الفعل، فوصل إلى أفهام العرب بألفاظ تعرفها وتسرع بالتلقي لها، قال الشاعر: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رفعَتْ لمجدٍ تلقّاها عَرَابةُ باليمينِ

وليس للمجد راية محسوسة فلا تتلقاها جارحة يمين فكأنه يقول: لو ظهر للمجد راية محسوسة لما كان محلها أو حاملها إلاّ يمين عرابة الأوسيّ أي صفة المجد به قائمة وفيه كاملة، فلم تزل العرب تطلق ألفاظ الجوارح على ما لا يقبل الجارحة لاشتراك بينهما من طريق المعنى.

نفث روح في روع: إذا تجلى الحق لسرّ عبد ملّكه جميع الأسرار وألحقه بالأحرار وكان له التصرّف الذاتيّ من جهة اليمين، فإن شرف الشمال بغيره وشرف اليمين بذاته، ثم أنزل شرف اليمين بالخطاب وشرف الشمال بالتجلّي شرف الإنسان بمعرفته بحقيقته وإطلاعه عليها وهو اليسار وكلتا يديه من حيث هو شمال، كما أن كلتي يدي الحق يمين أرجع إلى معنى الاتحاد كلتا يدي العبد يمين، أرجع إلى التوحيد إحدى يديه يمين والأخرى شمال، فتارة أكون في الجمع وجمع الجمع، وتارة أكون في الفرق وفي فرق الفرق على حكم التجلّي والوارد: [البسيط]

يوماً يمانٌ إذا لاقيتَ ذا يَمَنٍ وإن لقيتَ معدِّياً فعدناني

ومن ذلك التعجب والضحك والفرح والغضب، التعجب إنما يقع من موجود لا يعلم ذلك المتعجب منه ثم يعلمه فيتعجب منه ويلحق به الضحك وهذا محال على الله تعالىٰ فإنه ما خرج شيء عن علمه، فمتى وقع في الوجود شيء يمكن التعجب منه عندنا حمل ذلك التعجب والضحك على من لا يجوز عليه التعجب ولا الضحك، لأن الأمر الواقع متعجب منه عندنا، كالشاب ليست له صبوة فهذا أمر يتعجب منه فحل عند الله تعالىٰ محل ما يتعجب منه عندنا، وقد يخرج الضحك والفرح إلى القبول والرضى، فإن من فعلت له فعلاً أظهر لك من

أجله الضحك والفرح فقد قبل ذلك الفعل ورضي به، فضحكه وفرحه تعالىٰ قبوله ورضاه عنا، كما أن غضبه تعالىٰ منزّه عن غليان دم القلب طلباً للانتصار لأنه سبحانه يتقدس عن الجسمية والعرض، فذلك قد يرجع إلى أن يفعل فعل من غضب ممن يجوز عليه الغضب وهو انتقامه سبحانه من الجبارين والمخالفين لأمره والمتعدّين حدوده، قال تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٠] أي جازاه جزاء المغضوب عليه، فالمجازي يكون غاضباً فظهور الفعل أطلق الاسم.

(التبشش): من باب الفرح، ورد في الخبر أن الله يتبشش للرجل يوطىء المساجد للصلاة والذكر الحديث لما حجب العالم بالأكوان واشتغلوا بغير الله عن الله فصاروا بهذا الفعل في حال غيبة عن الله، فلما وردوا عليه سبحانه بنوع من أنواع الحضور أسدل إليهم سبحانه في قلوبهم من لذة نعيم محاضرته ومناجاته ومشاهدته ما تحبب بها إلى قلوبهم، فإنّ النبيّ عليه السلام يقول: «**أَحِبوا اللَّهَ لِمَا يَغذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ**» فكنى بالتبشش عن هذا الفعل منه لأنه إظهار سرور بقدومكم عليه، فإنه من يسرّ بقدومك عليه فعلامة سروره إظهار البر بجانبك والتحبّب وإرسال ما عنده من نعم عليك، فلما ظهرت هذه الأشياء من الله إلى العبيد النازلين به سمّاه تبششاً.

(النسيان): قال الله تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] الباري تعالىٰ لا يجوز عليه النسيان ولكنه تعالىٰ لما عذبهم عذاب الأبد ولم تنلهم رحمته تعالىٰ صاروا كأنهم منسيون عنده، وهو كأنه ناسٍ لهم أي هذا فعل الناسي ومن لا يتذكر ما هم فيه من أليم العذاب وذلك لأنهم في حياتهم الدنيا نسوا الله فجازاهم بفعلهم ففعلهم أعاده عليهم للمناسبة، وقد يكون نسيهم أخرهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي أخّروا أمر الله فلم يعملوا به، أخّرهم الله في النار حين أخرج منها من أدخله فيها من غيرهم، ويقرب من هذا الباب اتصاف الحق بالمكر والاستهزاء والسخرية، قال تعالىٰ: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٩] وقال: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٤] وقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٥].

(النفس): قال ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ نَفسِ الرَّحْمٰنِ**». وقوله عليه السلام: «**إنِّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِن قِبَلِ اليَمَنِ**» وهذا كله من التنفيس كأنه يقول: لا تسبوا الريح فإنها ممّا ينفس بها الرحمن عن عباده. وقال عليه السلام: «**نُصِرتُ بِالصَّبَا**» وكذلك يقول: «**إنِّي لأَجِدُ نَفَسَ**» أي تنفيس الرحمن عني للكرب الذي كان فيه من تكذيب قومه إياه وردّهم أمر الله من قبل اليمن فكان الأنصار نفس الله بهم عن نبيه ﷺ ما كان أكربه من المكذبين، فإن الله تعالىٰ منزّه عن النفس الذي هو الهواء الخارج من المتنفس تعالىٰ الله عمّا نسب إليه الظالمون من ذلك علوّاً كبيراً.

(الصورة): تطلق على الأمر وعلى المعلوم عند الناس وعلى غير ذلك، ورد في الحديث إضافة الصورة إلى الله في الصحيح وغيره مثل حديث عكرمة قال عليه السلام: «**رَأَيْتُ رَبِّي فِي صُورَةِ شَابٍّ**» الحديث هذا حال من النبي ﷺ وهو في كلام العرب معلوم متعارف، وكذلك قوله عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» اعلم أن المثلية الواردة في

القرآن لغوية لا عقلية، لأن المثلية العقلية تستحيل على الله تعالىٰ زيد الأسد شدّة زيد زهير شعراً إذا وصفت موجوداً بصفة أو صفتين ثم وصفت غيره بتلك الصفة، وإن كان بينهما تباين من جهة حقائق أخر ولكنهما مشتركان في روح تلك الصفة ومعناها، فكل واحد منهما على صورة الآخر في تلك الصفة خاصة، فافهم وتنبّه وانظر كونك دليلاً عليه سبحانه، وهل وصفته بصفة كمال إلاَّ منك فتفطن فإذا دخلت من باب التعرية عن المناظرة سلبت النقائص التي تجوز عليك عنه وإن كانت لم تقم قط به، ولكن المجسم والمشبه لما أضافها إليه سلبت أنت تلك الإضافة، ولو لم يتوهم هذا لما فعلت شيئاً من هذا السلب فاعلم، وإن كان للصورة هنا مداخل كثيرة أضربنا عن ذكرها رغبة فيما قصدناه في هذا الكتاب من حذف التطويل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(الذراع): ورد في الخبر عن النبي ﷺ: «**إنَّ ضِرْسَ الكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أُحُدٍ وَكَثَافَةَ جِلْدِهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعاً بِذِرَاعِ الجَبَّارِ**» هذه إضافة تشريف مقدار جعله الله تعالىٰ إضافة إليه، كما تقول هذا الشيء كذا وكذا ذراعاً بذراع الملك تريد الذراع الأكبر الذي جعله الملك وإن كان مثلاً ذراع الملك الذي هو الجارحة مثل أذرع الناس، والذراع الذي جعله مقداراً يزيد على ذراع الجارحة بنصفه أو ثلثه، فليس هو إذن ذراعه على حقيقته وإنما هو مقدار نصبه ثم أضيف إلى جاعله فاعلم والجبار في اللسان الملك العظيم وهكذا.

(القدم): يضع الجبار فيها قدمه القدم الجارحة ويقال لفلان في هذا الأمر قدم أي ثبوت، والقدم جماعة من الخلق فتكون القدم إضافة، وقد يكون الجبار ملكاً وتكون هذه القدم لهذا الملك إذ الجارحة تستحيل على الله تعالىٰ وجلّ.

(والاستواء): أيضاً ينطلق على الاستقرار والقصود والاستيلاء والاستقرار من صفات الأجسام، فلا يجوز على الله تعالىٰ إلاَّ إذا كان على وجه الثبوت والقصد هو الإرادة وهي من صفات الكمال قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩] أي قصد واستوى على العرش أي استولى: [الرجز]

قَدِ استوى بِشْرٌ على العراقِ ... من غيرِ سيفٍ ودم مُهراقِ

والأخبار والآيات كثيرة منها صحيح وسقيم، وما منها خبر إلاَّ وله وجه من وجوه التنزيه، وإن أردت أن يقرب ذلك عليك فاعمد إلى اللفظة التي توهم التشبيه وخذ فائدتها وروحها أو ما يكون عنها فاجعله في حق الحق تفز بدرجة التنزيه حين حاز غيرك درك التشبيه فهكذا فافعل وطهر ثوبك، ويكفي هذا القدر من هذه الأخبار فقد طال الباب، نفث الروح الأقدس في الروع الأنفس بما تقدم من الألفاظ، لما تعجب المتعجب ممن خرج على صورته، وخالفه في سريرته، ففرح بوجوده، وضحك من شهوده، وغضب لتوليه، وتبشبش لتدليه، ونسي ظاهره، وتنفّس فأطلق مواخره، وثبت على ملكه، وتحكم بالتقدير على ملكه، فكان ما أراد، وإلى الله المعاد، فهذه أرواح مجرده، تنتظرها أشباح مسنده، فإذا بلغ الميقات، وانقضت الأوقات، ومارت السماء وكوّرت الشمس، وبدّلت الأرض، وانكدرت

النجوم، وانتقلت الأمور، وظهرت الآخره، وحشر الإنسان وغيره في الحافره، حينئذ تحمد الأشباح، وتتنسم الأرواح، ويتجلى الفتاح، ويتقد المصباح، وتشعشع الراح، ويظهر الودّ الصراح، ويزول الإلحاح، ويرفرف الجناح، ويكون الابتنا بالضراح، من أول الليل إلى الإصباح، فما أسناها من منزله، وما أشهاها إلى النفوس من حالة مكمله، متّعنا الله بها.

الباب الرابع

في سبب بدء العالم ومراتب الأسماء الحسنى من العالم كله

[نظم: السريع]

فـي سَبَـبِ الـبـدْءِ وأحـكـامـهِ ... وغـايـةِ الـصُّـنـعِ وإحـكـامِـهِ

والـفـرقِ مـا بـيـن رعـاةِ الـعُـلـى ... فـي نَـشْـئـه وبـيـنَ حُـكّـامِـهِ

دلائـلٌ دلـت عـلـى صـانـعٍ ... قـد قـهـر الـكـلَّ بـأحْـكَـامِـهِ

قد وقف الصفيّ الوليّ أبقاه الله على سبب بدء العالم في كتابنا المسمّى بعنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، وفي كتابنا المسمّى بإنشاء الدوائر الذي ألفنا بعضه بمنزله الكريم في وقت زيارتنا إياه سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ونحن نريد الحج، فقيد له منه خديمه عبد الجبار أعلى الله قدره القدر الذي كنت سطرته منه ورحلت به معي إلى مكة زادها الله تشريفاً في السنة المذكورة لأتممه بها، فشغلنا هذا الكتاب عنه وعن غيره بسبب الأمر الإلٰهيّ الذي ورد علينا في تقييده، مع رغبة بعض الإخوان والفقراء في ذلك حرصاً منهم على مزيد العلم، ورغبة في أن تعود عليهم بركات هذا البيت المبارك الشريف محل البركات والهدى والآيات البينات، وأن نعرف أيضاً في هذا الموضوع الصفي الكريم أبا محمد عبد العزيز رضي الله عنه ما تعطيه مكة من البركات وأنها خير وسيلة عبادية وأشرف منزلة جمادية ترابية، عسى تنهض به همة الشوق إليه، وتنزل به رغبة المزيد عليه، فقد قيل لمن أوتي جوامع الكلم وكان من ربّه في مشاهدة العين أدنى من قاب قوسين، ومع هذا التقريب الأكمل والحظ الأوفر الأجزل أنزل عليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤].

ومن شرط العالم المشاهد صاحب المقامات الغيبية والمشاهد أن يعلم أن للأمكنة في القلوب اللطيفة تأثيراً، ولو وجد القلب في أي موضع كان الوجود الأعم فوجوده بمكة أسنى وأتم، فكما تتفاضل المنازل الروحانية، كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية، وإلاّ فهل الدر مثل الحجر إلاّ عند صاحب الحال، وأما المكمل صاحب المقام فإنه يميز بينهما كما ميّز بينهما الحق، هل ساوى الحق بين دار بناؤها لبن التراب والتبن ودار بناؤها لبن العسجد واللجين، فالحكيم الواصل من أعطى كل ذي حق حقه، فذلك واحد عصره وصاحب وقته، وكثير بين مدينة يكون أكثر عمارتها الشهوات، وبين مدينة يكون أكثر عمارتها الآيات البينات، أليس قد جمع معي صفيي أبقاه الله أن وجود قلوبنا في بعض المواطن أكثر من بعض.

وقد كان رضي الله عنه يترك الخلوة في بيوت المنارة المحروسة الكائنة بشرقيّ تونس

بساحل البحر وينزل إلى الرابطة التي في وسط المقابر بقرب المنارة من جهة بابها وهي تعزى إلى الخضر فسألته عن ذلك فقال: إن قلبي أجده هنالك أكثر منه في المنارة، وقد وجدت فيها أنا أيضاً ما قاله الشيخ، وقد علم وليي أبقاه الله أن ذلك من أجل من يعمر ذلك الموضع، إمّا في الحال من الملائكة المكرّمين، أو من الجن الصادقين، وإما من همة من كان يعمره وفقد كبيت أبي يزيد الذي يسمّى بيت الأبرار، وكزاوية الجنيد بالشونيزية، وكمغارة ابن أدهم بالتعن، وما كان من أماكن الصالحين الذين فنوا عن هذه الدار وبقيت آثارهم في أماكنهم تنفعل لها القلوب اللطيفة، ولهذا يرجع تفاضل المساجد في وجود القلب لا في تضاعف الأجر، فقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد، وذلك ليس للتراب ولكن لمجالسة الأتراب أو هممهم، ومن لا يجد الفرق في وجود قلبه بين السوق والمساجد فهو صاحب حال لا صاحب مقام، ولا أشك كشفاً وعلماً أنه وإن عمرت الملائكة جميع الأرض مع تفاضلهم في المعارف والرتب فإن أعلاهم رتبة وأعظمهم علماً ومعرفة عمرة المسجد الحرام، وعلى قدر جلساتك يكون وجودك، فإنه لهمم الجلساء في قلب الجليس لهم تأثيراً وهممهم على قدر مراتبهم وإن كان من جهة الهمم، فقد طاف بهذا البيت مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرون ألف نبي سوى الأولياء، وما من نبي ولا وليّ إلاً وله همة متعلقة بهذا البيت وهذا البلد الحرام لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت، وله سرّ الأوّلية في المعابد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٦] من كل مخوف، إلى غير ذلك من الآيات، فلو رحل الصفي أبقاه الله إلى هذا البلد الحرام الشريف لوجد من المعارف والزيادات ما لم يكن رآه قبل ذلك ولا خطر له بالبال، وقد علم رضي الله عنه أن النفس تحشر على صورة علمها، والجسم على صورة عمله، وصورة العلم والعمل بمكة أتمّ مما في سواها، ولو دخلها صاحب قلب ساعة واحدة لكان له ذلك، فكيف إن جاور بها وأقام وأتى فيها بجميع الفرائض والقواعد؟ فلا شك أن مشهده بها يكون أتمّ وأجلى، ومورده أصفى وأعذب وأحلى، وإذ وصفيي أبقاه الله قد أخبرني أنه يحسّ بالزيادة والنقص على حسب الأماكن والأمزجة، ويعلم أن ذلك راجع أيضاً إلى حقيقة الساكن به أو همته كما ذكرنا، ولا شك عندنا أن معرفة هذا الفن أعني معرفة الأماكن والإحساس بالزيادة والنقص من تمام تمكن معرفة العارف وعلوّ مقامه وإشرافه على الأشياء وقوّة ميزه، فالله يكتب لوليي فيها أثراً حسناً ويهبه فيها خيراً طيباً إنه المليّ بذلك والقادر عليه.

اعلم وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين أن أكثر العلماء بالله من أهل الكشف والحقائق ليس عندهم علم بسبب بدء العالم إلاّ تعلق العلم القديم بإيجاده، فكوّن ما علم أنه سيكوّنه، وهنا ينتهي أكثر الناس. وأمّا نحن ومن أطلعه الله على ما أطلعنا عليه فقد وقفنا على أمور أخر غير هذا، وذلك أنك إذا نظرت العالم مفصلاً بحقائقه ونسبه وجدته محصور الحقائق والنسب معلوم المنازل والرتب متناهي الأجناس بين متماثل ومختلف، فإذا وقفت على هذا الأمر

علمت أن لهذا سرّاً لطيفاً وأمراً عجيباً، لا تدرك حقيقته بدقيق فكر ولا نظر، بل بعلم موهوب من علوم الكشف ونتائج المجاهدات المصاحبة للهمم، فإن مجاهدة بغير همة غير منتجة شيئاً ولا مؤثرة في العلم، لكن تؤثر في الحال من رقّة وصفاء يجده صاحب المجاهدة، فاعلم علمك الله سرائر الحكم ووهبك من جوامع الكلم أن الأسماء الحسنى التي تبلغ فوق أسماء الإحصاء عدداً وتنزل دون أسماء الإحصاء سعادة هي المؤثرة في هذا العالم وهي المفاتح الأول التي لا يعلمها إلاّ هو، وأن لكل حقيقة اسماً ما يخصّها من الأسماء، وأعني بالحقيقة حقيقة تجمع جنساً من الحقائق، رب تلك الحقيقة ذلك الاسم وتلك الحقيقة عابدته وتحت تكليفه ليس غير ذلك، وإن جمع لك شيء مّا أشياء كثيرة فليس الأمر على ما توهمته، فإنك إن نظرت إلى ذلك الشيء وجدت له من الوجوه ما يقابل به تلك الأسماء التي تدل عليها وهي الحقائق التي ذكرناها، مثال ذلك ما ثبت لك في العلم الذي في ظاهر العقول وتحت حكمها في حق موجود ما فرد لا ينقسم مثل الجوهر الفرد الجزء الذي لا ينقسم، فإن فيه حقائق متعددة تطلب أسماء إلٰهية على عددها، فحقيقة إيجاده يطلب الاسم القادر، ووجه أحكامه يطلب الاسم العالم، ووجه اختصاصه يطلب الاسم المريد، ووجه ظهوره يطلب الاسم البصير والرائي إلى غير ذلك، فهذا وإن كان فرداً فله هذه الوجوه وغيرها مما لم نذكرها، ولكل وجه وجوه متعددة تطلب من الأسماء بحسبها، وتلك الوجوه هي الحقائق عندنا الثواني والوقوف عليها عسير، وتحصيلها من طريق الكشف أعسر.

واعلم أن الأسماء قد نتركها على كثرتها إذا لحظنا وجوه الطالبين لها من العالم، وإذا لم نلحظ ذلك فلنرجع ونلحظ أمّهات المطالب التي لا غنى لنا عنها، فنعرف أن الأسماء التي الأمّهات موقوفة عليها هي أيضاً أمّهات الأسماء، فيسهل النظر ويكمل الغرض ويتيسر التعدي من هذه الأمّهات إلى البنات كما يتيسّر ردّ البنات إلى الأمّهات، فإذا نظرت الأشياء كلها المعلومة في العالم العلويّ والسفليّ تجد الأسماء السبعة المعبر عنها بالصفات عند أصحاب علم الكلام تتضمنها، وقد ذكرنا هذا في كتابنا الذي سميناه إنشاء الدوائر، وليس غرضنا في هذا الكتاب في هذه الأمهات السبعة المعبر عنها بالصفات، ولكن قصدنا الأمهات التي لا بدّ لإيجاد العالم منها، كما أنا لا نحتاج في دلائل العقول من معرفة الحق سبحانه إلاّ كونه موجوداً عالماً مريداً قادراً حيّاً لا غير، وما زاد على هذا فإنما يقتضيه التكليف، فمجيء الرسول عليه السلام جعلنا نعرفه متكلماً، والتكليف جعلنا نعرفه سميعاً بصيراً، إلى غير ذلك من الأسماء. فالذي نحتاج إليه من معرفة الأسماء لوجود العالم وهي أرباب الأسماء وما عداها فسدنة لها، كما أن بعض هذه الأرباب سدنة لبعضها، فأمهات الأسماء الحيّ العالم المريد القادر القائل الجواد المقسط، وهذه الأسماء بنات الاسمين المدبر والمفصل، فالحيّ يثبت فهمك بعد وجودك وقبله، والعالم يثبت أحكامك في وجودك وقبل وجودك يثبت تقديرك، والمريد يثبت اختصاصك، والقادر يثبت عدمك، والقائل يثبت قدمك، والجواد يثبت إيجادك، والمقسط يثبت مرتبتك، والمرتبة آخر منازل الوجود.

فهذه حقائق لا بدّ من وجودها، فلا بدّ من أسمائها التي هي أربابها، فالحيّ رب الأرباب والمربوبين وهو الإمام، ويليه في الرتبة العالم، ويلي العالم المريد، ويلي المريد القائل، ويلي القائل القادر، ويلي القادر الجواد، وآخرهم المقسط فإنه رب المراتب وهي آخر منازل الوجود، وما بقي من الأسماء فتحت طاعة هؤلاء الأسماء الأئمة الأرباب، وكان سبب توجّه هؤلاء الأسماء إلى الاسم الله في إيجاد العالم بقية الأسماء مع حقائقها أيضاً، على أن أئمة الأسماء من غير نظر إلى العالم إنما هي أربعة لا غير اسمه الحيّ والمتكلم والسميع والبصير، فإنه إذا سمع كلامه ورأى ذاته فقد كمل وجوده في ذاته من غير نظر إلى العالم، ونحن لا نريد من الأسماء إلاّ ما يقوم بها وجود العالم، فكثرت علينا الأسماء فعدلنا إلى أربابها فدخلنا عليهم في حضراتهم فما وجدنا غير هؤلاء الذين ذكرناهم وأبرزناهم على حسب ما شاهدناهم، فكان سبب توجّه أرباب الأسماء إلى الاسم الله في إيجاد أعياننا بقية الأسماء، فأول من قام لطلب هذا العالم الاسم المدبّر والمفصل عن سؤال الاسم الملك، فعندما توجّه على الشيء الذي عنه وجد المثال في نفس العالم من غير عدم متقدم، ولكن تقدم مرتبة لا تقدم وجود كتقدم طلوع الشمس على أول النهار وإن كان أول النهار مقارناً لطلوع الشمس، ولكن قد تبين أن العلة في وجود أول النهار طلوع الشمس وقد قارنه في الوجود فهكذا هو هذا الأمر، فلما دبر العالم وفصله هذان الاسمان من غير جهل متقدم به أو عدم علم وانتشأت صورة المثال في نفس العالم تعلق اسمه العالم إذ ذاك بذلك المثال، كما تعلق بالصورة التي أخذ منها وإن كانت غير مرئية لأنها غير موجودة كما سنذكره في باب مم وجد العالم. فأول أسماء العالم هذان الاسمان، والاسم المدبر هو الذي حقّق وقت الإيجاد المقدر فتعلق به المريد على حد ما أبرزه المدبر ودبره، وما عملا شيئاً من نشء هذا المثال إلاّ بمشاركة بقية الأسماء لكن من وراء حجاب هذين الاسمين ولهذا صحّت لهما الإمامة، والآخرون لا يشعرون بذلك حتى بدت صورة المثال فرأوا ما فيه من الحقائق المناسبة لهم تجذبهم للتعشّق بها فصار كل اسم يتعشق بحقيقته التي في المثال ولكن لا يقدر على التأثير فيها، إذ لا تعطى الحضرة التي تجلى فيها هذا المثال، فأدّاهم ذلك التعشّق والحب إلى الطلب والسعي والرغبة في إيجاد صورة عين ذلك المثال ليظهر سلطانهم ويصحّ على الحقيقة وجودهم، فلا شيء أعظم هماً من عزيز لا يجد عزيزاً يقهره حتى يذل تحت قهره فيصحّ سلطان عزّه، أو غني لا يجد من يفتقر إلى غناه، وهكذا جميع هذه الأسماء فلجأت إلى أربابها الأئمة السبعة التي ذكرناها ترغب إليها في إيجاد عين هذا المثال الذي شاهدوه في ذات العالم به وهو المعبر عنه بالعالم، وربما يقول القائل: يا أيها المحقق وكيف ترى الأسماء هذا المثال ولا يراه إلاّ الاسم البصير خاصة لا غيره، وكل اسم على حقيقة ليس الاسم الآخر عليها؟

قلنا له: لتعلم وفقك الله أن كل اسم إلٰهيّ يتضمن جميع الأسماء كلها، وأن كل اسم ينعت بجميع الأسماء في أفقه، فكل اسم فهو حيّ قادر سميع بصير متكلم في أفقه وفي

علمه، وإلاً فكيف يصحّ أن يكون رباً لعابده؟ هيهات هيهات، غير أن ثَمّ لطيفة لا يشعر بها وذلك أنك تعلم قطعاً في حبوب البرّ وأمثاله أن كل برة فيها من الحقائق ما في أختها، كما تعلم أيضاً أن هذه الحبة ليست عين هذه الحبة الأخرى، وإن كانتا تحويان على حقائق متماثلة فإنهما مثلان، فابحث عن هذه الحقيقة التي تجعلك تفرق بين هاتين الحبتين وتقول إن هذه ليست عين هذه، وهذا سار في جميع المتماثلات من حيث ما تماثلوا به، كذلك الأسماء كل اسم جامع لما جمعت الأسماء من الحقائق، ثم تعلم على القطع أن هذا الاسم ليس هو هذا الآخر بتلك اللطيفة التي بها فرّقت بين حبوب البرّ وكل متماثل، فابحث عن هذا المعنى حتى تعرفه بالذكر لا بالفكر، غير أني أريد أن أوقفك على حقيقة ما ذكرها أحد من المتقدمين وربما ما أطلع عليها فربما خصّصت بها، ولا أدري هل تعطى لغيري بعدي أم لا من الحضرة التي أعطيتها؟ فإن استقرأها أو فهمها من كتابي فأنا المعلم له، وأمّا المتقدمون فلم يجدوها وذلك أن كل اسم كما قررنا بجميع حقائق الأسماء ويحتوي عليها مع وجود اللطيفة التي وقع لك التمييز بها بين المثلين، وذلك أن الاسم المنعم والاسم المعذب اللذين هما الظاهر والباطن كل اسم من هذين الاسمين يتضمن ما تحويه سدنته من أولهم إلى آخرهم، غير أن أرباب الأسماء ومن سواهم من الأسماء على ثلاث مراتب: منها ما يلحق بدرجات أرباب الأسماء، ومنها ما ينفرد بدرجة فمنها ما ينفرد بدرجة المنعم وبدرجة المعذب، فهذه أسماء العالم محصورة والله المستعان، فلما لجأت الأسماء كلها إلى هؤلاء الأئمة ولجأت الأئمة إلى الاسم الله لجأ الاسم الله إلى الذات من حيث غناها عن الأسماء سائلاً في إسعاف ما سألته الأسماء فيه فأنعم المحسان الجواد بذلك وقال قل للأئمة يتعلقون بإبراز العالم على حسب ما تعطيه حقائقهم، فخرج إليهم الاسم الله وأخبرهم الخبر فانقلبوا مسرعين فرحين مبتهجين ولم يزالوا كذلك فنظروا إلى الحضرة التي أذكرها في الباب السادس من هذا الكتاب فأوجدوا العالم كما سنذكره فيما يأتي من الأبواب بعد هذا إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس

في معرفة أسرار بسم الله الرحمٰن الرحيم والفاتحة من وجه مّا لا من جميع الوجوه

[نظم: السريع]

بَسْمَلَةُ الأسماء ذو منظرين ... ما بين إبقاءٍ وإفناءِ عَين

إلاً بمن قالت لمن حين ما ... خافت على النمل من الحَطْمَتَيْن

فقال من أضحكه قولُها ... هل أَثَرٌ يُطلب من بعد عَين

يا نفسُ يا نفسُ استقيمي فقد ... عاينتِ من نملتنا القبضتَيْن

وهكذا في الحمد فاستَثْنِها ... إن شئتَ أن تنعمَ بالجنَّتَيْن

إحداهما من عَسْجَدٍ مشرقٍ ... جملتُها وأختُها من لُجَيْن

يا أمّ قرآنِ العُلى هل تَرَيْ من جهة الفُرقان للفِرْقتينْ
أنت لنا السبعُ المثاني التي خُصَّ بها سيِّدُنا دون مَيْنْ
فأنتِ مفتاحُ الهدى للنهى وخُصَّ من عاداك بالفِرْقَتينْ

لما أردنا أن نفتتح معرفة الوجود وابتداء العالم الذي هو عندنا المصحف الكبير الذي تلاه الحق علينا تلاوة حال كما أن القرآن تلاوة قول عندنا، فالعالم حروف مخطوطة مرقومة في رق الوجود المنشور، ولا تزال الكتابة فيه دائمة أبداً لا تنتهي، ولما افتتح الله تعالىٰ كتابه العزيز بفاتحة الكتاب، وهذا كتاب أعني العالم الذي نتكلم عليه، أردنا أن نفتتح بالكلام على أسرار الفاتحة وبسم الله فاتحة الفاتحة وهي آية أولى منها أو ملازمة لها، كالعلاوة على الخلاف المعلوم بين العلماء، فلا بدّ من الكلام على البسملة، وربما يقع الكلام على بعض آية من سورة البقرة آيتين أو ثلاث خاصة تبرّكاً بكلام الحق سبحانه ثم نسوق الأبواب إن شاء الله تعالىٰ.

فأقول: إنه لما قدمنا أن الأسماء الإلهية سبب وجود العالم وأنها المسلطة عليه والمؤثرة لذلك، كان بسم الله الرحمٰن الرحيم عندنا خبر ابتداء مضمر، وهو ابتداء العالم وظهوره، كأنه يقول ظهور العالم بسم الله الرحمٰن الرحيم أي باسم الله الرحمن الرحيم، ظهر العالم واختص الثلاثة الأسماء لأن الحقائق تعطي ذلك، فالله هو الاسم الجامع للأسماء كلها، والرحمن صفة عامة، فهو رحمن الدنيا والآخرة، بها رحم كل شيء من العالم في الدنيا، ولما كانت الرحمة في الآخرة لا تختص إلاً بقبضة السعادة فإنها تنفرد عن أختها، وكانت في الدنيا ممتزجة يولد كافراً ويموت مؤمناً، أي ينشأ كافراً في عالم الشهادة وبالعكس وتارة وتارة، وبعض العالم تميز بإحدى القبضتين بإخبار صادق، فجاء الاسم الرحيم مختصاً بالدار الآخرة لكل من آمن، وتمّ العالم بهذه الثلاثة الأسماء جملة في الاسم الله، وتفصيلاً في الاسمين الرحمن الرحيم، فتحقق ما ذكرناه، فإني أريد أن أدخل إلى ما في طيّ البسملة والفاتحة من بعض الأسرار كما شرطناه فلنبين ونقول:

بسم بالباء ظهر الوجود وبالنقطة تميز العابد من المعبود، قيل للشبلي رضي الله عنه: أنت الشبلي؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء، وهو قولنا النقطة للتميز، وهو وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية، وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله يقول: ما رأيت شيئاً إلاً رأيت الباء عليه مكتوبة، فالباء المصاحبة للموجودات من حضرة الحق في مقام الجمع والوجود أي بي قام كل شيء وظهر وهي من عالم الشهادة، هذه الباء بدل من همزة الوصل التي كانت في الاسم قبل دخول الباء واحتيج إليها إذ لا ينطق بساكن فجلبت الهمزة المعبر عنها بالقدرة محرّكة عبارة عن الوجود ليتوصل بها إلى النطق الذي هو الإيجاد من إبداع وخلق بالساكن الذي هو العدم، وهو أوان وجود المحدث بعد أن لم يكن وهو السين فدخل في الملك بالميم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فصارت الباء بدلاً من همزة الوصل أعني القدرة الأزلية، وصارت حركة الباء لحركة الهمزة الذي هو الإيجاد، ووقع الفرق بين

الباء والألف الواصلة، فإن الألف تعطي الذات والباء تعطي الصفة، ولذلك كانت لعين الإيجاد أحق من الألف بالنقطة التي تحتها وهي الموجودات، فصار في الباء الأنواع الثلاثة: شكل الباء والنقطة والحركة العوالم الثلاثة، فكما في العالم الوسط توهّم ما كذلك في نقطة الباء، فالباء ملكوتية والنقطة جبروتية والحركة شهادية ملكية، والألف المحذوفة التي هي بدل منها هي حقيقة القائم بالكل تعالىٰ، واحتجب رحمة منه بالنقطة التي تحت الباء، وعلى هذا الحد تأخذ كل مسألة في هذا الباب مستوفاة بطريق الإيجاز، فبسم، والم واحد، ثم وجدنا الألف من بسم قد ظهرت في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة العلق: الآية ١] و ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾ [سورة هود: الآية ٤١] بين الباء والسين ولم تظهر بين السين والميم، فلو لم تظهر في باسم السفينة ما جرت السفينة، ولو لم تظهر في اقرأ باسم ربك ما علم المثل حقيقته ولا رأى صورته، فتيقظ من سنة الغفلة وانتبه، فلما كثر استعمالها في أوائل السور حذفت لوجود المثل مقامه في الخطاب وهو الباء فصار المثل مرآة للسين فصار السين مثالاً، وعلى هذا الترتيب نظام التركيب، وإنما لم تظهر بين السين والميم وهو محل التغيير، وصفات الأفعال أن لو ظهرت لزال السين والميم إذ ليسوا بصفة لازمة للقديم مثل الباء فكان خفاؤه عنهم رحمة بهم إذ كان سبب بقاء وجودهم ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١] وهو الرسول، فهذه الباء والسين والميم العالم كله.

ثم عمل الباء في الميم الخفض من طريق الشبه بالحدوث، إذ الميم مقام الملك وهو العبودية وخفضتها الباء عرفتها بنفسها وأوقفتها على حقيقتها، فمهما وجدت الباء وجدت الميم في مقام الإسلام، فإن زالت الباء يوماً ما لسبب طارىء وهو ترقي الميم إلى مقام الإيمان فتح في عالم الجبروت بسبّح وأشباهه فأمر بتنزيه المحل لتجلي المثل فقيل له ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] الذي هو مغذيك بالموادّ الإلهية، فهو ربك بفتح الميم وجاءت الألف ظاهرة وزالت الباء لأن الأمر توجه عليها بالتسبيح ولا طاقة لها على ذلك، والباء محدثة مثلها والمحدث من باب الحقائق لا فعل له ولا بدّ لها من امتثال الأمر، فلا بدّ من ظهور الألف الذي هو الفاعل القديم، فلما ظهر فعلت القدرة في الميم التسبيح فسبح كما أمر، وقيل له الأعلى لأنه مع الباء في الأسفل وفي هذا المقام في الوسط، ولا يسبح المسبح مثله ولا من هو دونه فلا بد أن يكون المسبح أعلى، ولو كنّا في تفسير سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلى: الآية ١] لأظهرنا أسرارها فلا يزال في هذا المقام حتى يتنزّه في نفسه، فإن من ينزّهه منزّه فإنه منزّه عن تنزيهه، فلا بدّ من هذا التنزيه أن يعود على المنزّه ويكون هو الأعلى، فإن الحق من باب الحقيقة لا يصحّ عليه الأعلى، فإنه من أسماء الإضافة وضرب من وجوه المناسبة، فليس بأعلى ولا أسفل ولا أوسط، تنزّه عن ذلك وتعالىٰ علوّاً كبيراً، بل نسبة الأعلى والأوسط والأسفل إليه نسبة واحدة، فإذا تنزّه خرج عن حد الأمر وخرق حجاب السمع وحصل المقام الأعلى، فارتفع الميم بمشاهدة القديم، فحصل له الثناء التام بـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٨] فكما أن الاسم عين المسمّى كذلك العبد عين المولى من تواضع لله رفعه الله.

وفي الصحيح من الأخبار أن الحق يد العبد ورجله ولسانه وسمعه وبصره، لو لم يقبل الخفض من الباء في باسم ما حصل له الرفع في النهاية في تبارك اسم. ثم اعلم أن كل حرف من بسم مثلث على طبقات العوالم، فاسم الباء باء وألف وهمزة، واسم السين سين وياء ونون، واسم الميم ميم وياء وميم والياء مثل الباء وهي حقيقة العبد في باب النداء، فما أشرف هذا الموجود كيف انحصر في عابد ومعبود، فهذا شرف مطلق لا يقابله ضد، لأن ما سوى وجود الحق تعالىٰ ووجود العبد عدم محض لا عين له، ثم إنه سكن السين من بسم تحت ذلّ الافتقار والفاقة كسكوننا تحت طاعة الرسول لما قال: من يطع الرسول فقد أطاع الله فسكنت السين من بسم لتتلقى من الباء الحق اليقين، فلو تحركت قبل أن تسكن لاستبدّت بنفسها وخيف عليها من الدعوى وهي سين مقدسة فسكنت، فلما تلقت من الباء الحقيقة المطلوبة أعطيت الحركة فلم تتحرك في بعض المواطن إلاّ بعد ذهاب الباء، إذ كان كلام التلميذ بحضور الشيخ في أمر ما سوء أدب إلاّ أن يأمره فامتثال الأمر هو الأدب، فقال عند مفارقة الباء يخاطب أهل الدعوى تائهاً بما حصل له في المقام الأعلى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٦] ثم تحرك لمن أطاعه بالرحمة واللين فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٣] يريد حضرة الباء، فإن الجنة حضرة الرسول عليه السلام، وكثيب الرؤية حضرة الحق، فاصدق وسلم تكشف وتلحق، فهذه الحضرة هي التي تنقله إلى الألف المرادة، فكما أنه ينقلك الرسول إلى الله كذلك تنقلك حضرته التي هي الجنة إلى الكثيب الذي هو حضرة الحق. ثم اعلم أن التنوين في بسم لتحقيق العبودة وإشارات التبعيض، فلما ظهر منه التنوين اصطفاه الحق المبين بإضافة التشريف والتمكين فقال بسم الله فحذف التنوين العبديّ لإضافته إلى المنزل الإلهيّ، ولما كان تنوين تخلق لهذا صحّ له هذا التحقق وإلاّ فالسكون أولى به فاعلم. انتهى الجزء التاسع.

(الجزء العاشر)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصل: قوله (الله) من (بسم الله).

ينبغي لك أيها المسترشد أن تعرف أولاً ما تحصل في هذه الكلمة الكريمة من الحروف وحينئذ يقع الكلام عليها إن شاء الله وحروفها ا ل ل ا ه و. فأول ما أقول كلاماً مجملاً مرموزاً ثم نأخذ في تبيينه ليسهل قبوله على عالم التركيب، وذلك أن العبد تعلق بالألف تعلق من اضطرّ والتجأ فأظهرته اللام الأولى ظهوراً ورثه الفوز من العدم والنجاة، فلما صحّ ظهوره وانتشر في الوجود نوره وصحّ تعلّقه بالمسمّى وبطل تخلّقه بالأسماء أفنته اللام الثانية بشهود الألف التي بعدها فناء لم تبق منه باقية، وذلك عسى ينكشف له المعمي، ثم جاءت الواو بعد الهاء لتمكن المراد وبقيت الهاء لوجوده آخراً عند محو العباد من أجل العناد فذلك أوان الأجل المسمّى، وهذا هو المقام الذي تضمحل فيه أحوال السائرين وتنعدم فيه مقامات السالكين

حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل لا غير يثبت لظهوره ولا ظلام يبقى لنوره، فإن لم تكن تره اعرف حقيقة إن لم تكن تكن أنت، إذ كانت التاء من الحروف الزوائد في الأفعال المضارعة للذوات وهي العبودية، يقول بعض السادة وقد سمع عاطساً يقول الحمد لله فقال له ذلك السيد أتمّها كما قال الله رب العالمين، فقال العاطس: يا سيدنا ومن العالم حتى يذكر مع الله؟ فقال له: الآن قله يا أخي فإن المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، وهذا هو مقام الوصلة وحال وله أهل الفناء عن أنفسهم، وأما لو فني عن فنائه لما قال الحمد لله لأن في قوله الحمد أثبت العبد الذي هو المعبر عنه بالرداء عند بعضهم وبالثوب عند آخرين، ولو قال رب العالمين لكان أرفع من المقام الذي كان فيه فذلك مقام الوارثين ولا مقام أعلى منه لأنه شهود لا يتحرك معه لسان ولا يضطرب معه جنان، أهل هذا المقام في أحوالهم فاغرة أفواههم استولت عليهم أنوار الذات وبدت عليهم رسوم الصفات، هم عرائس الله المخبأون عنده المحجوبون لديه الذين لا يعرفهم سواه كما لا يعرفون سواه، توجهم بتاج البهاء وإكليل السناء، وأقعدهم على منابر الفناء عن القرب في بساط الإنس ومناجاة الديمومية بلسان القيومية، أورثهم ذلك قوله على صلاتهم دائمون وبشهادتهم قائمون، فلم تزل القوّة الإلهية تمدّهم بالمشاهدة فيبرزون بالصفات في موضع القدمين، فلا وله إلاً من حيث الاقتداء، ولا ذكر إلاً إقامة سنة أو فرض، لا يحيدون عن سواء السبيل فهم بالحق، وإن خاطبوا الخلق وعاشروهم فليسوا معهم، وإن رأوهم لم يروهم إذ لا يرون منهم إلاً كونهم من جملة أفعال الله، فهم يشاهدون الصنعة والصانع مقاماً عمرياً، كما يقعد أحدكم مع نجار يصنع تابوتاً فيشاهد الصنعة والصانع ولا تحجبه الصنعة عن الصانع إلاً إن شغل قلبه حسن الصنعة، فإن الدنيا كما قال عليه السلام حلوة خضرة وهي من خضراء الدمن جارية حسناء في منبت سوء من أحسن إليها وأحبها أساءت إليه وحرمت عليه أخراه ولقد أحسن القائل: [الطويل]

إذا امْتَحَنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ ... له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

فهذه الطائفة الأمناء الصديقون إذا أيّدهم الله بالقوّة الإلهية وأمدّهم فهم معه بهذه النسبة على وجه المثال، وهذا أعلى مقام يرقى فيه، وأشرف غاية ينتهي إليها هذه الغاية القصوى، إذ لا غاية إلاً من حيث التوحيد لا من حيث الموارد والواردات، وهو المستوى إذ لا استواء إلاً الرفيق الأعلى، فهنيئاً لهذه العصابة بما نالوه من حقائق المشاهدة، وهنيئاً لنا على التصديق والتسليم لهم بالموافقة والمساعدة، مرّ بنا جواد اللسان في حلبة الكلام، فلنرجع إلى ما كنا بسبيله والسلام. فأقول: همزة هذا الاسم المحذوفة بالإضافة تحقيق اتصال الوحدانية وتمحيق انفصال الغيرة، فالألف واللام الملصقة كما تقدم لتحقيق المتصل ومحق المنفصل والألف الموجودة في اللام الثانية لمحو آثار الغير المتحصل والواو التي بعد الهاء ليس لها في الخط أثر، ومعناها في الوجود بهاء الهوية قد انتشر أبداها في عالم الملك بذاتها فقال: هو الله الذي لا إله إلاً هو، فبدأ بالهوية وختم، وملكها الأمر في الوجود والعدم، وجعلها دالة على الحدوث والقدم، وهو آخر ذكر الذاكرين وأعلاه، فرجع العجز على الصدر فلاحت ليلة

القدر، ووقف بوجودها أهل العناية والتأييد على حقائق التوحيد، فالوجود في نقطة دائرة هذا الاسم ساكن، وقد اشتمل عليه بحقيقته اشتمال الأماكن على المتمكن الساكن ولله المثل الأعلى: [الكامل]

والله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤] أحاط بكل شيء علماً، وصيّر الكل اسماً ومسمّى، وأرسله مكشوفاً ومعمى.

حل المقفل وتفصيل المجمل:

يقول العبد: الله؛ فيثبت أولاً وآخراً، وينفى باللامين باطناً وظاهراً، لزمت اللام الثانية الهاء بوساطة الألف العلمية ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] الثلاثة اللام ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فالألف سادس في حق الهاء رابع في حق اللام ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٥] العرش ظلّ الله العرش اللام الثانية وما حواه اللام الأولى بطريق الملك، واللامان هما الظاهر والباطن من باب الأسماء ظهرتا بين ألف الأول وألف الآخر وهو مقام الاتصال لأن النهاية تنعطف على البداية وتتصل بها اتصال اتحاد، ثم خرجت الهاء بواوها الباطنة مخرج الانفصال، والجزء المتصل بين اللام والهاء هو السرّ الذي به تقع المشاهدة بين العبد والسيد وذلك مركز الألف العلمية وهو مقام الاضمحلال، ثم جعل تعالىٰ في الخط المتصل جزءاً بين اللامين للاتصال بين اللام الأولى التي هي عالم الملك وبين اللام الثانية التي هي عالم الملكوت، وهو مركز العالم الأوسط عالم الجبروت مقام النفس، ولا بدّ من خطوط فارغة بين كل حرفين، فتلك مقامات فناء رسوم السالكين من حضرة إلى حضرة.

تتميم: الألف الأولى التي هي ألف الهمزة منقطعة واللام الثانية ألفها متصل بها قطعت الألف في أوائل الخطوط لقوله عليه السلام: **«كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيءَ مَعَهُ»** فلهذا قطعت وتنزّه من الحروف من أشبهها في عدم الاتصال بما بعدها، والحروف التي أشبهتها على عدد الحقائق العامة العالية التي هي الأمهات، وكذلك إذا كانت آخر الحروف تقطع الاتصال من البعدية الرقمية فكان انقطاع الألف تنبيهاً لما ذكرناه، وكذلك إخوته فالألف للحق وأشباه الألف للخلق وذلك د ذ ر ز وفي جميع الحقائق جسم متغذ حساس ناطق وما عداه ممن له لغة، وانحصرت حقائق العالم الكلية، فلما أراد وجود اللام الثانية وهي أول موجود في المعنى وإن تأخرت في الخط فإن معرفة الجسم تتقدم على معرفة الروح شاهداً، وكذلك الخط شاهداً، وهي عالم الملكوت أوجدها بقدرته، وهي الهمزة التي في الاسم إذا ابتدأت به معرى من الإضافة وهي لا تفارق الألف، فلما أوجدت هذه الألف اللام الثانية جعلها رئيسة فطلبت مرؤوساً تكون عليه بالطبع، فأوجد لها عالم الشهادة الذي هو اللام الأولى، فلما نظرت إليه أشرق وأنار ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٩] وهو الجزء الذي بين اللامين أمر سبحانه اللام الثانية أن تمدّ الأولى بما أمدّها به تعالىٰ من جود ذاته، وأن تكون

دليلها إليه، فطلبت منه معنى تصرفه في جميع أمورها يكون لها كالوزير فتلقي إليه ما تريده فيلقيه على عالم اللام الأولى، فأوجد لها الجزء المتصل باللامين المعبر عنه بالكتاب الأوسط وهو العالم الجبروتي، وليست له ذات قائمة مثل اللامين فإنه بمنزلة عالم الخيال عندنا، فألقت اللام الثانية إلى ذلك الجزء وارتقم فيه ما أريد منها ووجهت به إلى اللام الأولى فامتثلت الطاعة حتى قالت بلى، فلما رأت اللام الأولى الأمر قد أتاها من قبل اللام الثانية بوساطة الجزء الذي هو الشرع صارت مشاهدة لما يرد عليها من ذلك الجزء راغبة له في أن يوصلها إلى صاحب الأمر لتشاهده، فلما صرفت الهمة إلى ذلك الجزء واشتغلت بمشاهدته احتجبت عن الألف التي تقدمتها ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾ [سورة الحديد: الآية ١٣] ولو لم تصرف الهمة إلى ذلك الجزء لتلقت الأمر من الألف الأولى بلا واسطة ولكن لا يمكن لسر عظيم فإنها ألف الذات والثانية ألف العلم.

إشارة: ألا ترى أن اللام الثانية لما كانت مرادة مجتباة منزّهة عن الوسائط كيف اتصلت بألف الوحدانية اتصالاً شافياً حتى صار وجودها نطقاً يدل على الألف دلالة صحيحة؟ وإن كانت الذات خفيت فإن لفظك باللام يحقق الاتصال، ويدلك عليها من عرف نفسه عرف ربه من عرف اللام الثانية عرف الألف، فجعل نفسك دليلاً عليك، ثم جعل كونك دليلاً عليك دليلاً عليه في حق من بعد، وقدم معرفة العبد بنفسه على معرفته بربه، ثم بعد ذلك يفنيه عن معرفته بنفسه لما كان المراد منه أن يعرف ربه، ألا ترى تعانق اللام الألف وكيف يوجد اللام في النطق قبل الألف، وفي هذا تنبيه لمن أدرك فهذه اللام الملكوتية تتلقى من ألف الوحدانية بغير واسطة فتورده على الجزء الجبروتي ليؤدّيه إلى لام الشهادة والملك هكذا الأمر ما دام التركيب والحجاب، فلما حصلت الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية أراد تعالىٰ، كما قدم الألف منزّهة عن الاتصال من كل الوجوه بالحروف أراد أن يجعل الانتهاء نظير الابتداء، فلا يصحّ بقاء للعبد أولاً وآخراً، فأوجد الهاء مفردة بواو هويتها، فإنْ توهم متوهم أن الهاء ملصقة إلى اللام فليست كذلك وإنما هي بعد الألف التي بعد اللام، والألف لا يتصل بها في البعدية شيء من الحروف، فالهاء بعد اللام مقطوعة عن كل شيء، فذلك الاتصال باللام في الخط ليس باتصال فالهاء واحدة والألف واحدة، فاضرب الواحد في مثله يكن واحداً فصحّ انفصال الخلق عن الحق فبقي الحق، وإذا صحّ تخلق اللام الملكية لما توررده عليها لام الملكوت، فلا تزال تضمحل عن صفاتها وتفنى عن رسومها إلى أن تحصل في مقام الفناء عن نفسها، فإذا فنيت عن ذاتها فني الجزء لفنائها، واتّحدت اللامان لفظاً ينطق بها اللسان مشدّدة للإدغام الذي حدث فصارت موجودة بين ألفين اشتملا عليها وأحاطا بها فأعطتنا الحكمة الموهوبة لما سمعنا لفظ الناطق بلا بين ألفين علمنا علم الضرورة أن المحدث فني بظهور القديم فبقي ألفان أولى وأخرى، وزال الظاهر والباطن بزوال اللامين بكلمة النفي، فضربنا الألف في الألف ضَرب الواحد في الواحد فخرجت لك الهاء، فلما ظهرت زال حكم الأول والآخر الذي جعلته الواسطة كما زال حكم الظاهر والباطن، فقيل عند ذلك: كان الله ولا شيء معه. ثم

أصل هذا الضمير الذي هو الهاء الرفع ولا بدّ، فإن انفتح أو انخفض فتلك صفة تعود على من فتحه أو خفضه فهي عائدة على العامل الذي قبل في اللفظ.

تكملة: ثم أوجد سبحانه الحركات والحروف والمخارج تنبيهاً منه سبحانه وتعالىٰ أن الذوات تتميز بالصفات والمقامات، فجعل الحركات نظير الصفات، وجعل الحروف نظير الموصوف، وجعل المخارج نظير المقامات والمعارج، فأعطى لهذا الاسم من الحروف على عموم وجوهه من وصل وقطع ء ا ل ه و همزة وألفاً ولاماً وهاء وواواً، فالهمزة أولاً والهاء آخراً ومخرجهما واحد مما يلي القلب، ثم جعل بين الهمزة والهاء حرف اللام ومخرجه اللسان ترجمان القلب، فوقعت النسبة بين اللامين والهمزة والهاء كما وقعت النسبة بين القلب الذي هو محل الكلام وبين اللسان المترجم عنه. قال الأخطل: [الكامل]

إن الـكـلام لَـفـي الـفـؤادِ وإنـمـا جُـعِـلَ الـلـسـانُ عـلـى الـفـؤاد دلـيـلا

فلما كانت اللام من اللسان جعلها تنظر إليه لا إلى نفسها فأفناها عنها وهي الحنك الأسفل، فلما نظرت إليه لا إلى ذاتها علت وارتفعت إلى الحنك الأعلى واشتدّ اللسان بها في الحنك اشتداد التمكّن علوها وارتفاعها بمشاهدته، وخرجت الواو من الشفتين إلى الوجود الظاهر مخبرة دالة عليه، وذلك مقام باطن النبوّة وهي الشعرة التي فينا من الرسول ﷺ وفي ذلك يكون الورث، فخرج من هذا الوصل أن الهمزة والألف والهاء من عالم الملكوت واللام من عالم الجبروت والواو من عالم الملك.

وصل: قوله ﴿الرحمٰن﴾ من البسملة.

الكلام على هذا الاسم في هذا الباب من وجهين: من وجه الذات ومن وجه الصفة، فمن أعربه بدلاً جعله ذاتاً، ومن أعربه نعتاً جعله صفة، والصفات ست، ومن شرط هذه الصفات الحياة فظهرت السبعة، وجميع هذه الصفات للذات وهي الألف الموجودة بين الميم والنون من الرحمن، ويتركب الكلام على هذا الاسم من الخبر الثابت عن النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» من حيث إعادة الضمير على الله، ويؤيّد هذا النظر الرواية الأخرى وهي قوله عليه السلام: «**عَلَىٰ صُورَةِ الرَّحْمٰنِ**» وهذه الرواية وإن لم تصحّ من طريق أهل النقل فهي صحيحة من طريق الكشف فأقول: إن الألف واللام والراء للعلم، والإرادة والقدرة والحاء والميم والنون مدلول الكلام والسمع والبصر، وصفة الشرط التي هي الحياة مستصحبة لجميع هذه الصفات، ثم الألف التي بين الميم والنون مدلول الموصوف، وإنما حذفت خطاً لدلالة الصفات عليها دلالة ضرورية من حيث قيام الصفة بالموصوف، فتجلت للعالم الصفات، ولذلك لم يعرفوا من الإلٰه غيرها ولا يعرفونها. ثم الذي يدل على وجود الألف ولا بدّ ما ذكرناه وزيادة وهي إشباع فتحة الميم وذلك إشارة إلٰهية إلى بسط الرحمة على العالم، فلا يكون أبداً ما قبل الألف إلاّ مفتوحاً، فتدل الفتحة على الألف في مثل هذا الموطن وهو محل وجود الروح الذي له مقام البسط لمحل التجلي، ولهذا ذكر أهل عالم التركيب في وضع الخطوط في حروف العلة الياء المكسور ما قبلها، إذ قد توجد الياء الصحيحة ولا كسر قبلها،

وكذلك الواو المضموم ما قبلها، ولما ذكروا الألف لم يقولوا المفتوح ما قبلها إذ لا توجد إلاَّ والفتح في الحرف الذي قبلها بخلاف الواو والياء فالاعتدال للألف لازم أبداً، فالجاهل إذا لم يعلم في الوجود منزّهاً عن جميع النقائص إلاَّ الله تعالىٰ نسي الروح القدسي الأعلى. فقال: ما في الوجود إلاَّ الله، فلما سُئل في التفصيل لم يوجد لديه تحصيل، وإنما خصّصوا الواو بالمضموم ما قبلها والياء بالمكسور ما قبلها لما ذكرناه، فصحّت المفارقة بين الألف وبين الواو والياء، فالألف للذات والواو العلية للصفات والياء العلية للأفعال، الألف للروح والعقل صفته وهو الفتحة، والواو النفس والقبض صفتها وهو الضمة والياء الجسم ووجود الفعل صفته وهو الخفض، فإن انفتح ما قبل الواو والياء فذلك راجع إلى حال المخاطب، ولما كانتا غيراً ولا بدّ اختلفت عليهما الصفات، ولما كانت الألف لا تقبل الحركات اتحدت بمدلولها فلم يختلف عليها شيء البتة وسمّيت حروف العلة لما نذكره، فألف الذات علة لوجود الصفة، وواو الصفة علة لوجود الفعل، وياء الفعل علة لوجود ما يصدر عنه في عالم الشهادة من حركة وسكون فلهذا سمّيت عللاً، ثم أوجد النون من هذا الاسم نصف دائرة في الشكل، والنصف الآخر محصور معقول في النقطة التي تدل على النون الغيبية الذي هو نصف الدائرة، ويحسب الناس النقطة أنها دليل على النون المحسوسة، ثم أوجد مقدم الحاء مما يلي الألف المحذوفة في الرقم إشارة إلى مشاهدتها ولذلك سكنت ولو كان مقدمها إلى الراء لتحركت، فالألف الأولى للعلم واللام للإرادة والراء للقدرة وهي صفة الإيجاد، فوجدنا الألف لها الحركة من كونها همزة والراء لها الحركة واللام ساكنة، فاتحدت الإرادة بالقدرة كما اتحد العلم، والإرادة بالقدرة إذا وصلت الرحمن بالله فأدغمت لام الإرادة في راء القدرة بعدما قلبت راء وشدّت لتحقيق الإيجاد الذي هو الحاء وجود الكلمة ساكنة وإنما سكنت لأنها لا تنقسم والحركة منقسمة، فلما كانت الحاء ساكنة سكوناً حسياً ورأيناها مجاورة الراء راء القدرة عرفنا أنها الكلمة وتثمينها.

تنبيه: أشار من أعربه بدلاً من قوله (الله) إلى مقام الجمع واتحاد الصفات وهو مقام من روى خلق آدم على صورته، وذلك وجود العبد في مقام الحق حد الخلافة، والخلافة تستدعي الملك بالضرورة، والملك ينقسم قسمين: قسم راجع لذاته وقسم راجع لغيره، والواحد من الأقسام يصلح في هذا المقام على حد ما رتبناه، فإن البدل في الموضع يحل محل المبدل منه مثل قولنا: جاءني أخوك زيد، فزيد بدل من أخيك بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة فإن زيداً هو أخوك وأخاك هو زيد بلا شك، وهذا مقام من اعتقد خلافه فما وقف على حقيقة ولا وحد قط موجده. وأما من أعربه نعتاً فإنه أشار إلى مقام التفرقة في الصفة وهو مقام من روى خلق آدم على صورة الرحمٰن وهذا مقام الوراثة، ولا تقع إلاَّ بين غيرين مقام الحجاب بمغيب الواحد وظهور الثاني وهو المعبر عنه بالمثل وفيما قررنا دليل على ما أضمرنا فافهم.

ثم أظهر من النون الشطر الأسفل وهو الشطر الظاهر لنا من الفلك الدائر من نصف

الدائرة ومركز العالم في الوسط من الخط الذي يمتد من طرف الشطر إلى الطرف الثاني، والشطر الثاني المستور في النقطة هو الشطر الغائب عنا من تحت نقيض الخط بالإضافة إلينا إذ كانت رؤيتنا من حيث الفعل في جهة، فالشطر الموجود في الخط هو المشرق والشطر المجموع في النقطة هو المغرب وهو مطلع وجود الأسرار، فالمشرق وهو الظاهر المركب ينقسم والمغرب وهو الباطن البسيط لا ينقسم، وفيه أقول: [المتدارك]

عـجـبـاً لـلـظـاهـر يـنـقَـسِـمُ ... ولـبـاطـنـه لا يـنـقـسِـمُ
فـالـظـاهـر شـمـسٌ فـي حَـمَـلِ ... والـبـاطـنُ فـي أسـدٍ جَـلِـمُ
حـقـقْ وانـظـرْ مـعـنـى سـتَـرَتْ ... مـن تـحـتِ كـنـائـفـهـا الـظُّـلَـمُ
إن كـان خَـفِـي هـو ذاك بـدا ... عـجـبـاً والله هـمـا الـقَـسَـمُ
فـافـزعْ لـلـشـمـس ودَعْ قـمـراً ... فـي الـوَتْـر يـلـوحُ ويـنـعَـدِمُ
واخـلَـعْ نـعـلَـيْ قـدَمَـيْ كُـونِـي ... عـلـمـي شَـفْـعٌ يـكـنِ الـكَـلِـم

ولذلك يتعلق العلم بالمعلومات، والإرادة الواحدة بالمرادات، والقدرة الواحدة بالمقدورات، فتقع القسمة والتعداد في المقدورات والمعلومات والمرادات وهو الشطر الموجود في الرقم، ويقع الاتحاد والتنزّه عن الأوصاف الباطنية من علم وقدرة وإرادة وفي هذا إشارة فافهم. ولما كانت الحاء ثمانية وهو وجود كمال الذات ولذلك عبرنا عنه بالكلمة والروح، فكذلك النون خامسة في العشرات إذ يتقدمها الميم الذي هو رابع، فالنون جسماني محل إيجاد موادّ الروح والعقل والنفس ووجود الفعل وهذا كله مستودع في النون وهي كلية الإنسان الظاهرة ولهذا ظهرت.

تتمة: وإنما فصل بين الميم والنون بالألف (مان) إذ الميم ملكوتية لما جعلناها للروح والنون ملكية والنقطة جبروتية لوجود سر سلب الدعوى كأنه يقول: أي يا روح الذي هو الميم لم نصطفك من حيث أنت لكن عناية سبقت لك في وجود علمي ولو شئت لاطلعت على نقطة العقل ونون الإنسانية دون واسطة وجودك، فاعرف نفسك واعلم أن هذا اختصاص بك مني من حيث أنا لا من حيث أنت فصحت الاصطفائية فلا تجلي لغيره أبداً، فالحمد لله على ما أولى. فتنبّه يا مسكين في وجود الميم دائرة على صورة الجسم مع التقدم كيف أشار به إلى التنزّه عن الانقسام وانقسام الدائرة لا يتناهى، فانقسام روح الميم بمعلوماته لا يتناهى وهو في ذاته لا ينقسم، ثم انظر الميم إذا انفصل وحده كيف ظهرت منه مادة التعريق لما نزل إلى وجود الفعل في عالم الخطاب والتكليف فصارت المادة في حق الغير لا في حق نفسه، إذ الدائرة تدل عليه خاصة فما زاد فليس في حقّه إذ قد ثبتت ذاته فلم يبق إلاً أن يكون في حق غيره، فلما نظر العبد إلى المادّة مدّ تعريقاً وهذا هو وجود التحقيق. ثم اعلَم أن الجزء المتصل بين الميم والنون هو مركز ألف الذات وخفيت الألف ليقع الاتصال بين الميم والنون بطريق المادّة وهو الجزء المتصل، ولو ظهرت الألف لما صحّ التعريق للميم لأن الألف حالت بينهما، وفي هذا تنبيه على قوله ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة النبأ: الآية

٣٧] وجود الألف المرادة هذا على من أعربه مبتدأ، ولا يصح من طريق التركيب، والصحيح أن يعرب بدلاً من الرب فتبقى الألف هنا عبارة عن الروح والحق قائم بالجميع والميم السموات والنون الأرض، وإذا ظهرت الألف بين الميم والنون فإن الاتصال بالميم لا بالنون فلا تأخذ النون صفة أبداً من غير واسطة لقطعها، ودلّ اتصالها بالميم على الأخذ بلا واسطة، والعدم الذي صحَّ به القطع فيه يفني النون ويبقي الميم محجوباً عن سرّ قدمه بالنقطة التي في وسطه التي هي جوف دائرته بالنظر إلى ذاته بعد أن لم تكن فيما ظهر له.

سؤال وجوابه: قيل: فكيف عرفت سرّ قدمه ولم يعرفه هو وهو أحق بمعرفة نفسه منك إن نظرت إلى ظاهرك، أو هل العالم بسرّ القدم فيه هو المعنى الموجود فيك المتكلم فيه وهو ميم الروح فقد وقف على سرّ قدمه؟ الجواب عن ذلك أن الذي علم منا سرّ القدم هو الذي حجبناه هناك فمن الوجه الذي أثبتنا له العلم غير الوجه الذي أثبتنا له منه عدم العلم، ونقول: إنما حصل له ذلك علماً لا عيناً وهذا موجود، فليس من شرط من عَلِم شيئاً أن يراه والرؤية للمعلوم أتم من العلم به من وجه وأوضح في المعرفة به، فكل عين علم وليس كل علم عيناً إذ ليس من شرط من علم أن ثم مكة رآها وإذا رآها قطعنا أنه يعلمها ولا أريد الاسم فللعين درجة على العلم معلومة كما قيل: [الوافر]

ولـكـنْ لـلـعـيـانِ لـطـيـفُ مـعـنًـى ... لـذا سـأل الـمـعـايـنـةَ الـكـلـيـمُ

بل أقول: إن حقيقة سرّ القدم الذي هو حق اليقين لأنه لا يعاين فلم يشاهده لرجوعه لذات موجده ولو علم ذات موجده لكان نقصاً في حقّه، فغاية كماله في معرفة نفسه بوجودها بعد أن لم تكن عيناً، هذا فصل عجيب إن تدبرته وقفت على عجائب فافهم.

تكملة: اتصلت اللام بالراء اتصال اتحاد نطقاً من حيث كونهما صفتين باطنتين فسهل عليهما الاتحاد ووجدت الحاء التي هي الكلمة المعبر عنها بالمقدور للراء منفصلة عن الراء التي هي القدرة ليتميز المقدور من القدرة، ولئلاً تتوهم الحاء المقدورة أنها صفة ذات القدرة فوقع الفرق بين القديم والمحدث فافهم يرحمك الله. ثم لتعلم أن رحمن هو الاسم وهو للذات والألف واللام اللذان للتعريف هما الصفات ولذلك يقال رحمان مع زوالهما كما يقال ذات ولا تسمّى صفة معهما، انظر في اسم مسيلمة الكذاب تسمّى برحمان ولم يهد إلى الألف واللام لأن الذات محل الدعوى عند كل أحد وبالصفات يفتضح المدعي، فرحمان مقام الجمع وهو مقام الجهل أشرف ما يرتقى إليه في طريق الله الجهل به تعالىٰ ومعرفته الجهل به فإنها حقيقة العبودية قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٧] فجردك ومما يؤيّد هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢١] فبحقيقة الاستخلاف سلب مسيلمة وإبليس والدجال وكان من حالهم ما علم، فلو استحقوه ذاتاً ما سلبوه البتة، ولكن إن نظرت بعين التنقيذ والقبول الكلي لا بعين الأمر وجدت المخالف طائعاً والمعوج مستقيماً والكل داخل في الرق شاؤوا أم أبوا، فأما إبليس ومسيلمة فصرّحا بالعبودية والدجال أبى، فتأمل

من أين تكلم كل واحد منهم، وما الحقائق التي لاحت لهم حتى أوجبت لهم هذه الأحوال.

تتمة: لما نطقنا بقوله: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ لم يظهر للألف واللام وجود فصار الاتصال من الذات للذات، والله والرحمن اسمان للذات فرجع على نفسه بنفسه ولهذا قال ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» لما انتهى إلى الذات لم ير غيراً وقد قال أعوذ بك ولا بدّ من مستعاذ منه فكشف له عنه فقال منك ومنك هو، والدليل عليه أعوذ ولا يصحّ أن يفصل فإنه في الذات ولا يجوز التفصيل فيها، فتبين من هذا أن كلمة الله هي العبد فكما أن لفظة الله للذات دليل كذلك العبد الجامع الكلي، فالعبد هو كلمة الجلالة، قال بعض المحققين: في حال ما أنا الله، وقالها أيضاً بعض الصوفية من مقامين مختلين، وشتان بين مقام المعنى ومقام الحرف الذي وجد له، فقابل تعالىٰ الحرف بالحرف أعوذ برضاك من سخطك، وقابل المعنى بالمعنى وأعوذ بك منك وهذا غاية المعرفة.

خاتمة: ولعلك تفرق بين الله وبين الرحمن لما تعرض لك في القرآن قوله تعالىٰ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٢] ولم يقولوا وما الله ولما ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] ولهذا كان النعت أولى من البدل عند قوم وعند آخرين البدل أولى لقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فجعلها للذات، ولم تنكر العرب كلمة الله فإنهم القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فعلموه، ولما كان الرحمن يعطي الاشتقاق من الرحمة وهي صفة موجودة فيهم خافوا أن يكون المعبود الذي يدلهم عليه من جنسهم فأنكروا وقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٠] لما لم يكن من شرط كل كلام أن يفهم معناه ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] لما كان اللفظان راجعين إلى ذات واحدة وذلك حقيقة العبد والباري منزّه عن إدراك التوهّم والعلم المحيط به جلّ عن ذلك.

وصل: في قوله ﴿الرحيم﴾ من البسملة.

الرحيم صفة محمد ﷺ قال تعالىٰ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] وبه كمال الوجود، وبالرحيم تمت البسملة وبتمامها تمّ العالم خلقاً وإبداعاً، وكان عليه السلام مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفساً متى كنت نبياً قال وآدم بين الماء والطين فبه بدىء الوجود باطناً وبه ختم المقام ظاهراً في عالم التخطيط فقال: لا رسول بعدي ولا نبي. فالرحيم هو محمد ﷺ، وبسم هو أبونا آدم، وأعني في مقام ابتداء الأمر ونهايته، وذلك أن آدم عليه السلام هو حامل الأسماء قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] ومحمد ﷺ حامل معاني تلك الأسماء التي حملها آدم عليهما السلام وهي الكلم، قال ﷺ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ**» ومن أثنى على نفسه أمكن وأتمّ ممّن أثنى عليه كيحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، ومن حصلَ له الذات فالأسماء تحت حكمه، وليس من حصل الأسماء أن يكون المسمّى محصلاً عنده، وبهذا فضلت الصحابة علينا فإنهم حصلوا الذات وحصلنا الاسم، ولما راعينا الاسم مراعاتهم الذات ضوعف لنا الأجر، ولحسرة الغيبة التي لم تكن لهم فكان

تضعيف على تضعيف، فنحن الإخوان وهم الأصحاب وهو ﷺ إلينا بالأشواق، وما أفرحه بلقاء واحد منّا، وكيف لا يفرح وقد ورد عليه من كان بالأشواق إليه فهل تقاس كرامته به وبرّه وتحفيه، وللعامل منّا أجر خمسين ممّن يعمل بعمل أصحابه لا من أعيانهم لكن من أمثالهم فذلك قوله: بل منكم فجدوا واجتهدوا حتى يعرفوا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً لو أدركوه ما سبقوهم إليه، ومن هنا تقع المجازاة والله المستعان.

تنبيه: ثم لتعلم أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أربعة ألفاظ لها أربعة معان فتلك ثمانية وهم حملة العرش المحيط وهم من العرش وهنا هم الحملة من وجه والعرش من وجه، فانظر واستخرج من ذاتك لذاتك.

تنبيه: ثم وجدنا ميم (بسم) الذي هو آدم عليه السلام معرقاً، ووجدنا ميم (الرحيم) معرقاً الذي هو محمد ﷺ تسليماً فعلمنا أن مادّة ميم آدم عليه السلام لوجود عالم التركيب إذ لم يكن مبعوثاً، وعلمنا أن مادّة ميم محمد ﷺ لوجود الخطاب عموماً كما كان آدم عندنا عموماً فلهذا امتدا.

إنباه: قال سيدنا الذي لا ينطق عن الهوى: «**إِنْ صَلُحَتْ أُمَّتِي فَلَهَا يَوْمٌ وَإِنْ فَسَدَتْ فَلَهَا نِصْفُ يَوْمٍ**» واليوم رباني فإن أيام الرب كل يوم من ألف سنة ممّا نعد بخلاف أيام الله وأيام ذي المعارج فإن هذه الأيام أكبر فلكاً من أيام الرب، وسيأتي إن شاء الله ذكرها في داخل الكتاب في معرفة الأزمان وصلاح الأمّة بنظرها إليه ﷺ وفسادها بإعراضها عنه، فوجدنا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يتضمن ألف معنى كل معنى لا يحصل إلاّ بعد انقضاء حول، ولا بدّ من حصول هذه المعاني التي تضمنها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لأنه ما ظهر إلاّ ليعطي معناه، فلا بدّ من كمال ألف سنة لهذه الأمة وهي في أول دورة الميزان ومدتها ستة آلاف سنة روحانية محققة، ولهذا ظهر فيها من العلوم الإلٰهية ما لم يظهر في غيرها من الأمم، فإن الدورة التي انقضت كانت ترابية فغاية علمهم بالطبائع والإلٰهيون فيهم غرباء قليلون جداً يكاد لا يظهر لهم عين، ثم إن المتألّه منهم ممتزج بالطبيعة ولا بدّ والمتألّه منّا صرف خالص لا سبيل لحكم الطبع عليه.

مفتاح: ثم وجدنا في (الله)وفي (الرحمٰن) ألفين ألف الذات وألف العلم، ألف الذات خفية وألف العلم ظاهرة لتجلي الصفة على العالم، ثم أيضاً خفيت في (الله) ولم تظهر لرفع الالتباس في الخط بين (الله) و(اللاه)، ووجدنا في (بسم) الذي هو آدم عليه السلام ألفاً واحدة خفيت لظهور الباء، ووجدنا في (الرحيم) الذي هو محمد ﷺ ألفاً واحدة ظاهرة وهي ألف العلم، ونفس سيدنا محمد ﷺ الذات فخفيت في آدم عليه السلام الألف لأنه لم يكن مرسلاً إلى أحد فلم يحتج إلى ظهور الصفة، وظهرت في سيدنا محمد ﷺ لكونه مرسلاً فطلب التأييد فأعطي الألف فظهر بها، ثم وجدنا الباء من (بسم) قد عملت في ميم الرحيم فكان عمل آدم في محمد ﷺ وجود التركيب، وفي (الله) عمل سبب داع، وفي (الرحمن) عمل بسبب مدعوّ، ولما رأينا أن النهاية أشرف من البداية قلنا من عرف نفسه عرف ربّه، والاسم

سلم إلى المسمّى، ولما علمنا أن روح (الرحيم) عمل في روح (بسم) لكونه نبياً وآدم بين الماء والطين ولولاهما ما كان سمّي آدم علمنا أن (بسم) هو (الرحيم) إذ لا يعمل شيء إلاَّ من نفسه لا من غيره، فانعدمت النهاية والبداية والشرك والتوحيد وظهر عزّ الاتحاد سلطانه، فمحمد للجمع وآدم للتفريق.

إيضاح: الدليل على أن الألف في قوله الرحيم ألف العلم قوله: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] وفي ألف باسم: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فالألف الألف ولا أدنى من ذلك باطن التوحيد ولا أكثر يريد ظاهره، ثم خفيت الألف في آدم من باسم لأنه أول موجود ولم يكن له منازع يدعي مقامه، فدل بذاته من أول وهلة على وجود موجده لما كان مفتتح وجودنا وذلك لما نظر في وجوده تعرض له أمران: هل أوجده موجود لا أول له؟ أو هل أوجد هو نفسه؟ ومحال أن يوجد هو نفسه لأنه لا يخلو أن يوجد نفسه وهو موجود أو يوجدها وهو معدوم، فإن كان موجوداً فما الذي أوجد، وإن كان معدوماً فكيف يصحّ منه إيجاد وهو عدم، فلم يبق إلاَّ أن يوجده غيره وهو الألف ولذلك كانت السين ساكنة وهو العدم والميم متحركة وهو أوان الإيجاب، فلما دلّ عليه من أول وهلة خفيت الألف لقوّة الدلالة وظهرت في الرحيم لضعف الدلالة لمحمد ﷺ لوجود المنازع فأيّده بالألف فصار الرحيم محمداً والألف منه الحق المؤيّد له من اسمه الظاهر، قال تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [سورة الصف: الآية ١٤] فقال: قولوا لا إلٰه إلاَّ الله وإني رسوله فمن آمن بلفظه لم يخرج من رِق الشرك وهومن أهل الجنة، ومن آمن بمعناه انتظم في سلك التوحيد فصحّت له الجنة الثامنة وكان ممن آمن بنفسه فلم يكن في ميزان غيره، إذ قد وقعت السوية واتحدت الاصطفائية جمعاً واختلفت رسالة ووجدنا (بسم) ذا نقطة و(الرحمن) كذلك و(الرحيم) ذا نقطتين و(الله) مصمت فلم توجد في الله لما كان الذات ووجدت فيما بقي لكونهم محل الصفات، فاتحدت في (بسم) آدم لكونه فرداً غير مرسل، واتحدت في (الرحمن) لأنه آدم وهو المستوي على عرش الكائنات المركبات.

وبقي الكلام على نقطتي (الرحيم) مع ظهور الألف فالياء الليالي العشر والنقطتان الشفع والألف الوتر والاسم بكليته والفجر ومعناه الباطن الجبروتي والليل إذا يسري وهو الغيب الملكوتي، وترتيب النقطتين الواحدة مما تلي الميم والثانية مما تلي الألف والميم وجود العالم الذي بعث إليهم، والنقطة التي تليه أبو بكر رضي الله عنه، والنقطة التي تلي الألف محمد ﷺ وقد تقببت الياء عليهما كالغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] فإنه واقف مع صدقه، ومحمد عليه السلام واقف مع الحق في الحال الذي هو عليه في ذلك الوقت، فهو الحكيم كفعله يوم بدر في الدعاء والإلحاح وأبو بكر عن ذلك صاح، فإن الحكيم يوفي المواطن حقّها، ولما لم يصحّ اجتماع صادقين معاً لذلك لم يقم أبو بكر في حال النبي ﷺ وثبت مع صدقه به، فلو فقد النبي ﷺ في ذلك الموطن وحضره أبو بكر لقام في ذلك المقام الذي أقيم فيه رسول الله ﷺ لأنه ليس ثم أعلى منه

يحجبه عن ذلك فهو صادق ذلك الوقت وحكيمه وما سواه تحت حكمه، فلما نظرت نقطة أبي بكر إلى الطالبين أسف عليه فأظهر الشدة وغلب الصدق وقال لا تحزن لأثر ذلك الأسف إن الله معنا كما أخبرتنا، وإن جعل منازع أن محمداً هو القائل لم نبال لما كان مقامه ﷺ الجمع والتفرقة معاً وعلم من أبي بكر الأسف ونظر إلى الألف فتأيّد وعلم أن أمره مستمرّ إلى يوم القيامة قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٠] وهذا أشرف مقام ينتهي إليه تقدم الله عليك ما رأيت شيئاً إلاَّ رأيت الله قبله شهود بكري وراثة محمدية، وخاطب الناس بمن عرف نفسه عرف ربّه وهو قوله تعالىٰ يخبر عن ربّه تعالىٰ ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٦٢] والمقالة عندنا إنما كانت لأبي بكر رضي الله عنه، ويؤيّدنا قول النبيّ ﷺ: **«لَوْ كُنتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً»** فالنبيّ ﷺ ليس بمصاحب وبعضهم أصحاب بعض وهم له أنصار وأعوان، فافهم إشارتنا تهد إلى سواء السبيل.

لطيفة: النقطتان الرحيمية موضع القدمين وهو أحد خلع النعلين الأمر والنهي، والألف الليلة المباركة وهي غيب محمد ﷺ ثم فرّق فيه إلى الأمر والنهي وهو قوله فيها: ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] وهو الكرسي والحاء العرش والميم ما حواه والألف حد المستوى والراء صريف القلم والنون الدواة التي في اللام، فكتب ما كان وما يكون في قرطاس لوح الرحيم وهو اللوح المحفوظ المعبر عنه بكل شيء في الكتاب العزيز من باب الإشارة والتنبيه قال تعالىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] وهو اللوح المحفوظ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٥] وهو اللوح المحفوظ الجامع ذلك عبارة عن النبيّ ﷺ في قوله: **«أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً»**. وهما نقطتا الأمر والنهي لكل شيء غيب محمد الألف المشار إليه بالليلة المباركة فالألف للعلم وهو المستوى واللام للإرادة وهو النون أعني الدواة والراء للقدرة وهو القلم والحاء للعرش والياء للكرسيّ ورأس الميم للسماء وتعريقه للأرض، فهذه سبعة أنجم: نجم منها يسبح في فلك الجسم، ونجم في فلك النفس الناطقة، ونجم في فلك سر النفس وهو الصديقية ونجم في فلك القلب، ونجم في فلك العقل، ونجم في فلك الروح، فحل ما قفلنا وفيما قرّرنا مفتاح لما أضمرنا فاطلب تجد إن شاء الله فـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإن تعدد فهو واحد إذا حقق من وجه ما.

وصل في أسرار أمّ القرآن من طريق خاص: وهي فاتحة الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم والكافية والبسملة آية منها وهي تتضمن الرب والعبد ولنا في تقسيمها قريض منه: [البسيط]

للنيِّرين طلوعٌ بالفؤاد فما ... في سورةِ الحمدِ يبدو ثالثٌ لهمَا
فالبدرُ محوٌ وشمسُ الذات مشرقةٌ ... لولا الشروقُ لقد ألفيْتَهُ عَدَمَا
هذي النجومُ بأفقِ الشرقِ طالعةٌ ... والبدرُ للمغرب العقليِّ قد لَزِمَا
فإن تبدَّى فلا نجمٌ ولا قمرٌ ... يلوح في الفَلَكِ العلويِّ مرتَسِمَا

فهي فاتحة الكتاب، لأن الكتاب عبارة من باب الإشارة عن المبدع الأول، فالكتاب

يتضمن الفاتحة وغيرها لأنها منه، وإنما صحّ لها اسم الفاتحة من حيث إنها أول ما افتتح بها كتاب الوجود وهي عبارة عن المثل المنزّه في ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] بأن تكون الكاف عين الصفة، فلما أوجد المثل الذي هو الفاتحة أوجد بعده الكتاب وجعله مفتاحاً له فتأمل وهي أم القرآن، لأن الأمّ محل الإيجاد والموجود فيها هو القرآن والموجد الفاعل في الأمّ، فالأمّ هي الجامعة الكلية، وهي أمّ الكتاب الذي عنده في قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٩] فانظر عيسىٰ ومريم عليهما السلام وفاعل الإيجاد يخرج لك عكس ما بدا لحسّك، فالأمّ عيسىٰ والابن الذي هو الكتاب العندي أو القرآن مريم عليها السلام فافهم، وكذلك الروح ازدوج مع النفس بواسطة العقل فصارت النفس محل الإيجاد حسّاً، والروح ما أتاها إلاّ من النفس فالنفس الأب، فهذه النفس هو الكتاب المرقوم لنفوذ الخط، فظهر في الابن ما خط القلم في الأمّ وهو القرآن الخارج على عالم الشهادة، والأمّ أيضاً عبارة عن وجود المثل محل الأسرار، فهو الرق المنشور الذي أودع فيه الكتاب المسطور المودعة فيه تلك الأسرار الإلهية، فالكتاب هنا أعلى من الفاتحة إذ الفاتحة دليل الكتاب ومدلوها، وشرف الدليل بحسب ما يدل عليه، أرأيت لو كان مفتاحاً لضدّ الكتاب المعلوم إن لو فرض له ضد حقر الدليل لحقارة المدلول، ولهذا أشار النبي ﷺ أن لا يسافر بالمصحف إلى أرض العدو لدلالة تلك الحروف على كلام الله تعالىٰ، إذ قد سمّاها الحق كلام الله والحروف الذي فيه أمثالها وأمثال الكلمات إذا لم يقصد بها الدلالة على كلام الله يسافر بها إلى أرض العدو ويدخل بها مواضع النجاسات وأشباهها والكشف وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الصفات ظهرت في الوجود في واحد وواحد فحضرة تفرد وحضرة تجمع، فمن البسملة إلى الدين إفراد، وكذلك من اهدنا إلى الضالين.

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] تشمل قال الله تعالىٰ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» فلك السؤال ومنه العطاء، كما أن له السؤال بالأمر والنهي ولك الامتثال. «يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول الله: حمدني عبدي: يقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى عليّ عبدي. يقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله: مجدني عبدي. ومرة قال: فوّض إليّ عبدي هذا إفراد إلهي. وفي رواية يقول العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: ذكرني عبدي. ثم قال: يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فما هي العطاء وإياك في الموضعين ملحق بالإفراد الإلهي. يقول العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فهؤلاء لعبدي» ـ هذا هو الإفراد العبدي المألوه ـ «ولعبدي ما سأل» سأل مألوه مّا إلهاً فلم تبق إلاّ حضرتان فصحّ المثاني فظهرت في الحق وجوداً وفي العبد الكلي إيجاداً فوصف نفسه بها ولا موجود سواه في العماء، ثم وصف بها عبده حين استخلفه ولذلك خرّوا له ساجدين لتمكن الصورة، ووقع الفرق من موضع القدمين إلى يوم القيامة

والقرآن العظيم الجمع والوجود وهو إفراده عنك وجمعك به وليس سوى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وحسب والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

واقعة: أرسل رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه إليّ آمراً بالكلام في المنام بعدما وقعت شفاعتي على جماعتي ونجا الكل من أسر الهلاك وقرب المنبر الأسنى وصعدت عليه عن الإذن العالي المحمدي الأسمى بالاقتصار على لفظة الحمد لله خاصة ونزل التأييد ورسول الله ﷺ عن يمين المنبر قاعد فقال العبد بعدما أنشد وحمد وأثنى وبسمل: حقيقة الحمد هي العبد المقدس المنزّه لله إشارة إلى الذات الأزلية وهو مقام انفصال وجود العبد من وجود الإله ثم غيبه عن وجوده بوجوده الأزلي وأوصله به فقال لله فاللام الداخلة على قوله الله الخافضة له هي حقيقة المألوه في باب التواضع والذلة وهي من حروف المعاني لا من حروف الهجاء، ثم قدمها سبحانه على اسم نفسه تشريفاً لها وتهمماً وتنزيهاً لمعرفتها بنفسها وتصديقاً لتقديم النبيّ ﷺ إياها في قوله: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فقدم معرفة النفس على معرفة الرب، ثم عملت في الاسم الله لتحقيق الاتصال وتمكينها من المقام، ولما كانت في مقام الوصلة ربما توهّم أن الحمد غير اللام فخفض العبد اتباعاً لحركة اللام فقرىء الحمد لله بخفض الدال فكان لفظة الحمد بدلاً من اللام بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة، فالحمد هو وجود اللام واللام هي الحمد، فإذا كانا شيئاً واحداً كان الحمد في مقام الوصلة مع الله لأنه عين اللام، فكان معنى كما كانت اللام لفظاً ومعنى، ثم حقيقة الخفض فيها إثبات العبودية، ثم أحياناً يفنيها عن نفسها فناء كلياً ليرفعها إلى المقام الأعلى في الأوّلية، ثم يبقي حقيقتها في الآخرية فيقول: الحمد لله برفع اللام اتباعاً لحركة الدال، وهذا مما يؤيد أن الحمد اللام وهو المعبر عنه بالرداء والثوب إذ كان هو محل الصفات وافتراق الجمع، فغاية معرفة العباد أن تصل إليه إن وصلت والحق وراء ذلك كله أو قل ومع ذلك كله، فلما رفعها بالفناء عنها ابتداء أراد أن يعرفها مع فنائها أنها ما برحت من مقامها فجعلها عاملة وجعل رفعها عارضاً في حق الحق، فأبقى الهاء مكسورة تدل على وجود اللام في مقام خفض العبودة، ولهذا شدت اللام الوسطى بلفظة لا أي ذات الحق ليست ذات العبد وإنما هي حقيقة المثل لتجلي الصورة، ثم الهاء تعود على اللام لما هي معمولها، فلو كانت الهاء كناية عن ذات الحق لم تعمل فيها اللام بل هو العامل في كل شيء، فإذا كانت اللام هي نفس الحمد والهاء معمول اللام فالهاء هي اللام وقد كانت اللام هي الحمد فالهاء الحمد بلا مزيد، وقد قلنا إنّ اللام المشددة لنفي الجمع المتحد موضع الفصل، فخرج من مضمون هذا الكلام أن الحمد هو قوله لله، وأن قوله لله هو قوله الحمد، فغاية العبد أن حمد نفسه الذي رأى في المرآة إذ لا طاقة للمحدث على حمل القديم فأحدث المثل على الصورة وصار الموحد مرآة، فلما تجلت صورة المثل في مرآة الذات قال لها حين أبصرت الذات فعطست فميزت نفسها احمدي من رأيت فحمدت نفسها فقالت: الحمد لله، فقال لها: يرحمك ربك يا آدم لهذا خلقتك فسبقت رحمته غضبه، ولهذا قال عقيب قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢ ـ ٣] فقدم الرحمة، ثم

قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٧] فأخّر غضبه فسبقت الرحمة الغضب في أول افتتاح الوجود فسبقت الرحمة إلى آدم قبل العقوبة على أكل الشجرة ثم رحم بعد ذلك فجاءت رحمتان بينهما غضب فتطلب الرحمتان أن تمتزجا لأنهما مثلان فانضمت هذه إلى هذه فانعدم الغضب بينهما كما قال بعضهم في يسرين بينهما عسر: [الهزج]

إذا ضاقَ عليك الأمـ ـرُ فكِّرْ في أَلَمْ نَشْرَحْ
فعُسْرٌ بين يُسْرينِ إذا ذُكِّرْتَهُ فافْرَحْ

فالرحمة عبارة عن الموجود الأول المعبر عنه بالمطلوب، والمغضوب عليهم النفس الأمّارة، والضالون عالم التركيب ما دامت هي مغضوبة عليها، إذ الباري منزّه عن أن ينزّه إذ لا غير ولا موجود إلاّ هو، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «**الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ أَخِيهِ**» لوجود الصورة على كمالها، إذ هي محل المعرفة وهي الموصلة، ولو أوجده على غير تلك الصورة لكان جماداً، فالحمد لله الذي منَّ على العارفين به الواقفين معه بموادّ العناية أزلاً وأبداً.

تنبيه: اللام تفني الرسم كما أن الباء تبقيه، ولهذا قال أبو العباس بن العريف: العلماء لي والعارفون بي؛ فأثبت المقام الأعلى للام فإنه قال في كلامه والعارفون بالهمم، ثم قال في حق اللام والحق وراء ذلك كله، ثم زاد تنبيهاً على ذلك ولم يقنع بهذا وحده فقال: والهمم للوصول والهمة للعارفين البائيين، وقال في العلماء اللاميين: وإنما يتبين الحق عند اضمحلال الرسم وهذا هو مقام اللام فناء الرسم، فالحمد لله أعلى من الحمد بالله، فإن الحمد بالله يبقيك والحمد للّه يفنيك، فإذا قال العالم الحمد لله أي لا حامد لله إلاّ هو فأحرى أن لا يكون ثم محمود سواه، وتقول العامة الحمد لله أي لا محمود إلاّ الله وهي الحامدة فاشتركا في صورة اللفظ، فالعلماء أفنت الحامدين المخلوقين والمحمودين، والعامة أفنت المحمودين من الخلق خاصة، وأمّا العارفون فلا يتمكن لهم أن يقولوا الحمد لله إلاّ مثل العامة وإنما مقامهم الحمد بالله لبقاء نفوسهم عندهم فتحقق هذا الفصل فإنه من لباب المعرفة.

وصل - في قوله ﴿رب العالمين الرحمن الرحيم﴾:

أثبت بقوله عندنا وفي قلوبنا رب العالمين حضرة الربوبية، وهذا مقام العارف ورسوخ قدم النفس وهو موضع الصفة، فإن قولنا لله ذاتية المشهد عالية المحتد، ثم أتبعه بقوله رب العالمين أي مربيهم ومغذيهم، والعالمين عبارة عن كل ما سوى الله، والتربية تنقسم قسمين: تربية بواسطة وبغير واسطة، فأمّا الكلمة فلا يتصوّر واسطة في حقّه البتة، وأمّا من دونه فلا بدّ من الواسطة، ثم تنقسم التربية قسمين: التي بالواسطة خاصة قسم محمود وقسم مذموم، ومن القديم تعالىٰ إلى النفس والنفس داخلة في الحد ما ثم إلاّ محدود خاصة، وأمّا المذموم والمحمود فمن النفس إلى عالم الحسّ فكانت النفس محلاً قابلاً لوجود التغيير والتطهير، فنقول: إن الله تعالىٰ لما أوجد الكلمة المعبّر عنها بالروح الكلي إيجاد إبداع أوجدها في مقام الجهل ومحل السلب أي أعماه عن رؤية نفسه فبقي لا يعرف من أين صدر ولا كيف صدر، وكان الغذاء فيه الذي هو سبب حياته وبقائه وهو لا يعلم، فحرّك الله همّته لطلب ما عنده وهو

لا يدري أنه عنده فأخذ في الرحلة بهمّته فأشهده الحق تعالىٰ ذاته فسكن وعرف أن الذي طلب لم يزل موصوفاً، قال إبراهيم بن مسعود الألبيري: [السريع]

قـد يـرحـلُ الـمـرءُ لـمـطـلـوبِـهِ والـسـبـبُ الـمـطـلـوبُ فـي الـرَّاحـلِ

وعلم ما أودع الله فيه من الأسرار والحكم وتحقق عنده حدوثه وعرف ذاته معرفة إحاطية، فكانت تلك المعرفة له غذاء معيناً يتقوّت به وتدوم حياته إلى غير نهاية، فقال له عند ذلك التجلّي الأقدس: ما اسمي عندك؟ فقال: أنت ربي، فلم يعرفه إلاً في حضرة الربوبية، وتفرد القديم بالألوهية فإنه لا يعرفه إلاً هو فقال له سبحانه: أنت مربوبي وأنا ربك أعطيتك أسمائي وصفاتي، فمن رآك رآني، ومن أطاعك أطاعني، ومن علمك علمني، ومن جهلك جهلني، فغاية من دونك أن يتوصلوا إلى معرفة نفوسهم منك، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك لا بكيفيتك، كذلك أنت معي لا تتعدّى معرفة نفسك ولا ترى غيرك ولا يحصل لك العلم بي إلاً من حيث الوجود، ولو أحطت علماً بي لكنت أنت أنا ولكنت محاطاً لك وكانت أنيتي أنيتك وليست أنيتك أنيتي، فأمدك بالأسرار الإلهية وأربيك بها فتجدها مجعولة فيك فتعرفها، وقد حجبتك عن معرفة كيفية إمدادي لك بها إذ لا طاقة لك بحمل مشاهدتها، إذ لو عرفتها لا تحدث الأنية واتحاد الأنية محال، فمشاهدتك لذلك محال، هل ترجع أنية المركب أنية البسيط لا سبيل إلى قلب الحقائق، فاعلم أن من دونك في حكم التبعية لك كما أنت في حكم التبعية لي، فأنت ثوبي وأنت ردائي وأنت غطائي.

فقال له الروح: ربي سمعتك تذكر أن لي ملكاً فأين هو؟ فاستخرج له النفس منه وهي المفعول عن الانبعاث فقال هذا بعضي وأنا كله، كما أنا منك ولست مني، قال صدقت يا روحي، قال بك نطقت يا ربي إنك ربيتني وحجبت عني سرّ الإمداد والتربية وانفردت أنت به فاجعل إمدادي محجوباً عن هذا الملك حتى يجهلني كما جهلتك، فخلق في النفس صفة القبول والافتقار، ووزر العقل إلى الروح المقدس.

ثم أطلع الروح على النفس فقال لها من أنا؟ قالت: ربي بك حياتي وبك بقائي، فتاه الروح بملكه وقام فيه مقام ربه فيه وتخيل أن ذلك هو نفس الإمداد فأراد الحق أن يعرفه أن الأمر على خلاف ما تخيل وأنه لو أعطاه سرّ الإمداد كما سأل لما انفردت الألوهية عنه بشيء ولاتحدت الأنية، فلما أراد ذلك خلق الهوى في مقابلته وخلق الشهوة في مقابلة العقل ووزرها للهوى وجعل في النفس صورة القبول لجميع الواردات عموماً، فحصلت النفس بين ربين قويين لهما وزيران عظيمان، وما زال هذا يناديها وهذا يناديها والكل من عند الله قال تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وكلاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، ولهذا كانت النفس محل التغيير والتطهير.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] في أثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] فإن أجابت منادي الهوى كان التغيير، وإن أجابت منادي الروح كان التطهير شرعاً وتوحيداً، فلما رأى الروح ينادي ولا يسمع مجيباً فقال ما منع ملكي من

إجابتي؟ قال له الوزير: في مقابلتك ملك مطاع عظيم السلطان يسمّى الهوى عطيته معجلة له الدنيا بحذافيرها فبسط لها حضرته ودعاها فأجابته فرجع الروح بالشكوى إلى الله تعالىٰ فثبتت عبوديته وذلك كان المراد وتنزلت الأرباب والمربوبون كل واحد على حسب مقامه وقدره، فعالم الشهادة المنفصل ربهم عالم الخطاب، وعالم الشهادة المتصل ربهم عالم الجبروت، وعالم الجبروت ربهم عالم الملكوت، وعالم الملكوت ربهم الكلمة، والكلمة ربها رب الكل الواحد الصمد، وقد أشبعنا القول في هذا الفصل في كتابنا المسمّى بالتدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، فأضربنا عن تتميم هذا الفصل هنا مخافة التطويل، وكذلك ذكرناه أيضاً في تفسير القرآن، فسبحان من تفرد بتربية عباده وحجب من حجب منهم بالوسائط، وخرج من هذا الفصل لمن عرف روحه ومعناه أن الرب هو الله سبحانه وأن العالمين هو المثل الكليّ، ولذلك أوجده في العالمين على ثمانية أحرف عرشاً واستوى عليه باللطف والتربية والحنان والرحمة الرحمانية المؤكدة بالرحيمية لتميز الدار الحيوان لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فعم بالرحمان وخصّ بالرحيم، فالرحمان في عالمه بالوسائط وغيرها، والرحيم في كلماته بلا واسطة لوجود الاختصاص وشرف العناية ، فافهم وإلا سلم تسلم.

وصل ـ في قوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

يريد يوم الجزاء وحضرة الملك من مقام التفرقة وهي جمع فإنه لا تقع التفرقة إلاَّ في الجمع قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] فهي مقام الجمع وقد قبلت سلطان التفرقة فهي مقام التفرقة، فافترق الجمع إلى أمر ونهي، خطاباً وسخط ورضى، إرادة وطاعة وعصيان فعل مألوه، ووعد ووعيد فعل إله، والملك في هذا اليوم من حقّت له الشفاعة واختصّ بها ولم يقل نفسي وقال أمتي، والملك في وجودنا المطلوب للقيامة المعجلة التي تظهر في طريق التصوّف هو الروح القدسيّ، ويوم القيامة وقت إيجاده الجزاء أو طولب به إن كانت عقوبة لا بدّ من ذلك، فإن كانت الطاعة فجنات من نخيل وأعناب، وإن كانت المعصية الكفرانية فجهنم من أغلال وعذاب، ومن مقام الدعوى في الصورتين فنفرض الكلام في هذه الآية على حد الملك وما ينبغي له، وهل ترتقي النفس من يوم الدين إلى الفناء عنه فأقول: إن الملك من صحّ له الملك بطريق الملك وسجد له الملك وهو الروح فلما نازعه الهوى واستعان بالنفس عليه عزم الروح على قتل الهوى واستعدّ فلما برز الروح بجنود التوحيد والملأ الأعلى وبرز الهوى وكذلك بجنود الأماني والغرور والملأ الأسفل قال الروح للهوى: مني إليك فإن ظفرت بك فالقوم لي وإن ظفرت أنت وهزمتني فالملك لك ولا يهلك القوم بيننا، برز الروح والهوى فقتله الروح بسيف العدم وظفر بالنفس بعد إباية منها وجهد كبير فأسلمت تحت سيفه فسلمت وأسلمت وتطهرت وتقدست وآمنت الحواس لإيمانها ودخلوا في رق الانقياد وأذعنوا وسلبت عنهم أردية الدعاوى الفاسدة واتحدت كلمتهم وصار الروح والنفس كالشيء الواحد وصحّ له اسم الملك حقيقة فقال له ملك يوم الدين فردّه إلى مقامه ونقله من افتراق الشرع إلى جمع التوحيد والملك على الحقيقة هو الحق تعالىٰ المالك

للكل ومصرّفه وهو الشفيع لنفسه عامة وخاصة، خاصة في الدنيا وعامة في الآخرة من وجه ما ولذلك قدم على قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ ﴿الرحمن الرحيم﴾ لتأنس أفئدة المحجوبين عن رؤية رب العالمين ألا تراه يقول يوم الدين شفعت الملائكة والنبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين، ولم يقل وبقي الجبار ولا القهار ليقع التأنيس قبل إيجاد الفعل في قلوبهم، فمن عرف المعنى في هذا الوجود صحّ له الاختصاص في مقام أرحم، ومن جهلها في هذا الوجود دخل في العامة في الحشر الأكبر فتجلى في مقام الراحمين، فعاد الفرق جمعاً والفتق رتقاً والشفع وتراً بشفاعة أرحم الراحمين من جهنم ظاهر السور إلى جنة باطنة، فإذا وقع الجدار وانهدم السور وامتزجت الأنهار والتقت البحران وعدم البرزخ صار العذاب نعيماً وجهنم جنة، فلا عذاب ولا عقاب إلاّ نعيم وأمان بمشاهدة العيان، وترنّم أطيار بألحان، على المقاصير والأفنان، ولثم الحور والولدان، وعدم مالك وبقي رضوان، وصارت جهنم تتنعم في حظائر الجنان، واتضحّ سرّ إبليس فيهم فإذا هو ومن سجد له سيان، فإنهما ما تصرّفا إلاّ عن قضاء سابق وقدر لاحق، لا محيص لهما عنه فلا بدّ لهما منه، وحاج آدم موسىٰ.

وصل: في قوله جل ثنائه وتقدس: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

لما ثبت وجوده بالحمد لله، وغذاؤه برب العالمين، واصطفاؤه بالرحمن الرحيم، وتمجيده بملك يوم الدين، أراد تأكيد تكرار الشكر والثناء رغبة في المزيد فقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهذا مقام الشكر أي لك نقرّ بالعبودية ونؤوي وحدك لا شريك لك وإليك نؤوي في الاستعانة لا إلى غيرك على من أنزلتهم مني منزلتي منك، فأنا أمدّهم بك لا بنفسي، فأنت الممد لا أنا، وأثبت له بهذه الآية نفي الشريك، فالياء من إياك العبد الكليّ قد انحصرت ما بين ألفين ألفي توحيد حتى لا يكون لها موضع دعوى برؤية غير فأحاط بها التوحيد، والكاف ضمير الحق فالكاف والألفان شيء واحد فهم مدلول الذات، ثم كان نعبد صفة فعل الياء بالضمير الذي فيه، والعبد فعل الحق فلم يبق في الوجود إلاّ الحضرة الإلهية خاصة، غير أنه في قوله ﴿إياك نعبد﴾ في حق نفسه للإبداع الأوّل حيث لا يتصوّر غيره، ﴿وإياك نستعين﴾ في حق غيره للخلق المشتق منه وهو محل سرّ الخلافة، ففي ﴿وإياك نستعين﴾ سجدت الملائكة وأبى من استكبر.

وصل: في قوله تعالىٰ: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ .

فلما قال له: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال له: وما عبادتي؟ قال: ثبوت التوحيد في الجمع والتفرقة، فلما استقرّ عند النفس أنّ النجاة في التوحيد الذي هو الصراط المستقيم وهو شهود الذات بفنائها أو بقائها إن غفلت قالت: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فتعرض لها بقولها المستقيم صراطان معوج وهو صراط الدعوى ومستقيم وهو التوحيد، فلم يكن لها ميز بين الصراطين إلاّ بحسب السالكين عليهما، فرأت ربّها سالكاً للمستقيم فعرفته به، ونظرت نفسها فوجدت بينها وبين ربّها الذي هو الروح مقاربة في اللطافة، ونظرت إلى

المعوج عند عالم التركيب فذلك قولها ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهذا عالمها المتصل بها المركب مغضوب عليه والمنفصل عنها ضالون عنها بنظرهم إلى المتصل المغضوب عليه فوقفت على رأس الصراطين ورأت غاية المعوج الهلاك وغاية المستقيم النجاة، وعلمت أن عالمها يتبعها حيث سلكت، فلما أرادت السلوك على المستقيم وأن تعتكف في حضرة ربّها وأن ذلك لها ومن نفسها بقولها إياك نعبد عجزت وقصر بها فطلبت الاستعانة بقولها ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فنبهها ربّها على اهدنا فتقيظت فقالت ﴿ٱهۡدِنَا﴾ فوصفت ما رأت بقولها ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الذي هو معرفة ذاتك، قال صاحب المواقف: لا تأثير للعلم وقال أنت لها هلكت فيه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقرىء في الشاذ صراط من أنعم عليه إشارة إلى الروح القدسيّ وتفسير الكل من أنعم الله عليه من رسول ونبي ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ليس كذلك ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقول تعالىٰ: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل، فأجابها وأقام معوجها وأوضح صراطها ورفع بساطها يقول ربها أثر تمام دعائها آمين فحصلت الإجابة بالأمن تأمين الملائكة وصار تأمين الروح تابعاً له اتباع الأجناد بل أطوع لكون الإرادة متحدة وصحّ لها النطق فسمّاها النفس الناطقة وهي عرش الروح والعقل صورة الاستواء، فافهم وإلاَّ فسلم تسلم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فصول تأنيس وقواعد تأسيس: نظر الجمال بعين الوصال.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة البقرة: الآية ٦ ـ ٧] إيجاز البيان فيه يا محمد إن الذين كفروا ستروا محبتهم فيّ عنهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك فإنهم لا يعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقي وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً في العالم إلاَّ مني، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي فلا يبصرون سواي، ولهم عذاب عظيم عندي أردّهم بعد هذا المشهد السنيّ إلى إنذارك وأحجبهم عني كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قرباً أنزلتك إلى من يكذبك ويرد ما جئت به إليه مني في وجهك وتسمع فيّ ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذي شاهدته في إسرائك فهكذا أمنائي على خلقي الذين أخفيتهم رضاي عنهم فلا أسخط عليهم أبداً.

بسط ما أوجزناه في هذا الباب:

انظر كيف أخفى سبحانه أولياءه في صفة أعدائه وذلك لما أبدع الأمناء من اسمه اللطيف وتجلى لهم في اسمه الجميل فأحبّوه تعالىٰ والغيرة من صفات المحبة في المحبوب، والمحب بوجهين مختلفين فستروا محبته غيرة منهم عليه كالشبلي وأمثاله، وسترهم بهذه الغيرة عن أن يعرفوا فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ستروا ما بدا لهم في مشاهدتهم من أسرار الوصلة فقال لا بدّ أن أحجبكم عن ذاتي بصفاتي فتأهبوا لذلك فما استعدوا فأنذرتهم على ألسنة أنبيائي الرسل في ذلك العالم فما عرفوا لأنهم في

عين الجمع وخاطبهم من عين التفرقة وهم ما عرفوا عالم التفصيل فلم يستعدوا وكان الحب قد استولى على قلوبهم سلطانه غيرة من الحق عليهم في ذلك الوقت، فأخبر نبيه ﷺ روحاً وقرآناً بالسبب الذي أصمهم عن إجابة ما دعاهم إليه فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يسعها غيره ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ فلا يسمعون سوى كلامه على ألسنة العالم فيشهدونه في العالم متكلماً بلغاتهم ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ من سناه إذ هو النور وبهائه إذ له الجلال والهيبة، يريد الصفة التي تجلّى لهم فيها المتقدمة، فأبقاهم غرقى في بحور اللذات بمشاهدة الذات فقال لهم: لا بدّ لكم من عذاب عظيم، فما فهموا ما العذاب لاتحاد الصفة عندهم فأوجد لهم عالم الكون والفساد، وحينئذ علمهم جميع الأسماء وأنزلهم على العرش الرحمانيّ وفيه عذابهم وقد كانوا مخبوئين عنده في خزائن غيوبه، فلما أبصرتهم الملائكة خرّت سجوداً لهم فعلموهم الأسماء، فأمّا أبو يزيد فلم يستطع الاستواء ولا أطاق العذاب فصعق من حينه فقال تعالىٰ ردّوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني، فحجب بالشوق والمخاطبة وبقي الكفار فنزلوا من العرش إلى الكرسيّ فبدت لهم القدمان فنزلوا عليهما في الثلث للباقي من ليلة هذه النشأة الجسمية إلى سماء الدنيا النفسيّ، فخاطبوا أهل الثقل الذين لا يقدرون على العروج هل من داع فيستجاب له؟ هل من تائب فيتاب عليه؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينصدع الفجر، فإذ انصدع ظهر الروح العقلي النوري فرجعوا من حيث جاؤوا، وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ مُوَاصِلاً فَلْيُوَاصِلْ حَتَىٰ السَّحَرِ فَذٰلِكَ أَوَانُ بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ**» فكل عبد لم يحذر مكر الله فهو مخدوع فافهم.

فـصـل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [سورة البقرة: الآيات ٨ ـ ١٠].

أبدع الله المبدعات وتجلّى بلسان الأحدية في الربوبية فقال: ألست بربكم؟ والمخاطب في غاية الصفاء فقال بلى فكان كمثل الصدا فإنهم أجابوه به، فإن الوجود المحدث خيال منصوب وهذا الإشهاد كان إشهاد رحمة لأنه ما قال لهم وحدي إبقاءً عليهم لما علم من أنهم يشركون به بما فيهم من الحظ الطبيعي، وبما فيهم من قبول الاقتدار الإلٰهيّ وما يعلمه إلاّ قليل، فلما برزت صور العالم من العلم الأزليّ إلى العين الأبديّ من وراء ستارة الغيرة والعزّة بعدما أسرج السرج وأنار بيت الوجود وبقي هو في ظلمة الغيوب، فشوهدت الصور متحركة ناطقة بلغات مختلفات والصور تنبعث من الظلمة، فإذا انقضى زمانها عادت إلى الظلمة وهكذا حتى السحر، فأراد الفطن أن يقف على حقيقة ما شاهده بصره فإن للحسّ أغاليط فقرب من الستارة فرأى نطقها غيباً فيها فعلم أنّ ثم سرّاً عجيباً فوقف عليه من نفسه فعرفه وعرف الرسول وما جاء به من وظائف التكليف.

فأوّل وظيفة كلمة التوحيد فأقرّ الكل بها فما جحد أحد الصانع، واختلفت عباراتهم عليه فابتلاهم بأن خاطبهم بلسان الشرك شهادة الرسول فوقع الإنكار باختصاص الجنس فتفرق

أهل الإنكار على طريقين: فمنهم من نظر في الظواهر فلم ير تفضيلاً في شيء ظاهر فأنكر. ومنهم من نظر باطناً عقلاً فرأى الاشتراك في المعقولات ونسي الاختصاص فأنكر فأرسله بالسيف فقذف في قلوبهم الرعب من الموت وداخلهم الشك على قدر نظرهم، فمنهم من استمر على نفي كلمة الإشراك قطعاً فذلك كافر، ومنهم من استمر عليها مشاهدة فذلك عالم بالله، ومنهم من استمر على ثبتها نظراً فذلك عارف بالله، ومنهم من استمر على ثبتها اعتقاداً فتلك العامة، ومنهم من خاف القتل فلفظ ولم يعتقد فنادى عليه لسان الحق فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ظاهراً ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ باطناً ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بلزوم الدعوى وبجهلهم القائم بهم بأن الله لا يعلم وإني أردّ أعمالهم عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ اليوم بذلك ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك مما جاءهم به رسولي ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ شكاً وحجاباً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ يوم القيامة وهم فيه ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠] مما حققنا لديهم ولم تسبق لهم عناية في اللوح القاضي.

وصل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١ ـ ١٢].

لما أكمل الوجود بثمانية برز في ميدان التنعم فارس الدعوى فلم يكن في جيش ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٨] من يبرز إليه فملك الكل وصبوا إليه وإلى دينه باطناً فعوقبوا بطلب الإقرار وإلاّ قتلوا فأقرّوا لفظاً فحصل لهم العذاب الأليم دنيا وآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض الأشباح قالوا من خيالهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١] فقال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ عندنا وعندهم إذ لم يستمتعوا بها على ما يريدون ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ باتحاد الأشياء ولو شعروا ما آمنوا ولا كفروا.

وصل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣].

وذلك أنهم لما انتظموا في سلك الأغيار أتاهم النداء أن يقفوا على منازل الشهداء فسمعوا الخطاب في الأينية ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ فحجبوا عن أخذ العهد بعهد الحسّ والداعي الجنسيّ وأصمّهم ذلك وأعمى أبصارهم وأغطش ليل جهالتهم فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لما عدل بهم عن طريق التقديس ووقفوا مع الهوى قال الله لنا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الأحلام لما ملكتهم الأهواء وحجبوا عن الالتذاذ بسماع وقع الرذاذ على الأفلاذ بالطور ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ليتميز العالي ممن هو دونه، وإلاّ فأية فائدة لقوله لشيء إذا أراده أن ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ذلك الشيء إلاّ إيجاد الأشياء على أحسن قانون، فسبحان من انفرد بالإيجاد والاختراع والإتقان والإبداع.

وصل في دعوى المدعين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤].

الإيمان في هذا المقام على خمسة أقسام: إيمان تقليد، وإيمان علم، وإيمان عين، وإيمان حق، وإيمان حقيقة، فالتقليد للعوام، والعلم لأصحاب الدليل، والعين لأهل المشاهدة، والحق للعارفين، والحقيقة للواقفين، وحقيقة الحقيقة وهو السادس للعلماء المرسلين أصلاً ووراثة منع كشفها فلا سبيل إلى إيضاحها، فكانت صفات الدعاوى إذا لقوا هؤلاء الخمسة قالوا آمنا، فالقلب للعوامّ وسرّ القلب لأصحاب الدليل، والروح لأهل المشاهدة، وسرّ الروح للعارفين، وسرّ السرّ للواقفين، والسرّ الأعظم لأهل الغيرة والحجاب، والمنافقون تعرّوا عن الإيمان وانتظموا في الإسلام، وإيمانهم ما جاوز خزانة خيالهم فاتخذوا أصناماً في ذواتهم أقاموها مقام آلهتهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا باستيلاء الغفلة عليهم وخلوّ المحل عن مراتب الإيمان ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ فوقع عليهم العذاب من قولهم له إلى شياطينهم في حال الخلوة، فلما قامت الأضداد عندهم وعاملوا الحق والباطل عاملوا الحق بستر الباطل وعاملوا الباطل بإفشاء الحق فصحّ لهم النفاق، ولو خاطبوا ذاتهم في ذاتهم ما صحّ عليهم هذا ولكانوا من أهل الحقائق فأوقع الله الجواب على الاستهزاء فقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وهو استهزاؤهم عجباً، كيف قالوا إنا معكم وهم عدم لو عاينوا إيمان الحقيقة لعاينوا الخالق في الخليقة ولا خلوا ولا نطقوا ولا صمتوا، بل كانوا يقومون مقام من شاهد وهو روح جاء مع صاحب المادة فلينظر الإنسان حقيقة اللقاء فإنه مؤذن بافتراق متقدّم، ثم اجتمعوا بصفة لم يعرفوها بل ظهر لهم منها ظاهر حسن فتأدّبوا معها ولم يطيقوا أكثر من ذلك فقالوا آمنا، ثم نكسوا على رؤوسهم في الخلوة مع الشيطنة وهي البعد مثل اللقاء فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بالصفة التي لقينا، فتدبر هذه الآية من حقيقة الحقيقة عند طلوع الفجر وزوال الشك بزوال الستارة ورفع الموانع يلح لك السرّ في سبحان والنساء والشمس فتجد الذين لقوا كمثل الذين لقوا فتصمت وإن تكلمت هلكت، وهذه حقيقة الحقيقة التي منع كشفها إلاّ لمن شمّ منها رائحة ذوقاً فلا بأس، فانظر وتدبر ترشد إن شاء الله. تمّ الجزء العاشر.

(الجزء الحادي عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب السادس

في معرفة بدء الخلق الروحانيّ، ومن هو أوّل موجود فيه، وممّ وجد، وفيم وجد، وعلى أيّ مثال وجد، ولم وجد وما غايته؟ ومعرفة أفلاك العالم الأكبر والأصغر:

[نظم: الكامل]

انظُرْ إلى هذا الوجودِ المُحْكَمِ ... ووجودُنا مثلُ الرداء المُعْلَمِ

وانظرْ إلى خُلَفائه في مُلْكِهِمْ ... من مفصحٍ طَلْقِ اللسان وأعْجَمِ

ما منهُمُو أحدٌ يحب إلهَهُ إلاَّ ويمزجه بحبِّ الدِّرهَم
فيقالُ هذا عبدُ معرفةٍ وذا عبدُ الجِنان وذا عُبَيْدُ جهنَّم
إلاَّ القليلُ من القليلِ فإنهمْ سكْرَى به من غير حِسّ توَهُّم
فهُمُو عبيدُ الله لا يدري بهمْ أحدٌ سواه لا عبيدُ المنْعِم
فأفادهم لما أراد رجوعَهُمْ لقصورهم من كل علم مُبْهَم
عَلِمَ المقدَّمَ في البسائط وحدَه وأساسُه ذو عنه لم يَتَصرَّم
وحقيقةَ الظرف الذي ستَرَتْه عن أمثاله ومِثَاله لم يُكْتَم
والعلمَ بالسبب الذي وُجدَتْ له عينُ العوالم في الطراز الأقْدَم
ونهايةَ الأمرِ الذي لا غايةٌ تُدْرَى له فيه العظيم الأعظم
وعلومَ أفلاك الوجود كبيرِهِ وصغيرِهِ الأعلى الذي لم يُذْمَم
هذي علومٌ مَنْ تحقَّقَ كشفها يهدي القلوبَ إلى السبيل الأقْوَم
فالحمدُ لله الذي أنا جامعٌ لعلومها ولعلم ما لم يُعْلَم

إيجاز البيان بضرب من الإجمال بدء الخلق الهباء، وأوّل موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية ولا أين يحصرها لعدم التحيّز، وممّ وجد وجد من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم وفيم وجد في الهباء، وعلى أي مثال وجد الصورة المعلومة في نفس الحق ولم وجد لإظهار الحقائق الإلٰهية وما غايته التخليص من المزجة، فيعرف كل عالم حظّه من منشئه من غير امتزاج، فغايته إظهار حقائقه ومعرفة أفلاك الأكبر من العالم وهو ما عدا الإنسان في اصطلاح الجماعة والعالم الأصغر يعني الإنسان روح العالم وعلته وسببه وأفلاكه مقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته، فهذا جميع ما يتضمنه هذا الباب، فكما أن الإنسان عالم صغير من طريق الجسم كذلك هو أيضاً حقير من طريق الحدوث وصحّ له التألّه لأنه خليفة الله في العالم والعالم مسخّر له مألوه، كما أن الإنسان مألوه لله تعالىٰ. واعلم أن أكمل نشأة الإنسان إنما هي في الدنيا، وأما الآخرة فكل إنسان من الفرقتين على النصف في الحال لا في العلم، فإن كل فرقة عالمة بنقيض حالها، فليس الإنسان إلاَّ المؤمن والكافر معاً، سعادة وشقاء، نعيم وعذاب، منعم ومعذب، ولهذا معرفة الدنيا أتم وتجلي الآخرة أعلى، فافهم وحل هذا القفل ولنا رمز لمن تفطن وهو لفظه بشيع شنيع ومعناه بديع: [المجتث]

روحُ الوجود الكبيرُ هذا الوجودُ الصغيرُ
لولاه ما قال إني أنا الكبيرُ القديرُ
لا يحجبنْكَ حدوثي ولا الفنا والنُّشورُ
فإنني إن تأمّلـ ـتني المحيط الكبير
فللقديم بذاتي وللجديد ظهورُ
والله فردٌ قديمٌ لا يعتريه قُصورُ
والكونُ خلقٌ جديدٌ في قبضَتَيْه أسيرُ

فجاء من هذا أني ... أنا الوجودُ الحقيرُ
وأن كلَّ وجودٍ ... على وجودي يدورُ
فلا كلَيليَ ليلٌ ... ولا كنورَي نورُ
فمن يقل فيَّ عبدٌ ... أنا العبيدُ الفقيرُ
أو قال إني وجودٌ ... أنا الوجودُ الخبيرُ
فصحني مَلْكاً تَجِدْني ... أو سُوقةً ما تَجُورُ
فيا جَهولاً بقدري ... أنت العليمُ البصيرُ
بلِّغ وجوديَ عني ... والقولُ صدقٌ وزورُ
وقلْ لقومك إني ... أنا الرحيمُ الغَفورُ
وقلْ بأنَّ عذابي ... هو العذابُ المُبيرُ
وقلْ بأني ضعيفٌ ... لا أستطيع أسيرُ
فكيف ينعم شخصٌ ... على يديَّ يَبُورُ

بسط الباب وبيانه ومن الله التأييد والعون:

اعلموا أن المعلومات أربعة: الحق تعالىٰ وهو الموصوف بالوجود المطلق لأنه سبحانه ليس معلولاً لشيء ولا علة بل هو موجود بذاته، والعلم به عبارة عن العلم بوجوده، ووجوده ليس غير ذاته مع أنه غير معلوم الذات، لكن يعلم ما ينسب إليه من الصفات، أعني صفات المعاني وهي صفات الكمال، وأما العلم بحقيقة الذات فممنوع لا تعلم بدليل ولا ببرهان عقليّ ولا يأخذها حد، فإنه سبحانه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فكيف يعرف من يشبه الأشياء من لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً، فمعرفتك به إنما هي أنه ليس كمثله شيء، ويحذركم الله نفسه، وقد ورد المنع من الشرع في التفكر في ذات الله.

ومعلوم ثان: وهو الحقيقة الكلية التي هي للحق وللعالم لا تتصف بالوجود ولا بالعدم ولا بالحدوث ولا بالقدم، هي في القديم إذا وصف بها قديمة، وفي المحدث إذا وصف بها محدثة، لا تعلم المعلومات قديمها وحديثها حتى تعلم هذه الحقيقة، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها، فإن وجد شيء عن غير عدم متقدم كوجود الحق وصفاته قيل فيها موجود قديم لاتصاف الحق بها، وإن وجد شيء عن عدم كوجود ما سوى الله وهو المحدث الموجود بغيره قيل فيها محدثة وهي في كل موجود بحقيقتها فإنها لا تقبل التجزي، فما فيها كل ولا بعض، ولا يتوصل إلى معرفتها مجردة عن الصورة بدليل ولا ببرهان، فمن هذه الحقيقة وجد العالم بوساطة الحق تعالىٰ وليست بموجودة، فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم فيثبت لنا القدم، وكذلك لتعلم أيضاً أن هذه الحقيقة لا تتصف بالتقدم على العالم ولا العالم بالتأخر عنها ولكنها أصل الموجودات عموماً، وهي أصل الجوهر وفلك الحياة والحق المخلوق به وغير ذلك، وهي الفلك المحيط المعقول، فإن قلت إنها العالم صدقت، أو إنها ليست العالم صدقت، أو إنها الحق أو ليست الحق صدقت، تقبل هذا كله

وتتعدد بتعدد أشخاص العالم، وتتنزّه بتنزيه الحق، وإن أردت مثالها حتى يقرب إلى فهمك فانظر في العودية في الخشبة والكرسيّ والمحبرة والمنبر والتابوت، وكذلك التربيع وأمثاله في الأشكال، في كل مربع مثلاً من بيت وتابوت وورقة، والتربيع والعودية بحقيقتها في كل شخص من هذه الأشخاص، وكذلك الألوان بياض الثوب والجوهر والكاغد والدقيق والدهان من غير أن تتصف البياضية المعقولة في الثوب بأنها جزء منها فيه، بل حقيقتها ظهرت في الثوب ظهورها في الكاغد، وكذلك العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر وجميع الأشياء كلها، فقد بيّنت لك هذا المعلوم، وقد بسطنا القول فيه كثيراً في كتابنا الموسوم بإنشاء الجداول والدوائر.

ومعلوم ثالث: وهو العالم كله الأملاك والأفلاك وما تحويه من العوالم والهواء والأرض وما فيهما من العالم وهو الملك الأكبر.

ومعلوم رابع: وهو الإنسان الخليفة الذي جعله الله في هذا العالم المقهور تحت تسخيره قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] فمن علم هذه المعلومات فما بقي له معلوم أصلاً يطلبه، فمنها ما لا نعلم إلاَّ وجوده وهو الحق تعالىٰ وتعلم أفعاله وصفاته بضرب من الأمثلة، ومنها ما لا يعلم إلاَّ بالمثال كالعلم بالحقيقة الكلية، ومنها ما يعلم بهذين الوجهين وبالماهية والكيفية وهو العالم والإنسان.

وصل: كان الله ولا شيء معه ثم أدرج فيه وهو الآن على ما عليه كان لم يرجع إليه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها بل كان موصوفاً لنفسه، ومسمّى قبل خلقه بالأسماء التي يدعونه بها خلقه، فلما أراد وجود العالم وبدأه على حدّ ما علمه بعلمه بنفسه انفعل عن تلك الإرادة المقدّسة بضرب تجلٍّ من تجليات التنزيه إلى الحقيقة الكلية انفعل عنها حقيقة تسمى الهباء هي بمنزلة طرح البناء الجص ليفتح فيها ما شاء من الأشكال والصور، وهذا هو أول موجود في العالم، وقد ذكره عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وسهل بن عبد الله رحمه الله وغيرهما من أهل التحقيق أهل الكشف والوجود، ثم إنه سبحانه تجلّى بنوره إلى ذلك الهباء ويسمّونه أصحاب الأفكار الهيولى الكل والعالم كله فيه بالقوّة والصلاحية فقبل منه تعالىٰ كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوّته واستعداده كما تقبل زوايا البيت نور السراج، وعلى قدر قربه من ذلك النور يشتدّ ضوؤه وقبوله.

قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فشبه نوره بالمصباح فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلاَّ حقيقة محمد ﷺ المسمّاة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الإلٰهيّ ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية، وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه، وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين. وأما المثال الذي عليه وجد العالم كله من غير تفصيل فهو العلم القائم بنفس الحق تعالىٰ، فإنه سبحانه علمنا بعلمه بنفسه وأوجدنا على حدّ ما علمنا، ونحن على هذا الشكل المعين في علمه، ولو لم يكن الأمر كذلك لأخذنا هذا الشكل

بالاتفاق لا عن قصد لأنه لا يعلمه، وما يتمكن أن تخرج صورة في الوجود بحكم الاتفاق، فلولا أن هذا الشكل المعين معلوم لله سبحانه ومراد له ما أوجدنا عليه ولم يأخذ هذا الشكل من غيره، إذ قد ثبت أنه كان ولا شيء معه، فلم يبق إلاّ أن يكون ما برز عليه في نفسه من الصورة فعلمه بنفسه علمه بنا أزلاً لا عن عدم فعلمه بنا كذلك، فمثالنا الذي هو عين علمه بنا قديم بقدم الحق لأنه صفة له، ولا تقوم بنفسه الحوادث جلّ الله عن ذلك.

وأمّا قولنا: ولم وجد وما غايته؟ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فصرّح بالسبب الذي لأجله أوجدنا، وهكذا العالم كله، وخصصنا والجنّ بالذكر، والجن هنا كل مستتر من ملك وغيره، وقد قال تعالىٰ في حق السموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] وكذلك قال: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] وذلك لما كان عرضاً، وأمّا لو كان أمراً لأطاعوا وحملوها، فإنه لا تتصوّر منهم معصية جبلوا على ذلك، والجن الناري والإنس ما جبلا على ذلك، وكذلك من الإنس أصحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصورة على الحواس والضرورات والبديهيات يقولون: لا بدّ أن يكون المكلف عاقلاً بحيث يفهم ما يخاطب به وصدقوا، وكذلك هو الأمر عندنا العالم كله عاقل حي ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التي الناس عليها أعني حصول العلم بهذا عندنا غير أنهم قالوا هذا جماد لا يعقل ووقفوا عندما أعطاهم بصرهم، والأمر، عندنا بخلاف ذلك، فإذا جاء عن نبيّ أن حجراً كلمه أو كتف شاة أو جذع نخلة أو بهيمة يقولون خلق الله فيه الحياة والعلم في ذلك الوقت والأمر عندنا ليس كذلك بل سرّ الحياة في جميع العالم، وأن كل من يسمع المؤذن من رطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلاّ من علم، هذا عن كشف عندنا لا عن استنباط من نظر بما يقتضيه ظاهر خبر ولا غير ذلك، ومن أراد أن يقف عليه فليسلك طريق الرجال وليلزم الخلوة والذكر فإن الله سيطلعه على هذا كله عيناً فيعلم أن الناس في عماية عن إدراك هذه الحقائق، فأوجد العالم سبحانه ليظهر سلطان الأسماء، فإن قدرة بلا مقدور وجوداً بلا عطاء، ورازقاً بلا مرزوق، ومغيثاً بلا مغاث، ورحيماً بلا مرحوم، حقائق معطلة التأثير، وجعل العالم في الدنيا ممتزجاً مزج القبضتين في العجنة، ثم فصل الأشخاص منها فدخل من هذه في هذه من كل قبضة في أختها فجهلت الأحوال، وفي هذا تفاضلت العلماء في استخراج الخبيث من الطيب والطيب من الخبيث، وغايته التخليص من هذه المزجة وتمييز القبضتين حتى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٧] فمن بقي فيه شيء من المزجة حتى مات عليها لم يحشر يوم القيامة من الآمنين، ولكنه منهم من يتخلص من المزجة في الحساب، ومنهم من لا يتخلص منها إلاّ في جهنم، فإذا تخلص أخرج فهؤلاء هم أهل الشفاعة، وأمّا من تميز هنا في إحدى القبضتين انقلب إلى الدار الآخرة بحقيقته من قبره إلى نعيم أو إلى عذاب وجحيم فإنه قد تخلص، فهذا غاية العالم، وهاتان حقيقتان راجعتان إلى صفة هو

الحق عليها في ذاته، ومن هنا قلنا يرونه أهل النار معذباً وأهل الجنة منعماً، وهذا سرّ شريف ربما تقف عليه في الدار الآخرة عند المشاهدة إن شاء الله وقد نالها المحققون في هذه الدار.

وأمّا قولنا في هذا الباب ومعرفة أفلاك العالم الأكبر والأصغر الذي هو الإنسان فأعني به عوالم كلياته وأجناسه وأمراؤه الذين لهم التأثير في غيرهم وجعلتها مقابلة هذا نسخة من هذا، وقد ضربنا لها دوائر على صور الأفلاك وترتيبها في كتاب إنشاء الدوائر والجداول الذي بدأنا وضعه بتونس بمحل الإمام أبي محمد عبد العزيز وليّنا وصفينا رحمه الله فلنلق منه في هذا الباب ما يليق بهذا المختصر فنقول: إن العوالم أربعة: العالم الأعلى وهو عالم البقاء، ثم عالم الاستحالة وهو عالم الفناء، ثم عالم التعمير وهو عالم البقاء والفناء، ثم عالم النسب، وهذه العوالم في موطنين في العالم الأكبر وهو ما خرج عن الإنسان وفي العالم الأصغر وهو الإنسان.

فأمّا العالم الأعلى: فالحقيقة المحمدية وفلكها الحياة نظيرها من الإنسان اللطيفة والروح القدسيّ، ومنهم العرش المحيط ونظيره من الإنسان الجسم، ومن ذلك الكرسيّ ونظيره من الإنسان النفس، ومن ذلك البيت المعمور ونظيره من الإنسان القلب، ومن ذلك الملائكة ونظيرها من الإنسان الأرواح التي فيه والقوىٰ، ومن ذلك زحل وفلكه نظيره من الإنسان القوّة العلمية والنفس، ومن ذلك المشتري وفلكه نظيرهما القوّة الذاكرة ومؤخر الدماغ، ومن ذلك الأحمر وفلكه نظيرهما القوّة العاقلة واليافوخ، ومن ذلك الشمس وفلكها نظيرهما القوّة المفكرة ووسط الدماغ ثم الزهرة وفلكها نظيرهما القوّة الوهمية والروح الحيوانيّ، ثم الكاتب وفلكه نظيرهما القوّة الخيالية ومقدم الدماغ ثم القمر وفلكه نظيرهما القوّة الحسيّة والجوارح التي تحسّ، فهذه طبقات العالم الأعلى ونظائره من الإنسان.

وأمّا عالم الاستحالة: فمن ذلك كرة الأثير وروحها الحرارة واليبوسة وهي كرة النار ونظيرها الصفراء وروحها القوّة الهاضمة، ومن ذلك الهواء وروحه الحرارة والرطوبة ونظيره الدم وروحه القوّة الجاذبة، ومن ذلك الماء وروحه البرودة والرطوبة نظيره البلغم وروحه القوّة الدافعة، ومن ذلك التراب وروحه البرودة واليبوسة نظيره السوداء وروحها القوّة الماسكة، وأما الأرض فسبع طباق: أرض سوداء، وأرض غبراء، وأرض حمراء، وأرض صفراء، وأرض بيضاء، وأرض زرقاء، وأرض خضراء، نظير هذه السبعة من الإنسان في جسمه: الجلد والشحم واللحم والعروق والعصب والعضلات والعظام.

وأما عالم التعمير: فمنهم الروحانيون نظيرهم القوىٰ التي في الإنسان، ومنهم عالم الحيوان نظيره ما يحسّ من الإنسان، ومنهم عالم النبات نظيره ما ينمو من الإنسان، ومن ذلك عالم الجماد نظيره ما لا يحسّ من الإنسان.

وأما عالم الذهب: فمنهم العرض نظيره الأسود والأبيض، والألوان والأكوان، ثم الكيف نظيره الأحوال مثل الصحيح والسقيم، ثم الكم نظيره الساق أطول من الذراع، ثم الأين نظيره العنق مكان للرأس. والساق مكان للفخذ، ثم الزمان نظيره حركت رأسي وقت تحريك يدي، ثم الإضافة نظيرها هذا أبي فأنا ابنه، ثم الوضع نظيره لغتي ولحني، ثم أن

يفعل نظيره أكلت، ثم أن ينفعل نظيره شبعت، ومنهم اختلاف الصور في الأمهات كالفيل والحمار والأسد والصرصر نظير هذا القوّة الإنسانية التي تقبل الصور المعنوية من مذموم ومحمود، هذا فطن فهو فيل، هذا بليد فهو حمار، هذا شجاع فهو أسد، هذا جبان فهو صرصر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع
في معرفة بدء الجسوم الإنسانية وهو آخر جنس موجود من العالم الكبير وآخر صنف من المولدات

[نظم: الكامل]

نشأتْ حقيقةُ باطنِ الإنسان ... ملكاً قوياً ظاهرَ السُّلطانِ

ثم استوتْ في عرشِ آدمَ ذَاتُهُ ... مثلَ استواءِ العرش بالرحمانِ

فبدتْ حقيقةُ جسمِه في عينِها ... وبها انتهى ملكُ الوجودِ الثاني

وبدت معارفُ لفظِه في علمه ... عندَ الكرام وحامل الشنآنِ

فتصاغَرَتْ لعلومه أحلامُهم ... وتكبَّر الملعونُ من شيطانِ

باؤوا بقربِ الله في مَلَكُوته ... إلاَّ الشُّوَيْطِنُ باء بالخسرانِ

اعلم أيّدك الله أنه لما مضى من عمر العالم الطبيعيّ المقيد بالزمان المحصور بالمكان إحدى وسبعون ألف سنة من السنين المعروفة في الدنيا وهذه المدة أحد عشر يوماً من أيام غير هذا الاسم، ومن أيام ذي المعارج يوم وخمسا يوم، وفي هذه الأيام يقع التفاضل قال تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤] وقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] فأصغر الأيام هي التي نعدها حركة الفلك المحيط الذي يظهر في يومه الليل والنهار فأقصر يوم عند العرب وهو هذا لأكبر فلك، وذلك لحكمه على ما في جوفه من الأفلاك إذ كانت حركة مّا دونه في الليل والنهار حركة قسرية له قهر بها سائر الأفلاك التي يحيط بها، ولكل فلك حركة طبيعية تكون له مع الحركة القسرية، فكل فلك دونه ذو حركتين في وقت واحد، حركة طبيعية وحركة قسرية، ولكل حركة طبيعية في كل فلك يوم مخصوص يعد مقداره بالأيام الحادثة عن الفلك المحيط المعبّر عنها بقوله: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: الآية ٤٧] وكلها تقطع في الفلك المحيط، فكلما قطعته على الكمال كان يوماً لها ويدور الدور، فأصغر الأيام منها هو ثمانية وعشرون يوماً مما تعدون، وهو مقدار قطع حركة القمر في الفلك المحيط، ونصب الله هذه الكواكب السبعة في السموات ليدرك البصر قطع فلكها في الفلك المحيط لنعلم عدد السنين والحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس: الآية ٥] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٢] ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] فلكل كوكب منها يوم مقدّر يفضل بعضها على بعض على قدر سرعة حركاتها الطبيعية أو صغر أفلاكها وكبرها.

فاعلم أن الله تعالىٰ لما خلق القلم واللوح وسمّاهما العقل والروح وأعطى الروح صفتين صفة علمية وصفة عملية وجعل العقل لها معلماً ومفيداً إفادة مشاهدة حالية كما تستفيد من صورة السكين القطع من غير نطق يكون منه في ذلك، وخلق تعالىٰ جوهراً دون النفس الذي هو الروح المذكور سماء الهباء، وهذه الاسمية له نقلناها من كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمّا الهباء فمذكور في اللسان العربيّ، قال تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦] كذلك لما رآها عليّ بن أبي طالب أعني هذه الجوهرة منبثة في جميع الصور الطبيعية كلها وأنها لا تخلو صورة منها إذ لا تكون صورة إلاَّ في هذه الجوهرة سمّاها هباء، وهي مع كل صورة بحقيقتها لا تنقسم ولا تتجزأ ولا تتصف بالنقص، بل هي كالبياض الموجود في كل أبيض بذاته وحقيقته، ولا يقال قد نقص من البياض قدر ما حصل منه في هذا الأبيض فهذا مثل حال هذه الجوهرة، وعين الله سبحانه بين هذا الروح الموصوف بالصفتين وبين الهباء أربع مراتب، وجعل كل مرتبة منزلاً لأربعة أملاك، وجعل هؤلاء الأملاك كالولاة على ما أحدثه سبحانه دونهم من العالم من عليين إلى أسفل سافلين، ووهب كل ملك من هؤلاء الملائكة علم ما يريد إمضاءه في العالم.

فأوّل شيء أوجده الله في الأعيان مما يتعلق به علم هؤلاء الملائكة وتدبيرهم الجسم الكليّ، وأوّل شكل فتح في هذا الجسم الشكل الكريّ المستدير إذ كان أفضل الأشكال، ثم نزل سبحانه بالإيجاد والخلق إلى تمام الصنعة وجعل جميع ما خلقه تعالىٰ مملكة لهؤلاء الملائكة، وولاهم أمورها في الدنيا والآخرة، وعصمهم عن المخالفة فيما أمرهم به فأخبرنا سبحانه أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولما انتهى خلق المولدات من الجمادات والنبات والحيوان بانتهاء إحدى وسبعين ألف سنة من سنيّ الدنيا مما نعد ورتب العالم ترتيباً حكيماً، ولم يجمع سبحانه لشيء مما خلقه من أوّل موجود إلى آخر مولود وهو الحيوان بين يديه تعالىٰ إلاَّ للإنسان وهي هذه النشأة البدنية الترابية، بل خلق كل ما سواها إما عن أمر إلهيّ أو عن يد واحدة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فهذا عن أمر إلهيّ. وورد في الخبر أنّ الله عزّ وجلّ خلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده وخلق آدم الذي هو الإنسان بيديه فقال تعالىٰ لإبليس على جهة التشريف لآدم عليه السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥].

ولما خلق الله الفلك الأدنى الذي هو الأول المذكور آنفاً قسمه اثني عشر قسماً سمّاها قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج: الآية ١] فجعل كل قسم برجاً، وجعل تلك الأقسام ترجع إلى أربعة في الطبيعة، ثم كرّر كل واحد من الأربعة في ثلاثة مواضع منه، وجعل هذه الأقسام كالمنازل والمناهل التي ينزل فيها المسافرون ويسير فيها السائرون في حال سيرهم وسفرهم لينزل في هذه الأقسام عند سير الكواكب فيها وسياحتهم ما يحدث الله في جوف هذا الفلك من الكواكب التي تقطع بسيرها في هذه البروج ليحدث الله عند قطعها وسيرها ما شاء أن يحدث من العالم الطبيعي والعنصري، وجعلها علامات على أثر حركة فلك البروج

فاعلم. فقسم من هذه الأربعة طبيعته الحرارة واليبوسة، والثاني البرودة واليبوسة، والثالث الحرارة والرطوبة، والرابع البرودة والرطوبة، وجعل الخامس والتاسع من هذه الأقسام مثل الأول، وجعل السادس والعاشر مثل الثاني، وجعل السابع والحادي عشر مثل الثالث، وجعل الثامن والثاني عشر مثل الرابع أعني في الطبيعة فحصر الأجسام الطبيعية بخلاف والأجسام العنصرية بلا خلاف في هذه الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ومع كونها أربعاً أمّهات فإنّ الله جعل اثنين منها أصلاً في وجود الاثنين الآخرين، فانفعلت اليبوسة عن الحرارة والرطوبة عن البرودة، فالرطوبة واليبوسة موجودتان عن سببين هما الحرارة والبرودة ولهذا ذكر الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] لأن المسبب يلزم من كونه مسبباً وجود السبب أو منفعلاً وجود الفاعل كيف شئت فقل ولا يلزم من وجود السبب وجود المسبب.

ولما خلق الله هذا الفلك الأوّل دار دورة غير معلومة الانتهاء إلاَّ لله تعالىٰ لأنه ليس فوقه شيء محدود من الأجرام يقطع فيه فإنه أوّل الأجرام الشفافة فتتعدّد الحركات وتتميز ولا كان قد خلق الله في جوفه شيئاً فتتميز الحركات وتنتهي عند من يكون في جوفه، ولو كان لم تتميز أيضاً لأنه أطلس لا كوكب فيه متشابه الأجزاء، فلا يعرف مقدار الحركة الواحدة منه ولا تتعين، فلو كان فيه جزء مخالف لسائر أجزائه عدّ به حركاته بلا شك، ولكن علم الله قدرها وانتهاءها وكرورها فحدث عن تلك الحركة اليوم ولم يكن، ثمّ ليل ولا نهار في هذا اليوم، ثم استمرّت حركات هذا الفلك فخلق الله ملائكة خمسة وثلاثين ملكاً أضافهم إلى ما ذكرنا من الأملاك الستة عشر فكان الجميع أحداً وخمسين ملكاً، من جملة هؤلاء الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم خلق تسعمائة ملك وأربعاً وسبعين وأضافهم إلى ما ذكرناه من الأملاك وأوحى إليهم وأمرهم بما يجري على أيديهم في خلقه فقالوا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] وقال فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] فهؤلاء من الملائكة هم الولاة خاصة، وخلق الله ملائكة هم عمّار السموات والأرض لعبادته، فما في السماء والأرض موضع إلاَّ وفيه ملك، ولا يزال الحق يخلق من أنفاس العالم ملائكة ما داموا متنفسين.

ولما انتهى من حركات هذا الفلك الأول ومدته أربع وخمسون ألف سنة مما تعدون خلق الله الدار الدنيا وجعل لها أمداً معلوماً تنتهي إليه وتنقضي صورتها وتستحيل من كونها داراً لنا وقبولها صورة مخصوصة وهي التي نشاهدها اليوم إلى أن تبدّل الأرض غير الأرض والسموات. ولما انقضى من مدّ حركة هذا الفلك ثلاث وستون ألف سنة مما تعدون خلق الله الدار الآخرة الجنة والنار اللتين أعدّهما الله لعباده السعداء والأشقياء، فكان بين خلق الدنيا وخلق الآخرة تسع آلاف سنة مما تعدون، ولهذا سميت آخرة لتأخّر خلقها عن خلق الدنيا، وسميت الدنيا الأولى لأنها خلقت قبلها، قال تعالىٰ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الضحىٰ: الآية ٤] يخاطب نبيه ﷺ ولم يجعل للآخرة مدة ينتهي إليها بقاؤها فلها البقاء الدائم،

وجعل سقف الجنة هذا الفلك وهو العرش عندهم الذي لا تتعين حركته ولا تتميز فحركته دائمة لا تنقضي، وما من خلق ذكرناه خلق إلاّ وتعلق القصد الثاني منه وجود الإنسان الذي هو الخليفة في العالم، وإنما قلت القصد الثاني إذ كان القصد الأوّل معرفة الحق وعبادته التي لها خلق العالم كله، فما من شيء إلاّ وهو يسبح بحمده، ومعنى القصد الثاني والأول التعلق الإراديّ لا حدوث الإرادة لأنّ الإرادة لله صفة قديمة أزلية اتصفت بها ذاته كسائر صفاته.

ولما خلق الله هذه الأفلاك والسموات وأوحى في كل سماء أمرها ورتّب فيها أنوارها وسرجها وعمرها بملائكته وحرّكها تعالىٰ فتحرّكت طائعة لله آتية إليه طلباً للكمال في العبودية التي تليق بها لأنه تعالىٰ دعاها ودعا الأرض ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] لأمر حد لهما ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فهما آتيتان أبداً، فلا تزالان متحرّكتين، غير أنّ حركة الأرض خفية عندنا، وحركتها حول الوسط لأنها أكر، فأمّا السماء فأتت طائعة عند أمر الله لها بالإتيان، وأما الأرض فأتت طائعة لما علمت نفسها مقهورة وأنه لا بدّ أن يؤتى بها بقوله أو كرهاً فكانت المرادة بقوله تعالىٰ أو كرهاً فأتت طائعة كرهاً ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وقد كان خلق الأرض ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] من أجل المولدات فجعلها خزانة لأقواتهم، وقد ذكرنا ترتيب نشء العالم في كتاب عقلة المستوفز فكان من تقدير أقواتها وجود الماء والهواء والنار وما في ذلك من البخارات والسحب والبروق والرعود والآثار العلوية ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وخلق الجان من النار والطير والدواب البرية والبحرية والحشرات من عفونات الأرض ليصفو الهواء لنا من بخارات العفونات التي لو خالطت الهواء الذي أودع الله حياة هذا الإنسان والحيوان وعافيته فيه لكان سقيماً مريضاً معلولاً، فصفّى له الجوّ سبحانه لطفاً منه بتكوين هذه المعفنات فقلّت الأسقام والعلل، ولما استوت المملكة وتهيأت وما عرف أحد من هؤلاء المخلوقات كلها من أي جنس يكون هذا الخليفة الذي مهد الله هذه المملكة لوجوده.

فلما وصل الوقت المعين في علمه لإيجاد هذا الخليفة بعد أن مضى من عمر الدنيا سبع عشرة ألف سنة، ومن عمر الآخرة الذي لا نهاية له في الدوام ثمان آلاف سنة أمر الله بعض ملائكته أن يأتيه بقبضة من كل أجناس تربة الأرض فأتاه بها في خبر طويل معلوم عند الناس فأخذها سبحانه وخمّرها بيديه فهو قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [سورة ص: الآية ٧٥] وكان الحق قد أودع عند كل ملك من الملائكة الذين ذكرناهم وديعة لآدم وقال لهم: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [سورة ص: الآية ٧١] وهذه الودائع التي بأيديكم له فإذا خلقته فليؤدّ إليه كل واحد منكم ما عنده مما أمنتكم عليه، ثم إذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فلما خمّر الحق تعالىٰ بيديه طينة آدم حتى تغيّر ريحها وهو المسنون وذلك الجزء الهوائيّ الذي في النشأة جعل ظهره محلاً للأشقياء والسعداء من ذريته فأودع فيه ما كان في قبضتيه، فإنه سبحانه أخبرنا أن في قبضة يمينه السعداء وفي قبضة اليد الأخرى الأشقياء وكلتا يدي ربي يمين

مباركة، وقال: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، وأودع الكل طينة آدم وجمع فيه الأضداد بحكم المجاورة وأنشأه على الحركة المستقيمة وذلك في دولة السنبلة وجعله ذا جهات ست الفوق وهو ما يلي رأسه، والتحت يقابله وهو ما يلي رجليه، واليمين وهو ما يلي جانبه الأقوى، والشمال يقابله وهو ما يلي جانبه الأضعف، والأمام وهو ما يلي الوجه، ويقابله الخلف وهو ما يلي القفا، وصوّره وعدله وسوّاه ثم نفخ فيه من روحه المضاف إليه فحدث عند هذا النفخ فيه بسريانه في أجزائه أركان الأخلاط التي هي الصفراء والسوداء والدم والبلغم، فكانت الصفراء عن الركن الناريّ الذي أنشأه الله منه في قوله تعالىٰ: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٤] وكانت السوداء عن التراب وهو قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] وكان الدم من الهواء وهو قوله: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٨] وكان البلغم من الماء الذي عجن به التراب فصار طيناً ثم أحدث فيه القوّة الجاذبة التي بها يجذب الحيوان الأغذية، ثم القوّة الماسكة وبها يمسك ما يتغذى به الحيوان، ثم القوّة الهاضمة وبها يهضم الغذاء، ثم القوّة الدافعة وبها يدفع الفضلات عن نفسه من عرق وبخار ورياح وبراز وأمثال ذلك، وأمّا سريان الأبخرة وتقسيم الدم في العروق من الكبد وما يخلصه كل جزء من الحيوان فبالقوّة الجاذبة لا الدافعة، فحظ القوّة الدافعة ما نخرجه كما قلنا من الفضلات لا غير، ثم أحدث فيه القوّة الغاذية والمنمية والحاسية والخيالية والوهمية والحافظة والذاكرة، وهذا كله في الإنسان بما هو حيوان لا بما هو إنسان فقط، غير أن هذه القوىٰ الأربعة قوّة الخيال والوهم والحفظ والذكر هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان، ثم خصّ آدم الذي هو الإنسان بالقوّة المصوّرة والمفكرة والعاقلة فتميز عن الحيوان وجعل هذه القوىٰ كلها في هذا الجسم آلات للنفس الناطقة لتصل بذلك إلى جميع منافعها المحسوسة والمعنوية، ثم أنشأه خلقاً آخر وهو الإنسانية فجلعه درّاكاً بهذه القوىٰ حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً على حدّ معلوم معتاد في اكتسابه ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤].

ثم إنه سبحانه ما سمّى نفسه باسم من الأسماء إلاَّ وجعل للإنسان من التخلق بذلك الاسم حظاً منه يظهر به في العالم على قدر ما يليق به، ولذلك تأوّل بعضهم قوله عليه السلام: «**إِن اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» على هذا المعنى وأنزله خليفة عنه في أرضه إذ كانت الأرض من عالم التغيير والاستحالات بخلاف العالم الأعلى، فيحدث فيهم من الأحكام بحسب ما يحدث في العالم الأرضي من التغيير، فيظهر لذلك حكم جميع الأسماء الإلهية فلذلك كان خليفة في الأرض دون السماء والجنة، ثم كان من أمره ما كان من علم الأسماء وسجود الملائكة وإباية إبليس يأتي ذكر ذلك كله في موضعه إن شاء الله، فإن هذا الباب مخصوص بابتداء الجسوم الإنسانية وهي أربعة أنواع: جسم آدم، وجسم حوّاء، وجسم عيسىٰ، وأجسام بني آدم، وكل جسم من هذه الأربعة نشؤه يخالف نشء الآخر في السببية مع الاجتماع في الصورة الجسمانية والروحانية، وإنما سقنا هذا ونبهنا عليه لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية أو أن

الحقائق لا تعطى أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلاّ عن سبب واحد يعطي بذاته هذا النشء، فرذ الله هذه الشبهة بأن أظهر هذا النشء الإنسانيّ في آدم بطريق لم يظهر به جسم حوّاء، وأظهر جسم حوّاء بطريق لم يظهر جسم ولد آدم، وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسىٰ عليه السلام، وينطلق على كل واحد من هؤلاء اسم الإنسان بالحد والحقيقة، ذلك ليعلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٧٥] ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٦].

ثم إن الله قد جمع هذه الأربعة الأنواع من الخلق في آية من القرآن في سورة الحجرات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ يريد آدم ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ يريد حوّاء ﴿وَأُنثَىٰ﴾ يريد عيسىٰ، ومن المجموع ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يريد بني آدم بطريق النكاح والتوالد، فهذه الآية من جوامع الكلم وفصل الخطاب الذي أوتي محمد ﷺ.

ولما ظهر جسم آدم كما ذكرناه ولم تكن فيه شهوة نكاح وكان قد سبق في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل والنكاح في هذه الدار إنما هو لبقاء النوع فاستخرج من ضلع آدم من القصيرى حوّاء فقصرت بذلك عن درجة الرجل كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٨] فما تلحق بهم أبداً وكانت من الضلع للانحناء الذي في الضلوع لتحنو بذلك على ولدها وزوجها، فحنوّ الرجل على المرأة حنوّه على نفسه لأنها جزء منه، وحنوّ المرأة على الرجل لكونها خلقت من الضلع والضلع فيه انحناء وانعطاف.

وعمر الله الموضع من آدم الذي خرجت منه حوّاء بالشهوة إليها إذ لا يبقى في الوجود خلاء، فلما عمره بالهواء حنّ إليها حنينه إلى نفسه لأنها جزء منه، وحنّت إليه لكونه موطنها الذي نشأت فيه، فحب حوّاء حب الموطن، وحب آدم حب نفسه، ولذلك يظهر حب الرجل للمرأة إذ كانت عينه، وأعطيت المرأة القوّة المعبر عنها بالحياء في محبة الرجل فقويت على الإخفاء لأن الموطن لا يتحد بها اتحاد آدم بها، فصوّر في ذلك الضلع جميع ما صوّره وخلقه في جسم آدم، فكان نشء جسم آدم في صورته كنشء الفاخوريّ فيما ينشئه من الطين والطبخ، وكان نشء جسم حوّاء نشء النجار فيما ينحته من الصور في الخشب، فلما نحتها في الضلع وأقام صورتها وسوّاها وعدلها نفخ فيها من روحه فقامت حية ناطقة أنثى ليجعلها محلاً للزراعة والحرث لوجود الإنبات الذي هو التناسل، فسكن إليها وسكنت إليه، وكانت لباساً له وكان لباساً لها، قال تعالىٰ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٧] وسرت الشهوة منه في جميع أجزائه فطلبها فلما تغشاها وألقى الماء في الرحم ودار بتلك النطفة من الماء دم الحيض الذي كتبه الله على النساء تكوّن في ذلك الجسم جسم ثالث على غير ما تكوّن منه جسم آدم وجسم حوّاء فهذا هو الجسم الثالث، فتوّلاه الله بالنشء في الرحم حالاً بعد حال بالانتقال من ماء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظم ثم كسا العظم لحماً، فلما أتمّ نشأته الحيوانية أنشأه خلقاً آخر فنفخ فيه الروح الإنساني ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] ولولا طول الأمر لبيّنا تكوينه في الرحم حالاً بعد حال، ومن يتولى

ذلك من الملائكة الموكلين بإنشاء الصور في الأرحام إلى حين الخروج، ولكن كان الغرض الإعلام بأن الأجسام الإنسانية وإن كانت واحدة في الحد والحقيقة والصور الحسيّة والمعنوية فإن أسباب تأليفها مختلفة لئلا يتخيل أن ذلك لذات السبب تعالىٰ الله، بل ذلك راجع إلى فاعل مختار يفعل ما يشاء كيف يشاء من غير تحجير ولا قصور على أمر دون أمر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦].

ولما قال أهل الطبيعة أن ماء المرأة لا يتكوّن منه شيء وأن الجنين الكائن في الرحم إنما هو من ماء الرجل لذلك جعلنا تكوين جسم عيسىٰ تكويناً آخر وإن كان تدبيره في الرحم تدبير أجسام البنين، فإن كان من ماء المرأة إذ تمثل لها الروح بشراً سوياً، أو كان عن نفخ بغير ماء، فعلى كل وجه هو جسم رابع مغاير في النشء غيره من أجسام النوع ولذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي صفة نشء عيسىٰ ﴿عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] الضمير يعود على آدم، ووقع الشبه في خلقه من غير أب أي صفة نشئه صفة نشء آدم إلاَّ أن آدم خلقه من تراب ثم قال له كن، ثم إن عيسىٰ على ما قيل لم يلبث في بطن مريم لبث البنين المعتاد لأنه أسرع إليه التكوين لما أراد الله أن يجعله آية ويردّ به على الطبيعيين حيث حكموا على الطبيعة بما أعطتهم من العادة لا بما تقتضيه مما أودع الله فيها من الأسرار والتكوينات العجيبة، ولقد أنصف بعض حذاق هذا الشأن الطبيعة فقال: لا نعلم منها إلاَّ ما أعطتنا خاصة وفيها ما لا نعلم، فهذا قد ذكرنا ابتداء الجسوم الإنسانية وأنها أربعة أجسام مختلفة النشء كما قررنا وأنه آخر المولدات، فهو نظير العقل الأوّل وبه ارتبط لأن الوجود دائرة، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول الذي ورد في الخبر أنه أول ما خلق الله العقل فهو أول الأجناس وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني فكملت الدائرة، واتصل الإنسان بالعقل كما يتصل آخر الدائرة بأولها فكانت دائرة، وما بين طرفي الدائرة جميع ما خلق الله من أجناس العالم بين العقل الأول الذي هو القلم أيضاً وبين الإنسان الذي هو الموجود الآخر، ولما كانت الخطوط الخارجة من النقطة التي في وسط الدائرة إلى المحيط الذي وجد عنها تخرج على السواء لكل جزء من المحيط، كذلك نسبة الحق تعالىٰ إلى جميع الموجودات نسبة واحدة، فلا يقع هناك تغيير البتة كانت الأشياء كلها ناظرة إليه وقابلة منه ما يهبها نظر أجزاء المحيط إلى النقطة، وأقام سبحانه هذه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة صورة العمد الذي للخيمة فجعله لقبة هذه السموات، فهو سبحانه يمسكها أن تزول بسببه فعبرنا عنه بالعمد، فإذا فنيت هذه الصورة ولم يبق منها على وجه الأرض أحد متنفس وانشقت السماء فهي يومئذ واهية لأن العمد زال وهو الإنسان.

ولما انتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان إليها وخربت الدنيا بانتقاله عنها علمنا قطعاً أن الإنسان هو العين المقصودة لله من العالم وأنه الخليفة حقاً، وأنه محل ظهور الأسماء الإلهية، وهو الجامع لحقائق العالم كله من ملك وفلك وروح وجسم وطبيعة وجماد ونبات وحيوان إلى ما خصّ به من علم الأسماء الإلهية مع صغر حجمه وجرمه، وإنما قال الله فيه بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس لكون الإنسان متولداً عن السماء

والأرض فهما له كالأبوين فرفع الله مقدارهما ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلم يرد في الجرمية، فإن ذلك معلوم حسّاً، غير أن الله تعالىٰ ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحداً من خلقه، إمّا لأن يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله، فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوّة تسمّى الفكر، وجعل هذه القوّة خادمة لقوّة أخرى تسمّى العقل، وجبر العقل مع سيادته على الفكر أن يأخذ منه ما يعطيه ولم يجعل للفكر مجالاً إلاّ في القوّة الخيالية، وجعل سبحانه القوّة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطيها القوّة الحساسة، وجعل له قوّة يقال لها المصوّرة فلا يحصل في القوّة الخيالية إلاّ ما أعطاه الحسّ أو أعطته القوّة المصوّرة، ومادة المصوّرة من المحسوسات فتركب صوراً لم يوجد لها عين، لكن أجزاؤها كلها موجودة حسّاً، وذلك لأن العقل خلق ساذجاً ليس عنده من العلوم النظرية شيء، وقيل للفكر ميّز بين الحق والباطل الذي في هذه القوّة الخيالية فينظر بحسب ما يقع له فقد يحصل في شبهة وقد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك، ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشبه من الأدلة وأنه قد حصل على علم، ولم ينظر إلى قصور المواد التي استند إليها في اقتناء العلوم فيقبلها العقل منه ويحكم بها فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب.

ثم إن الله كلف هذا العقل معرفته سبحانه ليرجع إليه فيها لا إلى غيره، ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سورة الروم: الآية ٨] ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] فاستند إلى الفكر وجعله إماماً يقتدى به، وغفل عن الحق في مراده بالتفكّر أنه خاطبه أن يتفكر، فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلاّ بتعريف الله، فيكشف له عن الأمر على ما هو عليه، فلم يفهم كل عقل هذا الفهم إلاّ عقول خاصة الله من أنبيائه وأوليائه، يا ليت شعري هل بأفكارهم قالوا بلى حين أشهدهم على أنفسهم في قبضة الذرية من ظهر آدم؟ لا والله بل عناية إشهاده إياهم ذلك عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم ولما رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله لم يجتمعوا قط على حكم واحد في معرفة الله، وذهب كل طائفة إلى مذهب، وكثرت القالة في الجناب الإلهيّ الأحمى، واجترؤوا غاية الجراءة على الله، وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه من خلقه الفكر في الإنسان وأهل الله افتقروا إليه فيما كلفهم من الإيمان به في معرفته، وعلموا أن المراد منهم رجوعهم إليه في ذلك، وفي كل حال فمنهم القائل سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلاّ العجز عن معرفته، ومنهم من قال العجز عن درك الإدراك إدراك. وقال ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**». وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٠] فرجعوا إلى الله في المعرفة به وتركوا الفكر في مرتبته ووفوه حقّه لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكّر فيه، وقد ورد النهي عن التفكّر في ذات الله والله يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] فوهبهم الله من معرفته ما وهبهم وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم، فعلموا أنه ما يستحيل عقلاً من طريق الفكر لا يستحيل نسبة إلهية، كما سنورد من ذلك طرفاً في باب الأرض المخلوقة من بقية طينة آدم وغيرها، فالذي ينبغي للعاقل أن يدين الله به في نفسه أن يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] من ممكن ومحال، ولا كل محال نافذ

الاقتدار واسع العطاء ليس لإيجاده تكرار، بل أمثال تحدث في جوهر أوجده وشاء بقاه ولو شاء أفناه مع الأنفاس، لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم.

الباب الثامن

في معرفة الأرض التي خلقت من بقية خميرة طينة آدم عليه السلام وهي أرض الحقيقة وذكر بعض ما فيها من الغرائب والعجائب

[نظم: الكامل]

يا أختُ بل يا عمتي المعقولَهْ ... أنتِ الأميمةُ عندنا المجهولَهْ
نظر البنونُ إليكِ أختَ أبيهمُو ... فتنافسوا عن هِمَّةٍ مغلولَهْ
إلا القليلُ من البنين فإنهمْ ... عطفوا عليكِ بأنفسٍ مجبولَهْ
يا عمتي قُلْ كيف أظهر سرَّهُ ... فيكِ الأخيُّ محققاً تنزيلَهْ
حتى بدا من مثل ذاتِك عالمٌ ... قد يرتضي ربُّ الورى تَوْكيلَهْ
أنتِ الإمامةُ والإمامُ أخوك والـ ... ـمأمومُ أمثالٌ له مَسْلولَهْ

اعلم أن الله تعالىٰ لما خلق آدم عليه السلام الذي هو أول جسم إنسانيّ تكوّن وجعله أصلاً لوجود الأجسام الإنسانية وفضلت من خميرة طينته فضلة خلق منها النخلة فهي أخت لآدم عليه السلام وهي لنا عمة، وسمّاها الشرع عمة وشبهها بالمؤمن، ولها أسرار عجيبة دون سائر النبات، وفضل من الطينة بعد خلق النخلة قدر السمسمة في الخفاء فمدّ الله في تلك الفضلة أرضاً واسعة الفضاء إذا جعل العرش وما حواه والكرسيّ والسموات والأرضون وما تحت الثرى والجنات كلها والنار في هذه الأرض كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره، وفي كل نفس خلق الله فيها عوالم يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله وعظمت عند المشاهد لها قدرته، وكثير من المحالات العقلية التي قام الدليل الصحيح العقليّ على إحالتها هي موجودة في هذه الأرض، وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله وفيها يجولون، وخلق الله من جملة عوالمها عالماً على صورنا إذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها، وقد أشار إلى مثل ذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه فيما روي عنه في حديث هذه الكعبة وأنها بيت واحد من أربعة عشر بيتاً، وأنّ في كل أرض من السبع الأرضين خلقاً مثلنا حتى أن فيهم ابن عباس مثلي، وصدقت هذه الرواية عند أهل الكشف، فلنرجع إلى ذكر هذه الأرض واتساعها وكثرة عالمها المخلوقين فيها ومنها، ويقع للعارفين فيها تجليات إلهية.

أخبر بعض العارفين بأمر أعرفه شهوداً قال: دخلت فيها يوماً مجلساً يسمّى مجلس الرحمة لم أر مجلساً قط أعجب منه، فبينا أنا فيه إذ ظهر لي تجلّ إلهيّ لم يأخذني عني بل أبقاني معي وهذا من خاصية هذه الأرض، فإن التجليات الواردة على العارفين في هذه الدار

في هذه الهياكل تأخذهم عنهم وتفنيهم عن شهودهم من الأنبياء والأولياء وكل من وقع له ذلك، وكذلك عالم السموات العلى، والكرسيّ الأزهى، وعالم العرش المحيط الأعلى، إذا وقع لهم تجلّ إلهيّ أخذهم عنهم وصعقوا، وهذه الأرض إذا حصل فيها صاحب الكشف العارف ووقع له تجلّ لم يفنه عن شهوده ولا اختطفه عن وجوده وجمع له بين الرؤية والكلام، قال: واتفق لي في هذا المجلس أمور وأسرار لا يسعني ذكرها لغموض معانيها وعدم وصول الإدراكات قبل أن يشهد مثل هذه المشاهد لها، وفيها من البساتين والجنات والحيوان والمعادن ما لا يعلم قدر ذلك إلاَّ الله تعالىٰ، وكل ما فيها من هذا كله حيّ ناطق كحياة كل حيّ ناطق ما هو مثل ما هي الأشياء في الدنيا وهي باقية لا تفنى ولا تتبدّل ولا يموت عالمها، وليست تقبل هذه الأرض شيئاً من الأجسام الطبيعية الطينية البشرية سوى عالمها أو عالم الأرواح منا بالخاصية، وإذا دخلها العارفون إنما يدخلونها بأرواحهم لا بأجسامهم فيتركون هياكلهم في هذه الأرض الدنيا ويتجرّدون، وفي تلك الأرض صور عجيبة النشء بديعة الخلق قائمون على أفواه السكك المشرفة على هذا العالم الذي نحن فيه من الأرض والسماء والجنة والنار، فإذا أراد واحد منا الدخول لتلك الأرض من العارفين من أيّ نوع كان من إنس أو جنّ أو ملك أو أهل الجنة بشرط المعرفة وتجرّد عن هيكله، وجد تلك الصور على أفواه السكك قائمين موكلين بها قد نصبهم الله سبحانه لذلك الشغل، فيبادر واحد منهم إلى هذا الداخل فيخلع عليه حلة على قدر مقامه ويأخذ بيده ويجول به في تلك الأرض ويتبوّأ منها حيث يشاء، ويعتبر في مصنوعات الله، ولا يمرّ بحجر ولا شجر ولا مدر ولا شيء ويريد أن يكلمه إلاَّ كلمه كما يكلم الرجل صاحبه، ولهم لغات مختلفة، وتعطي هذه الأرض بالخاصية لكل من دخلها الفهم بجميع ما فيها من الألسنة، فإذا قضى منها وطره وأراد الرجوع إلى موضعه مشى معه رفيقه إلى أن يوصله إلى الموضع الذي دخل منه يوادعه ويخلع عنه تلك الحلة التي كساه وينصرف عنه، وقد حصل علوماً جمة ودلائل وزاد في علمه بالله ما لم يكن عنده مشاهدة، وما رأيت الفهم ينفد أسرع مما ينفد إذا حصل في هذه الأرض.

وقد ظهر عندنا في هذه الدار وهذه النشأة ما يعضد هذا القول، فمن ذلك ما شاهدناه ولا أذكره، ومنها ما حدّثني أوحد الدين حامد بن أبي الفخر الكرماني وفقه الله قال: كنت أخدم شيخاً وأنا شابّ فمرض الشيخ وكان في محارة وقد أخذه البطن، فلما وصلنا تكريت قلت له يا سيدي اتركني اطلب لك دواء ممسكاً من صاحب مارستان سنجار من السبيل، فلما رأى احتراقي قال لي: رح إليه، قال: فرحت إلى صاحب السبيل وهو في خيمته جالس ورجاله بين يديه قائمون والشمعة بين يديه وكان لا يعرفني ولا أعرفه فرآني واقفاً بين الجماعة فقام إليّ وأخذ بيدي وأكرمني وسألني ما حاجتك فذكرت له حال الشيخ فاستحضر الدواء وأعطاني إياه وخرج معي في خدمتي والخادم بالشمعة بين يديه فخفت أن يراه الشيخ فيحرج فحلفت عليه أن يرجع فرجع فجئت الشيخ وأعطيته الدواء وذكرت له كرامة الأمير صاحب السبيل بي، فتبسم الشيخ وقال لي: يا ولدي إني أشفقت عليك لما رأيت من احتراقك من

أجلي فأذنت لك فلما مشيت خفت أن يخجلك الأمير بعدم إقباله عليك فتجردت عن هيكلي هذا ودخلت في هيكل ذلك الأمير وقعدت في موضعه، فلما جئت أكرمتك وفعلت معك ما رأيت ثم عدت إلى هيكلي هذا ولا حاجة لي في هذا الدواء وما أستعمله، فهذا شخص قد ظهر في صورة غيره فكيف أهل تلك الأرض؟

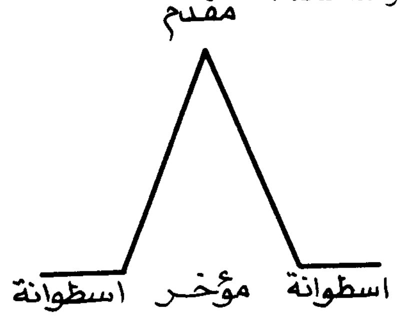
قال لي بعض العارفين: لما دخلت هذه الأرض رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر لو شمّه أحد منا في هذه الدنيا لهلك لقوّة رائحته تمتدّ ما شاء الله أن تمتدّ، ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهب الأحمر اللين فيها أشجار كلها ذهب وثمرها ذهب فيأخذ التفاحة أو غيرها من الثمر فيأكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونعمتها ما لا يصفها واصف تقصر فاكهة الجنة عنها فكيف فاكهة الدنيا، والجسم والشكل والصورة ذهب، والصورة والشكل كصورة الثمرة وشكلها عندنا وتختلف في الطعم، وفي الثمرة من النقش البديع والزينة الحسنة ما لا تتوهمه نفس، فأحرى أن تشهده عين، ورأيت من كبر ثمرها بحيث لو جعلت الثمرة بين السماء والأرض لحجبت أهل الأرض عن رؤية السماء، ولو جعلت على الأرض لفضلت عليها أضعافاً، وإذا قبض عليها الذي يريد أكلها بهذه اليد المعهودة في القدر عمّها بقبضته لنعمتها ألطف من الهواء يطبق عليها يده مع هذا العظم، وهذا مما تحيله العقول هنا في نظرها، ولما شاهدها ذو النون المصري نطق بما حكي عنه من إيراد الكبير على الصغير من غير أن يصغر الكبير أو يكبر الصغير أو يوسع الضيق أو يضيق الواسع، فالعظم في التفاحة على ما ذكرته باق، والقبض عليها باليد الصغيرة والإحاطة بها موجود، والكيفية مشهودة مجهولة لا يعرفها إلاّ الله، وهذا العلم مما انفرد الحق به، واليوم الواحد الزماني عندنا هو عدة سنين عندهم، وأزمنة تلك الأرض مختلفة.

قال: ودخلت فيها أرضاً من فضة بيضاء في الصورة ذات شجر وأنهار وثمر شهي كل ذلك فضة، وأجسام أهلها منها كلها فضة، وكذلك كل أرض شجرها وثمرها وأنهارها وبحارها وخلقها من جنسها، فإذا تنوولت وأكلت وجد فيها من الطعم والروائح والنعمة مثل سائر المأكولات، غير أن اللذة لا توصف ولا تحكى، ودخلت فيها أرضاً من الكافور الأبيض وهي في أماكن منها أشد حرارة من النار يخوضها الإنسان ولا تحرقه، وأماكن منها معتدلة، وأماكن باردة، وكل أرض من هذه الأرضين التي هي أماكن في هذه الأرض الكبيرة لو جعلت السماء فيها لكانت كحلقة في فلاة بالنسبة إليها، وما في جميع أراضيها أحسن عندي ولا أوفق لمزاجي من أرض الزعفران، وما رأيت عالماً من عالم كل أرض أبسط نفوساً منهم ولا أكثر بشاشة بالوارد عليهم يتلقونه بالترحيب والتأهيل، ومن عجائب مطعوماتها أنه أي شيء أكلت منها إذا قطعت من الثمر قطعة نبتت في زمان قطعك إياها مكانها ما سد تلك الثلمة أو تقطف بيدك ثمرة من ثمرها فزمان قطفك إياها يتكوّن مثلها بحيث لا يشعر بها إلاّ الفطن فلا يظهر فيها نقص أصلاً، وإذا نظرت إلى نسائها ترى أن النساء الكائنين في الجنة من الحور بالنسبة إليهن كنسائنا من البشر بالنسبة إلى الحور في الجنان، وأمّا مجامعتهن فلا يشبه لذتها لذة،

وأهلها أعشق الخلق فيمن يرد عليهم، وليس عندهم تكليف بل هم مجبولون على تعظيم الحق وجلاله تعالىٰ، لو راموا خلاف ذلك ما استطاعوا، وأما أبنيتهم فمنها ما يحدث عن هممهم، ومنها ما يحدث كما تبنى عندنا من اتخاذ الآلات وحسن الصنعة، ثم إن بحارها لا يمتزج بعضها ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٩، ٢٠] فتعاين منتهى بحر الذهب تصطفق أمواجه ويباشره بالمجاورة بحر الحديد فلا يدخل من واحد في الآخر شيء، وماؤهم ألطف من الهواء في الحركة والسيلان وهو من الصفاء بحيث أن لا يخفى عنك من دوابه ولا من الأرض التي يجري البحر عليها شيء، فإذا أردت أن تشرب منه وجدت له من اللذة ما لا تجده لمشروب أصلاً، وخلقها ينبتون فيها كسائر النباتات من غير تناسل، بل يتكوّنون من أرضها تكوّن الحشرات عندنا، ولا ينعقد من مائهم في نكاحهم ولد وإن نكاحهم إنما هو لمجرّد الشهوة والنعيم، وأما مراكبهم فتعظم وتصغر بحسب ما يريده الراكب، وإذا سافروا من بلد إلى بلد فإنهم يسافرون برّاً وبحراً، وسرعة مشيهم في البرّ والبحر أسرع من إدراك البصر للمبصر، وخلقها متفاوتون في الأحوال، ففيهم من تغلب عليهم الشهوات، وفيهم من يغلب عليهم تعظيم جناب الحق، ورأيت فيها ألواناً لا أعرفها في ألوان الدنيا، ورأيت فيها معادن تشبه الذهب وما هي بذهب ولا نحاس، وأحجاراً من اللآلىء ينفذها البصر لصفائها شفافة من اليواقيت الحمر، ومن أعجب ما فيها إدراك الألوان في الأجسام السفلية التي هي كالهواء، ويتعلق الإدراك بألوانها كما يتعلق بالألوان التي في الأجسام الكثيفة، وعلى أبواب مدائنها عقود من الأحجار الياقوتية كل حجر منها يزيد على الخمسمائة ذراع، وعلوّ الباب في الهواء عظيم وعليه معلق من الأسلحة والعدد ما لو اجتمع ملك الأرض كلها ما وفى بها، وعندهم ظلمة ونور من غير شمس تتعاقب، وبتعاقبهما يعرفون الزمان، وظلمتهم لا تحجب البصر عن مدركه كما لا يحجبه النور، ويغزو بعضهم بعضاً من غير شحناء ولا عداوة ولا فساد بنية، وإذا سافروا في البحر وغرقوا لا يعدو عليهم الماء كما يعدو علينا بل يمشون فيه كمشي دوابه حتى يلحقوا بالساحل، وتحل بتلك الأرض زلازل لو حلّت بنا لانقلبت الأرض وهلك ما كان عليها.

وقال: لقد كنت يوماً مع جماعة منهم في حديث وجاءت زلزلة شديدة بحيث أني رأيت الأبنية تتحرك كلها تحركاً لا يقدر البصر يتمكن من رؤيتها لسرعة الحركة مروراً وكروراً وما عندنا خبر وكأنا على الأرض قطعة منها إلى أن فرغت الزلزلة، فلما فرغت وسكنت الأرض أخذت الجماعة بيدي وعزتني في ابنة لي اسمها فاطمة فقلت للجماعة إني تركتها في عافية عند والدتها قالوا صدقت ولكن هذه الأرض ما تزلزل بنا وعندنا أحد إلاً مات ذلك الشخص أو مات له أحد، وإن هذه الزلزلة لموت ابنتك فانظر في أمرها، فقعدت معهم ما شاء الله وصاحبي ينتظرني، فلما أردت فراقهم مشوا معي إلى فم السكة وأخذوا خلعتهم وجئت إلى بيتي فلقيت صاحبي فقال لي: إن فاطمة تنازع فدخلت عليها فقضت وكنت بمكة مجاوراً فجهزناها ودفناها بالمعلى، فهذا من أعجب ما أخبرت عن تلك الأرض، ورأيت بها كعبة

يطوف بها أهلها غير مكسوّة وتكون أكبر من البيت الذي بمكة ذات أركان أربعة تكلمهم إذا طافوا بها وتحييهم وتفيدهم علوماً لم تكن عندهم، ورأيت في هذه الأرض بحراً من تراب يجري مثل ما يجري الماء، ورأيت حجارة صغاراً وكباراً يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس، فتتألف هذه الحجارة ولا تنفصل بعضها من بعض بطبعها إلاّ إن فصلها فاصل مثل ما يفصل الحديد عن المغناطيس ليس في قوّته أن يمتنع فإذا ترك وطبعه جرت بعضها إلى بعض على مقدار من المساحة مخصوص، فتضم هذه الحجارة بعضها إلى بعض فينشأ منها صورة سفينة، ورأيت منها مركباً صغيراً وشينبين فإذا التأمت السفينة من تلك الحجارة رموا بها في بحر التراب وركبوا فيها وسافروا حيث يشتهون من البلاد، غير أن قاع السفينة من رمل أو تراب يلصق بعضه ببعض لصوق الخاصية، فمما رأيت فيما رأيت أعجب من جريان هذه السفن في ذلك البحر وصورة الإنشاء في المراكب سواء، غير أن لهم في جناحي السفينة مما يلي مؤخرها أسطوانتين عظيمتين تعلو المركب أكثر من القامة، وأرض المركب من جهة مؤخره ما بين الأسطوانتين مفتوح متساو مع البحر، ولا يدخل فيه من رمل ذلك البحر شيء أصلاً بالخاصية وهذا شكله:



وفي هذه الأرض مدائن تسمّى مدائن النور لا يدخلها من العارفين إلاّ كل مصطفى مختار، وهي ثلاث عشرة مدينة، وهي على سطح واحد وبنيانها عجيب، وذلك أنهم عمدوا إلى موضع في هذه الأرض فبنوا فيه مدينة صغيرة لها أسوار عظيمة يسير الراكب فيها إذا أراد أن يدور بها مسيرة ثلاثة أعوام، فلما أقاموها جعلوها خزانة لمنافعهم ومصالحهم وعددهم، وأقاموا على بعد من جوانبها أبراجاً تعلو على أبراج المدينة بما دار بها، ومدوا البناء بالحجارة حتى صار للمدينة كالسقف للبيت، وجعلوا ذلك السقف أرضاً بنوا عليه مدينة أعظم من التي بنوا أولاً، وعمروها واتخذوها مسكناً فضاقت عنهم، فبنوا عليها مدينة أخرى أكبر منها، وما زال يكثر عمارها وهم يصعدون بالبنيان طبقة فوق طبقة حتى بلغت ثلاث عشرة مدينة، ثم أني غبت عنهم مدة ثم دخلت إليهم مرة أخرى فوجدتهم قد زادوا مدينتين واحدة فوق أخرى، ولهم ملوك فيهم لطف وحنان صحبت منهم جماعة منهم التالي وهو التابع بمنزلة القيل في حمير، ولم أر ملكاً أكثر منه ذكراً لله قد شغله ذكر الله عن تدبير ملكه انتفعت به، وكان كثير المجالسة لي، ومنهم ذو العرف وهو ملك عظيم لم أر في ملوك الأرض أكثر من تأتي إليه الرسل من الملوك منه وهو كثير الحركة هين لين يصل إليه كل أحد يتلطف في النزول، لكنه

إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، أعطاه الله من القوّة ما شاء، ورأيت لبحرها ملكاً منيع الحمى يدعى السابح هو قليل المجالسة مع من يقصد إليه وما له ذلك الالتفات إلى أحد غير أنه مع ما يخطر له لا مع ما يراد منه، ويجاوره سلطان عظيم اسمه السابق إذا دخل عليه الوافد قام إليه من مجلسه وبش في وجهه وأظهر السرور بقدومه وقام له بجميع ما يحتاج إليه من قبل أن يسأله عن شيء، فقلت له في ذلك فقال لي: أكره أن أرى في وجه السائل ذلّة السؤال لمخلوق غيره أن يذل أحد لغير الله، وما كل أحد يقف مع الله على قدم التوحيد، وإن أكثر الوجوه مصروفة إلى الأسباب الموضوعة مع الحجاب عن الله، فهذا يجعلني أن أبادر إلى ما ترى من كرامة الوافد.

قال: ودخلت على ملك آخر يدعى القائم بأمر الله لا يلتفت إلى الوافد عليه لاستيلاء عظمة الحق على قلبه فلا يشعر بالوافد، وما يفد عليه من يفد من العارفين إلاّ لينظروا إلى حاله التي هو عليها، تراه واقفاً قد عقد يديه إلى صدره عقد العبد الذليل الجاني مطرقاً إلى موضع قدميه لا تتحرّك منه شعرة ولا يضطرب منه مفصل كما قيل في قوم هذه حالتهم مع سلطانهم: [البسيط]

كأنما الطيرُ منهم فوقَ أرْؤسهم لا خوفَ ظلم ولكن خوفَ إجلالِ

يتعلم العارفون منه حال المراقبة، قال: ورأيت ملكاً يدعى بالرادع مهيب المنظر لطيف المخبر شديد الغيرة دائم الفكرة فيما كلف النظر فيه، إذا رأى أحداً يخرج من طريق الحق ردّه إلى الحق، قال: صحبته وانتفعت به وجالست من ملوكهم كثيراً ورأيت منهم من العجائب مما يرجع إلى ما عندهم من تعظيم الله ما لو سطرناه لأعيى الكاتب والسامع، فاقتصرنا على هذا القدر من عجائب هذه الأرض ومدائنها لا تحصى كثرة، ومدائنها أكثر من ضياعها، وجميع من يملكها من الملوك ثمانية عشر سلطاناً، منهم من ذكرنا، ومنهم من سكتنا عنه، ولكل سلطان سيرة وأحكام ليست لغيره.

قال: وحضرت يوماً في ديوانهم لأرى ترتيبهم، فما رأيت أن الملك منهم هو الذي يقوم برزق رعيته بلغوا ما بلغوا، فرأيتهم إذا استوى الطعام وقف خلق لا يحصى عددهم كثرة يسمونهم الجباة وهم رسل أهل كل بيت فيعطيه الأمين من المطبخ على قدر عائلته ويأخذه الجابي وينصرف، وأمّا الذي يقسمه عليهم شخص واحد لا غير له من الأيدي على قدر الجباة، فيغرف في الزمن الواحد لكل شخص طعامه في وعائه وينصرف وما فضل من ذلك يرفع إلى خزانة، فإذا فرغ منهم ذلك القاسم دخل الخزانة وأخذ ما فضل وخرج به إلى الصعاليك الذين على باب دار الملك فيلقيه إليهم فيأكلوه، وهكذا في كل يوم. ولكل ملك شخص حسن الهيئة هو على الخزانة يدعونه الخازن بيده جميع ما يملكه ذلك الملك، ومن شرعهم أنه إذا ولاّه ليس له عزله، ورأيت فيهم شخصاً أعجبتني حركاته وهو جالس إلى جانب الملك وكنت على يمين الملك فسألته ما منزلة هذا عندكم؟ فتبسم وقال: أعجبك؟ قلت له: نعم، قال: هذا المعمار الذي يبني لنا المساكن والمدن وجميع ما تراه من آثار

عمله، ورأيت في سوق صيارفهم أنه لا ينتقد لهم سكتهم إلاَّ واحد في المدينة كلها وفيما تحت يد ذلك الملك من المدن.

قال: وهكذا رأيت سيرتهم في كل أمر لا يقوم به إلاَّ واحد لكن له وزعة وأهل هذه الأرض أعرف الناس بالله، وكل ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الأرض ممكناً قد وقع و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠] فعلمنا أن العقول قاصرة، وأن الله قادر على جمع الضدين، ووجود الجسم في مكانين، وقيام العرض بنفسه وانتقاله، وقيام المعنى بالمعنى، وكل حديث وآية وردت عندنا مما صرفها العقل عن ظاهرها وجدناها على ظاهرها في هذه الأرض، وكل جسد يتشكل فيه الروحانيّ من ملك وجن، وكل صورة يرى الإنسان فيها نفسه في النوم، فمن أجساد هذه الأرض لها من هذه الأرض موضع مخصوص، ولهم رقائق ممتدة إلى جميع العالم وعلى كل رقيقة أمين، فإذا عاين ذلك الأمين روحاً من الأرواح قد استعد لصورة من هذه الصور التي بيده كساه إياها كصورة دحية لجبريل، وسبب ذلك أن هذه الأرض مدّها الحق تعالىٰ في البرزخ وعيّن منها موضعاً لهذه الأجساد التي تلبسها الروحانيات وتنتقل إليها النفوس عند النوم وبعد الموت فنحن من بعض عالمها، ومن هذه الأرض طرف يدخل في الجنة يسمّى السوق، ونحن نبين لك مثال صورة امتداد الطرف الذي يلي العالم من هذه الأرض، وذلك أن الإنسان إذا نظر إلى السراج أو الشمس والقمر ثم حال بأهداب أجفانه بين الناظر والجسم المستنير يبصر من ذلك الجسم المستنير إلى عينيه شبه الخطوط من النور تتصل من السراج إلى عينيه متعددة، فإذا رفع تلك الأهداب من مقابلة الناظر قليلاً قليلاً يرى تلك الخطوط الممتدة تنقبض إلى الجسم المستنير، فالجسم المستنير مثال للموضع المعين من هذه الأرض لتلك الصور والناظر مثال العالم، وامتداد تلك الخطوط كصور الأجساد التي تنتقل إليها في النوم وبعد الموت وفي سوق الجنة والتي تلبسها الأرواح، وقصدك إلى رؤية تلك الخطوط بذلك الفعل من إرسال الأهداب الحائلة بين الناظر والجسم النير مثال الاستعداد، وانبعاث تلك الخطوط عند هذه الحال انبعاث الصور عند الاستعداد، وانقباض الخطوط إلى الجسم النير عند رفع الحائل رجوع الصور إلى تلك الأرض عند زوال الاستعداد، وليس بعد هذا البيان بيان، وقد بسطنا القول في عجائب هذه الأرض وما يتعلق بها من المعارف في كتاب كبير لنا فيها خاصة. انتهى الجزء الحادي عشر.

(الجزء الثاني عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع في معرفة وجود الأرواح المارجية النارية

[نظم: الخفيف]

مَـرَجَ الـنـارَ والـنـبـاتَ فـقـامـت   صـورةُ الـجـنِّ بـرزخـاً بـيـن شـيـئَـيْـنْ

بـيـن روحٍ مـجـسَّـمٍ ذي مـكـانٍ   فـي حـضـيـضٍ وبـيـن روحٍ بـلا أيْـنْ

فالذي قابلَ التجسُّمَ منها   طلب القوتَ للتغذي بلا مَيْنْ
والذي قابلَ الملائكَ منها   قبل القلبَ بالتشكل في العَيْنْ
ولهذا يطيع وقتاً ويعصي   ويجازى مخالفوهم بنارَيْنْ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٥] وورد في الحديث الصحيح: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ المَلائِكَةَ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقَ اللَّهُ الجَان مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ الإِنْسَانَ مِمَّا قِيلَ لَكُمْ**» فأما قوله عليه السلام في خلق الإنسان مما قيل لكم ولم يقل مثل ما قال في خلق الملائكة والجانّ طلباً للاختصار فإنه أوتي جوامع الكلم وهذا منها، فإن الملائكة لم يختلف أصل خلقها ولا الجانّ، وأمّا الإنسان اختلف خلقه على أربعة أنواع من الخلق، فخلق آدم لا يشبه خلق حوّاء، وخلق حوّاء لا يشبه خلق سائر بني آدم، وخلق عيسىٰ عليه السلام لا يشبه خلق من ذكرنا، فقصد رسول الله ﷺ الاختصار، وأحال على ما وصل إلينا من تفصيل خلق الإنسان، فآدم من طين، وحوّاء من ضلع، وعيسىٰ من نفخ روح، وبنو آدم من ماء مهين.

ولما أنشأ الله الأركان الأربعة وعلا الدخان إلى مقعر فلك الكواكب الثابتة، وفتق في ذلك الدخان سبع سموات ميّز بعضها عن بعض، وأوحى في كل سماء أمرها بعدما قدّر في الأرض أقواتها وذلك كله في أربعة أيام ثم قال للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي أجيبا إذا دعيتما لما يراد منكما مما أمنتما عليه أن تبرزاه ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فجعل سبحانه بين السماء والأرض التحاماً معنوياً وتوجّهاً لما يريد سبحانه أن يوجده في هذه الأرض من المولدات من معدن ونبات وحيوان، وجعل الأرض كالأهل، وجعل السماء كالبعل والسماء تلقي إلى الأرض من الأمر الذي أوحى الله فيها كما يلقي الرجل الماء بالجماع في المرأة، وتبرز الأرض عند الإلقاء ما خبأه الحق فيها من التكوينات على طبقاتها، فكان من ذلك أن الهواء لما اشتعل وحمي اتقد مثل السراج وهو اشتعال النار ذلك اللهب الذي هو احتراق الهواء وهو المارج، وإنما سمّي مارجاً لأنه نار مختلط بهواء وهو الهواء المشتعل فإن المرج الاختلاط، ومنه سمّي المرج مرجاً لاختلاط النبات فيه، فهو من عنصرين هواء ونار أعني الجان، كما كان آدم من عنصرين ماء وتراب عجن به فحدث له اسم الطين، كما حدث لامتزاج النار بالهواء اسم المارج، ففتح سبحانه في ذلك المارج صورة الجان فبما فيه من الهواء يتشكل في أيّ صورة شاء، وبما فيه من النار سخف وعظم لطفه، وكان فيه طلب القهر والاستكبار والعزة، فإن النار أرفع الأركان مكاناً، وله سلطان على إحالة الأشياء التي تقتضيها الطبيعة وهو السبب الموجب لكونه استكبر عن السجود لآدم عندما أمره الله عزّ وجلّ بتأويل أدّاه أن يقول أنا خير منه يعني بحكم الأصل الذي فضل الله به بين الأركان الأربعة، وما علم أن سلطان الماء الذي خلق منه آدم أقوى منه فإنه يذهبه، وأن التراب أثبت منه للبرد واليبس، فلآدم القوّة والثبوت لغلبة الركنين اللذين أوجده الله منهما وإن كان فيه بقية الأركان، ولكن ليس لها ذلك السلطان وهو الهواء والنار كما في الجان من بقية الأركان ولذا سمّي مارجاً،

ولكن ليس لها في نشأته ذلك السلطان، وأعطى آدم التواضع للطينية بالطبع، فإن تكبر فلأمر يعرض له يقبله بما فيه من النارية كما يقبل اختلاف الصور في خياله وفي أحواله من الهوائية، وأعطي الجان التكبر بالطبع للنارية فإن تواضع فلأمر يعرض له يقبله بما فيه من الترابية، كما يقبل الثبات على الإغواء إن كان شيطاناً، والثبات على الطاعات إن لم يكن شيطاناً.

وقد أخبر النبي ﷺ لما تلا سورة الرحمن على أصحابه قال: إني تلوتها على الجن فكانوا أحسن استماعاً لها منكم فكانوا يقولون: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب إذ قلت: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثابتين عليه ما تزلزلوا عندما كان يقول لهم عليه السلام في تلاوته: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذلك بما فيه من الترابية وبما فيه من المائية ذهبت بحمية النارية، فمنهم الطائع والعاصي مثلنا، ولهم التشكل في الصور كالملائكة، وأخذ الله بأبصارنا عنهم فلا نراهم إلاّ إذا شاء الله أن يكشف لبعض عباده فيراهم، ولما كانوا من عالم السخافة واللطف قبلوا التشكيل فيما يريدونه من الصور الحسيّة، فالصورة الأصلية التي ينسب إليها الروحانيّ إنما هي أوّل صورة قبل عند ما أوجده الله، ثم تختلف عليه الصور بحسب ما يريد أن يدخل فيها، ولو كشف الله عن أبصارنا حتى نرى ما تصوّره القوّة المصوّرة التي وكّلها الله بالتصوير في خيال المتخيل منا لرأيت مع الأناة الإنسان في صور مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً، ولما نفخ الروح في اللهب وهو كثير الاضطراب لسخافته وزاده النفخ اضطراباً وغلب الهواء عليه وعدم قراره على حالة واحدة ظهر عالم الجانّ على تلك الصورة، وكما وقع التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم فكانت الذرية والتوالد في هذا الصنف البشريّ الآدمي، كذلك وقع التناسل في الجان بإلقاء الهواء في رحم الأنثى منهم فكانت الذرية والتوالد في صنف الجان، وكان وجودهم بالقوس وهو ناريّ، هكذا ذكر الوارد حفظه الله، فكان بين خلق الجان وخلق آدم ستون ألف سنة، وكان ينبغي على ما يزعم بعض الناس أن ينقطع التوالد من الجان بعد انقضاء أربعة آلاف سنة، وينقضي التوالد من البشر بعد انقضاء سبعة آلاف سنة، ولم يقع الأمر على ذلك بل الأمر راجع إلى ما يريده الله، فالتوالد في الجن إلى اليوم باق وكذلك فينا، فتحقق بهذا كم لآدم من السنين وكم بقي إلى انقضاء الدنيا وفناء البشر عن ظهرها وانقلابهم إلى الدار الآخرة، وليس هذا بمذهب الراسخين في العلم، وإنما قال به شرذمة لا يعتد بقولها، فالملائكة أرواح منفوخة في أنوار، والجان أرواح منفوخة في رياح، والأناسيّ أرواح منفوخة في أشباح، ويقال إنه لم يفصل عن الموجود الأوّل من الجان أنثى كما فصلت حوّاء من آدم.

قال بعضهم: إن الله خلق للموجود الأول من الجان فرجاً في نفسه فنكح بعضه ببعضه فولد مثل ذرية آدم ذكراناً وأناثاً، ثم نكح بعضهم بعضاً فكان خلقه خنثى، ولذلك هم الجان من عالم البرزخ لهم شبه بالبشر وشبه بالملائكة كالخنثى يشبه الذكر ويشبه الأنثى، وقد روينا فيما رويناه من الأخبار عن بعض أئمة الدين أنه رأى رجلاً ومعه ولدان وكان خنثى الواحد من ظهره والآخر من بطنه نكح فولد له ونكح فولد وسمّي خنثى من الانخناث وهو الاسترخاء

والرخاوة عدم القوّة والشدّة فلم تقو فيه قوّة الذكورية فيكون ذكراً ولم تقو فيه قوّة الأنوثة فيكون أنثى فاسترخى عن هاتين القوّتين فسمّي خنثى والله أعلم.

ولما غلب على الجان عنصر الهواء والنار لذلك كان غذاؤهم ما يحمله الهواء مما في العظام من الدسم فإن الله جاعل لهم فيها رزقاً فإنا نشاهد جوهر العظم وما يحمله من اللحم لا ينتقص منه شيء فعلمنا قطعاً أن الله جاعل لهم فيها رزقاً، ولهذا قال النبي ﷺ في العظام: **«إنَّها زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ»**. وفي حديث: **«إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَهُمْ فِيهَا رِزْقاً»** وأخبرني بعض المكاشفين أنه رأى الجن يأتون إلى العظم فيشمونه كما تشم السباع ثم يرجعون وقد أخذوا رزقهم وغذاؤهم في ذلك الشم فسبحان اللطيف الخبير.

وأما اجتماع بعضهم ببعض عند النكاح فالتواء مثل ما تبصر الدخان الخارج من الأتون أو من فرن الفخار يدخل بعضه في بعضه فيلتذّ كل واحد من الشخصين بذلك التداخل ويكون ما يلقونه كلقاح النخلة بمجرد الرائحة كغذائهم سواء، وهم قبائل وعشائر، وقد ذكر أنهم محصورون في إثنتي عشرة قبيلة أصولاً ثم يتفرعون إلى أفخاذ وتقع بينهم حروب عظيمة، وبعض الزوابع قد يكون عين حربهم، فإن الزوبعة تقابل ريحين تمنع كل واحدة صاحبتها أن تخترقها فيؤدي ذلك المنع إلى الدور المشهود في الغبرة في الحسّ التي آثارها تقابل الريحين المتضادين فمثل ذلك يكون حربهم وما كل زوبعة حربهم، وحديث عمرو الجني حمد الله مشهورة مروية وقتله في الزوبعة التي أبصرت فانقشعت عنه وهو على الموت فما لبث أن مات وكان عبداً صالحاً من الجان، ولو كان هذا الكتاب مبناه على إيراد أخبار وحكايات لذكرنا منها طرفاً، وإنما هذا كتاب علم المعاني فلينظر حكاياتهم في تواريخ الأدب وأشعارهم.

ثم نرجع ونقول: وإن هذا العالم الروحانيّ إذا تشكل وظهر في صورة حسّية يقيده البصر بحيث لا يقدر أن يخرج عن تلك الصورة ما دام البصر ينظر إليه بالخاصية ولكن من الإنسان فإذا قيّده ولم يبرح ناظراً إليه وليس له موضع يتوارى فيه أظهر له هذا الروحانيّ صورة جعلها عليه كالستر ثم يخيل له مشي تلك الصورة إلى جهة مخصوصة فيتبعها بصره، فإذا أتبعها بصره خرج الروحانيّ عن تقييده فغاب عنه، وبمغيبه تزول تلك الصورة عن نظر الناظر الذي أتبعها بصره فإنها للروحانيّ كالنور مع السراج المنتشر في الزوايا نوره فإذا غاب جسم السراج فقد ذلك النور فهكذا هذه الصورة، فمن يعرف هذا ويحب تقييده لا يتبع الصورة بصره، وهذا من الأسرار الإلهية التي لا تعرف إلاّ بتعريف الله، وليست الصورة غير عين الروحاني بل هي عينه ولو كانت في ألف مكان أو في كل مكان ومختلفة الأشكال، وإذا اتفق قتل صورة من تلك الصور وماتت في ظاهر الأمر انتقل ذلك الروحانيّ من الحياة الدنيا إلى البرزخ كما ننتقل نحن بالموت ولا يبقى له في عالم الدنيا حديث مثلنا سواء، وتسمّى تلك الصور المحسوسة التي تظهر فيها الروحانيات أجساداً وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [سورة ص: الآية ٣٤] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨].

والفرق بين الجان والملائكة وإن اشتركوا في الروحانية أن الجان غذاؤهم ما تحمله الأجسام الطبيعية من المطاعم والملائكة ليست كذلك، ولهذا ذكر الله في قصة ضيف إبراهيم الخليل: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [سورة هود: الآية ٧٠] يعني إلى العجل الحنيذ أي لا يأكلون منه وخاف، وحين جاء وقت إنشاء عالم الجان توجه من الأمناء الذين في الفلك الأول من الملائكة ثلاثة ثم أخذوا من نوّابهم من السماء الثانية ما يحتاجون إليه منهم في هذا النشء، ثم نزلوا إلى السموات فأخذوا من النواب اثنين من السماء الثانية والسادسة من هناك، ونزلوا إلى الأركان فهيؤوا المحل واتبعتهم ثلاثة أخر من الأمناء وأخذوا من الثانية ما يحتاجون إليه من نوابهم، ثم نزلوا إلى السماء الثالثة والخامسة من هناك فأخذوا ملكين، ومرّوا بالسماء السادسة فأخذوا نائباً آخر من الملائكة ونزلوا إلى الأركان ليكملوا التسوية فنزلت الستة الباقية وأخذت ما بقي من النواب في السماء الثانية وفي السموات فاجتمع الكل على تسوية هذه النشأة بإذن العليم الحكيم، فلما تمّت نشأته واستقامت بنيته توجّه الروح من عالم الأمر فنفخ في تلك الصورة روحاً سرت فيه بوجودها الحياة فقام ناطقاً بالحمد والثناء لمن أوجده جبلة جبل عليها وفي نفسه عزة وعظمة لا يعرف سببها ولا على من يعتز بها، إذ لم يكن ثم مخلوق آخر من عالم الطبائع سواه فبقي عابداً لربّه مصرّاً على عزّته متواضعاً لربوبية موجده بما يعرض له مما هو عليه في نشأته إلى أن خلق آدم، فلما رأى الجان صورته غلب على واحد منهم اسمه الحارث بغض تلك النشأة وتجهم وجهه لرؤية تلك الصورة الآدمية وظهر ذلك منه لجنسه فعتبوه لذلك لما رأوه عليه من الغم والحزن لها، فلما كان من أمر آدم ما كان أظهر الحارث ما كان يجد في نفسه منه وأبى عن امتثال أمر خالقه بالسجود لآدم واستكبر على آدم بنشأته وافتخر بأصله وغاب عنه سرّ قوّة الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيّ، ومنه كانت حياة الجان وهم لا يشعرون، وتأمّل إن كنت من أهل الفهم قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: الآية ٧] فحيي العرش وما حوى عليه من المخلوقات ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] فجاء بالنكرة ولا يسبح إلاّ حيّ.

ورد في الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ المَلائِكَةَ قَالَتْ يَا رَبِّ ـ في حديث طويل ـ هَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ نَعم المَاءُ**»، فَجَعَلَ المَاءَ أَقْوَىٰ مِنَ النَّارِ فلو كان عنصر الهواء في نشأة الجان غير مشتعل بالنار لكان الجان أقوى من بني آدم، فإن الهواء أقوى من الماء، فإن الملائكة قالت في هذا الحديث: «**يَا رَبِّ فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ المَاءِ؟ قَالَ: نَعم الهَوَاءَ، ثُمَّ قالَتْ: يَا رَبِّ فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ الهَوَاءِ؟ قَالَ: نَعم ابْنَ آدَمَ**» الحديث. فجعل النشأة الإنسانية أقوى من الهواء، وجعل الماء أقوى من النار وهو العنصر الأعظم في الإنسان، كما أن النار العنصر الأعظم في الجان، ولهذا قال في الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: الآية ٧٦] فلم ينسب إليه من القوّة شيئاً، ولم يردّ على العزيز في قوله ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٢٨] ولا أكذبه مع ضعف عقل المرأة عن عقل الرجل، فإن النساء ناقصات عقل، فما ظنك

بقوّة الرجل، وسبب ذلك أن النشأة الإنسانية تعطي التؤدة في الأمور والأناة والفكر والتدبير لغلبة العنصرين الماء والتراب على مزاجه فيكون وافر العقل، لأن التراب يثبطه ويمسكه والماء يلينه ويسهله، والجان ليس كذلك، فإنه ليس لعقله ما يمسكه عليه ذلك الإمساك الذي للإنسان، ولهذا يقال فلان خفيف العقل وسخيف العقل إذا كان ضعيف الرأي هلباجة، وهذا هو نعت الجان وبه ضلّ عن طريق الهدى لخفة عقله وعدم تثبته في نظره فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [سورة ص: الآية ٧٦] فجمع بين الجهل وسوء الأدب لخفته، فمن عصى من الجان كان شيطاناً أي مبعوداً من رحمة الله.

وكان أول من سمّي شيطاناً من الجن الحارث فأبلسه الله أي طرده من رحمته وطرد الرحمة عنه، ومنه تفرّعت الشياطين بأجمعها، فمن آمن منهم مثل هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس التحق بالمؤمنين من الجن، ومن بقي على كفره كان شيطاناً، وهي مسألة خلاف بين علماء الشريعة، فقال بعضهم: إن الشيطان لا يسلم أبداً، وتأوّل قوله عليه السلام في شيطانه وهو القرين الموكل به إن الله أعانه عليه فأسلم، روي برفع الميم وفتحها أيضاً، فتأوّل هذا القائل الرفع بأنه قال فأسلم منه أي ليس له عليّ سبيل وهكذا تأوّله المخالف، وتأوّل الفتح فيه على الانقياد قال: فمعناه انقاد مع كونه عدواً فهو بعينه لا يأمرني إلاّ بخير جبراً من الله وعصمة لرسول الله ﷺ، وقال المخالف معنى فأسلم بالفتح أي آمن بالله كما يسلم الكافر عندنا فيرجع مؤمناً وهو الأولى والأوجه، وأكثر الناس يزعمون أنه أول الجن بمنزلة آدم من الناس، وليس كذلك عندنا بل هو واحد من الجن، وأن الأول فيهم بمنزلة آدم في البشر إنما هو غيره ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥٠] أي من هذا الصنف من المخلوقين كما كان قابيل من البشر وكتبه الله شقياً فهو أول الأشقياء من البشر، وإبليس أول الأشقياء من الجن، وعذاب الشياطين من الجن في جهنم أكثر ما يكون بالزمهرير لا بالحرور وقد يعذب بالنار، وبنو آدم أكثر عذابهم بالنار، ووقفت يوماً على مخبول العقل من الأولياء وعيناه تدمعان وهو يقول للناس: لا تقفوا مع قوله تعالىٰ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٥] لإبليس فقط بل انظروا في إشارته سبحانه لكم بقوله لإبليس جهنم منك فإنه مخلوق من النار فيعود لعنه الله إلى أصله وإن عذب به فعذاب الفخار بالنار أشد فتحفظوا، فما نظر هذا الوليّ من ذكر جهنم إلاّ النار خاصة، وغفل عن أن جهنم اسم لحرورها وزمهريرها وبجملتها سميت جهنم لأنها كريهة المنظر، والجهام السحاب الذي قد هرق ماءه والغيث رحمة الله، فلما أزال الله الغيث من السحاب بإنزاله أطلق عليه اسم الجهام لزوال الرحمة الذي هو الغيث منه، كذلك الرحمة أزالها الله من جهنم فكانت كريهة المنظر والمخبر، وسميت أيضاً جهنم لبعد قعرها، يقال ركية جهنام إذا كانت بعيدة القعر، نسألة الله العظيم لنا وللمؤمنين الأمن منها، ويكفي هذا القدر من هذا الباب.

الباب العاشر

في معرفة دورة الملك وأول منفصل فيها عن أول موجود، وآخر منفصل فيها عن آخر منفصل عنه، وبماذا عمر الموضع المنفصل عنه منهما، وتمهيد الله هذه المملكة حتى جاء مليكها، وما مرتبة العالم الذي بين عيسىٰ ومحمد عليهما السلام وهو زمان الفترة

[نظم: البسيط]

الملك لولا وجود الملك ما عُرفا ... ولم تكن صفةٌ مما به وُصِفَا

فدَوْرَةُ الملك برهانٌ عليه لذا ... قد التقَتْ طرفاها هكذا كُشِفَا

فكان آخرُها كمثل أولها ... وكان أولُها عن سابقٍ سَلَفَا

وعندما كملتْ بالختم قام بها ... مليكها سيِّداً لله معترِفَا

أعطاه خالقُه فضلاً معارفها ... وما يكون وما قد كان وانصَرَفَا

اعلم أيّدك الله أنه ورد في الخبر أن النبي ﷺ قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ**» بالراء، وفي رواية بالزاي وهو التبجح بالباطل. وفي صحيح مسلم: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ**» فثبتت له السيادة والشرف على أبناء جنسه من البشر. وقال عليه السلام: « **كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ** »يريد على علم بذلك فأخبره الله تعالىٰ بمرتبته وهو روح قبل إيجاده الأجسام الإنسانية كما أخذ الميثاق على بني آدم قبل إيجاده أجسامهم، وألحقنا الله تعالىٰ بأنبيائه بأن جعلنا شهداء على أممهم معهم حين يبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وهم الرسل، فكانت الأنبياء في العالم نوّابه ﷺ من آدم إلى آخر الرسل عليهم السلام. وقد أبان ﷺ عن هذا المقام بأمور منها قوله ﷺ: «**وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَياً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَني**». وقوله في نزول عيسىٰ ابن مريم في آخر الزمان أنه يؤمنا أي يحكم فينا بسنة نبينا عليه السلام ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ولو كان محمد ﷺ قد بعث في زمان آدم لكانت الأنبياء وجميع الناس تحت حكم شريعته إلى يوم القيامة حسّاً، ولهذا لم يبعث عامة إلاّ هو خاصة، فهو الملك والسيد وكل رسول سواه فبعث إلى قوم مخصوصين، فلم تعم رسالة أحد من الرسل سوى رسالته ﷺ، فمن زمان آدم عليه السلام إلى زمان بعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة ملكه وتقدمه في الآخرة على جميع الرسل وسيادته فمنصوص على ذلك في الصحيح عنه، فروحانيته ﷺ موجودة، وروحانية كل نبي ورسول، فكان الإمداد يأتي إليهم من تلك الروح الطاهرة بما يظهرون به من الشرائع والعلوم في زمان وجودهم رسلاً وتشريعه الشرائع كعلي ومعاذ وغيرهما في زمان وجودهم ووجوده ﷺ، وكإلياس وخضر عليهما السلام، وعيسىٰ عليه السلام في زمان ظهوره في آخر الزمان حاكماً بشرع محمد ﷺ في أمته المقرر في الظاهر، لكن لما لم يتقدم في عالم الحسّ وجود عينه ﷺ أولاً نسب كل شرع إلى من بعث به وهو في الحقيقة شرع محمد ﷺ وإن كان مفقود العين من حيث لا يعلم ذلك كما هو مفقود العين الآن، وفي زمان نزول عيسىٰ عليه السلام والحكم بشرعه، وأمّا نسخ الله بشرعه جميع الشرائع فلا يخرج هذا النسخ ما تقدم من الشرائع أن يكون من شرعه، فإن الله قد أشهدنا في

شرعه الظاهر المنزل به ﷺ في القرآن والسنة النسخ مع إجماعنا واتفاقنا على أن ذلك المنسوخ شرعه الذي بعث به إلينا فنسخ بالمتأخر المتقدم، فكان تنبيهاً لنا هذا النسخ الموجود في القرآن والسنّة، على أن نسخه لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعاً له، وكان نزول عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان حاكماً بغير شرعه أو بعضه الذي كان عليه في زمان رسالته، وحكمه بالشرع المحمدي المقرر اليوم دليلاً على أنه لا حكم لأحد اليوم من الأنبياء عليهم السلام مع وجود ما قرره ﷺ في شرعه، ويدخل في ذلك ما همّ عليه أهل الذمة من أهل الكتاب ما داموا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن حكم الشرع على الأحوال فخرج من هذا المجموع كله أنه ملك وسيد على جميع بني آدم، وأن جميع من تقدمه كان ملكاً له وتبعاً والحاكمون فيه نوّاب عنه.

فإن قيل: فقوله ﷺ: «**لاَ تُفَضِّلُونِي**» فالجواب: نحن ما فضلناه بل الله فضله فإن ذلك ليس لنا وإن كان قد ورد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[سورة الأنعام: الآية ٩٠] لما ذكر الأنبياء عليهم السلام فهو صحيح فإنه قال فبهداهم وهداهم من الله وهو شرعه ﷺ أي الزم شرعك الذي ظهر به نوّابك من إقامة الدين ولا تتفرقوا فيه فلم يقل فبهم اقتده. وفي قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [سورة الشورى: الآية ١٣] تنبيه على أحدية الشرائع. وقوله: ﴿ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٣] وهو الدين فهو مأمور باتباع الدين، فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره. وانظروا في قوله عليه السلام: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتْبَعَنِي**» فأضاف الاتباع إليه وأمر هو ﷺ باتباع الدين وهدى الأنبياء لا بهم، فإن الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوّابه حكم إلا له، فإذا غاب حكم النوّاب بمراسمه فهو الحاكم غيباً وشهادة. وما أوردنا هذه الأخبار والتنبيهات إلاَّ تأنيساً لمن لا يعرف هذه المرتبة من كشفه ولا أطلعه الله على ذلك من نفسه، وأمّا أهل الله فهم على ما نحن عليه فيه قد قامت لهم شواهد التحقيق على ذلك من عند ربهم في نفوسهم، وإن كان يتصوّر على جميع ما أوردناه في ذلك احتمالات كثيرة فذلك راجع إلى ما تعطيه الألفاظ من القوّة في أصل وضعها لا ما هو عليه الأمر في نفسه عند أهل الأذواق الذين يأخذون العلم عن الله كالخضر وأمثاله، فإن الإنسان ينطق بالكلام يريد به معنى واحداً مثلاً من المعاني التي يتضمنها ذلك الكلام، فإذا فسّر بغير مقصود المتكلم من تلك المعاني فإنما فسّر المفسّر بعض ما تعطيه قوّة اللفظ وإن كان لم يصب مقصود المتكلم، ألا ترى الصحابة كيف شقّ عليهم قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٢] فأتى به نكرة فقالوا: وأينا لم يلبس إيمانه بظلم فهؤلاء الصحابة وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ما عرفوا مقصود الحق من الآية، والذي نظروه سائغ في الكلمة غير منكور، فقال لهم النبيّ ﷺ: ليس الأمر كما ظننتم وإنما أراد الله بالظلم هنا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. فقوّة الكلمة تعم كل ظلم، وقصد المتكلم إنما هو ظلم معين مخصوص، فكذلك ما أوردناه من الأخبار في أن بني آدم سوقة وملك لهذا السيد محمد ﷺ هو المقصود من طريق الكشف، كما كان

الظلم هناك المقصود من المتكلم به الشرك خاصة، ولذلك تتقوّى التفاسير في الكلام بقرائن الأحوال، فإنها المميزة للمعاني المقصودة للمتكلم، فكيف من عنده الكشف الإلهيّ والعلم اللدنيّ الربانيّ، فينبغي للعاقل المنصف أن يسلم لهؤلاء القوم ما يخبرون به، فإن صدقوا في ذلك فذلك الظن بهم وأنصفوا بالتسليم حيث لم يرد المسلم ما هو حق في نفس الأمر، وإن لم يصدقوا لم يضر المسلم بل انتفعوا حيث تركوا الخوض فيما ليس لهم به قطع، وردّوا علم ذلك إلى الله تعالىٰ فوفوا الربوبية حقّها إذ كان ما قاله أولياء الله ممكناً فالتسليم أولى بكل وجه.

وهذا الذي نزعنا إليه من دورة الملك قال به غيرنا كالإمام أبي القاسم بن قسي في خلعه وهو روايتنا عن ابنه عنه وهو من سادات القوم، وكان شيخه الذي كشف له على يديه من أكبر شيوخ المغرب يقال له ابن خليل من أهل لبله، فنحن ما نعتمد في كل ما نذكره إلاَّ على ما يلقي الله عندنا من ذلك لا على ما تحتمله الألفاظ من الوجوه، وقد تكون جميع المحتملات في بعض الكلام مقصودة للمتكلم فنقول بها كلها، فدورة الملك عبارة عما مهد الله من آدم إلى زمان محمد ﷺ من الترتيبات في هذه النشأة الإنسانية بما ظهر من الأحكام الإلهية فيها فكانوا خلفاء الخليفة السيد.

فأول موجود ظهر من الأجسام الإنسانية كان آدم عليه السلام وهو الأب الأول من هذا الجنس، وسائر الآباء من الأجناس يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله، وهو أول من ظهر بحكم الله من هذا الجنس ولكن كما قرّرناه، ثم فصل عنه أباً ثانياً لنا سمّاه أمّاً فصح لهذا الأب الأول الدرجة عليها لكونه أصلاً لها فختم النواب من دورة الملك بمثل ما به بدأ لينبه على أن الفصل بيد الله، وأن ذلك الأمر ما اقتضاه الأب الأوّل لذاته، فأوجد عيسىٰ عن مريم فتنزلت مريم منزلة آدم وتنزل عيسىٰ منزلة حوّاء، فكما وجدت أنثى من ذكر وجد ذكر من أنثى، فختم بمثل ما به بدأ في إيجاد ابن من غير أب كما كانت حوّاء من غير أم، فكان عيسىٰ وحوّاء أخوان، وكان آدم ومريم أبوان لهما ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩] فأوقع التشبيه في عدم الأبوة الذكرانية من أجل أنه نصبه دليلاً لعيسىٰ في براءة أمّه ولم يوقع التشبيه بحوّاء، وإن كان الأمر عليه لكون المرأة محل التهمة لوجود الحمل إذ كانت محلاً موضوعاً للولادة، وليس الرجل بمحل لذلك، والمقصود من الأدلة ارتفاع الشكوك، وفي حوّاء من آدم لا يقع الالتباس لكون آدم ليس محلاً لما صدر عنه من الولادة، وهذا لا يكون دليلاً إلاَّ عند من ثبت عنده وجود آدم وتكوينه والتكوين منه، وكما لا يعهد ابن من غير أب كذلك لا يعهد من غير أمّ، فالمثل من طريق المعنى أن عيسىٰ كحوّاء، ولكن لما كان الدخل يتطرق في ذلك من المنكر لكون الأنثى كما قلنا محلاً لما صدر عنها ولذلك كانت التهمة، كان التشبيه بآدم لحصول براءة مريم مما يمكن في العادة، فظهور عيسىٰ من مريم من غير أب كظهور حوّاء من آدم من غير أم وهو الأب الثاني، ولما انفصلت حوّاء من آدم عمر موضعها منه بالشهوة النكاحية إليها التي وقع بها الغشيان لظهور التناسل والتوالد، وكان الهواء الخارج الذي عمر موضعه جسم حوّاء عند خروجها إذ لا خلاء في العالم فطلب ذلك الجزء الهوائي موضعه الذي أخذته حوّاء بشخصيتها فحرك آدم

لطلب موضعه فوجده معموراً بحوّاء فوقع عليها فلما تغشاها حملت منه فجاءت بالذرية، فبقي ذلك سنة جارية في الحيوان من بني آدم وغيره بالطبع.

لكن الإنسان هو الكلمة الجامعة ونسخة العالم، فكل ما في العالم جزء منه وليس الإنسان بجزء لواحد من العالم، وكان سبب هذا الفصل وإيجاد هذا المنفصل الأول طلب الإنس بالمشاكل في الجنس الذي هو النوع الأخص، وليكون في عالم الأجسام بهذا الالتحام الطبيعيّ الإنسانيّ الكامل بالصورة الذي أراده الله ما يشبه القلم الأعلى واللوح المحفوظ الذي يعبر عنه بالعقل الأول والنفس الكل، وإذا قلت القلم الأعلى فتفطن للإشارة التي تتضمن الكاتب وقصد الكتابة فيقوم معك معنى قول الشارع: إن الله خلق آدم على صورته، ثم عبارة الشارع في الكتاب العزيز في إيجاد الأشياء عن كن فأتى بحرفين اللذين هما بمنزلة المقدّمتين وما يكون عند كن بالنتيجة، وهذان الحرفان هما الظاهران، والثالث الذي هو الرابط بين المقدمتين خفي في كن وهو الواو المحذوف لالتقاء الساكنين، كذلك إذا التقى الرجل والمرأة لم يبق للقلم عين ظاهرة، فكان إلقاؤه النطفة في الرحم غيباً لأنه سرّ ولهذا عبّر عن النكاح بالسرّ في اللسان قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣٥] وكذلك عند الإلقاء يسكنان عن الحركة، ويمكن إخفاء القلم كما خفي الحرف الثالث الذي هو الواو من كن للساكنين وكان الواو لأن له العلو لأنه متولد عن الرفع وهو إشباع الضمة وهو من حروف العلة، وهذا الذي ذكرناه إنما هو إذا كان الملك عبارة عن الأناسيّ خاصة.

فإن نظرنا إلى سيادته على جميع ما سوى الحق كما ذهب إليه بعض الناس للحديث المروي: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لَوْلاَكَ يَا مُحَمَّدُ مَا خَلَقْتُ سَمَاءً وَلاَ أَرْضاً وَلاَ جَنَّةً وَلاَ نَاراً**» وذكر خلق كل ما سوى الله فيكون أول منفصل فيها النفس الكلية عن أول موجود وهو العقل الأول، وآخر منفصل فيها حوّاء عن آخر موجود آدم، فإن الإنسان آخر موجود من أجناس العالم فإنه ما ثم إلاّ ستة أجناس وكل جنس تحته أنواع وتحت الأنواع أنواع، فالجنس الأول الملك، والثاني الجان، والثالث المعدن، والرابع النبات، والخامس الحيوان، وانتهى الملك وتمهد واستوى، وكان الجنس السادس جنس الإنسان وهو الخليفة على هذه المملكة، وإنما وجد آخراً ليكون إماماً بالفعل حقيقة لا بالصلاحية والقوّة، فعندما وجد عينه لم يوجد إلاّ والياً سلطاناً ملحوظاً، ثم جعل له نوّاباً حين تأخرت نشأة جسده، فأول نائب كان له وخليفة آدم عليه السلام ثم ولد واتصل النسل وعين في كل زمان خلفاء إلى أن وصل زمان نشأة الجسم الطاهر محمد ﷺ فظهر مثل الشمس الباهرة فاندرج كل نور في نوره الساطع وغاب كل حكم في حكمه وانقادت جميع الشرائع إليه وظهرت سيادته التي كانت باطنة، فهو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فإنه قال: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**» وقال عن ربّه: «**ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فحصل له التخلق والنسب الإلهيّ من قوله تعالىٰ عن نفسه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وجاءت هذه الآية في سورة الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس،

فلذلك بعث بالسيف وأرسل رحمة للعالمين، وكل منفصل عن شيء فقد كان عامراً لما عنه انفصل، وقد قلنا أنه لا خلاء في العالم، فعمر موضع انفصاله بظلّه إذ كان انفصاله إلى النور وهو للظهور، فلما قابل النور بذاته امتدّ ظلّه فعمر موضع انفصاله فلم يفقده من انفصل عنه فكان مشهوداً لمن انفصل إليه ومشهوداً لمن انفصل عنه وهو المعنى الذي أراده القائل بقوله: شهدتك موجوداً بكل مكان فمن أسرار العالم أنه ما من شيء يحدث إلاّ وله ظل يسجد لله ليقوم بعبادة ربّه على كل حال، سواء كان ذلك الأمر الحادث مطيعاً أو عاصياً، فإن كان من أهل الموافقة كان هو وظلّه على السواء، وإن كان مخالفاً ناب ظلّه منابه في الطاعة لله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٥] السلطان ظلّ الله في الأرض إذ كان ظهوره بجميع صور الأسماء الإلهية التي لها الأثر في عالم الدنيا، والعرش ظلّ الله في الآخرة، فالظلالات أبداً تابعة للصورة المنبعثة عنها حسّاً ومعنى، فالحسّ قاصر لا يقوى قوّة الظل المعنوي للصورة المعنوية لأنه يستدعي نوراً مقيداً لما في الحسّ من التقييد والضيق وعدم الاتساع، ولهذا نبهنا على الظل المعنوي بما جاء في الشرع من أن السلطان ظل الله في الأرض، فقد بان لك أن بالظلالات عمرت الأماكن، فهنا قد ذكرنا طرفاً مما يليق بهذا الباب، ولم نمعن فيه مخافة التطويل، وفيما أوردناه كفاية لمن تنبه إن كان ذا فهم سليم وتذكرة لمن شاهد وعلم واشتغل بما هو أعلى أو غفل بما هو أنزل فيرجع إلى ما ذكرناه عندما ينظر في هذا الباب.

فصل: وأما مرتبة العالم الذي بين عيسىٰ عليه السلام ومحمد ﷺ وهم أهل الفترة فهم على مراتب مختلفة بحسب ما يتجلى لهم من الأسماء عن علم منهم بذلك وعن غير علم، فمنهم من وحّد الله بما تجلى لقلبه عند فكره وهو صاحب الدليل، فهو على نور من ربه ممتزج يكون من أجل فكره، فهذا يبعث أمة وحده كقس بن ساعدة وأمثاله، فإنه ذكر في خطبته ما يدل على ذلك فإنه ذكر المخلوقات واعتباره فيها وهذا هو الفكر، ومنهم من وحّد الله بنور وجده في قلبه لا يقدر على دفعه من غير فكرة، ولا روية ولا نظر ولا استدلال، فهم على نور من ربهم خالص غير ممتزج بكون فهؤلاء يحشرون أحفياء أبرياء، ومنهم من ألقي في نفسه وأطلع من كشفه لشدة نوره وصفاء سرّه لخلوص يقينه على منزلة محمد ﷺ وسيادته وعموم رسالته باطناً من زمان آدم إلى وقت هذا المكاشف فآمن به في عالم الغيب على شهادة منه وبينة من ربه وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] يشهد له في قلبه بصدق ما كوشف به، فهذا يحشر يوم القيامة في ضغائن خلقه وفي باطنية محمد ﷺ، ومنهم من تبع ملة حق ممن تقدمه كمن تهوّد أو تنصر، أو اتبع ملة إبراهيم أو من كان من الأنبياء لما علم واعلم أنهم رسل من عند الله يدعون إلى الحق لطائفة مخصوصة فتبعهم وآمن بهم وسلك سننهم فحرّم على نفسه ما حرّمه ذلك الرسول وتعبد نفسه مع الله بشريعته وإن كان ذلك ليس بواجب عليه إذ لم يكن ذلك الرسول مبعوثاً إليه، فهذا يحشر مع من تبعه يوم القيامة ويتميز في زمرته في ظاهريته، إذ كان شرع ذلك النبيّ قد تقرر في الظاهر، ومنهم من طالع في كتب الأنبياء شرف محمد ﷺ ودينه وثواب من اتبعه فآمن به

وصدق على علم، وإن لم يدخل في شرع نبيّ ممن تقدم وأتى مكارم الأخلاق فهذا أيضاً يحشر في المؤمنين بمحمد ﷺ لا في العاملين ولكن في ظاهريته ﷺ، ومنهم من آمن بنبيه وأدرك نبوّة محمد ﷺ فآمن به فله أجران وهؤلاء كلهم سعداء عند الله، ومنهم من عطل فلم يقرّ بوجود عن نظر قاصر ذلك القصور هو بالنظر إليه غاية قوّته لضعف في مزاجه عن قوّة غيره، ومنهم من عطل لا عن نظر بل عن تقليد فذلك شقيّ مطلق، ومنهم من أشرك عن نظر أخطأ فيه طريق الحق مع بذل المجهود الذي تعطيه قوّته، ومنهم من أشرك لا عن استقصاء نظر فذلك شقيّ، ومنهم من أشرك عن تقليد فذلك شقيّ، ومنهم من عطل بعدما أثبت عن نظر بلغ فيه أقصى القوّة التي هو عليها لضعفها، ومنهم من عطل بعدما أثبت لا عن استقصاء في النظر أو تقليد فذلك شقيّ، فهذه كلها مراتب أهل الفترة الذين ذكرناهم في هذا الباب.

الباب الحادي عشر

في معرفة آبائنا العلويات وأمّهاتنا السفليات

[نظم: البسيط]

أنــا ابــنُ آبــاءِ أرواحٍ مــطــهَّــرةٍ ... وأمــهــاتِ نــفــوسٍ عــنــصــريَّــاتِ

مـا بـيـن روحٍ وجسـم كـان مـظـهـرُنـا ... عـن اجـتـمـاعٍ بـتـعـنـيـقٍ ولـذَّاتِ

مـا كـنـتُ عَـن واحـدٍ حـتـى أوحّـدَهُ ... بـل عــن جـمـاعـة آبـاءٍ وأمّـاتِ

هـم لـلإلـه إذا حـقَّـقْـتَ شـأنَـهُـمُـو ... كـصـانـعٍ صـنَـعَ الأشـيـا بـآلاتِ

فـنـسـبـةُ الـصـنـع لـلـنـجـار لـيـس لـهـا ... كـذاك أوجَـدَنَـا ربُّ الـبـريَّـاتِ

فـيـصـدق الـشـخـصُ فـي تـوحـيـد مـوجِـدِه ... ويـصـدق الـشـخـصُ فـي إثـبـات عِـلاَّتِ

فـإن نـظـرت إلـى الآلات طـال بـنـا ... إسـنـادُ عَـنْـعَـنَـةٍ حـتـى إلـى الـذَّاتِ

وإن نـظـرت إلـيـه وهـو يـوجِـدُنـا ... قـلـنـا بـوحـدتـه لا بـالـجـمـاعـاتِ

إنـي وُلـدت وحـيـدَ الـعـيـن مـنـفـرداً ... والـنـاس كـلُّـهُـمُـو أولادُ عَـلاَّتِ

اعلم أيّدك الله أنه لما كان المقصود من هذا العالم الإنسان وهو الإمام لذلك أضفنا الآباء والأمّهات إليه فقلنا آباؤنا العلويات وأمهاتنا السفليات، فكل مؤثر أب وكل مؤثر فيه أمّ، هذا هو الضابط لهذا الباب، والمتولد بينهما من ذلك الأثر يسمّى ابناً ومولداً، وكذلك المعاني في إنتاج العلوم إنما هو بمقدمتين تنكح إحداهما الأخرى بالمفرد الواحد الذي يتكرر فيهما وهو الرابط وهو النكاح والنتيجة التي تصدر بينهما هي المطلوبة، فالأرواح كلها آباء والطبيعة أمّ لما كانت محل الاستحالات.

وتتوجه هذه الأرواح على هذه الأركان التي هي العناصر القابلة للتغيير والاستحالة تظهر فيها المولدات وهي المعادن والنبات والحيوان والجان والإنسان أكملها، وكذلك جاء شرعنا أكمل الشرائع حيث جرى مجرى الحقائق الكلية، فأوتي جوامع الكلم، واقتصر على أربع نسوة وحرّم ما زاد على ذلك بطريق النكاح الموقوف عى العقد، فلم يدخل في ذلك ملك

اليمين، وأباح ملك اليمين في مقابلة الأمر الخامس الذي ذهب إليه بعض العلماء، كذلك الأركان من عالم الطبيعة أربعة، وبنكاح العالم العلوي لهذه الأربعة يوجد الله ما يتولد فيها.

واختلفوا في ذلك على ستة مذاهب: (فطائفة) زعمت أن كل واحد من هذه الأربعة أصل في نفسه. وقالت طائفة: ركن النار هو الأصل فما كثف منه كان هواء، وما كثف من الهواء كان ماء، وما كثف من الماء كان تراباً. وقالت طائفة: ركن الهواء هو الأصل فما سخف منه كان ناراً، وما كثف منه كان ماء. وقالت طائفة: ركن الماء هو الأصل. وقالت طائفة: ركن التراب هو الأصل. وقالت طائفة: الأصل أمر خامس ليس واحداً من هذه الأربعة وهذا هو الذي جعلناه بمنزلة ملك اليمين، فعمت شريعتنا في النكاح أتم المذاهب ليندرج فيها جميع المذاهب، وهذا المذهب بالأصل الخامس هو الصحيح عندنا وهو المسمّى بالطبيعة، فإن الطبيعة معقول واحد عنها ظهر ركن النار وجميع الأركان، فيقال ركن النار من الطبيعة ما هو عينها، ولا يصحّ أن يكون المجموع الذي هو عين الأربعة، فإن بعض الأركان منافر للآخر بالكلية، وبعضها منافر لغيره بأمر واحد كالنار والماء متنافران من جميع الوجوه والهواء والتراب كذلك، ولهذا رتّبها الله في الوجود ترتيباً حكمياً لأجل الاستحالات، فلو جعل المنافر مجاور المنافرة لما استحال إليه وتعطلت الحكمة، فجعل الهواء يلي ركن النار والجامع بينهما الحرارة، وجعل الماء يلي الهواء والجامع بينهما الرطوبة، وجعل التراب يلي الماء والجامع بينهما البرودة، فالمحيل أب والمستحيل أمّ والاستحالة نكاح، والذي استحال إليها ابن فالمتكلم أب والسامع أمّ والتكلم نكاح، والموجود من ذلك في فهم السامع ابن، فكل أب علوي فإنه مؤثر، وكل أمّ سفلية فإنها مؤثر فيها، وكل نسبة بينهما معينة نكاح وتوجه، وكل نتيجة ابن، ومن هنا يفهم قول المتكلم لمن يريد قيامه قم فيقوم المراد بالقيام عن أثر لفظة قم، فإن لم يقم السامع وهو أمّ بلا شك فهو عقيم، وإذا كان عقيماً فليس بأمّ في تلك الحالة وهذا الباب إنما يختص بالأمّهات، فأول الآباء العلوية معلوم، وأول الأمّهات السفلية شيئية المعدوم الممكن، وأول نكاح القصد بالأمر، وأول ابن وجود عين تلك الشيئية التي ذكرنا، فهذا أب ساري الأبوة، وتلك أمّ سارية الأمومة، وذلك النكاح سار في كل شيء، والنتيجة دائمة لا تنقطع في حق كل ظاهر العين، فهذا يسمّى عندنا النكاح الساري في جميع الذراري، يقول الله تعالىٰ في الدليل على ما قلناه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] ولنا فيه كتاب شريف منيع الحمى البصير فيه أعمى فكيف من حلّ به العمى، فلو رأيت تفصيل هذا المقام وتوجهات هذه الأسماء الإلهية الأعلام لرأيت أمراً عظيماً، وشاهدت مقاماً هائلاً جسيماً، فلقد تنزّه العارفون بالله وبصنعه الجميل بأولى.

وبعد أن أشرت إلى فهمك الثاقب ونظرك الصائب بالأب الأول الساري وهو الاسم الجامع الأعظم الذي تتبعه جميع الأسماء في رفعه ونصبه وخفضه الساري حكمه، والأمّ الأوّلية الآخرية السارية في نسبة الأنوثة في جميع الأبناء، فلنشرع في الآباء الذين هم أسباب موضوعة بالوضع الإلهيّ والأمّهات واتصالهما بالنكاح المعنوي والحسّي المشروع حتى يكون

الأبناء أبناء حلال، إلى أن أصل إلى التناسل الإنساني وهو آخر نوع تكوّن وأوّل مبدع بالقصد تعين فنقول: إن العقل الأول الذي هو أول مبدع خلق وهو القلم الأعلى ولم يكن ثم محدث سواه وكان مؤثراً فيه بما أحدث الله فيه من انبعاث اللوح المحفوظ عنه كانبعاث حوّاء من آدم في عالم الأجرام ليكون ذلك اللوح موضعاً ومحلاً لما يكتب فيه هذا القلم الأعلى الإلهي، وتخطيط الحروف الموضوعة للدلالة على ما جعلها الحق تعالىٰ أدلة عليه، فكان اللوح المحفوظ أول موجود انبعاثي، وقد ورد في الشرع أن أول ما خلق الله القلم ثم خلق اللوح وقال للقلم: اكتب، قال القلم: وما أكتب؟ قال الله له: اكتب وأنا أملي عليك، فخط القلم في اللوح ما يملي عليه الحق وهو علمه في خلقه الذي يخلق إلى يوم القيامة، فكان بين القلم واللوح نكاح معنوي معقول وأثر حسّي مشهود، ومن هنا كان العمل بالحروف المرقومة عندنا، وكان ما أودع في اللوح من الأثر مثل الماء الذافق الحاصل في رحم الأنثى، وما ظهر من تلك الكتابة من المعاني المودعة في تلك الحروف الجرمية بمنزلة أرواح الأولاد المودعة في أجسامهم فافهم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[سورة الأحزاب: الآية ٤] وجعل الحق في هذا اللوح العاقل عن الله ما أوحى به إليه المسبح بحمده الذي لا يفقه تسبيحه إلاّ من أعلمه الله به وفتح سمعه لما يورده كما فتح سمع رسول الله ﷺ ومن حضر من أصحابه لإدراك تسبيح الحصى في كفّه الطاهرة الطيبة ﷺ، وإنما قلنا فتح سمعه إذ كان الحصى ما زال مذ خلقه الله مسبحاً بحمد موجده فكان خرق العادة في الإدراك السمعيّ لا فيه، ثم أوجد فيه صفتين: صفة علم وصفة عمل، فبصفة العمل تظهر صور العالم عنه كما تظهر صورة التابوت للعين عند عمل النجار، فبها يعطي الصور، والصور على قسمين: صور ظاهرة حسّية وهي الأجرام وما يتصل بها حسّاً كالأشكال والألوان والأكوان، وصور باطنة معنوية غير محسوسة وهي ما فيها من العلوم والمعارف والإرادات، وبتينك الصفتين ظهر ما ظهر من الصور، فالصفة العلامة أب فإنها المؤثرة، والصفة العاملة أمّ فإنها المؤثر فيها، وعنها ظهرت الصور التي ذكرناها، فإن النجار المهندس إذا كان عالماً ولا يحسن العمل فيلقي ما عنده على سمع من يحسن عمل النجارة وهذا الإلقاء نكاح، فكلام المهندس أب وقبول السامع أمّ، ثم يصير علم السامع أباً وجوارحه أمّاً، وإن شئت قلت: فالمهندس أب والصانع الذي هو النجار أم من حيث ما هو مصغ لما يلقي إليه المهندس، فإذا أثر فيه فقد أنزل ما في قوّته في نفس النجار، والصورة التي ظهرت للنجار في باطنه مما ألقى إليه المهندس وحصلت في وجود خياله قائمة ظاهرة له بمنزلة الولد الذي ولد له فهمه من المهندس ثم عمل النجار فهو أب في الخشب الذي هو أمّ النجارة بالآلات التي يقع بها النكاح، وإنزال الماء الذي هو أثر كل ضربة بالقدوم أو قطع بالمنشار وكل قطع وفصل وجمع في القطع المنجورة لإنشاء الصورة، فظهر التابوت الذي هو بمنزلة الولد المولود الخارج للحسّ فهكذا فلتفهم الحقائق في ترتيب الآباء والأمّهات والأبناء وكيفية الإنتاج، فكل أب ليس عنده صفة العمل فليس هو أب من ذلك الوجه حتى أنه لو كان عالماً ومنع آلة التوصيل بالكلام أو الإشارة ليقع الإفهام وهو غير عامل لم يكن

أباً من جميع الوجوه وكان أمّاً لما حصل في نفسه من العلوم، غير أن الجنين لم يخلق فيه الروح في بطن أمّه أو مات في بطن أمّه فأحالته طبيعة الأمّ إلى أن تصرف ولم يظهر له عين فافهم.

وبعد أن عرفت الأب الثاني من الممكنات وأنه أمّ ثانية للقلم الأعلى كان مما ألقي إليها من الإلقاء الأقدس الروحانيّ الطبيعة والهباء، فكان أول أمّ ولدت توأمين، فأول ما ألقت الطبيعة ثم تبعتها بالهباء فالطبيعة والهباء أخ وأخت لأب واحد وأمّ واحدة، فأنكح الطبيعة الهباء فولد بينهما صورة الجسم الكلي وهو أول جسم ظهر فكان الطبيعة الأب فإن لها الأثر وكان الهباء الأمّ فإن فيها ظهر الأثر وكانت النتيجة الجسم، ثم نزل التوالد في العالم إلى التراب على ترتيب مخصوص ذكرناه في كتابنا المسمّى بعقلة المستوفز وفيه طول لا يسعه هذا الباب فإن الغرض الاختصار، ونحن لا نقول بالمركز وإنما نقول بنهاية الأركان وأن الأعظم يجذب الأصغر، ولهذا نرى البخار والنار يطلبان العلو والحجر وما أشبهه يطلب السفل، فاختلفت الجهات وذلك على الاستقامة من الاثنين أعني طالب العلو والسفل، فإن القائل بالمركز يقول إنه أمر معقول دقيق تطلبه الأركان، ولولا التراب لدار به الماء، ولولا الماء لدار به الهواء، ولولا الهواء لدار به النار، ولو كان كما قال لكنا نرى البخار يطلب السفل والحسّ يشهد بخلاف ذلك، وقد بيّنا هذا الفصل في كتاب المركز لنا وهو جزء لطيف، فإذا ذكرناه في بعض كتبنا إنما نسوقه على جهة مثال النقطة من الأكرة التي عنها يحدث المحيط لما لنا في ذلك من الغرض المتعلق بالمعارف الإلهية والنسب لكون الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط على السواء لتساوي النسب حتى لا يقع هناك تفاضل، فإنه لو وقع تفاضل أدّى إلى نقص المفضول والأمر ليس كذلك، وجعلناه محل العنصر الأعظم تنبيهاً على أن الأعظم يحكم على الأقل، وذكرناه مشاراً إليه في عقلة المستوفز.

ولما أدار الله هذه الأفلاك العلوية وأوجد الأيام بالفلك الأول وعينه بالفلك الثاني الذي فيه الكواكب الثابتة للأبصار ثم أوجد الأركان تراباً وماء وهواء وناراً ثم سوّى السموات سبعاً طباقاً وفتقها أي فصل كل سماء على حدة بعدما كانت رتقاً إذ كانت دخاناً، وفتق الأرض إلى سبع أرضين سماء أولى لأرض أولى وثانية لثانية إلى سبع، وخلق الجواري الخنس خمسة في كل سماء كوكب وخلق القمر وخلق أيضاً الشمس فحدث الليل والنهار بخلق الشمس في اليوم وقد كان اليوم موجوداً فجعل النصف من هذا اليوم لأهل الأرض نهاراً وهو من طلوع الشمس إلى غروبها وجعل النصف الآخر منه ليلاً وهو من غروب الشمس إلى طلوعها واليوم عبارة عن المجموع، ولهذا خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فإن الأيام كانت موجودة بوجود حركة فلك البروج وهي الأيام المعروفة عندنا لا غير، فما قال الله خلق العرش والكرسي وإنما قال خلق السموات والأرض في ستة أيام، فإذا دار فلك البروج دورة واحدة فذلك هو اليوم الذي خلق الله فيه السموات والأرض، ثم أحدث الله الليل والنهار عند وجود الشمس لا الأيام، وأمّا ما يطرأ فيها من الزيادة والنقصان أعني في الليل والنهار لا في الساعات فإنها أربع وعشرون ساعة وذلك لحلول الشمس في منطقة البروج وهي حمائلية

بالنسبة إلينا فيها ميل، فيطول النهار إذا كانت الشمس في المنازل العالية حيث كانت، وإذا حلت الشمس في المنازل النازلة قصر النهار حيث كانت، وإنما قلنا حيث كانت فإنه إذا طال الليل عندنا طال النهار عند غيرنا، فتكون الشمس في المنازل العالية بالنسبة إليهم، وفي المنازل النازلة بالنسبة إلينا، فإذا قصر النهار عندنا طال الليل عندهم لما ذكرناه، واليوم هو اليوم بعينه أربع وعشرون ساعة لا يزيد ولا ينقص ولا يطول ولا يقصر في موضع الاعتدال، فهذا هو حقيقة اليوم.

ثم قد نسمي النهار وحده يوماً بحكم الاصطلاح فافهم، وقد جعل الله هذا الزمان الذي هو الليل والنهار يوماً والزمان هو اليوم والليل والنهار موجودان في الزمان جعلهما أباً وأمّاً لما يحدث الله فيهما كما قال يغشى الليل النهار كمثل قوله في آدم. فلما تغشاها حملت، فإذا غشي الليل النهار كان الليل أباً وكان النهار أمّاً، وصار كل ما يحدث الله في النهار بمنزلة الأولاد التي تلد المرأة، وإذا غشي النهار الليل كان النهار أباً وكان الليل أمّاً وكان كل ما يحدث الله من الشؤون في الليل بمنزلة الأولاد التي تلد الأمّ، وقد بيّنا هذا الفصل في كتاب الشأن لنا تكلمنا فيه على قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وسيأتي إن شاء الله في هذا الكتاب إن ذكرنا الله به من معرفة الأيام طرفاً شافياً. وكذلك قال تعالىٰ أيضاً: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٣] فزاد بياناً في التناكح، وأبان سبحانه بقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] أن الليل أم له، وأن النهار متولد عنه، كما ينسلخ المولود من أمّه إذا خرج منها، والحية من جلدها فيظهر مولداً في عالم آخر غير العالم الذي يحويه الليل والأب هو اليوم الذي ذكرناه، وقد بيّنا ذلك في كتاب الزمان لنا ومعرفة الدهر، فهذا الليل والنهار أبوان بوجه وأمّان بوجه، وما يحدث الله فيهما في عالم الأركان من المولدات عند تصريفهما يسمّون أولاد الليل والنهار كما قرّرناه.

ولما أنشأ الله أجرام العالم كله القابل للتكوين فيه جعل من حدّ ما يلي مقعر السماء الدنيا إلى باطن الأرض عالم الطبيعة والاستحالات وظهور الأعيان التي تحدث عند الاستحالات وجعلها بمنزلة الأم، وجعل من مقعر فلك السماء الدنيا إلى آخر الأفلاك بمنزلة الأب، وقدّر فيها منازل وزينها بالأنوار الثابتة والسابحة، فالسابحة تقطع في الثابتة، والثابتة والسابحة تقطع في الفلك المحيط بتقدير العزيز، بدليل أنه رئي في بعض الأهرام التي بديار مصر مكتوباً بقلم يذكر في ذلك تاريخ الأهرام أنها بنيت والنسر في الأسد، ولا شك أنه الآن في الجدي كذا ندركه، فدل على أن الكواكب الثابتة تقطع في فلك البروج الأطلس والله يقول في القمر: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] وقال في الكواكب: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] وقد قرىء لا مستقرّ لها وليس بين القراءتين تنافر، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] ينظر إلى قوله في القمر أنه قدّره منازل، وقال: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠] أي في شيء مستدير، وجعل لهذه

الأنوار المسمّاة بالكواكب أشعة متصلة بالأركان تقوم اتصالاتها بها مقام نكاح الآباء للأمّهات فيحدث الله تعالىٰ عند اتصال تلك الشعاعات النورية في الأركان الأربعة من عالم الطبيعة ما يتكوّن فيها مما نشاهده حسّاً، فهذه الأركان لها بمنزلة الأربعة النسوة في شرعنا.

وكما لا يكون نكاح شرعي عندنا حلالاً إلاّ بعقد شرعي كذلك أوحى في كل سماء أمرها، فكان من ذلك الوحي تنزل الأمر بينهنّ كما قال تعالىٰ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] يعني الأمر الإلهيّ وفي تفسير هذا التنزّل أسرار عظيمة تقرب مما نشير إليه في هذا الباب. وقد روي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: لو فسرتها لقلتم إني كافر. وفي رواية: لرجمتموني، وإنها من أسرار آي القرآن. قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ ثم قال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ ثم تمّم وأبان فقال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وهو الذي أشرنا إليه بصفة العمل الذي ذكرناه آنفاً من إيجاد الله صفة العلم والعمل في الأب الثاني، فإن القدرة للإيجاد وهو العمل، ثم تمّم في الأخبار فقال: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وقد أشرنا إليه بصفة العلم التي أعطاها الله للأب الثاني الذي هو النفس الكلية المنبعثة فهو العليم سبحانه بما يوجد القدير على إيجاد ما يريد إيجاده لا مانع له، فجعل الأمر يتنزل بين السماء والأرض كالولد يظهر بين الأبوين.

وأمّا اتصال الأشعة النورية الكوكبية عن الحركة الفلكية السماوية بالأركان الأربعة التي هي أم المولدات في الحين الواحد للكل معاً جعله الحق مثالاً للعارفين في نكاح أهل الجنة في الجنة جميع نسائهم وجواريهم في الآن الواحد نكاحاً حسيّاً، كما أن هذه الاتصالات حسّيّة، فينكح الرجل في الجنة جميع من عنده من المنكوحات إذا اشتهى ذلك في الآن الواحد نكاحاً جسمياً محسوساً بإيلاج ووجود لذة خاصة بكل امرأة من غير تقدّم ولا تأخر، وهذا هو النعيم الدائم والاقتدار الإلهيّ، والعقل يعجز عن إدراك هذه الحقيقة من حيث فكره، وإنما يدرك هذا بقوّة أخرى إلهية في قلب من يشاء من عباده، كما أن الإنسان في الجنة في سوق الصور إذا اشتهى صورة دخل فيها كما تشكل الروح هنا عندنا وإن كان جسماً ولكن أعطاه الله هذه القدرة على ذلك والله على كل شيء قدير. وحديث سوق الجنة ذكره أبو عيسىٰ الترمذيّ في مصنفه فانظره هناك، فإذا اتصلت الأشعة النورية في الأركان الأربعة ظهرت المولدات عن هذا النكاح الذي قدره العزيز العليم، فصارت المولدات بين آباء وهي الأفلاك والأنوار العلوية، وبين أمّهات وهي الأركان الطبيعية السفلية، وصارت الأشعة المتصلة من الأنوار بالأركان كالنكاح وحركات الأفلاك، وسباحات الأنوار بمنزلة حركات المجامع، وكأن حركات الأركان بمنزلة المخاض للمرأة لاستخراج الزبد الذي يخرج بالمخض وهو ما يظهر من المولدات في هذه الأركان للعين من صورة المعادن والنبات والحيوان ونوع الجن والإنس، فسبحان القادر على ما يشاء لا إله إلاّ هو رب كل شيء ومليكه.

قال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِى وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٤] فقد تبين لك أيها الوليّ آباؤك وأمّهاتك من هم إلى أقرب أب لك وهو الذي ظهر عينك به وأمّك كذلك القريبة إليك إلى

الأب الأول وهو الجدّ الأعلى إلى ما بينهما من الآباء والأمّهات، فشكرهم الذي يسرّون به ويفرحون بالثناء عليهم هو أن تنسبهم إلى مالكهم وموحدهم وتسلب الفعل عنهم وتلحقه بمستحقه الذي هو خالق كل شيء، فإذا فعلت ذلك فقد أدخلت سروراً على آبائك بفعلك ذلك، وإدخال هذا السرور عليهم هو عين برّك بهم وشكرك إياهم، وإذا لم تفعل هذا ونسيت الله بهم فما شكرتهم ولا امتثلت أمر الله في شكرهم فإنه قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ فقدّم نفسه ليعرّفك أنه السبب الأول والأولى، ثم عطف وقال: ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ وهي الأسباب التي أوجدك الله عندها لتنسبها إليه سبحانه، ويكون لها عليك فضل التقدّم بالوجود خاصة لا فضل التأثير لأنه في الحقيقة لا أثر لها وإن كانت أسباباً لوجود الآثار، فبهذا القدر صحّ لها الفضل وطلب منك الشكر وأنزلها الحق لك وعندك منزلته في التقدّم عليك لا في الأثر ليكون الثناء بالتقدم والتأثير لله تعالىٰ وبالتقدّم والتوقف للوالدين ولكن على ما شرطناه، فلا تشرك بعبادة ربك أحداً فإذا أثنيت على الله تعالىٰ وقلت ربنا ورب آبائنا العلويات وأمّهاتنا السفليات فلا فرق بين أن أقولها أنا أو يقولها جميع بني آدم من البشر، فلم يخاطب شخصاً بعينه حتى يسوق آباءه وأمّهاته من آدم وحوّاء إلى زمانه، وإنما القصد هذا النشء الإنسانيّ، فكنت مترجماً عن كل مولود بهذا التحميد من عالم الأركان وعالم الطبيعة والإنسان، ثم ترتقي في النيابة عن كل مولد بين مؤثر ومؤثر فيه، فتحمده بكل لسان وتتوجّه إليه بكل وجه، فيكون الجزاء لنا من عند الله من ذلك المقام الكلي كما قال لي بعض مشيختي: إذا قلت السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أو قلت السلام عليكم إذا سلمت في طريقك على أحد فأحضر في قلبك كل صالح لله من عباده في الأرض والسماء وميت وحيّ، فإنه من ذلك المقام يردّ عليك فلا يبقى ملك مقرّب ولا روح مطهر يبلغه سلامك إلاّ ويردّ عليك وهو دعاء فيستجاب فيك فتفلح، ومن لم يبلغه سلامك من عباد الله المهيمين في جلاله المشتغلين به المستفرغين فيه وأنت قد سلمت عليهم بهذا الشمول فإنّ الله ينوب عنهم في الردّ عليك، وكفى بهذا شرفاً في حقك حيث يسلم عليك الحق، فليته لم تسمع أحداً ممن سلمت عليه حتى ينوب عن الجميع في الردّ عليك فإنه بك أشرف.

قال تعالىٰ تشريفاً في حق يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [سورة مريم: الآية ١٥] وهذا سلام فضيلة وإخبار، فكيف سلام واجب ناب الحق مناب من أجاب عنه؟ وجزاء الفرائض أعظم من جزاء الفضائل في حق من قيل فيه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ فيجمع له بين الفضيلتين. وقد وردت صلاة الله علينا ابتداء وما وصل إليّ هل ورد السلام ابتداء كما وردت الصلاة أم لا؟ فمن روى في ذلك شيئاً وتحققه فقد جعلت أمانة في عنقه أن يلحقه في هذا الموضع إلى جانب صلاة الله علينا في هذا الباب ليكون بشرى للمؤمنين وشرفاً لكتابي هذا، والله المعين والموفق لا رب غيره.

وأما الآباء الطبيعيون والأمّهات فلم نذكرهم فلنذكر الأمر الكلي من ذلك وهم أبوان وأمان، فالأبوان هما الفاعلان والأمان هما المنفعلان، وما يحدث عنهما هو المنفعل عنهما، فالحرارة والبرودة فاعلان، والرطوبة واليبوسة منفعلان، فنكحت الحرارة اليبوسة فأنتجا ركن

النار، ونكحت الحرارة الرطوبة فأنتجا ركن الهواء، ثم نكح البرودة الرطوبة فأنتجا ركن الماء، ونكح البرودة اليبوسة فأنتجا ركن التراب، فحصلت في الأبناء حقائق الآباء والأمهات، فكانت النار حارّة يابسة فحرارتها من جهة الأب ويبوستها من جهة الأم، وكان الهواء حاراً رطباً فحرارته من جهة الأب ورطوبته من جهة الأم، وكان الماء بارداً رطباً فبرودته من جهة الأب ورطوبته من جهة الأمّ، وكانت الأرض باردة يابسة فبرودتها من جهة الأب ويبوستها من جهة الأم، فالحرارة والبرودة من العلم والرطوبة واليبوسة من الإرادة، هذا حدّ تعلقها في وجودها من العلم الإلهيّ وما يتولد عنهما من القدرة، ثم يقع التوالد في هذه الأركان من كونها أمّهات لآباء الأنوار العلوية لا من كونها آباء، وإن كانت الأبوّة فيها موجودة فقد عرفناك أنّ الأبوّة والبنوّة من الإضافات والنسب، فالأب ابن لأب هو ابن له، والابن أب لابن هو أب له، وكذلك باب النسب فانظر فيه والله الموفق لا رب غيره.

ولما كانت اليبوسة منفعلة عن الحرارة وكانت الرطوبة منفعلة عن البرودة قلنا في الرطوبة واليبوسة أنهما منفعلتان وجعلناهما بمنزلة الأم للأركان. ولما كانت الحرارة والبرودة فاعلين جعلناهما بمنزلة الأب للأركان. ولما كانت الصنعة تستدعي صانعاً ولا بدّ والمنفعل يطلب الفاعل بذاته فإنه منفعل لذاته، ولو لم يكن منفعلاً لذاته لما قبل الانفعال والأثر كان مؤثراً فيه، بخلاف الفاعل فإنه يفعل بالاختيار إن شاء فعل فيسمّى فاعلاً وإن شاء ترك وليس ذلك للمنفعل، ولهذه الحقيقة ذكر تعالىٰ وهو من فصاحة القرآن وإيجازه ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩] فذكر المنفعل ولم يذكر ولا حار ولا بارد لما كانت الرطوبة واليبوسة عند العلماء بالطبيعة تطلب الحرارة والبرودة اللتين هما منفعلتان عنهما، كما تطلب الصنعة الصانع لذلك ذكرهما دون ذكر الأصل وإن كان الكل في الكتاب المبين، فلقد جاء الله سيدنا محمداً ﷺ بعلوم ما نالها أحد سواه كما قال: «**فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخرِينَ**» في حديث الضرب باليد، فالعلم الإلهيّ هو أصل العلوم كلها وإليه ترجع، وقد استوفينا ما يستحقه هذا الباب على غاية الإيجاز والاختصار، فإن الطول فيه إنما هو بذكر الكيفيات، وأما الأصول فقد ذكرناها ومهدناها ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤] انتهى الجزء الثاني عشر.

(الجزء الثالث عشر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثاني عشر

في معرفة دورة فلك سيدنا محمد ﷺ وهي دورة السيادة وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه الله تعالىٰ

[نظم: الطويل]

ألا بِـأَبـي مـن كـان مَـلْـكـاً وسـيـداً   وآدمُ بـيـن الـمـاء والـطـيـن واقـفُ

فذاك الرسولُ الأبطحيُّ محمدٌ ... له في العلى مجدٌ تليدٌ وطارفُ
أتى بزمان السَّعْدِ في آخر المدى ... وكانت له في كل عصر مَوَاقِفُ
أتى لانكسار الدهر يَجْبُر صَدْعَهُ ... فأثنتْ عليه ألسنٌ وعَوَارِفُ
إذا رام أمراً لا يكون خِلافُه ... وليس لذاك الأمر في الكون صَارِفُ

اعلم أيّدك الله أنه لما خلق الأرواح المحصورة المدبرة للأجسام بالزمان عند وجود حركة الفلك لتعيين المدّة المعلومة عند الله، وكان عند أول خلق الزمان بحركته خلق الروح المدبرة روح محمد ﷺ ثم صدرت الأرواح عند الحركات فكان لها وجود في عالم الغيب دون عالم الشهادة، وأعلمه الله بنبوّته وبشّره بها، وآدم لم يكن إلاّ كما قال بين الماء والطين، وانتهى الزمان بالاسم الباطن في حق محمد ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان في جريانه إلى الاسم الظاهر، فظهر محمد ﷺ بذاته جسماً وروحاً، فكان الحكم له باطناً أولاً في جميع ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، ثم صار الحكم له ظاهراً فنسخ كل شرع أبرزه الاسم الباطن بحكم الاسم الظاهر لبيان اختلاف حكم الاسمين وإن كان المشرّع واحداً وهو صاحب الشرع فإنه قال: كنت نبياً، وما قال كنت إنساناً ولا كنت موجوداً، وليست النبوّة إلاّ بالشرع المقرّر عليه من عند الله، فأخبر أنه صاحب النبوّة قبل وجود الأنبياء الذين هم نوّابه في هذه الدنيا، كما قررناه فيما تقدم من أبواب هذا الكتاب، فكانت استدارته انتهاء دورته بالاسم الباطن، وابتداء دورة أخرى بالاسم الظاهر فقال: استدار كهيئته يوم خلقه الله في نسبة الحكم لنا ظاهراً كما كان في الدورة الأولى منسوباً إلينا باطناً أي إلى محمد، وفي الظاهر منسوباً إلى من نسب إليه من شرع إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وجميع الأنبياء والرسل، وفي الأنبياء من الزمان أربعة حرم: هود وصالح وشعيب سلام الله عليهم ومحمد ﷺ، وعينها من الزمان ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر، ولما كانت العرب تنسأ في الشهور فتردّ المحرم منها حلالاً والحلال منها حراماً وجاء محمد ﷺ فردّ الزمان إلى أصله الذي حكم الله به عند خلقه فعين الحرم من الشهور على حد ما خلقها الله عليه فلهذا قال في اللسان الظاهر: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلقه الله كذلك استدار الزمان، فأظهر محمداً ﷺ كما ذكرناه جسماً وروحاً بالاسم الظاهر حسّاً، فنسخ من شرعه المتقدم ما أراد الله أن ينسخ منه، وأبقى ما أراد الله أن يبقي منه وذلك من الأحكام خاصة لا من الأصول.

ولما كان ظهوره بالميزان وهو العدل في الكون وهو معتدل لأن طبعه الحرارة والرطوبة كان من حكم الآخرة، فإن حركة الميزان متصلة بالآخرة إلى دخول الجنة والنار، ولهذا كان العلم في هذه الأمّة أكثر مما كان في الأوائل، وأعطي محمد ﷺ علم الأولين والآخرين لأن حقيقة الميزان تعطي ذلك، وكان الكشف أسرع في هذه الأمّة مما كان في غيرها لغلبة البرد واليبس على سائر الأمم قبلنا وإن كانوا أذكياء وعلماء، فآحاد منهم معينون بخلاف ما هم الناس اليوم عليه، ألا ترى هذه الأمّة قد ترجمت جميع علوم الأمم، ولو لم يكن المترجم

عالماً بالمعنى الذي دلّ عليه لفظ المتكلم به لما صحّ أن يكون هذا مترجماً، ولا كان ينطلق على ذلك اسم الترجمة، فقد علمت هذه الأمّة علم من تقدم واختصت بعلوم لم تكن للمتقدمين، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «**فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأوَّلِينَ**» وهم الذين تقدموه، ثم قال: «**والآخِرِينَ**» وهو علم ما لم يكن عند المتقدمين وهو ما تعلمه أمّته من بعده إلى يوم القيامة، فقد أخبر أن عندنا علوماً لم تكن قبل، فهذه شهادة من النبيّ ﷺ لنا وهو الصادق بذلك، فقد ثبتت له ﷺ السيادة في العلم في الدنيا وثبتت له أيضاً السيادة في الحكم حيث قال: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حيّاً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتبعَنِي**» ويبين ذلك عند نزول عيسىٰ عليه السلام وحكمه فينا بالقرآن، فصحّت له السيادة في الدنيا بكل وجه ومعنى.

ثم أثبت السيادة له على سائر الناس يوم القيامة بفتحه باب الشفاعة، ولا يكون ذلك لنبيّ يوم القيامة إلاَّ له ﷺ، فقد شفع ﷺ في الرسل والأنبياء أن تشفع نعم وفي الملائكة فأذن الله تعالىٰ عند شفاعته في ذلك لجميع من له شفاعة من ملك ورسول ونبيّ ومؤمن أن يشفع، فهو ﷺ أول شافع بإذن الله وأرحم الراحمين آخر شافع يوم القيامة، فيشفع الرحيم عند المنتقم أن يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط فيخرجهم المنعم المتفضل، وأيّ شرف أعظم من دائرة تدار يكون آخرها أرحم الراحمين وآخر الدائرة متصل بأولها، فأيّ شرف أعظم من شرف محمد ﷺ حيث كان ابتداء هذه الدائرة حيث اتصل بها آخرها لكمالها، فبه سبحانه ابتدأت الأشياء، وبه كملت، وما أعظم شرف المؤمن حيث تلت شفاعته بشفاعة أرحم الراحمين، فالمؤمن بين الله وبين الأنبياء، فإن العلم في حق المخلوق وإن كان له الشرف التام الذي لا تجهل مكانته، ولكن لا يعطى السعادة في القرب الإلهيّ إلاَّ بالإيمان، فنور الإيمان في المخلوق أشرف من نور العلم الذي لا إيمان معه، فإذا كان الإيمان يحصل عنه العلم فنور ذلك العلم المولد من نور الإيمان أعلى، وبه يمتاز على المؤمن الذي ليس بعالم، فيرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين درجات على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم ويزيد العلم بالله، فإن رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: أنتم أعلم بمصالح دنياكم، فلا فلك أوسع من فلك محمد ﷺ فإن له الإحاطة وهي لمن خصّه الله بها من أمته بحكم التبعية، فلنا الإحاطة بسائر الأمم ولذلك كنا شهداء على الناس، فأعطاه الله من وحي أمر السموات ما لم يعط غيره في طالع مولده، فمن الأمر المخصوص بالسماء الأولى من هناك لم يبدل حرف من القرآن ولا كلمة، ولو ألقى الشيطان في تلاوته ما ليس منها بنقص أو زيادة لنسخ الله ذلك وهذا عصمة، ومن ذلك الثبات ما نسخت شريعته بغيرها، بل ثبتت محفوظة واستقرّت بكل عين ملحوظة، ولذلك تستشهد بها كل طائفة.

ومن الأمر المخصوص بالسماء الثانية من هناك أيضاً خصّ بعلم الأولين والآخرين والتؤدة والرحمة والرفق ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٣] وما أظهر في وقت غلظة على أحد إلاَّ عن أمر إلهي حين قيل له: ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧٣] فأمر به لما لم يقتض طبعه ذلك وإن كان بشراً يغضب لنفسه ويرضى لنفسه فقد

قدم لذلك دواء نافعاً يكون في ذلك الغضب رحمة من حيث لا يشعر بها في حال الغضب، فكان يدل بغضبه مثل دالته برضاه، وذلك لأسرار عرفناها ويعرفها أهل الله منّا، فصحّت له السيادة على العالم من هذا الباب، فإن غير أمته قيل فيهم ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٧٥] فأضلّهم الله على علم وتولى الله فينا حفظ ذكره فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩] لأنه سمع العبد وبصره ولسانه ويده واستحفظ كتابه غير هذه الأمّة فحرّفوه، ومن الأمر المخصوص من وحي السماء الثالثة من هناك أيضاً السيف الذي بعثه به والخلافة، واختصّ بقتال الملائكة معه منها أيضاً، فإن ملائكة هذه السماء قاتلت معه يوم بدر، ومن هذه السماء أيضاً بعث من قوم ليس لهم همة إلاّ في قرى الأضياف ونحر الجزر والحروب الدائمة وسفك الدماء وبهذا يتمدحون ويمدحون قيل في بعضهم: [الطويل]

ضَرُوبٌ بنصل السيف سُوْقَ سمانها ... إذا عدموا زاداً فإنك عاقِرُ

وقال الآخر منهم يمدح قومه: [الكامل]

لا يبعَدَنْ قومي الذين هُمُو ... سمُّ العداة وآفةُ الجزْرِ
النازلون بكل معتركٍ ... والطيبون معاقدَ الأُزُرِ

فمدحهم بالكرم والشجاعة والعفة، يقول عنترة بن شدّاد في حفظ الجار في أهله: [الكامل]

وأغضُّ طَرْفي ما بدَتْ لي جارتي ... حتى يواري جارتي مَأْواهَا

ولا خفاء عند كل أحد بفضل العرب على العجم بالكرم والحماسة والوفا وإن كان في العجم كرماء وشجعان ولكن آحاد، كما أن في العرب جبناء وبخلاء ولكن آحاد، وإنما الكلام في الغالب لا في النادر وهذا ما لا ينكره أحد، فهذا مما أوحى الله في هذه السماء، فهذا كله من الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض لمن فهم، ولو ذكرنا على التفصيل ما في كل سماء من الأمر الذي أوحى الله سبحانه فيها لأبرزنا من ذلك عجائب ربما كان ينكرها بعض من ينظر في ذلك العلم من طريق الرصد والتسيير من أهل التعاليم، ويحار المنصف منهم فيه إذا سمعه، ومن الوحي المأمور به في السماء الرابعة نسخه بشريعته جميع الشرائع وظهور دينه على جميع الأديان عند كل رسول ممن تقدمه، وفي كل كتاب منزل، فلم يبق لدين من الأديان حكم عند الله إلاّ ما قرّر منه فبتقريره ثبت فهو من شرعه وعموم رسالته، وإن كان بقي من ذلك حكم فليس هو من حكم الله إلاّ في أهل الجزية خاصة، وإنما قلنا ليس هو حكم الله لأنه سمّاه باطلاً فهو على من اتبعه لا له فهذا أعني بظهور دينه على جميع الأديان كما قال النابغة في مدحه: [الطويل]

ألم تَرَ أن الله أعطاك سُورةً ... ترى كلَّ ملْكٍ دونها يتذَبْذَبُ
بأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعَتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبُ

وهذه منزلة محمد ﷺ، ومنزلة ما جاء به من الشرع من الأنبياء وشرائعهم سلام الله

عليهم أجمعين، فإن أنوار الكواكب اندرجت في نور الشمس، فالنهار لنا والليل وحده لأهل الكتب إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وقد بسطنا في التنزلات الموصلية من أمر كل سماء ما إذا وقفت عليه عرفت بعض ما في ذلك، ومن الوحي المأمور به في السماء الخامسة من هناك المختص بمحمد ﷺ أنه ما ورد قط عن نبيّ من الأنبياء أنه حبّب إليه النساء إلاّ محمد ﷺ وإن كانوا قد رزقوا منهن كثيراً كسليمان عليه السلام وغيره، ولكن كلامنا في كونه حبّب إليه وذلك أنه ﷺ كان نبياً وآدم بين الماء والطين كما قررناه وعلى الوجه الذي شرحناه، فكان منقطعاً إلى ربه لا ينظر معه إلى كون من الأكوان لشغله بالله عنه، فإن النبي مشغول بالتلقي من الله ومراعاة الأدب فلا يتفرغ إلى شيء دونه فحبّب الله إليه النساء فأحبهن عناية من الله بهن، فكان ﷺ يحبهن بكون الله حببهن إليه. خرّج مسلم في صحيحه في أبواب الإيمان: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ نَعْلِي حَسَناً وَثَوْبِي حَسَناً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» ومن هذه السماء حب الطيب، وكان من سنته النكاح لا التبتل، وجعل النكاح عبادة للسرّ الإلهيّ الذي أودع فيه وليس إلاّ في النساء وذلك ظهور الأعيان للثلاثة الأحكام التي تقدم ذكرها في الإنتاج عن المقدمتين والرابط الذي جعله علة الإنتاج، فهذا الفضل وما شاكله مما اختصّ به محمد ﷺ وزاد فيه بنكاح الهبة كما جعل في أمته، فيما يبين لها من النكاح لمن لا شيء له من الأعواض بما يحفظه من القرآن خاصة لا أنه يعلمها، وهذا وإن لم يقو قوّة الهبة ففيه اتساع للأمّة، وليس في الوسع استيفاء ما أوحى الله من الأمر في كل سماء، ومن الأمر الموحى في السماء السادسة إعجاز القرآن.

والذي أعطيه ﷺ من جوامع الكلم من هذه السماء تنزل إليه ولم يعط ذلك نبيّ قبله، وقد قال: «**أُعْطِيتُ سِتّاً لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي**»، وكل ذلك أوحى في السموات من قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية: ١٢] فجعل في كل سماء ما يصلح تنفيذه في الأرض في هذا الخلق، فكان من ذلك أن بعث وحده إلى الناس كافة فعمّت رسالته، وهذا مما أوحى الله به في السماء الرابعة ونصر بالرعب وهو مما أوحى الله به في السماء الثالثة من هناك. ومنها ما حلّل الله له من الغنائم وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً من السماء الثانية من هناك أوتيت جوامع الكلم من أمر وحي السماء السادسة، ومن أمر هذه السماء ما خصّه الله به من إعطائه إياه مفاتيح خزائن الأرض، ومن الوحي المأمور به في السماء السابعة من هناك وهي السماء الدنيا التي تلينا كون الله خصّه بصورة الكمال فكملت به الشرائع وكان خاتم النبيين ولم يكن ذلك لغيره ﷺ، فبهذا وأمثاله انفرد بالسيادة الجامعة للسيادات كلها والشرف المحيط الأعم ﷺ، فهذا قد نبهنا على ما حصل له في مولده من بعض ما أوحى الله به في كل سماء من أمره.

وقوله الزمان ولم يقل الدهر ولا غيره ينبّه على وجود الميزان، فإنه ما خرج عن الحروف التي في الميزان بذكر الزمان، وجعل ياء الميزان مما يلي الزاي وخفّف الزاي وعددها في الزمان إشعاراً بأن في هذه الزاي حرفاً مدغماً فكان أوّل وجود الزمان في الميزان

للعدل الروحاني، وفي الاسم الباطن لمحمد ﷺ بقوله: «**كُنْتُ نَبِيّاً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ**» ثم استدار بعد انقضاء دورة الزمان التي هي ثمانية وسبعون ألف سنة، ثم ابتدأت دورة أخرى من الزمان بالاسم الظاهر فظهر فيها جسم محمد ﷺ، وظهرت شريعته على التعيين والتصريح لا بالكناية، واتصل الحكم بالآخرة فقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] وقيل لنا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٩] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧].

فبالميزان أوحى في كل سماء أمرها، وبه قدّر في الأرض أقواتها ونصبه الحق في العالم في كل شيء، فميزان معنوي وميزان حسّي لا يخطىء أبداً، فدخل الميزان في الكلام وفي جميع الصنائع المحسوسة وكذلك في المعاني، إذ كان أصل وجود الأجسام والأجرام وما تحمله من المعاني عند حكم الميزان، وكان وجود الميزان وما فوق الزمان عن الوزن الإلهيّ الذي يطلبه الاسم الحكيم، ويظهره الحكم العدل لا إله إلاّ هو. وعن الميزان ظهر العقرب وما أوحى الله فيه من الأمر الإلهيّ، والقوس والجدي والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، وانتهت الدورة الزمانية إلى الميزان لتكرار الدور، فظهر محمد ﷺ وكان له في كل جزء من أجزاء الزمان حكم اجتمع فيه بظهوره ﷺ، وهذه الأسماء أسماء ملائكة خلقهم الله وهم الاثنا عشر ملكاً، وجعل لهم الله مراتب في الفلك المحيط، وجعل بيد كل ملك ما شاء أن يجعله مما يبرزه فيمن هو دونهم إلى الأرض حكمة، فكانت روحانية محمد ﷺ تكتسب عند كل حركة من الزمان أخلاقاً بحسب ما أودع الله في تلك الحركات من الأمور الإلهية، فما زالت تكتسب هذه الصفات الروحانية قبل وجود تركيبها إلى أن ظهرت صورة جسمه في عالم الدنيا بما جبله الله عليه من الأخلاق المحمودة فقيل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ٤] فكان ذا خلق لم يكن ذا تخلق.

ولما كانت الأخلاق تختلف أحكامها باختلاف المحل الذي ينبغي أن يقابل بها احتاج صاحب الخلق إلى علم يكون عليه حتى يصرف في ذلك المحل الخلق الذي يليق به عن أمر الله فيكون قربة إلى الله، فلذلك تنزلت الشرائع لتبين للناس محال أحكام الأخلاق التي جبل الإنسان عليها فقال الله في مثل ذلك: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] لوجود التأفيف في خلقه، فأبان عن المحل الذي لا ينبغي أن يظهر فيه حكم هذا الخلق، ثم بيّن المحل الذي ينبغي أن يظهر فيه هذا الخلق فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٧] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] فأبان عن المحل الذي ينبغي أن لا يظهر فيه خلق الخوف ثم قال لهم ﴿ وَخَافُونِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٥] فأبان لهم حيث ينبغي أن يظهر حكم هذه الصفة، وكذلك الحسد والحرص وجميع في هذه النشأة الطبيعية الظاهر حكم روحانيتها فيها قد أبان الله لنا حيث نظهرها وحيث نمنعها، فإنه من المحال إزالتها عن هذه النشأة إلاّ بزوالها لأنها عينها والشيء لا يفارق نفسه، قال ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ**» وقال: «**زَادَكَ الله حِرْصاً ولا تَعُدْ**».

وإنما قلنا الظاهر حكم روحانيتها فيها تحرّرنا بذلك من أجل أهل الكشف والعلماء الراسخين في العلم من المحققين العالمين، فإنّ المسمّى بالجماد والنبات عندنا لهم أرواح بطنت عن إدراك غير أهل الكشف إياها في العادة لا يحسّ بها مثل ما يحسّها من الحيوان، فالكل عند أهل الكشف حيوان ناطق بل حيّ ناطق، غير أنّ هذا المزاج الخاص يسمّى إنساناً لا غير بالصورة، ووقع التفاضل بين الخلائق في المزاج فإنه لا بدّ في كل ممتزج من مزاج خاص لا يكون إلاّ له به يتميز عن غيره كما يجتمع مع غيره في أمر فلا يكون عين ما يقع به الافتراق والتميز عين ما يقع به الاشتراك وعدم التميز فاعلم ذلك وتحققه، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] وشيء نكرة ولا يسبح إلاّ حيّ عاقل عالم بمسبحه، وقد ورد أنّ المؤذن يشهد له مدى صوته من رطب ويابس والشرائع والنبوّات من هذا القبيل مشحونة، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشف فقد سمعنا الأحجار تذكر الله رؤية عين بلسان نطق تسمعه آذاننا منها وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله مما ليس يدركه كل إنسان، فكل جنس من خلق الله أمّة من الأمم فطرهم الله على عبادة تخصّهم أوحى بها إليهم في نفوسهم فرسولهم من ذواتهم إعلام من الله بإلهام خاص جبلهم عليه، كعلم بعض الحيوانات بأشياء يقصر عن إدراكها المهندس النحرير، وعلمهم على الإطلاق بمنافعهم فيما يتناولونه من الحشائش والمآكل وتجنب ما يضرّهم من ذلك كل ذلك في فطرتهم، كذلك المسمّى جماداً ونباتاً أخذ الله بأبصارنا وأسماعنا عمّا هم عليه من النطق، ولا تقوم الساعة حتى تكلم الرجل فخذه بما فعله أهله جعل الجهلاء من الحكماء هذا إذا صحّ إيمانهم به من باب العلم بالاختلاج يريدون به علم الزجر، وإن كان علم الزجر علماً صحيحاً في نفس الأمر وأنه من أسرار الله، ولكن ليس هو مقصود الشارع في هذا الكلام، فكان له ﷺ الكشف الأتم فيرى ما لا نرى، ولقد نبّه عليه السلام على أمر عمل عليه أهل الله فوجدوه صحيحاً قوله: **«لَوْلاَ تَزْيِيدٌ فِي حَدِيثِكُمْ وَتَمْرِيجٌ فِي قُلوبِكُمْ لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَىٰ وَلَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ»** فخصّ برتبة الكمال في جميع أموره. ومنها الكمال في العبودية فكان عبداً صرفاً لم يقم بذاته ربانية على أحد وهي التي أوجبت له السيادة وهي الدليل على شرفه على الدوام، وقد قالت عائشة: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ أَحْيَانِهِ» ولنا منه ميراث وافر وهو أمر يختص بباطن الإنسان. وقوله وقد يظهر خلاف ذلك بأفعاله مع تحققه بالمقام فيلتبس على من لا معرفة له بالأحوال، فقد بينّا في هذا الباب ما مست الحاجة إليه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر
في معرفة حملة العرش

[نظم: البسيط]

العرشُ واللّهِ بالرحمن محمولُ ... وحاملوه وهذا القولُ مَعْقولُ

وأيُّ حَوْلٍ لمخلوقٍ ومقدرةٌ ... لولاه جاء به عقلٌ وتنزيلُ

جـسـم وروحٌ وأقـواتٌ ومـرتـبـةٌ … مـا ثَـمَّ غـيرُ الـذي رتَّبْتَ تـفـصـيـلُ
فـذا هـو الـعـرشُ إن حـقَّـقْـتَ سـورتَـه … والـمـسـتـوي بـاسـمه الـرحـمنُ مأمولُ
وهـم ثـمـانـيـةٌ والله يـعـلـمـهـم … والـيـوم أربـعـةٌ مـا فـيـه تـعـلـيـلُ
مـحـمـدٌ ثـم رضـوانٌ ومـالـكُـهـم … وآدمٌ وخـلـيـلٌ ثـم جـبـريـلُ
والـحِـقْ بـمـيـكـالَ إسـرافـيـلَ لـيس هـنا … سـوى ثـمـانـيـةٍ غُـرٍّ بـهـالـيـلِ

اعلم أيّد الله الوليّ الحميم، أنّ العرش في لسان العرب يطلق ويراد به الملك، يقال ثلّ عرش الملك إذا دخل في ملكه خلل ويطلق ويراد به السرير، فإذا كان العرش عبارة عن الملك فتكون حَمَلته هم القائمون به، وإذا كان العرش السرير فتكون حملته ما يقوم عليه من القوائم أو من يحمله على كواهلهم، والعدد يدخل في حملة العرش، وقد جعل الرسول حكمهم في الدنيا أربعة وفي القيامة ثمانية فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٧] ثم قال: وهم اليوم أربعة يعني في يوم الدنيا. وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ يعني يوم الآخرة.

روينا عن ابن مسرّة الجبلي من أكبر أهل الطريق علماً وحالاً وكشفاً: العرش المحمول هو الملك وهو محصور في جسم وروح وغذاء ومرتبة، فآدم وإسرافيل للصور، وجبريل ومحمد للأرواح، وميكائيل وإبراهيم للأرزاق، ومالك ورضوان للوعد والوعيد، وليس في الملك إلاّ ما ذكروا والأغذية التي هي الأرزاق حسية ومعنوية، فالذي نذكر في هذا الباب الطريقة الواحدة التي هي بمعنى الملك لما يتعلق به من الفائدة في الطريق، وتكون حملته عبارة عن القائمين بتدبيره، فتدبر صورة عنصرية أو صورة نورية وروحاً مدبراً لصورة عنصرية، وروحاً مدبراً مسخراً لصورة نورية، وغذاء لصورة عنصرية، وغذاء علوم ومعارف لأرواح، ومرتبة حسّية من سعادة بدخول الجنة، ومرتبة حسّية من شقاوة بدخول جهنم، ومرتبة روحية علمية. فمبنى هذا الباب على أربع مسائل: المسألة الأولى: الصورة. والمسألة الثانية: الروح. والمسألة الثالثة: الغذاء. والمسألة الرابعة: المرتبة وهي الغاية. وكل مسألة منها تنقسم قسمين، فتكون ثمانية وهم حملة عرش الملك، أي إذا ظهرت الثمانية قام الملك وظهر واستوى عليه مليكه.

المسألة الأولى الصورة: وهي تنقسم قسمين: صورة جسمية عنصرية تتضمن صورة جسدية خيالية، والقسم الآخر صورة جسمية نورية. فلنبتدىء بالجسم النوري فنقول: إن أول جسم خلقه الله أجسام الأرواح الملكية المهيمة في جلال الله. ومنهم العقل الأول والنفس الكل وإليها انتهت الأجسام النورية المخلوقة من نور الجلال، وما ثم ملك من هؤلاء الملائكة من وجد بواسطة غيره إلاّ النفس التي دون العقل، وكل ملك خلق بعد هؤلاء فداخلون تحت حكم الطبيعة فهم من جنس أفلاكها التي خلقوا منها وهم عمارها، وكذلك ملائكة العناصر، وآخر صنف من الأملاك الملائكة المخلوقون من أعمال العباد وأنفاسهم، فلنذكر ذلك صنفاً صنفاً في هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ.

اعلم أن الله تعالىٰ كان قبل أن يخلق الخلق ولا قبلية زمان، وإنما ذلك عبارة للتوصيل تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع كان جلّ وتعالىٰ في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، وهو أول مظهر إلهيّ ظهر فيه سرى فيه النور الذاتي كما ظهر في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] فلما انصبغ ذلك العماء بالنور فتح فيه صور الملائكة المهيمين الذين هم فوق عالم الأجسام الطبيعية ولا عرش ولا مخلوق تقدمهم، فلما أوجدهم تجلّى لهم فصار لهم من ذلك التجلي غيباً كان ذلك الغيب روحاً لهم أي لتلك الصور، وتجلّى لهم في اسمه الجميل فهاموا في جلال جماله فهم لا يفيقون، فلما شاء أن يخلق عالم التدوين والتسطير عيّن واحداً من هؤلاء الملائكة الكروبيين وهو أول ملك ظهر من ملائكة ذلك النور سمّاه العقل والقلم، وتجلّى له في مجلى التعليم الوهبي بما يريد إيجاده من خلقه لا إلى غاية وحدّ فقبل بذاته علم ما يكون، وما للحق من الأسماء الإلهية الطالبة صدور هذا العالم الخلقي، فاشتق من هذا العقل موجوداً آخر سمّاه اللوح، وأمر القلم أن يتدلى إليه ويودع فيه جميع ما يكون إلى يوم القيامة لا غير، وجعل لهذا القلم ثلاثمائة وستين سناً في قلميته أي من كونه قلماً ومن كونه عقلاً ثلاثمائة وستين تجلّياً أو رقيقة كل سن أو رقيقة تغترف من ثلاثمائة وستين صنفاً من العلوم الإجمالية فيفصلها في اللوح، فهذا حصر ما في العالم من العلوم إلى يوم القيامة، فعلمها اللوح حين أودعه إياها القلم فكان من ذلك علم الطبيعة، وهو أوّل علم حصل في هذا اللوح من علوم ما يريد الله خلقه، فكانت الطبيعة دون النفس وذلك كله في عالم النور الخالص، ثم أوجد سبحانه الظلمة المحضة التي هي في مقابلة هذا النور بمنزلة العدم المطلق المقابل للوجود المطلق، فعندما أوجدها أفاض عليها النور إفاضة ذاتية بمساعدة الطبيعة فَلأَمَ شعثها ذلك النور، فظهر الجسم المعبر عنه بالعرش فاستوى عليه الاسم الرحمن بالاسم الظاهر، فذلك أوّل ما ظهر من عالم الخلق، وخلق من ذلك النور الممتزج الذي هو مثل ضوء السحر الملائكة الحافين بالسرير وهو قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧٥] فليس لهم شغل إلاّ كونهم حافين من حول العرش يسبحون بحمده، وقد بيّنا خلق العالم في كتاب سميناه عقلة المستوفز، وإنما نأخذ منه في هذا الباب رؤوس الأشياء.

ثم أوجد الكرسي في جوف هذا العرش وجعل فيه ملائكة من جنس طبيعته، فكل فلك أصل لما خلق فيه من عماره كالعناصر فيما خلق منها من عمارها، كما خلق آدم من تراب وعمّر به وببنيه الأرض، وقسم في هذا الكرسي الكريم الكلمة إلى خبر وحكم وهما القدمان اللتان تدلّتا له من العرش كماورد في الخبر النبوي. ثم خلق في جوف الكرسي الأفلاك فلكاً في جوف فلك، وخلق في كل فلك عالماً منه يعمرونه سمّاهم ملائكة يعني رسلاً وزيّنها بالكواكب، وأوحى في كل سماء أمرها إلى أن خلق صور المولدات.

ولما أكمل الله هذه الصور النورية بلا أرواح تكون غيباً لهذه الصور، تجلّى لكل صنف من الصور بحسب ما هي عليه، فتكوّن عن الصور وعن هذا التجلّي أرواح الصور وهي

المسألة الثانية، فخلق الأرواح وأمرها بتدبير الصور وجعلها غير منقسمة بل ذاتاً واحدة وميّز بعضها عن بعض فتميزت، وكان ميّزها بحسب قبول الصور من ذلك التجلي، وليست الصور بأينيات لهذه الأرواح على الحقيقة، إلاّ أن هذه الصور لها كالملك في حق الصور العنصرية وكالمظاهر في حق الصور كلها، ثم أحدث الله الصور الجسدية الخيالية بتجلّ آخر بين اللطائف والصور، تتجلّى في تلك الصور الجسدية الصور النورية والنارية ظاهرة للعين، وتتجلّى الصور الحسّية حاملة للصور المعنوية في هذه الصور الجسدية في النوم وبعد الموت وقبل البعث وهو البرزخ الصوري وهو قرن من نور أعلاه واسع وأسفله ضيق، فإن أعلاه السماء وأسفله الأرض، وهذه الأجساد الصورية التي يظهر فيها الجن والملائكة وباطن الإنسان وهي الظاهرة في النوم، وصور سوق الجنة وهي هذه الصور التي تعمّر الأرض التي تقدم الكلام عليها في بابها، ثم إن الله تعالىٰ جعل لهذه الصور ولهذه الأرواح غذاء وهو **المسألة الثالثة** يكون بذلك الغذاء بقاؤهم وهو رزق حسيّ ومعنويّ، فالمعنويّ منه غذاء العلوم والتجليات والأحوال والغذاء المحسوس معلوم وهو ما تحمله صور المطعومات والمشروبات من المعاني الروحانية أعني القوىٰ فذلك هو الغذاء فالغذاء كله معنوي على ما قلناه، وإن كان في صور محسوسة فتتغذى كل صورة نورية كانت أو حيوانية أو جسدية بما يناسبها وتفصيل ذلك يطول.

ثم إن الله جعل لكل عالم مرتبة في السعادة والشقاء ومنزلة وتفاصيلها لا تنحصر، فسعادتها بحسبها، فمنها سعادة غرضية، ومنها سعادة كمالية، ومنها سعادة ملائمة، ومنها سعادة وضعية أعني شرعية، والشقاوة مثل ذلك في التقسيم بما لا يوافق الغرض ولا الكمال ولا المزاج وهو غير الملائم ولا الشرع وذلك كله محسوس ومعقول، فالمحسوس منه ما يتعلق بدار الشقاء من الآلام في الدنيا والآخرة، ويتعلق بدار السعادة من اللذات في الدنيا والآخرة، ومنه خالص وممتزج، فالخالص يتعلق بالدار الآخرة، والممتزج يتعلق بالدار الدنيا، فيظهر السعيد بصورة الشقي والشقي بصورة السعيد وفي الآخرة يمتازون، وقد يظهر الشقي في الدنيا بشقاوته ويتصل بشقاء الآخرة، وكذلك السعيد ولكنهم مجهولون وفي الآخرة يمتازون ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] فهنالك تلحق المراتب بأهلها لحوقاً لا ينخرم ولا يتبدل، فقد بان لك معنى الثمانية التي هي مجموع الملك المعبَّر عنه بالعرش، وهذه هي **المسألة الرابعة**، فقد بان لك معنى الثمانية، وهذه الثمانية للنسب الثمانية التي يوصف بها الحق وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، وإدراك المطعوم والمشموم والملموس بالصفة اللائقة به، فإن لهذا الإدراك بها تعلّقاً كإدراك السمع بالمسموعات والبصر بالمبصرات، ولهذا انحصر الملك في ثمانية، فالظاهر منها في الدنيا أربعة: الصورة والغذاء والمرتبتان، ويوم القيامة تظهر الثمانية بجميعها للعيان وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٧] فقال ﷺ: «**وَهُمُ اليَوْمَ أَرْبَعَةٌ**» هذا في تفسير العرش بالملك.

وأما العرش الذي هو السرير فإن لله ملائكة يحملونه على كواهلهم هم اليوم أربعة وغداً يكونون ثمانية لأجل الحمل إلى أرض الحشر. وورد في صور هؤلاء الأربعة الحمَلة ما يقاربه قول ابن مسرّة: فقيل الواحد على صورة الإنسان، والثاني على صورة الأسد، والثالث على صورة النسر، والرابع على صورة الثور، وهو الذي رآه السامري فتخيّل أنه إله موسىٰ فصنع لقومه العجل وقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨٨] القصة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر

في معرفة أسرار الأنبياء أعني أنبياء الأولياء وأقطاب الأمم المكملين من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ،وأن القطب واحد منذ خلقه الله لم يمت وأين مسكنه

[نظم: الرمل]

أنبياءُ الأولياءِ الورَثَهْ	عرّف الله بهم مَنْ بعثَهْ
ثم في رَوْع إمامٍ واحدٍ	سرُّ هذا الأمر روحٌ نفثَهْ
ثم لما عَقَدَ الله له	وسرى في خَلْقه ما نكثَهْ
وتلقَّته على عِزَّته	مِنَّةً منه قلوبُ الورثَهْ
موضِعُ القطب الذي يسْكُنُه	ليس يدريه سوى من ورِثَهْ

اعلم أيّدك الله أن النبيّ هو الذي يأتيه الملك بالوحي من عند الله، يتضمن ذلك الوحي شريعة يتعبده بها في نفسه، فإن بعث بها إلى غيره كان رسولاً، ويأتيه الملك على حالتين: إما ينزل بها على قلبه على اختلاف أحوال في ذلك التنزّل، وإمّا على صورة جسدية من خارج يلقي ما جاء به إليه على أذنه فيسمع، أو يلقيها على بصره فيبصره، فيحصل له من النظر مثل ما يحصل له من السمع سواء، وكذلك سائر القوىٰ الحسّاسة، وهذا باب قد أغلق برسول الله ﷺ، فلا سبيل أن يتعبّد الله أحداً بشريعة ناسخة لهذه الشريعة المحمدية، وأن عيسىٰ عليه السلام إذا نزل ما يحكم إلاّ بشريعة محمد ﷺ وهو خاتم الأولياء فإنه من شرف محمد ﷺ أن ختم الله ولاية أمته، والولاية مطلقة بنبي رسول مكرم ختم به مقام الولاية، فله يوم القيامة حشران: يحشر مع الرسل رسولاً، ويحشر معنا ولياً تابعاً محمداً ﷺ كرّمه الله تعالىٰ وإلياس بهذا المقام على سائر الأنبياء.

وأمّا حالة أنبياء الأولياء في هذه الأمّة فهو كل شخص أقامه الحق في تجلّ من تجلياته وأقام له مظهر محمد ﷺ ومظهر جبريل عليه السلام، فأسمعه ذلك المظهر الروحانيّ خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الوليّ عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمّة المحمدية، فيأخذها هذا الوليّ كما أخذها المظهر المحمدي للحضور الذي حصل له في هذه الحضرة مما أمر به ذلك المظهر المحمدي من التبليغ لهذه الأمّة فيرد إلى نفسه، وقد

وعى ما خاطب الروح به مظهر محمد ﷺ وعلم صحته علم يقين بل عين يقين، فأخذ حكم هذا النبيّ وعمل به على بينة من ربه.

فربّ حديث ضعيف قد ترك العمل به لضعف طريقه من أجل وضّاع كان في رواته يكون صحيحاً في نفس الأمر، ويكون هذا الواضع مما صدق في هذا الحديث ولم يضعه، وإنما ردّه المحدث لعدم الثقة بقوله في نقله، وذلك إذا انفرد به ذلك الواضع أو كان مدار الحديث عليه، وأما إذا شاركه فيه ثقة سمعه معه قبل ذلك الحديث من طريق ذلك الثقة، وهذا وليّ قد سمعه من الروح يلقيه على حقيقة محمد ﷺ، كما سمع الصحابة في حديث جبريل عليه السلام مع محمد ﷺ في الإسلام والإيمان والإحسان في تصديقه إياه، وإذا سمعه من الروح الملقي فهو فيه مثل الصاحب الذي سمعه من فم رسول الله ﷺ علماً لا يشك فيه، بخلاف التابع فإنه يقبله على طريق غلبة الظن لارتفاع التهمة المؤثّرة في الصدق. ورب حديث يكون صحيحاً من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف الذي قد عاين هذا المظهر فسأل النبيّ ﷺ عن هذا الحديث الصحيح فأنكره وقال له لم أقله ولا حكمت به فيعلم ضعفه فيترك العمل به عن بينة من ربّه، وإن كان قد عمل به أهل النقل لصحة طريقه، وهو في نفس الأمر ليس كذلك، وقد ذكر مثل هذا مسلم في صدر كتابه الصحيح، وقد يعرف هذا المكاشف من وضع ذلك الحديث الصحيح طريقه في زعمهم، إمّا أن يسمّى له أو تقام له صورة الشخص فهؤلاء هم أنبياء الأولياء ولا يتفردون قط بشريعة ولا يكون لهم خطاب بها إلاّ بتعريف أن هذا هو شرع محمد ﷺ، أو يشاهد المنزل عليه بذلك الحكم في حضرة التمثّل الخارج عن ذاته والداخل المعبر عنه بالمبشرات في حق النائم.

غير أن الوليّ يشترك مع النبيّ في إدراك ما تدركه العامّة في النوم في حال اليقظة سواء، وقد أثبت هذا المقام للأولياء أهل طريقنا وإتيان هذا وهو الفعل بالهمة والعلم من غير معلم من المخلوقين غير الله، وهو علم الخضر، فإن آتاه الله العلم بهذه الشريعة التي تعبده بها على لسان رسول الله ﷺ بارتفاع الوسائط أعني الفقهاء وعلماء الرسوم كان من العلم اللدني ولم يكن من أنبياء هذه الأمّة، فلا يكون من يكون من الأولياء وارث نبيّ إلاّ على هذه الحالة الخاصة من مشاهدة الملك عند الإلقاء على حقيقة الرسول فافهم.

فهؤلاء هم أنبياء الأولياء، وتستوي الجماعة كلها في الدعاء إلى الله على بصيرة كما أمر الله تعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم أهل هذا المقام، فهم في هذه الأمّة مثل الأنبياء في بني إسرائيل على مرتبة تعبّد هارون بشريعة موسىٰ عليهما السلام مع كونه نبياً، فإن الله قد شهد بنبوّته وصرّح بها في القرآن، فمثل هؤلاء يحفظون الشريعة الصحيحة التي لا شك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمّة ممن اتبعهم فهم أعلم الناس بالشرع، غير أن الفقهاء لا يسلمون لهم ذلك، وهؤلاء لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم بل يجب عليهم الكتم لمقامهم، ولا يردون على علماء الرسوم فيما ثبت عندهم مع علمهم بأن ذلك خطأ في نفس الأمر، فحكمهم حكم المجتهد الذي ليس له أن يحكم في

المسألة بغير ما أدّاه إليه اجتهاده وأعطاه دليله، وليس له أن يخطىء المخالف له في حكمه، فإن الشارع قد قرّر ذلك الحكم في حقّه، فالأدب يقتضي له أن لا يخطىء ما قرره الشارع حكماً، ودليله وكشفه يحكم عليه باتباع حكم ما ظهر له وشاهده.

وقد ورد الخبر عن النبي ﷺ أن علماء هذه الأمّة أنبياء بني إسرائيل يعني المنزلة التي أشرنا إليها، فإن أنبياء بني إسرائيل كانت تحفظ عليهم شرائع رسلهم وتقوم بها فيهم، وكذلك علماء هذه الأمّة وأئمتها يحفظون عليها أحكام رسولها ﷺ كعلماء الصحابة ومن نزل عنهم من التابعين وأتباع التابعين كالثوري وابن عيينة وابن سيرين والحسن ومالك وابن أبي رباح وأبي حنيفة، ومن نزل عنهم كالشافعيّ وابن حنبل، ومن جرى مجرى هؤلاء إلى هلم جراً في حفظ الأحكام. وطائفة أخرى من علماء هذه الأمّة يحفظون عليها أحوال الرسول ﷺ وأسرار علومه: كعليّ وابن عباس وسلمان وأبي هريرة وحذيفة. ومن التابعين: كالحسن البصري ومالك بن دينار وبنان الحمّال وأيوب السختيانيّ. ومن نزل عنهم بالزمان: كشيبان الراعي وفرج الأسود المعمر والفضيل بن عياض وذي النون المصري ومن نزل عنهم: كالجنيد والتستري، ومن جرى مجرى هؤلاء من السادة في حفظ الحال النبوي والعلم اللدني والسر الإلهيّ، فأسرار حفظة الحكم موقوفة في الكرسي عند القدمين إذ لم يكن لهم حال نبويّ يعطي سرّاً إلهيّاً ولا علماً لدنيّاً، وأسرار حفّاظ الحال النبويّ والعلم اللدني من علماء حفّاظ الحكم وغيرهم موقوفة عند العرش ولا موقوفة، ومنها ما لها مقام، ومنها ما لا مقام لها، وذلك مقام لها تتميز به، فإن ترك العلامة بين أصحاب العلامات علامة محققة غير محكوم عليها بتقييد وهي أسنى العلامات، ولا يكون ذلك إلاّ للمتمكن الكامل في الورث المحمدي.

وأما أقطاب الأمم المكملين في غير هذه الأمّة ممن تقدمَنا بالزمان فجماعة ذكرت لي أسماؤهم باللسان العربي لما أشهدتهم ورأيتهم في حضرة برزخية وأنا بمدينة قرطبة في مشهد أقدس، فكان منهم: المفرق، ومداوي الكلوم، والبكاء، والمرتفع، والشفاء، والماحق، والعاقب، والمنحور، وشحر الماء، وعنصر الحياة، والشريد، والراجع، والصانع، والطيار، والسالم، والخليفة، والمقسوم، والحيّ، والرامي، والواسع، والبحر، والملصق، والهادي، والمصلح، والباقي. فهؤلاء المكملون الذين سمّوا لنا من آدم عليه السلام إلى زمان محمد ﷺ.

وأما القطب الواحد فهو روح محمد ﷺ وهو الممدّ لجميع الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، والأقطاب من حين النشء الإنساني إلى يوم القيامة. قيل له ﷺ: متى كنت نبياً؟ فقال ﷺ: **«وآدَمُ بَيْنَ الماءِ والطِّين»**. وكان اسمه مداوي الكلوم فإنه بجراحات الهوى خبير، والرأي والدنيا والشيطان والنفس بكل لسان نبوي أو رسالي أو لسان الولاية، وكان له نظر إلى موضع ولادة جسمه بمكة وإلى الشام، ثم صرف الآن نظره إلى أرض كثيرة الحر واليبس لا يصل إليها أحد من بني آدم بجسده إلاّ أنه قد رآها بعض الناس من مكة في مكانه من غير نقلة زويت له الأرض فرآها، وقد أخذنا نحن عنه علوماً جمّة بمآخذ مختلفة.

ولهذا الروح المحمدي مظاهر في العالم أكمل مظهره في قطب الزمان، وفي الأفراد. وفي ختم الولاية المحمدي، وختم الولاية العامّة الذي هو عيسىٰ عليه السلام وهو المعبر عنه بمسكنه. وسأذكر فيما بعد هذا الباب إن شاء الله ما له من كونه مداوي الكلوم من الأسرار وما انتشر عنه من العلوم، ثم ظهر هذا السرّ بعد ظهور حال مداوي الكلوم في شخص آخر اسمه المستسلم للقضاء والقدر، ثم انتقل الحكم منه إلى مظهر الحق، ثم انتقل من مظهر الحق إلى الهائج، ثم انتقل من الهائج إلى شخص يسمّى واضع الحكم وأظنه لقمان والله أعلم فإنه كان في زمان داود وما أنا منه على يقين أنه لقمان، ثم انتقل من واضع الحكم إلى الكاسب، ثم انتقل من الكاسب إلى جامع الحكم، وما عرفت لمن انتقل الأمر من بعده. وسأذكر في هذا الكتاب إذا جاءت أسماء هؤلاء ما اختصوا به من العلوم، ونذكر لكل واحد منهم مسألة إن شاء الله، ويجري ذلك على لساني فما أدري ما يفعل الله بي، ويكفي هذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثالث عشر.

(الجزء الرابع عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس عشر

في معرفة الأنفاس ومعرفة أقطابها المحققين بها وأسرارهم، هي:

[نظم: المديد]

عَالَمُ الأنفاسِ من نفسِي وهمُ الأعلَوْنَ في القُدُسِ
مُصْطَفاهم سيِّدٌ لَسِنٌ وخَبِيُه يأتيه في الجَرَسِ
قلتُ للبوّاب حين رأى ما أقاسيه من الحَرَسِ
قال ما تبغيه يا ولدي قلتُ قربَ السيِّدِ النَّدِسِ
مَنْ شفيعي للإمام عَسَى خطرةٌ منه لمُختلِسِ
قال ما يعطي عَوَارِفَه لغنيٍّ غيرِ مُبْتَئِسِ

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**». قيل: إن الأنصار نفس الله بهم عن نبيه ﷺ ما كان فيه من مقاساة الكفار المشركين، والأنفاس روائح القرب الإلهيّ، فلما تنسمت مشامّ العارفين عرف هذه الأنفاس وتوفرت الدواعي منهم إلى طلب محقق ثابت القدم في ذلك المقام ينبئهم بما في طيّ ذلك المقام الأقدس وما جاءت به هذه الأنفاس من العرف الأنفس من الأسرار والعلوم بعد البحث بالهمم والتعرّض لنفحات الكرم عرّفوا بشخص إلهيّ عنده السرّ الذي يطلبونه والعلم الذي يريدون تحصيله وأقامه الحق فيهم قطباً يدور عليه فلكهم، وأما ما يقوم به ملكهم يقال له مداوي الكلوم فانتشر عنه فيهم من العلم والحكم والأسرار ما لا يحصرها كتاب، وأوّل سرّ أطلع عليه الدهر الأوّل الذي عنه تكوّنت الدهور، وأوّل فعل أعطي

فعل ما تقتضيه روحانية السماء السابعة سماء كيوان، فكان يصير الحديد فضة بالتدبير والصنعة، ويصير الحديد ذهباً بالخاصيّة وهو سرّ عجيب، ولم يطلب على هذا رغبة في المال ولكن رغبة في حسن المآل ليقف من ذلك على رتبة الكمال وأنه مكتسب في التكوين.

فإن المرتبة الأولى من عقد الأبخرة المعدنية بالحركات الفلكية والحرارة الطبيعية زئبقاً وكبريتاً، وكل متكوّن في المعدن فإنه يطلب الغاية الذي هو الكمال وهو الذهب، لكن تطرأ عليه في المعدن علل وأمراض من يبس مفرط أو رطوبة مفرطة أو حرارة أو برودة تخرجه عن الاعتدال فيؤثر فيه ذلك المرض صورة تسمّى الحديد أو النحاس أو الأسرب أو غير ذلك من المعادن، فأعطي هذا الحكيم معرفة العقاقير والأدوية المزيل استعمالها، تلك العلة الطارئة على شخصية هذا الطالب درجة الكمال من المعدنيات وهي الذهب فأزالها فصحّ ومشى حتى لحق بدرجة الكمال، ولكن لا يقوى في الكمالية قوّة الصحيح الذي ما دخل جسمه مرض، فإن الجسد الذي يدخله المرض بعيدٌ أن يتخلص وينقى الخلوص الذي لا يشوبه كدر وهو الخلاص الأصلي كيحيىٰ في الأنبياء وآدم عليهما السلام، ولم يكن الغرض إلاَّ درجة الكمال الإنساني في العبودية فإن الله خلقه ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [سورة التين: الآية ٤] ثم ردّه ﴿إِلَىٰٓ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [سورة التين: الآية ٥] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة التين: الآية ٦] فأبقوا على الصحة الأصلية، وذلك أنه في طبيعته اكتسب علل الأعراض وأمراض الأغراض، فأراد هذا الحكيم أن يردّه إلى أحسن تقويم الذي خلقه الله عليه، فهذا كان قصد الشخص العاقل بمعرفة هذه الصنعة المسمّاة بالكيمياء، وليست سوى معرفة المقادير والأوزان، فإن الإنسان لما خلقه الله وهو آدم أصل هذه النشأة الإنسانية والصورة الجسمية الطبيعية العنصرية ركب جسده من حار وبارد ورطب ويابس، بل من بارد يابس، وبارد رطب، وحار رطب، وحار يابس، وهي الأخلاط الأربعة السوداء والبلغم والدم والصفراء كما هي في جسم العالم الكبير النار والهواء والماء والتراب، فخلق الله جسم آدم من طين وهو مزج الماء بالتراب، ثم نفخ فيه نفساً وروحاً.

ولقد ورد في النبوّة الأولى في بعض الكتب المنزلة على نبي في بني إسرائيل ما أذكر نصّه الآن فإن الحاجة مسّت إلى ذكره، فإن أصدق الأخبار ما روي عن الله تعالىٰ، فروينا عن مسلمة بن وضاح مسنداً إليه وكان من أهل قرطبة فقال: قال الله في بعض ما أنزله على أنبياء بني إسرائيل: إني خلقت يعني آدم من تراب وماء، ونفخت فيه نفساً وروحاً فسوّيت جسده من قبل التراب ورطوبته من الماء وحرارته من النفس وبرودته من الروح، قال: ثم جعلت في الجسد بعد هذا أربعة أنواع أخر لا تقوم واحدة منهن إلاَّ بالأخرى وهي: المرّتان والدم والبلغم، ثم أسكنت بعضهن في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء، ومسكن الحرارة في المرّة الصفراء، ومسكن الرطوبة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم، ثم قال جلّ ثناؤه: فأي جسد اعتدلت فيه هذه الأخلاط كملت صحته واعتدلت بنيته، فإن زادت واحدة منهنّ على الأخرى وقهرتهن دخل السقم على الجسد بقدر ما زادت، وإذا كانت ناقصة

ضعفت عن مقاومتهن فدخل السقم بغلبتهن إياها وضعفها عن مقاومتهن، فعلم الطب أن يزيد في الناقص أو ينقص من الزائد، طلب الاعتدال ـ في كلام طويل عن الله تعالىٰ ذكرناه في الموعظة الحسنة، فكان هذا الإمام من أعلم الناس بهذا النشء الطبيعيّ، وما للعالم العلوي فيه من الآثار المودعة في أنوار الكواكب وسباحتها وهو الأمر الذي أوحى الله في السموات وفي اقتراناتها وهبوطها وصعودها وأوجها وحضيضها قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢]. وقال في الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٠] وكان لهذا الشخص فيما ذكرناه مجال رحب وباع متسع وقدم راسخة، لكن ما تعدت قوّته في النظر الفلك السابع من باب الذوق والحال، لكن حصل له ما في الفلك المكوكب والأطلس بالكشف والاطلاع وكان الغالب عليه قلب الأعيان في زعمه، والأعيان لا تنقلب عندنا جملة واحدة، فكان هذا الشخص لا يبرح يسبح بروحانيته من حيث رصده وفكره مع المقابل في درجه ودقائقه، وكان عنده من أسرار إحياء الموات عجائب، وكان مما خصّه الله به أنه ما حلّ بموضع قد أجدب إلاّ أوجد الله فيه الخصب والبركة، كما روينا عن رسول الله ﷺ في خضر رضي الله عنه وقد سئل عن اسمه بخضر فقال ﷺ: «**مَا قَعَدَ عَلَىٰ فَرْوَةٍ إِلاَّ اهْتَزَّتْ تَحْتَهُ خَضْرَاءَ**» وكان هذا الإمام له تلميذ كبير في المعرفة الذاتية وعلم القوّة، وكان يتلطف بأصحابه في التنبيه عليه ويستر عن عامة أصحابه ذلك خوفاً عليه منهم ولذلك سمّي مداوي الكلوم، كما استكتم يعقوب يوسف عليهما السلام حذراً عليه من إخوته، وكان يشغل عامّة أصحابه بعلم التدبير، ومثل ذلك مما يشاكل هذا الفن من تركيب الأرواح في الأجساد وتحليل الأجساد وتأليفها بخلع صورة عنها أو خلع صورة عليها ليقفوا من ذلك على صنعة الله العليم الحكيم.

وعن هذا القطب خرج علم العالم وكونه إنساناً كبيراً، وأن الإنسان مختصره في الجرمية مضاهيه في المعنى، فأخبرني الروح الذي أخذت منه ما أودعته في هذا الكتاب أنه جمع أصحابه يوماً في دسكرة وقام فيهم خطيباً وكانت عليه مهابة فقال: افهموا عني ما أرمزه لكم في مقامي هذا وفكروا فيه واستخرجوا كنزه واتساع زمانه في أيّ عالم هو وإني لكم ناصح، وما كل ما يدرى يذاع، فإنه لكل علم أهل يختص بهم، وما يتمكن الانفراد ولا يسع الوقت، فلا بدّ أن يكون في الجمع فطر مختلفة وأذهان غير مؤتلفة، والمقصود من الجماعة واحد إياه أقصد بكلامي وبيده مفتاح رمزي، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال، ولكل وارد حال، فافهموا عني ما أقول وعوا ما تسمعون، فبنور النور أقسمت، وبروح الحياة وحياة الروح آليت أني عنكم لمنقلب من حيث جئت، وراجع إلى الأصل الذي عنه وجدت، فقد طال مكثي في هذه الظلمة، وضاق نفسي بترادف هذه الغمة، وإني سألت الرحلة عنكم وقد أذن لي في الرحيل فاثبتوا على كلامي فتعقلون ما أقول بعد انقضاء سنين عينها وذكر عددها، فلا تبرحوا حتى آتيكم بعد هذه المدّة، وإن برحتم فلتسرعوا إلى هذا المجلس الكرّة، وإن لطف مغناه وغلب على الحرف معناه فالحقيقة الحقيقة، والطريقة الطريقة، فقد اشتركت الجنة والدنيا في اللبن والبناء، وإن كانت الواحدة من طين وتبن والأخرى من عسجد ولجين، هذا

ما كان من وصيته لبنيه، وهذه مسألة عظيمة رمزها وراح، فمن عرفها استراح.

ولقد دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد وكان يرغب في لقائي لما سمع وبلغه ما فتح الله به عليّ في خلوتي فكان يظهر التعجّب مما سمع، فبعثني والدي إليه في حاجة قصداً منه حتى يجتمع بي فإنه كان من أصدقائه وأنا صبيّ ما بقل وجهي ولا طرّ شاربي، فعندما دخلت عليه قام من مكانه إليّ محبة وإعظاماً فعانقني وقال لي: نعم، قلت له: نعم، فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم إني استشعرت بما أفرحه من ذلك فقلت له لا، فانقبض وتغيّر لونه وشكّ فيما عنده وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهيّ هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت له: نعم لا وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادّها والأعناق من أجسادها، فاصفرّ لونه وأخذه الأفكل وقعد يحوقل وعرف ما أشرت به إليه وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الإمام أعني مداوي الكلوم، وطلب بعد ذلك من أبي الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي، فشكر الله تعالىٰ الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلاً وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أرباباً، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغالق أبوابها، والحمد لله الذي خصّني برؤيته، ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية فأقيم لي رحمه الله في الواقعة في صورة ضرب بيني وبينه فيها حجاب رقيق أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني وقد شغل بنفسه عني، فقلت: إنه غير مراد لما نحن عليه فما اجتمعت به حتى درج وذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونقل إلى قرطبة وبها قبره، ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسين محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد وصاحبي أبو الحكم عمرو بن السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه هذا الإمام وهذه أعماله يعني تواليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدي نعم ما نظرت لا فُضَّ فوك. فقيدتها عندي موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم، وما بقي من تلك الجماعة غيري وقلنا في ذلك: [الكامل]

هــذا الإمــامُ وهــذه أعــمــالُــهُ يــا لــيــتَ شــعــري هــل أتَــتْ آمــالُــهُ

وكان هذا القطب مداوي الكلوم قد أظهر سرّ حركة الفلك، وأنه لو كان على غير هذا الشكل الذي أوجده الله عليه لم يصحّ أن يتكوّن شيء في الوجود الذي تحت حيطته وبين الحكمة الإلهية في ذلك ليري الألباب علم الله في الأشياء وأنه بكل شيء عليم، لا إله إلاّ هو العليم الحكيم.

وفي معرفة الذات والصفات علم ما أشار إليه هذا القطب، فلو تحرّك غير المستدير لما عمر الخلاء بحركته، وكانت أحياز كثيرة تبقى في الخلاء، فكان لا يتكوّن عن تلك الحركة تمام أمر، وكان ينقص منه قدر ما نقص من عمارة تلك الأحياز بالحركة، وذلك بمشيئة الله تعالىٰ وحكمته الجارية في وضع الأسباب، وأخبر هذا القطب أنّ العالم موجود ما بين

المحيط والنقطة على مراتبهم وصغر أفلاكهم وعظمها، وأن الأقرب إلى المحيط أوسع من الذي في جوفه، فيومه أكبر، ومكانه أفسح، ولسانه أفصح، وهو إلى التحقّق بالقوّة والصفاء أقرب، وما انحطّ إلى العناصر نزل عن هذه الدرجة حتى إلى كرة الأرض، وكل جزء في كل محيط يقابل ما فوقه وما تحته بذاته، لا يزيد واحد على الآخر شيء، وإن اتسع الواحد وضاق الآخر، وهذا من إيراد الكبير على الصغير، والواسع على الضيق، من غير أن يوسع الضيق أو يضيق الواسع، والكل ينظر إلى النقطة بذواتهم، والنقطة مع صغرها تنظر إلى كل جزء من المحيط بها بذاتها، فالمختصر المحيط، والمختصر منه النقطة وبالعكس فانظر. ولما انحطّ الأمر إلى العناصر حتى انتهى إلى الأرض كثر عكره مثل الماء في الحب والزيت، وكل مائع في الدن ينزل إلى أسفله عكره ويصفو أعلاه، والمعنى في ذلك ما يجده عالم الطبيعة من الحجب المانعة عن إدراك الأنوار من العلوم والتجليات بكدورات الشهوات والشبهات الشرعية، وعدم الورع في اللسان والنظر والسماع والمطعم والمشرب والملبس والمركب والمنكح، وكدورات الشهوات بالانكباب عليها والاستفراغ فيها وإن كانت حلالاً، وإنما لم يمنع نيل الشهوات في الآخرة، وهي أعظم من شهوات الدنيا من التجلّي، لأن التجلّي هناك على الأبصار، وليست الأبصار بمحل للشهوات، والتجلّي هنا في الدنيا إنما هو على البصائر والبواطن دون الظاهر، والبواطن محل الشهوات، ولا يجتمع التجلّي والشهوة في محل واحد، فلهذا جنح العارفون والزهّاد في هذه الدنيا إلى التقليل من نيل شهواتها والشغل بكسب حطامها.

وهذا الإمام هو الذي أعلم أصحابه أن ثَمّ رجالاً سبعة يقال لهم الأبدال يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بدل إقليم، وإليهم تنظر روحانيات السموات السبع، ولكل شخص منهم قوّة من روحانيات الأنبياء الكائنين في هذه السموات وهم: إبراهيم الخليل، يليه موسىٰ، يليه هارون، يتلوه إدريس، يتلوه يوسف، يتلوه عيسىٰ، يتلوه آدم سلام الله عليهم أجمعين. وأمّا يحيىٰ فله تردّد بين عيسىٰ وبين هارون فينزل على قلوب هؤلاء الأبدال السبعة من حقائق هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وتنظر إليهم هذه الكواكب السبعة بما أودع الله تعالىٰ في سباحتها في أفلاكها، وبما أودع الله في حركات هذه السموات السبع من الأسرار والعلوم والآثار العلوية والسفلية، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فلهم في قلوبهم في كل ساعة وفي كل يوم بحسب ما يعطيه صاحب تلك الساعة وسلطان ذلك اليوم.

فكل أمر علمي يكون في يوم الأحد فمن مادّة إدريس عليه السلام، وكل أثر علوي يكون في ذلك اليوم في عنصر الهواء والنار فمن سباحة الشمس ونظرها المودع من الله تعالىٰ فيها، وما يكون من أثر في عنصر الماء والتراب في ذلك اليوم فمن حركة الفلك الرابع وموضع هذا الشخص الذي يحفظه من الأقاليم الإقليم الرابع، فممّا يحصل لهذا الشخص المخصوص من الأبدال بهذا الإقليم من العلوم علم أسرار الروحانيات، وعلم النور والضياء، وعلم البرق والشعاع، وعلم كل جسم مستنير، ولماذا استنار؟ وما المزاج الذي أعطاه هذا القبول مثل الحباحب من الحيوان، وكأصول شجر التين من النبات، وكحجر المهى

والياقوت، وبعض لحوم الحيوان، وعلم الكمال في المعدن والنبات والحيوان والإنسان والملك، وعلم الحركة المستقيمة حيثما ظهرت في حيوان أو نبات، وعلم معالم التأسيس وأنفاس الأنوار، وعلم خلع الأرواح المدبرات وإيضاح الأمور المبهمات، وحل المشكل من المسائل الغامضة، وعلم النغمات الفلكية والدولابية، وأصوات آلات الطرب من الأوتار وغيرها، وعلم المناسبة بينها وبين طبائع الحيوان وما للنبات منها، وعلم ما إليه تنتهي المعاني الروحانية والروائح العطرية، وما المزاج الذي عطرها؟ ولماذا ترجع؟ وكيف ينقلها الهواء إلى الإدراك الشميّ، وهل هو جوهر أو عرض؟ كل ذلك يناله ويعلمه صاحب ذلك الإقليم في ذلك اليوم وفي سائر الأيام في ساعات حكم حركة ذلك الفلك، وحكم ما فيه من الكواكب، وما فيه من روحانية النبيّ، هكذا إلى تمام دورة الجمعة.

وكل أمر علمي يكون في يوم الاثنين فمن روحانية آدم عليه السلام، وكل أثر علوي في عنصر الهواء والنار فمن سباحة القمر، وكل أثر سفلي في عنصر الماء والتراب فمن حركة فلك السماء الدنيا، ولهذا الشخص الإقليم السابع، فما يحصل لهذا البدل من العلوم في نفسه في يوم الاثنين وفي كل ساعة من ساعات أيام الجمعة مما يكون لهذا الفلك حكم فيها علم السعادة والشقاء، وعلم الأسماء وما لها من الخواص، وعلم المدّ والجزر والربو والنقص.

وكل أمر علمي يكون في يوم الثلاثاء فمن روحانية هارون عليه السلام، وكل أثر علوي في عنصر النار والهواء فمن روحانية الأحمر، وكل أثر سفلي في ركن الماء والتراب فمن حركة الفلك الخامس، ولهذا البدل من الأقاليم الإقليم الثالث، فما يعطيه من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم تدبير الملك وسياسته، وعلم الحمية والحماية، وترتيب الجيوش والقتال، ومكايد الحروب، وعلم القرابين، وذبح الحيوان، وعلم أسرار أيام النحر وسريانه في سائر البقاع، وعلم الهدى والضلال، وتميّز الشبهة من الدليل.

وكل أمر علمي يكون في يوم الأربعاء فمن روحانية عيسىٰ عليه السلام وهو يوم النور، وكان له نظر إلينا في دخولنا في هذا الطريق التي نحن اليوم عليها، وكل أثر في عنصر النار والهواء، فمن روحانية سباحة الكاتب في فلكه، وكل أثر سفلي في ركن الماء والتراب فمن حركة فلك السماء الثانية، وللبدل صاحب هذا اليوم الإقليم السادس، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعته من الأيام علم الأوهام والإلهام، والوحي والآراء، والأقيسة، والرؤيا، والعبادة، والاختراع الصناعي والعطردة، وعلم الغلط الذي يعلق بعين الفهم، وعلم التعاليم، وعلم الكتابة، والآداب والزجر، والكهانة، والسحر، والطلسمات، والعزائم.

وكل أمر علمي يكون في يوم الخميس فمن روحانية موسىٰ عليه السلام، وكل أثر علوي في ركن النار والهواء فمن سباحة المشتري، وكل أثر سفلي في عنصر الماء والتراب فمن حركة فلكه، ولهذا البدل من الأقاليم الإقليم الثاني، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم النبات والنواميس، وعلم أسباب الخير ومكارم الأخلاق، وعلم القربات، وعلم قبول الأعمال وأين ينتهي بصاحبها.

وكل أمر علمي يكون في يوم الجمعة يكون لهذا الشخص الذي يحفظ الله به الإقليم الخامس فمن روحانية يوسف عليه السلام، وكل أثر علوي يكون في ركن النار والهواء فمن نظر كوكب الزهرة، وكل أثر سفلي في ركن الماء والأرض فمن حركة فلك الزهرة وهو من الأمر الذي أوحى الله في كل سماء، وهذه الآثار هي الأمر الإلهيّ الذي يتنزل بين السماء والأرض، وهو في كل ما يتولد بينهما بين السماء بما ينزل منها، وبين الأرض بما تقبل من هذا النزول، كما يقبل رحم الأنثى الماء من الرجل للتكوين، والهواء الرطب من الطير، قال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] والقدرة ما لها تعلق إلاّ بالإيجاد، فعلمنا أنّ المقصود بهذا التنزّل إنما هو التكوين، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من الأيام علم التصوير من حضرة الجمال والإنس وعلم الأحوال.

وكل أمر علمي يكون في يوم السبت لهذا البدل الذي له حفظ الإقليم الأوّل فمن روحانية إبراهيم الخليل عليه السلام وما يكون فيه من أثر علويّ في ركن النار والهواء، فمن حركة كوكب كيوان في فلكه، وما كان من أثر في العالم السفلي ركن الأرض والماء، فمن حركة فلكه يقول تعالىٰ في الكواكب السيارة: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٦] فخلقها للاهتداء بها، ومما يحصل له من العلوم في هذا اليوم وفي ساعاته من باقي الأيام ليلاً ونهاراً علم النبات والتمكين، وعلم الدوام والبقاء، وعلم هذا الإمام بمقامات هؤلاء الأبدال وهجيراهم، وقال: إن مقام الأوّل وهجيره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وسبب ذلك كون الأوّلية له، إذ لو تقدّم له مثل لما صحّت له الأوّلية، فذكره مناسب لمقامه ومقام الشخص الثاني في هجيره ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩] وهو مقام العلم الإلهيّ وتعلقه لا ينتهي وهو الثاني من الأوصاف، فإن أوّل الأوصاف الحياة ويليه العلم، وهجير الشخص الثالث ومقامه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] وهي المرتبة الثالثة، فإن الآيات الأول هي الأسماء الإلهيّة، والآيات الثواني في الآفاق والآيات التي تلي الثواني في أنفسنا، قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] فلهذا اختصّ بهذا الهجير الثالث من الأبدال.

ومقام الرابع في هجيره: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٤٠] وهو الركن الرابع من الأركان الذي يطلب المركز عند من يقول به، فليس لنقطة الأكرة أقرب من الأرض، وتلك النقطة كانت سبب وجود المحيط، فهو يطلب القرب من الله موجد الأشياء ولا يحصل إلاّ بالتواضع ولا أنزل في التواضع من الأرض وهي منابع العلوم وتفجر الأنهار، وكل ما ينزل من المعصرات فإنما هو من بخارات الرطوبات التي تصعد من الأرض فمنها تتفجّر العيون والأنهار، ومنها تخرج البخارات إلى الجوّ فتستحيل ماء فينزل غيثاً، فلهذا اختصّ الرابع بالرابع من الأركان.

ومقام الخامس: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] ولا يسأل إلاّ المولود فإنه في مقام الطفولة من الطفل وهو الندا، قال تعالىٰ: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ

أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨] فلا يعلم حتى يسأل، فالولد في المرتبة الخامسة لأن أمّهاته أربعة وهن الأركان فكان هو العين الخامسة، فلهذا كان السؤال هجير البدل الخامس من بين الأبدال.

وأمّا مقام السادس فهجيره: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة غافر: الآية ٤٤] وهي المرتبة السادسة فكانت للسادس وإنما كانت السادسة له لأنه في المرتبة الخامسة كما ذكرنا يسأل وقد كان لا يعلم فعندما سأل علم ولما علم تحقّق بعلمه بربّه ففوّض أمره إليه لأنه علم أن أمره ليس بيده منه شيء و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٤] فقال: قد علمت أن الله لما ملكني أمري وهو يفعل ما يريد علمت أن التفويض في ذلك أرجح لي فلذلك أتخذه هجيراً.

ومقام السابع: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٢] وذلك أن لها الرتبة السابعة، وكان أيضاً تكوين آدم المعبر عنه بالإنسان في الرتبة السابعة، فإنه عن عقل، ثم نفس، ثم هباء، ثم فلك، ثم فاعلان، ثم منفعلان، فهذه ستة. ثم تكوّن الإنسان الذي هو آدم في الرتبة السابعة. ولما كان وجود الإنسان في السنبلة ولها من الزمان في الدلالة سبعة آلاف سنة فوجد الإنسان في الرتبة السابعة من المدة، فما حمل الأمانة إلاّ من تحقّق بالسبعة وكان هذا هو السابع من الأبدال فلذلك اتخذ هجيراه هذه الآية.

فهذا قد بينّا لك مراتب الأبدال، وأخبرت أنّ هذا القطب الذي هو مداوي الكلوم كان في زمان حبسه في هيكله وولايته في العالم، إذا وقف وقف لوقفته سبعون قبيلة كلهم قد ظهرت فيهم المعارف الإلهية وأسرار الوجود، وكان أبداً لا يتعدى كلامه السبعة، ومكث زماناً طويلاً في أصحابه، وكان يعين في زمانه من أصحابه شخصاً فاضلاً كان أقرب الناس إليه مجلساً كان اسمه المستسلم، فلما درج هذا الإمام ولي مقامه في القطبية المستسلم وكان غالب علمه علم الزمان وهو علم شريف منه يعرف الأزل ومنه ظهر قوله عليه السلام: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ**» . وهذا علم لا يعلمه إلاّ الأفراد من الرجال وهو المعبّر عنه بالدهر الأول ودهر الدهور، وعن هذا الأزل وجد الزمان وبه تسمّى الله بالدهر وهو قوله عليه السلام: «**لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ**» والحديث صحيح ثابت، ومن حصل له علم الدهر لم يقف في شيء ينسبه إلى الحق فإنّ له الاتساع الأعظم.

ومن هذا العلم تعدّدت المقالات في الإله، ومنه اختلفت العقائد، وهذا العلم يقبلها كلها ولا يردّ منها شيئاً، وهو العلم العامّ، وهو الظرف الإلهيّ، وأسراره عجيبة ما له عين موجودة، وهو في كل شيء حاكم يقبل الحق نسبته، ويقبل الكون نسبته، هو سلطان الأسماء كلها المعينة والمغيبة عنّا، فكان لهذا الإمام فيه اليد البيضاء، وكان له من علمه بدهر الدهور علم حكمة الدنيا في لعبها بأهلها ولم سمّي لعباً والله أوجده، وكثيراً ما ينسب اللعب إلى الزمان فيقال: لعب الزمان بأهله، وهو متعلق السابقة، وهو الحاكم في العاقبة، وكان هذا الإمام يذمّ الكسب ولا يقول به مع معرفته بحكمته، ولكن كان يرقي بذلك همم أصحابه عن التعلّق بالوسائط، أخبرت أنه ما مات حتى علم من أسرار الحق في خلقه ستة وثلاثين ألف علم

وخمسمائة علم من العلوم العلوية خاصة، ومات رحمه الله وولي بعده شخص فاضل اسمه مظهر الحق عاش مائة وخمسين سنة ومات، وولي بعده الهائج وكان كبير الشأن ظهر بالسيف عاش مائة وأربعين سنة مات مقتولاً في غزاة. كان الغالب على حاله من الأسماء الإلهيّة القهار.

ولما قتل ولِّي بعده شخص يقال له لقمان والله أعلم وكان يلقب واضع الحكم. عاش مائة وعشرين سنة، كان عارفاً بالترتيب والعلوم الرياضية والطبيعية والإلهيّة، وكان كثير الوصية لأصحابه، فإن كان هو لقمان فقد ذكر الله لنا ما كان يوصي به ابنه ممّا يدل على رتبته في العلم بالله وتحريضه على القصد والاعتدال في الأشياء في عموم الأحوال. ولما مات رحمه الله وكان في زمان داود عليه السلام وُلِّي بعده شخص اسمه الكاسب وكانت له قدم راسخة في علم المناسبات بين العالمين، والمناسبة الإلهيّة التي وجد لها العالم على هذه الصورة التي هو عليها كان هذا الإمام إذا أراد إظهار أثر ما في الوجود نظر في نفسه إلى المؤثر فيه من العالم العلوي نظرة مخصوصة على وزن معلوم، فيظهر ذلك الأثر من غير مباشرة ولا حيلة طبيعية، وكان يقول: إن الله أودع العلم كله في الأفلاك، وجعل الإنسان مجموع رقائق العالم كله، فمن الإنسان إلى كل شيء في العالم، رقيقة ممتدّة من تلك الرقيقة، يكون من ذلك الشيء في الإنسان ما أودع الله عند ذلك الشيء من الأمور التي أمنه الله عليها ليؤديها إلى هذا الإنسان، وبتلك الرقيقة يحرّك الإنسان العارف ذلك الشيء لما يريده، فما من شيء في العالم إلاّ وله أثر في الإنسان وللإنسان أثر فيه، فكان لهذا كشف هذه الرقائق ومعرفتها وهي مثل أشعة النور، عاش هذا الإمام ثمانين سنة، ولما مات ورثه شخص يسمّى جامع الحكم عاش مائة وعشرين سنة له كلام عظيم في أسرار الأبدال والشيخ والتلميذ، وكان يقول بالأسباب، وكان قد أُعطي أسرار النبات، وكان له في كل علم يختص بأهل هذا الطريق قدم، وفيما ذكرناه في هذا الباب غنية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر

في معرفة المنازل السفلية والعلوم الكونية، ومبدأ معرفة الله منها، ومعرفة الأوتاد والأبدال، ومن تولاهم من الأرواح العلوية وترتيب أفلاكها

[نظم: البسيط]

عِـلْـمُ الـكـشـائـف أعـلامٌ مـرتَّـبـةٌ ... هي الدليلُ على المطلوب للرُّسُلِ
وهـي الـتـي حـجـبتْ أسرارَ ذي عَـمَـهٍ ... وهـي الـتـي كـشـفـت مـعـالـمَ السُّبُلِ
لـهـا مـن الـعـالَـم الـعـلـويِّ سبْـعَـتُـهُ ... مـن الـهـلال وخـذ عـلـواً إلـى زُحَـلِ
لـولا الـذي أوجـد الأوتـادَ أربـعـةً ... رسى بـهـا الأرض فـائـتَـزَّتْ من الـمَـيَـلِ
لـمـا اسـتـقـرَّ عـلـيـهـا مـن يـكـون بـهـا ... فـاعـجَـبْ بـه مـثـلاً نـاهـيـك من مَـثَـلِ

اعلم أيّدك الله أنا قد ذكرنا في الباب الذي قبل هذا منازل الأبدال ومقاماتهم، ومن تولاهم من الأرواح العلوية وترتيب أفلاكها، وما للنيرات فيهم من الآثار وما لهم من

الأقاليم، فلنذكر في هذا الباب ما بقي مما ترجمت عليه المنازل السفلية هنا عبارة عن الجهات الأربع التي يأتي منها الشيطان إلى الإنسان وسمّيناها سفلية لأن الشيطان من عالم السفل، فلا يأتي إلى الإنسان إلاّ من المنازل التي تناسبه وهي: اليمين والشمال والخلف والأمام. قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ويستعين على الإنسان بالطبع فإنه المساعد له فيما يدعوه إليه من اتباع الشهوات، فأمر الإنسان أن يقاتله من هذه الجهات، وأن يحصن هذه الجهات بما أمره الشرع أن يحصنها به حتى لا يجد الشيطان إلى الدخول إليه منها سبيلاً، فإن جاءك من بين يديك وطردته لاحت لك من العلوم علوم النور منة من الله عليك وجزاء حيث آثرت جناب الله على هواك، وعلوم النور على قسمين: علوم كشف وعلوم برهان بصحيح فكر، فيحصل له من طريق البرهان ما يرد به الشبه المضلة القادحة في وجود الحق وتوحيده وأسمائه وأفعاله، فبالبرهان يرد على المعطلة، ويدل على إثبات وجود الإله وبه يرد على أهل الشرك: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٦] ويدل على توحيد الإله من كونه إلهاً، وبه يرد على من ينفي أحكام الأسماء الإلهية وصحة آثارها في الكون، ويدل على إثباتها بالبرهان السمعي من طريق الإطلاق، وبالبرهان العقلي من طريق المعاني، وبه يرد على نفاة الأفعال من الفلاسفة، ويدل على أنه سبحانه فاعل، وأن المفعولات مرادة له سمعاً وعقلاً.

وأما علوم الكشف فهو ما يحصل له من المعارف الإلهيّة في التجليات في المظاهر وإن جاءك من خلفك وهو ما يدعوك إليه أن تقول على الله ما لا تعلم وتدعي النبوّة والرسالة وأن الله قد أوحى إليك، وذلك أن الشيطان إنما ينظر في كل ملة كل صفة علّق الشارع المذمة عليها في تلك الأمّة فيأمرك بها، وكل صفة علّق المحمدة عليها نهاك عنها هذا على الإطلاق، والملك على النقيض منه يأمرك بالمحمود منها وينهاك عن المذموم، فإذا طردته من خلفك لاحت لك علوم الصدق ومنازله وأين ينتهي بصاحبه كما قال تعالىٰ: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] إلاّ أن ذلك صدقهم هو الذي أقعدهم ذلك المقعد ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] فإن الاقتدار يناسب الصدق فإن معناه القوي يقال رمح صدق أي صلب قوي، ولما كانت القوّة صفة هذا الصادق حيث قوي على نفسه فلم يتزين بما ليس له والتزم الحق في أقواله وأحواله وأفعاله وصدق فيها أقعده الحق ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٥] أي أطلعه على القوّة الإلهيّة التي أعطته القوّة في صدقه الذي كان عليه، فإن الملك هو الشديد أيضاً فهو مناسب للمقتدر، قال قيس بن الخطيم يصف طعنة: [الطويل]

ملكتُ بها كفي فأنهرْتُ فتقَها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءَها

أي شددت كفي بها، يقال: ملكت العجين إذا شددت عجنه، فيحصل لك إذا خالفته في هذا الأمر الذي جاءك به علم تعلق الاقتدار الإلهيّ بالإيجاد وهي مسألة خلاف بين أهل الحقائق من أصحابنا، ويحصل لك علم العصمة والحفظ الإلهيّ حتى لا يؤثر فيك وهمك ولا غيرك فتكون خالصاً لربّك، وإن جاءك من جهة اليمين فقويت عليه ودفعته فإنه إذا جاءك من

هذه الجهة الموصوفة بالقوّة فإنه يأتي إليك ليضعف إيمانك ويقينك ويلقي عليك شبهاً في أدلتك ومكاشفاتك، فإنه له في كل كشف يطلعك الحق عليه أمراً من عالم الخيال ينصبه لك مشابهاً لحالك الذي أنت به في وقتك، فإن لم يكن لك علم قوي بما تميّز به بين الحق وما يخيله لك فتكون موسوي المقام، وإلاّ التبس عليك الأمر كما خيلت السحرة للعامّة أن الحبال والعصيّ حيات ولم تكن كذلك.

وقد كان موسىٰ عليه السلام لما ألقى عصاه فكانت ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠] خاف منها على نفسه على مجرى العادة، وإنما قدم الله بين يديه معرفة هذا قبل جمع السحرة ليكون على يقين من الله أنها آية وأنها لا تضره، وكان خوفه الثاني عندما ألقت السحرة الحبال والعصي فصارت حيات في أبصار الحاضرين على الأمّة لئلا يلتبس عليهم الأمر، فلا يفرقون بين الخيال والحقيقة، أو بين ما هو من عند الله وبين ما ليس من عند الله، فاختلف تعلق الخوفين فإنه عليه السلام على بينة من ربّه قويّ الجأش بما تقدم له إذ قيل له في الإلقاء الأوّل: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢١] أي ترجع عصاً كما كانت في عينك، فأخفى تعالىٰ العصا في روحانية الحية البرزخية فتلقفت جميع حيات السحرة المتخيلة في عيون الحاضرين، فلم يبق لتلك الحبال والعصيّ عين ظاهرة في أعينهم وهي ظهور حجته على حججهم في صور حبال وعصيّ، فأبصرت السحرة والناس حبال السحرة وعصيهم التي ألقوها حبالاً وعصياً، فهذا كان تلقفها لا أنها انعدمت الحبال والعصيّ، إذ لو انعدمت لدخل عليهم التلبيس في عصا موسىٰ وكانت الشبهة تدخل عليهم، فلما رأى الناس الحبال حبالاً علموا أنها مكيدة طبيعية يعضدها قوّة كيدية روحانية فتلقفت عصا موسىٰ صور الحيات من الحبال والعصي، كما يبطل كلام الخصم إذا كان على غير حق أن يكون حجة لا أن ما أتى به ينعدم بل يبقى محفوظاً معقولاً عند السامعين ويزول عندهم كونه حجة، فلما علمت السحرة قدر ما جاء به موسىٰ من قوّة الحجة وأنه خارج عمّا جاؤوا به وتحققت شفوف ما جاء به على ما جاؤوا به ورأوا خوفه علموا أن ذلك من عند الله ولو كان من عنده لم يخف لأنه يعلم ما يجري، فآيته عند السحرة خوفه، وآيته عند الناس تلقف عصاه فآمنت السحرة، قيل: كانوا ثمانين ألف ساحر، وعلموا أن أعظم الآيات في هذا الموطن تلقف هذه الصور من أعين الناظرين وإبقاء صورة حيّة عصا موسىٰ في أعينهم والحال عندهم واحدة، فعلموا صدق موسىٰ فيما يدعوهم إليه، وأن هذا الذي أتى به خارج عن الصور والحيل المعلومة في السحر، فهو أمر إلهيّ ليس لموسىٰ عليه السلام فيه تعمُّل، فصدقوا برسالته على بصيرة، واختاروا عذاب فرعون على عذاب الله، وآثروا الآخرة على الدنيا، وعلموا من علمهم بذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وأن الحقائق لا تتبدل، وأن عصا موسىٰ مبطونة في صورة الحية عن أعين الجميع وعن الذي ألقاها بخوفه الذي شهدوا منه، فهذه فائدة العلم.

وإن جاءك الشيطان من جهة الشمال بشبهات التعطيل أو وجود الشريك لله تعالىٰ في

ألوهيته فطردته فإن الله يقوّيك على ذلك بدلائل التوحيد وعلم النظر، فإن الخلف للمعطلة ودفعهم بضرورة العلم الذي يعلم به وجود الباري، فالخلف للتعطيل، والشمال للشرك، واليمين للضعف، ومن بين أيديهم التشكيك في الحواس، ومن هنا دخل التلبيس على السوفسطائية حيث أدخل لهم الغلط في الحواس وهي التي يستند إليها أهل النظر في صحة أدلتهم وإلى البديهيات في العلم الإلهيّ وغيره، فلما أظهر لهم الغلط في ذلك قالوا ما ثَمَّ علم أصلاً يوثق به، فإن قيل لهم: فهذا علم بأنه ما ثَمَّ علم فما مستندكم وأنتم غير قائلين به؟ قالوا: وكذلك نقول إن قولنا هذا ليس بعلم وهو من جملة الأغاليط، يقال لهم: فقد علمتم أن قولكم هذا ليس بعلم، وقولكم إن هذا أيضاً من جملة الأغاليط إثبات ما نفيتموه، فأدخل عليهم الشبه فيما يستندون إليه في تركيب مقدماتهم في الأدلة ويرجعون إليه فيها ولهذا عصمنا الله من ذلك، فلم يجعل للحسّ غلطاً جملة واحدة، وأن الذي يدركه الحسّ حق فإنه موصل ما هو حاكم بل شاهد، وإنما العقل هو الحاكم والغلط منسوب إلى الحاكم في الحكم، ومعلوم عند القائلين بغلط الحسّ، وغير القائلين به أن العقل يغلط إذا كان النظر فاسداً أعني نظر الفكر، فإن النظر ينقسم إلى صحيح وفاسد فهذا هو من بين أيديهم.

ثم لتعلم أن الإنسان قد جعله الحق قسمين في ترتيب مدينة بدنه، وجعل القلب بين القسمين منه كالفاصل بين الشيئين، فجعل في القسم الأعلى الذي هو الرأس جميع القوىٰ الحسيّة والروحانية، وما جعل في النصف الآخر من القوىٰ الحسّاسة إلاّ حاسة اللمس، فيدرك الخشن واللين والحار والبارد والرطب واليابس بروحه الحساس من حيث هذه القوّة الخاصة السارية في جميع بدنه لا غير ذلك. وأمّا من القوىٰ الطبيعية المتعلقة بتدبير البدن فالقوّة الجاذبة وبها تجذب النفس الحيوانية ما به صلاح العضو من الكبد والقلب، والقوّة الماسكة وبها تمسك ما جذبته الجاذبة على العضو حتى يأخذ منه ما فيه منافعه. فإن قلت: فإذا كان المقصود المنفعة فمن أين دخل المرض على الجسد؟ فاعلم أن المرض من الزيادة على ما يستحقه من الغذاء أو النقص مما يستحقه فهذه القوّة ما عندها ميزان الاستحقاق، فإذا جذبت زائداً على ما يحتاج إليه البدن أو نقصت عنه كان المرض فإن حقيقتها الجذب ما حقيقتها الميزان، فإذا أخذته على الوزن الصحيح فذلك لها بحكم الاتفاق، ومن قوّة أخرى لا بحكم القصد وذلك ليعلم المحدث نقصه و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة الحج: الآية ١٤] وكذلك فيه أيضاً القوّة الدافعة وبها يعرق البدن، فإن الطبيعة ما هي دافعة بمقدار مخصوص لأنها تجهل الميزان وهي محكومة لأمر آخر من فضول تطرأ في المزاج تعطيها القوّة الشهوانية، وكذلك أيضاً هذا كله سار في جميع البدن علواً وسفلاً.

وأما سائر القوىٰ فمحلها النصف الأعلى وهو النصف الأشرف محل وجود الحياتين: حياة الدم وحياة النفس، فأيّ عضو مات من هذه الأعضاء زالت عنه القوىٰ التي كانت فيه من المشروط وجودها بوجود الحياة، وما لم يمت العضو وطرأ على محل قوّة ما خلل فإن حكمها يفسد ويتخبط ولا يعطي علماً صحيحاً، كمحل الخيال إذا طرأت فيه علة فالخيال لا

يبطل، وإنما يبطل قبول الصحة فيما يراه علماً، وكذلك العقل وكل قوّة روحانية. وأما القوىٰ الحسيّة فهي أيضاً موجودة لكن تطرأ حجب بينها وبين مدركاتها في العضو القائمة به من ماء ينزل في العين وغير ذلك.

وأما القوىٰ ففي محالها ما زالت ولا برحت ولكن الحجب طرأت فمنعت، فالأعمى يشاهد الحجاب ويراه وهو الظلمة التي يجدها فهي ظلمة الحجاب فمشهده الحجاب، وكذلك ذائق العسل والسكر إذا وجده مراً فالمباشر للعضو القائم به قوّة الذوق إنما هو المرة الصفراء فلذلك أدرك المرارة، فالحسّ يقول: أدركت مرارة، والحاكم إن أخطأ يقول: هذا السكر مرّ، وإن أصاب عرف العلة فلم يحكم على السكر بالمرارة وعرف ما أدركت القوّة وعرف أن الحسّ الذي هو الشاهد مصيب على كل حال، وأن القاضي يخطىء ويصيب.

فصل: وأما معرفة الحق من هذا المنزل فاعلم أن الكون لا تعلق له بعلم الذات أصلاً وإنما متعلقه العلم بالمرتبة وهو مسمّى الله فهو الدليل المحفوظ الأركان الساد على معرفة الإله، وما يجب أن يكون عليه سبحانه من أسماء الأفعال ونعوت الجلال، وبأية حقيقة يصدر الكون من هذه الذات المنعوتة بهذه المرتبة المجهولة العين والكيف، وعندنا لا خلاف في أنها لا تعلم بل يطلق عليها نعوت تنزيه صفات الحدث، وأن القدم لها والأزل الذي يطلق لوجودها إنما هي أسماء تدل على سلوب من نفي الأولية وما يليق بالحدوث، وهذا يخالفنا فيه جماعة من المتكلمين الأشاعرة، ويتخيلون أنهم قد علموا من الحق صفة نفسية ثبوتية، وهيهات أنّى لهم بذلك، وأخذت طائفة ممن شاهدناهم من المتكلمين كأبي عبد الله الكتانيّ، وأبي العباس الأشقر، والضرير السلاوي صاحب الأرجوزة في علم الكلام على أبي سعيد الخراز، وأبي حامد وأمثالهما في قولهم: لا يعرف الله إلاّ الله. وإنما اختلف أصحابنا في رؤية الله تعالىٰ إذا رأيناه في الدار الآخرة بالأبصار ما الذي نرى؟ وكلامهم فيه معلوم عند أصحابنا، وقد أوردنا تحقيق ذلك في هذا الكتاب مفرّقاً في أبواب منازله وغيرها بطريق الإيماء لا بالتصريح فإنه مجال ضيق تقف العقول فيه لمناقضته أدلتها، فهو المرئي سبحانه على الوجه الذي قاله وقاله رسول الله ﷺ وعلى ما أراده من ذلك، فإن الناظرين فيما قاله وأوحى به إلينا اختلفوا في تأويله، وليس بعض الوجوه بأولى من بعض، فتركنا الخوض في ذلك إذ الخلاف فيه لا يرتفع من العالم بكلامنا ولا بما نورده فيه.

فصل: وأما حديث الأوتاد الذي يتعلق معرفتهم بهذا الباب فاعلم أن الأوتاد الذي يحفظ الله بهم العالم أربعة لا خامس لهم وهم أخصّ من الأبدال، والإمامان أخصّ منهم، والقطب هو أخصّ الجماعة، والأبدال في هذا الطريق لفظ مشترك، يطلقون الأبدال على من تبدلت أوصافه المذمومة بالمحمودة، ويطلقونه على عدد خاص وهم أربعون عند بعضهم لصفة يجتمعون فيها، ومنهم من قال عددهم سبعة، والذين قالوا سبعة منّا من جعل السبعة الأبدال خارجين عن الأوتاد متميزين، ومنا من قال: إن الأوتاد الأربعة من الأبدال فالأبدال سبعة، ومن هذه السبعة أربعة هم: الأوتاد، واثنان هما الإمامان، وواحد هو: القطب، وهذه

الجملة هم الأبدال. وقالوا: سمّوا أبدالاً لكونهم إذا مات واحد منهم كان الآخر بدله، ويؤخذ من الأربعين واحد، وتكمل الأربعون بواحد من الثلاثمائة، وتكمل الثلاثمائة بواحد من صالحي المؤمنين، وقيل: سمّوا أبدالاً لأنهم أعطوا من القوّة أن يتركوا بدلهم حيث يريدون لأمر يقوم في نفوسهم على علم منهم، فإن لم يكن على علم منهم فليس من أصحاب هذا المقام، فقد يكون من صلحاء الأمّة، وقد يكون من الأفراد، وهؤلاء الأوتاد الأربعة لهم مثل ما للأبدال الذين ذكرناهم في الباب قبل هذا روحانية إلهيّة، وروحانية آلية، فمنهم من هو على قلب آدم، والآخر على قلب إبراهيم، والآخر على قلب عيسىٰ، والآخر على قلب محمد عليهم السلام. فمنهم من تمده روحانية إسرافيل، وآخر روحانية ميكائيل، وآخر روحانية جبريل، وآخر روحانية عزرائيل، ولكل وتد ركن من أركان البيت، فالذي على قلب آدم عليه السلام له الركن الشامي، والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقيّ، والذي على قلب عيسىٰ عليه السلام له الركن اليمانيّ، والذي على قلب محمد ﷺ له ركن الحجر الأسود وهو لنا بحمد الله.

وكان بعض الأركان في زماننا الربيع بن محمود المارديني الحطاب، فلما مات خلفه شخص آخر، وكان الشيخ أبو علي الهواريّ قد أطلعه الله عليهم في كشفه قبل أن يعرفهم وتحقق صورهم فما مات حتى أبصر منهم ثلاثة في عالم الحس: أبصر ربيعاً المارديني، وأبصر الآخر وهو رجل فارسيّ، وأبصرنا ولازمنا إلى أن مات سنة تسع وتسعين وخمسمائة، أخبرني بذلك وقال لي: ما أبصرت الرابع وهو رجل حبشيّ.

واعلم أن هؤلاء الأوتاد يحوون على علوم جمة كثيرة، فالذي لا بدّ لهم من العلم به وبه يكونون أوتاداً فما زاد من العلوم، فمنهم من له خمسة عشر علماً، ومنهم من له ولا بدّ ثمانية عشر علماً، ومنهم من له أحد وعشرون علماً، ومنهم من له أربعة وعشرون علماً، فإن أصناف العدد كثيرة، هذا العدد من أصناف العلوم لكل واحد منهم لا بدّ له منه، وقد يكون الواحد أو كلهم يجمع أو يجمعون علم الجماعة وزيادة، ولكن الخاص لكل واحد منهم ما ذكرنا من العدد فهو شرط فيه، وقد لا يكون له ولا لواحد منهم علم زائد لا من الذي عند أصحابه ولا مما ليس عندهم، فمنهم من له الوجه وهو قوله تعالىٰ عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧] ولكل جهة وتد يشفع يوم القيامة فيمن دخل عليه إبليس من جهته. فالذي له الوجه له من العلوم علم الاصطلام، والوجد، والشوق، والعشق، وغامضات المسائل، وعلم النظر، وعلم الرياضة، وعلم الطبيعة، والعلم الإلهيّ، وعلم الميزان، وعلم الأنوار، وعلم السبحات الوجهية، وعلم المشاهدة، وعلم الفناء، وعلم تسخير الأرواح، وعلم استنزال الروحانيات العلى، وعلم الحركة، وعلم إبليس، وعلم المجاهدة، وعلم الحشر، وعلم النشر، وعلم موازين الأعمال، وعلم جهنم، وعلم الصراط.

والذي له الشمال له علم الأسرار، وعلم الغيوب، وعلم الكنوز، وعلم النبات، وعلم المعدن، وعلم الحيوان، وعلم خفيات الأمور، وعلم المياه، وعلم التكوين، وعلم التلوين،

وعلم الرسوخ، وعلم الثبات، وعلم المقام، وعلم القدم، وعلم الفصول المقومة، وعلم الأعيان، وعلم السكون، وعلم الدنيا، وعلم الجنة، وعلم الخلود، وعلم التقلبات.

والذي له اليمين له علم البرازخ، وعلم الأرواح البرزخية، وعلم منطق الطير، وعلم لسان الرياح، وعلم التنزّل، وعلم الاستحالات، وعلم الزجر، وعلم مشاهدة الذات، وعلم تحريك النفوس، وعلم الميل، وعلم المعراج، وعلم الرسالة، وعلم الكلام، وعلم الأنفاس، وعلم الأحوال، وعلم السماع، وعلم الحيرة، وعلم الهوى.

والذي له الخلف له علم الحياة، وعلم الأحوال المتعلقة بالعقائد، وعلم النفس، وعلم التجلي، وعلم المنصات، وعلم النكاح، وعلم الرحمة، وعلم التعاطف، وعلم التودّد، وعلم الذوق، وعلم الشرب، وعلم الري، وعلم جواهر القرآن، وعلم درر الفرقان، وعلم النفس الأمّارة.

فكل شخص كما ذكرنا لا بدّ له من هذه العلوم، فما زاد على ذلك فذلك من الاختصاص الإلهيّ، فهذا قد بيّنا مراتب الأوتاد، وكنّا في الباب الذي قبله بيّنا ما يختص به الأبدال، وبينّا في فصل المنازل من هذا الكتاب ما يختص به القطب والإمامان مستوفى الأصول في باب يخصّه وهو السبعون ومائتان من أبواب هذا الكتاب. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر
في معرفة انتقال العلوم الكونية ونبذ من العلوم الإلهيّة الممدّة الأصلية

[نظم: الوافر]

علومُ الكونِ تَنْتقِلُ انتقالا ... وعلمُ الوجهِ لا يرجو زَوَالا
فنُثْبتها ونَنْفيها جميعاً ... ونَقْطع نَجْدَها حالاً فحالا
إلهي كيف يَعْلمكم سواكم ... ومِثْلُكَ من تَبَارك أو تَعَالىٰ
إلهي كيف يعلمكم سواكم ... وهل غَيْرٌ يكون لكم مثالا
ومن طلبَ الطريقَ بلا دليلٍ ... إلهيٌّ لقد طلب المُحَالا
إلهي كيفَ تهواكم قلوبٌ ... وما ترجو التألُّفَ والوصالا
إلهي كيف يعرفكم سواكم ... وهل شيءٌ سواكم لا ولا لا
إلهي كيف تبصركم عيونٌ ... ولستَ النَّيِّراتِ ولا الظِلالا
إلهي لا أرى نفسي سواكم ... وكيف أرى المحالَ أو الضَّلالا
إلهي أنت أنت وأنّ أنّي ... ليطلبَ من أنَايَتِك النَّوَالا
لفقرٍ قام عندي من وجودي ... تولَّدَ من غناك فكان حالا
وأَطْلَعني ليظهرني إليه ... ولم يَرَني سواه فكنتُ آلا
ومن قَصَد السرابَ يريد ماءً ... يرى عينَ الحياةِ به زلالا
أنا الكون الذي لا شيءَ مثلي ... ومن أنا مثله قَبِلَ المثالا

وذا من أعجب الأشياء فانظُرْ عساك ترى مُماثِلَهُ استحالا
فما في الكون غيرُ وجودِ فَرْدٍ تنزّه أن يقاوم أو يُنالا

اعلم أيّدك الله أن كل ما في العالم منتقل من حال إلى حال، فعالم الزمان في كل زمان منتقل، وعالم الأنفاس في كل نفس، وعالم التجلّي في كل تجلّ، والعلة في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وأيّده بقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وكل إنسان يجد من نفسه تنوّع الخواطر في قلبه في حركاته وسكناته، فما من تقلب يكون في العالم الأعلى والأسفل إلاّ وهو عن توجه إلهيّ بتجلّ خاص لتلك العين، فيكون استناده من ذلك التجلّي بحسب ما تعطيه حقيقته. واعلم أن المعارف الكونية منها علوم مأخوذة من الأكوان ومعلوماتها أكوان، وعلوم تؤخذ من الأكوان ومعلوماتها نسب والنسب ليست بأكوان، وعلوم تؤخذ من الأكوان ومعلومها ذات الحق، وعلوم تؤخذ من الحق ومعلومها الأكوان، وعلوم تؤخذ من النسب ومعلومها الأكوان، وهذه كلها تسمّى العلوم الكونية، وهي تنتقل بانتقال معلوماتها في أحوالها، وصورة انتقالها أيضاً أن الإنسان يطلب ابتداء معرفة كون من الأكوان أو يتخذ دليلاً على مطلوبه كوناً من الأكوان، فإذا حصل له ذلك المطلوب لاح له وجه الحق فيه ولم يكن ذلك الوجه مطلوباً له فتعلق به هذا الطالب وترك قصده الأول وانتقل العلم يطلب ما يعطيه ذلك الوجه، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من هو حاله هذا ولا يعرف ما انتقل عنه ولا ما انتقل إليه، حتى أن بعض أهل الطريق زلّ فقال: إذا رأيتم الرجل يقيم على حال واحدة أربعين يوماً فاعلموا أنه مرائياً، عجباً وهل تعطي الحقائق أن يبقي أحد نفسين أو زمانين على حال واحدة فتكون الألوهية معطلة الفعل في حقّه هذا ما لا يتصوّر، إلاّ أن هذا العارف لم يعرف ما يراد بالانتقال بكون الانتقال كان في الأمثال، فكان ينتقل مع الأنفاس من الشيء إلى مثله، فالتبست عليه الصورة بكونه ما تغيّر عليه من الشخص حاله الأوّل في تخيله، كما يقال: فلان ما زال اليوم ماشياً وما قعد، ولا شك أن المشي حركات كثيرة متعددة، وكل حركة ما هي عين الأخرى بل هي مثلها، وعلمك ينتقل بانتقالها فيقول: ما تغيّر عليه الحال وكم تغيرت عليه من الأحوال.

فصل: وأمّا انتقالات العلوم الإلهية فهو الاسترسال الذي ذهب إليه أبو المعالي إمام الحرمين والتعلقات التي ذهب إليها محمد بن عمر بن الخطيب الرازي. وأمّا أهل القدم الراسخة من أهل طريقنا فلا يقولون هنا بالانتقالات، فإن الأشياء عند الحق مشهودة معلومة الأعيان والأحوال على صورها التي تكون عليها. ومنها إذا وجدت أعيانها إلى ما لا يتناهى فلا يحدث تعلق على مذهب ابن الخطيب ولا يكون استرسال على مذهب إمام الحرمين رضي الله عن جميعهم، والدليل العقلي الصحيح يعطي ما ذهبنا إليه، وهذا الذي ذكره أهل الله ووافقناهم عليه يعطيه الكشف من المقام الذي وراء طور العقل فصدق الجميع وكل قوّة أعطت بحسبها، فإذا أوجد الله الأعيان فإنما أوجدها لها لا له وهي على حالاتها بأماكنها وأزمنتها على اختلاف أمكنتها وأزمنتها، فيكشف لها عن أعيانها وأحوالها شيئاً بعد شيء إلى

ما لا يتناهى على التتالي والتتابع، فالأمر بالنسبة إلى الله واحد كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [سورة القمر: الآية ٥٠] والكثرة في نفس المعدودات، وهذا الأمر قد حصل لنا في وقت فلم يختل علينا فيه، وكان الأمر في الكثرة واحداً عندنا ما غاب ولا زال، وهكذا شهده كل من ذاق هذا فهم في المثال كشخص واحد له أحوال مختلفة وقد صوّرت له صورة في كل حال يكون عليها هكذا كل شخص، وجعل بينك وبين هذه الصور حجاب فكشف لك عنها وأنت من جملة من له فيها صورة فأدركت جميع ما فيها عند رفع الحجاب بالنظرة الواحدة، فالحق سبحانه ما عدل بها عن صورها في ذلك الطبق، بل كشف لها عنها وألبسها حالة الوجود لها فعاينت نفسها على ما تكون عليه أبداً، وليس في حق نظرة الحق زمان ماض ولا مستقبل، بل الأمور كلها معلومة له في مراتبها بتعداد صورها فيها، ومراتبها لا توصف بالتناهي ولا تنحصر ولا حدّ لها تقف عنده، فهكذا هو إدراك الحق تعالىٰ للعالم ولجميع الممكنات في حال عدمها ووجودها، فعليها تنوّعت الأحوال في خيالها لا في علمها، فاستفادت من كشفها لذلك علماً لم يكن عندها لا حالة لم تكن عليها، فتحقق هذا فإنها مسألة خفية غامضة تتعلق بسرّ القدر القليل من أصحابنا من يعثر عليها.

وأمّا تعلق علمنا بالله تعالىٰ فعلى قسمين: معرّفة بالذات الإلهية وهي موقوفة على الشهود والرؤية لكنها رؤية من غير إحاطة، ومعرّفة بكونه إلهاً وهي موقوفة على أمرين أو أحدهما وهو الوهب والأمر الآخر النظر والاستدلال وهذه هي المعرفة المكتسبة. وأمّا العلم بكونه مختاراً فإن الاختيار يعارضه أحدية المشيئة، فنسبته إلى الحق إذا وصف به إنما ذلك من حيث ما هو الممكن عليه لا من حيث ما هو الحق عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ [سورة السجدة: الآية ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٩]، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩]، وما أحسن ما تمّم به هذه الآية ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وهنا نبّه على سرّ القدر وبه كانت الحجة البالغة لله على خلقه وهذا هو الذي يليق بجناب الحق والذي يرجع إلى الكون ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [سورة السجدة: الآية ١٣] فما شئنا ولكن استدراك للتوصيل، فإن الممكن قابل للهداية والضلالة من حيث حقيقته فهو موضع الانقسام وعليه يرد التقسيم، وفي نفس الأمر ليس لله فيه إلاّ أمر واحد وهو معلوم عند الله من جهة حال الممكن.

مسألة: ظاهر معقول الاختراع عدم المثال في الشاهد كيف يصحّ الاختراع في أمر لم يزل مشهوداً له تعالىٰ معلوماً كما قرّرناه في علم الله بالأشياء في كتاب المعرفة بالله.

مسألة: الأسماء الإلهية نسب وإضافات ترجع إلى عين واحدة، إذ لا يصحّ هناك كثرة بوجود أعيان فيه كما زعم من لا علم له بالله من بعض النظار ولو كانت الصفات أعياناً زائدة وما هو إله إلاّ بها لكانت الألوهية معلولة بها، فلا يخلو أن تكون هي عين الإله، فالشيء لا يكون علة لنفسه أو لا تكون، فالله لا يكون معلولاً لعلة ليست عينه، فإن العلة متقدّمة على المعلول بالرتبة، فيلزم من ذلك افتقار الإله من كونه معلولاً لهذه الأعيان الزائدة التي هي علة له وهو

محال، ثم إنّ الشيء المعلول لا يكون له علتان وهذه كثيرة ولا يكون إلهاً إلاَّ بها، فبطل أن تكون الأسماء والصفات أعياناً زائدة على ذاته، تعالىٰ الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

مسألة: الصورة في المرآة جسد برزخي كالصورة التي يراها النائم إذا وافقت الصورة الخارجة وكذلك الميت والمكاشف، وصورة المرآة أصدق ما يعطيه البرزخ إذا كانت المرآة على شكل خاص ومقدار جرم خاص، فإن لم تكن كذلك لم تصدق في كل ما تعطيه بل تصدق في البعض. واعلم أن أشكال المرائي تختلف فتختلف الصور، فلو كان النظر بالانعكاس إلى المرئيات كما يراه بعضهم لأدركها الرائي على ما هي عليه من كبر جرمها وصغره، ونحن نبصر في الجسم الصقيل الصغير الصورة المرئية الكبيرة في نفسها صغيرة، وكذلك الجسم الكبير الصقيل يكبر الصورة في عين الرائي ويخرجها عن حدّها، وكذلك العريض والطويل والمتموّج، فإذن ليست الانعكاسات تعطي ذلك، فلم يتمكن أن نقول إلاَّ أن الجسم الصقيل أحد الأمور التي تعطي صور البرزخ ولهذا لا تتعلق الرؤية فيها إلاَّ بالمحسوسات، فإن الخيال لا يمسك إلاَّ ما له صورة محسوسة أو مركب من أجزاء محسوسة تركبها القوّة المصوّرة فتعطي صورة لم يكن لها في الحسّ وجود أصلاً لكن أجزاء ما تركبت منه محسوسة لهذا الرائي بلا شك.

مسألة: أكمل نشأة ظهرت في الموجودات الإنسان عند الجميع، لأن الإنسان الكامل وجد على الصورة لا الإنسان الحيوان، والصورة لها الكمال، ولكن لا يلزم من هذا أن يكون هو الأفضل عند الله فهو أكمل بالمجموع، فإن قالوا: يقول الله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] ومعلوم أنه لا يريد أكبر في الجرم ولكن يريد في المعنى، قلنا له: صدقت ولكن من قال إنها أكبر منه في الروحانية بل معنى السموات والأرض من حيث ما يدل عليه كل واحدة منهما من طريق المعنى المنفرد من النظم الخاص لأجرامهما أكبر في المعنى من جسم الإنسان لا من كل الإنسان، ولهذا يصدر عن حركات السموات والأرض أعيان المولدات والتكوينات، والإنسان من حيث جرمه من المولدات، ولا يصدر من الإنسان هذا وطبيعة العناصر من ذلك، فلهذا كانا أكبر من خلق الإنسان إذ هما له كالأبوين، وهو من الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض، ونحن إنما ننظر في الإنسان الكامل فنقول: إنه أكمل، وأمّا أفضل عند الله فذلك لله تعالىٰ وحده فإن المخلوق لا يعلم ما في نفس الخالق إلاَّ بإعلامه إياه.

مسألة: ليس للحق صفة نفسية ثبوتية إلاَّ واحدة لا يجوز أن يكون له اثنتان فصاعداً، إذ لو كان لكانت ذاته مركبة منهما أو منهنّ، والتركيب في حقّه محال فإثبات صفة زائدة ثبوتية على واحدة محال.

مسألة: لما كانت الصفات نسباً وإضافات والنسب أمور عدمية وما ثم إلاَّ ذات واحدة من جميع الوجوه لذلك جاز أن يكون العباد مرحومين في آخر الأمر، ولا يسرمد عليهم عدم الرحمة إلى ما لا نهاية له إذ لا مكره له على ذلك، والأسماء والصفات ليست أعياناً توجب حكماً عليه

في الأشياء، فلا مانع من شمول الرحمة للجميع، ولا سيما وقد ورد سبقها للغضب، فإذا انتهى الغضب إليها كان الحكم لها فكان الأمر على ما قلناه، لذلك قال تعالىٰ: ﴿لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد: الآية ٣١] فكان حكم هذه المشيئة في الدنيا بالتكليف، وأمّا في الآخرة فالحكم لقوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] فمن يقدر أن يدل على أنه لم يرد إلاّ تسرمد العذاب على أهل النار ولا بدّ أو على واحد في العالم كله حتى يكون حكم الاسم المعذب والمبلي والمنتقم وأمثاله صحيحاً، والاسم المبلي وأمثاله نسبة وإضافة لا عين موجودة، وكيف تكون الذات الموجودة تحت حكم ما ليس بموجود؟ فكل ما ذكر من قوله: ﴿لَوْ يَشَآءُ﴾ ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٦] لأجل هذا الأصل فله الإطلاق، وما ثم نص يرجع إليه لا يتطرّق إليه احتمال في تسرمد العذاب كما لنا في تسرمد النعيم فلم يبق إلاّ الجواز وأنه رحمن الدنيا والآخرة، فإذا فهمت ما أشرنا إليه قلَّ تشعيبك بل زال بالكلية.

مسألة: إطلاق الجواز على الله تعالىٰ سوء أدب مع الله، ويحصل المقصود بإطلاق الجواز على الممكن وهو الأليق إذ لم يرد به شرع ولا دلّ عليه عقل فافهم، وهذا القدر كاف فإنّ العلم إلهيّ أوسع من أن يستقصى، والله يقول الحق وهو يهدي سبيل.

الباب الثامن عشر

في معرفة علم المتهجدين وما يتعلق به من المسائل ومقداره في مراتب العلوم وما يظهر منه من العلوم في الوجود

[نظم: البسيط]

عِلْمُ التَّهَجُّدِ علمُ الغيبِ ليس له ... في منزلِ العينِ إحساسٌ ولا نَظَرُ
إن التنزُّلَ يعطيه وإنَّ له ... في عينه سوراً تعلو به صُوَرُ
فإن دعاه إلى المعراج خالِقُه ... بدتْ له بين أعلام العلى سُوَرُ
فكل منزلةٍ تعطيه منزلةً ... إذا تحكَّم في أجفانه السَّهَرُ
ما لم يَنَمْ هذه في الليل حالتُه ... أو يُدْرِكُ الفجرَ في آفاقه البَصَرُ
نوافِجُ الزهر لا تعطيك رائحةً ... ما لم يَجُدْ بالنسيم الليِّنِ السَّحَرُ
إن الملوكَ وإن جلَّتْ مناصِبُها ... لها مع السُّوقَةِ الأسرارُ والسَّمَرُ

اعلم أيّدك الله أن المتهجدين ليس لهم اسم خاص إلهيّ يعطيهم التهجّد ويقيمهم فيه، كما لمن يقوم الليل كله، فإن قائم الليل كله له اسم إلهيّ يدعوه إليه ويحرّكه، فإن التهجّد عبارة عمّن يقوم وينام ويقوم وينام ويقوم، فمن لم يقطع الليل في مناجاة ربّه هكذا فليس بمتهجّد، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [سورة المزمل: الآية ٢٠] وله علم خاص من جانب الحق، غير أن هذه الحالة لما لم نجد في الأسماء الإلهية من تستند إليه ولم نر أقرب نسبة إليها من الاسم الحق فاستندت إلى الاسم الحق وقبلها هذا الاسم، فكل علم يأتي به المتهجّد

إنما هو من الاسم الحق، فإن النبيّ ﷺ قال لمن يصوم الدهر ويقوم الليل: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقاً وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ**» فجمع له بين القيام والنوم لأداء حق النفس من أجل العين، ولأداء حق النفس من جانب الله، ولا تؤدّى الحقوق إلاّ بالاسم الحق ومنه لا من غيره، فلهذا استند المتهجّدون لهذا الاسم.

ثم إنه للمتهجّد أمر آخر لا يعلمه كل أحد وذلك أنه لا يجني ثمرة مناجاة التهجّد ويحصل علومه إلاّ من كانت صلاة الليل له نافلة، وأمّا من كانت فريضته من الصلاة ناقصة فإنها تكمل من نوافله، فإن استغرقت الفرائض نوافل العبد المتهجّد لم يبق له نافلة وليس بمتهجّد ولا صاحب نافلة، فهذا لا يحصل له حال النوافل ولا علومها ولا تجلياتها، فاعلم ذلك. فنوم المتهجّد لحقِّ عينه وقيامه لحقِّ ربّه، فيكون ما يعطيه الحق من العلم والتجلّي في نومه ثمرة قيامه، وما يعطيه من النشاط والقوّة وتجليهما وعلومهما في قيامه ثمرة نومه، وهكذا جميع أعمال العبد مما افترض عليه، فتتداخل علوم المتهجّدين كتداخل ضفيرة الشعر وهي من العلوم المعشوقة للنفوس حيث تلتف هذا الالتفاف فيظهر لهذا الالتفاف أسرار العالم الأعلى والأسفل، والأسماء الدالة على الأفعال والتنزيه وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] أي اجتمع أمر الدنيا بأمر الآخرة، وما ثم إلاّ دنيا وآخرة وهو المقام المحمود الذي ينتجه التهجّد، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٩] وعسى من الله واجبة، والمقام المحمود هو الذي له عواقب الثناء أي إليه يرجع كل ثناء.

وأما قدر علم التهجّد فهو عزيز المقدار وذلك أنه لما لم يكن له اسم إلهيّ يستند إليه كسائر الآثار عرف من حيث الجملة أن ثم أمراً غاب عنه أصحاب الآثار والآثار فطلب ما هو فأدّاه النظر إلى أن يستكشف عن الأسماء الإلهيّة هل لها أعيان؟ أو هل هي نسب حتى يرى رجوع الآثار؟ هل ترجع إلى أمر وجوديّ أو عدمي؟ فلما نظر رأى أنه ليس الأسماء أعياناً موجودة وإنما هي نسب، فرأى مستند الآثار إلى أمر عدمي فقال المتهجّد: قصارى الأمر أن يكون رجوعي إلى أمر عدمي، فأمعن النظر في ذلك ورأى نفسه مولداً من قيام ونوم، ورأى النوم رجوع النفس إلى ذاتها ما تطلبه، ورأى القيام حق الله عليه، فلما كانت ذاته مركبة من هذين الأمرين نظر إلى الحق من حيث ذات الحق فلاح له أن الحق إذا انفرد بذاته لذاته لم يكن العالم، وإذا توجّه إلى العالم ظهر عين العالم لذلك التوجّه فرأى أن العالم كله موجود عن ذلك التوجّه المختلف النسب، ورأى المتهجّد ذاته مركبة من نظر الحق لنفسه دون العالم وهو حالة النوم للنائم ومن نظره إلى العالم وهو حالة القيام لأداء حق الحق عليه، فعلم أن سبب وجود عينه أشرف الأسباب حيث استند من وجه إلى الذات معرّاة عن نسب الأسماء التي تطلب العالم إليه، فتحقق أن وجوده أعظم الوجود، وأن علمه أسنى العلوم، وحصل له مطلوبه، وهو كان غرضه وكان سبب ذلك انكساره وفقره فقال في قضاء وطره من ذلك متمثلاً: [المديد]

رُبَّ ليل بِتُّه ما أتى فَجْرُه حتى انقضى وَطَري
من مقام كنتُ أعشقه بحديثٍ طيِّبِ الخَبَرِ

وقال في الأسماء: [المديد]

لم أجدْ للاسم مدلولا غير من قد كان مَفْعُولا
ثم أعطَتْنا حقيقَتُه كونُه للعقل معقولا
فتلفَّظْنا به أدباً واعتقدنا الأمرَ مجهولا

وكان قدر علمه في العلوم قدر معلومه وهو الذات في المعلومات، فيتعلق بعلم التهجّد علم جميع الأسماء كلها، وأحقها به الاسم القيوم الذي ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] وهو العبد في حال مناجاته فيعلم الأسماء على التفصيل أي كل اسم جاء علم ما يحوي عليه من الأسرار الوجودية وغير الوجودية على حسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم، ومما يتعلق بهذه الحالة من العلوم علم البرزخ، وعلم التجلّي الإلهيّ في الصور، وعلم سوق الجنة، وعلم تعبير الرؤيا لا نفس الرؤيا من جهة من يراها وإنما هي من جانب من ترى له، فقد يكون الرائي هو الذي رآها لنفسه، وقد يراها له غيره، والعابر لها هو الذي له جزء من أجزاء النبوّة حيث علم ما أريد بتلك الصورة ومن هو صاحب ذلك المقام.

واعلم أن المقام المحمود الذي للمتهجّد يكون لصاحبه دعاء معين وهو قول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ يأمره به: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] يعني لهذا المقام فإنه موقف خاص بمحمد يحمد الله فيه بمحامد لا يعرفها إلاَّ إذا دخل ذلك المقام ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] أي إذا انتقل عنه إلى غيره من المقامات، والمواقف أن تكون العناية به معه في خروجه منه كما كانت معه في دخوله إليه ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٠] من أجل المنازعين فيه، فإن المقام الشريف لا يزال صاحبه محسوداً. ولما كانت النفوس لا تصل إليه رجعت تطلب وجهاً من وجوه القدح فيه تعظيماً لحالهم التي هم عليها حتى لا ينسب النقص إليهم عن هذا المقام الشريف، فطلب صاحب هذا المقام النصرة بالحجة التي هي السلطان على الجاحدين شرف هذه المرتبة ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١]. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر

في سبب نقص العلوم وزيادتها وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْزَعُهُ مِنْ صُدُورِ العُلَمَاءِ وَلٰكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ»

[نظم: الطويل]

تَجلِّي وجودِ الحقّ في فَلَك النَّفْسِ دليلٌ على ما في العلوم من النَّقْصِ
وإن غابَ عن ذاك التجلِّي بنفسه فهل مدركٌ إياه بالبحث والفَحْصِ

وإن ظهرتْ للعلم في النفس كَثْرةٌ فقد ثبت السّتْرُ المحقَّقُ بالنَّصِّ
ولم يَبْدُ من شمس الوجود ونورها على عالم الأرواح شيء سوى القُرْصِ
وليست تنالُ العينُ في غير مَظْهَرٍ ولو هلك الإنسانُ من شدّة الحِرْصِ
ولا ريب في قولي الذي قد بَثَثْتُهُ وما هو بالزور المُمَوَّه والخَرْصِ

اعلم أيّدك الله أن كل حيوان وكل موصوف بإدراك فإنه في كل نفس في علم جديد من حيث ذلك الإدراك، لكن الشخص المدرك قد لا يكون ممن يجعل باله أن ذلك علم فهذا هو في نفس الأمر علم، فاتصاف العلوم بالنقص في حق العالم هو أن الإدراك قد حيل بينه وبين أشياء كثيرة مما كان يدركها لو لم يقم به هذا المانع كمن طرأ عليه العمى أو الصمم أو غير ذلك. ولما كانت العلوم تعلو وتتضع بحسب المعلوم لذلك تعلقت الهمم بالعلوم الشريفة العالية التي إذا اتّصف بها الإنسان زكت نفسه وعظمت مرتبته، فأعلاها مرتبة العلم بالله، وأعلى الطرق إلى العلم بالله علم التجليات ودونها علم النظر، وليس دون النظر علم إلهيّ، وإنما هي عقائد في عموم الخلق لا علوم، وهذه العلوم هي التي أمر الله نبيه عليه السلام بطلب الزيادة منها قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٤] أي زدني من كلامك ما نزيد به علماً بك، فإنه قد زاد هنا من العلم العلم بشرف التأنّي عند الوحي أدباً مع المعلم الذي أتاه به من قبل ربه، ولهذا أردف هذه الآية بقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [سورة طٰه: الآية ١١١] أي ذلّت فأراد علوم التجلّي، والتجلّي أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم وهي علوم الأذواق.

واعلم أن للزيادة والنقص باباً آخر نذكره أيضاً إن شاء الله، وذلك أن الله جعل لكل شيء ونفس الإنسان من جملة الأشياء ظاهراً وباطناً، فهي تدرك بالظاهر أموراً تسمّى عيناً، وتدرك بالباطن أموراً تسمّى علماً، والحق سبحانه هو الظاهر والباطن فبه وقع الإدراك، فإنه ليس في قدرة كل ما سوى الله أن يدرك شيئاً بنفسه، وإنما أدركه بما جعل الله فيه وتجلّى الحق لكل من تجلّى له من أيّ عالم كان من عالم الغيب أو الشهادة إنما هو من الاسم الظاهر.

وأمّا الاسم الباطن فمن حقيقة هذه النسبة أنه لا يقع فيها تجلّ أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، إذ كان التجلّي عبارة عن ظهوره لمن تجلّى له في ذلك المجلّى وهو الاسم الظاهر، فإن معقولية النسب لا تتبدّل وإن لم يكن لها وجود عينيّ، لكن لها الوجود العقليّ فهي معقولة، فإذا تجلّى الحق إما منّة أو إجابة لسؤال فيه فتجلّى لظاهر النفس وقع الإدراك بالحسّ في الصورة في برزخ التمثّل فوقعت الزيادة عند المتجلّي له في علوم الأحكام إن كان من علماء الشريعة، وفي علوم موازين المعاني إن كان منطقياً، وفي علوم ميزان الكلام إن كان نحوياً، وكذلك صاحب كل علم من علوم الأكوان وغير الأكوان تقع له الزيادة في نفسه من علمه الذي هو بصدده، فأهل هذه الطريقة يعلمون أنّ هذه الزيادة إنما كانت من ذلك التجلّي الإلهيّ لهؤلاء الأصناف، فإنهم لا يقدرون على إنكار ما كشف لهم، وغير العارفين يحسّون بالزيادة وينسبون ذلك إلى أفكارهم، وغير هذين يجدون من الزيادة ولا يعلمون أنهم استزادوا

شيئاً، فهم في المثل ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٥] وهي هذه الزيادة وأصلها، والعجب من الذين نسبوا ذلك إلى أفكارهم وما علم أنّ فكره ونظره وبحثه في مسألة من المسائل هو من زيادة العلوم في نفسه من ذلك التجلّي الذي ذكرناه، فالناظر مشغول بمتعلق نظره وبغاية مطلبه فيحجب عن علم الحال فهو في مزيد علم وهو لا يشعر، وإذا وقع التجلّي أيضاً بالاسم الظاهر لباطن النفس وقع الإدراك بالبصيرة في عالم الحقائق والمعاني المجرّدة عن الموادّ وهي المعبر عنها بالنصوص، إذ النص ما لا إشكال فيه ولا احتمال بوجه من الوجوه وليس ذلك إلاّ في المعاني، فيكون صاحب المعاني مستريحاً من تعب الفكر فتقع الزيادة له عند التجلّي في العلوم الإلهيّة وعلوم الأسرار وعلوم الباطن وما يتعلق بالآخرة، وهذا مخصوص بأهل طريقنا فهذا سبب الزيادة.

أمّا سبب نقصها فأمران: إمّا سوء في المزاج في أصل النشء، أو فساد عارض في القوّة الموصلة إلى ذلك وهذا لا ينجبر كما قال الخضر في الغلام إنه طبع كافراً فهذا في أصل النشء.

وأمّا الأمر العارض فقد يزول إن كان في القوّة بالطب، وإن كان في النفس فشغله حب الرياسة واتباع الشهوات عن اقتناء العلوم التي فيها شرفه وسعادته، فهذا أيضاً قد يزول بداعي الحق من قلبه فيرجع إلى الفكر الصحيح فيعلم أن الدنيا منزل من منازل المسافر وأنها جسر يعبر، وأن الإنسان إذا لم تتحلّ نفسه هنا بالعلوم ومكارم الأخلاق وصفات الملأ الأعلى من الطهارة والتنزّه عن الشهوات الطبيعية الصارفة عن النظر الصحيح واقتناء العلوم الإلهية فيأخذ في الشروع في ذلك فهذا أيضاً سبب نقص العلوم، ولا أعني بالعلوم التي يكون النقص منها عيباً في الإنسان إلاّ العلوم الإلهية، وإلاّ فالحقيقة تعطي أنه ما ثم نقص قط وأن الإنسان في زيادة علم أبداً دائماً من جهة ما تعطيه حواسه وتقلبات أحواله في نفسه وخواطره فهو في مزيد علوم لكن لا منفعة فيها، والظن، والشك، والنظر، والجهل، والغفلة، والنسيان، كل هذا وأمثاله لا يكون معها العلم بما أنت فيه بحكم الظن أو الشك أو النظر أو الجهل أو الغفلة أو النسيان.

وأمّا نقص علوم التجلّي وزيادتها فالإنسان على إحدى حالتين: خروج الأنبياء بالتبليغ أو الأولياء بحكم الوراثة النبوية، كما قيل لأبي يزيد حين خلع عليه خلع النيابة وقال له: اخرج إلى خلقي بصفتي فمن رآك رآني فلم يسعه إلاّ امتثال أمر ربّه فخطا خطوة إلى نفسه من ربّه فغشي عليه فإذا النداء: ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني فإنه كان مستهلكاً في الحق كأبي عقال المغربي فردّ إلى مقام الاستهلاك فيه الأرواح الموكلة به المؤيّدة له لما أمر بالخروج فردّ إلى الحق وخلعت عليه خلع الذلّة والافتقار والانكسار فطاب عيشه ورأى ربّه فزاد أنسه واستراح من حمل الأمانة المعارة التي لا بدّ له أن تؤخذ منه.

والإنسان من وقت رقيه في سلم المعراج يكون له تجلّ إلهيّ بحسب سلم معراجه، فإنه لكل شخص من أهل الله سلم يخصّه لا يرقى فيه غيره، ولو رقي أحد في سلم أحد لكانت

النبوّة مكتسبة، فإن كل سلم يعطي لذاته مرتبة خاصة لكل من رقي فيه، وكانت العلماء ترقى في سلم الأنبياء فتنال النبوّة برقيها فيه والأمر ليس كذلك، وكان يزول الاتساع الإلهيّ بتكرار الأمر، وقد ثبت عندنا أنه لا تكرار في ذلك الجناب، غير أنّ عدد درج المعالي كلها الأنبياء والأولياء والمؤمنون والرسل على السواء لا يزيد سلم على سلم درجة واحدة، فالدرجة الأولى الإسلام وهو الانقياد، وآخر الدرج الفناء في العروض والبقاء في الخروج وبينهما ما بقي وهو الإيمان، والإحسان، والعلم، والتقديس، والتنزيه، والغنى، والفقر، والذلّة، والعزّة، والتلوين، والتمكين في التلوين، والفناء إن كنت خارجاً، والبقاء إن كنت داخلاً إليه، وفي كل درج في خروجك عنه ينقص من باطنك بقدر ما يزيد في ظاهرك من علوم التجلّي إلى أن تنتهي إلى آخر درج، فإن كنت خارجاً ووصلت إلى آخر درج ظهر بذاته في ظاهرك على قدرك وكنت له مظهراً في خلقه ولم يبق في باطنك منه شيء أصلاً وزالت عنك تجليات الباطن جملة واحدة، فإذا دعاك إلى الدخول إليه فهي أوّل درج يتجلّى لك في باطنك بقدر ما ينقص من ذلك التجلّي في ظاهرك إلى أن تنتهي إلى آخر درج، فيظهر على باطنك بذاته ولا يبقى في ظاهرك تجلّ أصلاً، وسبب ذلك أن لا يزال العبد والرب معاً في كمال وجود كل واحد لنفسه فلا يزال العبد عبداً والرب رباً مع هذه الزيادة والنقص، فهذا هو سبب زيادة علوم التجليات ونقصها في الظاهر والباطن وسبب ذلك التركيب، ولهذا كان جميع ما خلقه الله وأوجده في عينه مركباً له ظاهر وله باطن، والذي نسمعه من البسائط إنما هي أمور معقولة لا وجود لها في أعيانها، فكل موجود سوى الله تعالىٰ مركب، هذا أعطانا الكشف الصحيح الذي لا مرية فيه وهو الموجب لاستصحاب الافتقار له فإنه وصف ذاتيّ له، فإن فهمت فقد أوضحنا لك المنهاج ونصبنا لك المعراج، فاسلك واعرج تبصر وتشاهد ما بيّناه لك ولما عينّا لك درج المعارج ما أبقينا لك في النصيحة التي أمرنا بها رسول الله ﷺ فإنه لو وصفنا لك الثمرات والنتائج ولم نعين لك الطريق إليها لشوّقناك إلى أمر عظيم لا تعرف الطريق الموصل إليه، فوالذي نفسي بيده إنه لهو المعراج، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العشرون

في العلم العيسويّ ومن أين جاء، وإلى أين ينتهي، وكيفيته، وهل تعلق بطول العالم أو بعرضه أو بهما؟

[نظم: مجزوء الخفيف]

عِلْمُ عيسىٰ هو الذي ... جَهِلَ الخلقُ قَدْرَهْ
كان يُحْيي به الذي ... كانت الأرضُ قَبْرَهْ
قاوَمَ النَّفْخَ أُذْنُ مَنْ ... غاب فيه وأمرُهْ
أنَّ لاهوتَه الذي ... كان في الغيب صِهْرُهْ

هـــــو روحٌ مـــــمـــــثَّـــــلٌ أظـــــهـــــر الله سِـــــرَّهْ
جـــاء مـــن غَـــيْـــبِ حَـــضْـــرةٍ قـــد مـــحـــا الله بَـــذْرَهْ
صـــار خـــلـــقـــاً مـــن بـــعـــدمـــا كـــان روحـــاً فـــغـــرَّهْ
وانـــتـــهـــى فـــيـــه أمـــرُه فـــحـــبـــاه وسَـــرَّهْ
مـــن يـــكـــن مـــثـــلـــه فـــقـــد عـــظَّـــم الله أجْـــرَهْ

اعلم أيّدك الله أن العلم العيسوي هو علم الحروف، ولهذا أعطي النفخ وهو الهواء الخارج من تجويف القلب الذي هو روح الحياة، فإذا انقطع الهواء في طريق خروجه إلى فم الجسد سمّي مواضع انقطاعه حروفاً فظهرت أعيان الحروف، فلما تألفت ظهرت الحياة الحسّيّة في المعاني، وهو أوّل ما ظهر من الحضرة الإلهيّة للعالم، ولم يكن للأعيان في حال عدمها شيء من النسب إلاّ السمع، فكانت الأعيان مستعدة في ذواتها في حال عدمها لقبول الأمر الإلهيّ إذا ورد عليها بالوجود، فلما أراد بها الوجود قال لها: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فتكوّنت وظهرت في أعيانها، فكان الكلام الإلهيّ أوّل شيء أدركته من الله تعالىٰ بالكلام الذي يليق به سبحانه، فأوّل كلمة تركبت كلمة ﴿كُن﴾ وهي مركبة من ثلاثة أحرف: كاف وواو ونون، وكل حرف من ثلاثة فظهرت التسعة التي جذرها الثلاثة وهي أول الأفراد، وانتهت بسائط العدد بوجود التسعة من ﴿كن﴾ فظهر بكن عين المعدود والعدد، ومن هنا كان أصل تركيب المقدمات من ثلاثة وإن كانت في الظاهر أربعة، فإن الواحد يتكرّر في المقدّمتين فهي ثلاثة، وعن الفرد وجد الكون لا عن الواحد، وقد عرّفنا الحق أن سبب الحياة في صور المولدات إنما هو النفخ الإلهيّ في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وهو النفس الذي أحيى الله به الإيمان فأظهره. قال ﷺ: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمَنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**» فحييت بذلك النفس الرحماني صورة الإيمان في قلوب المؤمنين وصورة الأحكام المشروعة، فأعطى عيسىٰ علم هذا النفخ الإلهيّ ونسبته، فكان ينفخ في الصورة الكائنة في القبر أو في صورة الطائر الذي أنشأه من الطين فيقوم حيّاً بالإذن الإلهيّ الساري في تلك النفخة وفي ذلك الهواء، ولولا سريان الإذن الإلهيّ فيه لما حصلت حياة في صورة أصلاً، فمن نفس الرحمن جاء العلم العيسوي إلى عيسىٰ فكان يحيي الموتى بنفخه عليه السلام، وكان انتهاؤه إلى الصور المنفوخ فيها وذلك هو الحظ الذي لكل موجود من الله وبه يصل إليه إذا صارت إليه الأمور كلها.

وإذا تحلّل الإنسان في معراجه إلى ربّه وأخذ كل كون منه في طريقه ما يناسبه لم يبق منه إلاّ هذا السر الذي عنده من الله فلا يراه إلاّ به ولا يسمع كلامه إلاّ به فإنه يتعالى ويتقدّس أن يدرك إلاّ به، وإذا رجع الشخص من هذا المشهد وتركبت صورته التي كانت تحللت في عروجه وردّ العالم إليه جميع ما كان أخذه منه مما يناسبه فإن كل عالم لا يتعدّى جنسه، فاجتمع الكل على هذا السرّ الإلهيّ واشتمل عليه، وبه سبحت الصورة بحمده وحمدت ربّها إذ لا يحمده سواه، ولو حمدته الصورة من حيث هي لا من حيث

هذا السرّ لم يظهر الفضل الإلهيّ ولا الامتنان على هذه الصورة، وقد ثبت الامتنان له على جميع الخلائق، فثبت أن الذي كان من المخلوق لله من التعظيم والثناء إنما كان من ذلك السرّ الإلهيّ ففي كل شيء من روحه وليس شيء فيه فالحق هو الذي حمد نفسه وسبح نفسه، وما كان من خير إلهيّ لهذه الصورة عند ذلك التحميد والتسبيح فمن باب المنة لا من باب الاستحقاق الكونيّ، فإن جعل الحق له استحقاقاً فمن حيث إنه أوجب ذلك على نفسه، فالكلمات عن الحروف، والحروف عن الهواء، والهواء عن النفس الرحماني، وبالأسماء تظهر الآثار في الأكوان، وإليها ينتهي العلم العيسوي. ثم إن الإنسان بهذه الكلمات يجعل الحضرة الرحمانية تعطيه من نفسها ما تقوم به حياة ما يسأل فيه بتلك الكلمات فيصير الأمر دورياً دائماً.

واعلم أن حياة الأرواح حياة ذاتية ولهذا يكون كل ذي روح حيّ بروحه، ولما علم بذلك السامريّ حين أبصر جبريل وعلم أن روحه عين ذاته وأن حياته ذاتية فلا يطأ موضعاً إلاَّ حيي ذلك الموضع بمباشرة تلك الصورة الممثلة إياه، فأخذ من أثره قبضة وذلك قوله تعالىٰ فيما أخبر به عنه أنه قال ذلك: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [سورة طٰه: الآية ٩٦] فلما صاغ العجل وصوّره نبذ فيه تلك القبض فخار العجل. ولما كان عيسىٰ عليه السلام روحاً كما سمّاه الله وكما أنشأه روحاً في صورة إنسان ثابتة أنشأ جبريل في صورة أعرابي غير ثابتة كان يحيي الموتى بمجرّد النفخ، ثم إنه أيّده بروح القدس، فهو روح مؤيّد بروح طاهرة من دنس الأكوان، والأصل في هذا كله الحيّ الأزليّ عين الحياة الأبدية، وإنما ميّز الطرفين أعني الأزل والأبد وجود العالم وحدوثه الحيّ، وهذا العلم هو المتعلق بطول العالم أعني العالم الروحانيّ وهو عالم المعاني والأمر، ويتعلق بعرض العالم وهو عالم الخلق والطبيعة والأجسام والكل لله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤] وهذا كان علم الحسين بن منصور رحمه الله. فإذا سمعت أحداً من أهل طريقنا يتكلم في الحروف فيقول: إن الحرف الفلاني طوله كذا ذراعاً أو شبراً وعرضه كذا كالحلاج وغيره فإنه يريد بالطول فعله في عالم الأرواح وبالعرض فعله في عالم الأجسام، ذلك المقدار المذكور الذي يميّزه به، وهذا الاصطلاح من وضع الحلاّج، فمن علم من المحققين حقيقة ﴿كن﴾ فقد علم العلم العلويّ، ومن أوجد بهمته شيئاً من الكائنات فما هو من هذا العلم.

ولما كانت التسعة ظهرت في حقيقة هذه الثلاثة الأحرف ظهر عنها من المعدودات التسعة الأفلاك، وبحركات مجموع التسعة الأفلاك وتسيير كواكبها وجدت الدنيا وما فيها، كما أنها أيضاً تخرب بحركاتها وبحركة الأعلى من هذه التسعة وجدت الجنة بما فيها، وعند حركة ذلك الأعلى يتكوّن جميع ما في الجنة، وبحركة الثاني الذي يلي الأعلى

وجدت النار بما فيها والقيامة والبعث والحشر والنشر، وبما ذكرناه كانت الدنيا ممتزجة نعيم ممزوج بعذاب، وبما ذكرناه أيضاً كانت الجنة نعيماً كلها، والنار عذاباً كلها، وزال ذلك المزج في أهلها، فنشأة الآخرة لا تقبل مزاج نشأة الدنيا، وهذا هو الفرقان بين نشأة الدنيا والآخرة، إلا أن نشأة النار أعني أهلها إذا انتهى فيهم الغضب الإلهيّ وأمدّه ولحق بالرحمة التي سبقته في المدى يرجع الحكم لها فيهم وصورتها صورتها لا تتبدّل ولو تبدّلت تعذبوا فيحكم عليهم أولاً بإذن الله، وتوليته حركة الفلك الثاني من الأعلى بما يظهر فيهم من العذاب في كل محل قابل للعذاب، وإنما قلنا في كل محل قابل للعذاب لأجل من فيها ممن لا يقبل العذاب، فإذا انقضت مدّتها وهي خمس وأربعون ألف سنة تكون في هذه المدة عذاباً على أهلها يتعذّبون فيها عذاباً متصلاً لا يفتر ثلاثة وعشرين ألف سنة، ثم يرسل الرحمن عليهم نومة يغيبون فيها عن الإحساس وهو قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٧٤].

وقوله عليه السلام في أهل النار الذين هم أهلها: لا يموتون فيها ولا يحيون، يريد حالهم في هذه الأوقات التي يغيبون فيها عن إحساسهم مثل الذي يغشى عليه من أهل العذاب في الدنيا من شدّة الجزع وقوّة الآلام المفرطة فيمكثون كذلك تسع عشرة ألف سنة ثم يفيقون من غشيتهم وقد بدّل الله جلودهم جلوداً غيرها فيعذبون فيها خمسة عشر ألف سنة ثم يغشى عليهم فيمكثون في غشيتهم إحدى عشرة ألف سنة ثم يفيقون وقد بدّل الله جلودهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب فيجدون العذاب الأليم سبعة آلاف سنة، ثم يغشى عليهم ثلاثة آلاف سنة ثم يفيقون فيرزقهم الله لذة وراحة مثل الذي ينام على تعب ويستيقظ، وهذا من رحمته التي سبقت غضبه ووسعت كل شيء، فيكون لها حكم عند ذلك حكم التأبيد من الاسم الواسع الذي به وسع كل شيء رحمة وعلماً فلا يجدون ألماً ويدوم لهم ذلك ويستغنمونه ويقولون نسينا فلا نسأل حذراً أن نذكر بنفوسنا وقد قال الله لنا: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠٨] فيسكتون وهم فيها مبلسون، ولا يبقى عليهم من العذاب إلاّ الخوف من رجوع العذاب عليهم، فهذا القدر من العذاب هو الذي يسرمد عليهم وهو الخوف وهو عذاب نفسيّ لا حسيّ، وقد يذهلون عنه في أوقات، فنعيمهم الراحة من العذاب الحسيّ بما يجعل الله في قلوبهم من أنه ذو رحمة واسعة، يقول الله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٣٤] ومن هذه الحقيقة يقولون نسينا إذا لم يحسّوا بالآلام، وكذلك قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦٧] ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٢٦] أي تترك في جهنم إذ كان النسيان الترك وبالهمز التأخر، فأهل النار حظّهم من النعيم عدم وقوع العذاب، وحظّهم من العذاب توقعه، فإنه لا أمان لهم بطريق الأغبار عن الله، ويحجبون عن خوف التوقّع في أوقات، فوقتاً يحجبون عنه عشرة آلاف سنة، ووقتاً ألفي سنة، ووقتاً ستة آلاف سنة، ولا يخرجون عن هذا المقدار المذكور متى ما كان،

لا بدّ أن يكون هذا القدر لهم من الزمان، وإذا أراد الله أن ينعمهم من اسمه الرحمن ينظرون في حالهم التي هم عليها في الوقت وخروجهم مما كانوا فيه من العذاب فينعمون بذلك القدر من النظر، فوقتاً يدوم لهم هذا النظر ألف سنة، ووقتاً تسعة آلاف سنة، ووقتاً خمسة آلاف سنة فيزيد وينقص، فلا تزال حالهم هذه دائماً في جهنم إذ هم أهلها، وهذا الذي ذكرناه كله من العلم العيسوي الموروث من المقام المحمدي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والعشرون

في معرفة ثلاثة علوم كونية وتوالج بعضها في بعض

[نظم: البسيط]

عِلْمُ التَّوالُجِ عِلمُ الفكر يصْحَبُه ... علم النتائج فانْسُبه إلى النَّظَرِ
هي الأدلةُ إن حقَّقْتَ صورتَها ... مثل الدلالة في الأنثى مع الذكرِ
على الذي أوْقَفَ الإيجادَ أجمَعَه ... على حقيقة كُنْ في عالم الصُّوَرِ
والواو لولا سكونُ النون أظهرها ... في العين قائمةً تمشي على قَدَرِ
فاعلم بأن وجود الكون في فَلَكٍ ... وفي توجُّهه في جوهر البَشَرِ

اعلم أيّدك الله أن هذا هو علم التوالد والتناسل وهو من علوم الأكوان، وأصله من العلم الإلهيّ، فلنبين لك أولاً صورته في الأكوان وبعد ذلك نظهره لك في العلم الإلهيّ، فإن كل علم أصله من العلم الإلهيّ، إذ كان كل ما سوى الله من الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣] فهذا علم التوالج سار في كل شيء وهو علم الالتحام والنكاح، ومنه حسيّ ومعنويّ وإلهيّ. فاعلم أنك إذا أردت أن تعلم حقيقة هذا فلتنظره أولاً في عالم الحسّ، ثم في عالم الطبيعة، ثم في المعاني الروحانية، ثم في العلم الإلهيّ.

فأمّا في الحسّ: فاعلم أنه إذا شاء الله أن يظهر شخصاً بين اثنين ذانك الاثنان هما ينتجانه، ولا يصحّ أن يظهر عنهما ثالث ما لم يقم بهما حكم ثالث وهو أن يفضي أحدهما إلى الآخر بالجماع، فإذا اجتمعا على وجه مخصوص وشرط مخصوص وهو أن يكون المحل قابلاً للولادة لا يفسد البذر إذا قبله ويكون البذر يقبل فتح الصورة فيه هذا هو الشرط الخاص. وأمّا الوجه المخصوص: فهو أن يكون التقاء الفرجين وإنزال الماء أو الريح عن شهوة فلا بدّ من ظهور ثالث وهو المسمّى ولداً والاثنان يسميان والدين وظهور الثالث يسمّى ولادة واجتماعهما يسمّى نكاحاً وسفاحاً وهذا أمر محسوس واقع في الحيوان، وإنما قلنا بوجه مخصوص وشرط مخصوص فإنه ما يكون عن كل ذكر وأنثى يجتمعان بنكاح ولد ولا بدّ إلاّ بحصول ما ذكرناه، وسنبينه في المعاني بأوضح من هذا إذ المطلوب ذلك.

وأمّا في الطبيعة: فإن السماء إذا أمطرت الماء وقبلت الأرض الماء وربت وهو حملها

فأنبتت من كل زوج بهيج وكذلك لقاح النخل والشجر ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٤٩] لأجل التوالد.

وأمّا في المعاني: فهو أن تعلم أن الأشياء على قسمين: مفردات ومركبات، وأن العلم بالمفرد يتقدّم على العلم بالمركب، والعلم بالمفرد يقتنص بالحدّ، والعلم بالمركب يقتنص بالبرهان، فإذا أردت أن تعلم وجود العالم هل هو عن سبب أو لا فلتعمد إلى مفردين أو ما هو في حكم المفردين مثل المقدّمة الشرطية، ثم تجعل أحد المفردين موضوعاً مبتدأ أو تحمل المفرد الآخر عليه على طريق الإخبار به عنه فتقول: كل حادث، فهذا المسمّى مبتدأ فإنه الذي بدأت به، وموضوعاً أوّل فإنه الموضوع الأول الذي وضعته لتحمل عليه ما تخبر به عنه، وهو مفرد فإن الاسم المضاف في حكم المفرد، ولا بدّ أن تعلم بالحدّ معنى الحدوث ومعنى كل الذي أضفته إليه وجعلته له كالسور لما يحيط به فإن (كل) تقتضي الحصر بالوضع في اللسان، فإذا علمت الحادث حينئذ حملت عليه مفرداً آخر وهو قولك فله سبب فأخبرت به عنه، فلا بدّ أن تعلم أيضاً معنى السبب ومعقوليته في الوضع، وهذا هو العلم بالمفردات المقتنصة بالحد، فقام من هذين المفردين صورة مركبة كما قامت صورة الإنسان من حيوانية ونطق فقلت فيه حيوان ناطق، فتركيب المفردين بحمل أحدهما على الآخر لا ينتج شيئاً وإنما هي دعوى يفتقر مدعيها إلى دليل على صحتها حتى يصدق الخبر عن الموضوع بما أخبر به عنه فيؤخذ منا ذلك مسلماً إذا كان في دعوى خاصة على طريق ضرب المثال مخافة التطويل، وليس كتابي هذا بمحل لميزان المعاني، وإنما ذلك موقوف على علم المنطق، فإنه لا بدّ أن يكون كل مفرد معلوماً، وأن يكون ما يخبر به عن المفرد الموضوع معلوماً أيضاً، إمّا ببرهان حسيّ، أو بديهيّ، أو نظريّ يرجع إليهما، ثم تطلب مقدمة أخرى تعمل فيها ما عملت في الأولى، ولا بدّ أن يكون أحد المفردين مذكوراً في المقدمتين، فهي أربعة في صورة التركيب، وهي ثلاثة في المعنى لما نذكره إن شاء الله، وإن لم يكن كذلك فإنه لا ينتج أصلاً فتقول في هذه المسألة التي مثلنا بها في المقدّمة الأخرى والعالم حادث وتطلب فيه من العلم بحدّ المفرد فيها ما طلبته في المقدمة الأولى من معرفة العالم ما هو وحمل الحدوث عليه بقولك حادث، وقد كان هذا الحادث الذي هو محمول في هذه المقدّمة موضوعاً في الأولى حين حملت عليه السبب فتكرّر الحادث في المقدّمتين وهو الرابط بينهما، فإذا ارتبطا سمّي ذلك الارتباط وجه الدليل، وسمّي اجتماعهما دليلاً وبرهاناً، فينتج بالضرورة أن حدوث العالم له سبب، فالعلة الحدوث والحكم السبب، فالحكم أعمّ من العلة، فإنه يشترط في هذا العلم أن يكون الحكم أعمّ من العلة أو مساوياً لها، وإن لم يكن كذلك فإنه لا يصدق هذا في الأمور العقلية.

وأمّا مأخذها في الشرعيات فإذا أردت أن تعلم مثلاً أن النبيذ حرام بهذه الطريقة فتقول كل مسكر حرام والنبيذ مسكر فهو حرام، وتعتبر في ذلك ما اعتبرت في الأمور

العقلية كما مثلت لك، فالحكم التحريم والعلة الإسكار، فالحكم أعمّ من العلة الموجبة للتحريم، فإن التحريم قد يكون له سبب آخر غير السكر في أمر آخر كالتحريم في الغصب والسرقة والجناية، وكل ذلك علل في وجود التحريم في المحرّم، فلهذا الوجه المخصوص صدق، فقد بان لك بالتقريب ميزان المعاني، وأن النتائج إنما ظهرت بالتوالج الذي في المقدّمتين اللذين هما كالأبوين في الحسّ، وأن المقدّمتين مركبة من ثلاثة أو ما هو في حكم الثلاثة، فإنه قد يكون للجملة معنى الواحد في الإضافة والشرط، فلم تظهر نتيجة إلاّ من الفردية، إذ لو كان الشفع ولا يصحبه الواحد صحبة خاصة ما صحّ أن يوجد عن الشفع شيء أبداً، فبطل الشريك في وجود العالم وثبت الفعل للواحد، وأنه بوجوده ظهرت الموجودات عن الموجودات، فتبين لك أن أفعال العباد وإن ظهرت منهم أنه لولا الله ما ظهر لهم فعل أصلاً، فجمع هذا الميزان بين إضافة الأعمال إلى العباد بالصورة وإيجاد تلك الأفعال لله تعالىٰ وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] أي وخلق ما تعملون فنسب العمل إليهم وإيجاده لله تعالىٰ، والخلق قد يكون بمعنى الإيجاد، ويكون بمعنى التقدير، كما أنه قد يكون بمعنى الفعل مثل قوله تعالىٰ: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] ويكون بمعنى المخلوق مثل قوله ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ١١].

وأمّا هذا التوالج في العلم الإلهيّ والتوالد فاعلم أن ذات الحق تعالىٰ لم يظهر عنها شيء أصلاً من كونها ذاتاً غير منسوب إليها أمر آخر، وهو أن ينسب إلى هذه الذات أنها قادرة على الإيجاد عند أهل السنة أهل الحق، أو ينسب إليها كونها علة، وليس هذا مذهب أهل الحق ولا يصحّ، وهذا مما لا يحتاج إليه، ولكن كان الغرض في سياقه من أجل مخالفي أهل الحق لنقرر عنده أنه ما نسب وجود العالم لهذه الذات من كونها ذاتاً وإنما نسبوا العالم لها بالوجود من كونها علة، فلهذا أوردنا مقالتهم، ومع هذه النسبة وهي كونه قادراً لا بدّ من أمر ثالث وهو إرادة الإيجاد لهذه العين المقصودة بأن توجد، ولا بدّ من التوجّه بالقصد إلى إيجادها بالقدرة عقلاً وبالقول شرعاً بأن تتكوّن، فما وجد الخلق إلاّ عن الفردية لا عن الأحدية، لأن أحديته لا تقبل الثاني لأنها ليست أحدية عدد، فكان ظهور العالم في العلم الإلهيّ عن ثلاث حقائق معقولة، فسرى ذلك في توالد الكون بعضه عن بعض لكون الأصل على هذه الصورة.

ويكفي هذا القدر من هذا الباب فقد حصل المقصود بهذا التنبيه، فإن هذا الفنّ في مثل طريق أهل الله لا يحتمل أكثر من هذا، فإنه ليس من علوم الفكر هذا الكتاب، وإنما هو من علوم التلقي والتدلي، فلا يحتاج فيه إلى ميزان آخر غير هذا وإن كان له به ارتباط فإنه لا يخلو عنه جملة واحدة، ولكن بعد تصحيح المقدمات من العلم بمفرداتها بالحدّ الذي لا يمنع والمقدّمات بالبرهان الذي لا يدفع بقول الله في هذا الباب: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] فهذا مما كنّا بصدده في هذا الباب وهذه الآية وأمثالها أحوجتنا إلى ذكر هذا الفن، ومن باب الكشف لم يشتغل أهل الله بهذا الفنّ من العلوم لتضييع الوقت، وعمر الإنسان عزيز ينبغي أن لا يقطعه الإنسان إلاّ في مجالسة ربّه والحديث معه على ما شرعه له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس عشر والحمد لله.

(الجزء السادس عشر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثاني والعشرون

في معرفة علم منزل المنازل وترتيب جميع العلوم الكونية

[نظم: الكامل]

عجباً لأقوال النفوس السَّامِيَهْ	إن المنازل في المنازلِ ساريَهْ
كيف العروجُ من الحضيض إلى العُلَى	إلاّ بقَهْرِ الحضرة المتعالِيَهْ
فصناعةُ التحليل في معراجها	نحو اللطائفِ والأمور السّامِيَهْ
وصناعةُ التركيب عند رجوعِها	بِسَنَا الوجود إلى ظلام الهَاوِيَهْ

اعلم أيّدك الله أنه لما كان العلم المنسوب إلى الله لا يقبل الكثرة ولا الترتيب فإنه غير مكتسب ولا مستفاد، بل علمه عين ذاته كسائر ما ينسب إليه من الصفات وما سمّي به من الأسماء، وعلوم ما سوى الله لا بدّ أن تكون مرتبة محصورة، سواء كانت علوم وهب أو علوم كسب، فإنها لا تخلو من هذا الترتيب الذي نذكره وهو علم المفرد أولاً، ثم علم التركيب، ثم علم المركب ولا رابع لها، فإن كان من المفردات التي لا تقبل التركيب علمه مفرداً وكذلك ما بقي، فإن كل معلوم لا بدّ أن يكون مفرداً أو مركباً، والمركب يستدعي بالضرورة تقدم علم التركيب وحينئذ يكون علم المركب، فهذا قد علمت ترتيب جميع العلوم الكونية، فلنبين لك حصر المنازل في هذا المنزل وهي كثيرة لا تحصى، ولنقتصر منها على ما يتعلق بما يختص به شرعنا ويمتاز به، لا بالمنازل التي يقع فيها الاشتراك بيننا وبين غيرنا من سائر علوم الملل والنحل وجملتها تسعة عشر مرتبة أمّهات، ومنها ما يتفرع إلى منازل، ومنها ما لا يتفرع، فلنذكر أسماء هذه المراتب ولنجعل لها اسم المنازل، فإنه كذا عرّفنا بها في الحضرة الإلهية، والأدب أولى فلنذكر ألقاب هذه المنازل وصفات أربابها وأقطابها المتحققين بها وأحوالهم وما لكل حال من هذه الأحوال من الوصف، ثم بعد ذلك نذكر إن شاء الله كل صنف من هذه التسعة عشر، ونذكر بعض ما يشتمل عليه من أمّهات المنازل لا من المنازل، فإنه ثم منزل يشتمل على ما يزيد على المائة من منازل العلامات والدلالات على أنوار جلية ويشتمل على آلاف، وأقل من منازل الغايات الحاوية على الأسرار الخفية والخواص الجلية، ثم نتلو ما ذكرنا بما يضاهي هذا العدد لهذه المنازل من الموجودات قديمها وحديثها، ثم نذكر ما يتعلق ببعض معاني هذا المنزل على التقريب والاختصار إن شاء الله تعالىٰ.

ذكر ألقابها وصفات أقطابها: فمن ذلك: منازل الثناء والمدح هو لأرباب الكشوفات والفتح، ومنازل الرموز والألغاز لأهل الحقيقة والمجاز، ومنازل الدعاء لأهل الإشارات والبعد، ومنازل الأفعال لأهل الأحوال والاتصال، ومنازل الابتداء لأهل الهواجس والإيماء، ومنازل التنزيه لأهل التوجيه في المناظرات والاستنباط، ومنازل التقريب للغرباء المتألهين، ومنازل التوقّع لأصحاب البراقع من أجل السبحات، ومنازل البركات لأهل الحركات، ومنازل الأقسام لأهل التدبير من الروحانيين، ومنازل الدهر لأهل الذوق، ومنازل الآنية لأهل المشاهدة بالأبصار، ومنازل اللام والألف للالتفاف الحاصل بالتخلق بالأخلاق الإلهية ولأهل السر الذي لا ينكشف، ومنازل التقرير لأهل العلم بالكيمياء الطبيعية والروحانية، ومنازل فناء الأكوان للضغائن المخدّرات، ومنازل الألفة لأهل الأمان من أهل الغرف، ومنازل الوعيد للمتمسكين بقائمة العرش الأمجد، ومنازل الاستخبار لأهل غامضات الأسرار، ومنازل الأمر للمتحققين بحقائق سره فيهم.

وأمّا صفاتهم: فأهل المدح: لهم الزهو، وأهل الرموز: لهم النجاة من الاعتراض، وأمّا المتألهون: فلهم التيه بالتخلق، وأمّا أهل الأحوال والاتصال: فلهم الحصول على العين، وأمّا أهل الإشارة: فلهم الحيرة عند التبليغ، وأمّا أهل الاستنباط: فلهم الغلط والإصابة وليسوا بمعصومين، وأمّا الغرباء: فلهم الانكسار، وأمّا أهل البراقع: فلهم الخوف، وأمّا أهل الحركة: فلهم مشاهدة الأسباب، والمدبرون: لهم الفكر، والممكنون: لهم الحدود، وأهل المشاهد: لهم الجحد، وأهل الكتم: لهم السلامة، وأهل العلم: لهم الحكم على المعلوم، وأهل الستر: منتظرون رفعه، وأهل الأمن: في موطن الخوف من المكر، وأهل القيام: لهم القعود، وأهل الإلهام: لهم التحكم، وأهل التحقيق: لهم ثلاثة أثواب: ثوب إيمان وكفر ونفاق.

وأمّا ذكر أحوالهم: فاعلم أن الله تعالىٰ قد هيّأ المنازل للنازل، ووطأ المعاقل للعاقل، وزوى المراحل للراحل، وأعلى المعالم للعالم، وفصل المقاسم للقاسم، وأعدّ القواصم للقاصم، وبيّن العواصم للعاصم، ورفع القواعد للقاعد، ورتّب المراصد للراصد، وسخّر المراكب للراكب، وقرّب المذاهب للذاهب، وسطر المحامد للحامد، وسهّل المقاصد للقاصد، وأنشأ المعارف للعارف، وثبت المواقف للواقف، ووعر المسالك للسالك، وعيّن المناسك للناسك، وأخرس المشاهد للشاهد، وأحرس الفراقد للراقد.

ذكر صفات أحوالهم: فإنه سبحانه جعل النازل مقدّراً، والعاقل مفكراً، والراحل مشمراً، والعالم مشاهداً، والقاسم مكابداً، والقاصم مجاهداً، والعاصم مساعداً، والقاعد عارفاً، والراصد واقفاً، والراكب محمولاً، والذاهب معلولاً، والحامد مسؤولاً، والقاصد مقبولاً، والعارف مبخوتاً، والواقف مبهوتاً، والسالك مردوداً، والناسك مبعوداً، والشاهد محكماً، والراقد مسلماً.

فهذا قد ذكرنا صفات هؤلاء التسعة عشر صنفاً في أحوالهم. فلنذكر ما يتضمن كل

صنف من أمّهات المنازل، وكل منزل من هذه الأمّهات يتضمن أربعة أصناف من المنازل: الصنف الأوّل: يسمّى منازل الدلالات. والصنف الآخر: يسمّى منازل الحدود. والصنف الثالث: يسمّى منازل الخواص. والصنف الرابع: يسمّى منازل الأسرار. ولا تحصى كثرة فلنقتصر على التسعة عشر، ولنذكر أعداد ما تنطوي عليه من الأمّهات، وهذا أوّلها منزل المدح له منزل الفتح فتح السرين، ومنزل المفاتيح الأول ولنا فيه جزء سمّيناه مفاتيح الغيوب، ومنزل العجائب، ومنزل تسخير الأرواح البرزخية، ومنزل الأرواح العلوية، ولنا في بعض معانيه من النظم قولنا: [مخلع البسيط]

مَنَازِلُ المَدْحِ والتباهي ... منازلٌ ما لها تَنَاهِي

لا تطلبَنْ في السُّموِّ مدحاً ... مدائحُ القوم في الثرى هِي

من ظمئَتْ نفسُه جهاداً ... يشرب من أعذب المياهِ

نقول: ليس مدح العبد أن يتصف بأوصاف سيده فإنه سوء أدب، وللسيد أن يتصف بأوصاف عبده تواضعاً، فللسيد النزول لأنه لا يحكم عليه، فنزوله إلى أوصاف عبده تفضل منه على عبده حتى يبسطه، فإن جلال السيد أعظم في قلب العبد من أن يدل عليه لولا تنزله إليه، وليس للعبد أن يتصف بأوصاف سيده لا في حضرته ولا عند إخوانه من العبيد وإن ولاّه عليهم كما قال عليه السلام: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْر**» وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ أي نملكها ملكاً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٣] فإن الأرض قد جعلها الله ذلولاً، والعبد هو الذليل، والذلّة لا تقتضي العلوّ، فمن جاوز قدره هلك. يقال: ما هلك امرؤ عرف قدره. وقوله: ما لها تناهي، يقول: إنه ليس للعبد في عبوديته نهاية يصل إليها ثم يرجع ربّاً، كما أنه ليس للرب حد ينتهي إليه ثم يعود عبداً، فالرب رب إلى غير نهاية، والعبد عبد إلى غير نهاية، فلذا قال مدائح القوم في الثرى: هي وهو أذلّ من وجه الأرض. وقال: لا يعرف لذة الماء إلاّ الظمآن، يقول: لا يعرف لذّة الاتصاف بالعبودية إلاّ من ذاق الآلام عند اتصافه بالربوبية واحتياج الخلق إليه مثل سليمان حين طلب أن يجعل الله أرزاق العباد على يديه حسّاً فجمع ما حضره من الأقوات في ذلك الوقت فخرجت دابة من دواب البحر فطلبت قوتها فقال لها: خذي من هذا قدر قوتك في كل يوم فأكلته حتى أتت على آخره فقالت: زدني فما وفيت برزقي فإن الله يعطيني كل يوم مثل هذا عشر مرات وغيري من الدواب أعظم مني وأكثر رزقاً، فتاب سليمان عليه السلام إلى ربّه وعلم أنه ليس في وسع المخلوق ما ينبغي للخالق تعالىٰ، فإنه طلب من الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فاستقال من سؤاله حين رأى ذلك واجتمعت الدواب عليه تطلب أرزاقها من جميع الجهات فضاق لذلك ذرعاً فلما قبل الله سؤاله وأقاله وجد من اللذة لذلك ما لا يقدر قدره.

منزل الرموز: فاعلم وفّقك الله أنه وإن كان منزلاً فإنه يحتوي على منازل: منها منزل الوحدانية، ومنزل العقل الأول، والعرش الأعظم، والصدا والإتيان من العماء إلى العرش، وعلم التمثّل، ومنزل القلوب والحجاب، ومنزل الاستواء الفهواني، والألوهية السارية،

واستمداد الكهان والدهر، والمنازل التي لا ثبات لها ولا ثبات لأحد فيها، ومنزل البرازخ والإلهية والزيادة والغيرة، ومنزل الفقد والوجدان، ومنزل رفع الشكوك والجود المخزون، ومنزل القهر والخسف، ومنزل الأرض الواسعة. ولما دخلت هذا المنزل وأنا بتونس وقعت مني صيحة ما لي بها علم أنها وقعت مني غير أنه ما بقي أحد ممن سمعها إلاَّ سقط مغشياً عليه، ومن كان على سطح الدار من نساء الجيران مستشرفاً علينا غشي عليه، ومنهنّ من سقط من السطوح إلى صحن الدار على علوّها وما أصابه بأس، وكنت أول من أفاق، وكنا في صلاة خلف إمام فما رأيت أحداً إلاَّ صاعقاً فبعد حين أفاقوا فقلت: ما شأنكم؟ فقالوا: أنت ما شأنك؟ لقد صحت صيحة أثرت ما ترى في الجماعة، فقلت: والله ما عندي خبر أني صحت. ومنزل الآيات الغربية والحكم الإلهية، ومنزل الاستعداد والزينة، والأمر الذي مسك الله به الأفلاك السماوية، ومنزل الذكر والسلب وفي هذه المنازل قلت: [مخلع البسيط]

منازلُ الكون في الوجودِ ... منازلٌ كلُّها رُموزُ

منازلٌ للعقول فيها ... دلائلٌ كلها تَجُوزُ

لما أتى الطالبون قصداً ... لنيل شيء فذاك جُوزوا

فيا عبيد الكيان حُوزوا ... هذا الذي ساقَكم وجوزوا

الرمز واللغز هو الكلام الذي يعطي ظاهره ما لم يقصده قائله، وكذلك منزل العالم في الوجود ما أوجده الله لعينه وإنما أوجده الله لنفسه فاشتغل العالم بغير ما وجد له فخالف قصد موجده، ولهذا يقول جماعة من العلماء العارفين وهم أحسن حالاً ممن دونهم: إن الله أوجدنا لنا. والمحقق والعبد لا يقول ذلك بل يقول: إنما أوجدنا له لا لحاجة منه إليّ فأنا لغز ربي ورمزه، ومن عرف أشعار الألغاز عرف ما أردناه. وأمّا قوله لما أتى الطالبون قصداً لنيل شيء بذاك جوزوا من المجازات يقول: من طلب الله لأمر فهو لما طلب ولا ينال منه غير ذلك. وقوله: فيا عبيد الكيان يقول: من عبد الله لشيء فذلك الشيء معبوده وربه والله بريء منه وهو لما عبده. وقوله: حوزوا أي خذوا ما جئتم له أي بسببه، وجوزوا: أي روحوا عنّا فإنكم ما جئتم إلينا ولا بسببنا.

منزل الدعاء: هذا المنزل يحتوي على منازل: منها منزل الأنس بالشبيه، ومنزل التغذي، ومنزل مكة والطائف والحجب، ومنزل المقاصير والابتلاء، ومنزل الجمع والتفرقة والمنع، ومنزل النواشي والتقديس وفي هذا المنزل قلت: [الكامل]

لتَأيُّهِ الرحمن فيك مَنَازلُ ... فأجِبْ نداءَ الحق طوعاً يا فُلُ

رفعتْ إليكَ المرسلاتُ أكفَّها ... ترجو النَّوالَ فلا يخيب السائِلُ

أنت الذي قال الدليلُ بفضلهِ ... ولنا عليه شواهدٌ ودلائلُ

لولا اختصاصُك بالحقيقة ما زَهَتْ ... بنزولك الأعلى لديه منازلُ

يقول: إن نداء الحق عباده إنما هو لسان المرسلات تطلب اسماً من أسمائه، وذلك العبد في ذلك الوقت تحت سلطانها، والمرسلات لطائف الخلق ترفع أكفها إلى من هي في

يديه من الأسماء لتجود به على من يطلبها من الأسماء، والمسؤول أبداً إنما هو من له المهيمنية على الأسماء كالعليم الذي له التقدّم على الخبير، والحسيب والمحصي والمفضل ولهذا قال: أنت الذي قال الدليل بفضله والحقيقة التي اختصّ بها أحاطته بما تحته في الرتبة من الأسماء الإلهيّة، إذ القادر في الرتبة دون المريد، والعالم في الرتبة فوق المريد، والحيّ فوق الكل، فالمنازل التي تحت إحاطة الاسم الجامع تفتخر بنزوله إليها إجابة لسؤالها.

منزل الأفعال: وهو يشتمل على منازل: منها منزل الفضل والإلهام، ومنزل الإسراء الروحاني، ومنزل التلطف، ومنزل الهلاك، وفي هذه المنازل أقول: [الكامل]

لـمـنـازل الأفـعـال بَـرْقٌ لامـع ... ورياحُـهـا تُـزْجي السحـاب زَعَـازِعُ
وسـهـامُـهـا فـي الـعـالـمـيـن نـوافـذٌ ... وسيـوفُـهـا فـي الـكـائـنـات قَـوَاطِـعُ
ألـقَـتْ إلـى الـعـز الـمـحـقَّـق أمـرَهـا ... فـالـعـيـنُ تـبـصـر والـتَّـنَـاولُ شـاسـعُ

الناس في أفعال العباد على قسمين: طائفة ترى الأفعال من العباد، وطائفة ترى الأفعال من الله، وكل طائفة يبدو لها مع اعتقادها ذلك شبه البرق اللامع في ذلك يعطيها آن للذي نفي عنه ذلك الفعل نسبة ما، وكل طائفة لها سحاب يحول بينها وبين نسبة الفعل لمن نفته عنه. وقوله في رياحها: إنها شديدة أي الأسباب، والأدلة التي قامت لكل طائفة على نسبة الأفعال لمن نسبتها إليه قوية بالنظر إليه، ووصف سهامها بالنفوذ في نفوس الذين يعتقدون ذلك وكذلك سيوفها فيهم قواطع. وقوله: إنها ألقت إلى العزّ أي احتمت بحمى مانع يمنع المخالف أن يؤثر فيه، فيبقى على هذا كل أحد على ما هي إرادة الله فيه قال تعالىٰ: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٨] وقوله: فالعين تبصر يقول: الحسّ يشهد أن الفعل للعبد والإنسان يجد ذلك من نفسه بما له فيه من الاختيار. وقوله: التناول شاسع أي ونسبته إلى غير ما يعطيه الحسّ والنفس بعيد المتناول إلاّ أنه لا بدّ فيه من برق لامع يعطي نسبة في ذلك الفعل لمن نفي عنه لا يقدر على جحدها.

منزل الابتداء: ويشتمل على منازل: منها منزل الغلظة والسبحات، ومنزل التنزلات والعلم بالتوحيد الإلهيّ، ومنزل الرحموت، ومنزل الحق والفزع وفي هذا المنزل أقول: [الكامل]

لـلابـتـداء شـواهـدٌ ودلائـلُ ... ولـه إذا حـطَّ الـركـابَ مَـنَـازلُ
يحوي على عين الحوادث حُكْمُهُ ... ويـمـدُّه الله الـكـريـمُ الـفـاعـلُ
مـا بـيـنـه نـسـبٌ وبـيـن إلـهـه ... إلاَّ الـتـعـلُّـقُ والـوجـودُ الـحـاصـلُ
لا تـسـمـعـنَّ مـقـالـةَ مـن جـاهـل ... مَـبْـنَـى الـوجـود حـقـائـقٌ وأبـاطِـلُ
مـبـنـى الـوجـود حـقـائـقٌ مـشـهـودةٌ ... وسوى الوجودِ هو المحالُ الباطِلُ

يقول: لابتداء الأكوان شواهد فيها أنها لم تكن لأنفسها ثم كانت وله الضمير يعود على الابتداء إذا حطّ الركاب أي إذا تتبعته من أين جاء وجدته من عند من أوجده ولذلك كان له البقاء، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: الآية ٩٦] فإذا حططت عنده عرفت منزلته منه

الذي كان فيها إذ لم يكن لنفسه وتلك منزل الأولية الإلهية في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] ومن هذه الأولية صدر ابتداء الكون ومنه تستمد الحوادث كلها وهو الحاكم فيها وهي الجارية على حكمه ونفي النسب عنه، فإن أولية الحق تمدّ أولية العبد، وليس لأولية الكون إمداد لشيء، فما ثم نسب إلاّ العناية، ولا سبب إلاّ الحكم، ولا وقت غير الأزل، هذا مذهب القوم، وما بقي مما لم يدخل تحت حصر هذه الثلاثة فعمى وتلبيس، هكذا صرّح به صاحب محاسن المجالس، وقول من قال: مبنى الوجود حقائق وأباطل ليس بصحيح، فإن الباطل هو العدم وهو صحيح، فإن الوجود المستفاد في حكم العدم والوجود الحق من كان وجوده لنفسه وكل عدم وجد فما وجد إلاّ من وجود كان موصوفاً به لغيره لا لنفسه، والذي استفاد هو الوجود لعينه. وأمّا المحال الباطل فهو الذي لا وجود له لا لنفسه ولا من غيره.

منزل التنزيه: هذا المنزل يشتمل على منازل: منها منزل الشكر، ومنزل البأس، ومنزل النشر، ومنزل النصر والجمع، ومنزل الربح والخسران والاستحالات، ولنا في هذا: [الكامل]

لـمـنـازلِ الـتـنـزيـه والـتَّـقْـديـسِ ... سـرٌّ مـقـولٌ حُـكْـمُـه مـعـقـولُ
عِـلْـمٌ يـعـودُ عـلـى الـمـنـزَّه حُـكْـمُـه ... فـردوسُ قُـدْسٍ روضُـه مَـطْـلـولُ
فَـمُـنـزِّه الـحـقِّ الـمـبـيـن مـجـوِّزٌ ... مـا قـالـه فـمُـرامُـه تَـضْـلـيـل

يقول: المنزّه على الحقيقة من هو نزيه لنفسه، وإنما ينزّه من يجوز عليه ما ينزّه عنه وهو المخلوق فلهذا يعود التنزيه على المنزّه، قال ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» فمن كان عمله التنزيه عاد عليه تنزيهه فكان محله منزّهاً عن أن يقوم به اعتقاد ما لا ينبغي أن يكون الحق عليه ومن هنا قال: من قال سبحاني تعظيماً لجلال الله تعالىٰ ولهذا قال: روضه مطلول وهو نزول التنزيه إلى محل العبد المنزّه خالقه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

منزل التقريب: هذا المنزل يشتمل على منزلين: منزل خرق العوائد، ومنزل أحدية كن وفيه أنشدت: [الكامل]

لـمـنـازلِ الـتَّـقْـريـب شـرطٌ يُـعْـلَـمُ ... ولـهـا عـلـى ذات الـكـيـان تَـحَـكُّـمُ
فـإذا أتـى شَـرْطُ الـقـيـامـة واسـتـوى ... جـبَّـارُهـا خـضـع الـوجـودُ ويَـخْـدُمُ
هـيـهـاتَ لا تـجـنـي الـنـفـوس ثـمـارهـا ... إلاّ الـتـي فـعـلـت وأنـت مُـجَـسَّـمُ

يقول: إن التقريب من صفات المحدثات لأنها تقبل التقريب وضدّه والحق هو القريب، وإن كان قد وصف نفسه بأنه يتقرب والمصدر منه التقريب والتقرّب. ولما قال شرط يعلم وهو قبول التأثير قال: ولا يعرف وينكشف الأمر عموماً إلاّ في الآخرة، وقال: والنفوس ما لها جني إلاّ ما غرسته في حياتها الدنيا من خير أو شرّ فلها التقريب من أعمالها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨].

منزل التوقّع: وهذا المنزل أيضاً يشتمل على منزلين: منزل الطريق الإلهيّ، ومنزل السمع وفيه نظمت: [الكامل]

ظهرتْ منازلُ للتوقّع باديَهْ وقطوفُها ليد المقرب دانِيَهْ
فاقطفْ مِنَ اَغصان الدنوّ ثمارَها لا تقطفنَّ من الغصون العَادِيَهْ
لا تخرجَنَّ عن اعتدالك والْزَمَنْ وسطَ الطريق تَرَ الحقائقَ بادِيَهْ

يقول: ما يتوقعه الإنسان قد ظهر لأنه ما يتوقع شيئاً إلاّ وله ظهور عنده في باطنه، فقد برز غيبه الذي يستحقه إلى باطن من يتوقعه، ثم إنه يتوقع ظهوره في عالم الشهادة فيكون أقرب في التناول وهو قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٣] أي قريبة ليد القاطف: يقول: احفظ طريق الاعتدال لا تنحرف عنه، والاعتدال هنا ملازمتك حقيقتك لا تخرج عنها كما خرج المتكبرون، ومن كان برزخاً بين الطرفين كان له الاستشراف عليهما فإذا مال إلى أحدهما غاب عن الآخر.

منزل البركات: وهو أيضاً يشتمل على منزلين: على منزل الجمع والتفرقة، ومنزل الخصام البرزخي وهو منزل الملك والقهر وفيه قلت: [الكامل]

لمنازل البَرَكاتِ نورٌ يسطعُ وله بحبَّات القلوب تَوَقُّعُ
فيها المَزيدُ لكل طالب مَشْهَدٍ ولها إلى نفس الوجود تطلُّعُ
فإذا تحقَّق سرُّ طالبِ حكمةٍ بحقائق البركات شدَّ المَطْلَعُ
فالحمد لله الذي في كونه أعيانُه مشهودةٌ تتسمَّعُ

البركات: الزيادة وهي من نتائج الشكر، وما سمّى الحق نفسه تعالىٰ بالاسم الشاكر والشكور إلاّ لنزيد في العمل الذي شرع لنا أن نعمل به، كما يزيد الحق النعم بالشكر منّا، فكل نفس متطلعة للزيادة يقول: وإذا تحقق طالب الحكم الزيادة انفرد بأمور يجهد أن لا يشاركه فيها أحد لتكون الزيادة من ذلك النوع، وصاحب هذا المقام تكون حاله المراقبة للحال الذي يطلبه.

منزل الأقسام والإيلاء: وهذا المنزل يشتمل على منازل: منها منزل الفهوانيات الرحمانية، ومنزل المقاسم الروحانية، ومنزل الرقوم، ومنزل مساقط النور، ومنزل الشعراء، ومنزل المراتب الروحانية، ومنزل النفس الكلية، ومنزل القطب، ومنزل انفهاق الأنوار على عالم الغيب، ومنزل مراتب النفس الناطقة، ومنزل اختلاف الطرق، ومنزل المودّة، ومنزل علوم الإلهام، ومنزل النفوس الحيوانية، ومنزل الصلاة الوسطى، وفي هذا قلت: [السريع]

منازلُ الأقسام في العَرْضِ أحكامُها في عالَم الأرضِ
تجري بأفلاك السُّعودِ على من قام بالسُّنَّة والفَرْضِ
وعِلْمُها وَقْفٌ على عينها وحُكْمُها في الطول والعَرْضِ

يقول: القسم نتيجة التهمة، والحق يعامل الخلق من حيث ما هم عليه لا من حيث ما هو عليه، ولهذا لم يولّ الحق تعالىٰ للملائكة لأنهم ليسوا من عالم التهمة، وليس لمخلوق أن يقسم بمخلوق وهو مذهبنا، وإن أقسم بمخلوق عندنا فهو عاص، ولا كفارة عليه إذا حنث وعليه التوبة مما وقع فيه لا غير، وإنما أقسم الحق بنفسه حين أقسم بذكر المخلوقات، وحذف الاسم يدل على ذلك إظهار الاسم في مواضع من الكتاب العزيز مثل قوله: ﴿فَوَرَبِّ

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢٣] ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤٠] فكان ذلك إعلاماً في المواضع التي لم يجر للاسم ذكر ظاهر أنه غيب هنالك لأمر أراده سبحانه في ذلك يعرفه من عرّفه الحق ذلك من نبيّ ووليّ ملهم، فإن القسَم دليل على تعظيم المقسم به، ولا شك أنه قد ذكر في القسم من يبصر ومن لا يبصر، فدخل في ذلك الرفيع والوضيع والمرضيّ عنه، والمغضوب عليه، والمحبوب والممقوت، والمؤمن والكافر، والموجود والمعدوم، ولا يعرف منازل الأقسام إلاّ من عرف عالم الغيب، فيغلب على الظنّ أن الاسم الإلهيّ هنا مضمر، وقد عرّفناك أن عالم الغيب هو الطول وعالم الشهادة هو العرض.

منزل الإنيَّة: ويشتمل على منازل: منها منزل سليمان عليه السلام دون غيره من الأنبياء، ومنزل الستر الكامل، ومنزل اختلاف المخلوقات، ومنزل الروح، ومنزل العلوم، وفيه أقول: [الكامل]

إنِّـيَّـةٌ قُـدسـيَّـةٌ مـشـهـودةٌ ... لـوجـودهـا عـنـد الـرجـال مَـنَـازلُ
تـفـنـي الـكـيـانَ إذا تـجـلَّـت صـورةً ... فـي سـورةٍ أعـلامُـهـا تَـتَـفـاضَـلُ
وتـريـكَ فـيـك وجـودَهـا بـنـعـوتـهـا ... خـلـفَ الـظـلالِ وَجُـودُهـا لـك شـامِـلُ

يقول: إن الحقيقة الإلهية المعنوية بنعوت التنزيه إذا شوهدت تفنى كل عين سواها وإن تفاضلت مشاهدها في الشخص الواحد بحسب أحواله وفي الأشخاص لاختلاف أحوالهم لما أعطت الحقيقة أنه لا يشهد الشاهد منّا إلاّ نفسه، كما لا تشهد هي منّا إلاّ نفسها، فكل حقيقة للأخرى مرآة المؤمن مرآة أخيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

منزل الدهور: يحتوي هذا المنزل على منازل: منها منزل السابقة، ومنزل العزّة، ومنزل روحانيات الأفلاك، ومنزل الأمر الإلهيّ، ومنزل الولادة، ومنزل الموازنة، ومنزل البشارة باللقاء، وفيه أقول: [الكامل]

ومِـنَ الـمـنـازل مـا يـكـون مُـقَـدَّرُهُ ... مـثـلُ الـزمـان فـإنـه مـتـوهَّـمُ
دلَّـتْ عـلـيـه الـدائـراتُ بـدورهـا ... ولـه الـتـصـرُّفُ والـمـقـامُ الأعْـظَـمُ

يقول: لما كان الأزل أمراً متوهماً في حق الحق كان الزمان أيضاً في حق الحق أمراً متوهماً أي مدة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك فإن الأزل كالزمان للخلق فافهم.

منزل لام الألف: هذا منزل الالتفاف والغالب عليه الائتلاف لا الاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [سورة القيامة: الآيتان: ٢٩، ٣٠] وهو يحتوي على منازل منها منزل مجمع البحرين وجمع الأمرين، ومنزل التشريف المحمديّ الذي إلى جانب المنزل الصمديّ وفيه أقول: [البسيط]

مـنـازلُ الـلام فـي الـتَّـخـقـيـق والألـف ... عـنـد الـلـقـاء انـفـصـالٌ حَـالَ وَصْـلِـهـمَـا
هـمـا الـدلـيـلُ عـلـى مـن قـال إن أنـا ... سـرُّ الـوجـود وإنـي عَـيْـنُـه فَـهُـمَـا
نِـعْـمَ الـدلـيـلان إذ دلاَّ بـحـالـهـمـا ... لا كـالـذي دلَّ بـالأقـوال فـانـصَـرَمَـا

يقول: وإن ارتبط اللام بالألف وانعقد وصارا عيناً واحدة وهو ظاهر في المزدوج من الحروف في المقام الثامن والعشرين بين الواو والياء اللذين لهما الصحة والاعتلال، فلما في الألف من العلة، ولما في اللام من الصحة، وقعت المناسبة بينه وبين هذين الحرفين، فيلي الصحيح منه حرف الصحة، ويلي المعتل منه حرف العلة، فيداه مبسوطة بالرحمة مقبوضة بنقيضها، وليس للام الألف صورة في نظم المفرد بل هو غيب فيها ورتبة على حالها بين الواو والياء، وقد استناب في مكانه الزاي والحاء والطاء اليابسة فله في غيبه الرتبة السابعة والثامنة والتاسعة، فله منزلة القمر بين البدر والهلال، فلم تزل تصحبه رتبة البرزخية في غيبته وظهوره فهو الرابع والعشرون، إذ كانت له السبعة بالزاي والثمانية بالحاء والتسعة بالطاء واليوم أربع وعشرون ساعة، ففي أيّ ساعة عملت به فيها أنجح عملك على ميزان العمل بالوضع لأنه في حروف الرقم لا في حروف الطبع لأنه ليس له في حروف الطبع إلاّ اللام وهو من حروف اللسان برزخ بين الحلق والشفتين، والألف ليست من حروف الطبع فما ناب إلاّ مناب حرف واحد وهو اللام الذي عنه تولد الألف إذا أشبعت حركته فإن لم تشبع ظهرت الهمزة، ولهذا جعل الألف بعض العلماء نصف حرف والهمزة نصف حرف في الرقم الوضعي لا في اللفظ الطبعي.

ثم نرجع فنقول: إن انعقد اللام بالألف كما قلنا وصارا عيناً واحدة فإن فخذيه يدلان على أنهما اثنان، ثم العبارة باسمه تدل على أنه اثنان فهو اسم مركّب من اسمين لعينين العين الواحدة اللام والأخرى الألف، ولكن لما ظهرا في الشكل على صورة واحدة لم يفرق الناظر بينهما ولم يتميز له أيّ الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر الألف فاختلف الكتاب فيه، فمنهم من راعى التلفّظ، ومنهم من راعى ما يبتدىء به مخططه فيجعله أوّلاً فاجتمعا في تقديم اللام على الألف لأنّ الألف هنا تولد عن اللام بلا شك، وكذلك الهمزة تتلو اللام في مثل قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ [سورة الحشر: الآية ١٣] وأمثاله، وهذا الحرف أعني لام ألف هو حرف الالتباس في الأفعال، فلم يتخلص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو؟ إن قلت: هو لله صدقت، وإن قلت: هو للمخلوق صدقت، ولولا ذلك ما صحَّ التكليف، وإضافة العمل من الله للعبد، يقول ﷺ: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» ويقول الله: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٥] ﴿اَعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٠] والله يقول الحق فكذلك أي الفخذين جعلت اللام أو الألف صدقت وإن اختلف العمل في وضع الشكل عند العلماء به للتحقّق بالصورة، وكل من دلَّ على أن الفعل للواحد من الفخذين دون الآخر فذلك غير صحيح وصاحبه ينقطع ولا يثبت وإن غيّره من أهل ذلك الشأن يخالفه في ذلك، ويدلّ في زعمه والقول معه كالقول مع مخالفه ويتعارض الأمر ويشكل إلاّ على من نوّر الله بصيرته وهداه إلى سواء السبيل.

منزل التقرير: وهو يشتمل على منازل: منها منزل تعداد النعم، ومنزل رفع الضرر، ومنزل الشرك المطلق، وفي ذلك أقول: [الوافر]

تقرَّرَتِ المنازلُ بالسكونِ ورجَّحَتِ الظُّهورَ على الكُمونِ
ودلَّتْ بالعيانِ على عُيُونِ مفجَّرةٍ من الماء المَعينِ
ودلَّتْ بالبروق سَحَابُ مزن إذا لمعت على النور المُبينِ

اعلم أيّدك الله أنه يقول: الثبوت يقرّر المنازل، فمن ثبت ثبت وظهر لكل عين على حقيقتها، ألا ترى ما تعطيك سرعة الحركة من الشبه فيحكم الناظر على الشيء بخلاف ما هو عليه ذلك الشيء، فيقول في النار الذي في الجمرة أو في رأس الفتيلة إذا أسرع بحركته عرضاً إنه خط مستطيل أو يديره بسرعة فيرى دائرة نار في الهواء وسبب ذلك عدم الثبوت، وإذا ثبتت المنازل دلّت على ما تحوي عليه من العلوم الإلهية.

منزل المشاهدة: وهو منزل واحد هو منزل فناء الكون فيه يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل، وفيه أقول: [مجزوء الرمل]

في فَنَاءِ الكون مَنْزِلْ روحُه فينا تَنَزَّلْ
إنه ليلةُ قَدْري ما له نورٌ ولا ظِلّ
هو عينُ النور صِرْفاً ما له عنه تَنَقُّلْ
فأنا الإمام حقاً مَلِكٌ في الصَّدْر أوَّلْ
عنده مفتاحُ أمري فيولِّيكم ويَعزِلْ
سَمْهريَّاتي طوالٌ لست بالسِّماك الأعْزَلْ
فالمقامُ الحقُّ فيكم دائمٌ لا يتبدَّلْ
وهو القاهرُ منه وهو الإمام الأعْدَلْ
ليس بالنور الممثَّلْ بل من المَهَاة أكْمَلْ
وأنا منه يقيناً بمكان السرِّ الأفْضَلْ
فبعَيْن العَيْن أسمو وبأمر الأمر أنْزِلْ

يقول: حالة الفناء لا نور ولا ظل مثل ليلة القدر، ثم قال: وذلك هو الضوء الحقيقي والظل الحقيقي، فإنه الأصل الذي لا ضدّ له، والأنوار تقابلها الظلم وهذا لا يقابله شيء. وقوله: أنا الإمام يعني شهوده للحق من الوجه الخاص الذي منه إليّ، وهو الصدر الأول، ومن هذا المقام يقع التفصيل والكثرة والعدد في الصور، وجعل السمهريات كناية عن تأثير القيومية في العالم ولها الثبوت ولذا قال: لا تتبدّل، وله القهر والعدل لا يقبل التشبيه فبشهود الذات أعلو وبالأمر الإلهيّ أنزل إماماً في العالم.

منزل الألفة: هو منزل واحد وفيه أقول: [السريع]

منازلُ الألفة مألوفَة وهي بهذا النَّعْت معروفَة
فقُلْ لمن عرَّس فيها أقِمْ فإنها بالأمن مخفوفَة
وهي على الاثنين موقوفَة وعن عذاب الوِتْر مصروفَة

هذا منزل الأعراس والسرور والأفراح، وهو ممّا امتنّ الله به على نبيه محمد ﷺ فقال:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يريد عليك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٣] يريد على مودتك وإجابتك وتصديقك.

منزل الاستخبار: وهو يشتمل على منازل: منها منزل المنازعة الروحانية، ومنزل حلية السعداء كيف تظهر على الأشقياء وبالعكس، ومنزل الكون قبل الإنسان، وفيه أقول: [الوافر]

إذا استفْهَمْتُ عن أحباب قلبي ... أحالوني على استفهام لفْظِي

منازلُهم بلفظك ليس إلاً ... فيا شؤمي لذاك وسوءِ حظِّي

وعَظْتُ النفسَ لا تنظُرْ إليهم ... فما التفَتَتْ بخاطرها لوعْظِي

لفَظْتُهُمُو عسى أحظى بكونٍ ... فكانوا عَيْنَ كوني عَيْنَ لفْظِي

وقال: [الطويل]

ومن عجبٍ أني أحنّ إليهِمُو ... وأسأل عنهم من أرى وهُمُو مَعِي

وترصدهُمْ عيني وهم في سوادِها ... ويشتاقُهم قلبي وهم بين أَضْلُعِي

يقول: إنهم في لساني إذا سألت عنهم، وفي سواد عينيّ إذا نظرت إليهم، وفي قلبي إذا فكرت فيهم واشتقت إليهم، فهم معي في كل حال أكون عليها، فهم عيني ولست عينهم إذ لم يكن عندهم مني ما عندي منهم.

منزل الوعيد: وهو منزل واحد محوي على الجور والاستمساك بالكون، وفيه قلت: [الكامل]

إن الوعيدَ لَمَنْزلان هما لمن ... ترك السلوكَ على الطريق الأقْوَمِ

فإذا تحقَّقَ بالكمال وجودُه ... ومشى على حكم العُلُوِّ الأقْدَمِ

عادا نعيماً عنده فنعيمُه ... في النار وهي نعيمُ كل مكرَّمِ

منزل روحانيّ وهو عذاب النفوس، ومنزل جسمانيّ وهو العذاب المحسوس، ولا يكون إلاَّ لمن حاد عن الطريق المشروع في ظاهره وباطنه، فإذا وفق للاستقامة وسبقت له العناية عصم من ذلك وتنعم بنار المجاهدة لجنّة المشاهدة.

منزل الأمر: وهو يشتمل على منازل: منزل الأرواح البرزخية، ومنزل التعليم، ومنزل السرى، ومنزل السبب، ومنزل التمائم، ومنزل القطب والإمامين، ولنا فيه: [البسيط]

منازلُ الأمر فَهْوَانيَّةُ الذات ... بها تَحَصَّلُ أفراحي ولذَّاتي

فليتني قائمٌ فيها مدى عُمُري ... ولا أزول إلى وقت المُلاقاةِ

فقُرَّةُ العين للمختار كان له ... إذا تبرَّزُ في صدر المناجاةِ

الأمر الإلهيّ من صفة الكلام وهو مسدود دون الأولياء من جهة التشريع، وما في الحضرة الإلهيّة أمر تكليفيّ، إلاَّ أن يكون مشروعاً، فما بقي للوليّ إلاَّ سماع أمرها، إذا أمرت الأنبياء فيكون للوليّ عند سماعه ذلك لذة سارية في وجوده، لكن يبقى للأولياء المناجاة الإلهيّة التي لا أمر فيها سمراً وحديثاً، فكل من قال من أهل الكشف إنه مأمور بأمر إلهيّ في حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعيّ محمديّ تكليفيّ فقد التبس عليه الأمر وإن كان صادقاً

فيما قال إنه سمع، وإنما يمكن إن ظهر له تجلّ إلهيّ في صورة تنبيه ﷺ فخاطبه نبيه أو أقيم في سماع خطاب نبيّه، وذلك أن الرسول موصل أمر الحق تعالىٰ الذي أمر الله به عباده، فقد يمكن أن يسمع من الحق في حضرة ما ذلك الأمر الذي قد جاءه به أولاً رسوله ﷺ فيقول: أمرني الحق، وإنما هو في حقّه تعريف بأنه قد أمر وانقطع هذا السبب بمحمد ﷺ، وما عدا الأوامر من الله المشروعة فللأولياء في ذلك القدم الراسخة، فهذا قد أتينا على التسعة عشر صنفاً من المنازل، فلنذكر أخصّ صفات كل منزل فنقول:

وصل: أخصّ صفات منزل المدح تعلّق العلم بما لا يتناهى، وأخصّ صفات منزل الرموز تعلّق العلم بخواص الأعداد والأسماء وهي الكلمات والحروف وفيه علم السيمياء، وأخصّ صفات منزل الدعاء علوم الإشارة والتحلية، وأخصّ صفات منزل الأفعال علم الآن، وأخصّ صفات منزل الابتداء علم المبدأ والمعاد ومعرفة الأوليات من كل شيء، وأخصّ صفات التنزيه علم السلخ والخلع، وأخصّ صفات التقريب علم الدلالات، وأخصّ صفات منزل التوقّع علم النسب والإضافات، وأخصّ صفات منزل البركات علم الأسباب والشروط والعلل والأدلة والحقيقة، وأخصّ صفات الأقسام علوم العظمة، وأخصّ صفات منزل الدهر علم الأزل وديمومة الباري وجوداً، وأخصّ صفات منزل الأنية علم الذات، وأخصّ صفات منزل لام ألف علم نسبة الكون إلى المكوّن، وأخصّ صفات منزل التقرير علم الحضور، وأخصّ صفات منزل فناء الكون علم قلب الأعيان، وأخصّ صفات منزل الألفة علم الالتحام، وأخصّ صفات منزل الوعيد علم المواطن، وأخصّ صفات منزل الاستفهام علم ليس كمثله شيء، وأخصّ صفات منزل الأمر علم العبودة.

وصل: اعلم أنه لكل منزل من هذه المنازل التسعة عشر صنف من الممكنات، فمنهم صنف الملائكة وهم صنف واحد وإن اختلفت أحوالهم. وعلم الأجسام ثمانية عشر: الأفلاك أحد عشر نوعاً، والأركان أربعة، والمولدات ثلاثة، ولها وجه آخر يقابلها من الممكنات في الحضرة الإلهية الجوهر للذات وهو الأول. الثاني: الإعراض وهي للصفات. الثالث: الزمان وهو للأزل. الرابع: المكان وهو للاستواء أو النعوت. الخامس: الإضافات للإضافات. السادس: الأوضاع للفهوانية. السابع: الكميات للأسماء. الثامن: الكيفيات للتجليات. التاسع: التأثيرات للجود. العاشر: الانفعالات للظهور في صور الاعتقادات. الحادي عشر: الخاصية وهي للأحدية. الثاني عشر: الحيرة وهي للوصف بالنزول والفرح والقرض وأشباه ذلك. الثالث عشر: حياة الكائنات للحيّ. الرابع عشر: المعرفة للعلم. الخامس عشر: الهواجس للإرادة. السادس عشر: الإبصار للبصير. السابع عشر: السمع للسميع. الثامن عشر: الإنسان للكمال. التاسع عشر: الأنوار والظلم للنور.

وصل - في نظائر المنازل التسعة عشر:

نظائرها من القرآن حروف الهجاء التي في أول السور وهي أربعة عشر حرفاً في خمس مراتب: أحدية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية. ونظائرها من النار الخزنة تسعة عشر ملكاً

نظائرها في التأثير اثنا عشر برجاً. والسبعة الدراري نظائرها من القرآن حروف البسملة ونظائرها من الرجال النقباء اثنا عشر والأبدال السبعة وهؤلاء السبعة منهم الأوتاد أربعة والإمامان اثنان والقطب واحد، والنظائر لهذه المنازل من الحضرة الإلهية من الأكوان كثير.

وصل: اعلم أن منزل المنازل عبارة عن المنزل الذي يجمع جميع المنازل التي تظهر في عالم الدنيا من العرش إلى الثرى وهو المسمّى بالإمام المبين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة يس: الآية ١٢] فقوله أحصيناه دليل على أنه ما أودع فيه إلاَّ علوماً متناهية، فنظرنا هل ينحصر لأحد عددها فخرجت عن الحصر مع كونها متناهية لأنه ليس فيه إلاَّ ما كان من يوم خلق الله العالم إلى أن ينقضي حال الدنيا وتنتقل العمارة إلى الآخرة، فسألنا من أثق به من العلماء بالله هل تنحصر أمّهات هذه العلوم التي يحويها هذا الإمام المبين؟ فقال نعم فأخبرني الثقة الأمين الصادق الصاحب وعاهدني أني لا أذكر اسمه أن أمّهات العلوم التي تتضمن كل أمّ منه ما لا يحصى كثرة تبلغ بالعدد إلى مائة ألف نوع من العلوم وتسعة وعشرين ألف نوع وستمائة نوع وكل نوع يحتوي على علوم جمة ويعبر عنها بالمنازل، فسألت هذا الثقة هل نالها أحد من خلق الله وأحاط بها علماً؟ قال: لا، ثم قال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [سورة المدثر: الآية ٣١] وإذا كانت الجنود لا يعلمها إلاَّ هو وليس للحق منازع يحتاج هؤلاء الجنود إلى مقابلته فقال لي: لا تعجب فورب السماء والأرض لقد ثم ما هو أعجب؟ فقلت: ما هو؟ فقال لي: الذي ذكر الله في حق امرأتين من نساء رسول الله ﷺ ثم تلا: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [سورة التحريم: الآية ٤]. فهذا أعجب من ذكر الجنود، فأسرار الله عجيبة، فلما قال لي ذلك سألت الله أن يطلعني على فائدة هذه المسألة وما هذه العظمة التي جعل الله نفسه في مقابلتها وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة فأخبرت بها فما سررت بشيء سروري بمعرفة ذلك، وعلمت لمن استندتا ومن يقوّيهما، ولولا ما ذكر الله نفسه في النصرة ما استطاعت الملائكة والمؤمنون مقاومتهما، وعلمت أنهما حصل لهما من العلم بالله والتأثير في العالم ما أعطاهما هذه القوّة، وهذا من العلم الذي كهيئة المكنون، فشكرت الله على ما أولى، فما أظنّ أن أحداً من خلق الله استند إلى ما استند هاتان المرأتان، يقول لوط عليه السلام: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [سورة هود: الآية ٨٠] وكان عنده الركن الشديد ولم يكن يعرفه، فإن النبيّ ﷺ قد شهد له بذلك فقال: «**يرحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»، وعرفتاه عائشة وحفصة، فلو علم الناس علم ما كانتا عليه لعرفوا معنى هذه الآية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون

في معرفة الأقطاب المصونين وأسرار صونهم

[نظم: الخفيف]

إن لله حــــكـــمـــةً أخــفـــاهـــا ... فـي وجـودي فـلـيـس عـيـنٌ تـراهـا

خلقَ الجسمَ دارَ لهْوٍ وأنسٍ فبناها وَجُودُه سوَّاهَا
ثم لما تعدَّلَتْ واستقامَتْ جاء روحٌ من عنده أحياهَا
ثم لما تحقَّق الحقُّ علماً حبُّه وانقيادُه لهواهَا
قال للموت خُذْ إليك عُبَيْدِي فدعاه له بما أخلاهَا
وتجلَّى له فقال إلهي أين أنسى فقال ما تنساهَا
كيف أنسى داراً جعلتَ قواها من قواكم فهي التي لا تُضاهَى
يا إلهي وسيدي واعتمادي ما عَشِقْنَا منها سوى معناهَا
أعْلَمْتنا بما تريدون منّا بلسان الرسول من أعلاهَا
فقطعنا أيامَنا في سرورٍ بك يا سيدي فما أحلاهَا
قال ردّوا عليه دارَ هواهُ صدَقَ الروحُ إنه يهواهَا
فرُدِدْنَا مخلَّدين سُكارَى طرباً دائماً إلى سُكْنَاهَا
وبناها على اعتدالِ قواها وتجلَّى لها بما قوَّاهَا

اعلم أيّدك الله أن هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمّين بالملامية، وهم الرجال الذين حلّوا من الولاية في أقصى درجاتها وما فوقهم إلاّ درجة النبوّة، وهذا يسمّى مقام القربة في الولاية وآيتهم من القرآن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٢] ينبّه بنعوت نساء الجنة وحورها على نفوس رجال الله الذين اقتطعهم إليه وصانهم وحبسهم في خيام صون الغيرة الإلهية في زوايا الكون أن تمتدّ إليهم عين فتشغلهم، لا والله ما يشغلهم نظر الخلق إليهم، لكنه ليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلوّ منصبها فتقف العباد في أمر لا يصلون إليه أبداً، فحبس ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الأعمال الظاهرة والمثابرة على الفرائض منها والنوافل، فلا يعرفون بخرق عادة فلا يعظمون، ولا يشار إليهم بالصلاح الذي في عرف العامّة مع كونهم لا يكون منهم فساد فهم الأخفياء الأبرياء الأمناء في العالم الغامضون في الناس فيهم، قال رسول الله ﷺ عن ربّه عزّ وجلّ: «**إنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عِنْدِي لَمُؤمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ**» يريد أنهم لا يعرفون بين الناس بكبير عبادة ولا ينتهكون المحارم سرّاً وعلناً.

قال بعض الرجال في صفتهم لما سُئِل عن العارف قال: مسوّد الوجه في الدنيا والآخرة، فإن كان أراد ما ذكرناه من أحوال هذه الطائفة فإنه يريد باسوداد الوجه استفراغ أوقاته كلها في الدنيا والآخرة في تجلّيات الحق له، ولا يرى الإنسان عندنا في مرآة الحق إذا تجلّى له غير نفسه ومقامه وهو كون من الأكوان والكون في نور الحق ظلمة فلا يشهد إلاّ سواده فإن وجه الشيء حقيقته وذاته، ولا يدوم التجلّي إلاّ لهذه الطائفة على الخصوص، فهم مع الحق في الدنيا والآخرة على ما ذكرناه من دوام التجلّي وهم الأفراد. وأمّا إن أراد بالتسويد من السيادة وأراد بالوجه حقيقة الإنسان أي له السيادة في الدنيا والآخرة فيمكن، ولا يكون

ذلك إلاَّ للرسل خاصة فإنه كمالهم وهو في الأولياء نقص، لأن الرسل مضطرّون في الظهور لأجل التشريع، والأولياء ليس لهم ذلك، ألا ترى الله سبحانه لما أكمل الدين كيف أمره في السورة التي نعى الله إليه فيها نفسه فأنزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [سورة النصر: الآية ١ ـ ٣] أي أشغل نفسك بتنزيه ربّك والثناء عليه بما هو أهله، فاقتطعه بهذا الأمر من العالم لما كمل ما أريد منه من تبليغ الرسالة، وطلب بالاستغفار أن يستره عن خلقه في حجاب صونه لينفرد به دون خلقه دائماً، فإنه كان في زمان التبليغ والإرشاد وشغله بأداء الرسالة، فإن له وقتاً لا يسعه فيه غير ربّه، وسائر أوقاته فيما أمر به من النظر في أمور الخلق، فردّه إلى ذلك الوقت الواحد الذي كان يختلسه من أوقات شغله بالخلق وإن كان عن أمر الحق، ثم قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي يرجع الحق إليك رجوعاً مستصحباً لا يكون للخلق عندك فيه دخول بوجه من الوجوه. ولما تلا رسول الله ﷺ هذه السورة بكى أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه وحده دون من كان في ذلك المجلس وعلم أن الله تعالىٰ قد نعى إلى رسول الله ﷺ نفسه وهو كان أعلم الناس به، وأخذ الحاضرون يتعجبون من بكائه ولا يعرفون سبب ذلك.

والأولياء الأكابر إذا تُركوا وأنفسهم لم يختر أحد منهم الظهور أصلاً لأنهم علموا أن الله ما خلقهم لهم ولا لأحد من خلقه بالتعلّق من القصد الأول، وإنما خلقهم له سبحانه فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له، فإن أظهرهم الحق عن غير اختيار منهم بأن يجعل في قلوب الخلق تعظيمهم فذلك إليه سبحانه ما لهم فيه تعمل، وإن سترهم فلم يجعل لهم في قلوب الناس قدراً يعظمونهم من أجله فذلك إليه تعالىٰ، فهم لا اختيار لهم مع اختيار الحق فإن خيرهم ولا بدّ فيختارون الستر عن الخلق والانقطاع إلى الله. ولما كان حالهم ستر مرتبتهم عن نفوسهم فكيف عن غيرهم، تعين علينا أن نبين منازل صونهم:

فمن منازل صونهم أداء الفرائض في الجماعات، والدخول مع الناس في كل بلد بزي ذلك البلد ولا يوطن مكاناً في المسجد، وتختلف أماكنه في المسجد الذي تقام فيه الجمعة حتى تضيع عينه في غمار الناس، وإذا كلّم الناس فيكلمهم ويرى الحق رقيباً عليه في كلامه، وإذا سمع كلام الناس سمع كذلك، ويقلّل من مجالسة الناس إلاَّ من جيرانه حتى لا يشعر به، ويقضي حاجة الصغير والأرملة، ويلاعب أولاده وأهله بما يرضي الله تعالىٰ، ويمزح ولا يقول إلاَّ حقاً، وإن عرف في موضع انتقل عنه إلى غيره فإن لم يتمكن له الانتقال استقضى من يعرفه وألحّ عليهم في حوائج الناس حتى يرغبوا عنه، وإن كان عنده مقام التحوّل في الصور تحوّل كما كان للروحاني التشكّل في صور بني آدم فلا يعرف أنه ملك، وكذلك كان قضيب البان، وهذا كله ما لم يرد الحق إظهاره ولا شهرته من حيث لا يشعر.

ثم إن هذه الطائفة إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله، أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله، فليس لهم جلوس إلاَّ مع الله، ولا حديث إلاَّ مع الله، فهم بالله قائمون، وفي الله ناظرون، وإلى الله راحلون ومنقلبون، وعن الله ناطقون، ومن

الله آخذون، وعلى الله متوكلون، وعند الله قاطنون، فما لهم معروف سواه، ولا مشهود إلاَّ إياه، صانوا نفوسهم عن نفوسهم، فلا تعرفهم نفوسهم، فهم في غيابات الغيب محجوبون، هم ضغائن الحق المستخلصون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر وأكل حجاب، فهذه حالة هذه الطائفة المذكورة في هذا الباب.

تتمة شريفة لهذا الباب: قلنا: ومن هذه الحضرة بعثت الرسل سلام الله عليهم أجمعين مشرّعين، ووجد معهم هؤلاء تابعين لهم قائمين بأمرهم من عين واحدة، أخذ عنها الأنبياء والرسل ما شرعوا، وأخذ عنها الأولياء: ما اتبعوهم فيه، فهم التابعون على بصيرة، العالمون بمن اتبعوه وفيما اتبعوه، وهم العارفون بمنازل الرسل ومناهج السبل من الله ومقاديرهم عند الله تعالىٰ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس عشر والحمد لله.

(الجزء السابع عشر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الرابع والعشرون

في معرفة جاءت عن العلوم الكونية وما تتضمنه من العجائب ومن حصّلها من العالم ومراتب أقطابهم وأسرار الاشتراك بين شريعتين، والقلوب المتعشقة بعالم الأنفاس وبالأنفاس وأصلها وإلى كم تنتهي منازلها

[نظم: الطويل]

تـعـجَّبْتُ من مَلْكٍ يـعـود بنا مَلْكـاً ... ومـن مـالكٍ أضحى لـمـملوكه مُلْكَا
فذلك مَلْكُ المُلْكِ إن كنت ناظماً ... من اللؤلؤ المنثور من علمنا سِلْكَا
فخُذْ عن وجود الحق علماً مقدّساً ... لـيـأخذ ذاك العـلـمَ مـن شاءه عَنْكَا
فإن كنتَ مثلي في العلوم فقد تَرَى ... بـأن الـذي فـي كـونـه نـسـخـة مِـنْـكَـا
فـهـل فـي الـعـلـى شيءٌ يـقـاوم أمْرَكُمْ ... وقد فتكَتْ أسيافُكم في الورى فَتْكَا
فـلـو كـنـتَ تـدري يـا حـبـيـبي وجـودَه ... ومن أنت كنتَ السيِّدَ العلمَ المَلْكَا
وكـان إلـهُ الـخـلـق يـأتيك ضعفَ ما ... أتـيـتَ إلـيـه إن تـحـقَّـقْـتَـه مِـلْـكَـا

اعلم أيّدك الله أن الله يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠] فإذا علمت هذا علمت أن الله رب كل شيء ومليكه، فكل ما سوى الله تعالىٰ مربوب لهذا الرب، وملك لهذا الملك الحق سبحانه، ولا معنى لكون العالم ملك الله تعالىٰ إلاَّ تصرّفه فيه على ما يشاء من غير تحجير، وأنه محل تأثير الملك سيّده جلّ علاه، فتنوّع الحالات التي هو العالم عليها هو تصرّف الحق فيه على حكم ما يريده، ثم إنه لما رأينا الله تعالىٰ يقول: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] فأشرك نفسه مع عبده في الوجوب عليه، وإن كان هو الذي أوجب على نفسه ما أوجب، فكلامه صدق ووعده حق، كما يوجب الإنسان بالنذر على

نفسه ابتداء ما لم يوجبه الحق عليه، فأوجب الله عليه الوفاء بنذره الذي أوجبه على نفسه، فأمره بالوفاء بنذره، ثم رأيناه تعالىٰ لا يستجيب إلاً بعد دعاء العبد إياه كما شرع، كما أن العبد لا يكون مجيباً للحق حتى يدعوه الحق إلى ما يدعوه إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فصار للعبد والعالم الذي هو ملك لله سبحانه تصرّف إلهيّ في الجانب الأحمى بما تقتضيه حقيقة العالم بالطلب الذاتيّ، وتصريف آخر بما يقتضيه وضع الشريعة، فلما كان الأمر على ما ذكرناه من كون الحق يجيب أمر العبد إذا دعاه وسأله، كما أن العبد يجيب أمر الله إذا أمره وهو قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٤٠] فشرك في القضية.

ولما كان الحق يقتضي بذاته أن يتذلّل له سواء شرع لعباده أعمالاً أو لم يشرع، كذلك يقتضي ببقاء وجود عينه حفظ الحق إياه، سواء شرع الحق ما شرعه أو لم يشرع. ثم لما شرع للعبد أعمالاً إذا عملها شرع لنفسه أن يجازي هذا العبد على فعل ما كلفه به، فصار الجناب العالي ملكاً لهذا الملك الذي هو العالم بما ظهر من أثر العبد فيه من العطاء عند السؤال، فانطلق عليه صفة يعبر عنها ملك الملك، فهو سبحانه مالك وملك بما يأمر به عباده، وهو سبحانه ملك بما يأمره به العبد فيقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥١] كما قال له الحق: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] فيسمي ما كان من جانب الحق للعبد أمراً، ويسمي ما كان من جانب العبد للحق دعاء أدباً إلهياً وإنما هو على الحقيقة أمر، فإن الحد يشمل الأمرين معاً، وأول من اصطلح على هذا الاسم في علمي محمد بن علي الترمذيّ الحكيم وما سمعنا هذا اللفظ عن أحد سواه، وربما تقدمه غيره بهذا الاصطلاح؛ وما وصل إلينا إلاّ أن الأمر صحيح، ومسألة الوجوب على الله عقلاً مسألة خلاف بين أهل النظر من المتكلمين، فمن قائل بذلك وغير قائل بها. وأمّا الوجوب الشرعيّ فلا ينكره إلاّ من ليس بمؤمن بما جاء من عند الله.

واعلم أن المتضايفين لا بدّ أن يحدث لكل أحد من المتضايفين اسم تعطيه الإضافة، فإذا قلت: زيد فهو إنسان بلا شك لا يعقل منه غير هذا، فإذا قلت: عمرو فهو إنسان لا يعقل منه غير هذا، فإذا قلت: زيد بن عمرو أو زيد عبد عمرو فلا شك أنه قد حدث لزيد البنوّة إذ كان ابن عمرو، وحدث لعمرو اسم الأبوة إذ كان أباً لزيد، فبنوّة زيد أعطت الأبوّة لعمرو والأبوّة لعمرو أعطت البنوّة لزيد، فكل واحد من المتضايفين أحدث لصاحبه معنى لم يكن يوصف به قبل الإضافة، وكذلك زيد عبد عمرو فأعطت العبودة أن يكون زيد مملوكاً وعمرو مالكاً، فقد أحدثت مملوكية زيد اسم المالك لعمرو، وأحدث ملك عمرو لزيد مملوكية زيد، فقيل فيه مملوك، وقيل في عمرو مالك، ولم يكن لكل واحد منهما معقولية هذين الاسمين قبل أن توجد الإضافة، فالحق حق والإنسان إنسان. فإذا قلت: الإنسان أو الناس عبيد الله. قلت: إنّ الله ملك الناس لا بدّ من ذلك، فلو قدرت ارتفاع وجود العالم من الذهن جملة واحدة من كونه ملكاً لم يرتفع وجود الحق لارتفاع العالم وارتفع وجود معنى الملك عن الحق ضرورة، ولما كان وجود العالم مرتبطاً بوجود الحق فعلاً وصلاحية لهذا كان اسم الملك لله

تعالىٰ أزلاً، وإن كان عين العالم معدوماً في العين لكن معقوليته موجودة مرتبطة باسم المالك فهو مملوك لله تعالىٰ وجوداً وتقديراً، قوّة وفعلاً، فإن فهمت وإلاً فافهم.

وليس بين الحق والعالم بون يعقل أصلاً إلاً التمييز بالحقائق، فالله ولا شيء معه سبحانه ولم يزل كذلك ولا يزال كذلك لا شيء معه فمعيته معنا كما يستحق جلاله وكما ينبغي لجلاله، ولولا ما نسب لنفسه أنه معنا لم يقتض العقل أن يطلق عليه معنى المعية، كما لا يفهم منها العقل السليم حين أطلقها الحق على نفسه ما يفهم من معية العالم بعضه مع بعض لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦] لموسىٰ وهارون، فنقول: إن الحق معنا على حدّ ما قاله وبالمعنى الذي أراده، ولا نقول: إنا مع الحق فإنه ما ورد والعقل لا يعطيه فما لنا وجه عقليّ ولا شرعيّ يطلق به أننا مع الحق.

وأمّا من نفى عنه إطلاق الأينية من أهل الإسلام فهو ناقص الإيمان، فإن العقل ينفي عنه معقولية الأينية، والشرع الثابت في السنة لا في الكتاب قد أثبت إطلاق لفظ الأينية على الله فلا تتعدى ولا يقاس عليها وتطلق في الموضع الذي أطلقها الشارع، قال رسول الله ﷺ للسوداء التي ضربها سيدها: «**أَيْنَ اللَّهُ؟ فَأَشَارَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَبِلَ إِشَارَتَهَا وَقَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**» فالسائل بالأينية أعلم الناس بالله تعالىٰ وهو رسول الله ﷺ، وتأوّل بعض علماء الرسوم إشارتها إلى السماء وقبول النبيّ ﷺ ذلك منها لما كانت الآلهة التي تعبد في الأرض وهذا تأويل جاهل بالأمر غير عالم، وقد علمنا أنّ العرب كانت تعبد كوكباً في السماء يسمّى الشعرى سنه لهم أبو كبشة وتعتقد فيها أنها رب الأرباب هكذا وقفت على مناجاتهم إياها، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤٩] فلو لم يعبد كوكب في السماء لساغ هذا التأويل لهذا المتأوّل، وهذا أبو كبشة الذي كان شرع عبادة الشعرى هو من أجداد رسول الله ﷺ لأمّه، ولذلك كانت العرب تنسب رسول الله ﷺ إليه فتقول: ما فعل ابن أبي كبشة حيث أحدث عبادة إله واحد كما أحدث جدّه عبادة الشعرى.

ومن أقطاب هذا المقام ممن كان قبلنا محمد بن علي الترمذي الحكيم، ومن شيوخنا أبو مدين رحمه الله وكان يعرف في العالم العلوي بأبي النجا وبه يسمّونه الروحانيون، وكان يقول رضي الله عنه: سورتي من القرآن ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [سورة الملك: الآية ١] ومن أجل هذا كنا نقول فيه إنه أحد الإمامين لأن هذا هو مقام الإمام، ثم نقول: ولما كان الحق تعالىٰ مجيباً لعبده المضطر فيما يدعوه به ويسأله منه صار كالمتصرّف، فلهذا كان يشير أبو مدين بقوله: فكان يقول فيه ملك الملك. وأمّا صحة هذه الإضافة لتحقق العبد في كل نفس أنه ملك لله تعالىٰ من غير أن يتخلّل هذا الحال دعوى تناقضه، فإذا كان بهذه المثابة حينئذ يصدق عليه أنه ملك عنده، فإن شابته رائحة من الدعوى وذلك بأن يدعي لنفسه ملكاً عرياً عن حضوره في تمليك الله إياه ذلك الأمر الذي سمّاه ملكاً له، وملكاً لم يكن في هذا المقام ولا صحّ له أن يقول في الحق إنه ملك الملك، وإن كان كذلك في نفس الأمر فقد أخرج هذا

نفسه بدعواه بجهله أنه ملك لله وغفلته في أمر ما، فيحتاج صاحب هذا المقام إلى ميزان عظيم لا يبرح بيده ونصب عينه.

وصل: وأمّا أسرار الاشتراك بين الشريعتين فمثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طٰه: الآية ١٤] وهذا مقام ختم الأولياء، ومن رجاله اليوم خضر وإلياس، وهو تقرير الثاني ما أثبته الأوّل من الوجه الذي أثبته مع مغايرة الزمان ليصحّ المتقدم والمتأخر، وقد لا يتغير المكان ولا الحال فيقع الخطاب بالتكليف للثاني من عين ما وقع للأوّل ولما كان الوجه الذي جمعهما لا يتقيد بالزمان، والأخذ منه أيضاً لا يتقيد بالزمان، جاز الاشتراك في الشريعة من شخصين، إلاّ أن العبارة يختلف زمانها ولسانها، إلاّ أن ينطقا في آن واحد بلسان واحد كموسىٰ وهارون لما قيل لهما: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٣] ومع هذا كله فقد قيل لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [سورة طٰه: الآية ٤٤] فأتى بالنكرة في قوله قولاً ولا سيّما وموسىٰ يقول: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [سورة القصص: الآية ٣٤] يعني هارون، فقد يمكن أن يختلفا في العبارة في مجلس واحد فقد جمعهما مقام واحد وهو البعث في زمان واحد إلى شخص واحد برسالة واحدة، وإن كان قد منع وجود مثل هذا جماعة من أصحابنا وشيوخنا كأبي طالب المكّي ومن قال بقوله وإليه نذهب وبه أقول وهو الصحيح عندنا، فإن الله تعالىٰ لا يكرّر تجلياً على شخص واحد، ولا يشرّك فيه بين شخصين للتوسّع الإلهي، وإنما الأمثال والأشباه توهم الرائي والسامع للتشابه الذي يعسر فصله إلاّ على أهل الكشف والقائلين من المتكلمين أن العرض لا يبقى زمانين. ومن الاتساع الإلهي أن الله أعطى كل شيء خلقه، وميّز كل شيء في العالم بأمر ذلك الأمر هو الذي ميّزه عن غيره وهو أحدية كل شيء فما اجتمع اثنان في مزاج واحد، قال أبو العتاهية: [المتقارب]

وفـــي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ ... تـــدلُّ عـــلـــى أنـــه واحِـــدُ

وليست سوى أحدية كل شيء، فما اجتمع قط اثنان فيما يقع به الامتياز، ولو وقع الاشتراك فيه ما امتازت وقد امتازت عقلاً وكشفاً، ومن هذا المنزل في هذا الباب تعرف إيراد الكبير على الصغير، والواسع على الضيق، من غير أن يضيق الواسع ويوسع الضيق أي لا يغير شيء عن حاله، لكن لا على الوجه الذي يذهب إليه أهل النظر من المتكلمين والحكماء في ذلك، فإنهم يذهبون إلى اجتماعهما في الحد والحقيقة لا في الجرمية، فإن كبر الشيء وصغره لا يؤثر في الحقيقة الجامعة لهما، ومن هذا الباب أيضاً قال أبو سعيد الخراز: ما عرف الله إلاّ بجمعه بين الضدّين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] يريد من وجه واحد لا من نسب مختلفة كما يراه أهل النظر من علماء الرسوم.

واعلم أنه لا بدّ من نزول عيسىٰ عليه السلام، ولا بدّ من حكمه فينا بشريعة محمد ﷺ يوحي الله بها إليه من كونه نبياً، فإن النبيّ لا يأخذ الشرع من غير مرسله فيأتيه الملك مخبراً بشرع محمد الذي جاء به ﷺ وقد يلهمه إلهاماً، فلا يحكم في الأشياء بتحليل وتحريم إلاّ بما كان يحكم به رسول الله ﷺ لو كان حاضراً، ويرتفع اجتهاد المجتهدين بنزوله عليه السلام،

ولا يحكم فينا بشرعه الذي كان عليه في أوان رسالته ودولته، فيما هو عالم بها من حيث الوحي الإلهي إليه بها هو رسول ونبيّ، وبما هو الشرع الذي كان عليه محمد ﷺ هو تابع له فيه، وقد يكون له من الاطلاع على روح محمد ﷺ كشفاً بحيث أن يأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمّته ﷺ، فيكون عيسىٰ عليه السلام صاحباً وتابعاً من هذا الوجه، وهو عليه السلام من هذا الوجه خاتم الأولياء، فكان من شرف النبيّ ﷺ أن ختم الأولياء في أمّته نبي رسول مكرم هو عيسىٰ عليه السلام وهو أفضل هذه الأمّة المحمدية، وقد نبّه عليه الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء له، وشهد له بالفضيلة على أبي بكر الصديق وغيره، فإنه وإن كان ولياً في هذه الأمّة والملّة المحمدية فهو نبيّ ورسول في نفس الأمر، فله يوم القيامة حشران: يحشر في جماعة الأنبياء والرسل بلواء النبوّة والرسالة وأصحابه تابعون له فيكون متبوعاً كسائر الرسل، ويحشر أيضاً معنا ولياً في جماعة أولياء هذه الأمّة تحت لواء محمد ﷺ تابعاً له مقدماً على جميع الأولياء من عهد آدم إلى آخر وليّ يكون في العالم، فجمع الله له بين الولاية والنبوّة ظاهراً، وما في الرسل يوم القيامة من يتبعه رسول إلاّ محمد ﷺ فإنه يحشر يوم القيامة في أتباعه عيسىٰ وإلياس عليهما السلام، وإن كان كل من في الموقف من آدم فمن دونه تحت لوائه ﷺ فذلك لواؤه العام، وكلامنا في اللواء الخاص بأمّته ﷺ وللولاية المحمدية المخصوصة بهذا الشرع المنزّل على محمد ﷺ ختم خاص هو في الرتبة دون عيسىٰ عليه السلام لكونه رسولاً وقد ولد في زماننا ورأيته أيضاً واجتمعت به، ورأيت العلامة الختمية التي فيه، فلا وليّ بعده إلاّ وهو راجع إليه، كما أنه لا نبيّ بعد محمد ﷺ إلاّ وهو راجع إليه كعيسىٰ إذا نزل، فنسبة كل وليّ يكون بعد هذا الختم إلى يوم القيامة نسبة كل نبيّ يكون بعد محمد ﷺ في النبوّة كإلياس وعيسىٰ والخضر في هذه الأمّة. وبعد أن بينت لك مقام عيسىٰ عليه السلام إذا نزل فقل ما شئت، إن شئت قلت: شريعتين لعين واحدة، وإن شئت قلت: شريعة واحدة.

وصل: وأمّا القلوب المتعشقة بالأنفاس فإنه لما كانت خزائن الأرواح الحيوانية تعشقت بالأنفاس الرحمانية للمناسبة قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ»** ألا وإن الروح الحيواني نفس، وأن أصل هذه الأنفاس عند القلوب المتعشق بها النفس الرحماني الذي من قبل اليمن لمن أخرج عن وطنه وحيل بينه وبين مسكنه وسكنه ففيها تفريج الكرب ودفع النوب، وقال ﷺ: **«إِنَّ للَّهِ نَفَحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَبِّكُمْ»** وتنتهي منازل هذه الأنفاس في العدد إلى ثلاثمائة نفس وثلاثين نفساً في كل منزل من منازلها التي جملتها الخارج من ضرب ثلاثمائة وثلاثين في ثلاثمائة وثلاثين فما خرج فهو عدد الأنفاس التي تكون من الحق من اسمه الرحمن في العالم البشري، والذي أتحققه أنّ لها منازل تزيد على هذا المقدار مائتين منزلاً في حضرة الفهوانية خاصة، فإذا ضربت ثلاثمائة وثلاثين في خمسمائة وثلاثين فما خرج لك بعد الضرب فهو عدد الأنفاس الرحمانية في العالم الإنساني كل نفس منها علم إلهيّ مستقل عن تجلّ إلهيّ خاص لهذه المنازل لا يكون لغيرها، فمن شمّ من هذه الأنفاس رائحة

عرف مقدارها، وما رأيت من أهلها من هو معروف عند الناس، وأكثر ما يكونون من بلاد الأندلس، واجتمعت بواحد منهم بالبيت المقدس وبمكة فسألته يوماً في مسألة فقال لي: هل تشم شيئاً؟ فعلمت أنه من أهل ذلك المقام، وخدمني مدة وكان لي عم أخو والدي شقيقه اسمه عبد الله بن محمد بن العربي كان له هذا المقام حسّاً ومعنى شاهدنا ذلك منه قبل رجوعنا لهذا الطريق في زمان جاهليتي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون

في معرفة وتد مخصوص معمر، وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم، وسرّ المنزل والمنازل ومن دخله من العالم

[نظم: البسيط]

إن الأمورَ لها حدٌّ ومُطَّلَعُ ... من بعد ظَهْرٍ وبطنٍ فيه تجتمِعُ

في الواحدِ العين سرٌّ ليس يعلمه ... إلاّ مراتبُ أعدادٍ بها تَقَعُ

هو الذي أبرز الأعدادَ أجمعها ... وهو الذي ما له في العدِّ متَّسَعُ

مَجَالُه ضيِّقٌ رحبٌ فصورته ... كناظر في مراءٍ حين ينطَبِعُ

فما تكثَّر إذ أعطت مراتبُه ... تكثراً فهو بالتَّنْزيه يمتَنِعُ

كذلك الحقُّ إن حقَّقْتَ صورتَه ... بنفسه وبكم تعلو وتتَّضِعُ

اعلم أيها الوليّ الحميم أيّدك الله أنّ هذا الوتد هو خضر صاحب موسىٰ عليه السلام أطال الله عمره إلى الآن، وقد رأينا من رآه واتفق لنا في شأنه أمر عجيب، وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبي رحمه الله جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله ﷺ فقال لي: هو فلان ابن فلان وسمّى لي شخصاً أعرفه باسمه وما رأيته ولكن رأيت ابن عمته فربما توقفت فيه ولم آخذ بالقبول أعني قوله فيه لكوني على بصيرة في أمره، ولا شكّ أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى في باطنه ولم أشعر بذلك فإني كنت في بداية أمري فانصرفت عنه إلى منزلي فكنت في الطريق فلقيني شخص لا أعرفه فسلم عليّ ابتداء سلام محبّ مشفق وقال لي: يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان وسمّى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي فقلت له: نعم وعلمت ما أراد ورجعت من حيني إلى الشيخ لأعرّفه بما جرى فعندما دخلت عليه قال لي: يا أبا عبد الله أحتاج معك إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها إلى الخضر يتعرض إليك يقول لك صدق فلاناً فيما ذكره لك ومن أين يتفق لك هذا في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف، فقلت: إن باب التوبة مفتوح، فقال: وقبول التوبة واقع، فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر، ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه أهو هو؟ قال: نعم هو الخضر.

ثم اتفق لي مرة أخرى أني كنت بمرسى تونس بالحفرة في مركب في البحر فأخذني وجع في بطني وأهل المركب قد ناموا فقمت إلى جانب السفينة وتطلعت إلى البحر فرأيت

شخصاً على بعد في ضوء القمر وكانت ليلة البدر وهو يأتي على وجه الماء حتى وصل إليّ فوقف معي ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى فرأيت باطنها وما أصابها بلل ثم اعتمد عليها ورفع الأخرى فكانت كذلك، ثم تكلم معي بكلام كان عنده ثم سلم وانصرف يطلب المنارة محرساً على شاطىء البحر على تل بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاثة فسمعت صوته وهو على ظهر المنارة يسبح الله تعالىٰ، وربما مشى إلى شيخنا جراح بن خميس الكتاني وكان من سادات القوم مرابطاً بمرسى عيدون وكنت جئت من عنده بالأمس من ليلتي تلك، فلما جئت المدينة لقيت رجلاً صالحاً فقال لي: كيف كانت ليلتك البارحة في المركب مع الخضر؟ ما قال لك وما قلت له؟ فلما كان بعد ذلك التاريخ خرجت إلى السياحة بساحل البحر المحيط ومعي رجل ينكر خرق العوائد للصالحين، فدخلت مسجداً خراباً منقطعاً لأصلي فيه أنا وصاحبي صلاة الظهر، فإذا بجماعة من السائحين المنقطعين دخلوا علينا يريدون ما نريده من الصلاة في ذلك المسجد وفيهم ذلك الرجل الذي كلمني على البحر الذي قيل لي إنه الخضر، وفيهم رجل كبير القدر أكبر منه منزلة، وكان بيني وبين ذلك الرجل اجتماع قبل ذلك ومودّة، فقمت فسلمت عليه فسلّم عليّ وفرح بي وتقدم بنا يصلي، فلما فرغنا من الصلاة خرج الإمام وخرجت خلفه وهو يريد باب المسجد وكان الباب في الجانب الغربي يشرف على البحر المحيط بموضع يسمّى بكة فقمت أتحدث معه على باب المسجد وإذا بذلك الرجل الذي قلت إنه الخضر قد أخذ حصيراً صغيراً كان في محراب المسجد فبسطه في الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض ووقف على الحصير في الهواء يتنفل، فقلت لصاحبي: أما تنظر إلى هذا وما فعل؟ فقال لي: سر إليه وسله، فتركت صاحبي واقفاً وجئت إليه، فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وأنشدته لنفسي: [الكامل]

شُغْلُ الـمُـحِـبِّ عـن الـهـواء يَـسَّـرَهْ ... فـي حـبِّ مـن خـلـق الـهـواءَ وسـخَّـرَهْ

الـعَـارفـون عـقـولُـهـم مـعـقـولـةٌ ... عـن كـل كـون تـرتـضـيـه مـطـهَّـرَهْ

فـهُـمُـو لـديـه مـكْـرَمـون وفـي الـورى ... أحـوالُـهـم مـجـهـولـةٌ ومُـسَـتَّـرَهْ

فقال لي: يا فلان ما فعلت ما رأيت إلاّ في حق هذا المنكر، وأشار إلى صاحبي الذي كان ينكر خرق العوائد وهو قاعد في صحن المسجد ينظر إليه ليعلم أن الله يفعل ما يشاء مع من يشاء، فرددت وجهي إلى المنكر وقلت له: ما تقول؟ فقال: ما بعد العين ما يقال، ثم رجعت إلى صاحبي وهو ينتظرني بباب المسجد فتحدثت معه ساعة وقلت له: من هذا الرجل الذي صلّى في الهواء وما ذكرت له ما اتفق لي معه قبل ذلك، فقال لي: هذا الخضر، فسكت وانصرفت الجماعة وانصرفنا نريد روطة موضع مقصود يقصده الصلحاء من المنقطعين وهو بمقربة من بشكنصار على ساحل البحر المحيط، فهذا ما جرى لنا مع هذا الوتد نفعنا الله برؤيته، وله من العلم اللدني ومن الرحمة بالعالم ما يليق بمن هو على رتبته وقد أثنى الله عليه. واجتمع به رجل من شيوخنا وهو علي بن عبد الله بن جامع من أصحاب علي المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان كان يسكن بالمقلى خارج الموصل في بستان له، وكان الخضر قد

ألبسه الخرقة بحضور قضيب البان، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر من بستانه، وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها، وقد كنت لبست خرقة الخضر بطريق أبعد من هذا من يد صاحبنا تقيّ الدين عبد الرحمن بن علي بن ميمون بن أب الوزري، ولبسها هو من يد صدر الدين شيخ الشيوخ بالديار المصرية وهو ابن حمويه، وكان جده قد لبسها من يد الخضر، ومن ذلك الوقت قلت بلباس الخرقة، وألبستها الناس لما رأيت الخضر قد اعتبرها، وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن، فإن الخرقة عندنا إنما هي عبارة عن الصحبة والأدب والتخلّق، ولهذا لا يوجد لباسها متصلاً برسول الله ﷺ، ولكن توجد صحبة وأدباً وهو المعبر عنه بلباس التقوى، فجرت عادة أصحاب الأحوال إذا رأوا أحداً من أصحابهم عنده نقص في أمر ما وأرادوا أن يكملوا له حاله يتّحد به هذا الشيخ فإذا اتّحد به أخذ ذلك الثوب الذي عليه في حال ذلك الحال ونزعه وأفرغه على الرجل الذي يريد تكملة حاله فيسري فيه ذلك الحال فيكمل له ذلك، فذلك هو اللباس المعروف عندنا والمنقول عن المحققين من شيوخنا.

ثم اعلم أن رجال الله على أربع مراتب: رجال لهم الظاهر، ورجال لهم الباطن، ورجال لهم الحد، ورجال لهم المطلع. فإن الله سبحانه لما أغلق دون الخلق باب النبوّة والرسالة أبقى لهم باب الفهم عن الله فيما أوحى به إلى نبيه ﷺ في كتابه العزيز، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن الوحي قد انقطع بعد رسول الله ﷺ وما بقي بأيدينا إلاَّ أن يرزق الله عبداً فهماً في هذا القرآن، وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحة خبر عن النبيّ ﷺ أنه قال في آي القرآن: «**إِنَّهُ مَا مِنْ آيَةٍ إلاَّ وَلَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمَطْلَعٌ**» ولكل مرتبة من هذه المراتب رجال، ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف قطب، وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف، دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز من أهل باغة باغرناطة سنة خمس وتسعين وخمسمائة وهومن أكبر من لقيته في هذا الطريق لم أر في طريقه مثله في الاجتهاد فقال لي: الرجال أربعة ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] وهم رجال الظاهر. ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالىٰ ولهم المشورة. ورجال الأعراف وهم رجال الحد قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٦] أهل الشم والتمييز والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم كان منهم أبو يزيد البسطامي. ورجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالاً لسرعة الإجابة لا يركبون: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ [سورة الحج: الآية ٢٧] وهم رجال المطلع.

فرجال الظاهر هم الذين لهم التصرّف في عالم الملك والشهادة، وهم الذين كان يشير إليهم الشيخ محمد بن قائد الأواني، وهو المقام الذي تركه الشيخ العاقل أبو السعود بن الشبل البغدادي أدباً مع الله. أخبرني أبو البدر التماشكي البغدادي رحمه الله قال: لما اجتمع محمد بن قائد الأواني وكان من الأفراد بأبي السعود هذا قال له: يا أبا السعود إن الله قسّم

المملكة بيني وبينك فلم لا تتصرّف فيها كما أتصرّف أنا؟ فقال له أبو السعود: يا ابن قائد وهبتك سهمي نحن تركنا الحق يتصرّف لنا وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] فامتثل أمر الله. فقال لي أبو البدر: قال لي أبو السعود: إني أعطيت التصرّف في العالم منذ خمس عشرة سنة من تاريخ قوله فتركته وما ظهر عليّ منه شيء.

وأما رجال الباطن فهم الذين لهم التصرّف في عالم الغيب والملكوت فيستنزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه، وأعني أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة، وإنما كان ذلك لمانع إلهيّ قويّ يقتضيه مقام الأملاك أخبر الله به في قول جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ [سورة مريم: الآية ٦٤] ومن كان تنزله بأمر ربه لا تؤثر فيه الخاصية ولا ينزل بها، نعم أرواح الكواكب تستنزل بالأسماء والبخورات وأشباه ذلك لأنه تنزل معنوي ولمن يشاهد فيه صوراً خياليّ، فإن ذات الكواكب لا تبرح من السماء مكانها، ولكن قد جعل الله لمطارح شعاعاتها في عالم الكون والفساد تأثيرات معتادة عند العارفين بذلك، كالريّ عند شرب الماء، والشبع عند الأكل، ونبات الحبة عند دخول الفصل بنزول المطر والصحو، حكمة أودعها العليم الحكيم جلّ وعزّ، فيفتح لهؤلاء الرجال في باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم اختصاصاً إلهياً.

وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرّف في عالم الأرواح النارية عالم البرزخ والجبروت فإنه تحت الجبر، ألا تراه مقهوراً تحت سلطان ذوات الأذناب وهم طائفة منهم من الشهب الثواقب فما قهرهم إلاّ بجنسهم، فعند هؤلاء الرجال استنزال أرواحها وإحضارها وهم رجال الأعراف، والأعراف سور حاجز بين الجنة والنار برزخ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فهو حد بين دار السعداء ودار الأشقياء، دار أهل الرؤية ودار الحجاب، وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذا السور، ولهم شهود الخطوط المتوهمة بين كل نقيضين مثل قوله: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٠] فلا يتعدون الحدود وهم رجال الرحمة التي وسعت كل شيء، فلهم في كل حضرة دخول واستشراف، وهم العارفون بالصفات التي يقع بها الامتياز لكل موجود عن غيره من الموجودات العقلية والحسيّة.

وأمّا رجال المطلع فهم الذين لهم التصرّف في الأسماء الإلهية فيستنزلون بها منها ما شاء الله وهذا ليس لغيرهم، ويستنزلون بها كل ما هو تحت تصريف الرجال الثلاثة: رجال الحد، والباطن، والظاهر، وهم أعظم الرجال، وهم الملامية هذا في قوّتهم، وما يظهر عليهم من ذلك شيء منهم أبو السعود وغيره فهم والعامة في ظهور العجز وظاهر العوائد سواء، وكان لأبي السعود في هؤلاء الرجال تميّز بل كان من أكبرهم، وسمعه أبو البدر على ما حدثنا مشافهة يقول: إنّ من رجال الله من يتكلم على الخاطر وما هو مع الخاطر، أي لا علم له بصاحبه ولا يقصد التعريف به، ولما وصف لنا عمر البزاز وأبو البدر وغيرهما حال

هذا الشيخ رأيناه يجري مع أحوال هذا الصنف العالي من رجال الله، قال لي أبو البدر: كان كثيراً ما ينشد بيتاً لم نسمع منه غيره وهو: [الطويل]

وأثْبَتَ في مستنقع الموتِ رجلَهُ ... وقال لها من دون أَخْمَصِك الحَشْرُ

وكان يقول: ما هو إلاّ الصلوات الخمس وانتظار الموت، وتحت هذا الكلام علم كبير، وكان يقول: الرجل مع الله تعالىٰ كساعي الطير، فم مشغول وقدم تسعى، وهذا كله أكبر حالات الرجال مع الله، إذ الكبير من الرجال من يعامل كل موطن بما يستحقه، وموطن هذه الدنيا لا يمكن أن يعامله المحقق إلاّ بما ذكره هذا الشيخ، فإذا ظهر في هذه الدار من رجل خلاف هذه المعاملة علم أن ثم نفساً ولا بدّ إلاّ أن يكون مأموراً بما ظهر منه وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام، وقد يكون بعض الورثة لهم أمر في وقت بذلك وهو مكر خفي فإنه انفصال عن مقام العبودية التي خلق الإنسان لها.

وأما سرّ المنزل والمنازل فهو ظهور الحق بالتجلّي في صور كل ما سواه، فلولا تجليه لكل شيء ما ظهرت شيئية ذلك الشيء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فقوله: إذا أردناه هو التوجّه الإلهيّ لإيجاد ذلك الشيء، ثم قال: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ فنفس سماع ذلك الشيء خطاب الحق تكون ذلك الشيء فهو بمنزلة سريان الواحد في منازل العدد، فتظهر الأعداد إلى ما لا يتناهى بوجود الواحد في هذه المنازل، ولولا وجود عينه فيها ما ظهرت أعيان الأعداد ولا كان لها اسم، ولو ظهر الواحد باسمه في هذه المنزلة ما ظهر لذلك العدد عين فلا تجتمع عينه واسمه معاً أبداً، فيقال: اثنان ثلاثة أربعة خمسة إلى ما لا يتناهى، وكل ما أسقطت واحداً من عدد معين زال اسم ذلك العدد وزالت حقيقته، فالواحد بذاته يحفظ وجود أعيان الأعداد وباسمه يعدمها، كذلك إذا قلت: القديم فني المحدث، وإذا قلت: الله فني العالم، وإذا أخليت العالم من حفظ الله لم يكن للعالم وجود وفني، وإذا سرى حفظ الله في العالم بقي العالم موجوداً، فبظهوره وتجليه يكون العالم باقياً، وعلى هذه الطريقة أصحابنا، وهي طريقة النبوّة والمتكلمون من الأشاعرة أيضاً عليها، وهم القائلون بانعدام الأعراض لأنفسها، وبهذا يصحّ افتقار العالم إلى الله في بقائه في كل نفس، ولا يزال الله خلاقاً على الدوام، وغيرهم من أهل النظر لا يصحّ لهم هذا المقام. وأخبرني جماعة من أهل النظر من علماء الرسوم أن طائفة من الحكماء عثروا على هذا ورأيته مذهباً لابن السيد البطليوسي في كتاب ألفه في هذا الفن، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون

في معرفة أقطاب الرموز وتلويحات من أسرارهم وعلومهم في الطريق

[نظم: الوافر]

ألا إن الرموزَ دليلُ صِدْقٍ ... على المعنى المغيَّب في الفؤادِ

وإن العالمين له رُمُوزٌ ... وألغازٌ ليُدعَى بالعبادِ

ولـولا الـلُّـغْـزُ كـان الـقـولُ كـفـراً ... وأدّى الـعـالـمـيـنَ إلـى الـعِـنَـادِ
فـهـم بـالـرَّمْـز قـد حـسـبـوا فـقـالـوا ... بـإهـراقِ الـدمـاء وبـالـفَـسَـادِ
فـكـيـف بـنـا لَـوَ انَّ الأمـر يـبـدو ... بـلا سـتـرٍ يـكـون لـه اسْـتِـنَـادي
لـقـام بـنـا الـشـقـاءُ هـنـا يـقـيـنـاً ... وعـنـد الـبَـعْـث فـي يـوم الـتَّـنَـادي
ولـكـنَّ الـغـفـورَ أقـام سـتـراً ... لـيـسـعـدنـا عـلـى رغـم الأعـادي

اعلم أيها الوليّ الحميم أيّدك الله بروح القدس وفهمك أن الرموز والألغاز ليست مرادة لأنفسها، وإنما هي مرادة لما رمزت له ولما ألغز فيها، ومواضعها من القرآن آيات الاعتبار كلها، والتنبيه على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٣] فالأمثال ما جاءت مطلوبة لأنفسها، وإنما جاءت ليعلم منها ما ضربت له وما نصبت من أجله مثلاً، مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧] فجعله كالباطل كما قال: ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨١] ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ضربه مثلاً للحق ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: الآية ١٧] وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢] أي تعجبوا وجوزوا واعبروا إلى ما أردته بهذا التعريف و ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣] من عبرت الوادي إذا جزته. وكذلك الإشارة والإيماء قال تعالىٰ لنبيه زكريا: ﴿إِنَّ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤١] أي بالإشارة، وكذلك: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [سورة مريم: الآية ٢٩] في قصة مريم لما نذرت للرحمن أن تمسك عن الكلام، ولهذا العلم رجال كبير قدرهم من أسرارهم سرّ الأزل والأبد والحال والخيال والرؤيا والبرازخ، وأمثال هذه من النسب الإلهية، ومن علومهم خواص العلم بالحروف والأسماء والخواص المركبة والمفردة من كل شيء من العالم الطبيعيّ وهي الطبيعة المجهولة.

فأمّا علم سرّ الأزل: فاعلم أن الأزل عبارة عن نفي الأولية لمن يوصف به وهو وصف لله تعالىٰ من كونه إلهاً، وإذا انتفت الأولية عنه تعالىٰ من كونه إلهاً فهو المسمّى بكل اسم سمّى به نفسه أزلاً من كونه متكلماً، فهو العالم، الحيّ، المريد، القادر، السميع، البصير، المتكلم، الخالق، البارىء، المصوّر، الملك، لم يزل مسمّى بهذه الأسماء، وانتفت عنه أولية التقييد، فسمع المسموع وأبصر المبصر إلى غير ذلك وأعيان المسموعات منّا والمبصرات معدومة غير موجودة وهو يراها أزلاً كما يعلمها أزلاً ويميّزها ويفصلها أزلاً، ولا عين لها في الوجود النفسي العيني، بل هي أعيان ثابتة في رتبة الإمكان، فالإمكانية لها أزلاً كما هي لها حالاً وأبداً، لم تكن قط واجبة لنفسها ثم عادت ممكنة ولا محالاً ثم عادت ممكنة، بل كان الوجوب الوجودي الذاتي لله تعالىٰ أزلاً، كذلك وجوب الإمكان للعالم أزلاً، فالله في مرتبته بأسمائه الحسنى يسمّى منعوتاً موصوفاً بها، فعين نسبة الأوّل له نسبة الآخر، والظاهر والباطن لا يقال هو أول بنسبة كذا ولا آخر بنسبة كذا، فإن الممكن مرتبط بواجب

الوجود في وجوده وعدمه ارتباط افتقار إليه في وجوده، فإن أوجده لم يزل في إمكانه، وإن عدم لم يزل عن إمكانه، فكما لم يدخل على الممكن في وجود عينه بعد أن كان معدوماً صفة تزيله عن إمكانه، كذلك لم يدخل على الخالق الواجب الوجود في إيجاده العالم وصف يزيله عن وجوب وجوده لنفسه، فلا يعقل الحق إلاً هكذا، ولا يعقل الممكن إلاً هكذا، فإن فهمت علمت معنى الحدوث ومعنى القدم فقل بعد ذلك ما شئت، فأولية العالم وآخريته أمر إضافي إن كان له آخر، أمّا في الوجود فله آخر في كل زمان فرد وانتهاء عند أرباب الكشف، ووافقتهم الحسبانية على ذلك كما وافقتهم الأشاعرة، على أن العرض لا يبقى زمانين، فالأول من العالم بالنسبة إلى ما يخلق بعده، والآخر من العالم بالنسبة إلى ما خلق قبله، وليس كذلك معقولية الاسم الله بالأول والآخر والظاهر والباطن، فإن العالم يتعدد والحق واحد لا يتعدد، ولا يصحّ أن يكون أولاً لنا، فإن رتبته لا تناسب رتبتنا، ولا تقبل رتبتنا أوليته، ولو قبلت رتبتنا أوليته لاستحال علينا اسم الأولية، بل كان ينطلق علينا اسم الثاني لأوليته، ولسنا بثان له تعالىٰ عن ذلك فليس هو بأول لنا فلهذا كان عين أوليته عين آخريته، وهذا المدرك عزيز المنال يتعذر تصوّره على من لا أنسة له بالعلوم الإلهية التي يعطيها التجلّي والنظر الصحيح، وإليه كان يشير أبو سعيد الخراز بقوله: عرفت الله بجمعه بين الضدين ثم يتلو ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [سورة الحديد: الآية ٣] فقد أبنت لك عن سرّ الأزل وأنه نعت سلبي. وأما سرّ الأبد فهو نفي الآخرية، فكما أن الممكن انتفت عنه الآخرية شرعاً من حيث الجملة إذ الجنة والإقامة فيها إلى غير نهاية، كذلك الأولية بالنسبة إلى ترتيب الموجودات الزمانية معقولة موجودة، فالعالم بذلك الاعتبار الإلهيّ لا يقال فيه أول ولا آخر، وبالاعتبار الثاني هو أول وآخر بنسبتين مختلفتين بخلاف ذلك في إطلاقها على الحق عند العلماء بالله.

وأما سرّ الحال فهو الديمومة وما لها أول ولا آخر، وهو عين وجود كل موجود، فقد عرفتك ببعض ما يعلمه رجال الرموز من الأسرار وسكت عن كثير فإن بابه واسع، وعلم الرؤيا والبرزخ والنسب الإلهية من هذا القبيل والكلام فيها يطول. وأما علومهم في الحروف والأسماء فاعلم أن الحروف لها خواص وهي على ثلاثة أضرب: منها حروف رقمية ولفظية ومستحضرة، وأعني بالمستحضرة الحروف التي يستحضرها الإنسان في وهمه وخياله ويصوّرها، فإما أن يستحضر الحروف الرقمية أو الحروف اللفظية، وما ثم للحروف رتبة أخرى فيفعل بالاستحضار كما يفعل بالكتاب أو التلفظ، فأما حروف التلفظ فلا تكون إلاً أسماء فذلك خواص الأسماء. وأما المرقومة فقد لا تكون أسماء، واختلف أصحاب هذا العلم في الحرف الواحد هل يفعل أم لا؟ فرأيت منهم من منع من ذلك جماعة، ولا شك أني لما خضت معهم في مثل هذا أوقفتهم على غلطهم في ذلك الذي ذهبوا إليه وإصابتهم وما نقصهم من العبارة عن ذلك، ومنهم من أثبت الفعل للحرف الواحد وهؤلاء أيضاً مثل الذين منعوا مخطئون ومصيبون، ورأيت منهم جماعة وأعلمتهم بموضع الغلط والإصابة فاعترفوا كما اعترف الآخرون، وقلت للطائفتين: جربوا ما عرفتم من ذلك على ما بيناه لكم، فجرّبوه

فوجدوا الأمر كما ذكرناه ففرحوا بذلك، ولولا أني آليت عقداً أن لا يظهر مني أثر عن حرف لأريتهم من ذلك عجباً.

فاعلم أن الحرف الواحد سواء كان مرقوماً أو متلفظاً به إذا عرى القاصد للعمل به عن استحضاره في الرقم أو في اللفظ خيالاً لم يعمل وإذا كان معه الاستحضار عمل، فإنه مركب من استحضار ونطق أو رقم، وغاب عن الطائفتين صورة الاستحضار مع الحرف الواحد، فمن اتفق له الاستحضار مع الحرف الواحد ورأى العمل غفل عن الاستحضار ونسب العمل للحرف الواحد، ومن اتفق له التلفظ أو الرقم بالحرف الواحد دون استحضار فلم يعمل الحرف شيئاً قال بمنع ذلك، وما واحد منهم تفطن لمعنى الاستحضار، وهذه حروف الأمثال المركبة كالواوين وغيرهما، فلما نبهناهم على مثل هذا جربوا ذلك فوجدوه صحيحاً وهو علم ممقوت عقلاً وشرعاً. فأما الحروف اللفظية فإن لها مراتب في العمل وبعض الحروف أعم عملاً من بعض وأكثر، فالواو أعم الحروف عملاً لأن فيها قوّة الحروف كلها، والهاء أقل الحروف عملاً، وما بين هذين الحرفين من الحروف تعمل بحسب مراتبها على ما قرّرناه في كتاب المبادي والغايات فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات، وهذا العلم يسمّى علم الأولياء وبه تظهر أعيان الكائنات، ألا ترى تنبيه الحق على ذلك بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فظهر الكون عن الحروف، ومن هنا جعله الترمذيّ علم الأولياء، ومن هنا منع من منع أن يعمل الحرف الواحد فإنه رأي مع الاقتدار الإلهيّ لم يأت في الإيجاد حرف واحد وإنما أتى بثلاثة أحرف: حرف غيبي وحرفين ظاهرين إذا كان الكائن واحداً فإن زاد على واحد ظهرت ثلاثة أحرف، فهذه علوم هؤلاء الرجال المذكورين في هذا الباب، وعمل أكثر رجال هذا العلم لذلك جدولاً وأخطؤوا فيه وما صحّ، فلا أدري أبالقصد عملوا ذلك حتى يتركوا الناس في عماية من هذا العلم؟ أم جهلوا ذلك؟ وجرى فيه المتأخر على سنن المتقدّم، وبه قال تلميذ جعفر الصادق وغيره، وهذا هو الجدول في طبائع الحروف:

حار	بارد	يابس	رطب
ا	ب	ج	د
هـ	و	ز	ح
ط	ي	ك	ل
م	ن	س	ع
ف	ص	ق	ر
ش	ت	ث	خ
ذ	ض	ظ	غ

فكل حرف منها وقع في جدول الحرارة فهو حار وما وقع منها في جدول البرودة فهو بارد، وكذلك اليبوسة والرطوبة، ولم نر هذا الترتيب يصيب في كل عمل بل يعمل بالاتفاق كأعداد الوفق. واعلم أنّ هذه الحروف لم تكن لها هذه الخاصية من كونها حروفاً وإنما كان لها من كونها أشكالاً، فلما كانت ذوات أشكال كانت الخاصية للشكل ولهذا يختلف عملها باختلاف الأقلام لأن الأشكال تختلف، فأمّا الرقمية فأشكالها محسوسة بالبصر، فإذا وجدت أعيانها وصحبتها أرواحها وحياتها الذاتية كانت الخاصية لذلك الحرف لشكله وتركيبه مع روحه، وكذلك إن كان الشكل مركباً من حرفين أو ثلاثة أو أكثر كان للشكل روح آخر ليس الروح الذي كان للحرف على انفراده فإن ذلك الروح يذهب وتبقى حياة الحرف معه، فإن الشكل لا يدبره سوى روح واحد، وينتقل روح ذلك الحرف الواحد إلى البرزخ مع الأرواح، فإن موت

الشكل زواله بالمحو، وهذا الشكل الآخر المركب من حرفين أو ثلاثة أو ما كان ليس هو عين الحرف الأوّل الذي لم يكن مركباً أنّ عمراً ليس هو عين زيد وإن كان مثله.

وأمّا الحروف اللفظية فإنها تتشكل في الهواء ولهذا تتصل بالسمع على صورة ما نطق بها المتكلم، فإذا تشكلت في الهواء قامت بها أرواحها، وهذه الحروف لا يزال الهواء يمسك عليها شكلها، وإن انقضى عملها فإن عملها إنما يكون في أوّل ما تتشكل في الهواء، ثم بعد ذلك تلتحق بسائر الأمم، فيكون شغلها تسبيح ربها وتصعد علواً ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠] وهو عين شكل الكلمة من حيث ما هي شكل مسبح لله تعالىٰ، ولو كانت كلمة كفر فإن ذلك يعود وباله على المتكلم بها لا عليها، ولهذا قال الشارع: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما لا يظنّ أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النار سبعين خريفاً، فجعل العقوبة للمتلفظ بها بسببها وما تعرّض إليها، فهذا كلام الله سبحانه يعظم ويمجد ويقدّس المكتوب في المصاحف ويقرأ على جهة القربة إلى الله، وفيه جميع ما قالت اليهود والنصارى في حق الله من الكفر والسب وهي كلمات كفر عاد وبالها على قائلها، وبقيت الكلمات على بابها تتولى يوم القيامة عذاب أصحابها أو نعيمهم، وهذه الحروف الهوائية اللفظية لا يدركها موت بعد وجودها بخلاف الحروف الرقمية، وذلك لأن شكل الحرف الرقمي، والكلمة الرقمية تقبل التغيير والزوال لأنه في محل يقبل ذلك، والأشكال اللفظية في محل لا يقبل ذلك ولهذا كان لها البقاء، فالجوّ كله مملوء من كلام العالم يراه صاحب الكشف صوراً قائمة.

وأمّا الحروف المستحضرة فإنها باقية إذ كان وجود أشكالها في البرزخ لا في الحسّ وفعلها أقوى من فعل سائر الحروف، ولكن إذا استحكم سلطان استحضارها واتحد المستحضر لها ولم يبق فيه متسع لغيرها ويعلم ما هي خاصيتها حتى يستحضرها من أجل ذلك فيرى أثرها فهذا شبيه الفعل بالهمة وإن لم يعلم ما تعطيه فإنه يقع الفعل في الوجود ولا علم له به، وكذلك سائر أشكال الحروف في كل مرتبة، وهذا الفعل بالحرف المستحضر يعبر عنه بعض من لا علم له بالهمة وبالصدق وليس كذلك، وإن كانت الهمة روحاً للحرف المستحضر لا عين الشكل المستحضر، وهذه الحضرة تعم الحروف كلها لفظيها ورقميها، فإذا علمت خواص الأشكال وقع الفعل بها علماً لكاتبها أو المتلفظ بها، وإن لم يعين ما هي مرتبطة به من الانفعالات لا يعلم ذلك، وقد رأينا من قرأ آية من القرآن وما عنده خبر فرأى أثراً غريباً حدث وكان ذا فطنة فرجع في تلاوته من قريب لينظر ذلك الأثر بأية آية يختص فجعل يقرأ وينظر فمرّ بالآية التي لها ذلك الأثر فرأى الفعل فتعدّاها فلم ير ذلك الأثر فعاود ذلك مراراً حتى تحققه فاتخذها لذلك الانفعال ورجع كلما أراد أن يرى ذلك الانفعال تلا تلك الآية فظهر له ذلك الأثر وهو علم شريف في نفسه إلاّ أن السلامة منه عزيزة، فالأولى ترك طلبه فإنه من العلم الذي اختصّ الله به أولياءه على الجملة وإن كان عند بعض الناس منه قليل ولكن من غير الطريق الذي يناله الصالحون، ولهذا يشقى به من هو عنده ولا يسعد، فالله يجعلنا من العلماء بالله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون

في معرفة أقطاب «صل فقد نويت وصالك» وهو من منزل العالم النوراني

[نظم: الوافر]

ولولا النورُ ما اتَّصلت عيونٌ ... بعين المبصرات ولا رأتْها
ولولا الحقُّ ما اتصلت عقولٌ ... بأعيانِ الأمورِ فأدركَتْها
إذا سُئلتْ عقولٌ عن ذواتٍ ... تُعدُّ مغاياراتٍ أنكرتْهَا
وقالت ما علمنا غيرَ ذاتٍ ... تمدُّ ذواتِ خلق أظهرتْهَا
هي المعنى ونحن لها حروفٌ ... فمهما عيَّنتْ أمراً عَنَتْهَا

اعلم أيها الوليّ الحميم تولاك الله بعنايته أن الله تعالىٰ يقول في كتابه العزيز: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٤] فقدم محبته إياهم على محبتهم إياه. وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فقدم إجابته لنا إذا دعوناه على إجابتنا له إذا دعانا، وجعل الاستجابة من العبيد لأنها أبلغ من الإجابة، فإنه لا مانع له من الإجابة سبحانه فلا فائدة للتأكيد، وللإنسان موانع من الإجابة لما دعاه الله إليه وهي: الهوى، والنفس، والشيطان، والدنيا، فلذلك أمر بالاستجابة، فإنّ الاستفعال أشد في المبالغة من الإفعال، وأين الاستخراج من الإخراج؟ ولهذا يطلب الكون من الله العون في أفعاله، ويستحيل على الله أن يستعين بمخلوق، قال تعالىٰ تعليماً لنا أن نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] من هذا الباب، فلهذا قال في هذا الباب: صل فقد نويت وصالك، فقد قدم الإرادة منه لذلك فقال: صل، فإذا تعملت في الوصلة فذلك عين وصلته بك فلذلك جعلها نية لا عملاً، قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: مَنْ تَقَرَّب إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً»** وهذا قرب مخصوص يرجع إلى ما تتقرّب إليه سبحانه به من الأعمال والأحوال، فإن القرب العامّ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فضاعف القرب بالذراع، فإنّ الذراع ضعف للشبرأي قوله: صل هو قرب ثم تقريب إليه شبراً فتبدّى لك أنك ما تقرّبت إليه إلاّ به لأنه لولا ما دعاك وبيّن لك طريق القربة وأخذ بناصيتك فيها ما تمكن لك أن تعرف الطريق التي تقرّب منه ما هي، ولو عرفتها لم يكن لك حول ولا قوّة إلاّ به.

ولما كان القرب بالسلوك والسفر إليه لذلك كان من صفته النور لنهتدي به في الطريق كما قال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٧] وهو السلوك الظاهر بالأعمال البدنية والبحر وهو السلوك الباطن المعنوي بالأعمال النفسية، فأصحاب هذا الباب معارفهم مكتسبة لا موهوبة، وأكلهم من تحت أقدامهم أي من كسبهم لها واجتهادهم في تحصيلها، ولولا ما أرادهم الحق لذلك ما وفقهم ولا استعملهم حين طرد غيرهم بالمعنى ودعاهم بالأمر، فحرمهم الوصول بحرمانه إياهم استعمال الأسباب التي جعلها طريقاً إلى

الوصول من حضرة القرب ولذلك بشرهم فقال: صل فقد نويت وصالك، فسبقت لهم العناية فسلكوا وهم الذين أمرهم الله بلباس النعلين في الصلاة إذ كان القاعد لا يلبس النعلين وإنما وضعت للماشي فيها، فدلّ أن المصلي يمشي في صلاته ومناجاة ربّه في الآيات التي يناجيه فيها منزلاً منزلاً كل آية منزل وحال فقال لهم: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٣١] قال الصاحب: لما نزلت هذه الآية أمرنا فيها بالصلاة في النعلين، فكان ذلك تنبيهاً من الله تعالىٰ للمصلي أنه يمشي على منازل ما يتلوه في صلاته من سور القرآن إذ كانت السور هي المنازل لغة، قال النابغة: [الطويل]

ألـم تـرَ أن الله أعـطـاك سـورةً تـرى كـل مَـلْـكٍ دونـهـا يـتـذَبْـذَبُ

أراد منزلة، وقيل لموسىٰ عليه السلام: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [سورة طه: الآية ١٢] أي قد وصلت المنزل، فإنه كلّمه الله بغير واسطة بكلامه سبحانه بلا ترجمان، ولذلك أكّده في التعريف لنا بالصدر فقال تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤] ومن وصل إلى المنزل خلع نعليه فبانت رتبة المصلي بالنعلين، وما معنى المناجاة في الصلاة وأنها ليست بمعنى الكلام الذي حصل لموسىٰ عليه السلام، فإنه قال في المصلي يناجي والمناجاة فعل فاعلين فلا بدّ من لباس النعلين، إذ كان المصلي متردّداً بين حقيقتين، والتردّد بين أمرين يعطي المشي بينهما بالمعنى دلّ عليه باللفظ لباس النعلين، ودلّ عليه قول الله تعالىٰ بترجمة النبيّ ﷺ عنه: «**قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**» ثم قال: «**يقول العبد: الحمد لله رب العالمين**»، فوصفه أن العبد مع نفسه في قوله الحمد لله رب العالمين يسمع خالقه ومناجيه، ثم يرحل العبد من منزل قوله إلى منزل سمعه ليسمع ما يجيبه الحق تعالىٰ على قوله وهذا هو السفر فلهذا لبس نعليه ليسلك بهما الطريق الذي بين هذين المنزلين، فإذا رحل إلى منزل سمعه سمع الحق يقول له: «حمدني عبدي»، فيرحل من منزل سمعه إلى منزل قوله فيقول: الرحمن الرحيم، فإذا فرغ رحل إلى منزل سمعه فإذا نزل سمع الحق تعالىٰ يقول له: «**أثنى عليّ عبدي**» فلا يزال متردّداً في مناجاته قولاً، ثم له رحلة أخرى من حال قيامه في الصلاة إلى حال ركوعه فيرحل من صفة القيومية إلى صفة العظمة فيقول: سبحان ربي العظيم وبحمده، ثم يرفع وهو رحلته من مقام التعظيم إلى مقام النيابة فيقول: سمع الله لمن حمده، قال النبيّ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ عَلَىٰ لِسَانِ عَبْدِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ**» فلهذا جعلنا الرفع من الركوع نيابة عن الحق ورجوعاً إلى القيومية، فإذا سجد اندرجت العظمة في الرفعة الإلهية فيقول الساجد: سبحان ربي الأعلى وبحمده، فإنّ السجود يناقض العلوّ، فإذا خلص العلوّ لله ثم رفع رأسه من السجود واستوى جالساً وهوقوله: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] فيقول: رب اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني واجبرني وعافني واعف عني، فهذه كلها منازل ومناهل في الصلاة فعلاً، فهو مسافر من حال إلى حال، فمن كان حاله السفر دائماً كيف لا يقال له: البس نعليك أي استعن في سيرك بالكتاب والسنّة وهي زينة كل مسجد، فإن أحوال الصلاة وما يطرأ فيها من

كلام الله وما يتعرض في ذلك من الشبه في غوامض الآيات المتلوّة وكون الإنسان في الصلاة يجعل الله في قبلته فيجده، فهذه كلها بمنزلة الشوك والوعر الذي يكون بالطريق ولا سيما طريق التكليف، فأمر بلباس النعلين ليتقي بهما ما ذكرناه من الأذى لقدمي السالك اللتين هما عبارة عن ظاهره وباطنه، فلهذا جعلناهما الكتاب والسنّة.

وأمّا نعلا موسىٰ عليه السلام فليستا هذه فإنه قال له ربّه: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [سورة طه: الآية ١٢] فروينا أنهما كانتا من جلد حمار ميت فجمعت ثلاثة أشياء: الشيء الواحد الجلد وهو ظاهر الأمر أي لا تقف مع الظاهر في كل الأحوال. والثاني: البلادة فإنها منسوبة إلى الحمار. والثالث: كونه ميتاً غير مذكى والموت الجهل، وإذا كنت ميتاً لا تعقل ما تقول ولا ما يقال لك، والمناجي لا بدّ أن يكون بصفة من يعقل ما يقول ويقال له، فيكون حيّ القلب فطناً بمواقع الكلام، غوّاصاً على المعاني التي يقصدها من يناجيه بها، فإذا فرغ من صلاته سلم على من حضر سلام القادم من عند ربّه إلى قومه بما أتحفه به، فقد نبهتك على سرّ لباس النعلين في الصلاة في ظاهر الأمر، وما المراد بهما عند أهل طريق الله تعالىٰ من العارفين.

قال ﷺ: «**الصَّلاةُ نُورٌ وَالنورُ يُهْتَدَىٰ بِهِ**» واسم الصلاة مأخوذة من المصلي وهو المتأخر الذي يلي السابق في الحلبة، ولهذا ترجم هذا الباب بالوصلة وجعله من عالم النور، ولأهل هذا المشهد نور خلع النعلين، ونور لباس النعلين، فهم المحمديون الموسويون المخاطبون من شجر الخلاف بلسان النور المشبه بالمصباح وهو نور ظاهر يمدّه نور باطن في زيت من شجرة زيتونة مباركة في خط الاعتدال، منزّهة عن تأثير الجهات، كما كان الكلام لموسىٰ عليه السلام من شجرة فهو نور على نور، أي نور من نور، فأبدل حرف من بعلى لما يفهم به من قرينة الحال وقد تكون على على بابها، فإن نور السراج الظاهر يعلو حسّاً على نور الزيت الباطن وهو الممد للمصباح، فلولا رطوبة الدهن تمدّ المصباح لم يكن للمصباح ذلك الدوام، وكذلك إمداد التقوى للعلم العرفانيّ الحاصل منها في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] لا يقطع ذلك العلم الإلهيّ، فنور الزيت باطن في الزيت محمول فيه يسري منه معنى لطيف في رقيقة من رقائق الغيب لبقاء نور المصباح، ولأقطاب هذا المقام أسرار منها: سرّ الإمداد، وسرّ النكاح، وسرّ الجوارح، وسرّ الغيرة، وسرّ العنين، وهو الذي لا يقوم بالنكاح، وسرّ دائرة الزمهرير، وسرّ وجود الحق في السراب، وسرّ الحجب الإلهية، وسرّ نطق الطير والحيوان، وسرّ البلوغ، وسرّ الصدّيقين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون

في معرفة أقطاب ألم تر كيف

[نظم: البسيط]

العِلمُ بالكيف مجهولٌ ومعلومُ ... لكنه بوجود الحق مَوْسُومُ

فظاهرُ الكون تكييفٌ وباطنُه … علمٌ يشار إليه فهو مكتومُ
من أعجَب الأمر أن الجهلَ من صفتي … بما لنا فهو في التحقيق مَعْلومُ
وكيف أُدركُ من بالعجز أدركُهُ … وكيف أَجْهَلُه والجهلُ مَعْدومُ
قد حِرْتُ فيه وفي أمري ولست أنا … سواه فالخلق ظَلاَّمٌ ومظلومُ
إن قُلْتُ إني يقول الآن منه أنا … أو قلتُ إنك قال الآن مفهومُ
فالحمدُ لله لا أبغي به بدلاً … وإنما الرزقُ بالتقدير مَقْسُومُ

اعلم أن أمهات المطالب أربعة وهي: هل: سؤال عن الوجود، وما هو: سؤال عن الحقيقة التي يعبر عنها بالماهية، وكيف: وهو سؤال عن الحال، ولم: وهو سؤال عن العلة والسبب. واختلف الناس فيما يصحّ منها أن يسأل بها عن الحق واتفقوا على كلمة (هل) فإنه يتصوّر أن يسأل بها عن الحق، واختلفوا فيما بقي فمنهم من منع ومنهم من أجاز، فالذي منع وهم الفلاسفة وجماعة من الطائفة منعوا ذلك عقلاً، ومنهم من منع ذلك شرعاً. فأما صورة منعهم عقلاً أنهم قالوا في مطلب ما أنه سؤال عن الماهية فهو سؤال عن الحد، والحق سبحانه لا حدّ له، إذ كان الحد مركباً من جنس وفصل، وهذا ممنوع في حق الحق، لأن ذاته غير مركبة من أمر يقع فيه الاشتراك فيكون به في الجنس، وأمر يقع به الامتياز وما ثم إلاَّ الله والخلق، ولا مناسبة بين الله والعالم، ولا الصانع والمصنوع، فلا مشاركة فلا جنس فلا فصل، والذي أجاز ذلك عقلاً ومنعه شرعاً قال: لا أقول: إن الحد مركب من جنس وفصل، بل أقول: إن السؤال بما يطلب به العلم بحقيقة المسؤول عنه، ولا بدّ لكل معلوم أو مذكور من حقيقة يكون في نفسه عليها، سواء كان على حقيقة يقع له فيها الاشتراك، أو يكون على حقيقة لا يقع له فيها الاشتراك، فالسؤال بما يتصوّر، ولكن ما ورد به الشرع فمنعنا من السؤال به عن الحق لقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

وأما منعهم الكيفية وهو السؤال بكيف فانقسموا أيضاً قسمين: فمن قائل: بأنه سبحانه ماله كيفية لأن الحال أمر معقول زائد على كونه ذاتاً، وإذا قام بذاته أمر وجوديّ زائد على ذاته أدّى إلى وجود واجبي الوجود لذاتهما أزلاً، وقد قام الدليل على إحالة ذلك وأنه لا واجب إلاَّ هو لذاته فاستحالت الكيفية عقلاً. ومن قائل: إن له كيفية ولكن لا تعلم فهي ممنوعة شرعاً لا عقلاً لأنها خارجة عن الكيفيات المعقولة عندنا فلا تعلم وقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ يعني في كل ما ينسب إليه مما نسبه إلى نفسه، يقول: هو على ما تنسبه إلى الحق، وإن وقع الاشتراك في اللفظ فالمعنى مختلف. وأما السؤال بلم فممنوع أيضاً لأن أفعال الله تعالىٰ لا تعلل لأن العلة موجبة للفعل، فيكون الحق داخلاً تحت موجب أوجب عليه هذا الفعل زائد على ذاته وأبطل غيره إطلاق لم على فعله شرعاً بأن قال: لا ينسب إليه ما لم ينسب إلى نفسه، فهذا معنى قولي شرعاً لا أنه ورد النهي من الله عن كل ما ذكرنا منعه شرعاً، وهذا كله كلام مدخول لا يقع التخليص منه بالصحة والفساد إلاَّ بعد طول عظيم.

هذا قد ذكرنا طريقة من منع. وأما من أجاز السؤال عنه بهذه المطالب من العلماء فهم

أهل الشرع منهم، وسبب إجازتهم لذلك أن قالوا: ما حجر الشرع علينا حجرناه، وما أوجب علينا أن نخوض فيه خضنا فيه طاعة أيضاً، وما لم يرد فيه تحجير ولا وجوب فهو عافية، إن شئنا تكلمنا فيه وإن شئنا سكتنا عنه، وهو سبحانه ما نهى فرعون على لسان موسىٰ عليه السلام عن سؤاله بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٢٣] بل أجاب بما يليق به الجواب عن ذاك الجناب العالي، وإن كان وقع الجواب غير مطابق للسؤال فذلك راجع لاصطلاح من اصطلح، على أنه لا يسأل بذلك إلاَّ عن الماهية المركبة، واصطلح على أن الجواب بالأثر لا يكون جواباً لمن سأل بما، وهذا الاصطلاح لا يلزم الخصم فلم يمنع إطلاق هذا السؤال بهذه الصيغة عليه إذ كانت الألفاظ لا تطلب لأنفسها وإنما تطلب لما تدل عليه من المعاني التي وضعت لها فإنها بحكم الوضع، وما كل طائفة وضعتها بإزاء ما وضعتها الأخرى، فيكون الخلاف في عبارة لا في حقيقة، ولا يعتبر الخلاف إلاَّ في المعاني.

وأما إجازتهم الكيفية فمثل إجازتهم السؤال بما ويحتجون في ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقوله: إن الله عيناً وأعيناً ويداً، وأن بيده الميزان يخفض ويرفع وهذه كلها كيفيات وإن كانت مجهولة لعدم الشبه في ذلك. وأمّا إجازتهم السؤال بلم وهو سؤال عن العلة فلقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] فهذه لام العلة والسبب، فإن ذلك في جواب من سأل: لم خلق الله الجن والإنس؟ فقال الله لهذا السائل: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي لعبادتي، فمن ادّعى التحجير في إطلاق هذه العبارات فعليه بالدليل، فيقال للجميع من المتشرّعين المجوّزين والمانعين كلكم قال؛ وما أصاب وما من شيء قلتموه من منع وجواز إلاَّ وعليكم فيه دخل، والأولى التوقّف عن الحكم بالمنع أو بالجواز هذا مع المتشرّعين، وأما غير المتشرعين من الحكماء فالخوض معهم في ذلك لا يجوز إلاَّ إن أباح الشرع ذلك أو أوجبه، وأما إن لم يرد في الخوض فيه معهم نطق من الشارع فلا سبيل إلى الخوض فيه معهم فعلاً، ويتوقف في الحكم في ذلك، فلا يحكم على من خاض فيه أنه مصيب ولا مخطىء، وكذلك فيمن ترك الخوض، إذ لا حكم إلاَّ للشرع فيما يجوز أن يتلفظ به أو لا يتلفظ به يكون ذلك طاعة أو غير طاعة، فهذا يا وليّ قد فصلنا لك مآخذ الناس في هذه المطالب.

وأما العلم النافع في ذلك أن نقول: كما أنه سبحانه لا يشبه شيئاً كذلك لا تشبهه الأشياء، وقد قام الدليل العقليّ والشرعيّ على نفي التشبيه وإثبات التنزيه من طريق المعنى وما بقي الأمر إلاَّ في إطلاق اللفظ عليه سبحانه الذي أباح لنا إطلاقه عليه في القرآن أو على لسان رسوله، فأما إطلاقه عليه فلا يخلو إما أن يكون العبد مأموراً بذلك الإطلاق فيكون إطلاقه طاعة فرضاً ويكون المتلفظ به مأجوراً مطيعاً مثل قوله في تكبيرة الإحرام: الله أكبر، وهي لفظة وزنها يقتضي المفاضلة وهو سبحانه لا يفاضل. وإما أن يكون مخيراً فيكون بحسب ما يقصده المتلفظ وبحسب حكم الله فيه. وإذا أطلقناه فلا يخلو الإنسان إما أن يطلقه ويصحب نفسه في ذاك الإطلاق المعنى المفهوم منه في الوضع بذلك اللسان، أو لا يطلقه إلاَّ تعبداً

شرعياً على مراد الله فيه من غير أن يتصوّر المعنى الذي وضع له في ذلك اللسان كالفارسيّ الذي لا يعلم اللسان العربي وهو يتلو القرآن ولا يعقل معناه وله أجر التلاوة، كذلك العربيّ فيما تشابه من القرآن والسنّة يتلوه أو يذكر به ربّه تعبّداً شرعياً على مراد الله فيه من غير ميل إلى جانب بعينه مخصص، فإن التنزيه ونفي التشبيه يطلبه إن وقف بوهمه عند التلاوة لهذه الآيات، فالأسلم والأولى في حق العبد أن يردّ علم ذلك إلى الله في إرادته إطلاق تلك الألفاظ عليه إلاّ إن أطلعه الله على ذلك، وما المراد بتلك الألفاظ من نبيّ أو وليّ محدث ملهم على بينة من ربّه فيما يلهم فيه أو يحدث فذلك مباح له، بل واجب عليه أن يعتقد المفهوم منه الذي أخبر به في إلهامه أو في حديثه، وليعلم أن الآيات المتشابهات إنما نزلت ابتلاءً من الله لعباده، ثم بالغ سبحانه في نصيحة عباده في ذلك ونهاهم أن يتبعوا المتشابه بالحكم أي لا يحكموا عليه بشيء فإن تأويله لا يعلمه إلاّ الله. وأما الراسخون في العلم إن علموه فبإعلام الله لا بفكرهم واجتهادهم، فإن الأمر أعظم أن تستقل العقول بإدراكه من غير إخبار إلهيّ فالتسليم أولى والحمد لله رب العالمين.

وأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [سورة الفيل: الآية ١] وأطلق النظر على الكيفيات فإن المراد بذلك بالضرورة المكيفات لا التكييف، فإن التكييف راجع إلى حالة معقولة لها نسبة إلى المكيف وهو الله تعالىٰ، وما أحد شاهد تعلق القدرة الإلهية بالأشياء عند إيجادها، قال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: الآية ٥١] فالكيفيات المذكورة التي أمرنا بالنظر إليها لا فيها إنما ذلك لنتخذها عبرة ودلالة على أن لها من كيفها أي صيّرها ذات كيفيات وهي الهيئات التي تكون عليها المخلوقات المكيفات فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. . . . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [سورة الغاشية: الآيتان ١٧و١٩] وغير ذلك، ولا يصحّ أن تنظر إلاّ حتى تكون موجودة فننظر إليها وكيف اختلفت هيئاتها، ولو أراد بالكيف حالة الإيجاد لم يقل انظر إليها فإنها ليست بموجودة، فعلمنا أن الكيف المطلوب منّا في رؤية الأشياء ما هو ما يتوهم من لا علم له بذلك، ألا تراه سبحانه لما أراد النظر الذي هو الفكر قرنه بحرف في ولم يصحبه لفظ كيف فقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٥] المعنى: أن يفكروا في ذلك فيعلموا أنها لم تقم بأنفسها وإنما أقامها غيرها، وهذا النظر لا يلزم منه وجود الأعيان مثل النظر الذي تقدم، وإنما الإنسان كلّف أن ينظر بفكره في ذلك لا بعينه، ومن الملكوت ما هو غيب وما هو شهادة، فما أمرنا قط بحرف في إلا في المخلوقات لا في الله لنستدل بذلك عليه أنه لا يشبهها، إذ لو أشبهها لجاز عليه ما يجوز عليها من حيث ما أشبهها وكان يؤدّي ذلك إلى أحد محظورين: إما أن يشبهها من جميع الوجوه وهو محال لما ذكرناه، أو يشبهها من بعض الوجوه ولا يشبهها من بعض الوجوه، فتكون ذاته مركبة من أمرين، والتركيب في ذات الحق محال فالتشبيه محال، والذي يليق بهذا الباب من الكلام يتعذّر إيراده مجموعاً في باب واحد لما يسبق إلى الأوهام الضعيفة من ذلك لما فيه من الغموض ولكن جعلناه مبدّداً في أبواب هذا الكتاب، فاجعل بالك منه في أبواب الكتاب تعثر على مجموع هذا الباب ولا سيّما

حيثما وقع لك مسألة تجلّ إلهيّ، فهناك قف وانظر تجد ما ذكرته لك مما يليق بهذا الباب والقرآن مشحون بالكيفية، فإن الكيفيات أحوال والأحوال منها ذاتية للمكيف ومنها غير ذاتية، والذاتية حكمها حكم المكيف سواء كان المكيف يستدعي مكيفاً في كيفيته أو كان لا يستدعي مكيفاً لتكييفه بل كيفيته عين ذاته وذاته لا تستدعي غيرها لأنها لنفسها هي فكيفيته كذلك لأنها عينه لا غيره ولا زائد عليه فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون
في معرفة سرّ سلمان الذي ألحقه بأهل البيت
والأقطاب الذين ورثه منهم ومعرفة أسرارهم

[نظم: البسيط]

العبدُ مرتبطٌ بالرب ليس له ... عنه انفصالٌ يرى فعلاً وتقديرَا
والابنُ أُنزِلَ منه في العُلى درجاً ... قد حرَّر الشرعُ فيه العلمَ تحريرا
فالابنُ ينظر في أموال والده ... إذ كان وارثُه شحاً وتقتيرا
والابنُ يطمع في تحصيل رُتْبته ... وإن يراه مع الأموات مقبورا
والعبدُ قيمتُه من مال سيِّده ... إليه يرجع مختاراً ومجبورا
والعبد مقداره في جاه سيده ... فلا يزال بستر العزّ مستورا
الذلُّ يصحبه في نفسه أبداً ... فلا يزال مع الأنفاس مقهورا
والابنُ في نفسه من أجل والده ... عزٌّ فيطلب توقيراً وتعزيرا

اعلم أيّدك الله أنا روينا من حديث جعفر بن محمد الصادق عن أبيه محمد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَوْلَى القَوْمِ مِنهُمْ**» وخرّج الترمذيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَهْلُ القُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ**» وقال تعالىٰ في حق المختصين من عباده: ﴿**إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ**﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] فكل عبد إلهيّ توجه لأحد عليه حق من المخلوقين فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق فإن ذلك المخلوق يطلبه بحقّه وله عليه سلطان به، فلا يكون عبداً محضاً خالصاً لله، وهذا هو الذي رجح عند المنقطعين إلى الله انقطاعهم عن الخلق ولزومهم السياحات والبراري والسواحل والفرار من الناس والخروج عن ملك الحيوان فإنهم يريدون الحرية من جميع الأكوان، ولقيت منهم جماعة كبيرة في أيام سياحتي، ومن الزمان الذي حصل لي فيه هذا المقام ما ملكت حيواناً أصلاً بل ولا الثوب الذي ألبسه فإني لا ألبسه إلاّ عارية لشخص معين أذن لي في التصرّف فيه، والزمان الذي أتملك الشيء فيه أخرج عنه في ذلك الوقت إما بالهبة أو بالعتق إن كان ممن يعتق، وهذا حصل لي لما أردت التحقّق بعبودية الاختصاص لله قيل لي: لا يصحّ لك ذلك حتى لا يقوم لأحد عليك حجة، قلت: ولا لله إن شاء الله، قيل لي: وكيف يصحّ لك أن لا يقوم لله عليك حجة؟ قلت: إنما تقام الحجج على

المنكرين لا على المعترفين، وعلى أهل الدعاوى وأصحاب الحظوظ لا على من قال ما لي حق ولا حظ، ولما كان رسول الله ﷺ عبداً محضاً قد طهّره الله وأهل بيته تطهيراً وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم فإن الرجس هو القذر عند العرب هكذا حكى الفرّاء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٣] فلا يضاف إليهم إلاّ مطهر ولا بدّ فإن المضاف إليهم هو الذي يشبههم، فما يضيفون لأنفسهم إلاّ من له حكم الطهارة والتقديس، فهذه شهادة من النبيّ ﷺ لسلمان الفارسيّ بالطهارة والحفظ الإلهيّ والعصمة حيث قال فيه رسول الله ﷺ: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» وشهد الله لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم.

وإذا كان لا ينضاف إليهم إلاّ مطهر مقدس وحصلت له العناية الإلهيّة بمجرد الإضافة فما ظنّك بأهل البيت في نفوسهم فهم المطهرون بل هم عين الطهارة، فهذه الآية تدل على أن الله قد شرك أهل البيت مع رسول الله ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] وأي وسخ وقذر أقذر من الذنوب وأوسخ؟ فطهّر الله سبحانه نبيه ﷺ بالمغفرة فما هو ذنب بالنسبة إلينا لو وقع منه ﷺ لكان ذنباً في الصورة لا في المعنى، لأن الذم لا يلحق به على ذلك من الله ولا منا شرعاً، فلو كان حكمه حكم الذنب لصحبه ما يصحب الذنب من المذمّة ولم يصدق قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران، فهم المطهرون اختصاصاً من الله وعناية بهم لشرف محمد ﷺ وعناية الله به، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلاّ في الدار الآخرة فإنهم يحشرون مغفوراً لهم. وأما في الدنيا فمن أتى منهم حدّاً أقيم عليه كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره وقد زنى أو سرق أو شرب أقيم عليه الحدّ مع تحقق المغفرة كماعز وأمثاله ولا يجوز ذمّه، وينبغي لكل مسلم مؤمن بالله بما أنزله أن يصدق الله تعالىٰ في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه، فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمّة بهم ولا ما يشنأ أعراض من قد شهد الله بتطهيره وذهاب الرجس عنه لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه بل سابق عناية من الله بهم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: الآية ٢١].

وإذا صحّ الخبر الوارد في سلمان الفارسي فله هذه الدرجة فإنه لو كان سلمان على أمر يشنؤه ظاهر الشرع وتلحق المذمّة بعامله لكان مضافاً إلى أهل البيت من لم يذهب عنه الرجس، فيكون لأهل البيت من ذلك بقدر ما أضيف إليهم وهم المطهرون بالنص فسلمان منهم بلا شك، فأرجو أن يكون عقب علي وسلمان تلحقهم هذه العناية كما لحقت أولاد الحسن والحسين وعقبهم وموالي أهل البيت فإن رحمة الله واسعة يا ولي. وإذا كانت منزلة مخلوق عند الله بهذه المثابة أن يشرف المضاف إليهم بشرفهم وشرفهم ليس لأنفسهم وإنما الله تعالىٰ هو الذي اجتباهم وكساهم حلة الشرف، كيف يا وليّ بمن أضيف إلى من له الحمد

والمجد والشرف لنفسه وذاته فهو المجيد سبحانه وتعالىٰ، فالمضاف إليه من عباده الذين هم عباده وهم الذين لا سلطان لمخلوق عليهم في الآخرة، قال تعالىٰ لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ فأضافهم إليه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] وما تجد في القرآن عباداً مضافين إليه سبحانه إلاّ السعداء خاصة، وجاء اللفظ في غيرهم بالعباد فما ظنّك بالمعصومين المحفوظين منهم القائمين بحدود سيدهم الواقفين عند مراسمه فشرفهم أعلى وأتمّ، وهؤلاء هم أقطاب هذا المقام، ومن هؤلاء الأقطاب ورث سلمان شرف مقام أهل البيت، فكان رضي الله عنه من أعلم الناس بما لله على عباده من الحقوق وما لأنفسهم والخلق عليهم من الحقوق وأقواهم على أدائها، وفيه قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ كَانَ الإيمَانُ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ»** وأشار إلى سلمان الفارسي وفي تخصيص النبيّ ﷺ ذكر الثريا دون غيرها من الكواكب إشارة بديعة لمثبتي الصفات السبعة لأنها سبعة كواكب فافهم، فسرّ سلمان الذي ألحقه بأهل البيت ما أعطاه النبي ﷺ من أداء كتابته وفي هذا فقه عجيب فهو عتيقه ﷺ ومولى القوم منهم والكل موالي الحق ورحمته وسعت كل شيء وكل شيء عبده ومولاه.

وبعد أن تبين لك منزلة أهل البيت عند الله وأنه لا ينبغي لمسلم أن يذمّهم بما يقع منهم أصلاً فإنّ الله طهّرهم، فليعلم الذامّ لهم أنّ ذلك راجع إليه ولو ظلموه فذلك الظلم هو في زعمه ظلم لا في نفس الأمر وإن حكم عليه ظاهر الشرع بأدائه، بل حكم ظلمهم إيانا في نفس الأمر يشبه جري المقادير علينا في ماله ونفسه بغرق أو بحرق وغير ذلك من الأمور المهلكة فيحترق أو يموت له أحد أحبائه أو يصاب في نفسه وهذا كله مما لا يوافق غرضه، ولا يجوز له أن يذمّ قدر الله ولا قضاءه، بل ينبغي له أن يقابل ذلك كله بالتسليم والرضى، وإن نزل عن هذه المرتبة فبالصبر، وإن ارتفع عن تلك المرتبة فبالشكر، فإن في طيّ ذلك نعماً من الله لهذا المصاب وليس وراء ما ذكرناه خير، فإنه ما وراءه ليس إلاّ الضجر والسخط وعدم الرضى وسوء الأدب مع الله، فكذا ينبغي أن يقابل المسلم جميع ما يطرأ عليه من أهل البيت في ماله ونفسه وعرضه وأهله وذويه، فيقابل ذلك كله بالرضى والتسليم والصبر، ولا يلحق المذمّة بهم أصلاً، وإن توجهت عليهم الأحكام المقرّرة شرعاً فذلك لا يقدح في هذا بل يجريه مجرى المقادير، وإنما منعنا تعليق الذمّ بهم إذ ميّزهم الله عنّا بما ليس لنا معهم فيه قدم.

وأما أداء الحقوق المشروعة فهذا رسول الله ﷺ كان يقترض من اليهود، وإذا طالبوه بحقوقهم أدّاها على أحسن ما يمكن، وإن تطاول اليهوديّ عليه بالقول يقول: دعوه إن لصاحب الحق مقالاً. وقال ﷺ في قصة: **«لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ قَطَعْتُ يَدَهَا»** فوضع الأحكام لله يضعها كيف يشاء وعلى أيّ حال يشاء، فهذه حقوق الله، ومع هذا لم يذمّهم الله وإنما كلامنا في حقوقنا وما لنا أن نطالبهم به فنحن مخيّرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا والترك أفضل عموماً فكيف في أهل البيت؟ وليس لنا ذمّ أحد فكيف بأهل البيت؟ فإنا إذا نزلنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم في ذلك أي فيما أصابوه منّا كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى، فإنّ النبي ﷺ ما طلب منّا عن أمر الله ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾ [سورة

الشورى: الآية ٢٣] وفيه سرّ صلة الأرحام، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه بأيّ وجه يلقاه غداً أو يرجو شفاعته وهو ما أسعف نبيه ﷺ فيما طلب منه من المودّة في قرابته فكيف بأهل بيته فهم أخص القرابة؟ ثم إنه جاء بلفظ المودّة وهو الثبوت على المحبة، فإنه من ثبت ودّه في أمر استصحبه في كل حال، وإذا استصحبته المودّة في كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم في حقّه مما له أن يطالبهم به فيتركه ترك محبة وإيثاراً لنفسه لا عليها، قال المحب الصادق: وكل ما يفعل المحبوب محبوب وجاء باسم الحب فكيف حال المودّة، ومن البشرى ورود اسم الودود لله تعالىٰ، ولا معنى لثبوتها إلاّ حصول أثرها بالفعل في الدار الآخرة وفي النار لكل طائفة بما تقتضيه حكمة الله فيهم، وقال الآخر في المعنى: [الوافر]

أحبُّ لحبها السودانَ حتى ... أحبُّ لحبها سُوْدَ الكلابِ

ولنا في هذا المعنى: [الوافر]

أحبُّ لحبِّك الحُبْشَانَ طراً ... وأعشقُ لاسمك البدرَ المنيرا

قيل: كانت الكلاب السود تناوشه وهو يتحبّب إليها، فهذا فعل المحب في حب من لا تسعده محبته عند الله ولا تورثه القربة من الله، فهل هذا إلاّ من صدق الحب وثبوت الودّ في النفس، فلو صحّت محبتك لله ولرسوله أحببت أهل بيت رسول الله ﷺ ورأيت كل ما يصدر منهم في حقّك مما لا يوافق طبعك ولا غرضك أنه جمال تتنعم بوقوعه منهم، فتعلم عند ذلك أن لك عناية عند الله الذي أحببتهم من أجله حيث ذكرك من يحبه وخطرت على باله وهم أهل بيت رسوله ﷺ، فتشكر الله تعالىٰ على هذه النعمة فإنهم ذكروك بألسنة طاهرة بتطهير الله طهارة لم يبلغها علمك، وإذا رأيناك على ضدّ هذه الحالة مع أهل البيت الذي أنت محتاج إليهم ولرسول الله ﷺ حيث هداك الله به فكيف أثق أنا بودّك الذي تزعم به أنك شديد الحب في والرعاية لحقوقي أو لجانبي وأنت في حق أهل نبيك بهذه المثابة من الوقوع فيهم، والله ما ذاك إلاّ من نقص إيمانك ومن مكر الله بك واستدراجه إياك من حيث لا تعلم، وصورة المكر أن تقول وتعتقد أنك في ذلك تذب عن دين الله وشرعه، وتقول في طلب حقّك إنك ما طلبت إلاّ ما أباح الله لك طلبه ويندرج الذمّ في ذلك الطلب المشروع والبغض والمقت وإيثارك نفسك على أهل البيت وأنت لا تشعر بذلك، والدواء الشافي من هذا الداء العضال أن لا ترى لنفسك معهم حقاً وتنزل عن حقك لئلا يندرج في طلبه ما ذكرته لك وما أنت من حكام المسلمين حتى يتعين عليك إقامة حد أو إنصاف مظلوم أو ردّ حق إلى أهله، فإن كنت حاكماً ولا بدّ فاسع في استنزال صاحب الحق عن حقّه إذا كان المحكوم عليه من أهل البيت، فإن أبى حينئذ يتعين عليك إمضاء حكم الشرع فيه، فلو كشف الله لك يا وليّ عن منازلهم عند الله في الآخرة لوددت أن تكون مولى من مواليهم فالله يلهمنا رشد أنفسنا، فانظر ما أشرف منزلة سلمان رضي الله عن جميعهم.

ولما بيّنت لك أقطاب هذا المقام وأنهم عبيد الله المصطفون الأخيار، فاعلم أن أسرارهم التي أطلعنا الله عليها تجهلها العامة بل أكثر الخاصة التي ليس لها هذا المقام والخضر منهم رضي

الله عنه وهو من أكبرهم، وقد شهد الله له أنه آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً اتبعه فيه كليم الله موسىٰ عليه السلام الذي قال فيه ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتبعَنِي**».

فمن أسرارهم ما قد ذكرناه من العلم بمنزلة أهل البيت، وما قد نبّه الله على علوّ رتبتهم في ذلك، ومن أسرارهم علم المكر الذي مكر الله بعباده في بغضهم مع دعواهم حبّ رسول الله ﷺ وسؤاله المودّة في القربى وهو ﷺ من جملة أهل البيت، فما فعل أكثر الناس ما سألهم فيه رسول الله ﷺ عن أمر الله فعصوا الله ورسوله وما أحبّوا من قرابته إلاّ من رأوا منه الإحسان، فأغراضهم أحبّوا بنفوسهم تعشقوا ومن أسرارهم الاطلاع على صحة ما شرع الله لهم في هذه الشريعة المحمدية من حيث لا تعلم العلماء بها، فإن الفقهاء والمحدّثين الذين أخذوا علمهم ميتاً عن ميت إنما المتأخر منهم هو فيه على غلبة ظن إذ كان النقل شهادة والتواتر عزيز، ثم إنهم إذا عثروا على أمور تفيد العلم بطريق التواتر لم يكن ذلك اللفظ المنقول بالتواتر نصاً فيما حكموا به فإن النصوص عزيزة فيأخذون من ذلك اللفظ بقدر قوّة فهمهم فيه ولهذا اختلفوا، وقد يمكن أن يكون لذلك اللفظ في ذلك الأمر نصّ آخر يعارضه ولم يصل إليهم وما لم يصل إليهم ما تعبدوا به ولا يعرفون بأيّ وجه من وجوه الاحتمالات التي في قوّة هذا اللفظ كان يحكم رسول الله ﷺ المشرّع فأخذه أهل الله عن رسول الله ﷺ في الكشف على الأمر الجلي والنص الصريح في الحكم، أو عن الله بالبينة التي هم عليها من ربّهم والبصيرة التي بها دعوا الخلق إلى الله عليها كما قال الله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [سورة هود: الآية ١٧] وقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] فلم يفرد نفسه بالبصيرة وشهد لهم بالاتباع في الحكم فلا يتبعونه إلاّ على بصيرة وهم عباد الله أهل هذا المقام. ومن أسرارهم أيضاً إصابة أهل العقائد فيما اعتقدوه في الجناب الإلهيّ وما تجلّى لهم حتى اعتقدوا ذلك، ومن أين تصوّر الخلاف مع الاتفاق على السبب الموجب الذي استندوا إليه فإنه ما اختلف فيه اثنان، وإنما وقع الخلاف فيما هو ذلك السبب وبماذا يسمّى ذلك السبب، فمن قائل: هو الطبيعة، ومن قائل: هو الدهر، ومن قائل: غير ذلك، فاتفق الكلّ في إثباته ووجوب وجوده، وهل هذا الخلاف يضرّهم مع هذا الاستناد أم لا؟ هذا كله من علوم أهل هذا المقام. انتهى الجزء السابع عشر.

(الجزء الثامن عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثلاثون

في معرفة الطبقة الأولى والثانية من الأقطاب الركبان

[نظم: الرمل]

إن لله عــــبــــاداً ركــــبــــوا ... نُـجُـبَ الأعـمـال فـي الـلـيـل الـبـهـيـمْ

وترقَّتْ همَمُ الذلِّ بهم لعزيزٍ جلَّ من فَرْدٍ عليمْ
فاجتباهم وتجلى لَهُمُو وتلقَّاهم بكاسات النَّديمْ
من يكن ذا رفعةٍ في ذلَّةٍ إنه يعرف مقدارَ العظيمْ
رتْبَةُ الحادث إن حقَّقْتَها إنما يظهر فيها بالقديمْ
إن لله علوماً جمَّةً في رسول ونبيٍّ وقَسِيمْ
لطفَتْ ذاتاً فما يدركها عالِمُ الأنفاسِ أنفاسِ النَّسيمْ

اعلم أيّدك الله أن أصحاب النجب في العرف هم الركبان، قال الشاعر: [البسيط]

فليتَ لي بهِمُو قوماً إذا ركبوا شدّوا الإغارة فرساناً ورُكْبَانَا

الفرسان ركّاب الخيل، والركبان ركاب الإبل، فالأفراس في المعروف تركبها جميع الطوائف من عجم وعرب، والهجن لا يستعملها إلاَّ العرب، والعرب أرباب الفصاحة والحماسة والكرم، ولما كانت هذه الصفات غالبة على هذه الطائفة سمّيناهم بالركبان، فمنهم من يركب نجب الهمم، ومنهم من يركب نجب الأعمال، فلذلك جعلناهم طبقتين: أولى وثانية، وهؤلاء أصحاب الركبان هم الأفراد في هذه الطريقة فإنهم رضي الله عنهم على طبقات: فمنهم الأقطاب، ومنهم الأئمة، ومنهم الأوتاد، ومنهم الأبدال، ومنهم النقباء، ومنهم النجباء، ومنهم الرجبيون، ومنهم الأفراد، وما منهم طائفة إلاَّ وقد رأيت منهم وعاشرتهم ببلاد المغرب وببلاد الحجاز والشرق، فهذا الباب مختصّ بالأفراد وهي طائفة خارجة عن حكم القطب وحدها ليس للقطب فيهم تصرّف، ولهم من الأعداد من الثلاثة إلى ما فوقها من الأفراد ليس لهم ولا لغيرهم فيما دون الفرد الأوّل الذي هو الثلاثة قدم، فإن الأحدية وهو الواحد لذات الحق والاثنان للمرتبة وهو توحيد الألوهية، والثلاثة أوّل وجود الكون عن الله، فالأفراد في الملائكة الملائكة المهيمون في جمال الله وجلاله الخارجون عن الأملاك المسخّرة والمدبّرة اللذين هما في عالم التدوين والتسطير، وهم من القلم والعقل إلى ما دون ذلك، والأفراد من الإنس مثل المهيمة من الأملاك، فأوّل الأفراد الثلاثة وقد قال ﷺ: «**الثَّلاثَةُ رَكْبٌ**» فأول الركب الثلاثة إلى ما فوق ذلك، ولهم من الحضرات الإلهية الحضرة الفردانية وفيها يتميزون، ومن الأسماء الإلهية الفرد والمواد الواردة على قلوبهم من المقام الذي تردّ منه على الأملاك المهيمة ولهذا يجهل مقامهم وما يأتون به مثل ما أنكر موسىٰ عليه السلام على خضر مع شهادة الله فيه لموسىٰ عليه السلام وتعريفه بمنزلته وتزكية الله إياه وأخذه العهد عليه إذ أراد صحبته، ولما علم الخضر أن موسىٰ عليه السلام ليس له ذوق في المقام الذي هو الخضر عليه، كما أن الخضر ليس له ذوق فيما هو موسىٰ عليه من العلم الذي علّمه الله إلاَّ أن مقام الخضر لا يعطي الاعتراض على أحد من خلق الله لمشاهدة خاصة هو عليها، ومقام موسىٰ والرسل يعطي الاعتراض من حيث هم رسل لا غير في كل ما يرونه خارجاً عمّا أرسلوا به. ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٨] فلو كان الخضر نبياً لما قال له ما لم تحط به

خبراً، فالذي فعله لم يكن من مقام النبوّة وقال له في انفراد كل واحد منهما بمقامه الذي هو عليه، قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: يا موسىٰ أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وافترقا وتميزا بالإنكار، فالإنكار ليس من شأن الأفراد فإنّ لهم الأولية في الأمور فهم ينكر عليهم ولا ينكرون.

قال الجنيد: لا يبلغ أحد درج الحقيقة حتى يشهد فيه ألف صديق بأنه زنديق وذلك لأنهم يعلمون من الله ما لا يعلمه غيرهم وهم أصحاب العلم الذي كان يقول فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين يضرب بيده إلى صدره ويتنهد: إن ههنا لعلوماً جمّة لو وجدت لها حملة، فإنه كان من الأفراد ولم يسمع هذا من غيره في زمانه إلاَّ أبي هريرة ذكر مثل هذا، خرّج البخاري في صحيحه عنه أنه قال: حملت عن النبي ﷺ جرابين: أما الواحد فبثثته فيكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم. البلعوم مجرى الطعام، فأبو هريرة ذكر أنه حمله عن رسول الله ﷺ فكان فيه ناقلاً عن غير ذوق ولكنه علم لكونه سمعه من رسول الله ﷺ، ونحن إنما نتكلم فيمن أعطي عين الفهم في كلام الله تعالىٰ في نفسه وذلك علم الأفراد، وكان من الأفراد عبد الله بن العباس البحر كان يلقب به لاتساع علمه فكان يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] لو ذكرت تفسيره لرجمتموني. وفي رواية: لقلتم إني كافر. وإلى هذا العلم كان يشير عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب زين العابدين عليهم الصلاة والسلام بقوله فلا أدري هل هما من قيله أو تمثل بهما: [البسيط]

يا رُبَّ جَوْهَر علمٍ لو أبوحُ به لقيل لي أنت ممن يعبد الوَثَنَا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي يرَوْن أقبحَ ما يأتونه حَسَنَا

فنبّه بقوله «يعبد الوثنا» على مقصوده ينظر إليه تأويل قوله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**» بإعادة الضمير على الله تعالىٰ وهو من بعض محتملاته بالله. يا أخي أنصفني فيما أقوله لك، لا شكّ أنك قد أجمعت معي على أنه كل ما صحّ عن رسول الله ﷺ من الأخبار في كل ما وصف به فيها ربه تعالىٰ من الفرح والضحك والتعجب والتبشبش والغضب والتردّد والكراهة والمحبة والشوق أن ذلك وأمثاله يجب الإيمان به والتصديق، فلوهبت نفحات من هذه الحضرة الإلهية كشفاً وتجلياً وتعريفاً إلهياً على قلوب الأولياء بحيث أن يعلموا بإعلام الله وشاهدوا بإشهاد الله من هذه الأمور المعبر عنها بهذه الألفاظ على لسان الرسول، وقد وقع الإيمان مني ومنك بهذا كله إذا أتى بمثله هذا الوليّ في حق الله تعالىٰ ألست تزندقه كما قال الجنيد، ألست تقول: إن هذا مشبه هذا عابد وثن؟ كيف وصف الحق بما وصف به المخلوق؟ ما فعلت عبدة الأوثان أكثر من هذا كما قال عليّ بن الحسين، ألست كنت تقتله أو تفتي بقتله كما قال ابن عباس؟ فبأيّ شيء آمنت وسلمت لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ في حق الله من الأمور التي تحيلها الأدلة العقلية ومنعت من تأويلها، والأشعري تأوّلها على وجوه من التنزيه في زعمه فأين الإنصاف؟ فهلا قلت: القدرة واسعة أن تعطي لهذا الوليّ ما أعطت

للنبيّ من علوم الأسرار، فإن ذلك ليس من خصائص النبوّة، ولا حجر الشارع على أمّته هذا الباب، ولا تكلم فيه بشيء، بل قال: إن يكن في أمّتي محدّثون فعمر منهم، فقد أثبت النبيّ ﷺ أن ثَم من يحدّث ممن ليس بنبي وقد يحدث بمثل هذا فإنه خارج عن تشريع الأحكام من الحلال والحرام، فإن ذلك أعني التشريع من خصائص النبوّة وليس الاطلاع على غوامض العلوم الإلهية من خصائص نبوّة التشريع بل هي سارية في عباد الله من رسول وولي وتابع ومتبوع، يا وليّ فأين الإنصاف منك؟ أليس هذا موجوداً في الفقهاء وأصحاب الأفكار الذين هم فراعنة الأولياء ودجاجلة عباد الله الصالحين، والله يقول لمن عمل منّا بما شرع الله له: إن الله يعلمه ويتولى تعليمه بعلوم أنتجتها أعماله، قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩].

ومن أقطاب هذا المقام عمر بن الخطاب وأحمد بن حنبل ولهذا قال ﷺ في عمر بن الخطاب يذكر ما أعطاه الله من القوّة «**يا عُمَرُ ما لَقِيَكَ الشَّيطَانُ في فَجٍّ إلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيرَ فَجِّكَ**» فدلّ على عصمته بشهادة المعصوم، وقد علمنا أن الشيطان ما يسلك قط بنا إلاّ إلى الباطل وهو غير فجّ عمر بن الخطاب فما كان عمر يسلك إلاّ فجاج الحق بالنص، فكان ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم في جميع مسالكه وللحق صولة، ولما كان الحق صعب المرام قوياً حمله على النفوس لا تحمله ولا تقبله بل تمجّه وتردّه لهذا قال ﷺ: «**مَا تَرَكَ الْحَقُّ لِعُمَرَ مِنْ صَدِيقٍ**» وصدق ﷺ يعني في الظاهر والباطن، أمّا في الظاهر: فلعدم الإنصاف وحب الرياسة وخروج الإنسان عن عبوديته واشتغاله بما لا يعنيه وعدم تفرغه لما دعي إليه من شغله بنفسه وعيبه عن عيوب الناس. وأمّا في الباطن: فما ترك الحق لعمر في قلبه من صديق فما كان له تعلّق إلاّ بالله.

ثم الطامة الكبرى أنك إذا قلت لواحد من هذه الطائفة المنكرة اشتغل بنفسك يقول لك: إنما أقوم حماية لدين الله وغيرة له والغيرة لله من الإيمان وأمثال هذا، ولا يسكن ولا ينظر هل ذلك من قبيل الإمكان أم لا؟ أعني أن يكون الله قد عرّف ولياً من أوليائه بما يجريه في خلقه كالخضر ويعلمه علوماً من لدنه تكون العبارة عنها بهذه الصيغ التي ينطق بها الرسول ﷺ كما قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وآمن هذا المنكر بها على زعمه إذ جاء بها رسول الله ﷺ فوالله لو كان مؤمناً بها ما أنكرها على هذا الوليّ لأن الشارع ما أنكر إطلاقها في جناب الحق من استواء ونزول ومعية وضحك وفرح وتبشبش وتعجّب وأمثال ذلك، وما ورد عنه ﷺ قط أنه حجرها على أحد من عباد الله بل أخبر عن الله أنه يقول لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١]، ففتح لنا وندبنا إلى التأسّي به ﷺ وقال: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣١] وهذا من اتباعه والتأسّي به. فمن التأسّي به إذا ورد علينا من الحق سبحانه وارد حق فعلمنا من لدنه علماً فيه رحمة حبانا الله بها وعناية حيث كنا في ذلك على بينة من ربنا ويتلوها شاهد منّا وهو اتباعنا سننه، وما شرع لنا لم نخلّ بشيء منها ولا ارتكبنا مخالفة بتحليل ما حرّم الله أو تحريم ما

أحلّ، فنطلب لذلك المعلوم الذي علمناه من جانب الحق أمثال هذه العبارات النبوية لنفصح بها عن ذلك ولا سيّما إذا سئلنا عن شيء من ذلك، لأن الله أخبر عمّن هذه صفته أنه يدعو إلى الله على بصيرة، فمن التأسّي المأمور به برسول الله ﷺ أن نطلق على تلك المعاني هذه الألفاظ النبوية إذ لو كان في العبارة عنها ما هو أفصح منها لأطلقها ﷺ فإنه المأمور بتبيين ما أنزل به علينا ولا نعدل إلى غيرها لما نريده من البيان مع التحقّق بليس كمثله شيء، فإنا إذا عدلنا إلى عبارة غيرها ادّعينا بذلك أنا أعلم بحق الله وأنزه من رسول الله ﷺ، وهذا أسوأ ما يكون من الأدب. ثم إن المعنى لا بدّ أن يختل عند السامع إذ كان ذلك اللفظ الذي خالفت به لفظ من كان أفصح الناس وهو رسول الله ﷺ والقرآن لا يدل على ذلك المعنى بحكم المطابقة، فشرع لنا التأسيّ وغاب هذا المنكر المكفر من أتى بمثل هذا عن النظر في هذا كله وذلك لأمرين أو لأحدهما إن كان عالماً فلحسد قام به قال تعالىٰ: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٩] وإن كان جاهلاً فهو بالنبوّة أجهل.

يا وليّ لقينا من أقطاب هذا المقام بجبل أبي قبيس بمكة في يوم واحد ما يزيد على السبعين رجلاً وليس لهذه الطبقة تلميذ في طريقهم أصلاً ولا يسلكون أحداً بطريق التربية لكن لهم الوصية والنصيحة ونشر العلم فمن وفق أخذ به. ويقال: إن أبا السعود بن الشبل كان منهم وما لقيته ولا رأيته ولكن شممت له رائحة طيبة ونفساً عطرياً، وبلغني أن عبد القادر الجيلي وكان عدلاً قطب وقته شهد لمحمد بن قائد الأواني بهذا المقام كذا نقل إليّ والعهدة على الناقل، فإن ابن قائد زعم أنه ما رأى هناك أمامه سوى قدم نبيه وهذا لا يكون إلاّ لأفراد الوقت، فإن لم يكن من الأفراد فلا بدّ أن يرى قدم قطب وقته أمامه زائداً على قدم نبيه إن كان أماماً، وإن كان وتداً فيرى أمامه ثلاثة أقدام، وإن كان بدلاً يرى أربعة أقدام وهكذا، إلاّ أنه لا بدّ أن يكون في حضرة الأتباع مقاماً، فإذا لم يقم في حضرات الأتباع وعدل به عن يمين الطريق بين المخدع وبين الطريق فإنه لا يبصر قدماً أمامه وذلك هو طريق الوجه الخاص الذي من الحق إلى كل موجود، ومن ذلك الوجه الخاص تنكشف للأولياء هذه العلوم التي تنكر عليهم ويزندقون بها ويزندقهم بها، ويكفرهم من يؤمن بها إذا جاءته عن الرسل وهي العلوم عينها وهي التي ذكرناها آنفاً.

ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرّف في العالم، فالطبقة الأولى من هؤلاء تركت التصرّف لله في خلقه مع التمكّن وتولية الحق لهم إياه تمكناً لا أمراً لكن عرضاً فلبسوا الستر ودخلوا في سرادقات الغيب واستتروا بحجب العوائد ولزموا العبودة والافتقار وهم الفتيان الظرفاء الملامتية الأخفياء الأبرياء، وكان أبو السعود منهم كان رحمه الله ممّن امتثل أمر الله في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٩] فالوكيل له التصرّف، فلو أمر امتثل الأمر هذا من شأنهم. وأمّا عبد القادر فالظاهر من حاله أنه كان مأموراً بالتصرّف فلهذا ظهر عليه هذا هو الظنّ بأمثاله. وأمّا محمد الأواني فكان يذكر أن الله أعطاه التصرّف فقبله، فكان يتصرّف ولم يكن مأموراً فابتلي فنقصه من المعرفة القدر الذي علا أبو السعود به عليه فنطق أبو السعود

بلسان الطبقة الأولى من طائفة الركبان وسميناهم أقطاباً لثبوتهم، ولأن هذا المقام أعني مقام العبودة يدور عليهم، لم أرد بقطبيتهم أن لهم جماعة تحت أمرهم يكونون رؤساء عليهم، وأقطاباً لهم هم أجلّ من ذلك وأعلى، فلا رياسة أصلاً لهم في نفوسهم لتحققهم بعبوديتهم، ولم يكن لهم أمر إلهيّ بالتقدّم، فما ورد عليهم فيلزمهم طاعته لما هم عليه من التحقق أيضاً بالعبودية فيكونون قائمين به في مقام العبودية بامتثال أمر سيدهم. وأمّا مع التخيير والعرض أو طلب تحصيل المقام فإنه لا يظهر به إلاّ من لم يتحقق بالعبودة التي خلق لها، فهذا يا وليّ قد عرفتك في هذا الباب بمقاماتهم، وبقي التعريف بأصولهم وتعيين أحوال الأقطاب المدبرين من الطبقة الثانية منهم نذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل لا رب غيره.

الباب الحادي والثلاثون

في معرفة أصول الركبان

[نظم: الرمل]

حَدَبَ الدهرُ علينا وحَنَا ... ومضى في حُكْمه وما وَنَى
وعشقناه فغنَّينا عسى ... يطرب الدهرُ بإيقاع الغُنَا
نحن حكَّمْناكَ في أنفسنا ... فاحكم أنْ شئت علينا أو لنَا
ولقد كان له الحكمُ وما ... كان ذاك الحكمُ للدهر بِنَا
فشفيعي هو دهري والذي ... صرَّف الدهرَ كذا صرَّفَنَا
فركبنا نطلب الأصلَ الذي ... جعل السرَّ لدينا عَلَنَا
فلنا منه الذي حرَّكنا ... وله منّا الذي سكَّننَا
حركاتُ الدهر فينا شهدتْ ... أنه قال له ما سَكَنَا
فأنا العبدُ الذليلُ المجتبى ... وأنا حقٌ وما الحقُّ أنَا

اعلم أيّدك الله أن الأصول التي اعتمد عليها الركبان كثيرة منها التبري من الحركة إذا أقيموا فيها فلهذا ركبوا، فهم الساكنون على مراكبهم المتحرّكون بتحريك مراكبهم، فهم يقطعون ما أمروا بقطعه بغيرهم لا بهم، فيصلون مستريحين ممّا تعطيه مشقة الحركة، متبرّئين من الدعوى التي تعطيها الحركة، حتى لو افتخروا بقطع المسافات البعيدة في الزمان القليل لكان ذلك الفخر راجعاً للمركب الذي قطع بهم تلك المسافة لا لهم فلهم التبرّي وما لهم الدعوى فهجيرهم: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وآيتهم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١٧] يقال لهم: وما قطعتم هذه المسافات حين قطعتموها ولكن الركاب قطعتها فهم المحمولون، فليس للعبد صولة إلا بسلطان سيده وله الذلّة والعجز والمهانة والضعف من نفسه.

ولما رأوا أن الله قد نبّه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] فأخلصه له

علموا أن الحركة فيها الدعوى، وأن السكون لا تشوبه دعوى فإنه نفي الحركة فقالوا: إن الله قد أمرنا بقطع هذه المسافة المعنوية وجوب هذه المفاوز المهلكة إليه، فإن نحن قطعناها بنفوسنا لم نأمن على نفوسنا من أن نتمدّح بذلك في حضرة الاتصال فإنها مجبولة على الرعونة وطلب التقدم وحب الفخر، فنكون من أهل النقص في ذلك المقام بقدر ما ينبغي أن نحترم به ذلك الجلال الأعظم فلنتخذ ركاباً نقطع به، فإن أرادت الافتخار يكون الافتخار للركاب لا للنفوس فاتخذت من لا حول ولا قوّة إلاّ بالله نجباً لما كانت النجب أصبر عن الماء والعلف من الأفراس وغيرها، والطريق معطشة جدبة يهلك فيها من المراكب من ليس له مرتبة النجب، فلهذا اتخذوها نجباً دون غيرها ممّا يصحّ أن يركب ولا يصحّ أن يقطع ذلك ﴿الحمد لله﴾ فإنّ هذا الذكر من خصائص الوصول، ولا سبحان الله فإنه من خصائص التجلّي، ولا لا إله إلاّ الله فإنه من خصائص الدعاوى، ولا الله أكبر فإنه من خصائص المفاضلة، فتعين لا حول ولا قوّة إلاّ بالله فإنه من خصائص الأعمال فعلاً وقولاً ظاهراً وباطناً، لأنهم بالأعمال أمروا والسفر عمل قلباً وبدناً ومعنى وحسّاً، وذلك مخصوص بلا حول ولا قوّة إلاّ بالله فإنه بها يقولون: لا إله إلاّ الله، وبها نقول: سبحان الله، وغير ذلك من جميع الأقوال والأعمال. ولما كان السكون عدم الحركة والعدم أصلهم لأنه قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ يريد موجوداً فاختاروا السكون على الحركة وهو الإقامة على الأصل فنبّه سبحانه وتعالىٰ في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] أنّ الخلق سلموا له العدم وادّعوا له في الوجود، فمن باب الحقائق عرّى الحق خلقه في هذه الآية عن إضافة ما ادّعوه لأنفسهم بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي ما ثبت والثبوت أمر وجودي عقليّ لا عينيّ بل نسبيّ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣] يسمع دعواكم في نسبة ما هو له وقد نسبتموه إليكم عليم بأن الأمر على خلاف ما ادعيتموه.

ومن أصولهم التوحيد بلسان بي يتكلم وبي يسمع وبي يبصر وهذا مقام لا يحصل إلاّ عن فروع الأعمال وهي النوافل، فإن هذه الفروع تنتج المحبة الإلهية والمحبة تورث العبد أن يكون بهذه الصفة فتكون هذه الصفة أصلاً لهذا الصنف من العباد فيما يعلمونه ويحكمون به من أحكام الخضر وعلمه، فهو أصل مكتسب وهو للخضر أصل عناية إلهية بالرحمة التي آتاه الله، وعن تلك الرحمة كان له هذا العلم الذي طلب موسىٰ عليه السلام أن يعلمه منه، فإن تفطنت لهذا الأمر الذي أوردناه عرفت قدر ولاية هذه الملة المحمدية والأمّة ومنزلتها. وأن ثمرة زهرة فروع أصلها المشروع لها في العامّة هي أصل الخضر الذي امتن الله تعالىٰ على عبده موسىٰ عليه السلام بلقائه وأدّبه به فأنتج للمحمديّ فرع فرع فرع أصله ما هو أصل للخضر، ومثل موسىٰ عليه السلام يطلب منه أن يعلمه مما هو عليه من العلم، فانظر منزلة هذا العارف المحمديّ أين تميزت؟ فكيف لك بما ينتجه الأصل الذي ترجع إليه هذه الفروع؟ قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «**إنَّ اللَّهَ يَقُولُ: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ المُتَقَرِّبُونَ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِم**» فهذا هو الأصل أداء الفرض. ثم قال: «**وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ**

بِالنَّوافِلِ» وهو ما زاد على الفرائض ولكن من جنسها حتى تكون الفرائض أصلاً لها مثل نوافل الخيرات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وذكر، فهذا هو الفرع الأقرب إلى الأصل.

ثم ينتج له هذا العمل الذي هو نافلة محبة الله إياه وهي محبة خاصة جزاء ليست هي محبة الامتنان، فإن محبة الامتنان الأصلية اشترك فيها جميع أهل السعادة عند الله تعالىٰ وهي التي أعطت لهؤلاء التقرّب إلى الله بنوافل الخيرات. ثم إن هذه المحبة وهي الفرع الثاني الذي هو بمنزلة الزهرة أنتجت له أن يكون الحق سمعه وبصره ويده إلى غير ذلك، وهذا هو الفرع الثالث وهو بمنزلة الثمرة التي تعقد عند الزهرة فعند ذلك يكون العبد يسمع بالحق، وينطق به، ويبصر به، ويبطش به، ويدرك به، وهذا وحي خاص إلهيّ أعطاه هذا المقام، ليس للملك فيه وساطة من الله ولهذا قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فإن وحي الرسل إنما هو بالملك بين الله وبين رسوله، فلا خير له بهذا الذوق في عين إمضاء الحكم في عالم الشهادة، فما تعوّد الإرسال لتشريع الأحكام الإلهية في عالم الشهادة إلاً بواسطة الروح الذي ينزل به على قلبه أو في تمثّله لم يعرف الرسول الشريعة إلاً على هذا الوصف لا غير الشريعة، فإن الرسول له قرب أداء الفرض والمحبة عليها من الله وما تنتج له تلك المحبة، وله قرب النوافل ومحبتها وما يعطيه محبتها ولكن من العلم بالله لا من علم التشريع وإمضاء الحكم في عالم الشهادة، فلم يحط به خبراً من هذا القبيل، فهذا القدر هو الذي اختصّ به خضر دون موسىٰ عليه السلام، ومن هذا الباب يحكم المحمديّ الذي لم يتقدّم له علم بالشريعة بوساطة النقل وقراءة الفقه والحديث ومعرفة الأحكام الشرعية، فينطق صاحب هذا المقام بعلم الحكم للشروع على ما هو عليه في الشرع المنزل من هذه الحضرة وليس من الرسل وإنما هو تعريف إلهيّ وعصمة يعطيها هذا المقام ليس للرسالة فيه مدخل فهذا معنى قوله: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فإن الرسول لا يأخذ هذا الحكم إلاً بنزول الروح الأمين على قلبه أو بمثال في شاهده يتمثل له الملك رجلاً.

ولما كانت النبوّة قد منعت والرسالة كذلك بعد رسول الله ﷺ كان التعريف لهذا الشخص بما هو الشرع المحمديّ عليه في عالم الشهادة، فلو كان في زمان التشريع كما كان زمان موسىٰ لظهر الحكم من هذا الوليّ كما ظهر من الخضر من غير وساطة ملك بل من حضرة القرب، فالرسول والنبيّ لهما حضرة القرب مثل ما لهذا وليس له التشريع منها بل التشريع لا يكون له إلا بوساطة الملك الروح وما بقي إلاً إذا حصل للنبيّ المتأخر من شرع المتقدّم ما هو شرع له هل يحصل ذلك بواسطة الروح كسائر شرعه أو يحصل له كما حصل للخضر ولهذا الوليّ منّا من حضرة الوحي، فمذهبي أنه لا يحصل له إلاً كما يحصل ما يختص به من الشرائع ذلك الرسول ولهذا يصدق الثقة العدل في قوله: ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ وما يعرف له منازع ولا مخالف فيما ذكرناه من أهل طريقنا ولا وقفنا عليه.

غير أنه إن خالفنا فيه أحد من أهل طريقنا فلا يتصوّر فيه خلاف لنا إلاً من أحد رجلين، إما رجل من أهل الله التبس عليه الأمر وجعل التعريف الإلهيّ حكماً فأجاز أن يكون النبيّ أو

الرسول كذلك ولكن في هذه الأمّة. وأمّا في الزمان الأوّل فهو حكم لصاحبه ولا بدّ وهو تعريف للرسول بوساطة الملك أنّ هذا شرع لغيره، قال تعالىٰ لما ذكر الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] وما ذكر له هداهم إلاّ بالوحي بوساطة الروح. والرجل الآخر رجل قاس الحكم على الأخبار، وأمّا غير ذلك فلا يكون، ومع هذا فلم يصل إلينا عن أحد منهم خلاف فيما ذكرناه ولا وفاق.

ومن أصول هذه الطبقة أيضاً أنه يتكلم بما به يسمع ولا يقول بذلك سواهم من حيث الذوق، لكن قد يقول بذلك من يقول به من حيث الدليل العقليّ، فهؤلاء يأخذونه عن تجلّ إلهيّ، وغيرهم يأخذه عن نظر صحيح موافق للأمر على ما هو عليه وهو الحق ووقوع الاختلاف في الطريق، فهذا الطريق غير هذا الطريق وإن اتفقا في المنزل وهو الغاية فهو السميع لنفسه البصير لنفسه العالم لنفسه، وهكذا كل ما تسميه به أو تصفه أو تنعته إن كنت ممّن يسيء الأدب مع الله حيث يطلق لفظ صفة على ما نسب إليه أو لفظ نعت فإنه ما أطلق على ذلك إلاّ لفظ اسم فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] و ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٧٨] و ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] وقال في حق المشركين: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣]، وما قال صفوهم ولا انعتوهم بل قال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] فنزّه نفسه عن الوصف لفظاً ومعنى، إن كنت من أهل الأدب والتفطن فهذا معنى قولي إن كنت ممّن يسيء الأدب مع الله، والمخالف لنا يقول: إنه يعلم بعلم ويقدر بقدرة ويبصر ببصر، وهكذا جميع ما يتسمّى به إلاّ صفات التنزيه فإنه لا يتكلم فيها بهذا النوع كالغني وأشباهه إلاّ بعضهم فإنه جعل ذلك كله معاني قائمة بذات الله لا هي هو ولا هي غيره ولكن هي أعيان زائدة على ذاته. والأستاذ أبو إسحاق جعل السبعة أصولاً لا أعياناً زائدة على ذاته اتصفت بها ذاته، وجعل كل اسم بحسب ما تعطيه دلالته، فجعل صفات التنزيه كلها في جدول الاسم الحيّ، وجعل الخبير، والحسيب، والعليم، والمحصي وأخواته في جدول العلم، وجعل الاسم الشكور في جدول الكلام، وهكذا ألحق الكل كل صفة من السبعة ما يليق بها من الأسماء بالمعنى كالخالق والرازق للقدرة وغير ذلك على هذا الأسلوب، هذا مذهب الأستاذ.

وأجمع المتكلمون من الأشاعرة على أن ثَمَّ أموراً زائدة على الذات ونصبوا على ذلك أدلة، ثم إنهم مع إجماعهم على الزائد لم يجدوا دليلاً قاطعاً، على أن هذا الزائد على الذات هل هو عين واحدة لها أحكام مختلفة وإن كان زائداً لا بدّ من ذلك، أو هل هذا الزائد أعيان متعدّدة لم يقل حاذقوهم في ذلك شيئاً بل قال بعضهم: يمكن أن يكون الأمر في نفسه يرجع إلى عين واحدة، ويمكن أن يرجع إلى أعيان مختلفة إلاّ أنه زائد ولا بدّ ولا فائدة جاء بها هذا المتكلم إلاّ عدم التحكّم، فإنّ الذات إذا قبلت عيناً واحدة زائدة جاز أن تقبل عيوناً كثيرة زائدة على ذاتها فتكون القدماء لا يحصون كثرة وهو مذهب أبي بكر بن الطيب، والخلاف في ذلك يطول، وليس طريقنا على هذا بني أعني في الردّ عليهم ومنازعتهم، لكن طريقنا تبيين مآخذ

كل طائفة ومن أين انتحلته في نحلتها وما تجلى لها، وهل يؤثر ذلك في سعادتها أو لا يؤثر؟ هذا حظ أهل طريق الله من العلم بالله، فلا نشتغل بالردّ على أحد من خلق الله بل ربما نقيم لهم العذر في ذلك للاتساع الإلهيّ، فإنّ الله أقام العذر فيمن يدعو مع الله إلهاً آخر ببرهان يرى أنه دليل في زعمه فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٧] ومن أصولهم الأدب مع الله تعالىٰ فلا يسمونه إلاّ بما سمّى به نفسه، ولا يضيفون إليه إلاّ ما أضافه إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ وقال في السيئة: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] ثم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] قال ذلك في الأمرين إذا جمعتهما لا تقل من الله فراغ اللفظ.

واعلم أن لجمع الأمر حقيقة تخالف حقيقة كل مفرد إذا انفرد، ولم يجتمع مع غيره كسواد المداد بين العفص والزاج، ففصّل سبحانه بين ما يكون منه وبين ما يكون من عنده، يقول تعالىٰ في حق طائفة مخصوصة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة طه: الآية ٧٣] ببنية المفاضلة ولا مناسبة. وقال في حق طائفة أخرى معينة صفتها: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة القصص: الآية ٦٠] فما هو عنده ما هو عين ما هو منه ولا عين هويته فبين الطائفتين ما بين المنزلتين كما قيل لواحد: ما تركت لأهلك؟ قال: الله ورسوله. وقيل للآخر فقال: نصف مالي، فقال: بينكما ما بين كلمتيكما يعني في المنزلة، فإذا أخذ العبد من كل ما سواه جعله في الله خير وأبقى. وإذا أخذه من وجه من العالم يقتضي الحجاب والبعد والذم جعله فيما عند الله خير وأبقى. فميّز المراتب.

ثم إنه سبحانه عرّفنا بأهل الأدب ومنزلتهم من العلم به فقال عن إبراهيم خليله إنه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٧٨ ـ ٧٩] ولم يقل يجوّعني ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل أمرضني ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠] فأضاف الشفاء إليه والمرض لنفسه وإن كان الكل من عنده، ولكنه تعالىٰ هو أدّب رسله إذ كان المرض لا تقبله النفوس بخلاف الموت فإن الفضلاء من العقلاء العارفين يطلبون الموت للتخلص من هذا الحبس، وتطلبه الأنبياء للقاء الله الذي يتضمنه وكذلك أهل الله، ولذلك ما خيّر نبيّ في الموت إلاّ اختاره لأن فيه لقاء الله فهو نعمة منه عليه ومنّة، والمرض شغل شاغل عن أداء ما أوجب الله على العبد أداءه من حقوق الله لإحساسه بالألم وهو في محل التكليف، وما يحسّ بالألم إلاّ الروح الحيوانيّ فيشغل الروح المدبر لجسده عمّا دعي إليه في هذه الدنيا فلهذا أضاف المرض إليه والشفاء والموت للحق، كما فعل صاحب موسىٰ عليه السلام في إضافة خرق السفينة إليه إذ جعل خرقها عيباً، وأضاف قتل الغلام إليه وإلى ربه لما فيه من الرحمة بأبويه وما ساءهما من ذلك أضافه إليه، وأضاف إقامة الجدار إلى ربّه لما فيه من الصلاح والخير فقال تعالىٰ عن عبده خضر في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] تنزيهاً أن يضيف إلى الجناب العالي ما ظاهره ذمّ في العرف والعادة، وقال في إقامة الجدار لما جعل إقامته رحمة باليتيمين لما يصيبانه من الخير الذي هو الكنز ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يخبر موسىٰ عليه السلام ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وقال

لموسىٰ في حق الغلام: إنه طبع كافراً والكفر صفة مذمومة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] وأراد أن يخبره بأن الله يبدّل أبويه ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] فأراد أن يضيف ما كان في المسألة من العيب في نظر موسىٰ عليه السلام حيث جعله نكراً من المنكر وجعله نفساً زاكية قتلت بغير نفس قال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [سورة الكهف: الآية ٨١] فأتى بنون الجمع فإن في قتله أمرين: أمر يؤدّي إلى الخير، وأمر إلى غير ذلك في نظر موسىٰ وفي مستقر العادة، فما كان من خير في هذا الفعل فهو لله من حيث ضمير النون، وما كان فيه من نكر في ظاهر الأمر وفي نظر موسىٰ عليه السلام في ذلك الوقت كان للخضر من حيث ضمير النون، فنون الجمع لها وجهان لما فيها من الجمع: وجه إلى الخير به أضاف الأمر إلى الله، ووجه إلى العيب به أضاف العيب إلى نفسه.

وجاء بهذه المسألة والواقعة في الوسط لا في الطرف بين السفينة والجدار ليكون ما فيها من عيب من جهة السفينة وما فيها من خير من جهة الجدار، فلو كانت مسألة الغلام في الطرف ابتداء أو انتهاء لم تعط الحكمة أن يكون كل وجه مخلصاً من غير أن يشوبه شيء من الخير أو ضدّه، فلو كان أوّلاً وكانت السفينة وسط لم يصل ما في مسألة الغلام من الخير الذي له ولأبويه حتى يمر على حضرة مصيبة ظاهراً وهي السفينة وحينئذ يتصل بالخير الذي في الجدار ولو كان الجدار وسطاً وتأخر حديث الغلام لم يصل عيب السفينة إلى الاتصال بعيب الغلام حتى يمر بخير ما في الجدار فيمر بغير المناسب، ومن شأن الحضرات أن تقلب أعيان الأشياء أعني صفاتها إذا مرّت بها، فكانت مسألة الغلام وسطاً فيلي وجه العيب جهة السفينة، ويلي جهة الخير جهة الجدار واستقامت الحكمة. فإن قلت: فلمَ جمع بين الله وبين نفسه في ضمير النون أعني نون فأردنا، وقال ﷺ لما سمع بعض الخطباء وقد جمع بين الله تعالىٰ ورسول الله ﷺ في ضمير واحد في قوله: ومن يعصهما: «**بئس الخطيب أنت**»، فاعلم أنه من الباب الذي قررناه وهو أنه لا يضاف إلى الحق إلاّ ما أضافه الحق إلى نفسه أو أمر به رسوله أو من آتاه علماً من لدنه كالخضر المنصوص عليه فهذا من ذلك الباب، فلما كان هذا الخطيب عرياً من العلم اللدنيّ ولم يكن رسول الله ﷺ تقدّم إليه في إباحة مثل هذا لهذا ذمّه وقال: بئس الخطيب أنت، فإنه كان ينبغي له أن لا يجمع بين الحق والخلق في ضمير واحد إلاّ بإذن إلهيّ من رسول أو علم لدنيّ، ولم يكن واحد من هذين الأمرين عنده فلهذا ذمّه رسول الله ﷺ.

وقد قال رسول الله ﷺ في حديث رويناه عنه في خطبة خطبها فذكر الله تعالىٰ فيها وذكر نفسه ﷺ ثم جمع بين ربّه تعالىٰ وبين نفسه فيها في ضمير واحد فقال: «**مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَلاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئاً**»، وما ينطق ﷺ عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٤] وكذا قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] يعني جميع ما فعله من الأعمال وجميع ما قال من الأقوال في العبارة لموسىٰ عليه السلام عن ذلك فافهم فبهذا قد أبنت لك عن أصولهم ما فيه كفاية، فالركبان هم

المرادون المجذوبون المصونة أسرارهم في البيض، فلا يتخللها هواء مثل القاصرات الطرف من الحور المقصورات في الخيام كأنهنّ بيْض مكنون، ومن صفاتهم أنهم لا يكشفون وجوههم عند النوم ولا ينامون إلاّ على ظهورهم لهم التلقي لا يتحركون إلاّ عن أمر إلهيّ، ولا يسكنون إلاّ كذلك بإرادة إرادتهم ما يراد بهم.

ولما كان السكون أمراً عدمياً لذلك قرنّا به الإرادة دون الأمر، ولما كان التحرّك أمراً وجودياً لذلك قرنّا به الأمر الإلهيّ إن فهمت، وهم رضي الله عنهم لا يزاحمون ولا يزاحمون، أكثر ما يجري على ألسنتهم ما شاء الله سخّرت لهم السحاب لهم القدم الراسخة في علم الغيوب، لهم في كل ليلة معراج روحانيّ، بل في كل نومة من ليل أو نهار لهم استشراف على بواطن العالم، فرأوا ملكوت السموات والأرض، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٧٥] وقال في حق رسول الله ﷺ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] وهو عين إسرائه، والعلماء ورثة الأنبياء أحوالهم الكتمان لو قطعوا إرباً إرباً ما عرف ما عندهم لهذا قال خضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ فالكتمان من أصولهم إلاّ أن يؤمروا بالإفشاء والإعلان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون

في معرفة الأقطاب المدبرين أصحاب الركاب من الطبقة الثانية

[نظم: البسيط]

إن التدبُّرَ معشوقٌ لصاحبه ... به تعشَّقَتِ الأسماءُ والدُّوَلُ

عليه عند الذي يقضي سوالِفَهُ ... في كل ما يقتضيه كونه العملُ

به ترتُّب ما في الكون من عَجَبِ ... فكلُّ كون له في عِلمه أَجَلُ

لقيت من هؤلاء الطبقة جماعة بإشبيلية من بلاد الأندلس منهم أبو يحيىٰ الصنهاجي الضرير كان يسكن بمسجد الزبيدي صحبته إلى أن مات ودفن بجبل عال كثير الرياح بالشرق، فكل الناس شقّ عليهم طلوع الجبل لطوله وكثرة رياحه فسكن الله الريح فلم تهب من الوقت الذي وضعناه في الجبل، وأخذ الناس في حفر قبره وقطع حجره إلى أن فرغنا منه وواريناه في روضته وانصرفنا، فعند انصرافنا هبت الريح على عادتها فتعجب الناس من ذلك. ومنهم أيضاً صالح البربري، وأبو عبد الله الشرفي وأبو الحجاج يوسف الشبربلي. فأمّا صالح فساح أربعين سنة ولزم بإشبيلية مسجد الرطند إلى أربعين سنة على التجريد بالحالة التي كان عليها في سياحته. وأمّا أبو عبد الله الشرفي فكان صاحب خطوة بقي نحواً من خمسين سنة ما أسرج له سراجاً في بيته رأيت له عجائب. وأما أبو الحجاج الشبربلي من قرية يقال لها شبربل بشرق إشبيلية كان ممّن يمشي على الماء وتعاشره الأرواح، وما من واحد من هؤلاء إلاّ وعاشرته معاشرة مودّة وامتزاج ومحبة منهم فينا، وقد ذكرناهم مع أشياخنا في الدرّة الفاخرة عند ذكرنا

من انتفعت به في طريق الآخرة، فكان هؤلاء الأربعة من أهل هذا المقام وهم من أكابر الأولياء الملامية، جعل بأيديهم علم التدبير والتفصيل فلهم الاسم المدبّر المفصّل وهجيرهم يدبر الأمر يفصّل الآيات، هم العرائس أهل المنصات، فلهم الآيات المعتادة وغير المعتادة، فالعالم كله عندهم آيات بينات، والعامة ليست الآيات عندهم إلاّ التي هي عندهم غير معتادة، فتلك تنبّههم إلى تعظيم الله.

والله قد جعل الآيات المعتادة لأصناف مختلفين من عباده، فمنها للعقلاء مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٤] فثمّ آيات للعقلاء كلها معتادة، وآيات للموقنين، وآيات لأولي الألباب وآيات لأولي النهى، وآيات للسامعين وهم أهل الفهم عن الله، وآيات للعالمين وآيات للعاملين، وآيات للمؤمنين، وآيات للمتفكرين، وآيات لأهل التذكّر. فهؤلاء كلهم أصناف نعتهم الله بنعوت مختلفة. وآيات مختلفات كلها ذكرها لنا في القرآن إذا بحثت عليها وتدبرتها علمت أنها آيات ودلالات على أمور مختلفة ترجع إلى عين واحدة غفل عن ذلك أكثر الناس ولهذا عدّد الأصناف، فإن من الآيات المذكورة المعتادة ما يدرك الناس دلالتها من كونهم ناساً وجنّاً وملائكة، وهي التي وصف بإدراكها العالَم بفتح اللام، ومن الآيات ما تغمض بحيث لا يدركها إلاّ من له التفكّر السليم، ومن الآيات ما هي دلالتها مشروطة بأولي الألباب وهم العقلاء الناظرون في لب الأمور لا في قشورها فهم الباحثون عن المعاني وإن كانت الألباب والنهى العقول فلم يكتف سبحانه بلفظة العقل حتى ذكر الآيات لأولي الألباب، فما كل عاقل ينظر في لب الأمور بواطنها فإن أهل الظاهر لهم عقول بلا شك وليسوا بأولي الألباب، ولا شك أن العصاة لهم عقول ولكن ليسوا بأولي نهى فاختلفت صفاتهم، إذ كانت كل صفة تعطي صنفاً من العلم لا يحصل إلاّ لمن حاله تلك الصفة، فما ذكرها الله سدى، وكثر الله ذكر الآيات في القرآن العزيز، ففي مواضع أردفها وتلا بعضها بعضاً وأردف صفة العارفين بها، وفي مواضع أفردها فمثل إرداف بعضها على بعض مساقها في سورة الروم فلا يزال يقول تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [سورة الروم: الآية ٢١] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٢] فيتلوها جميع الناس ولا يتنبه لها إلاّ الأصناف الذين ذكرهم في كل آية خاصة، فكان تلك الآيات في حق أولئك أنزلت آيات وفي حق غيرهم لمجرّد التلاوة ليؤجروا عليها.

ولما قرأت هذه السورة وأنا في مقام هذه الطبقة ووصلت إلى قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٣] تعجبت كل العجب من حسن نظم القرآن وجمعه، ولماذا قدّم ما كان ينبغي في النظر العقلي في ظاهر الأمر أن يكون على غير هذا النظم، فإن النهار لابتغاء الفضل والليل للمنام كما قال في القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٣] فأعاد الضمير على الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟

مِن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة القصص: الآية ٧٣] يريد في النهار فأضمر، وإن كان الضميران يعودان على المعنى المقصود فقد يعمل الصانع بالليل ويبيع ويشتري بالليل كما أنه ينام أيضاً ويسكن بالنهار، ولكن الغالب في الأمور هو المعتبر، فلاح لي من خلف ستارة هذه الآية وحسن العبارة عنها الرافعة سترها وهو قوله: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أمر زائد على ما يفهم منه في العموم بقرائن الأحوال في ابتغاء الفضل للنهار والمنام لليل ما نذكره، وهو أن الله نبّه بهذه الآية على أن نشأة الآخرة الحسيّة لا تشبه هذه النشأة الدنياوية وأنها ليست بعينها بل تركيب آخر ومزاج آخر كما وردت به الشرائع والتعريفات النبوية في مزاج تلك الدار، وإن كانت هذه الجواهر عينها بلا شك فإنها التي تبعثر في القبور وتنشر، ولكن يختلف التركيب والمزاج بأعراض وصفات تليق بتلك الدار لا تليق بهذه الدار، وإن كانت الصورة واحدة في العين والسمع والأنف والفم واليدين والرجلين بكمال النشأة، ولكن الاختلاف بيِّن، فمنه ما يشعر به ويحسّ ومنه ما لا يشعر به.

ولما كانت صورة الإنشاء في الدار الآخرة على صورة هذه النشأة لم يشعر بما أشرنا إليه، ولما كان الحكم يختلف عرفنا أن المزاج اختلف فهذا الفرق بين حظ الحسّ والعقل فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ولم يذكر اليقظة وهي من جملة الآيات فذكر المنام دون اليقظة في حال الدنيا، فدلّ على أن اليقظة لا تكون إلاّ عند الموت، وأن الإنسان نائم أبداً ما لم يمت، فذكر أنه في منام بالليل والنهار في يقظته ونومه. وفي الخبر: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» ألا ترى أنه لم يأت بالباء في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٣] واكتفى بباء الليل ليحقق بهذه المشاركة أنه يريد المنام في حال اليقظة المعتادة فحذفها ممّا يقوّي الوجه الذي أبرزناه في هذه الآية، فالمنام هو ما يكون فيه النائم في حال نومه، فإذا استيقظ يقول: رأيت كذا وكذا، فدلّ أن الإنسان في منام ما دام في هذه النشأة في الدنيا إلى أن يموت، فلم يعتبر الحق اليقظة المعتادة عندنا في العموم، بل جعل الإنسان في منام في نومه ويقظته، كما أوردناه في الخبر النبوي من قوله ﷺ: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**» فوصفهم بالنوم في الحياة الدنيا، والعامة لا تعرف النوم في المعتاد إلاّ ما جرت به العادة أن يسمّى نوماً، فنبّه النبي ﷺ بل صرّح أن الإنسان في منام ما دام في الحياة الدنيا حتى ينتبه في الآخرة، والموت أوّل أحوال الآخرة، فصدقه الله بما جاء به في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ﴾ وهو النوم العادي والنهار وهو هذا المنام الذي صرّح به رسول الله ﷺ، ولهذا جعل الدنيا عبرة جسراً يعبر أي تعبر كما تعبر الرؤيا التي يراها الإنسان في نومه.

فكما أن الذي يراه الرائي في حال نومه ما هو مراد لنفسه إنما هو مراد لغيره فيعبر من تلك الصورة المرئية في حال النوم إلى معناها المراد بها في عالم اليقظة إذا استيقظ من نومه، كذلك حال الإنسان في الدنيا ما هو مطلوب للدنيا، فكل ما يراه من حال وقول وعمل في الدنيا إنما هو مطلوب للآخرة، فهناك يعبر ويظهر له ما رآه في الدنيا، كما يظهر له في الدنيا إذا استيقظ ما رآه في المنام، فالدنيا جسر يعبر ولا يعمر، كالإنسان في حال ما يراه في نومه

يعبر ولا يعمر، فإنه إذا استيقظ لا يجد شيئاً مما رآه من خير يراه أو شرّ، وديار وبناء وسفر وأحوال حسنة أو سيئة فلا بدّ أن يعبر له العارف بالعبارة ما رآه فيقول له: تدل رؤياك لكذا على كذا، فكذلك الحياة الدنيا منام إذا انتقل إلى الآخرة بالموت لم ينتقل معه شيء ممّا كان في يده وفي حسّه من دار وأهل ومال، كما كان حين استيقظ من نومه لم ير شيئاً في يده ممّا كان له حاصلاً في رؤياه في حال نومه فلهذا قال تعالىٰ: إننا في منام بالليل والنهار وفي الآخرة تكون اليقظة وهناك تعبر الرؤيا، فمن نوّر الله عين بصيرته وعبّر رؤياه هنا قبل الموت أفلح ويكون فيها مثل من رأى رؤيا ثم رأى في رؤياه أنه استيقظ فيقص ما رآه وهو في النوم على حاله على بعض الناس الذين يراهم في نومه فيقول: رأيت كذا وكذا فيفسره ويعبره له ذلك الشخص بما يراه في علمه بذلك، فإذا استيقظ حينئذ يظهر له، أنه لم يزل في منام في حال الرؤيا وفي حال التعبير لها وهو أصحّ التعبير، وكذلك الفطن اللبيب في هذه الدار مع كونه في منامه يرى أنه استيقظ فيعبر رؤياه في منامه لينتبه ويزدجر ويسلك الطريق الأسدّ، فإذا استيقظ بالموت حمد رؤياه وفرح بمنامه وأثمرت له رؤياه خيراً، فلهذه الحقيقة ما ذكر الله في هذه الآية اليقظة وذكر المنام وأضافه إلينا بالليل والنهار، وكان ابتغاء الفضل فيه في حق من رأى في نومه أنه استيقظ في نومه فيعبر رؤياه وهي حالة الدنيا والله يلهمنا رشد أنفسنا، هذا من قوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] فهذا تفصيل آيات المنام بالليل والنهار والابتغاء من الفضل وجعله آيات لقوم يسمعون أي يفهمون كما قال، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون أراد الفهم عن الله وقال فيهم: ﴿صُمُّۢ﴾ مع كونهم يسمعون ﴿بُكۡمٌ﴾ مع كونهم يتكلمون ﴿عُمۡيٞ﴾ مع كونهم يبصرون ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧١] فنبهتك على ما أراد بالسمع والكلام والبصر هنا.

فهذه الطبقة الركبانية الثانية مآخذهم للأشياء على هذا الحدّ الذي ذكرناه في هذه الآية، وإنما ذكرنا هذا المأخذ لنعرّفك بطريقتهم فتتبين لك منزلتهم من غيرهم، فلطائفهم بالآيات المنصوبة المعتادة وغير المعتادة قائمة ناظرة إلى نفوس العالم، ناظرة إلى الوجوه العرضية التي إليها يتوجهون بسبب أغراضهم، ناظرة إلى الحدود الإلهية فيما إليه يتوجهون، لا يغفلون عن النظر في ذلك طرفة عين، فغفلتهم التي تقتضيها جبلتهم إنما متعلقها منهم عمّا ضمن لهم، فهم متيقظون فيما طلب منهم، غافلون عمّا ضمن لهم حتى لا يخرجون عن حكم الغفلة فإنها من جبلة الإنسان، وغير هذه الطائفة صرفتها الغفلة عمّا يراد منها، فإن كان الذي يقع إليه التوجّه طاعة نظروا في دقائق تحصيلها ونظروا إلى الأمر الإلهي الذي يناسبها والاسم الإلهي الذي له السلطان عليها فيفصل لهم الأمر الإلهيّ الآية التي يطلبونها، فإن كانت الآية معتادة مثل اختلاف الليل والنهار وتسخير السحاب وغير ذلك من الآيات المعتادة التي لا خبر لنفوس العامة بكونها حتى يفقدوها، فإذا فقدوها حينئذ خرجوا للاستسقاء وعرفوا في ذلك الوقت موضع دلالتها وقدرها وأنهم كانوا في آية وهم لا يشعرون، فإذا جاءتهم وأمطروا عادوا إلى غفلتهم هذا حال العامّة كما قال الله فيهم معجلاً في هذه الدار: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ

﴿وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٢] ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٦٥] و﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [سورة يونس: الآية ٢٣] يقول الله لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة يونس: الآية ٢٣] وهكذا يقولون في النار: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٧] قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٢٨] كما عاد أصحاب الفلك إلى شركهم وبغيهم بعد إخلاصهم لله.

فإذا نظرت هذه الطائفة إلى هذه الآيات أرسلوها مع أمرها الإلهيّ إلى حيث دعاها، وإن كانت الآية غير معتادة نظروا أيّ اسم إلهيّ يطلبها فإن طلبها القهار وأخواته فهي آية رهبة وزجر ووعيد أرسلوها على النفوس، وإن طلبها أعني تلك الآية الاسم اللطيف وأخواته فهي آية رغبة أرسلوها على الأرواح فأشرق لها نور شعشعانيّ على النفوس، فجنحت بذلك النفوس إلى بارئها فرزقت التوفيق والهداية، وأعطيت التلذّذ بالأعمال، فقامت فيها بنشاط، وتعرّت فيها من ملابس الكسل، وتبغض إليها معاشرة البطالين وصحبة الغافلين اللاهين عن ذكر الله، ويكرهون الملأ والجلوة، ويؤثرون الانفراد والخلوة، ولهذه الطبقة الثانية حقيقة ليلة القدر وكشفها وسرّها ومعناها، ولهم فيها حكم إلهيّ اختصّوا به وهي حظهم من الزمان، فانظر ما أشرف إذ حباهم الله من الزمان بأشرفه، فإنها خير من ألف شهر، فيه زمان رمضان، ويوم الجمعة، ويوم عاشوراء، ويوم عرفة، وليلة القدر، فكأنه قال: فتضاعف خيرها ثلاثاً وثمانين ضعفاً وثلث ضعف لأنها ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر وقد تكون الأربعة الأشهر ممّا يكون فيها ليلة القدر فيكون التضعيف في كل ليلة قدر أربعة وثمانين ضعفاً، فانظر ما في هذا الزمان من الخير وبأيّ زمان خصّت هذه الطائفة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.
انتهى الجزء الثامن عشر والحمد لله.

(الجزء التاسع عشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث والثلاثون

في معرفة أقطاب النيات وأسرارهم وكيفية أصولهم ويقال لهم النياتيون

[نظم: البسيط]

الروحُ للجسم والنيّاتُ للعمل	تحيا بها كحياة الأرض بالمَطَرِ
فتبصر الزهرَ والأشجارَ بارزةً	وكلَّ ما تُخرج الأشجارُ من ثَمرِ
كذاكَ تَخرجُ من أعمالنا صُوَرٌ	لها روائحُ من نَتْنٍ ومن عَطِرِ
لولا الشريعةُ كان المِسْكُ يخجلُ مِنْ	أعرافها هكذا يقضي به نَظَري

إذْ كـان مُـسْـتَـنَـدُ الـتـكـويـن أجْـمَـعُـهُ   لـه فـلا فـرق بـيـن الـنَّـفـع والـضَّـرَرِ
فـالـزَمْ شـريـعـتَـه تـنـعَـمْ بـهـا سـوراً   تـحـلـهـا صُـوَرٌ تـزهـو عـلـى سُـرِرِ
مـثـل الـمـلـوك تـراهـا فـي أسـرَّتـهـا   أو كـالـعـرائـس مـعـشـوقـيـن لـلـبَـصَـرِ

روينا من حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ وَإِنَّمَا لامْرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه**» رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

اعلم أن لمراعاة النيّات رجالاً على حال مخصوص ونعت خاص أذكرهم إن شاء الله وأذكر أحوالهم، والنيّة لجميع الحركات والسكنات في المكلفين للأعمال كالمطر لما تنبته الأرض، فالنيّة من حيث ذاتها واحدة وتختلف بالمتعلق وهو المنويّ فتكون النتيجة بحسب المتعلق به لا بحسبها، فإن حظّ النيّة إنما هو القصد للفعل أو تركه، وكون ذلك الفعل حسناً أو قبيحاً وخيراً أو شرّاً ما هو من أثر النيّة وإنما هو من أمر عارض عرض ميّزه الشارع وعينه للمكلف، فليس للنيّة أثر البتة من هذا الوجه خاصة كالماء إنما منزلته أن ينزل أو يسيح في الأرض، وكون الأرض الميتة تحيا به أو ينهدم بيت العجوز الفقيرة بنزوله ليس ذلك له فتخرج الزهرة الطيبة الريح والمنتنة والثمرة الطيبة والخبيثة من خبث مزاج البقعة أو طيبها أو من خبث البزرة أو طيبها، قال تعالىٰ: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤] فليس للنيّة في ذلك إلاّ الإمداد كما قال تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦] يعني المثل المضروب به في القرآن أي بسببه وهو من القرآن.

فكما كان الماء سبباً في ظهور هذه الروائح المختلفة والطعوم المختلفة كذلك هي النيّات سبب في الأعمال الصالحة وغير الصالحة، ومعلوم أن القرآن مهداة كله ولكن بالتأويل في المثل المضروب: ضلّ من ضلّ وبه اهتدى من اهتدى، فهو من كونه مثلاً لم تتغير حقيقته، وإنما العيب وقع في عين الفهم، كذلك النيّة أعطت حقيقتها وهو تعلّقها بالمنويّ، وكون ذلك المنويّ حسناً أو قبيحاً ليس لها وإنما ذلك لصاحب الحكم فيه بالحسن والقبح، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بينّا له طريق السعادة والشقاء، ثم قال: ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الإنسان: الآية ٣] هذا راجع للمخاطب المكلف، فإن نوى الخير أثمر خيراً، وإن نوى الشرّ أثمر شرّاً، فما أتى عليه إلاّ من المحل من طيبه أو خبثه، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩] أي هذا أوجبته على نفسي، كأنّ الله يقول: الذي يلزم جانب الحق منكم أن يبين لكم السبيل الموصل إلى سعادتكم وقد فعلت فإنكم لا تعرفونه إلاّ بإعلامي لكم به وتبييني، وسبب ذلك أنه سبق في العلم أن طريق سعادة العباد إنما هو في سبب خاص، وسبب شقائهم أيضاً إنما هو في طريق خاص، وليس إلاّ العدول عن طريق السعادة وهو الإيمان بالله وبما جاء من عند الله ممّا ألزمنا فيه الإيمان به.

ولما كان العالم في حال جهل بما في علم الله من تعيين تلك الطريق تعين الإعلام به

بصفة الكلام فلا بدّ من الرسول، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] ولا نوجب على الله إلاَّ ما أوجبه على نفسه، وقد أوجب التعريف على نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٩] مثل قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: الآية ٤٧] وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٤] وعلى الحقيقة إنما وجب ذلك على النسبة لا على نفسه، فإنه يتعالى أن يجب عليه من أجل حد الواجب الشرعيّ فكأنه لما تعلّق العلم الإلهيّ أزلاً بتعيين الطريق التي فيها سعادتنا ولم يكن للعلم بما هو علم صورة التبليغ وكان التبليغ من صفة الكلام تعين التبليغ على نسبة كونه متكلماً بتعريف الطريق التي فيها سعادة العباد التي عينها العلم، فأبان الكلام الإلهيّ بترجمته عن العلم ما عيّنه من ذلك فكان الوجوب على النسبة فإنها نسب مختلفة، وكذلك سائر النسب الإلهية من إرادة وقدرة وغير ذلك.

وقد بينّا محاضرة الأسماء الإلهية ومحاورتها ومجاراتها في حلبة المناظرة على إيجاد هذا العالم الذي هو عبارة عن كل ما سوى الله في كتاب عنقا مغرب بوّبنا عليه محاضرة أزلية على نشأة أبدية وكذلك في كتاب إنشاء الجداول والدوائر لنا، فقد علمت كيف تعلق الوجوب الإلهيّ على الحضرة الإلهية إن كنت فطناً لعلم النسب، وعلى هذا يخرج قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] وكيف يحشر إليه من هو جليسه وفي قبضته، سمع أبو يزيد البسطامي قارئاً يقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فبكى حتى ضرب الدمع المنبر، بل روي أنه طار الدم من عينيه حتى ضرب المنبر وصاح وقال: يا عجباً كيف يحشر إليه من هو جليسه؟ فلما جاء زماننا سئلنا عن ذلك فقلت: ليس العجب إلاَّ من قول أبي يزيد، فاعلموا إنما كان ذلك لأن المتقي جليس الجبار فيتقي سطوته والاسم الرحمن ما له سطوة من كونه الرحمن إنما الرحمن يعطي اللين واللطف والعفو والمغفرة فلذلك يحشر إليه من الاسم الجبار الذي يعطي السطوة والهيبة فإنه جليس المتقين في الدنيا من كونهم متقين، وعلى هذا الأسلوب تأخذ الأسماء الإلهية كلها وكذا تجدها حيث وردت في ألسنة النبوّات إذا قصدت حقيقة الاسم وتميّزه من غيره فإن له دلالتين: دلالة على المسمّى به، ودلالة على حقيقته التي بها يتميز عن اسم آخر فافهم.

واعلم أن هؤلاء الرجال إنما كان سبب اشتغالهم بمعرفة النية كونهم نظروا إلى الكلمة وفيها فعلموا أنها ما ألفت حروفها وجمعت إلاَّ لظهور نشأة قائمة تدل على المعنى الذي جمعت له في الإصلاح، فإذا تلفظ بها المتكلم فإن السامع يكون همّه في فهم المعنى الذي جاءت له فإن بذلك تقع الفائدة، ولهذا وجدت في ذلك اللسان على هذا الوضع الخاص، ولهذا لا يقول هؤلاء الرجال بالسماع المقيد بالنغمات لعلوّ همتهم ويقولون بالسماع المطلق، فإن السماع المطلق لا يؤثر فيهم إلاَّ فهم المعاني وهو السماع الروحانيّ الإلهيّ وهو سماع الأكابر، والسماع المقيّد إنما يؤثر في أصحابه النغم وهو السماع الطبيعي، فإذا ادَّعى من ادَّعى أنه يسمع في السماع المقيّد بالألحان المعنى ويقول: لولا المعنى ما تحرّكت، ويدعي أنه قد

خرج عن حكم الطبيعة في ذلك يعني في السبب المحرك فهو غير صادق، وقد رأينا من ادَّعى ذلك من المتشيخين المتطفلين على الطريقة، فصاحب هذه الدعوى إذا لم يكن صادقاً يكون سريع الفضيحة، وذلك أن هذا المدعي إذا حضر مجلس السماع فاجعل بالك منه، فإذا أخذ القوّال في القول بتلك النغمات المحركة بالطبع للمزاج القابل أيضاً وسرت الأحوال في النفوس الحيوانية فحركت الهياكل حركة دورية لحكم استدارة الفلك وهو أعني الدور ممّا يدلك على أن السماع طبيعيّ لأن اللطيفة الإنسانية ما هي عن الفلك وإنما هي عن الروح المنفوخ منه وهي غير متحيزة فهي فوق الفلك، فما لها في الجسم تحريك دوريّ ولا غير دوريّ، وإنما ذلك للروح الحيوانيّ الذي هو تحت الطبيعة والفلك، فلا تكن جاهلاً بنشأتك ولا بمن يحركك، فإذا تحرك هذا المدعي وأخذه الحال ودار أو قفز إلى جهة فوق من غير دور وقد غاب عن إحساسه بنفسه وبالمجلس الذي هو فيه، فإذا فرغ من حاله ورجع إلى إحساسه فاسأله ما الذي حركه فيقول: إن القوال قال كذا وكذا ففهمت منه معنى كذا وكذا، فذلك المعنى حركني فقل له: ما حرّكك سوى حسن النغمة والفهم إنما وقع لك في حكم التبعية فالطبع حكم على حيوانيتك، فلا فرق بينك وبين الجمل في تأثير النغمة فيك، فيعزّ عليه مثل هذا الكلام ويثقل ويقول لك ما عرفتني وما عرفت ما حركني فاسكت عنه ساعة فإن صاحب هذه الدعوى تكون الغفلة مستولية عليه، ثم خذ معه في الكلام الذي يعطي ذلك المعنى فقل له: ما أحسن قول الله تعالىٰ حيث يقول واتل عليه آية من كتاب الله تتضمن ذلك المعنى الذي كان حرّكه من صوت المغني وحقّقه عنده حتى يتحققه فيأخذ معك فيه ويتكلم، ولا يأخذه لذلك حال ولا حركة ولا فناء ولكن يستحسنه ويقول: لقد تتضمن هذه الآية معنى جليلاً من المعرفة بالله فما أشدّ فضيحته في دعواه، فقل له: يا أخي هذا المعنى بعينه هو الذي ذكرت لي أنه حرّكك في السماع البارحة لما جاء به القوّال في شعره بنغمته الطيبة فلأيّ معنى سرى فيك الحال البارحة، وهذا المعنى موجود فيما قد صغته لك وسقته بكلام الحق تعالىٰ الذي هو أعلى وأصدق، وما رأيتك تهتز مع الاستحسان وحصول الفهم وكنت البارحة يتخبطك الشيطان من المس كما قال الله تعالىٰ، وحجبك عن عين الفهم السماع الطبيعي فما حصل لك في سماعك إلاّ الجهل بك، فمن لا يفرق بين فهمه وحركته كيف يرجى فلاحه، فالسماع من عين الفهم هو السماع الإلهيّ، وإذا ورد على صاحبه وكان قوياً لما يرد به من الإجمال فغاية فعله في الجسم أن يضجعه لا غير ويغيبه عن إحساسه ولا يصدر منه حركة أصلاً بوجه من الوجوه، سواء كان من الرجال الأكابر أو الصغار، وهذا حكم الوارد الإلهيّ القويّ، وهو الفارق بينه وبين حكم الوارد الطبيعيّ، فإنّ الوارد الطبيعيّ كما قلنا يحرّكه الحركة الدورية والهيمان والتخبّط فعل المجنون، وإنما يضجعه الوارد الإلهيّ لسبب أذكره لك وذلك أن نشأة الإنسان مخلوقة من تراب قال تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ [سورة طه: الآية ٥٥] وإن كان فيه من جميع العناصر ولكن العنصر الأعظم التراب، قال عزّ وجلّ فيه أيضاً: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٥٩]

والإنسان في قعوده وقيامه بعد عن أصله الأعظم الذي منه نشأ من أكثر جهاته، فإنّ قعوده وقيامه وركوعه فروع.

فإذا جاءه الوارد الإلهيّ وللوارد الإلهيّ صفة القيومية وهي في الإنسان من حيث جسميته بحكم العرض وروحه المدبّر هو الذي كان يقيمه ويقعده، فإذا اشتغل الروح الإنساني المدبّر عن تدبيره بما يتلقاه من الوارد الإلهيّ من العلوم الإلهية لم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض المعبر عنه بالاضطجاع، ولو كان على سرير فإنّ السرير هو المانع له من وصوله إلى التراب، فإذا فرغ روحه من ذلك التلقي وصدر الوارد إلى ربه رجع الروح إلى تدبير جسده فأقامه من ضجعته، هذا سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحي عليهم، وما سمع قط عن نبيّ أنه تخبط عند نزول الوحي، هذا مع وجود الواسطة في الوحي وهو الملك، فكيف إذا كان الوارد برفع الوسائط لا يصحّ أن يكون منه قط غيبة عن إحساسه ولا يتغير عن حاله الذي هو عليه، فإنّ الوارد الإلهيّ برفع الوسائط الروحانية يسري في كلية الإنسان ويأخذ كل عضو بل كل جوهر فرد فيه حظه من ذلك الوارد الإلهيّ من لطيف وكثيف، ولا يشعر بذلك جليسه، ولا يتغير عليه من حاله الذي هو عليه من جليسه شيء إن كان يأكل بقي على أكله في حاله أو شربه أو حديثه الذي هو في حديثه فإن ذلك الوارد يعم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فمن كانت أينيته في ذلك الوقت حالة الأكل أو الشرب أو الحديث أو اللعب أو ما كان بقي على حاله.

فلما رأت هذه الطائفة الجليلة هذا الفرق بين الواردات الطبيعية والروحانية والإلهيّة، ورأت أن الالتباس قد طرأ على من يزعم أنه في نفسه من رجال الله تعالىٰ أنفوا أن يتصفوا بالجهل والتخليط فإنه محل الوجود الطبيعي، فارتقت همتهم إلى الاشتغال بالنيّات إذ كان الله قد قال لهم: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] والإخلاص النيّة ولهذا قيدها بقوله له ولم يقل مخلصين وهو من الاستخلاص فإن الإنسان قد يخلص نيّته للشيطان ويسمّى مخلصاً فلا يكون في عمله لله شيء، وقد يخلص للشركة وقد يخلص لله فلهذا قال تعالىٰ: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] لا لغيره ولا لحكم الشركة، فشغلوا نفوسهم بالأصل في قبول الأعمال ونيل السعادات وموافقة الطلب الإلهيّ منهم فيما كلفهم به من الأعمال الخالصة له وهو المعبّر عنه بالنيّة، فنسبوا إليها لغلبة شغلهم بها وتحققوا أن الأعمال ليست مطلوبة لأنفسها وإنما هي من حيث ما قصد بها وهو النيّة في العمل كالمعنى في الكلمة، فإنّ الكلمة ما هي مطلوبة لنفسها وإنما هي لما تضمنته. فانظر يا أخي ما أدق نظر هؤلاء الرجال، وهذا هو المعبر عنه في الطريق بمحاسبة النفس وقد قال رسول الله ﷺ: «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**».

ولقيت من هؤلاء الرجال اثنين: أبو عبد الله بن المجاهد، وأبو عبد الله بن قسوم بإشبيلية كان هذا مقامهم وكانوا من أقطاب الرجال النياتيين. ولما شرعنا في هذا المقام تأسّياً

بهما وبأصحابهما وامتثالاً لأمر رسول الله ﷺ الواجب امتثاله في أمره حاسبوا أنفسكم، وكان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيدونه في دفتر، فإذا كان بعد صلاة العشاء وخلوا في بيوتهم حاسبوا أنفسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم في يومهم من قول وعمل، وقابلوا كل عمل بما يستحقه، إن استحق استغفاراً استغفروا، وإن استحق توبة تابوا، وإن استحق شكراً شكروا، إلى أن يفرغ ما كان منهم في ذلك اليوم وبعد ذلك ينامون، فزدنا عليهم في هذا الباب بتقييد الخواطر، فكنا نقيد ما تحدثنا به نفوسنا وما تهم به زائداً على كلامنا وأفعالنا، وكنت أحاسب نفسي مثلهم في ذلك الوقت وأحضر الدفتر وأطالبها بجميع ما خطر لها وما حدثت به نفسها، وما ظهر للحسّ من ذلك من قول وعمل، وما نوته في ذلك الخاطر والحديث فقلّت الخواطر والفضول إلاّ فيما يعني، فهذا فائدة هذا الباب، وفائدة الاشتغال بالنية، وما في الطريق ما يغفل عنه أكثر من هذا الباب، فإن ذلك راجع إلى مراعاة الأنفاس وهي عزيزة.

وبعد أن عرفتك بأصول هذه الطائفة وما هو سبب شغلهم بذلك وأنه لهم أمر شرعي وما لهم في ذلك من الأسرار والعلوم، فاعلم أيضاً مقامهم في ذلك وما لهم، فهذه الطائفة على قلب يونس عليه السلام فإنه لما ذهب مغاضباً وظنّ أن الله لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمة الله فيه وما نظر ذلك الاتساع الإلهيّ الرحماني في حق غيره فتناله أمّته واقتصر به على نفسه والغضب ظلمة القلب فأثرت لعلوّ منصبه في ظاهره فأسكن في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله لينبّهه الله على حالته حين كان جنيناً في بطن أمّه من كان يدبّره فيه، وهل كان في ذلك الموطن يتصوّر منه أن يغاضب أو يغاضب، بل كان في كنف الله لا يعرف سوى ربّه، فردّه إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليماً له بالفعل لا بالقول، فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت عذراً عن أمّته في هذا التوحيد، أي تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على من تشاء ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٧] مشتق من الظلمة أي ظلمتي عادت عليّ ما أنت ظلمتني، بل ما كان في باطني سرى إلى ظاهري، وانتقل النور إلى باطني فاستنار فأزال ظلمة المغاضبة وانتشر فيه نور التوحيد وانبسطت الرحمة فسرى ذلك النور في ظاهره مثل ما سرت ظلمة الغضب فاستجاب له ربه فنجاه من الغم فقذفه الحوت من بطنه مولوداً على الفطرة السليمة، فلم يولد أحد من ولد آدم ولادتين سوى يونس عليه السلام فخرج ضعيفاً كالطفل كما قال: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٤٥] وربّاه باليقطين فإن ورقه ناعم ولا ينزل عليه ذباب، فإن الطفل لضعفه لا يستطيع أن يزيل الذباب عن نفسه، فغطاه بشجرة خاصيتها أن لا يقربها ذباب مع نعمة ورقها، فإن ورق اليقطين مثل القطن في النعمة بخلاف سائر ورق الأشجار كلها فإن فيها خشونة، وأنشأه الله عزّ وجلّ نشأة أخرى.

ولما رأت هذه الطائفة أن يونس عليه السلام ما أتى عليه إلاّ من باطنه من الصفة التي قامت به ومن قصده شغلوا نفوسهم بتمحيص النيّات والقصد في حركاتهم كلها حتى لا ينوون إلاّ ما أمرهم الله به أن ينووه ويقصدوه، وهذا غاية ما يقدر عليه رجال الله، وهذه الطائفة في

الرجال قليلون فإنه مقام ضيق جداً يحتاج صاحبه إلى حضور دائم، وأكبر من كان فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه في حرب اليمامة: فما هو إلاً أن رأيت أن الله عزّ وجلّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق، لمعرفة عمر باشتغال أبي بكر بباطنه، فإذا صدرت منه حركة في ظاهره فما تصدر إلاً من إله وهو عزيز، ولهذا كان من يفهم المقامات من المتقدمين من أهل الكتاب إذا سمعوا أو يقال لهم إنّ رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا يقولون هذا كلام ما خرج إلاً من إله أي هو كلام إلهيّ ما هو كلام مخلوق، فانظر ما أحسن العلم، وفي أيّ مقام ثبتت هذه الطائفة، وبأيّ قائمة استمسكت جعلنا الله منهم، فجلّ أعمالهم في الباطن مساكن السائحين منهم الغيران والكهوف وفي الأمصار ما بناه غيرهم من عباد الله تعالىٰ لا يضعون لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وهكذا كان رسول الله ﷺ إلى أن انتقل إلى ربّه ما بنى قط مسكناً لنفسه، وسبب ذلك أنهم رأوا الدنيا جسراً منصوباً من خشب على نهر عظيم وهم عابرون فيه راحلون عنه، فهل رأيتم أحداً بنى منزلاً على جسر خشب؟ لا والله ولا سيّما وقد عرف أن الأمطار تنزل، وأن النهر يعظم بالسيول التي تأتي، وأن الجسور تنقطع، فكل من بنى على جسر فإنما يعرّض به للتلف، فلو أن عمار الدنيا يكشف الله عن بصيرتهم حتى يروها جسراً ويروا النهر الذي بنيت عليه أنه خطر قوي ما بنوا الذي بنوا عليه من القصور المشيدة، فلم يكن لهم عيون يبصرون بها أن الدنيا قنطرة خشب على نهر عظيم خرّار، ولا كان لهم سمع يسمعون به قول الرسول العالم بما أوحى الله إليه به أن الدنيا قنطرة فلا بالإيمان عملوا ولا على الرؤية والكشف حصلوا، فهم كما قال الله فيهم: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧١] ثم تاب الله عليهم في حال سماعهم من الرسول ﷺ حين قال لهم: «**إِنَّ الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ وَأَشْباهُ ذٰلِكَ فَلاَ تَشْغَلُوا نُفُوسَكُمْ بِعَمَارَتِها وانْهَضُوا**» فما فرغ من قوله ﷺ حتى رجع كثير منهم إلى عماهم وصممهم مع كونهم مسلمين مؤمنين، فأخبر الله تعالىٰ نبيه بقوله: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧١] بعد التوبة، يقول: ما نفع القول فيهم.

يا وليّ لو فرضنا أن الدنيا باقية ألسنا نبصر رحلتنا عنها جيلاً بعد جيل؟ فمن أحوال هذه الطائفة مراعاتهم لقلوبهم وأسرارهم متعلقة بالله من حيث معرفة نفوسهم ولا اجتماع لهم بالنهار مع الغافلين بل حركتهم ليلية ونظرهم في الغيب الغالب عليهم مقام الحزن، فإن الحزن إذا فقد من القلب خرب، فالعارف يأكل الحلوى والعسل، والمحقق الكبير يأكل الحنظل فهو كثير التنغيص لا يلتذ بنعمة أبداً ما دام في هذه الدار لشغله بما كلفه الله من الشكر عليها لقيت منهم بدنيسر عمر الفرقوي، وبمدينة فاس: عبد الله السماد، والعارفون بالنظر إلى هؤلاء كالأطفال الذين لا عقول لهم يفرحون ويلتذون بخشخاشة فما ظنك بالمريدين؟ فما ظنك بالعامة لهم القدم الراسخة في التوحيد ولهم المشافهة في الفهوانية يقدمون النفي على الإثبات لأن التنزيه شأنهم كلفظة لا إله إلاً الله وهي أفضل كلمة جاءت بها الرسل والأنبياء توحيدهم كوني عقلي ليسوا من اللهو في شيء لهم الحضور التام على الدوام وفي جميع الأفعال،

اختصوا بعلم الحياة والأحياء لهم اليد البيضاء، فيعلمون من الحيوان ما لا يعلمه سواهم، ولا سيما من كل حيوان يمشي على بطنه لقربه من أصله الذي عنه تكوّن، فإن كل حيوان يبعد عن أصله ينقص من معرفته بأصله على قدر ما بعد منه، ألا ترى المريض الذي لا يقدر على القيام والقعود ويبقى طريحاً لضعفه وهو رجوعه إلى أصله تراه فقيراً إلى ربه مسكيناً ظاهر الضعف والحاجة بلسان الحال والمقال، وذلك أن أصله حكم عليه لما قرب منه يقول الله ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] وقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: الآية ٢٨] فإذا استوى قائماً وبَعُد عن أصله تَفَرْعَنَ وتجبر وادّعى القوّة وقال: أنا، فالرجل من كان مع الله في حال قيامه وصحته كحاله في اضطجاعه من المرض والضعف وهو عزيز لهم البحث الشديد في النظر في أفعالهم وأفعال غيرهم معهم من أجل النيّات التي بها يتوجهون وإليها ينسبون لشدة بحثهم عنها حتى تخلص لهم الأعمال ويخلصوها من غيرهم، ولهذا قيل فيهم النياتيون كما قيل الملامية والصوفية لأحوال خاصة هم عليها، فلهم معرفة الهاجس والهمة والعزم والإرادة والقصد، وهذه كلها أحوال مقدمة للنية، والنية هي التي تكون منه عند مباشرة أفعاله، وهي المعتبرة في الشرع الإلهيّ ففيها يبحثون وهي متعلق الإخلاص، وكان عالمنا الإمام سهل بن عبد الله يدقق في هذا الشأن وهو الذي نبّه على نقر الخاطر ويقول: إن النيّة هو ذلك الهاجس وأنه السبب الأول في حدوث الهم والعزم والإرادة والقصد فكان يعتمد عليه وهو الصحيح عندنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون

في معرفة شخص تحقق في منزل الأنفاس فعاين منها أموراً أذكرها إن شاء الله

[نظم: البسيط]

إن المحقَّقَ بالأنفاس رحمانُ ... فالعرشُ في حقه إن كان إنسانُ
وإن توجَّهَ نحو العين يطلبها ... له العَمَاءُ وإحسانٌ فإحسانُ
مقامُه باطنُ الأعراف يسكُنُهُ ... يزوره فيه أنصارٌ وأعوانُ
له من الليل إن حقَّقْتَ آخره ... كما له من وجودِ العين إنسانُ
إن لاح ظاهِرُه تقولُ قرآنٌ ... أو لاح باطِنُه تقول فُرْقَانُ
قد جمع الله فيه كلَّ منقَبَةٍ ... فهو الكمالُ الذي ما فيه نُقْصَانُ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أنّ المعلومات مختلفة لأنفسها، وأن الإدراكات التي تدرك بها المعلومات مختلفة أيضاً لأنفسها كالمعلومات، ولكن من حيث أنفسها وذواتها لا من حيث كونها إدراكات، وإن كانت مسألة خلاف عند أرباب النظر، وقد جعل الله لكل حقيقة مما يجوز أن يعلم إدراكاً خاصاً عادة لا حقيقة أعني محلها، وجعل المدرك بهذه الإدراكات لهذه المدركات عيناً واحدة وهي ستة أشياء: سمع، وبصر، وشم، ولمس، وطعم، وعقل، وإدراك، جميعها للأشياء ما عدا العقل ضروري، ولكن الأشياء التي ارتبطت بها عادة لا

تخطىء أبداً، وقد غلط في هذا جماعة من العقلاء ونسبوا الغلط للحسّ وليس كذلك وإنما الغلط للحاكم.

وأمّا إدراك العقل المعقولات فهو على قسمين: منه ضروري مثل سائر الإدراكات، ومنه ما ليس بضروري بل يفتقر في علمه إلى أدوات ست: منها الحواس الخمس التي ذكرناها. ومنها القوّة المفكرة ولا يخلو معلوم يصحّ أن يعلمه مخلوق أن يكون مدركاً بأحد هذه الإدراكات، وإنما قلنا إن جماعة غلطت في إدراك الحواس فنسبت إليها الأغاليط وذلك أنهم رأوا إذا كانوا في سفينة تجري بهم مع الساحل رأوا الساحل يجري بجري السفينة، فقد أعطاهم البصر ما ليس بحقيقة ولا معلوم أصلاً، فإنهم عالمون علماً ضرورياً أن الساحل لم يتحرك من مكانه ولا يقدرون على إنكار ما شاهدوه من التحرّك، وكذلك إذا طعموا سكراً أو عسلاً فوجدوه مرّاً وهو حلو فعلموا ضرورة أن حاسة الطعم غلطت عندهم ونقلت ما ليس بصحيح والأمر عندنا ليس كذلك، ولكن القصور والغلط وقع من الحاكم الذي هو العقل لا من الحواس، فإن الحواس إدراكها لما تعطيه حقيقتها ضروري، كما أن العقل فيما يدركه بالضرورة لا يخطىء وفيما يدركه بالحواس أو بالفكر قد يغلط فما غلط حسّ قط ولا ما هو إدراكه ضروري، فلا شك أن الحسّ رأى تحرّكاً بلا شك ووجد طعماً مرّاً بلا شك، فأدرك البصر التحرّك بذاته، وأدرك الطعم قوّة المرارة بذاته وجاء عقل فحكم أن الساحل متحرك وأن السكر مرّ، وجاء عقل آخر وقال: إن الخلط الصفراوي قام بمحل الطعم فأدرك المرارة وحال ذلك الخلط بين قوّة الطعم وبين السكر، فإذن فما ذاق الطعم إلاّ مرارة الصفراء، فقد أجمع العقلان من الشخصين على أنه أدرك المرارة بلا شك، واختلف العقلان فيما هو المدرك للطعم فبان أن العقل غلط لا الحسّ، فلا ينسب الغلط أبداً في الحقيقة إلاّ للحاكم لا للشاهد.

وعندي في هذه المسألة أمر آخر يخالف ما ادّعوه وهو أن الحلاوة التي في الحلو وغير ذلك من المطعومات ليس هو في المطعوم لأمر إذا بحثت عليه وجدت صحة ما ذهبنا إليه، وكذا الحكم في سائر الإدراكات، ولو كان في العادة فوق العقل مدرك آخر يحكم على العقل ويأخذ عنه كما يحكم العقل على الحسّ لغلط أيضاً ذلك المدرك الحاكم فيما هو للعقل ضروري، وكان يقول: إن العقل غلط فيما هو له ضروريّ، فإذا تقرر هذا وعرفت كيف رتب الله المدركات والإدراكات وأن ذلك الارتباط أمر عادي فاعلم أن لله عباداً آخرين خرق لهم العادة في إدراكهم العلوم، فمنهم من جعل له إدراك ما يدرك بجميع القوىٰ من المعقولات والمحسوسات بقوّة البصر خاصة وآخر بقوّة السمع وهكذا بجميع القوىٰ، ثم بأمور عرضية خلاف القوىٰ من ضرب وحركة وسكون وغير ذلك. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ بِيَدِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**» فدخل في هذا العلم كل معلوم معقول ومحسوس مما يدركه المخلوق، فهذا علم حاصل لا عن قوّة من القوىٰ الحسيّة والمعنوية فلهذا قلنا: إن ثم سبباً آخر خلاف هذه القوىٰ تدرك به المعلومات.

وإنما قلنا قد تدرك العلوم بغير قواها المعتادة فحكمنا على هذه الإدراكات لمدركاتها

المعتادة بالعادة من أجل المتفرّس، فينظر صاحب الفراسة في الشخص فيعلم ما يكون منه أو ما خطر له في باطنه أو ما فعل وكذلك الزاجر وأشباهه، وإنما جئنا بهذا كله تأنيساً لما نريد أن ننسبه إلى أهل الله من الأنبياء والأولياء فيما يدركونه من العلوم على غير الطرق المعتادة، فإذا أدركوها نسبوا إلى تلك الصفة التي أدركوا بها المعلومات فيقولون: فلان صاحب نظر أي بالنظر يدرك جميع المعلومات وهذا ذقته مع رسول الله ﷺ، وفلان صاحب سمع، وفلان صاحب طعم وصاحب نفس وأنفاس يعني الشمّ، وصاحب لمس، وفلان صاحب معنى وهذا خارج عن هؤلاء بل هو كما يقال في العامة: صاحب فكر صحيح، فمن الناس من أعطي النظر إلى آخر القوىٰ على قدر ما أعطي وهو له عادة إذا استمر ذلك عليه لأنه مشتق من العود أي يعود ذلك عليه في كل نظرة أو في كل شمّ ما ثم غير ذلك، وكذلك أيضاً لتعلم أن الأسماء الإلهية مثل هذا وأن كل اسم يعطي حقيقة خاصة، ففي قوّته أن يعطي كل واحد من الأسماء الإلهية ما تعطيه جميع الأسماء قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] وكذلك لو ذكر كل اسم لقال فيه: إنّ له الأسماء الحسنى وذلك لأحدية المسمّى فاعلم ذلك، فمن الناس من يختص به الاسم الله فتكون معارفه إلهية، ومنهم من يختص به الاسم الرحمن فتكون معارفه رحمانية كما كانت في القوىٰ الكونية يقال فيها: معارف هذا الشخص نظرية وفي حق آخر سمعية فهو من عالم النظر وعالم السمع وعالم الأنفاس، هكذا تنسب معارفه في الإلهيات إلى الاسم الإلهيّ الذي فتح له فيه فتندرج فيه حقائق الأسماء كلها.

فإذا علمت هذا أيضاً فاعلم أن الذي يختص بهذا الباب من الأسماء الإلهية لهذا الشخص المعين الاسم الرحمن، والذي يختص به من القوىٰ فينسب إليها قوّة الشم ومتعلقها الروائح وهي الأنفاس فهو من عالم الأنفاس في نسبة القوىٰ، ومن الرحمانيين في مراتب الأسماء فنقول: إن هذا الشخص المعين في هذا الباب سواء كان زيداً أو عمراً معرفته رحمانية، فكل أمر ينسب إلى الاسم الرحمن في كتاب أو سنة فإنه ينسب إلى هذا الشخص، فإنّ هذا الاسم هو الممدّ له وليس لاسم إلهيّ عليه حكم إلاّ بوساطة هذا الاسم على أيّ وجه كان ولهذا نقول: إن الله سبحانه قد أبطن في مواضع رحمته في عذابه ونقمته كالمريض الذي جعل في عذابه بالمرض رحمته به فيما يكفر عنه من الذنوب فهذه رحمة في نقمة، وكذلك من انتقم منه في إقامة الحدّ من قتل أو ضرب فهو عذاب حاضر فيه رحمة باطنة بها ارتفعت عنه المطالبة في الدار الآخرة كما أنه في نعمته في الدنيا من الاسم المنعم أبطن نقمته فهو ينعم الآن بما به يتعذب لبطون العذاب فيه في الدار الآخرة أو في زمان التوبة، فإنّ الإنسان إذا تاب ونظر وفكر فيما تلذّذ به من المحرّمات تعود تلك الصور المستحضرة عليه عذاباً، وكان قبل التوبة حين يستحضرها في ذهنه يلتذّ بها غاية اللذة، فسبحان من أبطن رحمته في عذابه، وعذابه في رحمته، ونعمته في نقمته، ونقمته في نعمته، فالمبطون أبداً هو روح العين الظاهرة أيّ شيء كان فهذا الشخص لما كانت معرفته رحمانية وكان الاسم الرحمن استوى على

العرش فقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] كانت همة هذا الشخص عرشية، فكما كان العرش للرحمن كانت الهمة لهذه المعرفة محلاً لاستوائها، فقيل: همته عرشية، ومقام هذا الشخص باطن الأعراف وهو السور الذي بين أهل السعادة والشقاوة للأعراف رجال سيذكرون وهم الذين لم تقيدهم صفة كأبي يزيد وغيره، وإنما كان مقامه باطن الأعراف لأن معرفته رحمانية وهمته عرشية فإن العرش مستوى الرحمن، كذلك باطن الأعراف فيه الرحمة كما أن ظاهره فيه العذاب، فهذا الشخص له رحمة بالموجودات كلها بالعصاة والكفار وغيرهم.

قال تعالىٰ لسيد هذا المقام وهو محمد ﷺ حين دعا على رعل وذكوان وعصية بالعذاب والانتقام فقال: عليك بفلان وفلان وذكر ما كان منهم قال الله له: إن الله ما بعثك سبّاباً ولا لعّاناً ولكن بعثك رحمة فنهي عن الدعاء عليهم وسبّهم وما يكرهون وأنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧] فعمّ العالم أي لترحمهم وتدعوني لهم لا عليهم، فيكون عوض قوله لعنهم الله تاب الله عليهم وهداهم كما قال حين جرحوه: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، يريد من كذبه من غير أهل الكتاب والمقلدة من أهل الكتاب لا غيرهم، فلهذا قلنا في حق هذا الشخص صاحب هذا المقام إنه رحيم بالعصاة والكفار، فإذا كان حاكماً هذا الشخص وأقام الحدّ أو كان ممّن تتعين عليه شهادة في إقامة حدّ فشهد به أو أقامه فلا يقيمه إلاّ من باب الرحمة، ومن الاسم الرحمن في حق المحدود والمشهود عليه لا من باب الانتقام، وطلب التشفي لا يقتضيه مقام هذا الاسم فلا يعطيه حاله هذا الشخص.

قال تعالىٰ في قصة إبراهيم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة مريم: الآية ٤٥] ومن كان هذا مقامه ومعرفته وهذا الاسم الرحمن ينظر إليه فيعاين من الأسرار ذوقاً ما بين نسبة الاستواء إلى العرش وما بين نسبة الأين إلى العماء هل هما على حدّ واحد أو يختلف ويعلم ما للحق من نعوت الجلال واللطف معاً بين العماء والاستواء إذ قد كان في العماء ولا عرش فيوصف بالاستواء عليه. ثم خلق العرش واستوى عليه بالاسم الرحمن، وللعرش حدّ يتميز به من العماء الذي هو الاسم الرب، وللعماء حدّ يتميز به عن العرش، ولا بدّ من انتقال من صفة إلى صفة، فما كان نعته تعالىٰ بين العماء والعرش أو بأيّ نسبة ظهر بينهما إذ قد تميز كل واحد منهما عن صاحبه بحدّه وحقيقته كما يتميز العماء الذي فوقه الهواء وتحته الهواء وهو السحاب الرقيق الذي يحمله الهواء الذي تحته وفوقه عن العماء الذي ما فوقه هواء وما تحته هواء فهو عماء غير محمول، فيعلم السامع أن العماء الذي جعل للرب أينية أنه عماء غير محمول، ثم جاء قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢١٠] فهل هذا الغمام هو راجع إلى ذلك العماء فيكون العماء حاملاً للعرش ويكون العرش مستوى الرحمن فتجمع القيامة بين العماء والعرش، أو هو هذا المقام المقصود الذي

فوقه هواء وتحته هواء؟ فصاحب هذا المقام يعطى علم ذلك كله، ثم إنّ صاحب هذا المقام يعطى أيضاً من العلوم الإلهية من هذا النوع بالاسم الرحمن نزول الرب إلى سماء الدنيا من العرش يكون هذا النزول أو من العماء فإن العماء إنما ورد حين وقع السؤال عن الاسم الرب فقيل له: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ فقال: كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء، فاسم (كان) المضمر هو ربنا، وقال: ينزل ربنا إلى السماء؛ فيدلك هذا على أن نزوله إلى السماء الدنيا من ذلك العماء كما كان استواؤه على العرش من ذلك العماء، فنسبته إلى السماء الدنيا كنسبته إلى العرش لا فرق، فما فارق العرش في نزوله إلى السماء الدنيا، ولا فارق العماء في نزوله إلى العرش ولا إلى السماء الدنيا.

ولما أخبر النبيّ ﷺ أنّ الله يقول في هذا النزول إلى السماء الدنيا: «**هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟**» فهذا كله من باب رحمته ولطفه، وهذا حقيقة الاسم الرحمن الذي استوى على العرش فنزلت هذه الصفة مع الاسم الرب إلى السماء الدنيا فهو ما أعلمناك به أن كل اسم إلهيّ يتضمن حكم جميع الأسماء الإلهيّة من حيث إن المسمّى واحد، فيعلم صاحب هذا المقام من هذا النزول الربانيّ السماويّ ما يختص بالاسم الرحمن منه الذي قال به: فهل من تائب؟ هل من مستغفر؟ فإن الرحمن يطلب هذا القول بلا شك، فهذا حظ ما يعلم صاحب هذا المقام من هذا النزول بلا واسطة، ويعلم نزول الرب من العماء إلى السماء بوساطة الاسم الرحمن لأنه ليس للاسم الرب على صاحب هذا المقام سلطان، فإنه كما قلنا الاسم الرحمن فلا يعلم من الاسم الرب ولا غيره أمراً إلاّ بالاسم الرحمن، فيعلم عند ذلك بإعلام الرحمن إياه ما أراد الحق بنزوله من العماء إلى السماء على هذا الوجه هي معرفته.

ثم ممّا يختص بعلمه صاحب هذا المقام بوساطة الاسم الرحمن علم قول الله: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن، فأتى بياء الإضافة في السعة والعبودية فلم يأخذ من الله إلاّ قدر ما تعطيه الياء خاصة، ويتضمن هذا علمين: علماً بما فيه من العناية بعبده المؤمن فيأخذه من الاسم الرحمن بذاته، وعلماً بما فيه من سرّ الإضافة بحرف الياء فيأخذه من الله بترجمة الاسم الرحمن فيعلم أن للسعة هنا المراد بها الصورة التي خلق الإنسان عليها كأنه يقول: ما ظهرت أسمائي كلها إلاّ في النشأة الإنسانية، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] أي الأسماء الإلهية التي وجدت عنها الأكوان كلها ولم تعطها الملائكة. وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وإن كان الضمير عندنا متوجهاً أن يعود على آدم فيكون فيه ردّ على بعض النظار من أهل الأفكار، ويتوجه أن يعود على الله لتخلقه بجميع الأسماء الإلهية، فعلمت أن هذه السعة إنما قبلها العبد المؤمن لكونه على الصورة، كما قبلت المرآة صورة الرائي دون غيرها مما لا صقالة فيه ولا صفاء، ولم يكن هذا للسماء لكونها شفافة ولا للأرض لكونها غير مصقولة، فدل على أن خلق الإنسان وإن كان

عن حركات فلكية هي أبوه، وعن عناصر قابلة وهي أمّه، فإن له من جانب الحق أمراً ما هو في آبائه ولا في أمّهاته، من ذلك الأمر وسع جلال الله تعالىٰ إذ لو كان ذلك من قبل أبيه الذي هو السماء أو أمّه التي هي الأرض أو منهما لكان السماء والأرض أولى بأن يسعا الحق ممّن تولد عنهما ولا سيما والله تعالىٰ يقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة غافر: الآية ٥٧] يريد في المعنى لا في الجرمية، ومع هذا فاختص الإنسان بأمر أعطاه هذه السعة التي ضاق عنها السماء والأرض، فلم تكن له هذه السعة إلاّ من حيث أمر آخر من الله فضل به على السماء والأرض، فكل واحد من العالم فاضل مفضول، فقد فضّل كل واحد من العالم من فضله لحكمة الافتقار والنقص الذي هو عليه كل ما سوى الله، فإنّ الإنسان إذا زها بهذه السعة وافتخر على الأرض والسماء جاءه قوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وإذا زهت السماء والأرض بهذه الآية على الإنسان جاء قوله: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي، فأزال عنه هذا العلم ذلك الزهو والفخر وعنهما، وافتقر الكل إلى ربه وانحجب عن زهوه ونفسه. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن بعض الناس يعلم ذلك. وعلم هذا من علمه منا من الاسم الرحمن الذي هو له وبه تحقق فسل به خبيراً فرحمه عندما زها بعلم ما فضل به على السماء والأرض وعلم من ذلك أنه ما حصل له من الاسم الرحمن إلاّ قدر ما كشف له مما فيه دواؤه، فإن ذلك الأمر الذي به فضّل السماء والأرض هذا العبد هو أيضاً من الاسم الرحمن ما جاد به على هذا العبد ولا تقول إنّ هذا طعن في كونه نسخة من العالم بل هو على الحقيقة نسخة جامعة باعتبار أنّ فيه شيئاً من السماء بوجه ما، ومن الأرض بوجه ما، ومن كل شيء بوجه ما لا من جميع الوجوه. فإن الإنسان على الحقيقة من جملة المخلوقات لا يقال فيه إنه سماء ولا أرض ولا عرش ولكن يقال فيه: إنه يشبه السماء من وجه كذا، والأرض من وجه كذا، والعرش من وجه كذا، وعنصر النار من وجه كذا، وركن الهواء من وجه كذا، والماء والأرض وكل شيء في العالم، فبهذا الاعتبار يكون نسخة وله اسم الإنسان كما للسماء اسم السماء.

ومن علوم صاحب هذا المقام نزول القرآن فرقاناً لا قرآناً، فإذا علمه قرآناً فليس من الاسم الرحمن وإنما الاسم الرحمن ترجم له عن اسم آخر إلهيّ يتضمنه الاسم الرحمن، وأنه نزل في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، فعرف بنزوله مقادير الأشياء وأوزانها وعرف بقدره منها، كما نزل الرب تعالىٰ في الثلث الباقي من الليل، فالليل محل النزول الزمانيّ للحق وصفته التي هي القرآن، وكان الثلث الباقي من الليل في نزول الرب غيب محمد ﷺ وغيب هذا النوع الإنسانيّ، فإن الغيب ستر والليل ستر، وسمّي هذا الباقي من الليل الثلث لأن هذه النشأة الإنسانية لها البقاء دائماً في دار الخلود، فإنّ الثلثين الأوّلين ذهبا بوجود الثلث الباقي أو الآخر من الليل فيه نزل الحق فأوجب له البقاء أيضاً وهو ليل لا يعقبه صباح أبداً فلا يذهب لكن ينتقل من حال إلى حال ومن دار إلى دار، كما ينتقل الليل من مكان إلى مكان أمام الشمس،

وإنما يفرّ أمامها لئلاّ تذهب عينه إذ كان النور ينافي الظلمة وتنافيه، غير أن سلطان النور أقوى فالنور ينفر الظلمة والظلمة لا تنفر النور، وإنما هو النور ينتقل فتظهر الظلمة في الموضع الذي لا عين للنور فيه.

ألا ترى الحق تسمّى بالنور ولم يتّسم بالظلمة إذ كان النور وجوداً والظلمة عدماً، وإذ كان النور لا تغالبه الظلمة بل النور الغالب، كذلك الحق لا يغالبه الخلق بل الحق الغالب فسمّى نفسه نوراً فتذهب السماء وهو الثلث الأوّل من الليل، وتذهب الأرض وهو الثلث الثاني من الليل، ويبقى الإنسان في الدار الآخرة أبد الآبدين إلى غير نهاية وهو الثلث الباقي من الليل وهو الولد عن هذين الأبوين السماء والأرض، فنزل القرآن في الليلة المباركة في الثلث الآخر منها وهو الإنسان الكامل ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤] فتميز عن أبويه بالبقاء ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان: ١٩٣، ١٩٤] هو محمد ﷺ، ألا ترى الشارع كيف قال في ولد الزنى إنه شرّ الثلاثة، وكذلك ولد الحلال خير الثلاثة من هذا الوجه خاصة، فإن الماء الذي خلق منه الولد من الرجل والمرأة أراد الخروج وهو الماء الذي تكوّن منه الولد وهو الأمر الثالث فحرّك لما أراد الخروج الأبوين للنكاح ليخرج وكان تحريكه لهما على غير وجه مرضيّ شرعاً يسمّى سفاحاً فقيل فيه إنه شرّ الثلاثة أي هو سبب الحركة التي بها انطلق عليهم اسم الشرّ فجعله ثلاثة أثلاث: الأبوان ثلثان والولد ثالث. كذلك قسّم الليل على ثلاثة أثلاث: ثلثان ذاهبان وهما السماء والأرض، وثلث باق وهو الإنسان، وفيه ظهرت صورة الرحمن وفيه نزل القرآن.

وإنما سميت السماء والأرض ليلاً لأن الظلمة لها من ذاتها والإضاءة فيها من غيرها من الأجسام المستنيرة التي هي الشمس وأمثالها، فإذا زالت الشمس أظلمت السماء والأرض، فهذا يا أخي قد استفدت علوماً لم تكن تعرفها قبل هذا وهي علوم هذا الشخص المحقق بمنزل الأنفاس، وكل ما أدركه هذا الشخص فإنما أدركه من الروائح بالقوّة الشميّة لا غير، وقد رأينا منهم جماعة بإشبيلية وبمكة وبالبيت المقدس وفاوضناهم في ذلك مفاوضة حال لا مفاوضة نطق، كما أني فاوضت طائفة أخرى من أصحاب النظر البصريّ بالبصر فكنت أسأل وأجاب ونسأل ونجيب بمجرّد النظر ليس بيننا كلام معتاد ولا اصطلاح بالنظر أصلاً، لكن كنت إذا نظرت إليه علمت جميع ما يريده مني، وإذا نظر إليّ علم جميع ما نريده منه، فيكون نظره إليّ سؤالاً أو جواباً ونظري إليه كذلك، فنحصل علوماً جمّة بيننا من غير كلام، ويكفي هذا القدر من بعض علم هذا الشخص فإن علومه كثيرة أحطنا بها، فمن أراد أن يعرف مما ذكرناه شيئاً فليعلم الفرق بين في في قوله: كان في عماء، وبين استوى في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥] ولم يقل في كما قال في السماء وفي الليل، ويتبين لك في كل ما ذكرناه مقام جمع الجمع، ومقام الجمع، ومقام التفرقة، ومقام تمييز المراتب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع عشر.

(الجزء العشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس والثلاثون

في معرفة هذا الشخص المحقق في منزل الأنفاس وأسراره بعد موته رضي الله عنه

[نظم : البسيط]

العبدُ من كان في حال الحياة به ... كحالِه بعد موتِ الجسم والرُّوحِ
والعبدُ من كان في حال الحِجَابِ به ... نوراً كإشراق ذات الأرض من يُوحِ
فحالةُ الموت لا دعوى تصاحِبُها ... كما الحياةُ لها الدَّعوَى بتَصْريحِ
في حقِّ قومٍ وفي قومٍ تكون لهم ... تلك الدَّعَاوَى بإيماء وتَلْويحِ
فإن فهمتَ الذي قلْناه قمتَ به ... وزناً تنزَّه عن نَقْصٍ وتَرْجيحِ
وكنتَ ممّن تزكِّيه حقائقُه ... ولا سبيلَ إلى طعنٍ وتجريحِ
وإن جهلتَ الذي قلناه جئتَ إلى ... دار السؤال بصدر غَيْرِ مَشْرُوحِ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أن هذا الشخص المحقق في منزل الأنفاس أيّ شخص كان فإن حاله بعد موته يخالف سائر أحوال الموتى، فلنذكر أوّلاً حصر مآخذ أهل الله العلوم من الله كما قرّرناه في الباب قبل هذا، ولنذكر ما لهم وآثار تلك المآخذ في ذواتهم فلنقل: اعلم يا أخي أن علم أهل الله المأخوذ من الكشف أنه على صورة الإيمان سواء، فكل ما يقبله الإيمان عليه يكون كشف أهل الله فإنه حق كله والمخبر به وهو النبيّ ﷺ مخبر به عن كشف صحيح، وذوات العلماء بالله تعالىٰ تكون على صفة الشيء الذي تأخذ منه العلم بالله أي شيء كان.

واعلم أن الصفات على نوعين: صفات نفسية وصفات معنوية، فالصفات المعنوية في الموصوف هي التي إذا رفعتها عن الذات الموصوفة بها لم ترتفع الذات التي كانت موصوفة بها، والصفات النفسية هي التي إذا رفعتها عن الموصوف بها ارتفع الموصوف بها ولم يبق له عين في الوجود العينيّ ولا في الوجود العقليّ حيث ما رفعتها، ثم إنه ما من صفة نفسية للموصوف التي هي ليست بشيء زائد على ذاته إلاّ ولها صفة نفسية بها يمتاز بعضها عن بعض، فإنه قد تكون ذات الموصوف مركبة من صفتين نفسيتين إلى ما فوق ذلك وهي الحدود الذاتية، وهنا باب مغلق لو فتحناه لظهر ما يذهب بالعقول ويزيل الثقة بالمعلوم، وربما كان يؤول الأمر في ذلك إلى أن يكون السبب الأوّل من صفات نفس الممكنات، كما أنك إذا جعلت السبب شرطاً في وجود المشروط ورفعت الشرط ارتفع المشروط بلا شك ولا يلزم العكس فهذا يطرد ولا ينعكس، فتركناه مقفلاً لمن يجد مفتاحه فيفتحه.

وإذا كان الأمر عندنا وعند كل عاقل بهذه المثابة فقد علمت أن الصفات معان لا تقوم

بأنفسها وما لها ظهور إلاً في عين الموصوف، والصفات النفسية معان وهي عين الموصوف والمعاني لا تقوم بأنفسها فكيف تكون هي عين الموصوف لا غيره فيوصف الشيء بنفسه وصار قائماً بنفسه من حقيقته ألا يقوم بنفسه؟ فإن كل موصوف هو مجموع صفاته النفسية والصفات لا تقوم بأنفسها، وما ثم ذات غيرها تجمعها وتظهر، وقد نبهتك على أمر عظيم لتعرف لماذا يرجع علم العقلاء من حيث أفكارهم، ويتبين لك أن العلم الصحيح لا يعطيه الفكر ولا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم، وأن العلم الصحيح إنما هو ما يقذفه الله في قلب العالم وهو نور إلهيّ يختصّ به من يشاء من عباده من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن، ومن لا كشف له لا علم له، ولهذا جاءت الرسل والتعريف الإلهيّ بما تحيله العقول فتضطر إلى التأويل في بعضها لتقبله، وتضطر إلى التسليم والعجز في أمور لا تقبل التأويل أصلاً، وغايته أن يقول له وجه لا يعلمه إلاً الله لا تبلغه عقولنا، وهذا كله تأنيس للنفس لا علم حتى لا تردّ شيئاً مما جاءت به النبوّة، هذا حال المؤمن العاقل، وأمّا غير المؤمن فلا يقبل شيئاً من ذلك.

وقد وردت أخبار كثيرة مما تحيلها العقول: منها في الجناب العالي، ومنها في الحقائق وانقلاب الأعيان، فأمّا التي في الجناب العالي فما وصف الحق به نفسه في كتابه وعلى لسان رسله ممّا يجب الإيمان به ولا يقبله العقل بدليله على ظاهره إلاً إن تأوّله بتأويل بعيد، فإيمانه إنما هو بتأويله لا بالخبر ولم يكن له كشف إلهيّ كما كان للنبيّ فيعرف مراد الحق في ذلك الخبر، فوصف نفسه سبحانه بالظرفية الزمانية والمكانية، ووصفه بذلك رسوله ﷺ وجميع الرسل وكلهم على لسان واحد في ذلك لأنهم يتكلمون عن إله واحد، والعقلاء أصحاب الأفكار اختلفت مقالاتهم في الله تعالىٰ على قدر نظرهم، فالإله الذي يعبد بالعقل مجرّداً عن الإيمان كأنه بل هو إله موضوع بحسب ما أعطاه نظر ذلك العقل، فاختلفت حقيقته بالنظر إلى كل عقل وتقابلت العقول، وكل طائفة من أهل العقول تجهل الأخرى بالله وإن كانوا من النظار الإسلاميين المتأولين، فكل طائفة تكفر الأخرى، والرسل صلوات الله عليهم من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ ما نقل عنهم اختلاف فيما ينسبونه إلى الله من النعوت، بل كلهم على لسان واحد في ذلك، والكتب التي جاؤوا بها كلها تنطق في حق الله بلسان واحد، ما اختلف منهم اثنان يصدق بعضهم بعضاً مع طول الأزمان وعدم الاجتماع وما بينهم من الفرق المنازعين لهم من العقلاء ما اختل نظامهم، وكذلك المؤمنون بهم على بصيرة المسلمون، المسلمون الذين لم يدخلوا نفوسهم في تأويل فهم أحد رجلين: إمّا رجل آمن وسلم وجعل علم ذلك إليه إلى أن مات وهو المقلّد. وإمّا رجل عمل بما علم من فروع الأحكام واعتقد الإيمان بما جاءت به الرسل والكتب، فكشف الله عن بصيرته وصيّره ذا بصيرة في شأنه كما فعل بنبيه ورسوله ﷺ وأهل عنايته، فكاشف وأبصر ودعا إلى الله عزّ وجلّ على بصيرة كما قال الله تعالىٰ في حق نبيه ﷺ مخبراً له: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهؤلاء هم العلماء بالله العارفون وإن لم يكونوا رسلاً ولا أنبياء فهم على بينة

من ربهم في علمهم به وبما جاء من عنده، وكذلك وصف نفسه بكثير من صفات المخلوقين من المجيء والإتيان والتجلّي للأشياء والحدود والحجب والوجه والعين والأعين واليدين والرضى والكراهة والغضب والفرح والتبشبش، وكل خبر صحيح ورد في كتاب وسنّة. والأخبار أكثر من أن تحصى ممّا لا يقبلها إلاّ مؤمن بها من غير تأويل أو بعض أرباب النظر من المؤمنين بتأويل اضطره إليه إيمانه، فانظر مرتبة المؤمن ما أعزّها ومرتبة أهل الكشف ما أعظمها حيث ألحقت أصحابها بالرسل والأنبياء عليهم السلام فيما خصّوا به من العلم الإلهي لأن العلماء ورثة الأنبياء، وما ورثوا ديناراً ولا درهماً بل ورثوا العلم، يقول ﷺ: «**إنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُوَرِّثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَة**» فمن كان عنده شيء من هذه الدنيا فليوقفه صدقة على من يراه من الأقربين إلى الله فهو النسب الحقيقي أو يزهد فيه ولا يترك شيئاً يورث عنه إن أراد أن يلحق بهم ولا يرث أحداً، فالحمد لله الذي أعطانا من هذا المقام الحظ الوافر، فهذا بعض ما ورد علينا من الله عزّ وجلّ في الله تعالىٰ من الأوصاف.

وأمّا في قلب الحقائق فلا خلاف بين العقلاء في أنه لا يكون، ودلّ دليل العقل القاصر من جهة فكره ونظره لا من جهة إيمانه وقبوله إذ لا أعقل من الرسل وأهل الله أنّ الأعيان لا تنقلب حقيقة في نفسها، وأن الصفات والأعراض في مذهب من يقول إنها أعيان موجودة لا تقوم بأنفسها، ولا بدّ لها من محل قائم بنفسه أو غير قائم بنفسه لكنه في قائم بنفسه ولا بدّ، ومثال الأول: السواد مثلاً أو أي لون كان لا يقوم إلاّ بمحل يقال فيه لقيام السواد به أسود، ومثال الثاني: كالسواد المشرق مثلاً، فالسواد هو المشرق فإنه نعت له فهذا معنى قولي أو غير قائم بنفسه لكنه في قائم بنفسه، وهذه مسألة خلاف بين النظار هل يقوم المعنى بالمعنى؟ فمن قائل به ومانع من ذلك، وقد ثبت أن جميع الأعمال كلها أعراض وأنها تفنى ولا بقاء لها، وأنه ليس لها عين موجودة بعد ذهابها ولا توصف بالانتقال، وأن الموت إمّا عرض موجود في الميت في مذهب بعض النظار، وإمّا نسبة افتراق بعد اجتماع، وكذا جميع الأكوان في مذهب بعضهم وهو الصحيح الذي يقتضيه الدليل، وعلى كل حال فإنه لا يقوم بنفسه.

ووردت الأخبار النبوية بما يناقض هذا كله، مع كوننا مجمعين على أن الأعمال أعراض أو نسب، فقال الشارع وهو الصادق صاحب العلم الصحيح والكشف الصريح: «**إن المَوْتَ يُجاء به يوم القيامة في صورة كَبِشٍ أمْلَحَ يعرفه الناس ولا يُنكره أحدٌ فيُذبح بين الجنة والنار**». روي أن يحيىٰ عليه السلام هو الذي يضجعه ويذبحه بشفرة تكون في يده والناس ينظرون إليه. وورد أيضاً في الخبر أن عمل الإنسان يدخل معه في قبره في صورة حسنة أو قبيحة فيسأله صاحبه فيقول: أنا عملك. وأن مانع الزكاة يأتيه ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان، وأمثال هذا في الشرع لا تحصى كثرة. فأمّا المؤمنون فيؤمنون بهذا كله من غير تأويل. وأمّا أهل النظر من أهل الإيمان وغيرهم فيقولون: حملُ هذا على ظاهره محال عقلاً، وله تأويل فيتأولونه بحسب ما يعطيهم نظرهم فيه. ثم يقولون أهل الإيمان منهم عقيب تأويلهم والله أعلم يعني في ذلك التأويل الخاص الذي ذهب إليه: هل هو المراد لله أم لا؟ وأمّا حمله على

ظاهره فمحال عندهم جملة واحدة، والإيمان إنما يتعلق بلفظ الشارع به خاصة، هذا هو اعتقاد أهل الأفكار.

وبعد أن بينّا لك هذه الأمور ومراتب الناس فيها فإنها من هذا الباب الذي نحن بصدده فاعلم أنه ما ثم إلا ذوات أوجدها الله تعالىٰ فضلاً منه عليها قائمة بأنفسها، وكل ما وصفت به فنسب وإضافات بينها وبين الحق من حيث ما وصفت، فإذا أوجد الموجد قيل فيه إنه قادر على الإيجاد ولولا ذاك ما أوجد، وإذا خصّص الممكن بأمر دون غيره ممّا يجوز أن يقوم به قيل مريد، ولولا ذلك ما خصّصه بهذا دون غيره، وسبب هذا كله إنما تعطيه حقيقة الممكن، فالممكنات أعطت هذه النسب فافهم إن كنت ذا لبّ ونظر إلهيّ وكشف رحماني، وقد قرّرنا في الباب الذي قبل هذا أن مآخذ العلوم من طرق مختلفة وهي: السمع والبصر والشم واللمس والطعم والعقل من حيث ضرورياته وهو ما يدركه بنفسه من غير قوّة أخرى، ومن حيث فكره الصحيح أيضاً ممّا يرجع إلى طرق الحواس أو الضروريات والبديهيات لا غير فذلك يسمّى علماً.

والأمور العارضة الحاصل عنها العلوم أيضاً ترجع إلى هذه الأصول لا تنفك عنها، وإنما سميت عوارض من أجل أن العادة في إدراك الألوان أن اللمس لا يدركها وإنما يدركها البصر، فإذا أدركها الأكمه باللمس وقد رأينا ذلك فقد عرض لحاسة اللمس ما ليس من حقيقتها في العادة أن تدركه، وكذلك سائر الطرق إذا عرض لها درك ما ليس من شأنها في العادة أن يدرك بها يقال فيه عرض لها، وإنما فعل الله هذا تنبيهاً لنا أنه ما ثم حقيقة كما يزعم أهل النظر لا ينفذ فيها الاقتدار الإلهيّ بل تلك الحقيقة إنما هي بجعل الله لها على تلك الصورة، وأنها ما أدركت الأشياء المربوط إدراكها بها من كونها بصراً ولا غير ذلك يقول الله بل بجعلنا فيدرك جميع العلوم كلها بحقيقة واحدة من هذه الحقائق إذا شاء الحق، فلهذا قلنا: عرض لها إدراك ما لم تجر العادة بإدراكها إياه، فتعلم قطعاً أنه عزّ وجل قد يكون ممّا يعرض لها أن تعلم وترى من ليس كمثله شيء، وإن كانت الإدراكات لم تدرك شيئاً قط إلاّ ومثله أشياء كثيرة من جميع المدركات.

ولم ينف سبحانه عن إدراكه قوّة من القوىٰ التي خلقها إلاّ البصر فقال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] فمنع ذلك شرعاً، وما قال: لا يدركه السمع ولا العقل ولا غيرهما من القوىٰ الموصوف بها الإنسان، كما لم يقل أيضاً إن غير البصر يدركه بل ترك الأمر مبهماً وأظهر العوارض التي تعرض لهذه القوىٰ في معرض التنبيه أنه ربما وضع ذلك في رؤيتنا من ليس كمثله شيء كما رأينا أول مرئيّ، وسمعنا أول مسموع، وشممنا أول مشموم، وطعمنا أول مطعوم، ولمسنا أول ملموس، وعقلنا أول معقول، ممّا لم يكن له مثل عندنا وإن كان له أمثال في نفس الأمر، ولكن في أولية الإدراك سرّ عجيب في نفي المماثلة له، فقد أدرك المدرك من لا مثل له عنده فيقيسه عليه، وكون ذلك المدرك يقبل لذاته المثل أو لا يقبله حكم آخر زائد على كونه مدركاً لا يحتاج إليه في الإدراك إن كنت ذا فطنة، بل نقول: إن

التوسّع الإلهيّ يقتضي أن لا مثل في الأعيان الموجودة وأن المثلية أمر معقول متوهم، فإنه لو كانت المثلية صحيحة ما امتاز شيء عن شيء ممّا يقال هو مثله، فذلك الذي امتاز به الشيء عن الشيء هو عين ذلك الشيء، وما لم يمتز به عن غيره فما هو إلاّ عين واحدة.

فإن قلت: رأيناه مفترقاً مفارقاً ينفصل هذا عن هذا مع كونه يماثله في الحدّ والحقيقة يقال لك: أنت الغالط، فإن الذي وقع به الانفصال هو المعبّر عنه بأنه تلك العين، وما لم يقع به الانفصال هو الذي توهمت أنه مثل، وهذا من أغمض مسائل هذا الباب، فما ثم مثل أصلاً ولا يقدر على إنكار الأمثال ولكن بالحدود لا غير، ولهذا نطلق المثلية من حيث الحقيقة الجامعة المعقولة لا الموجودة، فالأمثال معقولة لا موجودة، فنقول في الإنسان إنه حيوان ناطق بلا شك، وإن زيداً ليس هو عين عمرو من حيث صورته، وهو عين عمرو من حيث إنسانيته لا غيره أصلاً، وإذا لم يكن غيره في إنسانيته فليس مثله بل هو هو، فإنّ حقيقة الإنسانية لا تتبعض بل هي في كل إنسان بعينها لا بجزئيتها فلا مثل لها، وهكذا جميع الحقائق كلها، فلم تصحّ المثلية إذا جعلتها غير عين المثل، فزيد ليس مثل عمرو من حيث إنسانيته بل هو هو، وليس زيد مثل عمرو في صورته فإن الفرقان بينهما ظاهر، ولولا الفارق لالتبس زيد بعمرو ولم تكن معرفة بالأشياء، فما أدرك المدرك أي شيء أدرك إلاّ من: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وذلك لأن الأصل الذي نرجع إليه في وجودنا وهو الله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ فلا يكون ما يوجد عنه إلاّ على حقيقة أنه لا مثل له، فإنه كيف يخلق ما لا تعطيه صفته وحقيقته لا تقبل المثل، فلا بدّ أن يكون كل جوهر فرد في العالم لا يقبل المثل إن كنت ذا فطنة ولب، فإنه ليس في الإله حقيقة تقبل المثل، فلو كان قبول المثل موجوداً في العالم لاستند في وجوده من ذلك الوجه إلى غير حقيقة إلهيّة، وما ثم موجد إلاّ الله ولا مثل له، فما في الوجود شيء له مثل، بل كل موجود متميّز عن غيره بحقيقة هو عليها في ذاته، وهذا هو الذي يعطيه الكشف والعلم الإلهيّ الحق، فإذا أطلقت المثل على الأشياء كما قد تقرر فاعلم أني أطلق ذلك عرفاً قال تعالىٰ: ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٨] أي كما انطلق عليكم اسم الأمة كذلك ينطلق اسم أمّة على كل دابة وطائر يطير بجناحيه، وكما أن كل أمّة وكل عين في الوجود ما سوى الحق تفتقر في إيجادها إلى موجد نقول بتلك النسبة في كل واحد: إنه مثل للآخر في الافتقار إلى الله، وبهذا يصحّ قطعاً أن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] بزيادة الكاف أو بفرض المثل، فإنك إذا عرفت أن كل محدث لا يقبل المثلية كما قررناه لك فالحق أولى بهذه الصفة، فلم تبق المثلية الواردة في القرآن وغيره إلاّ في الافتقار إلى الله الموجد أعيان الأشياء.

ثم أرجع وأقول: إن كل واحد من أهل الله لا يخلو أن يكون قد جعل الله علم هذا الشخص بالأشياء في جميع القوىٰ أو في قوّة بعينها كما قررنا، إمّا في الشم وهو صاحب علم الأنفاس، وإمّا في النظر فيقال هو صاحب نظر، وإمّا في الضرب وهو من باب اللمس بطريق خاص ولذلك كنى عن ذلك بوجود برد الأنامل، فينسب صاحب تلك الصفة التي بها تحصل

العلوم إليها فيقال: هو صاحب كذا، كما قررنا أن الصفة هي عين الموصوف في هذا الباب أعني الصفة النفسية، فكما رجع المعنى الذي يقال فيه إنه لا يقوم بنفسه صورة قائمة بنفسها رجعت الصورة التي هي هذا العالم معنى لتحقّقه بذلك المعنى وتألّفه به كما تألّفت هذه المعاني فصار من تأليفها ذات قائمة بنفسها يقال فيها جسم وإنسان وفرس ونبات فافهم، فيصير صاحب علم الذوق ذوقاً، وصاحب علم الشم شماً، ومعنى ذلك أنه يفعل في غيره ما يفعل الذوق فيه إن كان صاحب ذوق، أو ما فعل الشم فيه إن كان صاحب شم، فقد التحق في الحكم بمعناه وصار هو في نفسه معنى يدرك به المدرك الأشياء كما يدرك الرائي بالنظر في المرآة الأشياء التي لا يدركها في تلك الحالة إلاّ بالمرآة.

كان للشيخ أبي مدين ولد صغير من سوداء وكان أبو مدين صاحب نظر فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول: أرى في البحر في موضع صفته كذا وكذا سفناً وقد جرى فيها كذا وكذا، فإذا كان بعد أيام وتجيء تلك السفن إلى بجاية مدينة هذا الصبي التي كان فيها يوجد الأمر على ما قاله الصبي فيقال للصبي: بماذا ترى؟ فيقول: بعيني، ثم يقول: لا إنما أراه بقلبي، ثم يقول: لا إنما أراه بوالدي إذا كان حاضراً ونظرت إليه رأيت هذا الذي أخبركم به، وإذا غاب عني لا أرى شيئاً من ذلك. ورد في الخبر الصحيح عن الله تعالىٰ في العبد الذي يتقرّب إلى الله بالنوافل حتى يحبه يقول: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**» الحديث، فبه يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش ويسعى، فهذا معنى قولنا: يرجع المحقق بمثل صورة معنى ما تحقق به، فكان ينظر بأبيه كما ينظر الإنسان بعينه في المرآة فافهم، وهكذا كل صاحب طريق من طرق هذه القوىٰ، وقد يجمع الكل واحد فيرى بكل قوّة، ويسمع بكل قوّة، ويشم بكل قوّة، وهو أتم الجماعة.

وأمّا أحوالهم بعد موتهم فعلى قدر ما كانوا عليه في الدنيا من التفرّغ لأمر ما معين أو أمور مختلفة على قدر ما تحققوا به في التفرّغ له وهم في الآخرة على قدر أحوالهم في الدنيا، فمن كان في الدنيا عبداً محضاً كان في الآخرة ملكاً محضاً، ومن كان في الدنيا يتّصف بالملك ولو في جوارحه أنها ملك له نقص من ملكه في الآخرة بقدر ما استوفاه في الدنيا، ولو أقام العدل في ذلك وصرفه فيما أوجب الله عليه أن يصرفه فيه شرعاً وهو يرى أنه مالك لذلك لغفلة طرأت منه فإن وبال ذلك يعود عليه ويؤثر فيه، فلا أعزّ في الآخرة ممّن بلغ في الدنيا غاية الذلّ في جناب الحق والحقيقة، ولا أذل في الآخرة ممّن بلغ في الدنيا غاية العزّة في نفسه ولو كان مصفوعاً في الدنيا، ولا أريد بعزّ الدنيا أن يكون فيها ملكاً إلاّ أن يكون صفته في نفسه العزّة وكذلك الذلّة. وأمّا أن يكون في ظاهر الأمر ملكاً أو غير ذلك فما نبالي في أي مقام وفي أي حال أقام الحق عبده في ظاهره، وإنما المعتبر في ذلك حاله في نفسه.

ذكر عبد الكريم بن هوازن القشيري في بعض كتبه وغيره عن رجل من الناس أنه دفن رجلاً من الصالحين فلما جعله في قبره نزع الكفن عن خدّه ووضع خدّه على التراب ففتح الميت عينيه وقال له: يا هذا أتذللني بين يدي من أعزّني؟ فتعجب من ذلك وخرج من القبر.

ورأيت أنا مثل هذا لعبد الله صاحبي الحبشي في قبره ورآه غاسله وقد هاب أن يغسله في حديث طويل ففتح عينيه في المغتسل وقال له: اغسل. فمن أحوالهم بعد الموت أنهم أحياء بالحياة النفسية التي بها يسبح كل شيء، ومن كانت له همة بمعبده في حال عبادته في حياته بحيث أن يكون يحفظها من الداخل فيها حتى لا يتغير عليه الحال إن كان صاحب نفس، فإذا مات ودخل أحد بعده معبده ففعل فيه ما لا يليق بصاحبه الذي كان يعمره ظهرت فيه آية، وهذا قد رويناه في حكاية عن أبي يزيد البسطامي كان له بيت يتعبد فيه يسمّى بيت الأبرار، فلما مات أبو يزيد بقي البيت محفوظاً محترماً لا يُفعل فيه إلاَّ ما يليق بالمساجد، فاتفق أنه جاء رجل فبات فيه قيل: وكان جنباً احترقت عليه ثيابه من غير نار معهودة ففرّ من البيت فما كان يدخله أحد فيفعل فيه ما لا يليق إلاَّ رأى آية فيبقى أثر مثل هذا الشخص بعد موته يفعل مثل ما كان يفعله في حياته سواء، وقد قال بعضهم وكان محباً في الصلاة: يا رب إن كنت أذنت لأحد أن يصلي في قبره فاجعلني ذلك فرؤي وهو يصلي في قبره. وقد مرّ رسول الله ﷺ ليلة إسرائه بقبر موسىٰ عليه السلام فرآه وهو يصلي في قبره ثم عرج به إلى السماء وذكر الإسراء وما جرى له فيه مع الأنبياء ورأى موسىٰ في السماء السادسة وقد رآه وهو يصلي في قبره. فمن أحوال هذا الشخص بعد موته مثل هذه الأشياء لا فرق في حقّه بين حياته وموته، فإنه كان في زمان حياته في الدنيا في صورة الميت حاله الموت فجعله الله في حال موته كمن حاله الحياة جزاء وفاقاً.

ومن صفات صاحب هذا المقام في موته إذا نظر الناظر إلى وجهه وهو ميت يقول فيه حيّ، وإذا نظر إلى مجس عروقه يقول فيه ميت فيحار الناظر فيه فإن الله جمع له بين الحياة والموت في حال حياته وموته، وقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله يكاد أنّا ما دفناه إلاَّ على شك ممّا كان عليه في وجهه من صورة الأحياء. وممّا كان من سكون عروقه وانقطاع نفسه من صورة الأموات وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرني بموته وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان، فلما كان يوم موته وكان مريضاً شديد المرض استوى قاعداً غير مستند وقال لي: يا ولدي اليوم يكون الرحيل واللقاء، فقلت له: كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقائك، ففرح بذلك وقال لي: جزاك الله يا ولدي عني خيراً كل ما كنت أسمعه منك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء له نور يتلألأ فشعر بها الوالد، ثم إن تلك اللمعة انتشرت على وجهه إلى أن عمّت بدنه فقبلته وودعته وخرجت من عنده وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك، فقال لي: رح ولا تترك أحداً يدخل عليّ، وجمع أهله وبناته فلما جاء الظهر جاءني نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت، وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، فصاحب هذا المقام حياته وموته سواء، وكل ما قدّمناه في هذا الباب من العلم هو علم صاحب هذا المقام فإنه من علم الأنفاس ولهذا ذكرنا ما ذكرنا من ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون

في معرفة العيسويين وأقطابهم وأصولهم

[نظم: المديد]

كُلُّ مَن أحيا حقيقتَه ... وشفى من عِلَّة الحُجُبِ

فهو عيسىٰ لا يُناط به ... عندنا شيءٌ من الرِّيَبِ

فلقد أعطت سَجيَّتُه ... رتبةً تسمو على الرُّتَبِ

بنعوتِ القدس تعرفه ... في صريح الوحي والكُتُبِ

لم يَنَلْها غيرُ وارثه ... صفةً في سالف الحِقَبِ

فسَرَتْ في الكون هِمَّتُه ... في أعاجيم وفي عَرَبِ

فبها تحيا نفوسُهُمُو ... وبها إزَّالَةُ النُّوَبِ

اعلم أيّدك الله أنه لما كان شرع محمد ﷺ تضمن جميع الشرائع المتقدّمة وأنه ما بقي لها حكم في هذه الدنيا إلاً ما قررته الشريعة المحمدية فبتقريرها ثبتت، فتعبدنا بها نفوسنا من حيث إن محمداً ﷺ قرّرها لا من حيث إن النبيّ المخصوص بها في وقته قرّرها، فلهذا أوتي رسول الله ﷺ جوامع الكلم، فإذا عمل المحمدي وجميع العالم المكلف اليوم من الإنس والجنّ محمدي ليس في العالم اليوم شرع إلهيّ سوى هذا الشرع المحمدي، فلا يخلو هذا العامل من هذه الأمّة أن يصادف في عمله فيما يفتح له منه في قلبه وطريقه ويتحقق به طريقة من طرق نبيّ من الأنبياء المتقدّمين ممّا تتضمنه هذه الشريعة وقرّرت طريقته وصحبتها نتيجته، فإذا فتح له في ذلك فإنه ينتسب إلى صاحب تلك الشريعة فيقال فيه: عيسوي، أو موسوي، أو إبراهيمي، وذلك لتحقيق ما تميّز له من المعارف وظهر له من المقام من جملة ما هو تحت حيطة شريعة محمد ﷺ فيتميز بتلك النسبة أو بذلك النسب من غيره ليعرف أنه ما ورث من محمد ﷺ إلاً ما لو كان موسىٰ أو غيره من الأنبياء حياً واتبعه ما ورث إلاً ذلك منه. ولما تقدّمت شرائعهم قبل هذه الشريعة جعلنا هذا العارف وارثاً إذ كان الورث للآخر من الأوّل، فلو لم يكن لذلك الأوّل شرع مقرّر قبل تقرير محمد ﷺ لساوينا الأنبياء والرسل، إذ جمعنا زمان شريعة محمد ﷺ كما يساوينا اليوم وإلياس والخضر وعيسىٰ إذا نزل فإن الوقت يحكم عليه، إذ لا نبوّة تشريع بعد محمد ﷺ.

ولا يقال في أحد من أهل هذه الطريقة إنه محمدي إلاً لشخصين: إمّا شخص اختصّ بميراث علم من حكم لم يكن في شرع قبله فيقال فيه محمديّ. وإمّا شخص جمع المقامات ثم خرج عنها إلى لا مقام كأبي يزيد وأمثاله فهذا أيضاً يقال فيه محمدي، وما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبيّ من الأنبياء، ولهذا ورد في الخبر: أنّ العلماء ورثة الأنبياء ولم يقل ورثة نبيّ خاص، والمخاطب بهذا علماء هذه الأمّة، وقد ورد أيضاً بهذا اللفظ قوله ﷺ: «**عُلَمَاءُ هٰذِهِ الأُمَّةِ أَنْبِيَاءُ سَائِرِ الأُمَمِ**» وفي رواية: «**كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» فالعيسويون الأول هم

الحواريون أتباع عيسىٰ، فمن أدرك منهم إلى الآن شرع محمد ﷺ وآمن به واتبعه واتفق أن يكون قد حصل له من هذه الشريعة ما كان قبل هذا شرعاً لعيسىٰ عليه السلام، فيرث من عيسىٰ عليه السلام ما ورثه من غير حجاب، ثم يرث من عيسىٰ عليه السلام في شريعة محمد ﷺ ميراث تابع من تابع لا من متبوع وبينهما في الذوق فرقان، ولهذا قال رسول الله ﷺ في مثل هذا الشخص: إن له الأجر مرتين، كذلك له ميراثان وفتحان وذوقان مختلفان ولا ينسب فيهما إلاَّ إلى ذلك النبي عليه السلام، فهؤلاء هم العيسويون الثواني وأصولهم توحيد التجريد من طريق المثال، لأن وجود عيسىٰ عليه السلام لم يكن عن ذكر بشريّ وإنما كان عن تمثّل روح في صورة بشر، ولهذا غلب على أمّة عيسىٰ ابن مريم دون سائر الأمم القول بالصورة، فيصوّرون في كنائسهم مثلاً ويتعبدون في أنفسهم بالتوجّه إليها، فإن أصل نبيهم عليه السلام كان عن تمثّل فسرت تلك الحقيقة في أمته إلى الآن.

ولما جاء شرع محمد ﷺ ونهى عن الصور وهو ﷺ قد حوى على حقيقة عيسىٰ وانطوى شرعه في شرعه فشرع لنا ﷺ أن نعبد الله كأنّا نراه فأدخله لنا في الخيال وهذا هو معنى التصوير، إلاَّ أنه نهى عنه في الحسّ أن يظهر في هذه الأمّة بصورة حسيّة. ثم إن هذا الشرع الخاص الذي هو: اعبد الله كأنك تراه، ما قاله محمد ﷺ لنا بلا واسطة بل قاله لجبريل عليه السلام وهو الذي تمثّل لمريم بشراً سوياً عند إيجاد عيسىٰ عليه السلام، فكان كما قيل في المثل السائر: إياكِ أعني فاسمعي يا جارة فكنّا نحن المرادين بذلك القول، ولهذا جاء في آخر الحديث: «**هٰذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعْلَمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا**». وفي رواية: «**جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُم**». وفي رواية: «**أَتَاكُمْ يُعَلِّمكُمْ دِينَكُم**». فما خرجت الروايات عن كوننا المقصودين بالتعليم.

ثم لتعلم أن الذي لنا من غير شرع عيسىٰ عليه السلام قوله: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» فهذا من أصولهم. وكان شيخنا أبو العباس العريبي رحمه الله عيسوياً في نهايته، وهي كانت بدايتنا أعني نهاية شيخنا في هذا الطريق كانت عيسوية، ثم نقلنا إلى الفتح الموسوي الشمسي، ثم بعد ذلك نقلنا إلى هود عليه السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى جميع النبيين عليهم السلام، ثم بعد ذلك نقلنا إلى محمد ﷺ، هكذا كان أمرنا في هذا الطريق ثبّته الله علينا ولا حاد بنا عن سواء السبيل، فأعطانا الله من أجل هذه النشأة التي أنشأنا الله عليها في هذا الطريق وجه الحق في كل شيء، فليس في العالم عندنا في نظرنا شيء موجود إلاَّ ولنا فيه شهود عين حق نعظمه منه، فلا نرمي بشيء من العالم الوجودي، وفي زماننا اليوم جماعة من أصحاب عيسىٰ عليه السلام ويونس عليه السلام يحيون وهم منقطعون عن الناس، فأمّا القوم الذين هم من قوم يونس فرأيت أثر قدم واحد منهم بالساحل كان صاحبه قد سبقني بقليل فشبرت قدمه في الأرض فوجدت طول قدمه ثلاثة أشبار ونصفاً وربعاً بشبري، وأخبرني صاحبي أبو عبد الله بن خرز الطنجي أنه اجتمع به في حكاية وجاءني بكلام من عنده مما يتفق في الأندلس في سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي السنة التي كنا فيها وما يتفق في سنة ست وثمانين مع الإفرنج فكان كما قال ما غادر حرفاً.

وأمّا الذي في الزمان من أصحاب عيسىٰ فهو ما رويناه من حديث عربشاه بن محمد بن أبي المعالي العلوي النوقي الخبوشاني كتابة قال: حدّثنا محمد بن الحسن بن سهل العباسي الطوسي، أنا أبو المحاسن عليّ بن أبي الفضل الفارمدي، أنا أحمد بن الحسين بن عليّ قال: حدّثنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو عمرو عثمان بن أحمد بن السماك ببغداد إملاء، ثنا يحيىٰ بن أبي طالب، ثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي، ثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو بالقادسية أن وجه نضلة بن معاوية الأنصاري إلى حلوان العراق فليغز على ضواحيها، قال: فوجه سعد نضلة في ثلاثمائة فارس فخرجوا حتى أتوا حلوان العراق وأغاروا على ضواحيها وأصابوا غنيمة وسبياً فأقبلوا يسوقون الغنيمة والسبيَ حتى رهقت بهم العصر وكادت الشمس أن تغرب، فألجأ نضلة السبي والغنيمة إلى سفح الجبل ثم قام فأذّن فقال: الله أكبر الله أكبر، قال: ومجيب من الجبل يجيبه: كبرت كبيراً يا نضلة، ثم قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، فقال: كلمة الإخلاص يا نضلة، وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: هو الدين وهو الذي بشرنا به عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام وعلى رأس أمّته تقوم الساعة، ثم قال: حيّ على الصلاة، قال: طوبى لمن مشى إليها وواظب عليها، ثم قال: حيّ على الفلاح، قال: قد أفلح من أجاب محمداً ﷺ وهو البقاء لأمّته، قال: الله أكبر الله أكبر، قال: كبرت كبيراً، قال: لا إله إلاّ الله، قال: أخلصت الإخلاص يا نضلة فحرّم الله جسدك على النار، قال: فلما فرغ من أذانه قمنا فقلنا: من أنت يرحمك الله؟ أملك أنت؟ أم ساكن من الجنّ؟ أم من عباد الله؟ أسمعتنا صوتك فأرنا شخصك فإنا وفد الله ووفد رسول الله ﷺ ووفد عمر بن الخطاب، قال: فانفلق الجبل عن هامة كالرحى أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا زريب بن برثملا وصي العبد الصالح عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام أسكنني هذا الجبل ودعا لي بطول البقاء إلى نزوله من السماء فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبرأ مما نحلته النصارى، ما فعل النبيّ ﷺ؟ قلنا: قبض فبكى بكاء طويلاً حتى خضب لحيته بالدموع ثم قال: فمن قام فيكم بعده؟ قلنا: أبو بكر، قال: ما فعل؟ قلنا: قبض، قال: فمن قام فيكم بعده؟ قلنا: عمر، قال: إذا فاتني لقاء محمد ﷺ فأقرؤوا عمر مني السلام وقولوا: يا عمر سدّد وقارب فقد دنا الأمر وأخبروه بهذه الخصال التي أخبركم بها: يا عمر إذا ظهرت هذه الخصال في أمّة محمد ﷺ فالهرب الهرب: إذا استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وانتسبوا في غير مناسبهم، وانتموا إلى غير مواليهم، ولم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم، وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به، وترك النهي عن المنكر فلم ينه عنه، وتعلم عالمهم العلم ليجلب به الدنانير والدراهم، وكان المطر قيظاً، والولد غيظاً، وطولوا المنابر، وفضضوا المصاحف، وزخرفوا المساجد، وأظهروا الرشى، وشيّدوا البناء، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا، واستخفوا الدماء، وتقطعت الأرحام، وبيع الحكم، وأكل

الربا، وصار التسلط فخراً، والغنى عزّاً، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه، وركبت النساء السروج. قال: ثم غاب عنا. فكتب بذلك نضلة إلى سعد وكتب سعد إلى عمر، فكتب عمر: ائت أنت ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزل هذا الجبل فإذا لقيته فأقرئه مني السلام فإن رسول الله ﷺ قال: إن بعض أوصياء عيسىٰ ابن مريم عليه السلام نزل بذلك الجبل بناحية العراق، فنزل سعد في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار حتى نزل الجبل أربعين يوماً ينادي بالأذان في وقت كل صلاة فلم يجده.

لم يتابع الراسبي على قوله عن مالك بن أنس، والمعروف في هذا الحديث مالك بن الأزهر عن نافع وابن الأزهر مجهول، قال أبو عبد الله الحاكم: لم يسمع بذكر ابن الأزهر في غير هذا الحديث، والسؤال عن النبي ﷺ وعن أبي بكر هو من حديث ابن لهيعة عن ابن الأزهر، قلنا: هذا الحديث وإن تكلم في طريقه فهو صحيح عند أمثالنا كشفاً. وقوله: في زخرفة المساجد وتفضيض المصاحف ليسا على طريق الذمّ وإنما هما دلالة على اقتراب الساعة وفساد الزمان، كدلالة نزول عيسىٰ عليه السلام، وخروج المهدي، وطلوع الشمس من مغربها، معلوم كل ذلك أنه ليس على طريق الذمّ وإنما الدلالات على الشيء قد تكون مذمومة ومحمودة، هذا الوصي العيسوي ابن برثملا لم يزل في ذلك الجبل يتعبّد لا يعاشر أحداً، وقد بعث رسول الله ﷺ أترى ذلك الراهب بقي على أحكام النصارى؟ لا والله فإنّ شريعة محمد ﷺ ناسخة، يقول ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتْبَعَنِي**» وهذا عيسىٰ إذا نزل ما يؤمنا إلاّ منا أي بسنتنا، ولا يحكم فينا إلاّ بشرعنا، فهذا الراهب ممّن هو على بينة من ربّه، علّمه ربّه من عنده ما افترضه عليه من شرع نبينا ﷺ على الطريق التي اعتادها من الله، وهذا عندنا ذوق محقق، فإنا أخذنا كثيراً من أحكام محمد ﷺ المقررة في شرعه عند علماء الرسوم، وما كان عندنا منها علم فأخذناها من هذا الطريق ووجدناها عند علماء الرسوم كما هي عندنا، ومن تلك الطريق نصحّح الأحاديث النبوية ونردّها أيضاً إذا أعلمنا أنها واهية الطرق غير صحيحة عن رسول الله ﷺ، وإن قرّر الشارع حكم المجتهد وإن أخطأ، ولكن أهل هذه الطريقة ما يأخذون إلاّ بما حكم به رسول الله ﷺ، وهذا الوصي من الأفراد، وطريقه في مأخذ العلوم طريق الخضر صاحب موسىٰ عليه السلام فهو على شرعنا، وإن اختلف الطريق الموصل إلى العلم الصحيح فإنّ ذلك لا يقدح في العلم، قال رسول الله ﷺ فيمن أعطي الولاية من غير مسألة: إنّ الله يعينه عليها وإن الله يبعث إليه ملكاً يسدّده يريد عصمته من الغلط فيما يحكم به، قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وقال عليه السلام: «**إِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثُونَ فَمِنْهُمْ عُمَرُ**».

ثم إنه قد ثبت عندنا أنّ النبيّ ﷺ نهى عن قتل الرهبان الذين اعتزلوا الخلق وانفردوا بربهم فقال: «**ذَروهُمْ وَمَا انْقَطَعُوا إِلَيْهِ**»، فأتى بلفظ مجمل ولم يأمرنا بأن ندعوهم لعلمه ﷺ أنهم على بينة من ربهم، وقد أمر ﷺ بالتبليغ، وأمرنا أن يبلغ الشاهد الغائب، فلولا ما علم رسول الله ﷺ أنّ الله يتولى تعليمهم مثل ما تولّى تعليم الخضر وغيره ما كان كلامه هذا ولا

قرّره على شرع منسوخ عنده في هذه الملة وهو الصادق في دعواه ﷺ أنه بعث إلى الناس كافَّة كما ذكر الله تعالىٰ فيه، فعمت رسالته جميع الخلق، وروح هذا التعريف أنه كل من أدركه زمانه وبلغت إليه دعوته لم يتعبده الله إلاَّ بشرعه، فإنا نعلم قطعاً أنه ﷺ ما شافَهَ جميع الناس بالخطاب في زمانه فما هو إلاَّ الوجه الذي ذكرنا، وهذا الراهب من العيسويين الذين ورثوا عيسىٰ عليه السلام إلى زمان بعثة محمد ﷺ فلما بعث محمد ﷺ تعبّد الله هذا الراهب بشرعه ﷺ وعلمه من لدنه علماً بالرحمة التي آتاه من عنده، كان ورثه أيضاً حالة عيسوية من محمد ﷺ فلم يزل عيسوياً في الشريعتين.

ألا ترى هذا الراهب قد أخبر بنزول عيسىٰ عليه السلام وأخبر أنه إذا نزل يقتل الخنزير ويكسر الصليب، أتراه بقي على تحليل لحم الخنزير؟ فلم يزل هذا الراهب عيسوياً في الشريعتين فله الأجر مرتين: أجر اتباعه نبيه، وأجر اتباعه محمداً ﷺ، وهو في انتظار عيسىٰ إلى أن ينزل، وهؤلاء الصحابة قد رأوه مع نضلة، وما سألوه عن حاله في الإسلام والإيمان ولا بما يتعبد نفسه من الشرائع لأنّ النبيّ ﷺ ما أمرهم بسؤال مثله، فعلمنا قطعاً أنّ النبيّ ﷺ لا يقرّ أحداً على الشرك، وعلم أن لله عباداً يتولى الحق تعليمهم من لدنه علم ما أنزله على محمد ﷺ رحمة منه وفضلاً ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣] ولو كان ممّن يؤدّي الجزية لقلنا إن الشرع المحمدي قد قرّر له دينه ما دام يعطي الجزية، وهذه مسألة دقيقة في عموم رسالته، وأنه بظهوره لم يبق شرع إلاَّ ما شرعه، ومما شرع تقريرهم على شرعهم ما داموا يعطون الجزية إذا كانوا من أهل الكتاب، وكم لله تعالىٰ من هؤلاء العباد في الأرض، فأصل العيسويين كما قررناه تجريد التوحيد من الصور الظاهرة في الأمّة العيسوية، والمثل التي لهم في الكنائس من أجل أنهم على شريعة محمد ﷺ، ولكن الروحانية الحالية التي هم عليها عيسوية في النصارى وموسوية في اليهود من مشكاة محمد ﷺ من قوله ﷺ: «**اعْبدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» والله في قبلة المصلي، وأن العبد إذا صلَّى استقبل ربّه، ومن كل ما ورد في الله من أمثال هذه النسب.

وليس للعيسوي من هذه الأمّة من الكرامات المشي في الهواء ولكن لهم المشي على الماء، والمحمدي يمشي في الهواء بحكم التبعية فإن النبيّ ﷺ ليلة أسري به وكان محمولاً قال في عيسىٰ عليه السلام: «**لَو ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشَى فِي الهَوَاءِ**» ولا شك أن عيسىٰ عليه السلام أقوى في اليقين منّا بما لا يتقارب فإنه من أولي العزم من الرسل، ونحن نمشي في الهواء بلا شك، وقد رأينا خلقاً كثيراً ممّن يمشي في الهواء في حال مشيهم في الهواء، فعلمنا قطعاً أن مشينا في الهواء إنما هو بحكم صدق التبعية لا بزيادة اليقين على يقين عيسىٰ عليه السلام، قد علم كل منّا مشربه بحكم التبعية لمحمد ﷺ من الوجه الخاص الذي له هذا المقام لا من قوّة اليقين كما قلنا الذي كنّا نفضل به عيسىٰ عليه السلام حاشى لله أن نقول بهذا، كما أن أمّة عيسىٰ يمشون على الماء بحكم التبعية لا بمساواة يقينهم يقين عيسىٰ عليه السلام، فنحن مع الرسل في خرق العوائد الذين اختصوا بها من الله، وظهر أمثالها علينا بحكم التبعية كما مثلناه

في كتاب اليقين لنا أن لمماليك الخواص الذين يمسكون نعال أستاذيهم من الأمراء إذا دخلوا على السلطان وبقي بعض الأمراء خارج الباب حين لم يؤذن لهم في الدخول أترى المماليك الداخلين مع أستاذيهم أرفع منصباً من الأمراء الذين ما أذن لهم؟ فهل دخلوا إلاً بحكم التبعية لأستاذيهم؟ بل كل شخص على رتبته، فالأمراء متميزون على الأمراء، والمماليك متميزون على المماليك في جنسهم، كذلك نحن مع الأنبياء فيما يكون للأتباع من خرق العوائد. ثم إن النبيّ ﷺ ما مشى في الهواء إلاً محمولاً على البراق كالراكب وعلى الرفرف كالمحمول في المحفة، فأظهر البراق والرفرف صورة المقام الذي هو عليه في نفسه بأنه محمول في نفسه ونسبة أيضاً إلهية من قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٥] ومن قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٧] فالعرش محمول فهذا حمل كرامة بالحاملين، وحال راحة ومجد وعزّ للمحمولين، وقد قرّرنا لك في غير موضع أن المحمول أعلى من غير المحمول في هذا المقام وأمثاله، وأنه لا حول ولا قوّة إلاً بالله ممّا اختصّ به الحملة وإن كان جميع الخلق محمولين، ولكن لم يكشف ذلك الحمل لكل أحد، وإن كان الحمل على مراتب حمل عن عجز وحمل عن حقيقة كحمل الأثقال وحمل عن شرف ومجد، فالعناية بهذه الطائفة أن يكونوا محمولين ظاهراً كما هو الأمر في نفسه باطناً لتبريهم من الدعوى كما قررناه في بابه.

وللعيسويين همة فعالة ودعاء مقبول وكلمة مسموعة، ومن علامة العيسويين إذا أردت أن تعرفهم فتنظر كل شخص فيه رحمة بالعالم وشفقة عليه كان من كان، وعلى أي دين كان، وبأية نحلة ظهر، وتسليم لله فيهم لا ينطقون بما تضيق الصدور له في حق الخلق أجمعين عند خطابهم عباد الله، ومن علامتهم أنهم ينظرون من كل شيء أحسنه ولا يجري على ألسنتهم إلاً الخير، واشتركت في ذلك الطبقة الأولى والثانية، فالأولى: مثل ما روي عن عيسىٰ عليه السلام أنه رأى خنزيراً فقال له: انج بسلام، فقيل له في ذلك فقال: أعوّد لساني قول الخير. وأمّا الثانية: فإنّ النبيّ ﷺ قال في الميتة حين مرّ عليها: ما أحسن بياض أسنانها، وقال من كان معه: ما أنتن ريحها. وأن النبيّ ﷺ وإن كان قد أمر بقتل الحيات على وجه خاص وأخبر أن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية ومع هذا فإنه كان بالغار في منى وقد نزلت عليه سورة والمرسلات، وبالمرسلات يعرف الغار إلى الآن دخلته تبركاً فخرجت حية وابتدر الصحابة إلى قتلها فأعجزهم فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ وَقَاها شَرَّكُم كَمَا وَقَاكُمْ شَرَّهَا**». فسمّاه شرّاً مع كونه مأموراً به مثل قوله تعالىٰ في القصاص: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٠] فسمّى القصاص سيئة وندب إلى العفو فما وقعت عينه ﷺ إلاً على أحسن ما كان في الميتة، فهكذا أولياء الله لا ينظرون من كل منظور إلاً أحسن ما فيه وهم العمي عن مساوي الخلق لا عن المساوي لأنهم مأمورون باجتنابها، كما هم صمّ عن سماع الفحشاء، كما هم البكم عن التلفظ بالسوء من القول وإن كان مباحاً في بعض المواطن، هكذا عرفناهم فسبحان من اصطفاهم واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[سورة الأنعام: الآية ٩٠].

فهذا مقام عيسىٰ عليه السلام في محمد ﷺ لأنه تقدّمه بالزمان ونقلت عنه هذه الأحوال، قال تعالىٰ لنبيه ﷺ حين ذكر في القرآن من ذكر من النبيين وعيسىٰ في جملة من ذكر عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ وإن كان مقام الرسالة يقتضي تبيين الحسن من القبيح ليعلم كما قال تعالىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٤] فإن بيَّن السوء في حق شخص فبوحي من الله كما قال في شخص: بئس ابن العشيرة والخضر قتل الغلام وقال فيه طبع كافراً و أخبر لو تركه بما يكون منه من السوء في حق أبويه وقال: ما فعلت ذلك عن أمري. فالذي للرجال من ذواتهم القول الحسن والنظر إلى الحسن والإصغاء بالسمع إلى الحسن، فإن ظهر منهم وقتاً ما خلاف هذا من نبيّ أو وليّ مرجوم فذلك عن أمر إلهيّ ما هو لسانهم، فهذا قد ذكرنا من أحوال العيسويين ما يسره الله على لساني، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون

في معرفة الأقطاب العيسويين وأسرارهم

فاعلم أيّدك الله بروح القدس أن: [البسيط]

القطبُ من ثبتَتْ في الأمر أقدامُهْ ... والعيسويُ الذي يُبْديه قدَّامُهْ
والعيسويُ الذي يوماً له رفِعَتْ ... بين النبيين في الأشهاد أعلامُهْ
وجاءه من أبيه كلُّ رائحةٍ ... كالمسك في شمّها بالوحي أعلامُهْ
له الحياةُ فيحيي من يشاء بها ... فلا يموتُ ولا تفنيه أيامُهْ
فلو تراه وقد جاءته آيتُه ... تسعى لتَظْهَرَ في الأكوان أحكامُهْ
مواجهاً بلسان أنت قلتَ لهم ... بأنك الله وهو الله علاَّمُهْ
جوابه قيل ما قد قيل فاعْفُ ولا ... تنظُرْ لجرمِ الذي أرداه إجرامُهْ
صلّى عليه إلهُ الخلق من رجلٍ ... أعطى وأعطىَ الذي أعطاه إكرامُهْ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أنا قد عرفناك أنّ العيسوي من الأقطاب هو الذي جمع له الميراثان: الميراث الروحاني الذي يقع به الانفعال، والميراث المحمدي، ولكن من ذوق عيسىٰ عليه السلام لا بدّ من ذلك، وقد بيّنا مقاماتهم وأحوالهم، فلنذكر في هذا الباب نبذاً من أسرارهم، فمنها: أنهم إذا أرادوا أن يعطوا حالاً من الأحوال التي هم عليها وهي تحت سلطانهم لما يرون في ذلك الشخص من الاستعداد إمّا بالكشف وإمّا بالتعريف الإلهيّ، فيلمسون ذلك الشخص، أو يعانقونه، أو يقبلونه، أو يعطونه ثوباً من لباسهم، أو يقولون له: ابسط ثوبك ثم يغرفون له ممّا يريدون أن يعطوه، والحاضر ينظر أنهم يغرفون في الهواء ويجعلونه في ثوبه على قدر ما يحدّ لهم من الغرفات ثم يقولون له: ضم ثوبك مجموع الأطراف إلى صدرك أو البسه على قدر الحال التي يحبّون أن يهبوه إياها، فأيّ شيء فعلوا من ذلك سرى ذلك الحال في ذلك الشخص المأمور المراد به من وقته لا يتأخر، وقد رأينا ذلك

لبعض شيوخنا جاء لأقوام من العامة فيقول لي: هذا شخص عنده استعداد فيقرب منه فإذا لمسه أو ضرّبه بصدره في ظهره قاصداً أن يهبه ما أراد سرى فيه ذلك الحال من ساعته وخرج ممّا كان فيه وانقطع إلى ربّه، وكان أيضاً له هذه الحال مكي الواسطي المدفون بمكة تلميذ أزدشير كان إذا أخذه الحال يقول لمن يكون حاضراً معه: عانقني أو تعرف الحاضر أمره، فإذا رآه متلبساً بحاله عانقه فيسري ذلك الحال في هذا الشخص ويتلبس به.

شكى جابر بن عبد الله لرسول الله ﷺ أنه لا يثبت على ظهر الفرس فضرب في صدره بيده فما سقط عن ظهر فرس بعد. ونخس رسول الله ﷺ مركوباً كان تحت بعض أصحابه بطيئاً يمشي به في آخر الناس فلما نخسه لم يقدر صاحبه على إمساكه وكان يتقدّم على جميع الركاب. وركب رسول الله ﷺ فرساً بطيئاً لأبي طلحة يوم أغير على سرح رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ في حق ذلك الفرس: إن وجدناه لبحراً، فما سبق بعد ذلك. وشكى لرسول الله ﷺ أبو هريرة أنه ينسى ما يسمعه من رسول الله ﷺ فقال له: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ابْسطْ رِدَاءَكَ فَبَسَطَ أَبُو هُرَيْرَةَ رِدَاءَهُ فَاغْتَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَرْفَةً مِنَ الهَوَاءِ أَوْ ثَلاثَ غَرفَاتٍ وَأَلْقَاهَا فِي رِدَاءِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَالَ لَهُ: ضُمَّ رِدَاءَكَ إِلَى صَدْرِكَ فَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ فَمَا نَسِيَ بَعْدَ ذٰلِكَ شَيْئاً يَسْمَعُهُ**». وهذا كله من هذا المقام. فانظر في سرّ هذا الأمر أنه ما ظهر شيء من ذلك إلاّ بحركة محسوسة لإثبات الأسباب التي وضعها الله ليعلم أن الأمر الإلهيّ لا ينخرم وأنه في نفسه على هذا الحدّ، فيعرف العارف من ذلك نسب الأسماء الإلهية وما ارتبط بها من وجود الكائنات، وأنّ ذلك تقتضيه الحضرة الإلهية لذاتها، فتصرف العالم المحقق بهذه الأمور والتنبيهات الإلهية على أنّ الحكمة فيما ظهر وأنّ ذلك لا يتبدّل، وأنّ الأسباب لا ترفع أبداً، وكل من زعم أنه رفع سبباً بغير سبب فما عنده علم لا بما رفع به ولا بما رفع، فلم يمنح عبد شيئاً أفضل من العلم والعمل به، وهذه أحوال الأدباء من عباد الله تعالىٰ.

ومن أسرارهم أيضاً أنهم يتكلمون في فصول البلاغة في النطق ويعلمون إعجاز القرآن ولم يعلم منهم ولا حصل لهم من العلم بلسان العرب، والتحقّق به على الطريقة المعهودة من قراءة كتب الأدب ما يعلم أنهم حصل لهم ذلك من هذه الجهة، بل كان ذلك لهم من الهبات الإلهية بطريق خاص يعرفونه من نفوسهم إذا أعطوا العبارة عن الذي يرد عليهم في بواطنهم من الحقائق وهم أميون، وإن أحسنوا الكتابة من طريق النقش ولكن هم عوام الناس، فينطقون بما هو خارج في المعتاد عن قوتهم إذ لم يكونوا من العرب، وإن كانوا من العرب فلم يكونوا إلاّ بالنسب لا باللسان فيعرف الإعجاز فيه منه، فمن هنالك يعرف إعجاز القرآن وذلك قول الحق. قيل لي في بعض الوقائع: أتعرف ما هو إعجاز القرآن؟ قلت: لا. قال: كونه إخباراً عن حق التزم الحق يكن كلامك معجزاً، فإن المعارض للقرآن أوّل ما يكذب فيه أنه يجعله من الله وليس من الله فيقول على الله ما لا يعلم فلا يثمر ولا يثبت، فإن الباطل زهوق لا ثبات له. ثم يخبر في كلامه عن أمور مناسبة للسورة التي يريد معارضتها بأمور تناسبها في الألفاظ ممّا لم يقع ولا كانت فهي باطل والباطل عدم والعدم لا يقاوم الوجود، والقرآن إخبار عن أمر وجودي حق في نفس الأمر،

فلا بدّ أن يعجز المعارض عن الإتيان بمثله، فمن التزم الحق في أفعاله وأقواله وأحواله فقد امتاز عن أهل زمانه وعن كل من لم يسلك مسلكه فأعجز من أراد التصوّر على مقامه من غير حق.

ومن أسرارهم أيضاً علم الطبائع وتأليفها وتحليلها ومنافع العقاقير يعلم ذلك منها كشفاً. خرج شيخنا أبو عبد الله الغزال كان بالمرية رحمه الله في حال سلوكه من مجلس شيخه أبي العباس بن العريف وكان ابن العريف أديب زمانه فهو بالأحرش بطريق الصماد حية إذ رأى أعشاب ذلك المرج كلها تخاطبه بمنافعها فتقول له الشجرة أو النجم: خذني فإني أنفع لكذا وأدفع من المضار كذا حتى ذهل وبقي حائراً من نداء كل شجرة منها تحبباً له وتقرّباً منه، فرجع إلى الشيخ وعرّفه بذلك فقال له الشيخ: ما لهذا خدمتنا أين كان منك الضارّ النافع حين قالت لك الأشجار أنها نافعة ضارة، فقال: يا سيدي التوبة، قال له الشيخ: إن الله فتنك واختبرك فإني ما دللتك إلاّ على الله لا على غيره، فمن صدق توبتك أن ترجع إلى ذلك الموضع فلا تكلمك تلك الأشجار التي كلمتك إن كنت صادقاً في توبتك، فرجع أبو عبد الله الغزال إلى الموضع فما سمع شيئاً ممّا كان قد سمعه، فسجد لله شكراً ورجع إلى الشيخ فعرفه فقال الشيخ: الحمد لله الذي اختارك لنفسه ولم يدفعك إلى كون مثلك من أكوانه تشرف به وهو على الحقيقة يشرف بك، فانظر همته رضي الله عنه.

وإذا علم أسرار الطبائع ووقف على حقائقها علم من الأسماء الإلهية التي علمها الله آدم عليه السلام نصفها وهي علوم عجيبة، لما أطلعنا الله عليها من هذه الطريقة رأينا أمراً هائلاً، وعلمنا من سرّ الله في خلقه، وكيف سرّ الاقتدار الإلهي في كل شيء، فلا شيء ينفع إلاّ به، ولا يضر إلاّ به، ولا ينطق إلاّ به، ولا يتحرك إلاّ به، وحجب العالم بالصور فنسبوا كل ذلك إلى أنفسهم وإلى الأشياء والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] وكلامه حق وهو خبر، ومثل هذه الأخبار لا يدخلها النسخ، فلا فقر إلاّ إلى الله، ففي هذه الآية تسمّى الله بكل شيء يفتقر إليه، ومن هذا الباب يكون الفقير من يفتقر إلى كل شيء ولا يفتقر إليه شيء، فيتناول الأسباب على أوضاعها الحكمية لا يخل بشيء منها، وهذا الذوق عزيز ما رأينا أحداً عليه فيمن رأيناه، ولا نقل إلينا سماعاً لا في المتقدّم ولا في المتأخر، لكن رأينا ونقل إلينا عن جماعة إثبات الأسباب وليس من هذا الباب، فإن الذي نذكره ونطلبه سريان الألوهية في الأسباب أو تجليات الحق خلف حجاب الأسباب في أعيان الأسباب أو سريان الأسباب في الألوهية، هذا هو الذي لم نجد له ذائقاً إلاّ قول الله تعالىٰ، فهي الآية اليتيمة في القرآن لا يعرف قدرها إذ لا قيمة لها، وكل ما لا قيمة له ثبت بالضرورة أنه مجهول القدر ولو اعتقدت فيه النفاسة.

ومن أسرارهم أيضاً معرفة النشأتين في الدنيا، وهي النشأة الطبيعية والنشأة الروحانية وما أصلهما، ومعرفة النشأتين في الدار الآخرة الطبيعية والروحانية وما أصلهما، ومعرفة النشأتين: نشأة الدنيا ونشأة الآخرة فهي ستة علوم لا بدّ من معرفتها.

ومن أسرارهم أنه ما منهم شخص كمل له هذا المقام إلاّ ويوهب ستمائة قوّة إلهية ورثها من جدّه الأقرب لأبيه فيفعل بها بحسب ما تعطيه، فإن شاء أخفاها وإن شاء أظهرها، والإخفاء أعلى، فإن العبودة إنما تأخذ من القوىٰ ما تستعين بها على أداء حق أوامر سيدها لثبوت حكم عبوديتها، وكل قوّة تخرجه عن هذا الباب بالقصد فليس هو مطلوباً لرجال الله فإنهم لا يزاحمون ذا القوّة المتين، فإنّ الله ما طلب منهم أن يطلبوا العون منه إلاّ في عبادته، لا أن يظهروا بها ملوكاً أرباباً كما زعمت طائفة من أهل الكتاب ممّن اتخذوا عيسىٰ رباً قالوا: إن محمداً يطلب منّا أن نعبده كما عبدنا عيسىٰ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤]. ومن أسرارهم أيضاً أنهم لا يتعدّون في معارجهم من حيث أبيهم السماء الثانية إلاّ أن يتوجهوا إلى الجدّ الأقرب، فربما ينتهي بعضهم إلى السدرة المنتهى وهي المرتبة التي تنتهي إليها أعمال العباد لا تتعداها، ومن هناك يقبلها الحق وهي برزخها إلى يوم القيامة الذي يموت فيه صاحب ذلك العمل، ويكفي هذا القدر من علم أسرار هذه الجماعة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء العشرون.

(الجزء الحادي والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والثلاثون

في معرفة من اطلع على المقام المحمديّ ولم ينله من الأقطاب

[نظم: الكامل]

بين النبوّة والولاية فارقٌ	لكنْ لها الشرفُ الأتمُّ الأعظَمُ
يعنو لها الفلكُ المحيطُ بسرِّه	وكذلك القلمُ العليُّ الأفخَمُ
إن النبوّةَ والرسالة كانتا	وقد انتهت ولها السبيلُ الأقوَمُ
وأقام بيتاً للولاية مُحْكَماً	في ذاته فله البقاءُ الأدْوَمُ
لا تطلبَنْهُ نهايةً يسعى لها	فيكون عند بلوغه يتهَدَّمُ
صفةُ الدوام لذاته نَفْسِيَّةٌ	فهو الوليُّ فقَهْرُه متحكِّمُ
يأوي إليه نبيُّه ورسولُه	والعالمُ الأعلى ومن هو أقدَمُ

ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**» الحديث بكماله. فهذا الحديث من أشد ما جرعت الأولياء مرارته فإنه قاطع للوصلة بين الإنسان وبين عبوديته. وإذا انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين عبوديته من أكمل الوجوه انقطعت الوصلة بين الإنسان وبين الله، فإن العبد على قدر ما يخرج به عن عبوديته ينقصه من تقريبه من سيده لأنه يزاحمه في أسمائه، وأقل المزاحمة الاسمية، فأبقى علينا اسم الولي وهو

من أسمائه سبحانه، وكان هذا الاسم قد نزعه من رسوله وخلع عليه وسمّاه بالعبد والرسول ولا يليق بالله أن يسمّى بالرسول، فهذا الاسم من خصائص العبودية التي لا تصح أن تكون للرب، وسبب إطلاق هذا الاسم وجود الرسالة والرسالة قد انقطعت فارتفع حكم هذا الاسم بارتفاعها من حيث نسبتها بها من الله.

ولما علم رسول الله ﷺ أن في أمّته من يجرع مثل هذا الكأس وعلم ما يطرأ عليهم في نفوسهم من الألم لذلك رحمهم فجعل لهم نصيباً ليكونوا بذلك عبيد العبيد فقال للصحابة: «**لِيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**» فأمرهم بالتبليغ، كما أمره الله بالتبليغ لينطلق عليهم أسماء الرسل التي هي مخصوصة بالعبيد، وقال ﷺ: «**رَحِمَ اللَّهُ امْرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**» يعني حرفاً حرفاً، وهذا لا يكون إلاَّ لمن بلغ الوحي من قرآن أو سنة بلفظه الذي جاء به، وهذا لا يكون إلاَّ لنقلة الوحي من المقرئين والمحدثين ليس للفقهاء ولا لمن نقل الحديث على المعنى كما يراه سفيان الثوريّ وغيره نصيب ولا حظ فيه، فإن الناقل على المعنى إنما نقل إلينا فهمه في ذلك الحديث النبويّ، ومن نقل إلينا فهمه فإنما هو رسول نفسه ولا يحشر يوم القيامة فيمن بلغ الوحي كما سمعه وأدّى الرسالة، كما يحشر المقرىء والمحدث الناقل لفظ الرسول عينه في صف الرسل عليهم السلام، فالصحابة إذا نقلوا الوحي على لفظه فهم رسل رسول الله ﷺ والتابعون رسل الصحابة وهكذا الأمر جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة، فإن شئنا قلنا في المبلغ إلينا إنه رسول الله، وإن شئنا أضفناه لمن بلغ عنه، وإنما جوّزنا حذف الوسائط لأن رسول الله كان يخبره جبريل عليه السلام وملك من الملائكة، ولا نقول فيه رسول جبريل وإنما نقول فيه رسول الله كما قال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] مع قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣، ١٩٤] ومع هذا فما أضافه الله إلاَّ إلى نفسه، فهذا القدر بقي لهم من العبودية وهو خير عظيم امتنّ به عليهم ومهما لم ينقله الشخص بسنده متصلاً غير منقطع فليس له هذا المقام ولا شمّ له رائحة، وكان من الأولياء المزاحمين الحق في الاسم الوليّ، فنقصه من عبوديته بقدر هذا الاسم، فلهذا اسم المحدث بفتح الدال أولى به من اسم الوليّ، فإن مقام الرسالة لا يناله أحد بعد رسول الله ﷺ إلاَّ بقدر ما بينّاه فهو الذي أبقاه الحق تعالىٰ علينا. ومن هنا تعرف مقام شرف العبودية وشرف المحدثين نقلة الوحي بالرواية، ولهذا اشتدّ علينا غلق هذا الباب، وعلمنا أن الله قد طردنا من حال العبودية الاختصاصية التي كان ينبغي لنا أن نكون عليها. وأمّا النبوّة فقد بيّناها لك فيما تقدم في باب معرفة الأفراد وهم أصحاب الركاب.

ثم إنه تعالىٰ من باب طردنا من العبودة ومقامها قال تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ومن نحن حتى تقع القسمة بيننا وبينه وهو السيد الفاعل المحرك الذي يقوّلنا

في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] وأمثال ذلك ممّا أضافه إلينا، وقد علمنا أن نواصينا بيده في قيامنا وركوعنا وسجودنا وجلوسنا وفي نطقنا. يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٢] يقول الله: حمدني عبدي تفضّلاً منه، فإنه من قوّله بهذه اللفظة وما قدّره حتى يقول السيد: قال عبدي، وقلت له: هذا حجاب مسدل فينبغي للعبد أن يعرف أن لله مكراً خفياً في عباده، وكل أحد يمكر به على قدر علمه بربّه، فيأخذ هذا التكريم الإلهي ابتداء من الله مدرجاً في نعمة، فإذا صلّى وتلا وقال: الحمد لله يقولها حكاية من حيث ما هو مأمور بها لتصحّ عبوديته في صلاته، ولا ينتظر الجواب ولا يقول ليجاب بل يشتغل بما كلّفه سيده به من العمل حتى يكون ذلك الجواب والإنعام من السيد لا من كونه قال: فإن القائل على الحقيقة خالق القول فيه فنسلم من هذا المكر وإن كان منزلة رفيعة ولكن بالنظر إلى من هو في غير هذه المنزلة ممّن نزل عنها، فما ورثنا من رسول الله ﷺ من هذا المقام الذي أغلق بابه دوننا إلاّ ما ذكرناه من عناية الحق بمن كشف له عن ذلك ورزقه علم نقل الوحي بالرواية من كتاب وسنة، فما أشرف مقام أهل الرواية من المقرئين والمحدثين جعلنا الله ممّن اختص بنقله من قرآن وسنّة، فإن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، والحديث مثل القرآن بالنص فإنه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: الآيتان ٣، ٤].

وممّن تحقق بهذا المقام معنا أبو يزيد البسطامي كشف له منه بعد السؤال والتضرّع قدر خرق الإبرة فأراد أن يضع قدمه فيه فاحترق فعلم أنه لا ينال ذوقاً وهو كمال العبودة، وقد حصل لنا منه ﷺ شعرة وهذا كثير لمن عرف فما عند الخلق منه إلاّ ظلّه، ولما أطلعني الله عليه لم يكن عن سؤال وإنما كان عن عناية من الله، ثم إنه أيّدني فيه بالأدب رزقاً من لدنه وعناية من الله بي فلم يصدر مني هناك ما صدر من أبي يزيد بل اطلعت عليه وجاء الأمر بالرقي في سلمه فعلمت أنّ ذلك خطاب ابتلاء وأمر ابتلاء لا خطاب تشريف، على أنه قد يكون بعض الابتلاء تشريفاً فتوقفت وسألت الحجاب فعلم ما أردت فوضع الحجاب بيني وبين المقام وشكر لي ذلك فمنحني منه الشعرة التي ذكرناها اختصاصاً إلهياً، فشكرت الله على الاختصاص بتلك الشعرة غير طالب بالشكر الزيادة، وكيف أطلب الزيادة من ذلك وأنا أسأل الحجاب الذي هو من كمال العبودية؟ فسرت فيّ العبودة وظهر سلطانها وحيل بيني وبين مرتبة السيادة لله الحمد على ذلك وكم طلبت إليها وما أجبت، فحدا إن شاء الله أكون في الآخرة عبداً محضاً خالصاً، ولو ملكني جميع العالم ما ملكت منه إلاّ عبوديته خاصة، حتى يقوم بذاتي جميع عبودية العالم، وللناس في هذا مراتب.

فالذي ينبغي للعبد أن لا يزيد على هذا الاسم غيره، فإن أطلق الله ألسنة الخلق عليه بأنه وليّ الله ورأى أن الله قد أطلق عليه اسماً أطلقه تعالىٰ على نفسه فلا يسمعه ممّن يسميه به إلاّ على أنه بمعنى المفعول لا بمعنى الفاعل حتى يشم فيه رائحة العبودية، فإن بنية فعيل قد تكون بمعنى الفاعل، وإنما قلنا هذا من أجل ما أمرنا أن نتخذه سبحانه وكيلاً فيما هو له ممّا نحن

مستخلفون فيه، فإن في مثل هذا مكراً خفياً فتحفظ منه، ويكفي من التنبيه الإلهيّ العاصم من المكر كونك مأموراً بذلك فامتثل أمره واتخذه وكيلاً لا تدعي الملك فإنّ الله تولاّك فإنه قال: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٦] واسم الصالح من خصائص العبودية ولهذا وصف محمد ﷺ نفسه بالصلاح فإنه ادَّعى حالة لا تكون إلاّ للعبيد الكمَّل، فمنهم من شهد له بها الحق عزّ وجلّ بشرى من الله فقال في عبده يحيىٰ عليه السلام: ﴿ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١١٢]. وقال في نبيه عيسىٰ عليه السلام: ﴿ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٦]. وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٠]. من أجل الثلاثة الأمور التي صدرت منه في الدنيا وهي قوله عن زوجته سارة إنها أخته بتأويل. وقوله: ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ٨٩]، اعتذاراً. وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] إقامة حجة، فبهذه الثلاثة يعتذر يوم القيامة للناس إذا سألوه أن يسأل ربه فتح باب الشفاعة فلهذا ذكر صلاحه في الآخرة إذ لم يؤاخذه بذلك كما قال الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢]. وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٣] فقدم البشرى قبل العتاب، وهذه الآية عندنا بشرى خاصة ما فيها عتاب بل هو استفهام لمن أنصف وأعطى أهل العلم حقّهم.

وأما سليمان وأمثاله عليهم السلام فأخبرنا الحق أنه قال: ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة النمل: الآية ١٩] وإن كانوا صالحين في نفس الأمر عند الله فهم بين سائل في الصلاح ومشهود له به مع كونه نعتاً عبودياً لا يليق بالله، فما ظنك بالاسم الوليّ الذي قد تسمى الله به بمعنى الفاعل، فينبغي أن لا ينطلق ذلك الاسم على العبد وإن أطلقه الحق عليه فذلك إليه تعالىٰ، ويلزم الإنسان عبوديته، وما يختص به من الأسماء التي لم تنطلق قط على الحق لفظاً فيما أنزله على نبيه ﷺ، فلما أنزل الله تعالىٰ على عبده محمد ﷺ هذه الآية ليعرف الناس بها فكأن الله حكى عن نبيّه ﷺ ما لا بدّ له أن يقوله ويتلفظ به فجعله تعالىٰ قرآناً يتلى، إذ كان ذلك من خصائص العبيد في نفس الأمر فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٦] فشهد له بالصلاح إذا كان الحق حاكياً في هذه الآية، وإن كان آمراً فيكون من المشهودين لهم بالصلاح، فعرفنا أن الله تولاّه وأخبرنا أن الله يتولّى الصالحين، فشهد لنفسه بالصلاح بالوجه الذي ذكرناه ولم ينقل ذلك عن غيره بل نقل ما يقاربه من قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: الآيات ٣٠ ـ ٣٣] يقول الله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٣] أي فكذلك أنت فكان من فضله نيل مثل هذا المقام، فاحفظ يا وليّ نفسك في التخلّق بأسماء الله الحسنى فإن العلماء لم يختلفوا في التخلّق بها، فإذا وفقت للتخلّق بها فلا تغب في ذلك عن شهود آثارها فيك ولتكن فيها ومعها

بحكم النيابة عنها فتكون مثل اسم الرسول، لا تشارك الحق في إطلاق اسم عليك من أسمائه بذلك المعنى والزم الأدب ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون
في معرفة المنزل الذي يحط إليه الوليّ إذا طرده الحق تعالىٰ من جواره

[نظم: الوافر]

إذا حطَّ الوليُّ فليس إلاَّ ... عُروجٌ وارتقاءٌ في عُلُوِّ

فإن الحقَّ لا تقْيِيدَ فيه ... ففي عين النَّوَى عينُ الدنوِّ

فحال المجتبى في كل حالٍ ... سموٌّ في سموٍّ في سُمُوِّ

فلا حكمٌ عليه بكل وجهٍ ... ولا تأثيرَ فيه للعُلُوِّ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الله تعالىٰ يقول لإبليس: اسجد لآدم، فظهر الأمر فيه وقال لآدم وحوّاء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩] فظهر النهي فيهما، والتكليف مقسم بين أمر ونهي وهما محمولان على الوجوب حتى تخرجهما عن مقام الوجوب قرينة حال وإن كان مذهبنا فيهما التوقيف فتعين امتثال الأمر والنهي، وهذا أول أمر ظهر في العالم الطبيعيّ، وأول نهي، وقد أعلمناك أن الخاطر الأول وأن جميع الأوليات لا تكون إلاّ ربانية ولهذا تصدق ولا تخطىء أبداً ويقطع به صاحبه فسلطانه قوي. ولما كان هذا أول أمر ونهي لذلك وقعت العقوبة عند المخالفة ولم يمهل.

فإذا جاءت الأوامر بالوسائط لم تقو قوّة الأول وهي الأوامر الواردة إلينا على ألسنة الرسل وهي على قسمين: إما ثوان وهو ما يلقي الله إلى نبيه في نفسه من غير واسطة الملك فيصل إلينا الأمر الإلهيّ وقد جاز على حضرة كونية فاكتسب منها حالة لم يكن عليها، فإنّ الأسماء الإلهية تلقته في هذه الحضرة الكونية فشاركته بأحكامها في حكمه، وإما أن ينزل عليه بذلك الأمر الملك فيكون الأمر الإلهي قد جاز على حضرتين من الكون جبريل وأي ملك كان وأي نبيّ كان، فيكون فعله وأثره في القوّة دون الأول والثاني، فلذلك لم تقع المؤاخذة معجلة، فإما إمهال إلى الآخرة وإما غفران فلا يؤاخذ بذلك أبداً، وفعل الله ذلك رحمة بعباده.

كما أنه تعالىٰ خصّ النهي بآدم وحوّاء، والنهي ليس بتكليف عمليّ فإنه يتضمن أمراً عدمياً وهو لا تفعل، ومن حقيقة الممكن أنه لا يفعل فكأنه قيل له: لا تفارق أصلك والأمر ليس كذلك فإنه يتضمن أمراً وجودياً وهو أن يفعل فكأنه قيل له: اخرج عن أصلك فالأمر أشق على النفس من النهي إذ كلّف الخروج عن أصله، فلو أن إبليس لما عصى ولم يسجد لم يقل ما قال من التكبّر والفضلية التي نسبها إلى نفسه على غيره فخرج عن عبوديته بقدر ذلك فحلّت به عقوبة الله وكانت العقوبة لآدم وحوّاء لما تكلفا الخروج عن أصلهما وهو الترك وهو أمر عدميّ بالأكل وهو أمر وجوديّ، فشرّك الله بين إبليس وآدم وحوّاء في ضمير واحد وهو

كان أشدّ العقوبة على آدم فقيل لهم: اهبطوا بضمير الجماعة، ولم يكن الهبوط عقوبة لآدم وحوّاء وإنما كان عقوبة لإبليس، فإن آدم أهبط لصدق الوعد بأن يجعل في الأرض خليفة بعدما تاب عليه واجتباه وتلقى الكلمات من ربّه بالاعتراف، فاعترافه عليه السلام في مقابلة كلام إبليس: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فعرّفنا الحق بمقام الاعتراف عند الله وما ينتجه من السعادة لنتخذه طريقاً في مخالفتنا، وعرّفنا بدعوى إبليس ومقالته لنحذر من مثلها عند مخالفتنا، وأهبطت حوّاء للتناسل، وأهبط إبليس للإغواء، فكان هبوط آدم وحوّاء هبوط كرامة، وهبوط إبليس هبوط خذلان وعقوبة واكتساب أوزار، فإنّ معصيته كانت لا تقتضي تأبيد الشقاء فإنه لم يشرك بل افتخر بما خلقه الله عليه وكتبه شقياً ودار الشقاء مخصوصة بأهل الشرك فأنزله الله إلى الأرض ليسنّ الشرك بالوسوسة في قلوب العباد، فإذا أشركوا وتبرأ إبليس من المشرك ومن الشرك لم ينفعه تبريه منه فإنه هو الذي قال له اكفر كما أخبر الله تعالىٰ، فحار عليه وزر كل مشرك في العالم وإن كان موحداً، فإنه من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، فإن الشخص الطبيعيّ كإبليس وبني آدم لا بدّ أن يتصوّر في نفسه مثال ما يريد أن يبرزه.

فما سنّ الشرك ووسوس به حتى تصوّره في نفسه على الصورة التي إذا حصلت في نفس المشرك زالت عنه صورة التوحيد، فإذا تصوّرها في نفسه بهذه الصورة فقد خرج التوحيد عن تصوّره في نفسه ضرورة، فإن الشريك متصوّر له في نفسه إلى جانب الحق الذي في نفسه متخيلاً، أعني من العلم بوجوده فما تركه في نفسه وحده، فكان إبليس مشركاً في نفسه بلا شك ولا ريب، ولا بدّ أن يحفظ في نفسه بقاء صورة الشريك ليمدّ بها المشركين مع الأنفاس، فإنه خائف منهم أن تزول عنهم صفة الشرك فيوحدوا الله فيسعدوا، فلا يزال إبليس يحفظ صورة الشرك في نفسه ويراقب بها قلوب المشركين الكائنين في الوقت شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، ويردّ بها الموحّدين في المستقبل إلى الشرك ممّن ليس بمشرك، فلا ينفك إبليس دائماً على الشرك، فبذلك أشقاه الله لأنه لا يقدر أن يتصوّر التوحيد نفساً واحداً لملازمته هذه الصفة وحرصه على بقائها في نفس المشرك، فإنها لو ذهبت من نفسه لم يجد المشرك من يحدّثه في نفسه بالشرك فيذهب الشرك عنه ويكون إبليس لا يتصوّر الشريك لأنه قد زالت عن نفسه صورة الشريك فيكون لا يعلم أن ذلك المشرك قد زال عن إشراكه، فدلّ أن الشريك يستصحب إبليس دائماً، فهو أوّل مشرك بالله وأوّل من سنّ الشرك، وهو أشقى العالمين، فلذلك يطمع في الرحمة من عين المنة، ولهذا قلنا: إن العقوبة في حق آدم إنما كانت في جمعه مع إبليس في الضمير حيث خاطبهم الحق بالهبوط بالكلام الذي يليق بجلاله.

ولكن لا بدّ أن يكون في الكلام الصفة التي يقتضيها لفظ الضمير فإن صورة اللفظ يطلب المعنى الخاص، وهذه طريقة لم تجعل العلماء بالها من ذلك، وإنما ذكرنا مسألة آدم تأنيساً لأهل الله تعالىٰ إذا زلّوا فحطّوا عن مقامهم أن ذلك الانحطاط لا يقضي بشقائهم ولا بدّ

بل يكون هبوطهم كهبوط آدم، فإن الله لا يتحيّز ولا يتقيد، وإذا كان الأمر على هذا الحدّ وكان الله بهذه الصفة من عدم التقييد فيكون عين هبوط الوليّ عند الزلة، وما قام به من الذلّة والحياء والانكسار فيها عين الترقي إلى أعلى ممّا كان فيه لأن علوه بالمعرفة والحال، وقد يزيد من العلم بالله ما لم يكن عنده ومن الحال وهو الذلّة والانكسار ما لم يكن عليهما، وهذا هو عين الترقّي إلى مقام أشرف، فإذا فقد الإنسان هذه الحالة في زلته ولم يندم ولا انكسر ولا ذلّ ولا خاف مقام ربّه فليس من أهل هذه الطريقة بل ذلك جليس إبليس بل إبليس أحسن حالاً منه لأنه يقول لمن يطيعه في الكفر: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الحشر: الآية ١٦].

ونحن إنما نتكلم على زلاّت أهل الله إذا وقعت منهم قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٣٥] وقال رسول الله ﷺ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**» وإنما الإنسان الوليّ إذا كان في المقام الذي كان والحال التي كان عليها ملتذاً بها فلذّته إنما كانت بحاله فإن الله يتعالىٰ أن يلتذ به، فلما زلّ وعرته حالة الذلّة والانكسار زالت ضرورة الحالة التي كان يلتذ بوجودها وهي حالة الطاعة والموافقة فلما فقدها تخيل أنه انحط من عين الله، وإنما تلك الحالة لما زالت عنه انحط عنها إذ كانت حالة تقتضي الرفعة، وهو الآن في معراج الذلة والندم والافتقار والانكسار والاعتراف والأدب مع الله تعالىٰ والحياء منه، فهو يترقى في هذا المعراج فيجد هذا العبد في غاية هذا المعراج حالة أشرف من الحالة التي كان عليها، فعند ذلك يعلم أنه ما انحط وأنه ترقى من حيث لا يشعر أنه في ترق، وأخفى الله ذلك عن أوليائه لئلاّ يجترؤوا عليه في المخالفات، كما أخفى الاستدراج فيمن أشقاه الله فقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٢] فهم كما قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] كذلك أخفى سبحانه تقريبه وعنايته فيمن أسعده الله بما شغله الله به من البكاء على ذنبه ومشاهدته زلته ونظره إليها في كتابه وذهل عن أن ذلك الندم يعطيه الترقي عند الله، فإنه ما بشرّه بقبول التوبة فهو متحقق وقوع الزلّة حاكم عليه الانكسار والحياء ممّا وقع فيه وإن لم يؤاخذه الله بذلك الذنب فكان الاستدراج حاصلاً في الخير والشرّ وفي السعداء والأشقياء.

ولقيت بمدينة فاس رجلاً عليه كآبة كأنه يخدم في الأتون فسألت أبا العباس الحصار وكان من كبار الشيوخ عنه فإني رأيته يجالسه ويحن إليه فقال لي: هذا رجل كان في مقام فانحط عنه فكان في هذا المقام، وكان من الحياء والانكسار بحالة أوجبت عليه السكوت عن كلام الخلق، فما زلت ألاطفه بمثل هذه الأدوية وأزيل عنه مرض تلك الزلة بمثل هذا العلاج وكان قد مكّنني من نفسه، فلم أزل به حتى سرى ذلك الدواء في أعضائه فأطلق محياه وفتح له في عين قلبه باب إلى قبوله ومع هذا فكان الحياء يستلزمه. وكذلك ينبغي أن تكون زلاّت الأكابر غالباً نزولهم إلى المباحات لا غير وفي حكم النادر تقع منهم الكبائر، قيل لأبي يزيد البسطامي رضي الله عنه: أيعصي العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً يريد أن معصيتهم بحكم القدر النافذ فيهم لا أنهم يقصدون انتهاك حرمات الله، هم بحمد الله إذا كانوا أولياء عند

الله تعالىٰ وجلّ معصومون في هذا المقام فلا تصدر منهم معصية أصلاً انتهاكاً لحرمة الله كمعاصي الغير، فإن الإيمان المكتوب في القلوب يمنع من ذلك، فمنهم من يعصي غفلة، ومنهم من يخالف على حضور عن كشف إلهيّ قد عرّفه الله فيه ما قدره عليه قبل وقوعه فهو على بصيرة من أمره وبينة من ربّه وهذه الحالة بمنزلة البشرى في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [سورة الفتح: الآية ٢] فقد أعلمه بالذنوب الواقعة المغفورة فلا حكم لها ولا لسلطانها فيه، فإنه إذا جاء وقت ظهورها يكون في صحبتها الاسم الغفار فتنزل بالعبد ويحجب الغفار حكمها فتكون بمنزلة من يلقى في النار ولا يحترق كإبراهيم عليه السلام فكان في النار ولا حكم لها فيه بالحجاب الذي هو المانع، كذلك زلة العارف صاحب مقام الكشف للأقدار تجل به النازلة وحكمها بمعزل عنها فلا تؤثر في مقامه، بخلاف من تحلّ فيه وهو على غير بينة ولا بصيرة بما قدر عليه، فهذا يستلزمه الحياء والندم والذلّة وذلك ليس كذلك، وهنا أسرار إلهية لا يسعنا التعبير عنها.

وبعد أن فهمناك مراتبهم في هذا المقام وفرقنا لك بين معصية العارفين وبين معاصي العامّة من علماء الرسوم ومقلديهم، فاعلم أنه حكي عن بعضهم أنه قال: اقعد على البساط يريد بساط العبادة، وإياك والانبساط أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودة من حيث إنها مكلفة بأمور حدّها له سيدها، فإنه لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزهو من أجل مقام من هو عبد له ومنزلته كما زها يوماً عتبة الغلام وافتخر فقيل له: ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك ممّا لم يكن يعرف قبل ذلك منك؟ فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً فما قبض العبيد من الإدلال وأن يكونوا في الدنيا مثل ما هم في الآخرة إلاّ التكليف فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها، فإذا لم يبق لهم شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية وذلك لا يكون إلاّ في الدار الآخرة، فإن التكليف لهم مع الأنفاس في الدار الدنيا، فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله، ولا يبلغ درجة غيره ممّن ليس له إدلال أبداً فإنه فاتته أنفاس كثيرة في حال إدلاله غاب عمّا يجب عليه فيها من التكليف الذي يناقض الاشتغال به الإدلال، فليست الدنيا بدار إدلال، ألا ترى عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدار ذلك القدر الزماني وضع خدّه في الأرض واعترف بأن الذي هو فيه الآن هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار، وسبب ذلك أنه كان في أوقات صاحب إدلال لما كان الحق يعرفه به من حوادث الأكوان، وعصم الله أبا السعود تلميذه من ذلك الإدلال فلازم العبودية المكلفة مع الأنفاس إلى حين موته، فما حكي أنه تغيّر عليه الحال عند موته كما تغيّر على شيخه عبد القادر، وحكى لنا الثقة عندنا قال: سمعته يقول: طريق عبد القادر في طرق الأولياء غريب، وطريقنا في طرق عبد القادر غريب، رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم، والله يعصمنا من المخالفات وإن كانت قدّرت علينا، فالله أسأل أن يجعلنا في ارتكابها على بصيرة حتى يكون لنا بها ارتقاء درجات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون

في معرفة منزل مجاور لعلم جزئي من علوم الكون وترتيبه وغرائبه وأقطابه

نظم يتضمن ما ترجمنا عليه: [الطويل]

مجاورُ علمِ الكونِ علمٌ إلهيٌّ ... يقول الذي يُغطَاه كَشْفٌ حقيقيٌّ
وما هوَ من عِلْمِ البَرَازخ خالِصٌ ... وما هو علويٌّ وما هو سُفْلِيٌّ
له في العُلَى وجهٌ غريبٌ محقَّقٌ ... وفي السفل وجهٌ بالحقائق عُلْويٌّ
وليس الذي يدريه مَلْكٌ مخلَّصٌ ... ولا هو جنيٌّ ولا هو إنْسِيٌّ
ولكنها الأعيانُ لما تألَّفَتْ ... بدا لك شكلٌ مستفاد كِيَانيٌّ
فقل فيه ما تهواه يقبَلْه أصلُه ... فلستَ تراه وهو للعين مرئيٌّ
فما هو محكومٌ وليس بحاكم ... فما هو غيبيٌّ وما هو حِسِّيٌّ
تنزَّه عن حصر الجهات ضياؤه ... فلا هو شرقيٌّ ولا هو غربيٌّ
فسبحانَ من أخفى عن العين ذاتَه ... ويسري مثالٌ منه فينا اتِّصاليٌّ
نراه إذا كنّا وما هو عينُه ... ولكنه كشفٌ صحيحٌ خياليٌّ
تجلّى لرأي العين في كل صورة ... فذلك مقصودي بقولي مثاليٌّ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أن هذا المنزل منزل الكمال وهو مجاور منزل الجلال والجمال، هو من أجل المنازل والنازل فيه أتم نازل. اعلم أن خرق العوائد على ثلاثة أقسام: قسم منها يرجع إلى ما يدركه البصر أو بعض القوىٰ على حسب ما يظهر لتلك القوّة ممّا ارتبطت في العادة بإدراكه وهو في نفسه على غير ما أدركته تلك القوّة مثل قوله تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [سورة طٰه: الآية ٦٦] وهذا القسم داخل تحت قدرة البشر وهو على قسمين: منه ما يرجع إلى قوّة نفسية، ومنه ما يرجع إلى خواص أسماء إذا تلفظ بتلك الأسماء ظهرت تلك الصور في عين الرائي أو في سمعه خيالاً، وما ثم في نفس الأمر أعني في المحسوس شيء من صورة مرئية ولا مسموعة وهو فعل الساحر وهو على علم أنه ما ثمّ شيء ممّا وقع في الأعين والأسماع. والقسم الآخر الذي هو قوّة نفسية يكون عنها فيما تراه العين أو أيّ إدراك كان ما كان من الأمر الذي ظهر عن خواص الأسماء، والفرق بينهما أن الذي يفعله بطريق الأسماء وهو الساحر يعلم أنه ما ثمّ شيء من خارج وإنما لها سلطان على خيال الحاضرين فتخطف أبصار الناظرين فيرى صوراً في خياله كما يرى النائم في نومه، وما ثمَّ في الخارج شيء ممّا يدركه، وهذا القسم الآخر الذي للقوّة النفسية منهم من يعلم أنه ما ثم شيء في الخارج، ومنهم من لا يعلم ذلك فيعتقد أن الأمر كما رآه.

ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب مقامات الأولياء في باب الكرامات منه أن عليماً الأسود وكان من أكابر أهل الطريق أن بعض الصالحين اجتمع به في قصة أدّته إلى أن ضرب عليم الأسود إلى أسطوانة كانت قائمة في المسجد من رخام فإذا هي كلها ذهب فنظر إليها

الرجل أسطوانة ذهب فتعجب فقال له: يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك وهي غير ذلك، فخرج من كلامه فيما يظهر لمن لا علم له بالأشياء ببادي الرأي أو من أول نظر أن الأسطوانة حجر كما كانت وليست ذهباً إلاَّ في عين الرائي، ثم إن الرجل أبصرها بعد ذلك حجراً كما كانت أول مرة، قال تعالىٰ في عصا موسىٰ عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [سورة طه: الآية ١٧ . ١٨] ثم قال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ . . . فَأَلْقَىٰهَا﴾ [سورة طه: الآيتان ١٩ و٢٠] من يده في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢٠] فلما خاف موسىٰ عليه السلام منها على مجرى العادة في النفوس أنها تخاف من الحيات إذا فاجأتها لما قرن الله بها من الضرر لبني آدم وما علم موسىٰ مراد الله في ذلك ولو علمه ما خاف فقال الله تعالىٰ له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٢١] أي ترجع عصا كما كانت أو ترجع تراها عصا كما كانت، فالآية محتملة فإن الضمير الذي في قوله عزّ وجلّ: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ إذا لم تكن عصا في حال كونها في نظر موسىٰ حية لم يجد الضمير على من يعود، كما أن الإنسان إذا عوّدك أمراً ما وهو أنه كان يحسن إليك ثم أساء إليك فتقول له: قد تغيرت سيرتك معي ما أنت هو ذاك الذي كان يحسن إليّ ومعلوم أنه هو، فيقال له: سيعود معك إلى سيرته الأولى من الإحسان إليك وهو في صورته ما تغيّر ولكن تغيّر عليك فعله معك.

وقدّم الله هذا لموسىٰ عليه السلام توطئة لما سبق في علمه سبحانه أن السحرة تظهر لعينه مثل هذا فيكون عنده علم من ذلك حتى لا يذهل ولا يخاف إذا وقع منهم عند إلقائهم حبالهم وعصيهم، وخيّل إلى موسىٰ أنها تسعى يقول له: فلا تخف إذا رأيت ذلك منهم يقوّي جأشه، فلما وقع من السحرة ما وقع ممّا ذكر الله لنا في كتابه وامتلأ الوادي من حبالهم وعصيهم ورآها موسىٰ فيما خيّل له حيات تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٧] فلم يكن نسبة الخوف إليه في هذا الوقت نسبة الخوف الأول، فإنّ الخوف الأول كان من الحية فولّى مدبراً ولم يعقب حتى أخبره الله تعالىٰ، وكان هذا الخوف الآخر الذي ظهر منه للسحرة على الحاضرين لئلا تظهر عليه السحرة بالحجة فيلتبس الأمر على الناس ولهذا قال الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٦٨] ولما ظهر للسحرة خوف موسىٰ ممّا رآه وما علموا متعلق هذا الخوف أي شيء هو علموا أنه ليس عند موسىٰ من علم السحر شيء فإن الساحر لا يخاف ممّا يفعله لعلمه أنه لا حقيقة له من خارج وأنه ليس كما يظهر لأعين الناظرين، فأمر الله موسىٰ أن يلقي عصاه وأخبر أنها تلقف ما صنعوا، فلما ألقى موسىٰ عصاه فكانت حية علمت السحرة بأجمعها مما علمت من خوف موسىٰ أنه لو كان ذلك منه وكان ساحراً ما خاف ورأوا عصاه حية حقيقة علموا عند ذلك أنه أمر غيب من الله الذي يدعوهم إلى الإيمان به وما عنده من علم السحر خبر، فتلقفت تلك الحيّة جميع ما كان في الوادي من الحبال والعصيّ أي تلقفت صور الحيّات منها فبدت حبالاً وعصياً كما هي وأخذ الله بأبصارهم عن ذلك فإنّ الله يقول: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [سورة طه: ٦٩] وما صنعوا الحبال ولا العصيّ وإنما

صنعوا في أعين الناظرين صور الحيات وهي التي تلقفت عصا موسىٰ فتنبّه لما ذكرت لك، فإن المفسرين ذهلوا عن هذا الإدراك في أخبار الله تعالىٰ فإنه ما قال تلقف حبالهم وعصيهم فكانت الآية عند السحرة خوف موسىٰ وأخذ صور الحيات من الحبال والعصيّ، وعلموا أن الذي جاء به موسىٰ من عند الله، فآمنوا بما جاء به موسىٰ عن آخرهم وخرّوا سجداً عند هذه الآية وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [سورة طه: ٧٠] حتى يرتفع الالتباس، فإنهم لو وقفوا على العالمين لقال فرعون: أنا رب العالمين إياي عنوا، فزادوا رب موسىٰ وهرون أي الذي يدعو إليه موسىٰ وهرون فارتفع الإشكال فتوعدهم فرعون بالعذاب فآثروا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة وكان من كلامهم ما قصّ الله علينا.

وأمّا العامة فنسبوا ما جاء به موسىٰ إلى أنه من قبيل ما جاءت به السحرة إلاّ أنه أقوى منهم وأعلم بالسحر بالتلقف الذي ظهر من حية عصا موسىٰ عليه السلام فقالوا: هذا سحر عظيم، ولم تكن آية موسىٰ عند السحرة إلاّ خوفه وأخذ صور الحيات من الحبال والعصيّ خاصة، فمثل هذا خارج عن قوّة النفس وعن خواص الأسماء لوجود الخوف الذي ظهر من موسىٰ في أول مرة فكان الفعل من الله، ولما واقع السحرة اللبس على أعين الناظرين بتصيير الحبال والعصيّ حيات في نظرهم أراد الحق أن يأتيهم من بابهم الذي يعرفونه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩] فإن الله يراعي في الأمور المناسبات، فجعل العصا حية كحيات عصيهم في عموم الناس، ولبس على السحرة بما أظهر من خوف موسىٰ فتخيّلوا أنه خاف من الحيات وكان موسىٰ في نفس الأمر غير خائف من الحيات لما تقدّم له في ذلك من الله في الفعل الأول حين قال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [سورة طه: ٢١] فنهاه عن الخوف منها وأعلمه أن ذلك آية له، فكان خوفه الثاني على الناس لئلا يلتبس عليهم الدليل والشبهة والسحرة تظنّ أنه خاف من الحيات فلبس الله عليهم خوفه كما لبسوا على الناس، وهذا غاية الاستقصاء الإلهيّ في المناسبات في هذا الموطن لأن السحرة لو علمت أن خوف موسىٰ من الغلبة بالحجة لما سارعت إلى الإيمان.

ثم إنه كان لحية موسىٰ التلقف ولم يكن لحياتهم تلقف ولا أثر لأنها حبال وعصيّ في نفس الأمر، فهذا المنزل الذي ذكرناه في هذا الباب أنه مجاور لعلم جزئيّ من علوم الكون هو هذا العلم الجزئي علم المعجزات لأنه ليس عن قوّة نفسية ولا عن خواص أسماء، فإن موسىٰ عليه السلام لو كان انفعال العصا حية عن قوّة همية أو عن أسماء أعطيها ما ولّى مدبراً ولم يعقب خوفاً، فعلمنا أن ثمَّ أموراً تختصّ بجانب الحق في علمه لا يعرفها من ظهرت على يده تلك الصورة، فهذا المنزل مجاور لما جاءت به الأنبياء من كونه ليس عن حيلة ولم يكن مثل معجزات الأنبياء عليهم السلام لأن الأنبياء لا علم لهم بذلك، وهؤلاء ظهر ذلك عنهم بهمتهم أو قوّة نفسهم أو صدقهم قل كيف شئت، فلهذا اختصّت باسم الكرامات ولم تسمَّ معجزات ولا سمّيت سحراً، فإن المعجزة ما يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها إمّا صرفاً وإمّا أن تكون

ليست من مقدورات البشر العدم قوّة النفس وخواص الأسماء وتظهر على أيديهم، وأن السحر هو الذي يظهر فيه وجه إلى الحق وهو في نفس الأمر ليس حقاً مشتق من السحر الزماني وهو اختلاط الضوء والظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، وهو ليس بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار، فكذلك هذا الذي يسمّى سحْراً ما هو باطل محقق فيكون عدماً فإن العين أدركت أمراً ما لا تشك فيه، وما هو حق محض فيكون له وجود في عينه فإنه ليس في نفسه كما تشهده العين ويظنه الرائي، وكرامات الأولياء ليست من قبيل السحر فإن لها حقيقة في نفسها وجودية وليست بمعجزة فإنه على علم وعن قوّة همة.

وأمّا قول عليم لحقيقتك بربك تراها ذهباً فإن الأعيان لا تنقلب وذلك لما رآه قد عظم ذلك الأمر عندما رآه فقال له: العلم بك أشرف ممّا رأيت فاتصف بالعلم فإنه أعظم من كون الأسطوانة كانت ذهباً في نفس الأمر، فأعلمه أن الأعيان لا تنقلب وهو صحيح في نفس الأمر أي أن الحجرية لم ترجع ذهباً فإن حقيقة الحجرية قبلها هذا الجوهر كما قبل الجسم الحرارة فقيل فيه إنه حار، فإذا أراد الله أن يكسو هذا الجوهر صورة الذهب خلع عنه صورة الحجر وكساه صورة الذهب فظهر الجوهر أو الجسم الذي كان حجراً ذهباً، كما خلع عن الجسم الحار الحرارة وكساه البرد فصار بارداً، فما انقلبت عين الحرارة برودة، والجسم البارد بعينه هو الذي كان حارّاً فما انقلبت الأعيان كذلك حكاية عليم الجوهر الذي قبل صورة الذهب عند الضرب هو الذي كان قد قبل صورة الحجر، والجوهر هو الجوهر بعينه فالحجر ما عاد ذهباً، ولا الذهب عاد حجراً، كما أن الجوهر الهيولاني قبل صورة الماء فقيل هو ماء بلا شك، فإذا جعلته في القدر وأغليتها على النار إلى أن يصعد بخاراً فتعلم قطعاً أن صورة الماء زالت عنه وقبل صورة البخار فصار يطلب الصعود لعنصره الأعظم كما كان، إذ قامت به صورة الماء يطلب عنصره الأعظم فيأخذ سفلاً، فهذا معنى قول عليم في هذا المنزل المختص بالأولياء.

والهمة المجاورة لعلم المعجزة أن الأعيان لا تنقلب، وقوله لحقيقتك بربك أي إذا اطلعت إلى حقيقتك وجدت نفسك عبداً محضاً عاجزاً ميتاً ضعيفاً عدماً لا وجود لك كمثل هذا الجوهر ما لم يلبس الصور لم يظهر له عين في الوجود، فهذا العبد يلبس صور الأسماء الإلهية فتظهر بها عينه، فأول اسم يلبسه الوجود فيظهر موجوداً لنفسه حتى يقبل جميع ما يمكن أن يقبله الموجود من حيث ما هو موجود فيقبل جميع ما يخلع عليه الحق من الأسماء الإلهية فيتصف عند ذلك بالحي، والقادر، والعليم، والمريد، والسميع، والبصير، والمتكلم، والشَّكور، والرحيم، والخالق، والمصوّر، وجميع الأسماء. كما اتصف هذا الجسم بالحجر، والذهب، والفضة، والنحاس، والماء، والهواء، ولم تزل حقيقة الجسمية عن كل واحد مع وجود هذه الصفات، كذلك لا يزول عن الإنسان حقيقة كونه عبداً إنساناً مع وجود هذه الأسماء الإلهية فيه، فهذا معنى قوله:

لحقيقتك بربك أي لارتباط حقيقتك بربك، فلا تخلو عن صورة إلهية تظهر فيها كذلك هذا الجسم لا يخلو عن صورة يظهر فيها.

وكما تتنوّع أنت بصور الأسماء الإلهية فينطلق عليك بحسب كل صورة اسم غير الاسم الآخر، كذلك ينطلق على هذا الجوهر اسم الحجرية والذهبية للوصف لا لعينه، فقد تبينت فيما ذكرناه الثلاثة الأقسام في خرق العوائد وهي: المعجزات، والكرامات، والسحر، وما ثم خرق عادة أكثر من هذا، ولست أعني بالكرامات إلاّ ما ظهر عن قوّة الهمة لا أني أريد بهذا الاصطلاح في هذا الموضع التقريب الإلهيّ لهذ الشخص فإنه قد يكون ذلك استدراجاً ومكراً، وإنما أطلقت عليه اسم الكرامة لأنه الغالب والمكر فيه قليل جدّاً، فهذا المنزل مجاور آيات الأنبياء عليهم السلام، وهو العلم الجزئي من علوم الكون لا يجاور السحر، فإن كرامة الوليّ وخرق العادة له إنما كانت باتباع الرسول، والجري على سنته فكأنها من آيات ذلك النبيّ إذ باتباعه ظهرت للمتحقق بالاتباع فلهذا جاورته فأقطاب هذا المنزل كل وليّ ظهر عليه خرق عادة عن غير همته فيكون إلى النبوّة أقرب ممّن ظهر عنه خرق العادة بهمته، والأنبياء هم العبيد على أصلهم، فكذلك أقطاب هذا المنزل، فكلما قربت أحوالك من أحوال الأنبياء عليهم السلام كنت في العبودة أمكن وكانت لك الحجة ولم يكن للشيطان عليك سلطان كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٢] وقال: ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [سورة الجن: الآية ٢٧] فلا أثر للشيطان فيهم فكذلك من قرب منهم، ولما عاينت هذا المشهد قلت القصيدة التي أوّلها: [الطويل]

تنزَّلت الأملاكُ ليلاً على قلبي ... ودارتْ عليه مثل دائرة القلبِ
حذاراً من الْقاءِ اللعين إذا يرى ... نزولَ علوم الغيبِ عيناً على القلبِ
وذلك حِفْظُ الله في مثل طورنا ... وعصمتُه في المرسلين بلا رَيْبِ

القصيدة بكمالها وهي مذكورة في أول الباب الثلاثين وثلاثمائة من هذا الكتاب، وترتيب هذا الباب هو ما ذكرناه من مراتب خرق العوائد، وأمّا ما فيه من الغرائب فإلحاق البشر بالروحانيين في التمثّل، وإلحاق الروحانيين بالبشر في الصورة، وظهور صورة عنهم شبيه الصورة التي يتمثلون بها قال تعالىٰ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ١٧] يسمّى روحاً مثل ما هو جبريل روح فيحيي الموتى كما يحيي جبريل. قال ابن عباس: ما وطىء جبريل عليه السلام قط موضعاً من الأرض إلاّ حيي ذلك الموضع، ولهذا أخذ السامريّ قبضة من أثره حين عرفه لما جاء لموسىٰ وقد علم أن وطأته يحيا بها ما وطئه من الأشياء فقبض قبضة من أثر الرسول فرمى بها في العجل الذي صنعه فحيي ذلك العجل، وكان ذلك إلقاء من الشيطان في نفس السامريّ، لأن الشيطان يعلم منزلة الأرواح فوجد السامريّ في نفسه هذه القوّة وما علم بأنها من إلقاء إبليس فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [سورة طه: الآية ٩٦] وفعل ذلك إبليس من حرصه على إضلاله بما يعتقده من

الشريك لله تعالىٰ، فخرج عيسىٰ على صورة جبريل في المعنى والاسم والصورة الممثلة فالتحق البشر بالروحانيّ والتحق الروحاني بصورة البشر في نازلة واحدة. ويكفي هذا القدر من هذا الباب فإنه باب واسع لمريم وآسية، ولحقائق الرسل عليهم السلام فيه مجال رحب فإنه منزل الكمال من حصله ساد على أبناء جنسه وظهر حاكماً على صاحب الجلال والجمال، وهو من مقامات أبي يزيد البسطامي والأفراد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الحادي والعشرون.

(الجزء الثاني والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الحادي والأربعون

في معرفة أهل الليل واختلاف طبقاتهم وتباينهم في مراتبهم وأسرار أقطابهم

[نظم: الطويل]

ألا إن أهلَ الليل أهلُ تَنَزُّلِ ... وأهلُ معاريج وأهلُ تنقُّلِ
فمن صاعدٍ نحو المَقَام بهمَّةٍ ... ومن نازلٍ يبغي اللحوقَ بأسفَلِ
بحكم التَّداني والتدلِّي هما وعن ... وجود الترقِّي والتلقِّي بمعزلِ
فإن قلتَ فيهم إنهم خيرُ عُصْبَةٍ ... صدقتَ فقد حلوا بأكرم مَنْزِلِ
وإن قلتَ فيهم إنهم شرُّ فتيةٍ ... صدقتَ فليسوا بالنبيِّ ولا الولِي
فهم لا هُمُو ليسوا بهم وبغيرهم ... ولكنهم في مَعْقلٍ متَزَلْزِلِ
عزيز الحمى بين المشاهد والنهى ... وبين جنوبٍ في الهبوب وشَمْألِ
فما منْهُمُو إلاَّ إمامٌ مسَوَّدٌ ... إذا أصبحوا نالوا المنى بالتأمُّلِ
لهم نظرةٌ لا يعرف الغيرُ حكْمَها ... لهم سطوةٌ في كل تاج مكلَّلِ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الله جعل الليل لأهله مثل الغيب لنفسه، فكما لا يشهد أحد فعل الله في خلقه لحجاب الغيب الذي أرسله دونهم كذلك لا يشهد أحد فعل أهل الليل مع الله في عبادتهم لحجاب ظلمة الليل التي أرسلها الله دونهم، فهم خير عصبة في حق الله، وهم شرّ فتية في حق أنفسهم، ليسوا بأنبياء تشريع لما ورد من غلق باب النبوّة، ولا يقال في واحد منهم عندهم إنه وليّ لما فيه من المشاركة مع اسم الله، فيقال فيهم أولياء ولا يقولون ذلك عن أنفسهم وإن بشّروا، فجعل الليل لباساً لأهله يلبسونه فيسترهم هذا اللباس عن أعين الأغيار يتمتعون في خلواتهم الليلية بحبيبهم فيناجونه من غير رقيب لأنه جعل النوم في أعين الرقباء سباتاً أي راحة لأهل الليل إلهية كما هو راحة للناس طبيعية، فإذا نام الناس استراح هؤلاء مع ربهم وخلوا به حسّاً ومعنى فيما يسألونه من قبول توبة وإجابة دعوة ومغفرة حوبة وغير ذلك.

فنوم الناس راحة لهم، وأنّ الله تعالىٰ ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا فلا يبقى بينه

وبينهم حجاب فلكي، ونزوله إليهم رحمة بهم ويتجلّى من سماء الدنيا عليهم كما ورد في الخبر فيقول: كذب من ادّعى محبتي فإذا جنّه الليل نام عني. أليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه؟ ها أنا ذا قد تجليت لعبادي هل من داع فأستجيب له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ حتى ينصدع الفجر، فأهل الليل هم الفائزون بهذه الحظوة في هذه الخلوة وهذه المسامرة في محاريبهم، فهم قائمون يتلون كلامه ويفتحون أسماعهم لما يقول لهم في كلامه إذا قال: يا أيها الناس. يصغون ويقولون: نحن الناس ما تريد منا يا ربنا في ندائك هذا؟ فيقول لهم عزّ وجلّ على لسانهم بتلاوتهم كلامه الذي أنزله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الحج: الآية ١] يا أيها الناس، يقولون: لبيك ربنا، يقول لهم: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢] فيقولون: يا ربنا خاطبتنا فسمعنا وفهمتنا ففهمنا، فيا ربنا وفقنا واستعملنا فيما طلبته منّا من عبادتك وتقواك إذ لا حول لنا ولا قوّة إلاّ بك، ومن نحن حتى تنزل إلينا من علوّ جلالك وتنادينا وتسألنا وتطلب منّا. يا أيها الناس، يقولون: لبيك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [سورة لقمان: الآية ٣٣] فيقولون: يا ربنا أسمعتنا فسمعنا وأعلمتنا فعلمنا فاعصمنا وتعطف علينا، فالمنصور من نصرته والمؤيد من أيدته، والمخذول من خذلته. يا أيها الإنسان، فيقول الإنسان منهم: لبيك يا رب ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] فيقول: كرمك يا رب، فيقول: صدقت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] فيقولون: لبيك ربنا ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٠٢] ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٧٠] يقولون: وأي قول لنا إلاّ ما تقوّلنا وهل لمخلوق حول أو قوّة إلاّ بك فاجعل نطقنا ذكرك وقولنا تلاوة كتابك. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] فيقولون: لبيك ربنا، فيقول تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] فيقولون: ربنا أغريتنا بأنفسنا لما جعلتها محلاً لإيمانك فقلت: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] وقلت: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] والآيات ليست مطلوبة إلاّ لما تدل عليه وأنت مدلولها، فكأنك تقول في قولك: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي الزمونا وثابروا علينا وألظوا بنا. ثم قلت: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] أي حار وتلف حين طلبنا بفكره فأراد أن يدخلنا تحت حكم نظره وعقله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٥] بما عرفتكم به مني في كتابي وعلى لسان رسولي فعرفتموني بما وصفت لكم به نفسي فما عرفتموني إلاّ بي فلم تضلوا، فكانت لكم هدايتي وتقريبي نوراً تمشون به على صراطنا المستقيم، فلا يزال دأب أهل الليل هكذا مع الله في كل آية يقرؤونها في صلاتهم وفي كل ذكر يذكرونه به حتى ينصدع الفجر.

قال محمد بن عبد الجبار النفري وكان من أهل الليل: أوقفني الحق في موقف العلم، وذكر رضي الله عنه ما قال له الحق في موقفه ذلك فكان من جملة ما قال له في ذلك

الموقف: يا عبدي الليل لي لا للقرآن يتلى الليل لي لا للمحمدة والثناء يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل: الآية ٧] فاجعل الليل لي كما هو لي، فإن في الليل نزولي فلا أراك في النهار في معاشك فإذا جاء الليل وطلبتك ونزلت إليك وجدتك نائماً في راحتك وفي عالم حياتك وما ثم إلاَّ ليل ونهار، فلا في النهار وجدتك وقد جعلته لك ولم أنزل فيه إليك وسلمته لك، وجعلت الليل لي فنزلت إليك فيه لأناجيك وأسامرك وأقضي حوائجك فوجدتك قد نمت عني وأسأت الأدب معي مع دعواك محبتي وإيثار جنابي، فقم بين يديّ وسلني حتى أعطيك مسألتك، وما طلبتك لتتلو القرآن فتقف مع معانيه فإن معانيه تفرقك عني، فآية تمشي بك في جنتي وما أعددت لأوليائي فيها، فأين أنا إذا كنت أنت في جنتي مع الحور المقصورات في الخيام ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [سورة الرحمٰن: ٥٨] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۢ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية: ٥٤] تسقى من رحيق مختوم ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٧] وآية توقفك مع ملائكتي وهم يدخلون عليك من كل باب ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٤] وآية تستشرف بك على جهنم فتعاين ما أعددت فيها لمن عصاني وأشرك بي ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [سورة الواقعة: الآيات ٤٢ ـ ٤٤] ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [سورة الهمزة: الآيات ٤ ـ ٨] أي مسلطة ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [سورة الهمزة: الآية ٩] أين أنا يا عبدي إذا تلوت هذه الآية وأنت بخاطرك وهمتك في الجنة تارة وفي جهنم تارة، ثم تتلو آية فتمشي بك في: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [سورة القارعة: الآيات ١ ـ ٥] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: الآية ٢] وترى في ذلك اليوم من هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤ ـ ٣٧] وترى العرش في ذلك اليوم تحمله ثمانية أملاك وفي ذلك اليوم تعرضون فأين أنا والليل لي، فها أنت يا عبدي في النهار في معاشك وفي الليل فيما تعطيه تلاوتك من جنة ونار وعرض، فأنت بين آخرة ودنيا وبرزخ، فما تركت لي وقتاً تخلو بي فيه إلاَّ جعلته لنفسك والليل لي يا عبدي لا للمحمدة والثناء. ثم تتلو آية: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [سورة النساء: الآية ٦٩]. فتشاهدهم في تلاوتك وتفكر في مقاماتهم وأحوالهم وما أعطيت: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٥] فوقفت بالثناء والمحمدة مع كل طائفة أثنيت عليهم في كتابي، فأين أنا وأين خلوتك بي؟ ما عرفني ولا عرف مقدار قولي الليل لي، وما عرف لماذا نزلت إليك بالليل إلاَّ العارف المحقق الذي لقيه بعض إخوانه فقال له: يا أخي اذكرني في خلوتك بربك، فأجابه ذلك العبد فقال: إذا ذكرتك فلست معه في خلوة، فمثل ذلك عرف قدر نزولي إلى السماء الدنيا بالليل ولماذا نزلت ولمن

طلبت، فأنا أتلو كتابي عليه بلسانه وهو يسمع فتلك مسامرتي وذلك العبد هو الملتذ بكلامي، فإذا وقف مع معانيه فقد خرج عني بفكره وتأمله، فالذي ينبغي له أن يصغي إليّ ويخلي سمعه لكلامي حتى أكون أنا في تلك التلاوة كما تلوت عليه وأسمعته أكون أنا الذي أشرح له كلامي وأترجم له عن معناه فتلك مسامرتي معه، فيأخذ العلم مني لا من فكره واعتباره، فلا يبالي بذكر جنة ولا نار، ولا حساب ولا عرض، ولا دنيا ولا آخرة، فإنه ما نظرها بعقله ولا بحث عن الآية بفكره، وإنما ألقى السمع لما أقوله له وهو شهيد حاضر معي أتولى تعليمه بنفسي فأقول له: يا عبدي أردت بهذه الآية كذا وكذا، وبهذه الآية الأخرى كذا وكذا، هكذا إلى أن ينصدع الفجر فيحصل من العلوم على يقين ما لم يكن عنده فإنه مني سمع القرآن، ومني سمع شرحه وتفسير معانيه، وما أردت بذلك الكلام وبتلك الآية والسورة فيكون حسن الأدب معي في استماعه وإصاخته، فإن طالبته بالمسامرة في ذلك فيجيبني بحضور ومشاهدة يعرض عليّ جميع ما كلمته به وعلمته إياه، فإن كان أخذه على الاستيفاء وإلاً فنجبر له ما نقصه من ذلك فيكون لي لا له ولا لمخلوق، فمثل هذا العبد هو لي والليل بيني وبينه، فإذا انصدع الفجر استويت على عرشي، أدبر الأمر أفصل الآيات، ويمشي عبدي إلى معاشه وإلى محادثة إخوانه، وقد فتحت بيني وبينه باباً في خلقي ينظر إليّ منه وانظر إليه منه والخلق لا يشعرون، فأحدثه على ألسنتهم وهم لا يعرفون، ويأخذ مني على بصيرة وهم لا يعلمون، فيحسبون أنه يكلمهم وما يكلم سواي، ويظنون أنه يجيبهم وما يجيب إلاً إياي كما قال بعض أصحاب هذه الصفة: [الكامل]

يا مؤنسي بالليل إن هَجَعَ الورى ومحدِّثي من بينهم بنَهَاري

وإذ قد أبنت لك عن أهل الليل كيف ينبغي أن يكونوا في ليلهم؟ فإن كنت منهم فقد علمتك الأدب الخاص بأهل الله وكيف ينبغي لهم أن يكونوا مع الله. واعلم أنه تختلف طبقاتهم في ذلك، فالزاهد حاله مع الله في ليله من مقام زهده، والمتوكل حاله مع الله من مقام توكله، وكذلك صاحب كل مقام، ولكل مقام لسان هو الترجمان الإلهي، فهم متباينون في المراتب بحسب الأحوال والمقامات، وأقطاب أهل الليل هم أصحاب المعاني المجرّدة عن الموادّ المحسوسة والخيالية، فهم واقفون مع الحق بالحق على الحق من غير حد ولا نهاية ووجود ضد، ومن أهل الليل من يكون صاحب عروج وارتقاء ودنوّ، فيتلقاه الحق في الطريق وهو نازل إلى السماء الدنيا فيتدلى إليه فيضع كنفه عليه، وكل همة من كل صاحب معراج يتلقاها الحق في ذلك النزول حيث وجدها، فمن الهمم من يلقاها الحق في السماء الدنيا، ومنها من يلقاها في الثانية وفيما بينهما، وفي الثالثة وفيما بينهما، وفي الرابعة وفيما بينهما، وفي الخامسة وفيما بينهما، وفي السادسة وفيما بينهما، وفي السابعة وفيما بينهما، وفي الكرسي وفيما بينهما، وفي العرش في أوّل النزول وفيما بينهما وهو مستوى الرحمن، فيعطي لتلك الهمة من المعاني والمعارف والأسرار بحسب المنزل الذي لقيته فيه، ثم تنزل معه إلى السماء الدنيا فتقف الهمم بين يديه ويستشرف الحق على من بقي من الهمم من أهل الليل في

محاريبهم وما عرجت، فيلقي إليهم الحق تعالىٰ بحسب ما يسألونه في صلاتهم ودعائهم وهم في بيوتهم وفي محاريبهم، فتسمع تلك الهمم التي لقيته في طريقها ما يكون منه جلّ جلاله إلى أولئك العبيد فيستفيدون علوماً لم تكن عندهم، فإنه قد يخطر لأولئك الذين ما صعدت هممهم من السؤال للحق في المعارف والأسرار ما لم يكن في قوّة هذه الهمم أن تسألها لقصورها عنها، فإذا سمعوا الجواب من الحق الذي يجيب به أولئك القوم الذين في محاريبهم وما اخترقت هممهم سماء ولا فلكاً فيحصل لهم من العلم بالله بقدر ما سأل عنه أولئك الأقوام.

وثم همم أُخَر ارتقت فوق العرش إلى مرتبة النفس فقد تجد الحق هناك وجود تنزيه ما هو وجودها له، مثل وجودها له في عالم المساحة والمقدار فيشاهدون مقاماً أنزه ومنزلاً أقدس وبينية لا يحدها التقدير ولا يأخذها التصوير، فبينيتها بينية تمييز علوم ومراتب فهوم، ومن الهمم من يلقاه في العقل الأول، ومن الهمم ما تلقاه في المقربين من الأرواح المهيمة، ومن الهمم ما تلقاه في العماء، ومن الهمم من تلقاه في الأرض المخلوقة من بقية طينة آدم عليه السلام، فإذا لقيته هذه الهمم في هذه المراتب أعطاها على قدر تعطشها من المقام الذي بعثها على الترقي إلى هذه المراتب وينزلون معه إلى السماء الدنيا، وعلى الحقيقة هو ينزلهم إلى السماء الدنيا وينزل معهم فيستفيدون من العلوم التي يهبها الحق لتلك الهمم التي ما تعدّت العرش هكذا كل ليلة.

ثم تنزل هذه الهمم وقد عرفت ما أكرمها به الحق فاجتمعت بالهمم التي ما برحت من مكانها فوجدتها على طبقات: فمنهم من وجد عندهم من العلوم التي لم تتقيد بترق وكان الحق أقرب إليها من حبل الوريد حين كان مع أولئك في العماء وفي السماء الدنيا وما بينهما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] فهو مع كل همّة حيث كانت، ويجدون همماً أرضية قد تقدست عن الأينية وعن مراتب العقول فلم تتقيد بحضرة فتنال من العلوم التي تليق بهذه الصفة التي وهبهم الحق منها ما حصلوا عليه من المعارف ما يبهت أولئك الهمم وهي من علوم الإطلاق الخارجة عن الحصر الأينيّ الفلكي وعن الحصر الروحانيّ العقليّ، فهم مع كونهم في ظلمة الطبيعة على نور أضاءت به تلك الظلمة لوجود المشاهدة، وهؤلاء هم الذين يعرفون أن إدراك الأشياء المرئية إنما هو من اجتماع نور البصر مع نور الجسم المستنير شمساً كان أو سراجاً أو ما كان فتظهر المبصرات، فلو فقد الجسم المستنير ما ظهر شيء، ولو فقد البصر ما أضاء شيء مما يدركه البصر مع النور الخارج أصلاً.

ألا ترى صاحب الكشف إذا أظلم الليل وانغلق عليه باب بيته ويكون معه في تلك الظلمة شخص آخر وقد تساويا في عدم الكشف للمبصرات فيكون أحدهما ممن يكشف له في أوقات فيتجلى له نور يجتمع ذلك النور مع نور البصر فيدرك ما في ذلك البيت المظلم مما أراد الله أن يكشف له منه كله أو بعضه يراه مثل ما يراه بالنهار أو بالسراج، ورفيقه الذي هو معه لا يرى إلاّ الظلمة غير ذلك لا يراه، فإن ذلك النور ما تجلّى له حتى يجتمع بنور بصره

فينفر حجاب الظلمة، فلو لم يكن الأمر كما ذكرناه لكان صاحب هذا الكشف مثل صاحبه لا يدرك شيئاً، أو يكون رفيقه مثله يدرك الأشياء فيكون: إمّا من أهل الكشف مثله أو يدركه بنور العلم، فإن المكاشف يدركه بنور الخيال كما يدركه النائم ورفيقه إلى جانبه مستيقظ لا يرى شيئاً كذلك صاحب الكشف. ولو سألت صاحب الكشف: هل ترى ظلمة في حال كشفك؟ لقال: لا بل يقول: أنارت البقعة حتى قلت: إن الشمس ما غابت فأدركت المبصرات كما أدركها نهاراً، وهذه المسألة ما رأيت أحداً نبّه عليها إلاّ إن كان، وما وصل إليّ فالكون كله في أصله مظلم فلا يرى إلاّ بالنورين، فإنه يحدث هذا الأمر ونظيره الذي يؤيده إيجاد العالم فإنه من حيث ذاته عدم ولا يكتسب الوجود إلاّ من كونه قابلاً، وذلك لإمكانه واقتدار الحق المخصص المرجح وجوده على عدمه، فلو زال القبول من الممكن لكان كالمحال لا يقبل الإيجاد، وقد اشترك المحال والممكن قبل الترجيح بالوجود في العدم، كما أنه مع قبوله لو لم يكن اقتدار الحق ما وجد عين هذا المعدوم الذي هو الممكن، فلم تظهر الأعيان المعدومة للوجود إلاّ بكونها قابلة وهو مثل نور البصر، وكون الحق قادراً وهو مثل نور الجسم النير، فظهرت الأعيان كما ظهرت المبصرات بالنورين، فكما أنّ الممكن لا يزال قابلاً والحق مقتدراً ومريداً فينحفظ على الممكن إبقاء الوجود إذ له من ذاته العدم، كذلك الباصر لا يزال نور بصره في بصره والشمس متجلية في نورها فتحفظ الإبصار المتعلق بالمبصرات وهي من ذاتها أعني المبصرات غير منورة بل هي مظلمة، فاعقل إن كنت تعقل، فهذا الأمر أصل ضلال العقلاء وهم لا يشعرون لما لم يعقلوه، وهو سرّ من أسرار الله تعالىٰ جهله أهل النظر.

ومن هذه المسألة يتبين لك قدم الحق وحدوث الخلق لكن على غير الوجه الذي يعقله أهل الكلام وعلى غير الوجه الذي تعقله الحكماء باللقب لا بالحقيقة، فإن الحكماء على الحقيقة هم أهل الله الرسل والأنبياء والأولياء، إلاّ أن الحكماء باللقب أقرب إلى العلم من غيرهم حيث لم يعقلوا الله إلاّ إلهاً، وأهل الكلام من النظار ليس كذلك، فأقطاب أهل الليل من يكون الليل في حقّهم كالنهار كشفاً وشغلاً، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآيتان ١٣٧، ١٣٨] أي تعلمون منهم في الصباح ما تعلمون منهم في الليل، إذ كان ليلاً عند غيرهم ممّن ليس له مقام الكشف بالليل كما لصاحب النور فالليل والصباح عنده سواء، فهذا معنى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فإن ادّعت لك نفسك أنك من أهل الليل فانظر هل لها قدم وكشف فيما ذكرت لك؟ فهو المحك والمعيار، ولكل ليل في القرآن أمور وعلوم لا يعرفها إلاّ أهل الليل خاصة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون

في معرفة الفتوّة والفتيان ومنازلهم وطبقاتهم وأسرار أقطابهم

[نظم: الطويل]

وفتيانِ صدقٍ لا ملالةَ عندهم ... لهم قَدَمٌ في كل فَضلٍ ومكْرُمَة

مقسَّمَةٌ أحوالُهم في جليسهم ... فهم بين توقيرٍ لقوم ومَرْحَمَهْ
وإن جاء كفؤ آثروه ببرِّهم ... ولا تلْحَقُ الفتيانَ في ذاك مَنْدمَهْ
لهم من خفايا العلم كل شَعِيرةٍ ... وما هو موسومٌ لديهم بِسِمْسِمَهْ
كنَجْل قَسِيٍّ والذي كان قبله ... ومن كان منهم ممَّن الله أعْلَمَهْ
بذلك حازوا السَّبْقَ في كل حلبةٍ ... فليس يجيبون السَّفيهَ بلفظِ مَهْ
بمَيْمَنَةٍ خُصُّوا تعالىٰ مقامُها ... وليس لها ضدٌّ يسمى بمَشْأَمَهْ
فكلتا يدَيْ ربي يمينٌ كريمةٌ ... وإنَّ كريمَ القوم من كان أكْرَمَهْ
إذا خلع المولى على أهله تَرَى ... ملابسَهُم بين الملابس مُعْلَمَهْ

اعلم أن للفتوّة مقام القوّة، وما خلق الله من الطبيعة أقوى من الهواء، وخلق الإنسان أقوى من الهواء إذا كان مؤمناً، كذا ورد في الخبر النبوي عن الله تعالىٰ مع الملائكة لما خلق الأرض وجعلت تميد الحديث بكماله وفي آخره: «**يَا رَبِّ فَهَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَشَدَّ مِنَ الرِّيحِ؟ قال: نَعَم المُؤْمِنُ يَتَصَدَّقُ بِيَمِينِهِ مَا تَعْرِفُ بِذٰلِكَ شِمَالُهُ**». وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] فنعت الرزاق بالقوّة لوجود الكفران بالمنعم من المرزوقين فهو يرزقهم مع كفرهم به، ولا يمنع عنهم الرزق والإنعام والإحسان بكفرهم، مع أن الكفر بالنعم سبب مانع يمنع النعمة، فلا يرزق الكافر مع وجود الكفر منه لما رزقه إلاَّ من له القوّة فلهذا نعته بذي القوّة المتين، فإن المتانة في القوّة تضاعفها، فما اكتفى سبحانه بالقوّة حتى وصف نفسه بأنه المتين فيها، إذ كانت القوّة لها طبقات في التمكن من القوي، فوصف نفسه بالمتانة وهذه صفة أهل الفتوّة، فإن الفتوّة ليس فيها شيء من الضعف إذ هي حالة بين الطفولة والكهولة وهو عمر الإنسان من زمان بلوغه إلى تمام الأربعين من ولادته، يقول الله تعالىٰ في هذا المقام: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك حال الفتوّة، وفيها يسمّى فتيٍ وما قرن معها شيئاً من الضعف، ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] يعني ضعف الكهولة إلى آخر العمر، وشيبة يعني وقاراً أي سكوناً لضعفه عن الحركة، فإن الوقار من الوقر وهو الثقل فقرن مع هذا الضعف الثاني الشيبة التي هي الوقار، فإن الطفل وإن كان ضعيفاً فإنه متحرك جداً. اختلف في حركته هل هي من الطبيعة أو من الروح؟.

روي أن إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب قال: يا رب ما هذا؟ قال: الوقار، قال: اللهم زدني وقاراً، فهذا حال الفتوّة ومقامها، وأصحابها يسمّون الفتيان وهم الذين حازوا مكارم الأخلاق أجمعها، ولا يتمكن لأحد أن يكون حاله مكارم الأخلاق ما لم يعلم المحالّ التي يصرفها فيها ويظهر بها، فالفتيان أهل علم وافر وقد أفردنا لها باباً في داخل هذا الكتاب حين تكلمنا على المقامات والأحوال، فمن ادّعى الفتوّة وليس عنده علم بما ذكرناه فدعواه كاذبة وهو سريع الفضيحة، فلا ينبغي يسمّى فتى إلاَّ من علم مقادير الأكوان ومقدار الحضرة الإلهية فيعامل كل موجود على قدره من المعاملة، ويقدم من ينبغي أن يقدم، ويؤخر ما ينبغي

أن يؤخر، وتفاصيل هذا المقام وحكم الطائفة فيه استوفيناه في رسالة الأخلاق التي كتبنا بها للفخر محمد بن عمر بن خطيب الري رحمه الله فلنذكر منها في هذا الباب الأصل الذي ينبغي أن يعوّل عليه، وذلك أنه ليس في وسع الإنسان أن يسع العالم بمكارم أخلاقه إذ كان العالم كله واقفاً مع غرضه أو إرادته لا مع ما ينبغي، فلما اختلفت الأغراض والإرادات وطلب كل صاحب غرض أو إرادة من الفتى أن يعامله بحسب غرضه وإرادته، والأغراض متضادة فيكون غرض زيد في عمرو أن يعادي خالداً، ويكون غرض خالد في زيد أن يعادي عمراً، أو غرضه أن يواليه ويحبه ويودّه، فإن تفتى مع عمرو عادى خالداً وذمّه خالد وأثنى عليه زيد بالفتوّة وكريم الخلق، وإن لم يعاد خالداً ووالاه وأحبه أثنى عليه خالد وذمّه زيد.

فلما رأينا أن الأمر على هذا الحد وأنه لا يعمّ ولم يتمكن عقلاً ولا عادة أن يقوم الإنسان في هذه الدنيا أو حيث كان في مقام يرضي المتضادّين انبغى للفتى أن يترك هوى نفسه ويرجع إلى خالقه الذي هو مولاه وسيده ويقول: أنا عبد، وينبغي للعبد أن يكون بحكم سيده لا بحكم نفسه ولا بحكم غير سيده يتبع مراضيه ويقف عند حدوده ومراسمه، ولا يكن ممّن جعل مع سيده شريكاً في عبوديته، فيكون مع سيده بحسب ما يحد له ويتصرّف فيما يرسم له ولا يبالي وافق أغراض العالم أو خالفهم، فإن وافق ما وافق منها فذلك راجع إلى سيده فخرج له توقيع من ديوان سيده على يدي رسول قام الدليل له والعلم بأنه خرج إليه من عند سيده وأن ذلك التوقيع توقيع سيده فقام له إجلالاً وأخذ توقيع سيده ومع التوقيع مشافهة فشافه العبيد بما أمره السيد أن يشافههم به، وذلك هو الشرع المقرّر والتوقيع هو الكتاب المنزل المسمّى قرآناً، والرسول هو جبريل عليه السلام، وحاجب الباب الذي يصل إليه الرسول الملكي من عند الله بالتوقيع والمشافهة هو النبي المبشر محمد ﷺ أو أيّ نبيّ كان من الأنبياء في زمان بعثتهم، فلزم العبيد مراسم سيدهم التي ضمنها توقيعه والتي جاءت بها المشافهة فلم يكن لهم في نفوسهم ملك ولا تدبير، فمن وقف عند حدود سيده وامتثل مراسيمه ولم يخالفه في شيء مما جاءه به على حد ما رسم له من غير زيادة بقياس أو رأي ولا نقصان بتأويل فعامل جنسه من الناس بما أمر أن يعاملهم به من مؤمن وكافر وعاصٍ ووليّ ومنافق، وما ثم إلاّ هؤلاء الأصناف الأربعة، وكل صنف من هؤلاء على طبقات: فالمؤمن منه طائع وعاص ووليّ ونبيّ ورسول وملك وحيوان ونبات ومعدن، والكافر منه مشرك وغير مشرك، والمنافق منه ينقص في الظاهر عن درك الكافر، فإن المنافق له الدرك الأسفل من النار، والكافر له الأعلى والأسفل، وأمّا العاصي فينقص في الظاهر عن درجة المؤمن المطيع بقدر معصيته.

فهذا الواقف عند مراسم سيده هو الفتى، فكل إنسان لا بدّ أن يكون جليساً لأكبر منه أو أصغر منه أو مكافئاً له إمّا في السنّ وإما في الرتبة، أو فيهما، فالفتى من وقر الكبير في العلم أو في السن، والفتى من رحم الصغير في العلم أو في السن، والفتى من آثر المكافىء في السن أو في العلم، ولست أعني بقولي في العلم إلاّ المرتبة خاصة فأتينا بالعلم لشرفه، فإن الملك قد يكون صغيراً في السن صغيراً في العلم، ويكون شخص من رعيته كبيراً في السن

كبيراً في العلم، فإن عرف الملك قدر ما رسم له الحق في شرعه من توقير الكبير وشرف العلم عامله الملك بذلك، وإن لم يفعل فيكون الملك سيىء الملكة، فينبغي للفتى أن يعرف شرف المرتبة التي هي السلطنة وأنه نائب الله في عباده وخليفته في بلاده فيعامل من أقامه الله فيها، وإن لم يجر الحق على يده بما ينبغي للمرتبة من السمع والطاعة في المنشط والمكره على حد ما رسم له سيده وما هو عليه مما أقام الله ذلك السلطان فيه من الأخلاق المحمودة أو المذمومة في الجور والعدل، فينبغي للفتى أن يوفي السلطان حقه الذي أوجبه الله له عليه، ولا يطلب منه حقه الذي جعله الله له قبل السلطان مما له أن يسامحه فيه إن منعه منه فتوة عليه ورحمة به وتعظيماً لمنزلته إذ كان له أن يطلبه به يوم القيامة، فالفتى من لا خصم له لأنه فيما عليه يؤديه وفيما له يتركه فليس له خصم، فالفتى من لا تصدر منه حركة عبثاً جملة واحدة، ومعنى هذا أن الله سمعه يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [سورة ص: الآية ٢٧] وهذه الحركة الصادرة من الفتى مما بينهما وكذلك حركة كل متحرك خلقه الله بين السماء والأرض فما هي عبث فإن الخالق حكيم.

فالفتى من يتحرّك أو يسكن لحكمة في نفسه، ومن كان هذا حاله في حركاته فلا تكون حركته عبثاً لا في يده ولا في رجله ولا شمّه ولا أكله ولا لمسه ولا سمعه ولا بصره ولا باطنه، فيعلم كل نفس فيه وما ينبغي له وما حكم سيده فيه، ومثل هذا لا يكون عبثاً، وإذا كانت الحركة من غيره فلا ينظرها عبثاً، فإن الله خلقها أي قدّرها وإذا قدّرها فما تكون عبثاً ولا باطلاً، فيكون حاضراً مع هذا عند وقوعها في العالم، فإن فتح له بالعلم في الحكمة فيها فبخ على بخ وهو صاحب عناية، وإن لم يفتح له في العلم بالحكمة فيها فيكفيه حضوره في نفسه أنها حركة مقدرة منسوبة إلى الله، وأن لله فيها سرّاً يعلمه الله فيؤديه هذا القدر من العلم إلى الأدب الإلهي، وهذا لا يكون إلاّ للفتيان أصحاب القوّة الحاكمين على طبائع النفوس والعادات، ولا يكون في هذا المقام من هذه الطائفة إلاّ الملامية فإن الله قد ولاهم على نفوسهم وأيّدهم بروح منه عليها، فلهم التصريف التام والكلمة الماضية والحكم الغالب، فهم السلاطين في صور العبيد يعرفهم الملأ الأعلى، فليس أحد مما سوى الإنس والجان إلاّ ويقول بفضله إلاّ بعض الثقلين فإن الحسد يمنعهم من ذلك، فطبقات الفتيان هو ما ذكرناه من يعلم منهم علم الله في الحركات، ومن لا يعلم علم الله في ذلك على التعيين، وإن علم أن ثمّ أمراً لم يطلعه الله عليه، وأمّا منزلتهم فهو الذي قلنا في أول الباب في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] وينظر إلى هذا الإيجاد من الحقائق الإلهية الآية الأخرى وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٨] فهم يعاملون الخلق بالإحسان إليهم مع إساءتهم لهم، كإعطاء الله الرزق للمرزوقين الكافرين بالله ونعمه فلهم القوّة العظمى على نفوسهم حيث لم يغلبهم هواهم ولا ما جبلت النفس عليه من حب الثناء والشكر والاعتراف، قال تعالىٰ حاكياً سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم فأطلق الله على ألسنتهم فتوة إبراهيم بلسانهم لما كانت الفتوة بهذه المثابة لأنه قام في الله حق القيام، ولما أحالهم على

الكبير من الأصنام على نية طلب السلامة منهم فإنه قال لهم: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] يريد توبيخهم ولهذا رجعوا إلى أنفسهم وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] في كل حال وإنما سمي ذلك كذباً لإضافة الفعل في عالم الألفاظ إلى كبيرهم، والكبير الله على الحقيقة والله هو الفاعل المكسر للأصنام بيد إبراهيم فإنه يده التي يبطش بها كذا أخبر عن نفسه، فكسر هذه الأصنام التي زعموا أنها آلهة لهم، ألا ترى المشركين يقولون فيهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فاعترفوا أن ثَمَّ إلهاً كبيراً أكبر من هؤلاء كما هو أحسن الخالقين وأرحم الراحمين.

فهذا الذي قاله إبراهيم عليه السلام صحيح في عقد إبراهيم عليه السلام، وإنما أخطأ المشركون حيث لم يفهموا عن إبراهيم ما أراد بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] فكان قصد إبراهيم بكبيرهم الله تعالىٰ وإقامة الحجة عليهم وهو موجود في الاعتقادين وكونهم آلهة ذلك على زعمهم والوقف عليه حسن عندنا تام، وابتدأ إبراهيم بقوله هذا قولي، فالخبر محذوف يدل عليه مساق القصة: ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٦٣] فهم يخبرونكم ولو نطقت الأصنام في ذلك الوقت لنسبت الفعل إلى الله لا إلى إبراهيم، فإنه مقرر عند أهل الكشف من أهل طريقنا أن الجماد والنبات والحيوان قد فطرهم الله على معرفته وتسبيحه بحمده فلا يرون فاعلاً إلاّ الله، ومن كان هذا في فطرته كيف ينسب الفعل لغير الله؟ فكان إبراهيم على بيّنة من ربه في الأصنام أنهم لو نطقوا لأضافوا الفعل إلى الله لأنه ما قال لهم سلوهم إلاّ في معرض الدلالة سواء نطقوا أو سكتوا، فإن لم ينطقوا يقول لهم: لم تعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنكم من الله شيئاً ولا عن نفسه، ولو نطقوا لقالوا: إن الله قطعنا قطعاً لا يتمكن في الدلالة أن تقول الأصنام غير هذا، فإنها لو قالت: الصنم الكبير فعل ذلك بنا لكذبت ويكون تقريراً من الله بكفرهم ورداً على إبراهيم عليه السلام، فإن الكبير ما قطعهم جذاذاً، ولو قالوا في إبراهيم إنه قطعنا لصدقوا في الإضافة إلى إبراهيم ولم تلزم الدلالة بنطقهم على وحدانية الله ببقاء الكبير، فيبطل كون إبراهيم قصد الدلالة فلم تقع ولم يصدق ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٨٣] فكانت له الدلالة في نطقهم لو نطقوا كما قررنا وفي عدم نطقهم لو لم ينطقوا. ومثل هذا ينبغي أن يكون قصد الأنبياء عليهم السلام، فهم العلماء صلوات الله عليهم ولهذا رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال الله لمثل هؤلاء: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] فكان من فتوته أن باع نفسه في حق أحدية خالقه لا في حق خالقه، لأن الشريك ما ينفي وجود الخالق وإنما يتوجّه على نفي الأحدية، فلا يقوم في هذا المقام إلاّ من له القطبية في الفتوة بحيث يدور عليه مقامها.

ومن الفتوة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٠] فأطلق عليه باللسان العبراني معنى يعبر عنه في اللسان العربي بالفتى وكان في خدمة موسىٰ عليه السلام، وكان موسىٰ في ذلك الوقت حاجب الباب فإنه الشارع في تلك الأمّة ورسولها، ولكل أمّة باب

خاص إلهي شارعهم هو حاجب ذلك الباب الذي يدخلون منه على الله تعالىٰ، ومحمد ﷺ هو حاجب الحجاب لعموم رسالته دون سائر الأنبياء عليهم السلام، فهم حجبته ﷺ من آدم عليه السلام إلى آخر نبيّ ورسول، وإنما قلنا إنهم حجبته لقوله ﷺ: «**آدمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**» فهم نوابه في عالم الخلق، وهو روح مجرّد عارف بذلك قبل نشأة جسمه، قيل له: مَتَى كُنْتَ نَبِيّاً؟ فَقَالَ: «**كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطِّينِ**» أي لم يوجد آدم بعد إلى أن وصل زمان ظهور جسده المطهر ﷺ، فلم يبق حكم لنائب من نوابه من سائر الحجاب الإلهيين وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام إلاَّ عنت وجوههم لقيومية مقامه إذ كان حاجب الحجاب، فقرّر من شرعهم ما شاءه بإذن سيده ومرسله ورفع من شرعهم ما أمر برفعه ونسخه، فربما قال من لا علم له بهذا الأمر: إنّ موسىٰ عليه السلام كان مستقلاً مثل محمد بشرعه فقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حياً مَا وَسِعَهُ إلاَّ أَنْ يَتبعَنِي**» وصدق ﷺ فالفتى أبداً في منزل التسخير كما قال عليه السلام: «**خَادِمِ القَوْمِ سَيِّدُهُمْ**» فمن كانت خدمته سيادته كان عبداً محضاً خالصاً.

وتفضل الفتيان بعضهم على بعض بحسب المتفتى عليه من المنزلة عند الله بوجه ومن الضعف بوجه، فأعلاهم من تفتى على الأضعف من ذلك الوجه، وأعلاهم أيضاً من تفتى على الأعلى عند الله من ذلك الوجه الآخر، فالمتفتي على الأضعف كصاحب السفرة وهو الشخص الذي أمره شيخه أن يقرب السفرة إلى الأضياف فأبطأ عليهم من أجل النمل الذي كان فيها فلم ير من الفتوة أن ينفض النمل من السفرة، فإن من الفتوة أن يصرفها في الحيوان فوقف إلى أن خرجت النمل من السفرة من ذاتها من غير أن يكون لهذا الشخص في إخراج النمل تعمل قهري، فإن الفتيان لهم الفتوة وليس لهم القهر إلاَّ على نفوسهم خاصة، ومن لا قوّة له لا فتوة له، كما أنه من لا قدرة له لا حلم له، فقال له الشيخ: لقد دققت فهذه مراعاة الأضعف لكنه ما تفتى مع الأضياف حيث أبطأ عن المبادرة إلى كرامتهم.

فلهذا ربطنا في أول الباب أنه لا يتمكن لأحد إرسال المكارم في العموم لاختلاف الأغراض، فينظر الفتى في حق الشخصين المختلفي الأغراض اللذين إذا أرضى الواحد منهما أسخط الآخر، وصورة نظره في حق الشخصين أيهما أقرب إلى حكم الوقت والحال في الشرع فالذي هو أقرب إلى حكم الوقت والحال في الشرع صرف الفتوة معه، فإن اتسع الوقت إلى أن يتفتى مع الآخر بوجه يرضي الله فعل أيضاً، وإن لم يتسع فقدر في المقام حقّه وكان من الفتيان بلا شك، وإن كان في رتبة الفعل بالهمة والفعل بالحس فعل الفتوة مع الواحد حسّاً ومع الآخر بالهمة.

دخل رجل على شيخنا أبي العباس العريبي وأنا عنده فتفاوضا في إيصال معروف فقال الرجل: يا سيدنا الأقربون أولى بالمعروف، فقال الشيخ من غير توقف: إلى الله. وأخبرني أبو عبد الله محمد بن القاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي قال مخبراً عن أبي عبد الله الدقاق كان بمدينة فاس وتذاكروا الفعل بالهمة فقال أبو عبد الله الدقاق: فزت بواحدة ما لي فيها شريك ما اغتبت أحداً قط ولا اغتبت أحد بحضرتي قط، فهذا من الفعل بالهمة حيث

تفتى على من عادته أن يغتاب فيكتسب الأوزار أن لا يقدر على الغيبة في مجلسه بحضوره من غير أن يكون من الشيخ نهي له عن ذلك. وتفتى أيضاً على الذي يذكر بما يكره بحضوره بأنه لا يذكر في فيه بما يكره وكان سيد وقته في هذا الباب، خرّج مناقبه شيخنا أبو عبد الله بن عبد الكريم المذكور آنفاً في كتاب المستفاد في ذكر الصالحين والعباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، فقد علمت على الحقيقة أن الفتى من بذل وسعه واستطاعته في معاملة الخلق على الوجه الذي يرضي الحق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والأربعون

في معرفة جماعة من أقطاب الورعين وعامة ذلك المقام

[نظم: الوافر]

أنــا خَــتْــمُ الــولايــة دون شــكٍّ	لــوَرْث الــهــاشــميِّ مع الــمــسيــحِ
كــمــا أنــي أبــو بــكــرٍ عــتــيــقٌ	أجــاهِــدُ كــلَّ ذي جــســم وروحِ
بــأَرْمــاحٍ مــثــقَّــفَــةٍ طــوالٍ	وتــرجــمــةٍ بــقــرآنٍ فــصــيــحِ
أشــدُّ عــلــى كــتــيــبــة كــلِّ عــقــلٍ	تــنــازعــني عــلــى الــوَحْــي الــصَّــريــحِ
لــيَ الــورعُ الــذي يــســمــو اعــتــلاءً	عــلــى الأحــوال بــالــنــبــأ الــصــحــيــحِ
وســاعــدنــي عــلــيــه رجــالُ صِــدْقٍ	مــن الــورِعــيــنَ مــن أهــل الــفُــتُــوحِ
يــوالــون الــوجــوبَ وكــلَّ نَــدْبٍ	ويــســتــثــنــون ســلــطــنــةَ الــمُــبــيــحِ

الكلام على الورع وأهله وتركه يرد في داخل الكتاب في ذكر المقامات والأحوال منه إن شاء الله تعالىٰ، والذي يتعلق بهذا الباب الكلام على معرفة طائفة من أقطابه وعموم مقامه. فاعلم أن أبا عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي كان من عامة هذا المقام، وأبا يزيد البسطامي وشيخنا أبا مدين في زماننا كانا من خاصته، فأعلى أقطاب الورعين اجتناب الاشتراك في إطلاق اللفظ إذ كان الورع اجتناب المحرمات وكل ما فيه شبهة من جانب المحرّم فيجتنب لذلك الشبه وهو المعبر عنه بالشبهات أي الشيء الذي له شبه بما جاء النص الصريح بتحريمه من كتاب أو سنّة أو إجماع بالحال الذي يوجب له هذا الاسم مثل أكل لحم الخنزير لمن ليس له حال الاضطرار فهو عليه حرام فلهذا قلنا بالحال الذي يوجب له هذا الاسم، كما أن المضطرّ ليس بمخاطب بالتحريم، فأكل لحم الخنزير في حق من حاله الاضطرار هو له حلال بلا خلاف.

ولما كان التحريم معناه المنع من الالتباس به ورأوا أن لذلك أحوالاً وأنه ما ثم في الوضع شيء محرّم لعينه لهذا قيده الشارع بالأحوال وقد انسحب عليه التحريم للحال فما هو محرّم لعينه أولى بالاجتناب فلا بدّ من اجتنابه باطناً علماً، وقد يحل هذا المحرّم لعينه في ظاهر الحال ما يلزمه وهذا هو التحريم الذي لا يحل أبداً من حيث معناه، ولا يصحّ أن تجيء آية شرعية تحله وهو الاتصاف بأوصاف الحق تعالىٰ التي بها يكون إلهاً، فواجب شرعاً وعقلاً اجتناب هذه الأسماء الإلهية معنى، وإن أطلقت لفظاً فينبغي أن لا تطلق لفظاً على أحد إلاّ

تلاوة، فيكون الذي يطلقها تالياً حاكياً كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٨] فسمّاه عزيزاً رؤوفاً رحيماً، فنسميه بتسمية الله إياه ونعتقد أنه ﷺ في نفسه مع ربه عبد ذليل خاشع أوّاه منيب، فإطلاق الألفاظ التي تطلق على الحق من الوجه الصحيح الذي يليق بالجناب الإلهيّ لا ينبغي أن تطلق على أحد من خلق الله إلاّ حيث أطلقها الحق لا غير، وإن أباح ذلك فالورع ما هو مع المباح ولا سيما في هذه المسألة خاصة فلا يطلقها مع كون ذلك قد أبيح له، فإذا أطلقها على من أطلقها عليه الحق أو الرسول ﷺ فيكون هذا المطلق تالياً أو مترجماً ناقلاً عن رسول الله ﷺ في ذلك الإطلاق.

ثم من الورع عند هؤلاء الرجال أن ينزلوا إلى ما اختصت به الأنبياء والرسل من الإطلاق فيتورّعوا أن يطلقوا عليهم أو على أحد ممّن ليس بنبيّ ولا رسول اللفظ الذي اختصّوا به، فيطلقون على الرسل الذين ليسوا برسل الله لفظ الورثة والمترجمين فيقولون: وصل من السلطان الفلاني إلى السلطان الفلاني ترجمان يقول كذا وكذا فلم يطلقوا على المرسل ولا على المرسل إليه اسم الملك ورعاً وأدباً مع الله وأطلقوا عليه اسم السلطان فإن الملك من أسماء الله فاجتنبوا هذا اللفظ أدباً وحرمة وورعاً وقالوا: السلطان إذ كان هذا اللفظ لم يرد في أسماء الله، وأطلقوا على الرسول الذي جاء من عنده اسم الترجمان ولم يطلقوا عليه اسم الرسول لأنه قد أطلق على رسول الله ﷺ فجعلوه من خصائص النبوّة والرسالة الإلهية أدباً مع رسل الله عليهم السلام، وإن كان هذا اللفظ قد أبيح لهم ولم ينهوا عنه ولكن لم يوجب عليهم فكان لزوم الأدب أولى مع من عرفنا الله أنه أعظم منّا منزلة عنده وهذا لا يعرفه إلاّ الأدباء الورعون.

ثم إنّ لهؤلاء مرتبة أخرى في الورع وهي أنهم رضي الله عنهم يجتنبون كل أمر تقع فيه المزاحمة بين الأكوان ويطلبون طريقاً لا يشاركهم فيها من ليس من جنسهم ولا من مقامهم، فلا يزاحمون أحداً في شيء ممّا يتحققون به في نفوسهم ويتصفون به ويحبون من الله أن يدعوا به في الدنيا والآخرة وهو ما يكونون عليه من الأخلاق الإلهية، فيكونون مع تحققهم بمعانيها وظهور أحكامها على ظواهرهم من الرحمة بعباد الله والتلطّف بهم والإحسان إليهم والتوكّل على الله والقيام بحدود الله، ويظهرون في العالم أن جميع ما يرى عليهم أنّ ذلك فعل الله لا فعلهم، وبيد الله لا بيدهم، وأن المثني عليه بذلك الفعل إنما ينبغي أن يتعلق ذلك الثناء بفاعله وفاعله هو الله جلّ جلاله لا نحن، فيتبرّؤون من أفعالهم الحسنة غاية التبرّي ومن الأوصاف المستحسنة كذلك، وكل وصف مذموم شرعاً وعرفاً يضيفونه إلى أنفسهم أدباً مع الله تعالىٰ وورعاً شافياً كما قال الخضر في العيب: ﴿فَأَرَدتُّ﴾ [سورة الكهف: الآية ٧٩] وفي الخير: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [سورة الكهف: الآية ٨٢] وكما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [سورة الشعراء: الآية ٨٠] ولم يقل أمرضني، وكما قال تعالىٰ في معرض التعليم لنا: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩]. هذا وإن كان الحق في هذا الخبر يحكي قولهم ولكن فيه تنبيه في التعليم. وكما قال عليه السلام في دعائه وهو ممّا يؤيد ما ذهبنا إليه في التنبيه في هذه الآية

فقال: «**وَالخَيْرُ كُلُّه بِيَدَيْكَ**» فأكّد بكل وهي كلمة تقتضي الإحاطة في اللسان وقال: «**والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» وإن كان لم يؤكده واكتفى بالألف واللام ونفى إضافة الشرّ أدباً مع الله وحقيقة، وهذه المسألة من أغمض المسائل الإلهية عند أهل الله خاصة، وأمّا أهل النظر فقد اعتمدت كل طائفة منهم على ما اقتضاه دليلها في زعمها، وهؤلاء الرجال الغالب عليهم فهم مقاصد الشرع فجروا معه على مقصده وذلك من بركة الورع والاحترام الذي احترموا به الجناب الإلهي حقيقة لا مجازاً، فتح الله لهم بأدبهم عين الفهم في كتبه وفيما جاءت به رسله ممّا لا تستقل العقول بإدراكه وما تستقل، لكن أخذوه عن الله لا عن نظرهم، ففهموا من ذلك كله بهذه العناية ما لم يفهم من لم يتصف بهذه الصفة ولم يكن له هذا المقام.

ولما كان هذا حال الورعين سلكوا في أمورهم وحركاتهم مسالك العامّة فلم يظهر عليهم ما يتميزون به عنهم واستتروا بالأسباب الموضوعة في العالم التي لا يقع الثناء بها على من تلبس بها، فلم ينطبق على هؤلاء الرجال في العموم اسم صلاح يخرجهم عن صلاح العامّة، ولا توكل ولا زهد، ولا ورع، ولا شيء مما يقع عليه اسم ثناء خاص يخرجون به عن العامّة ويشار إليهم فيه، مع أنهم أهل ورع، وتوكل، وزهد، وخلق حسن، وقناعة، وسخاء، وإيثار. فأمثال هذا كله اجتنب رجال الله من هؤلاء الطبقة فسمّوا ورعين في اصطلاح أهل الله لأن الورع الاجتناب وتدبّر، ما أحسن قول من أوتي جوامع الكلم ﷺ كيف قال في هذا المقام يعلم رجاله كيف يكونون فيه: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ**» وقال: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ**» فأحالهم على قلوبهم لما علم ما فيها من سرّ الله الحاوية عليه في تحصيل هذا المقام، ففي القلوب عصمة إلهية لا يشعر بها إلاّ أهل المراقبة وفيه ستر لهم، فإنّ هؤلاء الرجال لو سألوا وعرف منهم البحث والتفتيش في مثل هذا عند الناس وعند العلماء الذين سئلوا في ذلك بالضرورة كان يشار إليهم ويعتقد فيهم الدين الخالص كبشر الحافي وغيره وهو من أقطاب هذا المقام عرف به وسلم له.

حكي أن أخت بشر الحافي سألت أحد أئمة الدين في الغزل الذي تغزله في ضوء مشاعل الظاهرية إذا مرّوا بها ليلاً وهي على سطحها فعرفت بهذا السؤال أنها من أهل الورع، ولو عملت على حديث: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ**» لعلمت أنها ما سألت حتى رابها فكانت تدع ذلك الغزل أو لا تغزل بعد ذلك وتترك الغزل، فأفتاها الإمام المسؤول وهو أحمد بن حنبل وأثنى عليها بذلك حتى نقل إلينا وسطر في الكتب فأعطانا ﷺ الميزان في قلوبنا ليكون مقامنا مستوراً عن الأغيار خالصاً لله مخلصاً لا يعلمه إلاّ الله ثم صاحبه وهو قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] فكل دين وقع فيه ضرب من الاشتراك المحمود أو المذموم فما هو بالدين الخالص الذي لله إن كان الذي وقع به الاشتراك محموداً كمسألة أخت بشر الحافي، وإن وقع الاشتراك بالمذموم فليس بدين أصلاً فإنه ليس ثمَّ دين إلهي يتعلق به لسان ذم.

فلما رأى رجال هذا المقام مراعاة النبيّ ﷺ ما يحصل في قلب العبد ممّا قاله وما أحال به لإنسان على نفسه باجتنابه طلباً للتستر تعملوا في تحصيل ذلك وسلكوا عليه وعلموا أن النجاة

المطلوبة من الشارع لنا إنما هي في ستر المقام، فأعطاهم العمل على هذا والتحقق به الحقيقة الإلهية التي استندوا إليها في ذلك وهو اجتنابه التجلي منه سبحانه لعموم عباده في الدنيا فاقتدوا بربهم في احتجابه عن خلقه، فعلم هؤلاء الرجال أن هذه الدار دار ستر، وأن الله ما اكتفى في التعريف بالدين حتى نعته بالخالص، فطلبوا طريقاً لا يشوبهم فيها شيء من الاشتراك حتى يعاملوا الموطن بما يستحقه أدباً وحكمة وشرعاً واقتداء، فاستتروا عن الخلق بحسن الورع الذي لا يشعر به وهو ظاهر الدين والعلم المعهود، فإنهم لو سلكوا غير المعهود في الظاهر في العموم من الدين لتميزوا وجاء الأمر على خلاف ما قصدوه فكانت أسماؤهم أسماء العامّة، فهؤلاء الرجال يحمدهم الله وتحمدهم الأسماء الإلهية القدسية، ويحمدهم الملائكة، ويحمدهم الأنبياء والرسل، ويحمدهم الحيوان والنبات والجماد وكل شيء يسبح بحمد الله.

وأمّا الثقلان فيجهلونهم إلاّ أهل التعريف الإلهي فإنهم يحمدونهم ولا يظهرونهم. وأمّا غير أهل التعريف الإلهي من الثقلين فهم فيهم مثل ما هم في حق العامة يذكرونهم بحسب أغراضهم فيهم لا غير فلهم المقام المجهول في العامة.

أمّا ثناء الله عليهم فلتعملهم استخلاصهم لله فخلصوا له دينه فأثنى عليهم حيث لم يملكهم كون ولا حكم على عبوديتهم رب غير الله. وأمّا ثناء الأسماء الإلهية عليهم فكونهم تلقوها وعلموا تأثيرها وما أثروا بها في كون من الأكوان، فيذكرون بذلك الأمر الذي هو لذلك الاسم الإلهي فيكون حجاباً على ذلك الاسم، فلما لم يفعلوا ذلك وأضافوا الأثر الصادر على أيديهم للاسم الإلهي الذي هو صاحب الأثر على الحقيقة حمدتهم الأسماء الإلهية بأجمعها. وأمّا ثناء الملائكة فلأنهم ما زاحموهم فيما نسبوه إلى أنفسهم بالنسبة لا بالفعل في قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣٠] فقال هؤلاء الرجال: لا حول ولا قوّة إلاّ بك، فلم يدّعوا في شيء ممّا هم عليه من تعظيم الله ونسبوا ذلك إلى الله فأثنت عليهم الملائكة، فإنها مع هذه الحال لم تجرح الملائكة وتأدّبت معها حيث لم تتعرض للطعن عليها بما صدر منها في حق أبيها آدم عليه السلام، واعتذرت عن الملائكة لإيثارهم جناب الحق وإصابتهم العلم فإنه وقع ما قالوه في بني آدم لا شك من الفساد وسفك الدماء ولهذا سر معلوم. وأمّا ثناء الأنبياء والرسل عليهم السلام فلكونهم سلموا لهم ما ادّعوه أنه لهم من النبوّة والرسالة وآمنوا بهم وما توقفوا مع كونهم على أحوالهم من أجزاء النبوّة قد اتصفوا بها، ولكن مع هذا لم يتسموا بأنبياء ولا برسل وأخلصوا في اتباع آثارهم قدماً بقدم كما روي عن الإمام أحمد بن حنبل المتبع المقتدي سيد وقته في تركه أكل البطيخ لأنه ما ثبت عنده كيف كان يأكله رسول الله ﷺ، فدلّ ذلك على قوّة اتباعه كيفيات أحوال الرسول ﷺ في حركاته وسكناته وجميع أفعاله وأحواله، وإنما عرف هذا منه لأنه كان في مقام الوراثة في التبليغ والإرشاد بالقول والعمل والحال لأن ذلك أمكن في نفس السامع فهو وأمثاله حفاظ الشريعة على هذه الأمّة. وأمّا ثناء الحيوان والنبات والجماد عليهم فإن هؤلاء الأصناف عرفوا الحركات التي تسمّى عبثاً من التي لا تسمّى عبثاً، فكل من تحرّك فيهم بحركة تكون عبثاً عند

المتحرك بها لا عند المحرك يعلم الناظر منهم المشاهد لتلك الحركة العبثية أنه صاحب غفلة عن الله، ورأت هذه الطائفة أنها لا تتحرك في حيوان ولا نبات ولا جماد بحركة تكون عبثاً، ويلحق بهذا الباب صيد الملوك ومن لا حاجة له بذلك إلاَّ للفرجة واللهو واللعب فأثنى من ذكرناه من هؤلاء الأصناف على هذه الطائفة فالله يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ بإمهالكم حيث لم يؤاخذكم سريعاً بما رددتم من ذلك ﴿غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤٤] حيث ستر عنكم تسبيح هؤلاء فلم تفقهوه. وقال تعالىٰ في حال من مات ممقوتاً عند الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٢٩] فوصف السماء والأرض بالبكاء على أهل الله، ولا يشك مؤمن في كل شيء أنه مسبح وكل مسبح حيّ عقلاً.

وورد أن العصفور يأتي يوم القيامة فيقول: يا رب سل هذا لم قتلني عبثاً؟ وكذلك من يقطع شجرة لغير منفعة أو ينقل حجراً لغير فائدة تعوْد على أحد من خلق الله، فلما أعطى الله هذه المعارف لهؤلاء الأصناف لذلك وصفتها بالثناء على هؤلاء الرجال وعرفت ذلك منهم كشفاً حسياً مثل ما كان للصحابة سماع تسبيح الحصا وتسبيح الطعام لأنهم ليس بينهم وبين الحركة العبثية دخول بل يجتنبون ذلك جملة واحدة، ولما جهل أكثر الثقلين هذه العلوم لذلك لا يعرفون مراتب هؤلاء الرجال فلا يمدحونهم ولا يتعرّضون إليهم، ولهذا أخبر تعالىٰ أن كل شيء في العالم يسجد لله تعالىٰ من غير تبعيض إلاَّ الناس فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ ولم يبعض ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨] فبعض، فإن فهمت ما ذكرناه لك من صفة أصحاب هذا المقام وسلكت طريقهم كنت من المفلحين الفائزين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثالث والعشرون.

(الجزء الرابع والعشرون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الرابع والأربعون
في البهاليل وأئمتهم في البهللة

[نظم: المتقارب]

إذا كـنـتَ فـي طـاعـةٍ راغـبـاً ... فـلا تـكـسُـهـا حُـلَّـةَ الآجـلِ
وكـن كـالـبـهـالـيـل فـي حـالـهـم ... مـع الـوقـت يَـجْـرون كـالـعـاقِـلِ
وحَـوْصِـلْ مـن الـسـنـبـل الـحـاصـل ... ولا تـصـبـرنَّ إلـى قـابِـلِ
فـحَـوْصَـلَـةُ الـرزق قـد هُـيِّـئـت ... لـيـحـصـل مـا لـيـس بـالـحـاصـلِ
ولا تـبـكـيـنَّ عـلـى فـائـتٍ ... يـفُـتْـكَ الـذي هـو فـي الـعـاجـلِ
وسـوفَ فـلا تـلـتـفِـتْ حـكْـمَـهـا ... ولا الـسِّـيـنُ وارحَـلْ مـع الـراحـلِ

عـسـاك إذا كـنـت ذا عَـزمـةٍ ومـتَّ حـصـلـت عـلـى طـائـلِ
وقـل لـلـذي لـم يـزل وانـيـاً تـخـبَّـطـتَ فـي شِـرْكـةِ الـحـابِـلِ
ومـا ظَـفـرتْ كـفُّـكـم بـالـذي تـريـدُ فـيـا خَـيْـبَـةَ الـسـائـلِ
فـلـو كـان فـعـلُـك فـي أمـره كـفـعـل الـفـتـى الـحَـذر الـواجِـلِ
لـمـيَّـزْتَ بـيـنـي وبـيـن الـذي يـجـلـي لـك الـحـقَّ كـالـبـاطـلِ

يقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [سورة الحج: الآية ٢] وذلك أن الله قوماً كانت عقولهم محجوبة بما كانوا عليه من الأعمال التي كلفهم الحق تعالىٰ في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ التصرّف فيها شرعاً وشرعها لهم، ولم يكن لهم علم بأن الله تعالىٰ الحق فجأة لمن خلا به في سرّه وأطاعه في أمره وهيأ قلبه لنوره من حيث لا يشعر، ففجأه الحق على غفلة منه بذلك وعدم علم واستعداد لهائل أمر، فذهب بعقله في الذاهبين وأبقى تعالىٰ ذلك الأمر الذي فجأه مشهوداً له فهام فيه ومضى معه فبقي في عالم شهادته بروحه الحيواني يأكل ويشرب ويتصرّف في ضروراته الحيوانية تصرّف الحيوان المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضارّه من غير تدبير ولا روية ولا فكر، ينطق بالحكمة ولا علم له بها، ولا يقصد نفعك بها لتتعظ وتتذكر أن الأمور ليست بيدك وأنك عبد مصرف بتصريف حكيم، وسقط التكليف عن هؤلاء إذ ليس لهم عقول يقبلون بها ولا يفقهون بها ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٨] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٩٩] أي القليل ممّا يجري الله على ألسنتهم من الحكم والمواعظ، وهؤلاء هم الذين يسمّون عقلاء المجانين، يريدون بذلك أن جنونهم ما كان سببه فساد مزاج عن أمر كوني من غذاء أو جوع أو غير ذلك، وإنما كان عن تجلّ إلهيّ لقلوبهم، وفجأة من فجآت الحق فجأتهم فذهبت بعقولهم فعقولهم محبوسة عنده منعمة بشهوده عاكفة في حضرته متنزهة في جماله، فهم أصحاب عقول بلا عقول، وعرفوا في الظاهر بالمجانين أي المستورين عن تدبير عقولهم فلهذا سمّوا عقلاء المجانين.

قيل لأبي السعود بن الشبل البغداديّ عاقل زمانه: ما تقول في عقلاء المجانين من أهل الله؟ فقال رضي الله عنه: هو ملاح والعقلاء منهم أملح، قيل له: فبماذا نعرف مجانين الحق من غيرهم؟ فقال: مجانين الحق تظهر عليهم آثار القدرة، والعقلاء يشهد الحق بشهودهم، أخبرني بذلك عنه صاحبه أبو البدر التماسكيّ رحمه الله وكان ثقة ضابطاً عارفاً بما ينقل لا يجعل فاء مكان واو، فقال الشيخ: من شاهد ما شاهدوا وأبقى عليه عقله فذلك أحسن وأمكن فإنه قد أقيم وأعطي من القوّة قريباً ممّا أعطيت الرسل وإن تغيّروا في وقت الفجآت، فقد علمنا أن رسول الله ﷺ لما فجأه الوحي جئث منه رعباً فأتى خديجة ترجف بوادره فقال: زمّلوني زمّلوني وذلك من تجلّي ملك فكيف به بتجلّي ملك؟ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٤٣] وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه الوحي ونزل الروح الأمين به على قلبه أخذ عن حسّه وسجى ورغا كما يرغو البعير حتى ينفصل عنه وقد وعى ما جاءه به فيلقيه على الحاضرين ويبلغه للسامعين، فمواجده ﷺ من تجلّيات ربّه على

قلبه أعظم سطوة من نزول ملك ووارد في الوقت الذي لم يكن يسعه فيه غير ربّه، ولكن كان منتظراً مستعداً لذلك الهول، ومع هذا يؤخذ عن نفسه، فلولا أنه رسول مطلوب بتبليغ الرسالة وسياسة الأمّة لذهب الله بعقول الرسل لعظيم ما يشاهدونه، فمكّنهم الله القويّ المتين من القوّة بحيث يتمكّنون من قبول ما يرد عليهم من الحق ويوصلونه إلى الناس ويعملون به.

فاعلم أن الناس في هذا المقام على إحدى ثلاث مراتب: منهم من يكون وارده أعظم من القوّة التي يكون في نفسه عليها فيحكم الوارد عليه فيغلب عليه الحال فيكون بحكمه يصرّفه الحال ولا تدبير له في نفسه ما دام في ذلك الحال، فإن استمرّ عليه إلى آخر عمره فذلك المسمّى في هذه الطريقة بالجنون كأبي عقال المغربي. ومنهم من يمسك عقله هناك ويبقى عليه عقل حيوانيته فيأكل ويشرب ويتصرّف من غير تدبير ولا روية فهؤلاء يسمّون عقلاء المجانين لتناولهم العيش الطبيعي كسائر الحيوانات، وأمّا مثل أبي عقال فمجنون مأخوذ عنه بالكلية ولهذا ما أكل وما شرب من حين أخذ إلى أن مات وذلك في مدّة أربع سنين بمكة فهو مجنون أي مستور مطلق عن عالم حسّه. ومنهم من لا يدوم له حكم ذلك الوارد فيزول عنه الحال فيرجع إلى الناس بعقله فيدبر أمره ويعقل ما يقول ويقال له ويتصرّف عن تدبير وروية مثل كل إنسان وذلك هو النبي وأصحاب الأحوال من الأولياء. ومنهم من يكون وارده وتجليه مساوياً لقوّته فلا يرى عليه أثر من ذلك حاكم لكن يشعر عندما يبصر أن ثم أمراً ما طرأ عليه شعوراً خفياً فإنه لا بدّ لهذا أن يصغي إليه أي إلى ذلك الوارد حتى يأخذ عنه ما جاءه به من عند الحق، فحاله كحال جليسك الذي يكون معك في حديث فيأتي شخص آخر في أمر من عند الملك إليه فيترك الحديث معك ويصغي إلى ما يقول له ذلك الشخص، فإذا أوصل إليه ما عنده رجع إليك فحادثك، فلو لم تبصره عينك ورأيته يصغي إلى أمر شعرت أن ثم أمراً شغله عنك في ذلك، كرجل يحدثك فأخذته فكرة في أمر فصرف حسّه إليه في خياله فجمدت عينه ونظره وأنت تحدّثه فتنظر إليه غير قابل حديثك فتشعر أن باطنه متفكر في أمر آخر خلاف ما أنت عليه.

ومنهم من تكون قوّته أقوى من الوارد فإذا أتاه الوارد وهو معك في حديث لم تشعر به، وهو يأخذ من الوارد ما يلقى إليه ويأخذ عنك ما تحدّثه به أو يحدّثك به. وما ثم أمر رابع في واردات الحق على قلوب أهل هذه الطريقة وهي مسألة غلط فيها بعض أهل الطريق في الفرق بين النبيّ والوليّ فقالوا: الأنبياء يصرفون الأحوال والأولياء تصرّفهم الأحوال، فالأنبياء مالكون أحوالهم، والأولياء مملوكون لأحوالهم، والأمر إنما هو كما فصلناه لك، وقد بيّنا لك لماذا يردّ الرسول ويحفظ عليه عقله مع كونه يؤخذ ولا بدّ عن حسّه في وقت وارد الحق على قلبه بالوحي المنزّل فافهم ذلك وتحققه.

وقد لقينا جماعة منهم وعاشرناهم واقتبسنا من فوائدهم، ولقد كنت واقفاً على واحد منهم والناس قد اجتمعوا عليه وهو ينظر إليهم وهو يقول لهم: أطيعوا الله يا مساكين فإنكم من طين خلقتم وأخاف عليكم أن تطبخ النار هذه الأواني فتردّها فخاراً، فهل رأيتم قط آنية من طين تكون فخاراً من غير أن تطبخها نار؟ يا مساكين لا يغرنّكم إبليس بكونه يدخل النار معكم

وتقولون الله يقول: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٥] إبليس خلقه الله من نار فهو يرجع إلى أصله، وأنتم من طين تتحكم النار في مفاصلكم، يا مساكين انظروا إلى إشارة الحق في خطابه لإبليس بقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ [سورة ص: الآية ٨٥] وهنا قف ولا تقرأ ما بعدها فقال له: جهنم منك وهو قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ١٥] فمن دخل بيته وجاء إلى داره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد عليه فهو رجع إلى ما به افتخر قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٢] فسروره رجوعه إلى أصله، وأنتم يا مناحيس تتفخر بالنار طينتكم، فلا تسمعوا من إبليس ولا تطيعوا واهربوا إلى محل النور تسعدوا، يا مساكين أنتم عمي ما تبصرون الذي أبصره أنا، تقولون: سقف هذا المسجد ما يمسكه إلاّ هذه الأسطوانات أنتم تبصرونها أسطوانات من رخام وأنا أبصرها رجالاً يذكرون الله ويمجدونه بالرجال تقوم السموات فكيف هذا المسجد ما أدري إما أنا هو الأعمى لا أبصر الأسطوانات حجارة، وإما أنتم هم العمي لا تبصرون هذه الأسطوانات رجالاً، والله يا إخوتي ما أدري لا والله أنتم هم العمي، ثم استشهدني دون الجماعة فقال: يا شاب ألست أقول الحق؟ قلت: بلى، ثم جلست إلى جانبه فجعل يضحك وقال: يا ناس الأستاه المنتنة تصفر بعضها لبعض وهذا الشاب منتن مثلي هذه المناسبة جعلته يجلس إلى جانبي ويصدقني، أنتم الساعة تحسبونه عاقلاً وأنا مجنون هو أجنّ مني بكثير، وإنما أنتم كما أعماكم الله عن رؤية هذه الأسطوانات رجالاً أعماكم أيضاً عن جنون هذا الشاب، ثم أخذ بيدي وقال: قم امش بنا عن هؤلاء، فخرجت معه فلما فارق الناس ترك يدي من يده وانصرف عني، وهو من أكبر من لقيته من المعتوهين، كنت إذا سألته: ما الذي ذهب بعقلك؟ يقول لي: أنت هو المجنون حقاً ولو كان لي عقل كنت تقول لي؛ ما الذي ذهب بعقلك؟ أين عقلي حتى يخاطبك قد أخذه معه ما أدري ما يفعل به وتركني هنا في جملة الدواب آكل وأشرب وهو يدبرني، قلت له: فمن يركبك إذا كنت دابة؟ قال: أنا دابة وحشية لا أركب، ففهمت أنه يريد خروجه عن عالم الإنس وأنه في مفاوز المعرفة فلا حكم للإنس عليه، وكذلك كان محفوظاً من أذى الصبيان وغيرهم كثير السكوت مبهوتاً دائم الاعتبار يلازم المسجد ويصلي في أوقات، فربما كنت أسأله عندما أراه يصلي أقول له: أراك تصلي، يقول لي: لا والله إنما أراه يقيمني ويقعدني ما أدري ما يريد بي، أقول له: فهل تنوي في صلاتك هذه أداء ما افترض الله عليك؟ فيقول لي: أي شيء تكون النية؟ أقول له: القصد بهذه الأعمال القربة إليه، فيضحك ويقول: أنا أقول له أراه يقيمني ويقعدني فكيف أنوي القربة إلى من هو معي وأنا أشهده ولا يغيب عني هذا كلام المجانين ما عندكم عقول، ثم لتعلم أنّ هؤلاء البهاليل كبهلول وسعدون من المتقدّمين وأبي وهب الفاضل وأمثالهم منهم المسرور ومنهم المحزون وهم في ذلك بحسب الوارد الأوّل الذي ذهب بعقولهم، فإن كان وارد قهر قبضهم كيعقوب الكوراني كان بالجسر الأبيض رأيته وكان على هذا القدم. وكذلك مسعود الحبشي رأيته بدمشق ممتزجاً بين القبض والبسط الغالب عليه البهت، وإن كان وارد لطف بسطهم رأيت من هذا الصنف جماعة

كأبي الحجاج الغليريّ وأبي الحسن عليّ السلاوي والناس لا يعرفون ما ذهب بعقولهم شغلهم ما تجلى لهم عن تدبير نفوسهم فسخّر الله لهم الخلق فهم مشتغلون بمصالحهم عن طيب نفس، فأشهى ما إلى الناس أن يأكل واحد من هؤلاء عنده، أو يقبل منه ثوباً تسخيراً إلهياً، فجمع الله لهم بين الراحتين حيث يأكلون ما يشتهون ولا يحاسبون ولا يسألون، وجعل لهم القبول في قلوب الخلق والمحبة والعطف عليهم واستراحوا من التكليف، ولهم عند الله ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٣٠] في مدّة أعمارهم التي ذهبت بغير عمل، لأنه سبحانه هو الذي أخذهم إليه فحفظ عليهم نتائج الأعمال التي لو لم يذهب بعقولهم لعملوها من الخير، كمن بات نائماً على وضوء وفي نفسه أن يقوم من الليل يصلي فيأخذ الله بروحه فينام حتى يصبح، فإن الله يكتب له أجر من قام ليله لأنه الذي حبسه عنده في حال نومه، فالمخاطب بالتكليف منهم وهو روحهم غائب في شهود الحق الذي ظهر سلطانه فيهم، فما لهم أذن واعية لحفظ السماع من خارج وتعقل ما جاء به، ولقد ذقت هذا المقام ومرّ عليّ وقت أؤدّي فيه الصلوات الخمس إماماً بالجماعة على ما قيل لي بإتمام الركوع والسجود وجميع أحوال الصلاة من أفعال وأقوال وأنا في هذا كله لا علم لي بذلك لا بالجماعة ولا بالمحل ولا بالحال ولا بشيء من عالم الحسّ لشهود غلب عليّ غبت فيه عني وعن غيري، وأخبرت أني كنت إذا دخل وقت الصلاة أقيم الصلاة وأصلي بالناس فكان حالي كالحركات الواقعة من النائم ولا علم له بذلك، فعلمت أنّ الله حفظ عليّ وقتي ولم يجر على لساني ذنب كما فعل بالشبليّ في ولهه، لكنه كان الشبليّ يردّ في أوقات الصلوات على ما روي عنه، فلا أدري هل كان يعقل ردّه أو كان مثل ما كنت فيه فإنّ الراوي ما فصل، فلما قيل للجنيد عنه قال: الحمد لله الذي لم يجر عليه لسان ذنب إلاّ أني كنت في أوقات في حال غيبتي أشاهد ذاتي في النور الأعم والتجلّي الأعظم بالعرش العظيم يصلي بها وأنا عري عن الحركة بمعزل عن نفسي وأشاهدها بين يديه راكعة وساجدة، وأنا أعلم أني أنا ذلك الراكع والساجد كرؤية النائم واليد في ناصيتي، وكنت أتعجب من ذلك وأعلم أن ذلك ليس غيري ولا هو أنا، ومن هناك عرفت المكلف والتكليف، والمكلف اسم فاعل واسم مفعول، فقد أبنت لك حالة المأخوذين عنهم من المجانين الإلهيين إبانة ذائق بشهود حاصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون

في معرفة من عاد بعد ما وصل ومن جعله يعود

[نظم: الطويل]

وجـودُك عـن تـدبـيـرِ أمـرِ مـحـقَّـقِ ... وتـفـصـيـلِ آيـاتٍ لَـوَ انَّـكَ تـعْـقِـلُ

فـيـا أيـهـا الإنـسـانُ مَـا غـرَّ ذاتـكـم ... بـربٍّ يـرى الأشـيـاءَ تـعـلـو وتَـسْـفُـلُ

فـإن كـنـتَ ذا عـقـل وفَـهْـم وفـطـنـةٍ ... علمتَ الذي قد كنتَ بالأمس تجْهَلُ

وذلـك إن تـدري بـأنـكَ قـابـلٌ ... لـقـربٍ وبُـعـدٍ بـالـذي أنـت تـعـمَـلُ

فخَفْ ربَّ تدبير وتفصيلِ مُجْمَلٍ فذاك الذي بالعبد أولى وأجْمَلُ
إذا كان هذا حالَك اليومَ دائباً لعلَّ بشاراتٍ بسعدك تَحْصَلُ
فإنّ جلال الحقِّ يَعْظُم قدْرُه وفي الخلق يقضي ما يشاء ويفْصِلُ
إذا أخذ المولى قلوبَ عباده إليه ويقضي ما يشاء ويَعْدِلُ
فمن شاء أبقاه لديه مكرَّماً وردَّ الذي قد شا لِمَا كان يأمَلُ
وذاك نبيٌّ أو رسولٌ ووارثٌ وما ثَمَّ إلاّ هؤلاء فأجمِلُوا
ولم يبقَ إلاّ واحدٌ وهو وارثٌ والاثنان قد راحا فما لك تعدِلُ
فسبحانَ من خصَّ الوليَّ براحة ليغبطه فيها الذي هو أفْضَلُ

قال رسول الله ﷺ: «**العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وإِنَّ الأَنْبِيَاءَ مَا وَرّثُوا دِيناراً وَلاَ دِرْهَماً وَرّثُوا العِلْمَ**»، ولما كانت حالته ﷺ في ابتداء أمره ﷺ أن الله تعالىٰ وفّقه لعبادته بملة إبراهيم الخليل عليه السلام فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه عناية من الله سبحانه به ﷺ إلى أن فجأه الحق فجاءه الملك فسلّم عليه بالرسالة وعرّفه بنبوّته، فلما تقرّرت عنده أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ودعا إلى الله عزّ وجلّ على بصيرة، فالوارث الكامل من الأولياء منّا من انقطع إلى الله بشريعة رسول الله ﷺ إلى أن فتح الله له في قلبه في فهم ما أنزل الله عزّ وجلّ على نبيه ورسوله محمد ﷺ بتجلّ إلهيّ في باطنه، فرزقه الفهم في كتابه عزّ وجلّ، وجعله من المحدّثين في هذه الأمّة، فقام له هذا مقام الملك الذي جاء إلى رسول الله ﷺ، ثم ردّه الله إلى الخلق يرشدهم إلى صلاح قلوبهم مع الله ويفرّق لهم بين الخواطر المحمودة والمذمومة ويبيّن لهم مقاصد الشرع.

وما ثبت من الأحكام عن رسول الله ﷺ وما لم يثبت بإعلام من الله آتاه رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علماً فيرقي هممهم إلى طلب الأنفس بالمقام الأقدس ويرغبهم فيما عند الله، كما فعل رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته، غير أنّ الوارث لا يحدث شريعة ولا ينسخ حكماً مقرراً لكن يبين، فإنه على بينة من ربّه وبصيرة في علمه، ويتلوه شاهد منه بصدق اتباعه، وهو الذي أشركه الله تعالىٰ مع رسوله ﷺ في الصفة التي يدعو بها إلى الله فأخبر وقال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] وهم الورثة فهم يدعون إلى الله على بصيرة، وكذلك شركهم مع الأنبياء عليهم السلام في المحنة وما ابتلوا به فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢١] وهم الورثة فشرك بينهم في البلاء كما شرك بينهم في الدعوة إلى الله، فكان شيخنا أبو مدين رضي الله عنه كثيراً ما يقول: من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق، وهذه حالة الرسول ﷺ في خروجه وانقطاعه عن الناس في غار حرّاء للتحنث. ثم يقول: ومن علامات صدق فراره عن الخلق وجوده للحق، فما زال رسول الله ﷺ يتحنث في انقطاعه حتى فجأه الحق.

ثم قال: ومن علامات صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخلق، يريد حالة بعثه ﷺ بالرسالة إلى الناس ويعني في حق الورثة بالإرشاد وحفظ الشريعة عليهم، فأراد الشيخ بهذا صفة الكمال في الورث النبويّ، فإنّ لله عباداً إذا فجأهم الحق أخذهم إليه ولم يردّهم إلى العالم وشغلهم به وقد وقع هذا كثيراً، ولكن كمال الورث النبويّ الرسالي في الرجوع إلى الخلق، فإن اعترضك هنا قول أبي سليمان الدارانيّ: لو وصلوا ما رجعوا إنما ذلك فيمن رجع إلى شهواته الطبيعية ولذاته وما تاب منه إلى الله. وأمّا الرجوع إلى الله تعالىٰ بالإرشاد فلا يقول: لو لاح لهم بارقة من الحقيقة ما رجعوا إلى ما تابوا إلى الله منه ولو رأوا وجه الحق فيه فإنّ موطن التكليف والأدب يمنعهم من ذلك.

وأمّا قول الآخر من أكابر الرجال لما قيل له: فلان يزعم أنه وصل، فقال: إلى سقر، فإنه يريد بهذا أنه من زعم أن الله محدود يوصل إليه وهو القائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] أو ثم أمر إذا وصل إليه سقطت عنه الأعمال المشروعة وأنه غير مخاطب بها مع وجود عقل التكليف عنده، وأن ذلك الوصول أعطاه ذلك، فهو هذا الذي قال فيه الشيخ إلى سقر أي هذا لا يصحّ بل الوصول إلى الله بقطع كل ما دونه حتى يكون الإنسان يأخذ عن ربه فهذا لا تمنعه الطائفة بلا خلاف، وكان شيخنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكوميّ يقول: بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة، فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم نرجع فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه وهو قول أبي سليمان الدارانيّ: لو وصلوا ما رجعوا يريد إلى رأس العقبة، فمن رجع من الناس إنما رجع من قبل الوصول إلى رأس العقبة والإشراف على ما وراءها، فالسبب الموجب للرجوع مع هذا إنما هو طلب الكمال ولكن لا ينزل بل يدعوهم من مقامه ذلك وهو قوله: على بصيرة فيشهد فيعرف المدعوّ على شهود محقق، والذي لم يردّ ما له وجه إلى العالم فيبقى هناك واقفاً وهو أيضاً المسمّى بالواقف فإنه ما وراء تلك العقبة تكليف ولا ينحدر منها إلاّ من مات إلاّ أنه منهم أعني من الواقفين من يكون مستهلكاً فيما يشاهده هنالك وقد وجد منهم جماعة وقد دامت هذه الحالة على أبي يزيد البسطاميّ وهذا كان حال أبي عقال المغربيّ وغيره.

واعلم أنه بعدما أعلمتك ما معنى الوصول إلى الله أن الواصلين على مراتب: منهم من يكون وصوله إلى اسم ذاتيّ لا يدل على الله تعالىٰ من حيث هو دليل على الذات كالأسماء الأعلام عندنا لا تدل على معنى آخر مع ذلك يعقل، فهذا يكون حاله الاستهلاك كالملائكة المهيمين في جلال الله تعالىٰ والملائكة الكروبيين فلا يعرفون سواه ولا يعرفهم سواه سبحانه. ومنهم من يصل إلى الله من حيث الاسم الذي أوصله إلى الله، أو من حيث الاسم الذي يتجلّى له من الله ويأخذه من الاسم الذي أوصله إليه سبحانه. ثم إن هذين الرجلين المذكورين أو الشخصين فإنه قد يكون منهم النساء إذا وصلوا، فإن كان وصولهم من حيث الاسم الذي أوصلهم فشاهدوه فكان لهم عين يقين، فلا يخلو ذلك الاسم إمّا أن يطلب صفة فعل كخالق

وباريء، أو صفة صفة كالشكور والحسيب، أو صفة تنزيه كالغنيّ، فيكون بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم، ومن ثم يكون مشربه، وذوقه، وريّه، ووجوده لا يتعدّاه فيكون الغالب عليه عندنا في حاله ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم الإلهيّ فتضيفه إليه وبه تدعوه فتقول: عبد الشكور، وعبد الباري، وعبد الغنيّ، وعبد الجليل، وعبد الرزاق، وإن كان وصولهم إلى اسم غير الاسم الذي أوصلهم فإنه يأتي بعلم غريب لا يعطيه حاله بحسب ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم فيتكلم بغرائب العلم في ذلك المقام، وقد يكون في ذلك العلم ما ينكره عليه من لا علم له بطريق القوم، ويرى الناس أن علمه فوق حاله وهو عندنا أعلى من الذي وصل إلى مشاهدة الاسم الذي أوصله، فإن هذا لا يأتي بعلم غريب لا يناسب حاله، فيرى الناس أن علمه تحت حاله ودونه. يقول أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه: العارف فوق ما يقول والعالم تحت ما يقول، فبهذا قد حصرنا لك مراتب الواصلين، فمنهم من يعود، ومنهم من لا يعود.

ثم إن الراجعين على قسمين: منهم من يرجع اختياراً كأبي مدين، ومنهم من يرجع اضطراراً مجبوراً كأبي يزيد لما خلع عليه الحق الصفات التي بها ينبغي أن يكون وارثاً وراثة إرشاد وهداية خطا خطوة من عنده فغشي عليه فإذا النداء: ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني. فمثل هذا لا يرغب في الخروج إلى الناس وهو صاحب حال. وأمّا العالي من الرجال وهم الأكابر وهم الذين ورثوا من رسول الله ﷺ عبوديته فإن أمروا بالتبليغ فيحتالون في ستر مقامهم عن أعين الناس ليظهروا عند الناس بما لا يعلمون في العادة أنهم من أهل الاختصاص الإلهيّ، فيجمعون بين الدعوة إلى الله وبين ستر المقام، فيدعونهم بقراءة الحديث وكتب الرقائق وحكايات كلام المشايخ حتى لا تعرفهم العامّة، إلاّ أنهم نقلة لا أنهم يتكلمون عن أحوالهم من مقام القربة، هذا إذا كانوا مأمورين ولا بدّ، وإن لم يكونوا مأمورين بذلك فهم مع العامّة التي لم تزل مستورة الحال لا يعتقد فيهم خير ولا شرّ.

ثم إن من الرجال الواصلين من لا يكشف لهم عن العلم بالأسماء الإلهية التي تدبرهم، ولكن لهم نظر إلى الأعمال المشروعة التي يسلكون بها وهي ثمانية: يد، ورجل، وبطن، ولسان، وسمع، وبصر، وفرج، وقلب، ما ثم غير ذلك فهؤلاء يفتح لهم عند وصولهم في عالم المناسبات فينظرون فيما يفتح لهم عند الوصول إلى الباب الذي قرعوه، فعندما يفتح لهم يعرفون فيما يتجلّى لهم من الغيب أي باب ذلك الباب الذي فتح لهم، فإن كان المشهود لهم يطلب اليد بمناسبة تظهر لهم كان صاحب يد، وإن كان يطلب البصر بمناسبة كان صاحب بصر وهكذا جميع الأعضاء، ومن ذلك الجنس تكون كراماته إن كان ولياً ومعجزاته إن كان نبياً، ومن ذلك الجنس تكون منازله ومعارفه كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فيمن يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يركع ركعتين لا يحدّث نفسه فيهما بشيء: «**فُتِحَتْ لَهُ الثَّمَانِيَةُ الأَبْوابُ مِنَ الجَنَّةِ يَدْخلُ مِنْ أَيِّها شَاءَ**» كذلك هذا الشخص يفتح له من أعمال أعضائه إذا كملت طهارته وصفا سرّه، أيّ شيء كان مما تعطيه أعمال أعضائه المكلفة، وقد بينّا هذه المراتب العملية على الأعضاء في كتاب مواقع النجوم.

ثم إن الله سبحانه يمدّهم من الأنوار بما يناسبهم وهي ثمانية من حضرة النور: فمنهم من يكون إمداده من نور البرق وهو المشهد الذاتي وهو على ضربين: خلب وغير خلب، فإن لم ينتج مثل صفات التنزيه فهو البرق الخلب، وإن أنتج ولا ينتج إلاّ أمراً واحداً لأنه ليس لله صفة نفسية سوى واحدة هي عين ذاته لا يصحّ أن تكون اثنان، فإن اتفق أن يحصل له من هذا النور البرقيّ في بعض كشف تعريف إلهيّ لا يكون برق خلب. ومنهم من يكون إمداده من حضرة النور نور الشمس. ومنهم من يكون إمداده من نور البدر. ومنهم من يكون إمداده من نور القمر. ومنهم من يكون إمداده من نور الهلال. ومنهم من يكون إمداده من نور السراج. ومنهم من يكون إمداده من نور النجوم. ومنهم من يكون إمداده من نور النار، وما ثم نور أكثر. وقد ذكرنا مراتب هذه الأنوار في مواقع النجوم أيضاً، فيكون إدراكهم على قدر مراتب أنوارهم، فتتميز المراتب بتمييز الأنوار، وتتميز الرجال بتمييز المراتب.

ومن الرجال الواصلين من ليس لهم معرفة بهذا المقام ولا بالأسماء الإلهية ولكن لهم وصول إلى حقائق الأنبياء ولطائفهم، فإذا وصلوا فتح لهم باب من لطائف الأنبياء على قدر ما كانوا عليه من الأعمال في وقت الفتح، فمنهم من يتجلّى له حقيقة موسىٰ عليه السلام فيكون موسويّ المشهد. ومنهم من يتجلّى له لطيفة عيسىٰ وهكذا سائر الرسل فينسب إلى ذلك الرسول بالوراثة، ولكن من حيث شريعة محمد ﷺ المقرّرة من شرع ذلك النبيّ الذي تجلّى له، فيجد هذا الواصل أنه كان محققاً في عمله الموجب لفتحه من جهة ظاهره أو باطنه شرع نبيّ متقدّم مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: الآية ١٤] فإنّ ذلك من شرع موسىٰ وقرّره الشارع لنا، فيمن خرج عنه وقت الصلاة بنوم أو نسيان فهؤلاء يأخذون من لطائف الأنبياء عليهم السلام ولقينا منهم جماعة وليس لهؤلاء في الأنوار، ولا في الأعضاء، ولا في الأسماء الإلهية ذوق ولا شرب ولا شرب، ومن الواصلين أيضاً إلى الله تعالىٰ الوصول الذي بيّناه من يجمع الله له الجميع. ومنهم من يكون له من ذلك مرتبتان وأكثر على قدر رزقه الذي قسّمه الله له منه، وكل إنسان من هؤلاء إذا ردّ إلى الخلق بالإرشاد والهداية لا يتعدّى ذوقه في أي مرتبة كان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون
في معرفة العلم القليل ومن حصله من الصالحين

[نظم: الكامل]

العلمُ بالأشياء علمٌ واحدٌ ... والكُثْرُ في المعلوم لا في ذاتِهِ
والأشعريُّ يرى ويزعمُ أنهُ ... متعدِّدٌ في ذاته وصفاتِهِ
إن الحقيقةَ قد أبتْ ما قاله ... ولَوَ انّه من فكره وهِباتِهِ
الحقُّ أبلَجُ لا خفاءَ بأنه ... متوحِّدٌ في عينه وسِماتِهِ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨٥] فكان شيخنا أبو

مدين يقول إذا سمع من يتلو هذه الآية: القليل أعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا، والكثير منه لم نصل إليه فنحن الجاهلون على الدوام. وقال من هذا الباب خضر لموسىٰ عليه السلام لما رأى الطائر الذي وقع على حرف السفينة ونقر في البحر بمنقاره: أتدري ما يقول هذا الطائر في نقره في الماء؟ قال موسىٰ عليه السلام: لا أدري. قال: يا موسىٰ يقول هذا الطائر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلاّ ما نقص من هذا البحر منقاري، والمراد المعلومات بذلك لا العلم، فإن العلم لو تعدّد أدّى أن يدخل في الوجود ما لا يتناهى وهو محال فإنّ المعلومات لا نهاية لها، فلو كان لكل معلوم علم لزم ما قلناه، ومعلوم أن الله يعلم ما لا يتناهى فعلمه واحد، فلا بدّ أن يكون للعلم عين واحدة لأنه لا يتعلق بالمعلوم حتى يكون موجوداً، وما هو ذلك العلم؟ هل هو ذات العالم أو أمر زائد؟ في ذلك خلاف بين النظار في علم الحق سبحانه، ومعلوم أنّ علم الله متعلق بما لا يتناهى فبطل أن يكون لكل معلوم علم، وسواء زعمت أن العلم عين ذات العالم أو صفة زائدة على ذاته، إلاّ أن تكون ممّن يقول في الصفات أنها نسب، وإن كنت ممّن يقول: إنّ العلم نسبة خاصة فالنسب لا تتصف بالوجود نعم ولا بالعدم كالأحوال، فيمكن على هذا أن يكون لكل معلوم علم، وقد علمنا أن المعلومات لا تتناهى، فالنسب لا تتناهى ولا يلزم من ذلك محال، كحدوث التعلقات عند ابن الخطيب، والاسترسال عند إمام الحرمين.

وبعد أن فهمت ما قررناه في هذه المسألة فقل بعد ذلك ما شئت من نسبة الكثرة للعلم والقلة، فما وصف الله العلم بالقلة إلاّ العلم الذي أعطى الله عباده وهو قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أي أعطيتم فجعله هبة. وقال في حق عبده خضر: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقال: علّم القرآن. فهذا كله يدلّك على أنه نسبة لأن الواحد في ذاته لا يتصف بالقلة ولا بالكثرة لأنه لا يتعدد وبهذا نقول: إن الواحد ليس بعدد وإن كان العدد منه ينشأ، ألا ترى أن العالم وإن استند إلى الله ولم يلزم أن يكون الله من العالم كذلك الواحد، وإن نشأ منه العدد فإنه لا يكون بهذا من العدد، فالوحدة للواحد نعت نفسي لا يقبل العدد وإن أضيف إليه، فإن كان العلم نسبة فإطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق حقيقي، وإن كان غير ذلك فإطلاق القلة والكثرة عليه إطلاق مجازي، وكلام العرب مبني على الحقيقة والمجاز عند الناس وإن كنا قد خالفناهم في هذه المسألة بالنظر إلى القرآن فإنا ننفي أن يكون في القرآن مجاز بل في كلام العرب، وليس هذا موضع شرح هذه المسألة، والذي يتعلق بهذا الباب علم الوهب لا علم الكسب، فإنه لو أراد الله العلم المكتسب لم يقل: ﴿أُوتِيتُم﴾ بل كان يقول: أوتيتم الطريق إلى تحصيله لا هو، وكان يقول في خضر: وعلمناه طريق اكتساب العلوم لم يقل شيئاً من هذا، ونحن نعلم أن ثم علماً اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا، وثم علماً لم نكتسبه بشيء من عندنا بل هبة من الله عزّ وجلّ أنزله في قلوبنا وعلى أسرارنا فوجدناه من غير سبب ظاهر وهي مسألة دقيقة، فإنّ أكثر الناس يتخيّلون أنّ العلوم الحاصلة عن التقوى علوم وهب وليست كذلك، وإنما هي علوم مكتسبة بالتقوى، فإنّ التقوى جعلها الله طريقاً إلى حصول هذا العلم فقال:

﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وقال: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] كما جعل الفكر الصحيح سبباً لحصول العلم لكن بترتيب المقدمات، كما جعل البصر سبباً لحصول العلم بالمبصرات.

والعلم الوهبي لا يحصل عن سبب بل من لدنه سبحانه، فاعلم ذلك حتى لا تختلط عليك حقائق الأسماء الإلهية، فإنّ الوهّاب هو الذي تكون أعطياته على هذا الحدّ، بخلاف الاسم الإلهيّ الكريم والجواد والسخيّ فإنه من لا يعرف حقائق الأمور لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية، ومن لا يعرف حقائق الأسماء الإلهية لا يعرف تنزيل الثناء على الوجه اللائق به فلهذا نبّهتك لتنتبه ﴿فلا تكوننّ من الجاهلين﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٥] فالنبوّات كلها علوم وهبية لأن النبوّة ليست مكتسبة، فالشرائع كلها من علوم الوهب عند أهل الإسلام الذين هم أهله، وأريد بالاكتساب في العلوم ما يكون للعبد فيه تعمل، كما أن الوهب ما ليس للعبد فيه تعمل، وإنما قلنا هذا من أجل الاستعدادات التي جعلت العالم يقبل هذا العلم الوهبي والكسبي فإنه لا بدّ من الاستعداد، فإن وجد بعض الاستعدادات ممّا يتعمّل الإنسان في تحصيلها كان العلم الحاصل عنها مكتسباً كمن عمل بما علم، فأورثه الله علم ما لم يكن يعلم وأشباه ذلك، فالشرائع كلها علوم وهبية، وممّن حصل علوم وهب ممّا ليس بشرع جماعة قليلة من الأولياء منهم الخضر على التعيين فإنه قال: ﴿من لدنه﴾ [سورة الكهف: الآية ٢] والذي عرفناه من الأنبياء عليهم السلام آدم وإلياس وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإدريس وإسماعيل وإن كان قد حصله جميع الأنبياء عليهم السلام، ولكن ما ذكرنا منهم إلاّ من حصل لنا التعريف به وسمّوا لنا من الوجه الذي نأخذ عن الله تعالىٰ منه، فلهذا سمّينا هؤلاء ولم نذكر غيرهم.

فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ فليس بنص في الوهب ولكن له وجهان: وجه يطلبه أوتيتم، ووجه يطلبه قليلاً من الاستقلال، أي ما أعطيتم من العلم إلاّ ما تستقلون بحمله وما لا تطيقونه ما أعطيناكموه فإنكم ما تستقلون به، فيدخل في هذا العطاء علوم النظر فإنها علوم تستقل العقول بإدراكها واختلف أصحابنا في العلم المحدث هل يتعلق بما لا يتناهى من المعلومات أم لا؟ فمن منع أن تعرف ذات الله منع من ذلك، ومن لم يمنع من ذلك لم يمنع حصوله، ولكن ما نقل إلينا أنه حصل لأحد في الدنيا وما أدري في الآخرة ما يكون، فإنا قد علمنا أن محمداً ﷺ قد علم علم الأوّلين والآخرين وقد قال ﷺ عن نفسه: إنه يحمد الله غداً يوم القيامة بمحامد عندما يطلب من الله عزّ وجلّ فتح باب الشفاعة أخبر أنّ الله تعالىٰ يعلمه إياها في ذلك الوقت لا يعلمها الآن، فلو علمها غيره لم يصدق قوله: «**عَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ**» وهو ﷺ الصادق في قوله، فحصل من هذا أنّ أحداً لم يتعلق علمه بما لا يتناهى، ولهذا ما تكلم الناس إلاّ في إمكانه هل يمكن أم لا؟ وما كل ممكن واقع، ووقوع الممكنات من المسائل المغلقة، وكيف يكون؟ ثم ممكن ولا يقع وهو المعقول عندنا في كل وقت، فإن ترجيح أحد الممكنين أو الممكنات يمنع من وقوع ما ليس بمرجح في الحال، فإن كان الذي لم يقع في الوجود من الممكنات مرجحاً عدم وقوعه في الوجود

فيكون عدمه مرجحاً فقد وقع الممكن، فإنه لا يلزم فيه من حيث الإمكان إلاَّ اتصافه بكونه مرجحاً سواء ترجح عدمه أو وجوده، وإذا كان كذلك فقد وقع كل ممكن بلا شك وإن لم تتناه الممكنات فإن الترجيح ينسحب عليها وهي مسألة دقيقة، فإن الممكنات وإن كانت لا تتناهى وهي معدومة فإنها عندنا مشهودة للحق عزّ وجلّ من كونه يرى، فإنا لا نعلّل الرؤية بالوجود، وإنما نعلّل الرؤية للأشياء بكون المرئيّ مستعداً لقبول تعلّق الرؤية به سواء كان معدوماً أو موجوداً، وكل ممكن مستعدّ للرؤية، فالممكنات وإن لم تتناه فهي مرئية لله عزّ وجلّ لا من حيث نسبة العلم بل من نسبة أخرى تسمى رؤية كانت ما كانت، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [سورة العلق: الآية ١٤] ولم يقل هنا: ألم يعلم بأن الله يعلم، وقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [سورة القمر: الآية ١٤] أي بحيث نراها. وقال أيضاً لموسىٰ وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٤٦] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الرابع والعشرون.

(الجزء الخامس والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السابع والأربعون

في معرفة أسرار وصف المنازل السفلية ومقاماتها، وكيف يرتاح العارف عند ذكره بدايته فيحنّ إليها مع علوّ مقامه، وما السرّ الذي يتجلّى له حتى يدعوه إلى ذلك؟

[نظم: الطويل]

ولـمـا رأيـتُ الـحـقَّ بـالأول اتَّـصَـفْ ... أتـيـتُ إلـى بـحـر الـبـدايـة أَغْـتـرِفْ
بـلــذَّة ظـمــآن لأشــربَ شُــرْبَــةً ... فـيـشـهـدني في غـايـة الحـال أعتـرِفْ
فـيـا بـردَهـا مـن شُـربـة مُـسْـتَـلـذَّة ... عـلـى كَـبِـدٍ حـرَّاء فـاعـمـل لـهـا وقِـفْ
فـإن لـذاك الـشُّـرب فـي الـقـلـب لَـذَّةً ... ترى ربّها في الوقت بالعجب يتَّصِفْ
ولا يـحـجـبَـنْـهُ عُـجْـبُـه عـن شـهـوده ... ولا ما يـرى فيه من الزهـو والـصَّـلَـفْ
فـإن لـه فـيـمـن تـقـدّم أُسْـوَةً ... فـمـا خـلـف إلاّ ومـثـل لـهـا سَـلَـفْ
وراثـةُ مـخـتـار ونَـعْـتُ مـحـقِّـق ... بـأسـماءِ حقٍّ بـالـحـقـيـقـة مكْـتَـنَـفْ
وإن نـهـايـاتِ الـرجـال بـدايـةٌ ... لقوم أتوا من بعدهم ما لهم خَلَفْ
كـمـثـل رسـول الله فـي طَـوْره فـمـا ... لـه خَـلَـفٌ بـل عـنـده الأمـر قـد وقَـفْ

اعلم أن العالم لما كان أكريّ الشكل لهذا حنّ الإنسان في نهايته إلى بدايته، فكان خروجنا من العدم إلى الوجود به سبحانه وإليه نرجع كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة هود: الآية ١٢٣] وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨١] وقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٨] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٢] ألا

تراك إذا بدأت وضع دائرة فإنك عندما تبتدىء بها لا تزال تديرها إلى أن تنتهي إلى أولها وحينئذ تكون دائرة، ولو لم يكن الأمر كذلك لكنا إذا خرجنا من عنده خطاً مستقيماً لم نرجع إليه ولم يكن يصدق قوله وهو الصادق: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] وكل أمر وكل موجود فهو دائرة يعود إلى ما كان منه بدؤه، وأنّ الله تعالىٰ قد عيّن لكل موجود مرتبته في علمه. فمن الموجودات من خلقت في مراتبها ووقفت ولم تبرح فلم يكن لها بداية ولا نهاية بل يقال: وجدت فإن البدء ما تعقل حقيقته إلاّ بظهور ما يكون بعده مما ينتقل إليه وهذا ما انتقل، فعين بدئه هو عين وجوده لا غير، ومن الموجودات ما كان وجودها أولاً في مراتبها ثم نزل بها إلى عالم طبيعتها، وهي الأجسام المولدة من العناصر ولا كلها بل أجسام الثقلين، وأقام الله لها في تلك المرتبة المعينة لها التي أنزلت منها على غير علم منها بها داعياً يدعو كل شخص إليها، فلا يزال يرتقي بالأعمال الصالحة حتى يصل إليها أو يطلبها بالأعمال التي لا يرتضيها الحق، فداعي الحق إذا قام بقلب العبد إنما يدعوه من مقامه الذي تكون غايته إليه إذا سلك، ولما كان كل وارد ملذوذاً لذيذاً فإنه جديد غريب لطيف لهذا يحنّ إليه دائماً ومن ذلك حبّ الأوطان، قال ابن الروميّ: [الطويل]

وحبَّبَ أوطانَ الرجالِ إليهِمُو ... مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتْهُمُو ... عهودَ الصبى فيها فحنّوا لذلكا

ولما لم يتمكن للتائب أن يرد عليه وارد التوبة إلاّ حتى ينتبه من سنة الغفلة فيعرف ما هو فيه من الأعمال التي مآلها إلى هلاكه وعطبه، خاف ورأى أنه في أسر هواه وأنه مقتول بسيف أعماله القبيحة، فقال له حاجب الباب: قد رسم الملك أنك إذا أقلعت عن هذه المخالفات ورجعت إليه ووقفت عند حدوده ومراسمه أنه يعطيك الأمان من عقابه ويحسن إليك، ويكون من جملة إحسانه أن كلّ قبيح أتيته تردّ صورته حسنة ثم أعطاه التوقيع الإلهيّ فإذا فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [سورة الفرقان: ٦٨-٦٩ - ٧٠] ولما قرأ وحشي هذا التوقيع قال: ومن لي بأن أوفق إلى العمل الصالح الذي اشترطه علينا في التبديل؟ فجاء في الجواب توقيع آخر فيه مكتوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٨] فقال وحشيّ: ما أدري هل أنا ممّن شاء أن يغفر له أم لا؟ فجاء في الجواب توقيع ثالث فيه مكتوب: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٣] فلما قرأ وحشي هذا التوقيع قال الآن فأسلم.

رجعنا إلى التوقيع الأول فنقول: فلما قرأ هذا التوقيع الصادق الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] قال له حاجب

الباب وهو الشارع: إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فلما ورد عليه هذا الأمان عقيب ذلك الخوف الشديد وجد للأمان حلاوة ولذّة لم يكن يعرفها قبل ذلك، وقد قيل في ذلك أحلى من الأمن عند الخائف الوجل، فعندما يحصل له طعم هذه اللذة وشرع في الأعمال الصالحة وتطهر محله واستعدّ لمجالسة الملك فإنه يقول: أنا جليس من ذكرني وتقوّت معرفته به سبحانه وعلم ما يستحقه جلاله وعلم قدر من عصاه استحيا كلّ الحياء وذهبت لذته التي وجدها عند ورود وارد توبته عليه واطلع ورأى الحضرة الإلهية تطالبه بالأدب والشكر على ما أولاه من النعم، فيكثر همّه وغمّه وتنتفي لذاته، ولهذا ترى العلماء بالله لا يرون في نومهم ما يراه المريدون أصحاب البدايات من الأنوار، فإنّ المبتدىء يستحضر مستحسنات أعماله وأحواله فيرى نتائجها، والعالمون ينامون على رؤية تقصير وتفريط لما يستحقه الجناب العالي، فلا يرى في النوم إلاّ ما يهمهم من ظلمات ورعد وبرق وكل أمر مخوف فإن النوم تابع للحسّ.

ولما كانت النفس بطبعها تحبّ الأمور الملذوذة وقد فقدت لذة التوبة في حال معرفتها ونهايتها لذلك حنت إلى بدايتها من أجل ما اقترن بذلك الموطن من اللذة مع علوّ مقامه، ويكون هذا الحنان استراحة لهمّه وغمّه الذي أعطته معرفته بالله، فهو مثل الذي يلتذّ بالأمانيّ، فهذا سبب حنين أصحاب النهايات إلى بدايتهم.

وأمّا المنازل السفلية فهي ما تعطيه الأعمال البدنية من المقامات العلوية كالصلاة والجهاد والصوم وكلّ عمل حسيّ، وما تعطيه أيضاً الأعمال النفسية وهي الرياضات من تحمّل الأذى والصبر عليه والرضى بالقليل من ملذوذات النفوس والقناعة بالموجود وإن لم تكن به الكفاية وحبس النفس عن الشكوى، فإنّ كلّ عمل من هذه الأعمال الرياضية والمجاهدات له نتائج مخصوصة، ولكلّ عمل حال ومقام، وقد أبان عن بعض ذلك الشارع ليستدلّ بما ذكره على ما سكت عنه من حيث اختلاف النتائج لاختلاف الصفات، وتعريفاً بأن النوافل من كلّ عبادة مفروضة صفتها من صفة فريضتها ولهذا تكمل له منها إذا كانت فريضته ناقصة. ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ العَبْدِ الصَّلاَةُ فَيَقُولُ اللَّهُ: انظُروا فِي صَلاَةِ عَبْدِي أَتمَّها أَمْ نَقصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّة كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انتقصَ مِنهَا شَيْئاً قَالَ: انظُروا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطوعٌ قَالَ: أَكْمِلوا لِعَبْدِيَ فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطوُّعِهِ، ثُمَّ تُؤخَذُ الأَعْمَالُ عَلَى ذَاكم**».

وأمّا الحديث الآخر في صفات العبادات فإنه ورد في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «**الصلاَةُ نورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِياءٌ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُها**» فجعل النور للصلاة، والبرهان للصدقة وهي الزكاة، والضياء للصوم والحج وهو المعبر عنه بالصبر لما فيها من المشقة للجوع والعطش وما يتعلق بأفعال

الحج ، وجعل لا إله إلاَّ الله في خبر آخر لا يزنها شيء، ونوافل كل فريضة من هذه الفرائض من جنسها فصفتها كصفتها، ثم أدخل في قوله: كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها وهو الذي باعها من الله قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١١] أو موبقها وهو الذي اشترى ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧٥] فعمّ بقوله: (كل الناس يغدو فبائع نفسه) جميع أحكام الشريعة نافلتها وفريضتها ومباحها ومكروهها، فما من عبادة شرعها الله تعالىٰ لعباده إلاَّ وهي مرتبطة باسم إلهيّ أو حقيقة إلهية، من ذلك الاسم يعطيه في عبادته تلك ما يعطيه في الدنيا في قلبه من منازله وعلومه ومعارفه، وفي أحواله من كراماته وآياته، وفي آخرته في جناته في درجاته ورؤية خالقه في الكثيب في جنة عدن خاصة في مراتبه، وقد قال الله عزّ وجلّ في المصلي إنه يناجيه وهو نور فيناجيه الله تعالىٰ من اسمه النور لا من اسم آخر، فكما أنّ النور ينفر كل ظلمة كذلك الصلاة تقطع كل شغل، بخلاف سائر الأعمال فإنها لا تعم ترك كلّ ما سواها مثل الصلاة فلهذا كانت نوراً يبشره الله بذلك أنه إذا ناجاه من اسمه النور انفرد به وأزال كلّ كون بشهوده عند مناجاته، ثم شرعها في المناجاة سرّاً وجهراً ليجمع له فيها بين الذكرين: ذكر السرّ وهو الذكر في نفسه، وذكر العلانية وهو الذكر في الملأ، العبد في صلاته يذكر الله في ملأ الملائكة ومن حضر من الموجودات السامعين وهو ما يجهر به من القراءة في الصلاة، قال الله تعالىٰ في الخبر الثابت عنه: «**إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**» قد يريد بذلك الملائكة المقرّبين الكروبيين خاصة الذين اختصّهم لحضرته، فلهذا الفضل شرع لهم في الصلاة الجهر بالقراءة والسرّ، فكلّ عبد صلّى ولم تزل عنه صلاته كل شيء دونها فما صلّى وما هي نور في حقّه، وكل من أسرّ القراءة في نفسه ولم يشاهد ذكر الله له في نفسه فما أسرّ، فإنه وإن أسرّ في الظاهر وأحضر في نفسه ما أحضره من الأكوان من أهل وولد وأصحاب من عالم الدنيا وعالم الآخرة وأحضر الملائكة في خاطره فما أسرّ في قراءته ولا كان ممّن ذكر الله في نفسه لعدم المناسبة، فإنّ الله إذا ذكر العبد في نفسه لم يطلع أحد من المخلوقين على ما في نفس الباري من ذكره عبده، كذلك ينبغي أن يكون العبد فيما أسرّه، فإنه ما يناجي في صلاته إلاَّ ربّه في حال قراءته وتسبيحاته ودعائه، وكذلك إذا ذكره في ملأ في ظاهره وفي باطنه، فأما في ظاهره فبيّن، وأما في باطنه فما يحضر معه في نفسه من المخلوقين وهو ما يجهر به من القراءة في الصلاة والتسبيحات والدعاء.

ثم إنه ليس في العبادات ما يلحق العبد بمقامات المقرّبين وهو أعلى مقام أولياء الله من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن إلاَّ الصلاة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩]. فإنّ الله في هذه الحالة يباهي به المقرّبين من ملائكته وذلك أنه يقول لهم: يا ملائكتي أنا قرّبتكم ابتداء وجعلتكم من خواص ملائكتي، وهذا عبدي جعلت بينه وبين مقام القربة حجباً كثيرة وموانع عظيمة من أغراض نفسية وشهوات حسيّة وتدبير أهل ومال وولد وخدم وأصحاب وأهوال عظام فقطع كل ذلك وجاهد حتى سجد واقترب فكان من المقرّبين،

فانظروا ما خصصتكم به يا ملائكتي من شرف المقام حيث ما ابتليتكم بهذه الموانع ولا كلفتكم مشاقها، فاعرفوا قدر هذا العبد وراعوا له حق ما قاساه في طريقه من أجلي، فيقول الملائكة يا ربنا لو كنّا ممّن يتنعم بالجنان وتكون محلاً لإقامتنا ألست كنت تعيّن لنا فيه منازل تقتضيها أعمالنا، ربنا نحن نسألك أن تهبها لهذا العبد فيعطيه الله ما سألته فيه الملائكة، فانظروا ما أشرف الصلاة وأفضل ما فيها ذكر الله من الأقوال والسجود من الأفعال، ومن أقوالها: سمع الله لمن حمده فإنه من أفضل أحوال العبد في الصلاة للنيابة عن الحق، فإنّ الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] الظاهر للتحريم والتحليل الذي فيها ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٥] يعني فيها من أفعالها.

وينبغي للمحقق أنه لا يذكر الله إلاّ بالأذكار الواردة في القرآن حتى يكون في ذكره تالياً، فيجمع بين الذكر والتلاوة معاً في لفظ واحد فيحصل على أجر التالين والذاكرين أعني الفضيلة، فيكون فتحه في ذلك من ذلك القبيل، وعلمه، وسرّه، وحاله، ومقامه، ومنزله، وإذا ذكره من غير أن يقصد الذكر الوارد في القرآن فهو ذاكر لا غير، فينقصه من الفضيلة على قدر ما نقصه من القصد ولو كان ذلك الذكر من القرآن غير أنه لم يقصده، وقد ثبت أن الأعمال بالنيّات وإنما لامرىء ما نوى، فينبغي لك إذا قلت: لا إله إلاّ الله أن تقصد بذلك التهليل الوارد في القرآن مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] وكذلك التسبيح والتكبير والتحميد، وأنت تعلم أنّ أنفاس الإنسان نفيسة والنفس إذا مضى لا يعود، فينبغي لك أن تخرجه في الأنفس والأعز، فهذا قد نبهتك على نسبة النورية من الصلاة، وأما اقتران البرهان بالصدقة فهو أن الله تعالىٰ جبل الإنسان على الشحّ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ١٩] يعني في أصل نشأته ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآيتان ٢٠ ـ ٢١] وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الحشر: الآية ٩] فنسب الشحّ لنفس الإنسان، وأصل ذلك أنه استفاد وجوده من الله، ففطر على الاستفادة لا على الإفادة، فما تعطي حقيقته أن يتصدّق، فإذا تصدّق كانت صدقته برهاناً، على أنه قد وقي شحّ نفسه الذي جبله الله عليه فلذلك قال: الصدقة برهان.

ولما كانت الشمس ضياء يكشف به كل ما تنبسط عليه لمن كان له بصر، فإنّ الكشف إنما يكون بضياء النور لا بالنور، فإن النور ما له سوى تنفير الظلمة وبالضياء يقع الكشف، وأن النور حجاب كما هي الظلمة حجاب، قال رسول الله ﷺ في حق ربّه تعالىٰ: «**حِجَابُهُ النُورُ**». وقال: «**إِنَّ للَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ أَوْ سَبْعِينَ أَلْفاً**». وقيل له ﷺ: «أَرَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقال ﷺ: «**نُورٌ أَنّى أَرَاهُ**». فجعل الصبر الذي هو الضوء والحج ضياء، أي يكشف به إذا كنت متلبساً به ما تعطيه حقيقة الضوء من إدراك الأشياء، قال رسول الله ﷺ عن ربّه تعالىٰ إنه قال: «**كُلُ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إلاّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا**

أجزي به». وقال ﷺ لرجل: «**عَلَيكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ مِثْلَ لَهُ**». وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فالصوم صفة صمدانية وهو التنزّه عن التغذي وحقيقة المخلوق التغذي، فما أراد العبد أن يتصف بما ليس من حقيقته أن يتصف به وكان اتصافه به شرعاً لقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٣] قال الله له: الصوم لي لا لك أي أنا هو الذي لا ينبغي لي أن أطعم وأشرب، وإذا كان بهذه المثابة وكان سبب دخولك فيه كوني شرعته لك فأنا أجزي به، كأنه يقول: وأنا جزاؤه لأن صفة التنزّه عن الطعام والشراب تطلبني وقد تلبست بها وما هي حقيقتك وما هي لك وأنت متصف بها في حال صومك فهي تدخلك عليّ فإن الصبر حبس النفس وقد حبستها بأمري عمّا تعطيه حقيقتها من الطعام والشراب فلهذا قال: «**لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ**» وتلك الفرحة لروحه الحيوانيّ لا غير، «**وَفَرْحَة عِندَ لِقَاء رَبّه**» وتلكَ الفرحة لنفسه الناطقة أي لطيفته الربانية، فأورثه الصوم لقاء الله وهو المشاهدة، فكان الصوم أتمّ من الصلاة لأنه أنتج لقاء الله ومشاهدته.

والصلاة مناجاة لا مشاهدة والحجاب يصحبها فإنّ الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١]. وكذلك: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤]، ولذلك طلب الرؤية، فقرن الكلام بالحجاب، والمناجاة مكالمة يقول الله: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل. يقول العبد: الحمد لله ربّ العالمين، يقول الله: حمدني عبدي**». والصوم لا ينقسم فهو لله لا للعبد بل للعبد أجره من حيث ما هو لله، وهنا سرّ شريف فقلنا: إن المشاهدة والمناجاة لا يجتمعان فإن المشاهدة للبهت والكلام للفهم، فأنت في حال الكلام مع ما يتكلم به لا مع المتكلم أيّ شيء كان فافهم القرآن تفهم الفرقان، فبهذا قد حصل لك الفرق بين الصلاة والصوم والصدقة. وأمّا قولنا: إنّ الله جزاء الصائم للقائه ربّه في الفرح به الذي قرنه به فسّر ذلك في قوله في سورة يوسف: ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٥].

وأمّا الحج فلما فيه من الصبر وهو حبس الإنسان نفسه عن النكاح ولبس المخيط والصفرة كما حبس الإنسان نفسه عن الطعام في الصوم والشراب والنكاح، ولما لم يعم الحج مسك الإنسان نفسه عن الطعام والشراب إلاّ عن النكاح والغيبة لذلك تأخّر في القواعد التي بني الإسلام عليها فكان حكمه حكم للصائم، والمصلي حال صومه وصلاته في التنزّه عن مباشرة السكن وذلك التنزّه، يقول الله: هو لي لا لك حيث كان. ولما كان النكاح سبباً لظهور المولدات من ذلك أعطاه الله إذ تركه من أجله بدله: كن، في الآخرة ولأوليائه في الدنيا بسم الله لمن أراد الله أن يظهر على يده أثراً فيقول العبد في الآخرة للشيء يريده: كنْ فيكون ذلك الشيء، وليس قوله إلاّ من كونه حاجاً أو صائماً، ولهذا شرك بين الحج والصوم في لفظة الصبر فقال: والصبر ضياء هذا وإن لم يكن فيه صوم

واجب، فإن ترك الطعام فيه لشغله بالدعاء في ذلك اليوم من الظهر وهو السنة في ذلك اليوم في ذلك الموضع للحاج خاصة فالمشتغل فيه لا شك أن الجوع جوع العادة يلزمه، والطائفة تسمّي الجوع في الموتات الأربعة: الموت الأبيض وهو مناسب للضياء فإنّ لأهل الله أربع موتات: موت أبيض وهو الجوع، وموت أحمر وهو مخالفة النفس في هواها، وموت أخضر وهو طرح الرقاع في اللباس بعضها على بعض، وموت أسود وهو تحمّل أذى الخلق بل مطلق الأذى. وإنّما سمّيت لبس المرقعات موتاً أخضر لأن حالته حالة الأرض في اختلاف النبات فيه والأزهار فأشبه اختلاف الرقاع. وأما الموت الأسود لاحتمال الأذى فإن في ذلك غمّ النفس والغمّ ظلمة النفس والظلمة تشبه في الألوان السواد. والموت الأحمر مخالفة النفس شبيه بحمرة الدم فإنه من خالف هواه فقد ذبح نفسه، وسيأتي إن شاء الله في هذا الكتاب أبواب مفردات في شهادة التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وهي قواعد الإسلام التي بني عليها، ومن أراد أن يعرف من أسرار الصلاة شيئاً وما تنتج كل صلاة من المعارف ومالها من الأرواح النبوية والحركات الفلكية فلينظر في كتابنا المسمّى بالتنزلات الموصلية وهذا القدر في هذا الباب كاف في المقصود، ولنذكر بعض أسرار من المعارف كما ترجمنا عليه بطريق الإيجاز.

فصل، بل وصل ـ سرّ إلهيّ:

قالت الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤] وهكذا كل موجود ما عدا الثقلين، وإن كان الثقلان أيضاً مخلوقين في مقامهما، غير أن الثقلين لهما في علم الله مقامات معينة مقدّرة عنده غيّبت عنهما إليها ينتهي كل شخص منهما بانتهاء أنفاسه، فآخر نفس هو مقامه المعلوم الذي يموت عليه ولهذا دعوا إلى السلوك، فسلكوا علواً بإجابة الدعوة المشروعة، وسفلاً بإجابة الأمر الإراديّ من حيث لا يعلمون إلاّ بعد وقوع المراد، فكلّ شخص من الثقلين ينتهي في سلوكه إلى المقام المعلوم الذي خلق له ومنهم شقي وسعيد، وكل موجود سواهما فمخلوق في مقامه فلم ينزل عنه فلم يؤمر بسلوك إليه لأنه فيه من ملك وحيوان ونبات ومعدن، فهو سعيد عند الله لا شقاء يناله، فقد دخل الثقلان في قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ عند الله، ولا يتمكن لمخلوق من العالم أن يكون له علم بمقامه إلاّ بتعريف إلهيّ لا بكونه فيه، فإن كل ما سوّى الله ممكن، ومن شأن الممكن أن لا يقبل مقاماً معيناً لذاته وإنما ذلك لمرجحه بحسب ما سبق في علمه به.

والمعلوم هو الذي أعطاه العلم به ولا يعلم هو ما يكون عليه، وهذا هو سرّ القدر المتحكم في الخلق، إذ كان علم المرجح لا يقبل التغيير لاستحالة عدم القديم وعلمه بتعيين المقامات قديم فلذلك لا ينعدم، وهذه المسألة من أغمض المسائل العقلية، وممّا يدلّك على أن علمه سبحانه بالأشياء ليس زائداً على ذاته بل ذاته هي المتعلقة من كونها علماً بالمعلومات

على ما هي المعلومات عليه خلافاً لبعض النظار فإن ذلك يؤدّي إلى نقص الذات عن درجة الكمال، ويؤدّي إلى أن تكون الذات قد حكم عليها أمر زائد أوجب لها ذلك الزائد حكماً يقتضيه ويبطل كون الذات تفعل ما تشاء وتختار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦] فتحقق هذه المسألة وتفرّغ إليها فإنها غامضة جداً في مسائل الحيرة لا يهتدي إليها عقل على الحقيقة من حيث فكره بل بكشف إلهيّ نبويّ.

ثم نرجع ونقول: إن جماعة من أصحابنا غلطت في هذه المسألة لعدم الكشف فقالت بطريق القوّة والفكر الفاسد: إن الكامل من بني آدم أفضل من الملائكة عند الله مطلقاً، ولم تقيد صنفاً ولا مرتبة من المراتب التي تقع عليها الفضلية لمن هو فيها على غيره، ثم علّلت فقالت: إن لبني آدم الترّقي مع الأنفاس وليس للملائكة هذا فإنها خلقت في مقامها، وما علمت الجماعة القائلة بهذا هذه الحقيقة التي نبّهنا عليها، والصحيح الترّقي أن لنا وللملائكة ولغيرهم وهو لازم للكل دنيا وبرزخاً وآخرة، هذا لكل متصف بالموت في العلم، ألا ترى الملائكة مع كونها لها مقامات معلومة لا تتعداها وما حرمت مزيد العلم فإن الله قد عرفنا أنه علّمهم الأسماء على لسان آدم عليه السلام، فزادهم علماً إلهياً لم يكن عندهم بالأسماء الإلهية، فسبحوه وقدّسوه بها، فساوتنا الملائكة في الترّقي بالعلم لا بالعمل كما لا نترقّى نحن بأعمال الآخرة لزوال التكليف، فنحن وإياهم على السواء في ذلك في الآخرة، فما ارتقينا نحن في الدنيا إلى المقام الذي قبضنا عليه وهو المقام الذي خلق فيه غيرنا ابتداء لشرفنا على غيرنا وإنما كان ذلك ليبلونا لا غير، فلم يفهم القائلون بذلك ما أراده الله مع وجود النصوص في القرآن مثل قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة هود: الآية ٧] ولا يقال كونهم خلقوا على الصورة أدّى إلى ذلك الابتلاء، فإن الجان شاركونا في هذه المرتبة وليس لهم حظّ في الصورة فاعلم والله الموفق.

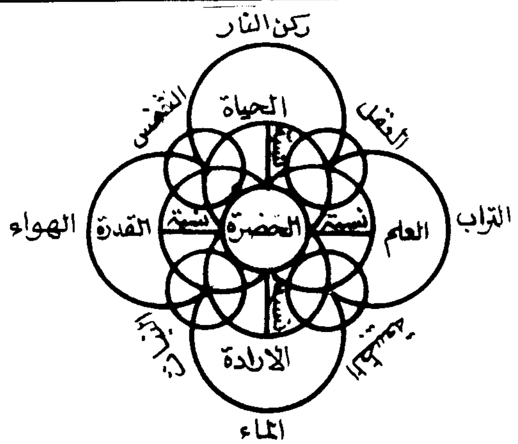
وصل ـ سرّ إلهيّ:

نهاية الدائرة مجاورة لبدايتها وهي تطلب النقطة لذاتها والنقطة لا تطلبها، فصحّ نهاية أهل الترقّي من العالم، وصحّ افتقار العالم إلى الله وغنى الله عن العالم، وتبيّن أنه كل جزء من العالم يمكن أن يكون سبباً في وجود عالم آخر مثله لا أكمل منه إلى ما لا يتناهى، فإن محيط الدائرة نقط متجاورة في أحياز متجاورة ليس بين حيّزين حيّز ثالث، ولا بين النقطتين المفروضتين أو الموجودتين فيهما نقطة ثالثة لأنه لا حيّز بينهما، فكل نقطة يمكن أن يكوّن عنها محيط، وذلك المحيط الآخر حكمه حكم المحيط الأول إلى ما لا نهاية له، والنهاية في العالم حاصلة، والغاية من العالم غير حاصلة، فلا تزال الآخرة دائمة التكوين عن العالم، فإنهم يقولون في الجنان للشيء يريدونه: كن فيكون، فلا يتوهمون أمراً ما ولا يخطر لهم خاطر في تكوين أمر ما إلاّ ويتكوّن بين أيديهم، وكذلك أهل النار لا يخطر لهم خاطر خوف من عذاب أكبر ممّا هم فيه إلاّ تكوّن فيهم، أو لهم ذلك العذاب وهو عين حصول الخاطر،

فإن الدار الآخرة تقتضي تكوين العالم عن العالم لكن حسّاً وبمجرد حصول الخاطر والهم والإرادة والتمني والشهوة كل ذلك محسوس وليس ذلك في الدنيا أعني من الفعل بالهمة لكل أحد، وقد كان ذلك في الدنيا لغير الوليّ كصاحب العين والغرانية بإفريقية، ولكن ما يكون بسرعة تكوين الشيء بالهمة في الدار الآخرة، وهذا في الدار الدنيا نادر شاذ كقضيب البان وغيره، وهو في الدار الآخرة للجميع، فصدق قول الإمام أبي حامد: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم لأنه ليس أكمل من الصورة التي خلق عليها الإنسان الكامل، فلو كان لكان في العالم ما هو أكمل من الصورة التي هي الحضرة الإلهية.

وصل ـ سرّ إلهيّ:

كل خط يخرج من النقطة إلى المحيط مساوٍ لصاحبه وينتهي إلى نقطة من المحيط، والنقطة في ذاتها ما تعددت ولا تزيدت مع كثرة الخطوط الخارجة منها إلى المحيط وهي تقابل كل نقطة من المحيط بذاتها، إذ لو كان ما تقابل به نقطة من المحيط غير ما تقابل به نقطة أخرى لانقسمت ولم يصحّ أن تكون واحدة وهي واحدة، فما قابلت النقط كلها على كثرتها إلاّ بذاتها، فقد ظهرت الكثرة عن الواحد العين ولم يتكثر هو في ذاته، فبطل قول من قال: إنه لا يصدر عن الواحد إلاّ واحد، فذلك الخط الخارج من النقطة إلى النقطة الواحدة من المحيط هو الوجه الحاصل الذي لكل موجود من خالقه سبحانه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠]. فالإرادة هنا هو ذلك الخط الذي فرضناه خارجاً من نقطة الدائرة إلى المحيط، وهو التوجّه الإلهيّ الذي عيّن تلك النقطة في المحيط بالإيجاد، لأن ذلك المحيط هو عين دائرة الممكنات، والنقطة التي في الوسط المعينة لنقطة الدائرة المحيطة هي الواجب الوجود لنفسه، وتلك الدائرة المفروضة دائرة أجناس الممكنات وهي محصورة في جوهر متحيّز وجوهر غير متحيّز، وأكوان وألوان، والذي لا ينحصر وجود الأنواع والأشخاص وهو ما يحدث من كل نقطة من كل دائرة من الدوائر فإنه يحدث فيها دوائر الأنواع، وعن دوائر الأنواع دوائر أنواع وأشخاص فاعلم ذلك، والأصل النقطة الأولى لهذا كله، وذلك الخط المتصل من النقطة إلى النقطة المعينة من محيطها يمتد منها إلى ما يتولد عنها من النقط في نصف الدائرة الخارجة عنها، وعن ذلك النصف تخرج دوائر كاملة، وعلّة ذلك الامتياز بين الواجب الوجود لنفسه وبين الممكن، فلا يتمكن أن يظهر عن الممكن الذي هو دائرة الأجناس دائرة كاملة فإنها كانت تدخل بالمشاركة فيما وقع به الامتياز وذلك محال، فتكوين دائرة كاملة من الأجناس محال ليتبين نقص الممكن عن كمال الواجب الوجود لنفسه، وصورة الأمر فيها هكذا صورة شكل الأجناس والأنواع من غير قصد للحصر، إذ للأنواع أنواع حتى ينتهي إلى النوع الأخير كما ينتهي إلى جنس الأجناس:



واعلم أن لنفوس الثقلين ونفوس الحيوان قوّتين: قوّة علمية وقوّة عملية عند أهل الكشف، وقد ظهر ذلك في العموم من الحيوان كالنحل والعناكب والطيور التي تتخذ الأوكار وغيرهم من الحيوانات، ولنفوس الثقلين دون سائر الحيوان قوّة ثالثة ليست للحيوان ولا للنفس الكلية وهي القوّة المفكرة، فيكتسب بعض العلوم من الفكر هذا النوع الإنسانيّ، ويشارك سائر العالم في أخذ العلوم من الفيض الإلهيّ وبعض علومها كالحيوان بالفطرة، كتلقي الطفل ثدي أمّه للرّضاعة وقبوله للبن، وليس لغير الإنسان اكتساب علوم تبقى معه من طريق فكر، فالفكر من الإنسان بمنزلة الحقيقة الإلهية المنصوص عليها بقوله تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] وقوله تعالىٰ في الخبر الصحيح عنه: «**مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ**». وليس للعقل الأول هذه الحقيقة ولا للنفس الكلية، فهذا أيضاً مما اختصّ به الإنسان من الصورة التي لم يخلق غيره عليها، ونحن نعلم أن الإنسان الكامل موجود على الصورة، ونحن نقطع أنه ما أوجد الله غير الإنسان على ذلك، فإنه ما ورد وقوع ذلك ولا عدم وقوعه لا على لسان نبيّ ولا في كتاب منزل، وإن غلط في ذلك جماعة فإنهم لم يستندوا فيه إلى تعريف إلهيّ وإنما يحتجون بالخبر، وليس في الخبر ما يدل على أنّ غير الإنسان الكامل ما خلق على الصورة ويمكن صحة ذلك ويمكن عدم صحته.

وصل ـ سرّ إلهيّ:

الطبيعة بين النفس والهباء. وهو رأي الإمام أبي حامد، ولا يمكن أن تكون مرتبتها إلاّ هنالك، فكل جسم قبل الهباء إلى آخر موجود من الأجسام فهو طبيعيّ، وكل ما تولد من الأجسام الطبيعية من الأمور والقوىٰ والأرواح الجزئية والملائكة والأنوار فللطبيعة فيها حكم إلهيّ قد جعله الله تعالىٰ وقدّره، فحكم الطبيعة من الهباء إلى ما دونه، وحكم النفس الكلية من الطبيعة فما دونها وما فوق النفس، فلا حكم للطبيعة ولا للنفس فيه، وفيما ذكرناه خلاف كثير بين أصحاب النظر من غير طريقنا من الحكماء، فإن المتكلم لا حظّ له في هذا العلم من كونه متكلماً بخلاف الحكيم، فإن الحكيم عبارة عمّن جمع العلم الإلهيّ والطبيعيّ والرياضيّ والمنطقيّ، وما ثم إلاّ هذه الأربع المراتب من العلوم، وتختلف الطريق في تحصيلها بين الفكر والوهب وهو الفيض الإلهيّ، وعليه طريقة أصحابنا ليس لهم في الفكر دخول لما

يتطرّق إليه من الفساد والصحة فيه مظنونة فلا يوثق بما يعطيه، وأعني بأصحابنا أصحاب القلوب والمشاهدات والمكاشفات، لا العباد ولا الزهاد ولا مطلق الصوفية إلاّ أهل الحقائق والتحقيق منهم، ولهذا يقال في علوم النبوّة والولاية أنها وراء طور العقل ليس للعقل فيها دخول بفكر، لكن له القبول خاصة عند السليم العقل الذي لم يغلب عليه شبهة خيالية فكرية يكون من ذلك فساد نظره وعلوم الأسرار كثيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون

في معرفة إنما كان كذا لكذا وهو إثبات العلة والسبب

[نظم: الخفيف]

إنــمــا كــان هــكــذا لــكــذا ... عِــلْــمُ مــن حــاز رُتْــبَــةَ الــحِــكَــم

لا تــعــلِّــلْ وجــودَ خــالــقــنــا ... فــيــكُــنْ سَــيْــركــم إلــى الــعَــدَمِ

وهــو الأولُ الــذي مــا لــه ... أولٌ فــي الــحــدوث والــقِــدَمِ

أوّلُ مسألة من هذا الباب: ما السبب الموجب لوجود العالم حتى يقال فيه: إنما وجد العالم لكذا، وذلك الأمر المتوقف عليه صحة وجوده، إمّا أن تكون علة فتطلب معلولها لذاتها، وإذا كان هذا فهل يصحّ أن يكون للمعلول علتان فما زاد أو لا يصحّ؟ وذلك في النظر العقلي لا في الوضعيات، وإذا تعدّدت العلل فهل تعدّدها يرجع إلى أعيان وجودية؟ أو هل هي نسب لأمر واحد؟ وثم أمور يتوقف صحة وجودها على شرط يتقدّمها أو شروط، ويجمع ذلك كله اسم السبب، وللشرط حكم وللعلة حكم، فهل العالم في افتقاره إلى السبب الموجب لوجوده افتقار المعلول إلى العلة؟ أو افتقار المشروط إلى الشرط؟ وأيهما كان لم يكن الآخر، فإن العلة تطلب المعلول لذاتها والشرط لا يطلب المشروط لذاته، فالعلم مشروط بالحياة، ولا يلزم من وجود الحياة وجود العلم، وليس كون العالم عالماً كذلك، فإن العلم علة في كون العالم عالماً، فلو ارتفع العلم ارتفع كونه عالماً فهو من هذا الوجه يشبه الشرط، إذ لو ارتفعت الحياة ارتفع العلم، ولو ارتفع كونه عالماً ارتفع العلم فتميز عن الشرط، إذ لو ارتفع العلم لم يلزم ارتفاع الحياة، فهاتان مرتبتان معقولتان قد تميزتا تسمّى الواحدة علة وتسمّى الأخرى شرطاً.

فهل نسبة العالم في وجوده إلى الحق نسبة المعلول أو نسبة المشروط؟ محال أن تكون نسبة المشروط على المذهبين، فإنا لا نقول في المشروط يكون ولا بدّ، وإنما نقول: إذا كان فلا بدّ من وجود شرطه المصحّح لوجوده، ونقول في العالم على مذهب المتكلم الأشعري أنه لا بدّ من كونه لأن العلم سبق بكونه ومحال وقوع خلاف المعلوم، وهذا لا يقال في المشروط، وعلى مذهب المخالف وهم الحكماء فلا بدّ من كونه لأنّ الله اقتضى وجود العالم لذاته، فلا بدّ من كونه ما دام موصوفاً بذاته بخلاف الشرط، فلا فرق إذن بين المتكلم

الأشعري والحكيم في وجوب وجود العالم بالغير، فلنسمِّ تعلق العلم بكون العالم أزلاً علة، كما يسمّي الحكيم الذات علة ولا فرق، ولا يلزم مساوقة المعلول علته في جميع المراتب، فالعلة متقدمة على معلولها بالمرتبة بلا شك، سواء كان ذلك سبق العلم أو ذات الحق، ولا يعقل بين الواجب الوجود لنفسه وبين الممكن بون زماني ولا تقدير زماني، لأن كلامنا في أول موجود ممكن والزمان من جملة الممكنات، فإن كان أمراً وجودياً فالحكم فيه كسائر الحكم في الممكنات، وإن لم يكن أمراً وجودياً وكان نسبة فحدثت النسبة بحدوث الموجود المعلول حدوثاً عقلياً لا حدوثاً وجودياً، وإذا لم يعقل بين الحق والخلق بون زماني فلم يبق إلاّ الرتبة، فلا يصحّ أن يكون أبداً الخلق في رتبة الحق، كما لا يصحّ أن يكون المعلول في رتبة العلة من حيث ما هو معلول عنها، فالذي هرب منه المتكلم في زعمه وشنع به على الحكيم القائل بالعلة يلزمه في سبق العلم بكون المعلوم لأن سبق العلم يطلب كون المعلوم لذاته، ولا بدّ ولا يعقل بينهما بون مقدر، فهذا قد نبّهناك على بعض ما ينبغي في هذه المسألة فالعالم لم يبرح في رتبة إمكانه سواء كان معدوماً أو موجوداً، والحق تعالىٰ لم يبرح في مرتبة وجوب وجوده لنفسه سواء كان العالم أو لم يكن، فلو دخل العالم في الوجوب النفسي لزم قدم العالم ومساوقته في هذه الرتبة لواجب الوجود لنفسه وهو الله ولم يدخل بل بقي على إمكانه وافتقاره إلى موجده وسببه وهو الله تعالىٰ، فلم يبق معقول البينية بين الحق والخلق إلاّ التمييز بالصفة النفسية فبهذا نفرق بين الحق والخلق فافهم.

وأمّا قولنا: هل يكون في العقل للأمر المعلول علتان؟ فلا يصحّ أن يكون للمعلول العقلي علتان، بل إن كان معلولاً فعن علة واحدة لأنه لا فائدة للعلة إلاّ أن يكون لها أثر في المعلول. وأمّا إن اتفق أن يكون من شرط المعلول أن يكون على صفة بها يقبل أن يكون معلولاً لهذه العلة ولا يمكن أن يكون هذا علة لذلك المعلول نفسه، إلاّ أن يكون ذلك المعلول بتلك الصفة النفسية فلا بدّ منها، ولا يلزم من هذا أن تكون تلك الصفة النفسية علة له فإنها صفة نفسية والشيء لا يكون علة لنفسه فإنه يؤدي إلى أن تكون العلة عين المعلول فيكون الشيء متقدماً على نفسه بالرتبة وهذا محال، فكون الشيء علة لنفسه محال، فإن العالم لو لم يكن في نفسه على صفة يقبل الاتصاف بالوجود والعدم على السواء لم يصحّ أن يكون معلولاً لعلته المرجحة له أحد الجائزين بالنظر إلى نفسه، فإنّ المحال لا يقبل صفة الإيجاد فلا يكون الحق علة له، فبطل أن يكون كونه ممكناً علة له، وبطل أن يكون للشيء علتان، فإنّ الأثر للعلة في المعلول إنما كان وجوده، فما حكم العلة الأخرى فيه؟ إن كان وجوده فقد حصل من إحداهما فلم يبق للآخر أثر، فإن قيل باجتماعهما كان المعلول عن ذلك الاجتماع فكان عنهما. قلنا: فكل واحد منهما إذا انفرد لا يكون علة ولا يصحّ عليه اسم العلية وقد صحّ، فبطل أن يكونه كونه علة متوقفاً على أمر آخر، فإن قال: وما المانع أن تكون العلة بالاجتماع؟ قلنا: إنما يكون الشيء علة لنفسه لهذا المعلول عنه لا لغيره فيكون معلولاً لذلك الغير لأن

ذلك الغير كسبه العلية وكل مكتسب لا يكون صفة نفسية، ولو قلنا باجتماعهما كان علة، فلا يخلو ذلك الاجتماع أن يكون أمراً زائداً على نفس كل واحد منهما أو هو عينهما لا جائز أن يكون عينهما فإنا نعقل عين كل واحد منهما ولا اجتماع، فلا بدّ أن يكون زائداً فذلك الزائد لا بدّ أن يكون وجوداً أو عدماً، لا وجوداً ولا عدماً، أو وجوداً و عدماً معاً، فهذا القسم الرابع محال بالبديهة، ومحال أن يكون وجوداً للتسلسل اللازم له بما يلزمه من ملزومه أو الدور فيكون علة لمن هو معلول له وهذا محال، ومحال أن يكون عدماً لأن العدم نفي محض ولا يتصف النفي المحض بالأثر، ومحال أن يكون لا وجود ولا عدم كالنسب إذ لا حقيقة للنسب في الوجود فإنها أمور إضافية تحدث ولا يكون ما يحدث علة لما هو عنه حادث فبطل أن يكون للشيء علتان في العقل.

وأما في الوضعيات فقد يعتبر الشرع أموراً تكون بالمجموع سبباً في ترتيب الحكم هذا لا يمنع، فإذ وقد علمت هذا فهو أدلّ دليل على توحيد الله تعالىٰ كونه علة في وجود العالم، غير أن إطلاق هذا اللفظ عليه لم يرد به الشرع فلا نطلقه عليه ولا ندعوه به، فهذا توحيد ذاتيّ ينتفي معه الشريك بلا شك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢] ومعنى هذا لم يوجدا، يعني العالم العلويّ وهو السماء، والسفليّ وهو الأرض، فحقق هذه المسألة في ذهنك فإنها نافعة في نفي الشريك ونفي التحديد عن الله تعالىٰ، فلا حدّ لذاته ولا شريك له في ملكه لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم. [مجزوء الخفيف]

إنــــمــــا عــــلَّــــلــــوا الــــذي	عَــــلَّــــلــــوهُ لــــكَــــوْنِــــهِ
هــــو مــــعــــلــــولُ عِــــلْــــمِــــه	لــــيــــس مــــعــــلــــولَ عَــــيْــــنِــــهِ
فــــانــــظــــروا مــــا نَــــصَــــصْــــتُــــه	فــــهــــو مــــن ســــرٍّ بَــــيْــــنِــــهِ
فُــــصِــــلَ الأمــــرُ نــــفــــسُــــه	عــــن ســــواه بــــبَــــيْــــنِــــهِ
فــــيَّ ســــرٌّ مــــحــــقَّــــقٌ	أنــــنــــي ســــرُّ عَــــوْنِــــهِ
فــــلــــبِــــسْــــتُ الــــرداءَ مــــن	طــــلــــبــــي عَــــيْــــنَ صَــــوْنِــــهِ

مسألة أخرى: إنما كان كذا لكذا، إنما انقسم العالم إلى شقيّ وسعيد للأسماء الإلهية، فإن الرتبة الإلهية تطلب لذاتها أن يكون في العالم بلاء وعافية، ولا يلزم من ذلك دوام شيء من ذلك إلاَّ أن يشاء الله فقد كان ولا عالم وهو مسمّى بهذه الأسماء، فالأمر في هذا مثل الشرط والمشروط ما هو مثل العلة والمعلول، فلا يصحّ المشروط ما لم يصحّ وجود الشرط وقد يكون الشرط وإن لم يقع المشروط، فلما رأينا البلاء والعافية قلنا: لا بدّ لهما من شرط وهو كون الحق إلهاً يسمّى بالمبلي والمعذب والمنعم، وكما أن كل ممكن قابل لأحد الحكمين أعني الضدّين هو قابل أيضاً لانتفاء أحد الضدّين، فالعالم كله ممكن، فجائز أن ينتفي عنه أحد الحكمين، فلا يلزم الخلود في الدار الآخرة في العذاب ولا في النعيم بل ذلك

كله ممكن، فإن ورد الخبر الإلهيّ الذي يفيد العلم بالنص الذي لا يحتمل التأويل بخلود العالم في أحد الحكمين أو بوقوع كل حكم في جزء من العالم معين وخلود ذلك الجزء فيه إلى ما لا يتناهى قبلناه وقلنا به، وما ورد من الشارع أن العالم الذي هو في جهنم الذين هم أهلها ولا يخرجون منها أن بقاءهم فيها لوجود العذاب، فكما ارتفع حكم العذاب عن ممكن ما وهم أهل الجنة، كذلك يجوز أن يرتفع عن أهل النار وجود العذاب مع كونهم في النار لقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٧]. وقال: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**» ولا يلزم من وجود الشرط وجود المشروط فيكون الله إلهاً بجميع أسمائه ولا عذاب في العالم ولا ألم، لأنه ليس ارتفاعه عن ممكن ما بأولى من ارتفاعه عن جميع الممكنات، فلم يبق بأيدينا من طريق العقل دليل على وجود العذاب دائماً ولا غيره، فليس إلاّ النصوص المتواترة أو الكشف الذي لا يدخله شبهة، فليس للعقل ردّه إذا ورد من الصادق النص الصريح أو الكشف الواضح.

مسألة أخرى من هذا الباب: إنما صحّت الصورة لآدم لخلقه باليدين فاجتمع فيه حقائق العالم بأسره والعالم يطلب الأسماء الإلهية فقد اجتمع فيه الأسماء الإلهية، ولهذا خصّ آدم عليه السلام بعلم الأسماء كلها التي لها توجّه إلى العالم، ولم يكن ذلك العلم أعطاه الله للملائكة وهم العالم الأعلى الأشرف، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ولم يقل بعضها، وقال: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ٣١] ولم يقل عرضها، فدلّ على أنه عرض المسمين لا الأسماء. وقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسألُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرتَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيبِكَ**». فإن كان هذا الدعاء دعاء به قبل نزول سورة البقرة عليه فلا معارضة بين الخبر والآية عند من يقول: بأن الأسماء هنا هي الأسماء الإلهية، فإنه ﷺ لم يكن له علم بما خصّ الله به آدم على الملائكة كما قال ﷺ: «**مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتبعُ إِلاَّ مَا يُوحَى بِهِ إِلَيَّ**» وإن كان دعا به بعد نزول سورة البقرة، فيكون يريد قوله كلها الأسماء الإلهية التي تطلب الآثار في العالم وما تعبد به من أسماء التنزيه والتقديس، وكذلك قوله ﷺ في حديث الشفاعة: «**فَأَحْمدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يُعَلِّمُنِيها اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهَا الآن**» مع قوله في حديث الضربة: «**فَعَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ**» ومن علّم الأولين علّم الأسماء التي علّمها الله آدم، وربما يكون من علم الآخرين علم هذه المحامد التي يحمد بها ربّه يوم القيامة.

مسألة أخرى من هذا الباب: إنما كانت الخلافة لآدم عليه السلام دون غيره من أجناس العالم لكون الله تعالىٰ خلقه على صورته، فالخليفة لا بدّ أن يظهر فيما استخلف عليه بصورة مستخلفه وإلاّ فليس بخليفة له فيهم، فأعطاه الأمر والنهي وسمّاه بالخليفة، وجعل البيعة له بالسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر، وأمر الله سبحانه عباده بالطاعة لله ولرسوله والطاعة لأولي الأمر منهم، فجمع رسول الله ﷺ بين الرسالة والخلافة كداود عليه

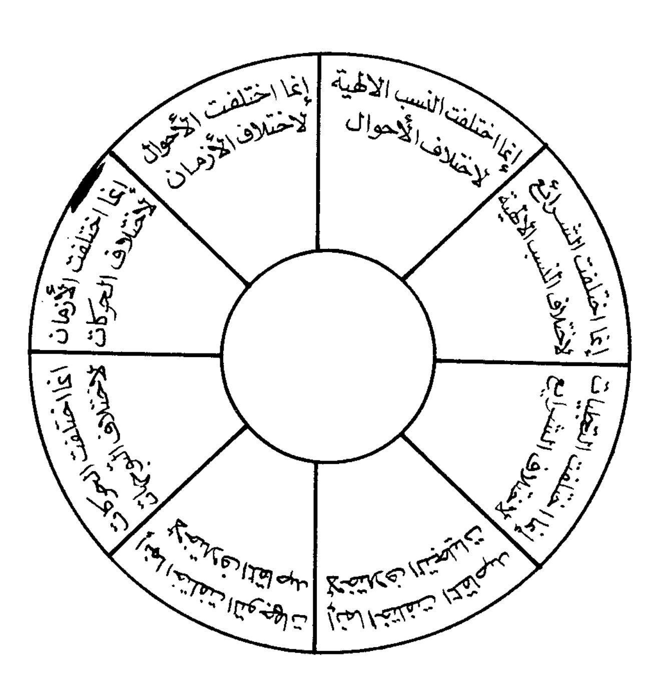
السلام، فإنّ الله نصّ على خلافته عن الله بقوله تعالىٰ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦] وأجمل خلافة آدم عليه السلام وما كل رسول خليفة، فمن أمر ونهى وعاقب وعفا وأمر الله بطاعته وجمعت له هذه الصفات كان خليفة، ومن بلغ أمر الله ونهيه ولم يكن له من نفسه إذن من الله تعالىٰ أن يأمر وينهي فهو رسول يبلغ رسالات ربّه، وبهذا بان لك الفرقان بين الرسول والخليفة، ولهذا جاء بالألف واللام في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] أي فيما أمركم به على لسان رسوله ﷺ ممّا قال فيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وهو كل أمر جاء في كتاب الله تعالىٰ. ثم قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] ففصّل أمر طاعة الله من طاعة رسوله ﷺ، فلو كان يعني بذلك ما بلغ إلينا من أمر الله تعالىٰ لم تكن.

ثم فائدة زائدة فلا بدّ أن يوليه رتبة الأمر والنهي فيأمر وينهى، فنحن مأمورون بطاعة رسول الله ﷺ عن الله بأمره وقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وطاعتنا له فيما أمر به ﷺ ونهى عنه ممّا لم يقل هو من عند الله فيكون قرآناً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [سورة الحشر: الآية ٧] فأضاف النهي إليه ﷺ فأتى بالألف واللام في الرسول يريد بهما التعريف والعهد أي الرسول الذي استخلفناه عنّا فجعلنا له أن يأمر وينهى زائداً على تبليغ أمرنا ونهينا إلى عبادنا. ثم قال تعالىٰ في الآية عينها ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٩] أي إذا ولي عليكم خليفة عن رسولي أو وليتموه من عندكم كما شرع لكم فاسمعوا له وأطيعوا ولو كان عبداً حبشياً مجدّع الأطراف فإن في طاعتكم إياه طاعة رسول الله ﷺ، ولهذا لم يستأنف في أولي الأمر أطيعوا واكتفى بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ولم يكتف بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ عن قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ففصّل لكونه تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] واستأنف القول بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فهذا دليل على أنه تعالىٰ قد شرع له ﷺ أن يأمر وينهى، وليس لأولي الأمر أن يشرعوا شريعة إنما لهم الأمر والنهي فيما هو مباح لهم ولنا، فإذا أمرونا بمباح أو نهونا عن مباح وأطعناهم في ذلك أجرنا في ذلك أجر من أطاع الله فيما أوجبه عليه من أمر ونهي، وهذا من كرم الله بنا ولا يشعر بذلك أهل الغفلة منّا.

مسألة أخرى من هذا الباب: إنما أُمرت الملائكة والخلق أجمعون بالسجود وجعل معه القربة فقال: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [سورة العلق: الآية ١٩] وقال ﷺ: **«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ اللَّهِ فِي سُجُودِهِ»** ليعلموا أنّ الحق في نسبة الفوق إليه من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] كنسبة التحت إليه، فإن السجود طلب السفل بوجهه، كما أن القيام يطلب الفوق إذا رفع وجهه بالدعاء ويديه، وقد جعل الله السجود حالة القرب من الله، فلم يقيده سبحانه الفوق عن التحت ولا التحت عن الفوق، فإنه خالق الفوق والتحت، كما لم يقيده الاستواء على العرش عن النزول إلى السماء الدنيا، ولم يقيده النزول إلى السماء الدنيا عن الاستواء على العرش، كما لم يقيده سبحانه الاستواء والنزول عن

أن يكون معنا أينما كنّا كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد: الآية ٤] بالمعنى الذي يليق به، وعلى الوجه الذي أراده، كما قال أيضاً: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي» كما قال عنه هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] وقال تعالىٰ أيضاً في حق الميت: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٨٥] فنسب القرب إليه من الميت. وقال أيضاً عزّ وجلّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: الآية ١٦] يعني الإنسان مع قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١].

مسألة دورية من هذا الباب وهذه صورتها:



إنما قلنا: اختلفت الشرائع لاختلاف النسب الإلهية، لأنه لو كانت النسبة الإلهية لتحليل أمر ما في الشرع كالنسبة لتحريم ذلك الأمر عينه في الشرع لما صحّ تغيير الحكم وقد ثبت تغيير الحكم، ولما صحّ أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] وقد صحّ أن لكل أمّة شرعة ومنهاجاً، جاءها بذلك نبيّها ورسولها فنسخ وأثبت، فعلمنا بالقطع أن نسبته تعالىٰ فيما شرعه إلى محمد ﷺ خلاف نسبته إلى نبيّ آخر، وإلاّ لو كانت النسبة واحدة من كل وجه وهي الموجبة للتشريع الخاص لكان الشرع واحداً من كل وجه، فإن قيل: فلم اختلفت النسب الإلهية؟ قلنا: لاختلاف الأحوال، فمن حاله المرض يدعو: يا معافي، ويا شافي. ومن حاله الجوع يقول: يا رزاق. ومن حاله الغرق يقول: يا مغيث. فاختلفت النسب لاختلاف الأحوال وهو قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[سورة الرحمٰن: الآية ٣١]. وقوله ﷺ لما وصف ربّه تعالىٰ بيده الميزان

يخفض ويرفع فلحالة الوزن قيل فيه الخافض الرافع فظهرت هذه النسب، فهكذا في اختلاف أحوال الخلق. وقولنا: إنما اختلفت الأحوال لاختلاف الأزمان فإن اختلاف أحوال الخلق سببها اختلاف الأزمان عليها، فحالها في زمان الربيع يخالف حالها في زمان الصيف، وحالها في زمان الصيف يخالف حالها في زمان الخريف، وحالها في زمان الخريف يخالف حالها في زمان الشتاء، وحالها في زمان الشتاء يخالف حالها في زمان الربيع.

يقول بعض العلماء بما تفعله الأزمان في الأجسام الطبيعية: تعرّضوا لهواء زمان الربيع فإنه يفعل في أبدانكم ما يفعل في أشجاركم. وتحفظوا من هواء زمان الخريف فإنه يفعل في أبدانكم كما يفعل في أشجاركم، وقد نصّ الله تعالىٰ على أننا من جملة نبات الأرض فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [سورة نوح: الآية ١٧] أراد فنبتم نباتاً لأن مصدر أنبتكم إنما هو إنباتاً كما قال في نسبة التكوين إلى نفس المأمور به فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فجعل التكوين إليه كذلك نسب ظهور النبات إلى النبات فافهم فلذلك قلنا: إنما اختلفت الأحوال لاختلاف الأزمان. وأما قولنا: إنما اختلفت الأزمان لاختلاف الحركات فأعني بالحركات الحركات الفلكية، فإنه باختلاف الحركات الفلكية حدث زمان الليل والنهار وتعينت السنون والشهور والفصول وهذه المعبر عنها بالأزمان.

وقولنا: اختلفت الحركات لاختلاف التوجهات أريد بذلك توجّه الحق عليها بالإيجاد لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فلو كان التوجّه واحداً عليها لما اختلفت الحركات وهي مختلفة، فدلّ أن التوجّه الذي حرّك القمر في فلكه ما هو التوجّه الذي حرّك الشمس ولا غيرها من الكواكب والأفلاك، ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت السرعة أو الإبطاء في الكل على السواء، قال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٣] فلكل حركة توجّه إلهيّ أي تعلّق خاص من كونه مريداً. وقولنا: إنما اختلفت التوجّهات لاختلاف المقاصد، فلو كان قصد الحركة القمرية بذلك التوجّه عين قصد الحركة الشمسية بذلك التوجّه لم يتميز أثر عن أثر، والآثار بلا شك مختلفة، فالتوجهات مختلفة لاختلاف المقاصد، فتوجهه بالرضى عن زيد غير توجهه بالغضب على عمرو، فإنه قصد تعذيب عمرو وقصد تنعيم زيد، فاختلفت المقاصد.

وقولنا: إنما اختلفت المقاصد لاختلاف التجليات، فإن التجليات لو كانت في صورة واحدة من جميع الوجوه لم يصحّ أن يكون لها سوى قصد واحد وقد ثبت اختلاف القصد، فلا بدّ أن يكون لكل قصد خاص تجلّ خاص ما هو عين التجلّي للآخر، فإن الاتساع الإلهيّ يعطي أن لا يتكرّر شيء في الوجود وهو الذي عوّلت عليه الطائفة والناس ﴿فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ١٥].

يقول الشيخ أبو طالب المكيّ صاحب قوت القلوب وغيره من رجال الله عزّ وجلّ: إن الله سبحانه ما تجلّى قط في صورة واحدة لشخصين ولا في صورة واحدة مرّتين، ولهذا اختلفت الآثار في العالم وكنى عنها بالرضى والغضب. وقولنا: إنما اختلفت التجلّيات

لاختلاف الشرائع، فإن كل شريعة طريق موصلة إليه سبحانه وهي مختلفة، فلا بدّ أن تختلف التجلّيات كما تختلف العطايا، ألا تراه عزّ وجلّ إذا تجلّى لهذه الأمّة في القيامة وفيها منافقوها وقد اختلف نظرهم في الشريعة فصار كل مجتهد على شرع خاص هو طريقه إلى الله، ولهذا اختلفت المذاهب، وكل شرع في شريعة واحدة، والله قد قرّر ذلك على لسان رسوله ﷺ عندنا فاختلفت التجليات بلا شك، فإن كل طائفة قد اعتقدت في الله أمراً ما إن تجلّى لها في خلافه أنكرته، فإذا تحوّل لها في العلامة التي قد قرّرتها تلك الطائفة مع الله في نفسها أقرّت به، فإذا تجلّى للأشعريّ في صورة اعتقاد من يخالفه في عقده في الله وتجلّى للمخالف في صورة اعتقاد الأشعريّ مثلاً أنكره كل واحد من الطائفتين كما ورد، وهكذا في جميع الطوائف، فإذا تجلّى لكل طائفة في صورة اعتقادها فيه تعالىٰ وهي العلامة التي ذكرها مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أقرّوا له بأنه ربّهم وهو هو لم يكن غيره، فاختلفت التجليات لاختلاف الشرائع.

وقولنا: إنما اختلفت الشرائع لاختلاف النسب الإلهية قد تقدّم ودار الدور، فكل شيء أخذته من هذه المسائل صلح أن يكون أولاً وآخراً ووسطاً، وهكذا كل أمر دوريّ يقبل كل جزء منه بالفرض الأولية والآخرية وما بينهما، وقد ذكرنا مثل هذا الشكل الدوريّ في التدبيرات الإلهية مضاهياً لقول المتقدّم إذ قال: العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تحجبه السنّة، السنّة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق يجمعه الرعية، الرعية عبيد تَعبدهم العدل، العدل مألوف فيه صلاح العالم، العالم بستان، ودار الدور، ويكفي هذا القدر من الإيماء إلى العلل والأسباب مخافة التطويل، فإن هذا الباب واسع جدّاً إذ كان العالم كله مرتبطاً بعضه ببعض، أسباب ومسببات وعلل ومعلولات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الخامس والعشرون.

(الجزء السادس والعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب التاسع والأربعون

في معرفة قوله ﷺ:

«إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن» ومعرفة هذا المنزل ورجاله

[نظم: المديد]

نَـفَـسُ الـرحـمـن لـيـس لـه ... فـي سـوى الـرحـمـنِ مـسْـتَـنَـدُ

حُـكْـمُـه فـي كـل طـائـفـةٍ ... مـا لـهـا رُكْـنٌ ولا سَـنَـدُ

يـا مَـنِ الأكـوانُ مـنـزلُـه ... وهـو لا روحٌ ولا جـسَـدُ

مـا لــه حــدٌ يــعــيِّــنُــه وهــو الــمــطــلــوب والــصَّــمَــدُ
فــجــمــيــعُ الــخــلــق يــطــلــبــه ثــم لــم يــظــفــر بــه أحــدُ
أحــدٌ مــا مــثــلــه أحَــدٌ بــكــمــال الــنَّــعــت مــنــفَــردُ

اعلم يا وليّ أن لله عباداً من حيث اسمه الرحمن وهو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٣] يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] ولله عباد يأتي إليهم الرحمن من اسمه الرب فإن الله يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١١٠] فكماله من الاسم الله الأسماء الحسنى، كذلك له من الاسم الرحمن الأسماء الحسنى، قال رسول الله ﷺ: «**يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا**» وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر: الآية ٢٢] فثمَّ إتيان عام مثل هذا وهو الإتيان للفصل والقضاء، وثم إتيان خاص بالرحمة لمن اعتنى به من عباده، قال رسول الله ﷺ لما اشتدّ كربه من المنازعين: «**إِنِّي لأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ**» وهو ما مشى إلى اليمن، لكن النفس أدركه من قبل اليمن، وما أدركه حتى أتاه فجاء بالتنفيس من الشدّة والضيق الذي كان فيه بالأنصار رضي الله عن جميعهم، فتقدم إليه النفس في باطنه وقلبه مبشّراً بما يظهره الله من نصرة الدين وإقامته على أيدي الأنصار.

ولقد جرى لنا في حديث الأنصار ما نذكره إن شاء الله، وذلك أنه عندنا بدمشق رجل من أهل الفضل والأدب والدين يقال له يحيىٰ بن الأخفش من أهل مراكش كان أبوه يدرس العربية بها فكتب إليّ يوماً من منزله بدمشق وأنا بها يقول لي في كتابه: يا وليّ رأيت رسول الله ﷺ البارحة بجامع دمشق وقد نزل بمقصورة الخطابة إلى جانب خزانة المصحف المنسوب إلى عثمان رضي الله عنه والناس يهرعون إليه ويدخلون عليه يبايعونه فبقيت واقفاً حتى خفّ الناس فدخلت عليه وأخذت يده فقال لي: هل تعرف محمداً؟ قلت له: يا رسول الله من محمد؟ فقال له: ابن العربي، قال: فقلت له: نعم أعرفه، ففال له رسول الله ﷺ: إنّا قد أمرناه بأمر فقل له: يقول لك رسول الله: انهض لما أمرت به واصحبه أنت فإنك تنتفع بصحبته وقل له: يقول لك رسول الله امتدح الأنصار ولتعين منهم سعد بن عبادة ولا بدّ ثم استدعي بحسان بن ثابت، فقال له رسول الله ﷺ: يا حسان حفِّظه بيتاً يوصله إلى محمد بن العربي يبني عليه وينسج على منواله في العروض والرويّ. فقال حسان: يا يحيىٰ خذ إليك وأنشدني بيتاً وهو: [الكامل]

شَـغَـفَ الـسـهـادُ بـمـقـلـتـي ومزاري فـعـلـى الـدمـوع مُـعَـوَّلـي ومُـشَـاري

وما زال يردّده عليّ حتى حفظته. ثم قال لي رسول الله ﷺ: إذا مدح الأنصار فاكتبه بخط بيّن واحمله ليلة الخميس إلى تربة هذا الذي تسمونها قبر الست فستجد عندها شخصاً اسمه حامد فادفع إليه المديح، فلما أخبرني بذلك هذا الرائي وفّقه الله عملت القصيدة من وقتي من غير فكرة ولا روية ولا تثبط ودفعت القصيدة إليه، فكتب إليّ أنه لما جاء قبر الست وصل إليه بعد العشاء الآخرة قال: فرأيت رجلاً عند القبر فقال لي ابتداء: أنت يحيىٰ الذي

جاء من عند فلان وسمّاني؟ قال: فقلت له: نعم، قال: فأين القصيد الذي مدح به الأنصار عن أمر رسول الله ﷺ؟ فقلت: هوذا عندي فناولته إياه فقرب من الشمعة ليقرأ القصيدة فلم أره يخبر ذلك الخط، فقلت له: تأمرني أنشدك إياها؟ قال: نعم فأنشدته إياها، وهذا نص القصيدة: [الكامل]

قال ابنُ ثابتٍ الذي فخرتْ به ... فِقَرُ الكلام ونَشْأَةُ الأشعارِ
شَغَفَ السهادُ بمقلتي ومزاري ... فعلى الدموع مُعَوَّلي ومُشَاري

وكانت أمي تنسب إلى الأنصار فقلت:

فلذا جعلتُ رويَّةَ الراء التي ... هي من حروف الردِّ والتِّكْرارِ
فأقول مبتدئاً لطاعة أحمدٍ ... في مَدْحِ قوم سادةٍ أبرارِ
إني امرؤٌ من جملةِ الأنصار ... فإذا مدَحْتُهُمُو مدَحْتُ نِجاري
بسيوفهم قام الهدى وبهم عَلَتْ ... أنواره في رأس كل مَنَارِ
قاموا بنَصْر الهاشميِّ محمدٍ ... المصطفى المختارِ من مختارِ
صحبوا النبيَّ بنيَّةٍ وعزائم ... فازوا بهنَّ حميدةَ الآثارِ
باعوا نفوسَهُمُو لنصرة دينه ... ولذاك ما صحبوه بالإيثارِ
عنهم كَنَى المختار بالنفس الذي ... يأتيه من يَمَنٍ مع الأقدارِ
سعدٌ سليلُ عُبَادة فخرتْ به ... يوم السَّقيفة جُمْلَةُ الأنصارِ
لله آسادٌ لكل كريهةٍ ... نزلت بدين الله والأخيارِ
عَزُّوا بدين الله في إعزازهم ... دينَ الهدى بالعسكرِ الجرَّارِ
فيهم عَلا يومَ القيامة مشهدي ... وبهم ترى يومَ الورود فَخَاري
لو أنني صغْتُ الكلام قلائداً ... في مدحهم ما كنت بالمِكْثارِ
كَرِشُ النبيّ وعيبةٌ لرسوله ... لحقت بهم أعداؤه بتَبَارِ
رهبانُ ليلاً يقرؤون كلامه ... آسادُ غابٍ في الوغى بنَهَارِ

وقصة الرؤيا طويلة، فاقتصرت من ذلك على ما نحتاج إليه في هذا الباب من ذكر الأنصار. ثم نرجع فنقول: فما جاءت الأنصار إلاَّ بعد أن نفّس الله عن نبيّه بما بشّره به فلقيته الأنصار في حال اتساع وانشراح وسرور، وتلقاها ﷺ تلقي الغنيّ بربّه فكان معها والمهاجرين عوناً على إقامة دين الله كما أمرهم الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤٥] ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠] ولها آثار وتحكم في خلقه، وهي المتوجهة من الله تعالىٰ على إيجاد الممكنات وما تحوي عليه من المعاني التي لا نهاية لها، والله من حيث ذاته غنيّ عن العالمين، وإنما عرّفنا الله تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] ليعلمنا أنه سبحانه ما أوجدنا إلاَّ لنا لا لنفسه، وما خلقنا لعبادته إلاَّ ليعود ثواب ذلك العمل وفضله إلينا، ولذلك ما خصّ بهذا الخطاب إلاَّ الثقلين فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] ولا نشك أنّ كل ما خلق من

الملائكة وغيرهم من العالم ما خلقهم إلاّ مسبّحين بحمده، وما خصّ بهذه الصفة غير الثقلين أعني صفة العبادة وهي الذلّة، فما خلقهم حين خلقهم أولاً وإنما خلقهم ليذلّوا وخلق ما سواهم أذلا في أصل خلقهم، فما جعل العلة في سوى الثقلين الذلّة كما جعلها فينا، وذلك أنه ما تكبّر أحد من خلق الله على أمر الله غير الثقلين، ولا عصى الله أحد من خلق الله سوى الثقلين، فأمر إبليس فعصى، ونهى آدم عليه السلام أن يقرب الشجرة فكان من أمره ما قال الله لنا في كتابه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ١٢١].

وأمّا الملائكة فقد شهد لهم الله بأنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: الآية ٦] ردّاً على من تكلم بما لا ينبغي في حق الملكين ببابل من المفسرين بما لا يليق بهم ولا يعطيه ظاهر الآية، لكن الإنسان يجترىء على الله تعالىٰ فيقول فيه ما لا يليق بجلاله فكيف لا يقول في الملائكة؟ فكما كذب الإنسان ربّه في أمور فيكون هذا القائل قد كذّب ربّه في قوله في حق الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ وفي صحيح الخبر عن رسول الله ﷺ عن الله عزّ وجلّ: «**يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ ذٰلِكَ**» الحديث، فلا أحد أصبر على أذى من الله، كذا ورد أيضاً في الخبر وهو سبحانه يرزقهم ويحسن إليهم وهم في حقّه بهذه الصفة.

فاعلم أن السبب الموجب لتكبر الثقلين دون سائر الموجودات أنّ سائر المخلوقات توجّه على إيجادهم من الأسماء الإلهية أسماء الجبروت والكبرياء والعظمة والقهر والعزّة، فخرجوا أذلاء تحت هذا القهر الإلهيّ، وتعرّف إليهم حين أوجدهم بهذه الأسماء، فلم يتمكن لمن خلق بهذه المنابة أن يرفع رأسه ولا أن يجد في نفسه طعماً للكبرياء على أحد من خلق الله فكيف على من خلقه؟ وقد أشهده أنه في قبضته وتحت قهره، وشهدوا كشفاً نواصيهم ونواصي كل دابة بيده في القرآن العزيز: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] ثم قال متمماً: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود: الآية ٥٦] والأخذ بالناصية عند العرب إذلال، هذا هو المقرّر عرفاً عندنا، فمن كان حاله في شهود نظره إلى ربّه أخذ النواصي بيده ويرى ناصيته من جملة النواصي كيف يتصوّر منه عزّاً وكبرياء على خالقه مع هذا الكشف.

وأمّا الثقلان فخلقهم بأسماء اللطف والحنان والرأفة والرحمة والتنزّل الإلهيّ، فعندما خرجوا لم يروا عظمة ولا عزّاً ولا كبرياء، ورأوا نفوسهم مستندة في وجودها إلى رحمة وعطف وتنزّل، ولم يبد الله لهم من جلاله ولا كبريائه ولا عظمته في خروجهم إلى الدنيا شيئاً يشغلهم عن نفوسهم، ألا تراهم في الأخذ الذي عرض لهم من ظهورهم حين قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] هل قال أحد منهم: نعم؟ لا والله بل ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٧٢] فأقرّوا له بالربوبية لأنهم في قبضة الأخذ محصورون، فلو شهدوا أنّ نواصيهم بيد الله شهادة عين أو إيمان كشهادة عين كشهادة الأخذ ما عصوا الله طرفة عين وكانوا مثل سائر المخلوقات ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] فلما ظهروا عن هذه الأسماء الرحمانية قالوا: يا ربنا لم خلقتنا؟ قال: لتعبدون أي لتكونوا أذلاء بين يديّ،

فلم يروا صفة قهر ولا جناب عزّة تذلّهم ولا سيّما وقد قال لهم: لتذلّوا إليّ، فأضاف فعل الإذلال إليهم فزادوا بذلك كبراً، فلو قال لهم: ما خلقتكم إلاّ لأذلّكم لفرقوا وخافوا فإنها كلمة قهر، فكانوا يبادرون إلى الذلّة من نفوسهم خوفاً من هذه الكلمة كما قال للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [سورة فصلت: الآية ١١] فلو لم يقل كرهاً فإنها كلمة قهر حيثما أتت، فلهذا قلنا: ما أوجد كل ما عدا الثقلين ولا خاطبهم إلاّ بصفة القهر والجبروت.

فلما قال للثقلين عن السبب الذي لأجله أوجدهم وخلقهم نظروا إلى الأسماء التي وجدوا عنها فما رأوا اسماً إلهياً منها يقتضي أخذهم وعقوبتهم إن عصوا أمره ونهيه وتكبّروا على أمره فلم يطيعوه وعصوه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ١٢١] وهو أول الناس، وعصى إبليس ربّه فسرت المخالفة من هذين الأصلين في جميع الثقلين، يقول النبي ﷺ عن آدم لما جحد ونسي ما وهبه لداود من عمره: «**فَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ فَعَصَمَهُ**». ولكن من التكبّر على الله لا من تكبّر بعضهم على بعض وعلى سائر المخلوقين، فما عصم أحد من ذلك ابتداء فإن الله قد شاء أن يتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ولكن إذا اعتنى الله بعبده ففي الحالة الثانية يرزقه التوفيق والعناية فيلزم ما خلق له من العبادة فيلحق بسائر المخلوقات، وهو عزيز الوجود، وأين العبد الذي هو في نفسه مع أنفاسه عبد لله دائماً، فلا يدل أحد من الثقلين إلاّ عن قهر يجده فهو في ذلّه مجبور، فإذا وجد ذلك حينئذ يلتفت إلى الأسماء التي عنها وجد وهي أسماء الرحمة فيطلبها لتزيل عنه ما هو فيه من الضيق والحرج الذي ما اعتاده فيحنّ إلى جهتها ويعرف أنّ لها قوّة وسلطاناً فتنفس عنه ما يجده من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ**» فأشار إلى الاسم الذي خلق به الثقلين وقرن معه جهة القوّة فقال: من قبل اليمن، والقبل الناحية والجهة، واليمن من اليمين وهو القوّة، قال الشاعر: [الوافر]

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجد ... تلقّاها عَرَابةُ باليمينِ

أراد بالقوّة، فإن اليمين محل القوّة ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧] وكذلك كان لما نظر إليه الاسم الرحمن الذي عنه وجد كان النصر على أيدي الأنصار، وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة مريم: الآية ٨٥] فإن المتقي هو الحذر الخائف الوجل، ولا يكون أحد يشهد الرحمن الرحيم الرؤوف ويتقيه، وإنما مشهود المتقي السريع الحساب، الشديد العقاب، المتكبر الجبار، فيتقي ويخاف فيؤمنه الله تعالىٰ بأن يحشره إلى الرحمن فيأمن سطوة الجبار القهار، ولهذا قال تعالىٰ فينا: إن رحمته سبقت غضبه، لأنه بالرحمة أوجدنا لم يوجدنا بصفة القهر، وكذلك تأخّرت المعصية فتأخّر الغضب عن الرحمة في الثقلين، فالله يجعل حكمهما في الآخرة كذلك ولو كانت بعد حين. ألا ترى الله تعالىٰ إذا ذكر أسماءه لنا يبتدىء بأسماء الرحمة ويؤخّر أسماء الكبرياء لأنا لا نعرفها، فإذا قدم لنا أسماء الرحمة عرفناها وحننا إليها، عند ذلك يتبعها أسماء الكبرياء لنأخذها بحكم التبعية فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢] فهذا نعت يعم الجميع

وليس واحدته بأولى من الآخر، ثم ابتدأ فقال: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فعرفنا الرحمن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٢] لأنا عنه وجدنا، ثم قال بعد ذلك: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ابتداء ليجعله فصلاً بين الرحمن الرحيم وبين العزيز الجبار المتكبر فقال: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ وهذا كله من نعوت الرحمن، ثم جاء وقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٣] فقبلنا هذه النعوت بعد أن آنسنا بأسماء اللطف والحنان، وأسماء الاشتراك التي لها وجه إلى الرحمة ووجه إلى الكبرياء وهو الله والملك، فلما جاء بأسماء العظمة والمحل قد تأنس بترادف الأسماء الكثيرة الموجبة الرحمة قبلنا أسماء العظمة لما رأينا أسماء الرحمة قد قبلتها حيث كانت نعوتاً لها فقبلناها ضمناً تبعاً لأسمائنا.

ثم إنه لما علم الخلق أن صاحب القلب والعلم بالله وبمواقع خطابه إذا سمع مثل أسماء العظمة لا بدّ أن تؤثر فيه أثر خوف وقبض نعتها بعد ذلك وأردفها بأسماء لا تختص بالرحمة على الإطلاق ولا تعرى عن العظمة على الإطلاق فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الحشر: الآية ٢٤] وهذا كله تعليم من الله عباده وتنزل إليهم، فمنازل أصحاب هذا الباب هي هذه الأسماء المذكورة وحضراتها، ولهذا قدّم سبحانه في كتابه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في كل سورة، إذ كانت السور تحوي على أمور مخوفة تطلب أسماء العظمة والاقتدار، فقدّم أسماء الرحمة تأنيساً وبشرى، ولهذا قالوا في سورة التوبة إنها والأنفال سورة واحدة حيث لم يفصل بينهما بالبسملة، وفي ذلك خلاف منقول بين علماء هذا الشأن من الصحابة.

ولما علم الله تعالىٰ ما يجري من الخلاف في هذه الأمّة في حذف البسملة من سورة براءة، فمن ذهب إلى أنها سورة مستقلة وكان القرآن عنده مائة وثلاث عشرة سورة فيحتاج إلى مائة وثلاث عشرة بسملة أظهر لهم في سورة النمل بسملة ليكمل العدد وجاء بها كما جاء بها في أوائل السور بعينها، فإن لغة سليمان عليه السلام لم تكن عربية وإنما كانت أخرى، فما كتب لغة هذا اللفظ في كتابه وإنما كتب لفظة بلغته تقتضي معناها باللسان العربيّ إذا عبّر عنها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأتى بها محذوفة الألف كما جاءت في أوائل السور ليعلم أن المقصود بها هو المقصود بها في أوائل السور ولم يعمل ذلك في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ [سورة هود: الآية ٤١] و ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [سورة العلق: الآية ١] فأثبت الألف هناك ليفرّق ما بين اسم البسملة وغيرها، ولهذا تتضمن سورة التوبة من صفات الرحمة والتنزّل الإلهيّ كثيراً، فإن فيها شراء الله نفوس المؤمنين منهم بأن لهم الجنة، وأيّ تنزل أعظم من أن يشتري السيد ملكه من عبده، وهل يكون في الرحمة أبلغ من هذا؟ فلا بدّ أن تكون التوبة والأنفال سورة واحدة، أو تكون بسملة النمل السليمانية لسورة التوبة، ثم انظر في اسمها سورة التوبة والتوبة تطلب الرحمة ما تطلب التبرّي، وإن ابتدأ عزّ وجلّ بالتبرّي فقد ختم بآية لم يأت بها ولا وجدت إلاّ عند من جعل الله شهادته شهادة رجلين، فإن كنت تعقل علمت ما في هذه السورة من الرحمة المدرجة ولا سيّما في قوله تعالىٰ ﴿وَمِنْهُم﴾ [سورة التوبة: الآية ٤٩] ﴿وَمِنْهُم﴾ [سورة التوبة: الآية: ٥٠]

وذلك كله رحمة بنا لنحذر الوقوع فيه والاتصاف بتلك الصفات، فإن القرآن علينا نزل، فلم تتضمن سورة من القرآن في حقّنا رحمة أعظم من هذه السورة لأنه كثر من الأمور التي ينبغي أن يتقيها المؤمن ويجتنبها، فلو لم يعرّفنا الحق تعالىٰ بها ربما وقعنا فيها ولا نشعر فهي سورة رحمة للمؤمنين. وإذ وقد عرفناك بمنازله، فاعلم أن رجاله هم كل من كان حاله من أهل الله حال من أحاطت به الأسماء الجبروتية من جميع عالمه العلويّ والسفليّ فيقع منه اللجأ والتضرّع إلى أسماء الرحمة، فيتجلى له الاسم الرحمن الذي له الأسماء الحسنى، والذي به على العرش استوى، فيهبه الاقتدار الإلهيّ، فيمحو به آثار الأسماء القهرية فيتسع له المجال فينشرح الصدر ويجري النفس ويسري فيه روح الحياة، وتأتي إليه وفود الأسماء الرحمانية والحقائق الإلهية بالتهاني والبشائر، فمن كانت هذه حالته ويعرفها ذوقاً من نفسه وهو من رجال هذا المقام فلا يغالط نفسه، وكل إنسان أعلم بحاله ولا ينفعك أن تنزل نفسك عند الناس منزلة ليست لك في نفس الأمر، وقد نصحتك وأبنت لك عن طريق القوم فلا تكن من الجاهلين بما عرّفناك به ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٩] فإن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخمسون

في معرفة رجال الحيرة والعجز

[نظم: البسيط]

مـن قـالَ يَـعـلـمُ أن الله خـالـقُـه ... ولـم يَـجِـزْ كـان بـرهـانـاً بـأن جـهـلاَ

لا يـعـلـم الـلّـهَ إلاّ الـلّـهُ فـانـتـبـهـوا ... فـلـيـس حـاضـرُكـم مـثـل الـذي غَـفَـلا

الـعـجـزُ عـن دَرَك الإدراك مـعـرفـةٌ ... كـذا هـو الـحـكـم فـيـه عـنـد من عَـقَـلاَ

هـو الإلـهُ فـلا تُـحْـصَـى مـحـامِـدُه ... هـو الـنـزيـه فـلا تَـضـرِبْ لـه مَـثَـلا

اعلم أيّدك الله بروح منه أنّ سبب الحيرة في علمنا بالله طلبنا معرفة ذاته جلّ وتعالىٰ بأحد الطريقين: إمّا بطريق الأدلة العقلية، وإمّا بطريق تسمى المشاهدة، فالدليل العقليّ يمنع من المشاهدة، والدليل السمعيّ قد أومأ إليها وما صرّح، والدليل العقليّ قد منع من إدراك حقيقة ذاته من طريق الصفة الثبوتية النفسية التي هو سبحانه في نفسه عليها، وما أدرك العقل بنظره إلاّ صفات السلوب لا غير وسمّى هذا معرفة، والشارع قد نسب إلى نفسه أموراً وصف نفسه بها تحيلها الأدلة العقلية إلاّ بتأويل بعيد يمكن أن يكون مقصوداً للشارع ويمكن أن لا يكون، وقد لزمه الإيمان والتصديق بما وصف به نفسه لقيام الأدلة عنده بصدق هذه الأخبار عنه أنه أخبر بها عن نفسه في كتبه أو على ألسنة رسله، فتعارض هذه الأمور مع طلبه معرفة ذاته تعالىٰ أو الجمع بين الدليلين المتعارضين أوقعهم في الحيرة، فرجال الحيرة هم الذين نظروا في هذه الدلائل واستقصوها غاية الاستقصاء إلى أن أدّاهم ذلك النظر إلى العجز والحيرة فيه من نبيّ أو صديق. قال ﷺ: «**اللّهُمَّ زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً**» فإنه كلما زاده الحق علماً

به زاده ذلك العلم حيرة ولا سيّما أهل الكشف لاختلاف الصور عليهم عند الشهود، فهم أعظم حيرة من أصحاب النظر في الأدلة بما لا يتقارب. قال النبي ﷺ بعدما بذل جهده في الثناء على خالقه بما أوحى به إليه: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في هذا المقام وكان من رجاله: العجز عن درك الإدراك إدراك، أي إذا علمت أن ثم من لا يعلم ذلك هو العلم بالله تعالىٰ فكان الدليل على العلم به عدم العلم به، والله قد أمرنا بالعلم بتوحيده وما أمرنا بالعلم بذاته بل نهى عن ذلك بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢٨] ونهى رسول الله ﷺ عن التفكّر في ذات الله تعالىٰ، إذ من ليس كمثله شيء كيف يوصل إلى معرفة ذاته فقال الله تعالىٰ آمراً بالعلم بتوحيده: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] فالمعرفة به من كونه إلهاً، والمعرفة بما ينبغي للإله أن يكون عليه من الصفات التي يمتاز بها عن من ليس بإله وعن المألوه هي المأمور بها شرعاً، فلا يعرف الله إلاّ الله، فقامت الأدلة العقلية القاطعة على أنه إله واحد عند أهل النظر وأهل الكشف فلا إله إلاّ هو.

ثم بعد هذا الدليل العقليّ على توحيده والعلم الضروريّ العقلي بوجوده رأينا أهل طريق الله تعالىٰ من رسول ونبيّ ووليّ قد جاؤوا بأمور من المعرفة بنعوت الإله في طريقهم أحالتها الأدلة العقلية وجاءت بصحتها الألفاظ النبوية والأخبار الإلهية، فبحث أهل الطريق عن هذه المعاني ليحصلوا منها على أمر يتميزون به عن أهل النظر الذين وقفوا حيث بلغت بهم أفكارهم مع تحققهم صدق الأخبار فقالوا: نعلم أن ثَمَّ طوراً آخر وراء طور إدراك العقل الذي يستقل به وهو للأنبياء وكبار الأولياء به يقبلون هذه الأمور الواردة عليهم في الجناب الإلهيّ، فعملت هذه الطائفة في تحصيل ذلك بطريق الخلوات والأذكار المشروعة لصفاء القلوب وطهارتها من دنس الفكر، إذ كان المفكر لا يفكر إلاّ في المحدثات لا في ذات الحق، وما ينبغي أن يكون عليه في نفسه الذي هو مسمّى الله ولم يجد صفة إثبات نفسية فأخذ ينظر في كل صفة يمكن أن يقبلها المحدث الممكن يسلبها عن الله لئلا يلزمه حكم تلك الصفة كما لزمت الممكن الحادث، مثل ما فعل بعض النظار من المتكلمين في أمور أثبتوها وطردوها شاهداً وغائباً، ويستحيل على ذات الحق أن تجتمع مع الممكن في صفة، فإنّ كل صفة يتصف بها الممكن يزول وجودها بزوال الموصوف بها أو تزول هي مع بقاء الممكن كصفات المعاني والأولى كصفات النفس.

ثم إن كل صفة منها ممكنة، فإذا طردوها شاهداً وغائباً فقد وصفوا واجب الوجود لنفسه بما هو ممكن لنفسه، والواجب الوجود لنفسه لا يقبل ما يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون، فإذا بطل الاتصاف به من حيث حقيقة ذلك الوصف لم يبق إلاّ الاشتراك في اللفظ، إذ قد بطل الاشتراك في الحدّ والحقيقة، فلا يجمع صفة الحق وصفة العبد حدّ واحد أصلاً، فإذن بطل طرد ما قالوه وطردوه شاهداً وغائباً، فلم يكن قولنا في الله إنه عالم على حدّ ما نقول في الممكن الحادث إنه عالم من طريق حدّ العلم وحقيقته، فإن نسبة العلم إلى الله

تخالف نسبة العلم إلى الخلق الممكن، ولو كان عين العلم القديم هو عين العلم المحدث لجمعهما حد واحد ذاتيّ أعني العلمين، واستحال عليه ما يستحيل على مثله من حيث ذاته، ووجدنا الأمر على خلاف ذلك، فتعلمت هذه الطائفة في تحصيل شيء مما وردت به الأخبار الإلهية من جانب الحق، وشرعت في صقالة قلوبها بالأذكار وتلاوة القرآن، وتفريغ المحل من النظر في الممكنات، والحضور والمراقبة مع طهارة الظاهر بالوقوف عند الحدود المشروعة من غض البصر عن الأمور التي نهي أن ينظر إليها من العورات وغيرها، وإرساله في الأشياء التي تعطيه الاعتبار والاستبصار، وكذلك سمعه، ولسانه، ويده، ورجله، وبطنه، وفرجه، وقلبه، وما ثم في ظاهره سوى هذه السبعة والقلب ثامنها.

ويزيل التفكّر عن نفسه جملة واحدة فإنه مفرّق لهمّه، ويعتكف على مراقبة قلبه عند باب ربّه عسى الله أن يفتح له الباب إليه، ويعلم ما لم يكن يعلم ممّا علمته الرسل وأهل الله ممّا لم تستقل العقول بإدراكه وإحالته، فإذا فتح الله لصاحب هذا القلب هذا الباب حصل له تجلٍّ إلهيّ أعطاه ذلك التجلّي بحسب ما يكون حكمه، فينسب إلى الله منه أمراً لم يكن قبل ذلك يجرأ على نسبته إلى الله سبحانه ولا يصفه به إلاّ قدر ما جاءت به الأنباء الإلهية فيأخذها تقليداً، والآن يأخذ ذلك كشفاً موافقاً مؤيداً عنده لما نطقت به الكتب المنزّلة وجاء على ألسنة الرسل عليهم السلام، فكان يطلقها إيماناً حاكياً من غير تحقيق لمعانيها ولا يزيد عليها، والآن يطلق في نفسه عليه تعالىٰ ذلك علماً محققاً من أجل ذلك الأمر الذي تجلّى له، فيكون بحسب ما يعطيه ذلك الأمر ويعرف معنى ما يطلقه وما حقيقة ذلك، فيتخيل في أول تجلّ أنه قد بلغ المقصود وحاز الأمر وأنه ليس وراء ذلك شيء يطلب سوى دوام ذلك، فيقوم له تجلٍّ آخر بحكم آخر ما هو ذلك الأول، والمتجلي واحد لا يشك فيه فيكون حكمه فيه حكم الأول، ثم تتوالى عليه التجلّيات باختلاف أحكامها فيه، فيعلم عند ذلك أن الأمر ما له نهاية يوقف عندها ويعلم أن الأنية الإلهية ما أدركها، وأن الهوية لا يصحّ أن تتجلّى له، وأنها روح كل تجلٍّ فيزيد حيرة لكن فيها لذة وهي أعظم من حيرة أصحاب الأفكار بما لا يتقارب، فإن أصحاب الأفكار ما برحوا بأفكارهم في الأكوان فلهم أن يحاروا ويعجزوا وهؤلاء ارتفعوا عن الأكوان وما بقي لهم شهود إلاّ فيه فهو مشهودهم والأمر بهذه المثابة، فكانت حيرتهم باختلاف التجليات أشد من حيرة النظار في معارضات الدلالات عليه، فقوله ﷺ أو قول من يقول من هذا المقام: «**زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّراً**» طلب لتوالي التجليات عليه، فهذا الفرق بين حيرة أهل الله وحيرة أهل النظر، فصاحب العقل ينشد: [المتقارب]

وفــي كــلِّ شــيء لــه آيــةٌ ... تــدلُّ عــلــى أنــه واحِــدُ

وصاحب التجلّي ينشد قولنا في ذلك: [المتقارب]

وفــي كــلِّ شــيء لــه آيــةٌ ... تــدلُّ عــلــى أنــه عَــيْــنُــهُ

فبينهما ما بين كلمتيهما، فما في الوجود إلاّ الله، ولا يعرف الله إلاّ الله، ومن هذه الحقيقة قال من قال: أنا الله، كأبي يزيد، وسبحاني كغيره من رجال الله المتقدّمين وهي من

بعض تخريجات أقوالهم رضي الله عنهم، فمن وصل إلى الحيرة من الفريقين فقد وصل.

غير أن أصحابنا اليوم يجدون غاية الألم حيث لا يقدرون يرسلون ما ينبغي أن يرسل عليه سبحانه كما أرسلت الأنبياء عليهم السلام فما أعظم تلك التجليات، وإنما منعهم أن يطلقوا عليه ما أطلقت الكتب المنزّلة والرسل عليهم السلام عدم إنصاف السامعين من الفقهاء وأولي الأمر لما يسارعون إليه في تكفير من يأتي بمثل ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام في جنب الله وتركوا معنى قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] كما قال له ﷺ ربّه عزّ وجلّ عند ذكره الأنبياء والرسل عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٠] فأغلق الفقهاء هذا الباب من أجل المدّعين الكاذبين في دعواهم ونعم ما فعلوا، وما على الصادقين في هذا من ضرر، لأنّ الكلام والعبارة عن مثل هذا ما هو ضربة لازب، وفي ما ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك كفاية لهم فيوردونها يستريحون إليها من تعجّب وفرح وضحك وتبشّش ونزول ومعية ومحبة وشوق وما أشبه ذلك ممّا لو انفرد بالعبارة عنه الوليّ كفر وربما قتل، وأكثر علماء الرسوم عدموا علم ذلك ذوقاً وشرباً، فأنكروا مثل هذا من العارفين حسداً من عند أنفسهم، إذ لو استحال إطلاق مثل هذا على الله تعالىٰ ما أطلقه على نفسه ولا أطلقته رسله عليهم السلام عليه، ومنعهم الحسد أن يعلموا أنّ ذلك ردّ على كتاب الله وتحجير على رحمة الله أن تنال بعض عباد الله وأكثر العامّة تابعون للفقهاء في هذا الإنكار تقليداً لهم لا بل بحمد الله أقل العامة.

وأمّا الملوك فالغالب عليهم عدم الوصول إلى مشاهدة هذه الحقائق لشغلهم بما دفعوا إليه، فساعدوا علماء الرسوم فيما ذهبوا إليه إلاّ القليل منهم فإنهم اتهموا علماء الرسوم في ذلك لما رأوه من انكبابهم على حطام الدنيا وهم في غنى عنه، وحب الجاه والرياسة، وتمشية أغراض الملوك فيما لا يجوز، وبقي العلماء بالله تحت ذلّ العجز والحصر معهم كرسول كذبه قومه وما آمن به واحد منهم، ولم يزل رسول الله ﷺ يحرس حتى نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦٧] فانظر ما يقاسيه في نفسه العالِم بالله، فسبحان من أعمى بصائرهم حيث أسلموا وسلّموا وآمنوا بما به كفروا، فالله يجعلنا ممّن عرف الرجال بالحق لا ممّن عرف الحق بالرجال، والحمد لله رب العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والخمسون

في معرفة رجال من أهل الورع قد تحققوا بمنزل نفس الرحمن

[نظم: مجزوء الكامل]

يـا مَـنْ تـحـقـق بـالـنَّـفَـسْ إن الـكـلامَ لـفـي الـقَـبَـسْ
وكـذا الـهـبـاتُ مـن الـعـلـو م لـدى الـمـحـقِّـق فـي الـبَـلَـسْ
لله قـــومٌ مـــا لـــهـــم فـي نـفـس نـفـسـهِـمُ نَـفَـسْ
وهـــم الـــذيـــن هـــمـــو هُـــمُ أهـلُ الـمـشـاهـد فـي الـغَـلَـسْ

فهمُ الخلائفُ في الغُيو ... بِ وفي الشهادة كالعَسَسْ
أعلى الإلهُ مقامَهم ... في سورةٍ تُتلَى عَبَسْ
فيها لطائفُ سرِّهم ... فابحَثْ ولا تَكُ تختَلِسْ
من كان ذا علم بها ... في حاله لم يَبْتَئِسْ

اعلم أيّدك الله بروح القدس أن رجال هذا الباب هم الزهاد الذين كان الورع سبب زهدهم، وذلك أن القوم تورّعوا في المكاسب على أشد ما يكون من عزائم الشريعة، فكلما حاك له في نفوسهم شيء تركوه عملاً على قوله ﷺ: «**دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ**» وقوله: «**اسْتَفْتِ قَلْبَكَ**». وقال بعضهم: ما رأيت أسهل عليّ من الورع، كل ما حاك له في نفسي شيء تركته إلى أن جعل الله لهم علامات يعرفون بها الحلال من الحرام في المطاعم وغيرها إلى أن ارتقوا عن العلامات إلى خرق العوائد عندهم في الشيء المتورّع فيه فيستعملونه، فيظنّ من لا علم له بذلك أنه أتى حراماً وليس كذلك، فاتسع عليهم ذلك الضيق والحرج، وقد ذقنا هذا من نفوسنا، وزال عنهم ما كانوا يجدونه في نفوسهم من البحث والتفتيش عن ذلك، وهذه العلامة وهذا الحال التي ارتقوا إليها لا تكون أبداً إلاّ من نفس الرحمن، رحمهم بذلك الرحمن لما رآهم فيه من التعب والضيق والحرج، وتهمة الناس في مكاسبهم وما يؤدّيهم إليه هذا الفعل من سوء الظنّ بعباد الله، فنفس الرحمن عنهم بما جعل لهم من العلامات في الشيء وفي حق قوم بالمقام الذي ارتقوا إليه الذي ذكرناه، فيأكلون طيباً ويستعملون طيباً ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [سورة النور: الآية ٢٦] واستراحوا إذ كانوا على بينة من ربهم في مطاعمهم ومشاربهم.

وأدّاهم التحقق بالورع إلى الزهد في الكسب، إذ كان مبنى اكتسابهم الورع ليأكلوا ممّا يعلمون أن ذلك حلال لهم استعماله، ثم عملوا على ذلك الورع في المنطق من أجل الغيبة والكلام فيما يخوض الإنسان فيه من الفضول، فرأوا أن السبب الموجب لذلك مجالسة الناس ومعاشرتهم، وربما قدروا على مسك نفوسهم عن الكلام بما لا ينبغي، لكن بعضهم أو أكثرهم عجز أن يمنع الناس بحضوره عن الكلام بالفضول وما لا يعنيهم، فأدّاهم أيضاً هذا الحرج إلى الزهد في الناس، فآثروا العزلة والانقطاع عن الناس باتخاذ الخلوات وغلق بابهم عن قصد الناس إليهم، وآخرون بالسياحة في الجبال والشعاب والسواحل وبطون الأودية، فنفس الله عنهم من اسمه الرحمن بوجوه مختلفة من الأنس به، أعطاهم ذلك نفس الرحمن، فأسمعهم أذكار الأحجار، وخرير المياه، وهبوب الرياح، ومناطق الطير، وتسبيح كل أمة من المخلوقات ومحادثتهم معه وسلامهم عليه، فأنس بهم من وحشته وعاد في جماعة وخلق، ما لهم كلام إلاّ في تسبيح أو تعظيم أو ذكر آلاء إلهية أو تعريف بما ينبغي وهو جليس لهم ويسمع جوارحه، وكل جزء فيه يكلمه بما أنعم الله عليه به فتغمره النعم فيزيد في العبادة.

ومنهم من ينفس عنه بالأنس بالوحوش رأينا ذلك فتغدو عليه وتروح مستأنسة به وتكلمه بما يزيده حرصاً على عبادة ربّه. ومنهم من يجالسه الروحانيون من الجان ولكن هو دون

الجماعة في الرتبة إذا لم يكن له حال سوى هذا لأنهم قريب من الإنس في الفضول، والكيس من الناس من يهرب منهم كما يهرب من الناس، فإن مجالستهم رديئة جداً قليل أن تنتج خيراً لأن أصلهم نار والنار كثيرة الحركة، ومن كثرت حركته كان الفضول أسرع إليه في كل شيء، فهم أشد فتنة على جليسهم من الناس، فإنهم قد اجتمعوا مع الناس في كشف عورات الناس التي ينبغي للعاقل أن لا يطلع عليها، غير أن الإنس لا تؤثر مجالسة الإنسان إياهم تكبّراً، ومجالسة الجن ليست كذلك فإنهم بالطبع يؤثرون في جليسهم التكبّر على الناس وعلى كل عبد لله، وكل عبد لله رأى لنفسه شفوفاً على غيره تكبّراً فإنه يمقته الله في نفسه من حيث لا يشعر وهذا من المكر الخفيّ، وعين مقت الله إياه هو ما يجده من التكبّر على من ليس له مثل هذا ويتخيل أنه في الحاصل وهو في الفائت.

ثم اعلم أن الجان هم أجهل العالم الطبيعيّ بالله، ويتخيل جليسهم بما يخبرونه به من حوادث الأكوان وما يجري في العالم ممّا يحصل لهم من استراق السمع من الملأ الأعلى، فيظنّ جليسهم أن ذلك كرامة الله به وهيهات لما ظنّوا، ولهذا ما ترى أحداً قط جالسهم فحصل عنده منهم علم بالله جملة واحدة، غاية الرجل الذي تعتني به أرواح الجنّ أن يمنحوه من علم خواص النبات والأحجار والأسماء والحروف وهو علم السيمياء فلم يكتسب منهم إلاّ العلم الذي ذمّته ألسنة الشرائع. ومن ادّعى صحبتهم وهو صادق في دعواه فاسألوه عن مسألة في العلم الإلهيّ ما تجد عنده من ذلك ذوقاً أصلاً، فرجال الله يفرّون من صحبتهم أشد فراراً منهم من الناس، فإنه لا بدّ أن تحصل صحبتهم في نفس من يصحبهم تكبّراً على الغير بالطبع وازدراء بمن ليس له في صحبتهم قدم، وقد رأينا جماعة ممّن صحبوهم حقيقة وظهرت لهم براهين على صحة ما ادّعوه من صحبتهم وكانوا أهل جد واجتهاد وعبادة ولكن لم يكن عندهم من جهتهم شمة من العلم بالله، ورأينا فيهم عزّة وتكبّراً، فما زلنا بهم حتى حلنا بينهم وبين صحبتهم لإنصافهم وطلبهم الأنفس، كما أيضاً رأينا ضد ذلك منهم فما أفلح ولا يفلح من هذه صفته إذا كان صادقاً، وأمّا الكاذب فلا نشتغل به، ومنهم من نفس الرحمن عنه بمجالسة الملائكة، ونعم الجلساء هم هم أنوار خالصة لا فضول عندهم وعندهم العلم الإلهيّ الذي لا مرية فيه فيرى جليسهم في مزيد علم بالله دائماً مع الأنفاس، فمن ادّعى مجالسة الملأ الأعلى ولم يستفد في نفسه علماً بربّه فليس بصحيح الدعوى وإنما هو صاحب خيال فاسد. ومنهم من ينفس الرحمن عنه بأنس بالله في باطنه وتجليات دائمة معنويات فلا يزال في كل نفس صاحب علم بحال جديد بالله وأنس جديد.

ومنهم من ينفس الرحمن عنه ذلك الضيق بمشاهدته عالم الخيال يستصحبه ذلك دائماً كما يستصحب الرؤيا النائم فيخاطِب ويخاطَب، ولا يزال في صور دائماً في لذة وفي نكاح إن جاءته شهوة جماع ولا تكليف عليه ما دام في تلك الحال لغيبته عن إحساسه في الشاهد فينكح ويلتذّ ويولد له في عالم الخيال أولاد، فمنهم من يبقى له ذلك في عالمه، ومنهم من يخرج ولده إلى عالم الشهادة وهو خيال على أصله مشهود للحسّ وهذا من الأسرار الإلهية العجيبة،

ولا يحصل ذلك إلاَّ للأكابر من الرجال. وما من طبقة ذكرناها إلاَّ وقد رأينا منهم جماعة من رجال ونساء بإشبيلية وتلمسان وبمكة وبمواضع كثيرة وكانت لهم براهين تشهد بصحة ما يقولونه. وأما نحن فلا نحتاج مع أحد منهم لبرهان فيما يدعيه فإن الله قد جعل لكل صنف علامة يعرف بها، فإذا رأينا تلك العلامة عرفنا صدق صاحبها من حيث لا يشعر، وكم رأينا ممّن يدعي ذلك كاذباً أو صاحب خيال فاسد، فإن علمنا منه أنه يرجع نصحناه، وإن رأيناه عاشقاً لحاله محجوباً بخياله الفاسد تركناه.

وأصدق من رأينا في هذا الباب من النساء فاطمة بنت ابن المثنى بإشبيلية خدمتها وهي بنت خمس وتسعين سنة، وشمس أم الفقراء بمرشانة، وأم الزهرا بإشبيلية أيضاً، وكلبهار بمكة تدعى ست غزالة. ومن الرجال: أبو العباس بن المنذر من أهل إشبيلية، وأبو الحجاج الشبر بلي من قرية بشرف إشبيلية تسمى شبربل، ويوسف بن صخر بقرطبة، وهذا قد أعربنا لك عن أحوال رجال هذا الباب وما أنتج لهم الزهد في الناس وما وجدوه من نفس الرحمن لذلك، وعلى هذا الحد تكون أعمال الجوارح كلها يجمعها ترك الفضول في كل عضو بما يستحقه ظاهراً وباطناً، فأولها الجوارح وأعلاها في الباطن الفكر فلا يتفكر فيما لا يعينه فإن ذلك يؤديه إلى الهوس والأماني وعدم المسابقة بحضور النية في أداء العبادات، فإن الإنسان لا يخلو فكره في أحد أمرين: إمّا فيما عنده من الدنيا، وإمّا فيما ليس عنده منها، فإن فكر فيما عنده فليس له دواء عند الطائفة إلاَّ الخروج عنه والزهد فيه، صرّح بذلك أبو حامد وغيره. وإن فكر فيما ليس عنده فهو عند الطائفة عديم العقل أخرق لا دواء له إلاَّ المداومة على الذكر ومجالسة أهل الله الذين الغالب على ظواهرهم المراقبة والحياء من الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون

في معرفة السبب الذي يهرب منه المكاشف إلى عالم الشهادة إذا أبصره

[نظم: الرمل]

كُلُّ مَن خافَ على هيكلهِ	لم يَرَ الحقَّ جهاراً علَنَا
فتراه عندما يشهدُه	راجعاً للكون يبغي البَدَنَا
وترى الشُّجْعَانَ قُدْماً طُلَّباً	للذي يحذر منه الجُبَنَا

اعلم أيّدك الله بروح منه أن النفوس الإنسانية قد جبلها الله على الجزع في أصل نشأتها، فالشجاعة والإقدام لها أمر عرضي، والجزع في الإنسان أقوى منه في الحيوانات إلاَّ الصرصر، تقول العرب: أجبن من صرصر وسبب قوّته في الإنسان العقل والفكر الذي ميّزه الله بهما على سائر الحيوان، وما يشجع الإنسان إلاَّ القوّة الوهمية، كما أنه أيضاً بهذه القوّة يزيد جبناً وجزعاً في مواضع مخصوصة، فإن الوهم سلطان قوي، وسبب ذلك أن اللطيفة الإنسانية متولدة بين الروح الإلهيّ الذي هو النفس الرحماني، وبين الجسم المسوّى المعدّل

من الأركان المعدّلة من الطبيعة التي جعلها الله مقهورة تحت النفس الكلية، كما جعل الأركان مقهورة تحت حكم سلطان الأفلاك.

ثم إن الجسم الحيوانيّ مقهور تحت سلطان الأركان التي هي العناصر، فهو مقهور لمقهور عن مقهور، وهو النفس عن مقهور وهو العقل فهو في الدرجة الخامسة من القهر من وجه فهو أضعف الضعفاء، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فالضعف أصله، ثم جعل له قوّة عارضة وهو قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ ثم ردّه إلى أصله من الضعف فقال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٥٤] فهذا الضعف الأخير إنما أعدّه لإقامة النشأة الآخرة عليه كما قامت نشأة الدنيا على الضعف ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] وإنما كان هذا ليلازم ذاته الذلّة والافتقار وطلب المعونة والحاجة إلى خالقه، ومع هذا كله يذهل عن أصله ويتيه بما عرض له من القوّة، فيدعي ويقول: أنا، ويمني نفسه بمقابلة الأهوال العظام، فإذا قرصه برغوث أظهر الجزع لوجود الألم وبادر لإزالة ذلك الضرر ولم يقرّ به قرار حتى يجده فيقتله، وما عسى أن يكون البرغوث حتى يعتني به هذا الاعتناء ويزلزله عن مضجعه ولا يأخذه نوم، فأين تلك الدعوى والإقدام على الأهوال العظام وقد فضحته قرصة برغوث أو بعوضة؟ هذا أصله ذلك ليعلم أن إقدامه على الأهوال العظام إنما هو بغيره لا بنفسه وهو ما يؤيده الله به من ذلك كما قال: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٧] أي قوّيناه ولهذا شرع: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] في كل ركعة، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

ولما علم الإنسان أنه لولا وجود الله عزّ وجلّ لم يظهر له عين في الوجود، وأن أصله لم يكن شيئاً مذكوراً، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [سورة مريم: الآية ٩] فللوجود لذة وحلاوة وهو الخير، ولتوهم العدم العيني ألم شديد عظيم في النفوس لا يعرف قدر ذلك إلاّ العلماء، ولكن كل نفس تجزع من العدم إن تلحق به كما هو حالها، فمهما رأت أمراً تتوهم فيه أنه يلحقها بعدم عينها أو بما يقاربه هربت منه وارتاعت وخافت على عينها وبما كانت أيضاً عن الروح الإلهيّ الذي هو نفس الرحمن، ولهذا كنى عنه بالنفخ لمناسبة النفس فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وكذا جعل عيسىٰ بنفخ في صورة طينية ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٩] فما ظهرت الأرواح إلاّ من الأنفاس، غير أن للمحل الذي تمرّ به أثراً فيها بلا شك، ألا ترى الريح إذا مرّت على شيء نتن جاءت ريح منتنة إلى مشمك؟ وإذا مرّت بشيء عطر جاءت بريح طيبة؟ لذلك اختلفت أرواح الناس، فروح طيبة لجسد طيب ما أشركت قط ولا كانت محلاً لسفساف الأخلاق كأرواح الأنبياء والأولياء والملائكة، وروح خبيث لجسد خبيث لم تزل مشركة محلاً لسفساف الأخلاق، وذلك إنما كان لغلبة بعض الطبائع أعني الأخلاط على بعض في أصل نشأة الجسد التي هي سبب طيب الروح ووجود مكارم الأخلاق وسفسافها وخبث الروح فصحّة الأرواح وعافيتها مكارم أخلاقها التي اكتسبتها من نشأة بدنها العنصري، فجاءت بكل طيب ومليح، ومرض الأرواح

سفساف الأخلاق ومذمومها التي اكتسبتها أيضاً من نشأة بدنها العنصري فجاءت بكل خبيث وقبيح. ألا ترى الشمس إذا أفاضت نورها على جسم الزجاج الأخضر ظهر النور في الحائط أو في الجسم الذي تطرح الشعاع عليه أخضر، وإن كان الزجاج أحمر طرح الشعاع أحمر في رأي العين فانصبغ في الناظر بلون المحل وذلك للطافته يقبل الأشياء بسرعة.

ولما كان الهواء من أقوى الأشياء وكان الروح نفساً وهو شبيه بالهواء كانت القوّة له فكان أصل نشأة الأرواح من هذه القوّة، واكتسبت الضعف من المزاج الطبيعيّ البدنيّ، فإنه ما ظهر لها عين إلاً بعد أثر المزاج الطبيعيّ فيها، فخرجت ضعيفة لأنها إلى الجسم أقرب في ظهور عينها، فإذا قبلت القوّة إنما تقبلها من أصلها الذي هو النفس الرحمانيّ المعبر عنه بالروح المنفوخ منه المضاف إلى الله، فهي قابلة للقوّة كما هي قابلة للضعف، وكلاهما بحكم الأصل، وهي إلى البدن أقرب لأنها أحدث عهداً به فغلب ضعفها على قوّتها، فلو تجرّدت عن المادّة ظهرت قوّتها الأصلية التي لها من النفخ الإلهيّ ولم يكن شيء أشد تكبّراً منها، فألزمها الله الصورة الطبيعية دائماً في الدنيا وفي البرزخ في النوم، وبعد الموت فلا ترى نفسها أبداً مجرّدة عن المادة، وفي الآخرة لا تزال في أجسادها يبعثها الله من صور البرزخ في الأجساد التي أنشأها لها يوم القيامة وبها تدخل الجنة والنار ذلك ليلزمها الضعف الطبيعيّ فلا تزال فقيرة أبداً. ألا تراها في أوقات غفلتها عن نفسها كيف يكون منها التهجم والإقدام على المقام الإلهيّ فتدعي الربوبية كفرعون؟ وتقول في غلبة ذلك الحال عليها: أنا الله وسبحاني كما قال ذلك بعض العارفين وذلك لغلبة الحال عليه، ولهذا لم يصدر مثل هذا اللفظ من رسول ولا نبيّ ولا وليّ كامل في علمه وحضوره ولزومه باب المقام الذي له وأدبه، ومراعاة المادّة التي هو فيها وبها ظهر فهو ردم ملآن بضعفه وفقره مع شهوده أصله علماً وحالاً وكشفاً، وعلمه بأصله ومقام خلافته من وجه آخر لو كان حالاً له لادّعى الألوهة، فإن الأمر الخارج في النفخ من النافخ له من حكمه بقدر ذلك، فلو ادّعاه ما ادّعى محالاً وبذلك القدر الذي فيه من القوّة الإلهية التي أظهرها النفخ توجّه عليه التكليف فإنه عين المكلف وأضيفت الأفعال إليه وقيل له قل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥] ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، فإنه أصلك الذي إليه ترجع، فصدقت المعتزلة في إضافة الأفعال إلى العباد من وجه بدليل شرعيّ، وصدق المخالف في إضافة الأفعال كلها إلى الله تعالىٰ من وجه بدليل شرعيّ أيضاً وعقليّ وقالت بالكسب في أفعال العباد للعباد بقوله تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٤] وقال في المصوّرين على لسان رسوله ﷺ: «**أَيْنَ مَنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» فأضاف الخلق إلى العباد.

وقال في عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١١٠] فنسب الخلق إليه عليه السلام وهو إيجاده صورة الطائر في الطين ثم أمره أن ينفخ فيه فقامت تلك الصورة التي صوّرها عيسىٰ عليه السلام طائراً حياً. وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٩] يعني الأمر الذي أمره الله به من خلقه صورة الطائر والنفخ وإبراء الأكمه والأبرص وإحيائه الميت فأخبر أن عيسىٰ عليه السلام لم ينبعث إلى ذلك من نفسه وإنما كان عن أمر الله ليكون ذلك،

وإحياء الموتى من آياته على ما يدّعيه، فلولا أن الإنسان من حيث حقيقته من ذلك النفس الرحمانيّ ما صحّ ولا ثبت أن يكون عن نفخه طائر يطير بجناحيه ولما كانت حقيقة الإنسان هكذا خوّفه الله بما ذكر من صفة المتكبرين ومآلهم واسوداد وجوههم، كل ذلك دواء للأرواح لتقف مع ضعف مزاجها الأقرب في ظهور عينها، فالإنسان ابن أمّه حقيقة بلا شك، فالروح ابن طبيعة بدنه وهي أمّه التي أرضعته ونشأ في بطنها وتغذّى بدمها فحكمه حكمها فلا يستغني عن غذاء في بقاء هيكله.

تتميم: فلما كان الغالب هذا على الإنسان رجعنا إلى المكاشف الذي يهرب إلى عالم الشهادة عندما يرى ما يهوله في كشفه مثل صاحبنا أحمد العصاد الحريري رحمه الله فإنه كان إذا أخذ سريع الرجوع إلى حسّه باهتزاز واضطراب فكنت أعتبه وأقول له في ذلك فيقول: أخاف وأجبن من عدم عيني لما أراه، ولو علم المسكين أنه لو فارق الموادّ رجع النفس إلى مستقره وهو عينه ورجع كل شيء إلى أصله ولكن لو كان ذلك لانعدمت الفائدة في حق العبد فيما يظهر وليس الأمر كذلك ولذلك قلنا وهو عينه أي عين العبد، فالبقاء الذي أراده الحق أولى به بوجود هذا الهيكل العنصريّ في الدنيا الطبيعيّ في الآخرة، والذي يثبت هنالك أعني عند الوارد إنما يثبت إذا دخل عبداً، كما أن الذي لا يثبت إنما دخل وفي نفسه شيء من الربوبية فخاف من زوالها هناك فهرب إلى الوجود الذي ظهرت فيه ربانيته ولهذا تكون فائدته قليلة، والثابت يدخل عبداً قابلاً بهمة محترقة إلى أصله ليهبه من عوارفه ما عوّده، فإذا خرج خرج نوراً يستضاء به، فمثل الداخل إلى ذلك الجناب العالي بربوبيته مثل من يدخل بسراج موقود، ومثل الذي يدخل بعبوديته مثل من يدخل بفتيلة لا ضوء فيها أو بقبضة حشيش فيها نار غير مشتعلة، فإذا دخلا بهذه المثابة هبّ عليهما نفس من الرحمن فطفىء لذلك الهبوب السراج واشتعل الحشيش فخرج صاحب السراج في ظلمة وخرج صاحب الحشيش في نور يستضاء به.

فانظر ما أعطاه الاستعداد، فكل هارب من هناك إنما يخاف على سراجه أن ينطفىء فهو يخاف على ربوبيته أن تزول فيفرّ إلى محل ظهورها ولكن ما يخرج إلاّ وقد طفىء سراجه، ولو خرج به موقداً كما دخل ولم يؤثر فيه ذلك الهبوب لادّعى الربوبية حقاً، ولكن من عصمة الله له كان ذلك، ومن دخل عبداً لا يخاف، وإذا اشتعلت فتيلته هنالك عرف من أشعلها ورأى المنّة له سبحانه في ذلك فخرج عبداً منوّراً كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١] يعني عبداً فكان في خروجه إلى أمّته ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٦] كما دخل عبداً ذليلاً عارفاً بما دخل وعلى من دخل، فمن وفّقه الله تعالىٰ ولزم عبوديته في جميع أحواله وإن عرف أصليه فيرجح الأصل الأقرب إليه جانب أمّه فإنه ابن أمّه بلا شك، ألا ترى إلى السنّة في تلقين الميت عند حصوله في قبره يقال له: يا عبد الله، ويا ابن أمة الله، فينسب إلى أمّه ستراً من الله عليها، فأضيف إلى أمّه لأنها أحق به لظهور نشأته ووجود عينه، فهو لأبيه ابن فراش، وهو ابن لأمّه حقيقة، فافهم ما أعطيناك من المعرفة بك في هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون

في معرفة ما يلقي المريد على نفسه من الأعمال قبل وجود الشيخ

[نظم: الهزج]

إذا لـــم تَـــلْـــقَ أســـتـــاذا   فـــكـــن فـــي نَـــعْـــتِ مـــن لاذا

وقـــطَّـــعَ نَـــفْـــسَـــه والـــلـــيـ   ـلَ أفـــلاذاً فـــأفـــلاذا

وتـــســـبـــيـــحـــاً وقـــرآنـــاً   فـــأشْـــهَـــدَهُ بـــمـــن حـــاذَى

وأضْـــعَـــفَـــهُ وأحـــيـــاه   فـــلـــمـــا لـــم يَـــقُـــلْ مـــاذا

فـــكـــان لـــه الـــذي يـــبـــغـــيـ   ـه تـــلـــمـــيـــذاً وأســـتـــاذا

وجـــاءتـــه مـــعـــارِفُـــه   زُرافـــاتٍ وأفـــذاذا

فـــهـــذا قـــد أبَـــنْـــتُ لـــه   فـــلا يـــنـــفـــكُّ عـــن هـــذا

اعلم أيّدك الله ونورك أنه أول ما يجب على الداخل في هذه الطريقة الإلهية المشروعة طلب الأستاذ حتى يجده، وليعمل في هذه المدّة التي يطلب فيها الأستاذ الأعمال التي أذكرها له وهي أن يلزم نفسه تسعة أشياء فإنها بسائط الأعداد، فيكون له في التوحيد إذا عمل عليها قدم راسخة، ولهذا جعل الله الأفلاك تسعة أفلاك، فانظر ما ظهر من الحكمة الإلهية في حركات هذه التسعة فاجعل منها أربعة في ظاهرك وخمسة في باطنك.

فالتي في ظاهرك: الجوع، والسهر، والصمت، والعزلة، فاثنان فاعلان وهما: الجوع والعزلة، واثنان منفعلان وهما: السهر والصمت، وأعني بالصمت ترك كلام الناس والاشتغال بذكر القلب ونطق النفس عن نطق اللسان إلاّ فيما أوجب الله عليه مثل قراءة أمّ القرآن أو ما تيسّر من القرآن في الصلاة والتكبير فيها، وما شرع من التسبيح والأذكار والدعاء والتشهّد والصلاة على رسول الله ﷺ إلى أن تسلم منها فتتفرّع لذكر القلب بصمت اللسان، فالجوع يتضمن السهر، والصمت تتضمنه العزلة. وأما الخمسة الباطنة فهي: الصدق، والتوكّل، والصبر، والعزيمة، واليقين، فهذه التسعة أمّهات الخير تتضمن الخير كله والطريقة مجموعة فيها فالزمها حتى تجد الشيخ.

وصل شارح: وأنا أذكر لك من شأن كل واحدة من هذه الخصال ما يحرّضك على العمل بها والدؤوب عليها والله ينفعنا وإياك ويجعلنا من أهل عنايته. ولنبتدىء بالظاهرة أوّلاً ولنقل: أمّا العزلة وهي رأس الأربعة المعتبرة التي ذكرناها عند الطائفة أخبرني أخي في الله تعالىٰ عبد المجيد بن سلمة خطيب مرشانة الزيتون من أعمال إشبيلية من بلاد الأندلس وكان من أهل الجدّ والاجتهاد في العبادة فأخبرني سنة ست وثمانين وخمسمائة قال: كنت بمنزلي بمرشانة ليلة من الليالي فقمت إلى حزبي من الليل فبينما أنا واقف في مصلاي وباب الدار وباب البيت عليّ مغلق وإذا بشخص قد دخل عليّ وسلّم وما أدري كيف دخل. فجزعت منه وأوجزت في صلاتي فلما سلمت قال لي: يا عبد المجيد من تأنّس بالله لم يجزع، ثم نفض

الثوب الذي كان تحتي أصلي عليه ورمى به وبسط تحتي حصيراً صغيراً كان عنده وقال لي: صلّ على هذا، قال: ثم أخذني وخرج بي من الدار، ثم من البلد، ومشى بي في أرض لا أعرفها وما كنت أدري أين أنا من أرض الله، فذكرنا الله تعالىٰ في تلك الأماكن ثم ردّني إلى بيتي حيث كنت قال؛ فقلت له: يا أخي بماذا يكون الأبدال أبدالاً؟ فقال لي: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت ثم سمّاها لي: الجوع، والسهر، والصمت، والعزلة قلباً، ثم قال لي عبد المجيد: هذا هو الحصير فصليت عليه وهذا الرجل كان من أكابرهم يقال له معاذ بن أشرس.

فأمّا العزلة فهي أن يعتزل المريد كل صفة مذمومة وكل خلق دنيء هذه عزلته في حاله. وأمّا في قلبه فهو أن يعتزل بقلبه عن التعلّق بأحد من خلق الله من أهل، ومال، وولد، وصاحب، وكل ما يحول بينه وبين ذكر ربّه بقلبه حتى عن خواطره، ولا يكن له همّ إلاّ واحد وهو تعلّقه بالله. وأما في حسّه فعزلته في ابتداء حاله الانقطاع عن الناس وعن المألوفات إمّا في بيته وإمّا بالسياحة في أرض الله، فإن كان في مدينة فبحيث لا يعرف، وإن لم يكن في مدينة فيلزم السواحل والجبال والأماكن البعيدة من الناس، فإن أنست به الوحوش وتألفت به وأنطقها الله في حقّه فكلمته أو لم تكلمه فليعتزل عن الوحوش والحيوانات ويرغب إلى الله تعالىٰ في أن لا يشغله بسواه وليثابر على الذكر الخفيّ، وإن كان من حفاظ القرآن فيكون له منه حزب في كل ليلة يقوم به في صلاته لئلا ينساه ولا يكثر الأوراد ولا الحركات وليردّ اشتغاله إلى قلبه دائماً هكذا يكون دأبه وديدنه. وأما الصمت فهو أن لا يتكلم مع مخلوق من الوحوش والحشرات التي لزمته في سياحته أو في موضع عزلته، وإن ظهر له أحد من الجن أو من الملأ الأعلى فيغمض عينه عنهم ولا يشغل نفسه بالحديث معهم وإن كلّموه، فإن تفرض عليه الجواب أجاب بقدر أداء الفرض بغير مزيد، وإن لم يتفرض عليه سكت عنهم واشتغل بنفسه، فإنهم إذا رأوه على هذه الحالة اجتنبوه ولم يتعرضوا له واحتجبوا عنه فإنهم قد علموا أنه من شغل مشغولاً بالله عن شغله به عاقبه الله أشد عقوبة.

وأمّا صمته في نفسه عن حديث نفسه فلا يحدث نفسه بشيء ممّا يرجو تحصيله من الله فيما انقطع إليه فإنه تضييع للوقت فيما ليس بحاصل فإنه من الأمانيّ، وإذا عوّد نفسه بحديث نفسه حال بينه وبين ذكر الله في قلبه، فإنّ القلب لا يتسع للحديث والذكر معاً فيفوته السبب المطلوب منه في عزلته وصمته وهو ذكر الله تعالىٰ الذي تتجلّى به مرآة قلبه فيحصل له تجلّي ربه. وأمّا الجوع فهو التقليل من الطعام فلا يتناول منه إلاّ قدر ما يقيم صلبه لعبادة ربّه في صلاة فريضته، فإن التنفّل في الصلاة قاعداً بما يجده من الضعف لقلة الغذاء أنفع وأفضل وأقوى في تحصيل مراده من الله من القوّة التي تحصل له من الغذاء لأداء النوافل قائماً، فإن الشبع داع إلى الفضول، فإن البطن إذا شبع طغت الجوارح وتصرفت في الفضول من الحركة والنظر والسماع والكلام وهذه كلها قواطع له عن المقصود.

وأمّا السهر فإنّ الجوع يولده لقلة الرطوبة والأبخرة الجالبة للنوم ولا سيما شرب الماء فإنه نوم كله وشهوته كاذبة، وفائدة السهر التيقظ للاشتغال مع الله بما هو بصدده دائماً، فإنه إذا نام

انتقل إلى عالم البرزخ بحسب ما نام عليه لا يزيد فيفوته خير كثير ممّا لا يعلمه إلاّ في حال السهر، وأنه إذا التزم ذلك سرى السهر إلى عين القلب وانجلى عين البصيرة بملازمة الذكر فيرى من الخير ما شاء الله تعالىٰ، وفي حصول هذه الأربعة التي هي أساس المعرفة لأهل الله وقد اعتنى بها الحارث بن أسد المحاسبي أكثر من غيره وهي: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، ومعرفة الشيطان، وقد ذكر بعضهم معرفة الهوى بدلاً من معرفة الله وأنشدوا في ذلك: [الكامل]

إنـي بُـلِـيـتُ بـأربـعٍ يـرمـيـنـنـي ... بـالـنـبـل مـن قـوسٍ لـهـا تَـوْتِـيـرُ

إبـلـيسُ والـدنـيـا ونـفـسـي والـهـوى ... يـا ربُّ أنـت عـلـى الـخـلاصِ قـديـرُ

وقال الآخر: [الكامل]

إبـلـيسُ والـدنـيـا ونـفـسـي والـهـوى ... كيف الخلاصُ وكلُّهم أعدائي

وأمّا الخمسة الباطنة فإنه حدثتني المرأة الصالحة مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائي قالت: رأيت في منامي شخصاً كان يتعاهدني في وقائعي وما رأيت له شخصاً قط في عالم الحسّ فقال لها: تقصدين الطريق؟ قالت: فقلت له: إي والله أقصد الطريق ولكن لا أدري بماذا قالت، فقال لي بخمسة وهي: التوكل، واليقين، والصبر، والعزيمة، والصدق، فعرضت رؤياها عليّ فقلت لها: هذا مذهب القوم، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالىٰ في داخل الكتاب فإنّ لها أبواباً تخصّها، وكذلك الأربعة التي ذكرناها لها أيضاً أبواب تخصّها في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السادس والعشرون.

(الجزء السابع والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع والخمسون
في معرفة الإشارات

[نظم: الكامل]

عـلـم الإشـارة تـقـريـبٌ وإبـعـادُ ... وسَـيْـرُهـا فـيـك تـأويـبٌ وإسـئـادُ

فـابـحـثْ عـلـيـه فـإنّ الله صـيَّـرَهُ ... لـمـن يـقـوم بـه إفْـكٌ وإلْـحـادُ

تـنـبـيـهُ عِـصْـمـةِ مـن قـال الإلـه لـه ... كُـنْ فـاسـتـوى كـائـنـاً والـقـومُ أشْـهَـادُ

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن الإشارة عند أهل طريق الله تؤذن بالبعد أو حضور الغير، قال بعض الشيوخ في محاسن المجالس: الإشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة، يريد أن ذلك تصريح بحصول المرض فإن العلة مرض وهو قولنا أو حضور الغير، ولا يريد بالعلة هنا السبب التي اصطلح عليها العقلاء من أهل النظر، وصورة المرض فيها أنّ المشير غاب عنه وجه الحق في ذلك الغير، ومن غاب عنه وجه الحق في الأشياء تمكنت منه

الدعوى والدعوى عين المرض، وقد ثبت عند المحققين أنه ما في الوجود إلاَّ الله، ونحن وإن كنّا موجودين فإنما كان وجودنا به، ومن كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم، والإشارة قد ثبتت وظهر حكمها فلا بدّ من بيان ما هو المراد بها.

فاعلم أن الله عزّ وجلّ لما خلق الخلق خلق الإنسان أطواراً فمنا العالم والجاهل، ومنّا المنصف والمعاند، ومنّا القاهر ومنّا المقهور، ومنّا الحاكم ومنّا المحكوم، ومنّا المتحكم ومنّا المتحكم فيه، ومنّا الرئيس والمرؤوس، ومنّا الأمير والمأمور، ومنّا الملك والسوقة، ومنّا الحاسد والمحسود، وما خلق الله أشق ولا أشدّ من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهيّ الذين منحهم أسراره في خلقه، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام.

ولما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم كما ذكرناه عدل أصحابنا إلى الإشارات كما عدلت مريم عليها السلام من أجل أهل الإفك والإلحاد إلى الإشارة، فكلامهم رضي الله عنهم في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلى نفوسهم مع تقريرهم إياه في العموم وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل ذلك الكتاب بلسانهم فعمّ به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٣] يعني الآيات المنزّلة في الآفاق وفي أنفسهم، فكل آية منزّلة لها وجهان: وجه يرونه في نفوسهم، ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمّون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ولا يقولون في ذلك إنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق واقتدوا في ذلك بسنن الهدى، فإنّ الله كان قادراً على تنصيص ما تأوّله أهل الله في كتابه، ومع ذلك فما فعل بل أدرج في تلك الكلمات الإلهية التي نزلت بلسان العامّة علوم معاني الاختصاص التي فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذي رزقهم.

ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا في نفوسهم إذا نظروا في الآية بالعين الظاهرة التي يسلمونها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون في ذلك ويعلو بعضهم على بعض في الكلام في معنى تلك الآية، ويقرّ القاصر بفضل غير القاصر فيها وكلهم في مجرى واحد، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم في ذلك ينكرون على أهل الله إذا جاؤوا بشيء ممّا يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلاَّ بالقلم المعتاد في العرف، وصدقوا فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلاَّ بالتعلّم وهو الإعلام الرحمانيّ الربانيّ، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥] فإنه القائل: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن: ٣ ـ ٤] فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا نشك أنّ أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام والله يقول

في حق الرسول: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٣] وقال في حق عيسىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٤٨] وقال في حق خضر صاحب موسىٰ عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٩٦] فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا إن العلم لا يكون إلاً بالتعلّم، وأخطؤوا في اعتقادهم أنّ الله لا يعلم من ليس بنبيّ ولا رسول يقول الله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٩] وهي العلم وجاء بمن وهي نكرة ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا على الآخرة وآثروا جانب الخلق على جانب الحق وتعوّدوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ورأوا في زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة حجبهم ذلك عن أن يعلموا أنّ لله عباداً تولى الله تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذي لا يشك مؤمن في كمال علمه ولا غير مؤمن، فإنّ الذين قالوا: إنّ الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفي العلم عنه بها وإنما قصدوا بذلك أنه تعالىٰ لا يتجدد له علم بشيء بل علمها مندرجة في علمه بالكليات فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين، وقصدوا تنزيهه سبحانه في ذلك وإن أخطؤوا في التعبير عن ذلك، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٨] في أثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] فبيّن لها الفجور من التقوى إلهاماً من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوى كما كان أصل ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [سورة السجدة: الآية ٢] من الله على أنبيائه كان تنزيل الفهم من الله على قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها ولا تعملت فيه بل جاءت به من عند الله كما قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢] وقال فيه إنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٢].

وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورؤيته وعلماء الرسوم يعلمون ذلك فينبغي أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضاً تنزيلاً من عند الله على قلوب أهل الله كما كان الأصل، وكذا قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب ما هو إلاً فهم يؤتيه الله من شاء من عباده في هذا القرآن، فجعل ذلك عطاء من الله يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولى به من غيرهم، فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكّم في الخلق بما يفتون به وألحقهم بالذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: الآية ٧] وهم في إنكارهم على أهل الله ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان في غد يوم القيامة يكون الأمر في الكل كما قال القائل: [الرجز]

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أَفَرَسٌ تحتَكَ أم حمارُ

كما يتميز المحقق من أهل الله من المدّعي في الأهلية غداً يوم القيامة قال بعضهم: [الوافر]

إذا اشتبكَتْ دموعٌ في خدودٍ تبيَّنَ من بكى ممَّن تباكَى

أين عالم الرسوم من قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم في الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقراً هل هذا إلاً من الفهم الذي أعطاه الله في القرآن، فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسوم، فإن الله يقول فيهم ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢] فأقامهم مقام الرسول في التفقّه في الدين والإنذار وهو الذي يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله ﷺ على بصيرة لا على غلبة ظنّ كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتي به ويقوله على بصيرة منه في دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه، وبين من يفتي في دين الله بغلبة ظنّه.

ثم إن من شأن عالم الرسوم في الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول: فهمني ربي ويرى أنه أفضل منه وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى في سرّي مراده بهذا الحكم في هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ في واقعتي فأعلمني بصحة هذا الخبر المروي عنه وبحكمه عنده. قال أبو يزيد البسطاميّ رضي الله عنه في هذا المقام وصحته يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت. يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان وأين هو؟ قالوا: مات عن فلان، وأين هو؟ قالوا: مات. وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله إذا قيل له: قال فلان عن فلان عن فلان يقول: ما نريد نأكل قديداً هاتوا ائتوني بلحم طريّ يرفع همم أصحابه، هذا قول فلان أيّ شيء قلت أنت ما خصّك الله به من عطاياه من علمه اللدني أي حدثوا عن ربكم واتركوا فلاناً وفلاناً فإن أولئك أكلوه لحماً طرياً، والواهب لم يمت وهو أقرب إليكم من حبل الوريد والفيض الإلهيّ والمبشرات ما سدّ بابها وهي من أجزاء النبوّة والطريق واضحة والباب مفتوح والعمل مشروع والله يهرول لتلقي من أتى إليه يسعى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ و ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [سورة المجادلة: الآية ٧] فمن كان معك بهذه المثابة من القرب مع دعواك العلم بذلك والإيمان به لم تترك الأخذ عنه والحديث معه وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه، فتكون حديث عهد بربك يكون المطر فوق رتبتك حيث برز إليه رسول الله ﷺ بنفسه حين نزل وحسر عن رأسه حتى أصابه الماء فقيل له في ذلك فقال: إنه حديث عهد بربّه تعليماً لنا وتنبيهاً.

ثم لتعلم أن أصحابنا ما اصطلحوا على ما جاؤوا به في شرح كتاب الله بالإشارة دون غيرها من الألفاظ إلاً بتعليم إلهيّ جهله علماء الرسوم، وذلك أن الإشارة لا تكون إلاً بقصد المشير بذلك أنه يشير لا من جهة المشار إليه، وإذا سألتهم عن شرح مرادهم بالإشارة أجروها عند السائل من علماء الرسوم مجرى الغالب، مثال ذلك الإنسان يكون في أمر ضاق به صدره

وهو مفكر فيه فينادي رجل رجلاً آخر اسمه فرج فيقول: يا فرج فيسمعه هذا الشخص الذي ضاق صدره فيستبشر ويقول: جاء فرج الله إن شاء الله يعني من هذا الضيق الذي هو فيه وينشرح صدره كما فعل رسول الله ﷺ في مصالحة المشركين لما صدّوه عن البيت فجاء رجل من المشركين اسمه سهيل فقال رسول الله ﷺ: **«سهل الأمر»** أخذه فألاً، فكان كما تفاءل به رسول الله ﷺ فانتظم الأمر على يد سهيل، وما كان أبوه قصد ذلك حين سمّاه به وإنما جعله له اسماً علَماً يعرف به من غيره وإن كان ما قصد أبوه تحسين اسم ابنه إلاّ لخير. ولما رأى أهل الله أنه قد اعتبر الإشارة استعملوها فيما بينهم ولكنهم بيّنوا معناها ومحلها ووقتها فلا يستعملونها فيما بينهم ولا في أنفسهم إلاّ عند مجالسة من ليس من جنسهم أو لأمر يقوم في نفوسهم، واصطلح أهل الله على ألفاظ لا يعرفها سواهم إلاّ منهم، وسلكوا طريقة فيها لا يعرفها غيرهم، كما سلكت العرب في كلامها من التشبيهات والاستعارات ليفهم بعضهم عن بعض، فإذا خلوا بأبناء جنسهم تكلموا بما هو الأمر عليه بالنص الصريح، وإذا حضر معهم من ليس منهم تكلموا بينهم بالألفاظ التي اصطلحوا عليها، فلا يعرف الجليس الأجنبي ما هم فيه ولا ما يقولون.

ومن أعجب الأشياء في هذه الطريقة ولا يوجد إلاّ فيها أنه ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والتعاليم والمتكلمين والفلاسفة إلاّ ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلاّ بتوقيف من الشيخ أو من أهله لا بدّ من ذلك إلاّ أهل هذه الطريقة خاصة إذا دخلها المريد الصادق وبهذا يعرف صدقه عندهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه، فإذا فتح الله له عين فهمه وأخذ عن ربه في أول ذوقه وما يكون عنده خبر بما اصطلحوا عليه ولم يعلم أن قوماً من أهل الله اصطلحوا على ألفاظ مخصوصة، فإذا قعد معهم وتكلموا باصطلاحهم على تلك الألفاظ التي لا يعرفها سواهم أو من أخذها عنهم فهم هذا المريد الصادق جميع ما يتكلمون به حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ويشاركهم في الكلام بها معهم ولا يستغرب ذلك من نفسه بل يجد علم ذلك ضرورياً لا يقدر على دفعه وكأنه ما زال يعلمه ولا يدري كيف حصل له، والدخيل من غير هذه الطائفة لا يجد ذلك إلاّ بموقف، فهذا معنى الإشارة عند القوم ولا يتكلمون بها إلاّ عند حضور الغير أو في تآليفهم ومصنفاتهم لا غير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون

في معرفة الخواطر الشيطانية

[نظم: الهزج]

لَـوَ اَنَّ الله يُـفْـهِـمُـنـا الـــذي فـيـهـا مـن الـحِـكَـم
رأيـتُ الأمـرَ يَـعـلـو عـن مـجـال الـفـكـر والـهِـمَـم
يَـدِقُّ فـلـيـس تُـظْـهِـره إلـيـك جـوامـعُ الـكَـلِـم

الخواطر أربعة لا خامس لها: خاطر رباني، وخاطر ملكي، وخاطر نفسي، وخاطر شيطاني، ولا خامس هناك. وقد ذكرنا معرفة الخواطر في هذا الكتاب وفي بعض كتبنا، فلنذكر في هذا الباب الخاطر الشيطاني خاصة.

اعلم أن الشياطين قسمان: قسم معنويّ وقسم حسيّ، ثم القسم الحسيّ من ذلك على قسمين: شيطانيّ إنسيّ وشيطانيّ جني. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٢] فجعلهم أهل افتراء على الله. وحدث فيما بينهما في الإنسان شيطان معنوي وذلك أن شيطان الجنّ والإنس إذا ألقى من ألقى منهم في قلب الإنسان أمراً ما يبعده عن الله به، فقد يلقي أمراً خاصاً وهو خصوص مسألة بعينها، وقد يلقي أمراً عامّاً ويتركه، فإن كان أمراً عامّاً فتح له في ذلك طريقاً إلى أمور لا يفطن لها الجنيّ ولا الإنسيّ تتفقه فيه النفس وتستنبط من تلك الشبه أموراً إذا تكلم بها تعلم إبليس الغواية، فتلك الوجوه التي تتفتح له في ذلك الأسلوب العام الذي ألقاه إليه أولاً شيطان الإنس أو شيطان الجنّ تسمى الشياطين المعنوية، لأن كل واحد من شياطين الإنس والجنّ يجهلون ذلك وما قصدوه على التعيين، وإنما أرادوا بالقصد الأوّل فتح هذا الباب عليه لأنهم علموا أن في قوّته وفطنته أن يدقق النظر فيه، فينقدح له من المعاني المهلكة ما لا يقدر على ردّها بعد ذلك، وسبب ذلك الأصل الأول فإنه اتخذه أصلاً صحيحاً وعوّل عليه فلا يزال التفقّه فيه يسرقه حتى خرج به عن ذلك الأصل وعلى هذا جرى أهل البدع والأهواء، فإن الشياطين ألقت إليهم أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه، ثم طرأت عليهم التلبيسات من عدم الفهم حتى ضلّوا فينسب ذلك إلى الشيطان بحكم الأصل، ولو علموا أنّ الشيطان في تلك المسائل تلميذ له يتعلم منه، وأكثر ما ظهر ذلك في الشيعة ولا سيما في الإمامية منهم، فدخلت عليهم شياطين الجنّ أولاً بحب أهل البيت واستفراغ الحب فيهم، ورأوا أن ذلك من أسنى القربات إلى الله وكذلك هو لو وقفوا ولا يزيدون عليه إلاّ أنهم تعدّوا من حبّ أهل البيت إلى طريقين: منهم من تعدّى إلى بغض الصحابة وسبّهم حيث لم يقدموهم وتخيّلوا أن أهل البيت أولى بهذه المناصب الدنيوية فكان منهم ما قد عرف واستفاض، وطائفة زادت إلى سبّ الصحابة القدح في رسول الله ﷺ وفي جبريل عليه السلام وفي الله جلّ جلاله حيث لم ينصوا على رتبتهم وتقديمهم في الخلافة للناس حتى أنشد بعضهم: ما كان من بعث الأمين أميناً وهذا كله واقع من أصل صحيح وهو حب أهل البيت أنتج في نظرهم فاسداً فضلّوا وأضلّوا. فانظر ما أدّى إليه الغلوّ في الدين. أخرجهم عن الحد فانعكس أمرهم إلى الضد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٧٧].

وطائفة ألقت إليهم الشياطين أصلاً صحيحاً لا يشكون فيه أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»**، ثم تركتهم بعدما حببت إليهم العمل على هذا، فجعل بعض الناس لحرصه على الخير يتفقه لكونه يريد تحصيل أجور من عمل بها، فإذا سنّ

سنّة حسنة يخاف إذا نسبها إلى نفسه لا تقبل منه فيضع لأجل قبولها حديثاً عن رسول الله ﷺ في ذلك ويتأوّل أن ذلك داخل في حكم قوله: من سنّ سنّة حسنة فأجاز الكذب على رسول الله ﷺ وأن يقول عليه ﷺ ما لم يقله ولا فاه به لسانه ويرى أن ذلك خير فإن الأصول تعضده، فإذا أخطر له الملك قوله ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» وأخطر له أيضاً قوله ﷺ: «**لَيسَ كَذِبٌ عَلَيَّ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» يتأوّل ذلك كله بإلقاء الشيطان في خاطره فيقول له: إنما ذلك إذا دعا إلى ضلالة وأنا ما سننت إلاَّ خيراً فهو مأجور بالضرورة من كونه سنّ سنّة حسنة، ومأزور من كونه كذب على رسول الله ﷺ وقال عنه إنه صرّح بما لم يقله ﷺ وكذلك إن كان من أهل الخلوات والرياضات واستعجل الرياسة من قبل أن يفتح الله عليه باباً من أبواب عبوديته فيلزم طريق الصدق ولا يقف مع رسول الله ﷺ مثل ما وقف الأول، وأنه يجري إلى الافتراء على الله فينسب ذلك الذي سنّه إلى الله تعالىٰ ويتأوّل أنه لا فاعل إلاَّ الله وأنه تعالىٰ المنطق عباده ويصير من وقته لذلك أشعرياً مجبوراً ويقول هذا كله خير فإني ما قصدت إلاَّ أن أعضد تلك السنّة الحسنة، فلم أر أشد في تقويتها من أني أسندها إلى الله تعالىٰ كما هي في نفس الأمر خلق لله تعالىٰ أجراها الله على لساني، هذا كله يحدث به نفسه لا يقول ذلك لأحد، فإذا كان مع الناس يريهم أن ذلك جاءه من عند الله كما يجيء لأولياء الله على تلك الطريق، فإذا أخطر له الملك قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٣] يتأوّل ذلك مع نفسه ويقول: ما أنا مخاطب بهذه الآية وإنما خوطب بها أهل الدعوى الذين ينسبون الفعل إلى أنفسهم فإنه قال: افترى فنسب فعل الافتراء إلى هذا القائل، وأنا أقول: إن الأفعال كلها لله تعالىٰ لا إليّ فهو الذي قال على لساني ألا ترى النبيّ ﷺ قال في الصلاة إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده فكذلك هذا، ثم قال: أو قال أوحي إليّ فأضاف القول إليه وكذلك قوله إليّ ومن أنا حتى أقول إليّ إذ الله هو المتكلم وهو السميع، ثم قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وما أقول أنا ذلك بل الإنزال كله من الله، فإذا تفقه في نفسه في هذا كله افترى على الله كذباً وزيّن له سوء عمله فرآه حسناً. فهذا أصل صحيح لهاتين الطائفتين قد ألقاه الشيطان إليهما وتركه عندهما وبقي يتفقّه في ذلك فقهاً نفسياً.

فإن لم يكن الإنسان على بصيرة وتمييز من خواطره حتى يفرق بين إلقاء الشيطان وإن كان خيراً، وبين إلقاء الملك والنفس ويميز بينهما ميزاً صحيحاً وإلاَّ فلا يفعل فإنه لا يفلح أبداً فإن الشيطان لا يأتي إلى كل طائفة إلاَّ بما هو الغالب عليها، وليس غرضه من الصالحين إلاَّ أن يجهلوه في الأخذ عنه، فإذا جهلوه ونسبوا ذلك إلى الله ولم يعرفوا على أي طريق وصل إليهم كأنه قنع منهم بهذا القدر من الجهل وعرف أنهم تحت سلطانه فلا يزال يستدرجه في خيريته حتى يتمكن منه في تصديق خواطره وأنها من الله فيسلخه من دينه كما تنسلخ الحية من جلدها. ألا ترى صورة الجلد المسلوخ منها على صورة الحية؟ كذلك هذا الأمر.

جاء إبليس إلى عيسىٰ عليه السلام في صورة شخص شيخ في ظاهر الحسّ لأن الشيطان ليس له إلى باطن الأنبياء عليهم السلام من سبيل، فخواطر الأنبياء عليهم السلام كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية لا حظّ للشيطان في قلوبهم، ومن يحفظ من الأولياء في علم الله يكون بهذه المثابة في العصمة ممّا يلقي لا في العصمة من وصوله إليه، فالوليّ المعتنى به على علامة من الله فيما يلقي إليه الشيطان، وسبب ذلك أنه ليس بمشرع والأنبياء مشرعون فلذلك عصمت بواطنهم فقال لعيسىٰ عليه السلام: يا عيسىٰ قل لا إله إلاّ الله ورضي منه أن يطيع أمره في هذا القدر، فقال عيسىٰ عليه السلام: أقولها لا لقولك لا إله إلاّ الله فرجع خاسئاً.

ومن هنا تعلم الفرق بين العلم بالشيء وبين الإيمان به، وأن السعادة في الإيمان وهو أن تقول ما تعلمه. وما قلته لقول رسولك الأول الذي هو موسىٰ عليه السلام لقول هذا الرسول الثاني الذي هو محمد ﷺ لا لعلمك ولا للقول الأول، فحينئذ لك يشهد بالإيمان ومآلك السعادة، وإذ قلت ذلك لا لقوله وأظهرت أنك قلت ذلك لقوله كنت منافقاً قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٤] يريد أهل الكتاب حيث قالوا ما قالوه لأمر نبيهم عيسىٰ أو موسىٰ أو من كان من أهل الإيمان بذلك من الكتب المتقدمة ولهذا قال لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم قال لهم: آمنوا بأنبيائي قولوا لا إله إلاّ الله لقول محمد ﷺ لا لعلمكم بذلك ولا لإيمانكم بنبيكم الأول فتجمعوا بين الإيمانين فيكون لكم أجران فيقنع الشيطان من الإنسان أن يلبس عليه بهذا القدر، فلا يفرق بين ما هو من عند الله من حيث ما هو من عند الله، ولا بين طريق الملك والنفس والشيطان، فالله يجعل لك علامة تعرف بها مراتب خواطرك، وممّا تعرف به الخواطر الشيطانية وإن كانت في الطاعة بعدم الثبوت على الأمر الواحد وسرعة الاستبدال من خاطر بأمر ما إلى خاطر بأمر آخر فإنه حريص وهو مخلوق من لهب النار ولهب النار سريع الحركة، فأصل إبليس عدم البقاء على حالة واحدة في أصل نشأته فهو بحكم أصله، والإنسان له الثبوت فإنه من التراب فله البرد واليبس فهو ثابت في شغله، وكذلك الخواطر النفسية ثابتة ما لم يزلزلها الملك أو الشيطان.

ومتعلق أصل الخواطر الشيطانية إنما هو المحظور فعلاً كان أو تركاً، ثم يليه المكروه فعلاً كان أو تركاً، فالأول في العامة والثاني في العباد من العامة، وقد يتعلق بالمباح في حق المبتدي من أهل طريق الله، ويأتي بالمندوب في حق المتوسطين من أهل الله أصحاب السماع، فإنه يستدرج كل طائفة من حيث ما هو الغالب عليها، فإنه عالم بمواقع المكر والاستدراج، ويأتي العارفين بالواجبات فلا يزال بهم حتى نووا مع الله فعل أمر ما من الطاعات، وهو في نفس الأمر عهد يعهده مع الله، فإذا استوثق منه في ذلك وعزم وما بقي إلاّ الفعل أقام له عبادة أخرى أفضل منها شرعاً، فيرى العارف أن يقطع زمانه بالأولى فيترك الأول ويشرع في الثاني فيفرح إبليس حيث جعله ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، والعارف لا خبر له بذلك، فلو عرف من أول أن ذلك من الشيطان عرف كيف يرده وكيف يأخذه كما فعل عيسىٰ عليه السلام، وكل متمكن من أهل الله من ورثة الأنبياء فيراها مع كونها حسنة هي خواطر شيطانية.

وكذا جاء للمنافق من أهل الكتاب قال له: ألم تعلم أن نبيك قد بشّر بهذا الرجل وقد علمت أنه هو والنبوة تجمعهما فقل له: إنك رسول الله لقول نبيّك لا لقوله ولا فرق بينهما، فيقول المنافق عند ذلك: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [سورة المنافقون: الآية ١] فأكذبهم الله فقال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على ما قرّرهم الشيطان فقال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة المنافقون: الآية ١] في أنهم قالوا ذلك لقولك لا في قولهم إنك رسول الله، ولو أراد ذلك كان نفياً لرسالته ﷺ، فقد أعلمتك بمداخل الشيطان إلى نفوس العالم لتحذره وتسأل الله أن يعطيك علامة تعرفه بها، وقد أعطاك الله في العامة ميزان الشريعة، وميّز لك بين فرائضه ومندوباته ومباحه ومحظوره ومكروهه، ونصّ على ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله.

فإذا خطر لك خاطر في محظور أو مكروه فتعلم أنه من الشيطان بلا شك، وإذا خطر لك خاطر في مباح فتعلم أنه من النفس بلا شك، فخاطر الشيطان بالمحظور والمكروه اجتنبه فعلاً كان أو تركاً، والمباح أنت مخيّر فيه، فإن غلب عليك طلب الأرباح فاجتنب المباح واشتغل بالواجب أو المندوب، غير أنك إذا تصرّفت في المباح فتصرف فيه على حضور أنه مباح، وأن الشارع لولا ما أباحه لك ما تصرّفت فيه فتكون مأجوراً في مباحك لا من حيث كونه مباحاً إلاَّ من حيث إيمانك به أنه شرع من عند الله، فإن الحكم لا ينتقل بعد موت رسول الله ﷺ، فإن الحكم هو عين الشرع وقد سدّ ذلك الباب، فالمباح مباح لا يكون واجباً ولا محظوراً أبداً، وكذلك كل واحد من الأحكام، وإن خطر لك خاطر في فرض فقم إليه بلا شك فإنه من الملك، وإذا خطر لك خاطر في مندوب فاحفظ أول الخاطر فإنه قد يكون من إبليس فاثبت عليه، فإذا خطر لك أن تتركه لمندوب آخر هو أعلى منه وأولى فلا تعدل عن الأول واثبت عليه واحفظ الثاني وافعل الأول ولا بدّ، فإذا فرغت منه اشرع في الثاني فافعله أيضاً فإن الشيطان يرجع خاسئاً بلا شك حيث لم يتفق له مقصوده، وبهذا الدواء يذهب مرض الشيطان من نفسك، وتكون عمريّ المقام ما يلقاك الشيطان في فج إلاَّ سلك فجاً غير فجك إذا عاملته بمثل هذا فحافظ على ما نبهتك عليه فإن الله قد أثنى على الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٦١] ويكفي هذا القدر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون

في معرفة الاستقراء وصحته من سقمه

[نظم: الوافر]

لـلاسـتـقـراءِ حـدٌّ فـي الـمـعـانـي ... يـلازمـه الـقـويُّ مـن الـرجـالِ

لـه حُـكْـمٌ ولا يـعـطـيـك عـلـمـاً ... فـصـورتُـه كـمـنْـزلـة الـظِّـلالِ

مـزاحَـمَـةُ الـدلـيـل يـقـوم فـيـهـا ... وأيـن الـعـيـنُ مـن شـخـص الـمـثـالِ

مُـنَـازلَـةُ الـظـنـون وإنَّ مـنـهـا ... لـمُـغْـطـيـك الـنـزولَ إلـى سَـفَـالِ

فلا تحكُمْ بالاستقراء قطعاً فما عَيْنُ الغزالةِ كالغزالِ
وإن ظَهَرَتْ بالاستقرا علومٌ فما حكم التَّضمُّر كالهزالِ

خرّج مسلم في صحيحه أن الله يقول: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين. فسمّى نفسه عزّ وجلّ: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: الآية ٦٤]. وقال: إنه ﴿خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٥]. وقال في الصحيح: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً**». فإذا استقرأنا الوجود أن الكرام الأصول لا يصدر منهم إلاَّ مكارم الأخلاق من الإحسان للمحسن، والتجاوز عن المسيء، والعفو عن الزلّة، وإقالة العثرة، وقبول المعذرة، والصفح عن الجاني، وأمثال هذا ممّا هو من مكارم الأخلاق واستقرأنا ذلك فوجدناه لا يخطىء يقول شاعر العرب في ذلك: إن الجياد على أعراقها تجري. والحق أولى بصفة مكارم الأخلاق من المخلوقين، فهنا تكون صحة الاستقراء في الإلهيات، وأما سقم الاستقراء فلا يصحّ في العقائد فإن مبناها على الأدلة الواضحة، فإنه لو استقرأنا كل من ظهرت منه صنعة وجدناه جسماً ونقول: إن العالم صنعة الحق وفعله، وقد تتبعنا الصناع فما وجدنا صانعاً إلاَّ ذا جسم، فالحق جسم تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

وتتبعنا الأدلة في المحدثات فما وجدنا عالماً لنفسه، وإنما الدليل يعطي أن لا يكون عالم إلاَّ بصفة زائدة على ذاته تسمى علماً، وحكمها فيمن قامت به أن يكون عالماً وقد علمنا أن الحق عالم، فلا بدّ أن يكون له علم ويكون ذلك العلم صفة زائدة على ذاته قائمة به، كلا بل هو الله العالم الحيّ القادر القاهر الخبير كل ذلك لنفسه لا بأمر زائد على ذاته، إذ لو كان ذلك بأمر زائد على نفسه وهي صفات كما لا يكون كمال الذات إلاَّ بها فيكون كماله بزائد على ذاته وتتصف ذاته بالنقص إذا لم يقم به هذا الزائد، فهذا من الاستقراء وهذا الذي دعا المتكلمين أن يقولوا في صفات الحق لا هي هو ولا هي غيره، وفيما ذكرناه ضرب من الاستقراء الذي لا يليق بالجناب العالي، ثم إنه لما استشعر القائلون بالزائد سلكوا في العبارة عن ذلك مسلكاً آخر فقالوا: ما عقلناه بالاستقراء وإنما قلنا: أعطى الدليل أنه لا يكون عالم إلاَّ من قام به العلم، ولا بدّ أن يكون أمراً زائداً على ذات العالم لأنه من صفات المعاني يقدر رفعه مع بقاء الذات، فلما أعطاه الدليل ذلك طردناه شاهداً وغائباً يعني في الحق والخلق، وهذا هرب منهم وعدول عن عين الصواب، ثم إنهم أكّدوا ذلك بقولهم: ما ذكرناه عنهم أن صفاته لا هي هو ولا هي غيره، وحدّوا الغيرين بحدّ يمنعه غيرهم، وإذا سألتهم: هل هي أمر زائد؟ اعترفوا بأنها أمر زائد وهذا هو عين الاستقراء، فلهذا قلنا: إن الاستقراء في العلم بالله لا يصحّ، وإن الاستقراء على الحقيقة لا يفيد علماً وإنما أثبتناه في مكارم الأخلاق شرعاً وعرفاً لا عقلاً، فإن العقل يدل عليه سبحانه أنه فعّال لما يريد لا يقاس بالمخلوق ولا يقاس المخلوق عليه. وإنما الأدلة الشرعية أتت بأمور تقرّر عندنا منها أنه يعامل عباده بالإحسان وعلى قدر ظنّهم به، قال تعالىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤٧] في الطرفين للوازم قرّرها الشارع.

قال رسول الله ﷺ في شأن النائم عن الصلاة إذا استيقظ أو الناسي إذا تذكر وقد خرج وقت الصلاة فيصليها هل يثبتها دائماً في كل يوم في ذلك الوقت؟ فلما سُئِل رسول الله ﷺ عن ذلك قال رسول الله ﷺ: «**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيَأْخُذَه مِنْكُمْ**» فبيّن أنه سبحانه ما يحمد خُلقاً من مكارم الأخلاق إلاّ والحق تعالىٰ أولى به بأن يعامل به خلقه، ولا يذم شيئاً من سفساف الأخلاق إلاّ وكان الجناب الإلهي أبعد منه، ففي مثل هذا الفن يسوغ الاستقراء بهذه الدلالات الشرعية وأما غير ذلك فلا يكون، فقد أبنت لك صحة الاستقراء من سقمه في المعاملات، وأما الاستقراء في التجليات فرأينا أن الهيولى الصناعية تقبل بعض الصور لا كلها، فوجدنا الخشب يقبل صورة الكرسي والمنبر والتخت والباب ولم نره يقبل صورة القميص ولا الرداء ولا السراويل، ورأينا الشقة تقبل ذلك ولا تقبل صورة السكين والسيف، ثم رأينا الماء يقبل صورة لون الأوعية وما يتجلى فيها من المتلونات فيتصف بالزرقة والبياض والحمرة. سُئِل الجنيد رحمه الله عن المعرفة والعارف فقال: لون الماء لون إنائه.

ثم استقرأنا عالم الأركان كلها والأفلاك فوجدنا كل ركن منها وكل فلك يقبل صوراً مخصوصة وبعضها أكثر قبولاً من بعض. ثم نظرنا في الهيولى الكل فوجدناها تقبل جميع صور الأجسام والأشكال، فنظرنا في الأمور فرأيناها كلما لطفت قبلت الصور الكثيرة، فنظرنا في الأرواح فوجدناها أقبل للتشكّل في الصور من سائر ما ذكرناه، ثم نظرنا في الخيال فوجدناه يقبل ما له صورة ويصوّر ما ليست له صورة فكان أوسع من الأرواح في التنوّع في الصور، ثم جئنا إلى الغيب في التجليات فوجدنا الأمر أوسع ممّا ذكرناه ورأيناه قد جعل ذلك أسماء كل اسم منها يقبل صوراً لا نهاية لها في التجليات، وعلمنا أن الحق وراء ذلك كله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] فجاء في عدم الإدراك بالاسم اللطيف إذ كانت اللطافة مما ينبو الحسّ عن إدراكها فتعقل ولا تشهد فتسمى في وصفه الذي تنزّه أن يدرك فيه باللطيف الخبير أي تلطف عن إدراك المحدثات، ومع هذا فإنه يعلم ويعقل أن ثَم أمراً يستند إليه فأتى بالاسم الخبير على وزن فعيل وفعيل يرد بمعنى المفعول، كقتيل بمعنى مقتول، وجريح بمعنى مجروح وهو المراد هنا والأوجه، وقد يرد بمعنى الفاعل كعليم بمعنى عالم، وقد يكون أيضاً هو المراد هنا ولكنه يبعد، فإن دلالة مساق الآية لا تعطي ذلك فإن مساقها في إدراك الأبصار لا في إدراك البصائر، فإن الله قد ندبنا إلى التوصّل بالعلم به فقال: فاعلم أنه لا إله إلاّ الله، ولا يعلم حتى ننظر في الأدلة فيؤدّينا النظر فيها إلى العلم به على قدر ما تعطينا القوّة في ذلك، فلهذا رجحنا خبير هنا بمعنى المفعول أي إن الله يعلم ويعقل ولا تدركه الأبصار، فهذا القدر مما يتعلق بهذا الباب من الاستقراء.

وأما كونه لا يفيد العلم في هذا الموطن فإنه ما من أصل ذكرناه يقبل صوراً ما إلاّ يجوز بل يقع، وقد وقع أنه يتكرر في تلك الصور مراتب عديدة، وهذا قد ورد في الأخبار أن جبريل عليه السلام نزل مراراً على صورة دحية الكلبي، ولما لم يصحّ عندنا

في التجلي الإلهي أن يتكرر تجلٍّ إلهيّ لشخص واحد مرتين ولا يظهر في صورة واحدة لشخصين علمنا أن الاستقراء لا يفيد علماً، فإن جناب التجلّي لا يقبل التكرار، فخرج عن حكم الاستقراء من وجه عدم التكرار، ولحق به من حيث التحوّل في الصور، وقد ورد التحوّل في حديث مسلم في حديث الشفاعة من كتاب الإيمان، فلا يعوّل على الاستقراء في شيء من الأشياء لا في الأحوال ولا في المقامات ولا في المنازل ولا في المنازلات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون

في معرفة تحصيل علم الإلهام بنوع ما من أنواع الاستدلال ومعرفة النفس

[نظم: البسيط]

لا تحكمنَّ بإلهام تَجِدْهُ فقد ... يكون في غير ما يرضاه واهِبُهُ

واجعل شريعتَك المُثلى مصحَّحَةً ... فإنها ثمَرٌ يجنيه كاسِبُهُ

له الإساءةُ والحسنى معاً فكما ... تَغلَى طرائقُه تَرْدَى مذاهبُهُ

فاحذره إنَّ له في كل طائفة ... حكماً إذا جُهِلَتْ فينا مكاسِبُهُ

لا تطلبنَّ من الإلهام صورتَه ... فإن وسواسَ إبليسٍ يصاحِبُهُ

في شكله وعلى ترتيب صورته ... وإن تميَّز فالمعنى يقاربُهُ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٧ ـ ٨] من قوله أيضاً ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] فجعل النفس محلاً قابلاً لما تلهمه من الفجور والتقوى، فتميز الفجور فتجتنبه. والتقوى فتسلك طريقه، ومن وجه آخر تطلبه الآية وهو أنه بما ألهمها عراها أن يكون لها في الفجور والتقوى كسب أو تعمل وإنما هي محل لظهور الفعل فجوراً كان أو تقوى شرعاً، فهي برزخ وسط بين هذين الحكمين، ولم ينسب سبحانه إلى نفسه خاطر المباح ولا إلهامه فيها به، وسبب ذلك أن المباح ذاتيّ لها، فبنفس ما خلق عينها ظهر عين المباح، فهو من صفاتها النفسية التي لا تعقل النفس إلاّ به فهو على الحقيقة أعني خاطر المباح نعت خاص كالضحك للإنسان، وإن لم يكن من الفصول المقوّمة فهو حد لازم رسميّ، فإن من خاصية النفس دفع المضار واستجلاب المنافع، وهذا لا يوجد في أقسام أحكام الشرع إلاّ في قسم المباح خاصة فإنه الذي يستوي فعله وتركه فلا أجر فيه ولا وزر شرعاً وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ من التسوية وهو الاعتدال في الشيء ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٧] يمتن بذلك على الإنسان، وما في أقسام أحكام الشريعة قسم يقتضي العدل ويعطي الاعتدال إلاّ قسم المباح فهي تطلبه بذاتها وخاصيتها، فلذلك لم يصفها بأنها ملهمة فيه، وما ذكر سبحانه من الملهم لها بالفجور والتقوى فأضمر الفاعل فالظاهر أن الضمير المضمر يعود على المضمر في سوّاها وهو الله تعالىٰ.

ومن نظر في قول رسول الله ﷺ: **«إِنَّ لِلْمَلَكِ فِي الإِنْسَانِ لَمَّةً وَلِلشيطَانِ لَمَّةً»**. يعني

بالطاعة وهي التقوى والمعصية وهي الفجور فيكون الضمير في ألهمها للملك في التقوى وللشيطان في الفجور، ولم يجمعهما في ضمير واحد لبعد المناسبة بينهما وكل بقضاء الله وقدره، ولا يصحّ أن يقال في هذا الموضع: إن الله هو الملهم بالتقوى وإن الشيطان هو الملهم بالفجور لما في هذا من الجهل وسوء الأدب لما في ذلك من غلبة أحد الخاطرين والفجور أغلب من التقوى. وأيضاً لقوله تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٩] فإنه في تلك الآية ظاهر الاسم والسيئة فيها ما هي شرعاً فتكون فجوراً وإنما هي ممّا يسوءه ولا يوافق غرضه وهو في الظاهر قولهم: فإنهم كانوا يتطيرون به ﷺ أعني الكافرين فأمره سبحانه أن يقول: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي ما يحدث فيهم من الكوائن، يقول الله عنهم أنهم يقولون ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] أي ما يسوءهم ﴿مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: الآية ٧٨] وهو قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل: الآية ٤٧] فالفاعل في ألهمها مضمر، فإن كان الله هنا في الضمير هو الملهم بالتقوى والشيطان هو الملهم بالفجور فقد جمع الله والشيطان ضمير واحد وهذا غاية في سوء الأدب مع الله، وما أحسن ما جاء بالواو العاطفة في قوله: ﴿ وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: الآية ٧] فتعالى الله الملك القدوس أن يجتمع مع المطرود من رحمة الله في ضمير مع احتمال الأمر في ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ**» لما سمعه قد جمع بين الله تعالىٰ ورسوله ﷺ في ضمير واحد فقال: ومن يعصهما وما قال ذلك رسول الله ﷺ إذ جمع بين الله وبين نفسه في ضمير واحد إلاّ بوحي من الله وهو قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [سورة النساء: الآية ٨٠] وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] ونحن يلزمنا ملازمة الأدب فيما لم نؤمر به ولا نهينا عنه، كما فعل رسول الله ﷺفي قوله: «**بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ**».

وكذلك لا يترجح أن ننسب الإلهام بالفجور إلى الله، فلم يبق بعد هذا الاستقصاء أن يكون الضمير في ألهمها بالفجور إلاّ الشيطان وبالواو بالتقوى إلاّ الملك، فمقابلة مخلوق بمخلوق أولى من مقابلة مخلوق بخالق. وفي قول رسول الله ﷺ: **بِئْسَ الخَطِيب** كفاية لمن أنار الله بصيرته فقد أعلمك برتبة نفسك وأنها ليست بأمارة بالسوء من حيث ذاتها، وإنما ينسب إليها ذلك من حيث إنها قابلة لإلهام الشيطان بالفجور ولجهلها بالحكم المشروع في ذلك كنفس أمرت صاحبها بارتكاب أمر لم تعلم تحريمه في الشرع، أو قامت عندها شبهة بإباحة ذلك فيراه من مذهبه التحريم فيقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٣] كشرب النبيذ بين محلله ومحرّمه، ونكاح الربيبة التي لم يجتمع فيها الشرطان، ومثل هذا في الشريعة كثير، وكلا المذهبين شرع مقرّر صحيح إذا كانا عن اجتهاد، مع أن أحدهما أخطأ دليل الشارع الذي حكم به في تلك المسألة أو لو حكم فيها، والمجتهدان مأجوران، وقد يكون في المسألة أحد المجتهدين مصيباً، وقد يكون كل واحد منهما مخطئاً، فإن الحكم في تلك المسألة شرعاً ليس بمنحصر. ثم إن قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ فما هو

حكم الله عليها بذلك، وإنما الله حكى ما قالته امرأة العزيز في مجلس العزيز، وهل أصابت في هذه الإضافة أو لم تصب هذا حكم آخر مسكوت عنه، بل الذي هو لها أنها لوّامة نفسها إذا قبلت من الشيطان ما يأمرها به، فهذا الإخبار عن النفس أنها أمارة بالسوء، ما هو حكم الله عليها ولا من قول يوسف عليه السلام، فبطل التمسّك بهذه الآية لما دلّ عليه الظاهر، والدليل إذا دخله الاحتمال سقط الاحتجاج به.

وأما قوله تعالىٰ في هذا المقام: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] فهو إبانة عن حقيقة صحيحة بما هو الأمر عليه في نفسه من أنه لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٠] أي ممنوعاً يقول: إن الله يعطي على الدوام والمحال تقبل على قدر حقائق استعداداتها، كما تقول: إن الشمس تنبسط أنوارها على الموجودات وما تبخل بنورها على أحد وتقبل المحال ذلك النور على قدر استعدادها وكل محل يضيف الأثر إلى الشمس ويغفل عن استعداده، فالشخص المبرود يلتذ بحرارتها، والجسم المحرور يتألم بحرارتها، والنور من حيث ذاته واحد، وكل واحد من الشخصين يتألم بما به يتنعم صاحبه، فلو كان ذلك للنور وحده لأعطى حقيقة واحدة وكذلك أعطى ما في قوّته غير أنه للقابل حكم في ذلك ولا بدّ، فإن النتيجة لا تكون إلاّ عن مقدمتين فيسود وجه القصار الذي يبيض الثوب، فإن استعداد الثوب تعطي الشمس فيه التبيض، ووجه القصار تعطي الشمس فيه السواد، وكذلك النفخة الواحدة من النافخ وهي الهواء تطفىء السراج وتشعل النار الذي في الحشيش والهواء في نفسه واحد، فترد الآية من كتاب الله واحدة العين على الأسماع، فسامع يفهم منها أمراً واحداً، وسامع آخر لا يفهم منها ذلك الأمر ويفهم منها أمراً آخر، وآخر يفهم منها أموراً كثيرة، ولهذا يستشهد كل واحد من الناظرين فيها بها لاختلاف استعداد الأفهام.

وهكذا في التجليات الإلهية، فالمتجلي من حيث هو في نفسه واحد العين، واختلفت التجليات أعني صورها بحسب استعدادات المتجلي لهم، وكذلك في العطايا الإلهية سواء، فإذا فهمت هذا علمت أن عطاء الله ليس بممنوع إلاّ أنك تحب أن يعطيك ما لا يقبله استعدادك وتنسب المنع إليه فيما طلبته منه ولم تجعل بالك إلى الاستعداد فقد يستعد الشخص للسؤال وما عنده استعداد لقبول ما سأل فيه، فلو أعطيه بدلاً من المنع ويقول: إن الله على كل شيء قدير ويصدق في ذلك ولكنك تغفل عن ترتيب الحكمة الإلهية في العالم وما تعطيه حقائق الأشياء والكل من عند الله فمنعه عطاء وعطاؤه منع، ولكن بقي لك أن تعلم لكذا ومن كذا، فقد عرفتك بالنفس وأنها المحرّكة للجوارح بما يغلب عليها، إما من ذاتها أو ممّا تقبله من الملك أو الشيطان فيما يلهمها به، فعلم الإلهام هو أن تعلم أن الله ألهمك بما أوقره في نفسك، ولكن بقي عليك أن تنظر على يدي من ألهمك وعلى أيّ طريق جاءك ذلك الإلهام من ملك أو شيطان، وما يخرج من قبيل الأمر والنهي المشروع فهو العلم اللدنيّ ما هو الإلهام، فالعلم بالطاعة إلهاميّ، والعلم بنتائج الطاعة لدنيّ، ففرّق ما بين العلم اللدني

والإلهام، فالإلهام عارض طارىء يزول ويجيء غيره، والعلم اللدنيّ ثابت لا يبرح، فمنه ما يكون في أصل الخلقة والجبلة كعلم الحيوانات والأطفال الصغار ببعض منافعهم ومضارّهم فهو علم ضروريّ لا إلهام.

وأما قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٨] فإنه يريد في أصل نشأتها فطرها الله على ذلك، والإلهام هو ما يلهمه العبد من الأمور التي لم يكن يعرفها قبل ذلك، والعلم اللدنيّ الذي لا يكون في أصل الخلقة فهو العلم الذي تنتجه الأعمال، فيرحم الله بعض عباده بأن يوفقه لعمل صالح فيعمل به فيورثه الله من ذلك علماً من لدنه لم يكن يعلمه قبل ذلك، ولا يلزم من العلم اللدنيّ أن يكون في مادّة، والإلهام لا يكون إلاَّ في موادّ، والعلم يصيب ولا بدّ، والإلهام قد يصيب وقد يخطىء، فالمصيب منه يسمّى علم الإلهام، وما يخطىء منه يسمّى إلهاماً لا علماً أي لا علم إلهام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون

في معرفة أسرار أهل الإلهام المستدلين ومعرفة علم إلهيّ فاض على القلب ففرّق خواطره وشتتها

[نظم: الوافر]

إذا أعطاكَ بالإلهام علماً ... تحقّقُه فأنت به سعيدُ
كمثل النحلِ مختلفُ المعاني ... قويٌّ في مبانيه سَديدُ
فتلقى طيباً عن طِيْبِ أصلٍ ... وأنت لحالها أبداً شهيدُ
وفي الأشجار والشُّمّ الرواسي ... لها من فعلها قَصْرٌ مَشِيدُ
فلا تُعْجِزْكَ للعلياء نَحْلٌ ... وأنت السيِّدُ النَّدْبُ الجَلِيدُ
فمنك القصدُ خيراً واختياراً ... كمالُكَ في منازلك القُصُودُ
فحقِّقْ والْتَمِسْ علماً وحيداً ... كمثلك أنك الخلقُ الجديدُ

اعلم أيّدك الله بروح منه أن الله عزّ وجلّ أمرنا بالعلم بوحدانيته في ألوهيته، غير أن النفوس لما سمعت ذلك منه مع كونها قد نظرت بفكرها ودلّت على وجود الحق بالأدلة العقلية بل بضرورة العقل بعلم وجود الباري تعالىٰ، ثم دلّت على توحيد هذا الموجود الذي خلقها، وأنه من المحال أن يوجد واجباً الوجود لنفسه ولا ينبغي أن يكون إلاَّ واحداً، ثم استدلوا على ما ينبغي أن يكون عليه من هو واجب الوجود لنفسه من النسب التي ظهر عنه بها ما ظهر من الممكنات ودلّ على إمكان الرسالة، ثم جاء الرسول وأظهر من الدلائل على صدقه أنه رسول من الله إلينا، فعرفنا بالأدلة العقلية أنه رسول الله فلم نشك، وقام لنا الدليل العقليّ على صدق ما يخبر به فيما ينسب إليه ورآه قد أتى في أخباره عنه تعالىٰ بنسب وأمور كان الدليل العقليّ يحيلها ويرمي بها، فتوقف العقل وأتهم معرفته وقدح في دليله هذا الإنباء الإلهيّ بما ينسبه لنفسه ولا يقدر على تكذيب المخبر.

ثم كان من بعض ما قال له هذا الشارع: اعرف ربك، وهذا العاقل لو لم يعلم ربّه الذي هو الأصل المعوّل عليه ما صدق هذا الرسول، فلا بدّ أن يكون العلم الذي طلب منه الرسول أن يعلم به ربّه غير العلم الذي أعطاه دليله وهو أن يتعمل في تحصيل علم من الله بالله، يقبل به على بصيرة هذه الأمور التي نسبها الله إلى نفسه ووصف نفسه بها التي أحالها العقل بدليله فانقدح له بتصديقه الرسول أن ثم وراء العقل وما يعطيه بفكره أمراً آخر يعطي من العلم بالله ما لا تعطيه الأدلة العقلية بل يحيله قولاً واحداً، فإذا علمه بهذه القوّة التي عرف أنها وراء طور العقل هل يبقى له الحكم فيما كان يحيله العقل من حيث فكره أولاً على ما كان عليه أم لا يبقى، فإن لم يبق له الحكم بأن ذلك محال فلا بدّ أن يعثر على الوجه الذي وقع له منه الغلط بلا شك، وأن ذلك الذي اتخذه دليلاً على إحالة ذلك على الله لم يكن دليلاً في نفس الأمر، وإذا كان هذا فما ذلك الأمر مما هو وراء طور العقل، فإن العقل قد يصيب وقد يخطىء، وإن بقي للعقل بعد كشفه وتحقيقه لصحة هذا الأمر الذي نسبه الله لنفسه ووصف به نفسه وقبلته عقول الأنبياء وقبله عقل هذا المكاشف بلا شك ولا ريب، ومع هذا فإنه يحكم على الله بأن ذلك الأمر محال عقلاً من حيث فكره لا من حيث قبوله، وحينئذ يصحّ أن يكون ذلك المقام وراء طور العقل من جهة أخذه عن الفكر لا من جهة أخذه عن الله.

هذا ومن أعجب الأمور عندنا أن يكون الإنسان يقلّد فكره ونظره وهو محدث مثله، وقوّة من قوى الإنسان التي خلقها الله فيه وجعل تلك القوّة خديمة للعقل ويقلدها العقل فيما تعطيه هذه القوّة ويعلم أنها لا تتعدى مرتبتها وأنها تعجز في نفسها عن أن يكون لها حكم قوّة أخرى، مثل القوّة الحافظة والمصوّرة والمتخيلة، والقوىٰ التي هي الحواس من لمس وطعم وشم وسمع وبصر، ومع هذا القصور كله يقلدها العقل في معرفة ربّه، ولا يقلد ربه فيما يخبر به عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فهذا من أعجب ما طرأ في العالم من الغلط، وكل صاحب فكر تحت حكم هذا الغلط بلا شك إلاّ من نوّر الله بصيرته فعرف أن الله قد أعطى كل شيء خلقه فأعطى السمع خلقه فلا يتعدى إدراكه، وجعل العقل فقيراً إليه يستمد منه معرفة الأصوات وتقطيع الحروف وتغيير الألفاظ وتنوّع اللغات، فيفرّق بين صوت الطير، وهبوب الرياح، وصرير الباب، وخرير الماء، وصياح الإنسان، ويعار الشاة، وثؤاج الكباش، وخوار البقر، ورغاء الإبل، وما أشبه هذه الأصوات كلها، وليس في قوّة العقل من حيث ذاته إدراك شيء من هذا ما لم يوصله إليه السمع، وكذلك القوّة البصرية جعل الله العقل فقيراً إليها فيما توصله إليه من المبصرات، فلا يعرف الخضرة ولا الصفرة ولا الزرقة ولا البياض ولا السواد ولا ما بينهما من الألوان ما لم ينعم البصر على العقل بها، وهكذا جميع القوىٰ المعروفة بالحواس، ثم إن الخيال فقير إلى هذه الحواس، فلا يتخيل أصلاً إلاّ ما تعطيه هذه القوىٰ، ثم إن القوة الحافظة إن لم تمسك على الخيال ما حصل عنده من هذه القوىٰ لا يبقى في الخيال منها شيء فهو فقير إلى الحواس وإلى القوّة الحافظة.

ثم إن القوّة الحافظة قد تطرأ عليها موانع تحول بينها وبين الخيال فيفوت الخيال أمور

كثيرة من أجل ما طرأ على القوّة الحافظة من الضعف لوجود المانع فافتقر إلى القوّة المذكرة فتذكره ما غاب عنه فهي معينة للقوّة الحافظة على ذلك. ثم إن القوّة المفكرة إذا جاءت إلى الخيال افتقرت إلى القوّة المصوّرة لتركب بها ممّا ضبطه الخيال من الأمور صورة دليل على أمر ما، وبرهان تستبد فيه إلى المحسوسات أو الضرورات وهي أمور مركوزة في الجبلة، فإذا تصوّر الفكر ذلك الدليل حينئذ يأخذه العقل منه فيحكم به على المدلول، وما من قوّة إلاّ ولها موانع وأغاليط فيحتاج إلى فصلها من الصحيح الثابت، فانظر يا أخي ما أفقر العقل حيث لا يعرف شيئاً ممّا ذكرناه إلاّ بوساطة هذه القوىٰ وفيها من العلل ما فيها، فإذا اتفق للعقل أن يحصل شيئاً من هذه الأمور بهذه الطرق ثم أخبره الله بأمر ما توقف في قبوله وقال: إن الفكر يردّه، فما أجهل هذ العقل بقدر ربّه كيف قلّد فكره وجرّح ربه، فقد علمنا أن العقل ما عنده شيء من حيث نفسه، وأن الذي يكتسبه من العلوم إنما هو من كونه عنده صفة القبول، فإذا كان بهذه المثابة فقبوله من ربه لما يخبر به عن نفسه تعالىٰ أولى من قبوله من فكره، وقد عرف أن فكره مقلد لخياله، وأن خياله مقلد لحواسه، ومع تقليده فهو غير قويّ على إمساك ما عنده ما لم تساعده على ذلك القوّة الحافظة والمذكرة، ومع هذه المعرفة بأن القوىٰ لا تتعدى خلقها وما تعطيه حقيقتها وأنه بالنظر إلى ذاته لا علم عنده إلاّ الضروريات التي فطر عليها لا يقبل قول من يقول له: إن ثم قوّة أخرى وراءك تعطيك خلاف ما أعطتك القوّة المفكرة نالها أهل الله من الملائكة والأنبياء والأولياء ونطقت بها الكتب المنزلة فاقبل منها هذه الأخبار الإلهية فتقليد الحق أولى، وقد رأيت عقول الأنبياء على كثرتهم والأولياء قد قبلتها وآمنت بها وصدقتها، ورأت أن تقليدها ربها في معرفة نفسه أولى من تقليد أفكارها. فما لك أيها العاقل المنكر لها لا تقبلها ممّن جاء بها ولا سيما عقول تقول إنها في محل الإيمان بالله ورسله وكتبه.

ولما رأت عقول أهل الإيمان بالله تعالىٰ أن الله قد طلب منها أن تعرفه بعد أن عرفته بأدلتها النظرية، علمت أن ثم علماً آخر بالله لا تصل إليه من طريق الفكر، فاستعملت الرياضات والخلوات والمجاهدات وقطع العلائق والانفراد والجلوس مع الله بتفريغ المحل وتقديس القلب عن شوائب الأفكار إذ كان متعلق الأفكار الأكوان، واتخذت هذه الطريقة من الأنبياء والرسل، وسمعت أن الحق جلّ جلاله ينزل إلى عباده ويستعطفهم، فعلمت أن الطريق إليه من جهته أقرب إليه من الطريق من فكرها ولا سيّما أهل الإيمان، وقد سمعت قوله تعالىٰ: مَنْ أتاني يسعى أتيته هرولة. وأن قلبه وسع جلال الله وعظمته، فتوجه إليه بكله وانقطع من كل ما يأخذ عنه من هذه القوىٰ، فعند هذا التوجّه أفاض الله عليه من نوره علماً إلهياً عرّفه بأن الله تعالىٰ من طريق المشاهدة والتجلي لا يقبله كون ولا يردّه ولذلك قال: إن في ذلك يشير إلى العلم بالله من حيث المشاهدة لذكرى لمن كان له قلب ولم يقل غير ذلك فإن القلب معلوم بالتقليب في الأحوال دائماً فهو لا يبقى على حالة واحدة، فكذلك التجليات الإلهية، فمن لم يشهد التجليات بقلبه ينكرها فإن العقل يقيد وغيره من القوىٰ إلاّ القلب فإنه

لا يتقيد وهو سريع التقلّب في كل حال، ولذا قال الشارع: إن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء فهو يتقلب بتقلب التجليات والعقل ليس كذلك، فالقلب هو القوّة التي وراء طور العقل، فلو أراد الحق في هذه الآية بالقلب أنه العقل ما قال لمن كان له قلب فإن كل إنسان له عقل، وما كل إنسان يعطى هذه القوّة التي وراء طور العقل المسمّاة قلباً في هذه الآية فلذلك قال: لمن كان له قلب، فالتقليب في القلب نظير التحوّل الإلهيّ في الصور، فلا تكون معرفة الحق من الحق إلاّ بالقلب لا بالعقل، ثم يقبلها العقل من القلب كما يقبل من الفكر، فلا يسعه سبحانه إلاّ أن يقلب ما عندك، ومعنى قلب ما عندك هو أنك علقت المعرفة به عزّ وجلّ وضبطت عندك في علمك أمراً ما، وأعلى أمر ضبطته في علمك به أنه لا ينضبط سبحانه ولا يتقيد ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فلا ينضبط مضبوط لتميزه عمّا ينضبط، فقد انضبط ما لا ينضبط مثل قولك: العجز عن درك الإدراك إدراك.

والحق إنما وسعه القلب، ومعنى ذلك أن لا يحكم على الحق تعالىٰ بأنه لا يقبل ولا يقبل، فإن ذات الحق وأنيته مجهولة عند الكون، ولا سيما وقد أخبر جلّ جلاله عن نفسه بالنقيضين في الكتاب والسنّة، فشبّه في موضع ونزّه في موضع بـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وشبّه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فتفرّقت خواطر التشبيه وتشتتت خواطر التنزيه، فإن المنزّه على الحقيقة قد قيّده وحصره في تنزيهه وأخلى عنه التشبيه، والمشبه أيضاً قيّده وحصره في التشبيه وأخلى عنه التنزيه والحق في الجمع بالقول بحكم الطائفتين، فلا ينزّه تنزيهاً يخرج عن التشبيه، ولا يشبه تشبيهاً يخرج عن التنزيه، فلا تطلق ولا تقيد لتميزه عن التقييد، ولو تميّز بقيد في إطلاقه ولو تقيّد في إطلاقه لم يكن هو، فهو المقيد بما قيّد به نفسه من صفات الجلال، وهو المطلق بما سمّى به نفسه من أسماء الكمال، وهو الواحد الحق الجليّ الخفيّ لا إله إلاّ هو العليّ العظيم.

وصل: وأمّا أسرار أهل الإلهام المستدلين فلا تتجاوز سدرة المنتهى فإن إليها تنتهي أعمال بني آدم ونهاية كل أمر إلى ما منه بدأ، فإن قال لك عارف ممّن لا علم له بهذا الأمر: إن الكرسيّ موضع القدمين، فقل له ذلك عالم الخلق والأمر والتكليف إنما انقسم من السدرة فإنه قطع أربع مراتب والسدرة هي المرتبة الخامسة، فنزل من قلم، إلى لوح، إلى عرش، إلى كرسيّ، إلى سدرة، فظهر الواجب من القلم، والمندوب من اللوح، والمحظور من العرش، والمكروه من الكرسيّ، والمباح من السدرة، والمباح قسم النفس وإليها تنتهي نفوس عالم السعادة، ولأصولها وهي الزقوم تنتهي نفوس أهل الشقاء، وقد بينّاها في كتاب التنزّلات الوصلية في باب يوم الاثنين.

وإذا ظهرت قسمة الأحكام من السدرة فإذا صعدت الأعمال التي لا تخلو من أحد هذه الأحكام لا بدّ أن تكون نهايتها إلى الموضع الذي منه ظهرت، إذ لا تعرف من كونها منقسمة إلى السدرة، ثم يكون من العقل الذي هو القلم نظر إلى الأعمال المفروضة فيمدّها بحسب ما يرى فيها، ويكون من اللوح نظر إلى الأعمال المندوب إليها فيمدّها بحسب ما يرى فيها،

ويكون من العرش نظر إلى المحظورات وهو مستوى الرحمن فلا ينظرها إلاّ بعين الرحمة، ولهذا يكون مآل أصحابها إلى الرحمة، ويكون من الكرسيّ نظر إلى الأعمال المكروهة فينظر إليها بحسب ما يرى فيها وهو تحت حيطة العرش، والعرش مستوى الرحمن، والكرسي موضع القدمين، فيسرع العفو والتجاوز عن أصحاب المكروه من الأعمال، ولهذا يؤجر تاركها ولا يؤاخذ فاعلها فـ ﴿كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٨] ويدخل فيهم العصاة أهل الكبائر والصغائر، وأما ﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [سورة المطففين: الآية ٧]. وفيه أصول السدرة التي هي شجرة الزقوم، فهناك تنتهي أعمال الفجار في أسفل سافلين، فإن رحمهم الرحمن من عرش الرحمانية بالنظرة التي ذكرناها جعل لهم نعيماً في منزلهم فلا يموتون فيه ولا يحيون فهم في نعيم النار دائمون مؤبدون كنعيم النائم بالرؤيا التي يراها في حال نومه من السرور، وربما يكون في فراشه مريضاً ذا بؤس وفقر ويرى نفسه في المنام ذا سلطان ونعمة وملك، فإن نظرت إلى النائم من حيث ما يراه في منامه ويلتذ به قلت إنه في نعيم وصدقت، وإن نظرت إليه من حيث ما تراه في فراشه الخشن ومرضه وبؤسه وفقره وكلومه قلت: إنه في عذاب هكذا يكون أهل النار ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١٣] أي لا يستيقظ أبداً من نومته، فتلك الرحمة التي يرحم الله بها أهل النار الذين هم أهلها وأمثالها، كالمحرور منهم يتنعم بالزمهرير، والمقرور منهم يجعل في الحرور، وقد يكون عذابهم توهم وقوع العذاب بهم وذلك كله بعد قوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٧٥] ذلك زمان عذابهم وأخذهم بجرائمهم قبل أن تلحقهم الرحمة التي سبقت الغضب الإلهيّ، فإذا اطلع أهل الجنان في هذه الحالة على أهل النار ورأوا منازلهم في النار وما أعد الله فيها وما هي عليه من قبح المنظر قالوا معذبون، وإذا كوشفوا على الحسن المعنويّ الإلهيّ في خلق ذلك المسمّى قبحاً ورأوا ما هم فيه في نومتهم وعلموا أحوال أمزجتهم قالوا منعمون، فسبحان القادر على ما يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم، فقد فهمت قول الله تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ وقول رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيها وَلاَ يَحْيَوْنَ**»، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون

في معرفة الزمان الموجود والمقدّر

[نظم: البسيط]

إنّ الـزمـانَ إذا حـقَّـقْـتَ حـاصِـلَـهُ ... مـحـقَّـقٌ فـهـو بـالأوهـام مـعـلُـومُ

مـثـلُ الـطـبـيـعـة فـي الـتـأثـيـر قـوَّتُـه ... والـعـيـنُ مـنـهـا ومـنـه فـيـه مـعـدومُ

بـه تـعـيَّـنَـتِ الأشـيـا ولـيـس لـه ... عـيـنٌ يـكـون عـلـيـه مـنـه تَـحْـكـيـمُ

الـعـقـلُ يـعـجـز عـن إدراك صـورَتـه ... لـذا نـقـول بـأن الـدَّهْـرَ مَـوْهُـومُ

لـولا الـتـنـزُّهُ مـا سـمّـى الإلـهُ بـه ... وجـودَه فـلـه فـي الـقـلـب تـعـظـيـمُ

أصلُ الزمان إذا أنْصَفْتَ من أزل | فحكمه أزليٌّ وهو محكومُ
مثلُ الخلاء امتدادٌ ما له طَرَفٌ | في غير جسم بوهم فيه تَجْسيمُ

اعلم أوّلاً أن الله تعالىٰ هو الأول الذي لا أولية لشيء قبله، ولا أوليّة لشيء يكون قائماً به أو غير قائم به معه، فهو الواحد سبحانه في أوليته، فلا شيء واجب الوجود لنفسه إلاَّ هو، فهو الغنيّ بذاته على الإطلاق عن العالمين، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] بالدليل العقليّ والشرعيّ، فوجود العالم لا يخلو إما أن يكون وجوده عن الله لنفسه سبحانه أو لأمر زائد ما هو نفسه، إذ لو كان نفسه لم يكن زائداً، ولو كان نفسه أيضاً لكان مركباً في نفسه، وكانت الأولية لذلك الأمر الزائد، وقد فرضنا أنه لا أولية لشيء معه ولا قبله، فإذا لم يكن ذلك الأمر الزائد نفسه فلا يخلو إما أن يكون وجوداً أو لا وجوداً، محال أن يكون لا وجود فإن لا وجود لا يصحّ أن يكون له أثر إيجاد فيما هو موصوف بأن لا وجود وهو العالم، فليس أحدهما بأولى بتأثير الإيجاد من الآخر إذ كلاهما أن لا وجود، فإن لا وجود لا أثر له لأنه عدم، ومحال أن يكون وجوداً فإنه لا يخلو عند ذلك إما أن يكون وجوده لنفسه أو لا يكون، محال أن يكون وجوده لنفسه فإنه قد قام الدليل على إحالة أن يكون في الوجود اثنان واجبا الوجود لأنفسهما فلم يبق إلاَّ أن يكون وجوده بغيره، ولا معنى لإمكان العالم إلاَّ أن وجوده بغيره فهو العالم إذن أو من العالم، ولو كان وجود العالم عن الله لنسبة ما لولاها ما وجد العالم تسمّى تلك النسبة إرادة أو مشيئة أو علماً أو ما شئت ممّا يطلبه وجود الممكن، فيكون الحق تعالىٰ بلا شك لا يفعل شيئاً إلاَّ بتلك النسبة، ولا معنى للافتقار إلاَّ هذا وهو محال على الله، فإن الله له الغنى على الإطلاق فهو كما قال: ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قيل: إنّ المراد بالنسبة عين ذاته. قلنا: فالشيء لا يكون مفتقراً إلى نفسه فإنه غني لنفسه، فيكون الشيء الواحد فقيراً من حيث ما هو غني كل ذلك لنفسه وهو محال وقد نفينا الأمر الزائد، فاقتضى ذلك أن يكون وجود العالم من حيث ما هو موجود بغيره مرتبطاً بالواجب الوجود لنفسه وإن عين الممكن محل تأثير الواجب الوجود لنفسه بالإيجاد ولا يعقل إلاَّ هكذا، فمشيئته وإرادته وعلمه وقدرته ذاته تعالىٰ الله أن يتكثر في ذاته ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٤] بل له الوحدة المطلقة وهو الواحد الأحد ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٢، ٣] فيكون مقدّمة ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيكون نتيجة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤] فيكون به وجود العالم نتيجة عن مقدمتين عن الحق والكفؤ تعالىٰ الله، وبهذا وصف نفسه سبحانه في كتابه لما سئل النبيّ ﷺ عن صفة ربه فنزلت سورة الإخلاص، تخلصت من الاشتراك مع غيره تعالىٰ الله في تلك النعوت المقدسة والأوصاف، فما من شيء نفاه في هذه السورة ولا أثبته إلاَّ وذلك المنفيّ أو المثبت مقالة في الله لبعض الناس.

وبعد أن بينّا لك ما ينبغي أن يكون عليه من نحن مفتقرون إليه وهو الله سبحانه، فلنبين ما بوّبنا عليه. فاعلم أن نسبة الأزل إلى الله نسبة الزمان إلينا، ونسبة لأزل نعت سلبيّ لا عين له، فلا يكون عن هذه الحقيقة وجود، فيكون الزمان للممكن نسبة متوهمة الوجود لا

موجودة، لأن كلّ شيء تفرضه يصحّ عنه السؤال بمتى ومتى سؤال عن زمان، فلا بدّ أن يكون الزمان أمراً متوهماً لا وجوداً، ولهذا أطلقه الحق على نفسه في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٤٠] و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] وفي السنّة تقرير قول السائل: أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ ولو كان الزمان أمراً وجودياً في نفسه ما صحّ تنزيه الحق عن التقييد، إذ كان حكم الزمان يقيده، فعرفنا أن هذه الصيغ ما تحتها أمر وجوديّ. ثم نقول: إن لفظة الزمان اختل الناس في معقولها ومدلولها، فالحكماء تطلقه بإزاء أمور مختلفة وأكثرهم على أنه مدّة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك، والمتكلمون يطلقونه بإزاء أمر آخر وهو مقارنة حادث لحادث يسأل عنه بمتى والعرب تطلقه وتريد به الليل والنهار وهو مطلوبنا في هذا الباب، والليل والنهار فصلا اليوم، فمن طلوع الشمس إلى غروبها يسمّى نهاراً، ومن غروب الشمس إلى طلوعها يسمّى ليلاً، وهذه العين المفصلة تسمى يوماً، وأظهر هذا اليوم وجود الحركة الكبرى، وما في الوجود العينيّ إلاّ وجود المتحرّك لا غير وما هو عين الزمان، فرجع محصول ذلك إلى أن الزمان أمر متوهم لا حقيقة له.

وإذا تقرّر هذا فاليوم المعقول المقدر هو المعبر عنه بالزمان الموجود، وبه تظهر الجمعات والشهور والسنون والدهور وتسمّى أيام، وتقدّر بهذا اليوم الأصغر المعتاد الذي فصّله الليل والنهار، فالزمان المقدّر هو ما زاد على هذا اليوم الأصغر الذي تقدّر به سائر الأيام الكبار، فيقال: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة السجدة: الآية ٥] وقال: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: الآية ٤]. وقال عليه السلام في أيام الدجال: «**يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**» فقد يكون هذا لشدة الهول فرفع الإشكال، ظاهر إتمام الحديث في قول عائشة: «**فَكَيفَ يُفعَلُ فِي الصَّلاَةِ فِي ذٰلِكَ اليَوْمِ؟ قَالَ: يقْدرُ لَهَا**» فلولا أنّ الأمر في حركات الأفلاك على ما هو عليه باق ما اختلّ ما صحّ أن يقدر لذلك بالساعات التي يعمل صورتها أهل هذا العلم، فيعلمون بها الأوقات في أيام الغيم إذ لا ظهور للشمس، فيكون في أول خروج الدجال تكثر الغيوم وتتوالى بحيث أن يستوي في رأي العين وجود الليل والنهار وهو من الأشكال الغريبة التي تحدث في آخر الزمان، فيحول ذلك الغيم المتراكم بيننا وبين السماء والحركات كما هي، فتظهر الحركات في الصنائع العملية التي عملها أهل صنعة العلماء بالهيئة ومجاري النجوم فيقدرون بها الليل والنهار وساعات الصلوات بلا شك، ولو كان ذلك اليوم الذي هو كسنة يوماً واحداً لم يلزمنا أن نقدر للصلوات، فإنا ننتظر زوال الشمس فما لم تزل لا نصلي الظهر المشروع، ولو أقامت لا تزول ما مقداره عشرون ألف سنة لم يكلفنا الله غير ذلك.

فلما قرّر الشارع العبادة بالتقدير عرفنا أن حركات الأفلاك على بابها لم يختل نظامها، فقد أعلمتك ما هو الزمان وما معنى نسبة الوجود إليه ونسبة التقدير، فالأيام كثيرة ومنها كبير وصغير، فأصغرها الزمن الفرد وعليه يخرج كل يوم هو في شأن، فسمّى الزمن الفرد يوماً لأن الشأن يحدث فيه فهو أصغر الأزمان وأدقّها ولا حدّ لأكبرها يوقف عنده وبينهما أيام متوسطة

أولها اليوم المعلوم في العرف وتفصله الساعات والساعات تفصلها الدرج والدرج تفصله الدقائق وهكذا إلى ما لا يتناهى عند بعض الناس. فإنهم يفصلون الدقائق إلى ثوان، فلما دخلها حكم العدد كان حكمها العدد والعدد لا يتناهى فالتفصيل في ذلك لا ينتهي، وبعض الناس يقولون بالتناهي في ذلك وينظرونه من حيث المعدود، وهم الذين يثبتون أن للزمان عيناً موجودة، وكل ما دخل في الوجود فهو متناه بلا شك، والمخالف يقول المعدود من كونه يعد ما دخل في الوجود فلا يوصف بالتناهي، فإن العدد لا يتصف بالتناهي، وبهذا يحتج منكر الجوهر الفرد، وأن الجسم ينقسم إلى ما لا نهاية له في العقل، وهي مسألة خلاف بين أهل النظر، حدثت من عدم الإنصاف والبحث عن مدلول الألفاظ، وقد ورد في الخبر الصحيح أن من أسماء الله الدهر ومعقولية الدهر معلومة نذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ في هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء السابع والعشرون.

(الجزء الثامن والعشرون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الستون

في معرفة العناصر وسلطان العالم العلويّ على العالم السفليّ، وفي أي دورة كان وجود هذا العالم الإنسانيّ من دورات الفلك الأقصى وأية روحانية لنا

[نظم: الكامل]

إن العناصرَ أمّهاتٌ أربعٌ — وهي البناتُ لعالم الأفلاكِ
عنها تولَّدْنا فكان وجودُنا — في عالم الأركان والأملاكِ
جعل الإلهُ غذاءنا بسنابلٍ — من حُكْم سنبلةٍ بلا إشراكِ
وكذاك ضاعفَ أجرنا بسنابلٍ — سبع بقولٍ ليس من أفّاكِ
وزمانُنا سبعٌ من الآلاف جا — بتَكَرُّرِ الأضواءِ والأحلاكِ
فانظرْ بعقلك سبعةٌ في سبعةٍ — من سبعةٍ ليسوا من الأملاكِ
وانظرْ بفكرك في تَنَاسُب حُكْمِها — واضربْ بسيفٍ صارم بَتَّاكِ

أراد بالأملاك الأوّل من الملائكة جمع ملك، وأراد بالأملاك الثاني من الملوك جمع ملك، يقول: هم مسخرون والمسخر لا يستحق اسم الملك، والسبعة المذكورة هي السبعة الدراري في السبعة الأفلاك الموجودة من السبعة الأيام التي هي أيام الجمعة وهي للحركة التي فوق السموات وهي حركة اليوم للفلك الأقصى.

اعلم أن كل شيء من الأكوان لا بدّ أن يكون استناده إلى حقائق إلهية، فكل علم مدرج في العلم الإلهيّ ومنه تفرّعت العلوم كلها وهي منحصرة في أربع مراتب، وكل مرتبة تنقسم إلى أنواع معلومة محصورة عند العلماء وهو: العلم المنطقيّ، والعلم الرياضيّ، والعلم الطبيعيّ، والعلم الإلهيّ. والعالم يطلب من الحقائق الإلهية أربع نسب: الحياة والعلم

والإرادة والقدرة، إذا ثبتت هذه الأربع النسب للواجب الوجود صحّ أنه الموجد للعالم بلا شك، فالحياة والعلم أصلان في النسب والإرادة والقدرة دونهما، والأصل الحياة فإنها الشرط في وجود العلم، والعلم له عموم التعلّق فإنه يتعلق بالواجب الوجود وبالممكن وبالمحال، والإرادة دونه في التعلّق فإنه لا تعلّق لها إلاّ بالممكن في ترجيحه بإحدى الحالتين من الوجود والعدم، فكأن الإرادة تطلبها الحياة فهي كالمنفعلة عنها فإنها أعمّ تعلّقاً من القدرة والقدرة أخصّ تعلقاً فإنها تتعلق بإيجاد الممكن لا بإعدامه، فكأنها كالمنفعلة عن العلم لأنها من الإرادة بمنزلة العلم من الحياة، فلما تميزت المراتب في هذه النسب الإلهية تميز الفاعل عن المنفعل خرج العالم على هذه الصورة فاعلاً ومنفعلاً، فالعالم بالنسبة إلى الله من حيث الجملة منفعل محدث وبالنظر إلى نفسه فمنه فاعل ومنفعل، فأوجد الله سبحانه العقل الأول من نسبة الحياة، وأوجد النفس من نسبة العلم، فكان العقل شرطاً في وجود النفس، كالحياة شرط في وجود العلم، وكان المنفعلان عن العقل والنفس الهباء والجسم الكل، فهذه الأربعة أصل ظهور الصور في العالم.

غير أن بين النفس والهباء مرتبة الطبيعة وهي على أربع حقائق: منها اثنان فاعلان واثنان منفعلان وكلها في رتبة الانفعال بالنظر إلى من صدرت عنه، فكانت الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، فاليبوسة منفعلة عن الحرارة، والرطوبة منفعلة عن البرودة، فالحرارة من العقل والعقل عن الحياة، ولذلك طبع الحياة في الأجسام العنصرية الحرارة والبرودة من النفس والنفس من العلم، ولهذا يوصف العلم إذا استقر ببرد اليقين وبالثلج، ومنه قوله ﷺ حين وجد برد الأنامل بين ثدييه فعلم علم الأولين والآخرين. ولما انفعلت اليبوسة والرطوبة عن الحرارة والبرودة طلبت الإرادة اليبوسة لأنها في مرتبتها، وطلبت القدرة الرطوبة لأنها في مرتبتها، ولما كانت القدرة ما لها تعلق إلاّ بالإيجاد خاصة كان الأحق بها طبع الحياة وهي الحرارة والرطوبة في الأجسام، وظهرت الصور والأشكال في الهباء والجسم الكل فظهرت السماء والأرض مرتوقة غير متميزة.

ثم إن الله تعالىٰ توجّه إلى فتق هذا الرتق ليميز أعيانها وكان الأصل الماء في وجودها ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] ولحياته وصف بالتسبيح فنظم الله أولاً هذه الطبائع الأربع نظماً مخصوصاً فضم الحرارة إلى اليبوسة فكانت النار البسيطة المعقولة فظهر حكمها في جسم العرش الذي هو الفلك الأقصى، والجسم الكل في ثلاثة أماكن: منها المكان الواحد سمّاه حملاً، والمكان الثاني وهو الخامس من الأمكنة المقدرة فيه سمّاه أسداً، والمكان الثالث وهو التاسع من الأمكنة المقدرة فيه سمّاه قوساً، ثم ضمّ البرودة إلى اليبوسة وأظهر سلطانهما في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك وهو التراب البسيط المعقول، فسمّى المكان الواحد ثوراً، والآخر سنبلة، والثالث جدْياً. ثم ضمّ الحرارة إلى الرطوبة فكان الهواء البسيط وأظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من هذا الفلك الأقصى: سمّى المكان الواحد الجوزاء، والآخر الميزان، والثالث الدالي. ثم ضمّ البرودة إلى الرطوبة فكان

الماء البسيط وأظهر حكمه في ثلاثة أمكنة من الفلك الأقصى: سمّى المكان الواحد السرطان، وسمّى الآخر بالعقرب، وسمّى الثالث بالحوت، فهذا تقسيم فلك البروج على اثني عشر قسماً مفروضة تعينها الكواكب الثمانية والعشرون وذلك بتقدير العزيز العليم.

فلما أحكم صنعتها وترتيبها وأدارها فظهر الوجود مرتوقاً فأراد الحق فتقه ففصل بين السماء والأرض كما قال تعالىٰ: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] أي ميّز بعضها عن بعض، فأخذت السماء علواً دخاناً فحدث فيما بين السماء والأرض ركنان من المركبات: الركن الواحد الماء المركب ممّا يلي الأرض لأنه بارد رطب فلم يكن له قوّة الصعود فبقي على الأرض تمسكه بما فيها من اليبوسة عليها، والآخر النار وهي أكرة الأثير ممّا يلي السماء لأنه حار يابس فلم يكن له طبع النزول إلى الأرض فبقي ممّا يلي السماء من أجل حرارته واليبوسة تمسكه هناك، وحدث ما بين النار والماء ركن الهواء من حرارة النار ورطوبة الماء فلا يستطيع أن يلحق بالنار فإن ثقل الرطوبة يمنعه أن يكون بحيث النار وإن طلبت الرطوبة تنزله إلى أن يكون بحيث الماء تمنعه الحرارة من النزول، فلما تمانعا لم يبق إلاّ أن يكون بين الماء والنار لأنهما يتجاذبانه على السواء فذلك المسمّى هواء. فقد بان لك مراتب العناصر وماهيتها ومن أين ظهرت وأصل الطبيعة.

ولما دارت الأفلاك ومخضت الأركان بما حملته ممّا ألقت فيها في هذا النكاح المعنوي، وظهرت المولدات من كل ركن بحسب ما يقتضيه حقيقة ذلك الركن فظهرت أمم العالم وظهرت الحركة المنكوسة والحركة الأفقية، فلما انتهى الحكم إلى السنبلة ظهرت النشأة الإنسانية بتقدير العزيز العليم، فأنشأ الله عزّ وجلّ الإنسان من حيث جسمه خلقاً سوياً وأعطاه الحركة المستقيمة، وجعل الله لها من الولاية في العالم العنصري سبعة آلاف سنة، وينتقل الحكم إلى الميزان وهو زمان القيامة، وفيه يضع الله ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧]. ولما لم يكن الحكم له بما أودع الله فيه من العدل في الدنيا شرع الموازين فلم يعمل بها إلاّ القليل من الناس وهم النبيون خاصة ومن كان محفوظاً من الأولياء. ولما كانت القيامة محل سلطان الميزان لم تظلم نفس شيئاً قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ يعني من العمل ﴿أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

ولما كان للعذراء السبعة من الأعداد كانت لها السبعة والسبعون والسبعمائة من الأعداد في تضاعف الأجور وضرب الأمثال في الصدقات فقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦١] إلى سبعة آلاف، إلى سبعين ألفاً، إلى سبعمائة ألف، إلى ما لا نهاية له، ولكن من حساب السبعة. وإنما كانت الفروض المقدّرة في الفلك الأطلس اثني عشر فرضاً لأن منتهى أسماء العدد إلى اثني عشر اسماً وهو من الواحد إلى العشرة إلى المائة، وهو الحادي عشر إلى الألف، وهو الثاني عشر وليس وراءه مرتبة أخرى، ويكون التركيب فيها

بالتضعيف إلى ما لا نهاية له بهذه الأسماء خاصة، ويدخل الناس الجنة والنار وذلك في أول الحادية إحدى عشرة درجة من الجوزاء، وتستقرّ كل طائفة في دارها ولا يبقى في النار من يخرج بشفاعة ولا بعناية إلهية، ويذبح الموت بين الجنة والنار، ويرجع الحكم في أهل الجنة بحسب ما يعطيه الأمر الإلهيّ الذي أودع الله في حركات الفلك الأقصى، وبه يقع التكوين في الجنة بحسب ما تعطيه نشأة الدار الآخرة فإنّ الحكم أبداً في القوابل، فإن الحركة واحدة وآثارها تختلف بحسب القوابل، وسبب ذلك حتى لا يستقل أحد من الخلق بفعل ولا بأمر دون مشاركة فيتميّز بذلك فعل الله الذي يفعل لا بمشاركة من فعل المخلوق، فالمخلوق أبداً في محل الافتقار والعجز والله الغنيّ العزيز.

ويكون الحكم في أهل النار بحسب ما يعطيه الأمر الإلهيّ، الذي أودعه الله تعالىٰ في حركات الفلك الأقصى، وفي الكواكب الثابتة، وفي سباحة الدراريّ السبعة المطموسة الأنوار فهي كواكب لكنها ليست بثواقب، فالحكم في النار خلاف الحكم في الجنة، فيقرب حكم النار من حكم الدنيا، فليس بعذاب خالص ولا بنعيم خالص، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٧٤] فلم يخلصه إلى أحد الوجهين، وكذلك قال ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ**».

وقد قدّمنا في الباب الذي قبل هذا صورة النعيم والعذاب، وسبب ذلك أنه بقي ما أودع الله عليهم في الأفلاك وحركات الكواكب من الأمر الإلهيّ، وتغيّر منه على قدر ما تغيّر من صور الأفلاك بالتبديل، ومن الكواكب بالطمس والانتثار، فاختلف حكمها بزيادة ونقص لأن التغيير وقع في الصور لا في الذوات.

واعلم أن الله تعالىٰ لما تسمّى بالملك رتّب العالم ترتيب المملكة، فجعل له خواص من عباده وهم الملائكة المهيمة جلساء الحق تعالىٰ بالذكر ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٩] ثم اتخذ حاجباً من الكروبيين واحداً أعطاه علمه في خلقه وهو علم مفصل في إجمال فعلمه سبحانه كان فيه مجلى له وسمّى ذلك الملك نوناً فلا يزال معتكفاً في حضرة علمه عزّ وجلّ وهو رأس الديوان الإلهيّ والحق من كونه عليماً لا يحتجب عنه. ثم عيّن من ملائكته ملكاً آخر دونه في المرتبة سمّاه القلم وجعل منزلته دون النون واتخذه كاتباً فيعلمه الله سبحانه من علمه ما شاءه في خلقه بوساطة النون ولكن من العلم الإجماليّ. وممّا يحوي عليه العلم الإجماليّ علم التفصيل وهو من بعض علوم الإجمال لأن العلوم لها مراتب من جملتها علم التفصيل، فما عند القلم الإلهيّ من مراتب العلوم المجملة إلاّ علم التفصيل مطلقاً وبعض العلوم المفصلة لا غير، واتخذ هذا الملك كاتب ديوانه وتجلّى له من اسمه القادر فأمده من هذا التجلي الإلهي وجعل نظره إلى جهة عالم التدوين والتسطير فخلق له لوحاً وأمره أن يكتب فيه جميع ما شاء سبحانه أن يجريه في خلقه إلى يوم القيامة خاصة وأنزله منه منزلة التلميذ من الأستاذ، فتوجهت عليه هنا الإرادة الإلهية فخصصت له هذا القدر من العلوم المفصلة، وله تجليان من الحق بلا

واسطة، وليس للنون سوى تجلّ واحد في مقام أشرف، فإنه لا يدلّ تعدّد التجليات ولا كثرتها على الأشرفية وإنما الأشرف من له المقام الأعم، فأمر الله النون أن يمدّ القلم بثلاثمائة وستين علماً من علوم الإجمال تحت كل علم تفاصيل ولكن معينة منحصرة لم يعطه غيرها، يتضمن كل علم إجمالي من تلك العلوم ثلاثمائة وستين علماً من علوم التفصيل، فإذا ضربت ثلاثمائة وستين في مثلها فما خرج لك فهو مقدار علم الله تعالىٰ في خلقه إلى يوم القيامة خاصة، ليس عند اللوح من العلم الذي كتبه فيه هذا القلم أكثر من هذا لا يزيد ولا ينقص.

ولهذه الحقيقة الإلهية جعل الله الفلك الأقصى ثلاثمائة وستين درجة، وكل درجة مجملة لما تحوي عليه من تفصيل الدقائق والثواني والثوالث إلى ما شاء الله سبحانه ممّا يظهره في خلقه إلى يوم القيامة، وسمّى هذا القلم الكاتب، ثم إن الله سبحانه وتعالىٰ أمر أن يولى على عالم الخلق اثني عشر والياً يكون مقرّهم في الفلك الأقصى منافي بروج، فقسم الفلك الأقصى اثني عشر قسماً جعل كل قسم منها برجاً لسكنى هؤلاء الولاة مثل أبراج سور المدينة فأنزلهم الله إليها فنزلوا فيها كل وال على تخت في برجه، ورفع الله الحجاب الذي بينهم وبين اللوح المحفوظ فرأوا فيه مسطراً أسماءهم ومراتبهم وما شاء الحق أن يجريه على أيديهم في عالم الخلق إلى يوم القيامة، فارتقم ذلك كله في نفوسهم وعلّموه علماً محفوظاً لا يتبدّل ولا يتغيّر، ثم جعل الله لكل واحد من هؤلاء الولاة حاجبين ينفذان أوامرهم إلى نوابهم، وجعل بين كل حاجبين سفيراً يمشي بينهما بما يلقي إليه كل واحد منهما، وعيّن الله لهؤلاء الذين جعلهم الله حجاباً لهؤلاء الولاة في الفلك الثاني منازل يسكنونها وأنزلهم إليها وهي الثمانية والعشرون منزلة التي تسمى المنازل التي ذكرها الله في كتابه فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٩] يعني في سيره ينزل كل ليلة منزلة منها إلى أن ينتهي إلى آخرها، ثم يدور دورة أخرى لتعلموا بسيره، وسير الشمس فيها والخنس عدد السنين والحساب، وكل شيء فصّله الحق لنا تفصيلاً، فأسكن في هذه المنازل هذه الملائكة وهم حجاب أولئك الولاة الذين في الفلك الأقصى.

ثم إن الله تعالىٰ أمر هؤلاء الولاة أن يجعلوا نوّاباً لهم ونقباء في السموات السبع في كل سماء نقيباً كالحاجب لهم ينظر في مصالح العالم العنصريّ بما يلقون إليهم هؤلاء الولاة ويأمرونهم به وهو قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فجعل الله أجسام هذه الكواكب النقباء أجساماً نيرة مستديرة ونفخ فيها أرواحها، وأنزلها في السموات السبع في كل سماء واحد منهم وقال لهم: قد جعلتكم تستخرجون ما عند هؤلاء الاثني عشر والياً بوساطة الحجاب الذين هم ثمانية وعشرون، كما يأخذ أولئك الولاة عن اللوح المحفوظ، ثم جعل الله لكل نقيب من هؤلاء السبعة النقباء فلكاً يسبح فيه هو له كالجواد للراكب، وهكذا الحجاب لهم أفلاك يسبحون فيها إذ كان لهم التصرّف في حوادث العالم والاستشراف عليه، ولهم سدنة وأعوان يزيدون على الألف، وأعطاهم الله مراكب سمّاها أفلاكاً فهم أيضاً يسبحون فيها وهي تدور بهم على المملكة في كل يوم مرة فلا يفوتهم من المملكة شيء أصلاً

من ملك السموات والأرض، فيدور الولاة وهؤلاء الحجاب والنقباء والسدنة كلهم في خدمة هؤلاء الولاة، والكل مسخّرون في حقّنا إذ كنّا المقصود من العالم، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: الآية ١٣].

وأنزل الله في التوراة: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي. وهكذا ينبغي أن يكون الملك يستشرف كل يوم على أحوال أهل ملكه يقول تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] لأنه ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] بلسان حال ولسان مقال ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ حفظ العالم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥] فما له شغل إلاّ بها، يقول تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة السجدة: الآية ٥] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] ولولا وجود الملك لما سمّي الملك ملكاً، فحفظه لملكه حفظه لبقاء اسم الملك عليه وإن كان كما قال: و ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٧] فما جاء باسم الملك فإن أسماء الإضافة لا تكون إلاّ بالمضاف، فكل سلطان لا ينظر في أحوال رعيته ولا يمشي بالعدل فيهم ولا يعاملهم بالإحسان الذي يليق بهم فقد عزل نفسه في نفس الأمر.

ويقول الفقهاء إن الحاكم إذا فسق أو جار فقد انعزل شرعاً، ولكن عندنا انعزل شرعاً فيما فسق فيه خاصة لأنه ما حكم بما شرع له أن يحكم به فقد أثبتهم رسول الله ﷺ ولاة مع جورهم فقال عليه الصلاة والسلام: «**فَإِنْ عَدَلُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ وَإِنْ جَارُوا فَلَكُمْ وَعَلَيهِمْ**» ونهى أن نخرج يداً من طاعة، وما خصّ بذلك والياً من وال، فلذلك زدنا في عزله شرعاً إنما ذلك فيما فسق فيه، فالملك مأمور أن يحفظ نفسه من الخروج ممّا حدّ له من الأحكام في رعاياه وفي نفسه فإنه وال على نفسه: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» فالإنسان راع على نفسه فما زاد ولذلك قال ﷺ: «**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**» الحديث، فمن لم يف لمن بايعه بما بايعه عليه فقد عزل نفسه وليس بملك وإن كان حاكماً، فما كل حاكم يكون سلطاناً، فإن السلطان من تكون له الحجة لا عليه، ولهذا جعل الله الأفلاك تدور علينا كل يوم دورة لتنظر الولاة ما تدعو حاجة الخلق إليهم فيسدّون الخلل وينفذون أحكام الله تعالىٰ من كونه مريداً في خلقه لا من كونه آمراً، فينفذون أحكامه التي أمرهم سبحانه أن ينفذوها فيهم وهو القضاء والقدر في أزمان مختلفة، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس، وكل صغير وكبير مستطر في اللوح المحفوظ، فما فيه إلاّ ما يقع، ولا ينفذ هؤلاء الولاة في العالم إلاّ ما فيه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٢] ومع هذا كله فإن الله له مع كل واحد من المملكة أمر خاص في نفسه يعلمه الولاة والحجاب والنقباء فهم لا يفقدون مشاهدة ذلك الوجه ذلك ليعلموا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢] وأنه رقيب ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] و﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٥٤].

ولما جعل الله زمان هذه الأمور بأيدي هؤلاء الجماعة من الملائكة وأقعد من أقعد منهم في برجه ومسكنه الذي فيه تخت ملكه، وأنزل من أنزل من الحجاب والنقباء إلى منازلهم في

سمواتهم، وجعل في كل سماء ملائكة مسخرة تحت أيدي هؤلاء الولاة، وجعل تسخيرهم على طبقات: فمنهم أهل العروج بالليل والنهار من الحق إلينا ومنا إلى الحق في كل صباح ومساء وما يقولون إلاّ خيراً في حقنا. ومنهم المستغفرون لمن في الأرض. ومنهم المستغفرون للمؤمنين لغلبة الغيرة الإلٰهية عليهم كما غلبت الرحمة على المستغفرين لمن في الأرض. ومنهم الموكلون بالإلهام وهم الموصلون العلوم إلى القلوب. ومنهم الموكلون بالأرحام. ومنهم الموكلون بتصوير ما يكوّن الله في الأرحام. ومنهم الموكلون بنفخ الأرواح. ومنهم الموكلون بالأرزاق. ومنهم الموكلون بالأمطار ولذلك قالوا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٦٤].

وما من حادث يحدث الله في العالم إلاّ وقد وكّل الله بإجرائه ملائكة ولكن بأمر هؤلاء الولاة من الملائكة، كما منهم أيضاً: الصافات، والزاجرات، والتاليات، والمقسمات، والمرسلات، والناشرات، والنازعات، والناشطات، والسابقات، والسابحات، والملقيات، والمدبرات. ومع هذا فما يزالون تحت سلطان هؤلاء الولاة إلاّ الأرواح المهيمة فهم خصائص الله، ومن دونهم فإنهم ينفذون أوامر الله في خلقه. ثم إن العامة ما تشاهد إلاّ منازلهم، والخاصة يشهدونهم في منازلهم، كما أيضاً تشاهد العامة أجرام الكواكب ولا تشاهد أعيان الحجاب ولا النقباء.

وجعل الله في العالم العنصريّ خلقاً من جنسهم، فمنهم الرسل والخلفاء والسلاطين والملوك وولاة أمور العالم. وجعل الله بين أرواح هؤلاء الذي جعلهم الله ولاة في الأرض من أهلها بينهم وبين هؤلاء الولاة في الأفلاك مناسبات ورقائق تمتدّ إليهم من هؤلاء الولاة بالعدل، مطهرة من الشوائب مقدسة عن العيوب، فتقبل أرواح هؤلاء الولاة الأرضيين منهم بحسب استعداداتهم، فمن كان استعداده قوياً حسناً قبل ذلك الأمر على صورته طاهراً مطهراً، فكان والي عدل وإمام فضل، ومن كان استعداده رديئاً قبل ذلك الأمر الظاهر وردّه إلى شكله من الرداءة والقبح فكان والي جور ونائب ظلم وبخل فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

فقد أبنت لك سلطنة العالم العلويّ على العالم السفليّ، وكيف رتّب الله ملكه هذا الترتيب العجيب، وما ذكرنا من ذلك إلاّ الأمهات لا غير، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وقال: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢]. ويكفي هذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وفي كتاب التنزلات الموصلية ذكرنا حديث هؤلاء الولاة والنوّاب والحجاب وما ولاّهم الله عليه من التأثير في العالم العنصريّ الروحاني من ذلك ما تعرضنا لما تعطيه من الطبيعة والأمور البدنية، وتكلمنا فيها على ما ذكرناه مفصلاً في باب يوم الأحد وهو باب الإمام، وبيّنا ما بيد كل نائب من السبعة النقباء في باب يوم الأحد وسائر الأيام إلى يوم السبت، وبيّنا مقامات أرواح الأنبياء عليهم السلام في ذلك، وجعلنا هذه الألقاب الروحانية لأرواح الأنبياء عليهم السلام، وبيّنا مراتبهم في الرؤية والحجاب يوم القيامة، وما يتكلمون به في أتباعهم من

أهل السعادة والشقاء وذلك منه في باب يوم الاثنين بلسان آدم وترجمة القمر، وجاء بديعاً في شأنه، والله المؤيد والموفق لا رب غيره.

الباب الحادي والستون
في معرفة جهنم وأعظم المخلوقات فيها عذاباً ومعرفة بعض العالم العلوي

[نظم: الكامل]

إن السماءَ تعودُ رَتْقاً مثل ما — كانت وأنجمُها يزول ضياؤُهَا

هذا ليُنصفك المقيمُ بأرضها — وعليه قام عمادُها وبناؤهَا

فأَشَدُّ خلق الله آلاماً بها — من كان منها خَلْقُه فسماؤهَا

تكسوه حلَّةَ ناره من نورها — فلذاك يَعْظُم في النفوس بلاؤهَا

اعلم عصمنا الله وإياك أن جهنم من أعظم المخلوقات وهي سجن الله في الآخرة يسجن فيه المعطلة والمشركون وهي لهاتين الطائفتين دار مقامة، والكافرون والمنافقون وأهل الكبائر من المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٨] ثم يخرج بالشفاعة ممّن ذكرنا وبالامتنان الإلهيّ من جاء النص الإلهي فيه، وسمّيت جهنم لبعد قعرها، يقال: بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر وهي تحوي على حرور وزمهرير، ففيها البرد على أقصى درجاته، والحرور على أقصى درجاته، وبين أعلاها وقعرها خمس وسبعون مائة من السنين.

واختلف الناس في خلقها هل خلقت بعد أم لم تخلق؟ والخلاف مشهور فيها، وكل واحد من الطائفتين يحتج فيما ذهب إليه بما يراه حجة عنده، وكذلك اختلفوا في الجنة، وأما عندنا وعند أصحابنا أهل الكشف والتعريف فهما مخلوقتان غير مخلوقتين، فأما قولنا مخلوقة فكرجل أراد أن يبني داراً فأقام حيطانها كلها الحاوية عليها خاصة فيقال: قد بنى داراً فإذا دخلها لم ير إلاّ سوراً دائراً على فضاء وساحة، ثم بعد ذلك ينشىء بيوتها على أغراض الساكنين فيها من بيوت وغرف وسراديب ومهالك ومخازن، وما ينبغي أن يكون فيها ممّا يريده الساكن أن يجعل فيها من الآلات التي تستعمل في عذاب الداخل فيها وهي دار حرورها هواء محترق لا جمر لها سوى بني آدم والأحجار المتخذة آلهة والجنّ لهبها. قال تعالىٰ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٤] وقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩٨] وقال تعالىٰ: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٩٤، ٩٥].

وتحدث فيها الآلات بحدوث أعمال الجنّ والإنس الذين يدخلونها، وأوجدها الله بطالع الثور ولذلك كان خلقها في الصورة صورة الجاموس سواء، هذا الذي يعوّل عليه عندنا، وبهذه الصورة رآها أبو الحكم بن برجان في كشفه، وقد تمثل لبعض الناس من أهل الكشف في صورة حية فيتخيل أن تلك الصورة هي التي خلقها الله عليها كأبي القاسم بن قسي

وأمثاله. ولما خلقها الله تعالىٰ كان زحل في الثور وكانت الشمس والأحمر في القوس وكان سائر الدراري في الجدي، وخلقها الله تعالىٰ من تجلي قوله في حديث مسلم: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي، ومَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**». وهذا أعظم نزول نزله الحق إلى عباده في اللطف بهم، فمن هذه الحقيقة خلقت جهنم أعاذنا الله وإياكم منها، فلذلك تجبرت على الجبابرة، وقصمت المتكبرين، وجميع ما يخلق فيها من الآلام التي يجدها الداخلون فيها.

فمن صفة الغضب الإلهيّ ولا يكون ذلك إلاّ عند دخول الخلق فيها من الجنّ والإنس متى دخلوها، وأما إذا لم يكن فيها أحد من أهلها فلا ألم فيها في نفسها ولا في نفس ملائكتها، بل هي ومن فيها من زبانيتها في رحمة الله منغمسون ملتذون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٨١] أي ينزل بكم غضبي فأضاف الغضب إليه، وإذا نزل بهم كانوا محلاً له، وجهنم إنما هي مكان لهم وهم النازلون فيها وهم محل الغضب وهو النازل بهم، فإن الغضب هنا هو عين الألم، فمن لا معرفة له ممّن يدعي طريقتنا ويريد أن يأخذ الأمر بالتمثيل والقوّة والمناسبة في الصفات فيقول: إن جهنم مخلوقة من القهر الإلهيّ، وإن الاسم القاهر هو ربها والمتجلي لها، ولو كان الأمر كما قاله لشغلها ذلك بنفسها عمّا وجدت له من التسلّط على الجبابرة ولم يتمكن لها أن تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٠] ولا أن تقول: أكل بعضي بعضاً. فنزول الحق برحمته إليها التي وسعت كل شيء، وحنانه وسع لها المجال في الدعوى والتسلّط على من تجبّر على من أحسن إليها هذا الإحسان وجميع ما تفعله بالكفار من باب شكر المنعم حيث أنعم عليها فما تعرف منه سبحانه إلاّ النعمة المطلقة التي لا يشوبها ما يقابلها، فالناس غالطون في شأن خلقها.

ومن أعجب ما روينا عن رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان قاعداً مع أصحابه في المسجد فسمعوا هدة عظيمة فارتاعوا فقال رسول الله ﷺ: «**أَتعْرِفُونَ مَا هٰذِهِ الهدَّةُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**حَجَرٌ أُلْقِيَ مِنْ أَعْلَى جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً الآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا فَكَانَ وُصُولُهُ إِلَى قَعْرِهَا وَسُقُوطهُ فِيهَا هٰذِهِ الهدَّة**» فما فرغ من كلامه ﷺ إلاّ والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُ أَكْبَرُ**» فعلم علماء الصحابة أن هذا الحجر هو ذاك المنافق وأنه منذ خلقه الله يهوي في نار جهنم وبلغ عمره سبعين سنة فلما مات حصل في قعرها. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٥] فكان سماعهم تلك الهدة التي أسمعهم الله ليعتبروا. فانظر ما أعجب كلام النبوّة وما ألطف تعريفه، وما أحسن إشارته، وما أعذب كلامه ﷺ.

ولقد سألت الله أن يمثل لي من شأنها ما شاء فمثل لي حالة خصامهم فيها وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: الآية ٦٤] وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء: ٩٦، ٩٧] لضلالهم وآلهتهم ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٩٨، ٩٩] وهم أهل النار الذين هم أهلها الذين

يقول الله فيهم: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] يريد بالمجرمين أهل النار الذين يعمرونها ولا يخرجون منها، يمتازون عن الذين يخرجون منها بشفاعة الشافعين وسابق العناية الإلهية في الموحدين، فهذا مثل لي في وقت منها فما شبهت خصامهم فيها إلاَّ كخصام أصحاب الخلاف في مناظرتهم إذا استدل أحدهم فإذا رأيت ذلك تذكرت الحالة التي أطلعني الله عليها، ورأيت الرحمة كلها في التسليم والتلقي من النبوّة والوقوف عند الكتاب والسنّة.

ولقد عمي الناس عن قوله ﷺ **«عند نبيّ لا ينبغي تنازع»** وحضور حديثه ﷺ كحضوره لا ينبغي أن يكون عند إيراده تنازع ولا يرفع السامع صوته عند سرد الحديث النبويّ فإن الله يقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٢] ولا فرق عند أهل الله بين صوت النبي أو حكاية قوله، فما لنا إلاَّ التهيؤ لقبول ما يرد به المحدث من كلام النبوّة من غير جدال، سواء كان ذلك الحديث جواباً عن سؤال أو ابتداء كلام، فالوقوف عند كلامه في المسألة أو في النازلة واجب، فمتى ما قيل قال الله أو قال رسول الله ﷺ ينبغي أن يقبل ويتأدّب السامع ولا يرفع صوته على صوت المحدّث إذا قال ما قال الله أو سرد الحديث عن رسول الله ﷺ، يقول الله تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] وما تلاه إلاَّ رسول الله ﷺ وما سمعه السامع إلاَّ منه، ثم إذا شاركه السمع في حال كلامه فهو ليس بسامع، فإنه من الآداب التي أدّب الله نبيه ﷺ قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [سورة طه: الآية ١١٤] والله يقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ وتوعد على ذلك بحبط العمل من حيث لا يشعر الإنسان، فإنه يتخيل في ردّه وخصامه أنه يذب عن دين الله وهذا من مكر الله الذي قال فيه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٢] وقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٠]. فالعاقل المؤمن الناصح نفسه إذا سمع من يقول: قال الله تعالىٰ، أو قال رسول الله ﷺ فلينصت، ويصغ، ويتأدّب، ويتفهم ما قال الله أو ما قال رسوله ﷺ، يقول الله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٠٤] فأوقع الترجي مع هذه الصفة وما قطع بالرحمة فكيف حال من خاصم ورفع صوته وداخل التالي وسارد الحديث النبويّ في الكلام، وأرجو أن يكون الترجي الإلهيّ واجباً كما يراه العلماء.

ولما عاينت هذا المحل رأيت عجباً، وفي هذه الرؤية رأيت اعتماد الماء على الهواء وهو من أعجب الأشياء في عمارة الأحياز وأن جوهرين لا يكونان في حيّز واحد وأن الحيّز لن يشغله، وفي هذه الرؤية علمت إبطال التوالد وأن المحرك للأشياء هو الله تعالىٰ، وأن السبب لا أثر له في الفعل جملة واحدة، وفي هذه الرؤية علمت أن الألطف أقوى من الأكثف، فإنّ الهواء ألطف من الماء بلا شك وقد منعه ولم يقاومه الماء في القوّة ومنعه من النزول، فإني رأيت نفسي في الهواء والماء فوقي ويمنعه الهواء من النزول إلى الأرض، وفي هذه الرؤية علمت علوماً جمة كثيرة، وفي هذه الرؤية رأيت من دركات أهل النار من كونها جهنم لا من كونها ناراً ما شاء الله أن يطلعني منها، ورأيت فيها موضعاً يسمّى المظلمة نزلت في درجة نحو خمسة أدراج ورأيت

مهالكها ثم زجّ بي في الماء علواً فاخترقته وقد رأيت عجباً وعلمت في أحوال مخاصمتهم حيث يختصمون في الجحيم، وأن ذلك الخصام هو نفس عذابهم في تلك الحال، وأن عذابهم في جهنم ما هو من جهنم وإنما جهنم دار سكناهم وسجنهم والله يخلق الآلام فيهم متى شاء، فعذابهم من الله وهم محل له، وخلق الله لجهنم سبعة أبواب لكل باب جزء من العالم ومن العذاب مقسوم، وهذه الأبواب السبعة مفتحة وفيها باب ثامن مغلق لا يفتح وهو باب الحجاب عن رؤية الله تعالىٰ، وعلى كل باب ملك من الملائكة ملائكة السموات السبع عرفت أسماءهم هنالك وذهبت عن حفظي إلاَّ إسماعيل فهو بقي على ذكري.

وأمّا الكواكب كلها فهي في جهنم مظلمة الأجرام عظيمة الخلق، وكذلك الشمس والقمر والطلوع والغروب لهما في جهنم دائماً، فشمسها شارقة لا مشرقة، والتكوينات عن سيرها بحسب ما يليق بتلك الدار من الكائنات وما تغير فيها من الصور في التبديل والانتثار ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [سورة غافر: الآية ٤٦] والحالة مستمرة، ففي البرزخ يكون العرض، وفي الدار الآخرة يكون الدخول، فذوات الكواكب فيها صورتها صورة الكسوف عندنا سواء، غير أن وزن تلك الحركات في تلك الدار خلاف ميزانها اليوم، فإن كسوفها ما ينجلي وهو كسوف في ذاتها لا في أعيننا، والهواء فيها فيه تطفيف فيحول بين الأبصار وبين إدراك الأنوار كلها، فتبصر الأعين الكواكب المنتثرة غير نيرة الأجرام كما يعلم قطعاً أن الشمس هنا في ذاتها نيرة، وأن الحجاب القمري هو الذي منع البصر أن يدركها أو يدرك نور القمر أو ما كان مكسوفاً، ولهذا في زمان كسوف شيء منها في موضع يكون في موضع آخر أكثر من ذلك، وفي موضع آخر لا يكون منه شيء، فلما اختلفت الأبصار في إدراك ذلك لاختلاف الأماكن علمنا قطعاً أن ثم أمراً عارضاً عرض في الطريق حال بين البصر وبينها، أو بين نورها كالقمر يحول بينك وبين إدراك جرم الشمس، وظل الأرض يحول بينك وبين نور القمر لا بينك وبين جرمه مثل ما حال القمر بينك وبين جرم الشمس، وذلك بحسب ما يكون منك ويكون منه، وهكذا سائر الكواكب ولكن أكثر الناس لا يعلمون، كما أن أكثر الناس لا يؤمنون.

فإن ذلك الكسوف كله على اختلاف أنواعه خشوع من المكسوف عن تجلٍّ إلهيّ حصل له وحدّ جهنم بعد الفراغ من الحساب ودخول أهل الجنة الجنة من مقعر فلك الكواكب الثابتة إلى أسفل سافلين، فهذا كله يزيد في جهنم ممّا هو الآن ليس مخلوقاً فيها، ولكن ذلك معدّ حتى يظهر، إلاَّ الأماكن التي قد عيّنها الله من الأرض فإنها ترجع إلى الجنة يوم القيامة مثل الروضة التي بين منبر رسول الله ﷺ وبين قبره ﷺ، وكل مكان عيّنه الشارع وكل نهر فإن ذلك كله يصير إلى الجنة، وما بقي فيعود ناراً كله وهو من جهنم، ولهذا كان يقول عبد الله بن عمر إذا رأى البحر يقول: يا بحر متى تعود ناراً وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: الآية ٦] أي أجّجت ناراً من سجرت التنور إذا أوقدته وكان ابن عمر يكره الوضوء بماء البحر ويقول: التيمّم أعجب إليّ منه ولو كشف الله عن أبصار الخلق اليوم لرأوه يتأجج

ناراً، ولكن الله يظهر ما يشاء ويخفي ما يشاء ليعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق: الآية ١٢].

وأكثر ما يجري هذا لأهل الورع، فيرى الطعام الحرام صاحب الورع المحفوظ خنزيراً أو عذرة والشراب خمراً لا يشك فيما يراه ويراه جليسه قرصة خبز طيبة ويرى الشراب ماء عذباً، فيا ليت شعري من هو صاحب الحسّ الصحيح من صاحب الخيال؟ هل الذي أدرك الحكم الشرعيّ صورة؟ أو هل الذي أدرك المحسوس في العادة على حاله؟ وهذا ممّا يقوي مذهب المعتزلة في أن القبيح قبيح لنفسه والحسن حسن لنفسه، وأن الإدراك الصحيح إنما هو لمن أدرك الشراب الحرام خمراً، فلولا أنه قبيح لنفسه ما صحّ هذا الكشف لصاحبه، ولو كان فعله عين تعلّق الخطاب بالحرمة والقبح ما ظهر ذلك الطعام خنزيراً، فإن الفعل ما وقع من المكلف، فإن الله أظهر له صورته وأنه قبيح حتى لا يقدم على أكله وهذا بعينه يتصوّر فيمن يدركه طعاماً على حاله في العادة ولكن هذا أحق في الشرع، فعلم قطعاً أن الذي يراه طعاماً على عادته قد حيل بينه وبين حقيقة حكم الشرع فيه بالقبح، ولو كان الشيء قبيحاً بالقبح الوضعيّ لم يصدق قول الشارع في الإخبار عنه أنه قبيح أو حسن، فإنه خبر بالشيء على خلاف ما هو عليه، فإن الأحكام أخبار بلا شك عند كل عاقل عارف بالكلام، فإن الله أخبرنا أن هذا حرام وهذا حلال، ولذا قال تعالىٰ في ذم من قال عن الله ما لم يقل: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [سورة النحل: الآية ١١٦] فإنه ألحق الحكم بالخبر لأنه خبر بلا شك، إلاّ أنه ليس في قوّة البشر في أكثر الأشياء إدراك قبح الأشياء ولا حسنها، فإذا عرّفنا الحق بها عرفناها، ومنها ما يدرك قبحه عقلاً في عرفنا مثل الكذب وكفر المنعم، وحسنه عقلاً مثل الصدق وشكر المنعم، وكون الإثم يتعلق ببعض أنواع الصدق والأجر يتعلق ببعض أنواع الكذب فذلك لله يعطي الأجر على ما شاءه من قبح وحسن. ولا يدل ذلك على حسن الشيء ولا قبحه كالكذب في نجاة مؤمن من هلاك يؤجر عليه الإنسان، وإن كان الكذب قبيحاً في ذاته والصدق كالغيبة يأثم بها الإنسان، وإن كان الصدق حسناً في ذاته فذاك أمر شرعيّ يعطي فضله من شاء ويمنعه من شاء كما قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٥].

واعلم أن أشد الخلق عذاباً في النار إبليس الذي سنّ الشرك وكل مخالفة، وسبب ذلك أنه مخلوق من النار فعذابه بما خلق منه، ألا ترى النفس به تكون حياة الجسم الحساس فإذا منع بالشنق أو الخنق خروج ذلك النفس العكس راجعاً إلى القلب فأحرقه من ساعته فهلك لحينه، فبالنفس كانت حياته وبه كان هلاكه، وهلاكه على الحقيقة بالنفس من كونه متنفساً لا من كونه ذا نفس، ولا من كونه متنفساً فقط بل من كونه يجذب بالقوّة الجاذبة نفس الهواء البارد إلى قلبه ويخرج بالقوّة الدافعة النفس الحار المحرق من قلبه، فسبب هذه الأحوال بها تكون حياته، فإن الذي يرمى في النار هو متنفس، ولكن لا يخلو من أحد الوجهين: إمّا أنه لا يتنفس في النار فتكون حالته حالة المشنوق الذي يخنق بالحبل فيقتله نفسه. وإمّا أن يتنفس فيجذب بالقوّة

الجاذبة هواء نارياً محرقاً إذا وصل إلى قلبه أحرقه، فلهذا قلنا في سبب الحياة هذه الأمور كلها، فعذاب إبليس في جهنم بما فيها من الزمهرير فإنه يقابل النار الذي هو أصل نشأة إبليس فيكون عذابه بالزمهرير، وبما هو نار مركبة فيه من ركن الهواء والماء والتراب فلا بدّ أن يتعذب بالنار على قدر مخصوص، وعامّة عذابه بما يناقض ما هو الغالب عليه في أصل خلقه، والنار ناران: نار حسيّة وهي المسلطة على إحساسه وحيوانيته وظاهر جسمه وباطنه، ونار معنوية وهي التي تطلع على الأفئدة وبها يتعذب روح المدبر لهيكله الذي أمر فعصى، فمخالفته عذبته وهي عين جهله بمن استكبر عليه، فلا عذاب على الأرواح أشدّ من الجهل فإنه غبن كله ولهذا سمّي يوم التغابن يريد يوم عذاب النفوس فيقول: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٥٦] وهو يوم الحسرة، يقول يوم الكشف من حسرت عن الشيء إذا كشفت عنه فكأنه يقول: يا ليتني حسرت عن هذا الأمر في الدنيا فأكون على بصيرة من أمري فيغتبن في نفسه والتغابن يدرك في ذلك اليوم الكل الطائع والعاصي، فالطائع يقول: يا ليتني بذلت جهدي ووفيت حق استطاعتي وتدبرت كلام ربي فعملت بمقتضاه مع كونه سعيداً. والمخالف يقول: يا ليتني لم أخالف ربي فيما أمرني به ونهاني فذلك يوم التغابن. وسيأتي هذا في باب يوم القيامة إن شاء الله.

ولما أعلمناك بمرتبة النفس والتنفس إنما جئنا به لتعلم أن جهنم لما اختص بآلام أهلها صفة الغضب الإلهيّ واختص بوجودها التنزّل الرحمانيّ الإلهيّ، وجاء في الخبر الصحيح نفس الرحمن مشعراً بصفة الغضب فكان التنفّس ملحقاً صفة الغضب بمن حلّ به، ولهذا لما أتى نفس الرحمن من قبل اليمن حلّ الغضب الإلهيّ بالكفار بالقتل والسيف الذي أوقعت بهم الأنصار، فنفس الله بذلك عن دينه ونبيه ﷺ، فإن ذا الغضب إذا وجد على من يرسل غضبه تنفس عنه ما يجده من ألم الغضب وأكمل الصورة في محمد ﷺ فقام به على الكفار لأجل ردّهم كلمة الله صفة الغضب، فنفس الرحمن عنه بما أمره به من السيف، ونفس عنه بأصحابه وأنصاره فوجد الراحة فإنه وجد حيث يرسل غضبه، فافهم من هذا آلام أهل النار والصورة الحجابية المحمدية على الغضب الإلهيّ على أعداء الله، وأن الآلام أرسلت على الأعداء فقامت بهم، ونفس الله عن دينه وهو أمره وكلامه وهو عين علمه في خلقه وعلمه ذاته جلّ وتعالىٰ.

وقد بيّنا لك أمر جهنم من حيث ما هي دار، فلنبين إن شاء الله في الباب الذي يلي هذا الباب مراتب أهل النار. ثم اعلم أن الله قد جعل فيها مائة درك في مقابلة درج الجنة، ولكل درك قوم مخصوصون لهم من الغضب الإلهي الحال بهم آلام مخصوصة وأن المتولي عذابهم من الولاة الذين ذكرناهم في الباب قبل هذا من هذا الكتاب: القائم، والإقليد، والحامد، والنائب، والسادن، والجابر، فهؤلاء الأملاك من الولاة هم الذين يرسلون عليهم العذاب بإذن الله تعالىٰ ومالك هو الخازن. وأمّا بقية الولاة مع هؤلاء الذين ذكرناهم وهم: الحائر، والسائق، والماتح، والعادل، والدائم، والحافظ، فإن جميعهم يكونون مع أهل الجنان وخازن الجنان رضوان، وأمدادهم إلى أهل النار مثل أمدادهم إلى أهل الجنة، فإنهم يمدونهم

بحقائقهم وحقائقهم لا تختلف فيقبل كل طائفة من أهل الدارين منهم بحسب ما تعطيهم نشأتهم، فيقع العذاب بما به يقع النعيم من أجل المحل كما قلنا في المبرود: إنه يتنعم بحرّ الشمس والمحرور يتعذب بحر الشمس، فنفس ما وقع به النعيم به عينه وقع به الألم عند الآخر، فالله ينشئنا نشأة النعماء كما قال تعالىٰ في حق الأبرار: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [سورة المطففين: الآية ٢٤] أي هم في خلقهم على هذه الصفة، ونشأة أهل النار تخالف نشأة أهل الجنان، فإن نشأة الجنة إنما هو من الحق سبحانه على أيدي الولاة خاصة، ونشأة أهل النار على أيدي الولاة والحجاب والنقباء والسدنة على كثرتهم فإنه لا يحصي عددهم إلاَّ الله، ولكل ملك منهم في هذه النشأة الدنياوية، ونشأة النار ونشأة أهلها حكم سخره الله في ذلك، فهم كالفعلة في المملكة وإنشاء الدار المبنية، وسيأتي إن شاء الله ذكر الجنة وما فيها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والستون

في مراتب أهل النار

[نظم: البسيط]

مراتبُ النار بالأعمال تمتازُ — وليس فيها اختصاصاتٌ وإنجازُ
بوزن أفعال قد جاء العذابُ له — بُشرَى وإن عُذِّبوا فيها بما حازوا
لا يخرجون من النار ولو خرجوا — تعذَّبوا فلهم ذلٌّ وإعزازُ
فذلُّهم كونُهم في النار ما برحوا — وعزُّهم ما لهم حدٌّ إذا جازوا
في قولنا إن تأمَّلْتُمْ لذي نَظَرٍ — محقَّقٍ في علوم الوهب إعجازُ
فيه اختصارٌ بديعٌ لفظُه حَسَنٌ — فيه لطائفُ آيات وإيجازُ
قال الجليلُ لأهل الحق بينهُمُو — يا أيها المجرمون اليوم فامتازوا
مثل الملوك تراهم في نعيمِهِمُ — ولبْسُهم عند أهل الكشفِ أَخْزازُ
ومن جُسومِهمُو في النار تحسبهم — كأنهم مثل ما قد قال أَعجازُ

قولنا: بوزن أفعال أريد قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [سورة النبأ: الآية ٢٣] وهو من أوزان جمع القلة، فإن أوزان جمع القلة أربعة أفعل مثل أكلب، وأفعال مثل أحقاب، وفعلة مثل فتية، وأفعلة مثل أحمرة، وجمع ذلك بعض الأدباء في بيت من الشعر فقال:

بأفعل وبأفعال وأفعلة — وفعلة يجمع الأدنى من العدد

يقول الله تعالىٰ من كرمه لإبليس وعموم رحمته حين قال له: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٦٢، ٦٣، ٦٤] فما جاء إبليس إلاَّ بأمر الله تعالىٰ، فهو أمر إلهيّ يتضمن وعيداً وتهديداً، وكان ابتلاء شديداً في حقّنا ليريه تعالىٰ أن في

ذريته من ليس لإبليس عليه سلطان ولا قوّة. ثم إنّ الذين خذلهم الله من العباد جعلهم طائفتين: طائفة لا تضرّهم الذنوب التي وقعت منهم وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦٨] فلا تمسهم النار بما تاب الله عليهم واستغفار الملأ الأعلى لهم ودعائه لهذه الطائفة. وطائفة أخرى أخذهم الله بذنوبهم، والذين أخذهم الله بذنوبهم قسّمهم بقسمين: قسم أخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين وهم أهل الكبائر من المؤمنين وبالعناية الإلهية وهم أهل التوحيد بالنظر العقليّ. وقسم آخر أبقاهم الله في النار وهذا القسم هم أهل النار الذين هم أهلها وهم المجرمون خاصة الذين يقول الله فيهم: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٥٩] أي المستحقون بأن يكونوا أهلاً لسكنى هذه الدار التي هي جهنم يعمرونها ممّن يخرج منها إلى الدار الآخرة التي هي الجنة وهؤلاء المجرمون أربع طوائف كلها في النار لا يخرجون منها وهم المتكبرون على الله كفرعون وأمثاله ممّن ادّعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [سورة القصص: الآية ٣٨] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [سورة النازعات: الآية ٢٤] يريد أنه ما في السماء إله غيري، وكذلك نمرود وغيره. والطائفة الثانية: المشركون وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ [سورة الحجر: الآية ٩٦] فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر: الآية ٣] وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥]. والطائفة الثالثة: المعطلة وهم الذين نفوا الإله جملة واحدة، فلم يثبتوا إلهاً للعالم ولا من العالم. والطائفة الرابعة: المنافقون وهم الذين أظهروا الإسلام من إحدى هؤلاء الطوائف الثلاثة للقهر الذي حكم عليهم فخافوا على دمائهم وأموالهم وذراريهم وهم في نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد هؤلاء الطوائف الثلاث.

فهؤلاء أربعة أصناف هم الذين هم أهل النار لا يخرجون منها من جن وإنس. وإنما كانوا أربعة لأن الله تعالىٰ ذكر عن إبليس أنه يأتينا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا. فيأتي للمشرك من بين يديه، ويأتي للمعطل من خلفه ويأتي إلى المتكبر من عن يمينه، ويأتي إلى المنافق من عن شماله وهو الجانب الأضعف فإنه أضعف الطوائف، كما أن الشمال أضعف من اليمين، وجعل المتكبر من اليمين لأنه محل القوّة فتكبر لقوّته التي أحسّها من نفسه، وجاء للمشرك من بين يديه فإنه رأى إذ كان بين يديه جهة عينية فأثبت وجود الله ولم يقدر على إنكاره فجعله إبليس يشرك مع الله في ألوهيته، وجاء للمعطل من خلفه فإن الخلف ما هو محل النظر فقال له ما ثم شيء أي ما في الوجود إله.

ثم قال الله تعالىٰ في جهنم ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [سورة الحجر: الآية ٤٤] فهذه أربع مراتب لهم من كل باب من أبواب جهنم جزء مقسوم وهي منازل عذابهم فإذا ضربت الأربعة التي هي المراتب التي دخل عليهم منها إبليس في السبعة الأبواب كان الخارج ثمانية وعشرين منزلاً، وكذلك جعل الله المنازل التي قدّرها الله للإنسان المفرد وهو القمر وغيره من السيارة الخنس الكنس تسير فيها وتنزلها لإيجاد الكائنات، فيكون عند هذا السير ما يتكون من الأفعال في العالم العنصريّ، فإن هذه السيارة قد انحصرت في أربع طبائع

مضروبة في ذواتها وهن سبعة فخرج منها منازلها الثمانية والعشرون ذلك بـ ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: الآية ٤٠].

وكان ممّا ظهر عن هذا التسيير الإلهيّ في هذه الثمانية والعشرين وجود ثمانية وعشرين حرفاً ألّف الله الكلمات منها وظهر الكفر في العالم والإيمان بأن تكلم كل شخص بما في نفسه من إيمان وكفر وكذب وصدق، لتقوم الحجة لله على عباده ظاهراً بما تلفظوا به، ووكّل بهم ملائكة يكتبون ما تلفظوا به، قال تعالىٰ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ١١] وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: الآية ١٨] فجعل منازل النار ثمانية وعشرين منزلاً، وجهنم كلها مائة درك من أعلاها إلى أسفلها نظائر درج الجنة التي ينزل فيها السعداء، وفي كل درك من هذه الدركات ثمانية وعشرون منزلاً، فإذا ضربت ثمانية وعشرين في مائة كان الخارج من ذلك ألفين وثمانمائة منزل، فهي الثمانية والعشرون مائة فما برحت الثمانية والعشرون تصحبنا وهذه منازل النار فلكل طائفة من الأربع سبعمائة نوع من العذاب وهم أربع طوائف فالمجموع ثمان وعشرون مائة نوع من العذاب، كما لأهل الجنة سواء من الثواب يبيّن ذلك في صدقاتهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٦١] فالمجموع سبعمائة وهم أربعة طوائف: رسل وأنبياء وأولياء ومؤمنون، فلكل متصدق من هؤلاء الأربعة سبعمائة ضعف من النعيم في عملهم، فانظر ما أعجب القرآن في بيانه الشافي وموازنته في خلقه في الدارين الجنة والنار لإقامة العدل على السواء في باب جزاء النعيم وجزاء العذاب، فبهذا القدر يقع الاشتراك بين أهل الجنة وأهل النار للتساوي في عدد الدرج والدرك، ويقع الامتياز بأمر آخر وذلك أن النار امتازت عن الجنة بأنه ليس في النار دركات اختصاص إلهيّ ولا عذاب اختصاص إلهيّ من الله، فإن الله ما عرّفنا قط أنه اختصّ بنقمته من يشاء كما أخبرنا أنه يختص برحمته من يشاء وبفضله، فالجنة في نعيمها مخالف لميزان عذاب أهل النار، فأهل النار معذبون بأعمالهم لا غير، وأهل الجنة ينعمون بأعمالهم وبغير أعمالهم في جنات الاختصاص.

فلأهل السعادة ثلاث جنات: جنة أعمال، وجنة اختصاص، وجنة ميراث، وذلك أنه ما من شخص من الجنّ والإنس إلاّ وله في الجنة موضع وفي النار موضع وذلك لإمكانه الأصليّ، فإنه قبل كونه يمكن أن يكون له البقاء في العدم أو يوجد، فمن هذه الحقيقة له قبول النعيم وقبول العذاب، فالجنة تطلب الجميع والجميع يطلبها، والنار تطلب الجميع والجميع يطلبها، فإن الله يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ٩] أي أنتم قابلون لذلك، ولكن حقّت الكلمة وسبق العلم ونفذت المشيئة فلا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه، فينزل أهل الجنة في الجنة على أعمالهم ولهم جنات الميراث وهي التي كانت لأهل النار لو دخلوا الجنة ولهم جنات الاختصاص، يقول الله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٣] فهذه الجنة التي حصلت لهم بطريق الورث من أهل النار الذين هم أهلها، إذ لم يكن في علم الله أن يدخلوها، ولم يقل في أهل النار أنهم يرثون من النار أماكن

أهل الجنة لو دخلوا النار، وهذا من سبق الرحمة بعموم فضله سبحانه، فما نزل من نزل في النار من أهلها إلاً بأعمالهم ولهذا يبقى فيها أماكن خالية وهي الأماكن التي لو دخلها أهل الجنة عمروها فيخلق الله خلقاً يعمرونها على مزاج لودخلوا به الجنة تعذبوا وهو قوله ﷺ: «**فَيَضَعُ الجَبَّارُ فِيها قدَمَهُ فتَقُولُ قَط قَط**» أي حسبي حسبي، فإنه تعالىٰ يقول لها: هل امتلأت؟ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [سورة ق: الآية ٣٠] فإنه قال للجنة والنار: لكل واحدة منكما ملؤها، فما اشترط لهما إلاً أن يملأهما خلقاً، وما اشترط عذاب من يملأها بهم ولا نعيمهم، وأن الجنة أوسع من النار بلا شك فإن عرضها السموات والأرض فما ظنك بطولها؟ فهي للنار كمحيط الدائرة ممّا يحوي عليه.

وفي التنزلات الموصلية رسمناها وبيّناها على ما هي عليه في نفسها في باب يوم الاثنين، والنار عرضها قدر الخط الذي يميز قطري دائرة فلك الكواكب الثابتة فأين هذا الضيق من تلك السعة؟ وسبب هذا الاتساع جنات الاختصاص الإلهيّ فورد في الخبر: «**أَنَّهُ يَبْقَى أَيْضاً فِي الجَنَّةِ أَمَاكِنُ مَا فِيها أَحَدٌ فَيَخْلُقُ اللَّهُ خَلْقاً لِلنَّعِيمِ يَعْمُرُهَا بِهِمْ**» وهو أن يضع الرحمن فيها قدمه وليس ذلك إلاً في جنات الاختصاص ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٢] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٤].

فمن كرمه أنه تعالىٰ ما أنزل أهل النار إلاً على أعمالهم خاصة. وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٨] فذلك لطائفة مخصوصة وهم الأئمة المضلون يقول تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٣] وهم الذين أضلوا العباد، وأدخلوا عليهم الشبه المضلة فحادوا بها عن سواء السبيل، فضلّوا وأضلّوا وقالوا لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٢] يقول الله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ١٢] في هذا القول بل هم حاملون خطاياهم، والذين أضلوهم يحملون أيضاً خطاياهم وخطايا هؤلاء مع خطاياهم، ولا ينقص هؤلاء من خطاياهم من شيء يقول ﷺ: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَهُ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**» دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، فهو قوله: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٠] فهؤلاء قيل فيهم: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [سورة النحل: الآية ٨٨] فما أنزلوا من النار إلاً منازل استحقاق، بخلاف الجنة فإن أهل الجنة أنزلوا فيها منازل استحقاق مثل الكفار في النار بأعمالهم، وأنزلوا أيضاً منازل وراثة ومنازل اختصاص وليس ذلك في أهل النار، ولا بدّ لأهل النار من فضل الله ورحمته في نفس النار بعد انقضاء مدّة موازنة أزمان العمل، فيفقدون الإحساس بالآلام في نفس النار لأنهم ليسوا بخارجين من النار أبداً فلا يموتون فيها ولا يحيون، فتتخدّر جوارحهم بإزالة الروح الحساس منها.

وثم طائفة يعطيهم الله بعد انقضاء موازنة المدد بين العذاب والعمل نعيماً خيالياً مثل ما يراه النائم وجلده كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [سورة النساء: الآية ٥٦] هو كما قلنا خدرها، فزمان النضج والتبديل يفقدون الآلام لأنه إذا انقضى زمان الإنضاج خمدت النار في

حقهم فيكونون في النار كالأمّة التي دخلتها وليست من أهلها، فأماتهم الله فيها إماتة فلا يحسّون بما تفعله النار في أبدانهم، الحديث بكماله ذكره مسلم في صحيحه وهذا من فضل الله ورحمته.

وأما أبواب جهنم فقد ذكر الله من صفات أصحابها بعض ما ذكر، ولكن من هؤلاء الأربع الطوائف الذين هم أهلها ومن خرج بالشفاعة أو العناية ممّن دخلها، فقد جاء ببعض ما وصف الله به من دخلها من الأسباب الموجبة لذلك وهي: باب الجحيم، وباب سقر، وباب السعير، وباب الحطمة، وباب لظى، وباب الحامية، وباب الهاوية، وسميت الأبواب بصفات ما وراءها ممّا أعدّت له، ووصف الداخلون فيها بما ذكر الله تعالىٰ في مثل قوله في لظى: إنها ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [سورة المعارج: ١٧، ١٨] وقال ما يقول أهل سقر: إذا قيل لهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة المدثر: ٤٢ ـ ٤٦] وقال في أهل الجحيم: إنه يكذب بيوم الدين ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [سورة المطففين: الآية ١٢] فوصفه بالإثم والإعتداء، ثم قال فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [سورة المطففين: ١٦، ١٧]. وهكذا في الحطمة والسعير، وغير ذلك مما جاء به القرآن أو السنّة، فهذا قد ذكرنا الأمهات والطبقات.

وأما مناسبات الأعمال لهذه المنازل فكثيرة جداً يطول الشرح فيها، ولو شرعنا في ذلك طال علينا المدى، فإن المجال رحب ولكن الأعمال مذكورة والعذاب عليها مذكور، فمتى وقفت على شيء من ذلك وكنت على نور من ربك وبينة فإن الله يطلعك عليه بكرمه. والذي شرطنا في هذا الباب وترجمنا عليه إنما كان ذكر المراتب وقد ذكرناها وبيّناها ونبهنا على مواضع يجول فيها نظر الناظر من كتابي هذا من الآيات التي استشهدنا بها في هذا الباب من أوله من أمر الله إبليس بما ذكر له فهل له من امتثال ذلك الأمر الإلهيّ أمر يعود عليه منه من حيث ما هو ممتثل أم لا؟ وأشباه هذه التنبيهات إن وفقت لذلك عثرت على علوم جمة إلهية ممّا يختص بأهل الشقاء والنار، وهذا القدر في هذا الباب كاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والستون
في معرفة بقاء الناس في البرزخ بين الدنيا والبعث

[نظم: البسيط]

بين القيامة والدنيا لذي نَظَرِ ... مراتبٌ برزخياتٌ لها سُوَرُ
تحوي على حكم ما قد كان صاحبُها ... قبل الممات عليه اليوم فاعتبِرُوا
لها على الكل أقدامٌ وسلطنةٌ ... تبدي العجائبَ لا تُبقي ولا تَذَرُ
لها مجالٌ رحيبٌ في الوجود بلا ... تقَيُّدٍ وهي لا عينٌ ولا أثرُ
تقول للحق كنْ والحقُّ خالِقُها ... فكيف يخرج عن أحكامها بَشَرُ

فيها العلومُ وفيها كلُّ قاصمةٍ ... فيها الدلائلُ والإعجازُ والعبَرُ
لولا الخيالُ لكنا اليومَ في عدم ... ولا انقضى غرضٌ فينا ولا وطَرُ
كأنّ سلطانَها إن كنت تعقلها ... الشرعُ جاء به والعقلُ والنَّظَرُ
من الحروف لها كافُ الصفاتِ فما ... تنفكُّ عن صور إلاَّ أتت صُوَرُ

قولنا: كأنّ سلطانها برفع سلطانها أي سلطان الخيال هو عين كأنّ، وهو معنى قوله ﷺ: **«اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ»** فهي خبر وسلطانها مبتدأ، تقدير الكلام سلطان حضرة الخيال من الألفاظ هو كأن.

اعلم أن البرزخ عبارة عن أمر فاصل بين أمرين لا يكون متطرفاً أبداً كالخط الفاصل بين الظل والشمس، وكقوله تعالىٰ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: ١٩-٢٠] ومعنى لا يبغيان أي لا يختلط أحدهما بالآخر، وإن عجز الحسّ عن الفصل بينهما، والعقل يقضي أن بينهما حاجزاً يفصل بينهما فذلك الحاجز المعقول هو البرزخ، فإن أدرك بالحسّ فهو أحد الأمرين ما هو البرزخ، وكل أمرين يفتقران إذا تجاورا إلى برزخ ليس هو عين أحدهما وفيه قوّة كل واحد منهما. ولما كان البرزخ أمراً فاصلاً بين معلوم وغير معلوم، وبين معدوم وموجود، وبين منفيّ ومثبت، وبين معقول وغير معقول، سميّ برزخاً اصطلاحاً وهو معقول في نفسه وليس إلاَّ الخيال، فإنك إذا أدركته وكنت عاقلاً تعلم أنك أدركت شيئاً وجودياً وقع بصرك عليه، وتعلم قطعاً بدليل أنه ما ثم شيء رأساً وأصلاً، فما هو هذا الذي أثبت له شيئية وجودية ونفيتها عنه في حال إثباتك إياها؟ فالخيال لا موجود ولا معدوم ولا معلوم ولا مجهول ولا منفيّ ولا مثبت، كما يدرك الإنسان صورته في المرآة يعلم قطعاً أنه أدرك صورته بوجه، ويعلم قطعاً أنه ما أدرك صورته بوجه لما يرى فيها من الدقة إذا كان جرم المرآة صغيراً ويعلم أن صورته أكبر من التي رأى بما لا يتقارب. وإذا كان جرم المرآة كبيراً فيرى صورته في غاية الكبر ويقطع أن صورته أصغر ممّا رأى ولا يقدر أن ينكر أنه رأى صورته، ويعلم أنه ليس في المرآة صورته ولا هي بينه وبين المرآة، ولا هو انعكاس شعاع البصرة إلى الصورة المرئية فيها من خارج سواء كانت صورته أو غيرها، إذ لو كان كذلك لأدرك الصورة على قدرها وما هي عليه. وفي رؤيتها في السيف من الطول أو العرض يتبين لك ما ذكرنا، مع علمه أنه رأى صورته بلا شك فليس بصادق ولا كاذب في قوله إنه رأى صورته ما رأى صورته.

فما تلك الصورة المرئية وأين محلها وما شأنها؟ فهي منفية ثابتة موجودة معدومة معلومة مجهولة، أظهر الله سبحانه هذه الحقيقة لعبده ضرب مثال ليعلم ويتحقق أنه إذا عجز وحار في درك حقيقة هذا وهو من العالم ولم يحصل عنده علم بحقيقته فهو بخالقها أعجز وأجهل وأشدّ حيرة، ونبّهه بذلك أن تجليات الحق له أرق وألطف معنى من هذا الذي قد حارت العقول فيه وعجزت عن إدراك حقيقته إلى أن بلغ عجزها أن تقول: هل لهذا ماهية أو لا ماهية له؟ فإنها لا تلحقه بالعدم المحض وقد أدرك البصر شيئاً ما، ولا بالوجود المحض وقد علمت أنه ما ثم

شيء ولا بالإمكان المحض، وإلى مثل هذه الحقيقة يصير الإنسان في نومه وبعد موته، فيرى الأعراض صوراً قائمة بنفسها تخاطبه ويخاطبها أجساداً لا يشك فيها، والمكاشف يرى في يقظته ما يراه النائم في حال نومه والميت بعد موته، كما يرى في الآخرة صور الأعمال توزن مع كونها أعراضاً، ويرى الموت كبشاً أملح يذبح والموت نسبة مفارقة عن اجتماع فسبحان من يجهل فلا يعلم ويعلم فلا يجهل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨]. ومن الناس من يدرك هذا المتخيل بعين الحسّ. ومن الناس من يدركه بعين الخيال وأعني في حال اليقظة. وأمّا في النوم فبعين الخيال قطعاً.

فإذا أراد الإنسان أن يفرّق في حال يقظته حيث كان في الدنيا أو يوم القيامة فلينظر إلى المتخيّل وليقيده بنظره، فإن اختلفت عليه أكوان المنظور إليه لاختلافه في التكوينات وهو لا ينكر أنه ذلك بعينه ولا يقيده النظر عن اختلاف التكوينات فيه كالناظر إلى الحرباء في اختلاف الألوان عليها فذلك عين الخيال بلا شك ما هو عين الحسّ، فأدركت الخيال بعين الخيال لا بعين الحسّ، وقليل من يتفطن إلى هذا ممّن يدعي كشف الأرواح النارية والنورية إذا تمثلت لعينه صوراً مدركة لا يدري بما أدركها هل بعين الخيال أو بعين الحسّ؟ وكلاهما أعني الإدراكين بحاسة العين، فإنها تعطي الإدراك بعين الخيال وبعين الحسّ وهو علم دقيق أعني العلم بالفصل بين العينين وبين حاسة العين وعين الحسّ، وإذا أدركت العين المتخيّل ولم تغفل عنه ورأته لا تختلف عليه التكوينات ولا رأته في مواضع مختلفات معاً في حال واحدة والذات واحدة لا يشك فيها ولا انتقلت ولا تحوّلت في أكوان مختلفة فتعلم أنها محسوسة لا متخيلة، وأنه أدركها بعين الحسّ لا بعين الخيال، ومن هنا يعرف إدراك الإنسان في المنام ربّه تعالىٰ وهو منزَّه عن الصورة والمثال وضبط الإدراك إياه وتقييده، ومن هنا تعرف ما ورد في الخبر الصحيح من كون الباري يتجلى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، وفي تحوّله في صورة يعرفونها وقد كانوا أنكروه وتعوّذوا منه فيعلم بأي عين تراه، فقد أعلمتك أن الخيال يدرك بنفسه نريد بعين الخيال أو يدرك بالبصر، وما الصحيح في ذلك حتى نعتمد عليه ولنا في ذلك: [المجتث]

إذا تــجـلّــى حــبـيـبـي	بـــأيّ عـــيــــنِ أراهُ
بـعـيـنـه لا بـعـيـنـي	فـمـــا يـــراه ســـواهُ

تنزيهاً لمقامه، وتصديقاً بكلامه فإنه القائل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٠٣] ولم يخص داراً من دار، بل أرسلها آية مطلقة، ومسألة معينة محققة، فلا يدركه سواه، فبعينه سبحانه أراه، وفي الخبر الصحيح: «كُنْتُ بَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» فتيقظ أيها الغافل النائم عن مثل هذا وانتبه، فلقد فتحت عليك باباً من المعارف لا تصل إليه الأفكار لكن تصل إلى قبوله العقول، إمّا بالعناية الإلهية أو بجلاء القلوب بالذكر والتلاوة، فيقبل العقل ما يعطيه التجلي، ويعلم أن ذلك خارج عن قوّة نفسه من حيث فكره، وأن فكره لا يعطيه ذلك أبداً،

فيشكر الله تعالىٰ الذي أنشأه نشأة يقبل بها مثل هذا وهي نشأة الرسل والأنبياء وأهل العناية من الأولياء، وذلك ليعلم أن قبوله أشرف من فكره، فتحقق يا أخي بعد هذا من يتجلّى لك من خلف هذا الباب فهي مسألة عظيمة حارت فيها الألباب.

ثم إن الشارع وهو الصادق سمّى هذا الباب الذي هو الحضرة البرزخية التي ننتقل إليها بعد الموت ونشهد نفوسنا فيها بالصور والناقور، والصور هنا جمع صورة بالصاد فينفخ في الصور وينقر في الناقور وهو هو بعينه. واختلفت عليه الأسماء لاختلاف الأحوال والصفات، واختلفت الصفات فاختلفت الأسماء، فصارت أسماؤه كهو يحار فيها من عادته يفلي الحقائق ولا يرمي منها بشيء، فإنه لا يتحقق له أن النقر أصل في وجود اسم الناقور، أو الناقور أصل في وجود اسم النقر، كمسألة النحويّ: هل الفعل مشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل؟ ثم فارق مسألة النحويّ بشيء آخر حتى لا يشبه مسألة النحويّ في الاشتقاق بقوله: ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٠١] ولم يقل في المنفوخ فيه، فهل كونه صوراً أصل في وجود النفخ؟ أو وجود نفخ أصل في وجود اسم الصور.

ولما ذكر الله تعديل صورة الإنسان قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ [سورة الحجر: الآية ٢٩] وقال في عيسىٰ عليه السلام قبل خلق صورته: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٩١] فظهرت الصورة فوقعت الحيرة ما هو الأصل؟ هل الصورة في وجود النفخ أو النفخ في وجود الصورة؟ فهذا من ذلك القبيل ولا سيّما وجبريل عليه السلام في الوقت المذكور في حال التمثّل بالبشر ومريم قد تخيّلت أنه بشر فهل أدركته بالبصر الحسيّ أو بعين الخيال فتكون ممّن أدرك الخيال بالخيال؟ وإذا كان هذا فينفتح عليك ما هو أعظم وهو: هل في قوّة الخيال أن يعطي صورة حسيّة حقيقة فلا يكون للحسّ فضل على الخيال لأنّ الحسّ يعطي الصور للخيال، فكيف يكون المؤثّر فيه مؤثراً فيمن هو مؤثّر فيه؟ فما هو مؤثر فيما هو مؤثر فيه وهذا محال عقلاً، فتفطن لهذه الكنوز، فإن كنت حصلتها ما يكون في العالم أغنى منك إلاّ من يساويك في ذلك.

واعلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن الصور ما هو؟ فقال ﷺ: «**هُوَ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ أَلْقِمَهُ إِسْرَافِيلُ**» فأخبر أن شكله شكل القرن فوصف بالسعة والضيق، فإن القرن واسع ضيق، وهو عندنا على خلاف ما يتخيله أهل النظر في الفرق بين ما هو أعلى القرن وأسفله، ونذكره إن شاء الله بعد هذا في هذا الباب. فاعلم أن سعة هذا القرن في غاية السعة لا شيء من الأكوان أوسع منه، وذلك أنه يحكم بحقيقته على كل شيء وعلى ما ليس بشيء، ويتصوّر العدم المحض والمحال والواجب والإمكان، ويجعل الوجود عدماً والعدم وجوداً، وفيه يقول النبيّ ﷺ أي من حضرة هذا: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَاللَّهُ فِي قِبْلَةِ المُصَلّي**» أي تخيله في قبلتك وأنت تواجهه لتراقبه وتستحي منه وتلزم الأدب معه في صلاتك، فإنك إن لم تفعل هذا أسأت الأدب.

فلولا أن الشارع علم أن عندك حقيقة تسمى الخيال لها هذا الحكم ما قال لك: «**كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِبَصَرِكَ**» فإنّ الدليل العقليّ يمنع من كان فإنه يحيل بدليله التشبيه والبصر فما أدرك شيئاً سوى الجدار، فعلمنا أنّ الشارع خاطبك أن تتخيل أنك تواجه الحق في قبلتك المشروع لك استقبالها

والله يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٥] ووجه الشيء حقيقته وعينه، فقد صوّر الخيال من يستحيل عليه بالدليل العقليّ الصورة والتصوّر فلهذا كان واسعاً. وأما ما فيه من الضيق فإنه ليس في وسع الخيال أن يقبل أمراً من الأمور الحسيّة والمعنوية والنسب والإضافة وجلال الله وذاته إلاّ بالصورة، ولو رام أن يدرك شيئاً من غير صورة لم تعط حقيقته ذلك لأنه عين الوهم لا غيره. فمن هنا هو ضيق في غاية الضيق فإنه لا يجرّد المعاني عن المواد أصلاً، ولهذا كان الحسّ أقرب شيء إليه، فإنه من الحسّ أخذ الصور وفي الصور الحسيّة يجلي المعاني فهذا من ضيقه، وإنما كان هذا حتى لا يتصف بعدم التقييد بإطلاق الوجود وبالفعال لما يريد إلاّ الله تعالىٰ وحده: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فالخيال أوسع المعلومات.

ومع هذه السعة العظيمة التي يحكم بها على كل شيء قد عجز أن يقبل المعاني مجردة عن الموادّ كما هي في ذاتها، فيرى العلم في صورة لبن أو عسل وخمر ولؤلؤ، ويرى الإسلام في صورة قبة وعمد، ويرى القرآن في صورة سمن وعسل، ويرى الدين في صورة قيد، ويرى الحق في صورة إنسان وفي صورة نور، فهو الواسع الضيق، والله واسع على الإطلاق، عليم بما أوجد الله عليه خلقه كما قال تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [سورة طه: الآية ٥٠] أي بين الأمور على ما هي عليه بإعطاء كل شيء خلقه.

وأمّا كون القرن من نور فإنّ النور سبب الكشف والظهور إذ لولا النور ما أدرك البصر شيئاً، فجعل الله هذا الخيال نوراً يدرك به تصوير كل شيء أيّ أمر كان كما ذكرناه، فنوره ينفذ في العدم المحض فيصوّره وجوداً، فالخيال أحق باسم النور من جميع المخلوقات الموصوفة بالنورية، فنوره لا يشبه الأنوار وبه تدرك التجليات، وهو نور عين الخيال لا نور عين الحسّ فافهم فإنه ينفعك معرفة كونه نوراً فتعلم الإصابة فيه ممّن لا يعلم ذلك وهو الذي يقول: هذا خيال فاسد وذلك لعدم معرفة هذا القائل بإدراك النور الخياليّ الذي أعطاه الله تعالىٰ، كما أن هذا القائل يخطىء الحسّ في بعض مدركاته وإدراكه صحيح والحكم لغيره لا إليه، فالحاكم أخطأ لا الحسّ، كذلك الخيال أدرك بنوره ما أدرك وما له حكم وإنما الحكم لغيره وهو العقل فلا ينسب إليه الخطأ فإنه ما ثم خيال فاسد قط بل هو صحيح كله.

وأمّا أصحابنا فغلطوا في هذا القرن، فأكثر العقلاء جعل أضيقه المركز وأعلاه الفلك الأعلى الذي لا فلك فوقه، وأن الصور التي يحوي عليها صور العالم، فجعلوا واسع القرن الأعلى وضيقه الأسفل من العالم، وليس الأمر كما زعموا بل لما كان الخيال كما قلنا يصوّر الحق فمن دونه من العالم حتى العدم كان أعلاه الضيق وأسفله الواسع وهكذا خلقه الله. فأوّل ما خلق منه الضيق، وآخر ما خلق منه ما اتسع وهو الذي يلي رأس الحيوان، ولا شك أن حضرة الأفعال والأكوان أوسع ولهذا لا يكون للعارف اتساع في العلم إلاّ بقدر ما يعلمه من العالم.

ثم إنه إذا أراد أن ينتقل إلى العلم بأحدية الله تعالىٰ لا يزال يرقى من السعة إلى الضيق قليلاً قليلاً فتقل علومه، كلما رقي في العلم بذات الحق كشفاً إلى أن لا يبقى له معلوم إلاّ الحق وحده وهو أضيق ما في القرن فضيقه هو الأعلى على الحقيقة وفيه الشرف التام، وهو

الأوّل الذي نظهر منه إذا أنبته الله في رأس الحيوان، فلا يزال يصعد على صورته من الضيق وأسفله يتسع وهو لا يتغير عن حاله فهو المخلوق الأول. ألا ترى الحق سبحانه أول ما خلق القلم أو قل العقل كما قال فما خلق إلاَّ واحداً ثم أنشأ الخلق من ذلك الواحد فاتسع العالم، وكذلك العدد منشؤه من الواحد، ثم الذي يقبل الثاني لا من الواحد الوجود، ثم يقبل التضعيف والتركيب في المراتب فيتسع اتساعاً عظيماً إلى ما لا يتناهى، فإذا انتهيت فيه من الاتساع إلى حد ما من الآلاف وغيرها ثم تطلب الواحد الذي نشأ منه العدد لا تزال في ذلك تقلّل العدد ويزول عنك ذلك الاتساع الذي كنت فيه حتى تنتهي إلى الاثنين التي بوجودها ظهر العدد إذ كان الواحد أولاً لها، فالواحد أضيق الأشياء وليس بالنظر إلى ذاته بعدد في نفسه ولكن بما هو اثنان أو ثلاثة أو أربعة فلا يجمع بين اسمه وعينه أبداً فاعلم ذلك. والناس في وصف الصور بالقرن على خلاف ما ذكرناه وبعدما قرّرناه، فلتعلم أن الله سبحانه إذا قبض الأرواح من هذه الأجسام الطبيعية حيث كانت والعنصرية أودعها صوراً جسدية في مجموع هذا القرن النوريّ فجميع ما يدركه الإنسان بعد الموت في البرزخ من الأمور إنما يدركه بعين الصورة التي هو فيها في القرن وبنورها وهو إدراك حقيقي.

ومن الصور هنالك ما هي مقيدة عن التصرّف. ومنها ما هي مطلقة كأرواح الأنبياء كلهم وأرواح الشهداء. ومنها ما يكون لها نظر إلى عالم الدنيا في هذه الدار. ومنها ما يتجلى للنائم في حضرة الخيال التي هي فيه وهو الذي تصدق رؤياه أبداً وكل رؤيا صادقة ولا تخطىء، فإذا أخطأت الرؤيا فالرؤيا ما أخطأت، ولكن العابر الذي يعبرها هو المخطىء حيث لم يعرف ما المراد بتلك الصورة. ألا تراه ﷺ ما قال لأبي بكر حين عبر رؤيا الشخص المذكور: أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً. وكذلك قال في الرجل الذي رأى في النوم ضربت عنقه فوقع رأسه فجعل الرأس يتدهده وهو يكلمه فذكر له رسول الله أن الشيطان يلعب به، فعلم رسول الله ﷺ صورة ما رآه وما قال له خيالك فاسد فإنه رأى حقاً ولكن أخطأ في التأويل فأخبره ﷺ بحقيقة ما رآه ذلك النائم.

وكذلك قوم فرعون يعرضون على النار في تلك الصور غدوة وعشية ولا يدخلونها فإنهم محبوسون في ذلك القرن وفي تلك الصورة ويوم القيامة يدخلون أشدّ العذاب، وهو العذاب المحسوس لا المتخيل الذي كان لهم في حال موتهم بالعرض، فتدرك بعين الخيال الصورة الخيالية والصور المحسوسة معاً، فيدرك المتخيل الذي هو الإنسان بعين خياله وقتاً ما هو متخيل كقوله ﷺ: **«مُثِّلَتْ لِيَ الجَنَّةُ فِي عَرْضِ الحَائِطِ»** فأدرك ذلك بعين حسّه، وإنما قلنا بعين حسّه لأنه تقدّم حين رأى الجنة ليأخذ قطفاً منها، وتأخّر حين رأى النار وهو في صلاته، ونحن نعرف أن عنده من القوّة بحيث أنه لو أدرك ذلك بعين خياله لا بعين حسّه ما أثر في جسمه تقدّماً ولا تأخّراً، فإنا نجد ذلك وما نحن في قوّته ولا في طبقته ﷺ. وكل إنسان في البرزخ مرهون بكسبه محبوس في صور أعماله إلى أن يبعث يوم القيامة من تلك الصور في النشأة الآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثامن والعشرون.

(الجزء التاسع والعشرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الرابع والستون
في معرفة القيامة ومنازلها وكيفية البعث

[نظم: البسيط]

يومُ المعارج من خمسين ألف سَنَهْ ... يطير عن كل نوَّامٍ به وسَنَهْ
والأرضُ من حذرٍ عليه ساهرةٌ ... لا تأخذَنها لما يقضي الإله سِنَهْ
فكن غريباً ولا تَرْكَنْ لطائفةٍ ... من الخوارج أهلِ الألسن اللَّسِنَهْ
وإن رأيتَ امرأ يسعى لمفسدةٍ ... فخذ على يده تُجزَى به حَسَنَهْ
ولتعتصم حذراً بالكهف من رجلٍ ... تريك فتنَتُه يوماً كمِثْلِ سَنَهْ
قد مدَّ خطوتَه في غير طاعته ... ولم يزل في هواه خالعاً رَسَنَهْ

اعلم أنه إنّما سمّي هذا اليوم يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم لربّ العالمين في النشأة الآخرة التي ذكرناها في البرزخ في الباب الذي قبل هذا الباب، ولقيامهم أيضاً إذا جاء الحق للفصل والقضاء والملك صفاً صفاً. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المطففين: الآية ٦] أي من أجل ربّ العالمين حين يأتي، وجاء بالاسم الربّ إذ كان الربّ المالك، فله صفة القهر وله صفة الرحمة، ولم يأت بالاسم الرحمن لأنه لا بدّ من الغضب في ذلك اليوم كما سيرد في هذا الباب، ولا بدّ من الحساب والإتيان بجهنم والموازين، وهذه كلها ليست من صفات الرحمة المطلقة التي يطلبها الاسم الرحمن، غير أنه سبحانه أتى باسم إلهيّ تكون الرحمة فيه أغلب وهو الاسم الربّ فإنه من الإصلاح والتربية، فتقوى ما في المالك والسيد من فضل الرحمة على ما فيه من صفة القهر، فتسبق رحمته غضبه، ويكثر التجاوز عن سيئات أكثر الناس، فأول ما أبين وأقول ما قال الله في ذلك اليوم من امتداد الأرض وقبض السماء وسقوطها على الأرض ومجيء الملائكة ومجيء الرب في ذلك اليوم، وأين يكون الخلق حين تمدّ الأرض وتبدّل صورتها وتجيء جهنم وما يكون من شأنها. ثم أسوق حديث مواقف القيامة في خمسين ألف سنة، وحديث الشفاعة.

اعلم يا أخي أن الناس إذا قاموا من قبورهم على ما سنورده إن شاء الله وأراد الله أن يبدّل الأرض غير الأرض وتمدّ الأرض بإذن الله ويكون الجسر دون الظلمة، فيكون الخلق عليه عندما يبدّل الله الأرض كيف يشاء إمّا بالصورة وإمّا بأرض أخرى ما نيم عليها تسمّى الساهرة فيمدّها سبحانه مدّ الأديم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ٣] ويزيد في سعتها ما شاء أضعاف ما كانت من أحد وعشرين جزءاً إلى تسعة وتسعين جزءاً حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

ثم إنه سبحانه يقبض السماء إليه فيطويها بيمينه كطيّ السجلّ للكتب، ثم يرميها على الأرض التي مدّها واهية وهو قوله: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوۡمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٦] ويرد الخلق إلى الأرض التي مدّها فيقفون منتظرين ما يصنع الله بهم، فإذا وهت السماء نزلت ملائكتها على أرجائها فيرى أهل الأرض خلقاً عظيماً أضعاف ما هم عليه عدداً، فيتخيلون أنّ الله نزل فيهم لما يرون من عظم المملكة ممّا لم يشاهدوه من قبل فيقولون: أفيكم ربنا؟ فتقول الملائكة: سبحانه ربنا ليس فينا وهو آت، فتصطف الملائكة صفاً مستديراً على نواحي الأرض محيطين بالعالم الإنس والجن وهؤلاء هم عمّار السماء الدنيا.

ثم ينزل أهل السماء الثانية بعدما يقبضها الله أيضاً ويرمي بكوكبها في النار وهو المسمّى كاتباً وهم أكثر عدداً من السماء الأولى فتقول الخلائق: أفيكم ربنا؟ فتفزع الملائكة من قولهم فيقولون: سبحان ربنا ليس هو فينا وهو آت، فيفعلون فعل الأولين من الملائكة يصطفون خلفهم صفاً ثانياً مستديراً.

ثم ينزل أهل السماء الثالثة ويرمي بكوكبها المسمّى الزهرة في النار ويقبضها الله بيمينه فتقول الخلائق: أفيكم ربنا؟ فتقول الملائكة: سبحان ربنا ليس هو فينا وهو آت، فلا يزال الأمر هكذا سماء بعد سماء حتى ينزل أهل السماء السابعة فيرون خلقاً أكثر من جميع من نزل فتقول الخلائق: أفيكم ربنا؟ فتقول الملائكة: سبحان ربنا قد جاء ربنا ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٠٨] فيأتي الله في ظلل من الغمام والملائكة وعلى المجنبة اليسرى جهنم ويكون إتيانه إتيان الملك فإنه يقول: ملك يوم الدين وهو ذلك اليوم فسمّي بالملك، ويصطف الملائكة عليهم السلام سبعة صفوف محيطة بالخلائق، فإذا أبصر الناس جهنم لها فوران وتغيظ على الجبابرة المتكبرين فيفرّون الخلق بأجمعهم منها لعظيم ما يرونه خوفاً وفزعاً وهو الفزع الأكبر إلاّ الطائفة التي لا يحزنهم الفزع الأكبر فتتلقاهم الملائكة ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٣] فهم الآمنون مع النبيين على أنفسهم، غير أنّ النبيين تفزع على أممها للشفقة التي جبلهم الله عليها للخلق فيقولون في ذلك اليوم: سلم سلم وكان الله قد أمر أن تنصب للآمنين من خلقه منابر من نور متفاضلة بحسب منازلهم في الموقف فيجلسون عليها آمنين مبشرين وذلك قبل مجيء الربّ تعالىٰ.

فإذا فرّ الناس خوفاً من جهنم وفرقاً لعظيم ما يرون من الهول في ذلك اليوم يجدون الملائكة صفوفاً لا يتجاوزونهم فتطردهم الملائكة وزعة الملك الحق سبحانه وتعالىٰ إلى المحشر وتناديهم أنبياؤهم: ارجعوا ارجعوا، فينادي بعضهم بعضاً فهو قول الله تعالىٰ فيما يقول رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِي يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍ**» والرسل تقول: اللهمّ سلم سلم ويخافون أشد الخوف على أممهم، والأمم يخافون على أنفسهم، والمطهرون المحفوظون الذين ما تدنست بواطنهم بالشبه المضلة ولا ظواهرهم أيضاً بالمخالفات الشرعية آمنون يغبطهم النبيون في الذي هم عليه من الأمن لما هم النبيون عليه من الخوف على أممهم، فينادي مناد من قبل الله يسمعه أهل الموقف لا يدرون أو لا

أدري هل ذلك نداء الحق سبحانه بنفسه أو نداء عن أمره سبحانه؟ يقول في ذلك النداء: يا أهل الموقف ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم فإنه قال لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٦] تعليماً له وتنبيهاً ليقول كرمك. ولقد سمعت شيخنا الشنخثة يقول يوماً وهو يبكي: يا قوم لا تفعلوا بكرمه أخرجنا ولم نكن شيئاً، وعلمنا ما لم نكن نعلم، وامتن علينا ابتداء بالإيمان به وبكتبه ورسله ونحن لا نعقل، أفتراه يعذبنا بعد أن عقلنا وآمنا، حاشى كرمه سبحانه من ذلك، فأبكاني بكاء فرح وبكى الحاضرون.

ثم نرجع ونقول: فيقول الحق في ذلك النداء: أين الذين كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [سورة السجدة: الآية ١٦] فيؤتى بهم إلى الجنة، ثم يسمعون من قبل الحق نداء ثانياً لا أدري هل ذلك نداء الحق بنفسه أو نداء عن أمر الحق أين الذين كانوا ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [سورة النور: الآية ٣٧] وتلك الزيادة كما قلنا من جنات الاختصاص فيؤمر بهم إلى الجنة. ثم يسمعون نداء ثالثاً لا أدري هل هو نداء الحق بنفسه أو نداء عن أمر الحق، يا أهل الموقف ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم أين الذين ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٣] ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢٤] فيؤمر بهم إلى الجنة، فبعد هذا النداء يخرج عنق من النار، فإذا أشرف على الخلائق وله عينان ولسان فصيح يقول: يا أهل الموقف إني وكّلت منكم بثلاث كما كان النداء الأوّل ثلاث مرّات لثلاث طوائف من أهل السعادة، وهذا كله قبل الحساب والناس وقوف قد ألجمهم العرق واشتدّ الخوف وتصدّعت القلوب لهول المطلع فيقول ذلك العنق المستشرف من النار عليهم: إني وكّلت بكل جبار عنيد، فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطائر حب السمسم، فإذا لم يترك أحداً منهم في الموقف نادى نداء ثانياً: يا أهل الموقف إني وكّلت بمن آذى الله ورسوله فيلقطهم كما يلقط الطائر حب السمسم من بين الخلائق، فإذا لم يترك منهم أحد نادى ثالثة: يا أهل الموقف إني وكّلت بمن ذهب يخلق كخلق الله فيلقط أهل التصاوير وهم الذين يصوّرون صوراً في الكنائس لتعبد تلك الصور والذين يصوّرون الأصنام وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٥] فكانوا ينحتون لهم الأخشاب والأحجار ليعبدوها من دون الله فهؤلاء هم المصوّرون، فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطير حب السمسم، فإذا أخذهم الله عن آخرهم بقي الناس وفيهم المصوّرون الذين لا يقصدون بتصويرهم ما قصدها أولئك من عباداتها حتى يسألوا عنها لينفخوا فيها أرواحاً تحيا بها وليسوا بنافخين كما ورد في الخبر في المصوّرين، فيقفون ما شاء الله ينتظرون ما فعل الله بهم والعرق قد ألجمهم.

فحدثنا شيخنا القصار بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة تجاه الركن اليمانيّ من الكعبة المعظمة وهو يونس بن يحيىٰ بن الحسين بن أبي البركات الهاشميّ العباسيّ من لفظه وأنا أسمع قال: حدّثنا أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرمويّ قال: حدّثنا أبو بكر

محمد بن عليّ بن محمد بن موسىٰ بن جعفر المعروف بابن الخياط المغربيّ قال: قرىء على أبي سهل محمود بن عمر بن إسحاق العكبري وأنا أسمع قيل له: حدثكم رضي الله عنكم أبو بكر محمد بن الحسن النقاش؟ فقال: نعم حدثنا أبو بكر قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ الطبريّ المروزي قال: حدثنا محمد بن حميد الرازيّ أبو عبد الله قال: حدثنا سلمة بن صالح قال: أنا القاسم بن الحكم عن سلام الطويل عن غياث بن المسيب عن عبد الرحمن بن غنم وزيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: كنت جالساً عند عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده عبد الله بن عباس رضي الله عنه وحوله عدة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عليّ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ فِي القِيَامَةِ لَخَمْسِينَ موْقِفاً كُلُّ مَوْقِفٍ أَلْفُ سَنَةٍ، فَأَوَّلُ مَوْقِفٍ إذَا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُومُونَ عَلَى أَبْوَابِ قُبُورِهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ عُرَاةً حفاةً جياعاً عطاشاً، فَمَنْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مُؤْمِناً بِرَبِّهِ مُؤْمِناً بِنَبِيِّه مُؤمِناً بِجَنَّتِهِ وَنَارِه مُؤْمِناً بِالبَعْثِ وَالقِيَامَةِ مُؤمِناً بِالقَضَاءِ والْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مُصَدِّقاً بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ نَجَا وَفَازَ وَغَنِمَ وَسَعِدَ، وَمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ هٰذَا بَقِيَ فِي جُوعِهِ وَعَطَشِهِ وَغَمِّهِ وَكَرْبِهِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يَقْضِي اللَّهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ثُمَّ يُسَاقُونَ مِنْ ذٰلِكَ المقام إِلَى المَحْشَرِ فَيَقِفُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ أَلْفَ عَامٍ فِي سُرَادِقَاتِ النِّيرانِ فِي حَرِّ الشَّمْسِ وَالنَّارُ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَالنَّارُ عَنْ شَمَائِلِهِمْ والنَّارُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَالنَّارُ مِنْ خَلْفِهِمْ والشَّمْسُ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِمْ وَلاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلّ العَرْشِ فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شَاهِداً لَهُ بَالإخْلاصِ مُقِرّاً بِنَبِيِّهِ ﷺ بَرِيئاً مِنَ الشِّرْكِ وَمِنَ السِّحْرِ وَبَرِيئاً مِنْ إهْرَاقِ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ نَاصِحاً للَّهِ وَلِرَسُولِهِ مُحِبّاً لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مُبْغِضاً لِمَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ اسْتَظَلَّ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمٰنِ وَنَجَا مِنْ غَمِّهِ، وَمَنْ حَادَ عَنْ ذٰلِكَ وَوَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ هذهِ الذُّنوبِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ تَغَيَّر قَلْبُهُ أَوْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ بَقِيَ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الحَرِّ والهَمِّ وَالعَذَابِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، ثُمَّ يُسَاقُ الخَلْقُ إِلَى النُّورِ والظُّلْمَةِ فَيُقِيمُونَ فِي تِلْكَ الظُّلْمَةِ أَلْفَ عَامٍ فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يُشرِكْ بِهِ شَيْئاً وَلَمْ يَدْخُلْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ النِّفَاقِ وَلَمْ يَشُكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَأَعْطَى الحَقَّ مِنْ نَفْسِهِ وَقَالَ الحَقَّ وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَطَاعَ اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالعَلاَنِيَةِ وَرَضِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَنِعَ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ خَرَجَ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ فِي مِقْدَارِ طَرْفَةِ العَيْنِ مُبَيَّضاً وَجْهُهُ قَدْ نَجَا مِنَ الغُمومِ كُلِّها، وَمَنْ خَالَفَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا بَقِيَ فِي الغَمِّ والهَمِّ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُسْوداً وَجْهُهُ وَهُوَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ»**.

ثم يساق الخلق إلى سرادقات الحساب وهي عشر سرادقات يقفون في كل سرادق منها ألف سنة فيسأل ابن آدم عند أول سرادق منها عن المحارم فإن لم يكن وقع في شيء منها جاز إلى السرادق الثاني فيسأل عن الأهواء فإن كان نجا منها جاز إلى السرادق الثالث. فيسأل عن عقوق الوالدين فإن لم يكن عاقاً جاز إلى السرادق الرابع فيسأل عن حقوق من فوّض الله إليه أمورهم وعن تعليمهم القرآن وعن أمر دينهم وتأديبهم فإن كان قد فعل جاز إلى السرادق الخامس فيسأل عمّا ملكت يمينه فإن كان محسناً إليهم جاز إلى السرادق السادس فيسأل عن حق قرابته فإن كان قد أدّى حقوقهم جاز إلى السرادق السابع فيسأل عن صلة الرحم فإن كان

وصولاً لرحمه جاز إلى السرادق الثامن فيسأل عن الحسد فإن كان لم يكن حاسداً جاز إلى السرادق التاسع فيسأل عن المكر فإن لم يكن مكر بأحد جاز إلى السرادق العاشر فيسأل عن الخديعة فإن لم يكن خدع أحداً نجا ونزل في ظل عرش الله تعالىٰ قارة عينه فرحاً قلبه ضاحكاً فوه، وإن كان قد وقع في شيء من هذه الخصال بقي في كل موقف منها ألف عام جائعاً عطشاناً حزناً مغموماً مهموماً لا ينفعه شفاعة شافع.

ثم يحشرون إلى أخذ كتبهم بأيمانهم وشمائلهم فيحبسون عند ذلك في خمسة عشر موقفاً كل موقف منها ألف سنة: فيسألون في أول موقف منها عن الصدقات وما فرض الله عليهم في أموالهم فمن أدّاها كاملة جاز إلى الموقف الثاني فيسأل عن قول الحق والعفو عن الناس فمن عفا عفا الله عنه وجاز إلى الموقف الثالث فيسأل عن الأمر بالمعروف فإن كان آمراً بالمعروف جاز إلى الموقف الرابع فيسأل عن النهي عن المنكر فإن كان ناهياً عن المنكر جاز إلى الموقف الخامس فيسأل عن حسن الخلق فإن كان حسن الخلق جاز إلى الموقف السادس فيسأل عن الحب في الله والبغض في الله فإن كان محباً في الله مبغضاً في الله جاز إلى الموقف السابع فيسأل عن مال الحرام فإن لم يكن أخذ شيئاً جاز إلى الموقف الثامن فيسأل عن شرب الخمر فإن لم يكن شرب من الخمر شيئاً جاز إلى الموقف التاسع فيسأل عن الفروج الحرام فإن لم يكن أتاها جاز إلى الموقف العاشر فيسأل عن قول الزور فإن لم يكن قاله جاز إلى الموقف الحادي عشر فيسأل عن الأيمان الكاذبة فإن لم يكن حلفها جاز إلى الموقف الثاني عشر فيسأل عن أكل الربا فإن لم يكن أكله جاز إلى الموقف الثالث عشر فيسأل عن قذف المحصنات فإن لم يكن قذف المحصنات أو افترى على أحد جاز إلى الموقف الرابع عشر فيسأل عن شهادة الزور فإن لم يكن شهدها جاز إلى الموقف الخامس عشر فيسأل عن البهتان فإن لم يكن بهت مسلماً مرّ فنزل تحت لواء الحمد وأعطي كتابه بيمينه ونجا من غمّ الكتاب وهوله وحوسب حساباً يسيراً. وإن كان قد وقع في شيء من هذه الذنوب ثم خرج من الدنيا غير تائب من ذلك بقي في كل موقف من هذه الخمسة عشر موقفاً ألف سنة في الغم والهول والهم والحزن والجوع والعطش حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.

ثم يقام الناس في قراءة كتبهم ألف عام فمن كان سخياً قد قدم ما له ليوم فقره وحاجته وفاقته قرأ كتابه وهوّن عليه قراءته وكسي من ثياب الجنة وتوّج من تيجان الجنة وأقعد تحت ظل عرش الرحمن آمناً مطمئناً، وإن كان بخيلاً لم يقدم ماله ليوم فقره وفاقته أعطي كتابه بشماله ويقطع له من مقطعات النيران يقاوم على رؤوس الخلائق ألف عام في الجوع والعطش والعري والهمّ والغم والحزن والفضيحة حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.

ثم يحشر الناس إلى الميزان فيقومون عند الميزان ألف عام فمن رجح ميزانه بحسناته فاز ونجا في طرفة عين، ومن خف ميزانه من حسناته وثقلت سيئاته حبس عند الميزان ألف عام في الغم والهمّ والحزن والعذاب والجوع والعطش حتى يقضي الله فيه بما يشاء.

ثم يدعى بالخلق إلى الموقف بين يدي الله في اثني عشر موقفاً كل موقف منها مقدار

ألف عام: فيسأل في أول موقف عن عتق الرقاب فإن كان أعتق رقبة أعتق الله رقبته من النار وجاز إلى الموقف الثاني فيسأل عن القرآن وحقّه وقراءته فإن جاء بذلك تاماً جاز إلى الموقف الثالث فيسأل عن الجهاد فإن كان جاهد في سبيل الله محتسباً جاز إلى الموقف الرابع فيسأل عن الغيبة فإن لم يكن اغتاب جاز إلى الموقف الخامس فيسأل عن النميمة فإن لم يكن نماماً جاز إلى الموقف السادس فيسأل عن الكذب فإن لم يكن كذاباً جاز إلى الموقف السابع فيسأل عن طلب العلم فإن كان طلب العلم وعمل به جاز إلى الموقف الثامن فيسأل عن العجب فإن لم يكن معجباً بنفسه في دينه ودنياه أو في شيء من عمله جاز إلى الموقف التاسع فيسأل عن التكبّر فإن لم يكن تكبّر على أحد جاز إلى الموقف العاشر فيسأل عن القنوط من رحمة الله فإن لم يكن قنط من رحمة الله جاز إلى الموقف الحادي عشر فيسأل عن الأمن من مكر الله فإن لم يكن أمن من مكر الله جاز إلى الموقف الثاني عشر فيسأل عن حق جاره فإن كان أدّى حق جاره أقيم بين يدي الله تعالىٰ قريراً عينه فرحاً قلبه مبيضاً وجهه كاسياً ضاحكاً مستبشراً فيرحب به ربه ويبشره برضاه عنه فيفرح عند ذلك فرحاً لا يعلمه أحد إلاّ الله، فإن لم يأت بواحدة منهنّ تامة ومات غير تائب حبس عند كل موقف ألف عام حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.

ثم يؤمر بالخلائق إلى الصراط فينتهون إلى الصراط وقد ضربت عليه الجسور على جهنم أدق من الشعر وأحد من السيف، وقد غابت الجسور في جهنم مقدار أربعين ألف عام ولهيب جهنم بجانبها يلتهب وعليها حسك وكلاليب وخطاطيف وهي سبعة جسور يحشر العباد كلهم عليها، وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام: ألف عام صعود، وألف عام استواء، وألف عام هبوط، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [سورة الفجر: الآية ١٤] يعني على تلك الجسور وملائكة يرصدون الخلق عليها ليسأل العبد عن الإيمان بالله، فإن جاء به مؤمناً مخلصاً لا شك فيه ولا زيغ جاز إلى الجسر الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الجسر الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامّة جاز إلى الجسر الرابع فيسأل عن الصيام فإن جاء به تامّاً جاز إلى الجسر الخامس فيسأل عن حجة الإسلام فإن جاء بها تامّة جاز إلى الجسر السادس فيسأل عن الطهر فإن جاء به تامّاً جاز إلى الجسر السابع فيسأل عن المظالم فإن كان لم يظلم أحداً جاز إلى الجنة، وإن كان قصر في واحدة منهنّ حبس على كل جسر منها ألف سنة حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيه بما يشاء.» وذكر الحديث إلى آخره. وسيأتي بقية الحديث إن شاء الله في باب الجنة فإنه يختص بالجنة، ولم نذكر النشأة الأخرى التي يحشر فيها الإنسان في باب البرزخ لأنها نشأة محسوسة غير خيالية والقيامة أمر محقق موجود حسيّ مثل ما هو الإنسان في الدنيا فلذلك أخرنا ذكرها إلى هذا الباب.

وصل: اعلم أن الناس اختلفوا في الإعادة من المؤمنين القائلين بحشر الأجسام، ولم نتعرض لمذهب من يحمل الإعادة والنشأة الآخرة على أمور عقلية غير محسوسة فإن ذلك على خلاف ما هو الأمر عليه لأنه جهل أن ثم نشأتين: نشأة الأجسام ونشأة الأرواح وهي النشأة المعنوية، فأثبتوا المعنوية ولم يثبتوا المحسوسة، ونحن نقول بما قاله هذا المخالف من

إثبات النشأة الروحانية المعنوية لا بما خالف فيه وأن عين موت الإنسان هو قيامته لكن القيامة الصغرى، فإنّ النبيّ ﷺ يقول: «**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**» وأن الحشر جمع النفوس الجزئية إلى النفس الكلية، هذا كله أقول به كما يقول المخالف. وإلى هنا ينتهي حديثه في القيامة.

ويختلف في ذلك بعينه من يقول بالتناسخ ومن لا يقول به وكلهم عقلاء أصحاب نظر، ويحتجون في ذلك كله بظواهر آيات من الكتاب وأخبار من السنّة إن أوردناها وتكلمنا عليها طال الباب في الخوض معهم في تحقيق ما قالوه، وما منهم من نحل نحلة في ذلك إلاَّ وله وجه حق صحيح وأن القائل به فهم بعض مراد الشارع ونقصه علم ما فهمه غيره من إثبات الحشر المحسوس في الأجسام المحسوسة، والميزان المحسوس، والصراط المحسوس، والنار والجنة المحسوستان، كل ذلك حق وأعظم في القدرة، وفي علم الطبيعة بقاء الأجسام الطبيعية في الدارين إلى غير مدّة متناهية بل مستمرّة الوجود، وأن الناس ما عرفوا من أمر الطبيعة إلاَّ قدر ما أطلعهم الحق عليه من ذلك ممّا ظهر لهم في مدد حركات الأفلاك والكواكب السبعة، ولهذا جعلوا العمر الطبيعيّ مائة وعشرين سنة الذي اقتضاه هذا الحكم، فإذا زاد الإنسان على هذه المدّة وقع في العمر المجهول وإن كان من الطبيعة ولم يخرج عنها، ولكن ليس في قوّة علمه أن يقطع عليه بوقت مخصوص، فكما زاد على العمر الطبيعيّ سنة وأكثر جاز أن يزيد على ذلك آلافاً من السنين، وجاز أن يمتدّ عمره دائماً.

ولولا أن الشرع عرّف بانقضاء مدة هذه الدار وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآيِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٥٧] وعرّف بالإعادة، وعرّف بالدار الآخرة، وعرّف بأنّ الإقامة فيها في النشأة الآخرة إلى غير نهاية ما عرفنا ذلك وما خرجنا في كل حال من موت، وإقامة، وبعث أخرويّ، ونشأة أخرى، وجنان، ونعيم، ونار، وعذاب، بأكل محسوس، وشرب محسوس، ونكاح محسوس، ولباس على المجرى الطبيعيّ، فعلم الله أوسع وأتمّ، والجمع بين العقل والحسّ والمعقول والمحسوس أعظم في القدرة وأتمّ في الكمال الإلهيّ ليستمر له سبحانه في كل صنف من الممكنات حكم ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٩٤] ويثبت حكم الاسم الظاهر والباطن في كل صنف، فإن فهمت فقد وفقت، وتعلم أن العلم الذي أطلع عليه النبيون والمؤمنون من قبل الحق أعم تعلقاً من علم المنفردين بما تقتضيه العقول مجرّدة عن الفيض الإلهيّ، فالأولى بكل ناصح نفسه الرجوع إلى ما قالته الأنبياء والرسل على الوجهين المعقول والمحسوس إذ لا دليل للعقل يحيل ما جاءت به الشرائع على تأويل مثبتي المحسوس من ذلك والمعقول، فالإمكان باق حكمه والمرجح موجود فبماذا يحيل، وما أحسن قول القائل: [الكامل]

زعم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تُبْعث الأجسامُ قلت إليكُمَا

إن صحَّ قولُكما فلستُ بخاسر ... أو صحَّ قولي فالخَسَارُ عليكُمَا

فقوله: فالخسار عليكما يريد حيث لم يؤمنوا بظاهر ما جاءتهم به الرسل عليهم السلام، وقوله: فلست بخاسر فإني مؤمن أيضاً بالأمور المعنوية المعقولة مثلكم وزدنا عليكم بأمر آخر لم

تؤمنوا أنتم به ولم يرد القائل به أنه يشك بقوله: إن صحّ، وإنما ذلك على مذهبك أيها المخاطب، وهذا يستعمل مثله كثير، فتدبر كلامي هذا وألزم الإيمان نفسك تربح وتسعد إن شاء الله تعالىٰ.

وبعد أن تقرّر هذا فاعلم أن الخلاف الذي وقع بين المؤمنين القائلين في ذلك بالحسّ والمحسوس إنما هو راجع إلى كيفية الإعادة، فمنهم من ذهب إلى أن الإعادة تكون في الناس مثل ما بدأهم بنكاح وتناسل وابتداء خلق من طين ونفخ كما جرى من خلق آدم وحوّاء وسائر البنين من نكاح واجتماع إلى آخر مولود في العالم البشريّ الإنسانيّ، وكل ذلك في زمان صغير ومدّة قصيرة على حسب ما يقدّره الحق تعالىٰ، هكذا زعم الشيخ أبو القاسم بن قسيّ في خلع النعلين له في قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] فلا أدري هل هو مذهبه أو هل قصد شرح المتكلم به وهو خلف الله الذي جاء بذلك الكلام وكان من الأميين؟ ومنهم من قال بالخبر المروي أنّ السماء تمطر مطراً شبه المني تمخض به الأرض فتنشأ منه النشأة الآخرة.

وأمّا قوله تعالىٰ عندنا: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٢٩] هو قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٦٢] وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٤] وقد علمنا أن النشأة الأولى أوجدها الله تعالىٰ على غير مثال سبق، فهكذا النشأة الآخرة يوجدها الله تعالىٰ على غير مثال سبق مع كونها محسوسة بلا شك. وقد ذكر رسول الله ﷺ من صفة نشأة أهل الجنة والنار ما يخالف ما هي عليه هذه النشأة الدنيا، فعلمنا أن ذلك راجع إلى عدم مثال سابق ينشئها عليه وهو أعظم في القدرة. وأمّا قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: الآية ٢٧] فلا يقدح فيما قلنا، فإنه لو كانت النشأة الأولى عن اختراع فكر وتدبّر ونظر إلى أن خلق أمراً فكانت إعادته إلى أن يخلق خلقاً آخر ممّا يقارب ذلك ويزيد عليه أقرب للاختراع والاستحضار في حق من يستفيد الأمور بفكره والله منزّه عن ذلك ومتعال عنه عُلُواً كَبِيراً فهو الذي يفيد العالم ولا يستفيد، ولا يتجدّد له علم بشيء، بل هو عالم بتفصيل ما لا يتناهى بعلم كليّ فعلم التفصيل في عين الإجمال، وهكذا ينبغي لجلاله أن يكون فينشىء الله النشأة الآخرة على عجب الذنب الذي يبقى من هذه النشأة الدنيا وهو أصلها فعليه تركب النشأة الآخرة.

فأمّا أبو حامد فرأى أن العجب المذكور في الخبر أنه النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة. وقال غيره مثل أبي زيد الرقراقي: هو جوهر فرد يبقى من هذه النشأة الدنيا لا يتغير عليه تنشأ النشأة الأخرى، وكل ذلك محتمل ولا يقدح في شيء من الأصول، بل كلها توجيهات معقولة يحتمل كل توجيه منها أن يكون مقصوداً، والذي وقع لي به الكشف الذي لا أشك فيه أن المراد بعجب الذنب هو ما تقوم عليه النشأة وهو لا يبلى أي لا يقبل البلى، فإذا أنشأ الله النشأة الآخرة وسوّاها وعدّلها وإن كانت هي الجواهر بأعيانها فإن الذوات الخارجة إلى الوجود من العدم لا تنعدم أعيانها بعد وجودها، ولكن تختلف فيها الصور بالامتزاجات، والامتزاجات التي تعطي هذه الصور أعراض تعرض لها بـ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: الآية ٣٨] فإذا

تهيأت هذه الصور كانت كالحشيش المحرق وهو الاستعداد لقبول الأرواح كاستعداد الحشيش بالنارية التي فيه لقبول الاشتعال والصور البرزخية كالسرج مشتعلة بالأرواح التي فيها فينفخ إسرافيل نفخة واحدة فتمر تلك النفخة على تلك الصور البرزخية فتطفئها وتمر النفخة التي تليها وهي الأخرى إلى الصورة المستعدة للاشتعال وهي النشأة الأخرى فتشتعل بأرواحها، فإذا هم قيام ينظرون فتقوم تلك الصور أحياء ناطقة بما ينطقها الله به، فمن ناطق بالحمد لله، ومن ناطق يقول: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [سورة يس: الآية ٥٢] ومن ناطق يقول سبحان من أحيانا بعدما أماتنا ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك: الآية ١٥] وكل ناطق ينطق بحسب علمه وما كان عليه ونسي حاله في البرزخ ويتخيل أن ذلك الذي كان فيه منام كما تخيله المستيقظ وقد كان حين مات وانتقل إلى البرزخ كان كالمستيقظ هناك، وأن الحياة الدنيا كانت له كالمنام، وفي الآخرة يعتقد في أمر الدنيا والبرزخ أنه منام في منام، وأن اليقظة الصحيحة هي التي هو عليها في الدار الآخرة، وهو في ذلك الحال يقول: إن الإنسان في الدنيا كان في منام، ثم انتقل بالموت إلى البرزخ فكان في ذلك بمنزلة من يرى في المنام أنه استيقظ من النوم، ثم بعد ذلك في النشأة الآخرة هي اليقظة التي لا نوم فيها ولا نوم بعدها لأهل السعادة لكن لأهل النار وفيها راحتهم كما قدمنا.

وقال رسول الله ﷺ: **«النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهوا»**، فالدنيا بالنسبة إلى البرزخ نوم ومنام، فإن البرزخ أقرب إلى الأمر الحق فهو أولى باليقظة، والبرزخ بالنظر إلى النشأة الأخرى يوم القيامة منام فاعلم ذلك، فإذا قام الناس، ومدت الأرض، وانشقت السماء، وانكدرت النجوم، وكوّرت الشمس، وخسف القمر، وحشر الوحوش، وسجّرت البحار، وزوجت النفوس بأبدانها، ونزلت الملائكة على أرجائها أعني أرجاء السموات، وأتى ربنا في ظلل من الغمام، ونادى المنادي: يا أهل السعادة فأخذ منهم الثلاث الطوائف الذين ذكرناهم وخرج العنق من النار فقبض الثلاث الطوائف الذين ذكرناهم، وماج الناس، واشتد الحرّ، وألجم الناس العرق، وعظم الخطب، وجلّ الأمر، وكان البهت فلا تسمع إلاّ همساً وجيء بجهنم وطال الوقوف بالناس ولم يعلموا ما يريد الحق بهم فقال رسول الله ﷺ: فيقول الناس بعضهم لبعض: تعالوا ننطلق إلى أبينا آدم فنسأله أن يسأل الله لنا أن يريحنا ممّا نحن فيه فقد طال وقوفنا فيأتون إلى آدم فيطلبون منه ذلك فيقول آدم: إن الله قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وذكر خطيئته فيستحي من ربه أن يسأله، فيأتون إلى نوح بمثل ذلك فيقول لهم مثل ما قال آدم ويذكر دعوته على قومه، وقوله: ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً فموضع المؤاخذة عليه قوله: ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفاراً لا نفس دعائه عليهم من كونه دعاء.

ثم يأتون إلى إبراهيم عليه السلام بمثل ذلك فيقولون له مثل مقالتهم لمن تقدم فيقول كما قال من تقدم ويذكر كذباته الثلاث. ثم يأتون إلى موسىٰ وعيسىٰ ويقولون لكل واحد من الرسل مثل ما قالوه لآدم فيجيبونهم مثل جواب آدم، فيأتون إلى محمد ﷺ وهو سيد الناس

يوم القيامة فيقولون له مثل ما قالوا للأنبياء فيقول محمد ﷺ: أنا لها وهو المقام المحمود الذي وعده الله به يوم القيامة، فيأتي ويسجد ويحمد الله بمحامد يلهمه الله تعالىٰ إياها في ذلك الوقت لم يكن يعلمها قبل ذلك، ثم يشفع إلى ربه أن يفتح باب الشفاعة للخلق فيفتح الله ذلك الباب فيأذن في الشفاعة للملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنين، فبهذا يكون سيد الناس يوم القيامة فإنه شفع عند الله أن تشفع الملائكة والرسل، ومع هذا تأدّب ﷺ وقال: أنا سيد الناس ولم يقل سيد الخلائق، فتدخل الملائكة في ذلك مع ظهور سلطانه في ذلك اليوم على الجميع وذلك أنه ﷺ جمع له بين مقامات الأنبياء عليهم السلام كلهم ولم يكن ظهر له على الملائكة ما ظهر لآدم عليه السلام عليهم من اختصاصه بعلم الأسماء كلها، فإذا كان في ذلك اليوم افتقر إليه الجميع من الملائكة والناس من آدم فمن دونه في فتح باب الشفاعة وإظهار ماله من الجاه عند الله، إذ كان القهر الإلهي والجبروت الأعظم قد أخرس الجميع، وكان هذا المقام مثل مقام آدم عليه السلام وأعظم في يوم اشتدّت الحاجة فيه مع ما ذكر من الغضب الإلهيّ الذي تجلّى فيه الحق في ذلك اليوم، ولم تظهر مثل هذه الصفة فيما جرى من قضية آدم، فدل بالمجموع على عظيم قدره ﷺ حيث أقدم مع هذه الصفة الغضبية الإلهية على مناجاة الحق فيما سأل فيه فأجابه الحق سبحانه، فعلقت الموازين، ونشرت الصحف، ونصب الصراط، وبدىء بالشفاعة، فأول ما شفعت الملائكة ثم النبيون ثم المؤمنون وبقي أرحم الراحمين.

وهنا تفصيل عظيم يطول الكلام فيه فإنه مقام عظيم. غير أن الحق يتجلى في ذلك اليوم فيقول: لتتبع كل أمّة ما كانت تعبد حتى تبقى هذه الأمّة وفيها منافقوها، فيتجلى لهم الحق في أدنى صورة من الصور التي كان تجلى لهم فيها قبل ذلك فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك ها نحن منتظرون حتى يأتينا ربنا، فيقول لهم جلّ وتعالىٰ: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم فيتحوّل لهم في الصورة التي عرفوه فيها بتلك العلامة فيقولون: أنت ربنا فيأمرهم بالسجود فلا يبقى من كان يسجد لله إلاّ سجد، ومن كان يسجد اتقاء ورياء جعل الله ظهره طبقة نحاس كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه وذلك قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ٤٢] ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [سورة القلم: الآية ٤٣] يعني في الدنيا، والساق التي كشفت لهم عبارة عن أمر عظيم من أهوال يوم القيامة تقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتدّت الحرب وعظم أمرها، وكذلك ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [سورة القيامة: الآية ٢٩] أي دخلت الأهوال والأمور العظام بعضها في بعض يوم القيامة، فإذا وقعت الشفاعة ولم يبق في النار مؤمن شرعيّ أصلاً ولا من عمل عملاً مشروعاً من حيث ما هو مشروع بلسان نبيّ ولو ﴿كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٤٧] فما فوق ذلك في الصغر إلاّ خرج بشفاعة النبيين والمؤمنين.

وبقي أهل التوحيد الذين علموا التوحيد بالأدلة العقلية ولم يشركوا بالله شيئاً ولا آمنوا إيماناً شرعياً ولم يعملوا خيراً قط من حيث ما اتبعوا فيه نبياً من الأنبياء، فلم يكن عندهم ذرّة من إيمان فما دونها فيخرجهم أرحم الراحمين، وما عملوا خيراً قط يعني مشروعاً من حيث ما

هو مشروع ولا خير أعظم من الإيمان وما عملوه. وهذا حديث عثمان بن عفان في الصحيح لمسلم بن الحجاج: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ** - ولم يقل يؤمن - **أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله دَخَلَ الجَنَّةَ**» ولا قال يقول بل أفرد العلم. ففي هؤلاء تسبق عناية الله في النار، فإن النار بذاتها لا تقبل تخليد موحد لله بأيّ وجه كان، وأتمّ وجوهه الإيمان عن علم، فجمع بين العلم والإيمان، فإن قلت: فإن إبليس يعلم أن الله واحد. قلنا: صدقت ولكنه أوّل من سنّ الشرك فعليه إثم المشركين، وإثمهم أنهم لا يخرجون من النار، هذا إذا ثبت أنه مات موحداً، وما يدريك لعله مات مشركاً لشبهة طرأت عليه في نظره. وقد تقدّم الكلام على هذه المسألة فيما مضى من الأبواب فإبليس ليس بخارج من النار، فالله يعلم أيّ ذلك كان، وهنا علوم كثيرة وفيها طول يخرجنا عن المقصود من الاختصار إيرادها، ولكن مع هذا فلا بدّ أن نذكر نبذة من كل موطن مشهور من مواطن القيامة كالعرض وأخذ الكتب والميزان والصراط والأعراف وذبح الموت والمأدبة التي تكون في ميدان الجنة فهذه سبعة مواطن لا غير وهي أمّهات للسبعة الأبواب التي للنار والسبعة الأبواب التي للجنة، فإنّ الباب الثامن هو لجنة الرؤية وهو الباب المغلق الذي في النار وهو باب الحجاب فلا يفتح أبداً فإن أهل النار محجوبون عن ربهم:

الأول وهو العرض: اعلم أنه قد ورد في الخبر أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [سورة الانشقاق: الآية ٨] فقال: **ذلِكَ العَرْضُ يا عَائِشَةَ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**» وهو مثل عرض الجيش أعني عرض الأعمال لأنها زيّ أهل الموقف والله الملك ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٤١] كما يعرف الأجناد هنا بزيهم.

الثاني الكتب: قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٤] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ١٩] وهو المؤمن السعيد ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٢٥] وهو المنافق، فإن الكافر لا كتاب له فالمنافق سلب عنه الإيمان وما أخذ منه الإسلام فقيل في المنافق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الحاقة: الآية ٣٣] فيدخل فيه المعطل والمشرك والمتكبر على الله ولم يتعرض للإسلام، فإن المنافق ينقاد ظاهراً ليحفظ ماله وأهله ودمه ويكون في باطنه واحداً من هؤلاء الثلاثة. وإنما قلنا إن هذه الآية تعم الثلاثة فإن قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ معناه لا يصدق بالله، والذين لا يصدقون بالله هم طائفتان: طائفة لا تصدق بوجود الله وهم المعطلة، وطائفة لا تصدق بتوحيد الله وهم المشركون. وقوله ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ في هذه الآية يدخل فيها المتكبر على الله فإنه لو اعتقد عظمة الله التي يستحقها من يسمى بالله لم يتكبر عليه، وهؤلاء الثلاثة مع هذا المنافق الذي تميز عنهم بخصوص وصف هم أهل النار الذين هم أهلها ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ١٠] فهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨٧] فإذا كان يوم القيامة قيل له: خذه من وراء ظهرك أي من الموضع الذي نبذته فيه في حياتك الدنيا فهو كتابهم المنزّل عليهم لا كتاب الأعمال، فإنه حين نبذه وراء ظهره ﴿ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [سورة الانشقاق: الآية ١٤] أي تيقن قال الشاعر: فقلت لهم

ظنّوا بألفي مدجج. أي تيقنوا. ورد في الصحيح: «**يَقُول الله لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيّ**» **وقال تعالى**: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [سورة فصلت: الآية ٢٣].

الثالث الموازين: فتوضع الموازين لوزن الأعمال فيجعل فيها الكتب بما عملوا، وآخر ما يوضع في الميزان قول الإنسان: الحمد لله، ولهذا قال ﷺ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الميزَانَ**» فإنه يلقى في الميزان جميع أعمال العباد إلاَّ كلمة لا إله إلاَّ الله فيبقى من ملئه تحميدة فتجعل فيمتلىء بها، فإن كفة ميزان كل أحد بقدر عمله من غير زيادة ولا نقصان، وكل ذكر وعمل يدخل الميزان إلاَّ لا إله إلاَّ الله كما قلنا، وسبب ذلك أن كل عمل خير له مقابل من ضدّه فيجعل هذا الخير في موازنته، ولا يقابل لا إله إلاَّ الله إلاَّ الشرك، ولا يجتمع توحيد وشرك في ميزان أحد، لأنه إن قال: لا إله إلاَّ الله معتقداً لها فما أشرك، وإن أشرك فما اعتقد لا إله إلاَّ الله، فلما لم يصحّ الجمع بينهما لم يكن لكلمة لا إله إلاَّ الله من يعادلها في الكفة الأخرى ولا يرجحها شيء فلهذا لا تدخل الميزان. وأمّا المشركون ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٥] أي لا قدر لهم ولا يوزن لهم عمل ولا من هو من أمثالهم ممّن كذب بلقاء الله وكفر بآياته، فإن أعمال خير المشرك محبوطة فلا يكون لشرّهم ما يوازنه ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وأما صاحب السجلات فإنه شخص لم يعمل خيراً قط إلاَّ أنه تلفظ يوماً بكلمة لا إله إلاَّ الله مخلصاً فتوضع له في مقابلة التسعة والتسعين سجلاً من أعمال الشرّ كل سجل منها كما بين المغرب والمشرق وذلك لأنه ما له عمل خير غيرها، فترجح كفتها بالجميع وتطيش السجلات فيتعجب من ذلك ولا يدخل الموازين إلاَّ أعمال الجوارح شرّها وخيرها: السمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل. وأما الأعمال الباطنة فلا تدخل الميزان المحسوس لكن يقام فيها العدل وهو الميزان الحكمي المعنوي محسوس لمحسوس ومعنى لمعنى يقابل كل شيء بمثله، فلهذا توزن الأعمال من حيث ما هي مكتوبة.

الرابع الصراط: وهو الصراط المشروع الذي كان هنا معنى ينصب هنالك حسّاً محسوساً يقول الله لنا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٣] ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية خطّ خطاً وخطّ عن جنبتيه خطوطاً هكذا: ااا/ ااا وهذا هو صراط التوحيد ولوازمه وحقوقه. قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلَامِ وحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**» أراد بقوله: وحسابهم على الله أنه لا يعلم أنهم قالوها معتقدين لها إلاَّ الله، فالمشرك لا قدم له على صراط التوحيد وله قدم على صراط الوجود، والمعطل لا قدم له على صراط الوجود فالمشرك ما وحّد الله هنا فهو من الموقف إلى النار مع المعطلة ومن هو من أهل النار الذين هم أهلها إلاَّ المنافقين فلا بدّ لهم أن ينظروا إلى الجنة وما فيها من النعيم فيطمعون فذلك نصيبهم من نعيم الجنان ثم يصرفون إلى النار وهذا من عدل الله فقوبلوا بأعمالهم، والطائفة التي لا تخلد في النار إنما تمسك وتسأل وتعذب على الصراط،

والصراط على متن جهنم غائب فيها والكلاليب التي فيه بها يمسكهم الله عليه.

ولما كان الصراط في النار وما ثم طريق إلى الجنة إلاّ عليه قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٧١] ومن عرف معنى هذا القول عرف مكان جهنم ما هو، ولو قاله النبي ﷺ لما سُئِل عنه لقلته فما سكت عنه وقال في الجواب في علم الله إلاّ بأمر إلهيّ فإنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [سورة النجم: الآية ٣] وما هو من أمور الدنيا فسكوتنا عنه هو الأدب، وقد أتى في صفة الصراط أنه أدق من الشعر وأحدّ من السيف، وكذا هو علم الشريعة في الدنيا لا يعلم وجه الحق في المسألة عند الله ولا من هو المصيب من المجتهدين بعينه، ولذلك تعبدنا بغلبات الظنون بعد بذل المجهود في طلب الدليل لا في المتواتر ولا في خبر الواحد الصحيح المعلوم، فإن المتواتر وإن أفاد العلم فإن العلم المستفاد من التواتر إنما هو عين هذا اللفظ أو العلم أن رسول الله ﷺ قاله أو عمل به، ومطلوبنا بالعلم ما يفهم من ذلك القول والعمل حتى يحكم في المسألة على القطع، وهذا لا يوصل إليه إلاّ بالنص الصريح المتواتر، وهذا لا يوجد إلاّ نادراً مثل قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٦] في كونها عشرة خاصة فحكمها بالشرع أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر في الدنيا، فالمصيب للحكم واحد لا بعينه، والكل مصيب للأجر، فالشرع هنا هو الصراط المستقيم، ولا يزال في كل ركعة من الصلاة يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٦] فهو أحدّ من السيف وأدق من الشعر، فظهوره في الآخرة محسوس أبين وأوضح من ظهوره في الدنيا إلاّ لمن دعا إلى الله على بصيرة كالرسول وأتباعه، فألحقهم الله بدرجة الأنبياء في الدعاء إلى الله على بصيرة أي على علم وكشف. وقد ورد في الخبر: «**إِنَّ الصِّرَاطَ يَظْهَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَتْنُهُ لِلأَبْصَارِ عَلَى قَدْرِ نُورِ المارّينَ عَلَيْهِ فَيَكُونُ دَقِيقاً فِي حَقِّ قَوْمٍ وَعَرِيضاً فِي حَقِّ آخَرِينَ**» يصدق هذا الخبر قوله تعالىٰ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ والسعي مشي وما ثم طريق إلاّ الصراط. وإنما قال ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [سورة التحريم: الآية ٨] لأن المؤمن في الآخرة لا شمال له، كما أن أهل النار لا يمين لهم، هذا بعض أحوال ما يكون على الصراط.

وأمّا الكلاليب والخطاطيف والحسك كما ذكرنا هي من صور أعمال بني آدم تمسكهم أعمالهم تلك على الصراط فلا ينتهضون إلى الجنة ولا يقعون في النار حتى تدركهم الشفاعة والعناية الإلهية كما قررنا، فمن تجاوز هنا تجاوز الله عنه هناك، ومن أنظر معسراً أنظره الله، ومن عفا عفا الله عنه، ومن استقصى حقّه هنا من عباده استقصى الله حقّه منه هناك، ومن شدّد على هذه الأمة شدّد الله عليه، وإنما هي أعمالكم تردّ عليكم فالتزموا مكارم الأخلاق فإن الله غداً يعاملكم بما عاملتم به عباده كان ما كان وكانوا ما كانوا.

الخامس الأعراف: وأما الأعراف فسور بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو ما يلي الجنة منه، وظاهره من قبله العذاب وهو ما يلي النار منه يكون عليه من تساوت كفتا ميزانه، فهم ينظرون إلى النار وينظرون إلى الجنة وما لهم رجحان بما يدخلهم أحد الدارين، فإذا دعوا إلى السجود وهو الذي يبقى يوم القيامة من التكليف فيسجدون فيرجح ميزان حسناتهم

فيدخلون الجنة وقد كانوا ينظرون إلى النار بما لهم من السيئات، وينظرون إلى الجنة بما لهم من الحسنات، ويرون رحمة الله فيطمعون وسبب طمعهم أيضاً أنهم من أهل لا إله إلاّ الله ولا يرونها في ميزانهم ويعلمون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة النساء: الآية ٤٠] ولو جاءت ذرة لإحدى الكفتين لرجحت بها لأنهما في غاية الاعتدال، فيطمعون في كرم الله وعدله، وأنه لا بدّ أن يكون لكلمة لا إله إلاّ الله عناية بصاحبها يظهر لها أثر عليهم، يقول عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٦] كما نادوا أيضاً: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٧] والظلم هنا الشرك لا غير.

السادس: ذبح الموت: الموت وإن كان نسبة فإن الله يظهره يوم القيامة في صورة كبش أملح وينادي: يا أهل الجنة فيشرئبون، وينادي: يا أهل النار فيشرئبون وليس في النار في ذلك الوقت إلاّ أهلها الذين هم أهلها، فيقال للفريقين: أتعرفون هذا وهو بين الجنة والنار؟ فيقولون: هو الموت، ويأتي يحيىٰ عليه السلام وبيده الشفرة فيضجعه ويذبحه، وينادي مناد: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك هو يوم الحسرة. فأمّا أهل الجنة إذا رأوا الموت سرّوا برؤيته سروراً عظيماً ويقولون له: بارك الله لنا فيك لقد خلصتنا من نكد الدنيا وكنت خير وارد علينا وخير تحفة أهداها الحق إلينا، فإنّ النبيّ ﷺ يقول: «**المَوْتُ تُحفَةُ المُؤمِنِ**» وأمّا أهل النار إذا أبصروه يفرقون منه ويقولون له: لقد كنت شرّ وارد علينا حلت بيننا وبين ما كنّا فيه من الخير والدعة، ثم يقولون له: عسى تميتنا فنستريح ممّا نحن فيه، وإنما سمّي يوم الحسرة لأنه حسر للجميع أي ظهر عن صفة الخلود الدائم للطائفتين ثم تغلق أبواب النار غلقاً لا فتح بعده وتنطبق النار على أهلها ويدخل بعضها في بعض ليعظم انضغاط أهلها فيها ويرجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وترى الناس والشياطين فيها كقطع اللحم في القدر إذ كان تحتها النار العظيمة تغلي كغلي الحميم فتدور بمن فيها علواً وسفلاً ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] بتبديل الجلود.

السابع المأدبة: وهي مأدبة الملك لأهل الجنة، وفي ذلك الوقت يجتمع أهل النار في مندبة، فأهل الجنة في المآدب وأهل النار في المنادب وطعامهم في تلك المأدبة زيادة كبد النون وأرض الميدان درمكة بيضاء مثل القرصة ويخرج من الثور الطحال لأهل النار فيأكل أهل الجنة من زيادة كبد النون وهو حيوان بحريّ مائيّ فهو من عنصر الحياة المناسبة للجنة والكبد بيت الدم وهو بيت الحياة والحياة حارة رطبة، وبخار ذلك الدم هو النفس المعبر عنه بالروح الحيوانيّ الذي به حياة البدن فهو بشارة لأهل الجنة ببقاء الحياة عليهم، وأما الطحال في جسم الحيوان فهو بيت الأوساخ فإن فيه تجتمع أوساخ البدن وهو ما يعطيه الكبد من الدم الفاسد فيعطى لأهل النار يأكلونه وهو من الثور والثور حيوان ترابيّ طبعه البرد واليبس وجهنم على صورة الجاموس والطحال من الثور لغذاء أهل النار أشدّ مناسبة فيما في الطحال من الدمية لا يموت أهل النار وبما فيه من أوساخ البدن، ومن الدم الفاسد المؤلم لا يحيون ولا

ينعمون فيورثهم أكله سقماً ومرضاً، ثم يدخل أهل الجنة الجنة فما هم منها بمخرجين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء التاسع والعشرون.

(الجزء الثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الخامس والستون

في معرفة الجنة ومنازلها ودرجاتها وما يتعلق بهذا الباب

[نظم: البسيط]

مراتبُ الجنَّة المَحْسُوسَةِ انقسمَتْ ... إلى منازلَ والأعمالُ تطلبُها
فكل ذي عمل تجري ركائبُه ... به إليها ورُسْلُ الله تحجبُها
وجنَّةُ الاختصاصات التي انْفَهَقَتْ ... للمكرمين جنانُ الوِرْث تعْقُبُها
نورُ الكواكب كنا نستضيء بها ... ونورُنا اليوم في عَدْنٍ مُكَوْكِبُها
لو أن غيرَ صراط العرش مركبُنا ... لزال عند ورود الشَّرْع مركبُهَا
فصالحُ العمل المشروع يُظهرها ... نوراً ومن ذاته الإجلالُ يكسبُهَا

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الجنة جنتان: جنة محسوسة وجنة معنوية، والعقل يعقلهما معاً، كما أن العالم عالمان: عالم لطيف وعالم كثيف، وعالم غيب وعالم شهادة، والنفس الناطقة المخاطبة المكلفة لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف من طريق نظرها وفكرها وما وصلت إليه من ذلك بالأدلة العقلية، ونعيم بما تحمله من اللذات والشهوات ممّا يناله بالنفس الحيوانية من طريق قواها الحسيّة من أكل وشرب ونكاح ولباس وروائح ونغمات طيبة تتعلق بها الأسماع، وجمال حسيّ في صورة حسنة معشوقة يعطيها البصر في نساء كاعبات ووجوه حسان وألوان متنوّعة وأشجار وأنهار، كل ذلك تنقله الحواس إلى النفس الناطقة فتلتذّ به من جهة طبيعتها، ولو لم يلتذ به إلاّ الروح الحساس الحيوانيّ لا النفس الناطقة لكان الحيوان يلتذّ بالوجه الجميل من المرأة المستحسنة والغلام الحسن الوجه والألوان والمصاغ، فلما لم نر شيئاً من الحيوان يلتذ بشيء من ذلك علمنا قطعاً أن النفس الناطقة هي التي تلتذ بجميع ما تعطيه القوّة الحسيّة ممّا تشاركها في إدراكها الحيوانات وممّا لا تشاركها فيه.

واعلم أن الله خلق هذه الجنة المحسوسة بطالع الأسد الذي هو الإقليد وبرجه هو الأسد، وخلق الجنة المعنوية التي هي روح هذه الجنة المحسوسة من الفرح الإلهيّ من صفة الكمال والابتهاج والسرور، فكانت الجنة المحسوسة كالجسم، والجنة المعقولة كالروح وقواه، ولهذا سمّاها الحق تعالىٰ الدار الحيوان لحياتها، فأهلها يتنعمون فيها حسّاً ومعنى، فالمعنى الذي هو اللطيفة الإنسانية، والجنة أيضاً أشد تنعماً بأهلها الداخلين فيها ولهذا تطلب ملأها من الساكنين، وقد ورد في خبر عن النبي ﷺ: «**إِنَّ الجَنَّةَ اشْتَاقَتْ إِلَى بِلاَلٍ وَعَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وسَلْمَانَ**» فوصفها بالشوق إلى هؤلاء، وما أحسن موافقة هذه الأسماء لما في شوقها

من المعاني، فإن الشوق من المشتاق فيه ضرب ألم لطلب اللقاء، وبلال من أبلّ الرجل من مرضه واستبلّ ويقال: بلّ الرجل من دائه وبلال معناه، وسلمان من السلامة من الآلام والأمراض، وعمار أي بعمارتها بأهلها يزول ألمها فإنّ الله سبحانه يتجلى لعباده فيها، فعليّ يعلو بذلك التجلي شأنها على النار التي هي أختها حيث فازت بدرجة التجلي والرؤية إذ كانت النار دار حجاب، فانظر في موافقة هذه الأسماء الأربعة لصورة حال الجنة حين وصفها بالشوق إلى هؤلاء الأصحاب من المؤمنين.

والناس على أربع مراتب في هذه المسألة: فمنهم من يشتهي ويشتهى وهم الأكابر من رجال الله من رسول ونبيّ ووليّ كامل. ومنهم من يشتهى ولا يشتهي وهم أصحاب الأحوال من رجال الله المهيمون في جلال الله الذين غلب معناهم على حسّهم وهم دون الطبقة الأولى فإنهم أصحاب أحوال. ومنهم من يشتهي ولا يشتهى وهم عصاة المؤمنين. ومنهم من لا يشتهي ولا يشتهى وهم المكذبون بيوم الدين والقائلون بنفي الجنة المحسوسة، ولا خامس لهؤلاء الأربعة الأصناف. واعلم أن الجنات ثلاث جنات: جنة اختصاص إلهي وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حدّ العمل، وحدّهم من أوّل ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام، ويعطي الله من شاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء، ومن أهلها: المجانين الذين ما عقلوا، ومن أهلها: أهل التوحيد العلميّ، ومن أهلها: أهل الفترات ومن لم تصل إليهم دعوة رسول. والجنة الثانية: جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة ممّن ذكرنا ومن المؤمنين وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها. والجنة الثالثة: جنة الأعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم، فمن كان أفضل من غيره في وجود التفاضل كان له من الجنة أكثر، وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن غير أنه فضله في هذا المقام بهذه الحالة، فما من عمل من الأعمال إلاّ وله جنة، ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضي أحوالهم. ورد في الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال لبلال: «**يَا بِلاَلُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الجَنَّةِ فَمَا وَطِئْتُ مِنْهَا مَوْضِعاً إِلاَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْدَثْتُ قَطّ إِلاَّ تَوَضَّأْتُ، وَلاَ تَوَضَّأْتُ إِلاَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ. فقال رسول الله ﷺ: بِهِمَا**» فعلمنا أنها كانت جنة مخصوصة بهذا العمل، فكان رسول الله ﷺ يقول لبلال بم نلت أن تكون مطرقاً بين يديّ تحجبني من أين لك هذه المسابقة إلى هذه المرتبة، فلما ذكر له ذلك قال له ﷺ: «**بِهِمَا**» فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرّم ومكروه إلاّ وله جنة مخصوصة ونعيم خاص يناله من دخلها.

والتفاضل على مراتب: فمنها بالسنّ ولكن في الطاعة والإسلام، فيفضل الكبير السنّ على الصغير السنّ إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل بالسنّ فإنه أقدم منه فيه، ويفضل أيضاً بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الأزمان وكل زمان عينه الشارع، وتقع المفاضلة بالمكان كالمصلي في المسجد الحرام أفضل من صلاة المصلي في مسجد المدينة، وكذلك الصلاة في مسجد

المدينة أفضل من الصلاة في المسجد الأقصى، وهكذا فضّل الصلاة في المسجد الأقصى على سائر المساجد، ويتفاضلون أيضاً بالأحوال فإن الصلاة في الجماعة في الفريضة أفضل من صلاة الشخص وحده وأشباه هذا، ويتفاضلون بالأعمال فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى، وقد فضّل الله الأعمال بعضها على بعض، ويتفاضلون أيضاً في نفس العمل الواحد كالمتصدّق على رحمه فيكون صاحب صلة رحم وصدقة، والمتصدّق على غير رحمه دونه في الأجر، وكذلك من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل ممّن أهدى لغير شريف أو برّه أو أحسن إليه.

ووجوه المفاضلة كثيرة في الشرع وإن كانت محصورة ولكن أريتك منها أنموذجاً تعرف به ما قصدناه بالمفاضلة والرسل عليهم السلام، إنما ظهر فضلها في الجنة على غيرها بجنة الاختصاص. وأما بالعمل فهم في جنات الأعمال بحسب الأحوال كما ذكرنا، وكل من فضل غيره ممّن ليس في مقامه فمن جنات الاختصاص لا من جنات الأعمال، ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالاً كثيرة فيصرف سمعه فيما ينبغي في زمان تصريفه بصره، في زمان تصريفه يده، في زمان صومه، في زمان صدقته، في زمان صلاته، في زمان ذكره، في زمان نيته من فعل وترك، فيؤجر في الزمن الواحد من وجوه كثيرة فيفضل غيره ممّن ليس له ذلك، ولذلك لما ذكر رسول الله ﷺ الثمانية الأبواب من الجنة أن يدخل من أيها شاء قال أبو بكر: يا رسول الله وما على الإنسان أن يدخل من الأبواب كلها، قال رسول الله ﷺ: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ**» فأراد أبو بكر بذلك القول ما ذكرنا أن يكون الإنسان في زمان واحد في أعمال كثيرة تعم أبواب الجنة.

ومن هنا أيضاً تعرف النشأة الآخرة، فكما لا تشبه الجنة الدنيا في أحوالها كلها وإن اجتمعت في الأسماء كذلك نشأة الإنسان في الآخرة لا تشبه نشأة الدنيا وإن اجتمعتا في الأسماء والصورة الشخصية، فإن الروحانية على نشأة الآخرة أغلب من الحسيّة، وقد ذقناه في هذه الدار الدنيا مع كثافة هذه النشأة، فيكون الإنسان بعينه في أماكن كثيرة، وأمّا عامة الناس فيدركون ذلك في المنام. ولقد رأيت رؤيا لنفسي في هذا النوع وأخذتها بشرى من الله فإنها مطابقة لحديث نبويّ عن رسول الله ﷺ حين ضرب لنا مثله في الأنبياء عليهم السلام فقال ﷺ: «**مَثَلِي فِي الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى حَائِطاً فَأَكْمَلَهُ إلاَّ لَبِنَةً وَاحِدَةً فَكُنْتُ أَنَا تِلْكَ اللَّبِنَةَ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِي وَلاَ نَبِيَّ**» فشبه النبوّة بالحائط، والأنبياء باللبن التي قام بها هذا الحائط، وهو تشبيه في غاية الحسن، فإنّ مسمّى الحائط هنا المشار إليه لم يصحّ ظهوره إلاّ باللبن، فكان ﷺ خاتم النبيين، فكنت بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة أرى فيما يرى النائم الكعبة مبنية بلبن فضة وذهب لبنة فضة ولبنة ذهب وقد كملت بالبناء وما بقي فيها شيء وأنا أنظر إليها وإلى حسنها، فالتفت إلى الوجه الذي بين الركن اليمانيّ والشاميّ هو إلى الركن الشاميّ أقرب فوجدت موضع لبنتين: لبنة فضة ولبنة ذهب ينقص من الحائط في الصفين في الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب، وفي الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة، فرأيت نفسي قد انطبعت في موضع

تلك اللبنتين فكنت أنا عين تينك اللبنتين وكمل الحائط ولم يبق في الكعبة شيء ينقص وأنا واقف أنظر وأعلم أني واقف وأعلم أني عين تينك اللبنتين لا أشك في ذلك وأنهما عين ذاتي، واستيقظت فشكرت الله تعالىٰ وقلت متأوّلاً أني في الأتباع في صنفي كرسول الله ﷺ في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون ممّن ختم الله الولاية بي ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٢٠] وذكرت حديث النبيّ ﷺ في ضربه المثل بالحائط وأنه كان تلك اللبنة فقصصت رؤياي على بعض علماء هذا الشأن بمكة من أهل توزر فأخبرني في تأويلها بما وقع لي وما سميت له الرائي من هو، فالله أسأل أن يتمّها عليّ بكرمه، فإن الاختصاص الإلهيّ لا يقبل التحجير ولا الموازنة ولا العمل وإن ذلك من فضل الله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٤].

واعلم أن جنة الأعمال مائة درجة لا غير، كما أن النار مائة درك، غير أن كل درجة تنقسم إلى منازل، فلنذكر من منازلها ما يكون لهذه الأمّة المحمدية وما تفضل به على سائر الأمم فإنها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠] بشهادة الحق في القرآن وتعريفه، وهذه المائة درجة في كل جنة من الثمان الجنات وصورتها جنة في جنة وأعلاها جنة عدن وهي قصبة الجنة فيها الكثيب الذي يكون اجتماع الناس فيه لرؤية الحق تعالىٰ، وهي أعلى جنة في الجنات هي في الجنات بمنزلة دار الملك يدور عليها ثمانية أسوار بين كل سورين جنة، فالتي تلي جنة عدن إنما هي جنة الفردوس وهي أوسط الجنات التي دون جنة عدن وأفضلها، ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة المأوى، ثم دار السلام، ثم دار المقامة، وأمّا الوسيلة فهي أعلى درجة في جنة عدن وهي لرسول الله ﷺ حصلت له بدعاء أمّته فعل ذلك الحق سبحانه حكمة أخفاها فإنا بسببه نلنا السعادة من الله وبه كنّا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وبه ختم الله بنا الأمم كما ختم به النبيين وهو ﷺ بشّر كما أمر أن يقول، ولنا وجه خاص إلى الله عزّ وجلّ نناجيه منه ويناجينا، وهكذا كل مخلوق له وجه خاص إلى ربّه، فأمرنا عن أمر الله أن ندعو له بالوسيلة حتى ينزل فيها وينالها بدعاء أمّته، فافهم هذا الفضل العظيم، وهذا من باب الغيرة الإلهية إن فهمت، فلقد كرّم الله هذا النبيّ وهذه الأمّة فتحوي درجات الجنة من الدرج فيها على خمسة آلاف درج ومائة درج وخمسة أدراج لا غير، وقد تزيد على هذا العدد بلا شك، ولكن ذكرنا منها ما اتفق عليه أهل الكشف ممّا يجري مجرى الأنواع من الأجناس، والذي اختصّت به هذه الأمّة المحمدية على سائر الأمم من هذه الأدراج اثنا عشر درجاً لا غير لا يشاركها فيها أحد من الأمم، كما فضل ﷺ غيره من الرسل في الآخرة بالوسيلة وفتح باب الشفاعة، وفي الدنيا بست لم يعطها نبيّ قبله كما ورد في الحديث الصحيح من حديث مسلم بن الحجاج فذكر منها عموم رسالته وتحليل الغنائم والنصر بالرعب وجعلت له الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها له طهوراً وأعطي مفاتيح خزائن الأرض.

ثم اعلم أن أهل الجنة أربعة أصناف: الرسل وهم الأنبياء، والأولياء وهم أتباع الرسل

على بصيرة وبيّنة من ربّهم، والمؤمنون وهم المصدّقون بهم عليهم السلام، والعلماء بتوحيد الله أنه لا إله إلاَّ هو من حيث الأدلة العقلية، قال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] وهؤلاء هم الذين أريده بالعلماء وفيهم يقول الله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١١] والطريق الموصلة إلى العلم بالله طريقان لا ثالث لهما، ومن وحّد الله من غير هذين الطريقين فهو مقلد في توحيده.

الطريق الواحدة: طريق الكشف: وهو علم ضروريّ يحصل عند الكشف يجده الإنسان في نفسه لا يقبل معه شبهة ولا يقدر على دفعه، ولا يعرف لذلك دليلاً يستند إليه سوى ما يجده في نفسه، إلاَّ أن بعضهم قال: يعطى الدليل والمدلول في كشفه فإنه ما لا يعرف إلاَّ بالدليل فلا بدّ أن يكشف له عن الدليل، وكان يقول بهذه المقالة صاحبنا أبو عبد الله بن الكتانيّ بمدينة فاس سمعت ذلك منه وأخبر عن حاله وصدق وأخطأ في أن الأمر لا يكون إلاَّ كذلك، فإن غيره يجد ذلك في نفسه ذوقاً من غير أن يكشف له عن الدليل. وأما أن يحصل له عن تجلٍّ إلهيّ يحصل له وهم الرسل والأنبياء وبعض الأولياء.

والطريق الثاني: طريق الفكر والاستدلال بالبرهان العقليّ: وهذا الطريق دون الطريق الأوّل، فإن صاحب النظر في الدليل قد تدخل عليه الشبه القادحة في دليله فيتكلف الكشف عنها والبحث عن وجه الحق في الأمر المطلوب. وما ثم طريق ثالث. فهؤلاء هم أولو العلم الذين شهدوا بتوحيد الله.

ولفحول هذه الطبقة من العلماء بتوحيد الله دلالة ونظر زيادة علم على التوحيد بتوحيد في الذات بأدلة قطعية لا يعطاها كل أهل الكشف بل بعضهم قد يعطاها، وهؤلاء الأربع الطوائف يتميزون في جنات عدن عند رؤية الحق في الكثيب الأبيض وهم فيه على أربعة مقامات: طائفة منهم أصحاب منابر وهي الطبقة العليا الرسل والأنبياء. والطائفة الثانية: هم الأولياء ورثة الأنبياء قولاً وعملاً وحالاً وهم على بيّنة من ربهم وهم أصحاب الأسرة والعرش. والطبقة الثالثة: العلماء بالله من طريق النظر البرهانيّ العقليّ وهم أصحاب الكراسي. والطبقة الرابعة: وهم المؤمنون المقلدون في توحيدهم ولهم المراتب وهم في الحشر مقدّمون على أصحاب النظر العقليّ وهم في الكثيب عند النظر يتقدمون على المقلدين، فإذا أراد الله أن يتجلى لعباده في الزور العام نادى منادي الحق في الجنات كلها: يا أهل الجنان حيّ على المنة العظمى والمكانة الزلفى والمنظر الأعلى، هلموا إلى زيارة ربكم في جنة عدن، فيبادرون إلى جنة عدن فيدخلونها، وكل طائفة قد عرفت مرتبتها ومنزلتها فيجلسون ثم يؤمر بالموائد فتنصب بين أيديهم موائد اختصاص ما رأوا مثلها ولا تخيّلوه في حياتهم ولا في جناتهم جنات الأعمال، وكذلك الطعام ما ذاقوا مثله في منازلهم، وكذلك ما تناولوه من الشراب، فإذا فرغوا من ذلك خلعت عليهم من الخلع ما لم يلبسوا مثلها فيما تقدم، ومصداق ذلك قوله ﷺ في الجنة: «**فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى**

قَلْبِ بَشَرٍ» فإذا فرغوا من ذلك قاموا إلى كثيب من المسك الأبيض فأخذوا منازلهم فيه على قدر علمهم بالله لا على قدر عملهم، فإنّ العمل مخصوص بنعيم الجنان لا بمشاهدة الرحمن، فبينا هم على ذلك إذا بنور قد بهرهم فيخرّون سجداً فيسري ذلك النور في أبصارهم ظاهراً وفي بصائرهم باطناً وفي أجزاء أبدانهم كلها، وفي لطائف نفوسهم، فيرجع كل شخص منهم عيناً كله وسمعاً كله، فيرى بذاته كلها لا تقيده الجهات، ويسمع بذاته كلها فهذا يعطيهم ذلك النور، فبه يطيقون المشاهدة والرؤية وهي أتم من المشاهدة، فيأتيهم رسول من الله يقول لهم: تأهّبوا لرؤية ربكم جلّ جلاله فها هو يتجلى لكم، فيتأهبون فيتجلى الحق جلّ جلاله وبينه وبين خلقه ثلاثة حجب: حجاب العزّة، وحجاب الكبرياء، وحجاب العظمة، فلا يستطيعون نظراً إلى تلك الحجب، فيقول الله جلّ جلاله لأعظم الحجبة عنده: ارفعوا الحجب بيني وبين عبادي حتى يروني فترفع الحجب فيتجلى لهم الحق جلّ جلاله خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف إلى أبصارهم وكلهم بصر واحد فينفهق عليهم نور يسري في ذواتهم فيكونون به سمعاً كلهم وقد أبهتهم جمال الرب وأشرقت ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس.

قال رسول الله ﷺ من حديث النقاش في مواقف القيامة وهذا تمامه: **فيقول الله جلّ جلاله: سلام عليكم عبادي ومرحباً بكم حياكم الله، سلام عليكم من الرحمن الرحيم، الحيّ القيوم، طبتم فادخلوها خالدين، طابت لكم الجنة، فطيبوا أنفسهم بالنعيم المقيم، والثواب من الكريم، والخلود الدائم، أنتم المؤمنون الآمنون، وأنا الله المؤمن المهيمن، شققت لكم اسماً من أسمائي** ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٤٩] **أنتم أوليائي وجيراني وأصفيائي وخاصتي وأهل محبتي وفي داري، سلام عليكم يا معشر عبادي المسلمين، أنتم المسلمون وأنا السلام، وداري دار السلام، سأريكم وجهي كما سمعتم كلامي، فإذا تجليت لكم وكشفت عن وجهي الحجب فاحمدوني وادخلوا إلى داري غير محجوبين عني بسلام آمنين، فردّوا عليّ واجلسوا حولي حتى تنظروا لي وتروني من قريب، فأتحفكم بتحفي، وأجيزكم بجوائزي، وأخصّكم بنوري، وأغشيكم بجمالي، وأهب لكم من ملكي، وأفاكهكم بضحكي، وأغلفكم بيدي، وأشمكم روحي، أنا ربكم الذي كنتم تعبدوني ولم تروني وتحبوني وتخافوني، وعزّتي وجلالي وعلوّي وكبريائي وبهائي وسناي إني عنكم راض وأحبكم وأحب ما تحبون، ولكم عندي ما تشتهي أنفسكم وتلذّ أعينكم، ولكم عندي ما تدّعون وما شئتم وكل ما شئتم أشاء، فاسألوني ولا تحتشموا ولا تستحيوا ولا تستوحشوا، وإني أنا الله الجواد الغنيّ المليّ الوفيّ الصادق، وهذه داري قد أسكنتكموها، وجنتي قد أبحتكموها، ونفسي قد أريتكموها، وهذه يدي ذات الندى والطل مبسوطة ممتدّة عليكم لا أقبضها عنكم وأنا أنظر إليكم لا أصرف بصري عنكم، فاسألوني ما شئتم واشتهيتم فقد آنستكم بنفسي وأنا لكم جليس وأنيس، فلا حاجة ولا فاقة بعد هذا ولا بؤس ولا مسكنة ولا ضعف ولا هرم ولا سخط ولا حرج ولا تحويل أبداً سرمداً، نعيمكم نعيم الأبد، وأنتم الآمنون المقيمون الماكثون المكرمون المنعمون، وأنتم السادة الأشراف الذين أطعتموني واجتنبتم**

محارمي، فارفعوا إليّ حوائجكم أقضها لكم وكرامة ونعمة، قال: فيقولون: ربنا ما كان هذا أملنا ولا أمنيتنا، ولكن حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم أبداً أبداً، ورضى نفسك عنّا، فيقول لهم العليّ الأعلى مالك الملك السخيّ الكريم تبارك وتعالىٰ: فهذا وجهي بارز لكم أبداً سرمداً فانظروا إليه وأبشروا فإن نفسي عنكم راضية، فتمتعوا وقوموا إلى أزواجكم فعانقوا وانكحوا وإلى ولائذكم ففاكهوا، وإلى غرفكم فادخلوا، وإلى بساتينكم فتنزهوا، وإلى دوابكم فاركبوا، وإلى فرشكم فاتكئوا، وإلى جواريكم وسراريكم في الجنان فاستأنسوا، وإلى هداياكم من ربكم فأقبلوا، وإلى كسوتكم فالبسوا، وإلى مجالسكم فتحدثوا، ثم قيلوا قائلة لا نوم فيها ولا غائلة في ظل ظليل وأمن مقيل ومجاورة الجليل، ثم روحوا إلى نهر الكوثر والكافور والماء المطهر والتسنيم والسلسبيل والزنجبيل فاغتسلوا وتنعموا ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٩] **ثم روحوا فاتكئوا على الرفارف الخضر، والعبقريّ الحسان، والفرش المرفوعة في الظل الممدود والماء المسكوب والفاكهة الكثيرة** ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: الآية ٣٣] ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [سورة يس: ٥٥ ـ ٥٨] **ثم تلا هذه الآية:** ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢٤]. إلى هنا انتهى حديث أبي بكر النقاش الذي أسندناه في باب القيامة قبل هذا في حديث المواقف.

ثم إن الحق تعالىٰ بعد هذا الخطاب يرفع الحجاب ويتجلى لعباده فيخرّون سجداً فيقول لهم: ارفعوا رؤوسكم فليس هذا موطن سجود، يا عبادي ما دعوتكم إلاّ لتنعموا بمشاهدتي فيمسكهم في ذلك ما شاء الله فيقول لهم: هل بقي لكم شيء بعد هذا؟ فيقولون: يا ربنا وأيّ شيء بقي وقد نجيتنا من النار، وأدخلتنا دار رضوانك، وأنزلتنا بجوارك، وخلعت علينا ملابس كرمك، وأريتنا وجهك؟ فيقول الحق جلّ جلاله: بقي لكم، فيقولون: يا ربنا وما ذاك الذي بقي؟ فيقول: دوام رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً، فما أحلاها من كلمة، وما ألذها من بشرى، فبدأ سبحانه بالكلام خلقنا فقال: ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأوّل شيء كان لنا منه السماع فختم بما به بدأ فقال هذه المقالة فختم بالسماع وهو هذه البشرى، وتتفاضل الناس في رؤيته سبحانه ويتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً على قدر علمهم، فمنهم ومنهم، ثم يقول سبحانه لملائكته: ردّوهم إلى قصورهم، فلا يهتدون لأمرين: لما طرأ عليهم من سكر الرؤية ولما زادهم من الخير في طريقهم فلم يعرفوها، فلولا أن الملائكة تدل بهم ما عرفوا منازلهم، فإذا وصلوا إلى منازلهم تلقاهم أهلهم من الحور والولدان فيرون جميع ملكهم قد كسي بهاء وجمالاً ونوراً من وجوههم أفاضوه إفاضة ذاتية على ملكهم فيقولون لهم: لقد زدتم نوراً وبهاء وجمالاً ما تركناكم عليه، فيقول لهم أهلهم: وكذا كم أنتم قد زدتم من البهاء والجمال ما لم يكن فيكم عند مفارقتكم إيانا فينعم بعضهم ببعض.

واعلم أنّ الراحة والرحمة مطلقة في الجنة كلها، وإن كانت الرحمة ليست بأمر وجوديّ

وإنما هي عبارة عن الأمر الذي يلتذّ ويتنعم به المرحوم وذلك هو الأمر الوجودي، فكل من في الجنة متنعم وكل ما فيها نعيم، فحركتهم ما فيها نصب، وأعمالهم ما فيها لغوب إلاّ راحة النوم ما عندهم لأنهم ما ينامون فما عندهم من نعيم النوم شيء، ونعيم النوم هو الذي يتنعم به أهل النار خاصة، فراحة النوم محلها جهنم، ومن رحمة الله بأهل النار في أيام عذابهم خمود النار عنهم ثم تسعر بعد ذلك عليهم فيخف عنهم بذلك من آلام العذاب على قدر ما خبت النار، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] وهذا يدلك أن النار محسوسة بلا شك، فإن النار ما تتصف بهذا الوصف إلاّ من كون قيامها بالأجسام، لأن حقيقة النار لا تقبل هذا الوصف من حيث ذاتها ولا الزيادة ولا النقص، وإنما هو الجسم المحرق بالنار هو الذي يسجر بالنارية. وإن حملنا هذه الآية على الوجه الآخر قلنا: قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٧] يعني النار المسلطة على أجسامهم ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ يعني المعذبين ﴿سَعِيرًا﴾ فإنه لم يقل زدناها، ومعنى ذلك أنّ العذاب ينقلب إلى بواطنهم وهو أشد العذاب الحسيّ يشغلهم عن العذاب المعنويّ، فإذا خبت النار في ظواهرهم ووجدوا الراحة من حيث حسّهم سلّط الله عليهم في بواطنهم التفكّر فيما كانوا فرّطوا فيه من الأمور التي لو عملوا بها لنالوا السعادة، وتسلّط عليهم الوهم بسلطانه فيتوهمون عذاباً أشد ممّا كانوا فيه، فيكون عذابهم بذلك التوهّم في نفوسهم أشدّ من حلول العذاب المقرون بتسلّط النار المحسوسة على أجسامهم، وتلك النار التي أعطاها الوهم هي النار التي تطلع على الأفئدة وهي التي قلنا فيها: [البسيط]

النارُ ناران نارٌ كلُّها لهَبٌ ونارُ معنًى على الأرواح تَطَّلعُ
وهي التي ما لها سفْعٌ ولا لهبٌ لكنْ لها ألمٌ في القلب ينْطَبِعُ

وكذلك أهل الجنة يعطيهم الله من الأماني والنعيم المتوهّم فوق ما هم عليه، فما هو إلاّ أن الشخص منهم يتوهم ذلك أو يتمناه، فيكون فيه بحسب ما يتوهمه إن تمناه معنى كان معنى، أو توهمه حسّاً كان محسوساً، أيّ ذلك كان وذلك النعيم من جنات الاختصاص ونعيمها وهو جزاء لمن كان يتوهم هنا ويتمنى أن لو قدر وتمكن أن يكون ممّن لا يعصي الله طرفة عين، وأن يكون من أهل طاعته، وأن يلحق بالصالحين من عباده، ولكن قصرت به العناية في الدنيا، فيعطى هذا التمني في الجنة فيكون له ما تمناه وتوهمه وأراحه الله في الدنيا من تلك الأعمال الشاقة ولحق في الآخرة بأصحاب تلك الأعمال في الدرجات العلى، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في الرجل الذي لا قوّة له ولا مال له فيرى ربّ المال الموفق يتصدق ويعطي في فك الرقاب ويوسّع على الناس ويصل الرحم ويبني المساجد ويعمل أعمالاً لا يمكن أن يصل إليها إلاّ ربّ المال. ويرى أيضاً من هو أجلد منه على العبادات التي ليس في قوّة جسمه أن يقوم بها ويتمنى أنه لو كان له مثل صاحبه من المال والقوّة لعمل مثل عمله، قال ﷺ: «**فَهُمَا فِي الأَجْرِ سَوَاءٌ**» ومعنى ذلك أنه يعطى في الجنة مثل ذلك التمنّي من النعيم الذي أنتجته تلك الأعمال فيكون له ما تمنّى وهو أقوى في اللذة والتنعم ممّا لو وجده في

الجنة قبل هذا التمني، فلما انفعل عن تمنيه كان النعيم به أعلى، فمن جنات الاختصاص ما يخلق الله له من همته وتمنيه، فهو اختصاص عن عمل معقول متوهم وتمنّ لم يكن له وجود ثمرة في الدنيا وهو الذي عنينا بالاختصاص في قولنا: [السريع]

مراتبُ الجنة مقسومةٌ ما بين أعمالٍ وبين اختصَاصْ
فيا أولي الألباب سبقاً على نُجُبٍ من أعمالكم لا مَنَاصْ
إنَّ بلى لم تُعْطِ أطفالَنا من أَثَرِ الأعمال غيرَ الخلاصْ
لأنه لم يَكُ شرعاً لهم فهو اختصاصٌ ما لديه انتقَاصْ

فأردنا بالاختصاص الثاني ما لا يكون عن تمنّ ولا توهم، وأردنا بالاختصاص الأول ما يكون عن تمنّ وتوهّم الذي هو جزاء عن تمنّ وتوهّم في الدنيا. وأمّا الأمانيّ المذمومة فهي التي لا يكون لها ثمرة ولكن صاحبها يتنعم بها في الحال كما قيل: [الطويل]

أمانيّ إن تحصَلْ تكُنْ أحسنَ المنى وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رَغْدَا

ولكن تكون حسرة في المآل. وفيها قال الله تعالىٰ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحديد: الآية ١٤] وفيها يقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٢٤] لأنه لا مفاضلة بين الخير والشر، فما كان خير أصحاب الجنة أفضل وأحسن إلاّ من كونه واقعاً وجودياً محسوساً فهو أفضل من الخير الذي كان الكافر يتوهمه في الدنيا ويظنّ أنه يصل إليه بكفره لجهله، فلهذا قال فيه: ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٣٥] فأتى بنية المفاضلة وهي أفعل من كذا، فافهم هذا المعنى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون

في معرفة سرّ الشريعة ظاهراً وباطناً وأيّ اسم إلهيّ أوجدها

[نظم: الكامل]

طلب الجليلُ من الجليل جلالاً فأبى الجليلُ يشاهد الإجلالا
لما رأى عزَّ الإله وَجُودَهُ عبد الإلهَ يصاحبُ الإدلالا
وقد اطمأنَّ بنفسه متعزِّزاً متجبِّراً متكبِّراً مختالا
أنهى إليه شريعةً معصومةً فأذلَّه سلطانُها إذلالا
نادى العبيدُ بفاقةٍ وبذلةٍ يا من تبارك جَدُّهُ وتَعَالىٰ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] فاعلم أن الأسماء الإلهية لسان حال تعطيها الحقائق، فاجعل بالك لما تسمع ولا تتوهم الكثرة ولا الاجتماع الوجوديّ. وإنما أورد في هذا الباب ترتيب حقائق معقولة كثيرة من جهة النسب لا من جهة وجود عينيّ، فإن ذات الحق واحدة من حيث ما هي ذات.

ثم إنه لما علمنا من وجودنا وافتقارنا وإمكاننا أنه لا بدّ لنا من مرجح نستند إليه وأنّ ذلك المستند لا بدّ أن يطلب وجودنا منه نسباً مختلفة، كنى الشارع عنها بالأسماء الحسنى، فسمّي بها من كونه متكلماً في مرتبة وجوبية وجوده الإلهيّ الذي لا يصحّ أن يشارك فيه فإنه إله واحد لا إله غيره، فأقول بعد هذا التقرير في ابتداء هذا الأمر والتأثير والترجيح في العالم الممكن: أن الأسماء اجتمعت بحضرة المسمّى ونظرت في حقائقها ومعانيها، فطلبت ظهور أحكامها حتى تتميز أعيانها بآثارها فإن الخالق الذي هو المقدّر، والعالم والمدبّر، والمفصّل والباري، والمصوّر، والرزاق، والمحيي، والمميت، والوارث، والشكور، وجميع الأسماء الإلهية نظروا في ذواتهم ولم يروا مخلوقاً ولا مدبراً ولا مفصلاً ولا مصوّراً ولا مرزوقاً فقالوا: كيف العمل حتى تظهر هذه الأعيان التي تظهر أحكامنا فيها فيظهر سلطاننا؟ فلجأت الأسماء الإلهية التي تطلبها بعض حقائق العالم بعد ظهور عينه إلى الاسم الباري فقالوا له: عسى توجد هذه الأعيان لتظهر أحكامنا ويثبت سلطاننا، إذ الحضرة التي نحن فيها لا تقبل تأثيرنا، فقال الباري: ذلك راجع إلى الاسم القادر فإني تحت حيطته، وكان أصل هذا أن الممكنات في حال عدمها سألت الأسماء الإلهية سؤال حال ذلّة وافتقار وقالت لها: إن العدم قد أعمانا عن إدراك بعضنا بعضاً وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا، فلو أنكم أظهرتم أعياننا وكسوتمونا حلة الوجود أنعمتم علينا بذلك وقمنا بما ينبغي لكم من الإجلال والتعظيم، وأنتم أيضاً كانت السلطنة تصحّ لكم في ظهورنا بالفعل، واليوم أنتم علينا سلاطين بالقوّة والصلاحية، فهذا الذي نطلبه منكم هو في حقكم أكثر منه في حقنا.

فقالت الأسماء: إنّ هذا الذي ذكرته الممكنات صحيح فتحرّكوا في طلب ذلك، فلما لجؤوا إلى الاسم القادر قال القادر: أنا تحت حيطة المريد فلا أوجد عيناً منكم إلاّ باختصاصه، ولا يمكنني الممكن من نفسه إلاّ أن يأتيه أمر الآمر من ربه، فإذا أمره بالتكوين وقال له: كن مكّنني من نفسه وتعلّقت بإيجاده فكوّنته من حينه، فالجؤوا إلى الاسم المريد عسى أنه يرجح ويخصّص جانب الوجود على جانب العدم، فحينئذ نجتمع أنا والآمر والمتكلم ونوجدكم، فلجؤوا إلى الاسم المريد فقالوا له: إن الاسم القادر سألناه في إيجاد أعياننا فأوقف أمر ذلك عليك فما ترسم؟ فقال المريد: صدق القادر ولكن ما عندي خبر ما حكم الاسم العالم فيكم هل سبق علمه بإيجادكم فنخصّص أو لم يسبق فإنا تحت حيطة الاسم العالم فسيروا إليه، واذكروا له قضيتكم، فساروا إلى الاسم العالم وذكروا ما قاله الاسم المريد فقال العالم: صدق المريد وقد سبق علمي بإيجادكم ولكن الأدب أولى فإن لنا حضرة مهيمنة علينا وهي الاسم الله فلا بدّ من حضورنا عنده فإنها حضرة الجمع، فاجتمعت الأسماء كلها في حضرة الله فقال: ما بالكم فذكروا له الخبر فقال: أنا اسم جامع لحقائقكم وإني دليل على مسمّى وهو ذات مقدّسة له نعوت الكمال والتنزيه فقفوا حتى أدخل على مدلولي، فدخل على مدلوله فقال له ما قالته الممكنات وما تحاورت فيه الأسماء فقال: اخرج وقل لكل واحد من الأسماء يتعلق بما تقتضيه حقيقته في الممكنات فإني الواحد لنفسي من حيث نفسي

والممكنات إنما تطلب مرتبتي وتطلبها مرتبتي والأسماء إلهية كلها للمرتبة لا لي إلاَّ الواحد خاصة فهو اسم خصيص بي لا يشاركني في حقيقته من كل وجه أحد لا من الأسماء ولا من المراتب ولا من الممكنات، فخرج الاسم الله ومعه الاسم المتكلم يترجم عنه للممكنات والأسماء فذكر لهم ما ذكره المسمّى فتعلق العالم والمريد والقائل والقادر فظهر الممكن الأول من الممكنات بتخصيص المريد وحكم العالم، فلما ظهرت الأعيان والآثار في الأكوان وتسلّط بعضها على بعض وقهر بعضها بعضاً بحسب ما تستند إليه من الأسماء فأدّى إلى منازعة وخصام فقالوا: إنا نخاف علينا أن يفسد نظامنا ونلحق بالعدم الذي كنّا فيه، فنبهت الممكنات الأسماء بما ألقى إليها الاسم العليم والمدبر وقالوا: أنتم أيها الأسماء لو كان حكمكم على ميزان معلوم وحدّ مرسوم بإمام ترجعون إليه يحفظ علينا وجودنا ونحفظ عليكم تأثيراتكم فينا لكان أصلح لنا ولكم فالجؤوا إلى الله عسى يقدّم من يحدّ لكم حدّاً تقفون عنده وإلاَّ هلكنا وتعطلتم، فقالوا: هذا عين المصلحة وعين الرأي ففعلوا ذلك فقالوا: إن الاسم المدبر هو ينهي أمركم فانهوا إلى المدبر الأمر، فقال: أنا لها فدخل وخرج بأمر الحق إلى الاسم الرب وقال له: افعل ما تقتضيه المصلحة في بقاء أعيان هذه الممكنات فاتخذ وزيرين يعينانه على ما أمر به الوزير الواحد الاسم المدبّر والوزير الآخر المفصل، قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢] الذي هو الإمام فانظر ما أحكم كلام الله تعالىٰ حيث جاء بلفظ مطابق للحال الذي ينبغي أن يكون الأمر عليه، فحدّ الاسم الرب لهم الحدود ووضع لهم المراسم لإصلاح المملكة وليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

وجعل الله ذلك على قسمين: قسم يسمّى سياسة حكمية ألقاها في فطر نفوس الأكابر من الناس فحدّوا حدوداً ووضعوا نواميس بقوّة وجدوها في نفوسهم كل مدينة وجهة وإقليم بحسب ما يقتضيه مزاج تلك الناحية وطباعهم لعلمهم بما تعطيه الحكمة، فانحفظت بذلك أموال الناس ودماؤهم وأهلوهم وأرحامهم وأنسابهم وسمّوها نواميس ومعناها أسباب خير لأنّ الناموس في العرف الإصطلاحيّ هو الذي يأتي بالخير والجاسوس يستعمل في الشرّ، فهذه هي النواميس الحكمية التي وضعها العقلاء عن إلهام من الله من حيث لا يشعرون لمصالح العالم ونظمه وارتباطه في مواضع لم يكن عندهم شرع إلهيّ منزّل، ولا علم لواضع هذه النواميس بأن هذه الأمور مقرّبة إلى الله ولا تورث جنة ولا ناراً ولا شيئاً من أسباب الآخرة، ولا علموا أن ثم آخرة وبعثاً محسوساً بعد الموت في أجسام طبيعية وداراً فيها أكل وشرب ولباس ونكاح وفرح، وداراً فيها عذاب وآلام، فإن وجود ذلك ممكن وعدمه ممكن، ولا دليل لهم في ترجيح أحد الممكنين بل رهبانية ابتدعوها، فلهذا كان مبنى نواميسهم ومصالحهم على إبقاء الصلاح في هذه الدار، ثم انفردوا في نفوسهم بالعلوم الإلهية من توحيد الله وما ينبغي لجلاله من التعظيم والتقديس وصفات التنزيه وعدم المثل والشبيه ونبّه من يدري ومن علم ذلك من لا يدري، وحرّضوا الناس على النظر الصحيح وأعلموهم أن للعقول من حيث أفكارها حدّاً تقف عنده لا تتجاوزه، وأن لله على قلوب بعض عباده فيضاً إلهياً يعلمهم

فيه من لدنه علماً ولم يبعد ذلك عندهم، وأن الله قد أودع في العالم العلويّ أموراً استدلّوا عليها بوجود آثارها في العالم العنصريّ وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] فبحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شيء فعلموا أن المدرك والمحرّك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم، ثم رأوا أنه يعلم بعدما كان يجهل، فعلموا أنها وإن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها فاعتلوا بالنظر من شيء إلى شيء، وكلما وصلوا إلى شيء رأوه مفتقراً إلى شيء آخر حتى انتهى بهم النظر إلى شيء لا يفتقر إلى شيء ولا مثله شيء ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فوقفوا عنده وقالوا: هذا هو الأول، وينبغي أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته، وأن أوّليته لا تقبل الثاني ولا أحديته لأنه لا شبه له ولا مناسب، فوحدوه توحيد وجود.

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسها لا تترجح لذاتها علموا أن هذا الواحد أفادها الوجود فافتقرت إليه وعظمته بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به فهذا حد العقل، فبينا هم كذلك إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة في العلم بحيث أن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب فقال لهم: أنا رسول الله إليكم فقالوا: الإنصاف أولى، انظروا في نفس دعواه هل ادّعى ما هو ممكن أو ادّعى ما هو محال؟ فقالوا: إنه قد ثبت عندنا بالدليل أن لله فيضاً إلهياً يجوز أن يمنحه من يشاء كما أفاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك وهذه العقول والكل قد اشتركوا في الإمكان، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض فيما هو ممكن، فما بقي لنا نظر إلاّ في صدق هذا المدّعي أو كذبه، ولا نقدم على شيء من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا، فقالوا: هل لك دليل على صدق ما تدعيه؟ فجاءهم بالدلائل فنظروا في دلالته وفي أدلته ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتجه الأفكار ولا عرف منه، فعلموا أن الذي أوحى في كل سماء أمرها كان ممّا أوحاه في كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به، فأسرعوا إليه بالإيمان به وصدقوه، وعلموا أن الله قد أطلعه على ما أودعه في العالم العلويّ من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم، ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم، ورأوا نزوله في المعارف بالله إلى العامي الضعيف الرأي بما يصلح لعقله من ذلك، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله من ذلك، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهيّ ما هو وراء طور العقل، وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم، فقالوا بفضله وتقدمه عليهم وآمنوا به وصدّقوه واتبعوه، فعين لهم الأفعال المقرّبة إلى الله تعالىٰ، وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم وما يكون منه سبحانه فيهم في المستقبل، وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار.

ثم إنه تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال، وكل واحد منهم يصدق صاحبه، ما اختلفوا قط في الأصول التي استندوا إليها وعبّروا عنها وإن اختلفت الأحكام،

فتنزلت الشرائع، ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٤٨] فاتفقت أصولهم من غير خلاف في شيء من ذلك، وفرقوا في هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله بينها وبين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكمية التي اقتضاها نظرهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم وأنه من عند الله بلا شك، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب وآمنوا بالرسل وما عاند أحد منهم إلاَّ من لم ينصح نفسه في علمه واتبع هواه وطلب الرياسة على أبناء جنسه وجهل نفسه وقدره وجهل ربه، فكان أصل وضع الشريعة في العالم وسببها طلب صلاح العالم ومعرفة ما جهل من الله ممّا لا يقبله العقل أي لا يستقل به العقل من حيث نظره، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزّلة، ونطقت بها ألسنة الرسل والأنبياء عليهم السلام، فعلمت العقلاء عند ذلك أنها نقصها من العلم بالله أمور تممتها لهم الرسل، ولا أعني بالعقلاء المتكلمين اليوم في الحكمة وإنما أعني بالعقلاء من كان على طريقتهم من الشغل بنفسه والرياضات والمجاهدات والخلوات والتهيؤ لواردات ما يأتيهم في قلوبهم عند صفائها من العالم العلوي الموحى في السماوات العلى فهؤلائك أعني بالعقلاء. فإن أصحاب اللقلقة والكلام والجدل الذين استعملوا أفكارهم في مواد الألفاظ التي صدرت عن الأوائل وغابوا عن الأمر الذي أخذها عنه أولئك الرجال.

وأمّا أمثال هؤلاء الذين عندنا اليوم لا قدّر لهم عند كل عاقل فإنهم يستهزئون بالدين ويستخفون بعباد الله ولا يعظم عندهم إلاَّ من هو معهم على مدرجتهم، قد استولى على قلوبهم حب الدنيا وطلب الجاه والرياسة، فأذلّهم الله كما أذلّوا العلم وحقّرهم وصغّرهم وألجأهم إلى أبواب الملوك والولاة من الجهال فأذلتهم الملوك والولاة، فأمثال هؤلاء لا يعتبر قولهم، فإن قلوبهم قد ختم الله عليها ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [سورة محمد: الآية ٢٣] مع الدعوى العريضة أنهم أفضل العالم عند نفوسهم. فالفقيه المفتي في دين الله مع قلة ورعه بكل وجه أحسن حالاً من هؤلاء، فإن صاحب الإيمان مع كونه أخذه تقليداً هو أحسن حالاً من هؤلاء العقلاء على زعمهم، وحاشى العاقل أن يكون بمثل هذه الصفة، وقد أدركنا ممّن كان على حالهم قليلاً وكانوا أعرف الناس بمقدار الرسل ومن أعظمهم تبعاً لسنن الرسول ﷺ وأشدّهم محافظة على سننه عارفين بما ينبغي لجلال الحق من التعظيم، عالمين بما خصّ الله عباده من النبيين وأتباعهم من الأولياء من العلم بالله من جهة الفيض الإلهيّ الاختصاصيّ الخارج عن التعلّم المعتاد من الدرس والاجتهاد ما لا يقدر العقل من حيث فكره أن يصل إليه، ولقد سمعت واحداً من أكابرهم وقد رأى ممّا فتح الله به عليّ من العلم به سبحانه من غير نظر ولا قراءة بل من خلوة خلوت بها مع الله ولم أكن من أهل الطلب فقال: الحمد لله الذي أنا في زمان رأيت فيه من آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٠٥] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون

في معرفة لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله وهو الإيمان

[نظم: الخفيف]

شــــهـــد الله لـــم يـــزلْ أزلاً ... أنــــه لا إلـــــه إلاَّ هـــــوالله

ثـــم أمـــلاكُـــه بـــذا شَـــهـــدَتْ ... أنــــه لا إلـــــه إلاَّ هـــــو الله

وأولـــو الــعــلـــم كـــلُّـهـــم شــهـــدوا ... أنــــه لا إلـــــه إلاَّ هـــــو الله

ثـــم قـــال الـــرســـولُ قـــولـــوا مــعـــي ... إنــــه لا إلـــــه إلاَّ هـــــو الله

أفْـــضَـــلُ مـــا قـــلـــتُـــه وقـــال بـــه ... مَـــنْ قـــبـــلـــنـــا لا إلـــه إلاَّ هـــو الله

مـــا عـــدا الإنـــس كـــلـــهـــم شـــهـــدوا ... أنــــه لا إلـــــه إلاَّ هـــــو الله

قال الله جلّ ثناؤه في كتابه العزيز ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٨] ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩] وقال رسول الله ﷺ: **«الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ»** الحديث، فقال سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ لم يقل: وأولو الإيمان فإن شهادته بالتوحيد لنفسه ما هي عن خبر فيكون إيماناً، ولهذا الشاهد فيما يشهد به لا يكون إلاَّ عن علم وإلاَّ فلا تصحّ شهادته. ثم إنه عزّ وجلّ عطف الملائكة وأولي العلم على نفسه بالواو وهو حرف يعطي الاشتراك، ولا اشتراك هنا إلاَّ في الشهادة قطعاً، ثم أضافهم إلى العلم لا إلى الإيمان، فعلمنا أنه أراد من حصل له التوحيد من طريق العلم النظريّ أو الضروريّ لا من طريق الخبر كأنه يقول: وشهدت الملائكة بتوحيدي بالعلم الضروريّ من التجلي الذي أفادهم العلم وقام لهم مقام النظر الصحيح في الأدلة فشهدت لي بالتوحيد كما شهدت لنفسي، وأولو العلم بالنظر العقليّ الذي جعلته في عبادي، ثم جاء بالإيمان بعد ذلك في الرتبة الثانية من العلماء وهو الذي يعوّل عليه في السعادة فإن الله به أمر وسميناه علماً لكون المخبر هو الله فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة محمد: الآية ١٩] وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٥٢] حين قسّم المراتب في آخر سورة إبراهيم من القرآن العزيز.

وقال رسول الله ﷺ في الصحيح: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»** ولم يقل هنا يؤمن فإن الإيمان موقوف على الخبر وقد قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٥] وقد علمنا أن لله عباداً كانوا في فترات وهم موحدون علماً، وما كانت دعوة الرسل قبل رسول الله ﷺ عامّة فيلزم أهل كل زمان الإيمان، فعمّ بهذا الكلام جميع العلماء بتوحيد الله المؤمن منهم من حيث ما هو عالم به من جهة الخبر الصدق الذي يفيد العلم لا من جهة الإيمان وغير المؤمن، فالإيمان لا يصحّ وجوده إلاَّ بعد مجيء الرسول، والرسول لا يثبت حتى يعلم الناظر العاقل أن ثم إلهاً وأن ذاك الإله واحد لا بدّ من ذلك لأن الرسول من جنس من أرسل إليهم، فلا يختص واحد من الجنس دون غيره إلاَّ لعدم المعارض

وهو الشريك، فلا بدّ أن يكون عالماً بتوحيد من أرسله وهو الله تعالىٰ، ولا بدّ أن يتقدّمه العلم بأن هذا الإله هو على صفة يمكن أن يبعث رسولاً بنسبة خاصة ما هي ذاته، وحينئذ ينظر في صدق دعوى هذا الرسول أنه رسول من عند الله لإمكان ذلك عنده، وهذه في العلم مراتب معقولة يتوقف العلم ببعضها على بعض، وليس هذا كله حظ المؤمن فإن مرتبة الإيمان وهو التصديق بأن هذا رسول من عند الله لا تكون إلاّ بعد حصول هذا العلم الذي ذكرناه.

فإذا جاءت الدلالات على صدقه بأنه رسول الله لا بتوحيد مرسله حينئذ تتأهب العقلاء أولو الألباب والأحلام والنهى لما يورده في رسالته هذا الرسول، فأول شيء قال في رسالته: إن الله الذي أرسلني يقول لكم: قولوا: لا إله إلاّ الله، فعلم أولو الألباب أن العالم بتوحيد الله لا يلزمه أن يتلفظ به، فلما سمع من الرسول الأمر بالتلفظ به وأن ذلك ليس من مدلول دليل العلم بتوحيد الله تلفظ به هذا العالم الموحد إيماناً وتصديقاً بهذا الرسول، فإذا قال العالم: لا إله إلاّ الله لقول رسول الله ﷺ له قل: لا إله إلاّ الله عن أمر الله سمّي مؤمناً، فإن الرسول أوجب عليه أن يقولها وقد كان في نفسه عالماً بها ومخيّراً في نفسه في التلفظ بها وعدم التلفظ بها، فهذه مرتبة العالم بتوحيد الله من حيث الدليل، فمن مات وهو يعلم أنه لا إله إلاّ الله دخل الجنة بلا شك ولا ريب وهو من السعداء.

فأمّا من كان في الفترات فيبعثه الله أمّة وحده كقس بن ساعدة لا تابع لأنه ليس بمؤمن ولا هو متبوع لأنه ليس برسول من عند الله بل هو عالم بالله وبما علم من الكوائن الحادثة في العالم بأي وجه علمها، وليس لمخلوق أن يشرع ما لم يأذن به الله ولا أن يوجب وقوع ممكن من عالم الغيب يجوز خلافه في دليله على جهة القربة إلى الله إلاّ بوحي من الله وإخبار، وهنا نكت لمن له قلب وفطنة لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [سورة فصلت: الآية ١٢] وقوله أنه أودع اللوح المحفوظ جميع ما يجريه في خلقه إلى يوم القيامة.

وممّا أوحى الله في سمواته وأودعه في لوحه بعثة الرسل، فتؤخذ من اللوح كشفاً واطلاعاً، وتؤخذ من السماء نظراً واختباراً، وعلمهم ببعثة الرسل علمهم بما يجيئون به من القربات إلى الله وبأزمانهم وأمكنتهم وحلاهم، وما يكون من الناس بعد الموت، وما يكون منهم في البعث والحشر، ومآلهم إلى السعادة والشقاء من جنة ونار، وأنّ الله جعل بروج الفلك ومنازله وسباحة كواكبه أدلة على حكم ما يجريه الله في العالم الطبيعيّ والعنصريّ من حرّ وبرد ويبس ورطوبة، في حار وبارد ورطب ويابس، فمنها ما يقتضي وجود الأجسام في حركات معلومة، ومنها ما يقتضي وجود الأرواح، ومنها ما يقتضي بقاء مدّة السموات وهو العلم الذي أشار إليه أبو طالب المكيّ من أن الفلك يدور بأنفاس العالم، ومع رؤيتهم لذلك كله هم فيه متفاضلون بعضهم على بعض: فمنهم الكامل المحقق المدقق، ومنهم من ينزل عن درجته بالتفاضل في النزول.

وقد رأينا جماعة من أصحاب خط الرمل والعلماء بتقادير حركات الأفلاك وتسيير كواكبها والاقترانات ومقاديرها ومنازل اقتراناتها، وما يحدث الله عند ذلك من الحكم في

خلقه كالأسباب المعتادة في العامة التي لا يجهلها أحد ولا يكفر القائل بها، فهذه أيضاً معتادة عند العلماء بها، فإنها تعطي بحسب تأليف طباعها ممّا لا يعطيه حالها في غير اقترانها بغيرها، فيخبرون بأمور جزئية تقع على حدّ ما أخبروا به، وإن كان ذلك الأمر واقعاً بحكم الاتفاق بالنظر إليه وإن كان علماً في نفس الأمر فإن الناظر فيه ما هو على يقين، وإن قطع به في نفسه لغموض الأمر فما يصحّ أن يكون مع الإنصاف على يقين من نفسه أنه ما فاتته دقيقة في نظره ولا فات لمن مهّد له السبيل قبله من غير نبيّ يخبر عن الله فإن المتأخر على حساب المتقدّم يعتمد، فلما رأينا ذلك علمنا أن لله أسراراً في خلقه، ومن حصل في هذه المرتبة من العلم لم يكن أحد أقوى في الإيمان منه بما جاءت به الرسل، وما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله إلاّ من يدعو إلى الله على بصيرة كالرسول وأتباعه، وأن كلامنا في المفاضلة إنما هو بين هؤلاء وبين المؤمنين أهل التقليد لا بين الرسل وأولياء الله وخاصته الذين تولّى الله تعليمهم فآتاهم رحمة من عنده وعلمهم من لدنه علماً، فهم فيما علموه بحكم القطع لا بحكم الاتفاق، يقول رسول الله ﷺ في علم الخط: «**إِنَّ نَبِياً مِنَ الأَنْبِيَاءِ بعثَ بِهِ قِيلَ هُوَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلاَمَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ الأَشْكَالِ الَّتِي أَقَامَهَا اللَّهُ لَهُ مَقَامَ الملكِ لِغَيْرِهِ**» وكما يجيء الملك من غير قصد من النبيّ لمجيئه، كذلك يجيء شكل الخط من غير قصد الضارب صاحب الخط إليه، وهذه هي الأمّهات خاصة. ثم شرع له أن يشرع وهي السنّة التي يرى الرسول أن يضعها في العالم وأصلها الوحي، كذلك ما يولد صاحب الخط عن الأمّهات من الأولاد وأولاد الأولاد، فتفصح له تلك الأشكال عن الأمر المطلوب على ما هو عليه، والضمير فيه كالنية في العمل فلا يخطىء، قال عليه السلام في العلماء العالمين بالخط: «**فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ـ يَعْنِي خَطَّ ذٰلِكَ النَّبِيِّ ـ فَذَاكَ يَقُولُ: فَقَدْ أَصَابَ الحَقَّ**» فهذا مثل من يدعو إلى الله على بصيرة من اتباع الرسل، فقوله: فإن وافق فما جعله علماً عنده لكونه لا يقطع به، وإن كان علماً في نفس الأمر فهذا الفرق بين هؤلاء وبين من يدعو إلى الله على بصيرة ومن هو على بينة من ربه. فأعلم العلماء بالله بعد ملائكة الله رسل الله وأولياؤه، ثم العلماء بالأدلة ومن دونهم، وإن وافق العلم في نفس الأمر فليس هو عند نفسه بعالم للتردّد الإمكانيّ الذي يجده في نفسه المنصف فما هو مؤمن إلاّ بما جاء في كتاب الله على التعيين وما جاء عن رسوله على الجملة لا على التفصيل إلاّ ما حصل له من ذلك تواتراً، ولهذا قيل للمؤمنين ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٦] فقد بانت لك مراتب الخلق في العلم بالله.

فإذا جاء الرسول وبين يديه العلماء بالله وغير العلماء بالله وقال للجميع: قولوا: لا إله إلاّ الله، علمنا على القطع أنه ﷺ في ذلك القول معلم لمن لا علم له بتوحيد الله من المشركين، وعلمنا أنه في ذلك القول أيضاً معلم للعلماء بالله وتوحيده أن التلفّظ به واجب، وأنه العاصم لهم من سفك دمائهم وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابهمْ عَلَى اللَّهِ**»، ولم يقل حتى يعلموا فإن فيهم العلماء، فالحكم هنا للقول

لا للعلم والحكم ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [سورة الطارق: الآية ٩] في هذا للعلم لا للقول، فقالها هنا العالم والمؤمن والمنافق الذي ليس بعالم ولا مؤمن، فإذا قالوا هذه الكلمة عصموا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها في الدنيا والآخرة وحسابهم على الله في الآخرة من أجل المنافق، ومن ترتب عليه حق لأحد فلم يؤخذ منه، وأمّا في الدنيا فمن أجل الحدود الموضوعة فإن قول: لا إله إلاّالله لا يسقطها في الدنيا ولا في الآخرة، وأما حسابهم على الله في الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتم؟ فيعلمون بقرينة الحال أنه سؤال واستفهام عن إجابتهم بالقلوب فيقولون: لا علم لنا أي لم نطلع على القلوب ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٠٩] تأكيد وتأييد لما ذكرنا.

ثم قال ﷺ من اسمه الملك بني الإسلام على خمس، فصيّره ملكاً شهادة أن لا إله إلاّ الله وهي القلب، وأن محمداً رسول الله حاجب الباب، وإقام الصلاة المجنبة اليمنى، وإيتاء الزكاة المجنبة اليسرى، وصيام رمضان التقدمة، والحج الساقة، وربما كانت الصلاة التقدمة لكونها نوراً فهي تحجب الملك، وقد ورد في الخبر أن حجابه النور وتكون الزكاة الميمنة لأنها إنفاق يحتاج إلى قوّة لإخراج ما كان يملكه عن ملكه، ويكون الحج الميسرة لما فيه من الإنفاق والقرابين حيث تجتمع بالزكاة في الصدقة والهدية وكلاهما من أعمال الأيدي، ويكون الصوم في الساقة فإن الخلف نظير الإمام وهو ضياء، فإن الصبر ضياء يريد الصوم والضياء من النور فهو أولى بالساقة للموازنة، فإن الآخر يمشي على أثر الأوّل، وهكذا يكون الإيمان الإلهيّ يوم القيامة، فيأتي الإيمان يوم القيامة في صورة ملك على هذه الصفة، فأهل لا إله إلاّ الله في القلب، وأهل الصلاة في التقدمة، وأهل الزكاة وهي الصدقة في الميمنة، وأهل الحج في الميسرة، وأهل الصيام في الساقة، جعلنا الله ممّن قام بناء بيته على هذه القواعد، فكان بيته الإيمان، وحدّه من القِبلة الصلاة، ومن الشمال الصوم، ومن الغرب صدقة السرّ، ومن الشرق الحج، فلقد سعد ساكنه.

واعلم أن لا إله إلاّ الله كلمة نفي وإثبات وهي أفضل كلمة قالتها الأنبياء، قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ**» فيه إشارة لدعاء العارفين بالله، وأفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**» وهو حديث صحيح رواية ومعنى، فالنفي لا بدّ أن يرد على ثابت فينفيه فإنه إن ورد النفي على ما ليس بثابت وهو النفي أثبته لأن ورود النفي على نفي إثبات كما أن عدم العدم وجود فما نفى هذا النافي بقوله لا إله أخبرونا فقد استفهمناكم، والمثبت أيضاً هل حكمه حكم النفي من أنه لا يثبت إلاّ المنفي؟ أو حكمه حكم آخر يتميز به عن حكم النفي؟ فأيّ شيء نفي هذا النافي، وأيّ شيء أثبت هذا المثبت هذا كله لا بدّ من تحقيقه إن شاء الله.

فاعلم أن النفي ورد على أعيان من المخلوقات لما وصفت بالألوهية ونسبت إليها قيل فيها آلهة، ولهذا تعجب من تعجب من المشركين لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله الواحد فأخبرنا الله عنه أنه قال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: الآية ٥] فسمّوها

آلهة وهي ليست بهذه الصفة، فورد حكم النفي على هذه النسبة الثابتة عندهم إليها لا في نفس الأمر لا على نفي الألوهية، لأنه لو نفى النفي لكان عين الإثبات لما زعمه المشرك فكأنه يقول للمشرك: هذا القول الذي قلت لا يصحّ أي ما هو الإمر كما زعمت ولا بدّ من إله، وقد انتفت الكثرة عن الآلهة بحرف الإيجاب الذي هو قوله إلاّ، وأوجبوا هذه النسبة إلى المذكور بعد حرف الإيجاب وهو مسمّى الله فقالوا: لا إله إلاّ الله فلم تثبت نسبة الألوهة لله بإثبات المثبت لأنه سبحانه إله لنفسه، فأثبت المثبت بقوله: إلاّ الله هذا الأمر في نفس من لم يكن يعتقد انفراده سبحانه بهذا الوصف، فإنّ ثبت الثبت محال وليس نفي المنفي بمحال، فعلى الحقيقة ما عبد المشرك إلاّ الله لأنه لو لم يعتقد الألوهة في الشريك ما عبده ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] ولذلك غار الحق لهذا الوصف فعاقبهم في الدنيا إذ لم يحترموه ورزقهم وسمع دعاءهم وأجابهم إذا سألوا إلههم في زعمهم لعلمه سبحانه أنهم ما لجؤوا إلاّ لهذه المرتبة وإن أخطؤوا في النسبة فشقوا في الآخرة شقاء الأبد حيث نبههم الرسول على توحيد من تجب له هذه النسبة لم ينظروا ولا نصحوا نفوسهم، ولهذا كانت دلالة كل رسول بحسب ما كان الغالب على أهل زمانه لتقوم عليهم الحجة لكون ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤٩] فعمت هذه الكلمة مرتبة العدم والوجود، فلم تبق مرتبة إلاّ وهي داخلة تحت النفي والإثبات فلها الشمول، فمن قائل: لا إله إلاّ الله بنفسه، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بنعته، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بربّه، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بنعت ربه، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بحاله، ومن قائل: لا إله إلاّ الله بحكمه وهو المؤمن خاصة والخمسة الباقون ما لهم في الإيمان مدخل.

أما من قال: لا إله إلاّ الله بنفسه فهو الذي قالها من تجليه لنفسه فرأى استفادة وجوده من غيره فأعطته رؤية نفسه أن يقول: لا إله إلاّ الله وهو التوحيد الذاتيّ الذي أشارت إليه طائفة من المحققين.

وأما القائل: لا إله إلاّ الله بنعته فهو الذي وحده بعلمه إن نعته العلم بتوحيد الله وأحديته فنطقه علمه، والفرق بينه وبين الأول أن الأول عن شهود وهذا الثاني عن وجود، والوجود قد يكون عن شهود وقد لا يكون. وأما القائل: لا إله إلاّ الله بربه فهو الذي رأى أن الحق عين الوجود لا أمر آخر، وأن اتصاف الممكنات بالوجود هو ظهور الحق لنفسه بأعيانها، وذلك أن استفادتها الوجود لها من الله إنما هو من حيث وجوده، فإن الوجود المستفاد وهو الظاهر وهو عين الحكم به على هذه الأعيان فقال: لا إله إلاّ الله بربه.

وأما القائل: لا إله إلاّ الله بنعت ربه فإنه رأى أن الحق سبحانه من حيث أحديته وذاته ما هو مسمّى الله والرب فإنه لا يقبل الإضافة ورأى أن مسمّى الرب يقتضي المربوب ومسمّى الله يطلب المألوه، ورأى أنهم لما استفادوا منه الوجود ثبت له اسم الرب إذ كان المربوب يطلبه، فالمربوب أصل في ثبوت الاسم الرب، ووجود الحق أصل في وجود الممكنات، ورأى أن لا إله إلاّ الله تطلبه عين الذات فقال: لا إله إلاّ الله بنعت الرب الذي نعته به المربوب، فالعلم

بنا أصل في علمنا به، يقول عليه السلام: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فوجودنا موقوف على وجوده، والعلم به موقوف على العلم بنا، فهو أصل في وجه ونحن أصل في وجه.

وأمّا القائل: لا إله إلاّ الله بحاله فهو الذي يستند في أموره إلى غير الله، فإذا لم يتفق له حصول ما طلب تحصيله ممّن استند إليه وسدّت الأبواب في وجهه من جميع الجهات رجع إلى الله اضطراراً فقال: لا إله إلاّ الله بحاله، وهؤلاء الأصناف كلهم لا يتصفون بالإيمان لأنه ما فيهم من قالها عن تقليد. وأما من قال: لا إله إلاّ الله بحكمه فهو الذي قالها لقول الشارع حيث أوجب عليه أن يقولها وحكم عليه أن يقولها ولولا هذا الحكم ما قالها على جهة القربة إلى الله، وربما لو قالها قالها معلماً أو معلماً.

دخلت على شيخنا أبي العباس العريبيّ من أهل العليا وكان مستهتراً بذكر الاسم (الله) لا يزيد عليه شيئاً فقلت له: يا سيدي لم لا تقول: لا إله إلاّ الله؟ فقال لي: يا ولدي الأنفاس بيد الله ما هي بيدي فأخاف أن يقبض الله روحي عندما أقول لا إله فأقبض في وحشة النفي. وسألت شيخاً آخر عن ذلك فقال لي: ما رأت عيني ولا سمعت أذني من يقول: أنا الله غير الله فلم أجد من أنفي فأقول كما سمعته يقول: الله الله، وإنما تعبدنا بهذا الاسم في التوحيد لأنه الاسم الجامع المنعوت بجميع الأسماء الإلهية، وما نقل أنه وقعت من أحد من المعبودين فيه مشاركة بخلاف غيره من الأسماء مثل إله وغيره، وبهذا القدر من القول إذا قيل لقول الشارع يثبت الإيمان، وإنما قال الشارع: حتى يقولوا لا إله إلاّ الله ولم يقل محمد رسول الله لتضمن هذه الشهادة بالتوحيد الشهادة بالرسالة فإن القائل: لا إله إلاّ الله لا يكون مؤمناً إلاّ إذا قالها لقول رسول الله ﷺ فإذا قالها لقوله فهو عين إثبات رسالته، فلما تضمنت هذه الكلمة الخاصة الشهادة بالرسالة لهذا لم يقل قولوا محمد رسول الله وقال في غير القول وهو الإيمان والإيمان معنى من المعاني ما هو ممّا يدرك بالحسّ، فقرن بالإيمان بالله الايمان به وبما جاء به يعني من عنده ممّا له أن يشرعه من غير نقل عن الله، فقال في حديث ابن عمر لما ذكر الإيمان بالله وبالصلاة والزكاة والحج والصوم وكل هذا جاء من عند الله قال في حديث ابن عمر: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إلاّ الله وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ**» من أجل المنافق المقلد فإنه يقولها من غير إيمان بقلبه ولا اعتقاد، والجاحد المنافق يقولها لا لقوله مع علمه بأنه رسول الله من كتابه لا من دليله العقليّ.

واعلم أن التلفّظ بشهادة الرسالة المقرونة بشهادة التوحيد فيه سرّ إلهيّ عرفنا به الحق سبحانه وهو أن الإله الواحد الذي جاء بوصفه ونعته الشارع ما هو التوحيد الإلهيّ الذي أدركه العقل فإنّ ذلك لا يقبل اقتران الشهادة بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد، فهذا التوحيد من حيث ما يعلمه الشارع ما هو التوحيد من حيث ما أثبته النظر العقليّ، وإذا كان الإله الذي دعانا الشرع إلى عبادته وتوحيده إنما هو في رتبة كونه إلهاً لا في ذاته صحّ أن تنعته بما نعته به من النزول والاستواء والمعية والتردّد والتدبّر وما أشبه ذلك من الصفات التي لا يقبلها توحيد العقل المحض المجرّد عن الشرع، فهذا المعبود ينبغي أن تقرن شهادة الرسول برسالته بشهادة

توحيد مرسله ولهذا يضاف إليه فيقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أنّ محمداً رسول الله كل يوم ثلاثين مرّة في أذان الخمس الصلوات وفي الإقامة، والمتلفظون بهذه الشهادة الرسالية التفصيل فيهم كالتفصيل في شهادة التوحيد، فلنمش بها على ذلك الأسلوب من المراتب وفي الإيمان بالله وبرسوله الإيمان بكل ما جاء به من عند الله ومن عنده ممّا سنّه وشرعه، ويدخل فيما سنّه الإيمان بسنّة من سنّ سنّة حسنة فاستمرّ الشرع وحدوث العبادة المرغب فيها ممّا لا ينسخ حكماً ثابتاً إلى يوم القيامة، وهذا الحكم خاص بهذه الأمّة وأعني بالحكم تسميتها سنّة تشريفاً لهذه الأمّة، وكانت في حق غيرهم من الأمم السالفة تسمّى رهبانية، قال تعالىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [سورة الحديد: الآية ٢٧] فمن قال بدعة في هذه الأمّة ممّا سمّاها الشارع سنّة فما أصاب السنّة إلاّ أن يكون ما بلغه ذلك والاتباع أولى من الابتداع، والفرق بين الاتباع والابتداع معقول، ولهذا جنح الشارع إلى تسميتها سنّة وما سمّاها بدعة لأن الابتداع إظهار أمر على غير مثال هذا أصله، ولهذا قال الحق تعالىٰ عن نفسه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١١٧] أي موجدها على غير مثال سبق، فلو شرع الإنسان اليوم أمراً لا أصل له في الشرع لكان ذلك إبداعاً ولم يكن يسوغ لنا الأخذ به، فعدل الشارع عن لفظ الابتداع إلى لفظ السنّة إذ كانت السنّة مشروعة، وقد شرع الله لمحمد ﷺ الاقتداء بهدي الأنبياء عليهم السلام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الجزء الثلاثون.

(الجزء الحادي والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثامن والستون

في أسرار الطهارة

[نظم: الطويل]

تَبَصَّرْ ترى سرَّ الطهارة واضحاً يسيراً على أهل التَّيَقُّظ والذَّكَا
فكم طاهرٍ لم يتَّصِفْ بطهارة إذا جانَبَ البحرَ اللَّدُنِيَّ واحتمَى
ولو غاصَ في البحر الأجاج حياتَه ولم يَفْنَ عن بحر الحقيقة ما زَكَا
إذا استجْمَرَ الإنسانُ وتراً فقد مشى على السنَّة المثلى حليفاً لمن مضَى
فإن شفَعَ استجْمَارهُ عاد خاسراً وفارق من يهواه من باطن الرَّدَا
وإن غسل الكفَّين وتراً ولم يَزَلْ بخيلاً بما يهوى على فطرة الأولَى
فما غُسلتْ كفٌّ خضيبٌ ومعصمٌ إذا لم يَلُحْ سيفُ التوكل مُنْتَضَى
إذا صحَّ غسلُ الوجه صحَّ حَيَاؤه وصحَّ له رفعُ الستور متى يَشَا
وإن لم يمَسَّ الماءُ لمسةَ رأسه ولا وقفت كفاه في ساحة القَفَا
فما انفكَّ من رقِّ العبودية التي تسخِّرها الأغيارُ في منزل التَّوَى
وإن لم يَرَ الكرسيَّ في غسل رجله تناقَصَ معنى الطهر للحين وانتَفَى

إذ مضْمَضَ الإنسانُ فاه ولم يكن بريئاً من الدعوى وفيّاً بما ادَّعى
ومُسْتَنْشقٍ ما شمَّ ريحَ اتصاله ومستَنْثرٍ أودى به كِبْرُه الرَّدَى
صماخاه ما تنفكُّ تطهر إن صغا إلى أحسن الأقوال واكْتَفَّ واقتفى
وإن لبس الجُرْمُوقَ وهو مسافرٌ على طُهره يمسح وفي سرِّه خَفَا
ثلاثةُ أيام وإن كان حاضراً بمنزله فالمَسْحُ يومٌ بلا قَضَا
وفي المَسْح سرٌّ لا أبوح بذكره ولو قُطِّعتْ مني المفاصل والكُلَى
ويتلوه مسحٌ في الجبائر بيِّنٌ لكل مريد لم يرد ظاهرَ الدُّنَا
وإن عدم الماءَ القُراحَ فإنه تيَمُّمُه يكفيه من طيِّب الثَّرَى
ويوتِرُه وجهاً وكفاً فإن أبى وصيَّره شفعاً فنِعْمَ الذي أتى
إذا أجْنَبَ الإنسانُ عمَّ طهورُه كما عمَّت اللذاتُ أجزاءَه العُلَى
ألم ترَ أن الله نَبَّه خلقَه بإخراجه بين الترائب والمَطَا
فذاك الذي أجنَى عليه طهورُه ولو غاب بالذات النزيهة ما جنَا
فإن نسيَ الإنسانُ ركناً فإنه يعيد ويقضي ما تضمَّن واحتَوَى
وإن لم يكن ركناً وعطَّل سُنَّةً فلم يأنس الزُّلْفَى وما بلغ المُنَى
وذلك في كل العبادات شائعٌ وليس جهولٌ بالأمور كمن دَرَى
فهذا طهورُ العارفين فإن تكن مِنَ أحزابهم تحظى بتقريبه مصطفَى
إذا كان هذا ظاهرَ الأمر فالذي توارى عن الأبصار أعظمُ مُنْتَشَا

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أنه لما كانت الطهارة النظافة علمنا أنها صفة تنزيه، وهي معنوية وحسيّة، طهارة قلب وطهارة أعضاء معينة، فالمعنوية طهارة النفس من سفساف الأخلاق ومذمومها، وطهارة العقل من دنس الأفكار والشبه، وطهارة السرّ من النظر إلى الأغيار وطهارة الأعضاء. فاعلم أن لكل عضو طهارة معنوية ذكرناها في كتاب التنزلات الموصلية في أبواب الطهارة منه، وطهارة الحسّ من الأمور المستقذرة التي تستخبثها النفوس طبعاً وعادة وهاتان الطهارتان مشروعتان، فالطهارة الحسيّة الظاهرة نوعان: النوع الواحد قد ذكرناه وهو النظافة، والنوع الآخر أفعال معينة مخصوصة في محال معينة مخصوصة لأحوال موجبة مخصوصة لا يزاد فيها ولا ينقص منها شرعاً، ولهذه الطهارة المذكورة ثلاثة أسماء شرعاً: وضوء وغسل وتيمم، وتكون هذه الطهارة بثلاثة أشياء: اثنان مجمع عليهما وواحد مختلف فيه، فالمجمع عليهما الماء المطلق والتراب سواء فارق الأرض أو لم يفارقها، والواحد المختلف فيه في الوضوء خاصة نبيذ التمر وما فارق الأرض ممّا ينطلق عليه اسم الأرض إذا كان في الأرض فإنه مختلف فيه ما عدا التراب كما ذكرنا، وهذه الطهارة قد تكون عبادة مستقلة كما قال ﷺ فيها« **نورٌ عَلَى نُورٍ**» وقد تكون شرطاً في صحة عبادة مشروعة مخصوصة لا تصحّ تلك العبادة شرعاً إلاّ بوجودها أو الأفضلية، فالأوّل كالوضوء على الوضوء نور على نور، والثاني لرفع المانع عن فعل العبادة التي لا تصحّ إلاّ بهذه الطهارة

واستباحة فعلها وهو الأصل في تشريعها، وممّا تقع به هذه الطهارة ما يكون رافعاً للمانع مبيحاً للفعل معاً وهو الماء بلا خلاف، ونبيذ التمر في الوضوء بخلاف، ومنه ما تقع به الإباحة للفعل المعين في الوقت المفروض وقوعه، ولا يرفع المانع بخلاف وهو التراب وعندي أنه يرفع المانع في الوقت، ولا بدّ وكون الشارع حكم بالطهارة إذا وجد الماء حكم آخر منه كما عاد حكم المانع بعدما كان ارتفع، وما عدا التراب ممّا فارق الأرض بخلاف قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ١١] وزاي الرجز هنا بدل من السين على قراءة من قرأ الزراط بالزاي وهي لغة قرأ ابن كثير بها أعني بالسين وحمزة بالزاي وباقي القرّاء بالصاد، سمعت شيخاً وكنت أقرأ عليه القرآن يقال له محمد بن خلف بن صاف اللخمي بمسجده المعروف به بقوس الحنية بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فقرأت السراط بالسين لابن كثير فقال لي: سأل بعض ناقلي اللغة بعض الأعراب كيف تقولون صقر أو سقر؟ فقال له: ما أدري ما تقول ولكنني أظنك تسأل عن الزقر فقال: فزادني لغة ثالثة ما كنت أعرفها. قال الفراء: الرجس القذر ولا شك أن الماء يزيل القذر والطهور الشرعي يذهب قدر الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [سورة المدثر: الآية ٤] قال امرؤ القيس: [الطويل]

وإن كنتِ قد ساءتكِ مني خليقةٌ فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ

فكنى بالثوب عن الود والوصلة. وقال رسول الله ﷺ في خبر عن ربّه سبحانه: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**» ومن أسمائه سبحانه المؤمن فمن تخلق به فقد طهر قلبه لأن القلب محمل الإيمان وكانت السعة الإلهية والتجلّي الربانيّ.

(والطهارة عامة): وهي الغسل للفناء الذي عمّ ذاته لوجود اللذة بالكون عند الجماع أريها السهى وتريني القمر. **(وخاصة)**: وهي الوضوء المخصّص بعض الأعضاء بالاغتسال والمسح، وهو تنبيه على مقامات معلومة وتجليات شريفة منها: القوّة والكلام والأنفاس والصدق والتواضع والحياء والسماع والثبات، فهذه أعضاء الوضوء وهي مقامات شريفة لها نتائج في القرب إلى الله، وهذه الطاهرة الروحانية بأحد أمرين: إما بسرّ الحياة أو بأصل النشء في الأب الذي هو أصل الأبناء وهو الأرض والتراب وليس إلاّ النظر والتفكر في ذاتك لتعرف من أوجدك فإنه أحالك عليك في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٢١] وفي قول رسوله ﷺ: « «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**». أحالك عليك بالتفصيل وأخفاك عنك بالإجمال لتنظر وتستدل فقال في التفصيل: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٢] وهو آدم عليه السلام هنا ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [سورة

المؤمنون: الآية ١٣] وهي نشأة الأبناء في الأرحام مساقط النطف ومواقع النجوم فكنى عن ذلك بالقرار المكين ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] وقد تمّ البدن على التفصيل، فإن اللحم يتضمن العروق والأعصاب. [المتقارب]

وفـــي كــــلِّ طَـــوْرٍ لـــه آيـــةٌ تـــدلُّ عـــلـــى أنـــنـــي مـــفْـــتَـــقِـــرْ

ثم أجمل خلق النفس الناطقة الذي هو بها إنسان في هذه الآية فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١٤] عرّفك بذلك أن المزاج لا أثر له في لطيفتك وإن لم يكن نصاً لكن هو ظاهر وأبين منه قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية ٧] وهو ما ذكره في التفصيل من التقلب في الأطوار فقال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: الآية: ٨] فقرنه بالمشيئة، فالظاهر أنه لو اقتضى المزاج روحاً خاصاً معيناً ما قال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ﴾ وأيّ حرف نكرة مثل حرف ما فإنه حرف يقع على كل شيء، فأبان لك أن المزاج لا يطلب صورة بعينها ولكن بعد حصولها تحتاج إلى هذا المزاج وترجع به فإنه بما فيه من القوىٰ التي لا تدبره إلاّ بها فإنه بقواه لها كالآلات لصانع النجارة أو البناء مثلاً إذا هيئت وأتقنت وفرغ منها تطلب بذاتها وحالها صانعاً يعمل بها ما صنعت له وما تعين زيداً ولا عمراً ولا خالداً ولا واحداً بعينه، فإذا جاء من جاء من أهل الصنعة مكنته الآلة من نفسها تمكيناً ذاتياً لا تتصف بالاختيار فيه فجعل يعمل بها صنعته بصرف كل آلة لما هيئت له، فمنها مكملة وهي المخلقة يعني التامّة الخلقة، ومنها غير مكملة وهي غير المخلقة فينقص العامل من العمل على قدر ما نقص من جودة الآلة، ذلك ليعلم أن الكمال الذاتي لله سبحانه، فبيّن لك الحق مرتبة جسدك وروحكم لتنظر وتفتكر فتعتبر أن الله ما خلقك سدى وإن طال المدى.

وأمّا القصد الذي هو النية شرط في صحة هذا النظر بخلاف قال تعالىٰ: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] أي اقصدوا التراب الذي ما فيه ما يمنع من استعماله في هذه العبادة من نجاسة، ولم يقل ذلك في طهارة الماء فإنه أحال على الماء المطلق لا المضاف فإن الماء المضاف مقيّد بما أضيف إليه عند العرب، فإذا قلت للعربيّ: أعطني ماء جاء إليك بالماء الذي هو غير مضاف ما يفهم العرب منه غير ذلك، وما أرسل رسول ولا أنزل كتاب إلاّ بلسان قومه، يقول رسول الله ﷺ: **«إنَّمَا أُنْزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»** يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف: الآية ٣] فلهذا لم يقل بالقصد في الماء لأنه سرّ الحياة فيعطي الحياة بذاته سواء قصد أم لم يقصد، بخلاف التراب فإنه إن لم يقصد الصعيد الطيب فليس بنافع لأنه جسد كثيف لا يسري فروحه القصد فإن القصد معنى روحانيّ، فافتقر المتيمم للقصد الخاص في التراب أو الأرض بخلاف أيضاً ولم يفتقر المتوضىء بالماء بخلاف فقال: ﴿فَٱغْسِلُوا۟﴾ ولم يقل: تيمموا ماء طيباً، فإن قالوا: إنما

الأعمال بالنيات وهي القصد والوضوء عمل قلنا: سلمنا ما تقول ونحن نقول به ولكن النية هنا متعلقها العمل لا الماء، والماء ما هو العمل، والقصد هنالك للصعيد، فيفتقر الوضوء بهذا الحديث للنية من حيث ما هو عمل لا من حيث ما هو عمل بماء، فالماء هنا تابع للعمل والعمل هو المقصود بالنية، وهنالك القصد للصعيد الطيب والعمل به تبع يحتاج إلى نية أخرى عند الشروع في الفعل، كما يفتقر العمل بالماء في الوضوء والغسل وجميع الأعمال المشروعة إلى الإخلاص المأمور به وهو النية بخلاف، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] وفي هذه الآية نظر، وهذه مسألة ما حققها الفقهاء على الطريقة التي سلكنا فيها وفي تحقيقها فافهم.

ولم يقل في الماء تيمموا الماء فيفتقر إلى روح من النية والماء في نفسه روح فإنه يعطي الحياة من ذاته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠] فإن كل شيء يسبح بحمد الله ولا يسبح إلاّ حيّ، فالماء أصل الحياة في الأشياء، ولهذا وقع الخلاف بين علماء الشريعة في النيّة في الوضوء هل هي شرط في صحته أو ليست بشرط في صحته والسرّ ما ذكرناه. فإن قيل: إن الإمام الذي لا يرى النية في الوضوء يراها في غسل الجنابة وكلا العبادتين بالماء وهو سرّ الحياة فيهما، قلنا: لما كانت الجنابة ماء وقد اعتبر الشرع الطهارة منها لدنس حكميّ فيها لامتزاج ماء الجنابة بما في الأخلاط وكون الجنابة ماء مستحيلاً من دم فشاركت الماء في سرّ الحياة فتمانعا فلم يقو الماء وحده على إزالة حكم الجنابة لما ذكرنا فافتقر إلى روح مؤيد له عند الاغتسال فاحتاج إلى مساعدة النية، فاجتمع حكم النية وهي روح معنويّ وحكم الماء فأزالا بالغسل حكم الجنابة بلا شك كأبي حنيفة ومن قال بقوله في هذه المسألة ومن راعى كون ماء الجنابة لا يقوى قوّة الماء المطلق لأنه ماء استحال من دم كماء الجنابة إلى ممازجته بالأخلاط ومفارقته إياه بالكثافة واللونية، قال: قد ضعف ماء الجنابة عن مقاومة الماء المطلق فلم يفتقر عنده إلى نية كالحسن بن حي والمخالف لهما من العلماء ما تفطنوا لما رأياه هذان الإمامان ومن ذهب مذهبهما، فاجهل بالك لما بينته لك ورجح ما شئت.

وصل: وبعد أن تحققت هذا فاعلم أن الماء ماءان ماء ملطف مقطر في غاية الصفاء والتخليص وهو ماء الغيث فإنه ماء مستحيل من أبخرة كثيفة قد أزال التقطير ما كان تعلق به من الكثافة، وذلك هو العلم الشرعي اللدني فإنه عن رياضة ومجاهدة وتخليص، فطهر به ذاتك لمناجاة ربك، والماء الآخر ما لم يبلغ في اللطافة هذا المبلغ وهو ماء العيون والأنهار فإنه ينبع من الأحجار ممتزجاً بحسب البقعة التي ينبع بها ويجري عليها فيختلف طعمه، فمنه عذب فرات، ومنه ملح أجاج، ومنه مرّ زعاق، وماء الغيث على حالة واحدة ماء نمير خالص سلسال سائغ شرابه، وهذه علوم الأفكار الصحيحة والعقول، فإن علوم العقل المستفادة من الفكر يشوبها التغيّر لأنها بحسب مزاج المتفكّر من العقلاء لأنه لا ينظر إلاّ في موادّ محسوسة كونية في الخيال، وعلى مثل هذا تقوم براهينها فتختلف مقالاتهم في الشيء الواحد، أو

تختلف مقالة الناظر الواحد في الشيء الواحد في أزمان مختلفة لاختلاف الأمزجة والتخليط والأمشاج الذي في نشأتهم، فاختلفت أقاويلهم في الشيء الواحد وفي الأصول التي يبنون عليها فروعهم، والعلم اللدني الإلهيّ المشروع ذو طعم واحد وإن اختلفت مطاعمه، فما اختلفت في الطيب فطيب وأطيب فهو خالص ما شابه كدر لأنه تخلص من حكم المزاج الطبيعي وتأثير المنابيع فيه، فكانت الأنبياء والأولياء وكل مخبر عن الله على قول واحد في الله إن لم يزد فلا ينقص ولا تخالف يصدق بعضهم بعضاً، كما لم يختلف ماء السماء حال النزول، فليكن اعتمادك وطهورك في قلبك بمثل هذا العلم، وليس إلاّ العلم بالشرع المشبه بماء الغيث، وإن لم تفعل فما نصحت نفسك وتكون في ذاتك وطهورك بحسب ما تكون البقعة التي نبع منها ذلك الماء، فإن فرقت بين عذبه وملحه فاعلم أنك سليم الحاسة، وهذه مسألة لم أجد أحداً نبّه عليها، فإن آكل السكر بالحلاوة في السكر كذلك وفي مرارة الصبر ليس بصحيح ولا يقتضيه الدليل العقلي وقد نبهناك إن تنبهت، فانظر ثم يا وليي استدرك استعمال علوم الشريعة في ذاتك وعلوم الأولياء والعقلاء الذين أخذوها عن الله بالرياضات والخلوات والمجاهدات والاعتزال عن فضول الجوارح وخواطر النفوس، وإن لم تفرّق بين هذه المياه فاعلم أنك سيء المزاج قد غلب عليك خلط من أخلاطك فما لنا فيك من حيلة إلاّ أن يتدارك الله برحمته نفسك، فإذا استعملت من ماء هذه العلوم في طهارتك ما دللتك عليه وهو العلم المشروع، طهرت صفاتك وروحانيتك به كما طهرت أعضاءك بالماء ونظفتها، فأوّل طهارتك غسل يديك قبل إدخالهما في الإناء عند قيامك من نوم الليل بلا خلاف ووجوب غسلهما من نوم النهار بخلاف، واليد محل القوّة والتصريف فطهورهما بعلم لا حول في اليسرى ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم في اليمنى، واليدان محل القبض والإمساك بخلاً وشحاً فطهرهما بالبسط والإنفاق كرماً وجوداً وسخاء.

ونوم الليل غفلتك عن علم عالم غيبك، ونوم النهار غفلتك عن علم عالم شهادتك، فهذا عين تخلقك وتحققك بعالم الغيب والشهادة من الأسماء الحسنى المضافة، ثم بعد هذا الاستنجاء والاستجمار والجمع بينهما أفضل من الإفراد فهما طهارتان نور في نور مرغب فيهما سنّة وقرآناً، فإن استنجيت وهو استعمال الماء في طهارة السوأتين لما قام بهما من الأذى وهما محل الستر والصوم كما هما محل إخراج الخبث والأذى القائم بباطنك وهو ما تعلق بباطنك من الأفكار الرديئة والشبه المضلة كما ورد في الصحيح: «إن الشيطان يأتي إلى الإنسان في قلبه فيقول له: من خلق كذا ومن خلق كذا حتى يقول فمن خلق الله »فطهارة هذا القلب من هذا الأذى ما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستعاذة والانتهاء وهما عورتان أي مائلتان إلى ما يوسوس به نفسه من الأمور القادحة في الدين أصلاً وفرعاً فإن الدبر هو الأصل في الأذى فإنه ما وجد إلا لهذا والفرجان الآخران في الرجل والمرأة فرعان عن هذا الأصل ففيهما وجه إلى الخير ووجه إلى الشرّ وهو النكاح والسفاح، ألا ترى النجاسة إذا وردت على الماء القليل أثرت فيه فلم يستعمل وإذا ورد الماء على النجاسة أذهب حكمها،

كذلك الشبه إذا وردت على القلوب الضعيفة الإيمان الضعيفة الرأي أثرت فيها، وإذا وردت على البحر استهلكت فيه، كذلك القلوب القوية المؤيدة بالعلم وروح القدس، كذلك الشبه إذا جاء بها شيطان الإنس والجنّ إلى المتضلّع من العلم الإلهيّ الريان منه قلب عينها وعرف كيف يردّ نحاسها ذهباً وقزديرها فضة بإكسير العلم اللدنيّ الذي عنده من عناية الرحمة الإلهية التي أتاه الله بها وعرف وجه الحق منها وآثر فيها، فهذا سرّ الاستنجاء الروحانيّ.

فإن استجمر هذا المتوضىء ولم يستنج فاعلم أن ذلك طهور المقلد فإن الجمرة الجماعة ويد الله مع الجماعة، ولا يأكل الذئب إلا القاصية وهي التي بعدت عن الجماعة وخرجت عنها وذلك مخالفة الإجماع، والاستجمار معناه جمع أحجار أقلها ثلاثة إلى ما فوقها من الأوتار لأن الوتر هو الله فلا يزال الوتر مشهودك، والوتر طلب الثأر وهو هنا ما ألقاه الشيطان من الشبه في إيمانك فتجمع الأحجار للإنقاء من ذلك الخبث القائم بالعضو، فالمقلد إذا وجد شبهة في نفسه هرب إلى الجماعة أهل السنّة فإنّ يد الله كما جاء مع الجماعة ويد الله تأييده وقوّته، وقد نهى رسول الله ﷺ عن مفارقة الجماعة، ولهذا قام الإجماع في الدلالة على الحكم المشروع مقام النص من الكتاب أو السنّة المتواترة التي تفيد العلم فهذا يكون استجمارك في هذه الطهارة.

ثم مضمض بالذكر الحسن لتزيل به الذكر القبيح من النميمة والغيبة والجهر بالسوء من القول، فلتكن مضمضتك بالتلاوة وذكر الله وإصلاح ذات البين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالىٰ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٨] وقال: ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [سورة القلم: الآية ١١] وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة النساء: الآية ١١٤] وما أشبه ذلك، فهذه طهارة فيك، وقد فتحت لك الباب فأجر في وضوئك وغسلك وتيممك في أعضائك على هذا الأسلوب فهو الذي طلبه الحق منك، وقد استوفينا الكلام على هذه الطهارة في التنزلات الموصلية فانظرها هنالك نثراً ونظماً وقد رميت بك على الطريق، ولتصرف هذه الطهارة بكمالها في كل مكلف منك، فإن كل مكلف منك مأمور بجميع العبادات كلها من طهور وصلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وغير ذلك من الأعمال المشروعة، وكل مكلف فيك تصرفه في هذه العبادات بحسب ما تطلبه حقيقة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق :الآية٧] وقد﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[سورة طه: الآية٥٠] أي بين كيف تستعمله فيها وهم ثمانية أصناف لا يزيدون لكن قد ينقصون في بعض الأشخاص وهم: العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب لا زائد في الإنسان عليهم، لكن قد ينقصون في بعض أشخاص هذا النوع الإنساني كالأكمة والأخرس والأصم وأصحاب العاهات، فمن بقي من هؤلاء المكلفين منك فالخطاب يترتب عليه.

ومن خطاب الشارع تعلم جميع ما يتعلق بكل عضو من هؤلاء الأعضاء من التكاليف وهم كالآلة للنفس المخاطبة المكلفة بتدبير هذا البدن وأنت المسؤول عنهم في إقامة العدل

فيهم، فلقد كان رسول الله ﷺ إذا انقطع شسع نعله خلع الأخرى حتى يعدل بين رجليه ولا يمشي في نعل واحد، وقد بيناها بكمالها وما لها من الأنوار والكرامات والمنازل والأسرار والتجليات في كتابنا المسمّى مواقع النجوم ما سبقنا في علمنا في هذا الطريق إلى ترتيبه أصلاً وقيدناه في أحد عشر يوماً في شهر رمضان بمدينة المرية سنة خمس وتسعين وخمسمائة يغني عن الأستاذ بل الأستاذ محتاج إليه فإن الأستاذين فيهم العالي والأعلى، وهذا الكتاب على أعلى مقام يكون الأستاذ عليه ليس وراءه مقام في هذه الشريعة التي تعبدنا بها، فمن حصل لديه فليعتمد بتوفيق الله عليه فإنه عظيم المنفعة، وما جعلني أن أعرفك بمنزلته إلاّ أني رأيت الحق في النوم مرّتين وهو يقول لي: انصح عبادي وهذا من أكبر نصيحة نصحتك بها والله الموفق وبيده الهداية وليس لنا من الأمر شيء. ولقد صدق الكذوب إبليس رسول الله ﷺ حين اجتمع به فقال له رسول الله ﷺ: ما عندك؟ فقال إبليس: لتعلم يا رسول الله أن الله خلقك للهداية وما بيدك من الهداية شيء، وأن الله خلقني للغواية وما بيدي من الغواية شيء لم يزده على ذلك وانصرف، وحالت الملائكة بينه وبين رسول الله ﷺ.

وصل: وبعد أن نبهتك على ما نبهتك عليه ممّا تقع لك به الفائدة فاعلم أن الله خاطب الإنسان بجملته، وما خصّ ظاهره من باطنه ولا باطنه من ظاهره، فتوفرت دواعي الناس أكثرهم إلى معرفة أحكام الشرع في ظواهرهم، وغفلوا عن الأحكام المشروعة في بواطنهم إلاّ القليل وهم أهل طريق الله فإنهم بحثوا في ذلك ظاهراً وباطناً، فما من حكم قرّروه شرعاً في ظواهرهم إلاّ ورأوا أن ذلك الحكم له نسبة إلى بواطنهم أخذوا على ذلك جميع أحكام الشرائع فعبدوا الله بما شرع لهم ظاهراً وباطناً، ففازوا حين خسر الأكثرون، ونبغت طائفة ثالثة ضلّت وأضلت فأخذت الأحكام الشرعية وصرفتها في بواطنهم وما تركت من حكم الشريعة في الظواهر شيئاً تسمى الباطنية وهم في ذلك على مذاهب مختلفة، وقد ذكر الإمام أبو حامد في كتاب المستظهري له في الردّ عليهم شيئاً من مذاهبهم وبين خطأهم فيها، والسعادة إنما هي مع أهل الظاهر وهم في الطرف والنقيض من أهل الباطن، والسعادة كل السعادة مع الطائفة التي جمعت بين الظاهر والباطن وهم العلماء بالله وبأحكامه، وكان في نفسي إن أخّر الله في عمري أن أضع كتاباً كبيراً أقرّر فيه مسائل الشرع كلها كما وردت في أماكنها الظاهرة وأقرّرها، فإذا استوفينا المسألة المشروعة في ظاهر الحكم جعلنا إلى جانبها حكمها في باطن الإنسان فيسري حكم الشرع في الظاهر والباطن، فإن أهل طريق الله وإن كان هذا غرضهم ومقصدهم ولكن ما كل أحد منهم يفتح الله له في الفهم حتى يعرف ميزان ذلك الحكم في باطنه، فقصدنا في هذا الكتاب إلى الأمر العام من العبادات وهي الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والتلفظ بلا إله إلاّ الله محمد رسول الله، فاعتنيت بهذه الخمسة لكونها من قواعد الإسلام التي بني الإسلام عليها وهي كالأركان للبيت.

فالإيمان هو عين البيت ومجموعه وباب البيت الذي يدخل منه إليه، وهذا الباب له مصراعان وهما: التلفظ بالشهادتين. وأركان البيت أربعة وهي: الصلاة والزكاة والصيام

والحج، فجردنا العناية في إقامة هذا البيت لنسكن فيه ويقيناً من زمهرير نفس جهنم وحرورها. قال النبي ﷺ: «**اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَس في الشِّتَاءِ وَنَفَس فِي الصَّيفِ، فَمَا كَانَ مِنْ سَمومِ وَحَرُورٍ فَهُوَ مِنْ نَفَسِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ بَرْدٍ وَزَمْهَرِيرٍ فَهُوَ مِنْ نَفَسِهَا**». فاتخذ الناس البيوت لتقيهم حرّ الشمس وبرد الهواء، فينبغي للعاقل أن يقيم لنفسه بيتاً يكنه يوم القيامة من هذين النفسين في ذلك اليوم لأن جهنم في ذلك اليوم تأتي بنفسها تسعى إلى الموقف تفور تكاد تميز من الغيظ على أعداء الله، فمن كان في مثل هذا البيت وقاه الله من شرّها وسطوتها. ولما كانت الطهارة شرطاً في صحة الصلاة أفردنا لها باباً قدّمناه بين يدي باب الصلاة، ثم يتلوها الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج، ويكفي في هذا الكتاب هذا القدر من العبادات، فأتتبع أمهات مسائل كل باب منها وأقرّرها بالحكم الكلي باسمها في الظاهر، ثم أنتقل إلى حكم تلك المسألة عينها في الباطن إلى أن أفرغ منها والله يؤيد ويعين.

بيان وإيضاح: فأوّل ذلك تسميتها طهارة، وقد ذكرنا ذلك في أوّل الباب ظاهراً وباطناً، فلنشرع إن شاء الله في أحكامها وهو أن ننظر في وجوبها وعلى من تجب ومتى تجب، وفي أفعالها وفيما به تفعل، وفي نواقضها، وفي صفة الأشياء التي تفعل من أجلها كما فعلته علماء الشريعة وقرّرته في كتبها، وقد انحصر في هذا أمر الطهارة ولننظر ذلك ظاهراً وباطناً، وإنما نوميء إليه ظاهراً حتى لا يفتقر الناظر فيها إلى كتب الفقهاء فيغنيه ما ذكرناه، ولا نتعرّض للأدلة التي للعلماء على ثبوت هذا الحكم من كتاب أو سنّة أو إجماع أو قياس في مذهب من يقول به لطرد علة جامعة يراها بين المنطوق عليه والمسكوت عنه، لا أتعرض إلى أصول الفقه في ذلك ولا إلى الأدلة إذ العامّة ليس منصبها النظر في الدليل، فنحن نذكر أمهات فروع الأحكام ومذاهب الناس فيها من وجوب وغير وجوب.

وصل: نقول أوّلاً: أجمع المسلمون قاطبة من غير مخالف على وجوب الطهارة على كل من لزمته الصلاة إذا دخل وقتها، وأنها تجب على البالغ حدّ الحلم العاقل، واختلف الناس هل من شرط وجوبها الإسلام أم لا؟ هذا حكم الظاهر، فأمّا الباطن في ذلك وهي الطهارة الباطنة فنقول: إن باطن الصلاة وروحها إنما هو مناجاة الحق تعالىٰ حيث قال: «**قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**» الحديث، فذكر المناجاة، يقول العبد: كذا، فيقول الله: كذا فمتى أراد العبد مناجاة ربه في أيّ فعل كان تعينت عليه طهارة قلبه من كل شيء يخرجه عن مناجاة ربه في ذلك الفعل، ومتى لم يتصف بهذه الطهارة في وقت مناجاته فما ناجاه وقد أساء الأدب فهو بالطرد أحق، وسأذكر في أفعالها تقاسيم هذه الطهارة في الحكم إن شاء الله.

وأمّا قول العلماء: أنها تجب على البالغ العاقل بالإجماع واختلفوا في الإسلام، فكذلك عندنا تجب هذه الطهارة على العاقل وهو الذي يعقل عن الله أمره ونهيه وما يلقيه الله في سرّه ويفرّق بين خواطر قلبه فيما هو من الله أو من نفسه أو من لمة الملك أو من لمة

الشيطان وذلك هو الإنسان، فإذا بلغ في المعرفة والتمييز إلى هذا الحدّ وعقل عن الله ما يريد منه وسمع قول الله تعالىٰ: وسعني قلب عبدي، وجب عليه عند ذلك استعمال هذه الطهارة في قلبه وفي كل عضو يتعلق به على الحدّ المشروع، فإن طهارة البصر مثلاً في الباطن هو النظر في الأشياء بحكم الاعتبار وعينه، فلا يرسل بصره عبثاً، ولا يكون مثل هذا إلاّ لمن تحقق باستعمال الطهارة المشروعة في محلها كلها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [سورة النور: الآية ٤٤] فجعلها للأبصار والاعتبار إنما هو للبصائر، فذكر الأبصار لأنها الأسباب المؤدّية إلى الباطن ما يعتبر فيه عين البصيرة وهكذا جميع الأعضاء كلها.

وأمّا قول العلماء في هذه الطهارة: هل من شرط وجوبها الإسلام؟ فهو قولهم: هل الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؟ وأنّ المنافق إذا توضأ هل أدّى واجباً أم لا؟ وهي مسألة خلاف تعم جميع الأحكام المشروعة، فمذهبنا أن جميع الناس كافة من مؤمن وكافر ومنافق مكلفون مخاطبون بأصول الشريعة وفروعها، وأنهم مؤاخذون يوم القيامة بالأصول وبالفروع، ولهذا كان المنافق في الدرك الأسفل من النار وهو باطن النار، وأن المنافق معذب بالنار التي تطلع على الأفئدة إذ أتى في الدنيا بصورة ظاهر الحكم المشروع من التلفظ بالشهادة وإظهار تصديق الرسل والأعمال الظاهرة وما عندهم في بواطنهم من الإيمان مثقال ذرة، فبهذا القدر تميزوا من الكفار وقيل فيهم إنهم منافقون، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤٠] فذكر الدار، فالمنافقون يعذبون في أسفل جهنم، والكافرون لهم عذاب في الأعلى والأسفل، فإن الله قد رتب مراتب وطبقات للعذاب في نار جهنم لأعمال مخصوصة بأعضاء مخصوصة على ميزان معلوم لا يتعداه، فالمؤمن ليس للنار اطلاع على محل إيمانه البتة فما له نصيب في النار التي تطلع على الأفئدة وإن خرج عنه هناك، فإن عنايته سارية في محله من الإنسان، وإنما يخرج عنه ليحميه ويردّ عنه من عذاب الله ما شاء الله كما خرج عنه في الدنيا إذا أوقع المعصية، قال رسول الله ﷺ في المؤمن يشرب الخمر ويسرق ويزني أنه لا يفعل شيئاً من ذلك وهو مؤمن حال فعله وقال: «**إِنَّ الإِيمانَ يَخْرُجُ عَنْهُ فِي ذٰلِكَ الوَقْتِ حَالَ الفِعْلِ**» وتأوّل الناس هذا الحديث على غير وجهه لأنهم ما فهموا مقصود الشارع، وفسّروا الإيمان بالأعمال فقالوا: إنه أراد العمل فأبان النبيّ ﷺ مراده بذلك في الحديث الآخر فقال ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا زَنَى خَرَجَ عَنْهُ الإِيمَانُ حَتَّى يَصِيرَ عَلَيهِ كَالظُّلَّةِ فَإِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيهِ الإِيمَانُ**».

فاعلم أن الحكمة الإلٰهية في ذلك أن العبد إذا شرع في المخالفة التي هو بها مؤمن أنها مخالفة ومعصية فقد عرض نفسه بفعله إياها لنزول عذاب الله عليه وإيقاع العقوبة به، وأن ذلك الفعل يستدعي وقوع البلاء به من الله فيخرج عنه إيمانه الذي في قلبه حتى يكون عليه مثل الظلة، فإذا نزل البلاء من الله يطلبه تلقاه إيمانه فيردّه عنه، فإن الإيمان لا يقاومه شيء ويمنعه من الوصول إليه رحمة من الله، وما بعد بيان رسول الله ﷺ بيان، ولهذا قلنا: إن العبد المؤمن لا يخلص له أبداً معصية لا تكون مشوبة بطاعة وهي كونه مؤمناً بها أنها معصية فهو

من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فقال الله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٢] والتوبة الرجوع فمعناه أن يرجع عليهم بالرحمة فإنه تعالىٰ تمّم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وقال العلماء إن (عسى) من الله واجبة فإنه لا مانع له.

ثم نرجع ونقول: إنّه لما كان الإيمان عين طهارة الباطن لم يتمكن أن يتصوّر الخلاف فيه كما تصوّر في الطهارة الظاهرة إلاّ بوجه دقيق يكون حكم الظاهر فيه في الباطن حكم الباطن في طهارة الظاهر، فنقول من ذلك الوجه: هل من شرط طهارة الباطن بالإيمان التلفظ به فينطق اللسان بما يعتقده القلب من ذلك أم لا؟ فيكون في عالم الغيب إذا لم يظهر بما يعتقده في الباطن منافقاً كمنافق الظاهر في عالم الشهادة، فإن المؤمن يعتقد وجوب الصلاة مثلاً ولا يصلي ولا يتطهر، كما أن المنافق يصلي ويتطهر ولا يؤمن بوجوبها عليه بقلبه ولا يعتقده أو لا يفعله لقول ذلك الرسول الذي شرعه له، فهذا معنى ذلك إذا حققت النظر فيه حتى يسري الحكم في الظاهر والباطن على صورة ما هو في الظاهر من الخلاف والإجماع فاعلم ذلك.

وصل: وأما أفعال هذه الطهارة فقد ورد بها الكتاب والسنّة وبيّن فرضها من سننها من استحباب أفعال فيها، ولهذه الطهارة شروط وأركان وصفات وعدد وحدود معينة في محالها. فمن شروطها النية وهي القصد بفعلها على جهة القربة إلى الله تعالىٰ عند الشروع في الفعل، فمن الناس من ذهب إلى أنها شرط في صحة ذلك الفعل الذي لا يصحّ إلاّ بوجودها وما لا يتوصل إلى الواجب إلاّ به فهو واجب ولا بدّ وهو مذهبنا، وبه نقول في الطهارة الظاهرة والباطنة، وهي عندنا في الباطن آكد وأوجب لأن النية من صفات الباطن أيضاً، فحكمها في طهارة الباطن أقوى لأنها تحكم في موضع سلطانها والظاهر غريب عنها، فلهذا لم يختلف في علمنا في الباطن واختلف في ذلك في الظاهر، وقد تقدّم من الكلام في النية طرف يغني، وذهب آخرون إلى أنها ليست بشرط صحة، وأغنى ما ذكرناه في طهارة الوضوء بالماء.

وصل: اختلف علماء الشريعة في غسل اليد قبل إدخالها في الإناء الذي نريد الوضوء منه على أربعة أقوال: فمن قائل: إن غسلهما سنّة بإطلاق. ومن قائل: إن ذلك مستحب لمن يشك في طهارة يده. ومن قائل: إن غسل اليد واجب على القائم من النوم في الإناء الذي يريد الوضوء منه. ومن قائل: إن ذلك واجب على المنتبه من نوم الليل خاصة، وهذا حصر مذاهب العلماء في علمي في هذه المسألة، ولكل قائل حجة من الاستدلال يدل بها على قوله، وليس كتابنا هذا موضع إيراد أدلتهم. وتتميم حكم هذه المسألة في الباطن غسل اليد هو طهارتها بما كلفه الشارع فيها بتركه وذلك على قسمين: منه ما هو واجب، ومنه ما هو مندوب إليه، والواجب عندنا والفرض على السواء لفظان متواردان على معنى واحد، فلا فرق عندنا إذا قلت: أوجب أو فرض. ثم نقول: فالواجب إذا كانت اليد على شيء يحكم الشرع فيه عليها أنها غاصبة أو بكونه مسروقاً أو بكونه وقعت فيه خيانة وكل ما لم يجوّز لها الشارع أن تتصرف فيه، والفروق في هذه الأحوال بينة فواجب طهارتها عن هذا كله، وسيرد بماذا تطهر في موضعه إن شاء الله فواجبة عليها هذه الطهارة.

وأمّا الطهارة المندوب إليها فهي ترك ما في اليد من الدنيا ممّا هو مباح له إمساكه، فندبه الشرع إلى إخراجه عن يده رغبة فيما عند الله وذلك هو الزهد وهي تجارة فإنّ لها عوضاً عند الله على ما تركته والترك أعلى من الإمساك، وهذه مسألة إجماع في كل ملة ونحلة شرعاً وعقلاً، فإن الناس مجمعون على أن الزهد في الدنيا وترك جمع حطامها والخروج عمّا بيده منها أولى عند كل عاقل، هذا هو المندوب إليه في طهر اليد وهو السنّة. وأما المذهب في الاستحباب في طهارة اليد عند الشاك في طهارتها فهو الخروج عن المال الذي في يده لشبهة قامت له فيه قدحت في حلّه فليس له إمساكه، وهذا هو الورع ما هو الزهد وإن كان له وجه إلى الحل فالمستحب تركه ولا بدّ فإن مراعاة الحرمة أولى، فإنك في إمساكه مسؤول، وفي تركه للشبهة التي قامت عندك فيه غير مسؤول بل أنت إلى المثوبة على ذلك أقرب، وهذا في الطهارة المندوب إليها أولى، والاستحباب في الترك للمباح أولى.

وأمّا اختلافهم في وجوب غسلها من النوم مطلقاً وفيمن قيد ذلك بنوم الليل، فاعلم أن الليل غيب لأنه محل الستر ولذلك جعل ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [سورة النبأ: الآية ١٠] و﴿ٱلنَّهَارَ﴾ شهادة لأنه محل الظهور والحركة ولذلك جعله ﴿مَعَاشٗا﴾ [سورة النبأ: الآية ١١] لابتغاء الفضل، يعني طلب الرزق هنا من وجهه، فالفضل المبتغى فيه من الزيادة ومن الشرف وهو زيادة الفضائل فإنه يجمع ما ليس له برزق فهو فضول لأنه يجمعه لوارثه أو لغيره، فإن رزق الإنسان ما هو ما يجمعه وإنما هو ما يتغذى به. فاعلم أن النائم في عالم الغيب بلا شك، وإذا كان النوم بالليل فهو غيب في غيب فيكون حكمه أقوى، والنوم بالنهار غيب في شهادة فيكون حكمه أضعف، ألا تراه جعل ﴿ٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٤٧] فهو راحة بلا شك وهو بالليل أقوى فإنه فيه أشدّ استغراقاً من نوم النهار والغيب أصل فالليل أصل والشهادة فرع فالنهار فرع ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [سورة يس: الآية ٣٧] فالنهار مسلوخ من الليل، فالليل لما كان يستر الأشياء ولا يبيّن حقائق صورها للأبصار أشبه الجهل فإنّ الجهل بالشيء لا يبيّن حكمه، فمن جهل الشرع في شيء لم يعلم حكمه فيه، ولما كان النائم في حال نومه لا يعلم شيئاً من أمور الظاهر في عالم الشهادة في حق الناس كان النوم جهلاً محضاً إلاّ في حق من تنام عينه ولا ينام قلبه كرسول الله ﷺ ومن شاء الله من ورثته في الحال.

ولما كان النهار يوضح الأشياء ويبيّن صور ذواتها ويظهر للمتقي ما يتقي من الأمور المضرّة وما لا يتقيه أشبه العلم فإن العلم هو المبين حكم الشرع في الأشياء. ولما كان النائم بالنهار متصفاً بالجهل لأجل نومه لأن النوم من أضداد العلم ربما مدّ يده وهو لا علم له أو رجله فيفسد شيئاً ممّا لو كان مستيقظاً لم يتعرّض إلى فساده أوجب عليه الشرع الطهارة بالعلم من نوم الجهل إذا استيقظ فيعلم بيقظته حكم الشرع في ذلك، فإنه ما كان يدري في حال نوم جهالته حيث جالت يده هل فيما أبيح له ملكه أو في ما لم يبح له ملكه كالمغصوب وأمثاله كما ذكرنا، كما راعى المخالف قوله: أين باتت يده واشتركا في النوم، وإنما ذكر الشارع المبيت لأن غالب النوم فيه وهو أبداً يراعي الأغلب، فجعل هذا الحكم في نوم الليل ومراعاة

النوم أولى من مراعاة نوم الليل ويقول مراعي نوم الليل لذكرالمبيت، فإنه لما كان الإنسان إذا نام بالنهار قد يكون هناك إنسان أو جماعة إذا رأوا النائم يتحرك بيده أو برجله فتؤدّيه حركته تلك إلى كسر جرّة أو غيرها، أو صبيّ صغير رضيع تحصل يده على فمه فتؤذيه أو يمسك عنه خروج النفس فيموت وقد رأينا ذلك فيكون المستيقظ الحاضر يمنع من ذلك بإزالة الطفل القريب منه أو الجرّة أو ما كان من أجل ضوء النهار الذي كشفه به ويقظته، كذلك العالم مع الجاهل إذا رآه يتصرّف بما لا علم له به بحكم الشرع فيه نبّهه، أو حال الشرع بينه وبين ذلك الفعل، فوجب غسل اليد عندنا ولا بدّ باطناً على الغافل وهو النائم بالنهار الجاهل وهو النائم بالليل. وأما اعتبارنا بالطهارة قبل إدخالها في الإناء فإنه بالعلم والعمل خوطبنا فالعلم الماء والعمل الغسل وبهما تحصل الطهارة، فغسلها قبل إدخالها في إناء الوضوء هو ما يقرّره في نفسه من القصد الجميل في ذلك الفعل إلى جناب الحق الذي فيه سعادته عند الشروع في الفعل على التفصيل، فهذا معنى غسل اليد قبل إدخالها في إناء الوضوء في طهارة الباطن.

وصل: المضمضة والاستنشاق: اختلف علماء الشريعة فيهما على ثلاثة أقوال: فمن قائل: إنهما سنتان. ومن قائل: إنهما فرض. ومن قائل: إن المضمضة سنّة والاستنشاق فرض، هذا حكمهما في الظاهر قد نقلناه. فأما حكمهما في الباطن: فمنهما ما هو فرض. ومنهما ما هو سنّة. فأما المضمضة فالفرض منها التلفظ بلا إله إلاّ الله فإنّ بها يتطهر لسانك من الشرك وصدرك فإنّ حروفها من الصدر واللسان، وكذلك في كل فرض أوجب الله عليك التلفظ به ممّا لا ينوب فيه عنك غيرك فيسقط عنك كفرض الكفاية، كرجل أبصر أعمى على بعدٍ يريد السقوط في حفرة يتأذى بالسقوط فيها أو يهلك فيتعين عليه فرضاً أن ينادي به يحذره من السقوط بما يفهم عنه لكونه لا يلحقه، فإن سبقه إنسان إلى ذلك سقط عنه ذلك الفرض الذي كان تعين عليه، فإن تكلم به فهو خير له وليس بفرض عليه، فإذا تمضمض في باطنه بهذا وأمثاله فقد أصاب خيراً وقال خيراً، وهو حسن القول وصدق اللسان، طهور من الكذب، والجهر بالقول الحسن، طهور من الجهر بالسوء من القول وإن كان جزاء بقوله إلاّ من ظلم ولكن السكوت عنه أفضل.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طهور من نقيضيهما، فمثل هذا فرض المضمضة وسننها، وكذلك الاستنشاق فاعلم أن الاستنشاق في الباطن لما كان الأنف في عرف العرب محل العزّة والكبرياء ولهذا تقول العرب في دعائها: أرغم الله أنفه، وقد اتفق هذا على رغم أنفه، والرغام: التراب أي حطك الله من كبريائك وعزّك إلى مقام الذلّة والصغار فكنى عنه بالتراب فإن الأرض سمّاها الله ذلولاً على المبالغة، فإن أذلّ الأذلاء من وطئه الذليل، والعبيد أذلاء وهم يطؤون الأرض بالمشي عليها في مناكبها فلهذا سمّاها ببنية المبالغة ولا يندفع هذا ولا تزول الكبرياء من الباطن إلاّ باستعمال أحكام العبودية والذلّة والافتقار، ولهذا شرع الاستنثار في الاستنشاق فقيل له: اجعل في أنفك ماء ثم استنثر، والماء هنا علمك بعبوديتك إذا استعملته في محل كبريائك خرج الكبرياء من محله وهو الاستنثار ومنه فرض واستعماله

في الباطن بلا شك ، وأما كونه سنة فمعناه أنك لو تركته صح وضوءك ، ومحله في هذا القدر أنك لو تركت معاملتك لعبدك أو لمن هو تحت أمرك وهنا سر خفي يتضمنه رب أعطني كذا، أو لمن هو دونك بالتواضع وأظهرت العزة وحكم الرياسة لمصلحة تراها أباحها لك الشارع فلم تستنشق جاز حكم طهارتك دون استعمال هذا الفعل ، وإن كان استعمالها أفضل فهذا موضع سقوط فرضها فلهذا قلنا قد يكون سنة وقد يكون فرضاً لعلمنا أنه لو أجمع أهل مدينة على ترك سنة وجب قتالهم ولو تركها واحد لم يقتل فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يغير على مدينة إذا جاءها ليلاً حتى يصبح فإن سمع أذاناً أمسك وإلاً أغار، وكان يتلو إذا لم يسمع أذاناً إنّا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٧٧] وما من حكم من أحكام فرائض الشريعة وسننها واستحباباتها إلاً ولها في الباطن حكم أو أزيد على قدر ما يفتح للعبد في ذلك فرضاً كان أو سنّة أو مستحباً لا بدّ من ذلك، وحد ذلك في سائر العبادات المشروعة كلها، وبهذا يتميز حكم الظاهر من الباطن، فإن الظاهر يسري في الباطن وليس في الباطن أمر مشروع يسري في الظاهر بل هو عليه مقصور، فإن الباطن معان كلها، والظاهر أفعال محسوسة، فينتقل من المحسوس إلى المعنى ولا ينتقل من المعنى إلى الحسّ.

باب التحديد في غسل الوجه

لا خلاف أن غسل الوجه فرض وحكمه في الباطن المراقبة، والحياء من الله مطلقاً، وذلك أن لا تتعدّى حدود الله تعالىٰ. واختلف علماء الرسوم في تحديد غسل الوجه في الوضوء في ثلاثة مواضع: منها البياض الذي بين العذار والأذن. والثاني: ما سدل من اللحية. والثالث: غسل اللحية. فأمّا البياض المذكور فمن قائل: إنه من الوجه. ومن قائل: إنه ليس من الوجه. وأمّا ما انسدل من اللحية فمن قائل: بوجوب إمرار الماء عليه. ومن قائل: بأن ذلك لا يجب. وأمّا تخليل اللحية فمن قائل: بوجوب تخليلها. ومن قائل: أنه لا يجب.

وصل في حكم ما ذكرناه في الباطن: أما غسل الوجه مطلقاً من غير نظر إلى تحديد الأمر في ذلك فإن منه ما هو فرض ومنه ما ليس بفرض. فأما الفرض فالحياء من الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. وأما السنّة منه الحياء من الله أن تكشف عورتك في خلوتك فالله أولى أن تستحيي منه مع علمك أنه ما من جزء فيك إلاً وهو يراه منك، ولكن حكمه في أفعالك من حيث أنت مكلف ما ذكرناه وقد ورد به الخبر. وكذلك النظر إلى عورة امرأتك وإن كان قد أبيح لك ذلك ولكن استعمال الحياء فيها أفضل وأولى، فيسقط الفرض فيه أعني في الحياء في مثل قوله: ﴿ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٣] فما يتعين منه فهو فرض عليك، وما لا يتعين عليك فهو سنّة واستحباب، فإن شئت فعلته وهو أولى، وإن شئت لم تفعله فيراقب الإنسان أفعاله، وترك أفعاله ظاهراً وباطناً، ويراقب آثار ربّه في قلبه فإن وجه قلبه هو المعتبر، ووجه الإنسان وكل شيء حقيقته وذاته وعينه، يقال: وجه الشيء، ووجه

المسألة، ووجه الحكم، ويريد بهذا الوجه حقيقة المسمّى وعينه وذاته، قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢، ٢٣] و ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٤، ٢٥] والوجوه التي هي في مقدم الإنسان ليست توصف بالظنون وإنما الظنّ لحقيقة الإنسان، فالحياء خير كله، والحياء من الإيمان، والحياء لا يأتي إلاّ بخير.

وأما البياض الذي بين العذار والأذن وهو الحدّ الفاصل بين الوجه والأذن فهو الحد بين ما كلف الإنسان من العمل في وجهه والعمل في سمعه، فالعمل في ذلك إدخال الحد في المحدود، فالأولى بالإنسان أن يصرف حياءه في سمعه كما صرفه في بصره، فكما أنه من الحياء غض البصر عن محارم الله قال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [سورة النور: الآية ٣٠] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [سورة النور: الآية ٣١] باطن هاتين الآيتين خطاب النفس، والعقل كذلك يلزمه الحياء من الله أن يسمع ما لا يحل له سماعه من غيبة وسوء قول من متكلم بما لا ينبغي ولا يحل له التلفظ به، فإن ذلك البياض بين العذار والأذن وهو محل الشبهة، وصورة الشبهة في ذلك أن يقول: إنما أصغيت إليه لأردّ عليه وعن الشخص الذي اغتيب وهذا من فقه النفس، فقوله هذا هو من العذار فإنه من العذر أي الإنسان إذا عوتب في ذلك يعتذر بما ذكرناه وأمثاله ويقول: إنما أصغيت لأحقق سماعي قوله حتى أنهاه عن ذلك على يقين، فكنى عنه بالعذار، ويكون فيمن لا عذار له موضع العذار، فمن رأى وجوب ذلك عليه غسله بما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي بيّن لهم الحسن من ذلك من القبيح ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر: الآية ١٨] أي عقلوا ما أردنا وهو من لب الشيء المصون بالقشر، ومن لم ير وجوب ذلك عليه إن شاء غسل وإن شاء ترك، كمن يسمع ممّن لا يقدر على ردّ الكلام في وجهه من ذي سلطان يخاف من تعديه عليه، فإن قدر على القيام من مجلسه انصرف فذلك غسله إن شاء، وإن ترجح عنده الجلوس لأمر يراه مظنوناً عنده جلس ولم يبرح، وهذا عند من لا يرى وجوب ذلك عليه.

وأما غسل ما انسدل من اللحية وتخليلها فهي الأمور العوارض، فإن اللحية شيء يعرض في الوجه ما هي من الوجه، ولا تؤخذ في حدّه مثل ما يعرض لك في ذاتك من المسائل الخارجة عن ذاتك فأنت فيها بحكم ذلك العارض، فإن تعين عليك طهارة نفسك من ذلك العارض فهو اعتبار قول من يقول بوجوب غسل ذلك، وإن لم يتعين عليك طهارته فطهرته استحباباً أو تركته لكونه ما تعين عليك ولكن هو نقص في الجملة، فهذا قول من يقول: ليس بواجب وهو مذهب الآخرين، وقد بينا لك فيما تقدم من مثل هذا الباب أن حكم الباطن في هذه الأمور بخلاف حكم الظاهر فيما فيه وجه إلى الفرضية ووجه إلى السنّة والاستحباب، فالفرض لا بدّ من العمل به فعلاً كان أو تركاً، وغير الفرض فيه أن تنزله في الامتثال منزلة الفرض وهو أولى فعلاً وتركاً، وذلك سار في سائر العبادات.

باب في غسل اليدين والذراعين في الوضوء إلى المرافق

أجمع العلماء بالشريعة على غسل اليدين والذراعين في الوضوء بالماء، واختلفوا في إدخال المرافق في الغسل، ومذهبنا الخروج إلى محل الإجماع في الفعل، فإن الإجماع في الحكم لا يتصوّر، فمن قائل: بوجوب إدخالها في الغسل. ومن قائل: بترك الوجوب، ولا خلاف عند القائلين بترك الوجوب في استحباب إدخالها في الغسل.

وصل حكم الباطن في ذلك: أقول بعد تقرير حكم الظاهر الذي تعبدنا الله: إن غسل اليدين والذراعين وهما المعصمان، فغسل اليدين بالكرم والجود والسخاء والإيثار والهبات وأداء الأمانات وهو الذي لا يصحّ عنده الإيثار كما يغسلهما أيضاً مع الذراعين بالاعتصام إلى المرافق بالتوكل والاعتضاد فإن المؤمن كثير بأخيه: «فإن رسول الله ﷺ كان إذا غسل ذراعيه في الوضوء يجوز المرفقين حتى يشرع في العضد» وإن هذا وأشباهه من نعوت اليدين، والخلاف في حد اليدين أكثره إلى الآباط وأقله إلى الفصل الذي يسمّى منه الذراع، فبقي إدخال المرافق والمرافق في الباطن هي رؤية الأسباب التي يرتفق بها العبد وتأنس بها نفسه، فإن الإنسان في أصل خلقه ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ١٩] يخاف الفقر الذي تعطيه حقيقته من حيث إمكانه، فيجنح إلى ما يرتفق به ويميل إليه، فمن رأى إدخال المرافق في غسله واجباً رأى أن الأسباب إنما وضعها الله حكمة منه في خلقه لما علم من ضعف يقينهم، فيريد أن لا يعطل حكمة الله لا على طريق الاعتماد عليها فإن ذلك يقدح في اعتماده على الله، ومن رأى أنه لا يوجبها في الغسل رأى سكون النفس إلى الأسباب أنه لا يخلص له مقام الاعتماد على الله حالاً مع وجود رؤية الأسباب، وكل من يقول إنها لا تجب يستحب إدخالها في الغسل، كذلك رؤية الأسباب مستحبة عند الجميع وإن اختلفت أحكامهم فيها فإن الله ربط الحكمة بوجودها.

باب في مسح الرأس

اتفق علماء الشريعة على أن مسحه من فرائض الوضوء واختلفوا في القدر الواجب منه، فمن قائل: بوجوب مسحه كله. ومن قائل: بوجوب مسح بعضه. واختلفوا في حد البعض، فمن قائل: بوجوب الثلث. ومن قائل: بوجوب الثلثين. ومن قائل: بالربع. ومن قائل: لا حد للبعض. وتكلم بعض هؤلاء في حد القدر الذي يمسح به من اليد، فمن قائل: أن مسحه بأقل من ثلاثة أصابع لم يجزه. ومن قائل: لا حد للبعض لا في الممسوح ولا فيما يمسح به، وأصل هذا الخلاف وجود الباء في قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦].

وصل حكم المسح في الباطن: فأما حكم مسح الرأس في الباطن اعتباراً فإن الرأس من الرياسة وهي العلوّ والارتفاع، ومنه رئيس القوم أي سيدهم الذي له الرياسة عليهم، ولما كان أعلى ما في البدن في ظاهر العين وجميع البدن تحته سمّي رأساً إذ كان الرئيس فوق المرؤوس بالمرتبة وله جهة فوق، وقد وصف الله نفسه بالفوقية لشرفها قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن

فَوۡقِهِمۡ﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨] فكان الرأس أقرب عضو في البدن إلى الحق لمناسبة الفوق، ثم له شرف آخر بالمعنى الذي رأس به على أجزاء البدن كلها وهو كونه محلاً جامعاً حاملاً لجميع القوىٰ كلها المحسوسة والمعقولة المعنوية. فلما كانت له أيضاً هذه الرياسة من هذه الجهة سمّي رأساً.

ثم إن العقل الذي جعله الله أشرف ما في الإنسان جعل محله أعلى ما في الرأس وهو اليافوخ فجعله مما يلي جهة الفوقية. ولما كان الرأس محلاً لجميع القوىٰ الظاهرة والباطنة، ولكل قوّة منها حكم وسلطان وفخر يورثه ذلك عزّة على غيره كقصر الملك على سائر دور السوقة وجعله الله محال هذه القوىٰ من الرأس مختلفة حتى عمّت الرأس كله أعلاه ووسطه ومقدّمه ومؤخّره، وكل قوّة كما ذكرنا لها عزّة وسلطان وكبرياء في نفسها ورياسة، فوجب أن يمسحه كله وهو اعتبار من يقول بوجوب مسح الرأس كله لهذه الرياسة السارية فيه كله من جهة حمله لهذه القوىٰ المختلفة الأماكن فيه بالتواضع والإقناع لله، فيكون لكل قوّة إذا عمّ المسح مسح مخصوص من مناسبة دعواها فيردعها بما يخصّها من المسح فيعم بالمسح جميع الرأس، ومن يرى أن للرأس رأساً عليه كما أن الولاة من جهة السلطان يرجع أمرهم إليه فإنه الذي ولاهم رأى كل والٍ أن فوقه وال عليه هو أعلى منه له سلطان على سلطانه، كالقوّة المصوّرة لها سلطان على القوّة الخيالية فهي رئيسة عليها وإن كانت لها رياسة أعني القوّة الخيالية، فمن رأى هذا من العلماء قال بمسح بعض الرأس وهو التهمم بالأعلى.

ثم اختلف أصحابنا في هذا البعض، فكل عارف قال بحسب ما أعطاه الله من الإدراك في مراتب هذه القوىٰ فهو بحسب ما يراه ويعتبره، فأخذ يمسح في هذه العبادة وهي التذلّل وإزالة الكبرياء والشموخ بالتواضع والعبودية لأنه في طهارة العبادة يطلب الوصلة بربّه لأن المصلي في مقام مناجاة ربه وهي الوصلة المطلوبة بالطهارة، والعزيز الرئيس إذا دخل على من ولاّه تلك العزّة والرياسة نزل عن رياسته وذلّه عن عزّه بعزّ من دخل عليه وهو سيده الذي أوجده فيقف بين يديه وقوف غيره من العبيد الذين أنزلوا نفوسهم بطلب الأجرة منزلة الأجانب، فوقف هذا العبد في محل الإذلال لا بصفة الإدلال بالدال اليابسة، فمن غلب على خاطره رياسة بعض القوىٰ على غيرها وجب عليه مسح ذلك البعض من أجل الوصلة التي يطلبها بهذه العبادة، ولهذا لم يشرع مسح الرأس في التيمم لأن وضع التراب على الرأس من علامة الفراق وهو المصيبة العظمى، إذ كان الفاقد حبيبه بالموت يضع التراب على رأسه، فلما كان المطلوب بهذه العبادة الوصلة لا الفرقة لهذا لم يشرع مسح الرأس في التيمم، فامسح على حدّ ما ذكرناه لك ونبهناك عليه، وتفصيل رياسات القوىٰ معلوم عند الطائفة لا أحتاج إلى ذكره. وأمّا التبعيض في اليد التي يمسح بها واختلافهم في ذلك فاعمل فيه كما تعمل في الممسوح سواء، فإن المزيل لهذه الرياسة أسباب مختلفة في القدرة على ذلك ومحل ذلك اليد، فمن مزيل بصفة القهر، ومن مزيل بسياسة وترغيب، كما يمسح الإنسان بيده رأس اليتيم جبراً لانكساره بلطف وحنان، فلهذا ترجع بعضية اليد في المسح وكليته فاعلم ذلك.

ولما كان الموجب لهذا الخلاف عند العلماء وجود الباء في قوله: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] فمن جعلها للتبعيض بعض المسح، ومن جعلها زائدة للتوكيد في المسح عمّ بالمسح جميع الرأس، وأن الباء في هذا الموضع هو وجود القدرة الحادثة، فلا يخلو إما أن يكون لها أثر في المقدور فتصحّ البعضية وهو قول المعتزليّ وغيره، وإمّا أن لا يكون لها أثر في المقدور بوجه من الوجوه فهي زائدة كما يقول الأشعريّ، فيسقط حكمها فتعمّ القدرة القديمة مسح الرأس كله لم تبعض مسحه القدرة الحادثة، ويكون حدّ مراعاة التوكيد من كونها زائدة للتوكيد هو الاكتساب الذي قالت به الأشاعرة وهو قوله تعالىٰ في غير موضع من كتابه بإضافة الكسب والعمل إلى المخلوق، فلهذا جعلوا زيادتها لمعنى يسمّى التوكيد، ألا ترى العرب تقابل الزائد بالزائد في كلامها؟ تريد بذلك التوكيد، وتجيب به القائل إذا أكّد قوله يقول القائل: إن زيداً قائم، أو يقول: ما زيد قائماً. فيقول السامع في جواب: إن زيداً قائم، ما زيد قائماً. وفي جواب ما إن زيداً قائم، فيثبت ما نفاه القائل أو ينفي ما أثبته القائل، فإن أكّد القائل إيجابه فقال: إن زيداً لقائم فأدخل اللام لتأكيد ثبوت القيام أدخل المجيب الباء في مقابلة اللام لتأكيد نفي ما أثبته القائل فيقول: ما زيد بقائم، ويسمّى مثل هذا زائداً لأن الكلام يستقل دونه، ولكن إذا قصد المتكلم خلاف التبعيض وأتى بذلك الحرف للتأكيد، فإن قصد التبعيض لم يكن زائداً ذلك الحرف جملة واحدة والصورة واحدة في الظاهر ولكن تختلف في المعنى، والمراعاة إنما هي لقصد المتكلم الواضع لتلك الصورة.

فإذا جهلنا المعنى الذي لأجله خلق سبحانه لتمكن من فعل بعض الأعمال نجد ذلك من نفوسنا ولا ننكره وهي الحركة الاختيارية، كما جعل سبحانه فينا المانع من بعض الأفعال الظاهرة فينا، ونجد ذلك من نفوسنا كحركة المرتعش الذي لا اختيار للمرتعش فيها لم ندر لما يرجع ذلك لتمكن الذي نجده من نفوسنا هل يرجع إلى أن يكون للقدرة الحادثة فينا أثر في تلك العين الموجودة عن تمكننا أو عن الإرادة المخلوقة فينا، فيكون التمكن أثر الإرادة لا أثر القدرة الحادثة، من هنا منشأ الخلاف بين أصحاب النظر في هذه المسألة، وعليه ينبني كون الإنسان مكلفاً لعين التمكن الذي يجده من نفسه ولا يحقق بعقله لما ذا يرجع ذلك التمكن هل لكونه قادراً أو لكونه مختاراً وإن كان مجبوراً في اختياره؟ ولكن بذلك القدر من التمكن الذي يجده من نفسه يصحّ أن يكون مكلفاً ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [سورة الطلاق: الآية ٧] فقد أعطاها أمراً وجودياً، ولا يقال: أعطاها لا شيء، وما رأينا شيئاً أعطاها بلا خلاف إلاّ التمكّن الذي هو وسعها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٦].

وما يدرى لماذا يرجع هذا التمكن وهذا الوسع هل لأحدهما أعني الإرادة أو القدرة أو لأمر زائد عليهما أو لهما؟ ولا يعرف ذلك إلاّ بالكشف، ولا يتمكن لنا إظهار الحق في هذه المسألة، لأن ذلك لا يرفع الخلاف من العالم فيه كما ارتفع عندنا الخلاف فيها بالكشف، وكيف يرتفع الخلاف من العالم والمسألة معقولة؟ وكل مسألة معقولة لا بدّ من الخلاف فيها

لاختلاف الفطر في النظر، فقد عرفت مسح الرأس ما هو في هذه الطريقة وبقي من حكمه المسح على العمامة وما في ذلك من الحكم.

وصل في المسح على العمامة: فمن علماء الشريعة من أجاز المسح على العمامة ومنع من ذلك جماعة، فالذي منع لأنه خلاف مدلول الآية فإنه لا يفهم من الرأس العمامة فإن تغطية الرأس أمر عارض والمجيز ذلك لأجل ورود الخبر الوارد في مسلم وهو حديث قد تكلم فيه وقال فيه أبو عمر بن عبد البر إنَّه معلول.

وصل مسح العمامة في الباطن: وأما حكم المسح على العمامة في الباطن فاعلم أن الأمور العوارض لا يعارض بها الأصول ولا تقدح فيها، فالذي ينبغي لك أن تنظر ما السبب الموجب لطرد ذلك العارض، فلا يخلو إما أن يكون مما يستغنى عنه أو يكون مما يحصل الضرر بفقده فلا يستغنى عنه، فإن استغني عنه فلا حكم له في إزالة حكم الأصل، وإن لم يستغن عنه وحصل الضرر بفقده كان حكمه حكم الأصل وناب منابه، وإن بقي من الأصل جزء ما ينبغي أن يراعى ذلك الجزء الذي بقي ولا بد ويبقى ما بقي من الأصل ينوب عنه هذا الأمر العارض الذي يحصل الضرر بفقده، هذا مذهبنا فيه، ولهذا ورد في الحديث الذي ذكرنا أنه معلول عند بعض علماء هذا الشأن أن المسح وقع على الناصية والعمامة معاً، فقد مسّ الماء الشعر، فقد حصل حكم الأصل في مذهب من يقول بمسح بعض الرأس، فلو لبس العمامة للزينة لم يجز له المسح عليها، بخلاف المريض الذي يشدّ العمامة على رأسه لمرضه، فما ورد ما يقاوم نص القرآن في هذه المسألة.

إيضاح: فإذا عرض لأهل هذه الطريقة عارض يقدح في الأصل كفعل السبب للمتجرد عن الأسباب أو التبختر والرياسة في الحرب فإن كلامنا في مسح الرأس وله التواضع والتكبّر ضرب المثل به أولى ليصل فهم السامع إلى المقصود ممّا يريده في هذه العبادة، فإن أثر ذلك الزهو إظهار الكبر في عبودية الإنسان، فنسيان كبرياء ربّه عليه وعزّته سبحانه وحجبه عن ذلك فلا يفعل ويطرح الكبرياء عن نفسه ولا بدّ، ولا يجوز له التكبّر في ذلك الموطن لقدحه في الأصل وإن لم يؤثر في نفسه، بل ذلك أمر ظاهر في عين العدوّ، وهو في نفسه في ذلّته وافتقاره جاز له صورة التكبّر في الظاهر لقرينة الحال بحكم الموطن فإنه لم يؤثر في الأصل، هكذا حكم المسح على العمامة عندنا فاعلم ذلك، فقد علمت حكم المسح على العمامة في الباطن ما هو، وكذلك المسح ببعض اليد على العمامة، وهو إن قدح أخذك للسبب في اعتمادك على الله بقلبك فلا تأخذه ولا تستعمله ما لم يؤدّ إلى ما هو أعظم منه في البعد عن الله، وإن لم يؤثر في الاعتماد عليه فامسح ببعض يدك ولا حرج عليك، فإن طرح السبب من اليد بعض أفعال اليد لأن مجموع اليد في المعنى أمور كثيرة فإنها تتصرّف تصرّفات كثيرة مختلفات المعاني في الأمور المشروعة والأحكام فإن لها القبض والبسط والاعتدال، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وهو كناية عن البخل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [سورة

الإسراء: الآية ٢٩] وهو كناية عن السرف، وكذلك مدح قوماً بمثل هذا فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [سورة الفرقان: الآية ٦٧] وهو العدل في الإنفاق، وكذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٩٥] وهو هنا البخل، فنسب ذلك كله إلى الأيدي، فلهذا قلنا لها أفعال كثيرة، ولولا وجود الكثرة ما صحّت البعضية لأن الواحد لا يتبعض.

وصل في توقيت المسح على الرأس: بقي من تحقيق هذه المسألة التوقيت في المسح على الرأس هل في تكراره فضيلة أم لا؟ فمن الناس من قال: إنه لا فضيلة فيه. ومنهم من قال: إن فيه فضيلة، وهذا يستحب في جميع أفعال الوضوء في جملة أعضائه سواء، غير أنه يقوى في بعض الأعضاء، ويضعف في بعض الأعضاء أعني التكرار، ولا خلاف في وجوب الواحدة إذا عمّت العضو، فأمّا مذهبنا في الأصل فلا تكرار في العالم للاتساع الإلهيّ فنمنع هذا اللفظ ولا نمنع وجود الأمثال بالتشابه الصوريّ، فنعلم قطعاً أن الحركات يشبه بعضها بعضاً في الصورة، وإن كانت كل واحدة منها ليست عين الأخرى، فمذهبنا أن ننظر حكم الشارع في ذلك، فإن عدد بالأمثال عددنا بالأمثال كما تقول عقيب الصلاة: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، فمثل هذا لا نمنعه، فقد يقع التعدّد في عمل الوضوء تأكيداً لإزالة حكم الغفلات السريعة الحكم في الإنسان فعلى هذا يكون في التكرار فضيلة، فإن تيقن بالحضور فلا فضيلة، فإن الفضل هو الزائد وما زاد هذا المتوضىء حكماً بوجود غفلة أو سهو فيكرر فلم تصح الزيادة، ولكن الصحيح عندنا أن التكرار فيه فضيلة لأنه نور على قدر ما حدّه الشارع المبين للأحكام، وقد ورد في الكتاب والسنّة في تشبيه نور الله بالمصباح في الزجاجة في المشكاة الآية بكمالها، وقال في آخرها: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ [سورة النور: الآية ٣٥] أي ورد في نور على نور كالدليلين والثلاثة على المدلول الواحد وقال رسول الله ﷺ في الوضوء على الوضوء ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ ولا فرق بين ورود الوضوء على الوضوء وبين ورود الغرفة الثانية الواردة على الأولى في الوضوء، وتكرار العمل من العامل يوجب تكرار الثواب والتجلي، فأما في الأعضاء كلها فالثابت التكرار، وما كان الخلاف إلاَّ في الرأس والأذنين والرجلين، وقد أومأنا إلى ما ينبغي في ذلك.

باب مسح الأذنين وتجديد الماء لهما

اختلف الناس في مسح الأذنين وتجديد الماء لهما، فمن قائل: إنَّه سنّة. ومن قائل: إنه فرض. ومن قائل: بتجديد الماء لهما. ومن قائل: لا يجدد لهما الماء. وهل تفرد بالمسح وحدها أو تمسح مع الرأس خاصة؟ أو تمسح مع الوجه خاصة؟ أو يمسح ما أقبل منهما مع الوجه وما أدبر منهما مع الرأس؟ ولكل حالة من هذه الأحوال قائل بها.

وصل في حكمهما في الباطن: فأما حكمهما في الباطن: فإنه عضو مستقل يجب تجديد الماء له فيمسح باستماع القول الأحسن ولا بدّ، ويقع التفاضل في الأحسن فثم حسن

وأحسن، وأعلاه حسناً ذكر الله بالقرآن، فيجمع بين الحسنين، فليس أعلى من سماع ذكر الله من القرآن مثل كل آية لا يكون مدلولها إلاَّ الله، هذا أعني بذكر الله من القرآن، وما كل آي القرآن يتضمن ذكر الله فإن فيه الأحكام المشروعة، وفيه قصص الفراعنة وحكايات أقوالهم وكفرهم، وإن كان فيه الأجر العظيم من حيث ما هو قرآن بالإصغاء إلى القارىء إذا قرأه أو بإصغاء الإنسان إلى نفسه إذا تلاه، ولكن ذكر الله في القرآن أحسن وأتمّ من حكاية قول الكافر في الله ما لا ينبغي له في القرآن أيضاً. وأما ما أقبل من ظاهر الأذن وما أدبر فهو ما ظهر من حكم ذلك الذكر من القرآن وما بطن، وما أسرّ منه وما أعلن، وما فهم منه وما جهل، فسلم كلمات المتشابه في حق الله إلى الله فهي ممّا أدبر من باطن الأذن، فتسلم إلى مراد الله تعالىٰ فيها حين تسمعها الأذن تتلى، وما علم كالآيات المحكمات في حق الله وما تدل عليه من الأكوان فهي ممّا أقبل من ظاهر الأذن فيعلم مراد الله بها، فيكون الحكم بحسب ما تعلق به العلم، فاعمل بحسب ما أشرنا به إليك في هذا التفصيل، والأولى أن يكون حكم الأذنين حكم المضمضة والاستنشاق والاستنثار.

باب غسل الرجلين

اعلم أن صورتها في توقيت الغسل بالأعداد صورة الرأس وقد ذكرنا ذلك، اتفق العلماء على أن الرجلين من أعضاء الوضوء، واختلفوا في صورة طهارتها هل ذلك بالغسل أو بالمسح أو بالتخيير بينهما؟ فأيّ شيء فعل منهما فقد سقط عنه الآخر وأدّى الواجب هذا إذا لم يكن عليهما خف، ومذهبنا التخيير والجمع أولى، وما من قول إلاَّ وبه قائل، فالمسح بظاهر الكتاب والغسل بالسنّة ومحتمل الآية بالعدول عن الظاهر منها.

وصل حكم الرجلين في الباطن: وأما حكم ذلك في الباطن فاعلم أن السعي إلى الجماعات وكثرة الخطى إلى المساجد والثبات يوم الزحف ممّا تطهر به الأقدام، فلتكن طهارتك رجليك بما ذكرناه وأمثاله، ولا تمش بالنميمة بين الناس ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [سورة لقمان: الآية ١٨] ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [سورة لقمان: الآية ١٩] ومن هذا ما هو فرض أعني من هذه الأفعال بمنزلة المرة الواحدة في غسل عضو الوضوء الرجل وغيره ومنه ما هو سنّة وهو ما زاد على الفرض وهو مشيك، فيما ندبك الشرع إلى السعي فيه وما أوجبه عليك، فالواجب عليك نقل الأقدام إلى مصلاك والمندوب والمستحب والسنّة وما شئت فقل من ذلك مثل نقل الأقدام إلى المساجد من قرب وبعد، فإن ذلك ليس بواجب، وإن كان الواجب من ذلك عند بعض الناس مسجداً لا بعينه وجماعة لا بعينها، فعلى هذا يكون غسل رجليك في الباطن من طريق المعنى.

واعلم أن الغسل يتضمن المسح بوجه، فمن غسل فقد اندرج المسح فيه كاندراج نور الكواكب في نور الشمس، ومن مسح فلم يغسل إلاَّ في مذهب من يرى وينقل عن العرب أن المسح لغة في الغسل فيكون من الألفاظ المترادفة، والصحيح في المعنى في حكم الباطن أن

يستعمل المسح فيما يقتضي الخصوص من الأعمال والغسل فيما يقتضي العموم هذه هي الطريقة المثلى، ولهذا ذهبنا إلى التخيير بحسب الوقت فإنه قد يكون يسعى إلى فضيلة خاصة في حاجة معينة لشخص بعينه فذلك بمنزلة المسح، وقد يسعى إلى الملك في حاجة تعم جميع الرعايا، أو حاجات فيدخل ذلك الشخص في هذا العموم، فهذا بمنزلة الغسل الذي اندرج فيه المسح.

بيان وإتمام: وأما القراءة في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] بفتح اللام وكسرها من أجل حرف الواو على أن يكون عطفاً على الممسوح بالخفض وعلى المغسول بالفتح، فمذهبنا أن الفتح في اللام لا يخرجه عن الممسوح، فإن هذه الواو قد تكون واو مع، وواو المعية تنصب تقول: قام زيد وعمراً واستوى الماء والخشبةَ، وما أنت وقصعةً من ثريد، ومررت بزيد وعمراً تريد مع عمرو، وكذلك من قرأ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بفتح اللام فحجة من يقول بالمسح في هذه الآية أقوى لأنه يشارك القائل بالغسل في الدلالة التي اعتبرها وهي فتح اللام ولم يشاركه من يقول بالغسل في خفض اللام، فمن أصحابنا من يرجح الخاص على العام، ومنهم من يرجح العام على الخاص كل ذلك مطلقاً، ومذهبنا نحن على غير ذلك إنما نمشي مع الحق بحكم الحال، فنعمّم حيث عمّم، ونخصّص حيث خصّص، ولا نحدث حكماً فإنه من أحدث حكماً فقد أحدث في نفسه ربوبية، ومن أحدث في نفسه ربوبية فقد انتقص من عبوديته بقدر تلك المسألة، وإذا انتقص من عبوديته بقدر ذلك ينقص من تجلي الحق له، وإذا انتقص من تجلي الحق له انتقص علمه بربه، وإذا انتقص علمه بربّه جهل منه سبحانه وتعالىٰ بقدر ما نقصه، فإن ظهر لذلك الذي نقصه حكم في العالم أو في عالمه لم يعرفه فلهذا كان مذهبنا أن لا نحدث حكماً جملة واحدة.

باب في ترتيب أفعال الوضوء

اختلف العلماء في ترتيب أفعال الوضوء على ما ورد في نسق الآية، فمن قائل: بوجوب الترتيب. ومن قائل: بعدم وجوبه، وهذا في الأفعال المفروضة. وأمّا في ترتيب الأفعال المفروضة مع الأفعال المسنونة فاختلافهم في ذلك بين سنّة واستحباب.

وصل في حكم ذلك في الباطن: وأما حكم ذلك في الباطن فلا ترتيب، إنما تفعل من ذلك بحسب ما تعين عليك في الوقت، فإن تعين عليك ما يناسب رأسك فعلت به وبدأت به وكذلك ما بقي، وسواء كان ذلك في السنن من الأفعال أو في الفرائض فالحكم للوقت.

باب في الموالاة في الوضوء

فمن قائل: إن الموالاة فرض مع الذكر وعدم العذر ساقط مع النسيان ومع الذكر عند العذر ما لم يتفاحش التفاوت. ومن قائل: إن الموالاة ليست بواجبة وهذا كله من حقيقة في نسق الآية فقد يعطف بالواو في الأشياء المتلاحقة على الفور، وقد يعطف بها الأشياء المتراخية، وقد يعطف بها ويكون الفعلان معاً وهذا لا يسوغ في الوضوء إلاّ أن ينغمس في نهر أو يصب عليه أشخاص الماء في حال واحدة لكل عضو.

وصل الموالاة في الباطن: ومذهبنا في حكم الموالاة في الباطن أنها ليست بواجبة وذلك مثل الترتيب سواء، فإنا نفعل من ذلك بحسب ما يقتضيه الوقت، وقد ذكرنا نظير هذه المسألة في رسالة الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من الأسرار، فأعمالنا في هذه الطريق بحسب حكم الوقت وما يعطي، فإن الإنسان قد كتبت عليه الغفلات فلا يتمكن له مع ذلك الموالاة ولكن ساعة وساعة، فليس في مقدور البشر مراقبة الله في السرّ والعلن مع الأنفاس، فالموالاة على العموم لا تحصل إلاَّ أن يبذل المجهود من نفسه في الاستحضار والمراقبة في جميع أفعاله، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [سورة المعارج: الآية ٢٣] والمراد بها أنهم كلما جاء وقتها فعلوها وإن كان بين الصلاتين أمور، فلهذا حصل الدوام في فعل خاص مربوط بأوقات متباينة، وأما مع استصحاب الأنفاس فذلك من خصائص الملأ الأعلى الذين ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٠] فهذه هي الموالاة وإن حصلت لبعض رجال الله فنادرة الوقوع. وأما قول عائشة: «كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه» فإن كانت نقلته عن رسول الله ﷺ فلا نشك فيه، وإن كانت أرادت بذلك أن أفعاله الظاهرة كلها ما وقع منه مباح قط وأنه لم يزل في واجب أو مندوب فذلك ممكن وهو ظاهر من مرتبته، فإنه معلم أمّته بحركاته وسكناته للاقتداء فهو ذاكر على الدوام، وأمّا باطنه عليه السلام فلا علم لها به إلاَّ بإخباره ﷺ، ومع هذا يتصوّر تحصيله عندنا مع التصرّف في المباح مع حضوره فيه أنه مباح، وكذا إذا أحضر حكم الشرع في جميع حركاته وسكناته بهذه المثابة فيكون ممّن حصل الموالاة في عبادته. انتهى الجزء الحادي والثلاثون.

(الجزء الثاني والثلاثون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باب في المسح على الخفين

أما المسح على الخفين فاختلف علماء الشريعة فيه، فمن قائل: بجوازه على الإطلاق. ومن قائل: بمنع جوازه على الإطلاق كابن عباس ورواية عن مالك. ومن قائل: بجواز المسح عليهما في السفر دون الحضر.

وصل في حكم الباطن فيه: فأما حكم الباطن في المسح على الخفين فاعلم أنه أمر يعرض للشخص يشق على من عرض له انتزاعه كما يشق انتزاع الخف على لابسه، فانتقل حكم الطهارة إليه فمسح عليه، ولما كانت الطهارة تنزيهاً وكان الحق هو الذي يقصده المنزّه بالتنزيه كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ١٨٠] والعزّة المنع فذكر أنه امتنعت ذاته أن تكون محلاً لما وصفه به الملحدون، فالحق منزّه الذات لنفسه ما تنزّه بتنزيه عبده إياه، فتنزيه العلماء بالله الحق سبحانه إنما هو علم لا عمل، إذ لو كان التنزيه من الحق الههم عملاً لكان الله الذي هو المنزّه سبحانه محلاً لأثر هذا العمل، فتفطن لهذه الإشارة فإنها في غاية اللطف والحسن، فهو سبحانه لا يقبل تنزيه عباده من حيث إنهم

عاملون فإنه لا يرى التنزيه عملاً إلاَّ الجاهل من العباد، فإن العالم نراه علماً، وإذا تكلم به إنما تكلم به على جهة التعريف ممّا هو الأمر عليه في نفسه الذي هو قوله وذكره، فأثر عمله إنما هو في علمه بتنزيه خالقه، فأخرجه بالقول والذكر من القوّة إلى الفعل، فربما أثر ذلك في نفوس السامعين ممّن كان لا يعتقد في الله أنه بذلك النعت من التنزيه فالعبد حجاب على الحق، فإن ظاهر الآثار إنما تدرك في العموم وتنسب للأسباب التي وضعها الحق ولهذا يقول العبد: فعلت وصنعت وصمت وصليت، ويضيف إلى نفسه جميع أفعاله كلها لحجابه عن خالقها فيه ومنه ومجريها، فكما صار الخفّ حجاباً بين المتوضىء وبين إيصال الوضوء إلى الرجل وانتقل حكم الطهارة إلى الخف كذلك تنزيه الإنسان خالقه وهو الطهارة والتقديس لما لم يتمكن في نفس الأمر إيصال أثر ذلك التنزيه إلى الحق لأنه منزّه لذاته، انتقل حكم أثر ذلك التنزيه إلى الإنسان المنزّه الذي هو حجاب على خالقه، من حيث أن للتنزيه العمليّ أثراً في المنزّه وقبله الإنسان كما قبل الخف الطهارة بالمسح المشروع، فيكون العبد هو الذي نزّه نفسه عن الجهل الذي قام بنفس الجاهل الذي نسب إلى الحق ما لا يليق به ولا تقبله ذاته، يقول الله في الخبر الصحيح: إنه رجل العبد التي يسعى بها والحسّ إنما يبصر العبد يسعى برجله فلما لبس الخف وهو عين ذات العبد انتقل حكم الطهارة إليه إنما هي أعمالكم تردّ عليكم، فمتعلق الحكم الخف.

ومن هذا الباب كان جواز المسح على الإطلاق سفراً وحضراً، فالحضر منه هو التنزيه الذي يعود عليك فتقول: سبحاني في هذه الحالة كما نقل عن رجال الله فكان مشهد من قال: سبحاني هذا المقام الذي ذكرناه، والسفر هو التنزيه الذي ينتقل من تلفظك به في التعليم إلى سمع المتعلم السامع فيؤثر في نفس السامع حصول ذلك العلم فتطهر محله من الجهل الذي كان عليه في تلك المسألة هذا القدر من انتقاله من العالم المعلم إلى المتعلم، يسمّى سفراً لأنه أسفر له بهذا التعليم بما هو الأمر عليه فطهر محله.

ومن هذا الباب أيضاً أن لباس الخف وما في معناه من جرموق وجورب ممّا يلبس ويستر حدّ الوضوء من الرجل عرفاً وعادة، ولما كان من أسماء الرجل في اللسان القدم كان هذا ممّا يقوي القدمية في القدم إذ كان القدم يقال في اللسان بالاشتراك إذ هو عبارة عن الثبوت، يقال: لفلان في هذا الأمر سابقة قدم يريد أن له أساساً ثابتاً قديماً في هذا الأمر، كما يقال في الرجل بالاشتراك أيضاً أعني إطلاق هذه اللفظة في اللسان يقال: رجل من جراد أي قطعة وجماعة من جراد، فإذا قال قائل: إنّ الرجل يسخن بالخف يعلم قطعاً أنه يريد العضو الخاص المعروف، فقرائن الأحوال ودلالات الألفاظ بالصفات تعين ما كان مبهماً بالاشتراك، فانتقل حكم الطهارة إلى الخف بعدما كان متعلقها الرجل، ولكن إذا كان ملبوساً فيطهر ممّا يمكن أن يتعلق به ممّا يمنع من ذلك حكماً وعيناً، وكذلك لما نسب القدم إلى الله تعالىٰ في حديث يضع الجبار فيها قدمه ربما وقع في نفس بعض العقلاء أن نسبة القدم إلى الله تعالىٰ ما هو على حدّ ما ينسب إلى الإنسان أو لكل ذي رجل وقدم، وأن المراد به مثلاً أمر آخر،

وغفلوا عن أقدام المتجسدين من الأرواح، فأزال الله سبحانه هذا التوهّم من القائل به بما نسب إلى نفسه من الهرولة التي هي الإسراع في المشي مع تقدّم وصف القدم، فألحق بمن يمشي على رجلين لا بمن يمشي على البطن مع التحقق بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] لا بدّ من ذلك فلا نصفه ولا ننسب إليه إلاّ ما نسبه إلى نفسه أو وصف نفسه به، فما نسب الهرولة إليه إلاّ ليعلم أنه أراد القدم الذي يقبل صفة السعي وحكمه على ما يليق بجلاله لأنه المجهول الذي لا يعرف ولا يقال هو النكرة التي لا تتعرّف، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [سورة طه: الآية ١١٠] وما نقول أراد بنسبة القدم ما عينته المنزّهة على زعمها واقتصرت عليه فجاء بالهرولة لإثبات القدمية وأقامه مقام الخف للقدم في إزالة الاشتراك المتوهم فانتقل التنزيه إلى الهرولة من القدم، وقد كان القائل بالتنزيه مشتغلاً بتنزيه القدم، فلما جاءت بالهرولة انتقل التنزيه إليها، كما انتقل حكم طهارة القدم إلى الخف فنزّه العبد ربّه عن الهرولة المعتادة في العرف وأنها على حسب ما يليق بجلاله سبحانه فإنه لا يقدر أن لا يصفه بها إذ كان الحق أعلم بنفسه وقد أثبت لنفسه هذه الصفة، فمن ردّ نسبتها إليه فليس بمؤمن، ولكن الذي يجب عليه أن يردّ العلم بها إلى الله أعني علم النسبة. وأمّا معقولية الهرولة فما خاطب أهل اللسان إلاّ بما يعقلونه، فالهرولة معقولة وصورة النسبة مجهولة، وكذلك جميع ما وصف به نفسه ممّا توصف به المحدثات، وليس الغرض ممّا ذكرنا إلاّ جواز انتقال الطهارة من محل إلى محل آخر بضرب من المناسبة والشبه، وإنما قلنا الجواز لا بالوجوب فإن الوجوب يناقض الجواز، ولصاحب الخف أن يجرّد خفّه ويغسل رجليه شرعاً أو يمسحها بالماء على ما يقتضيه مذهبه في ذلك ولا مانع له من ذلك، وكذلك هذا العاقل قد يبقى على تنزيهه للقدم ولا ينتقل إلى الهرولة ويزيلها عن هذه القدم بحكم ما يسبق إلى الفهم، إذ أبين أن القدم ما تشبه نسبتها إلى الحق نسبة أقدامنا إلينا من كل الوجوه، فلهذا لم يتعلق الوجوب بالمسح وكان حكمه الجواز.

وصل: وأمّا من أجازه سفراً ومنعه في الحضر فذلك إذا كان التنزيه عملاً فلا أثر له إلاّ في المتعلم السامع القابل، فيسافر التنزيه من العالم المعلم إلى المتعلم على راحلة التلفظ والكلام بعبارة أو إشارة من المعلم إلى المتعلم.

وصل: وأمّا من منع جوازه على الإطلاق فإن حقيقة التنزيه إنما هي لله سبحانه فإنه المنزّه لذاته والعبد لا يكون منزّهاً أبداً ولا يصحّ، وإن تنزّه عن شيء ما لم يتنزّه عن شيء آخر فمن حقيقته أنه لا يقبل التنزيه على الإطلاق، وإذا كان بهذه الصفة لا يجوز تنزيهه فإنه خلاف العلم، والأمور العارضة لا أثر لها في الحقائق، فإن قبول العبد لآثار التنزيه يدل على عدم التنزيه عن قبول الآثار فيه، فهذا وجه منع جواز المسح على الخف وما في معناه على الإطلاق إن فهمت.

وصل وتتميم: وأمّا الإشارة بالخفين فإن المراد بهما النشأتان: نشأة الجسم، ونشأة الروح، ولكل نشأة ما يليق بها من الطهارة فافهم.

باب تحديد محل المسح من الخف وما في معناه

اختلف علماء الشريعة في تحديد المسح على الخف، فمن قائل: إن القدر الواجب من ذلك مسح أعلى الخف وما زاد على ذلك فمستحب وهو مسح أسفل الخف، يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح أعلى الخف. ومن قائل: بوجوب مسح ظهورهما وبطونهما. ومن قائل: بوجوب مسح ظهورهما فقط ولا يستحب صاحب هذا القول مسح بطونهما. ومن قائل: إن الواجب مسح باطن الخف ومسح الأعلى مستحب وهو قول أشهب.

وصل في حكم الباطن في ذلك: اعلم أن التنزيه المعبر عنه هنا بطهارة المسح متعلقه إمّا الحق كما قدمنا، وإمّا العبد الذي نزّهه، والقسمة منحصرة فما ثم إلاّ عبد ورب وخالق ومخلوق، ولنا في هذه المسألة لفظة أعلى وأسفل، وصفة العلو لله تعالىٰ لأنه رفيع الدرجات لذاته قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [سورة الأعلىٰ: الآية ١] وما في القرآن أقرب نسبة إلى مسح أعلى الخف من هذه الآية. والسفل لنا، وكذلك أيضاً ظاهر الخف وباطنه أعني هاتين اللفظتين قد يكون الحق له حكم الظاهر والباطن، وقد يكون حكم الظاهر له في خرق العوائد، وحكم الباطن له في نفس العوائد وهي أكثر الآيات الدالة على الله ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٥] فتارة يعلق التنزيه بالأعلى سبحانه وتعالىٰ حقيقة وهو حد الواجب من ذلك. ويستحب إطلاق التنزيه على العبد من حيث إن عمله لذلك يعود عليه، وهذا على مذهب من يرى أن الواجب مسح أعلى الخف ويستحب مسح أسفله.

وتارة يعلق التنزيه بالحق سبحانه ظاهراً وباطناً، وهو الذي لا يرى في الوجود إلاّ الله لغلبة سلطان المشاهدة والتجليات عليه فيرى الحق ظاهراً وباطناً. فلا يقع منه تنزيه إلاّ على الحق سبحانه، والتنزيه نسبة عدمية لا وجودية، وهو الذي يوجب مسح ظهور الخفين وبطونهما، وتارة يعلق التنزيه بالله تعالىٰ لكماله في ذاته، ولا يستحب تنزيه الخلق للنقص الذاتيّ الذي هو له فيقع في الكذب إن نزّهه، فيرى أنه لو تنزّه الممكن يوماً ما من جهة ما لصفة كمال هو عليها لكان من حيث تلك الصفة غنياً عن الله ومقاوماً له، ومحال على الخلق أن يكونوا على صفة يكون لهم بها الغنى عن الله فإنهم من جميع الوجوه فقراء إلى الله ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٥] فمنع من استحباب مسح أسفل الخف وقال: ما ثم منزّه إلاّ الله العليّ الظاهر إلى عباده بنعوت الجلال، وهذا كما قلنا مذهب من يرى مسح أعلى الخف ولا يستحب مسح أسفله.

وتارة يعلّق التنزيه أعني وجوبه من اسمه الباطن ويقول: إن الباطن محل يبعد العثور على ما يستحقه من نعوت الجلال لبطونه، فيكون الواجب تنزيه الحق في اسمه الباطن من أثر الحجاب الذي حكم عليه أن يكون باطناً لا يدرك، والله أعلى وأجل أن يحوطه حجاب، فوجب تنزيهه من حيث اسمه الباطن، فهذا وجه من أوجب مسح الباطن من الخف كأشهب، واستحبّ مسح أعلاه وهو الاسم الظاهر فيقول: واستحبّ تنزيه الحق في اسمه الظاهر وهو

تجليه في الصورة لعباده فينزّهه عن التقييد بها، ولكن التنزيه الذي لا يخرجه عن العلم أنه عيّن تلك الصورة فإنه أعلم بنفسه من العقل به ومن كل عالم سواه به، وقد قال عن نفسه إنه هو الذي يتجلّى لعباده في تلك الصورة كما ذكره مسلم في صحيحه، فيكون تنزيهه عند ذلك أنه لا يتقيد بصورة أي لا تقيده صورة بل يتجلّى في أيّ صورة يظهر بها لعباده، ومن هذه الحقيقة التي هو عليها في نفسه ذكر لنا في خلقنا بعد تسويتنا وتعديلنا في أيّ صورة ما شاء ركبنا، كما إنه في أي صورة شاء تجلّى لعباده، وهنا سرّ إلهيّ نبّهك عليه لتعرفه به، فنزّهه صاحب هذا المذهب في ظهوره استحباباً عن دوام التجلّي في تلك الصورة بالإقامة فيها في عينك فافهم فهذا حكم الباطن في تحديد المحل.

باب في نوع محل المسح وهو ما يستر به الرجل من خف أو جورب

اعلم أن القائلين بالمسح على الخفين متفقون على المسح عليهما بلا شك، واختلفوا في المسح على الجوربين، فمن قائل: بالمنع على الإطلاق. ومن قائل: بالجواز على الإطلاق. ومن قائل: بالجواز إذا كان على صفة خاصة. فأما أن يكون من الكثافة والثخانة بحيث أن لا يصل ماء المسح إلى الرجل أو يكون مبطناً بجلد يجوز المشي فيه أي يمكن المشي فيه.

وصل حكمه في الباطن: فأما حكم الباطن في ذلك فقد تقدّم في الخف وبقي حكم الجورب، فالمقرّر أن الجورب مثل الخفّ في الصفة الحجابية فإن العبد حجاب دون خالقه، ولهذا ورد: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**». فإنه الدليل عليه، والدليل والمدلول وإن ارتبطا بالوجه الخاص فهما ضدّان لا يجتمعان، وقد قلنا فيما تقدم أن الخف هو أدلّ على الرجل في إزالة الاشتراك من لفظة الرجل التي تطلق عليه وكذلك الهرولة وقد مضى ذلك، إلاّ أن الجورب وإن ستر الرجل لا يقوى قوّة الخف للتخلّل الذي فيه، فإن الماء ينفذ ويتخلل مسامه سريعاً، والخف ليس كذلك، وحكمه في الباطن أن من العباد عباد الله من يكون في الدلالة على الله أقوى من غيره فهو بمنزلة الجورب، كما ثبت في الأثر عن الله في صفة أولياء الله: حدثني غير واحد عمّن حدّثه يبلغ به النبيّ ﷺ: أَنَّهُ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَوْلِياءُ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**» ذكره الحافظ أبو نعيم في كتاب حلية الأولياء له، وذلك لما قلناه ممّا يرى عليهم من قوّة الدلالة على الله تعالىٰ من الاستهتار بذكره سبحانه، وما هم عليه من الذلّة والطاعة والافتقار مع الأنفاس إلى الله، فإذا أراد الناس أن ينزهوهم لم يتمكن لهم تنزيههم إلاّ بتنزيه الله، فإنهم ما يذكرونهم إلاّ بالله لما تعطيهم أحوالهم الصادقة مع الله، فإن كان الخف مبطناً بجلد فهو الملامي الذي يستر نفسه، وحاله مع الله عن العالم السفليّ أن يدركوا مرتبة ولايته عند الله كما يستتر الجورب عن الأرض أن تدركه وتصيبه بالجلد الذي حال بين الأرض وبينه، وهو الصفة التي استتر بها هذا الملامي من المباحات عن العالم الأسفل المحجوب فلم يدركوا منه إلاّ تلك الصفة التي لم يتميز بها عن

عامّة المؤمنين وهو من خلف تلك الصفة في مقام الولاية مع الله، وبقي أعلى الجورب من جانب الأعلى مع الله سبحانه بلا حائل بينه وبين ربّه عزّ وجلّ، وقد فتحت لك باب الاعتبار شرعاً وهو الجواز من الصورة التي ظهر حكمها في الحسّ إلى ما يناسبه في ذاتك، أو في جناب الحق ممّا يدلّ على الحق، وهذا معنى الاعتبار فإنه من عبرت الوادي إذا قطعته وجزته.

باب في صفة الممسوح عليه

أجمع من يقول بجواز المسح على جواز المسح على الخف الصحيح واختلفوا في المخرق، فمن قائل: بجوازه إذا كان الخرق يسيراً من غير حدّ. ومن قائل: بتحديد الخرق اليسير بثلاثة أصابع. ومن قائل: بجوازه ما دام ينطلق عليه اسم الخف وإن تفاحش خرقه وهو الأوجه عندي. ومن قائل: بمنع المسح إذا كان الخرق في مقدّم الخف وإن كان يسيراً، والذي أقول به إن هذه المسألة لا أصل لها ولا نص فيها في كتاب ولا سنّة فكان الأوْلى إهمالها وأن لا نشتغل بها، وأن الحق في ذلك إذ وقد وقع في ذلك من الخلاف بين علماء الشريعة ما أحوجنا إلى الكلام فيها، وأن الحق في ذلك عندنا إنما هو مع من قال يجوز ما دام يسمّى خفاً.

وصل في حكم الباطن في ذلك: وهو أن نقول: إنما سمّي الخف خفاً من الخفاء لأنه يستر الرجل مطلقاً، فإذا انخرق وظهر من الرجل شيء مسح على ما ظهر منه ومسح على الخف وذلك ما دام يسمّى خفاً لا بدّ من هذا الشرط، وفيه سرّ عجيب للفطن المصيب أن الخافي هو الظاهر أيضاً يقول امرؤ القيس: خفاهنّ من أنفاقهنّ. أي أبرزهنّ وأظهرهنّ. وإنما قلنا بمسح ما ظهر لأنا قد أمرنا في كتاب الله بمسح الأرجل فإذا ظهر مسحناه. وأمّا في الباطن فظاهر الشريعة ستر على حقيقة حكم التوحيد بنسبة كل شيء إلى الله، فالطهارة في الشريعة متعلقها وهي أن يصحبها التوحيد بأن تراها حكم الله في خلقه لا حكم المخلوق مثل السياسات الحكمية، فالشرع حكم الله لا حكم العقل كما يراه بعضهم، فطهارة الشريعة رؤيتها من الله الواحد الحق، ولهذا لا ينبغي لنا أن نطعن في حكم مجتهد، لأن الشرع الذي هو حكم الله قد قرّر ذلك الحكم فهو شرع الله بتقريره إياه، وهي مسألة يقع في محظورها أصحاب المذاهب كلهم لعدم استحضارهم لما نبهنا عليه مع كونهم عالمين به ولكنهم غفلوا عن استحضاره فأساؤوا الأدب مع الله في ذلك حين فاز بذلك الأدباء من عباد الله، فمن خطأ مجتهداً بعينه فقد خطأ الحق فيما قرّره حكماً، فإذا انخرق الشرع فظهر في مسألة ما حكم من أحكام التوحيد ممّا تزيل حكم الشرع مطلقاً انتقل الحكم لطهارة ذلك التوحيد المؤثر في إزالة حكم الشريعة، كمن ينسب الأفعال كلها إلى الله من جميع الوجوه فلا يبالي فيما يظهر عليه من مخالفة أو موافقة، فمثل هذا التوحيد يجب التنزيه منه لظهور هذا الأثر فإنه خرق للشريعة ورفع لحكم الله. ، كما لا يجوز المسح مع زوال اسم الخف، فإن كان الخرق يبقي اسم

الخف عليه كان الحكم كما قرّرناه من المسح على الخف ومسح ما ظهر من الرجل وهو أن يبين في ذلك التوحيد المعين في هذه المسألة الوجه المشروع وهو أن نقول؛ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فالأعمال خلق لله مع كونها منسوبة إلينا فلم ينسبها من جميع الوجوه فلم يؤثر في المسح ويكون الحكم في ذلك كما قررناه، وأهل طريقنا اختلفوا في هذه المسألة اختلافاً كثيراً على صورة ما اختلف فيه أهل المسح على الخف سواء، فأما من حدّه بثلاثة أصابع فراعى ظهور التوحيد في ثلاث منازل وهو حكم الشرع في الإنسان في معناه وفي حسّه وفي خياله، فإذا عمّ التوحيد هذه الثلاثة لم يجز الأخذ به، وانتقل إلى مسح الرجل أو غسله كما ينتقل تنزيه الإنسان نفسه عن مثل هذا التوحيد حيث أزال حكم الشرع منه فحكم حكم من زال عنه اسم الخف.

باب في توقيت المسح

اختلف في ذلك، فمن قائل: بالتوقيت فيه ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم. ومن قائل: بأن لا توقيت وليمسح ما بدا له ما لم يقم مانع كالجنابة.

وصل حكمه في الباطن: فأمّا الحكم في ذلك في الباطن على مذهب القائل بالتوقيت، فقد قرّرنا في المسح على الخف في باب العالم والمتعلم أن ذلك سفر حيث انتقل الأمر من المعلم إلى المتعلم، وقد كان رسول الله ﷺ إذا علّم الناس شرائعهم كرّر الكلمة ثلاث مرات حتى تفهم عنه لأنه مأمور بالبيان والإبلاغ، هذا معنى مسح المسافر ثلاثاً. وأما توقيت الحاضر بيوم وليلة فإنه ليس له في نفسه إلاّ قيام ذلك الأمر فيعلمه فلا يعيد عليه لنفسه لأنه قد ظهر له وهو من نفسه على يقين وما هو على يقين من قبول غيره لذلك عند التعليم فيكرّره ثلاث مرّات ليتيقن أن قد فهم عنه، ومن لم يقل بالتحديد نظر إلى فطر المتعلمين، فمنهم من يفهم بأوّل مرّة، ومنهم من لا يفهم إلاّ بعد تفصيل وتكرار المرّة بعد المرّة حتى يفهم، فلا يوقت عدداً بعينه في حال تعليمه غيره الذي هو بمنزلة السفر، ولا ينظره في نفسه الذي هو بمنزلة الحضر، فإنه في نفسه قد يمكن أن يتصوّر فيما ظهر له أنه ربما يكون شبهة فيحقق النظر فيه مراراً فلا توقيت. وأما حكم الجنابة في إزالة الخف فالجنابة هي الغربة والجنيب الغريب، فإذا وقع في القلب أمر غريب يقدح في الشرع جرّد النظر في ذلك بالعقل دون الاستدلال بالشرع، مثل أن يخطر له خاطر البرهميّ المنكر للشريعة فلا يقبل دليل الشرع على إبطال هذا القول الذي خطر له فإنه محل النزاع، فلا بدّ أن ينزع من الاستدلال بالشرع إلى الاستدلال بما تعطيه أدلة النظر، وسواء وقع ذلك له كالحضر أو لغيره كالسفر، كما أن الجنب سواء كان مسافراً أو حاضراً لا بدّ من إزالة الخف.

باب في شرط المسح على الخفين

فمن قائل: إن من شرط المسح أن يكون الرجلان طاهرتين بطهر الوضوء. ومن قائل: إنه ليس من شرطه إلاّ طهارتهما من النجاسة وبه أقول والقول الأوّل أحوط. وبقي شرط آخر

أن لا يكون خف على خف، فمن قائل: بجواز المسح عليهما وبه أقول. ومن قائل: بالمنع وهكذا حكم الجرموق.

وصل في حكم الباطن في ذلك: وأما حكم الباطن في ذلك فإن الطهر المعقول في الباطن هو التنزيه كما قرّرناه عقلاً وشرعاً، وهذه الطهارة الخاصة للرجلين طهارة شرعية وقد وصف نفسه تعالىٰ بأنّ له الهرولة لمن أقبل إليه يسعى والسعي والهرولة من صفات الأرجل، فمن نزّه الحق عن الهرولة فقد أكذب الحق فيما وصف به نفسه، وإن كان العقل لا يقبل من حيث دليله هذه النسبة إليه تعالىٰ والإيمان يقبلها وينفي التشبيه بقوله تعالىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وبالدليل النظريّ، ولا تتأوّل الهرولة الإلهية بتضعيف الإقبال الإلٰهيّ على العبد وتأكيده ولا غير ذلك من ضروب التأويلات المنزّهة، وإنما تأوّل ذلك من تأوّله من العقلاء بتضاعف الإقبال الإلهيّ بجزيل الثواب على العبد إذا أتى إلى ربّه يسعى بالعبادات التي فيها المشي، كالسعي إلى المساجد، والسعي في الطواف، وإلى الطواف، وإلى الحج، وإلى عيادة المرضى، وإلى قضاء حوائج الناس، وتشييع الجنائز، وكل عبادة فيها سعي قرب محلها أو بعد، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الجمعة: الآية ٩] فطهر الوضوء وصف الحق بأنه يهرول، والطهر الذي هو النظافة هو تنزيه الحق أن لا يرفع عنه ما وصف به نفسه.

وأمّا ما لم يصف به نفسه ممّا هو من نعوت الممكنات فتنزيهه عن أن يوصف بشيء من ذلك هو للعقل، فالعقل تحت حكم الشرع إذا نطق الشرع في صفات الحق بما نطق، فليس له ردّ ذلك إن كان مؤمناً، ويكون المنطوق والموصوف بتلك الصفة قابلاً أي جائز القبول أو مجهول القبول، فيلزم العقل قبول الوصف المشروع وإن جهل قبول الموصوف له. ولهذا ذهبنا في طهر الرجلين إلى الطهر اللغويّ الذي هو النظافة والتنزيه من النجاسة، فلا يلزمنا شيء ممّا يتفرّع من هذه المسألة من المسائل على مذهب القائلين بطهر الوضوء. وأمّا إذا لبس خفاً على خف فهو وصف الحق نفسه بالهرولة فإن الهرولة صفة للسعي والسعي صفة للرجل، فقد يكون السعي بهرولة وقد لا يكون، وإذا كان هذا فالهرولة من صفات السعي، فبين الهرولة وبين القدم أمر آخر وهو السعي فهو كالخف على الخف، وقد تقدّم الكلام عليه فافهم.

باب في معرفة ناقض طهارة المسح على الخف

الاتفاق على أن نواقضها نواقض الوضوء كلها، وسيأتي بابه في هذا الباب فيما بعد. اختلف العلماء في نزع الخف هل هو ناقض للطهارة أم لا؟ فمن قائل: إنّ الطهارة تبطل ويستأنف الوضوء. ومن قائل: تبطل طهارة القدمين خاصة فيغسلهما ولا بدّ على ما تقدّم من الاختلاف في الموالاة. ومن قائل: لا يؤثر نزع الخف في طهارة القدم وبه أقول وإن استأنف الوضوء فهو أحوط ولا يؤثر في طهارته كلها إلاّ أن يحدث ما ينقض كما سيأتي.

وصل في حكم الباطن في ذلك: أمّا حكم الباطن فيمن قال تبطل الطهارة كلها فهو سريان التنزيه في الموصوف، فإذا قبل تنزيهاً بعينه قبل سائر ما يعقل فيه التنزيه، كذلك إن بطل تنزيه ما في حق الموصوف سرى البطلان في النعوت كلها نعوت التنزيه، ومن قال: تبطل طهارة الرجل خاصة هو أن يزيل الشرع عن الحق وصفاً ما على التعيين فلا يلزم منه إزالة كل وصف يقتضي التشبيه فإن الله سبحانه نزّه نفسه أن يلد وما نزّه نفسه عن أن يتردّد في الأمر يريد فعله، ولا نزّه نفسه عن التدبّر، ولا نزّه نفسه عن الغضب، ومن قائل بأنه على طهره وإن نزع الخف لا حكم له ولا تأثير في الطهارة التي كان موصوفاً بها في حال لبسه خفّه، يقول: وإن نزّه الحق نفسه عن أن يلد فالوصف له باق فإنه قال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة الزمر: الآية ٤] فأبقى الأمر على حكمه بقوله تعالىٰ: ﴿لَّوْ أَرَادَ﴾ وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦٨] وقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [سورة ق: الآية ٢٩] وهذا ردّ على من يقول: إن الإله لذاته أوجد الممكن لا لنسبة إرادة ولا سبق علم، والصحيح ما قاله الشارع، وإن لم تكن تلك النسبة أمراً وجودياً زائداً فاعلم ذلك.

أبواب المياه

قد تقدم الكلام في أوّل الباب في الفرق بين ماء الغيث وماء العيون وبيّنا من ذلك ما فيه غنية، فلنذكر في هذه الأبواب حكم ما نزعت إليه علماء الشريعة في الظاهر بما يناسبه من طهارة الباطن.

باب في مطلق المياه

أجمع العلماء على أن جميع المياه طاهرة في نفسها مطهرة غيرها إلاّ ماء البحر فإن فيه خلافاً، وكذلك أيضاً اتفقوا على أن ما يغيّر الماء ممّا لا ينفك عنه غالباً أنه لا يسلب عنه صفة التطهير إلاّ الماء الآجن، فإن ابن سيرين خالف فيه والذي أذهب إليه أن كل ما ينطلق عليه اسم الماء مطلقاً فإنه طاهر مطهر سواء كان ماء البحر أو الآجن، واتفقوا أيضاً على أن الماء الذي غيّرت النجاسة لونه أو طعمه أو ريحه أو كل هذه الأوصاف أنه لا تجوز به الطهارة، فإن لم يتغير الماء ولا واحد من أوصافه بقي على أصله من الطهارة والتطهير ولم يؤثر ما وقع فيه من النجاسة، إلاّ أني أعرف في هذه المسألة خلافاً في قليل الماء يقع فيه قليل النجاسة بحيث أن لا يتغير من أوصافه شيء.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأمّا حكم الباطن فيما ذكرناه فاعلم أن الماء هو الحياة التي تحيا بها القلوب فيحصل به الطهارة لكل قلب من الجهل، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢٢] هذا ضرب مثل في الكفر والإيمان والعلم والجهل. وأمّا ماء البحر الذي وقع فيه الخلاف الشاذ فكونه مخلوقاً من صفة الغضب والغضب يكون عنه الطرد والبعد في حق المغضوب عليه والطهارة مؤدّية إلى القرب والوصلة، فهذا سبب الخلاف في الباطن. وأمّا

العلة في الظاهر فتغير الطعم، فمن رأى أن الغضب لله يؤدي إلى القرب من الله والوصلة به رأى الوضوء بماء البحر وإليه أذهب، ومن اتسع في علم التوحيد ولم يلزم الأدب الشرعيّ فلم يغضب لله ولا لنفسه لم ير الوضوء بماء البحر لأنه مخلوق من الغضب فيخاف أن يؤثر فيه غضباً فتقوم به صفة الغضب وحاله لا تعطي ذلك، فإن التوحيد يمنعه من الغضب لأنه في نظره ما ثم من يغضب عليه لأحدية العين عنده في جميع الأفعال المنسوبة إلى العالم، إذ لو كان عنده مغضوب عليه لم يكن توحيد، فإن موجب الغضب إنما هو الفعل ولا فاعل إلاّ الله، وهذه المسألة من أشكل المسائل عند القوم وإن كانت عندنا هينة الخطب لمعرفتنا بمواضع الأدب الإلٰهيّ الذي شرعه لنا. ثم التخلّق بالأخلاق الإلهية ومنها: الغضب الذي وصف به نفسه في كتابه فقال تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [سورة النساء: الآية ٩٣] وقوله في آية اللعان: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ﴾ [سورة النور: الآية ٩] وقد جاءت السنّة بأن الله يغضب يوم القيامة غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، فهذا الذي لا يغضب لا يرى إلاّ الله فيحكم عليه حاله وهذا مقام الحيرة، فالويل له إن غضب هنا، والويل له إن لم يغضب في الآخرة، فهو محجوج بكل حال دنيا وآخرة، والغضب لله أسلم وأنجى وأحسن بالإنسان فإنّ فيه لزوم الأدب المشروع.

ولما كان الغضب في أصل جبلة الإنسان كالجبن والحرص والشره بين الحق له مصارف إذا وقع من العبد واتصف به وللتسليم محال ومواضع قد شرعت التزم بها الأدباء حالاً وغاب عنها أصحاب الأحوال، ولعدم التسليم محال ومواضع قد شرعت، فالأديب هو الواقف من غير حكم حتى يحكم الشارع الحق ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية ٨٧] فإذا حكم وقف الأديب حيث حكم لا يزيد ولا ينقص، والغضب صفة باطنة في الإنسان قد يكون لها أثر في الظاهر وقد لا يكون، فإن الحال أغلب والأحوال يعلو بعضها على بعض في القهر والغلبة على من قامت بهم، فإن جمع بين وجود الرحمة على المغضوب عليه في قلبه وحكم الغضب لله في حسّه وظاهره فإن أهل طريق الله نظروا أيّ الطريقين أعلى وأحق، فمنا من قال: بأنّ الغضب القائم بالنفس أعلى، ومنّا من قال: وجود الرحمة في القلب وإرسال حكم الغضب لله في الظاهر أعلى وليس بيد العبد فيه شيء، وإنما العبد مصرّف فهو بحسب ما يقام فيه ويرد به، وما للإنسان في تركه وعدم تركه للشيء فعل، بل هو مجبور في اختياره إذا كان مؤمناً فإنا قيدنا الغضب أن يكون لله. وأما الغضب لغير الله فالطبع البشريّ يقتضي الغضب والرضى، يقول رسول الله ﷺ: **«إنَّمَا أنَا بَشرٌ أَغْضَبُ كَمَا يغضب البَشَرُ وَأَرْضَى كَمَا يَرْضَى البَشَرُ»** الحديث، وقد عملنا به حالاً وخلقاً لله الحمد على ذلك.

وأما حكم الماء الآجن في الباطن دون غيره مما يغير الماء مما لا ينفك عنه غالباً فاعلم أن الله سبحانه ما نزه الماء عن شيء يتغير به مما لا ينفك عنه غالباً إلا الماء الآجن فقال تعالى في صفة أهل الجنة الموصوفة بالطهارة: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [سورة محمد: الآية ١٥] يقال: أسن الماء وأجن إذا تغيّر وهو الماء المخزون في الصهاريج وكل ماء مخزون يتغير

بطول المكث، فإذا عرض للعلم الذي به حياة القلوب من المزاج الطبيعيّ أمر أثر فيه كالعلم بأن الله رحيم، فإذا رأى رحمته بعباد الله كما يراها من نفسه من الرقة والشفقة التي يجد ألمها في نفسه فيطلب العبد إزالة ذلك الألم الذي يجده في نفسه برحمة هذا الذي أدركته الرحمة عليه من المخلوقين، قام له قيام الرقة به وحمل ذلك على رحمة الله، فتغيرت عنده رحمة الله بالقياس على رحمته، فلم ينبغ له أن يطهر نفسه لعبادة ربّه بمثل هذه الرحمة الإلهية وقد تغيّرت عنده، وعلة ذلك أن الحق ما وصف نفسه بالرقة في رحمته، فالحق يقول لك هنا: لا تجعل طبيعتك حاكمة على حياتك الإلهية، ومن يرى الوضوء بالماء الآجن لم يفرّق فإن الحق قد وصف نفسه في مواضع بما يقتضيه الطبع البشريّ، فيجري الكل مجرى واحداً، والأولى ما ذكرناه أوّلاً أن لا نزيد على حكم الله شيئاً فيما ذكر عن نفسه.

وأما حكم الباطن في العلم القليل إذا وردت عليه الشبه المضلة وأثرت فيه التغيّر فإنه لا يجوز له استعمال ذلك العلم فإنه غير واثق به وإن كان عارفاً بأن لذلك العلم وجهاً إلى الحق ولكن ليس في قوّته لضعف علمه معرفة تعيين ذلك الوجه، فيعدل عند ذلك إلى العلم الذي يستهلك الشبه وهو العلم الذي يأخذه عن الإيمان من طريق الشرع والعمل به، فإنه العلم الواسع الذي لا يقبل الشبه لأنه يقلب عينها بالوجه الحق الذي تحمله فيصرفها في موضعها فتكون علماً بعدما كانت بكونها شبهة جهلاً، فإنّ نور الإيمان تندرج فيه أنوار العلوم اندراج أنوار الكواكب في نور الشمس، وطريقه واضحة أيضاً في رجوع الشبه علماً لأنه يزيل حكمها ويريه نور الإيمان وجه الحق فيها فيراها عدماً والعدم لا أثر له ولا تأثير في الوجود فاعلم ذلك. واعلم أن نور الإيمان هنا عبارة عن أمر الشرع أي الزم ما قلت لك وأمرتك به سواء وجدت عليه دليلاً عقلياً أو لم تجد، كالإيمان في الجناب الإلهيّ بالهرولة والضحك والتبشّش والتعجّب من غير تكييف ولا تشبيه مع معقولية ذلك من اللسان لكن نجهل النسبة لاستنادنا إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] وهي أعني هذه الآية أصل في التنزيه لأهله وأصل في التشبيه لأهله.

باب في الماء تخالطه النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه

اختلف علماء الشريعة في الماء تخالطه النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه، فمن قائل: إنه طاهر مطهر سواء كان قليلاً أو كثيراً وبه أقول إلاّ أني أقول: إنه مطهر غير طاهر في نفسه لأنا نعلم قطعاً أن النجاسة خالطته لكن الشرع عفا عنها ولا أعرف هذا القول لأحد وهو معقول، وما عندنا من الشرع دليل أنه طاهر في نفسه لكنه طهور، وإن احتجّوا علينا بأن رسول الله ﷺقال: «**خَلَقَ اللَّهُ المَاءَ طَهُوراً لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ**» قلنا: ما قال إنه طاهر في نفسه، وإنما قال فيه: إنه طهور والطهور هو الماء والتراب الذي يطهر غيره، فإنا كما قلنا نعلم قطعاً أن الماء حامل النجاسة عقلاً، ولكن الشارع ما جعل لها أثراً في طهارة الإنسان به ولا سمّاه نجساً، فقد يريد الشارع التعريف بحقيقة الأمر وهو أن الماء في نفسه طاهر بكل وجه أبداً لم

يحكم عليه بنجاسة أي أن النجاسة ليست بصفة له وإنما أجزاء النجس تجاور أجزاءه، فلما عسر الفصل بين أجزاء البول مثلاً وبين أجزاء الماء وكثرت أجزاء النجاسة على أجزاء الماء فغيّرت أحد أوصافه منع من الوضوء به شرعاً على الحدّ المعتبر في الشرع.

وإذا غلبت أجزاء الماء على أجزاء النجاسة فلم يتغيّر أحد أوصافه لم يعتبرها الشارع ولا جعل لها حكماً في الطهارة بها، فإنا نعلم قطعاً أنّ المتطهر استعمل الماء والنجاسة معاً في طهارته الشرعية، والحكم للشرع في استعمال الأشياء لا للعقل، ولم يرد شرع قط بأنه طاهر ليست فيه نجاسة إلاّ باعتبار ما ذكرناه من عدم تداخل الجواهر وهو أمر معقول فما بقي إلاّ تجاورها، فاعتبر الشرع تلك المجاورة في موضع ولم يعتبرها في موضع، فلذلك لم يجز الطهارة به في الموضع الذي اعتبرها، وأجاز الطهارة به في الموضع الذي لم يعتبرها ولم يقل فيه إنه ليس فيه نجاسة، فالحكم في الماء على ما ذكرناه على أربع مراتب: إذا خالطته النجاسة أو لم تخالطه حكم بأنه طاهر مطهر، وحكم بأنه طاهر غير مطهر، وحكم بأنه غير مطهر ولا طاهر، وحكم بأنه مطهر غير طاهر. فالطاهر المطهر هو الماء الذي لم تخالطه نجاسة. والطاهر غير المطهر هو الماء الذي يخالطه ما ليس بنجس بحيث أن يزيل عنه اسم الماء المطلق مثل ماء الزعفران وغيره. وحكم بأنه غير طاهر ولا مطهر وهو الماء الذي غيّرت النجاسة أحد أوصافه وصاحب هذا الحكم يردّ الحديث الذي احتجّ به علينا فإن الشارع قال: لا ينجسه شيء فكيف اعتبره هذا المحتج به هنا ولم يعتبره في الوجه الذي ذهبنا إليه في أنه مطهر غير طاهر ويلزمه ذلك ضرورة وليس عنده دليل شرعيّ يردّه. والحكم الرابع مطهر غير طاهر وهو الفصل الذي نحن بسبيله فإنه الماء الذي خالطته النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه.

ومن قائل: بالفرق بين القليل والكثير فقالوا: إن كان كثيراً لم ينجس، وإن كان قليلاً كان نجساً ولم يحد فيه حداً بل قال: بأنه ينجس ولو لم يتغير أحد أوصافه. ثم اختلف هؤلاء في الحدّ بين القليل والكثير والخلاف في نفس الحد مشهور في المذاهب لا في نص الشرع الصحيح، فإن الأحاديث في ذلك قد تكلم فيها مثل حديث القلتين وحديث الأربعين قلة، ثم الخلاف بينهم في حد القلة، ويتفرّع على هذا الباب مسائل كثيرة، مثل ورود الماء على النجاسة، وورود النجاسة على الماء، والبول في الماء الدائم وغير ذلك، وللناس في ذلك مذاهب كثيرة ليس هذا الكتاب موضعها، فإنا ما قصدنا استقصاء جميع ما يتعلق من الأحكام بهذه الطهارة من جهة تفريع المسائل، وإنما القصد الأمّهات منها لأجل الاعتبار فيها بحكم الباطن، فجرّدنا في هذا الباب نحواً من ثمانين باباً نذكرها إن شاء الله كلها باباً باباً، وهكذا أفعل إن شاء الله في سائر العبادات التي عزمنا على ذكرها في هذا الكتاب من صلاة وزكاة وصيام وحج، والله المؤيد لا رب غيره.

وصل في حكم الباطن: وأما حكم الباطن فيما ذكرناه في هذا الباب وهو الماء الذي تخالطه النجاسة ولم تغيّر أحد أوصافه فهو العلم الإلهيّ الذي يقتضي التنزيه عن صفات

البشر، فإذا خالطه من علم الصفات التي تتوهم منها المناسبة بينه وبين خلقه فوقع في نفس العالم به من ذلك نوع تشويش فاستهلك ذلك القدر من العلم بالصفات التي يقع بها الاشتراك في العلم الذي يقتضي التنزيه من جهة دليل العقل ومن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] في دليل السمع فيبقى العلم بالله على أصله من طهارة التنزيه عقلاً وشرعاً، مع كوننا نصفه بمثل هذه الصفات التي توهم التشبيه فإنه ما غيّرت أوصافه تعالىٰ، فيثبت كل ذلك له مع تحقق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وأما حكم القليل والكثير في ذلك واختلاف الناس في النجاسة إن كان الماء قليلاً فالقلة والكثرة في الماء الطهور هو راجع إلى الأدلة الحاصلة عند العالم بالله، فإن كان صاحب دليل واحد وطرأت عليه في علمه بتنزيه الحق في أيّ وجه كان شبهة أثرت في دليله زال كونه علماً كما زال كون هذا الماء طاهراً مطهراً وإن كان صاحب أدلة كثيرة على مدلول واحد فإن الشبهة تستهلك فيه، فإنها إذا قدحت في دليل منها لم يلتفت إليها واعتمد على باقي أدلته فلم تؤثر هذه الشبهة في علمه وإنما أثرت في دليل خاص لا في جميع أدلته، فهذا معنى الكثرة في الماء الذي لا تغيّر النجاسة حكمه. وأمّا من قال بترك الحدّ في ذلك وأن الماء يفسد فإنه يعتبر أحدية العين لا أحدية الدليل فيقول: إن العلم تقدح فيه هذه الشبهة في زمان تصوّره إياها والزمان دقيق، فربما مات في ذلك الزمان وهو غير مستحضر سائر الأدلة لضيق الزمان فيفسد عنده، وفي هذا الباب تفريع كثير لا يحتاج إلى إيراده وهذا القدر قد وقع به الاكتفاء في المطلوب.

باب الماء يخالطه شيء طاهر ممّا ينفك عنه غالباً متى غيّر أحد أوصافه الثلاثة

أما الماء الذي يخالطه شيء طاهر ممّا ينفك عنه غالباً متى غيّر أحد أوصافه الثلاثة فإنه طاهر غير مطهر عند الجميع إلاَّ بعض الأئمة فإنه عنده مطهر ما لم يكن التغيّر عن طبخ.

وصل حكم الباطن: فأما حكم الباطن في ذلك فهو أن العلم بالله من حيث العقل الذي حصل له من طريق الفكر إذا خالطه وصف شرعيّ ممّا جاء الشرع به فإن ذلك العلم بالله طاهر في نفسه غير مطهر لما دلّ عليه من صفة التشبيه كقولهم في صفة كلام الله إنه كسلسلة على صفوان فأتى بكاف الصفة والشرع كله ظاهر مقبول ما جاء به فلم يقدر العقل ينفك عن دليله في نفي التشبيه، وسلّم للشرع ما جاء به من غير تأويل، ومن رأى أنه مطهر على أصله ما لم يطبخ فأراد بالطبخ الأمر الطبيعيّ وهو أن يأخذ ذلك الوصف من الشارع الذي هو مخبر عن الله وأخذه عن فهمه ونظره بضرب قياس على نفسه من حيث إمكانه وطبيعته فهو طاهر غير مطهر فاعلم ذلك.

باب في الماء المستعمل في الطهارة

الماء المستعمل في الطهارة اختلف فيه علماء الشريعة على ثلاثة مذاهب، فمن قائل: لا تجوز الطهارة به. ومن قائل: تجوز الطهارة به وبه أقول. ومن قائل: بكراهة الطهارة به ولا يجوز التيمم بجوده. وقول رابع شاذ وهو أنه نجس.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأمّا حكم الباطن فيه فاعلم أن سبب هذا الخلاف هو أنه لا يخلو أن ينطلق على ذلك الماء اسم الماء المطلق أو لا ينطلق، فمن رأى أنه ينطلق قال بجواز الطهارة به. ومن رأى أنه قد أثّر في إطلاقه استعماله لم يجز ذلك أو كرهه على قدر ما يقوى عنده. وأمّا من قال بنجاسته فقول غير معتبر وإن كان القائل به من المعتبرين وهو أبو يوسف، فاعلم أن العلم بتوحيد الله هو الطهور على الإطلاق فإذا استعملته في أحدية الأفعال ثم بعد هذا الاستعمال رددته إلى توحيد الذات اختلف العلماء بالله بمثل هذا الاختلاف في الماء المستعمل، فمن العارفين من قال: إن هذا التوحيد لا يقبل الحق من حيث ذاته فلا يستعمل بعد ذلك في العلم بالذات، ومن العارفين من قال يقبله لأنا ما أثبتنا عيناً زائدة والنسب ليست بأمر وجوديّ فتؤثر في توحيد الذات فبقي العلم بالتوحيد على أصله من الطهارة. وأما من قال: بأنه نجس فإن التوحيد المطلق لا ينبغي إلاّ لله تعالىٰ، فإذا استعملت هذا التوحيد في أحدية كل أحد التي بها يقع له التمييز عن غيره فقد صار لها حكم الكون الممكن فهذا معنى النجاسة، فلا ينبغي أن ينسب إلى الله مثل هذا التوحيد لأن تمييزه في أحديته عن خلقه ليس عن اشتراك كما تتميز الممكنات بعضها عن بعض بخصوص وصفها وهي أحديتها.

باب في طهارة أسآر المسلمين وبهيمة الأنعام

اتفق العلماء بالشريعة على طهارة أسآر المسلمين وبهيمة الأنعام واختلفوا فيما عدا ذلك، فمن قائل: بطهارة كل حيوان، ومن قائل: استثنى واختلف أهل الاستثناء خلافاً كثيراً.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأما حكم الباطن في ذلك فإن سؤر المؤمن وكل حيوان فهو طاهر، فإن الإيمان والحياة عين الطهارة في الحيّ والمؤمن، إذ بالحياة كان التسبيح من الحيّ لله تعالىٰ، وإذ بالإيمان كان قبول ما يرد به الشرع ممّا يحيله العقل أو لا يحيله من المؤمن بلا شك، وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» فما بقي للعبد من العلم بعد معرفته بنفسه الذي هو سؤره وكل حيوان فإنه مشارك للإنسان المؤمن في الدلالة، فسؤره مثل ذلك بذلك القدر ممّا بقي يعرف ربّه. وأمّا أصحاب الخلاف في الاستثناء فما نظروا في المؤمن ولا في الحيوان من كونه حيواناً ولا مؤمناً فهو بحسب ما نظر فيه هذا المستثنى ويجري معه الحكم والتفصيل فيه يطول، وإنما اشترطنا المؤمن دون الإنسان وحده إذ كان الإيمان يعطي من المعرفة بالله ما يعطيه الحيوان والإنسان وزيادة ممّا لا يدركه الإنسان من حيث إنسانيته ولا حيوانيته بل من كونه مؤمناً، فلهذا قلنا سؤر المؤمن فإنه أتم في المعرفة.

باب في الطهارة بالأسآر

اختلف العلماء بالشريعة في الطهارة بالأسآر على خمسة أقوال، فمن قائل: إنها طاهرة بإطلاق وبه نقول. ومن قائل: إنه لا يجوز للرجل أن يتطهر بسؤر المرأة. ومن قائل: إنه يجوز للرجل أن يتطهر بسؤر المرأة ما لم تكن جنباً أو حائضاً. ومن قائل: لا يجوز لكل

واحد منهما أن يتطهر بفضل طهور صاحبه ولكن يشرعان معاً. ومن قائل: إنه لا يجوز أصلاً. ومن قائل: يجوز للرجل أن يتطهر بسؤر المرأة ما لم تخل به.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأما حكم الباطن في ذلك فاعلم أن الرجل يزيد على المرأة درجة فإذا اتخذا دليلاً على العلم بالله من حيث ما هما رجل وامرأة لا غير، فمن رأى أن لزيادة الدرجة في الدلالة فضلاً على من ليس لها تلك الدرجة نقصه من العلم بذلك القدر، فمن لم يجز الطهارة بذلك. قال: إنما يدل من كونه رجلاً وامرأة أي من كونهما فاعلاً ومنفعلاً على علم خاص في الإله، وهو العلم بالمؤثر والمؤثر فيه، وهذا يوجد في كل فاعل ومنفعل، فلا يجوز أن يوجد مثل هذا في العلم بالله ولا يتطهر به القلب من الجهل بالله، ومن أجازه قال: جلّ المعرفة بالله أن يكون خالقنا وخالق الممكنات كلها، وإذا ثبت افتقارنا إليه وغناه عنّا فلا نبالي بما فاتنا من العلم به، فهذان قولان بالجواز وبعدم الجواز، وبهذا الاعتبار نأخذ ما بقي من الأقسام مثل الشروع معاً، غير أن في الشروع معاً زيادة في المعرفة وهي عدم التقييد بالزمان وهو حال الوقوف على وجه الدليل، وهو أيضاً كالنظر في دلالتهما من حيث ما يشتركان فيه وليس إلاّ الإنسانية، ومثل طهارة المرأة بفضل الرجل فإنه يعطى في الدلالة ما تعطى المرأة وزيادة، ومثل طهور الرجل بفضل المرأة ما لم تكن جنباً بالتغرّب عن موطن الأنوثة وهو منفعل فقد اشترك مع الأنثى التي انفعلت عنه فإنه منفعل عن موجده، ومن تغرّب عن موطن الأنوثة من تشبيهها بالرجل فإن ذلك يقدح في أنوثتها أو حائضاً وهي صفة تمنع من مناجاة الحق في الصلاة، والمطلوب من العلم بالله القربة، والحال في الحيض البعد من الله من حيث تناجيه، فالمعرفة بهذه الصفة تكون معرفة حجابية من الاسم البعيد. وأما قول القائل: ما لم تخل به فإن لم تخل به جازت الطهارة وإن خلت به لم تجز، فاعلم أن العالم بالله كما يعلم أن ذاته منفعلة في وجود عينها عن الله، ولا يعرف أنه يرضي الله ويغضبه بأفعاله إذ قد وقع التكليف، فما عرفه معرفة تامة فقد خلي بالمعرفة وهذا يقدح في طهارة تلك المعرفة، وإذا عثر على أن له أثراً في ذلك الجناب مثل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٨٦] فأعطى الدعاء من الداعي في نفس المدعو الإجابة، ولا معنى للانفعال إلاّ مثل هذا فهذا حقيقة قوله ما لم تخل به.

باب الوضوء بنبيذ التمر

اختلف علماء الشريعة في الوضوء بنبيذ التمر، فأجاز الوضوء به بعضهم، ومنع به الوضوء أكثر العلماء، وبالمنع أقول لعدم صحة الخبر النبويّ فيه الذي اتخذوه دليلاً، ولو صحّ الحديث لم يكن قوله نصاً في الوضوء به فإنه قال ﷺ: **«فِيهِ تَمْرَةٌ طَيِّبَةٌ وَمَاءٌ طَهُورٌ»** أي جمع النبيذ بين التمر والماء فسمّي نبيذاً فكان الماء طهوراً قبل الامتزاج، وإن صحّ قوله فيه شراب طهور لم يكن نصاً في الوضوء به ولا بد، فقد يمكن أن يطهر به الثوب من النجاسة فإنّ الله ما شرع لنا في الطهارة للصلاة عند عدم الماء إلاّ التيمم بالتراب خاصة.

وصل حكم الباطن في ذلك: وأما حكم الباطن في ذلك فإن الواقف في معرفته بالله على الدليل المشروع الذي هو فرع في الدلالة عن الدليل العقلي الذي هو الأصل، وليس عند صاحب الدليل المشروع علم بما ثبت به كون الشرع دليلاً في العلم بالإله فضعف في الدلالة وإن سمّاه ماء طهوراً وتمرة طيبة فذلك لامتزاج الدليلين، والمقلد لا يقدر على الفصل بين الدليلين، فمن حيث يتضمن ذلك الامتزاج الدليل العقليّ يجوز الأخذ به في الدلالة فيجيز الوضوء بنبيذ التمر، ومن حيث الجهل بما فيه من تضمنه الدلالة العقلية لا يجوز الأخذ به وهو على غير بصيرة في ثبوت هذا الفرع فلم يجز الوضوء بنبيذ التمر فإنه سمّاه شراباً وأزال عنه اسم الماء، فافهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

أبواب نواقض الوضوء

حكم ذلك في الباطن أعني ناقض الوضوء أنه كل ما يقدح في الأدلة العقلية والأدلة الشرعية في المعرفة بالله. أما في العقلية فمن الشبه الواردة. وأما في الشرعية فمن ضعف الطريق الموصل إليها وهو عدم الثقة بالرواة أو غرائب المتون فإن ذلك ممّا يضعف به الخبر، فكل ما يخرجك عن العلم بالله وبتوحيده وبأسمائه الحسنى وما يجب لله أن يكون عليه وما يجوز وما يستحيل عليه عقلاً إلاَّ أن يرد به خبر متواتر في كتاب أو سنّة فإن ذلك كله ناقض لطهارة القلب بمعرفة الله وتوحيده وأسمائه، فلنذكرها مفصلة كما وردت في الوضوء الظاهر إن شاء الله.

باب انتقاض الوضوء بما يخرج من الجسد من النجس

اختلف علماء الشريعة في انتقاض الوضوء بما يخرج من الجسد من النجس على ثلاثة مذاهب، فاعتبر قوم في ذلك الخارج وحده من أيّ موضع خرج وعلى أيّ وجه خرج وبين هؤلاء اختلاف في أمور، واعتبر قوم المخرجين القبل والدبر من أيّ شيء خرج وعلى أيّ وجه خرج من صحة ومرض، واعتبر آخرون الخارج والمخرج وصفة الخروج وبه أقول.

وصل حكم الباطن في ذلك: فأمّا حكم هذه المذاهب في المعاني في الباطن فمن اعتبر الخارج وحده وهو الذي ينظر في اللفظ الخارج من الإنسان فهو الذي يؤثر في طهارة إيمانه مثل أن يقول في يمينه: برئت من الإسلام إن كان كذا وكذا، أو ما كان إلاَّ كذا وكذا، فإن هذا وإن صدق في يمينه وبر ولم يحنث فإنه لا يرجع إلى الإسلام سالماً، كذا قال ﷺ. ومثل من يتكلم بالكلمة من سخط الله ليضحك بها الناس ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت فيهوي بها في النار سبعين خريفاً ولا يراعى من خرجت منه من مؤمن وكافر، ومن اعتبر المخرجين فهو المنافق والمرتاب فكل ما خرج منهما لا ينفعهما في الآخرة، فإن الخارج قد يكون نجساً كالكفر من التلفظ به، وقد يكون غير نجس كالإيمان، وما كان مثل هذا من المخرجين المنافق والمرتاب، لأن المخرجين خبيثان لم ينفع ما ليس بنجس كظهور الإيمان وما في القلب منه شيء وهو قوله تعالىٰ عنهم حيث قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ وهو كخروج الطاهر أعني الذي ليس

بنجس ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥٠] وهو كخروج ما هو نجس فقال تعالىٰ فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٥١] حقاً فأثّر في الطهارة، وأمّا من اعتبر الخارج والمخرجين وصفة الخروج فقد عرفت الخارج والمخرجين وما بقي إلاّ صفة الخروج، فصفة الخروج في الطهارة كالخروج على صفة المرض كالمقلد في الكفر أو الصحة وهو العالم بالحق الصحيح ويجحده فلا يؤمن، قال تعالىٰ في مثل هؤلاء الذين عرفوا الحق وجحدوا بما دلّهم عليه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ ثم ذكر العلة فقال: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]. انتهى الجزء الثاني والثلاثون.

(الجزء الثالث والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

باب حكم النوم في نقض الوضوء

اختلف العلماء في النوم على ثلاثة مذاهب، فمن قائل: إنه حدث فأوجبوا الوضوء في قليله وكثيره. ومن قائل: إنه ليس بحدث فلم يوجب منه وضوء إلاّ إن تيقن بالحدث، فالناقض للوضوء هو الحدث لا النوم، وإن شك في الحدث فالشك غير مؤثر في الطهارة فإن الشرع لم يعتبر الشك في هذا الموضع وبه أقول. ومن قائل: بالفرق بين النوم القليل الخفيف كالسّنة فلم يوجب منه وضوء، وبين الكثير المستثقل فأوجب منه الوضوء.

وصل حكمه في الباطن: اعلم أن القلب له حالة غفلة فذلك النوم القليل وحالة موت ونوم عن التيقظ والانتباه لما كلّفه الله به من النظر والاستدلال والذكر والتذكّر، وهاتان الحالتان مزيلتان طهارة القلب التي هي العلم بالله، ولنا في ذلك ما ينبّه الغافل والسالك: [مجزوء الكامل]

يــا نــائــمــاً كــم ذا الــرُّقَــا ... دُ وأنــت تُــدْعَــى فــانــتــبِــهْ

كــان الإلــهُ يــقــوم عــنــ ... ـك بــمــا دعــا لــو نــمْــتَ بِــهْ

لــكــنَّ قــلــبــك غــافــلٌ ... عــمّــا دعــاك ومــنْــتَــبِــهْ

فــي عــالــم الــكــونِ الــذي ... يُــزديــك مــهــمــا مــتَّ بِــهْ

فــانــظــرْ لــنــفــسك قــبــل ســيــ ... ـرك إنَّ زادك مُــشْــتَــبِــهْ

باب الحكم في لمس النساء

اختلف علماء الشريعة في لمس النساء باليد أو بغير ذلك من الأعضاء الحسّاسة، فمن قائل: إنه من لمس امرأته دون حجاب أو قبلها على غير حجاب فعليه الوضوء سواء التذّ أو لم يلتذّ، واختلف قول صاحب هذا المذهب في الملموس، فمرّة سوّى بينهما في إيجاب الوضوء، ومرّة فرّق بينهما، وفرّق أيضاً صاحب هذا القول بين أن يلمس ذوات المحارم والزوجة. ومن قائل: بإيجاب الوضوء من اللمس إذا قارنته اللذة، وعند أصحاب هذا القول

تفصيل كثير. ومن قائل: بأن لمس النساء لا ينقض الوضوء وبه أقول، والاحتياط أن يتوضأ للخلاف الذي في هذه المسألة اللامس والملموس.

وصل حكم اللمس في الباطن: فأمّا حكم اللمس في القلب فالنساء عبارة وكناية عن الشهوات، فإذا لمست الشهوة القلب ولمسها والتبس بها والتبست به وحالت بينه وبين ما يجب عليه من مراقبة الله فيها فقد انتقض وضوءه، وإن لم تحل بينه وبين مراقبة الله فيها فهو على طهارته فإن طهارة القلب الحضور مع الله، ولا يبالي في متعلق الشهوة من حرام أو حلال إذا اعتقد التحريم في الحرام والتحليل في الحلال فلا تؤثر في طهارته، فإذا اعتقد التحريم في الحلال المنصوص عليه بالحل أو التحليل المنصوص عليه بالتحريم من أجل الشهوة بالنظر إلى الرجوع في ذلك إلى قول إمام يرى ذلك مع علمه أن الشارع قرّر حكم المجتهد وقرّر قبول عمل القلب له إذا عمل به وقد كان قبل الشهوة يعرف ذلك القول ولا يعمل عليه ولا يقول به، وإنما رجع إليه بسبب لمس الشهوة قلبه، فمثل هذا تؤثر في طهارته، فعليه الوضوء بلا خلاف عند أهل القلوب، وأمّا في الظاهر فلنا في هذه المسألة نظر وقد تصدّعنا فيها مع علماء الرسوم.

باب في لمس الذكر

اختلف العلماء فيه على ثلاثة مذاهب، فمن قائل: لا وضوء عليه وبه أقول والاحتياط الوضوء في كل مسألة مختلف فيها، فإن الاحتياط النزوح إلى موطن الإجماع والاتفاق مهما قدر على ذلك. ومن قائل: فيه الوضوء وقوم فرّقوا بين مسّه بحال لذة أو باطن اليد وبين من مسّه بظاهر كفّه ولغير لذّة وفصلوا في ذلك.

وصل حكم ذلك في الباطن: اعلم أن الله ما جعل سبب إيجاد الكائنات الممكنات سبحانه وتعالىٰ إلاّ الإرادة والأمر الإلهيّ، ولأجل هذا أخذ من أخذ الإرادة في حدّ الأمر، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فأتى في الإرادة والأمر ولم يذكر معنى ثالثاً يسمّى القدرة فيخرّج قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الحشر: الآية ٦] على أنه عين قوله للأشياء ﴿كُن﴾ إذا أراد تكوينها، ولا شك أن اليد محل القدرة، ولما كان النكاح سبب ظهور المولدات فمن نسب القدرة إليه في إيجاد العين الممكنة التي ظهرت وهو مسّ الذكر باليد فلا يخلو إمّا أن يغفل عن الاقتدار الإلهيّ في قول: ﴿كُن﴾ أو لا يغفل، فإن غفل انتقضت طهارته حيث نسب وجود الولد للنكاح، وإن لم يغفل بقي على طهارته.

باب الوضوء ممّا مسّت النار

اختلف أصحاب رسول الله ﷺ في الوضوء ممّا مسّت النار وما عدا الصدر الأوّل فلم يختلفوا في أنّ ذلك لا يوجب الوضوء إلاّ في لحوم الإبل، وبالوضوء من لحوم الإبل أقول تعبّداً وهو عبادة مستقلة مع كونه ما انتقضت طهارته بأكل لحوم الإبل، فالصلاة بالوضوء

المتقدّم جائزة وهو عاص إن لم يتوضأ من لحوم الإبل، وهذا القول ما قال به أحد فيما أعلم قبلنا وإن نوى فيه رفع المانع فهو أحوط، واختلف الأئمة في الوضوء من لحوم الإبل، فمن قائل: بإيجاب الوضوء منه. ومن قائل: لا يجب.

وصل حكم الباطن في ذلك: النار الذي يجد الإنسان في نفسه وهي التي تنضج كبده هي ممّا يجري عليه من الأمور التي لا توافق غرضه الطبيعيّ، فإن تلقاها بالتسليم والرضى أو الصبر مع الله فيها كما تسمّى الله تعالى بالصبور لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٥٧] وأمهلهم ولم يؤاخذهم، وقول رسول الله ﷺ: «**لَيسَ شَخصٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذى مِنَ الله حِلْماً منه**» وإذا كان العبد بهذه المثابة لم تؤثر في طهارته فإن تسخط وأثر فيه ولا سيما لحوم الإبل فإن الشارع سمّاها شياطين، فتلك لمة الشيطان في القلب فانتقضت طهارته لأن محل اللمة القلب كما يطهر منها بلمة الملك، وإنما لحوم الإبل بلمة الشيطان لأن الشيطان خلق من مارج من نار، والمارج لهب النار، والشارع كما قلنا سمّى الإبل شياطين ونهى عن الصلاة في معاطنها وما علّل إلاّ بكونها شياطين وهم البعداء، والصلاة حال قربة ومناجاة، فاعتبرنا في الباطن حكم الوضوء من لحوم الإبل ونقض الطهارة بهذا، ولو كانت لمته بخير فإنه أضمر في ذلك الخير شرّاً لا يتفطن له إلاّ العالم المحقق العارف بالأمور الإلهية كيف ترد على القلوب.

باب الضحك في الصلاة من نواقض الوضوء

اعلم أن الضحك في الصلاة أوجب منه الوضوء بعضهم ومنعه بعضهم وبالمنع أقول.

وصل حكم الباطن فيه: إنّ الإنسان في صلاته تختلف عليه الأحوال مع الله في تلاوته إذا كان من أهل الله ممّن يتدبر القرآن، فآية تحزنه فيبكي، وآية تسرّه فيضحك، وآية تبهته فلا يضحك ولا يبكي، وآية تفيده علماً، وآية تجعله مستغفراً وداعياً فطهارته باقية على أصلها، وقد رأينا من أحواله دائماً الضحك في صلاة وغير صلاة كالسلاويّ وأمثاله نفعنا الله به، وكأبي يزيد طيفور بن عيسىٰ بن شروشان البسطامي روى عنه أبو موسىٰ الديبلي أنه قال: ضحكت زماناً وبكيت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي. وأمّا إذا غفل عن تلاوته وتدبّرها ومناجاة ربّه بزكائه ولهوه وأمثال ذلك ممّا يخرجه عن الحضور مع الله في صلاته، فهذا ضحكه في الباطن في الصلاة في مذهب من يقول بنقض طهارته، ومن هذه حاله فقد انتقضت طهارته ووجب عليه استئناف طهارة قلبه مرة أخرى.

باب الوضوء من حمل الميت

قالت به طائفة من العلماء، ومنع أكثر العلماء من ذلك وبالمنع أقول.

وصل حكم الباطن فيه: أمّا حكم الباطن في ذلك فإنه يتعلق بعلم المناسبة، فلا يجتمع شيء مع شيء إلاّ لمناسبة بينهما. قال أبو حامد الغزاليّ: رأى بعض أهل هذا الشأن بالحرم غراباً وحمامة ورأى أن المناسبة بينهما تبعد فتعجب وما عرف سبب أنس كل واحد منهما

بصاحبه فأشار إليهما فدرجا فإذا بكل واحد منهما عرج فعرف أن العرج جمع بينهما، وكان رجل من التجار يقول لشيخنا أبي مدين: أريد منك إذا رأيت فقيراً يحتاج إلى شيء تعرّفني حتى يكون ذلك على يديّ، فجاءه يوماً فقير عريان يحتاج إلى ثوب وكان مقام الشيخ وحاله في ذلك عدم الاعتماد على غير الله في جميع أموره في حق نفسه وفي حق غيره، فإن الشيوخ قد أجمعوا على أنه من صحّ توكله في نفسه صحّ توكله في غيره، فتذكر أبو مدين رغبة التاجر فخرج مع الفقير إلى دكان التاجر ليأخذ منه ثوباً فماشاه إنسان أنكره الشيخ فسأله عن دينه فإذا هو مشرك، فعرف المناسبة وتاب إلى الله من ذلك الخاطر، فالتفت فإذا بالرجل قد فارقه ولم يعرف حيث ذهب، فلما أخبرت بحكايته وأنا أعرف بلادنا ما في بلاد الإسلام منها دينان أصلاً فعلمت أن الله أرسل إليه من خاطره ذلك شخصاً ينبهه، فإن الله علمنا منه أن يخلق من أنفاس العالم خلقاً، فكذلك من هذا الباب من حمل ميتاً فلمناسبة بينهما وهو الموت فإما موت عن الأكوان وإما موت عن الحق، فالميت عن الحق يتوضأ، والميت عن الأكوان باق على وضوئه.

باب نقض الوضوء من زوال العقل

اتفق علماء الشريعة أن زوال العقل ينقض الطهارة.

وصل حكم الباطن فيه: أن العقل إذا كان المزيل لحكمه في الإلهيات النص المتواتر من الشرع الذي لا يدخله احتمال ولا إشكال فيه فهو على أكمل الطهارة، لأن طهارة الإيمان مع وجود النص تعطي العلم الحق والكشف، وإذا زال عقله بشبهة فقد انتقضت طهارته، ويستأنف النظر في دليل آخر أو في إزالة تلك الشبهة.

أبواب الأفعال التي تشترط هذه الطهارة في فعلها

اتفق العلماء على أن الوضوء شرط من شروط الصلاة، واختلفوا هل هو شرط صحة أو شرط وجوب؟ وأعني بالوضوء الطهارة المشروعة وهي عندنا شرط وجوب، والطهارة عندنا عبادة مستقلة، وقد تكون شرطاً في عبادة أخرى شرط صحة أو شرط وجوب، وقد تكون مستحبة وسنّة في عبادة أخرى.

وصل حكم الباطن في ذلك: طهارة القلب شرط في مناجاة الحق أو مشاهدته شرط وجوب وشرط صحة معاً، وسبب ذلك أننا في موطن التكليف ويطلب الإيمان منّا بالله وبما جاء من عنده وبالرسول والرسل، وهذه إشارة أن الأمر ليس بمقصور إلاّ أنه عال وأعلى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٦] ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [سورة غافر: الآية ١٥] ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [سورة يوسف: الآية ٧٦] وتارة يكون العلم شرطاً في صحة الإيمان وشرط وجوب فيه، وتارة يكون الإيمان شرطاً في صحة علم الكشف وشرط وجوب فيه، إلاّ أن الإيمان فيه طهارة للقلب من الحجاب، والعلم طهارة للقلب من الجهل والشك والنفاق، فطهر قلبك بالطهارتين، تسم بذلك في العالمين، وتحوز به علم القبضتين، فإن الله قد أوجب

الإيمان علينا بنفسه ومن نفسه أسماؤه ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٥] مع علمنا بأن الله فضّل بعضهم على بعض رسلاً وأنبياء، ثم نهانا أن نفضل بين الأنبياء قياساً أو نظراً فإن العبد لا يحكم على الله بشيء.

باب الطهارة لصلاة الجنائز ولسجود التلاوة

اختلف أهل العلم رضي الله عنهم في الطهارة للصلاة على الجنائز ولسجود التلاوة، فمن قائل: إنها شرط من شروطها. ومن قائل: ليست بشرط وبه أقول.

وصل في حكم الباطن في ذلك: أما حكم الباطن في ذلك كله فإنا نقول: كل عمل مشروع لا تتقدّمه طهارة الإيمان لا يصحّ ذلك العمل بفقده فيجب وجود الإيمان في كل عمل مشروع، فمن قال: لا يجب الوضوء لصلاة الجنازة وسجود التلاوة لم ير استحضار للموتى والسجود للتلاوة لا في الإيمان في الدعاء، واكتفى بالإيمان الأصليّ عن استحضاره عند الشروع في الفعل، وهذا سبب عدم الإجابة، ومن رأى أن الطهارة شرط كانت الإجابة ولا بدّ فيما يدعو نية.

باب الطهارة لمس المصحف

اختلف أهل العلم في الطهارة هل هي شرط في مس المصحف أم لا؟ فأوجبها قوم ومنعها قوم، وبالمنع أقول إلاّ أن فعلها بالطهارة أفضل أعني مس المصحف.

وصل في حكم الباطن في ذلك: هل يحترم الدليل لاحترام المدلول؟ فعندنا نعم يحترم الدليل لاحترام المدلول، وعند غيرنا لا يلزم فإن الدليل يضادّ المدلول فلا يجتمعان، فإن احترم الدليل فلأمر آخر لا لكونه دليلاً على محترم، والمصحف دليل على كلام الله وقد أمرنا باحترامه ومسّه على الطهارة من احترامه، فاعلم أنا قد نأخذ العالم دليلاً على الله ونذهل عمّا يتضمن مسمّى العالم من محمود ومذموم، وقد نأخذ فرعون وأمثاله من المتكبرين دليلاً على وجود الصانع لأنه صنعة واتفق أن عينته في الدلالة على الخصوص ولا يجب احترامه بل يجب مقته وعدم حرمته، وقد نأخذ موسىٰ عليه السلام من حيث إنه صنعته دليلاً على وجود الصانع، واتفق أن عينته في الدلالة على الخصوص، وقد وجب علينا احترامه وتعظيمه من وجه آخر لا من وجه كونه دليلاً، فلهذا عظمنا المصحف لكون الشارع أمرنا باحترامه وتعظيمه لا لكونه دليلاً، ثم له حرمة أخرى لكونه دليلاً وبه نعلّل احترامه في وقت ما فإنه نقول فيه إنه كلام الله وإنّ كنّا نحن الكاتبين له بأيدينا.

باب إيجاب الوضوء على الجنب عند إرادة النوم أو معاودة الجماع أو الأكل أو الشرب

اختلف علماء الشريعة فيما ذكرناه في هذه الترجمة، فمن قائل: بإيجابه. ومن قائل: باستحبابه وبه أقول.

وصل حكم الباطن في ذلك: وأما حكم الباطن في ذلك إحضار النية للذي انتقضت طهارته الشرعية لشهوة أغفلته عن رؤية الحق عند استحكامها، فإذا أراد أن ينام نوى في النوم

إعطاء حق العين فتلك طهارة الجنب إذا أراد أن ينام، فإن الجنابة نقضت طهارته وهي الغربة عن موطن الإيمان الذي كان يجب عليه الحضور معه لولا استحكام سلطان الشهوة الذي أفناه عن نفسه وعن كل ما سواه، وكذلك إذا أراد أن يعاود الجماع ينوي الولد المؤمن لكثرة أتباع رسول الله ﷺ وليكثر الذاكرين الله بهذا الجماع، وكذلك إذا أراد أن يأكل أو يشرب ينوي إعطاء النفس حقّها وهذه النيّة فيما ذكرناه هي طهارة لكل ذلك.

باب الوضوء للطواف

اعلم أن الوضوء للطواف اشترطه قوم ولم يشترطه قوم وبه أقول وإن كان الطواف بالطهارة أفضل.

وصل حكم الباطن في ذلك: وذلك أنه من رأى أن الطواف بالبيت لكونه منسوباً إلى الله كالعرش المنسوب إلى استواء الرحمن ورأى الملائكة حافّين به وهم المطهرون الكرام البررة اشترط الوضوء في الطواف بكعبة قلبه الذي وسع الحق جلّ جلاله يقول تعالىٰ: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي، وهو نزوله في تجليه تعالىٰ إلى قلب عبده، وقد بيّناه في مواقع النجوم في منزل التنزّل الذاتيّ من فلك القلب، ومن رأى أن الحق لا يتقيد بما أضاف إليه وإنما قصد بذلك التشريف منفعة المكلف لم يشترط الطهارة للطواف. وأما في القلب فعدم اشتراط الطهارة في وقت نظر العقل في إثبات الشرع في المعرفة الأولى إمّا ابتداء وإمّا إذا نزل إليها بالتعليم لمن أراد أن يعرف الله بالأدلة النظرية.

باب الوضوء لقراءة القرآن

اختلف العلماء في الوضوء لقراءة القرآن، فمن قائل: إنه تجوز قراءة القرآن لمن هو على غير طهارة وبه أقول. ومن قائل: لا يجوز أن يقرأ القرآن إلاّ على وضوء وهو الأفضل بلا خلاف، وكذلك كل ما ذكرناه ممّا يجوز فعله عندنا وعند غيرنا على غير وضوء أن الأفضل أن لا يفعل شيئاً من ذلك إلاّ على وضوء.

وصل حكم الباطن في ذلك: أما حكم الباطن في ذلك فإن قارىء القرآن نائب الحق سبحانه في الترجمة عنه بكلامه ومن صفاته سبحانه القدّوس ومعناه الطاهر، فينبغي للعبد إذا ناب مناب الحق في كلامه بتلاوته أن يكون مقدّساً أي طاهراً في ظاهره بالوضوء المشروع، وفي باطنه بالإيمان والحضور والتدبّر وشبه ذلك، وأن يقدّم تلاوة الحق عليه ابتداء ثم يتلوه مترجماً عن الحق ما تلاه عليه وكلّمه به، فإما يترجم في تلاوته تلك للحاضر عنده ليذكره، وإما أن يترجم بلسانه ليسمعه فيحصل الآخر للسمع كما لو كان المصحف بيده يتلو فيه أخذ البصر حقّه من النظر إلى كلام الله من حيث ما هو مكتوب، كما أخذه السمع من حيث ما هو اللسان ناطق به مصوّت، وكذلك لو ألقى المصحف في حجره ومشى بيده على الحروف لأخذت هذه الأعضاء حظّها من ذلك، وهكذا كان يتلو شيخنا أبو عبد الله ابن المجاهد، وأبو عبد الله ابن قيسوم، وأبو الحجاج الشبربلي لم أر من أشياخنا من يحافظ على مثل هذه التلاوة إلاّ هؤلاء الثلاثة.

أبواب الاغتسال
أحكام طهارة الغسل

هذا الغسل المشروع في هذا الباب هو تعميم الطهارة بالماء لجميع ظاهر البدن بغير خلاف، وفيما يمكن إيصال الماء إليه من البدن وإن لم يكن ظاهراً بخلاف كداخل الفم وما أشبهه، وسيأتي ذكره وذكر أسباب هذه الطهارة. ومنها: واجب وسنّة ومستحب.

الاعتبار في ذلك: فأمّا اعتبار هذه الطهارة تعميم طهارة النفس من كل ما أمرت بالطهارة منه وبه من الأعمال ظاهراً مما يتعلق بالأعضاء وباطناً بما يتعلق بالنفس من مصارف صفاتها لا من صفاتها، وإنما قلنا من مصارف صفاتها فإن صفاتها لازمة لها في أصل خلقتها لا تنفك عنها، حتى أن بعض أصحابنا قد جعلها عين ذاتها وأنها صفات نفسية لها كالحرص والبخل والنميمة وكل وصف مذموم، فمتعلق الذم الذي أمرنا بالطهارة منه ما هو عين الصفة وإنما هو عين المصرف، فالإنسان لا يتطهر من الحرص وإنما يتطهر من صرف الحرص على جمع حطام الدنيا وحرامها، فيتطهر بالحرص عينه على حكم ما تطهر منه بالمصرف أيضاً، وهو أن يتطهر بالحرص على طلب العلم وتحصيل أسباب الخير والأعمال الصالحة، والحرص على جمع أسباب سعادته، فإن عين الحرص ما يتمكن زواله، فالحرص بوجه تكون سعادة الحريص بالحرص، وبوجه تكون شقاوة الحريص، فلهذا قلنا بالمصرف لا بعين الصفة، وعلى هذا نأخذ جميع الصفات التي علّق الذم بها إنما علّق الذم بمصارفها لا بأعيانها، فعموم طهارة الباطن والظاهر في هذا الاغتسال إنما متعلقه مصارف الصفات، ولا يعلم مصارف الصفات إلاّ من يعلم مكارم الأخلاق فيتطهر بها، ويعلم سفساف الأخلاق فيتطهر منها، وما خفي منها ممّا لا يدركه يتلقاه من الشارع وهو كل عمل يرضي الله فيتطهر به من كل عمل لا يرضيه فيتطهر منه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: الآية ٧] ولهذا سقنا في هذا الكتاب أبواباً متقابلة كالتوبة وتركها والورع وتركه والزهد وتركه ممّا سيأتي أبوابه إن شاء الله تعالىٰ وهي كثيرة.

وهذه الطهارة أيضاً واجبة كالتطهير بإيتاء الزكاة مثلاً فهو غسل واجب، وكإعطائها للفقراء من ذوي الأرحام وهو مندوب إليه، وكتخصيص أهل الدين منهم دون غيرهم من ذوي الأرحام وهو مستحب، وهكذا يسري حكم هذه الطهارة في جميع باطن الإنسان وظاهره من العلم، والجهل، والكفر، والإيمان، والشرك، والتوحيد، والإثبات، والتعطيل، وهكذا في الأعمال كلها المشروعة يطهرها بالموافقة من المخالفة، فهذا معنى الاغتسال الواجب منه وغير الواجب، وسأورد من تفصيل مسائل هذه الطهارة ما يجري مجرى الأمهات على حسب ما يذكر منها في ظاهر حكم الشرع في الاغتسال بالماء، وإنما تفريع هذه الطهارة لا يحصى ولا يسعه كتاب لو ذكرناها مسألة مسألة، وقد أعطينا فيها وبيّنا طريقة الأخذ بها فخذها على ذلك الأنموذج إن أردت أن تكون من عباد الله الذين اختصهم لخدمته واصطنعهم لنفسه

ورضي عنهم فرضوا عنه، جعلنا الله من العلماء العمال، ولا حال بيننا وبين الاستعمال بما يرضيه سبحانه من الأعمال في الأقوال والأفعال والأحوال.

فأما الاغتسالات المشروعة: فمنها ما اتفق على وجوبه. ومنها ما اختلف في وجوبه. ومنها ما اتفق على استحبابه وهي اغتسالات كثيرة كالغسل من التقاء الختانين، والغسل من إنزال الماء الدافق على علم، والغسل من إنزاله على غير علم كالذي يجد الماء ولا يذكر احتلاماً، والغسل من إنزال الماء الدافق على غير وجه الالتذاذ، والغسل من الحيض، وغسل المستحاضة عند الصلوات، وغسل يوم الجمعة، والغسل لصلاة الجمعة، والغسل عند الإسلام، والغسل للإحرام، والاغتسال لدخول مكة، والاغتسال للوقوف بعرفة، والاغتسال من غسل الميت. وأما الاعتبارات في هذه الأغسال فأنا أذكرها قبل ذكر تفصيل أمهات المسائل المشروعة في الاغتسال بالماء واعتباراتها فمن ذلك:

باب الاغتسال من غسل الميت

لما كان الميت شرع غسله وهو لا فعل له إذ كان غيره المكلف بغسله تنبيهاً لغاسله أن يكون بين يدي ربه في تطهيره بتوفيقه واستعماله في طاعته وما يجري عليه من أفعال خالقه به وفيه كالميت بين يدي غاسله، فلا يرى غسله بهذا الاعتبار بغسله للميت وإنما يرى أن الله هو مطهره، ويرى نفسه كالآلة يفعل بها الله ذلك الفعل، كما يرى الغاسل الماء آلة في تحصيل غسل الميت، إذ لولا الماء ما صحّ اسم الغاسل لهذا الذي يغسله، والماء لا يتصوّر منه الدعوى في أنه غسل الميت، فإن الماء ما تحرّك إليه ولا قصد غسله وإنما قصد بالماء غسل الميت غاسله، كذلك الغاسل لا يرى في قصده أنه قصد غسل الميت بالماء وإنما يرى نفسه مع الماء آلتين قصد الله بهما غسل هذا الميت، فالله المطهر لا هو ولا الماء، ولكن الله طهّر الميت بالغاسل وبالماء، فمثل هذا لا يغتسل من غسل الميت، فهذا اعتبار من يرى أنه لا يجب الغسل من غسل الميت. وأمّا من غسل ميتاً وغاب في غسله عن أن الله هو مطهره وادّعى ذلك الفعل لنفسه وأضافه إليها ورأى أنه لولاه ما طهر هذا الميت وجب عليه أن يغتسل ويتطهر من هذه الدعوى بالتوجّه والحضور مع الله في المستأنف والتذكّر لما غفل عنه من تطهير الله هذا الميت على يده، فمن اعتبر هذا أوجب الاغتسال من غسل الميت، وأما حكم الاغتسال من غسل الميت بالماء في ظاهر حكم الشرع فليس مذهبي القول بوجوبه ولكن إن اغتسل من ذلك فهو أولى وأفضل بلا خلاف.

باب الاغتسال للوقوف بعرفة

لما كان الوقوف بعرفة بصفة الذلّ والافتقار والدعاء والابتهال بالتعرّي من لباس المخيط والموضع الذي يقف فيه الحاج يسمّى عرفة علمنا اعتبار أن ذلك موقف العلماء العارفين بالله فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: الآية ٢٨] وقال: ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة: الآية ٨٣] وسيأتي الكلام إن شاء الله على هذا

النوع في باب الحج من هذا الكتاب. ولما رأى هذا المعتبر العالم تجرّده عن المخيط اعتبر في تأليف الأدلة وتركيبها لحصول المعرفة بالله من طريق النظر الفكري بتركيب المقدمات وتأليفها، فتظهر من ذلك صورة المعرفة بربه، كالخائط الذي يؤلف قطع القميص بعضها إلى بعض فتظهر صورة القميص، قيل له بتجريده المخيط حصل المعرفة بربك أو العلم بالله من التجلي الإلهيّ أو الربانيّ واطرح عنك في هذا الموقف وهذا اليوم النظر العقلي بتأليف المقدمات واشتغل اليوم بتحصيل المعرفة بربك من الامتنان الإلهيّ والوهب الربانيّ من الواهب الذي يعطي لينعم، فإنه الذي يقذف في نفسك العلم به على كل حال، سواء نظرت في تأليف المقدمات أو لم تنظر، فعامله سبحانه بالتجريد فإنه أولى بك، ولا تلتفت إلى تأليفك المقدمات النظرية في العلم بالله فإن ذلك ظلمة في المعرفة لا يراها إلا البصير، إذ لا مناسبة بين ما تؤلفه من ذلك وبين ما تستحقه ذاته جلّ وتعالىٰ علوّاً كبيراً، ومن كان يطلب منه هذه الحالة في ذلك الموقف الكريم والمشهد الخطير العظيم كيف لا يغتسل ويتطهر في باطنه وقلبه عن التعلّق في معرفته بربه بغيره فيزيل عنه قذر مشاهدة الأغيار ودرنها بعلم الحق بالحق دون علمه بنفسه، إذ لا دليل عليه إلاّ هو لأن المعرفة تتعدى إلى مفعول واحد وأنت في عرفة والعلم يتعدّى إلى مفعولين، ولهذا يحصل لصاحب هذا المشهد عند العلمين إذا خرج من عرفة يريد المزدلفة وهي جمع يحصل له علم آخر يكون معلومه الله كما كان معلومه في عرفات الرب تعالىٰ، وهذا المفعول الواحد الحاصل لك في هذا اليوم هو علمك بربك لا بنفسك فتعرف الحق بالحق، فيكون الحق الذي اغتسلت به يعطي تلك المعرفة به، ويكون المغتسل منه اسم مفعول عين نفسك في دعواها في معرفة ربها بنفسها من طريق التعمل في تحصيلها، وأين الدليل من الدليل؟ هيهات وعزّته ما تعرفه إن عرفته إلاّ به فافهم فهذا غسلك للوقوف بعرفة إن وفقت له والله المؤيد والملهم.

باب الاغتسال لدخول مكة زادها الله تشريفاً

اعلم أن دخول مكة هو القدوم على الله في حضرته، فلا بدّ من تجديد طهارة لقلبك ممّا اكتسبه من الغفلات من زمان إحرامك من الميقات ظاهراً بالماء وباطناً بالعلم والحضور، فطهارة الظاهر الاغتسال بالماء عبادة وتنظيفاً، وطهارة الباطن وهو القلب بالتبرّي طلباً للولاء فإنه لا ولاء للحق إلاّ بالبراءة من الخلق حيث كان نظرك إليهم بنفسك لا بالله، فمن كان حاله الحضور الدائم مع الله لم يغتسل لدخول مكة إلاّ الغسل الظاهر بالماء لإقامة السنّة، وأما الباطن فلا إلاّ عند رؤية البيت فإنه يتطهر باطناً بحياء خاص لمشاهدة بيته الخاص كذا والطواف به الذين هم الطائفون كالحافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، إذ كان بيت الله بلا واسطة منذ خلق الله الدنيا ما جرت عليه يد مخلوق بكسب، وليكن الاسم الإلهيّ الذي يتطهر به الاسم الأوّل من الأسماء الحسنى فإنه من نعوت البيت فتحصل المناسبة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٩٦] أي جعلت فيه البركة لعبادي

والهدى، فمن رأى البيت ولم يجد عنده زيادة إلهية فما نال من بركة البيت شيئاً لأن البركة الزيادة فما أضافه الحق فدلّ على أن قصده غير صحيح، فإن تعجيل الطعام للضيف سنّة، فليجعل اغتساله أولاً لا يجعله ثانياً لما تقدمه من غسل الإحرام فإنه طهارة خاص تليق بمشاهدة البيت والطواف به لا مناسبة بينه وبين الاغتسال للإحرام إلاّ من وجه ما، فإذا زعم أنه تطهّر بهذا الطهر وفرغ من طوافه يتفقد باطنه فإن الله ما جعل البركة فيه والهدى وهو البيان أي يتبين له ذلك الذي زاده ربه من العلم به، فما جعلت البركة في البيت إلاّ أن يكون يعطي خازنه للطائف به القادم عليه من خلع البركة والقرب والعناية والبيان الذي هو الهدى في الأمور المشكلة في الأحوال والمسائل المبهمات الإلهية في العلم بالله ما يليق بمثل ذلك البيت المصطفى محل يمين الحق المبايع المقبل المسجود عليه، فإن هذا البيت خزانة الله من البركات والهدى.

وقد نبّه الشارع إشارة بذكر الكنز الذي فيه، وأي كنز أعظم ممّا ذكر الله من البركة والهدى حيث جعلهما عين البيت فكنزه من أضيف إليه وهو الله فلينظر الطائف القادم إذا فرغ من طوافه إلى قلبه فإن وجد زيادة من معرفة ربّه وبياناً في معرفته لم تكن عنده فيعلم عند ذلك صحة اغتساله لدخول مكة، وإن لم يجد شيئاً من ذلك فيعلم أنه ما تطهر وما قدم على ربه ولا طاف ببيته فإنه من المحال أن ينزل أحد على كريم غني ويدخل بيته ولا يضيفه، فإذا لم يجد الزيادة فما زاد على غسله بالماء وقدومه على الأحجار المبنية فهو صاحب عناء وخيبة في قلبه وما له سوى أجر الأعمال الظاهرة في الآخرة في الجنان وهو الحاصل لعامة المؤمنين، فإن جاور جاور الأحجار لا العين، وإن رجع إلى بلده رجع بخفي حنين، جعلنا الله من أصحاب القلوب أهل الله وخاصته آمين بعزّته، فإن اعترف المصاب بعدم الزيادة وما رزىء به كان له أجر المصاب من الأجور في الآخرة وحرم المعرفة في العاجل.

باب الاغتسال للإحرام

اعتباره تطهير الجوارح ممّا لا يجوز للمحرم أن يفعله، وتطهير الباطن من كل ما خلف وراءه، فكما تركه حسّاً من أهل ومال وولد وقدم على بيت الله بظاهره فلا يلتفت بقلبه إلاّ إلى ما توجّه إليه، ويمنع أن يدخل قلبه أو يخطر له شيء ممّا خلفه وراءه بالتوبة والرجوع إلى الله، ولهذا سمّي غسل الإحرام لما يحرم عليه ظاهراً وباطناً، فإن لم تكن هذه حالته فليس بمحرم باطناً، فإن البواب قد نام وغفل وبقي الباب بلا حافظ، فلم تجد خواطر النفوس ولا خواطر الشياطين من يمنعها من الدخول إلى قلبه فهو يقول: لبيك بلسانه ويتخيل أنه يجيب نداء ربه بالقدوم عليه وهو يجيب نداء خاطر نفسه أو شيطانه الذي يناديه في قلبه: يا فلان، فيقول: لبيك، فيقول له الخاطر بحسب ما بعثه به صاحبه من نفس أو شيطان وما جاءه به من غير ما شرع له من الإقبال عليه في تلك الحالة، فيقول له صاحب ذلك الخاطر عند قوله: لبيك اللهم لبيك أهلاً وسهلاً لبيت من يعطيك الحرمان والخيبة والخسران المبين ويفرح بأن جعله إلهاً ولباه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بلسان الباطن والحال وما تقدم من النية ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ

﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من وجودكم بقلوبكم إلى ما خلفتموه حسّاً وراء ظهوركم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور: الآية ١٤] فيغفر الله لهم ما حدّثوا به أنفسهم وما أخطر لهم الشيطان في تلك الحالة بعناية التلبية الظاهرة لا غير، وما أعطاهم في قلوبهم ما أعطاه لأهل الاغتسال الباطن من المحرمين.

باب الاغتسال عند الإسلام وهو سنّة بل فرض

الاغتسال عند الإسلام مشروع وقد ورد به الخبر النبويّ. وأما اعتباره في الباطن فإن الإسلام الانقياد، فإذا أظهر الإنسان انقياد الظاهر كان مسلماً ظاهراً فيجب عليه الانقياد بباطنه حتى يكون مسلماً باطناً كما كان ظاهراً، فهو هنا تطهير الباطن عند الإسلام بالإيمان، قال تعالىٰ في حق طائفة قالت آمنا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٤] وهو الطهارة الباطنة النافعة المنجية من التخليد في النار.

باب الاغتسال لصلاة الجمعة

اعتباره في الباطن طهارة القلب لاجتماعه بربه واجتماع همّته عليه لمناجاته برفع الحجاب عن قلبه ولهذا قال: من يرى أن الجمعة تصحّ بالاثنين وتقام وبه أقول: يقول تعالىٰ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين الحديث. وما ذكر ثالثاً يقول العبد كذا فأقول له كذا، فلا بدّ من طلب منه هذه الحالة أن يتطهر لها طهراً خاصاً، بل أقول: إن لكل حالة للعبد مع الله تعالىٰ طهارة خاصة، فإنه مقام وصلة، ولهذا شرعت الجمعة ركعتين: فالأولى من العبد لله بما يقول. والثانية من الله للعبد بما يخبر به في إجابته قول عبده، أو يخبر به الملأ الأعلى بحسب ما يفوه به العبد في صلاته، غير أنه في صلاة الجمعة بمقتضى ما شرع له أن يجهر بالقراءة ولا بدّ فيقول الله للملأ الأعلى: حمدني عبدي أو ما قال من إجابة وثناء وتفويض وتمجيد.

باب الاغتسال ليوم الجمعة

الاعتبار الطهارة بالأزل للزمان اليوميّ من السبعة الأيام التي هي أيام الجمعة، فإن الله قد شرّع حقاً واجباً على كل عبد أن يغتسل في كل سبعة أيام، فغسل يوم الجمعة لليوم لا للصلاة، فكانت الطهارة لصلاة الجمعة طهارة الحال، وهذه طهارة الزمان، فإن العلماء اختلفوا، فمن قائل: إن الغسل إنما هو ليوم الجمعة وهو مذهبنا، فإن أوقعه قبل صلاة الجمعة ونوى أيضاً الاغتسال لصلاة الجمعة فهو أفضل. ومن قائل: إنه لصلاة الجمعة في يوم الجمعة وهو الأفضل بلا خلاف حتى لو تركه قبل الصلاة وجب عليه أن يغتسل ما لم تغرب الشمس. ولما قلنا إن جمع العبد على الحق في هذا اليوم الزمانيّ كانت نسبة هذا اليوم إلى جناب الحق ما يدخل الأزل من التقديرات الزمانية فيه بتعيين توجهات الحق لإيجاد الكائنات في الأزمان المختلفات التي يصحبها القبل والبعد والآن ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [سورة الروم: الآية ٤] فاعلم ذلك فإنه دقيق جدّاً، فمن اغتسل لصلاة الجمعة فقد جمع بين الغسل للحال والزمان، ومن اغتسل ليوم الجمعة بعد الصلاة فقد أفرد وهو قدح في مسمّى الجمعة فالأظهر أنه مشروع في يوم الجمعة ولصلاة الجمعة وهو الأوجه وما يبعد أن يكون مقصود الشارع به ذلك.

باب غسل المستحاضة

وسيرد ونبين فيه مذهبنا. وأما اعتباره فالاستحاضة مرض والعبد مأمور بتصحيح عبادته لا يدخلها شيء من المرض، فمهما اعتلّ في عبادة ما من عباداته تطهر من تلك العلة وأزالها حتى يعبد الله عبداً خالصاً محضاً لا تشوبه علة ولا مرض في عبادته ولا عبودته.

باب الاغتسال من الحيض

الحيض ركضة شيطان فيجب الاغتسال منه، قال تعالىٰ: إنه ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [سورة المائدة: الآية ٩٠] فيجب تطهير القلب من لمة الشيطان إذا نزلت به ومسّه في باطنه وتطهيرها بلمة الملك، والقصة البيضاء هي العلامة أو من بعض العلامات على عناية الله بهذا القلب حيث طرد عنه وأزال ركضة الشيطان فيستعمل لمة الملك عند ذلك وهو تطهير القلب، وإن كنيت عن ذلك بالأصبعين وكلاهما رحمة فإنه أضافهما إلى الرحمن، فلولا رحم الله عبده بتلك اللمة الشيطانية ما حصل له ثواب مخالفته بالتبديل في العدول عنه إلى العمل بلمة الملك فله أجران، فلهذا قلنا إنه أضافهما إلى الاسم الرحمن، فإذا أزاغه جاهد نفسه أن لا يفعل ما أماله إليه فجوزي أجر المجاهد، فإن عمل وتاب أثر الفعل بعد مجاهدة فساعد الشيطان عليه القدر السابق بالفعل فوقع منه الفعل ورأى أن ذلك من الشيطان مؤمناً بذلك مصدّقاً كما قال موسىٰ عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة القصص: الآية ١٥] وتاب عقيب وقوع الفعل وأعني بالتوبة هنا الندم فإنه معظم أركان التوبة وقد ورد أن الندم توبة كان له أجر شهيد لوقوع الفعل منه والشهيد حيّ ليس بميت، وأي حياة أعظم أو أكمل من حياة القلوب مع الله في أي فعل كان، فإن الحضور مع الإيمان عند وقوع المخالفة يردّ ذلك العمل حياً بحياة الحضور يستغفر له إلى يوم القيامة، فهذا من عناية الاسم الرحمن الذي أضاف الأصبعين إليه، فالشيطان يسعى في تضعيف الخير للعبد وهو لا يشعر، فإن الحرص أعماه ويحوز الوبال وإثم تلك المعصية عليه، وهذا من مكر الله تعالىٰ بإبليس، فإنه لو علم أن الله يسعد العبد بتلك اللمة من الشيطان سعادة خاصة ما ألقى إليه شيئاً من ذلك، وهذا المكر الإلهيّ الذي مكر به في حق إبليس ما رأيت أحداً نبّه عليه، ولولا علمي بإبليس ومعرفتي بجهله وحرصه على التحريض على المخالفة ما نبهت على هذا لعلمي بأنه لولا هذا المانع لاجتنب لمة المخالفة، فهذا هو الذي حملني على ذكرها لأن الشيطان لا يقف عندها لحجابه بحرصه على شقاوة العبد وجهله بأن الله يتوب على هذا العبد الخاص، فإن كل ممكور به إنما يمكر الله به من حيث لا يشعر، وقد يشعر بذلك المكر غير الممكور به.

باب الاغتسال من المنيّ الخارج على غير وجه اللذة

اختلف فيه، فمن قائل: بوجوبه. ومن قائل: لا يجب عليه غسل وبه أقول.

وصل حكم الباطن فيه: اعتبار الجنابة الغربة والغربة لا تكون إلاّ بمفارقة الوطن وموطن الإنسان عبوديته، فإذا فارق موطنه ودخل في حدود الربوبية فاتصف بوصف من أوصاف

السيادة على أبناء موطنه وأمثاله ولم يجد لذة لذلك فما وفى صفة السيادة حقّها، فإن الكامل لذة كماله لا تقارنها لذّة أصلاً، والابتهاج الكماليّ لا يشبهه ابتهاج، فلما لم يوف الصفة حقّها تعيّن عليه الاغتسال وهو الاعتراف بما قصر به في حق تلك الصفة الإلهية، فمن هنا أوجب الغسل من أوجبه على من خرج منه المنيّ في اليقظة من غير التذاذ، ومن رأى أن صفة الكمال التي تنبغي للواجب الوجود بنفسه إذا اتّصف بها العبد في غربته لم يكن لها حكم فيه لأنه ليس بمحل لها لم يوجب عليه غسلاً.

باب الاغتسال من الماء يجده النائم إذا هو استيقظ ولا يذكر احتلاماً

في مثل هذا بقي حكم قوله ﷺ: «**إِنَّمَا المَاءُ مِنَ المَاءِ**» فهو مخصص ما هو منسوخ كما يراه بعضهم.

وصل اعتباره في الباطن: العارف يجد قبضاً أو بسطاً في حال من الأحوال لا يعرف سببه، وهو أمر خطر عند أهل الطريق، فيعلم أن ذلك لغفلة منه عن مراقبة قلبه في وارداته وقلة نفوذ بصيرته في مناسبة حاله مع الأمر الذي أورثه تلك الصفة، فيتعين عليه التسليم لموارد القضاء حتى يرى ما ينتج له ذلك في المستقبل، فإذا عرفه وجب عليه الاغتسال بالحضور التام مع الحق في علم المناسبات حتى لا يجهل ما يرد عليه من الحق من واردات التقديس، وما الاسم الذي جاءه بذلك، وما الاسم الذي جيء به من عنده، وما الاسم الإلهيّ الذي هو في الحال حاكم عليه وهو الذي استدعى ذلك الوارد فهذه ثلاثة: الاسم المستدعي، والاسم المستدعى منه، والاسم الوارد به، فإن الحق من حيث ذاته لا سبيل لمناسبة تربطنا به أو تربطه بنا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: الآية ١١] فبأسمائه نتعلق، وبها نتخلق، وبها نتحقق، والله الموفق.

باب الاغتسال من التقاء الختانين من غير إنزال

قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا الْتَقَى الخِتَانُ الخِتَانَ فَقَدْ وَجَبَ الغُسْلُ**» واختلف العلماء في هذه المسألة، فمن قائل: بأنه يجب الغسل من التقاء الختانين. ومن قائل: بأنه لا يجب الغسل من التقاء الختانين وبه أقول.

وصل: الاعتبار في ذلك إذا جاوز العبد حدّه ودخل في حدود الربوبية وأدخل ربّه في الحدّ معه بما وصفه به ممّا هو من صفات الممكنات فقد وجب عليه الطهر من ذلك، فإن تنزيه العبد أن لا يخرج عن إمكانه ولا يدخل الواجب لنفسه في إمكانه، فلا يقول: يجوز أن يفعل الله كذا، أو يجوز أن لا يفعله، فإن ذلك يطلب المرجح والحق له الوجوب على الإطلاق، والذي ينبغي أن يقال: يجوز أن توجد الحركة من المتحرّك ويجوز أن لا توجد فيفتقر إلى المرجح، فإذا كان العالم بالله تعالىٰ بهذه المثابة وجب عليه الاغتسال وهو الطهر من هذا العلم بالعلم الذي لا يدخله تحت الجواز، وسترد هذه المسألة إن شاء الله.

باب الاغتسال من الجنابة على وجه اللذة

قد قرّرنا أنّ الجنابة هي الغربة، وهي هنا غربة العبد عن موطنه الذي يستحقه، وليس إلاّ العبودية أو تغريب صفة ربانية عن موطنها فيتصف بها أو يصف بها ممكناً من الممكنات فيجب الطهر في هذه المسألة بلا خلاف. واعلم أن هذا الغسل الواحد المذكور في هذا الباب يتفرّع منه مائة وخمسون حالاً يجب الاغتسال على العبد في قلبه من كل حال منها، ونحن نذكر لك أعيانها كلها إن شاء الله تعالىٰ في عشرة فصول كل فصل منها يتضمن خمسة عشر حالاً لتعرف كيف تلقاها إذا وردت على قلب العبد لأنه لا بدّ من ورودها على كل قلب من العوام والخصوص، والله المؤيّد والملهم لا قوّة إلاّ به، فمن ذلك:

الفصل الأوّل: الجبروت والألوهية والعزّة والمهيمنية والإيمان والقيام والشوق والولاء والظلمة والسحر وعموم الرحمة وخصوصها والسلامة والطهارة والملك.

الفصل الثاني: الكبرياء والستر والصورة والخلق والبراءة والإخلاص والإقرار والبرا والنصيحة والحب والقهر والهبة والرزق والفتوح والعلم.

الفصل الثالث: البسط والقبض والإعزاز ورفع الدرج وخفض الميزان والشرك والإنصاف والطاعة والرضى والقناعة والإذلال والأصوات والرؤية والقضاء والعدالة.

الفصل الرابع: اللطف والاختبار ورفع الستور والعظمة والحلم والشكر والاعتلاء والمحافظة والتقدير والزيادة والحدود والهوى والمنازعة والولاية والتمليك.

الفصل الخامس: الرحم وإدخال السرور والقطيعة والخداع والاستدراج والحسبان والجلالة والكرم والمراقبة والإجابة والاتساع والحكمة والوداد والبعث والشرف.

الفصل السادس: الشهادة والحق المحلوف به والوكالة والقوّة والصلابة في كل شيء والنصرة والثناء والإحصاء والابتداء والإعادة والصدقة والقول والعفو والأمر والنهي.

الفصل السابع: الأخلاق والمال والجاه والزيادة والإيمان والحياة والموت والإحياء والقيومية والوجدان والاستشراف والوحدة والصمداني والقدرة والاقتدار.

الفصل الثامن: التقديم والتأخير والدار الأولى والآخرة والاختفاء وإشالة الحجب والإحسان والرجوع والانتقام والصفح والحجر والنكاح والرياء والاختلاق والبهت.

الفصل التاسع: الرأفة وملك الملك والكرامات والآجال والتعالي والمغالطة والجمع والاستغناء والتعدّي والكفاية والسخاء والكذب والتكذيب والسياسة والنواميس.

الفصل العاشر: المنع والهداية والانتفاع والضرر والنور والابتداع والبقاء والتوارث والرشد والإيناس والأذى والامتنان والحماسة والمقاومة والجاسوس.

اعلم أيّدنا الله وإياك بروح منه أن جميع ما ذكرنا في هذه الفصول وما تتضمنه كل حالة منها ممّا لم نذكره مخافة التطويل يجب على الإنسان طهارة باطنه وقلبه منه في مذهب أهل الله وخاصته من أهل الكشف بلا خلاف بين أهل الأذواق في ذلك، ولكن يحتاج المتطهر من أكثرها إلى علم غزير في كيفية الطهارة ممّا ذكرنا، وقد يكون بعضها طهور البعض، ثم نرجع

إلى مقصودنا من إيراد الأحكام المشروعة في هذه الطهارة التي هي الاغتسال بالماء واعتباراتها وأحكامها في الباطن فأقول: قد ذكرنا في الوضوء على من تجب طهارته ومتى يكون وجوبها فلا نحتاج إلى ذكر ما يشترك فيه الطهارتان.

باب التدلّك باليد في الغسل في جميع البدن

اختلف الناس من علماء الشريعة في التدلّك باليد في جميع الجسد، فمن قائل: إن ذلك شرط في كمال الطهارة. ومن قائل: ليس بشرط، وأمّا مذهبنا فإيصال الماء إلى الجسد حتى يعمّه بأي شيء كان يمكن إيصاله.

وصل: حكم ذلك في الباطن الاستقصاء في طهارة الباطن لما فيها من الخفاء الذي تضمره النفوس من حب المحمدة عند الناس بما يظهر عنها من الخير، فبأيّ وجه أمكن إزالة هذه الصفة، وكل مانع يمنع من عموم طهارة الباطن فلم تحصل الطهارة.

باب النية في الغسل

اختلف العلماء في شرط النية في الغسل، فمن العلماء من اشترطها وبه أقول. ومنهم من لم يشترطها.

وصل اعتبارها في الباطن: لا بدّ من شرطها في طهارة الباطن فإنها روح العمل وحياته والنية من عمل الباطن فلا بدّ منها، وقد تقدّم الكلام عليها في أول الباب ظاهراً وباطناً.

باب المضمضة والاستنشاق في الغسل

اختلف العلماء علماء الشريعة في المضمضة والاستنشاق في الغسل، فمن قائل: بوجوبها. ومن قائل: بعدم وجوبها. والذي نذهب إليه في ذلك أن الغسل لما كان يتضمن الوضوء كان حكمها من حيث إنه متوضىء في اغتساله لا من حيث إنه مغتسل، فإنه ما ورد: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا تَمَضْمَضَ وَلاَ اسْتَنْشَقَ فِي غُسْلِهِ إلاَّ فِي الوُضُوءِ فِيهِ وما رأيت أحداً نبّه على مثل هذا في اختلافهم في ذلك، فالحكم فيها عندي راجع إلى حكم الوضوء، والوضوء عندنا لا بدّ منه في الاغتسال من الجنابة، وعندنا في هذه المسألة نظر في حالتين: الحالة الواحدة فيمن جامع ولم ينزل فعليه وضوءان في اغتساله، فإن جامع وأنزل فعليه وضوء واحد، إلاّ أن مذهبنا أن التقاء الختانين دون إنزال لا يوجب الغسل ويوجب الوضوء، وبه قال أبو سعيد الخدريّ وغيره من الصحابة والأعمش، وقد تقدّم الكلام في شرط الترتيب والفور في الوضوء واعتباره.

باب في ناقض هذه الطهارة التي هي الغسل

فناقضها الجنابة والحيض والاستحاضة والتقاء الختانين فالحيض بلا خلاف، وكذلك إنزال الماء على وجه اللذّة في اليقظة بلا خلاف، وما عدا هذين بخلاف، فإنّ بعض الناس من المتقدّمين لا يرى على المرأة غسلاً إذا وجدت الماء من الاحتلام مع وجود اللذة.

باب في إيجاب الطهر من الوطء

فمن قائل: بوجوبه أنزل أو لم ينزل إذا التقى الختانان. ومن قائل: بوجوبه مع إنزال الماء وبه أقول. وبإنزال الماء من غير وطء وبه قال جماعة من أهل الظاهر أنه يجب الطهر من الإنزال فقط.

وصل في اعتباره في الباطن: الوطء توجّه المؤثر على المؤثر فيه بضرب من الوهب، فلا يخلو المؤثر فيه أن يكون حاضراً عارفاً بخصوص ذلك المؤثر من الأسماء الإلهية فلا يجب عليه الطهر أو لا يكون فيجب عليه الطهر، وقد يعطي ذلك المؤثر نومة القلب، ثم لا يخلو هذا الاسم الإلهيّ أن يؤثر علم كون من الأكوان أو علماً يتعلق بالله، وعلى الحالتين فإن رأى نفسه موطأ ولم يأخذ بالله كالصدقة تقع بيد الرحمن وإن أخذها السائل والله المعطي فيكون سبحانه المعطي والآخذ فلا طهارة عليه في الباطن، فإن بالحق تكون طهارة الأشياء، فإن غاب عن هذا الشهود ورأى نفسه أنه هو الآخذ ما أنزله الله على قلبه من العلوم وجبت عليه الطهارة من رؤية نفسه، وكذلك إذا وطيء غيره بمسألة يعلمه إياها بالحال أو بالقول، فإن كان عن حضور فلا طهارة عليه فإنه ما زال على طهارته، وإن رأى نفسه في تعليمه غيره بالحال أو بالقول وجبت عليه الطهارة من رؤية نفسه لا بدّ من ذلك، فإن رجال الله في هذه الطريق بالله يتحركون وبه يسكنون عن مشاهدة وكشف وعامتهم عن حضور اعتقاد وإيمان بما ورد بأن الأمر بيده وأن نواصي عباده وكل دابة بيده.

باب في الصفة المعتبرة في كون خروج المنيّ موجباً للاغتسال

اختلفت العلماء في الصفة المعتبرة في كون خروج المنيّ موجباً للاغتسال، فمن قائل: باعتبار اللذة. ومن قائل: بنفس الخروج سواء كان عن لذة أو بغير لذة.

وصل: الاعتبار في هذا الباب اللذة من الملتذ بها. إمّا أن تكون نفسية أو إلهية، فإن كانت نفسية طبيعية فقد وجب الغسل، وإن كانت غير نفسية فلا يخلو ذلك العلم الذي هو بمنزلة الجنابة، إمّا أن يتعلق بالله أو يتعلق بكون من الأكوان، فإن تعلّق بالله ولذته غير نفسية فلا طهر عليه، وإن تعلق بالأكوان فعليه الطهر سواء التذّ أو لم يلتذّ. ومعنى قولنا: اللذة الإلهية أعني لذة الكمال لا لذة الوارد، ولذة الكمال في العبد أن يكون عبداً محضاً لا يتصف بالغربة عن موطنه في باطنه، ولو خلع عليه الحق من صفات السيادة ما شاء من حضرته لا يخرجه ذلك عن موطنه، وإذا كان كذلك فما هو ذو جنابة إذ لا غربة عنده فإنه ما برح في موطنه، وهو غاية الكمال والطهارة معرفة للنقص.

باب في دخول الجنب المسجد

فمن قائل: بالمنع بإطلاق. ومن قائل: بالمنع إلاّ لعابر فيه غير مقيم. ومن قائل: بإباحة ذلك للجميع وبه أقول.

وصل: الاعتبار في ذلك العارف من كونه عارفاً لا يبرح عند الله دائماً في الحديث:

«**جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً**» ولا ينفك الجنب أن يكون في الأرض، وإذا كان في الأرض فهو في المسجد العام المشروع الذي لا يتقيد بشروط المساجد المعلومة بالعرف، ثم إن العارف بل العالم كله علوه وسفله لا تصحّ في حاله الإقامة له فهو عابر أبداً مع الأنفاس، فالعلماء بالله يشاهدون هذا العبور، وغير العلماء بالله يتخيلون أنهم مقيمون، والوجود على خلاف ذلك فإن الإله الموجد في كل نفس موجد يفعل فلا يعطل نفساً واحداً تتصف منه بالإقامة كما قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٢٩] وقال تعالىٰ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: الآية ٣١] وقال بيده الميزان يخفض ويرفع، ومن قال بالمنع من ذلك غلب عليه رؤية نفسه أنه ليس بمحل طاهر حيث لم يتخلق بالأسماء الإلهية، ولو تخلق بها ولم يفن عن تخلّقه عنده فما تخلّق بها، وعندنا أن المتخلّق بالأسماء مهما فني عن تخلّقه بها فليس بمتخلّق، فإن المعنى بكونه متخلّقاً بها أي تقوم به كما يقوم الخلوق بالمتخلّق به، وقد يخلقه غيره فيكون عند ذلك مخلّقاً بالأخلاق الإلهية، وذلك أن العبد مأمور والحق لا يأمر نفسه، فالتخلّق امتثال أمر الله بقوّة الله وعونه، فمن الأدب أن يرى المتخلّق كونه متخلّقاً مكلفاً وإن كان الحق سمعه وبصره، أليس الحق قد أثبت عين عبده بالضمير في سمعه وبصره؟ فأين يذهب هذا العبد والعين موجودة وغايته أن يكون صورة في هيولى الوجود المطلق مقيدة وليس له بعد هذا مرتبة إلاّ العدم والعدم لا يقبل الصورة فافهم. انتهى الجزء الثالث والثلاثون.

(الجزء الرابع والثلاثون)

بسم الله الرحمن الرحيم

باب مس الجنب المصحف

اختلف علماء الشريعة في مسّ الجنب المصحف، فذهب قوم إلى إجازة مسّ الجنب المصحف، ومنع قوم من ذلك.

وصل في اعتبار ذلك: العالم كله كلمات الله في الوجود، قال الله تعالىٰ في حق عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [سورة النساء: الآية ١٧١] وقال تعالىٰ: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠] والكلم جمع كلمة، ويقول تعالىٰ للشيء إذا أراده ﴿كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] فيكسو ذلك الشيء التكوين فيكون، فالوجود فيه رق منشور، والعالم فيه كتاب مسطور بل هو مرقوم لأن له وجهين: وجه يطلب العلوّ والأسماء الإلهية، ووجه يطلب السفل وهو الطبيعة، فلهذا رجحنا اسم المرقوم على المسطور، فكل وجه من المرقوم مسطور، وفي ذلك أقول: [البسيط]

إن الكيانَ عجيبٌ في تقلُّبه ... فيه لناظره نَقْشٌ وتَحْبيرُ

انظر إليه ترى ما فيه من بِدَعٍ ... إذ كلُّ وجهٍ من المرقوم مَسْطورُ

إن الــوجــودَ لَــسِــرٌّ حــار نــاظِــرُه الــكــونُ مُــرْتَــقَــمٌ والــرقُّ مــنــشــورُ

فالأمر كما قلنا رق منشور والأعيان فيه كتاب مسطور، فهو كلمات الله التي لا تنفد، فبيته معمور، وسقفه مرفوع، وحرمه ممنوع، وأمره مسموع، فأين يذهب هذا العبد وهو من جملة حروف هذا المصحف ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٠، ٤١] فيكشف ما تدعون، هل تدعون الشريك لعينه؟ لا والله إلاَّ لكونه في اعتقادكم إلهاً، فالله دعوتم لا تلك الصورة، ولهذا أجيب دعاؤكم، والصورة لا تضرّ ولا تنفع، انظر في قوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [سورة الرعد: الآية ٣٣] فإن سموهم بهم فهم عينهم فلا يقولون في معبودهم حجر ولا شجر ولا كوكب ينحته بيده ثم يعبده فما عبد جوهره والصورة من عمله وإن سموهم بالإله عرفت أن الإله عبدوا هذا تحقيق الأمر في نفسه، وقد أشارت الآية الواردة في القرآن إلى ما ذهبنا إليه بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فهو عندنا بمعنى حكم، وعند من لا علم له من علماء الرسوم بالحقائق بمعنى أمر، وبين المعنيين في التحقيق بون بعيد، وفي قول محمد ﷺ معلماً لنا: «**اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**». وفي حديث جبريل معه ﷺ حين سأله عن الإحسان بحضور جماعة من الصحابة ما هو؟ فقال ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فجاء بكأنّ وقد علمت أن الخيال خزانة المحسوسات وأن الحق ليس بمحسوس لنا وما نعقل منه إلاَّ وجوده، فجاء بكأنّ لندخله تحت قوّة البصر فنلحقه بالوهم بالمحسوسات فقربنا من هؤلاء الذين عبدوه فيما نحتوه فتدبر ما أشرنا إليه فإن الأمر لا يكون إلاَّ كما قرّره الشارع، فقرّر في موضع ما أنكره في موضع آخر، فالعالم منّا أن يقرر ما قرّره الحق في الموضع الذي قرّره الحق، ولينكر ما أنكره الحق في الموضع الذي أنكره الحق، فما ثم إلاَّ الإيمان الصرف فلا تأخذ من سلطان عقلك إلاَّ القبول، فانظر ما أشرف حرف التمثيل الذي هو كأنّ: [البسيط]

كــأنَّ ســلــطــانَــنــا فــانــظــرْ لــه خــبــراً فــإنــه خــبــرٌ عــنــهــا مــع الــخــبَــرِ
كــأنّ حــرفٌ لــه فــي الــكــون سَــلْــطَــنــةٌ إن كنت تعلم أن العلم في النَّظَرِ
هــو الإمــامُ الــذي فــيــه نــصــرِّفــه ولا يــقــاومــه خــلــقٌ مــن الــبــشَــرِ

ولا شك أن أهل الله جعلوا القلب كالمصحف الذي يحوي على كلام الله، كما أن القلب قد وسع الحق جلّ جلاله حين ضاق عنه السماء والأرض، فكما أمرنا بتنزيه القلب عن أن يكون فيه دنس من دخول الأغيار فيه، ورأينا أن المصحف قد حوى على كلام الله وهو صفته والصفة لا تفارق الموصوف، فمن نزّه الصفة نزّه الموصوف، ومن راعى الدليل على أمر ما فقد راعى المدلول الذي هو ذلك الأمر، فعلى كلا المذهبين ينبغي أن ينزّه المصحف أن يمسّه جنب، وقد نهينا أن نسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ، فسمّي المصحف قرآناً لظهوره فيه، وما نهى حملة القرآن عن السفر إلى أرض العدوّ، وإن كان القرآن في أجوافهم محفوظاً مثل ما هو في المصحف وذلك لبطونه فيهم، ألا ترى النبيّ ﷺ كان لا يحجزه شيء عن قراءة القرآن ليس الجنابة لظهور القرآن عند القراءة بالحروف التي ينطق بها التي أخبرنا الحق أنها

كلامه تعالىٰ فقال لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦] فتلاه عليه رسول الله ﷺ، فلا ينبغي للجنب وهو الغريب عمّا يستحقه الحق، فإن البعد بالحقائق والحدود ما يكون فيه قرب أبداً، وبعد المسافة قد يقرب صاحبها من صاحبه الذي يريد قربه، فكما لا يكون الرب عبداً كذلك لا يكون العبد رباً لأنه لنفسه هو عبد، كما أنّ الرب لذاته هو رب فلا يتصف العبد بشيء من صفات الحق بالمعنى الذي اتصف بها الحق ولا الحق يتصف بما هو حقيقة للعبد، فالجنب لا يمسّ المصحف أبداً بهذا الاعتبار، ولا ينبغي أن يقرأه في هذه الحال، وينبغي للعبد أن لا تظهر عليه إلاّ العبادة المحضة فإنه جنب كله فلا يمسّ المصحف، فإن تخلق فحينئذ تكون يد الحق تمسّ المصحف فإنه قال عن نفسه في العبد إذا أحبّه أنه يده التي يبطش بها، فانظر في هذا القرب المفرط وهذا الاتحاد أين هو من بعد الحقائق؟ والله ما عرف الله إلاّ الله، فلا تتعب نفسك يا صاحب النظر، ودر مع الحق كيفما دار، وخذ منه ما يعرّفك به من نفسه ولا تقس فتفتلس لا بل تبتئس، وتعلم أن يد الحق طاهرة على أصلها مقدّسة كطهارة الماء المستعمل في العبادة، فتنبّه لما عرّفتك به في هذا الفصل.

باب قراءة القرآن للجنب

اختلف علماء الشريعة في ذلك، فمن الناس من منع قراءة القرآن للجنب بحدّ وبغير حدّ، ومن الناس من أجاز ذلك. وأما الوارث عندي فلا يقرأ القرآن جنباً اقتداء بمن ورثه ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٢١] ولم يكن يحجزه عن قراءة القرآن شيء ليس الجنابة، ولكن الغالب عندي من قرينة الحال أنه كره أن يذكر الله تالياً إلاّ على طهارة كاملة فإنه تيمم لردّ السلام وقال: **«إني كرهت أن أذكر الله إلاّ على طهر»**، أو قال: على طهارة. ومن الناس من أجاز للجنب قراءة القرآن بحدّ وبغير حدّ، وبه أقول بغير حدّ أيضاً ولكن أكرهه اقتداء برسول الله ﷺ.

وصل الاعتبار في ذلك: المقتدي بأفعال رسول الله ﷺ يمنع من قراءة القرآن في الجنابة بغير حدّ، وقد أعلمناك أن الجنابة هي الغربة، والغربة نزوح الشخص عن موطنه الذي ربي فيه وولد فيه، فمن اغترب عن موطنه حرم عليه الاتصاف بالأسماء الإلهية في حال غربته، قال تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: الآية ٤٩] كما كان عند نفسه في زعمه فإنه تغرّب عن موطنه فهو صاحب دعوى، والذي أقول في هذه المسألة لأهل التحقيق: إن القرآن ما سمّي قرآناً إلاّ لحقيقة الجمعية التي فيه، فإنه يجمع ما أخبر الحق به عن نفسه وما أخبر به عن مخلوقاته وعباده ممّا حكاه عنهم، فلا يخلو هذا الجنب في تلاوته إذا أراد أن يتلو إما أن ينظر ويحضر في أن الحق يترجم لنا بكلامه ما قال عباده، أو ينظر فيه من حيث المترجم عنه، فإن نظر من حيث المترجم عنه فيتلو وبالأوّل فلا يتلو حتى يتطهر في باطنه، وصورة طهارة باطنه أن يكون الحق لسانه الذي يتكلم به كما كان الحق يده في مس المصحف فيكون الحق إذ ذاك هو يتلو كلامه لا العبد الجنب، ثم إنه للعارف فيما يتلوه الحق

عليه من صفات ذاته ممّا لا يخبر به عن أحد من خلقه ومن كونه كلّم عبده بهذا القرآن، فليس المقصود من ذلك التعريف إلاّ قبوله، وقبوله لا يكون إلاّ بالقلب، فإذا قبله الإيمان لم يمتنع من التلفظ به فإن القرآن في حقّنا نزل، ولهذا هو محدث الإتيان، والنزول قديم من كونه صفة المتكلم به وهو الله، وإنما قول من قال عن رسول الله ﷺ إنه لا يحجزه عن قراءة القرآن شيء ليس الجنابة فما هو قول رسول الله ﷺ وإنما هو قول الراوي وما هو معه في كل أحيانه، فالحاصل منه أن يقول: ما سمعته يقرأ القرآن في حال جنابته أي ما جهر به، ولا يلزم قارىء القرآن الجهر به إلاّ فيما شرع الجهر به، كتلقين المتعلم وكصلاة الجهر، والنهي ما صحّ عن رسول الله ﷺ في ذلك وما ورد والخير لا يمنع منه.

باب الحكم في الدماء

اعلم أن الدماء ثلاثة: دم حيض، ودم استحاضة، ودم نفاس، وهذه كلها مخصوصة بالمرأة لا حكم للرجل فيها، فليكن الاعتبار في ذلك للنفس فإن الغالب عليها التأنيث، فإن الله قال فيها: النفس اللوّامة والمطمئنة فأنثها، ولا حظّ للقلب في هذه الدماء ولا للروح فنقول: إن أهل الطريق من المتقدمين وجماعة من غيرهم ممّن اشترك مع أهل الله في الرياضات والمجاهدات من العقلاء قد أجمعوا على أن الكذب حيض النفوس، فليكن الصدق على هذا طهارة النفس من هذا الحيض، فدم الحيض ما خرج على وجه الصحة، ودم الاستحاضة ما خرج على وجه المرض فإنه خرج لعلة ولهذا حكم ولهذا حكم، فاعتباره أن حيض النفس وهو الكذب وهو كما قلنا دم يخرج على وجه الصحة فهو الكذب على الله الذي يقول الله تعالىٰ فيه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٩٣] وقول رسرل الله ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» فقوله متعمداً هو خروجه على وجه الصحة، وأما صاحب الشبهة فلا، فهذا يكذب ويعرف أنه يكذب، وصاحب الشبهة يقول: إنه صادق عند نفسه وهو كاذب في نفس الأمر.

وأما اعتبار دم الاستحاضة وهو الكذب لعلة فلا يمنع من الصلاة ولا من الوطء، وهذا يدلّك على أنه ليس بأذى، فإن الحيض هو أذى، فيتأذى الرجل بالنكاح في دم الحيض ولا يتأذى به في دم الاستحاضة وإن كان عن مرض، فإن هذا الكذب وإن كان يدل على الباطل وهو العدم فإن له رتبة في الوجود وهو التلفظ به، وكان المراد به دفع مضرة عمّا ينبغي دفعها بذلك الكذب، أو استجلاب منفعة مشروعة ممّا ينبغي أن يظهر مثل هذا فيها وبسببها، فيكون قربة إلى الله، حتى لو صدق في هذا الموطن كان بعداً عن الله، ألا ترى المستحاضة لا تمتنع من الصلاة مع سيلان دمها، وأما دم النفاس فهو عين دم الحيض، فإذا زاد على قدر زمان الحيض أو خرج عن تلك الصفة التي لدم الحيض خرج عن حكم الحيض، والعناية بدم النفاس أوجه من العناية بدم الحيض من غير نفاس، فإن الله ما أمسكه في الرحم ثم أرسله إلاّ ليزلق به سبيل خروج الولد رفقاً بأمّه، فيسهل على المرأة به خروج الولد، وخروج الولد هو

النشء الطاهر الخارج على فطرة الله والإقرار بربوبيته التي كانت له في قبض الذر، فكان الدم النفاس بهذا القصد خصوص وصف كالمعين لبقاء ذكر الله بإبقاء الذاكر من جهة وصف خاص، ولدم النفاس زمان ومدّة في الشرع كما لدم الحيض، ودم الاستحاضة ما له مدة يوقف عندها.

باب في أكثر أيام الحيض وأقلها وأقل أيام الطهر

اختلف العلماء في هذا فمن قائل: أكثر أيام الحيض خمسة عشر يوماً ومن قائل: أكثرها عشرة أيام. ومن قائل: أكثر أيام الحيض سبعة عشر يوماً، وأما أقل أيام الحيض فمن قائل: لا حدّ له في الأيام وبه أقول فإن أقل الحيض عندنا دفعة. ومن قائل: أقلّه يوم وليلة. ومن قائل: أقلّه ثلاثة أيام. وأمّا أقلّ أيام الطهر فمن قائل: عشرة أيام. ومن قائل: ثمانية أيام. ومن قائل: خمسة عشر. ومن قائل: سبعة عشر. ومن قائل: ساعة، وبه أقول ولا حدّ لأكثره.

وصل اعتبار هذا الباب: زمان كذب النفس النية فيمتد بامتداد ما نوته حتى يطهر بالتوبة من ذلك، فلا حدّ لأكثره ولا لأقله، وكذلك زمان الطهر لا حدّ له جملة واحدة فإنه لا حدّ للصدق غير أنه تحكم عليه المواطن الشرعية بالحمد والذمّ وأصله الحمد، كما أن الكذب تحكم عليه المواطن بالحمد والذمّ وأصله الذمّ، فالواجب عليه أن يصدق دائماً إلاّ أن يحكم الحال، والواجب عليه ترك الكذب دائماً إلاّ أن يحكم عليه حال ما وهو الكذب للعلة فأشبه دم الاستحاضة.

باب في دم النفاس في أقله وأكثره

اختلف العلماء في هذه المسألة، فمن قائل: لا حدّ لأقله وبه أقول. ومن قائل: حدّه خمسة وعشرون يوماً. ومن قائل: حدّه أحد عشر يوماً. ومن قائل: عشرون يوماً. وأما أكثر زمانه فمن قائل: ستون يوماً. ومن قائل: سبعة عشر يوماً. ومن قائل: أربعون يوماً. ومن قائل: للذكر ثلاثون يوماً، وللأنثى أربعون يوماً، والأولى أن يرجع في ذلك إلى أحوال النساء فإنه ما ثبتت فيه سنّة يرجع إليها.

وصل اعتباره في الباطن: لا حدّ للنية من الزمان كما قلنا في اعتبار دم الحيض فإن دم الحيض هو عين دم النفاس وقد اعتبرناه فإن النبيّ ﷺ قال للحائض: «**أُنفِسْتِ**» بهذا اللفظ.

باب في الدم تراه الحامل

اختلف فيه هل هو دم حيض أو هو دم استحاضة؟ وحكم كل قائل فيه بحكم ما ذهب إليه.

وصل اعتبار حكمه في الباطن: الحامل صفة النفس إذا امتلأت بالأمر الذي تجده فتبديه على غير وجهه وهو الكذب، وقد يكون ذلك عن عادة اعتادها كما قال بعضهم: [البسيط]

لا يكذب المرءُ إلاّ من مَهَانَتِهِ ... أو عادةِ السُّوء أو من قلّة الأدبِ

أمّا قوله: من مهانته فإن الملوك لا تكذب. وقوله: من قلّة الأدب لما جاء في الخبر أن الشخص إذا كذب الكذبة تباعد منه الملك ثلاثين ميلاً من نتن ما جاء به، فالكاذب فيما لا يجوز له الكذب فيه أساء الأدب مع الملك، فإن الملائكة تتأذّى ممّا يتأذى منه بنو آدم، والإنسان يتأذّى بالنتن كذلك الملك لقرب الشبه بين نشء الملك ونشء روح الإنسان.

باب في الصفرة والكدرة هل هي حيض أم ليس بحيض

اختلف العلماء في الصفرة والكدرة هل هي حيض أم لا؟ فمن قائل: إنها حيض في أيام الحيض. ومن قائل: لا تكون حيضاً إلاَّ بأثر الدم ومن قائل: ليست حيضاً وبه أقول.

وصل اعتباره في الباطن: الكذب بشبهة ليس صاحبه ممّن تعمد الكذب والأولى تركه إذا عرف أن ذلك شبهة فإنها ما سمّيت شبهة إلاَّ لكونها تشبه الحق من وجه وتشبه الباطل من وجه، فالأولى ترك مثل هذا إلاَّ أن يقترن معها دفع مضرة أو حصول منفعة دينية أو دنياوية، بخلاف الكذب المحض الذي هو لعينه وهذا لا يقع فيه عاقل أصلاً. وأما الكذب الذي هو بمنزلة دم الاستحاضة فيعتبر فيه صلاح الدين لصلاح الدنيا.

باب فيما يمنع دم الحيض في زمانه

اعلم أن الحيض في زمانه يمنع من الصلاة والصيام والوطء والطواف.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: الكذب في المناجاة، وهو أن تكون في الصلاة بظاهرك، وتكون مع غير الله في باطنك من محرّم وغيره واعتباره في الصوم، فالصوم هو الإمساك، وأنت ما مسكت نفسك عن الكذب كالحائض لا تمسك عن الأكل والشرب وهو الكذب الواجب إتيانه شرعاً وهو محمود، واعتباره في الطواف بالبيت وهو المشبه بأفضل الأشكال وهو الدور فهو كذب إلى غير نهاية فهو الإصرار على الكذب واعتباره في الجماع، أما الجماع فقصد المؤمن به كون الولد، والمقدّمات إذا كانت كاذبة خرجت النتيجة عن أصل فاسد وقد تصدق النتيجة وقد تكون مثل مقدماتها، فالأذى يعود على فاعل الجماع، يقول في زمان الكذب: لا تحضر الله تعالىٰ بخاطرك فإنه سوء أدب مع الله وقلّة حياء منه وجراءة عليه، وكيف ينبغي للعبد أن يجرأ على سيده ولا يستحيي منه مع علمه وتحققه أنه يراه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[سورة العلق: الآية ١٤].

باب في مباشرة الحائض

اختلف العلماء في صورة مباشرة الحائض، فقال قوم: يستباح من الحائض ما فوق الإزار. وقال قوم: لا يجتنب من الحائض إلاَّ موضع الدم خاصة وبه أقول.

وصل اعتباره في الباطن: قلنا: إن الحيض كذب النفوس. قيل لرسول الله ﷺ: «**أَيَزْنِي الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: أَيَشْرَبُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: أَيَسْرِقُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ لَهُ: أَيَكْذِبُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: لاَ**» فإذا رأت نفسك نفساً أخرى تفعل ما لا ينبغي فأكّد أن تجتنب من أفعالها الكذب على الله وعلى رسوله، والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه،

ومن عوّد نفسه الكذب على الناس يستدرجه الطبع حتى يكذب على الله فإن الطبع يسرقه، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] فتوعد عباده أشدّ الوعيد إذا هم افتروا على الله الكذب، وهذا الحكم سار في كل من كذب على الله، وقد ورد فيمن يكذب في حلمه أنه يكلف أن يعقد بين شعيرتين من نار لمناسبة ما جاء به من تأليف ما لا يصحّ ائتلافه فلم يأتلف في نفس الأمر، وكذلك لا يقدر أن يعقد تلك الشعيرتين أبداً، وهذا تكليف ما لا يطاق، فما عذّبه الله يوم القيامة إلاّ بفعله لا بغير ذلك.

باب وطء الحائض قبل الاغتسال وبعد الطهر المحقق

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢٢] بسكون الطاء وضم الهاء مخففاً، وقرىء بفتح الطاء والهاء مشدّداً. فمن قائل: بجوازه على قراءة من خفف. ومن قائل: بعدم جوازه على قراءة من شدّد وهو محتمل وبالأوّل أقول. ومن قائل: أن ذلك جائز إذا طهرت لأكثر أمد الحيض في مذهبه. ومن قائل: أن ذلك جائز إذا غسلت فرجها بالماء وبه أقول أيضاً.

وصل اعتباره في الباطن: ما يلقيه المعلم من العلم في نفس المتعلم إذا كان حديث عهد بصفة الدعوى الكاذبة لرعونة نفسه، فله أن يلقي إليه من العلم المتعلق بالتكوين ما يؤدّيه إلى استعمال غسل واحد فرد بنيّتين فيكون له الأجر مرّتين وإن لم يتب من تلك الدعوى إلاّ أنه غير قائل بها في الحال فهو طاهر المحل بالغفلة في ذلك الوقت، فإن خطر له خاطر الرجوع عن تلك الدعوى فهو بمنزلة المرأة تغسل فرجها بعد رؤية الطهر وإن لم تغتسل فإن تاب من الدعوى بالعمل بذلك الخاطر كان كالاغتسال للمرأة بعد الطهر.

باب من أتى امرأته وهي حائض هل يكفِّر

فمن قائل: لا كفارة عليه وبه أقول. ومن قائل: عليه الكفارة.

وصل اعتباره في الباطن: العالم يعطي الحكمة غير أهلها فلا شك أنه قد ظلمها فمن رأى أن لهذا الفعل كفارة فكفارته أن ينظر من فيه أهلية لعلم من العلوم النافعة عند الله الدينية وهو متعطش لذلك فيبادر من نفسه إلى تعليمه وتبريد غلة عطشه فيضع في محلها وعند أهلها فيكون ذلك كفارة لما فرط في الأوّل، ومن لم يرَ لذلك كفارة قال: يتوب ويستغفر الله وليس عليه طلب تعليم غيره على جهة الكفارة.

باب حكم طهارة المستحاضة

اختلف علماء الشريعة في طهر المستحاضة ما حكمها؟ فمن قائل: ليس عليها سوى طهر واحد إذا عرفت أن حيضتها انقضت ولا شيء عليها لا وضوء ولا غسل وحكمها حكم غير المستحاضة وبه أقول. وقسم آخر ممّن يقول: إنه ما عليها سوى طهر واحد أن عليها الوضوء لكل صلاة وهو أحوط. ومن قائل: إنها تغتسل لكل صلاة. ومن قائل: إنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: في مذهبنا أنه ليس على المستحاضة من كونها مستحاضة

طهر، كذلك النفس إذا كذبت لمصلحة مشروعة أوجب الشرع عليها فيها الكذب أو أباحه لا بل يكون عاصياً إن صدق في تلك الحالة فلا توبة عليها من تلك الكذبة، فكما أن دم الاستحاضة ليس عين دم الحيض وإن اشتركا في الدمية والمحل كذلك الكذب المشروع إباحته الحلال ليس عين الكذب المحرّم وقوعه منه وإن اشتركا في كونه كذباً وهو الإخبار بما ليس الأمر عليه في نفسه، فمن رأى التوبة من كون إطلاق اسم الكذب عليه بالحقيقة وإن كان مباحاً أو واجباً كحبيب العجميّ في حديثه مع الحسن البصريّ لما طلبه الحجاج للقتل والحكاية مشهورة قال بالتوبة منه كما قال بغسل المستحاضة للاشتراك في اسم الحيض، فإن الاستحاضة استفعال من الحيض.

باب في وطء المستحاضة

اختلف علماء الشريعة فيه على ثلاثة أقوال: قول بجوازه وبه أقول. وقول بعدم جوازه. وقول بعدم جوازه إلاَّ أن يطول ذلك بها.

وصل اعتباره في الباطن: لا يمتنع تعليم من تعلّم منه أنه لا يكذب إلاَّ لسبب مشروع وعلة مشروعة، فإن ذلك لا يقدح في عدالته بل هو نص في عدالته، وقد وقع مثل هذا من الأكابر الكمل من الرجال.

أبواب التيمم

التيمم القصد إلى الأرض الطيبة كان ذلك الأرض ما كان ممّا يسمّى أرضاً تراباً كان أو رملاً أو حجراً أو زرنيخاً، فإن فارق الأرض شيء من هذا كله وأمثاله لم يجز التيمم بما فارق الأرض من ذلك إلاَّ التراب خاصة لورود النص فيه وفي الأرض سواء فارقَ الأرض أو لم يفارق.

وصل اعتباره في الباطن: القصد إلى الأرض من كونها ذلولاً وهو القصد إلى العبودية مطلقاً لأن العبودية هي الذلّة والعبادة منها، فطهارة العبد إنما تكون باستيفاء ما يجب أن يكون العبد عليه من الذلّة والافتقار والوقوف عند مراسم سيده وحدوده وامتثال أوامره، فإن فارق النظر من كونه أرضاً فلا يتيمم إلاَّ بالتراب من ذلك لأنه من تراب خلق من نحن أبناؤه، وبما بقي فيه من الفقر والفاقة من قول العرب: تربت يد الرجل إذا افتقر. ثم إن التراب أسفل العناصر، فوقوف العبد مع حقيقته من حيث نشأته طهوره من كل حدث يخرجه من هذا المقام وهذا لا يكون إلاَّ بعدم وجدان الماء والماء العلم، فإن بالعلم حياة القلوب كما بالماء حياة الأرض، فكأنه حالة المقلد في العلم بالله، والمقلد عندنا في العلم بالله هو الذي قلّد عقله في نظره في معرفته بالله من حيث الفكر، فكما أنه إذا وجد المتيمم الماء أو قدر على استعماله بطل التيمم كذلك إذا جاء الشرع بأمر ما من العلم الإلهيّ بطل تقليد العقل لنظره في العلم بالله في تلك المسألة، ولا سيما إذا لم يوافقه في دليله كان الرجوع بدليل العقل إلى الشرع، فهو ذو شرع وعقل معاً في هذه المسألة فاعلم ذلك.

باب كون التيمم بدلاً من الوضوء باتفاق ومن الكبرى بخلاف

اتفق العلماء بالشريعة أن التيمم بدل من الطهارة الصغرى واختلفوا في الكبرى، ونحن لا نقول فيها أنها بدل من شيء، وإنما نقول إنها طهارة مشروعة مخصوصة بشروط اعتبرها الشرع، فإنه ما ورد شرع من النبي ﷺ ولا من الكتاب العزيز أن التيمم بدل، فلا فرق بين التيمم وبين كل طهارة مشروعة، وإنما قلنا مشروعة لأنها ليست بطهارة لغوية، وسيأتي التفصيل في فصول هذا الباب إن شاء الله تعالىٰ، فمن قائل: إن هذه الطهارة أعني طهارة التراب بدل من الكبرى. ومن قائل: إنها لا تكون بدلاً من الكبرى وإنما نسب لفظة الصغرى والكبرى للطهارة لعموم الطهارة في الاغتسال لجميع البدن وخصوصها ببعض الأعضاء في الوضوء، فالحدث الأصغر هو الموجب للوضوء، والحدث الأكبر هو كل حدث يوجب الاغتسال.

وصل اعتباره في الباطن: أن كل حدث يقدح في الإيمان يجب منه الاغتسال بالماء الذي هو تجديد الإيمان بالعلم إن كان من أهل النظر في الأدلة العقلية، فيؤمن عن دليل عقلي، فهو كواجد الماء القادر على استعماله وإن لم يكن من أهل النظر في الأدلة وكان مقلداً لزمته الطهارة بالإيمان من ذلك الحدث الذي أزال عنه الإيمان بالسيف أو حسن الظنّ، فهو المتيمم بالتراب عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعمال الماء، وهذا على مذهب من يرى أن التيمم بدل أيضاً من الطهارة الكبرى فيرى التيمم للجنب. وأما على مذهب من يرى أن الجنب لا يتيمم كابن مسعود وغيره هو الذي لا يرى التقليد في الإيمان بل لا بدّ من معرفة الله وما يجب له ويجوز ويستحيل بالدليل النظري، وقال به جماعة من المتكلمين.

وأما كونه أعني التيمم بدلاً من الطهارة الصغرى فهو أن يقدح له حدث في مسألة معينة لا في الإيمان لعدم النص من الكتاب أو السنّة أو الإجماع في ذلك، فكما جاز له التيمم في هذه الطهارة الصغرى على البدل جاز له القياس في الحكم في تلك المسألة لعلة جامعة بين هذه المسألة التي لا حكم فيها منطوقاً به، وبين مسألة أخرى منطوق الحكم فيها من كتاب أو سنّة أو إجماع، ومذهبنا في قولنا أن التيمم ليس بدلاً بل هو طهارة مشروعة مخصوصة معينة لحال مخصوص شرعها الذي شرع استعمال الماء لهذه العبادة المخصوصة وهو الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، فما هي بدل وإنما هو عن استخراج الحكم في تلك المسألة من نص ورد في الكتاب أو في السنّة يدخل الحكم في هذه المسألة في مجمل ذلك الكلام وهو الفقه في الدين، قال تعالىٰ: ﴿لِيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٢٢] ولا يحتاج إلى قياس في ذلك.

مثال ذلك: رجل ضرب أباه بعصا أو بما كان فقال أهل القياس: لا نص عندنا في هذه المسألة ولكن لما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] قلنا: فإذا ورد النهي عن التأفيف وهو قليل فالضرب بالعصا أشدّ، فكان تنبيهاً من الشارع بالأدنى على الأعلى، فلا بدّ من القياس عليه، فإن التأفيف والضرب بالعصا يجمعهما الأذى، فقسنا الضرب بالعصا المسكوت عنه على التأفيف المنطوق به وقلنا نحن: ليس لنا التحكم على

الشارع في شيء ممّا يجوز أن يكلف به ولا التحكم ولا سيما في مثل هذا لو لم يرد في نطق الشرع غير هذا لم يلزمنا هذا القياس ولا قلنا به ولا ألحقناه بالتأفيف وإنما حكمنا بما ورد وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٢٣] فأجمل الخطاب فاستخرجنا من هذا المجمل الحكم في كل ما ليس بإحسان، والضرب بالعصا ما هو من الإحسان المأمور به من الشرع في معاملتنا لآبائنا، فما حكمنا إلاّ بالنص وما احتجنا إلى قياس فإن الدين قد كمل ولا تجوز الزيادة فيه كما لم يجز النقص منه، فمن ضرب أباه بالعصا فما أحسن إليه، ومن لم يحسن لأبيه فقد عصى ما أمره الله به أن يعامل به أبويه، ومن ردّ كلام أبويه وفعل ما لا يرضي أبويه ممّا هو مباح له تركه فقد عقهما، وقد ثبت أن عقوق الوالدين من الكبائر فلهذا قلنا: إنّ الطهارة بالتراب وهو التيمم ليس بدلاً بل هي مشروعة كما شرع الماء ولها وصف خاص في العمل، فإنه بين أنا لا نعمل به إلاّ في الوجوه والأيدي، والوضوء والغسل ليسا كذلك، وينبغي للبدل أن يحل محل المبدل منه، وهذا ما حلّ محل المبدل منه في الفعل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

باب فيمن تجوز له هذه الطهارة

اتفق علماء الشريعة على أن التيمم يجوز للمريض والمسافر إذا عدما الماء، وعندنا أو عدم استعمال الماء مع وجوده لمرض قام به يخاف أن يزيد به المرض أو يموت لورود النص في ذلك.

وصل اعتباره في الباطن: المسافر صاحب النظر في الدليل فإنه مسافر بفكره في منازل مقدماته وطريق ترتيبها حتى ينتج له الحكم في المسألة المطلوبة، والمريض هو الذي لا تعطي فطرته النظر في الأدلة لما يعلم من سوء فطرته وقصوره عن بلوغ المقصود من النظر، بل الواجب أن يزجر عن النظر ويؤمر بالإيمان تقليداً، وقد قلنا فيما قبل إن المقلد في الإيمان كالمتيمم بالتراب لأن التراب لا يكون في الطهارة أعني النظافة مثل الماء ولكن نسميه طهوراً شرعاً أعني التراب خاصة، بخلاف الماء فإني أسميه طهوراً شرعاً وعقلاً، فصاحب النظر وإن آمن أوّلاً تقليداً فإنه يريد البحث عن الأدلة والنظر فيما آمن به لا على الشك ليحصل له العلم بالدليل الذي نظر فيه فيخرج من التقليد إلى العلم، أو يعمل على ما قلّد فيه، فينتج له ذلك العمل العلم بالله فيفرق به بين الحق والباطل عن بصيرة صحيحة لا تقليد فيها وهو علم الكشف، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: الآية ٢٩] وهو عين ما قلناه. وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٨٢] وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمٰن: ١ ـ ٤] وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: الآية ٦٥] وقد ورد أن العلماء ورثة الأنبياء فسمّاهم علماء، وأن الأنبياء ما ورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم، والأخذ للعلم بالمجاهدة والأعمال أيضاً سفر، فكما سافر العقل بنظره الفكري في العالم سافر العامل بعمله واجتمعا في النتيجة، وزاد صاحب

العمل أنه على بصيرة فيما علم لا يدخله شبهة، وصاحب النظر ما يخلو عن شبهة تدخل عليه في دليله، فصاحب العمل أولى باسم العالم من صاحب النظر، وسيأتي الكلام فيما يجوز من السفر وفيما لا يجوز في صلاة المسافر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

باب في المريض يجد الماء ويخاف من استعماله

اختلف العلماء بالشريعة في المريض يجد الماء ويخاف من استعماله، فمن قائل: بجواز التيمم له وبه أقول ولا إعادة عليه. ومن قائل: لا يتيمم مع وجود الماء سواء في ذلك المريض والخائف. ومن قائل في حقهما: يتيمم ويعيد الصلاة إذا وجد الماء. ومن قائل: يتيمم وإن وجد الماء قبل خروج الوقت توضأ وأعاد، وإن وجده بعد خروج الوقت لا إعادة عليه.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: المريض هو الذي لا تعطى فطرته النظر وأنه مرض مزمن مع وجود الأدلة إلاَّ أنه يخاف عليه من الهلاك والخروج عن الدين إن نظر فيها لقصوره، وقد رأينا جماعة منهم خرجوا عن الدين بالنظر لما كانت فطرتهم معلولة وهم يزعمون أنهم في ذلك على علم صحيح فهم كما قال الله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٤] فيأخذ مثل هذا إن أراد النجاة العقائد تقليداً كما أخذ الأحكام، وليقلد أهل الحديث دون غيرهم، وهذا تقليد الحديث النبويّ في الله على علم الله فيه من غير تأويل فيه فتنزيه معين ولا تشبيه وعلى هذا أكثر العامة وهم لا يشعرون، فهذا هو المريض الذي يجد الماء ويخاف من استعماله في الاعتبار.

باب الحاضر يعدم الماء ما حكمه

فمن قائل: بجواز التيمم له، وبه أقول. ومن قائل: لا يجوز التيمم للحاضر الصحيح إذا عدم الماء.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: الحاضر هو المقيم على عقده الذي ربط عليه من آبائه ومربيه ثم عقل ورجع إلى نفسه واستقل هل يبقى على عقده ذلك أو ينظر في الدليل حتى يعرف الحق؟ فمن قائل: يكفيه ما ربّاه عليه أبواه أو مربيه ويشتغل بالعمل فإن النظر قد يخرجه إلى الحيرة فلا يؤمن عليه فهو الذي قال بالتيمم عند عدم الماء، وقد قدمنا أن الماء هو العلم للاشتراك في الحياة به، فإن هذا الحاضر الدليل معدوم عنده على الحقيقة فإنه لا يرى مناسبة بين الله وبين خلقه، فلا يكون الخلق دليلاً ساداً على معرفة ذات الحق فبقاؤه عنده على تقليده أولى. ومن قال: لا يجوز له التيمم وإن عدم الماء يقول: لا يقلد وإن لم ينظر في الدليل فإن الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب لزمته واستحال رجوعها عنه ولا يدري كيف حصل ولا كيف هو، فهو علم ضروريّ عنده، فقد خرج عن حكم ما يعطيه التقليد مع كونه ليس بناظر ولا صاحب دليل، وعلى هذا أكثر الناس في عقائدهم، فعدم الماء في حق هذا الحاضر هو عدم الأمان على نفسه أن يوقعه النظر في شبهة تخرجه عن الإيمان.

باب في الذي يجد الماء ويمنعه من الخروج إليه خوف عدوّ

اختلف العلماء فيمن هذه حالته، فمن قائل: يجوز له التيمم وبه أقول. ومن قائل: لا يتيمم.

وصل اعتباره في الباطن: الخوف من البحث عن الدليل لينظر فيه ليؤديه إلى العلم بالمدلول جهل بعين الدليل أنه دليل فلا بدّ من أحد الأمرين: إما أن يقلد أحداً في أن هذا دليل على أمر ما يعينه له، أو يفتقر إلى نظر وفكر فيما ينبغي أن يتخذه دليلاً على معرفة الله، فإن كان الأوّل فليبق على تقليده في معرفة الله وهو الذي يقال له تيمم. ومن قال: لا يجوز له التيمم قال: إن هذا الخوف لا يلزمه أن لا ينظر فلينظر ولا بدّ.

باب الخائف من البرد في استعمال الماء

اختلف العلماء فيمن هذه حاله، فمن قائل: بجواز التيمم إذا غلب على ظنّه أنه يمرض إن استعمل الماء. ومن قائل: لا يجوز له التيمم، وبالأوّل أقول.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: الصوفيّ ابن وقته فإن كان وقته الصحة فهو غير مريض أو غير شديد المرض فلا يتيمم فإن الوهم لا ينبغي أن يقضي على العلم، والخوف هنا قد يكون وهماً فلا يبقى مع تقليده ولينظر في الأدلة ولا بدّ. ومن قال: لا يجوز له التيمم وإن كان وقته الخوف فليس بصحيح فإن الخوف علة ومرض فليبق على تقليده ولا بدّ.

باب النية في طهارة التيمم

اختلف العلماء في النية في طهارة التيمم، فمن قائل: إنها تحتاج إلى نية. ومن قائل: لا تحتاج إلى نية، بالأوّل أقول، فإن الله قال لنا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: الآية ٥] والتيمم عبادة والإخلاص عين النيةُ.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: إذا كان العقد عن علم ضروري أو عن حسن ظن بعالم أو بوالد فلا يحتاج إلى نية، فإن شرط النية أن توجد منه عند الشروع في الفعل مقارنة للشروع، ومن كانت عقيدته بهذه المثابة فما هو صاحب فعل حتى يفتقر إلى نية، فإن إرادة الحق تعالىٰ الذي هو الخالق لذلك الفعل كافية في الباب، فإنه لا يوجد شيئاً إلاّ عن تعلّق إرادة منه سبحانه لإيجاده ولا يكوّنه إلاّ بها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن﴾ [سورة النحل: الآية ٤٠] وهذا فعل يوجده في العبد، فلا بدّ من حكم ما ذكر فيه، فكان مذهب زفر في هذه المسألة أوجه في باطن الأمر من مذهب الجماعة إلاّ أن يكون كافر أسلم فهذا يفتقر إلى نية لأنه ما استصحبه شيء من القربة إلى الله بهذا الشرع الخاص المسمّى إسلاماً ولا كان عنده قبل إسلامه، بل كان يرى أن ذلك كفر والدخول فيه يبعد عن الله.

باب من لم يجد الماء هل يشترط فيه الطلب أم لا يشترط

اختلف العلماء فيمن هذه صفته، فمن قائل: يشترط الطلب ولا بد. ومن قائل: لا يشترط الطلب وبه أقول.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: لا يلزم المقلد البحث عن دليل من قلّد في الفروع ولا في الأصل، وإنما الذي يتعين على المقلد إذا لم يعلم السؤال عن الحكم في الواقعة لمن يعلم أنه يعلم من أهل الذكر فيفتيه قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٤٣] ومن رأى أنه يشترط طلب الماء فهو الذي يطلب من المسؤول دليله على ما أفتاه به في مسألته هل هو من الكتاب أو السنّة؟ أو يطلب منه أن يقول له: هذا حكم الله أو حكم رسوله أخذ به، وإن قال له: هذا رأيي كما يقول أصحاب الرأي في كتبهم فإنه يحرم عليه اتباعه فيه فإن الله ما تعبده إلاّ بما شرع له في كتاب أو سنّة، وما تعبد الله أحداً برأي أحد.

باب اشتراط دخول الوقت في هذه الطهارة

اختلف أهل العلم رضي الله عنهم في اشتراط دخول الوقت في هذه الطهارة، فمن قائل به، وبه أقول. ومن قائل: بعدم هذا الشرط فيها.

وصل اعتباره في الباطن: الوقت هو عندنا إذا تعين تعلق خطاب الشرع بالمكلف فيما كلفه به ظاهراً وباطناً، فهو في الباطن تجلّ إلهيّ يرد على القلب فجأة يسمّى الهجوم في الطريق.

باب في حدّ الأيدي التي ذكر الله عزّ وجلّ في هذه الطهارة

فإن الله يقول: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [سورة المائدة: الآية ٦] فاختلف أهل العلم رضوان الله عليهم في حد الأيدي في هذه الطهارة، فمن قائل: حدّها مثل حدّها في الوضوء. ومن قائل: هو مسح الكف فقط. ومن قائل: أن الاستحباب إلى المرفقين والفرض الكفان. ومن قائل: أن الفرض إلى المناكب، والذي أقول به: أن أقلّ ما يسمّى يداً في لغة العرب يجب فما زاد على أقل مسمّى اليد إلى غايته فذلك له وهو مستحب عندي.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: لما كان التراب والأرض أصل نشأة الإنسان وهو تحقيق عبوديته وذلّته ثم عرض له عارض الدعوى بكون الرسول قال فيه ﷺ: «**إِنَّهُ مَخْلُوقٌ عَلَى الصُّورَةِ**» وذلك عندنا لاستعداده الذي خلقه الله عليه من قبوله للتخلّق بالأسماء الإلهية على ما تعطيه حقيقته، فإن في مفهوم الصورة والضمير خلافاً، فما هو نص في الباب فاعتزّ لهذه النسبة وعلا وتكبّر، فأمر بطهارة نفسه من هذا التكبّر بالأرض وبالتراب وهو حقيقة عبوديته، فتطهر بنظره في أصل خلقه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ [سورة الطارق: الآية ٥] كما قال تعالىٰ فيمن هذه صفته في معرض الدواء لهذا الخاطر الذي أورثه التكبّر ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [سورة الطارق: الآية ٥] وهم البنون ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [سورة الطارق: الآية ٦] وهو الماء المهين فإنه من جملة ما ادّعاه الاقتدار والعطاء وهو مجبول على العجز والبخل، وهذه الصفات من صفات الأيدي فقيل له عند هذه الدعوى ورؤية نفسه في الاقتدار الظاهر منه والجود والكرم والعطاء: طهر نفسك من هذه الصفات ينظرك ما جبلت عليه من الضعف والبخل يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة

الحشر: الآية ٩] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج: الآية ٢١] وإذا نظر في هذا الأصل زكّت نفسه وتطهر من الدعوى.

باب في عدد الضربات على الصعيد للمتيمم

اختلف العلماء رضي الله عنهم في عدد الضربات على الصعيد للمتيمم، فمن قائل: واحدة. ومن قائل: اثنتين، والذين قالوا اثنتين منهم من قال: ضربة للوجه وضربة لليدين، ومنهم من قال: ضربتان لليدين وضربتان للوجه، ومذهبنا من ضرب واحدة أجزأت عنه، ومن ضرب اثنتين لا جناح عليه، وحديث الضربة الواحدة أثبت فهو أحب إليّ.

وصل اعتبار الباطن في ذلك: التوجّه إلى ما تكون به هذه الطهارة، فمن غلب التوحيد في الأفعال قال: بالضربة الواحدة، ومن غلب حكمة السبب الذي وضعه الله ونسب سبحانه الفعل إليه مع تعريته عنه مثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦] فأثبت ونفى قال: بالضربتين، ومن رأى ذلك في كل فعل قال: بالضربتين لكل عضو، والله أعلم.

باب في إيصال التراب إلى أعضاء المتيمم

اختلف العلماء رضي الله عنهم في ذلك، فمن قائل: بوجوبه. ومن قائل: بأنه لا يجب، وإنما يجب إيصال اليد إلى عضو المتيمم بعد ضربه الأرض بيده أو التراب والظاهر الإيصال لقوله منه.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: إذا قلنا بتطهير النفس بالذلّة التي هي أصلها من العزّة التي ادّعتها حين اكتسبتها لم يجب الإيصال، فإن الذلّة لو نقلناها إلى محل العزّة لامتنع حصول الذلّة في ذلك المحل، لأن الذي في المحل أقوى في الدفع من الذي جاء يذهبه، ولو شاركه في المحل لاجتمع الضدّان، ولم يكن أحدهما أولى بالإزالة من الآخر، وإنما الصحيح في ذلك أن النفس مصروفة الوجه إلى حضرة العزّ، فاكتست من نور العزّة ما أدّاها إلى ما ادّعته فقيل لها: اصرف وجهك إلى ذلّتك وضعفك الذي خلقت منه فإن بقيت عليك أنوار هذه العزّة فأنت أنت، فقام عندها أنه ربما يبقى عليها ذلك، فلما صرفت وجهها إلى ذلّتها وضعفها زالت عنها أنوار العزّة بالذات فافتقرت إلى بارئها وذلّت تحت سلطانه فلهذا قال من قال: إنه لا يجب إيصال التراب إلى عضو التيمم. ومن قال: إن كلمة من هنا للتبعيض وإنه لا بدّ من إيصال التراب إلى العضو قال: إن الصفة لا تقوم بنفسها فلا بدّ لها ممّن تقوم به وليس إلاّ حقيقة الإنسان، فلا بدّ أن تكون صفته الذلّة وحينئذ تصحّ طهارته، وهو قول من يقول: بوجوب إيصال التراب إلى عضو التيمم.

باب فيما يصنع به هذه الطهارة

اختلف العلماء فيما عدا التراب، فمن قائل: لا يجوز التيمم إلاّ بالتراب الخالص. ومن قائل: يجوز بكل ما صعد على وجه الأرض من رمل وحصى وتراب. ومن قائل بمثل هذا وزاد: وما تولد من الأرض من نورة وزرنيخ وجص وطين ورخام. ومن قائل: باشتراط كون

التراب على وجه الأرض. ومن قائل: بغبار الثوب واللبن. وأمّا مذهبنا فإنه يجوز التيمم بكل ما يكون في الأرض ممّا ينطلق عليه اسم الأرض، فإذا فارق الأرض لم يجز من ذلك إلاّ لتراب خاصة.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: قد تقدم أنه قد زال عنه بالانتقال اسم الأرض وسمّي زرنيخاً أو حجراً أو رملاً أو تراباً، ولما ورد النص باسم التراب في التيمم فوجدنا هذا الاسم يستصحبه مع الأرض ومع مفارقة الأرض ولم نجد غيره، كذلك أوجبنا التيمم بالتراب سواء فارق الأرض أو لم يفارق، والأحكام الشرعية تابعة للأسماء والأحوال، وينتقل الحكم بانتقال الاسم أو الحال.

باب في ناقض هذه الطهارة

اتفق العلماء رضي الله عنهم أنه ينقضها كل ما ينقض الوضوء والطهر، واختلفوا في أمرين: الأمر الواحد إذا أراد المتيمم صلاة مفروضة بالتيمم الذي صلّى به غيرها، فمن قائل: إن إرادة الصلاة الثانية تنقضها. ومن قائل: لا تنقضها وبه أقول والأولى عندي أن يتيمم ولا بدّ، لأن مذهبنا أن التيمم ليس بدلاً من الوضوء وإنما هو طهارة أخرى عيّنها الشارع بشرط خاص لا على وجه البدل، وقد قلنا: إن الحكم يتبع الحال وينتقل الحكم بانتقال الأحوال والأسماء.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: كما لا يتكرر التجلّي كذلك لا تتكرر هذه الطهارة بل لكل تجلّ طهارة، فلكل صلاة تيمم، ومن نظر إلى التجلّي نفسه من حيث ما هو تجلّ لا من حيث ما هو تجلّ في كذا قال: يصلي بالتيمم الواحد ما شاء كالمتوضىء لا فرق وهو قولنا [الكامل]:

حتى بدَتْ للعين سُبْحَةُ وجهِهِ وإلى هَلُمَّ فلم تكن إلاّ هِيْ

باب في وجود الماء لمن حاله التيمم

فمن قائل: إن وجود الماء ينقضها. ومن قائل: إن الناقض لها هو الحدث.

وصل اعتبار ذلك في الباطن: قلنا: المقلد يقوم له دليل في مسألة خاصة من الإلهيات يناقض ما أعطاه تقليده للشرع، فلا يخرجه ذلك الدليل عن تقليده وإنما يخرجه عن تقليده دليل العقل الذي ثبت به الشرع عنده لا هذا الدليل الخاص، فإذا ظهر له نفس الحدث فيما كان يعتقده في تقليده في تلك المسألة يعلم لذلك أن الشارع لم يكن مقصوده هذا الظاهر في هذه المسألة، وقد نبّهه على ذلك وجود هذا الدليل الطارىء الذي هو بمنزلة وجود الماء، فهكذا هي المسألة إذا حققتها.

باب في أن جميع ما يفعل بالوضوء يستباح بهذه الطهارة

اختلف العلماء رضي الله عنهم هل يستباح بها أكثر من صلاة واحدة فقط؟ فمن قائل: يستباح وهو مذهبنا والأولى عندنا أنه لا يستباح. ومن قائل: لا يستباح على خلاف يتفرّع في ذلك.

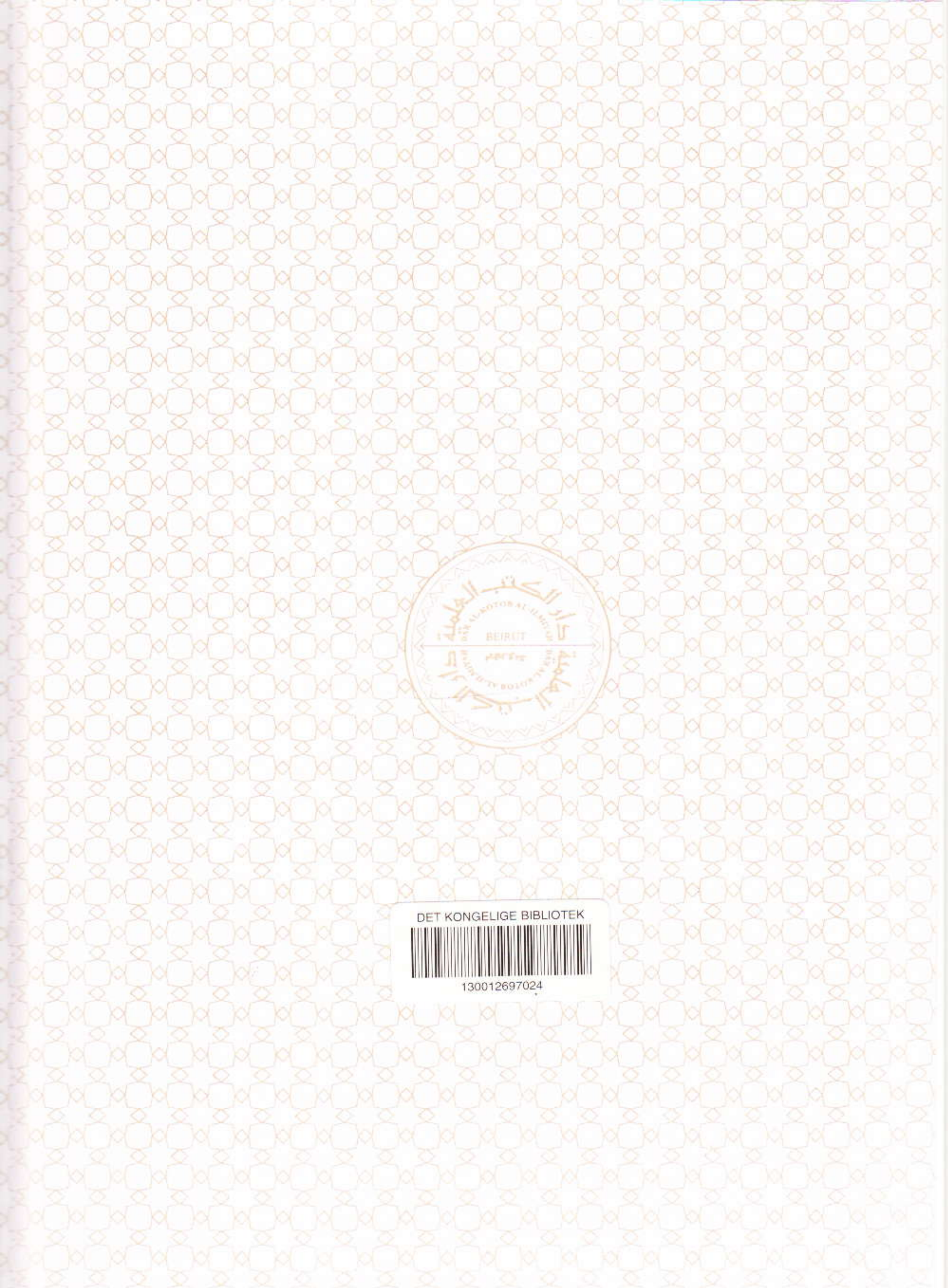
وصل اعتبار ذلك في الباطن: قد تقدم في تكرار التجلّي. وقد انتهى الكلام في أمّهات مسائل التيمم على الإيجاز والاختصار وما ذهبت العلماء في ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الأول من الفتوحات المكية، ويليه الجزء الثاني
أوله: أبواب الطهارة من النجس

فهرس محتويات
الجزء الأول
من
الفتوحات المكية



فهرس المحتويات


BEIRUT